

مهرجان القراءة للجميع

المصريات

مكتبة  
الأسيرة  
2000

# النيل حياة نهر

إميل لودفيغ

ترجمة: عادل زعيتر



الهيئة المصرية العامة للكتاب









النيل - حياة نهر



# النيل - حياة نهر

إميل لودفيج  
ت : عادل زعيتر



## مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(المصريات)

النيل

حياة نهر

إميل ثودفيج ت : عادل زعيتر

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان : محمود الهندي

المشرف العام :

د . سمير سرحان

## على سبيل التقديم

---

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام،  
وها هي تصدر بصفة مستمرة طول العام برعاية كريمة من  
السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر  
والوجدان... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار  
روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع  
سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة  
بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا  
صباح كل يوم.. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة  
سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل  
والأروع والأعظم.

**د. سمير سرحان**

---



إلى الناقد د. فهد الأبراهيم  
( المؤلف )





## مقدمة المترجم

نقلتُ للكاتب الألماني الكبير إميل لودفيغ غير كتابي في تراجم الرجال ، وللناطقة العربي هذا كتابُ « النيل » وكتابُ « البحر المتوسط » ترجمَ فيهما للنهر وللبحر كما ترجم للعظماء ، فأكسبهما من الحياة ما يُجَيِّل إلى القارى معه أن الجداد من بنى الإنسان ، و« النيل » هو الذى أعرضه الآن على القراء .

بدا النيلُ للودفيغ إنساناً قصصاً نبأ مغامراته ومخاطراته ، وأبصر النيلَ فى شبابه مُردِّداً لمؤثرات البيئة التى أوجدته ، فلما صار كنهلاً أخذ يكافح تطاولَ العالم الخارجى بسجَّيته ، ولما دخل دور الشَّيْب ظهر أثرُ الإنسان فيه .

وقضى لودفيغ ستَّ سنين فى جمع موادِّ هذا السَّفر الجليل ، الذى هو يدعُ فى بابه ، ووضعه ، ولا يُعدُّ هذا السَّفر ، إذن ، من الكتب التى ينشرها كُتَّابُ يُنفِقون أسابيعَ فى مصر فتشتمل على خطأ غير قليل .

وينطوى الكتاب على أدب وتاريخ واجتماع وجغرافية ، مع غموضٍ والتباسٍ فى الفكر والتعبير ، شأنُ لودفيغ فى جميع كتبه ، فبذلنا جهداً كبيراً فى تذليل ذلك لشوكة اللغة العربية مع حُرْفِيَّة النقل ، وجعلنا أسلوب الترجمة مساوياً للأسلوب الأصلى جهدَ المستطيع .

والكتابُ ، مع ذلك ، ليس للتسلية ، ولا للترويح والتخيلة ، فلم يُكتب باللغة اللامارحة ولا على نمط الروايات السياره ، وهو يتطلب ، لفهمه والإحاطة بمآنيه ومناحيه ، صبراً ودقَّة وإتمامَ نظر .

## النيل

ومن يطلع على كتب لودفيغ ومن إليه من أساطين الأدب في الغرب يرّعه ما بين الأدبيين ، العربي والغربي ، من بونٍ واسع في الوقت الحاضر ، مع ما كان من غنى لغة الأدب العربي في الزمن الغابر ، ولا بُدَّ ، لذلك ، من تطعيم لغتنا الزاهنة مقداراً ففقداراً بما تحتويه معاجنا من كلماتٍ غير نائية ، فلعلها تصير مألوفاً ، وهذا ما ميرت عليه بعض السّير في كثيرٍ من الأسفار التي ترجمتها ، ولكن مع تفسير هذه الكلمات في هامش الصفحات تسهيلاً للطلّامة .

وفي الكتاب كلماتٌ قليلةٌ عربناها لما رأينا من عدم وجود ما يقابلها في كتب لغتنا ، كما أننا اجتنبنا تكرار النسبة في الكلمات المُعرّبة خلافاً لما اعتمدته كتابنا فنهنا إلى ذلك كله في مواضعه .

نقلتُ كتاب «النيل» إلى العربية معتمداً على ترجمته إلى الفرنسية والإنكليزية ، راجياً أن أكون قد قدّمتُ إلى إخواني أبناء النيل هذه الهدية الصغيرة لأعرب لهم عن مودتي بها ، ووادي النيل هو البلد الكريم الذي أحببته كثيراً .

عادل زعيتر

( نابلس )

## مَقْدَمَةُ الْمُؤَلَّفِ

كُتِبَتْ وَتُرْجِمَتْ ، وكَلَّمَا كُتِبَتْ سِيرَةُ رَجُلٍ وَتُرْجِمَتْ عَنْهُ <sup>(١)</sup> تَمَثَّلَ لِي بِمَجْرَى نَهْرٍ وَمَصِيرُهُ ، وَلَمْ يَبْدُ لِي وَجُودُ نَصِيبِ بَشَرِي لَهَرٍ وَصُورَةُ إِنْسَانٍ لَهُ غَيْرَ مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ ، فَلَمَّا أَبْصَرْتُ سِدَّ أُسْوَانَ الْعَظِيمِ لِلرَّابِعَةِ الْأُولَى فِي نَهَايَةِ سَنَةِ ١٩٢٤ كَانَ الْمَعْنَى الرَّمْزِيَّ الَّذِي فَرَضَهُ عَلَيَّ مِنَ السُّلْطَانِ الْكَبِيرِ مَا ظَنَنْتُنِي مَعَهُ هُنَاكَ ، فِي ذَلِكَ الْحُلِّ الْفَاصِلِ مِنَ الْجُرَى ، مَدْرَكًا لِحَيَاةِ النَّيْلِ مِنْ مُنْبَعِهِ إِلَى مَصْبِيهِ ، وَتَرَى لِلطَّبِيعَةِ فِي ذَلِكَ لِلْمَكَانِ قُوَّةً أَوَّلِيَّةً سَيَطِرُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهَا بِذِكَاثِهِ سَحُولَ الصَّحْرَاءِ إِلَى أَرْضِ خَصِيبَةٍ مُحَقَّقًا مَا حَاوَلَهُ الدُّهُرِيُّ <sup>(٢)</sup> فَائِزًا <sup>(٣)</sup> وَعَدَهُ أَرْفَعَ عَمَلٍ لِلرَّجُلِ ، وَمَا لَاحَ لِمَعْنَى فِي أُسْوَانَ مِنْ ذِكْرِي خَاتَمَةَ فَائِزَتِ هَذِهِ أَوْحَى إِلَيَّ بِرَغْبَةٍ فِي كِتَابَةِ قِصَّةِ النَّيْلِ كَمَا أَكْتُبُ قِصَّةَ الْعِظَاءِ .

وَلَكِنِّي قَبْلَ أَنْ أَقْصُرَ نَبَأَ مَغَامِرَاتِهِ وَأَبْدِيَ حَقِيقَ مَخَاطِرَاتِهِ أَرَى سَبْرَ غُورِهِ تَوَكِيدًا لِبَصْرِي أَوْ تَقْوِيمًا لِنَظْرِي ، وَقَدْ عَرَفْتُ أَجْزَاءَ إِفْرِيقِيَةِ الْأُخْرَى مِنْ دُزْنِ ، وَإِفْرِيقِيَةِ مِمَّا أَحْبَبْتُ ، وَإِفْرِيقِيَةِ مِمَّا جَلَّبَ السَّعَادَةَ إِلَيَّ ، وَفِي الْمِنْطَقَةِ الْأَسْتَوَائِيَّةِ وَفِي مَنَاجِزِ النَّيْلِ كُنْتُ قَبْلَ الْحَرْبِ الْعَظِيمِ ، وَعَلَى أَنْ أُدْرِسَ النَّيْلَ عَنْ كَثِيرٍ لِيُظْهِرَ لِي أَنَّهُ أَبْهَرُ الْأَنْهَارِ طَرًّا .

وَالنَّيْلُ أَكْثَرُ الْأَنْهَارِ طَوْلًا ، وَلَيْسَ النَّيْلُ أَغْزَرَ الْأَنْهَارِ مَاءً ، وَفِي هَذَا سَرِّ حَيَاتِهِ وَحَيَاةِ مَا يُبَكِّلُهُ مِنْ بَقَاعٍ ، وَالنَّيْلُ يُجِيبُ سَحَابِيَّ وَقَلَوَاتِي ، وَلَا يَنَالُ النَّيْلُ

(١) تَرْجَمَ عَنْهُ : أَوْضَحَ أَمْرَهُ — (٢) الدُّهُرِيُّ : بِالضَّمِّ ، هُوَ الْقِيَّ أَيْ عَلَيْهِ الدَّهْرُ وَمِثَالُ عَمْرِهِ ، وَهِيَ نِسْبَةٌ إِلَى الدَّهْرِ ، شَاذَةً — (٣) فَائِزًا : بِطَلٍّ رَوَايَةُ لِنُفُوتِهِ عَرَفَتْ بِهَذَا الْاسْمِ .

## النيل

روافد ولا غثيثاً في شَطْر<sup>(١)</sup> من مجراه ، ولا يَنْقُصُ النيل بذلك ، ويوجدُ أخصبَ الأرضين في نهاية أمره مع ذلك ، وعلى ما يُبَدِّده النيل من أدقِّ قُوَّاه في فَنَائِه على ذلك الوجه تُبَصِّرُه هَبُولاً في مَصَبِّه ، وعلى ما يَدُلُّ عليه طوله من سدس محيط الأرض تراه أبسط الأنهار شكلاً ، فهو يجري من الجنُوب إلى الشمال تَوّاً مُحدِّثاً عَطْفَةً واحدة فقط ، وهو لم ينحرف غيرَ أربعمئة كيلومتر من طوله البالغ ستة آلاف كيلومتر ، ويقع مَصَبُّه ومنبعه على درجة واحدة من الطول تقريباً .

ويشتمل حوض النيل على أعظم بحيرة في نصف الكرة الأرضية الشرقى وعلى أعلى جبال قَارَتِه وأكبر مدنها ، ويَعُمُر ضفافَ النيل أكثرُ طيور النصف الشمالى من الكرة الأرضية وجميع ما فى الفِرْدَوْس من حيوانٍ ونبات يَتَرَجَّح بين نواى الألب وغياض البلاد الحارة وغراس البطائح والفُدران ، وزرع السُّهوب والقيافي وأغنى ما فى الدنيا من الأطنان ، ويُطِعمُ وادى النيل مئاتِ العروق وَيَقُوتُ أناسٌ من الجبال والمناقع ومن العرب والنصارى ومن أَكَلَةَ لحوم البشر ومن ذوى الطول والقصر ، وما بين الناس من اضطراع فى سبيل الثراء والسلطان وفى سبيل العادات والإيمان وفى سبيل هيمنة اللون يُمكن تَتَبُّعُه هنا لمدة ستة آلاف سنة خَلَتْ ، أى لمدة أطول مما فى أى مكان لتاريخ البشر .

ولكن أعجَبَ ما وجدتُ فى تلك الظاهرات التى تتجلى فيها قدرة الطبيعة وعمل مخلوقاتها وجهودُ الناس والزراعة والنبات والحيوان والأُمم وتاريخها هو أنها ما كانت لتُوجد لولا النهر ، أو كانت تُوجد على خلاف ما هى عليه بغير النهر .

بَدَأَ النيلُ لى كائناً حياً يَقُوده قَدَرٌ مرهوب نحو استعباد محتوم بعد ظهور نضير ،

(١) شطر القىء : نصفه .

## النيل

ولاح النيلُ لى كفظاء الرجال فأردتُ أن أستنبط من طبيعته تسلسل حوادث حياته القدرَ فأنبتُ كيف أن الوليد، وهو يتنقّل من الغابة اليكبر، ينمو مصارعاً ثم تنقثر هيئته ويكاد يتنفذ ثم يخرج ظافراً، وكيف أن أخاه القصب المقيم يهرع إليه ليترلقاً معاً من خلال الصحراء ويصاولا الصخر، والنيلُ في تمام رجولته يقاتل الإنسان فيقهره ويروّض ويوجب سعادة الآدميين، ولكن النيلَ قبلَ ختام جريته يسبب من المأسى أكثر مما في شبابه الوحيش.

ويكون تأثير البيئات في النيل شديداً في البُداءة شدةً تأثر الصبا والفتاء بالطبيعة والمحيط، فإذا مضى حينٌ عمِلت مكالفته الإنسانَ عملها فيه وساقته، ويجاوز النيلُ دورَ البساطة الأولى في الكون إلى دورِ الثور المقتد في التمدن الحديث فيبصر مبدأ قاهره الأكبر في خطر، ويتعميه طمعُ الناس في المال فيقذِف نفسه في البحر ليُجَدِّد يمشي خالد.

وفي القالب نجدُ وثائقَ حياة كلِّ نهر في المؤلفات العلمية أو في كتب السياحة حيث يسافر الكاتب مع القارى، ويتضمن الوجهُ الوصفُ الجديد الذي هدفتُ إليه طرازاً آخر في جمع الوقائع، قد أمسكتُ النهرَ في مراكز مجراه الحيوية الخمسة كما صنعتُ في تراجمي السابقة: أمسكتُ به في بحيرة ألبرت (حرّتين) وفي بحيرة نو وفي الخرطوم وفي أسوان وفي القاهرة، وقد نوّيت وصفَ حياة، لا كتابةً دليل، فلا أسيحُ مع القارى على التهر، ولا أقصُ مغامراتي بل أقصُ مغامرات النيل، والنيلُ سائحاً هو الذي يفتن مصيره أفندتنا أجمعين.

ومن البعث أن يُبحث في هذا السُفر عن جغرافية كاملة لبقاع النيل الأربع

## النيل.

أو عن تاريخ جامع لها ، أو عن مَعْلَمَةٍ<sup>(١)</sup> للشعوب والحيوان والنبات ، وتُبَصِّرُ في هذا السُّفَرُ نَبْذًا تُقَصِّرُ بلا انقطاع اجتناباً لِمَوَاقِ التَّهَرُّعِ جَرِيهٍ ، وتُبَصِّرُ في هذا السُّفَرِ إِعْرَاضًا عن حَيَاةِ كَاشِفٍ مُنْبِعِ النِّيلِ الرَّوَّاثِيَةِ مَعَ اِخْتِمَالِ بَيَانِهَا ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى اِفْرَادٍ .

وقد اِفْتُطِعَ وَصَفَ مَجْرَى النِّيلِ مِنْ مُنْبِعِهِ إِلَى مَصَبِّهِ بِفُصُولٍ تَارِيخِيَّةٍ تَشْغُلُ رُبْعَ النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَنِصْفَ الشَّطْرِ الثَّانِي مِنْهُ ، وَسَبَبُ هَذَا التَّضَاوُتِ فِي التَّوْزِيْعِ هُوَ عَدَمُ وُجُودِ تَارِيخٍ لِلنِّيلِ الْأَعْلَى قَرِيبًا وَوَفَرُهُ مَعَارِفُنَا عَنِ النِّيلِ الْأَدْنَى . وَكَأَنَّ رَأْيْتُ فَيُولَا وَأَسُودَا عَلَى ضِفَافِ النِّيلِ الْأَعْلَى ، وَجَمَالًا وَحِيدًا عَلَى ضِفَافِ النِّيلِ الْأَدْنَى ، تَرَدُّ لِلشَّرْبِ مَسَاءً أَبْصَرْتُ مَوَكِبًا مُتَصِلًا لِأَشْبَاحِ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ عَاشُوا وَسَيَعُورُوا وَأَلَمُوا هُنَاكَ ، وَأَبْصَرْتُ تَنَازُعَ الْأَدْيَانِ وَالْفِرَقِ فِي سَحَارَى السُّودَانِ وَسُوبِهِ ، وَفِي مَصْرٍ الَّتِي هِيَ مَصْدَرُ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْغَرْبِ .

وَفِي هَذَا الْكِتَابِ ، كَمَا فِي سِيَرَتِي الْأُخْرَى ، لَمْ أَلَّ جُهْدًا فِي كَثْمِ الْمَصَادِرِ الَّتِي رَجَعْتُ إِلَيْهَا تَحْقِيقًا لِانْطِبَاعَاتِي وَإِيمَانًا فِيهَا ، وَذَلِكَ لَعَدَدِي بِإِظْهَارِ الَّذِي أَرَى فِي رَمَزٍ وَإِظْهَارِ الرَّمْزِ فِي حَادِثٍ مَنْظُورٍ أَهَمَّ مِنْ جَمْعِ التَّوَارِيخِ وَالْأَسْمَاءِ الَّتِي يُسَكِّنُ كُلٌّ وَاحِدٍ أَنْ يَجِدَّهَا فِي الْمُرَاجِعِ الْخَاصَّةِ ، وَفِي هَذَا السُّفَرِ ، كَمَا فِي سِوَاهُ ، لَمْ أَذْخِرْ وَمُنَا فِي تَلْوِينٍ مَا يُعَبِّرُ الْمُتَخَصِّصُ عَنْهُ بِالْأَرْقَامِ وَالْجُدَاوِلِ ، وَفِي هَذَا السُّفَرِ لَمْ أَرْغَبْ فِي وَصْفِ مَا يُحَدِّثُ عَنْهُ فِي الْغَالِبِ ، بَلْ بَحِثْتُ عَلَى وَصْفِ مَا يَقِفُ الْأَبْصَارَ ثُمَّ عَلَى تَسْمِيَتِهِ ، وَفِي الدَّرَجَةِ الْقُصْوَى مِنَ الْفَصْلِ الثَّلَاثِ قَطْعٌ ، أَيْ فِي طَوْرِ الْأَسْدَادِ الْجَازِمِ

(١) المَعْلَمَةُ : مِنْ مَعْلَمٍ الشَّيْءُ ، وَهُوَ مَوْضِعُهُ الَّتِي يَظُنُّ فِيهِ وَجُودَهُ كَقِلْعَةٍ ، وَيُحَالِلُهَا  
كَلِمَةُ Encyclopédie

من تلك الحياة ، اضطُرت إلى ذكر أرقام قليلة ذكراً مضبوطاً معتدراً إلى القارىء ، وهذا إلى أننى حَوَّلَ كسور الأرقام إلى أصفارٍ عند الضرورة ، لِمَا فى ال « ٩٦٤ » كيلومترين بحيرة نُوْ وأُلُوطوم « مثلاً من وَقَفٍ للنظر أقلّ من ال « ١٠٠٠ » كيلومتر بينهما ، وكذلك لم تُسَوِّ كتابة الأسماء الإفريقية فى اللغات الأوربية تماماً . ولم تُوضَع الطبيعة والتاريخ فى النصف الثانى من هذا الكتاب على المستوى الذى اتفق لهما فى النصف الأول منه ، ولا غَرْوَ ، فالنهر فى فَتَانِه ، كالإنسان فى شبابه ، يُرَدِّدُ مؤثرات البيئة التى أوجدته ، على حين ترمى النهر فى كهولته يكافح تطاول العالم الخارجى بِسَجِيَّتِهِ ، وللإقليم والبلد تأثيرٌ عظيم فى رِيعَانِ الشَّباب ، ثم يبدو تأثيرُ الإنسان ، وتقضى الضرورة بتحويل الخِطَّة أكثر من قَبْل عند تناول نهر يَجُوبُ فى شبابه من البِقَاع ما لا تَرى له تاريخاً وَيَجْرِى فى مِشْيِهِ من أقدم بلاد الدنيا تَمَدُّناً ، وتُبصر لمصر ستة آلاف سنة تاريخاً ولا تكاد تجد لأوغدة والسودان من التاريخ قرناً ، وهكذا تُخصَّص ثلاثة أرباع النصف الأول من الكتاب للطبيعة وتُخصَّص ربعاً منه للتاريخ مع أن نصيب الطبيعة هو نصف الشطر الثانى منه ، وذلك لِمَا بين أسوان والدلتا من اختلافٍ قليل فى المنظر والنبات والحَيوان .

ومع ذلك تَمَلَّجُ الأقسام التاريخية من نصف الكتاب انخاضاً بِمِصْرَ فى كلماتٍ جوامعٍ ما لم تمارِض موضوع الجميع ، والأوصاف تحتلُ مكانَ الأفكار كما فى تراجمى السابقة ، والأحوال الاجتماعية فى هذه الأوصاف تَفُضُّ الحروبَ صَدَارَةً ، ومشاعرُ الناس فيها تَفُوقُ شأنَهم أهميةً ، وهكذا يُعْطَفُ فى النصف السودانى عند الوصف على مشاعر الزَّنجى أو القليل أكثر مما على الإنسان الأبيض ، وهكذا يحاول إبراز التاريخ فى مصر من حيث مقامُ الفلاح الذى عاش أوثقَ عِشْرَةٍ للنيل

### النيل

في كل زمن من عشرة قوى الحكم ، لا كما نظر إليه الملوك والقراعة والساطين ، وذلك لأن مصر هي بلد الدنيا الوحيد الذي يَقْضِي كل ما كُنَّ حياته فيه تبعاً للنهر في أي وقت كان ، وذلك لأن الأسر المالكبة تأتي وتستغل النهر وتزول ، ولكن النهر ، ولكن أبا البلد هذا ، هو الذي يظل باقياً ، وكان للنيل ، كان لِمَوْلَد الماء والحب هذا ، من الشأن منذ ستين قرناً ماله في دور الأسداد والطقن الحاضر ، ولم نأل جهداً في وصف الأديان والمعابد والمساجد مُظهرين تأثيرها في الفلاحين ، ومن الفلاحين يتألف شعب النيل الأدنى .

وما يلاحظ على الخصوص سكوتى عن مواكب الصيد الأكبر التي لم أشارك فيها وامتناعى عن كل حوارٍ إثنوغرافى ، ويربط العلماء الذين بحثوا عن الشعوب التي استقرت بواى النيل بعروق متباينة متناوبة ، وأجد في هذا ما يزيدنى حذراً من جميع النظريات المرقية ، وأرى أن ما يحوم حول الحاميين والساميين من جدلٍ على كاشف في كل خمس سنين لـ «مراكز جديدة للحضارة» أقلّ وثقاً لنظري من منظر بدوى على ضفة العظيمة أعجب من خلال أعطافه الرائعة بتوالد خمسة عروق أو ستة عروق ، وذلك إلى أن مما يُستحب إهماله دراسة مثل هذا التوالد في كتابٍ يقوم موضوعه على أمرٍ نهرٍ ولو كُنَّا نَبْلُغ تلك الدراسة طائفة من الحقائق .

ومن ناحية أخرى أرى الشعوب المختلفة ألواناً ذات أهمية في زمن نُقِذ فيه لتمثيل دور جديد في حياة النوع البشرى ، والنيل قد أثر في جميع هذه الأمور ، وجميع هذه الأمور قد أثرت في النيل ، ويقوم على الوحيد على إظهار الرمز الأكبر الذي يُستخلص مما يحف بالنيل من قدر .



## النيل

وقد قُتِبَتْ بِرِخْلَاتٍ ثَلَاثٍ مُتَوَالِيَةٍ بَيْنَ سَنَةِ ١٩٣٠ وَسَنَةِ ١٩٣٤ فَاتَّيَحَ لِي بِهَا أَنْ أَدْرُسَ جَمِيعَ النَّيْلِ الْأَبْيَضِ بِأَوْعِنْدَةِ السُّودَانِ وَأَنْ أَدْرُسَ النَّيْلَ الْأَزْرَقَ فِي سَقَرٍ بِالْقِسْمِ الْغَرْبِيِّ مِنَ الْحَبَشَةِ حَيْثُ بَلَّغْتُ مَنَابِهِ وَأَنْ أَدْرُسَ فِي السُّودَانِ مَجْرَاهُ الْأَدْنَى ، وَقَدْ اكْتَفَيْتُ مُضْطَرًا بِرَسْمِ مَجْرَاهُ الْأَوْسَطِ بَيْنَ بَحِيرَةِ طَانَةِ وَحُدُودِ السُّودَانِ وَفَقَّ مَا رَوَاهُ مِنَ الْأَنْبَاءِ ثَلَاثَةً سِيَاحٍ أَوْ أَرْبَعَةً سِيَاحٍ رَأَوُا أَجْزَاءَهُ مِنْ هَذِهِ الْبُقْعَةِ الَّتِي لَمْ يَقَعْ رِيَادُهَا تَقْرِيْبًا ، وَقَدْ اسْتَطَعْتُ بِفَضْلِ مَا حَبَّقَنِي بِهِ حُكُومَاتُ بِلَادِ النَّيْلِ الثَّلَاثِ مِنْ عُنَايَةٍ وَوَسِيلَةٍ أَنْ أُنْتَفِعَ كَمَا أَوْدُهُ بِالْخَطِ الْحَدِيدِيِّ وَالطَّائِرَةِ وَالْبَاخِرَةِ وَالشَّرَاقِ وَالْبَنْلِ وَالْحَارِ ، وَقَدْ وَضَعْتُ لِلْمَلِكِ فَوَادُ الْبَاخِرَةِ تَحْتَ تَصَرُّفِي ، وَسَهَّلَتِ الْحُكُومَةُ الْإِنْكِلِيزِيَّةُ رِخْلَتَنَا بِشَى الْوَسَائِلِ ، وَأَرْقَقْنَا الْحَبَشَةَ بِحَرَسٍ عَسْكَرِيٍّ مِنْ قَلَابَاتٍ .

وقد تَمَّ الْقِسْمُ الْخَاصُّ بِالْحَبَشَةِ قَبْلَ بَدْءِ النِّزَاعِ فِي إِفْرِيقِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ .  
وَمِنْ بَيْنِ مَا لَا يُحْصِيهِ عَدَدٌ مِنَ الْمَوْاقِفِ الْخَاصَّةِ بِمَصْرٍ انْتَفَعْتُ فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ بِـ « تَارِيخِ الْأُمَّةِ لِلْمِصْرِيَّةِ » عَلَى الْخُصُوصِ ، بِهَذَا الْكِتَابِ الرَّائِعِ الْوَاقِعِ فِي أَرْبَعَةِ أَجْزَاءٍ وَالَّتِي نَشَرَهَا بِإِشْرَافِ غَبْرِيَالِ هَانُونُو فَأَهْدَى لِلْمَلِكِ فَوَادُ نَسْخَةً مِنْهُ إِلَيَّ ، وَمَا انْتَفَعْتُ بِهِ بِكِتَابِ مِسْ . و . س . بَلَا كَمَنْ التُّنْمِيعِ عَنْ قَلَاخِي مِصْرَ الْعُلِيَا ، وَمَا انْتَفَعْتُ بِهِ مُذْكَرَةُ الْأَمِيرِ عَمْرِو طُوسُونِ الْمِصْرِيِّ عَنْ تَارِيخِ النَّيْلِ .

وَأَعْرَبَ عَن شُكْرِي لِنُورِ الْفَضْلِ الَّذِينَ أَعَانُونِي بِالتُّنْمِيعِ حِينَ قِرَاءَةِ النِّسْخَةِ الْخَطِيئَةِ ، وَهُمْ مَدِيرُ حَدِيقَةِ الْحَيَوَانَاتِ بِالْخُرْطُومِ لِلْبَحْرِ بَارَكْرَفِيَا هُوَ خَاصٌّ بِالْحَيَوَانَاتِ ، وَالرَّكِيْزِ جَنْتِيلِ فَارِينُولَا بِقَارَامِيْسْتَا (تُوسْكَانَةَ) فِيهَا هُوَ خَاصٌّ بِالْحَبَشَةِ ، وَالْدَاكْتُورُ كَنْسُ

## النيل

ماير هوف بالقاهرة فيما هو خاص\* بالعرب والتاريخ الطبيعي\* ، وسكرتير حكومة السودان السابق وحاكم تنفانيقة سير هارولد مكمايكل فيما هو خاص\* بالسودان ، ومفتش الرى العام فى الملكة للصربية مستر توتهم فيما هو خاص\* بمسائل مياه النيل ، والأستاذ بلندن مستر ج . أ . يهودا فيما هو خاص\* بالقراعة واليهود ، فهؤلاء الأفاضل المتخصصون صانوا من طائفة من الأغاليط مع عدم مشاطرة تامة لأفكارى . وما يقى من الخطأ فى هذه الزبدة الجامعة فأتركه ، مع ذلك ، لمن يبحث عنه من ذوى الاختصاص .

ومُعظم صُور الكتب القوتوغرافية هو من تصوير هينرت ولندروك بالقاهرة ، والصور القوتوغرافية الأخرى هى من تصوير قوة الطيران لللكى البريطانى بلندن وقراقشيان وإخوانه بأنطوطوم ومن دليل السودان بلندن .

لُودفيغ

موشيا سنة ١٩٣٦

## الْحِجَّةُ الْأُولَى

### الْحَبْرِيَّةُ وَالْمُعَامَرَةُ

« انظروا إلى الساجنة<sup>(١)</sup> تَمَرُّوْهَا ناضِرَةً  
 سروراً كيمر الكواكب ا وهنالك فوق  
 البواسق<sup>(٢)</sup> وبين الصفوات<sup>(٣)</sup> ذوات  
 الأدغال<sup>(٤)</sup> رَضَعَتْ فِي صِغَرِهَا ملائكةَ الخليل،  
 فلما شَدَّتْ<sup>(٥)</sup> واشتدَّتْ اندلقت من  
 السحاب ... فكُتِبَتْ كالدليل المَجِيل<sup>(٦)</sup>  
 حين قَطَرَتْ وراءها ينابيع الإخاء »  
 ( غوته )

---

(١) الساجنة : سبيل الماء من الجبل - (٢) البواسق : جمع الباسقة ، وهي الحباية  
 البيضاء الصافية اللون - (٣) الصفوات : جمع الصفاة ، وهي الحجر الصلد الضخم .  
 (٤) الأدغال : جمع الدغل ، وهو الشجر الكثير للثف - (٥) من شددن الظبي ، إذا  
 توى واستغنى عن أمه - (٦) المَجِيل : للسرع .



هَذَرُ يُبَشِّرُ بَنَهْرَ ، وَتَوَلَّ صَخِرَ جَزِيرَةَ حَجِيرَةَ <sup>(١)</sup> تُبَصِّرُ شَرِيكًا جَبَّارًا  
صَخَّابًا أَزْرَقَ سَمَويًا أَزْهَرَ بَهِيًّا يُلْقَى نَفْسُهُ مِنْ عَلِيٍّ فِي مَسْقَطٍ مُضَاعَفٍ فَيُؤَدَّى إِلَى  
دُرْدُورٍ <sup>(٢)</sup> يَنْشَأُ زَبَدٌ ضَارِبٌ إِلَى خُضْرَةٍ كَالْتِي يَمْلَأُ اللَّبَنُ فَيُدْفَعُ هَذَا الزَّبَدُ إِلَى

مَا يَنْتَظَرُهُ مِنْ مَصِيرٍ مَجْهُولٍ ، فَبَيْنَ هَذَا الضَّجِيحِ يُؤَلِّدُ النِّيلَ

وَبِالْقُرْبِ مِنْ هَذَا الْمَسْقَطِ الْمَائِلِ فِي شَرَّتِهِ <sup>(٣)</sup> هَادِيٌ بَعْضُ الْمَدْوَةِ يُغْفَرُ قَمٌّ  
خَفِيفٌ وَرَدِيٌّ بَيْنَ أَذْنَيْنِ حَمْرَائِنِ وَرَدِيَّتَيْنِ ، فَهَذَا الْبَقَرُ الْبَحْرِيُّ حِينَ يُثَاقِبُ ، وَهَذَا  
الْجَامُوسُ النَّهْرِيُّ حِينَ يُزْتَفَرُ <sup>(٤)</sup> مَتَرَاخِيًا ، وَيَرْفَعُ رَأْسَهُ وَيَتَنَفَسُ صَاحِبًا مَعَ خَوَارٍ <sup>(٥)</sup> ،  
يَقْذِفُ مِنْ مَنَاحِرِهِ الْمَاءَ صُغْدًا ، وَهَنَالِكَ فِي الْأَسْفَلِ حَيْثُ يَسْكُنُ الْمَاءُ تَبَصَّرَ تَنَائِينَ  
بَرْوَنِيَّةٍ خُضْرًا مَمْدُودَةً عَلَى صَخْرَةٍ يَسْتَرَاهَا زَبَدٌ رُفْشًا <sup>(٦)</sup> ذَوَاتِ عَيُونٍ ذَهَبِيَّةٍ  
وَبَطُونٍ صُغْرُمِيَّةٍ لِنَظَرِهَا الْأَسْطُورِيَّ ، وَيَجِيئُ عَلَى ظَهْرِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا ، حَقِي  
بَيْنَ نَابَتِي أَحَدِهَا ، طَائِرٌ لِنُومِهَا مَفْتُوحَةٌ الْقَمَّ ، وَذَلِكَ هُوَ التَّنِينُ الَّذِي ذُكِرَ فِي  
سِفْرِ أَيُوبَ ، وَذَلِكَ هُوَ التَّمْسَاحُ ، وَذَلِكَ هُوَ الْحَيَوَانُ الْغَرِيبُ الْمَحْتَمَلُ بِقَاوِهِ مِنْ  
الزَّمَنِ الَّذِي كَانَ الْخَلِيفَةُ <sup>(٧)</sup> وَالْأَلْبُوتُ <sup>(٨)</sup> يُنْطَاطَانِ فِيهِ وَجْهَ الْأَرْضِ وَكَانَتْ  
الرَّحَافَاتُ فِيهِ سَادَةَ الدُّنْيَا .

(١) الْحَجِيرَةُ : الْكَثِيرَةُ الْمَجَارَةُ (٢) — الْدُرْدُورُ : مَوْضِعٌ فِي الْبَحْرِ يَجِيئُشْ مَائُهُ .

(٣) الْعَرِيمُ : الْعَرَمُ الصَّغِيرُ ، وَالْعَرَمُ هُوَ الْخَلِيجُ — (٤) زَنْحَرٌ : قَنْعٌ .

(٥) الْخَوَارُ : صَوْتُ الْبَقَرِ — (٦) الرُّفْشُ : جَمْعُ الرُّفْشَاءِ ، وَهِيَ مَوْئِدُ الْأَرْضِ ، أَيْ  
الْمَقْطَعُ بِسَوَادٍ — (٧) الْخَلِيفَةُ : نَبَاتٌ — (٨) الْأَلْبُوتُ : نَبَاتٌ يَمُرُّ بِذَنْبِ الْفَرَسِ .

## الطيور في منبع النيل

وفوق هؤلاء النيران الذين يرجع أمرهم إلى ما قبل الطوفان تُحلق ذوات الأجنحة وتحم وتهتز وتصطاد ، وهنا يتجمع كثير من طيور أوربة ، وهنا يجتمع جميع الطيور التي تجوب إفريقيا الشمالية ، وما تحدته الطيور من ضوءا يَفْقِر<sup>(١)</sup> خريز الماء ، ففي الجزيرة المذغلة<sup>(٢)</sup> المائلة عن سمت المساقط والتي لم تطأها قدم إنسان ، وإن شئت قل في منبع النيل ، تقع جنة تلك الطيور .

ولدى أدنى دوى تحول تلك الرقاع البيض اللس كالحريز ، والتي تتلأل كزهر البرتقال بين أوراقه المذهابة<sup>(٣)</sup> ، إلى بلاشين<sup>(٤)</sup> بيض تطير فوق الشلالات مثنية الأرجل إلى الوراء ، ويبدو هذا الطائر الآخر ، الذي هو أبيض الطيور مع منقاره الملمعيّ الرطب التي يشق منه اسمه<sup>(٥)</sup> ، صغيراً بجانب طير آخر ضخم رمادي يأخذ في الطيران مثاقلاً منحنى الجذع منعطف الثني ، ومن بين ذلك الباق<sup>(٦)</sup> يستمع حفيف بنفة ، قد غطس طير كبير بالغ السواد في الماء ، غطس القاق المشهور بشره لعدة دقائق حتى يظهر من بعيد حاملاً متمكة بمنقاره مصففاً بجناحيه كطيور البحر ، وهناك طير أسود أبيض ينظر إلى ذلك الناظر بعين السخط ، فيتقدم متزناً منخفض الرأس ، ثم يرى إثبات عزته الصادقة فينسط بتوكدة ما في جناحيه الأصفرى انطوط من انحناء منسجم ويطير رشيقاً ، فهذا هو طير النيل المقدس : إيس<sup>(٧)</sup> .

(١) غر الصي : ستره — (٢) أدغلت الأرض : كثر دغلها ، أى شجرها اللثف .

(٣) الملعمة ، الهمام ، وفي القرآن « ومن دونها جنتان . . . ميعادتان » أى خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الحسرة والرى — (٤) البلاشين : جمع البلشون ، وهو الطائر المروف بمالك الحزين — (٥) أبو ملقة Spoonbill — (٦) الباق : الصراخ .

(٧) Ibis ، وهو الطير الذي يعرف في بلاد النوبة بأبي خنجر .

وترى الكركي<sup>(١)</sup> واقفة على الصفاف شاحنة صامتة مينة كالأمراء الذين ورد ذكرهم في الأفايص العربية ، وترى كركياً أغبر نيل النظر يحمل عنقه الدقيق برؤفة رأساً ذا ثقل ويجمع في طاقة ريش ذنبه الأدكن<sup>(٢)</sup> وينشر من فؤره جناحيه الواسعين ويحوم فوق الماء رويداً ، وأجل من ذلك كركي آخر ذو ريش ضارب إلى زرقة يمتد إلى ذنبه وفؤ ريش ضارب إلى صفرة يمتد على رأسه كريش الطاووس ، ولهذا الكركي الصَّوَجُ مشية تيم على الزهو والمهبوط كالشور التي رسمها فان ديك<sup>(٣)</sup> لأبناء اللوك ، وبجانب هذا الأمير من الخلف مع قليل بُعدٍ مناسب تبصر أبا سُفن<sup>(٤)</sup> الطائر المضحك البشيع كما في الأساطير والأبيض الأسود مع سكون ظاهر خادع ومع وقار مزوج بهدوء وجفوة ومكر وجشع ، فهذا الطائر يشترك في كل عمل نافع قبصيد كل شيء يتقدّر عليه فارة كان أو عنكبوتاً .

وبين كبار الطير تلك تبصر ألوفاً من صنار الطير تحلق فوق منبع النيل صادحة مُقرّدة مُصَفّرة ، وتبصر التّمار<sup>(٥)</sup> القيروزية<sup>(٦)</sup> مع ريش نارنجي يبدو ودياً تارة مغرباً<sup>(٧)</sup> تارة أخرى ويتحول مترجماً بين ألوان قوس قزح ويلعب في الماء والضياء ، وتبصر هذه التّمار في وسط الشّافى الزاهي الذي يعبث بين القانود<sup>(٨)</sup>

(١) الكركي : جمع الكركي ، وهو طائر كبير أغبر اللون طويل المنق والرجلين أبيض الذنب قليل اللحم يأوى إلى الماء أحياناً — (٢) الأدكن : المائل لونه إلى سواد .  
(٣) فان ديك : رسام مشهور ولد في أقرس وتوفي بالقرب من لندن (١٥٩٩ — ١٦٤١)  
(٤) أبا سُفن (Marabout) : طائفة من الطيور طويلة الأرجل قريبة من القلق تعيش في إفريقيا والمهند — (٥) التّمار : جمع التمرة ، طائر جبل أسفر من الصغور يحس الزهر والثر .  
(٦) القيروزية : ما كان لونها بلون القيروز ، وهو حجر كريم أزرق — (٧) المغرى : نسبة إلى المغرة ، وهي الطين الأحمر يصيب به . (٨) القانود : (Kingfisher; Martin pêcheur) : عصفور صغير ذو ريش زاهر ساطع يعيش على شفاف مجارى المياه ويصيد صنار السمك .

أين منبع النيل ؟

الزاهر الزرقعة وفوقه ، وفي العيص<sup>(١)</sup> يُقرَّد عندليب الشرق ، البلبل ، متوارياً ، على حين يهوى قريباً من مأواه الخفي سُونُونُ الشمال مع صوت خفيف ، شأنُ حنين شعراء الألمان إلى الجنُوب وإلى هَزَارِ<sup>(٢)</sup> الشرق ، وتَسَجُّع القمر<sup>(٣)</sup> الوردية الزمادية سَيجاً رزينا ، ويرتفع صفيح الزرازير السَّمرِ الخضر ، المختلفة الألوان عند الانعكاس كمين المر<sup>(٤)</sup> ، من بين أصوات الطيور الكبيرة ، ويُلِّل الخطَّاف صدره الأغبر برشاش النهر ، وتقرَّد الدُّعرة<sup>(٥)</sup> ، وهي طائرٌ نيلي كالبيس ، محركة ذنبها ، فبانسجام الألوان وتوافق الأصوات تُحيط هذه الطيور بالجزيرة المنيعية بين الشلالات كأنها تخشى الإنسان أكثر من خشيتها بقر النهر والتساح وركار الطير .

وأين نحن ؟

تقع مساقط ريئون ، وهي منبع النيل ، وهي ما يسميه أهل تلك البقعة بالحجارة ، في شمال خط الاستواء رأساً ، وبلغ عرضها ثلاثمئة متر ، وتندلق بين صخر بكر ، وتُحفُّ هذه الصخور شجيرات وأزهار برية نابتة على هضبة جرداء بعد إتلاف البيض الغائب محملاً للقاتل من الذباب .

وفي أقصى شمال بحيرة فيكتورية ، وبالقرب من جنجا ، يَيمُّ هدير هائل على هذا المنظر العظيم ، ونحلف الصخور المُبر التي هي ضرب من الأسداد الطبيعية وبجانب الخليج تمتد البحيرة ذات الجزائر والجزيرات ، ومن هنالك يسير النهر ، ومن هنالك ينطلق رسول قلب إفريقيا حاملاً البشائر العجيبة إلى بحر بعيد .

---

(١) العيص : الشجر الكثير اللبف — (٢) الهزار : البلبل والصندليب (٣) القمر : جمع القمرى ، وهو ضرب من الحمام حسن الصوت — (٤) عين المر : حجر كريم كثير الألوان (٥) الدعرة : طائر صغير يكثر تحريك ذنبه ويطلق كانه مدفوع .



وما كان أحدٌ ليعْرِفَ مآناه ، وما بذله الإنسانُ من جهودٍ في ألوف السنين  
بمَثْنٍ عن منبهِه فقد ذهب أدرج الرياح ، والناسُ كانوا يستقدون أن هذا التهر الضَحَرُ  
مَدِينٌ في قُوته إلى أطواد<sup>(١)</sup> وأنه كالأنهار الأخرى وليدُ سيول ، ومنذ سبعين  
عاماً فقط يُرى بمد كشفٍ أن جَرى النيل يبدأ بشَلَالٍ عظيم ، والنيلُ ، وهو ابنُ  
لأعظم بحيرة في إفريقيا ، وهو يُزِيدُ وَيُرَجِّرُ ، يُبْدِي سلطانه من يوم  
حياته الأول .

وقليلٌ من هذا المَبَابِ<sup>(٢)</sup> الأولي ما يصل إلى الغاية ، ولا تُسْفِرُ الريح والشمس  
والصخر والحيوان والنبات عن غير وَتَفَتْ تلك الأمواج أو تحويلها إلى بخار ، وليس  
ما يبلغ البحر المتوسط بمد شهرٍ طويلة صادراً عن ذلك التَّبْشِيرِ ، فقليل ثلاثة  
ينابيع وعِدَّة روافد في البداءة ، وهذا إلى الملايين من ذرات الماء التي تتبع النهر  
في مجراه من ذلك الشَلَال الذي يُولد منه إلى أن يختلط بمِلْح البحر .

وفي الأعلى ، وبالتقرب من المنبع ، يَنْشُرُ ضَبَابُ الفجر سِتْرَهُ فوق البُحَيْرَةِ ،  
ولا أحد يستطيع أن يُنْجِيَّ أين ينتهي ، فإذا طَلَعَ النهارُ ظهرت جزائرُ وجزيراتُ  
وخلجانٌ صغيرة عميقة تُوْغِلُ في الأرض ، وظهرت كُتْبَانٌ على مَدَى البصر ،  
وظهرت سلاسلُ تلالٍ تُكْشَفُ في الزُرْقَةِ البعيدة ، وتَشْطَعُ على الضَّغَافِ المرتفعة  
مَرَاعٍ ، وهي أراضٍ خصيبةٌ شِعْرِيَّةٌ ، تَحْدُهَا أدواحُ<sup>(٣)</sup> منفردة فاصلةٌ بين  
الظل والنور .

وما كانت العين لتمتدُّ إلى الضَّفَّة البعيدة ، ولولم تَزَحَمْ كثرةُ الخُلُجِ والبُحُرِ

(١) الأطواد : جمع الطود ، وهو الجبل العظيم — (٢) الباب : اللوح — (٣) الأدواح :  
جمع الدوحة ، وهي الشجرة العظيمة اللسعة .

### بحيرة فيكتورية

أبصارنا هنالك ، وذلك لأن تلك البحيرة بحرٌ أوسعُ من سويسرة مساحةً ، ولها قوانينها ونظمها ومخاطرها ، وهي حوهرٌ فريدٌ في وَسَطِ تلك القارة المُفْتَتنة ، وهي مرآةٌ كبيرة لشمس إفريقيا ، وهي حدٌّ لبلدٍ رعائيٍّ : لأوغندة ، وتقع أوغندة على ارتفاع ١١٠٠ متر ، وتقاس بالجنة ، ويسودها صيفٌ خالدٌ عاطلٌ من حرٍّ قاتلٍ في النهار ومن ضبابٍ خائقٍ في الليل ، وتُنعمُ العاصفة عليها بالنسيم بعد الظهر وبالريح في المساء ، وتُعدُّ أوغندة بلدًا مَخْصَبًا جغرافيًا<sup>(١)</sup> يتوازن الغيث والشمس فيه دومًا . وعلى تلالها وفوق جبالها وراء الإطار الذي يحيط بالبحيرة يتوارى أواخر عاصفة ما قبل التاريخ ، ويبان ذلك أنك إذا ما سِرْتَ من ضفاف هذه البحيرة ذات الزُرقة الحمرية وجدت البلد ترتفع إلى أرضٍ صعبةٍ ويَصْعدُ في الشِّمال الغربي نحو براكين ودُرَى من القُرَانيت ونحو ينابيع لروافد تُصبُّ كلها في النهر الأكبر وإلى قِمَمِ جبال القمر الثلجية ، ومن هذه الجبال يتألف سورٌ لحديقة أناسٍ من ذوى الخطِّ يَبْذُرُونَ قليلًا وَيَحْصُدُونَ كثيرًا .

والحقُّ أن ضفاف البحيرة هي حديقةٌ من عمل الطبيعة وبدر الإنسان المُسَمِّرةُ بفعل الشمس ، وفي كلِّ جهةٍ من تلك الحديقة ينتصب من السَّنَطِ الأكبر عِظَمٌ<sup>(٢)</sup> أخضرٌ كالمهابط<sup>(٣)</sup> البسوط فيمرُّ النورُ من بين أغصانه الدقيقة ناشراً غلاً لطيفاً على المروج ، وينقسم أصله المريضُ الأعبر الناعم الجافُ الأعْفَدُ عند مستوى الأرض إلى عدَّةِ فروعٍ مُكْنُوءَةٍ في أعلاه بأوراقٍ ذات تقاطيعٍ رقيقةٍ وعناقيدٍ حَبَّازِيَّةٍ طويلة ، وإليك قبةُ شجر التين النابت فوق جُذُورِ جِسامٍ بارزةٍ من الأرض

(١) الحرق : السخية — (٢) الظلم : نبت يصعب به — (٣) المهابط : جم الهبطه ، وهي المروقة بالبراشوت Parachute .

لم يجرؤ أحد على قهر منيه

والقسيّ بجشبه وظلّه ، وإليك الجُمَيْرَ المَلِكِيّ القائمُ بجانبه والحائزَ لمثل صفاته ،  
ويميل الزهرُ الأحمرُ الزاهي النحيفُ نحو البُحَيْرَةِ على حين تَفَرُّزُ ثُرَيَّا شجر  
المرجان أصابعها القُرْمِزِيَّةَ الساطعة في الهواء .  
يقوم فوق المنحدرات الخُضْرَاءَ على طول البُحَيْرَةِ جميعُ ما ذُكِرَ ساكنًا  
وحيداً تقريباً ، وذلك رَمَزاً إلى منظر خيال .

## ٢

لم يجرؤ أحدٌ بعد على قَهْر منيع النيل ولا على الإنشاء والتنظيم فوق ضفافه مع  
أن عِدَّةً خِطَطٍ وُضِعَتْ حول ذلك الجزء الإفريقي من قِبَل مهندسين كثيرين ،  
ومع ذلك نَصِبَ جِسْرٌ حديدِيٌّ أَسْمَرُ على النهر في أوائل حياته ، أى بالقرب من  
مجرأ التحتانيّ ، فيَصِلُ به قِطَارٌ بين بحيرة فيكتورية والمحيط الهندي ، أو يَصِلُ  
به قِطَارٌ بين البحر الصغير والبحر الكبير ، وما كان النيل ليحتل جِسْراً آخرَ  
إلاّ بعد ثلاثة آلاف كيلومتر من مجرأ التحتانيّ وعلى طَرَف الصحراء ، وما كان  
لإنسان في جميع هذه المسافة بين بلادٍ وشعوبٍ أن يَعْبُرَ النيلَ بلا زَوْرَقٍ (عدا  
جسراً طبعياً) ، وقد حاول ذلك كثيرٌ من الحيوان والإنسان فكان الهلاك نصيبهم ،  
والنهرُ بلا جِسْرِ في مَسِيرٍ لا نهايةَ له دلٌّ على أنه حاجزٌ بين حيوانٍ وحيوان .  
والنهرُ القَسِيّ لا يأخذ حِفْزَه من مِعْبَرٍ<sup>(١)</sup> ، والنهرُ القَسِيّ في رَتَلٍ طويل من  
المساقط والوفاق يُطْلِقُ النِّمَانِ لصوته الطُّفْلِيَّةَ فائراً مدحوراً مزبداً سميماً بالحياة ،  
والمستقط الثاني الذي هو مستقط أُوَيْن عريض كالأول ، ولكنه أعقُ منه مرتين

---

(١) المعبر : ما يمر به النهر كالقنطرة .

### الأيكة البكر

وأَقْرَبُ وَأَقَمُّ ، وهو يُصَجِّلُ سِلْسِلَةَ الدوافع ، وإِذَا مَا نُظِرَ إِلَى الْأَمْرِ كَمَا تَوَدُّ الطَّبِيعَةُ ، لَا كَمَا تَصْنَعُ الْحِصَارَةُ ، سُمِّيَتْ هَذِهِ الدَّوَاغِفُ بِالشَّلَالِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي ، وَيَنْحَرِفُ النَّيْلُ الْمُرْنِيُّ وَغَيْرُ الصَّالِحِ لِلْيَلَاخَةِ نَحْوَ الشِّمَالِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقَطِعَ نَفْسُهُ ، وَقَدْ تَوَارَتْ الْمَرَاعِي وَالرُّوَجُ ، وَقَدْ مُنِعَتْ سُرْكَتِي تِلْكَ الْبُقْعَةُ بِسَبَبِ مَرَضِ النَّوْمِ ، وَيُظَلُّ النَّهْرُ وَالْعَابَةُ وَحَدَّهَا كَمَا صَنَعْتُمَا يَدُ الْخَالِقِ ، وَيَبْقَيَانِ نَتِيجَةَ نَتَبِّ الْقُرُونِ وَقَرَضِهَا ، وَالنَّيْلُ فِي ذَلِكَ الْمَسِيرِ ، وَفِي ذَلِكَ الْحِينِ وَحَدَّهُ ، يَلَامِسُ الْأَيْكَةَ <sup>(١)</sup> الْبَكْرَ .

وَتَفْصِيلُ النَّهْرِ مِنَ الْعَابَةِ وَتَرَكُّهُ يَلْمَهُ بِالْعَابَةِ أَسْوَارُ حَيَّةٍ مِنَ النَّبَاتِ الْمُتَعَرِّشِ لِلشَّتَبِكِ وَتُخْفِي عَنْهُ أَصْطِرَاعَ الْحَيَوَانَاتِ الْكَبِيرَةِ وَمَصَاتِبَهَا ، كَمَا يُسْقَى فِي إِعَادِ مَنْظَرِ أَلِيمٍ عَنْ الصَّبِيِّ ، وَمَا يَمُتُّ خَلْفَ تِلْكَ الْأَسْوَارِ فَيَرْجِعُ إِلَى زَمَنِ كَانَتْ الْأَرْضُ فِيهِ أَشَدَّ فَتْكَاً وَالْحَيَاةُ فِيهِ أَكْثَرَ وَفَرَاً وَأَعْظَمَ مُنْمَاً ، وَفِي ذَلِكَ التَّنَبُّثِ ، حَيْثُ تَنَازَعُ الْفُرَادِ أَخْفَى مِمَّا فِي بَقَاعِ الشِّمَالِ الْقُرْعُ ، تَلْتَقِي الْحَيَاةُ وَالْمَاتُ التَّمَتُّهُ وَثِقَاً ، وَهَنَالِكَ تَكُونُ الْبَهَائِمُ وَالتَّوَائِيِ التِّي لَمْ تَمْسَسْهَا يَدُ إِنْسَانٍ عَلَى أُنْمٍ التَّحَامُرِ ، وَعَلَى نُورِ هَذَا السَّرِّ <sup>(٢)</sup> الْأَخْضَرَ الَّذِي تَنْجَلِي الْعَابَةُ الْبَكْرُ بِهِ تَتَلَقَّى جُذُورُ الدَّوَّحِ بِسَالِفِ مَوَاتِهَا عَلَى حِينِ تَهْمِينِ ذُرَاهَا عَلَى ذَلِكَ الْأَشْتَبَاكِ الْكَثِيفِ كَأَعَاطِمِ الرِّجَالِ الْمُزَلِّ فَتَوَلَّى مَعَ غَيْرِهَا شِرْكَةً رُؤُوسٍ مُشْمِيسَةٍ ، وَمَا تَنْتَجِهُ الرُّؤُوسُ فَيَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ ، يَسْقُطُ عَلَى مَنْبَعِ الْخِصْبِ الْجَدِيدِ فِي مَنَاطِقَةِ الْحَيَاةِ الَّتِي لَا تَقْنَى وَالتِّي لَا أَحَدَ فِيهَا يَنْجِنِي بِخَارِ هَذِهِ الْأَمْشَاجِ ، وَالتِّي تَرَى الطَّبِيعَةَ بِهَا فِي بُخَّارٍ حَارٍّ وَلَوْ مِنْ الْحَبِّ طَلِيقَةً مِنْ كُلِّ مَأْرَبٍ . وَفِي غُضُونِ الْقُرُونِ مَا فَتِيَّ تَرَابُ الْعَابَةِ الْبَكْرِ يَرْتَفِعُ مَدْبُولاً <sup>(٣)</sup> إِسْفَنْجِيّاً . نَدِيّاً

(١) الْإَيْكَةُ : الْعَابَةُ — (٢) السَّرُّ : الْوَقْتُ الَّذِي هُوَ يَمِيدُ غِيَابِ الْقَمَرِ .

(٣) دَبْلُ الْأَرْضِ : أَصْلَحُهَا بِالْهَيْلِ ، وَهُوَ السَّيَادُ .



١. — جبار في السهب



### أصوات في الغابة

فَتَنَبَّتُ الْجُدُورُ وَالسُّوقُ فِي غُصُونِ الْأَشْجَارِ الَّتِي تُوثِكُ أَنْ تَنهَارَ مَعَ أَنَّهَا لَا تَزَالُ حَيَّةً ، وَيَنْمُو صَائِلًا نَبَاتٌ جَدِيدٌ يَخْتِجُ عَلَى أَصُولٍ عَادَتْ إِلَى الْقَرَابِ أَوْ عَلَى أَصُولٍ حَيَّةٍ فَيَتَنَذَى بِهَا ، وَلَا يَنْفُذُ عَدُوًّا غَلَبَ الشَّهْلُ ، الْجَلِيدُ وَالْبَرْدُ ، وَلَا خَرِيقٌ<sup>(١)</sup> الْجِبَالِ الْمَجَاوِرَةِ الْمُسْتَوْرَةِ بِالتَّلَجِ ، تِلْكَ الْأَسْوَارُ الَّتِي أَقَامَتْهَا الْغَابَةُ بِنَفْسِهَا ، وَبِالْعَكْسِ تَحِيدُ هُنَاكَ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ مِنْ حَامِيَةِ النَّبَاتِ : الْحَرَارَةُ وَالرُّطُوبَةُ ، وَالْعَدُوُّ الْوَحِيدُ الَّذِي يَجْرُؤُ عَلَى دُخُولِ تِلْكَ التَّحَالٍ الَّتِي هِيَ أَمْنٌ مِنْ سِوَاهَا هُوَ الْحَيَوَانُ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَى مَا قَبْلَ الطُّوفَانِ وَالَّذِي ظَلَّ بَاقِيًا مِنْ خِلَالِ الْإِنْتِحَالِ الشَّامِلِ ، فَالْقَبِيلُ وَحَدَهُ هُوَ مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَسْتَطِيعُ بِأَعْضَائِهِ الْقُوَّةَ أَنْ يَدُوسَ مَعَهُ مَا يُعَاسِرُهُ أَوْ يَسْتَحِقُّ مَعَهُ مَا يَمُوتُ ، وَمَا كَانَ الْإِنْسَانُ لِيَطَأَ أَرْضَ الْغَابَةِ الْبِكْرَ لَوْلَا خُطُواتُ الْفِيلِ ، وَالْقَبِيلُ هُوَ الَّذِي رَسَمَ سَبِيلَ الْأَسْوَدِ الَّتِي لَا يَزَالُ الْبَيْضُ يَتْبَعُهَا فِي طَرَفِهِ .

وَإِذْ أَنْ الْغَابَةَ الْبِكْرَ هِيَ أَشْبَهُ الْمَسْتَرِّ مِنَ الْأَسْفَلِ وَمِنْ الْأَعْلَى حَيْثُ يَحَاوِلُ الْخَيْشَارُ<sup>(٢)</sup> وَالْكَلَالُ الْأَكْبَرُ أَنْ يَلْحَقَا بِالنَّبَاتِ الْمُرْعَشِ الْمُهَابِطِ فَإِنَّ السُّورَ الَّذِي لَا يُنْفَذُ مِنْهُ يَتَأَلَّفُ مِنْ مَثَلٍ ضَعْفٍ مَعَ الزَّمَنِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقِفَ رَيْنٌ هَذَا الْعَالَمِ صَوْتُ الْقَاسِ حِينَ تَحْبُلُهَا الشَّجَرُ .

وَكثَافَةُ الْأَيْكَةِ تُسْقِرُ عَنْ سَكُونِهَا ، وَأَصْوَاتُ الطُّيُورِ وَحَدَهَا هِيَ الَّتِي تَسْمَعُ عَلَى عَمَقِهَا ، هِيَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى جِزْءٍ مِنْ بُعْدِ غُورِهَا ، وَمَا هُوَ وَاقِعٌ مِنْ ضَحْكَ<sup>(٣)</sup> الْقِرْدَةِ وَطَنَيْنِ الْحَشْرَاتِ وَخَفِيفِ الدَّوْحِ الَّتِي يَمُوزُهَا الْهَوَاءُ وَتَقْيِقِ الضَّفَادِعِ فِي الْبَرْدِ<sup>(٤)</sup> ،

(١) الحريق : الريح الباردة المهبية — (٢) الخنفار : نبات عديم الأزهار ، ويعرف بالسرخص أيضاً — (٣) ضحك القرد : صوت — (٤) البردى : نبات كالقصب كان قديماً المصريين يستخدمون قصره للكتابة .

## أشجار

وصغير الشحرور وحسيس الورلان<sup>(١)</sup> وكشيش الثعبان ونعيق الفربان فقد صُفّت كصياء الغابة ، وقد بدا حاداً مفاجئاً كصوت الأولاد في الكنيسة عند القيام بالشاعر ما دام ظلام الأجمة وعلوها يثيران فينا ذكرى الكنائس .

وفوق الأرض وفي أصول الثين العظيمة وبين سوق السحليات تكوّنت كوّات عميقة يُمكن الإنسان أن يأوى إليها ، وهي تشابه كوّات أركان الكنائس ، ومن الصلّاء وفي أغصانها المستورة بالأزهار تجنّب البوايين<sup>(٢)</sup> ساكنة كالتماثيل السود مُتبرّمة من وثبات الربّاييج<sup>(٣)</sup> التي تلمع أذنانها البيض وخطوط ظهورها عندما تفرّز من مُعرّشي إلى آخر ، وتديب الحياة ديباً خفياً في تلك الأشجار الخادمة الخائفة للظلمة بفعل الحيوانات التي تؤثر فينا بخطاها وأصواتها أقل من تأثير الأزهار بألوانها ، ومن خلال اشتباك المُعرّشات يُبصرُ جلدُ حية لامع ، ولا يكون لصوت طير معنى إلّا حين يُرى ظلّ عابر لمصر أبيض وحين يصيح بعض البتغوات على البواب<sup>(٤)</sup> الذي هو شجر ضخم ذو قاعدة جلدية متجعدة ، وتتلشى هذه الأصوات بسرعة في سكون الأينكة البكر المثير .

وإليك نداء شجرة الرّمان المُحرق ، وإليك هذه الشجرة التي تمحكي أغصانها فروخ شجر التين فتسّ الشمس ، وإليك هذه الدّوحة التي تتدلى من الرأس كأنها ضرب من فولٍ مارد ، وإليك السّنط المُخمل ، التي تسطع من بين أوراقه أزهار وردية مُحرّمة كبيرة كيد الإنسان ، وإليك الشّق<sup>(٥)</sup> السماوية التي

(١) الورلان : جمع الورل ، وهو دابة على خلفة الضب أعظم منه طويل الذنب دقيقه .

(٢) البوايين : جمع البايون ، وهو القرد الإفريقي الذي هو أفتح القردة منظراً وأحطها عقلاً .

(٣) الرباييج : جمع الرياح بضم الراء وهو القرد الذكر - (٤) البواب : من أعظم

نباتات البلاد الحارة ، وهو قليل الارتفاع ، ولكن دائرة ساقه تزيد على عشرين متراً .

(٥) الشّق : جمع الصفقة ، وهي نبات يلتوى على الشجرة ويلزمها .



### الأزهار أقل تأثيراً من الأطيار

تسترسل كالليل كليل من أغصان الجُمَيْرِ إلى اللَّمَاعِ مع أزهارٍ حُرٍّ متزاحمة كمنافاة .  
وفى بقاع من الغاب لا شجرَ فيها وعلى ضفاف عُدرانٍ تكاد تُشترُّ بأوراقٍ  
فتتغذُّ إليها شمسُ البلادِ الحارةُ تكونُ الأزهارُ أقلَّ أخذًا بمجامع القلوب وإن وُجدَ  
هنالك عشرة أمثالها ، وذلك لأن الحيوان هو السيد على طرف الماء . هنالك حيث  
تبصر القاتوند الفيروزي واقفاً على اللبلاب <sup>(١)</sup> القرمرى الملتف حول الحساسة <sup>(٢)</sup>  
منحنياً فوق الماء مترقباً سمكاً يُحسكه ، ويهتزُّ وَكُرُّ التَّنُوطِ <sup>(٣)</sup> في أقصى سُعوف النخل  
فيقتلُ بذلك من جشع القروود طمع الأفاعى ، وهنالك ، حيث يميلُ الغنشلُّ  
للذِّر <sup>(٤)</sup> إلى الماء ، ترغفُ فراشُ سَمَنْجُونِيَّةٍ <sup>(٥)</sup> ذواتُ عيون أَرْجَوَانِيَّة ،  
وهنالك ضَبَّانُ زُرْقُ ذواتُ قَطَطٍ نارُجِيَّة تَدْفِي بين البَطِيخَةِ <sup>(٦)</sup> والقدير .

ويُبْذِي النَّسَفُ <sup>(٧)</sup> حركاتٍ غريبةً وَيُخْرِجُ أصواتاً مُخَلَّلاً <sup>(٨)</sup> كما لو كان كلُّ  
جَرَسٍ <sup>(٩)</sup> نتيجة ألمٍ صميم ، وَيُصَفِّرُ شُخْرُورٌ جَهْدُهُ على شجرةٍ قَرِيَّةٍ كما لو كان  
يُنازلُ ، كما لو كان متفتناً مولداً بجانب مقلِّدٍ أَرَقْلٍ <sup>(١٠)</sup> ، وفوق الزَّمارُ كُلا الطيرين ،  
ويَخْرُقُ مِرْمارُهُ المُغَرِّى الشَّغْمُ أَوْباقَ الشجرِ كما لو كان يَعِيشُ من الهواءِ والماء ،  
وذلك مع تَحَدٍّ للغابة البرية وسُخْرٍِ من ضرورة النقر <sup>(١١)</sup> ومن عِبٍّ ما يحيط به ،  
وذلك إلى أن يقفَ قَرِيدُهُ نَفِيقُ الْعَقَقَى <sup>(١٢)</sup> .

(١) اللبلاب : نبات يتعلق على الفجر وورقه كورق اللوباء — (٢) الحساسة : نباتة إذا  
لمستها انطلق ورقتها وتزحف بالمتحنية — (٣) التنوط : طائر يطلق قشوراً من قشور الشجر  
ويعيش في أطرافها لتصفله من الحيات والناس والقر — (٤) اللذر : القاسد .

(٥) السمنجونى : ما كان بلون السماء — (٦) البطيخة : مسيل واسع فيه ربل ودقاق  
المضى — (٧) النساف : طير له مغار كبير عليه ما يشبه القرن — (٨) الصوت الأمثل :  
الأبع الخشن — (٩) الجرس : الصوت — (١٠) الأرقل : من لا يحسن عمله — (١١) هر  
الطائر الحب قرأ : قطعه من هنا وهنا — (١٢) العققى : طائر على شكل النراب ، أو هو النراب .

### يهرف يطلاته

وعلى مدى من تلك القرقرة والمقارعة تعيش الحيوانات الكبرى في الغابة ونصيد وتزأج وتتقاتل ، وهي تظهر على ضفاف دوافع النيل القى مساء فتجرع وتكرع من مائه القرات<sup>(١)</sup> ، والزنجي في ذلك الحين يتوارى ، والزنجي في النهار يصطاد وينسل في خليج ساكن ، فإذا دنا الليل ترك المكان لسادة الغابة الصامتين عن وجل .

### ٣

يهدأ النيل الشاب على مسافة ستين كيلومتراً من مجراه بعد منبعه ، ويعرف النيل الشاب بطلاته ، وينزل متى مترين المساقط والدوافع ، ويحيط بوضع جزيرات كثيرة الغابات ، ويصير أناساً عراً أنشأوا أكواخاً لصيد السمك وتخفيفه وتخزينه .

والنيل عندما يفادر الدوافع ويتسع ويتك سبيل الحكمة يباغته الناس ويُرهِمونه بأمر جديد عليه لا ريب ، ويبان ذلك أن زوارق وبواخر صغيرة تنظره فيري لزاماً أن يحتمل استواء أناسه على ظهره ، ويبدأ النيل وضع ذلك الوزر<sup>(٢)</sup> عنه بشدة ، وتبين حجارة قراره وصخور قاعه على ذلك ، ثم يذعن لِمَا كان من إنشاء الإنسان الماكر سُفناً ذات حيازيم<sup>(٣)</sup> مُسطحة . فيظل النيل صالحاً للراحة متى كيلومتر ، وبالتقرب من المكان الذى يندو به ذلك الأمر ظاهرة النيل ، ومن درجة العرض الشمالية الأولى ، يلوح الخط الحديدي متوجهاً إلى

(١) القرات : الغيب - (٢) الوزر : الحمل الثقيل - (٣) الحيازيم : جمع الميزوم ،

وهو وسط الصدر .

الجَنُوب الشرقى نحو كِيَنِيَا والبحر بما لا يكاد يُمسُّ به النيل ، ولا يدنو الخطُّ الحديديُّ الثاني من هذا النهر إلّا فى الدرجة الثالثة عشرة الشّمالية ، أى بعد ألفى كيلومتر ، فهذا هو طول البقاع التى تعترض دون إنشاء خطوط حديدية .

ولا يكاد النيل يحتل باخرةً حتى يعانى مغامرةً جديدة ، وذلك أن ضفاف مجراه تتوارى فيتنسج مقداراً فقذاراً ، وأين الغابة التى تفرّض عليه حدوداً ثابتة ؟ كان عرضه ستمئة مترٍ منذ هُنيئة ، فلم يلبث أن انبسط على كيلومترات ويفيض ماؤه ، وبصبح ناقص الصورة ، ويهبط فى ضَرْبٍ من الإنفِتنج فيخشى ضياعه ، ويتقدم ، وكلما تقدم تَمَطَّى وأضحى عمقه ثلاثة أمتار أو أقل من ذلك عند طرف المستنقع ، وهذا إلى ما يظهر من ستره بالخضر والزهى ، ويدو كل شىء حوله ساكناً نائماً ، ويلوح إقدامه مُعَطَّلاً وسروره زائلاً ، وماذا حدث إذن ؟

ترانا فى بحيرة كِيُونَا ، وهى مساحة واسعة من الماء الوَحِل مع أربعة فروع كبيرة ، وهى مستنقع يحفُّ البرديُّ من حوله ، ويحتابه النيلُ فى مئة كيلومتر فيعانى نباته ، وتتأصل جذورُ النيلوفر<sup>(١)</sup> بسهولة فى تلك المياه الدنيا ، ويكسوها هذا النبات العجيب الأزرق السماوى مع تجاوب ذهيبه يعلوها زهرٌ آخر أحياناً ، فكان ذلك يساط حقيقى مُصَوَّرٌ تَمَطَّى يتوارى النهر تحته قريباً .

وتحاذر الروافد الأولى أن تُنْقِصَ إلى هذا الإنفِتنج لما يُسفر ذلك عن امتصاصه لها ، وفى أقصى طرف البحيرة الغربى ، حيث يتركها النيلُ ، ينضمُّ إليه أخوه الصغير نهرُ كافو خاتماً حياته الصغيرة هنالك ، ويتجه النيلُ إلى الشمال بعد أن

(١) النيلوفر : ضرب من النباتات يثبت فى المياه الرائدة له أصل كالجزر وساق أملس يطول . بحسب عمق الماء ، فإذا ساوى سطح الماء أورو وأزهر .

يصير نهراً مرةً أخرى ، ولكن مع محافظته على جزيرة بحيرة ، ولكن مع ظهوره متشاقلاً متوانياً مُستَقْدِراً<sup>(١)</sup> مُتَخَيِّلاً .

وفي تلك المرحلة من المجرى يمكن قياس نظام النيل بما لبعض السجاي من تغيرٍ دَوْرِيٍّ ، والنيل يُغَيَّرُ ثم يُغَيَّرُ جَرِيَّةً وَلَوْنَهُ مَنَاقِبَةً وَعَلَى غَيْرِ انْتِظَامٍ فِي أَلُوفٍ مِنَ الْفَرَاخِ وَطَوِيلٍ مِنَ الشُّهُورِ ، فَطَوْرًا تَرَاهُ هَائِجًا عَبُوسًا وَطَوْرًا تَرَاهُ سَاطِعًا نَبِيًّا ، وَمَنِ الْمَتَمَذِّرُ أَنْ يُعْرِفَ أَىُّ الْأَمْرَيْنِ يُؤَثِّرُ فِي الْآخَرِ وَيَطْبَعُهُ بِطَابَعِهِ : أَلْنَيْلُ أَمْ الْبَلَدُ الْمَحِيطُ بِهِ ؟ وَإِنَّمَا الَّذِي يُقَالُ الْآنَ هُوَ أَنَّهُ يَدْلِفُ<sup>(٢)</sup> نَحْوَ الشَّيْءِ مَعَ انْحِدَارٍ غَيْرِ مُحْسُوسٍ عَلَى وَزْنِ بَحِيرَةٍ كِيُوتَا .

وَيَنْمُطُفُ النَّيْلُ بُنْتَةً ، وَيَتْرُكُ ذَلِكَ الْاِنْجَاهَ الشَّالِيَّ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى ، وَيَسِيرُ نَحْوَ الْغَرْبِ وَيَتَحَوَّلُ تَحَوُّلاً تَامًا ، وَمَا يَلَاقِيهِ مِنْ أَرْضٍ صَخْرِيَّةٍ فَيَشُدُّ عَزِيمَتَهُ قَيْلِبُ السَّفَنِ ، وَيَنْقَلِبُ إِلَى سَيْلٍ مَنِيْعٍ كَأَنَّهُ فِي صَبَاةٍ وَيَضِيقُ مَجْرَاهُ وَيَتَمَقَّقُ مَسِيلُهُ ، وَهَلْ هَذِهِ مَغَامَرَةٌ جَدِيدَةٌ ؟

يُظْهَرُ فَلَنْقُ إِفْرِيقِيَّ نَجَاةٍ مَعَ طَرَفٍ مُتَلَفٍّ ، فَالْبُقْعَةُ تَصِيرُ صَخْرِيَّةً ، وَتَتَجَمَّعُ كُلُّ الصَّوَّانِ وَيَتَكَوَّنُ عَقِيقٌ<sup>(٣)</sup> ، وَلَمْ يَجَاوِزِ النَّيْلُ حَتَّى الْآنَ غَيْرَ دَوَافِعَ وَاسِعَةٍ جَدًّا ، وَيَهْنِطُ النَّيْلُ الَّذِي ضُنِطَ فِي عَرَضِ سِتَّةِ أَمْتَارٍ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى مِنْ ارْتِفَاعٍ أَرْبَعِينَ مَتْرًا ، وَيُؤَدِّي مَصَبُّ الْبَحْرِ الْاِسْتَوَائِيَّ الْفَاحِلِيَّ إِلَى هَذَا الْمَسْقَطِ الَّذِي يَتَدَهَوْرُ بِهِ النَّهْرُ فِي بَضْعِ ثَوَانٍ مَعَ إِرْزَامِهِ<sup>(٤)</sup> رَعْدٍ وَهَبَاءٍ<sup>(٥)</sup> مَاءٍ وَزَبَدٍ .

(١) استقدر المكان : سارت فيه غمران — (٢) دلف : مضى كالقيد وفارب المخطوط في مذهب — (٣) العقيق : الرادى وكل سيل ماء شقه السيل قديماً فوسمه — (٤) إرزم الرعد : اشتد صوته — (٥) الهباء : الغبار

يدنو القبل من النيل

ويُوجدُ النيلُ سَجِيَّتَهُ بِسَاقِطِ مُرْشِسُنْ تِلْكَ الَّتِي هِيَ أُنْهَمُ مَا فِي جَرِيهِ ،  
وَيَعْرِضُ لِلنَّيْلِ أَمْرٌ هَائِلٌ ، فَهُوَ يَنْبُطُ مِنْ مِثْلَةِ إِفْرِيقِيَّةٍ إِلَى أُخْرَى ، وَتَحْتَوِيهِ  
مَغَارَةُ الشَّبَابِ هَذِهِ الَّتِي هِيَ وَلَعَجٌ جَامِعٌ تَحْوِيلًا تَامًا ، وَهَنَا لَا يَلْهُو بِقَرْمَاءٍ  
وَلَا تَمْسَاحٍ ، حَتَّى إِنْ الطَّيْرُ قَلِيلٌ هُنَا ، حَتَّى إِنْ السَّمَكُ لَا يَحَاوِلُ الْعُودَ إِلَى مَآتَاهُ  
هُنَا ، وَلَكِنَّكَ تَرَى جِسْرًا خَالِدًا يَصِلُ الْمَاءَ بِالسَّمَاءِ ، وَلَكِنَّكَ تَرَى قَوْسَ قَوْحٍ ،  
وَيَنْعَكِسُ النُّورُ فِي كُلِّ مَكَانٍ عَلَى الْأَلُوفِ مِنْ مَهَاً<sup>(١)</sup> الطَّلَقِ<sup>(٢)</sup> الَّتِي هِيَ أَسَاسُ  
بَرَّاقٍ لِهَذَا النَّظَرِ الْمُؤَثِّرِ .

وعلى مسافة فرسخٍ من هنالك لا يزال الزَّيْدُ فَوْقَ الْمَوْجِ الْمَاضِ مَشَاهِدًا لِمَا يَمَانِيهِ  
النَّيْلُ مِنْ رَجٍّ ، ثُمَّ يَتَّجِهُ النَّيْلُ مِنْ بَيْنِ شَجَرَاتٍ مَنْشُورَةٍ فِي الشَّهْبِ<sup>(٣)</sup> ، إِلَى وَادٍ  
يَتَسَعُ بِسُرْعَةٍ ، وَيَجِدُ النَّيْلُ نَفْسَهُ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى نِجَاهَ ظَاهِرَةٍ عَجِيبَةٍ تَرْجِعُ إِلَى مَا قَبْلَ  
التَّارِيخِ ، فَالْقِيلُ يُدْنُو مِنَ النَّيْلِ نَحْوَ الْمَاءِ .

هُوَ ضَخْمٌ ، هُوَ آخِرُ مَنْ سَيَظُرُ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ عَلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ الْأُخْرَى ،  
هُوَ الْأَقْوَى الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى مَقَاوِمَتِهِ حَيَوَانٌ وَلَا شَجَرٌ ، هُوَ الَّذِي لَا يَبَالِي بِشَكِّ  
شَوْكَةٍ<sup>(٤)</sup> أَوْ لَشَعْرِ ثَعْبَانٍ ، هُوَ شَاعِرٌ كَالْعَفَاءِ بِقُدْرَتِهِ الَّتِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى مَنْ  
يُنْشَاؤُهُ ، هُوَ لَيْسَ فُجُورًا وَلَا ضَارِيًا ، هُوَ أَكْرَمُ الْحَيَوَانَاتِ وَأَذْكَاهَا طَرًّا ، هُوَ  
حَلِيمٌ طَيِّبُ الزَّجَاجِ مَعَ شِدَّةِ انْتِقَامِهِ عِنْدَ مَا يَدَافِعُ عَنْ صِغَارِهِ نِجَاهَ هَجَمَاتِ الْإِنْسَانِ  
النَّادِرَةِ ، هُوَ مُجَهَّزٌ بِأَصْفَرِ الْعَيُونِ فِي أَكْبَرِ الْوُجُوهِ وَأَبْدَقِ صَنَائِعِهِ<sup>(٥)</sup> تَحْتَ أَعْظَمِ

(١) الْمَاهِيَّةُ : جَمْعُ الْمَاهِيَةِ ، وَهِيَ الْبُلْبُورَةُ — (٢) الطَّلَقُ : حَجَرٌ شَفَافٌ يَتَفَلَّى إِذَا دَفِنَ .

(٣) الشَّهْبُ : الْبَعِيدُ السُّوْيَ مِنْ الْأَرْضِ — (٤) شَكَّتِ الشُّوكَةُ رِجْلَهُ : دَخَلَتْ فِيهَا .

(٥) الصَّنَاخُ : خَرَقُ الْأَذْنِ الْبَاطِنِ الْمَاضِي إِلَى الرَّأْسِ .

لُنْدِي<sup>(١)</sup> ، هو ذو عُنْصُرٍ نصفه أنفٌ ونصفه ذراعٌ وذو عَاجٍ يستطيع أن يُثَلِّفَ به كلَّ شَيْءٍ ، هو لا يُخَزَّبُ غَيْرَ الضروريِّ مع ذلك ، هو قلما يُزْهَبُ أو يصطاد الحيوانات الأخرى ، هو لا يأكل منها ، هو يفتدى بالعُصْبِ النَّضُّنَّ وبقشر الشجر وبالتمر كنبيلان الأقاصيص ، هو إذا ما وَطِئَ الأرضَ بقوائمه المائلة كان دَوَسُهُ من الخِفَّةِ كدَوَسِ الجائل ، والحقُّ أن هذا الحيوان الذى يَرْجِعُ إلى ما قبل الطوفان بعيدٌ من الثَّقَلِ والتوحش ، والحقُّ أنكَ تبصر الهدوءَ في نظره وسيرته .

وفي سالف الأدوار كان الفيل معروفاً في جميع الأرض ، وليس في العالم مكانٌ وُجد فيه من العاج مثلاً وُجد في مِنطَقَةِ مضيقِ بَرْنَغ<sup>(٢)</sup> ووُجد الفيل في رومة وإرْلَنْدَة وإسبانية الشمالية وسيبيرية ، وما عُنِيَ عليه في هذه البلدان من عظامه التى بهى عظامُ الفيل الإفریقیَّ فيكنى لإثبات سابق اتصالٍ بين القارتين ، وكان الفيل يعيش في أوربة في الأزمنة التاريخية أيضاً ، فقد رأى سائحٌ فينيقى<sup>٣</sup> فيولاً بجوار جبل طارق ، ويدلُّ رسمُ فَيْلَةٍ هِنْدِيَّالٍ في النقود على صُمُخِ صُنْحَةٍ وظهورٍ منحدره لا تَرَى لها نظيراً في أفيال الهند .

وتَخْرُجُ من الغابة جماعةٌ من الفَيْلَةِ ، ولا يكاد يُشْعَرُ بقطعقةٍ لها لشدة حَذَرِها ، والبَلاشِينُ وحدها هى التى تَنِيْمُ عليها حيناً تَحْمُومُ فوقها ، وذلك لأن البلاشين تنغذى بالحشرات التى تعيش على جلودها كما يعيش اللُفُويُونُ من الشعراء ، وتَحْذَرُ الفَيْوُلُ الإنسانَ ، والإنسانُ يَنْصِبُ لها أشراكاً في الغالب ، وتَقِفُ الفَيْوُلُ وتَرْكَبُ ولا يُسْمَعُ سوى تصفيقٍ لأذنانها ، وتَتَحَرَّرُ الفَيْوُلُ لوجود صغيرٍ بينها ،

(١) اللند : منتهى شجعة الأذن من أسفلها .

(٢) برنغ : مضيق بين آسية وأمريكا الشمالية ، وفصل بين المحيط الهادى والمحيط الشمالى .

وهي تتوارى صامتة إذا لم تُبصر، وهي على عكس الإنسان تتجبه العدو إذا ما كشف أمرها، والآن نخرج الأفيال من الأدغال ويبدو ثلثا أجسامها ويبلغ الكلا الطويل مستوى ركبها، ويجعل الصغير نفسه تحت أمه وبين قائمتيها الأماميتين حيث اللواين<sup>(١)</sup>، ويُلقي الصغير خرطومَه إلى الخلف ليرضع فمه، وتدخل الفيول الأخرى في الماء بعد أن تستحق كل شيء في خليج، لا عن حدة، بل عن ضخامة، وتزخر<sup>(٢)</sup> بمنخرها في النيل وتنضح<sup>(٣)</sup> ظهرها بخرطومها وتشرَب وتأكل الكلا العالي في المرج، ولا يمرى لها مضغ، فهي لا تقفُ قفاً عظيماً كما يفعل بقر الماء، وإنما يتوارى كل شيء في هوة لا قعر لها كما يلوح.

وعند ما تأخذ الفيلة في الأوب من النهر تبدو سوداً في سهب أصفر، غير أن أنيابها تلعب أيضاً في الذكور والإناث منها على السواء، ويقود الذكر جنتها، ويأخذ مالك الحزين مكانه من ظهره كالحية الأبيض الذي يموذ كبار المجرمين وشيوخ الأشرار وفق ما جاء في الأساطير، ويرجع الفيل الضخم إلى الغابة مروحاً مبكلاً سعيداً مائداً<sup>(٤)</sup>، والفيل في طريقه يمس بخرطومه شجرة سنط ليري هل تستحق أن تقشر، والفيل في طريقه يلتفت ليطعن إلى أن زوجته وولده يتبعانه، وهكذا يموذ الفيل من ضفاف النيل إلى ظلال الأبنكة البكر المذهامة حيث يسيطر بعقل إنسان بصير فيرتب ويذكر طليقاً طلاقاً موجود عال قوياً أكثر من كل شيء بادياً آخر ملك حقيق للطبيعة.

وهناك حيث يتسع النهر بالتدرج ترى وطن بقر الماء والتمساح، وفي مساقط

(١) اللواين : الضروع — (٢) زخر بمنخره : هخ — (٣) نضح : رش .

(٤) المائد : المتجخر .

### النبح الثاني

مُرَشِسُنْ بِمَجْرَى النّهرِ التّحتانيّ تبصرُ الألوْفَ من هذه الحيوانات ، وتلك المياه التي تُبْدِي نَفْسَهَا للشمس والتي هي حَمَامٌ جَبَّارَةٌ تُحْمِي هذه الموجوداتِ المائيّةَ من كلِّ خَطَرٍ .

والحقُّ أن النّيلَ للمرّة الأولى يُلاقى بِمِجْرَةٍ كبيرة بلا شواطئ كبيرة فيكتورية التي يتركها خلفه من غير أن يراها ، والنّيلُ ، وراء الشّهب الأصفر المُقَطَّع كدلتاً ينتهي إلى طرف بِمِجْرَةٍ ألبرت الشّمالى الأقصى ، والنّيلُ يَجُوبُ هذه البحيرة ، وهنا ، وعلى بعد ٥٠٠ كيلومتر من منبعه ، يَعدّل النّيل عن التّسمّى بنيل فيكتورية إلى التّسمّى بنيل ألبرت لما عَزَزَ به من منبع قوى آخر ، وتوجد مئات التماسيح على جُزُرٍ مستوية وعلى أنوفٍ تتقدم كالسنّة جزائر فريز<sup>(١)</sup> ، وتنبُّ أسماكٌ فضيّةٌ من خلال أمواج خُلجانٍ ملوّنةٍ بألوان قوس قزح على حين يظهر ماء البحيرة أزرق في مكانه آخر ، وعلى الشواطئ حيث يتناوب الغابُ والشّهبُ تَعَبْتُ جماعةٌ رائعة من الأوعال ، وتقرب الطّباء من النّيل الذي يَسْقِي كلَّ حيوان

ولكن النّيل لا يَصْطَحِلُ في ماء هذه البحيرة الصافي كما حدث له في إسْتَنْجِ كِيُونَا ، وسبب ذلك أن جُرَاقاً<sup>(٢)</sup> عنيفاً يَجْرُهُ وَنَحْطُ طريقه ، وفي الغرب البعيد تنصب ظلالٌ بنفسجيّةٌ لجبال شاحنة ، وهناك يَجْرِي نهرٌ كبير آخر ، يَجْرِي نهرُ الكونغو متجهاً إلى الغرب ، ولن يرى النّيلُ هذا النهر ، والنّيلُ يَجْرُهُ مجراه إلى الشّمال ، ولتَر ما الذي يُفَدِّي ذلك المنبع الثاني الذي هو حوضُ بِمِجْرَةٍ ألبرت العظيم ، وذلك قبل أن تفتنى أثر النّيل .

(١) فريز : قطعة من أوربة القريبة واقعة على بحر الشمال بين هولندا وألمانيا .

(٢) الجراف : السيل الذي يذهب بكل شيء .



تَنَحُّ عَقَلَاتُ الْأَنْهَارِ عَلَى سَابِقِ وُجُودِهَا ، وَمَا هُوَ مَوْضِعُ شَكٍّ مُدَّةُ الْحَوَادِثِ وَخَصَائِصُهَا ، وَلَكِنْ أَمْرُهَا يُحْزَرُ كَمَا لَدَى الْإِنْسَانِ . مِنْ خِلَالِ دُبْيِ<sup>(١)</sup> الذِّكْرِيَّاتِ مَعَ تَعَذُّرِ إِثْبَاتِهَا وَإِنْكَارِهَا ، وَارْجِعِ الْبَصَرَ إِلَى أَوْغُنْدَةِ مَعَ ذَلِكَ تَبْصِيرٍ أَنْ حَلَّ مَا قَبْلَ التَّارِيخِ فِيهَا أُيْسِرُ مِنْ حَلِّ التَّارِيخِ نَفْسِهِ مَا دَامَ لِعَالَمٍ مَا قَبْلَ التَّارِيخِ قَدَمٌ فِي الْعَالَمِ التَّارِيخِيِّ هُنَاكَ . وَمَا حَدَثَ لِلْإِنْسَانِ قَدَدُ دُفْنٍ فِي هُوَّةِ الْأَزْمَانِ . وَالْإِنْسَانُ كَانَ يَجْهَلُ الْكِتَابَةَ إِلَى زَمَنِ حَدِيثِ وَكَانَ عَاطِلًا مِنَ الْعِنَعَاتِ تَقْرِيْبًا مَعَ أَنْ مَا قَبْلَ التَّارِيخِ قَدْ نَحَتْ أَطْلَالَهُ وَدَلَّائِلَهُ عَلَى الْجِبَالِ ، فَيُمْكِنُ تَحْمِيْنُ مَاذَا كَانَ عَلَيْهِ يَجْرَى النَّيْلُ الْأَصْلِي .

وَإِفْرِيقِيَّةٌ هِيَ قَارَةُ سَهَادٍ<sup>(٢)</sup> وَمَقَاوِزُ<sup>(٣)</sup> ، وَهِيَ الْقَارَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي يُمَكِّنُ إِطْلَاقُ هَذَا الْأَسْمِ عَلَيْهَا مَعَ اسْتِثْنَاءِ هَضْبَةِ الْبَحِيرَاتِ الْكُبْرَى ، وَمَا حَدَّثَ عِنْدَ انْفِتَاقِ وَجْهِ الْقَارَةِ أَنْ ظَهَرَتْ فَرْجَةٌ تَمْتَدُّ مِنْ رُوْدَيْسِيَّةٍ إِلَى وَادِي الْأَرْدُنِّ مُشْتَمِلَةً عَلَى الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ ، وَقَدْ انْفَجَرَتْ النَّارُ مِنْ جَوْفِ الْأَرْضِ وَأَلْقَتْ كُتْلًا عَظِيمَةً وَجَبَلَتْ مِنْهَا جِبَالًا وَاسِعَةً الْقُوَاهَاتِ ، وَفَتَحَتْ عَلَى سَفْحِ هَذِهِ الْبَرَائِكِ ذَلِكَ الْوَادِي الَّذِي تَكُونُ فِيهِ الْبَحِيرَاتُ وَجَرَتْ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَقَدْ اقْسَمَتْ الْفَرْجَةُ إِلَى خِرَاعَيْنِ فِي جَنْوَبِ حَوْضِ النَّيْلِ ، فَاتَّجَمَعَتِ الْخِرَاعُ الشَّرْقِيَّةُ إِلَى كَيْفِيَّةٍ وَكَوْنَتْ كَلِيمَتَيْنِ جَارَوْ

(١) الدُّبْيُ : جَمْعُ الدُّبْيَةِ ، وَهِيَ الْفَالَةُ مَعَ غَيْمٍ — (٢) الْمَادُ : الْأَرْضُ الْمُنْخَفِضَةُ .

(٣) الْمَقَاوِزُ : جَمْعُ الْقَارَةِ وَهِيَ الْقَالَةُ .

وَكُونَتِ الذَّرَاعُ الثَّرِيَّةُ ثَلَاثَ بَحِيرَاتٍ وَاقِعَةً فِي غَرْبِ بَحِيرَةِ فَيْكْتُورِيَّة ، وَتَمَثَّلُ هَذِهِ الْبَحِيرَةُ انْتِقَاضَ الْحَصْبَةِ بَيْنَ الْقَرَاعَيْنِ .

وهما يكن من رَيْبٍ فِي مَعَارِفِنَا فَإِنْ مِمَّا تَلَوَّحَ صَحْفَتُهُ تَكُونُ الْبَحِيرَاتِ السَّبْعُ بِإِفْرِيقَةِ الْوَسْطَى فِي تَارِيخِهِ حَدِيثٌ نَسِيئًا ، وَتَمَدَّدَ سَهْوًا وَاسِعَةً فِي مَكَانٍ بِحِيرَةٍ فَيْكْتُورِيَّةِ الْحَاضِرَةِ ، وَخَدَّ<sup>(١)</sup> رَوَّافِدَ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ لَهَا ، وَمِنْ الْمَحْتَمَلِ أَنْ وَجِدَتْ طُبُوعٌ<sup>(٢)</sup> وَاسِعَةً مُؤَخَّرًا فَزَادَتْ بِوَابِلٍ<sup>(٣)</sup> مُتَّصِلٍ وَشَقَّتْ طَرِيقًا لَهَا مِنْ بَيْنِ التَّلَالِ الْمَجَاوِرَةِ ، وَالْمَاءِ يُعْبَقُ وَيُوسِّعُ الْغَرَقَ وَيُعِدُّ سَبِيلَهُ إِلَى السَّهْلِ ، وَالِدَوَافِعُ وَالْمَسَاقِطُ آيَةُ هَذَا التَّطَوُّرِ .

وَفَوْقَ الْبَرَائِكَيْنِ الْكُبْرَى وَفُوهَاتِهَا الصَّغْرَى الَّتِي نَدِينُ لَهَا بِالْحَمِّ الْجَمْدَةِ وَالْيَنَابِيعِ الْحَارَةِ وَالْمَرْزَاتِ الْأَرْضِيَّةِ نَرَى انْتِصَابَ شَاهِدٍ ، نَرَى صَخْرًا أَوْ لَيَّةً ، نَرَى مَلَكَ الْجِبَالِ رُؤْيُ زُرُورِي الْمَقَطِّ بِالتَّلْجِ وَالْأَعْلَى مِنَ الْجِبَلِ الْأَبْيَضِ<sup>(٤)</sup> ، فَهَذَا الطَّوْدُ هُوَ فُؤَادُ إِفْرِيقَةِ ، وَمِنْهُ يَجْرِي الْمَاءُ إِلَى الْغَرْبِ وَإِلَى الشَّرْقِ مُعَذِّيًا أَعْظَمَ أَنْهَارِ الْقَارَةِ : النِّيلَ وَالْكُوفُؤَ .

وَلَيْسَ جَبَلُ رُؤْيُ زُرُورِي نَفْسُهُ خَطُّ تَقْسِيمِ الْمِيَاهِ ، وَيَعُودُ هَذَا الشَّأْنُ إِلَى سِلْسِلَةٍ مِنَ الْبَرَائِكَيْنِ تَبْلُغُ مِنَ الْعُلُوِّ ٤,٥٠٠ مِترَ ، وَتَقَعُ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْعَرْضِ الْجَنُوبِيِّ مِنْ خَطِّ الاسْتَوَاءِ ، وَتُعْرَفُ بِسِلْسِلَةِ مَقْنَبِيرُو الَّتِي هِيَ خَطُّ تَقْسِيمِ الْمِيَاهِ الصَّحِيحِ كَمَا يُلَوِّحُ ، وَقَدْ تَغَيَّرَ هَذَا الْخَطُّ فِي أَثْنَاءِ تَنَاسُخِ الْأَنْهَارِ ، حَتَّى إِنْ أَمَرَهُ الْيَوْمَ يَدُو مُلْتَنَسِيًا خَفِيًّا فَلَا يَنْفَكُ عِلْمَاءُ الْجِغْرَافِيَّةِ وَعِلْمَاءُ الْمِيَاهِ يُجَدِّدُونَ قِيَاسَهُ بِلا انْقِطَاعٍ ، وَبِالْأَسْمَاءِ وَحْدَهَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ، وَفِي النِّيلِ تَرْتَبِطُ الْبَحِيرَاتُ الْأَرْبَعُ الْكُبْرَى الْمَسَاءَةُ

(١) خَدُّ الْأَرْضِ : شَقًّا (٢) الطُّبُوعُ : جَمْعُ الطَّيْحِ ، وَهُوَ مَنِيخُ الْمَاءِ ، أَيْ جَمْعُ الْمِيَاهِ وَمَدْخَلُهُ فِي الْأَرْضِ — (٣) الْوَابِلُ : الْمَطَرُ الشَّدِيدُ — (٤) أَعْلَى جِبَالِ الْأَبْ ، وَيَبْلُغُ ارْتِفَاعُهُ ٤٨١٠ مِترَ .



۲ - ساقط زيرين



باسماء ملوك من الإنكليز بالنوع الغريبة في إفريقية ، وفي الكونغو ترتبط البحيرتان الحاملتان لاسمين إفريقيين هما : كيشو وتغانيقا ، وتجدد بين هذه الحدود منابع ذينك النهرين العظيمين اللذين يُحْيِيَان قارة تثير العجب بخبرها<sup>(١)</sup> .

وإذا كان النيل ينال جميع مائه من بحيرات فا هو مصدر ماء هذه البحيرات ، وإذا كان يأتيها من الأنهار ماء أقل مما يأتيها من المطر فا هو مصدر هذا المطر ؟ لا تزال هذه الأسئلة موضع جدال واختلاف .

والآن يُعْتَقَد أن مصدر أمطار حوض النيل هو جنوب المحيط الأطلنطي ، وبظل التبخر<sup>(٢)</sup> والتكاثف ، الناشئان عما بين البحر والأرض من توتر ، متوازنين إجمالاً لا تفصيلاً ، وهناك صراع بين التبخر وتكون الأنهر وجريها نحو البحر ، ولعمق الصحن شأن في هذه الدورة التي تشتمل على ثلث أمطار الأرض ، ولا يزيد عمق بحيرة فيكتورية على تسعين متراً ، ويتبخر من هذه البحيرة أكثر مما تأخذ ، فيعد مهندسو النيل هذا النقص المستمر من المسائل الخطيرة ، والحق أن لبحيرة فيكتورية شكلاً خاصاً لها به جوها ونظام ريحها ، وتقوم عوامل إقليمها الأساسية على تناوب الريح البرية والرياح البحرية ، وعلى كثرة الزوايح وعلى ارتفاع حرارة الماء إلى ٢٦ درجة ، وعلى عدم وجود أشهر جفاف ، وعلى ما يُصَاب به ذلك السطح العظيم من تبخر .

ولا عمل لسوادها<sup>(٣)</sup> في ذلك ، ومن السواعد ما يأتيها من ثلاث جهات مع ذلك ، ولكن ليس لها سوى منفذ واحد ، سوى منبع النيل في شمالها بالقرب من

(١) من خبر اللين إذا نحن واشتد — (٢) التبخر : جاءت هذه الكلمة في المايج بمعنى التدخين بالبخور ، وقد توسعنا في دلالة هذه الكلمة فاستعملناها بمعنى تصاعد البخار (Evaporation) (٣) السواعد : مجارى الماء إلى النهر أو إلى البحر ، ومفردها ساعدة .

### « أم نهر جنجا »

جنجا ، وفي الشمال الشرقى تنزل سيول بانحدار قوى من القون ، البركان المنزوى البالغ ارتفاعه أربعة آلاف متر ، فتأتيها هذه السيول بماء غزير ، ومن سواعدها الخمس عشرة ترمى واحدة مهمة ، فكان يطلق عليها اسم النيل ، وسبب هذا هو أن من منطق الجغرافيين أن يذهب إلى أن أم ساعدة لبحيرة هي النهر الذى يخرج منها ، وأن يرى ذلك فى أمر البحيرات الكبرى فضلاً عن أمر صغرى البحيرات التى يمكن قياس جريانها ورويته من بعيد أيضاً ، وإذا كان هذا الرافد الغربى هو النيل وجب أن يجد أقرب مخرج له على مسافة ٢٥٠ كيلومتر ، والبرهان الوحيد الذى يؤكد تأييداً لهذا الافتراض هو أن السكان الأصليين يسمونه « أم نهر جنجا » .

ورافد بحيرة فيكتورية ذلك ، ويدعى كاجيرا ، هو نهر كبير ، هو نهر عظيم حتى عند عدم حمل لاسم النيل ، ويبلغ طوله سبعمائة كيلومتر ، ويستنزف مائة مئمة الهضبة الواقعة غرب تلك البحيرة ، وتتميز الملاحة فى منافذه الثلاثة بغير الزوارق لتحول هذه المنافذ بحسب علو النبات الذى تحي به من الجبال ، وتبصر ، بعد مسافة صالحة للملاحة كثيرة الترض فى بعض الأحيان ، من القلوع<sup>(١)</sup> والمراجع<sup>(٢)</sup> ما يضايقه فى مجراه القوقانى على حين يستتره البردى ويجعله منقعا<sup>(٣)</sup> ، وهو إذا ما اقترب من منبعه رأى أنه سليل جبل صائل .

كانت سبع مدن تتنازع شرف كونها مسقطاً لرأس أوميرس ، وتزم ثلاثة منابع كونها مهداً للنيل ، ولكل من هذه النابع اسم غريب ، وقد وجد بعد قياسات كثيرة أن الجدول الذى يحمل اسم روفوفو هو مصدر الرافد كاجيرا ، وهو

(١) القلوع : جمع القلع ، وهو الشق — (٢) المراجع : جمع المرج ، وهو الشق .  
(٣) المنقع : للسكان يستق فيه الماء .

يجرى في أرض بَلْجِيَّة<sup>(١)</sup> من ارتفاع أثنى مترٍ على الجانب الشرقى من القَلْق<sup>(٢)</sup> بين تَنْغَانِيْقا وبجيرة إدوارد، وفي الأُبْكَة الكثيفة البكر، ومن المباح لكم عند الرغبة أن تُسَكِّرُموا النيل الأول في ذلك الجدول : رُوْوفُوْو .

٥

تَعَارِقُ سِلْسَلَةُ رُوْوزُورِي في حِضْنٍ واسعٍ ذلك البلدَ الرائعَ الواقع حول البحيرات الغربية، وكان القدماء يسمون تلك السلسلة جبال القمر، وإذا لم يَسْطِيع الزوج أن يُفَسِّرُوا وجودَ الثلج على ذُرَاهَا كانوا يَزْعُمُونَ أنها اجتذبت إليها نُور ذلك الكوكب، والحقُّ أن سِلْسَلَةَ رُوْوزُورِي لم تُصَوِّرْ من عنصرٍ أرضيٍّ كما يظهر، وهي التي تناطح سماء المساء الذهبي بمزلتها مرتفعة خمسة آلاف متر في مِنطَقة خطِّ الاستواء حيث توارى النباتُ واختفى الصَوَّانُ وحيث يبدو جليدٌ قَسَمَهَا وَجَدَّ قِبَابَهَا، وهي منزويةٌ كَفِيلَسُوفٍ يَكْفِيهِ شَمُورُهُ بِقَدْرِ نَفْسِهِ فَقَاوَمَتْ زَمَنًا طَوِيلًا فَضُولَ النَّاسِ وَحَجَبَتْ رُؤُوسَهَا عِدَّةَ شُهورٍ عن ثلاثةٍ من أعظم الرُؤاد فأخذوا يَسْكُونُ فيها يُوكِّدُهُ الزوج، وكثيرٌ أولئك السَّيَّاحُ الَّذِينَ انْخَدَعُوا بِالْخَرِيطَةِ دَلِيلًا لَمْ في البحث عنها فلم يَرَوْهَا قَطْ، وهي أغنى جبال إفريقيا، وهي، لِتَسْكَائِفِ الطَّر على صَخَرِهَا، تَنْزِلُ أُلُوفُ الجداول منها فتَحُولُ إلى أنهارٍ وتَجْتَمِعُ في بِحِيرَاتٍ وتَوَلَّفُ نِصْفَ النيل الآخر في نهاية الأمر، ويمكن جبال القمر أن تُدْعَى مَلِكَةً ذلك البلد، غير أنها والدة له .

(١) Belge, Belgian — (٢) القلق : القلق .

## السَّهْبُ ساطِعٌ

ويتألف من هذه السلسلة البالغ طولها مئة كيلومترٍ ثلاثة مدارجٍ متصافية ،  
والسَّهْبُ أولُها ، والسَّهْبُ ، وارتفاعه ألف متر ، أهمُّها .

والسَّهْبُ ساطِعٌ ، والسَّهْبُ أرضٌ مفتوحة متموجة مُجَرَّاةٌ إلى مروج واسعة مع  
أنواع كثيرة من شجر السَّنَط ، ومن السَّنَط ما هو بلا أوراق وما هو شائك وما هو  
أيضٌ ضاربٌ إلى خُضْرَة ، ومنه ما هو أبيضٌ ذو أوراقٍ خُضْرٍ لامعةٍ بين الشوك ،  
ومنه ما هو أسودٌ كثيرُ الورق أسمرُ الفروع ، ومنه ما هو ذو ساقٍ بَرَّاقَةٍ ضاربةٍ  
إلى حمرةٍ ، ومنه ما هو كبيرُ السناقيد تَرْدِيْنِي<sup>(١)</sup> الزَّهْرُ أزرقُهُ ، ويقوم التَّيْتُوع<sup>(٢)</sup>  
بينه قائماً قائماً مستقيماً مُصَفَّاتاً<sup>(٣)</sup> ، ويلوح كلُّ شيءٍ في التَّيْتُوعِ خاصاً بما قبل الطوفان  
كالقيل ، فهو عُصْلِيٌّ<sup>(٤)</sup> أزغبٌ ، وهو يُثِيرُ في النفس صورةَ أُشْرَةٍ يرأسها زهرٌ  
ضخمٌ أصفرٌ وورديٌّ ، وتُزْهِرُ السَّحْلِيَّاتُ العالية والترجسيَّاتُ القانيَّةُ<sup>(٥)</sup> على  
الأرض اليابسة ، وتوحي ألوفُ الأزهار فوق ضخمِ السَّقْوِ وعلى مستوى الأرض  
برسمِ طاقةٍ ذات غبارٍ أحمر ، وتجري الأنهارُ هنالك حيث السَّهْبُ يَلْمَعُ مُدْهَماً  
وحيث تتجمع الطيور في البرديِّ وفي الأقسام الكثيفة من القاب ، ويَبْلُغُ ارتفاع  
ذلك الكَلَّا أربعة أمتار مع سوقٍ تستفظ غَاطَ الخَيْرُوان ومع أوراقٍ تفتحى بجرٍّ ،  
ويُسمَّى ذلك الكَلَّا على طول النيل عُشْبُ القيل ، والخلنج<sup>(٦)</sup> الأحمرُ الشائك  
الطويل هو الذي يفوقه علوًّا .

وتدنو الوعول من أنهار ذلك السَّهْبِ غير خافقة تقريباً ، وترفع الغزلانُ لأن المغر<sup>(٧)</sup>

(١) التردن : نبات طيب الرائحة — (٢) التتوع : نبات له لبن — (٣) الصمت :  
الذي لا فرجة فيه — (٤) العصلي : القوي العظيم — (٥) القانية : الشديدة الحرارة .

(٦) الخلنج : شجر كالطرفاء — (٧) الفر : جمع المفراء ، وهي مؤنث الأمهر ، أي ما كان  
لونه أهر غير ناصع .



## الوعول

الشَّعْرُ<sup>(١)</sup> قرونها الظرفية وتشم الهواء بمنأخرها على حين يصل الرّت<sup>(٢)</sup> مُتَّدًا خافض الرأس بين الخوف والشجاعة ، وتجاوز الوعول شائك الموسج قافزة ، والبُقعة الخضراء التي تنم على الماءي التي تجذب جميع هذه الحيوانات ، وفيما يحوم أبو سنن<sup>(٣)</sup> فوق أرجال<sup>(٤)</sup> الجراد كالجوارح<sup>(٥)</sup> يطير الخضاري<sup>(٦)</sup> فوق غدير البردي مذعوراً من صفير العقاب .

وفي منطقة رُونزُورِي الثانية ، التي هي بُقعة المضائق والأودية والتي تكثر فيها المساقط ، يحيط بالجلال نطاق يُرى من بعيد ، وهناك تُبصر غابات تَكسوها الأشنة<sup>(٧)</sup> بأشهرها ، وهناك يسطر شجر من طائفة الصنوبر والسرو ، ويلو الخيزران وترتفع اللوبلية<sup>(٨)</sup> مُحَدَّدة مُفَتَّحة العيون بادية شمة زهر كالمرح مع عناقيد متدلّية منها ، وتنصب تلك النباتات الكبيرة في غابة المطر الخالد كالمسلات في المقابر المهجورة .

ويُزهر بالقرب منها شجرُ الخلنج الأحمر الوردى والضارب إلى زُرقة ، ويستر هذا الشجر طحلب أخضر يرتقالي أرجواني متصل بلحية غائمة نازلة من ساقه ، ويتجمع بين هذا الشجر أجداده الموتى تحت كفن من الطحلب الأبيض ، وبين في كل مكان خيزران شبيه مكسور بفعل الريح والمطر ، والحق أن ذلك هو بلد البحيرات وفوهات البراكين .

(١) الشعر : جم الشعراء ، وهي مؤنث الأشعر ، أي الكثير الشعر الطويلة .  
(٢) الرّت : الحنجر البري ، جمه رتمة - (٣) أبو سنن : طائر - (٤) أرجال : جمع رجل ، وهو جماعة الجراد - (٥) الجوارح : جمع الجارحة ، وهي ذات الصيد من الباع والطير والكلاب - (٦) الخضاري : جمع الخضري ، وهو عصفور أصفر اللون ضارب إلى الخضرة - (٧) الأشنة : شيء نائي يكون على الشجر والصخور - (٨) اللوبلية : نسبة إلى النباتي الفرنسي دولويل .

### أضيق المناطق

وهي كثيرة ، وهي تنظر إلى السماء بعينها السوداء غائصة بين حواجز وعرة حافظت على شكلها الاجتدائي ، ويقطع الصمت العميق هدُر اليتام (١) الرزين ، وتُخفي وجود الإنسان أشجار الموز في بقاع محروثة من الغابة مع أكواخ قليلة ، وهناك من المزن (٢) البلقع (٣) ما يكون له في النفس أثر الحديقة المتروكة ولم تذكّرنا ذوات القوائم الأربع بالخطر الداهم من قورها ، وبما رُئي هناك ، وعلى علو ١٨٠٠ متر ، فيول وجواميس ، وبما شوهد هناك أسود تتعب رتة على ارتفاع ٢٤٠٠ متر ، وبما يُظر على ما هو أعلى من ذلك هناك وعول ورتابيج (٤) وفردة وهررة وحشية وأرانب صخرية وثابة ، وأنمار تفامر حتى منطقة الثلج ، ومن بين الطيور تجد الثمرة (٥) ذات الالتعاض الضارب إلى خضرة معدنية تصعد إلى آخر الأشجار باحة عن العسل .

والمنطقة الثالثة هي أضيق المناطق ، وهي مستورة تقريباً ، وعلى الدوام ، بغطاء من الأمطار والقيوم التي تتحول إلى ثلج ، وهي سلسلة من الذرى الثلجية بالغة خمسين كيلومتراً ومماثلة لما في الفقفاس ، وبها يلمع آخر شهود العصر الجليدي من خلال القرون .

وفي سفح تلك الجبال ، وفي غرب بحيرة فيكتورية ، وفي حوض كاجيرا ، حيث يرتفع ارتفاع البلد بين ١١٠٠ متر و ٣٠٠٠ متر ، يُصار إلى الطرف الشرقي من تلك الحضرة الكبيرة التي تنخفض إلى ١٤٠٠ متر دفعة واحدة ، ويبلغ الانحدار من الوعر والوعر ما يمتنع معه قطعه على الحيوانات الوحشية عدا القيل والجاموس .

(١) هدُر اليتام هدراً : قرقر وكرر صوته في حنجرتة ، واليتام هو الحام البري  
(٢) المزن : المرعى — (٣) البلقع : الفخر — (٤) الربايح : جمع الرياح ، وهو الفرد الذكر — (٥) الثمرة : طائر أصفر من السفوف .

وَتَجْمَعُ تِلْكَ الْحَفْرَةُ الَّتِي قَعَرَهَا الْبَرَائِكُنُ الْعَصَالَةُ مِيَاهَهَا مِنْ سُلْسِلَةِ الْبَحِيرَاتِ ،  
وَتَصِلُ لِلْيَاهِ إِلَى تِلْكَ الْحَفْرَةِ بِجَرَى دَلُوفٍ ، وَتَقِفُ الْمِيَاهُ هُنَاكَ وَتَكْسَلُ ثُمَّ  
تَشُقُّ طَرِيقًا لَهَا بِمَنْفٍ .

ونحو الشمال ، وإلى النيل وحده ، تَجْرِي بِحِيرَةُ إِحْوَارِدَ ، الَّتِي تَنَالُ رَوَافِدَ مِنْ  
الْجَنُوبِ وَالشَّامِلِ وَيَذْهَبُ جَمِيعُ مَا يَنْزِلُ مِنْ سُلْسِلَةِ رُوْزُورِي إِلَى النَّيْلِ مَارًا مِنْ  
بَحِيرَةِ جُورْجِ وَبَحِيرَةِ أَلْبَرْتِ ، وَيَتَوَجَّهُ جَمِيعُ مَا يَرِدُ أَوْغَنْدَةَ مِنْ سِيُولٍ وَأَنْهَارِ  
وَبَحِيرَاتٍ إِلَى مَنَبَعِي النَّيْلِ ، حَتَّى إِنْ مَا يَوَدُّ أَنْ يَتَقَلَّتْ مِنْهُ لَا يَقَاوِمُهُ ، وَمِنْ ذَلِكَ  
أَنْ نَهَرَ كَافُو الَّذِي يُبَاكِري النَّيْلَ الْقَتِيَّ سُرْعَةً فِي بَدْءِ الْأَمْرِ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ التَّجَاهَيْنِ ،  
فَإِذَا مَا ذَهَبَ نَحْوَ بَحِيرَةِ كِيُوغَا التَّجَأَ إِلَى نَيْلٍ فَيْكْتُورِيَّةٍ ، وَإِذَا مَا جَرَى نَحْوَ  
الْغَرْبِ انْتَهَى إِلَى نَيْلِ أَلْبَرْتِ ، وَفِي كِلْتَا الْحَالَيْنِ تَرْتَبِطُ حَيَاتُهُ الْوَضِيعَةُ فِي مَصِيرِ  
رَفِيقِهِ الرَّهُوبِ .

## ٦

يَلْتَقِي نِظَامَا مَنَابِعِ النَّيْلِ ، وَيَجْتَمِعُ كُلُّ شَيْءٍ فِي الزَّاوِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ بَحِيرَةِ أَلْبَرْتِ  
لِتَقْوِيَةِ تَدْفُقِ النِّهْرِ الشَّابِّ الَّذِي يُجْهَلُ طَوْلُهُ حَتَّى الْآنَ ، وَقَدْ قَامَتِ الْأَنْهَارُ بِذَوْرَاتِ  
طَوِيلَةٍ وَجَابَتْ <sup>(١)</sup> أَضْوَاجًا <sup>(٢)</sup> غَيْرَ قَلِيلَةٍ ، مَا دَامَتِ الْمَسَافَةُ بَرًّا قَصِيرَةً مِنْ مَنَبَعِ النِّهْرِ  
إِلَى مَصْبِهِ فِي أَوْغَنْدَةَ ، وَهِيَ ٢٥٠ كِيلُومِتْرَ فِي بِلَدِ ذِي وَادٍ مُجَوِّفٍ عَلَى طَرِيقِ  
صَالِحٍ يُقَطَّعُ بِسُرْعَةٍ ، وَبَيْنَ الْبَحِيرَتَيْنِ يَتَجَهَّ نَيْلٌ فَيْكْتُورِيَّةٌ مِنَ الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ

(١) جَابِ الْبِلَادِ : قَطْعُهَا — (٢) الْأَضْوَاجُ : جَمْعُ الضَّوْجِ ، وَهُوَ مُتَعَطِفُ الْوَادِي .

إلى الشمال الغربى، وتَجَرَّى في جِهَةٍ واحدة سواعدُ المِئينِ الثلاثِ المهمةُ التى تَلَاقِيه بعد مسافة وفى فتراتٍ طويلة، وذلك كالأولاد الذين يُقَلِّدون خطأ أبيهم الأولى من دون أن يستطيعوا مسابقة أحوار مصيره الكثيرة فيما بعد .

وبحيرةُ ألبرت التى هى أصغرُ من بحيرة فيكتورية، وأكبرُ ثمانى مراتٍ من بحيرة كونستانس<sup>(١)</sup>، مستودعٌ للأنهار القصيرة والطويلة التى تَصْدُر عن تِلْج جِبَال القمر وأمطارِها، وهى تُغذِّى النبل وتَمَلأ الحُفْرة بين الدرجة الأولى والدرجة الثانية من العرض الشمالى، وتمتدُّ الجبال على جانبيها، وتمتدُّ حدًّا للحيوانات باتساعها وطولها فيعجزُ مُعْظَم أنواع الجراد عن مجاوزتها، حتى إن الزوج يُسمونها بلفتهم الزاهية «لُونَانزِيْنَا»، أى «الضياء الذى يقتل الجراد» .

وقال أحد ملوك الزوج لبعض السياح : «يُمْكِن رُوحَ البحيرة أن تُبْثِر الرياحَ الهاتئة عليكم وتَقْلِب جميع زوارقكم»، وألقى الزوج فيها دجاجاً وخِرَزاً بِحُضرة الملك تسكيناً لها، ويَحْيى الخطر بكلِّ شئ ما كان هنالك مرفأً واحداً فقط وما دام يُسَافِرُ فى قواربٍ صغيرةٍ أو على أرماث<sup>(٢)</sup> غريبة مصنوعة من سَوْق البَرَدَى وما دامت الزواجع والأعاصير تَهْبُ بفتة، وبالعكس تُنْعِم رُوحُ البحيرة على سكان شواطئها بمقاديرٍ كبيرةٍ من الأسماك التى تَذْضِها المواصف إلى الشاطئ فتُوخَذُ بِجبال طويلة أو فى سِلَال، ويُذْكر فى كلِّ حديث يقع بينكم وبينهم خبرٌ عن سمكٍ نهريٍّ عظيمٍ وحيدٍ هنالك من قَبْلِ أجدادهم، ونَبأٌ أكبرُ من ذلك عن الملح .

وماء بحيرة فيكتورية، هذا البحر الداخلى، عَذْبٌ، وماء بحيرة ألبرت مِلْحٌ،

(١) تقع بحيرة كونستانس بين سويسرة والنمسة وإيطاليا وورتمبرغ وبادن، وتتألف من مياه الرين

(٢) الرمث : الطوف، وهو قطع خشب تشد ويركب عليها فى الماء أو تحمل عليها الأنهار .

## الملح

وَمِلْحُ هذه البحيرة رِزْقٌ لِعَظْمِ زَوْجِ تلك البُقعة ، ولا تَصِلُ أيديهم إلى الكَلالِ الطويل الذى يَحْبُكُون به بيوتهم ، فَيُضْطَرُّون إلى ابتياعه من بيدِ بذلك الملح الذى يَسْتَقْمِلُه فى أَغْذِيته نصفُ أُوغَنْدَة كما تستعمله القبائلُ الأخرى وداخِلُ الكُونُغُو البَلْجِيَّةِ حيثُ يُفْتَقَرُ إليه ، وَيَرْسُبُ ذلك للملح فى البحيرة فلا يحتوى النيلُ عند خروجه على شىء منه تقريباً ، ولهذا الظاهرة شَأْنُها فى أُلُوفِ الكيلومترات من المجرى التحتانى ، ولهذا الظاهرة خَطَرُها حتى لمصرَ ، وهكذا يُشْعَرُ فى الشَّيْبِ ، عن قَدَرٍ ، بنتائجِ مغامراتِ الشباب ، وهكذا تَبْصُرُ المِلْحُ العقيم عاملُ حياةٍ فى الجبال التى تَحْمُلُ الحواجزَ الوَعِرَةَ دون زِراعةِ الحبوب فيها ، ولكن الرجال لا يَبْذُون حَرَاكَاً فى جَمْعِهِ ، والنساء هن اللاتى يفعلن كلَّ شىء .

وذلك قَدَرٌ ساحر ، وفى أَقْصَى شمالِ البحيرة الشرقى ، وفى المضائق العميقة ، وبين الصخور وَرَكْسِ الحجارة التى يُحْسِ الرجلُ الأبيض حرارتها من خِلالِ تَعْلُرِ حذائه ، تنبثُ أَبْجَرَةٌ كَبْرِيَّةٌ مُخْرِفَةٌ خائفةٌ وتنبجس من تلك التجاويف مياهٌ حارَّةٌ مالحة إلى الغاية راتقةً ، وفى ذلك الجوَّ تشاهد نساء عارياتٍ عُرِيّاً تاماً يرفعن جُدُرًا صغيرة من طين ، ومن بين هذه الجُدُرِ وفى قنواتٍ ضيقةٍ يوجِّهن الطين للملح ، وبين هذه الجُدُرِ التى توحى بمنظرِ قريةٍ خَرِبَةٍ والى تَفْصِيلِ بعضِ مختلفِ النافع عن بعضٍ يَجْلِسُ النساء والأولاد القُرُفْصَاء وَيَجْرِفُون الطين الذى يَرْسُبُ من الماء يقطع من حديد ، ويلتقطونه أو يُقَطِّرُونَه بحسبِ الحال فى جَوَابِ (١) من صَلْصال (٢) ، والحِذْقُ كلُّ الحِذْقِ فى مَرْجِ التراب والماء مزجاً مناسباً ، وإذا ما بَرَدَ للطَرُّ الترابُ ذهب للملح ، والطَرُّ أَشَدُّ ما يَحْشَوْنَهُ كما أن القَيْتَ أَكْثَرُ ما يَرْجُوهُ

(١) الجوابى : جمع الجاية وهى الخوض — (٢) الصلصال : الطين اليابس الذى يصوت من يسه .

## الأقزام

إخوانهم ، ولتلك المادة التي يستخرجونها من الماء قيمة كالتى تكون ليا يناله غيرهم في مياه أخرى بالرخص<sup>(١)</sup> ، والواقع أن الملح هو ذهبهم .

ويحزم الرجال تلك السلعة الرمادية للزرة في أوراق من شجر اللوز ويضعونها في غلف طويلة ضيقة مصنوعة من سيقان الخيزران ويحولونها على ظهورهم كأنها زوارق نيلية مصقولة ، ثم يسرون أياماً بأشهرها عراً مع حصير للنوم وقرع<sup>(٢)</sup> مملوء ماء حتى ينتهوا إلى الأسواق التي يزن الملح فيها إخوان لهم ويملأونهم عوضاً منها ذخائرهم من البردى والحبيب والخرز والرماح والجلود ، وغاية القول أنهم يفايضون الملح الذى يحكه نساؤهم وأولادهم على أرض بلادهم بين الأبنجرة الخائفة بما يحتاجون إليه في سكنتهم ولباسهم وغذائهم وزيتهم وصيدهم ، وهكذا يقوم بذلك العمل الطريف الذى يلوح أنه عريق في القدم أناس لم يسموا شيئاً عن استغلال الناجم ، وذلك في بقعة لم تطأها قدم إنسان أبضاً منذ مئة سنة .

ويعيش شعب بالقرب من هنالك ، وهو شعب أطرف وأقدم من ذلك ، وهو شعب وحيد في أصله وقصر قامته ، ويسكن هؤلاء الأقزام أحد سفوح جبال القمر ، والآن ترانا أمام هذا الشعب الإفريقى الذى ظل حيث هو منذ أقدم الأزمان ، ويروى أرسطو مؤكداً أن ذلك ليس من الأساطير ، ويروى أرسطو أن أقزاماً يسكنون كهوفاً هنالك ، وليس في رواية أرسطو من الأسطورية سوى ما عثر إلى أولئك القوم من حيازة أفراس صغيرة ، ويلوح أن الأقزام هاجروا إلى الشهب المرتفعة من إفريقيا الجنوبية في غضون القرون ، فلما أخذ الزوج يفلحون المروج دحرج أولئك إلى الآجام عن ضعف ، وهنالك دأبوا على التجمع في غابة الكونفو البكر

(١) رضى الثوب : غشله - (٢) القرع : نوع من البطيخ .

٢ - صاعق في القل







مُوسَّين رُقَّةً أراضهم إلى أن انتصب لهم زونجُ البانتو الذين هم قومٌ طَوَّال فرَّوهم مُجَدِّدًا ، وهكذا ترى الأقزام يُدْعَوْنَ بالبَاكُوَّاء على العموم ، وهكذا ترى الأقزام وهم قومٌ عُنْدٌ ولكن مع حَدَرٍ وَعَزْرُوبُونَ ولكن مع مناعة ، يُمَرُّون أَكْثَرَ مِنَ العروق السَّيْطَرَةِ التي لا يَخْتَلِطُونَ بها إِلَّا نَادِرًا ، وللأقزام تَعْيِينَ لَسَجِيَّتِهِمْ بأجسامهم ومصيرهم ، وهم من كلِّ نَاحِيَةٍ يشابهون النِيلان والعفاريت الذين وَرَدَ ذِكْرُهم في أَقاصيص الشَّمال والذين خَرَجُوا أيضًا من أَصْلَابِ أَقْزَامٍ وَجَدُوا في الحَقِيقَةِ فَعْتَرٍ في أوردية على عِظَامٍ لهم تَرَجِّع في القِدَم إلى العصر الحجري\* .

وليس أولئك الأقزام من اللِّلَّاح ، ولكن ليس فيهم ما يُشِيرُ الشَّخْرية ، ويبلغ طول أجسامهم الشَّعْرُ<sup>(١)</sup> الكَسَنَنَائِيَّةُ اللَّوْنِ أو الضاربة إلى صُفْرَةٍ متراً و ٣٠ سنتمتراً ، ولم يَطُونُ بِاجرة<sup>(٢)</sup> وسُرَّرَ كالأزوار ووجوهٌ مُتَهَارِمَةٌ كالمدة فاهمةٌ يَحِيطُ بها شعرٌ كثيف ، والرجال منهم لِيَحْيَ طَوِيلَةٌ ، ولم عيونٌ لَوَزِيَّةٌ وَأَفْوَاهٌ كبيرة ذات شِفَاهٍ رقيقة ، ويتصفون بالصَّستِ والترصد وبما ليس خاصاً بالزونج من عدم الثَّرتة وعدم الفُضُول ، وما يَمَيِّزُهُم من العروق المجاورة ما في وَضْعِهِم من ذَكَاءٍ وحياءٍ يُدْكَرُ بما عند القِرَّةِ الكبيرة ، وهم إذا ما أَبْصَرُوا في السُّوقِ عُرَاءَ يَحْتَرِزون من السُّود والبيض على السَّوَاء ، وَأَبْصَرَتْ نساؤُهُم لَابِساتٍ ثِيَاباً طَليفةً من قَشَرِ الشجر مع إقدامٍ وَجَفَاءٍ وَهَمْجَةٍ ، وَجِدَتْ فِيهِم صفاتُ العفاريت ، وهم أَلْيَاءٌ مُدَايُونُونَ وَقُسَاةٌ نُصْرَاءُ وعاطفيون عِطَّاشٌ إلى الانتقام وحاقدون شاكرون ، والشَّيْبُ وَحَدَمٌ

(١) الشعر : جمع الشعراء ، وهي الكثرة الشعر — (٢) الباجر من البطون : ما انتفخ منها .

كيف يعيشون ؟

هم الذين يَحْمِلُونَ مِنْهُمْ سِمَاتِ الْأَلَمِ ، وَالشَّيْبُ هُم الَّذِينَ يَتَرَفُونَ أَنْ كُلَّ شَيْءٍ  
كَانَ بَاطِلًا .

ولا يكادون يتحولون في مصارعهم شعوباً تَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مِنْ عُلَى وَتَزْدَرِيهِمْ كَمَا  
يَزْدَرِي الرَّجُلُ الْفِطْرَى مَنْ هُوَ أَصْفَرُ مِنْهُ ، وَلَا سِوَا فِي سَوَاءِ تِلْكَ الْمِفْطَقَةِ الْكَثِيرَةِ  
السَّكَّانِ ، وَكَانَ كُلُّ إِنْسَانٍ حَوْلَهُ يَتَّكِمُ عَلَى الْمَاشِيَةِ وَالْجُبُوبِ فِي مَعَاشِهِ ، وَكَانَ  
الصَّيْدُ عِيداً كَالْحَرْبِ ، وَهُمْ لِقَصَرِهِمْ ، نَتِيجَةً لِلْمَلَامَةِ يَنْتَهِمُ مَعَ الْقُرُونِ ، اضْطَرُّوا إِلَى  
الِاعْتِمَادِ عَلَى الْبَكْرِ فَفَدَوْا عَفَارِيَتَ بَيْنَ الْحَيَوَانَاتِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ وَصَارُوا مِنْ  
الصَّائِدِينَ ، وَهُمْ قَدْ عَاشُوا بِدَوِيْنٍ فِي زُرَابٍ<sup>(١)</sup> صَغِيرَةٍ مَحْبُوكَةٍ بِسُرْعَةٍ وَفِي مَخَابِئَ  
يَتَعَذَّرُ الْعُشُورُ عَلَيْهَا ، فَيَتَجَنَّبُهَا الْبَانْتَوِيُّ الزَّيْجِيُّ الْخِرَافِيُّ عَلَى أَنَّهَا مَأْوَى الْأَقْرَامِ ،  
وَيَحَافِظُ الْأَقْرَامُ عَلَى نَارِهِ لَا يَتَرَفُونَ بِإِقَادَتِهَا ، وَيَجْهَلُ إِخْوَانُهُمْ مِنْ أَهْلِ جَبَلِ  
الْعُتُونِ وَجُودَ النَّارِ ، وَيَشْوِي الْأَقْرَامُ اللَّحْمَ وَالطَّلَحَ<sup>(٢)</sup> ، وَيُتَقَنُّونَ صُنْعَ الْأَبَارِيْقِ  
وَالسَّلَالِ ، وَيَأْكُلُونَ أَكْثَرًا مَا تَأْكُلُ الشُّعُوبُ الْآخَرَى ، وَلَكِنْ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ  
الَّتِي يَذْجُونَهَا وَمِنْ الْخَنَازِيرِ الْبَرِيَّةِ وَالْفِزْلَانِ وَالْقِرْتَانِ وَالْجِرَادِ وَالسَّكِّ وَالْأَفَاعِي ،  
وَهُمْ ، لِذَلِكَ ، يَبْزُدُونَ ثَنَائِيَّامَ<sup>(٣)</sup> وَأُنْيَابِهِمُ الْعُلْيَا فَيَذَرُيُونَهَا<sup>(٤)</sup> .

ويعيش أولئك الأقزام في أكوأخهم الصغيرة عيشاً بسيطاً غريباً ، وَيَتَذَرُّونَ  
يَشَاطِرَهُمْ أَكُوأَخَهُمْ آخَرُونَ ، وَالْأَقْرَامُ يَدْخُلُونَهَا رَحْمًا مِنْ تَقُوبِ كُخْرُوقِ الْقِرْتَانِ ،  
وَنِسَاءِ الْأَقْرَامِ ، دَوَمَا ، عَارِيَاتٌ عَاطِلَاتٌ مِنَ الْحُلِيِّ وَالْقَلَائِدِ وَالْوَشْمِ ، وَلَيْسَ لَدَى  
الْأَقْرَامِ أَيْ مُعْتَدٍ كَانَ كَمُعْظَمِ جِيرَانِهِمْ ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ رُؤْسَاءُ ، وَلَأَحْسَنُ الصَّائِدِينَ

(١) الزُرَابُ : جَمْعُ الزَّرِيَّةِ ، وَهِيَ غُبَا الصِّيَادِ — (٢) الطَّلَحُ : الْمَوْزُ .

(٣) الثَّنَائِيَا : أَسْنَانُ مَقْدَمِ الْقَمِ ثَنَتَانِ مِنْ فَوْقِ وَثَنَتَانِ مِنْ أَسْفَلِ .

(٤) ذَرَبَهُ : جَمَلَهُ حَادًا .

منهم بضعة امتيازات في بعض الأحيان ، وهم لا يَرِضُونَ بشيء قد يُوجدُ شركةً أو حالاً ، وكلُّ واحد منهم يعيش منفرداً مع بعض نِسوة ، وتراهم يُحِلُّون عطفاً مرموقاً نحو أولادهم ، ولا يضع النساء أولادهنَّ في الأكواخ ، بل في الغابة وحدهن ، وهُنَّ يَقَطَعْنَ الحَبْلَ السُّرِّيَّ بأسنانهنَّ كما تَصْنَعُ الحيوانات .

وإذ ليس عند الأقزام مِنْلُ ما عند جيرانهم من دواجن وَخُصَرٍ وزراعة فإنهم لا يجتمعون إليهم إلَّا في عيد أو بعدَ صيدٍ كبير ، والأقزامُ أَمْرَحُ من زنوج تلك البُقعة وأكثرُ وَلَمًا بالموسيقى ، وهم يُقَنُّونَ فِرَقًا وأفراداً ، وهم يَصْحَكُونَ وبَاتُونَ بالأقاصيص ، وهم يشرِّبون قليلاً ويتخذون أوضاعاً لا غبارَ عليها ، والتَّبَغُّ والسَّمُوطُ كلاهما مَدَارُ شَفَهِهِم الوحيدُ .

وهم ، كأقزام الشمال ، مُرَّاقُ شاكرون ، فإذا ما جَنَّ<sup>(١)</sup> الليل وَخَرَجُوا لَسْرِقَةٍ اللَّوْزِ ، وللَوَزِ طامُهم اللَّفْصَلُ الذي لا يَحْوِزُونَهُ في الغابة ، وَضَمُّوا في الغالب قطعةً من صيدهم<sup>(٢)</sup> تحت الشجرة الملوَّبة ، ومما يَحْدُثُ أحياناً أن يُعَوِّضُوا الرجلَ السروقَ ماله بأغرب من ذلك ، وذلك بأن يَدْخُلُوا حَقْلَهُ في أثناء رُقَادِهِ فيَطْهَرُوهُ من الكَلأِ الرديء ، أو أن يَنْصِبُوا مِصِيداً قد يقع فيه حيوان فيأخذه ، أو أن يطردوا القُرودَ من بين أشجار مَوْزِهِ ، ومما يَحْدُثُ أيضاً أن يَحْطَفَ هؤلاء النَّوَرُ الخُبْناءَ من شِيشَةِ القِرْدَةِ زِنْجِيًّا صَبِيًّا وأن يَضَعُوا أَحَدَ صِفَارِهِم بدلاً منه لَأَمِّهِ الزَّيْنَجِيَّةِ المَوَّاءَةِ .

والقيلُ هو محلُّ مِثْلِهِم وهَدَفُ طَمْعِهِم ، والقيلُ ، الذي هو أَضْعَفُ الحيوانات ، هو ضحية أناسٍ صِفَارٍ يستفيدون من قَصْرِ قاماتهم فيصطادونه مشتركين ، وينسابُ أَحَدُهُم

(١) جن الليل : الظلم - (٢) الصيد : ما يصاد .

## صلاهم بالقبائل الأخرى

تحت القليل مُسلَّحاً بحِرَابٍ حَادَّةٍ ، والقيلُ هو من شِدَّةِ ضَعْفِ البصر ما يَفْجِرُ معه عن رؤيته وإصابته بِخُرْطومه ، وَيُنَلِّبُ القيل بذلك الهجوم الغادر ، ويرابط الأقزامُ حَوْلَهُ حَتَّى يُبْلِغَهُمَ تَمَاماً ، وينقصون بواجهه في ابتياع ما يحتاجون إليه ، وَيُبْدُونَ مَكْرَ الأقزامِ فِي صَيْدِ السَّمَكِ كَذَلِكَ ، فَمِنْ يَسُدُّونَ الجداولَ وَيُنْشِثُونَ قَنَوَاتٍ صَغِيرَةً يَجْرِي لِلَاءُ إِلَيْهَا فَيُمْسِكُونَ السَّمَكَ الْمَكَافِحَ بِأَيْدِيهِمْ .

وهكذا صار أولئك الصائدون الصغار مقاتلين وأقياناً<sup>(١)</sup> كِبَاراً ، ويحفظهم إخوانهم الكِبَارُ ، وَيَسْتَفْرَحُونَ مِنْ هَوْلِهِ « الرجال ذوى اللَّحَى الطويلة » ، وهم يُضْطَرُّونَ ، مع ذلك ، إلى الاشتراء منهم مزاريقَ مُطَرَّفَةٍ<sup>(٢)</sup> فِي الْغَابِ وَأَسِنَّةَ حِرَابٍ وَأَسْوَرَةً مِنْ حَدِيدٍ لِنَسَائِهِمْ ، وَتُسْتَخْدَمُ الْقِبَائِلُ الْمُسَيِّطَةُ فِي مَحَارِبَةِ أَعْدَائِهَا ، وَإِذَا مَا أَضْحَى هَوْلُ الْأَقْزَامِ مَشَاوِرِينَ لِرَئِيسٍ تَقَلَّبَ شُكْرُهُمْ عَلَى غَدْرِهِمْ ، وَارْتَبَطُوا بِعَطْفٍ ثَابِتٍ ، خَاصَّةً بِالشُّعُوبِ الْمُضْطَّهِدَةِ مِنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ ، فَيَمِينَ يُحْسِنُ مَعَامِلَتَهُمْ لاسْتِغْلَالِهِمْ .

ومن هم هؤلاء البائسُ الذين هم على خلافٍ دائمٍ مع الأقزام ؟ ومن هم سادة تلك البلاد ؟

## ٧

أَوْعَدَّةٌ بِلَدٍّ أَغْنَى مِنْ جَمِيعِ الْبِلَادِ الْجَاوِرَةِ وَأَوْفَرُ حَظًّا مِنْهَا ، وَذَلِكَ لِمَا تَسْتَمِعُ بِهِ مِنْ جَوْرِ سَخِيٍّ تَتَمَوُّ بِهِ ثَمَرَاتُ الْأَرْضِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهَا ، وَلِمَا أَنْفَمَ الْقَدَرُ

(١) الْأَقْيَانُ : جَمْعُ الْقَيْنِ ، وَهُوَ الْحَدَادُ — (٢) طَرَقُ الْمَبِيدِ : مَدَدُهُ وَرَقَّتُهُ .

عليها به من إبعاد البيض حتى سنة ١٨٦٠ ، وتغنى ألوف السنين ويميش فيها بضعة آلاف من السود هنالك جاهالين شهوات الشرق والشمال ، ويدخلها سيك<sup>(١)</sup> ويكون أول من يتكلم عن شعب فردومي يتحسب نفسه سميذاً ، واليوم لوسيل أوغندي على شواطئ بحيرة فيكتورية لأجاب أنه يأتي من بلاد « يقتبس القمر فيه قواه الجديدة ونوره الجميل الأبيض من ذرى جبال الثلج » ، وهو يمد يده نحو منبع النيل في بعض الأحيان فيقول إنه من البلد الذي يلد فيه النهر الأكبر ، ولكنه إذا ما مثل عن سير الزمن أبصر أن السنة ستة أشهر لغلتين ينالها ، وصرح بأن الشهر الأول من السنة هو شهر البذر وأن الأشهر الخمسة التالية هي أشهر الأكل ، وكان لدى أولئك القوم قبل أن يكشف أمرهم كل ما يحتاجون إليه من موز وجوب وقنول وأسمك وضأن ، وم لم يهلك منهم أناس كثيرون في القرون الأخيرة إلا نتيجة لما اشتمل بين العروق من حروب طويلة .

ويعتقد أن ذلك العرق مزيج من البانتو ومن قبائل نيلية وحامية ، ونحن ، لأنه ليس لدينا وثائق مكتوبة ، نرى أن اختلاط العروق مصدر سعادتها وأن غرورها مصدر سقوطها .

والبانتو ، وهم عرق زنجي مسيطر ، زراع ، مستديرو الرؤس ، ضلع<sup>(٢)</sup> صيحو البنية ، سمر لاعموا الجلود حسنو التكوين ، والباهيا ، وهم قوم من الرعاة انفصلوا عن أولئك بفعل ما كان بين البدوين والفلاحين من صراع ، أجمل من

(١) سيك (جون هاننغ) : رحلة إنكليزي لارتداد وسط إفريقيا فاكشف بحيرة فيكتورية (١٨٢٧ - ١٨٦٤) - (٢) الضلع : جم الضلع وهو الشديد الأخلاق .

من أين عرفوا المغرب

أولئك وأسطعُ لونا مع أنوفٍ مستقيمة وشفاةٍ رقيقة ومنظرٍ من أبوم من البيض وأشهم من الخلاسيات<sup>(١)</sup> .

وفي زمنٍ مجهول أتى الباهيما فاتحين من الشرق ، ومن الحبشة على ما يحتمل ، فاستقروا حولَ بحيرة كيونغا وبحيرة فيكتورية ، ثم قهرُوا في تاريخٍ متأخر من قِبل البانتو الذين يفوقونهم مع ازديادهم للبانتو بسبب امتيازهم منهم جُسناً وحذقاً ، وعلى ما كان من وُضع فريقٍ من كبار علماء وصف الإنسان علامة استفهامٍ بجانب النتائج التي انتهوا إليها من أبدان كلا العرقين وعثنتاهما ترى في تلك الهجرة الباكرة إيضاحاً وحيداً لمادات أولئك الزوج المنزليين عن سواهم .

وبتواريخ لا تصدق وصل ، كما يظهر ، لقاط<sup>(٢)</sup> من حضارة دلتا النيل إلى تلك العشائر البعيدة ، وذلك كشعاعٍ عبقرىٍ يُثير أناساً لم يستمعوا عن وجوده قط ، ولم يحدث في زمنٍ أن أوصل المصريون نهر النيل إلى أوغندة ، ومع ذلك من أين أتى هذا الثورُ السقيم الظهر والمظيم القرنين الذي يسير بين زنوج خط الاستواء كما عُرِضَ في صورِ الجذور المصرية القديمة ؟ ومن أين عرَفَ ملوكُ الزنوج ذلك المِصرَف<sup>(٣)</sup> وذلك البوق المصنوع من قرن الوعل الذين كان الفراعنة يُججِدُون بهما ؟ لا ريب في أن حضارة مصر كانت من القوة ما تؤثر معه في القبائل الحامية العربية بطريق الصومال والحبشة حيث تُبصر آثارها باقيةً ، وقد سارت تلك القبائل إلى الأرض الخصبة حولَ منابع النيل تبعاً لتوجعاتٍ من الحروب والمجاعات ،

(١) الخلاسي : الولد من أبوين أسود وأبيض — (٢) الققاط : السيل الذي يخطئه الحامد فيخطئه الناس — (٣) للزف : آلة الطرب كالطنبور والود والقيارة .

## الأبيض الأول

فَنَقَدَتِ الحَضَارَةُ بِذَلِكَ فِي الزَّوْجِ الَّذِينَ كَانُوا يَجْهَلُونَهَا كَمَا كَانُوا يَجْهَلُونَ الْإِنْسَانَ الْأَبْيَضَ .  
وليس ذلك الشعبُ الذي اكتشفه أوريون في سنة ١٨٦٠ لأول مرة مَدِينًا  
بحضارته لتاجرين أو ثلاثة تجار من العرب أَتَوْا من زنجبار قبل ذلك بضع سنين  
ليشتروا عبيدًا من ملك الزوج ، ولم يكن الأبيضُ الأولُ الذي وَصَلَ إلى البحيرة  
الكبرى ، فَوَجَدَ ذلك الشعبَ ، مُوسِلًا أَو رَائِدًا ، بل جندي زنجباري قارٌّ من دائنيهِ ،  
وَيُوعِلُ الملكَ الزَّنجيُّ به لِيَأْخُذَ بِهِ (١) وَجَالِ شِعْرُهُ وَحَسَنَ لِحْيَتِهِ ، وَمَا انْفَكَّ ذَلِكَ  
الزَّنجِبَارِيُّ يَمِشُ بِجَانِبِ الْمَلِكِ حَتَّى سَنَةِ ١٨٥٧ بَيْنَ نِسَائِهِ الثَّلَاثَةِ ، وَيَكْشِفُ ذَلِكَ  
التَّيْدِينَ ، ذَلِكَ الْجَنْدِيُّ ، لِلْمَلَايِينِ مِنْ سَكَانِ إِفْرِيقِيَةِ الْوَسْطَى حَيَاةَ الْبَيْضِ عَلَى  
حِينَ تَرَى بَعْضَ الْأَدَوَاتِ وَالْمَادَاتِ قَدْ انْتَهَتْ إِلَيْهِمْ مِنْذُ أُلُوفِ السَّنِينَ مِنْ أَمْدِنَ  
بِلَادِ الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ الَّتِي كَانُوا يَجْهَلُونَ حَتَّى اسْمِهِ ، وَيَنْبَغِي بَعْضُ شَيْوخِ الْعَرَبِ  
وَتِجَارِهِمْ بَطْلَ الْحَضَارَةِ الْغَرِيبِ ذَلِكَ .

وَلَمْ يَكُنِ التَّلِكُ ، مَعَ ذَلِكَ ، أَوَّلَ مَنْ بَهَتْ فِي أَوْعُنْدِهِ ، قَدْ اسْتَحْوَذَ الْجَزَعُ  
وَالْوَلَهُ وَالضُّيْقُ مَعًا عَلَى الْبَاهِيَا ، الَّذِينَ أَسْفَرَا مَتَزَاجَهُمْ بِالْبَانَتْوُ عَنْ اسْوَادِهِمْ مَقْدَارًا  
فَقْدَارًا ، نَتِيجَةً لَوْصُولِ أُولَئِكَ الْعَرَبِ ، وَمِمَّا ذَكَرَ الْبَاهِيَا مَوْكِدِينَ أَنَّهُمْ مِنْ عِرْقِ  
أُولَئِكَ وَأَنَّ أَجْدَادَهُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْ حَقْدَتِهِمْ بِيَاضًا بِدَرَجَاتٍ وَأَنَّ شُعُورَهُمْ كَانَتْ  
طَوِيلَةً ، وَيَمْتَشِي الْبَاهِيَا أَنْ يَنْصَبِي حُضُورُ أُولَئِكَ الْغُرَبَاءِ حُضُورَ أَجْدَادِهِمْ لِاِغْتِصَابِ  
أَرْضِهِمُ الْمَحْبُوبَةِ مِنْهُمْ .

وَيَصِلُ الرُّوَادُ الْأَوَّلُونَ ، أَيْ الْإِنْكِلِيزُ ، عَلَى أَثَرِ الْعَرَبِ فَيَحْدِثُونَ أَنْفُسَهُمْ تَحِيَّةَ  
قَوْمِهِمْ يَرَوْنَ رَجُلًا أَبْيَضَ قَبْلَ عَشْرِ سَنِينَ ، وَمَاذَا كَانَتْ حَالُ هَؤُلَاءِ الْوَحُوشِ ؟

---

(١) الْأَدَمُ : الْجِلْدُ .

وَجَدَ الْإِنْكَبِيزُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ يَمِيشُونَ فِي أَكْوَاحٍ مُسْتَدِيرَةٍ مُصْنُوعَةٍ مِنْ سَوْقِ  
الْكَلَأِ الطَّوِيلِ ، أَوْ مِنْ لَيْفِ شَجَرِ التَّوَزِ التَّجْدُولِ بَدَلًا فَنِيًّا ، وَنَاتٍ سُقُوفٍ  
عَلَى شَكْلِ الْقِيَابِ أَوْ ذَاتِ أَطْنَافٍ<sup>(١)</sup> ، وَوَجَدُوا رِجَالًا وَنِسَاءً يَلْبَسُونَ جُلُودًا أَوْ قِشْرًا  
وَيَدُوسُونَ وَقْتُ الصَّبَاحِ طِينَ الْجُدُرِ حَفْظًا لِمَسَاكِنِهِمْ مِنَ الْمَطَرَةِ الْيَوْمِيَّةِ ، وَوَجَدُوا  
فِي الْبِقَاعِ السَّغْدِيرَةَ<sup>(٢)</sup> أَسْدَادًا أَنْشَتَتْ مِنْ جُدُوعِ<sup>(٣)</sup> النَّخْلِ ، وَطُرُقًا مُحَاطَةً  
بِالْقَوَيْسَةِ<sup>(٤)</sup> تَصِلُ بَيْنَ الْقُرَى فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ الْكَثِيرِ السَّكَّانِ ، وَوَجَدُوا الْمَلِكَ قَدْ جَعَلَ  
الْقَتْلَ جَزَاءً مَنِ يَقْصِدُ الشُّوقَ عَارِيًا ، فَلَا يَخْلَعُ الرِّجَالُ جُلُودَ الْحَيَوَانَاتِ عَنْهُمْ  
إِلَّا فِي الزَّوَارِقِ أَوْ فِي الْحَرْبِ ، وَوَجَدُوا النِّسَاءَ يَقْمَنَ بِكُلِّ عَمَلٍ قَبِيزُورٍ وَيَحْصِدْنَ  
وَيَجْلِسْنَ الْقَرْفُضَاءَ فَيَسْتَحْقِنُ الْحَبَّ بَيْنَ رَحْوَيْنِ<sup>(٥)</sup> ، وَيَطْبَخُنَّ عَلَى الْبُخَارِ فِي قُدُورٍ  
مِنْ فَخَّارٍ مُصْنُوعَةٍ بِأَيْدِيهِنَّ ، وَذَلِكَ مَعَ لَفِّ اللَّحْمِ وَالسَّمَكِ فِي وَرَقِ الْمَوْزِ ، وَيَجْعَلْنَ  
خِصَافًا<sup>(٦)</sup> لِلْبَنِّ الضَّارِبِ إِلَى حُمْرَةِ وَالَّذِي يَنْبُتُ شَجَرُهُ فِي أَطْرَافِ الْقَرْيَةِ وَيَعْرِفْنَ  
تَجْفِيفَ الْجِلْدِ تَحْتَ الشَّمْسِ وَشَدَّهَا عَلَى إِطَارٍ وَدَعَكَهَا بِالزَّيْتِ وَتَنْظِيفَهَا حَكًّا  
بِالْحَجَارَةِ وَصَنَعَ نَعَالٍ مِنْ جِلْدِ الْجَمَامِوسِ ، وَوَجَدُوا أُولَئِكَ الْوَحُوشَ قَدْ بَلَّغُوا دَرَجَةَ  
مِنَ التَّمْدِنِ مَا يَتَسَلَّلُونَ مَعَهُ أَيْدِيَهُمْ قَبْلَ الطَّعَامِ وَبَعْدَهُ قَبْلَ شُرْبِ التَّهْوَةِ .

وَوَجَدُوهُمْ يَزْدَعُونَ ثَلَاثِينَ نَوْعًا مِنَ الْمَوْزِ ، أَيْ مِنْ هِبَةِ اللَّهِ هَذِهِ الَّتِي يُمْكِنُهُمْ  
أَنْ يَكْتَفُوا بِهَا وَحْدَهَا ، وَوَجَدُوهُمْ يَصْنَعُونَ مِنَ الْمَوْزِ سَلَاتِقَ<sup>(٧)</sup> عَلَى الْبَخَارِ ثُمَّ  
يُتَخَوَّنُ<sup>(٨)</sup> هَذِهِ السَّلَاتِقُ مَعَ بَعْضِ الْعُطُورِ فَيَنَالُونَ بِذَلِكَ خَمْرًا وَضَرْبًا مِنَ الْحِمَّةِ

(١) الطنف : إفرز الحائط وما أشرف خارجاً عن البناء — (٢) استغدر السكان :  
سارت فيه غدران ، أي قطع من الماء يتركها السيل — (٣) الجنوع : جمع الجنع : وهو ساق  
الثعلب — (٤) القويسة : نبات — (٥) الرحوان : منى الرحي ، وهي الطاحون ..  
(٦) الخفاف : جمع الخففة ، وهي الففة تصنع من خوص النخل أي ورقه — (٧) السلاتق :  
جمع السلقية ، وهو ما يلقى (٨) أخفه : جعله يخف ، أي تظهر حموضته .



## يستولون على السل والدوم

ذاتِ المذوَّبة ، ووجدوم ينتفعون بالشعوف<sup>(١)</sup> في سقوفهم وفروعهم وتغطية اللبن في قدورهم ، ويتخذون جذوع النخل في صنع الزرائب ويحصلون منها مراديس<sup>(٢)</sup> للأرض أو ركائز لجذب الزوارق إلى الشاطئ ، ويستعملون لها كالأشفتنج ويحولون لينها إلى جبال وقلائس ، ويعدون هذه الشجرة شجرة الحياة الحقيقية فتمنحهم جميع ما هو ضروري بعد استثناء اللحم والحديد .

وجدوا الرجال ، عند عدم استمدادهم للحرب ، يصنعون شُصوصاً<sup>(٣)</sup> وخيوطاً لها من ليف القُر<sup>(٤)</sup> ، ووجدوم يخفرون حفاير عميقة صديداً للقليل على أن يجهزوا عليه برماحهم ، ويمسكون الجاموس بأشراك من أغصان شائكة ، ويأخذون الأوعال بجبال والأساد والأعار بفخوخ من سوق شجرية ثقيلة ، وينطلقون إلى الصيد بالثبات ، وأبصروم مخترعين حتى سلاح كان يُظن أنه من أساطير البارون مؤنسهاوزن<sup>(٥)</sup> لو لم يصفه أعظم الخبراء في أمور أوفندة ، ومن ذلك أنهم كانوا يمسكون أفاعى سامّة في الأنيكة البكر ويسمرونها في شجرة فوق أثر طريدة فتثور تلك الأفاعى ألماً وتهجم على الثير أو الحيوان الوحشي الذي يمر وتقتله قفماً للزنجي المتوارى في الجوار ، ومن ذلك أنهم كانوا يحبكون سلاخاً من شرطي القشر ويعلقونها في رؤوس دوح يلاحظون عليها تحلاً ، فتري هذه النحل من السعادة تتخاذ تلك السلال ملجأ تودعه غسلها ، وهنالك يدخنها السود ويستولون

(١) السوف : جمع السف وهو جريد النخل — (٢) المراديس : جمع الرداس ، وهو آلة الردس ، أي تسوية الأرض — (٣) الشصوص : جمع الشص ، وهو حديدة عفاء يصاد بها السلك وتسمى السنارة — (٤) القُر : نبات ذو وهو الصبر أو شبهه — (٥) البارون مونسهاوزن ( كراك ) : ضابط ألابي ولد ومات في جاتوفر ، ويعرف بتبججه الذي صار مثلاً ( ١٧٢٠ - ١٧٩٧ ) :

## « أمجد مولدا »

على القتل وعلى الموت<sup>(١)</sup> الذي يصنعون منه أنواعا من الشمع .

وجدوا أن الرجل يمكنه نكاح ما طاب له من النساء ، والنساء كنّ ثلاثة أمثال الرجال ، والنساء لا يزلن أكثر من الرجال ، وذلك لأنهم كانوا يقتلون بعد النصر جميع الفتيان ويسبون جميع النساء ولا سبيا منهن من حسان الباهيا ، ولذلك كان النساء في أوغندة أرخص ، دوما ، مما في أي مكان آخر ، فكانت الواحدة منهن تساوي ثلاثة ليزان ، ثم أصبحت الواحدة منهن تساوي ست إيزير أو حذاء واحدا .

وكانوا قليلي الولد ، فإذا ما وضعت المرأة للرجل ولدا آخر حق له أن يُقبل أمام بابه مدة شهرين داعيا بذلك أصدقاءه إلى الشرب معه ، وكانوا من مشاعر الأبي والذوق كما يقول جوستن عنهم : « إن جميع الباهيا أمجد مولدا » ، وكان الباهيا يرسلون مرسلات إلى السائح الذي يمر ويدعونه يستريح تحت الخيمة قبل أن يزوره ، وهم لا يزالون يستعملون صيفا غريبة في أثناء الحديث كقول بعضهم لبعض : « أشكر لك ترويحك لنفسك ، أشكر لك إعجابك بي » ، أشكر لك ضربك ولدى .

تلك هي مشاعر وأعمال شعب لم يؤثّر فيه اعتقاد معين أو مذهب خلقي ، تلك هي الحال التي كانت عليها حوالي سنة ١٨٦٠ حضارة أولئك القوم الذين زهم توحشهم . والملك هو الذي كان حاميا لهم ، والملك هو الذي كان له حق الحياة والموت عليهم ، والملك كان محاطا بحاشية كحاشية الكبار ولنجيين<sup>(٢)</sup> مؤلفة من وزير وساق وعازف وزمار وحاجب وحامل غليون<sup>(٣)</sup> وجلاّد وطاير وصانع جعة ، وكان لأحد أولئك

(١) اللوم : الشمع الخام — (٢) أسرة ملوك فرنسا الثانية (٧٥١ — ٩٨٧) — (٣) Pipe .

للكوك أكثر من سبعة ولد ، وكان لديه ، عدا زوجته ، ثلاث من البنات اللاتي أرسلَ منهن نحو ألف وتسعة إلى السوق لبيعهن ، فكان له بذلك أسلوب طريف لجباية الأموال بمنح رعاياه ملاذ حسية ، وكان الملك صاحب الأتيان والقطعان فيقطع « كوتناته » الإقطاع كما كان ملوك الغرب في القرون الوسطى يشرونهم بتمييزهم من سواهم على حساب الفلاحين مع إثارة تحاسد ، وكان الملك على الثروة من هرهم الدولة ، وكان الفلاح قاعدة له مع عطل من الأرزاق كما في عهد قياصرة روسية ، وكان الملك يقرض ضريبة على البقر فيجمل « الكوتنات » مسؤولين عن كل واحد منها ، وكان هؤلاء « الكوتنات » ، عند ظهور أسد ، ملزمين بتنظيم موكب صيد إغناذاً لها كما أنهم ملزمون بالقتال عندما يُنير جبار على البلد .

وكان متيزا الذي هو آخر ذوى السلطان من أولئك الملوك ( ١٨٤٠ - ١٨٨٤ ) يتصف بجميع صفات نظرائه من البيض في أوربة مع حكمة أكثر مما لدى الكثير منهم ، وما حدث أن استقبل الغرباء الأولين في بهو قصره البالغ طوله ثلاثين متراً على صوت الصنوج<sup>(١)</sup> محاطاً بالأعلام وبمحملة الرماح مظهر عزة الصاهل الأكبر . ويظهر ذلك الملك مدبراً بنسج من حرير الهند قاعداً ماداً ساقه أمامه كملوك الغرب في الرسوم القديمة ، ويميل أولئك الرجال الذين بدوا له من الآلة بلطف ومن غير فضول فأجابه بدلاً من أسرهم أوقتلهم ، ومن أين تعلم أن الكرامة واليكاسة من صفات السيد الحقيقي ؟ وكان البهو من لقاط سوق النبات ، ولكنه من الاتساع كما حدى الردهاء في رومة ، وكان الملك يأكل محاطاً بالنساء والنساء ،

(١) الصنوج : جمع الصنج ، وهي صفيحة مدورة من النحاس الأصفر تضرب الأخرى مثلها للطرب .

### أقوال متيزا

وكان الوزير وحده واقفاً عند الباب إبعاداً لتبني السوء من الأطباق الثمينة ،  
والوزير وحده أكل الفضال ، والملك إذا تكلم آتذّر صاح الندماء بعد كل جملة  
قائلين « نيانيزي - جه » أي « سحداً ! حسناً ! » وليس سوى هذا ما يقال حول  
موائد البلاط في أوربة .

ومن ذا الذي علم متيزا أن على الملك أن يفسح حوله أيه أسطورة من  
الخيال قبل كل شيء ؟ ومن قول متيزا : « مريض والذي في مشيبه فكان يذبح  
في كل يوم مئة غلام تسكيناً للأرواح الشريرة ، فلما استردّ صحته وخرج كما في الماضي  
راكباً متنّ وزيره الأول وقع ميتاً ، وقد خيط ضمن جلده بقرة فترك يعوم فوق  
بحيرة مدة ثلاثة أيام ، إلى أن دبّت عليه ثلاث ديدان ، وهناك جيء به إلى  
البيت حيث تمحّل إلى أسد ، وأما جدّي فقد كان من القوة ما كان يمكن عيشه  
مُخلداً لو لم يفرّ من هذه الدنيا كساحر بعد أن عمّر فاسحاً في الجبال لابنه الذي  
طال انتظاره » .

— ومن كان جدّ آلك ؟

قال الملك متيزا : « إني الابن الثامن عشر من السلالة ، وكان مؤسس  
يقى صياداً مشهوراً جاء من مكان بعيد ، وكان من البأس والجمال ما عيشته الملكة  
من فورها فسوّت زوجها وجعلته ملكاً وأباً للملك التالي » .

وروى الرواد ثلاث قصص طريفة عن متيزا ، ومنها أنه ودّ مرور غنيمة  
له من بلدٍ مُعادٍ فأرسل إلى الملك الزنجي مئة مغول ومئة ثبلة ، وأرسل  
إليه قوله : « إذا كنت تريد النمل فخذ هذه الماولة لحث الحقل ،  
وإذا كنت تريد الحرب فخذ هذه الثبالة فسوف تحتاج إليها » ، ويأخذ الملك

الماول وَيَلْقَبُ بِالْمَلِكِ ذِي الْمَاوِلِ الْمَتَّة .

ويستقبل مُتَيَزَاً إنكليزياً ، ويمتدّر له هذا الإنكليزيُّ عن كون الهدايا التي أحضرها له قد جَرَفَتْهَا الْبِياهُ ، فاسمع جوابَ مُتَيَزَاً : « أَجِلْ ، إن الأنهار الكبيرة تنبتلع الأنهار الصغيرة ، ولكنني لا أَفْكَرُ في أمرٍ آخر بعد أن رأيتك » .

ويوضح ستانلي<sup>(١)</sup> مُتَيَزَاً حركاتِ اللَّفْصَمِ وَعَضَلَاتِ الْأَصَابِعِ على ألواحٍ تشريحية فيَصْرُخُ مُتَيَزَاً قائلاً : « أَجِلْ ، إن هذا الأمر عجيبٌ ، ولا أستطيع صنع مثله ، ولا ينبغي لي أن أَتْلِفَ شيئاً لا أَقْدِرُ على فعله » ولم يُعَمِّمْ مُتَيَزَاً أن صَلَّمَ<sup>(٢)</sup> أحده رعاياه لأنه لم يَرُقُّه !

ومن الغريب أن يَفْبُدَ أَهْلُ أَوَغْنَدَةِ الْإِلَهِ النَّيْلِ مع أنهم لا يَفْرِقُونَ بَيْنَ طُفُولَتِهِ الْوَحْشِيَّةِ ، وهم يجهلون مآثره ومصيره بعد ألفِ فرسخٍ من بلدٍهم .

ومن النفوس الشَّرِّيرة مَنْ هم في جُزَيْرَاتِ الْبَحِيرَاتِ ، فما حَدَّثَ أَنَّ الْمَلِكَ أَرَادَ سَفَرَ رَحَالَةٍ أَمْرِيكِيٍّ آمَنًا فَأَمَرَ بِقَطْعِ رُؤُوسِ سَبْعَةِ سَحَرَةٍ رُئِيَ أَنَّهُمْ غَفَارِبُ الْبَحِيرَةِ .

ويَتَوَجَّهُ مُتَيَزَاً إلى منبعِ النهرِ ابتهاجاً بِمَهْرَجَانِ النَّيْلِ الْأَكْبَرِ ، وتَقْدُمُهُ فِرْقَتُهُ الْمَوْسِيقِيَّةُ الْكُبْرَى مع زُمَايِهَا الْمَنْصُوعَةِ مِنَ الْقَصَبِ وَأَبْوَانِهَا الْمَنْصُوعَةِ مِنْ قُرُونِ الْوَعُولِ وَقِثَارَتِهَا الْمَنْصُوعَةِ مِنَ الْخَشَبِ وَجِلْدُ الْحَيَوَانِ وَأَوْتَارُ الْخُصْرَانِ ، وفيما يرقصُ أُلُوفُ النَّاسِ على صوتِ هَذِهِ الْمَوْسِيقَى يُجَاوِزُ الْمَلِكُ الْبَحِيرَةَ بِحَفْلاً فَوْقَ

(١) ستانلي : رحلته إنكليزية ارتاد إفريقيا الوسطى ( ١٨٤١ — ١٩٠٤ ) .

(٢) صلبه : قطع أذنه .

السفينة مستصبجا نساء كثيرا ، وخرأ ، وذلك بعد أمر المجذفين <sup>(١)</sup> بأن يَخْفِضُوا رؤوسهم لكيلا يروا النساء ، وذلك هو نبه ملك أوغندة متيزا ، ويشابه قبره لحد بطل لإحاطته بالحراب والرماح والسهام .

وهكذا تبتصر شعبا فطرياً موهوباً يُثبت بصاداته وبماله من نظام حكومي فردوسي ارتقاه إلى طور من الحضارة لا يكاد يكون في الأساس أدنى من الذي بلغه البيض بعد تطور صعب ، وما يمايه البيض من صراع ألهي بسبب الدين فيمنعنا عنادهم في ميدانه ، وذلك عند نظرنا إلى زوج أميين عاطلين من كهان يؤمنون بكائن ألهي خلق العالم ، ولكن مع دراية يُفصون بها كل طقس ديني ، وما كان جوابهم عن سؤال الرواد الأولين إلا قولهم : « إن الله هو من الملوك ما لا يبالي معه بأعمال الإنسان » .

وبدل ذلك الإيمان الكنون <sup>(٢)</sup> عند شعب فطري في منزل عن الأجانب ، وصاحب نظام وأدب لا جدال فيها ، على نكدر <sup>(٣)</sup> أديان الأمم المستعمرة العظيمة ، التي تدعى بالسيطرة ، في إثارة حس النظام وشعور الجماعة ، وإذا كانت الهمجية تدفع إلى الحرب فإن الكسل لا يوجب القسوة ، ولا وراء في أن أولئك الناس يعيشون عيش أجنة وأنهم لم يرتقوا إلى غير الدرجة الأولى من الحضارة ، ولكن مع بقائهم أعمد مما يكونون عليه لو عرفوا عجائب البيض التي لا تُنال بلا عمل ، ومن السود أناس خضعوا منذ قرون لتأثير الحضارة الأوربية وأديانها فظلوا في حال من الحيوانية . وما هي النافع التي نالها شعوب أوغندة السعيدة من وصول البيض المتأخري إلى منابع النيل ؟

(١) المجذف: من يدفع القارب بالمجناف — (٢) للكنون: المصون — (٣) النكد: الله الحير.

تقوم منازلُ جيلةِ الألوان على شاطئِ بحيرة فيكتورية الشَّمالِ كَالتي جاءت في صُورِ يُوغيس دُوشافان<sup>(١)</sup>، وذلك في حديقةٍ عميقةٍ مُحضَّرةٍ لا يَعرِفُ الجَنَافُ إليها سبيلاً، وذلك تحت ظلالِ أشجارِ الجَمِيزِ وبينَ بساتينَ مزهرةٍ على الدوامِ، ومن بين تلك المنازل وعلى طُرُقِ حُرِّ مُعبَّدةٍ يحيطُ بها سَنَطُ ذو عناقيدٍ صُغرى تُبَصِّرُ سياراتٍ تنحدر نحو الخليج، وتُبَصِّرُ زَيجينِ يُسوِّيان الأرضَ راكِبينَ عَرَبَةٍ مُقرَّنةٍ بقرَّةٍ فيها، وتُبَصِّرُ حِجْزاً<sup>(٢)</sup> الكلاَّ القصير وهو يُطلقُ، وتبصر لهذا الحِجْزِ مِقْبَضاً ذا انكاسٍ فضيٍّ في يد قائده السراء اللامعة، وهكذا يعيشُ سادةُ الدنيا في عَنقَبَةٍ التي هي وَشَنغَتُ الصغرى في أُوغَنْدَة كما أن كِبَلاً الواقعة في شمالها القريب تُمدُّ نيو يورك أُوغَنْدَة لِحركتها التجارية، وتنتصب على سبعة نلال كَنائسٌ بعدد المذاهب النصرانية تقريباً، وتحفَظُ الحُودُ رؤوسَ الإخوان البيض الأَلاحي<sup>(٣)</sup> ورؤوسَ الراهبات اللاتي يضعنَّها على عصائبِ هاماتهنَّ، واللَّاتي لا يَدَعْنَ واحدةً من نَقِيبِهنَّ<sup>(٤)</sup> في نيوتن، وهناك تَهبطُ طائرةٌ بيضاء آتيةٌ من لندن في كلِّ أسبوعٍ لتذهب إلى الكاب، ويَهتَفُ لها الإنكليزُ بحماسةٍ، ولا يكاد سكان البلاد الأصليون يلتفتون إليها.

ولا يُقيمُ الزُّرَّاعُ بُشواطى البحيرة وحدها، بل تَجِدُ لهم في مكانٍ بعيدٍ جداً،

(١) يُوغيس دُوشافان : رسام فرنسي ( ١٨٧٤ - ١٨٩٨ ) — (٧) الحِجْزُ آلة الحِزْ، من جز المشب إذا فُطِلَ — (٣) الأَلاحي : جمع الأَلاهي وهو الطويل الحية .  
(٤) النَقِبُ : جمع النَقْبَةِ ، وهو ثوبٌ كالإزار يشدُّ كما تشدُّ السراويل .

في سواهِ الغابة اليَكرُ ، في فُوزبُورْتال ، بيوتاَ استعماريةَ جميلةَ ، وينبُت في حدائقهم ، كما في ديفُونشَاير<sup>(١)</sup> ، الشَّلْكُ<sup>(٢)</sup> والبنفسج والنرجس والزعفران ، وهنالك ، في جَنُوب بحيرة ألبرت ، وعلى حدود الكُونفُو ، وحيث مُلتقى الطُرُق الكبرى ، تتلاقى السياراتُ والقائمون وسكانُ البلاد الأصليون بالسُّوق في أيام مُعيَّنة .

وَيَصِلُ الأوغَنْدِيُّونَ مُدَّثِرِينَ بِنُسْجٍ زاهيةِ الألوانِ وَفَقَ الزَّيِّ الإِغْرِيقِيَّ حَامِلِينَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ قَرَعًا ذاتِ أعناقٍ أُنِيقَةٍ أو أَوْعِيَةٍ خَزَفِيَّةٍ عَلَى الطَّرَازِ الكِيرِيَتِيَّ ، وَيُظَلُّ كَثِيرٌ مِنَ النِّسَاءِ سَاكِنَاتٍ كَالْتَمَائِلِ مَضْفُورَاتِ الشُّعُورِ أو مُرَزَقَنَاتِهَا<sup>(٣)</sup> . كَقِصَصَاتِ الرُّومَانِ مَثِيرَاتٍ فِينَا ذِكْرِيَّاتِ القُرُونِ الغَابِرَةِ ، وَبِالقَرَبِ مِنْهُنَّ يَتَكَيَّ رُعَاةُ عُرَاةٍ عَلَى عَصِيهِمْ مُتَخَذِينَ وَضْعَ الأَجْدَادِ مِنَ الرُّعْيَاكِ مِنْذُ أَلُوفِ السَّنِينَ ، وَيَمْدُّ أَزْوَاجُ عُرَاةٍ ذُرْعَاتِهِمُ الشُّعْرَ نَحْوَ صُرَرٍ مِنَ المِلْحِ فَيَعْرِضُ عَلَيْهِمْ أَخْذَهَا مُقَابِضَةً مَعَ تَرْدُدٍ .

وَالْمَهْدِيُّ الصَامِتُ السَّاحِرُ النَّظَرُ يَسِيطِرُ عَلَيْهِمْ كُلَّهُمْ فِي أَوْ كَوَاخِجِ مَصْنُوعَةٍ مِنْ نَسِيجِ القَنَبِ حَيْثُ يَفْعُضُ لِلْبَيْعِ ذَخَائِرَ أَوْ رِيَّةَ ، وَيَمْدُّ الزَّيْجِيَّ إِلَيْهِ قُوْدًا إِنْكَلِيزِيَّةً كَسَبَهَا فِي مَزَارِعِ البِيضِ بِمَشَقَّةٍ ، وَيُقَدِّمُ إِلَيْهِ بَدَلًا مِنْهَا مَصَابِيحُ يَتْرُولُ وَأَبَارِيقُ شَايٍ وَمِطَالٌ وَطَنَائِيرُ<sup>(٤)</sup> وَدَبَائِيسُ شَابِكَةٍ وَأُطْرُقَدِيمَةٍ ، وَلَكِنْ الإِنْكَلِيزِيُّ يَفْلُو الْمَهْدِيَّ ، وَالإِنْكَلِيزِيُّ هُوَ الأَمْرُ السَّيْطَرُ ، وَهُوَ يَلْبَسُ ثِيَابَ الاسْتِمَارِ البِيضِ وَيَرْكَبُ سِيَارَتَهُ ، وَهُوَ لَا يَزَالُ يَبْدُو نَصَفَ إِلَهٍ ، وَإِلَى مَتَى ؟

(١) ديفُونشَاير : إحدى المناطقِ بِإِنْكَلِتْرَة — (٢) الشَّلْكُ (Fraise, strawberry) : الثَوْتُ الفَرَنْجِيّ ، وَالكَلِمَةُ مِنْ أَصْلِ تَرْكِي — (٣) زُرْفَن شَعْرَةٍ : جِلْدُهُ كَالزَّرَافِينِ ، وَهِيَ المِلْحُ الصَّغِيرَةُ ، وَاحِدُهَا زُرْفَن — (٤) الطَنَائِيرُ : جَمْعُ الطَنَبُورِ ، وَهِيَ آتَةُ الطَّرْبَةِ المَعْرُوفَةُ بِالبَزَقِ .





— کورغا والی پور



### ياسف في آخر عمره

وتمضي ثلاثون سنة على اكتشاف الإنكليزي الأول لأوغندة في سنة ١٨٦٠ ،  
ويبدأ الإنكليز حوالي سنة ١٨٩٠ باستغلالها رويداً رويداً ، ويسير كل شيء في  
البداية سيراً حسناً ، ثم يثور الزواج على البشرين ، ولم لا يؤذن لهم بأكثر من  
امرأة واحدة بدلاً من ست ؟ ذلك تديروا حسن للفقراء الذين لا يستطيعون أن يشرؤا  
بما لديهم من الوسائل أكثر من واحدة ، وهل في ذلك ما ينافي الأدب ؟ هم  
يجعلون أن الرجل في أوربة لا يحق له أن يتزوج أكثر من امرأة واحدة ، ولكنه  
ينال زوج جاره بلا جزاء ، على حين يُمكن الزنحى هنا أن يفتح عدة أزواج ،  
ولكن من غير أن يأخذ زوج الجار بلا عقاب ، والزواج عرفوا فقط أن التوم أرادوا  
تحریم عادة يقوم نظامهم الاجتماعي عليها ، ومن ثم كان عصيانهم وقنالم ،  
ويأتسف الملك مُتيزاً في آخر عمره على أنه ترك البشرين يدخلون بلاده ، وينشأ  
أسفه عن تنازع الإخوان الفرنسيين الكاثوليك ومرسلي الإنكليز ، وينفر الشعب من  
بعض الشروط التي فرضتها الحكومة الإنكليزية على ابن مُتيزا في معاهدة  
سنة ١٨٩٠ ، وتشعل الحرب ويُقهر الملك ويُنفى ، ويشابه ابنه بمظاهر الملك  
أجداده مشابهة تسري أسير لرفقائه الطلقاء ، والسكون يسود البلد منذ سنة ١٩٠٥ .  
ولم يحتفظ الإنكليز بذلك القطر الفاخر بلا قتال حقيقى إلا باحترامهم للأسماء  
والأشكال على قدر الإمكان ، وتركهم للرؤساء قضاء سطحيّاً وشعوراً بالاشتراك في  
الحكومة ، والإنكليز مع ذلك ، قد صمّموا لأنفسهم حقّ الرضى في تعيين أحقر  
رجال الشرطة كما كان الإمبراطور الرومانى المقدس يمترض على تعيين الأساقفة في  
القرون الوسطى ، والإنكليز ، فضلاً عن ذلك ، يُؤوِّزون سراً ، كؤازرة الملك  
مُتيزا رجاله في كفاحهم ، جهود مُرسليهم الذين حُظر عليهم كل عُنف في حمل

الآخرين على احتمال دينهم ، والذين يُعَلِّمُونَ السُّودَ قواعدَ الصحة وَيُنْشِئُونَ المدارس ، وما تَدْرَجُ به الإنكليز من رَشَدٍ وعِنايَةٍ قد عاد عليهم منه أَجرٌ كبيرٌ ، والإنكليزُ يَقْبِضُونَ بذلك على ناصيةِ بلدٍ مَتَمَّ لِحُطوطهم الجوية والتجارية ، والإنكليزُ في الحرب العالمية (الأولى) قد جَمَعُوا مِثْلَ ألفِ مقاتِلٍ زَنْجِيٍّ حَارَبُوا بِهِمْ جيرانَهُم أَلَمَانَ إفريقيا الشرقية ، والإنكليزُ قد وَجَدُوا سَوْقًا جَدِيدَةً لِسِلَاحِهِمْ ، والإنكليزُ يَبِيعُونَ تسعينَ في المئة من أُمِّ محاصيل أُوغَنْدَا بملْيُونِ جَنِيهِ في الإمبراطورية البريطانية ، وقد بلغت الزيادةُ في ميزانية ذلك البلد السنوية مليونَ جَنِيهِ منذ بضع سنين .

وهنا يُسْأَلُ : هل اسْتَرْقُوا ملايينَ الزوجِ الثلاثة ؟ كَلَّا ، وإليك قائمةٌ ما رَبِحَهُ الزوج من اكتشافِ بلادهم والاستيلاء عليه :

يتعلم السَّواحِلِيَّةُ<sup>(١)</sup> والإنكليزية وإحدى العِرَفِ مِثْلَ ألفِ ولد ، أى ما يَعدَّلُ عددَ الجنود الذين قَدَّمَهُم الزوج في أثناء الحرب ، وَيَفْدُو الكثير منهم ساقين ، وَيُنْقِذُ الطَّيِّبُ الأَبْيَضُ كَثِيرًا من الفَتَيَانِ والصَّبِيَّانِ مِنَ اللُّنُونِ<sup>(٢)</sup> ، وَنَحْيَا مِسَاحَاتٍ واسعة من الآجام ، وَيُمْنَعُ دُخُولُهَا ، وَيَسْلُكُ ذُبَابُ نَسِي نَسِي<sup>(٣)</sup> سَبِيلَ الزَّوَالِ فيزول معه مَرَضُ النومِ وَيَقِلُّ الموت ، وإذا أراد الزَنْجِيُّ تَرْكَ القرية التي هي مَسْقَطُ رأسه طَلَبًا لِلرِّزْقِ حملته باخرةُ الأَبْيَضِ بأجرة زهيدة إلى الطرف الآخر من بحيرة كِيُوغَا ثم عاد الزَنْجِيُّ مع قليلٍ مالٍ ، وَيَتَنَدَّرُ أَنْ تستولى جماعات الفِئُولِ على الحَقُولِ

(١) السَّواحِلِيَّةُ : اسم لغة أهل زنجبار وما يجاورها من تلك الديار — (٢) اللُّنون :

الموت — (٣) نَسِي نَسِي : ذباب من ذوات الجناحين ، ولا يوجد إلا في إفريقيا ، وكلا الذكر والأنثى يملو على الإنسان والحيوان نهاراً فقط ويمتص الدم بفره .

فَتَأْكُلَ غَلَاظًا فِي سَاعَةٍ أَوْ سَاعَتَيْنِ ، وَتُنْظَمُ الْحُكُومَةُ أُمُورَ صَبِيحِهَا وَتَنْقِصُ عِدْدهَا وَتَرْقُبْهَا وَتَكْفَحُ غَرْوَهَا .

وَتُصَنَّفُ حَيَاةُ الزَّوْجِ وَعِلْمُهُمْ ، فَتُصَنَّفُ أَكْوَاحُهُمْ مِنَ الصَّلَاحِ بَدَلًا مِنَ الْإِيفِ ، وَتُعَرَّضُ فُرُشُهُمْ ، وَتَنْمُو الْقَوَاكِي فِي كُلِّ وَقْتٍ ، وَلَكِنَّ السُّودَ فِيهَا مَضَى كَانُوا يَكْثِرُونَ قِطْعَةً مِنْ قِصْبِ الْسُكْرِ فِي أَثْنَاءِ مَرُورِهِمْ وَيَبْزُمُونَ<sup>(١)</sup> عَلَيْهَا وَيَمْضُونُ عَصَارَتَهَا وَيَرْمُونَهَا ، وَالْيَوْمَ يَقَطِّعُ السُّودُ قِصْبَ الْسُكْرِ فِي الْحَقُولِ الْمَزْرُوعَةِ بِالنِّتَاطِ وَيَأْتُونَ بِهِ إِلَى مَشْطُولَاتٍ صَغِيرَةٍ تَحْتَ سَقْفِ مَعْمَلِ الْسُكْرِ لِلْمَصْنُوعِ مِنَ الْحَدِيدِ الْمَصْفَحِ الْمَتَوَجِّجِ ، وَيُنْثَى لَهُمْ صَاحِبُ هَذَا الْمَعْمَلِ حُجَيْرَاتٍ قَرِيبَةً مِنْهُ إِغْرَاءً لَهُمْ عَلَى الْوَدِّ فِي الْغَدِّ أَوْ بَعْدَ الْغَدِّ ، وَكَانَ السُّودُ يَدْخُلُونَ تَبَعًا بَرِّيًّا فِيهَا سَلَفًا ، وَالْآنَ يَرْزَعُونَهُ وَفَقَّ الْأَصُولُ ، فَيَشْتَرُونَ بِشَمْنِهِ سَفَابِرَ أَوْرِيَّةٍ تَسَحَّرُ الْأَقْلُدَةُ ، وَكَانَ السُّودُ يَجْمَعُونَ الْبُرْنَ الْبَرِّيَّ الْأَحْمَرَ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ لِيُحْمِصُوهُ وَيَشْرَبُوا مَحْلُولَهُ بَعْدَ نَفْعِهِ ، وَالْآنَ يَجْلِسُونَ الْقُرْفُصَاءَ تَحْتَ شَجَرِهِ الصَّغِيرِ الْمَغْرُوسِ عَلَى أَسْطَرِجِيهِ فِي سِلَالٍ ثُمَّ وَضَعَهُ فِي أَكْيَاسٍ تَحْمِلُهَا عَرَبَاتٌ تَقْلُ بَعْدَ الْوِزْنِ .

وَكَانَ أَجْدَادُهُمْ يَشْقُونَ سُوقَ الشَّجَرِ ذِي الزَّهْرِ الْإِكْلِيلِيَّ الْأَخْضَرَ نَيْلًا لِمَصَارِفِ كَزَجَةٍ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ كَانُوا كَالْمُنُودِ الْحُمْرِ الَّذِينَ أَبْصَرُوا كَرِيشْتُوفَ كُولْنِبِسَ يَلْبَسُونَ بُكَرَاتٍ كَبِيرَةً سُودِيَّةَ نَطَاطَةٍ قَعَصَى مِنْهَا الْعَجَبُ ، فَتَعَلَّمَ الْأَوْعَنْدِيُونَ زَرْعَهُ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ عَلَى صُفُوفٍ كَمَا تَعَلَّمُوا تَقْرِيبَهُ<sup>(٢)</sup> بِمِياضِ<sup>(٣)</sup> مَسْنُونَةٍ جَيِّدًا وَعَلَى عُقْمٍ مُرْتَفِعٍ وَاتِّجَاهٍ مَحْدُودٍ فِي سَاعَةٍ مَعِينَةٍ ، وَذَلِكَ عَلَى أَنْ يَرْجِعُوا وَقْتُ الْعَجْرِ

(١) بَزَمَ عَلَيْهِ : عَضَهُ بِفَمِهِ أَسْنَانَهُ — (٢) فَرَضَهُ : حَزَنَهُ — (٣) لِلْبَاسِ : جَمِيعِ الْمَبْعِ ، وَهُوَ آلَةٌ يَشَقُّ بِهَا الْجِلْدُ وَمَا شَاكَلَهُ .

## القطن

حاملين دلاًء صغيرة ، أى حينما تَسِيلُ العَصَاةُ بفزارَةٍ ، ويشاهد السودُ في المصنع الجاور سرعةَ تجبید هذا اللَّبَنِ الذی يُقَطَّعُ عَصَائِبَ أو صَفَائِحَ ثم ضَفَطَهُ ، فَيُصْجَبُونَ بروح البيضِ المُتَبَدِّعةِ وبكلِّ شئٍ جدیدٍ یجدونه فی بلدِهِم القديم .

وإذا كان السودُ ینتفعون منذ زمنٍ طویلٍ بالحديد الخلامِ فی صنعِ سِهامِهِم فإنهم اليومَ یَنشُدونَ فَيَجِدُونَ مَعْدِنًا أَحْسَنَ من ذلكَ ، یَجِدُونَ مَعْدِنًا یَلْمَعُ على نورِ الشمسِ ، ویَظْهَرُ البیضُ ، الذین یأروْنَهُم بالبحثِ عن الذهبِ فی الجبلِ ، راغِبینَ فی الزیادةِ منه مقداراً فَمَقْدَاراً ، ویُلْقِی البیضُ ، أیضاً ، عَینَ طَمَعٍ على شَجِیرَةٍ خضراءَ ، ذاتِ تَمَرٍ على شكلِ الكُتَبِ ، أَحْضَرُوها من مكانٍ قَفِیٍّ فَكَثُرَتْ بالملایینِ ، وقد هَبَّ الأَبيضُ للسودِ أراضیَ تترجِعُ بینَ فدانٍ وخمسةِ أَفْذِنَةٍ وأَعطاهم بُدُوراً سَجَّاناً غیرَ مطالبٍ إیامِ سَوى حُسْنِ العنايةِ بالنباتِ مُجْزِلاً لَمْ یُثْنِ عندما تَأْتِی عَرَبَةُ النَقلِ لِأخذِ المَصولِ ، والنیلُ یُشاهدُ القطنَ على ضِفافِهِ للرةِ الأولى ثم یُشاهدُهُ فوقِ السُفْنِ ، والنیلُ قد جَهِلَ القطنَ فی قَرونٍ ، وهذه هی فاتحةُ محتومةٍ یُجْهَلُ الآنَ نَفْعُها أو ضَرَرُها .

وقد حَوَّلَ ذلكَ الإِنتاجُ المفیدُ للبیضِ نصفَ ملیونٍ من السودِ إلى عَمالٍ ، أی ثُمْنِ سَكانِ البلادِ الأصلِیینِ الذین یَقْطُنُ بالمدنِ منهم تَسمعونَ فی اللثةِ ، ومن رَشَدَ الحَکومةِ منعُ السُخْرةِ ، وَیَعْمَلُ مُقْطَمُ السودِ لحسابِ أَنفُسِهِم ، غیرَ أنَ مَشارِیعَ البیضِ جعلتْ من الرجلِ الفطریِّ عَامِلاً یَکْسِبُ اثنی عَشرَ شِیلَناً فی الشَهرِ ، والوَصْطَاحُ والسَواقِ وحَدَمُ هم الذین یَنالُ الواحدُ منهم أربَعمِینَ شِیلَناً فی الشَهرِ ، وَیُکَلِّفُ بُوشِلٌ<sup>(١)</sup> التَّوَزَّ أربَعمِینَ سِنتاً<sup>(٢)</sup> ، وَیُکَلِّفُ بُوشِلُ القَولِ وَبُوشِلُ البَطاطا الخَلُوةَ

(١) البوشل : مکیال إنکلیزی للعبوب یعدل ٣٥ و ٢٤ لئراً — (٢) یعدل السنت فی شرق إفريقيا جزءاً واحداً من مئة جزء من القطن ، وهو خلاف السنت الأمريكي القی یعدل ملیین .

عشرين سنّاً فيبقى للعامل أربعة شلّينات في آخر الشهر إذا ما عملت المرأة قليلاً ،  
وما يتعذر على العامل أن يكسب أكثر من ذلك ما دام المطاطُ خاصّاً بالأبيض وما دام  
مُعظم البنّ وقصب السكر خاصّاً بالهنديّ ، وما دام ريحُ القطن يقلُّ مقداراً فقديراً ،  
وإذا أراد العامل إرسالَ ولده إلى مدرسةٍ عالية ابتلع ذلك جميع مكسبه تقريباً ،  
ومنع ذلك إذا عمل للعامل نساءً كثيرٌ أمكنه أن يقوم ببعض الأشرية ، وذلك كأن  
يذهب إلى شارع القرية فيجد زنجياً جالساً أمام آلة خياطته فيأخذ له هذا الصيّاطُ  
قياسَ قيصٍ أو سروال ، ثم يجلس القرفصاء على درجةٍ منتظراً إياها ، وكأن  
يشترى قلنسوة أو فانوس جيب ، وكان يشرب قدحاً من راح الويسكي  
متغفلاً الشرطي .

ولكنه يقتطف القطن في ساعات ثمانٍ تحت وهج الشمس ، ولكن زوجته  
تظلُّ ساعاتٍ عشرًا بجانب محلّجها<sup>(١)</sup> وهي تتبّع النقع<sup>(٢)</sup> فلا يكون هناك وقتٌ  
للصيد الذي دخل في ذمّة الماضي ، وإذا أراد العامل أن ينام محموراً متأخراً نُبّه  
أو عوقب ، وما لارب فيه أنه حرٌّ ، ولكن أين الدور الذي كان يبدُر فيه  
شهرًا ويبتدئ فيه من الفلّة خمسة أشهر ؟ والآن يُبصر العالم حافلاً بأشياء كثيرة ،  
والآن يُبصر أنه ينحط إذا ما اقتصر على قطع قطف موزٍ وقت الصباح ،  
ويزول غفولُ آياته الذي كان لا يقطعُه غيرُ الحرب ، ويذكرُ القسُ النصرانيُّ له  
وجود آلهة ، وكان جدّه يقول له إن الآلهة وُجدت في كل وقت كالقهوة ، ولكن  
كلُّ أمرٍ أحسنُ ترتيباً في الوقت الحاضر ، وبنائه ، بالعكس ، يصنّعون كلَّ  
ما يُردن ، ويحظرون بيعينَ لمنافاة هذا للأدب ، ولا يُدنون رضاعة غضة مريثة

(١) المحلج : آلة للحلج القطن أي تدفه تخمس الحب منه . — (٢) النقع : النار .

يجب رُقوبها ، وتحشد الأسرة في كوخ واحد لقَرْض الأبيض ضرائب على الأكوخ بدلاً من ضريبة الرؤوس القديمة ، ولا يَعْرِف أحدٌ من هوضجيمه .

والأبيضُ قد أبقظ الأسود ، وصواباً ما صنع ، ومن المحتمل أن يكون قد أفاق بأسرع مما كان يُنتظر ، ويمثّل حفيدُ الراعي الذي لم يَدِرْ ما الكتابُ ولا الخطُّ ، دَوْرُ هوراسيو<sup>(١)</sup> في عَرْضِ مدرسيه بكميَّالاً فتصقّق له الإنكليزياتُ في القاعة ، وما الذي يَمْنَعُهُ من مطالعة الصحف ؟ هو قد تَعَلَّمَ المواقع من دروس الجغرافية فيمكنه أن يَدُلَّ عليها ، هوفكرُ في أمرها فيُوضّح لأبيه الجالس أمام كوخه مساءً سببَ ما يساور البيضَ من صَجَرٍ منذ زمن ، وسببَ قَبْضِ الفرسِ وقلة الأجر ، وسببَ ما يُصِيبُ البنَّ من التقن على الأرض ، وسببَ عَوْدِ شجر المطّاط إلى نوعه برّيٍّ ، وسببَ التلفِ النباتِ المُعرَّشِ حَوْلَ المقرِّ<sup>(٢)</sup> ، وسببَ طغيان الغاب منذ بضع سنين على الأراضي التي استُوصلتْ أجامها<sup>(٣)</sup> منذ ثلاثين عاماً وبَدِثها بالرجوع إلى سابق عهدها ، وهَلُمَّ جرّاً .

ذلك ما يَفَصِّله الزنجيُّ الشابُّ لأبيه الشائب ، والشابُّ الزنجيُّ هذا قد تَسَلَّمَ من مكتب البريد كتباً وقرأُ صحفاً فَعَلِمَ تضاعف صادراتُ أوغَنْدَة في عشرين وتناقصَ ثمن ما يُصدَّر إلى نصف ما كان عليه ، وهل صَجِرَ البيضُ من ذلك ؟ وما قرأه أيضاً أن العامل الأبيض يَكْسِبُ أربعين جنياً في كلِّ شهر ، وأن زميله الأسود الذي يقوم بعمل مماثل تقريباً لا ينال غيرَ أربعين شيليناً ، والأبيضُ هو سيدُ العالم ، واحتياجاتُ الأبيض أكثرُ من احتياجاتِ الأسود لا ريب ، ولكن هل

(١) هوراسيو : من أبطال أساطير الرومان — (٢) المقر : نات مر ، وهو الصبر أو شجوه — (٣) الأجام : جمع الأجة ، وهي الشجر الكثير اللف .



لديه منها ما يزيد على مائتي الأسود عشرين ضعفاً ؟ وكيف لا يشعر كاتب البريد الأسود بقدره حينما يتخدمه الأبيض واقفاً في مخزنه فلا يروق الأسود نسيجه فيعرض عنه فيجذب الأبيض إليه نسيجاً آخر راحياً أن يقدم على ابتياعه ؟ وهذا الأبيض هو الذي يأتي من الجلوس مع الأسود حول مائدة واحدة أو أن يلعب معه لعبة كرة القدم .

وقد يأتي يوم على كاتب البريد ذلك يجرب فيه عن كثب مسدساً على أخوه الشرطي كيفية استعماله ، ويمكن ذلك الكاتب أن يحسب وجود أنى أبيض في هذا البلد الواسع مبشرين بين ثلاثة ملايين ونصف مليون من الزوج الذين يعرفون كيف يصطادون الفيل والنمر والذين كان آباؤهم أهل قبال ، ومن المحتمل أن يصنع شعب فطري ، له مثل تلك الحكيمة ومثل تلك الحضارة الطبيعية التي هي على شيء من الثم ، يده ذات يوم على الزراعة التي أدخلها البيض إليه وأن يسترد أولاده كالأيكة البكر تلك .

## ٩

في منبع النيل والقرب من للساقط يوجد عمود من صوان رمادي يحيل لوحاً مكتوباً عليه : وجد سبيك منبع النيل هذا في سنة ١٨٦٢ ، وإلى ذلك اللوح تؤكّد طريق طويلة من خلال غابة التاريخ البكر .

وما أكثر الأمم التي جدت في ريادة هذا النهر ! ومن الرواد الخمسة كان سبيك وغرانت<sup>(١)</sup> وبيكر<sup>(٢)</sup> وستانلي من الإنكليز وكان أمين<sup>(٣)</sup> من اليهود ،

(١) غرانت : سائح من أصل اسكتلندي ( ١٨٢٧ - ١٨٩٢ ) - ( ٢ ) بيدر : ( ١٨٢١ - ١٨٩٣ ) - ( ٣ ) أمين : هو عمدة أمين باشا الذي كان يهودياً ألمانيا ثم أسلم ، وأصل اسمه إدوارد هتيز ( ١٨٤٠ - ١٨٩٢ ) .

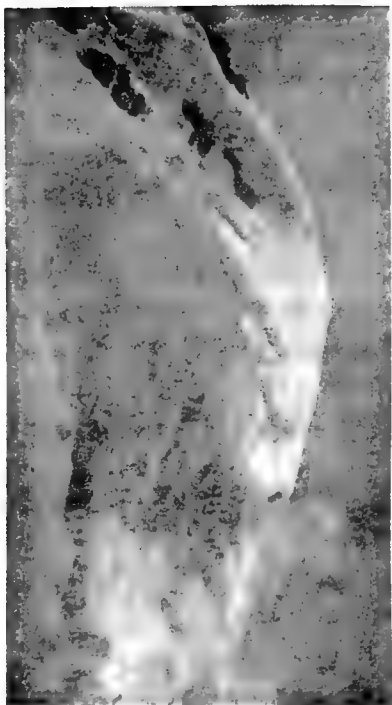
## آلام وجهود

ومن بين أولئك الذين تقدّم على يدهم تخطيط النيل أشاد اختصاصي<sup>١</sup> بذكر ستين اسماً من أربع عشرة أمة ، وما أعظم ما بذله هؤلاء من نشاطٍ وما احتملوه من ألمٍ وما قضّوه من أعوامٍ خارقةٍ للعادة وما لاقّوه من نفسٍ وُصُولاً إلى قليل سعادة ! ومع ذلك تَمَرى في جميع من خاضوا غمار ذلك الكفاح حينئذٍ إلى تلك المخاطر والأوصاب<sup>(١)</sup> وإلى الإياب إلى إفريقيا على الأقل ؛ ويُلوح وجودُ قُدرةٍ ساحرة في هذه القارة ، ويظهر وجودُ قوةٍ منطِيةٍ خفيةٍ تجذب ذوى الإخضاع<sup>(٢)</sup> من الرجال ، وليس جميعُ من قصّدوا إفريقيا من الكارهين لأوربة ، ولا يحدُّ أحداً رجّح إلى أوربة من الكارهين لإفريقية ، ومُعظم هؤلاء قد فُتِنَ بالحرية الفردية التي لم يكن يجدها في أيِّ بلدٍ غربيٍّ ، ومن هؤلاء عددٌ غيرُ قليلٍ سَحَرته الحرية الجنسية التي لا تُذكر إلا نادراً .

والفرقُ كبيرٌ بين الأحوال التي جَعَلَتْ من أولئك الرجال رُؤّادَ النيل ، وبين أخلاقهم والعوامل التي دفعتهم ، وبين أهدافهم والجِدِّ الذي نالوه ، ويتأثّلون آلاماً وجهوداً ، وكانت هذه الآلامُ التي عانَوْها والجهودُ التي بذَلوها في انفرادهم أكثرَ صعوبةً وأشدَّ قُوْماً في زمنٍ لا برق ولا لاسلكيٍّ فيه مما يماينه ويَبْذُلُهُ رائدٌ في أيامنا ، وما لدى أولئك الذين كانوا أقلَّ نجاحاً من مِثْلٍ إلى الكفاح ورغبةٍ في المغامرة فيُعَدِّل ما لدى أولئك الخمسة العظام ، وإذا ما هَجَرَ رجلٌ أُمْرَتَهُ وبلدَهُ ومِهْنَتَهُ وثروته ابتغاءَ ارتيادِ مجاهِلِ إفريقيا والبحثِ عن منابعِ نهرٍ مجهولٍ فإنَّ كلَّ شيءٍ فيه يستعري التفتاناً ، وإن دواعِيهِ والتأنيّة التي يسمي وراءها وسرَّهُ وجهودَهُ

(١) الأوصاب : جمع الوصب ، وهو التعب .

(٢) أخضعل الذي : به .



• — چیل روئزوری



### يخطئون المدف

ومزاجه وإدراكه للحياة ووضعه تجاه البيض والشود وتجاه المبشرين والشرقيين وتجارته التي يكتبها فيما بعد أمور تم على أخلاقه بما يربو على ما يريد إنشائه ، وحب السباحة هو الذي حفز هذا ، وحب الاطلاع هو الذي حفز ذلك ، وآخرون قد دفعوا عن طموح واستياء ورغبة في مشاهدة ما هو مجهول من نبات وحيوان ، وبمفهم قد حرك عن كره للناس لا يسكنه سوى الاتصال بالشود ، وذلك لأنهم قد بدؤا جميعا مدافعين عن الزوج خلا ستانلي الذي كان وحده يفضل مجتمع البيض على مجتمع الشود .

وهل يُعجب من فقد أولئك الرجال لشعور القياس في أثناء تلك الريادات الطويلة المثيرة حيناً يقدون منفردين بلا رقيب ولا اتصال بمسرات أمثالهم وآلامهم فلا يبالون بغير هدف خفي في ناحية من الغابة البكر؟ والمعجب هو محافظتهم على ذلك الشعور ، وهم إذ كانوا مضطرين إلى مدح أنفسهم دوماً فإنك ترى أحسنهم هم الذين يصيغون ذرعا عند ما يكتبون ولو لم يبالوا في بيان مغامراتهم ، ولم يكن الكتاب الموهوبون منهم هم الذين يدبج يراعهم خير التويميات ، ويظل متهم إنكليزي مثل سيك فذا في البساطة التي يُعبر بها عن مشاعر يُحوّلها الآخرون إلى بطولة .

هم يخطئون الهدف ، ويُسوّء أعمالهم صرّب من الخنزروانية<sup>(١)</sup> ، وما أشدّ المرارة التي تُمازجهم عند ما يجادلهم بعد العود علماء في الفرفة حول النتائج التي انتهوا إليها ! وهم قد عاشوا سنوات بين الوحوش والحيوانات ، وهم قد احتملوا خرافات أحقر رئيس ل قبيلة ، وهم قد استهزئ بهم لتعريض أنفسهم لبؤس كثير

(١) الخنزرواية : جنون الظلمة .

### جعود وقنوط

في سبيل اكتشاف منبع ومجرى نهر وشكل بحيرة ، وهم إذا ما عادوا صَدُّوا  
بمثل ذلك الجعود ، وقد وجد سبيكُ نفسه أمام أساتذة يَبِينُوا له استحالة كون  
منايع النيل حيث وَجدها ، وأَلَمَّتْ جميعاتُ المناهضة ، أَجَلٌ ، كَرَمَتِه صِيْفَةُ الْبَاشِ ،  
ولكن الحكومة لم تُنِمْ عليه بمقام ، أو مال ، أو بما كان يتطلع إليه من لَقَب ،  
وكل ما أَذِنَ له فيه هو توسيعُ شِعَارِ أُسْرَتِه بأن يضيف إليه بَقَرًا مَاءٍ و تَمَسَّاحًا ،  
وهذا وحده هو ما كوفي به مكتشفُ منبع النيل !

وَيَكْرَهُ هو أَكْثَرُ رُوَادِ النيل خُطُوَةً من قِبَل الطبيعة والطالع ، وهو الوحيدُ  
الذي كانت له بَنِيَّةُ عِلَاقٍ استطاع بها أن يُطَبِّقَ جميع المتاعب ، وهو ما انفكَّ  
يَذْهَبُ إلى الصبدي في إنكلترة حتى بعد مجاوزته السبعين من عمره ، وَيَلْزَمُ بطلُ  
مكافحة الاسترقاق الكبيرُ هذا جانبَ الصمت مع ذلك عند ما عاد النَحَّاسُونَ الذين  
كان يطاردونهم إلى سابق سيرة ثم بعد انصرافه .

وما أَشَدَّ خِيَةَ أمل ستانلي الذي حَقَّقَ أعظمَ الفتح ! وهو لَمَّا وَجَدَ  
لِيْفِينْغْتُنْ<sup>(١)</sup> عَدَّةً دَجَّالًا ، وَثُكُّ في صحة الرسائل التي أتى بها ، ولما غدا اكتشافُ  
الْكُونْفُو أَمْرًا لَا مِرَاءَ فِيهِ بُكَّتْ هذا الصَّخَّافُ الكبيرُ على قسوته خفضًا لمجدِه  
فقط ، ولم يكن لدى ستانلي الذي هو أَكْثَرُ الجميع طُمُوحًا صفاءَ سبيك حتى  
تكون له راحةٌ بال في شعوره بما تَرَى ، وقد مات خائبًا غاضبًا ، وقد أبصر أولئك  
الرُّؤَادُ ما تَمَّ من تصحيح دائمِ ظُرَائِلِهِمْ على يد سياحِ آخَرِينَ ، وما فَنَنْتْ  
خريطة البحيرات ومنايع النيل تتحول بين سنة ١٨٥٠ وسنة ١٨٧٧ ، وكانت هذه

(١) ليفينغتون : مبصر وسائح إنكليزي ارتاد إفريقيا الوسطى وإفريقية الجنوبية

( ١٨١٣ - ١٨٧٣ ) .

الخریطة تُرى بعض تلك الأماكن بعيداً من بعض ، ثم صارت أصغر مما كانت عليه فندانت كما يَقَعُ بالمرقب<sup>(١)</sup> الذى يَقُومُ رويداً رويداً .

وَأين صِيتُ أولئك الرجال فى الوقت الحاضر ؟ يَعْرِفُ كُلُّ بلَدٍ اسمَ أبنائه الذين أنجزوا الكثير ، ولا شئ ، غير ذلك تقريباً ، وكلُّ خلودٍ حقيقٍ يُمكنُ الرائد أن يناله هُوَ أن يُذكرَ اسمه فى الخرائط ، وهم لم ينالوا ذلك فى غير زوايا صغيرة مستورة ، لا بحروفٍ من نار على النساب والبحيرات والأنهار ، ومن الرُّوَادِ من وُذِّوا صَمَانٌ أنفسهم من التسيان على مقياسٍ ضيقٍ فأطلقوا أسماءهم المثلثة<sup>(٢)</sup> على أنواعٍ جديدة من الحيوان والنبات ، وما كان لأكابر الرُّوَادِ أن يصنعوا مثل ذلك ، فقد اختاروا لتلك أسماء اللؤلؤ والملاكات وأسماء رؤساء الجمعيات الجغرافية التى أرسلتهم إلى الخارج ، وبدا ستانلى وحده ساذجاً مختلاً قسَمَى الكُونُو حينما اكتشفه بنهر ليفينغستون كما سَمَّى جبال القمر بسلسلة غوردونِ زَيْت فلم يَلْتَبَثِ الايمان أن توارى .

وأطلق الشَّهْمُ دوك أبروزى<sup>(٣)</sup> ، الذى كان أولَ من تَمَلَّقَ ذُرّاً تلك السلسلة ، على هذه الذُرّاً أسماء الرُّوَادِ الثلاثة العظام الذين اكتشفوا منابع النيل ، ولكنك لا ترى هذه الأسماء على الخرائط العامة ، ولكن أحداً لا يَعْرِفُهم لذلك ، وتَحْمِلُ مدينةٌ فى الكُونُو اسمَ ستانلى ، وتَحْمِلُ خليجٌ فى بحيرة فيكتورية اسمَ سبيك ، ولا شئ ، يُذكرُ باسم غرانت أو اسم سِكر ، وتَمَّجَى بالتدرج ذكرى اللؤلؤ الذين تَحْمِلُ البحيرات أسماءهم ، فإذا ما تَحَدَّثُ الطَّلَائِنَةُ عن بحيرة أَلْبِرْتُو قصدوا بهذا

(١) Telescope — (٢) Latinized, Latinisé — (٣) دوك أبروزى : أمير لإطال ولد

فى مغرب سنة ١٨٧٣ .

الاسم كما رُلُو أَلْبَرْتُو الِيُمُوفِي<sup>(١)</sup> ، وذلك لأنك إذا استثنيت إنكثرة وجدت  
الجُمُورَ يجهل أَلْبَرْتُو جهلاً تاماً .

ألم يَقَمْ أولئك الرُّوَادُ العظماء بمغامراتهم في سبيل الجُمُور والبشرية بأشْرَها ؟  
وإذا عَدَوْتَ العلماء لم تَرَ أحداً يَحِدُّ معنى لتسمية منبع النيل ومسقطيه الكبيرين  
باسم الوزير رِيُون والأستاذين أُوَيْن ومُرْشِيْسُن .

ويجب أن تُقرأ يَوْمِيَّات هؤلاء الرجال لتَنبُلَ ما لاقَوْه ، ومقابلته بالحوادث  
الخطيفة التي تَقَعُ في مبارياتنا من خلال الغابة البِكر والشُوب حيث يُعَدُّ عدمُ  
إصابة الهدف وتَوَبُّهُ الحَيِّ مشكلةَ حياةٍ وموت ، وإذا جَسَّتْ هذه البوارض  
تجسباً لا حدَّ له تَجَلَّتْ لك جهودُ أولئك وآلامهم ، وما أدراك ماذا كان البحث  
عن منابع نهر في ذلك العرض ؟ أَتَظُنُّ أنه كان مقروناً ، كما يَقَعُ اليوم ، بالمال  
والسلاح والزاد والهدايا وأدوات القِيَّاس تَبَيُّناً لطريقٍ ورسماً لها بعد دراسة جميع  
الكتب الخاصة درساً عميقاً ؟

كان ذلك يَتَطَلَّبُ في كلِّ صباحٍ جَمْعَ الرائد لرجاله ، وتوزيعه الأثقال بين  
مئةٍ من الحَمَلَةِ والحيوانات وتأكُّده من أمرِ جميع السيُور<sup>(٢)</sup> وسهره على جلب  
الماء ودلالته على الطريق ، وتحريكه الزَّجْجِيَّ الذي يخيفه أقلُّ الأشياء وإغرائه على  
السَّير أو إكراهه عليه ، وكان على الرائد أن يَظْهَرَ رئيساً لمئة رجلٍ بسيطٍ تقوم  
إطاعته على نظرة الأبيض وحركته ، وألاً يَبْدُو تَيْباً مع الحرارة أو الزوْبة أو أذى  
الحَسَرَات ، وأن يُعْنَى بِالْمَرْصَى ، وأن يَدْفِنَ لَوْتِي ، وأن يحتفظ بالقيادة ولو مَرَضَ ،

(١) ييمون : من أقسام إيطاليا الشمالية — (٢) السيور : جمع السير ، وهو قدة من  
الجلد مستطيلة .



وَأَنْ يُنْجِكَ الْقَارِئِينَ مِنَ الْحَمَلَةِ وَيَجَازِيَهُمْ ، وَأَنْ يَفَاوِضَ الرُّسَاءَ الْخُبْنَاءَ مِنْ أَجْلِ  
الدُّخْنِ<sup>(١)</sup> وَيُلَطِّفَ طَمَعَهُمْ ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى بِالْأَمْرِ وَأَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ  
يُخْلَصُ نَفْسَهُ وَأَنْ يَكْافِحَ النَّهْرَ الزَّاهِرَ ظُهُراً وَأَنْ يَصَارِعَ الْأَنْهَارَ فِي الْمُسْكِرِمْسَاءِ ،  
وَكَانَ عَلَى الرَّائِدِ عِنْدَ عُبُورِهِ النَّهْرَ وَإِضَاعَتِهِ صِنَادِيقَ الرِّصَاصِ الَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا  
حَيَاتُهُ أَنْ يَبْتِمَثَ مِنَ الرِّسْلِ مَنْ يَبْحَثُونَ لَهُ عَنْ أَيْضَ اتَّعَى إِلَيْهِ صِبْغُهُ ، فَلَمَّحَ  
يُنْجِدُهُ ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَعِيشَ سِنَوَاتٍ بِلَا نِسَاءٍ أَوْ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى زُرْنَجِيَّاتٍ وَأَنْ  
يُظَلَّ مَحْرُوماً كُلَّ نَبَأٍ عَنْ وَطَنِهِ .

تلك هي أحوال أولئك الرجال الذين كان عليهم أن يكلفوا الإنسان والحيوان  
والنصارى دوماً ، أولئك الرجال الذين هوجموا وعُدوا من الآلَمَةِ في الوقت نفسه ،  
أولئك الرجال الذين جاءوا في شهور وسنوات غاباً ومُتَوَّجاً لم يَدْخُلْهَا أَحَدٌ قَبْلَهُمْ  
فَكَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُنْصَرُوا كُلُّ شَيْءٍ وَأَنْ يَتَدَارَكُوا كُلُّ شَيْءٍ بِاسْتِمْرَارٍ ، فَالِنَازِعَاتُ  
وَالْأَلَامُ وَسَعَادَةُ الْبِلَادِ التَّوَحُّشَةُ وَخِيَةِ الْأَمَلِ فِي الْمَوَدَةِ إِلَى الْوَطَنِ أُمُورٌ اقْتَضَاهَا  
ذَلِكَ النَّهْرُ الْمَجِيبُ الَّتِي سَحَّوْا بِحَيَاتِهِمْ فِي سَبِيلِ اكْتِشَافِهِ .

## ١٠

يهيمن نَجْمُ الصَّبَاحِ ذُو النُّورِ الْلطِيفِ عَلَى مِرَآةٍ بِحِيرَةٍ أَلْبَرَّتِ الصَّارِبَةَ إِلَى صُفْرَةٍ  
حَيْثُ تَصْبِقُ فَتَسْجُلُ إِلَى النَّيْلِ ، وَتَكُونُ الْأَنْهَارُ الَّتِي تَجْرِي مِنْ بَحِيرَةٍ إِلَى أُخْرَى  
أَكْثَرَ إِمْتِنَاعاً فِي أَثْنَاءِ انْقِبَاضِهَا مِمَّا فِي أَثْنَاءِ اتِّسَاعِهَا الْزَاهِي الَّتِي يُشْهِى عَيُونُ  
الْجُمْهُورِ ، وَنَيْلٌ مُيَكْتَوِرَةٌ ، وَيَأْتِي مِنَ الْمَسَاطِطِ الْكُبْرَى ، لَا يَجُوبُ غَيْرَ طَرَفٍ

. (١) الدُّخْنُ : نبات حبه صغير أبيض وهو غير الجوارش الذي هو نبات يشبه حبة الأرز .

### يضع النور حداً للصمت

قصير من بحيرة أَلِيرت ، وهو يَجْرُ بِكُلِّ مَا فِي الشَّابِ مِنْ قُوَّةِ مِيَاهَا غَزِيرَةٍ ،  
فِيْتَضَاعَفُ نَشَاطُهُ فَيُسْرِعُ مُتَوَجِّهاً إِلَى الشَّمَالِ .

وَالنَّيْلُ فِي ظِلِّ السَّحَرِ<sup>(١)</sup> الَّذِي يَسْبِقُ الْفَجَرَ يُلَوِّحُ مَا كُنَّا ، وَعَلَى أَمْوَاجِ النَّيْلِ  
الزَّيْتِيَةِ السَّاكِنَةِ تَعْكَسُ سُدُوفُ<sup>(٢)</sup> سَيْفِهِ<sup>(٣)</sup> ، وَفِي الشَّرْقِ وَبِاتِّجَاهِ الْمَسَاقِطِ تَبْصُرُ  
جِدَاراً وَرْدِيّاً لَطِيفاً يَنْتَصِبُ عِنْدَ الْأَفْقِ ، وَتُبْصِرُ بَعْضَ الشُّجْبِ الْخَفِيفَةِ النَّهْيَةِ  
تَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ الْخَضِرَاءِ الزَّرْقَاءِ ، وَيُشْعِرُ بِصَمْتٍ وَبِاتِّظَارٍ رَابٍ<sup>(٤)</sup> وَبَارْتِجَافٍ  
تِلْكَ السَّاعَةِ الصَّبَاحِيَةِ كَمَا يُشْعِرُ بِهِ عِنْدَ وَصُولِ رَجُلٍ عَظِيمٍ ، وَذَلِكَ حِينَ يُرَى  
فِي الْقَرَبِ نَحْوُ الْكُوفَتَيْنِ وَمِيزِ رَمَادِيٍّ دُرِّيٍّ سَاطِرٍ لِلسَّمَاءِ حَتَّى سَمَتْ الرَّأْسَ<sup>(٥)</sup>  
وَبِإِنْ الْأَمْرَ لِكَذَلِكَ إِذْ يَرْتَفِعُ فِي بَضْعِ نَوَانٍ وَبِسُرْعَةِ الضِّيَاءِ الْإِسْتَوَائِيِّ وَنَحْوِ الشَّرْقِ  
لَهَبٌ ضَارِبٌ إِلَى حُمْرَةٍ ، وَيَتَحَوَّلُ إِلَى لَوْنٍ أَرْجَوَانِيٍّ مِنْ قُوَّتِهِ فَيُظْهِرُ جَدُولَ نَارٍ  
خَلْفَ خَطوطٍ سَنَاطٍ مُتَوَرَّةٍ .

وَيَضَعُ النُّورُ حَدّاً لِلصَّمْتِ ، وَفِي الشَّرْقِ تُصَوِّتُ بَضْعُ إَوَزَاتٍ وَتَطِيرُ مِنْ كَثِيبٍ  
إِلَى طَرَفِ الْبَحِيرَةِ ، وَتَظَلُّ الْبَلَّاشِينَ الْبَيْضُ سَاكِنَةً عَلَى الشُّورَى<sup>(٦)</sup> ، وَيَبْدَأُ  
بَلْشُونُ أَمَمَرٍ قَضَى اللَّيْلَ عَلَى سَاقٍ وَاحِدَةٍ بِالْإِسْتِقَالِ هُنَاكَ ، وَيُعْطِفُ عُنُقَهُ  
وَيُقَدِّمُ مَنَاقِرَهُ الْخَادَّةَ وَيَنْشُرُ جَنَاحَيْهِ وَيَطِيرُ عَلَى مَسْتَوَى الْمَاءِ ، وَلَا يَلْبَثُ كُلُّ  
شَيْءٍ أَنْ يَتَحَرَّكَ ، وَتَهْزُ بَعْضُ الرُّؤُوسِ السُّودِ قُرُونَهَا الْكُكُورَةَ جَانِبِيّاً عَلَى حِينِ  
تَسْتَبِرُ الْأَفْقَ عَيْنٌ مُتَحَرِّزَةٌ وَتَرْتَجُّ خُصْلُ شَعْرٍ إِلَى الْخَلْفِ ، فَتَلْكَ هِيَ جَمَاعَةُ

(١) السحر : ما قبل الصداق القبيح — (٢) السدوف : جمع الدف ، وهو الظللة .

(٣) السيف : ساحل الوادي ، وقيل كل ساحل سيف — (٤) الراب : من أخذته الربو ، وهو علة تحدث في الجوف فتجعل النفس صعباً — (٥) سمت الرأس : في علم الهيئة عقلة من الفلك تنهى إليها الخط الخارج من مركز الكرة الأرضية على استقامة قائمة الرجل .

(٦) الشورى : هجرة تنبت في النياض .

## الجاموس والكركدن

جواميس ذات جباه عريضة مُحَمَلِيَّة مُتَوَعَّدَة .

وبالقرب من هناك ، وفي طرف الغاب يُبَصِّرُ الْكَرْكَدَنُ ، وهو ثالث غاريت الأيكة الْبِكْرُ ، نصفَ مستورٍ بأطول الأعشاب ، يُبَصِّرُهُ يَتَدَدُ مُتَتَدِّدًا عن النهر ، هورمادى لَامِعٌ ، هو يَمْدِلُ الْفِيلَ الصَّغِيرَ ضَخَامَةً ، هو أَشَدُّ من الْفِيلِ وبقر الماء توحشًا ، هو ذو حركاتٍ بَطِيئَةٍ ، وله بقرنيه المنحنيين إلى الوراء . والمحيطين بفعه ضربٌ من التاج الخفيف كتيجان الغيلان لَكُوَايِيسَ صَيَانًا ، وَالْكَرْكَدَنُ ذِكْرٌ نَشِيطٌ مَعَ مَا يَنْبَغُ عَلَيْهِ مَظْهَرُهُ كَالْفِيلِ مِنْ بِلَادَةٍ وَقَلَّةٍ حِيلَةٍ ، وَالْكَرْكَدَنُ يُلَوِّحُ أَنَّهُ مِنْ عَالَمٍ بَائِدٍ بِرَأْسِهِ شَيْءٌ الْمُنْحَرِفُ <sup>(١)</sup> وَبِأَذُنَيْهِ الْعَظِيمَتَيْنِ كَأَذُنَيْ الْخَيْزِيرِ وَبِمَنْحَرَيْهِ الْوَاسِعَيْنِ وَبِالْحَذَبَةِ الَّتِي عَلَى رَقَبَتِهِ الضَّخْمَةِ وَبِقَوَائِمِهِ الْحَادِرَةِ <sup>(٢)</sup> وَبَيْنَيْهِ الْقَصِيرَتَيْنِ الْبَصْرَيْنِ هُمَا أَصْفَرُ مِنْ عَيْنِي الْفِيلِ ، وَالْكَرْكَدَنُ إِذَا مَا انْصَرَفَ مُكَرَّرًا <sup>(٣)</sup> عَلَى مَهْلٍ تَحْتَ أَوْرَاقِ السَّنَطِ النَّصَّةِ لَاحَ ظِلٌّ جَهَنِّيٌّ يُحِيطُ بِرُوحِ غَضَّةٍ نَحِيلَةٍ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا الْوَحْشَ لَا يَفْتَنُذِي بِغَيْرِ الْأَشْيَاءِ اللَّطِيفَةِ ، بِغَيْرِ الْأَغْصَانِ وَالْكَلَا وَقَشَرِ الشَّجَرِ .

وكما ارتفعت الشمس عاد سَمَاطُ الْمَاءِ غَيْرَ سَاكِنٍ ، وَالنَّيْلُ فِي حَالٍ بِحِيرَةٍ وَفِي حَالٍ نَهْرٍ كَبِيرٍ جَدِيدٍ يَغَادِرُ ذَلِكَ الْمَنْبِعَ الثَّانِي ، وَالنَّيْلُ شَاعِرٌ بِقُوَّتِهِ يُجَاوِزُ أَكْثَبَةً كَبِيرَةً تَحَاوِلُ وَقْفَهُ فَيُظْهِرُ كَالرَّجُلِ الَّذِي يَجْلُو سِلَاحَهُ اسْتِعْدَادًا لِقِتَالِ جَدِيدٍ ، وَالنَّيْلُ فِي الْغَرَبِ يُبَصِّرُ أَجْلَامًا وَاسِعَةً فِي أَرْضِي الْكُوْتَفُو ، وَالنَّيْلُ فِي الشَّرْقِ يُبَصِّرُ مُهَوَّبًا صَفْرًا ذَاتَ سَنَطٍ مَفْرُوسٍ فِيهَا ، وَلَا يَنْشَبُ مَجْرَى النَّيْلِ أَنْ يَتَوَطَّدَ فَيَسْتَدَّ

(١) شبه المنحرف : شكل رباعي له ضلعان متوازيان — (٢) الحادرة : الطليقة .

(٣) كردح : عدا عدو القصير يرمط ويسرع .

## نيل البرت

بعد خمسة عشر كيلومتراً في مجرى عريض هادئ ساثوا خراً .

والآن يجمل النيل اسماً ثانياً ، أى يجمل في مسافة مئتي كيلومتر اسم نيل البرت لدى كثير من الناس ، أى يجمل اسماً يلائم مجراه الهادئ الصالح للإلاحة من خلال بلده منظر الحديقة ، والنيل حتى عند مهاجمة البطائح إياه من الجانبين يحافظ على حرية سيره ، وتضحى ضفتاه متاثلتين شيئاً فشيئاً ، ويستمرهما قصب الشهب ، وفي البعد ترمى سطور خضراء تيم على سواعد غارقة في غدران عاطلة من مصاب ، وإذا كان النيل يضيق أحياناً فإنه لا يضل أبداً .

ومن ينظر إلى الزرع على طول النهر يظن نفسه حول التينس ، والنهر ضارب إلى زرقة مع أشعة خضراء وجزيرات وخلجان ، والنهر حين يتسع يتحول إلى بحيرات صغيرة يحيط بها القصب مع زاوية من غابة خفيفة وراءها حيث يكون شكل الأنيس<sup>(١)</sup> والقاوند والجيز غير غريب ، والمادري ، وهم رجال يجيئون إلى شاطئ الماء ، قوم غداة ، ولهمظم هؤلاء حق في ذلك لا تصاف أجسامهم بجمال كلامي<sup>(٢)</sup> كأجسام قتياتهم ، ول هؤلاء القتيات زى عجب ، فلا وزرات<sup>(٣)</sup> لمن ، وهن يرتطن طاقة أوراق رطبية من الوراء ويحدنّها كل يوم فتهتر نظيفة كريس نعاماً ، والفتيان إذا ما أتوا إلى الضفة معهن وضعوا عنهم رماحهم وجلود الحيوان التي يحملونها على ظهورهم وأبعدوا الأعشاب المائية جانبا وبلوا الجبين والتم بحركة دينية ودخلوا الماء واغتسلوا من غير وضوء كالبيض في الحمام ، واتخذوا وضعا كهنوتياً ، ثم خرجوا واسترجعوا جلودهم ورماحهم وانصرفوا .

(١) الأنيس : طائر مائي يشبه صوته صوت البقر — (٢) Classique

(٣) الوزرة : كساء صغير .

### بحر الجبل

وَتَدْنُو نِسْمَةٌ مَعَ جَرَارٍ ، وَتَمْضِي أُخْرُوعٌ سَمَكٍ ، وَبَرْكَوْ زِنْجِيٌّ تَامُ الرُّمَى  
رُحْمَةً فِي زُورِقِهِ الْمَقَرَّ مِنْ سَاقِ شَجَرَةٍ ، وَيَسْتَدِرُّ رَاغٍ إِلَى شَجَرَةٍ تَيْنِ صَامِتًا ،  
وَلَكِنْ مَاشِيَتَهُ لَيْسَتْ مِنْ ذَوَاتِ الْقُرُونِ الطَّوِيلَةِ كَمَا فِي أَوْغَنْدَةٍ ، وَمَا يُرَى مِنْ  
أَكْوَاخٍ فَأَكْثَرُ هُزَالًا ، وَمَا يُبْصَرُ مِنْ شَجَرٍ مَوْزٍ فَأَشَدُّ تَفَرُّقًا ، وَفِي الشَّامِ  
حَيْثُ تَقْرُبُ الْغَابِ مِنَ النِّهْرِ ، وَحَيْثُ يَرْتَفِعُ التُّرَابُ بِلُطْفٍ نَحْوِ الْغَرْبِ بِاتِّجَاهِ الْخَطِّ  
الْقَاسِمِ لِمَيَاةِ الْكُوفُونِ تُبْصِرُ مَجِيءَ الْوَعُولِ لِتَرْوِيَةِ مِنَ النِّيلِ ، وَتُبْصِرُ قِطَاعَ  
الْكُوفُونِ الشَّمْرِ تَعْدُو عَلَى طُولِ الضَّعْفِ .

وَيَصِيقُ الْوَادِي بَفْتَةً ، وَيَبْدُو الصَّوَّانُ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ عَدْوَرٍ لِحَايَةِ الْأَنْهَارِ  
الْوَاسِعَةِ الْعَلِيَّةِ مُجَدَّدًا ، وَتَتَوَارَى السُّعُنُ وَيَتَقَبَّضُ النِّيلُ الرُّضِيُّ بِفَعْلِ الصَّخُورِ فِي  
مَضِيقٍ يَبْلُغُ عَرْضُهُ سَبْعِينَ مِتْرًا ، وَيَنْحَنِي النِّيلُ لُجْأَةً مِنَ اتِّجَاهِهِ الشَّرْقِيِّ إِلَى الشَّامِ  
نَحْوَ تِسْعِينَ دَرَجَةً بِفَعْلِ الصَّخُورِ أَيْضًا ، وَيَنْقُضُ النِّيلُ نَحْوَ سُلْسَلَةٍ مِنَ الدُّوَابِ  
وَيَتَحَوَّلُ إِلَى سَيْلٍ كَمَا فِي طُفُولَتِهِ ، وَيَأْتِيهِ سَيْلٌ آخَرُ مِنَ الشَّرْقِ فَيَمِزُّهُ وَيُثِيرُهُ ،  
وَتَعْلَوْضُفَتَاهُ عَمَقًا كَمَجْرَى نَهْرِ جَبَلِيٍّ ، وَهُوَ يَحْمِلُ هَذَا الْأَسْمَ ، أَيْ بَحْرَ الْجَبَلِ ،  
بَعْدَ نَمُوْلِهِ ، وَهُوَ يَطْلُلُ صَاحِبًا لِهَذَا الْأَسْمِ مَسَافَةً تَزِيدُ عَلَى سَبْعِمِئَةِ كِيلُومِتَرٍ ، وَهُوَ  
يَبْقَى كَذَلِكَ حَتَّى الدَّرَجَةِ التَّاسِعَةِ مِنَ الْعَرْضِ ، وَالنِّيلُ يُضْغَطُ مِنْ جَدِيدٍ فِي مَسَاقِطَ  
ذَاتِ عَرْضٍ عَشْرِينَ مِتْرًا ، فَلَا يَكُونُ لَهُ أَكْثَرُ مِنْ ١٥٠ مِتْرٍ فِي السَّلَالَاتِ التَّالِيَةِ ،  
وَالنِّيلُ فِي عُرْزَتِهِ الصَّائِلَةِ لِلْوُغْرَةِ يَظْهَرُ كَأَنَّهُ رَجُلٌ يِقَاتِلُ نَفْسَهُ فَيَنْزِلُ إِلَى السَّهْلِ  
نَهْرًا مُعَرِّدًا .

وَقَامَ فِي نَمُوْلِهِ جَسْرٌ طَبِيعِيٌّ إِعْلَامًا بِذَلِكَ التَّحَوُّلِ ، وَذَلِكَ الْجَسْرُ ، الَّذِي  
لَا تَرَى مِثْلَهُ فِي مَكَانٍ آخَرَ عَلَى مَا يَحْتَمِلُ ، مَصْنُوعٌ مِنَ النَّبَاتَاتِ الْمَائِيَةِ ، وَهُوَ مِنْ

الإحكام ما يستطيع معه فيل<sup>(١)</sup> أن يمر عليه من إحدى الصفتين إلى الأخرى ، وقد بلغت جنوره من التأصل ما عاد به من تلقاء نفسه إلى ما كان عليه بعد أن خرّبه فيضان .

وتلك الامتدادات الجبلية التي يأتي النيل منها هي آخر الجبال التي يراها ، وبذلك ينتهى شبابه الهاجّ الطائش ، ويبدأ العقل والأتزان والسهل بتعيين سيّره ، وينتصب في رِجَاف ، في المكان الذي يصبح النيل فيه صالحاً لليلحة ، تلّ مخروطى منعل صعب وعمر كهرم تذكّاراً للجبل ورمزاً إلى أقول قتار ، ويُفسّر سكان البلاد الأصليون بأسلوبهم الزاهى أمر الزلازل التي تهزّه فيقولون إنه كان على الجرى التحتاني فتحملته الريح إلى محلّه الزاهن فهربت البهائم ودفن الآدميون ، ويتحرك هؤلاء الناس بين حين وحين رغبة في الخروج وبحثا عن القطّاع .

والسودان يبدأ هنا ، وما يندو هناك ، في سَفَح ذلك الهرم ، من بقايا جرّ<sup>(٢)</sup> الزبد فيد كرّ بدرجة هيجان النيل في جريانه حتى هذا الحين ، ويحمّل النيل غريناً<sup>(٣)</sup> من الجبال فيضمه الآن على الصّغاف ويرفّع ذلك مستواه ، ولكن مع احتمال الخطر وقت المطر ومع احتمال حدوث طوفان وترك غدران ، والحق أن ذكرى الماضى العاصف تشدّ على النيل الحاضر .

ويصبح النيل صالحاً لليلحة من رِجَاف وجوبا ، ويظلّ النيل كذلك بين الدرجتين ٥ و ١٨ من العرض ، أى نحو ألفى كيلومتر ، ويتطلب ذلك ربّابة<sup>(٤)</sup> ماهرين ، وقليل ما هم ، وعلى الربّابة أن يتبعوا الأصواج<sup>(٥)</sup> من بين البطائح

(١) الجرّز : جم الجرزة ، وهى الخزمة — (٢) الفرن : الطين يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو ياباً — (٣) الأصواج : جمع الضوج ، وهو منطلق النهر .

والضحاخ<sup>(١)</sup> والجُرَيْرَات والكُنْبَان ، وأن يُوجَّهوا الزوارق المربوطة بالبخارة من كل ناحية وثلاثاً من سُنَنِ الأوساق<sup>(٢)</sup> التي تتقدمها أو التي تخرُّجها ، أى أسطولا صغيراً يبدو ضرباً من الأطواف<sup>(٣)</sup> البظَّام ، وبعض أهل دُنْقَلَة أو بعض نُويَيْ السَّهال من أهل أسوان هم الذين يَقْدِرُونَ على ذلك ليلَ نهار .

وَيُمْكِنُ الْمَوْجَ الذِي وَثَبَ صباحاً من مساقطِ عَقْفَةِ نِيُولِهِ المفاجئةِ أن يَمُرَّ مساءً أمامَ مَرَمِ رِجَافِ الأول ، وهناك يشاهدُ الشمسَ القَيُوسَ بدُخَانِ الشَّهْبِ المحترقِ متوارياً وراءَ الشَّجَبِ البنفسجيةِ لِيُظْهَرَ تحتها نارُ نَجْيَا ، ويتناوبُ السَّاءُ والماءُ نُورٌ وكُدْرَةٌ<sup>(٤)</sup> يَنْظُرُ إِلَيْهَا مُصَوَّرٌ مُبْدَقٌ بَيْنَ الحسدِ ، وَيَتَحَوَّلُ اللونُ بعد أن يكونَ أَزْرَقَ وردياً مُشَوَّباً بالأَسودَ إلى أَخْضَرَ واضحٍ قَصْدِيٍّ فإِلى بَيْجِيٍّ<sup>(٥)</sup> نَمَ إلى أَسودَ مُجْمَلِيٍّ ، ويحيطُ بالشمسِ حَلَقٌ من دُخَانٍ أَسودَ كما يحيطُ بِرُحْلِ وتُنْفِي آخرَ شَعَاعٍ لامعٍ لها ، وتُسَاقِ اللُوجَ ، كما في الفجرِ ، فتطيرُ عَبرَ قُرْصِهَا عَصَابٌ مِنَ البَطِّ البَرِيِّ ، وتقومُ حولَ النهرِ المادئِ بِلَاشِينَ يَبْضُ مادةٌ قَوَامُهَا وراءُها ، ويأخذُ الإِبِيسُ في الطيرانِ غامساً رأسه في السَّاءِ ذاتِ الأَشِيقَةِ الضُّفْرِ الرَّغْرَانِيَةِ التي تَكْتَسِبُ ظِلًّا ضارباً إلى زُرْقَةٍ رويداً رويداً ، وَيَزْجِعُ الإِوْدُ إلى وُكْرِهِ صائحاً تحت شُفْرَةِ السَّاءِ ، وَيَبْدُو نَجْمُ السَّاءِ الأولُ مع النَّبَسِ<sup>(٦)</sup> .

(١) الضحاخ : جمع الضحاح : وهو الماء اليسير أو القريب القعر — (٢) الأوساق : الأحوال ، وهي جمع وسق — (٣) الأطواف : جمع الطوف ، وهو قرب ينفتح فيها ويسد بعضها إلى بعض أو قطع خشب تعد كذلك فصير كهيفة سلطع فيركب عليها في الماء أو يحمل عليها الأثقال — (٤) الكدرة : من الألوان ما كان غير صاف ومائل إلى السواد والظفرة .  
(٥) البجلة : شجيرة ذات أزهار بيضاء وحر — (٦) النبس : غلام الليل من أوله

ويرتفع النسيم قليلاً ، وَيَتَمَوَّجُ كلاً الرِّعَاءُ القصيرُ أَكْثَرُ من قبل ، وَتَنُقُّ الضفادع نقيقاً موزوناً ، وَيَحْوَرُّ بقرُ الماء في الظلام أحياناً ، وَيَبْزُزُ بَدَنُهُ الغريبُ من النهر لخلول وقت القوت ، وأخيراً يُرْخِي الليلُ سُدُولَهُ وَنَمُّهُ الْقَتْمَةُ وَتَصْدُرُّ الأوعال عن المناهل وَيَصِلُ الأسد بلا زئيرٍ وَيَشْرَبُ من ماء النيل ضارباً الهواءَ بِذَنبِهِ الطويل .

## ١١

يُؤَدُّ النهارُ ، والنهارُ إِذَا ما عاد جُرَّ النهرُ إلى الصِّراعِ الذي بُدِئَ في الليل بين الأرض والماء ، ويدخل النيلُ مَنَاطِقَ المناقع التي تُعَيِّنُ مصيره وتُقرِّرُ مصيرَ البلد بأسره ، ويكاد النيل يكون من الدرجة الخامسة إلى الدرجة العاشرة شمالاً شَرْيَافاً أساسياً لَقَدِيرٍ أَكْثَرُ من أن يكون نهراً .

وما كان لأحدٍ أن يَعْجَبَ لو اضطرَّ النيل إلى إتمام جَزَئِهِ حول الدرجة العاشرة من العرض الشَّامِلِ ، ولكن النيل لم يكن مجاوزاً سوى ثُلث مجراه حين مفادرتة القُدْرُ<sup>(١)</sup> ، وما قَبِيْءٌ يكون كاملَ القَتَاءِ ، وتلك هي أعظمُ مغامرةٍ له في مكاحلته الناصر ، وللناسُ مؤخراً ، والناسُ في قوة مَشْيِبِ النيل ، سيستفيدون منه ، وَإِذَا كان السَّدُّ وليدَ النبات هنا فإن الناس سيصنعونه من الحجارة .

والريح ضَلَعٌ في هذا الصِّراعِ بين الماء والأرض ، ولا تكون الريح حليفةً لها أبداً ، والريح تُحَرِّضُهُما ، وهي تُفَرِّقُ المَدَاوَةَ بينهما ، وتَصْعَبُ معرفةَ البادئِ حتى في هذه الحال ،

(١) القدر : جمع القدير وقدر مناه .



وهل تَسَهَّلُ الأضواءُ التحولَ إلى بطائح ؟ وهل تُكَرِّهُ الأحوالُ النهرَ إلى التَّجَمُّعِ أَكْثَرَ من قبل ؟ والذي لا رَيْبَ فيه هو أن النيلَ يَتْرُكُ ضِفَتَهُ الشَّرْقِيَّةَ بضغطٍ من الرياح الموسمية وَيَضِيقُ من قُوْرِهِ في سلسلةٍ منحنيةٍ من الأَقْصَاعِ <sup>(١)</sup> ، وَيَرْوُلُ كُلُّ انْحِدَارٍ من الناحيتين ولا يَجِدُ الروافدُ لها منفذاً فتتألف منها أحواضٌ وبحيراتٌ ، ويتحول النظام النهرى الذى وَجَدَ حتى الآن إلى عالمٍ مائىٍ غيرٍ ملتحمٍ ، غيرٍ جارٍ تقريباً ، متروكٍ إلى الريح متَوَّارٍ في فَنَواتٍ لا يُحْصِيها عَدَدٌ .

وكما أن القوضى تنتشر وتشتدُّ بنفسها إذا وَجَدَتْ دِعامةً لها ترى اصطراع الماء والأرض يستقرُّ بالجزر الجديدة التى هى مَرَقُ ترابٍ ، وإذا غلب نهرٌ ، كان يقضى حياةً منتظمةً بين ضِفَتَيْهِ ، فى قُوْتٍ لا تُحْصَى كان أمرُهُ كأمرِ بحرٍ يُلْقَى كُلُّ ما يُنْظَمُ صلاتُهُ بالأرض من قوانينٍ ، والناتجُ كُوجِدَ فى رَحَى من العُشْبِ والقَصَبِ وتُكَوِّنُ هذه النباتاتُ سَرْدًا <sup>(٢)</sup> يزيد زيادةً لا حدَّ لها فيَنَدُو مع الأيام والأعوام مُتَمَصِّصًا ، وهذا هو أمر النيل الأعلى منذ قرون ، والأَيْكَةُ الْبَكْرُ البارزةُ من الماء تبدو حاجزًا مانعًا لكلِّ قَارِبٍ مثلما نَقِفُ هذه الأَيْكَةُ أَيْ فارس ، ولم يَمُدَّ أَحَدٌ ما هَلَكَ من الرجال والحيوان فى مكلفَةِ البطائح .

ولارىب فى أن مصدر هذه البلبلة هو انبساطُ النهر الأَصْلَى الذى لا ضِفافَ له وانبساطُ رافديه العظيمين : بحر الغزال وبحر الزَّرَاف ، ويستر الماء جميعَ هذا البلدِ فى مُعْظَمِ أيام السنة على مِسَاحَةٍ نحو ستين ألفَ كيلومترٍ مَرَبَّعٍ ، وذلك فى مُثَلِّثٍ متساوى الأضلاع تَقَعُ مُنْطَلَةٌ فى جَنُوبِهِ ومَلَاكَالُ ومُلْتَقَى الجُورِ وبحر الغزال

(١) أى على شكل الآلة التى توضع على فم الإناء قصب فيه الوائل ، وهى التى تعرف بالصب ، وتجمع على أَقْصَاع — (٢) السرد : اسم لجمع للدروع وسائر الخلق .

## أسداد نباتية

في شماله ، وما في الخراط من عدم صحة فيدلُّ دلالة كبيرة على فوضى العناصر في تلك البقعة التي تزيد مساحتها على مساحة سويسرة مرة واحدة ونصف مرة ، ولا ينفك الجغرافيون يعدلون من سنة إلى أخرى خطوطهم بين الدرجتين الخامسة والسادسة من العرض الشمالي ، أى بين لادو وبور ، ويشاغل هؤلاء الجغرافيون اتجاه مجارى النهر المتحولة باستمرار عن وجود مصب ثانٍ لبحر العرب ، أو عن كونه بحر الحمر الذى يشك فيه كثيراً ، أو عن كون بعض الجزائر ثابتة أو متحركة ، وهنا الجدل حول أنهار وجزر على طول المئات من الكيلومترات ، وبعض القنوات يفتح أحياناً وبعضها يسد بالنبات أحياناً ، وبعضها يغيب تماماً وينتهى إلى إحدى سواعد النيل ، ومن المسافات العظيمة ما يمتد قلعته ، والآن لا يمكن بغير الطائرة التقاط صورة لقناة كبيرة تتغير في عشر سنين .

وإذا هبَّ الفيضان على التراب الرخو وفصل منه قطعاً حاولت هذه القطع أن تستقر بمكان آخر وكلفت الماء وردته عند انهيار الشفير<sup>(١)</sup> مثلاً ، وإذا لاقى تلك القطع تراباً صلباً<sup>(٢)</sup> لا يحفره الماء تكوّن غدير من الأعلى ومن الأسفل كما في الغابة البكر ، ويتجمع الطحلب<sup>(٣)</sup> في بعض الحفر ، وتستلزم رطوبته تكوين طحلب آخر فتمتزج به أعشاب ثابتة في وسط هذه البرك ، ويقوص هذا النبات المتكاثف بالتدريج في الأرض ويثبتها فتطرّد الماء وتتوارى البركة .

وتسد تلك الكتل النباتية المائمة ، وتلك الحواجز أو الأسداد ، كما يسميها العرب ، المضغوطة بقوة الجريان والمجرورة حتى المرات الصيفة ، حتى المنعطقات ،

(١) الشفير : ناحية الوادى من أعلاه — (٢) الصلب : اليابس .

(٣) الطحلب : الخضرة تملأ الماء الزمن .

### الريح الثورية التي لا تكل

يجرى النهر ويحمله على الانحناء والانطاف غير مرة بقنوات جانبية قليلة المُنق وتَقُ الجرى الأصلي ، ثم يُحيط العُينُ بالجذور التي تأخذ في النمو والتكاثر نحو كل جهة ، والآن أين النهر ؟ والآن أين النيل ؟

والنيل كالرجل المسحور ، موجودٌ هنا وهناك في آن واحد ، ويتشعب ملياً البحيرات الكبيرة في بلاد جبال القمر ويتشتت في قنوات ملتوية وفي خلجان وبحيرات وبركٍ وأحواض ، ويبلغ من المرض خمسة وعشرين كيلومتراً ويتكسش أخذوده فلا يزيد على ستة أمتار ، ومن مجارى الماء المستورة العُشبُ للشبكِ تتألف مساربُ بالغة من اللين ما لا يتحرز منه الحيوان ، والحيوان كلما كان ثقيلاً اغترز بسرعة ، وتُسفِر دقة أخذاذ الأوعال وأبقار الماء عن هلاكها ، وعلى ما يتصف به الفيل من حذر بالغ يضل أحياناً فيزل ، والنمل وحده هو الذى يجتنب الخطر لارتفاع قراياه<sup>(١)</sup> ثلاث أقدام فيحفظه ذلك من ارتفاع المياه ، والزنجى يردُّ العريضة إلى هذه البقاع كما يجتنبها الصائد الشمالى إلى المنافع .

وتذكرنا أخلاط النباتات هذه ، وتذكرنا أنواع البُسُط المتلبدة هذه ، بمقول النخ<sup>(٢)</sup> الخرافية التي حكى عنها كريستوف كولنبس ، أو بجليد الشمال الذى يتفتت ويتكسر ويتجمع عند حواجز الأنهار حتى يُذيبه شمسُ الربيع ، وفي بعض الأحيان تكفى هنا هبةٌ ريحٍ لفك كل شئ ، وما أكثر ما هلكَت قِطَاعٌ على مثل هذه القِطَع ، حتى إن بقر الماء يهلك أحياناً جوعاً فوق هذه الجزر النباتية الخلدعة .

ذلك هو عملُ الريح الثورية التي لا تكل والتي تُوقد بلا انقطاع نار الحرب .

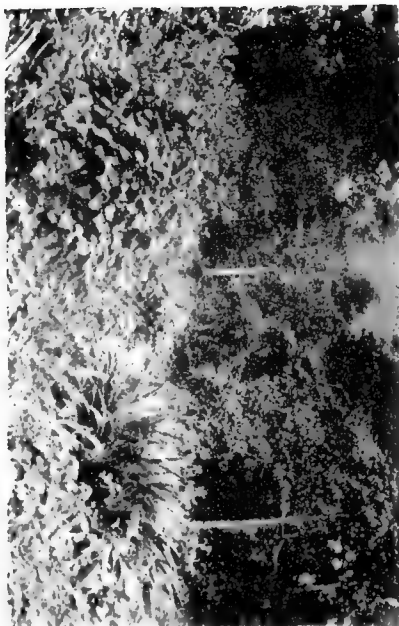
(١) القرايا : جمع القرية ، وهى مجتمع تراب النمل — (٢) الحث : نبات الماء .

### لاعوت تلك الكتل النباتية

بين الأرض ولواء، والريجُ هي من القوة ما تَقْدِفُ معه في مجرى النهر الأصلي، وذلك في ليلةٍ واحدة، كُتِلَ أحدُ الأحواضِ المُشْبِيَةِ، فإذا حَلَّتْ الليلةُ التالية هَبَّتِ الرياحُ الأخرى، التي هي أختُ عَدُوِّ تلكِ الرياحِ، من الجهة الماكسة ومَزَقَتْ كلَّ شيءٍ إِرْبًا إِرْبًا واستردَّ النيلُ حرَّيته، وإذا صَفَطَ النيلُ عَاطِمَ الجُرُيرِ وأراد استقرارها دفعتها الرياحُ إلى الخلف، وتزيدُ سرعةُ النيلِ في الجبالِ عشرةَ أمثالها في بعض الأحيان، ومن ثمَّ تنشأُ فيضاناتُ النيلِ وروافده، وأمسِرَ كان بحرُها، واليومَ تُبَصِّرُ مَرَجًا هنا، ومن المحتمل أن تَجِدَ في النَّدِجِ من جديدٍ هنا. ولا تموتُ كُتُلُ النباتِ تلكِ، وهذا الحاجزُ هو مصدرُ حياةٍ جديدةٍ للنهر، وعند ما يَكْثُرُ التَّزْدِيءُ في مكانٍ ما من الأعلى ومن الأسفل، وعند ما تَقِفُ الحِصَاةُ<sup>(١)</sup> والصَّوَالَةُ<sup>(٢)</sup>، للنحْلَتَانِ المُتَجَمِّعَتَانِ بين الجذور، كلُّ جريانٍ تفضي عاصفةٌ على هذا الحاجزِ فجأةً، تُجَرِّئُ الأنقاضُ بمنفٍ إلى الحاجزِ التالي وتُؤَوِّيه، وبما لا يُحْصَى عددُ الأسماكِ والتمايحِ وأبقارِ الماءِ التي أُخِذَتْ وَخُنِقَتْ في هذه الأشرارِ الواسعة، ولدى النباتِ كما لدى الإنسانِ تَحْدُثُ بَلِيَّةٌ بفعلِ القوضى فتَفْسُدُ الطبقاتُ العميقة على حين تَظْهَرُ الطبقاتُ العليا وتسيرُ كما تريد، وقد تَبْلُغُ هذه الكُتُلُ المُشْبِيَةُ من الارتفاعِ خمسةَ أمتارٍ في بعضِ المرات، ولهذا الصَّرَاعُ المُضَيِّ ضِدَّ هذه الألوفِ من صِغارِ الأعداءِ نتائجُ خَاصِيَّةٍ مع ذلك، فالنهرُ يثيرُ الأرضَ فَتَسْقُطُ أجزاؤها اليابسة دوماً وتُسَرَّرُ مُجَدِّدًا، وما يَتِمُّ لمجرى النهرِ من تبديلٍ هنا، في النيلِ التهرى، وهو الذي لا يَتَّفِقُ للأنهارِ الأخرى إلا في قرونٍ، فيقعُ بسرعةٍ ومن غيرِ انقطاع .

(١) الحِصَاةُ : الطين — (٢) الصَّوَالَةُ : ما أخرج من الحنطة ونحوها في التصويل، كناية نواحي اليندر .

١ - غابة السراة





### جبل التهر مائلاً لليلحة

وكسرت قُوَى الإنسان تجاه العناصر مدة ألفي سنة ، وَيَدُوّ الأعداء ، الريحُ والماء والترابُ ، متفجرين سراً على إقصاء الإنسان ، وَوَقَّعت تلك الحواجزُ النباتيةُ جميعَ الفزوات التي جُرِّدَت منذ عهدِ نيرُون ، وَحوَّلَ النيلُ الذي لَا يُقهرُ مجراه في تالي القرون طليقاً كما نَظَّمْ خوصه على مراده .

ولكن الأيضَ في زمنِ أمين باشا هينَ على النيل ، قد وَفَّقَ النموسى مارنُو لاختراق ذلك السدِّ في ستة أشهر وبمئة عامل ، وهذا بعدَ الأمطار التي عَمَرَت الخُرطومَ وَخَرَّبَت مصرَ في سنة ١٨٧٨ ، وهذا بعد أن قطعت الأشدادُ النباتية ذلك الاتصالَ مدةَ سنتين ، ولم يَأْتِ الإنكليز على آخرِ السدِّ الأصليِّ إلا في سنة ١٩٠٠ ، وكان لا بُدَّ من تعاونِ المذَفِّينَ وبواخرِ البشرين ومن اتحادِ القوة والدين الذي هو طليعتها لجبلِ النيلِ صالحاً لليلحة وللانصرار على عالمِ الطين والنبات هذا .

وَيَبْعَثُ المهندس الذي يَسِيرُ نحو منبع النيل بعد الخُرطوم عن مكان النهر وعن ضفافه قبل كلِّ شيء ، وذلك خَشْيَةً خَلَطِ الجُرُرِ والشَّفيرِ ، وَيُرِيدُ المهندسُ حَرْقَ كلا الجزيرَتين ، وَيَبِينُ له إمكانُ دَوْرَانِ الريح وإحاطةِ انطرط بسفينته ، ويرى اتخاذَ خطةِ الهجومِ بِنَزْرِ الأوتاد في الأعشاب وريطها بالجبالِ وَوَصْلِهَا بالسفينة المتجهة نحو منبع النيل ، وتسيرُ الآلة رويداً رويداً ، وتُسْرِعُ الآلة مقداراً فقداراً ، ثم تتقدم بجميعِ قوتها ، وتقوم بنصفِ دَوْرَةٍ مقتطعة قطعاً من السدِّ كما كانت تقطع الأسنان فيما مضى ، وَيُظْهَرُ النباتُ أقوى من الأوتاد أحياناً ولو أُنْسَكَمَا ثمانية رجال ، وهنا تَنَجَلِي المَهارةُ في معرفة شَدِّ الحبال وإرخائها .

وإذا كان الجريانُ للماكس غيرَ كافٍ وكانت الجُرُرُ قديمةً مستعصيةً

بِأَنِّي اللَّيْلُ بِالْأَخْطَارِ

أوَكَانَتِ الْمَنَاقِعُ عَمِيقَةً فَسَمَّهَا الْمُهَنْدِسُ إِلَى مُرَبَّاتٍ وَجَزَّ الشَّجَبَ بِسُيُوفٍ قَصِيرَةٍ وَقَطَعَ الْجَنْدُورَ، وَبَدَخَلَ مِثْلَ زَنْجِيٍّ فِي الْمَاءِ حَتَّى الصَّدُورِ، وَرَشَّحُونَ عَرَفَاءَ وَطِينًا، وَيَهَاجُونَ النَّبَاتَ بِالسَّكَاكِينِ مِنَ الْأَعْلَى وَبِالْمَاعُولِ مِنَ الْأَسْفَلِ، وَلَكِنْ السَّيْلَ إِذَا مَا اشْتَدَّ تَعَلَّقُوا بِأَقْوَى سَوْقٍ لِلتَّبَرْدِيِّ وَرَبَطُوا الْقُلُوسَ<sup>(١)</sup> بِهَا، وَهَنَالِكَ تَقْتَلَعُ السَّفِينَةُ تِلْكَ الرُّبُوعَاتِ نِصْفَ الْفَصُولَةِ، وَذَلِكَ عَلَى حِينٍ يَحْمِلُ الرِّجَالُ أَوْتَادَهُمْ بِسُرْعَةٍ وَيَصْعَدُونَ الْمَرْكَبَ وَتَرْتَمُونَ عَلَى ظَهَرِ مَنْهُوَكِينَ .

وبأى الليل بالأخطار، وفيما يَفَرُّ كُلٌّ فِي مَجَرٍّ مِنَ الرَّاحَةِ إِذْ يَنْفَصِلُ مَرْبَعُ مَرْتَبَعٍ  
ضِدَّ التِّيَّارِ فَتَسُوقُهُ الرِّيحُ نَحْوَ الْبَاخِرَةِ وَيُحْصِرُ الْحِصْنَ بِذَلِكَ، وَمَا يَحْدُثُ أَحْيَانًا  
أَنْ يَشْرُ النَّيْلُ بِقُوَّتِهِ بِنْتَةً فَيَقْلَعُ قِطْعًا صَغِيرَةً مِنَ الْجُزْرِ وَيَصْدِمُ بِهَا الْبَاخِرَةَ  
وَيَطْرَحُهَا عَلَى الزَّوَارِقِ وَرَاءَهُ وَتُكْسَرُ الْمَرَامِي وَيُقْصَمُ السَّلَاسِلُ وَتَعَوَّجُ الْجِبَالُ  
وَيُحَاطُ بِسُكَّانِ<sup>(١)</sup> السَّفِينَةِ فِي بَلَدٍ لَا تَوْجَدُ فِيهِ قِطْعَةٌ غَيْرُكَ، وَتَلْتَقِي فِي مَرَاتٍ أُخْرَى بَعْضُ  
الْحَوَاجِزِ فَتَتَأَلَّفُ مِنْهَا كُتْلَةٌ كَمَا فِي السِّيَاسَةِ، وَالْإِنْكِلَابُ قَدْ طَوَّرُوا ثَمَانِيَةَ كِيلُومِتَرَاتٍ  
فِي ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ بِخَمْسٍ بَوَاحِرَ وَثَمَانِيَةَ أَسِيرِ نُوتَرِيٍّ مَعَ عَدَمِ فَحْمٍ وَعَدَمِ اتِّصَالٍ وَبَيْنَ  
قِبَائِلَ هَانْجِيَّةٍ وَعَلَى الرِّغْمِ مِنَ الْأَخْطَارِ وَالتَّبَعُوسِ وَالْمُحْصَى .

واليوم أيضاً لا يمكن البصرُ بأهواء النهر في أثناء ذلك السَّير الطويل من غير صِلَةٍ بصفافه، ومنذ بضع سنواتِ مَضَتْ فَصَلَ فَيضَانٌ مفاجئٌ مقاديرَ كثيرةٍ من النباتات ذواتِ الجُذورِ القصيرةِ من أهوارٍ <sup>(٣)</sup> فدفعها إلى أضواحٍ فخاصر النيلَ بالقرب من شاطئه مُدَّةً ثلاثةِ أسابيعٍ وعلى طول ثمانية كيلو مترات، وماذا وَجَبَ

(١) القلوس : جمع القلص ، وهو جبل للسفينة ضخم - (٢) سكان السفينة : دفتها .

(٢) الأهوار: جمع المور ، وهو البحيرة تجري إليها مياه غياض وأجسام فتقسم .



ان يُفعل؟ حُفِرَتْ قناةٌ طولها مئةُ كيلو متر لوصولِ النيلِ بحِرِّ الزَّرافِ وتقليلِ ضَيَاعِ الماءِ في الناقعِ ، وَبَلَغَ النباتُ من التَّقَرُّيحِ ما لم يَبْقُ معه غيرُ عَجْرِيٍّ عَرْضُهُ ثمانية أمتارٍ صالحٍ لِلإِلاحةِ ، وأما القَنَوَاتُ الأخرى فقد تَحَوَّلَتْ إلى بطائِحٍ في أقلِّ من عشرين سنة .

وَلَمْ قَامَتْ غاباتٌ صغيرةٌ مقامَ بعضِ الشَّجيراتِ المنعزلةِ بعدَ جفافِ عالمٍ واحدٍ؟ إنْ بُذِرَ الكَلأُ في الأراضِ المُجَفَّفةِ ، ولكن مع بقاء هذه الأراضِ مُعْطَاةً بأهوارٍ أو ماءٍ جارٍ على العموم ، نَمَتْ وَبَلَغَ النباتُ من العِظَمِ بسرعةٍ ما جاوزَتْ معه في أدوارِ الفيضانِ مستوى الماءِ فداومت على التَّنَفُّسِ والحياةِ ، وهكذا تَمَارِضُ لِلإِلاحةِ في كلِّ سنةٍ أسراراً نَمُوَ النباتُ ، بَيِّدَ أَنْ قُوَّةَ النهرِ الحيويةِ التي لا تَقَى تنصير على الألوفِ من أعدائها الصَّغارِ كما تنقلب على أخطار الناقعِ ، وإذا كان النيلُ لا يَفْلُبُ ، وإذا كان النيلُ يَجِدُ سلامته في الصحراءِ ، فإنه يَتَرُكُ مع ذلك ماءً غزيراً في هذه الإسفنجية فيصينُ هذا الضياعُ مستقبله ومستقبل مصرَ في الوقت نفسه .

## ١٢

مِنْطَقَةُ الضَّعْاضِحِ النيليةِ منعزلةٌ ، ولا يَدْنُو الإنسانُ من النهرِ إلَّا في أَمَاكِنَ نادرةٍ حيث تكون الضَّغَّةُ جافَّةً تماماً ، وهذه المياهُ الجاريةُ الراكدةُ لا تُزْجَعُ بعضُ جماعاتِ الحيوانِ وبعضُ أنواعِ الجيوانِ في عاداتهما ، وتستمرُّ هذه الجماعاتُ والأنواعُ على التَّعيشِ في تلكِ المياهِ ، فتَجِدُ الأسماكُ والطُيُورُ والزَّحَّافَاتُ مَكانَها فيها . وَتَرَى في القسمِ الجنُوبِيِّ الممتدِّ إلى شَاقِئِهِ مِسَاحَاتٍ واسعةً من الأرضِ الثابِةِ

مسكونة نسيباً ، والنيل ، مع جزيه القوى بمض القوة ، يظل ضمن مجراه الكثير  
العرض حتى حين الفيض ، والنيل يُبصره بعد ذلك مرصعاً بجزائر رحيّة  
ومنخفضة ، ويتحول البلد المجاور إلى سهب ، ويغدو النخل نادراً على كجلى فيشار  
إليه في الخرائط للفصلة ثلاث<sup>(١)</sup> ، ويؤلف النيل بجوار بور من ناحية الغرب  
أضواجا في وادٍ يترجّع عرضه بين خمسة كيلومترات وعشرة كيلومترات ،  
ويستندر الجرى والواى ، وفي الغرب يعتمد بعض التلال عن بعض ، ونصيح  
الجزر أوسع مما كانت عليه ، ويكون ظل السقط والدوم<sup>(٢)</sup> ورأس الجميز  
الميتال<sup>(٣)</sup> آية الأمكنة الجافة ، وتلغ الثبغ الصغر على أكوخ الزنوج بالقرب  
من الصفاف طورا وفي داخل البلد طورا آخر ، وتساق القطاع إلى الماء ، وبسطاد  
الزنجي سمكا ويخطف بالخطاف ويعلق تحت الشمس لحم بقر الماء المذبوح .  
وفي الجرى التحتاني من بور تسيطر القدر والغزلة التامة حتى بحيرة نو ،  
حتى الكيلومتر ٥٠٠ من الشمال ، وليس الأثر واضحاً ولو نظر إليه من حل ، ومن  
الطائرة يرى وجه متموج أحر أجري<sup>(٤)</sup> محاط بطين أبيض مخطط بأدغم  
جانية وبيحيرات وغدير ضاربة إلى خضرة ، يرى بحر يثيره القصب والبردى  
إثارة خفيفة ، وفي الغرب ، وعلى بعد عشرة كيلومترات من النيل ، حيث تنخفض  
القدران أكثر مما في الشرق ، يفصل ضرب من السنام<sup>(٥)</sup> هذه الناقع عن مناقع  
بحر القزل الآتية من خط المياه القاسم بين حوض النيل وحوض الكونغو ،  
ويؤول هذا الخط الجوهري لنصف القارة إلى منحدر مترين من الملوك .

(١) ثلاث : ثلاثة ثلاثة ، وهو غير منصرف ، ويستوى فيه الذكر والمؤنث — (٢) الدوم :  
شجر يشبه النخل — (٣) الميتال : الفجرة للثغة الأنان الوارقة التلال .  
(٤) الأجرى : نسبة إلى الأجر ، وهو القرميد — (٥) السنام : حدية في ظهر البعير .

وتلك الأرض النقطية السَمْدَةُ بِرَمَادٍ حَرَاتِي الشَّهْبِ السَّنِيَّةِ وَالنَّشَارَاتِ  
الحقمية هي بلادُ الكَلَا .

والصَّدَارَةُ لِلْبَرْدِيِّ ، وقد أُنْمِ لِيْفُهُ عَلَى الْفِرَاعَةِ بِالْخُلُودِ ، وَتَمُرُّ سِتُّ آلَافِ  
سنة ولا يزال البردِيُّ يُقاومُ كَمَقَاوِمَةِ صَخُورِ الْفِرَايْنِ التي تَقْشُرُ عَلَيْهَا مَا تَرْمِيهِمْ  
ومساوئِهِمْ ، وكان يُسَمِّعُ حَفِيفُ سُوْقِ تِلْكَ الشَّجَيْرَاتِ التي يَمُرُّ مِنْ ظِلِّهَا فِرَاعَةٌ  
مَصْرَفِيَا يَجِدُفُهُ الصَّيْدُ مِنْ قَوَارِيهِمُ الْحَرِيَّةِ ، وكان عِيْدُ آخَرُونَ يَقْطَعُونَ لُبَّ  
ذلك النبات في عَصَائِبٍ يُشَبِّكُونَهَا وَيَشْدُونَهَا وَيَصْقُلُونَهَا لِيَجْعَلُوا مِنْهَا أَوْرَاقًا لِيَفِيَّةِ ،  
ومن المَعِيْدِ جَاعَةٌ عَالِيَةٌ تُسَجِّلُ فِي تِلْكَ اللَّفَائِفِ عَجْدَ الْفِرَاعَةِ ، ومن الصَّيْدِ طَبَقَةٌ  
رَابِعَةٌ تَنْقُلُ تِلْكَ اللَّفَائِفَ إِلَى بِيُوتِ الْأَمْوَاتِ التي أَسْفَرُ فُضُولُ الْبَيْضِ عَنْ نَبْشِهَا ،  
ثم حَلَّهَا بِمَقْرِئِهِمْ فِي نِهَاجَةِ الْأَمْرِ ، وهذا النَّبَاتُ مَتَنَحٌ ، إِذَنْ ، أَوَّلَى الْأَوْرَاقِ  
الصابرة التي أَرَادَ أَقْوِيَاءُ هَذَا الْعَالَمِ أَنْ يَطْمَئِنُّوا بِهَا إِلَى جَاهٍ أَبَدِيٍّ بَعْدَ تَسَيُّبٍ مِنْ  
الْمَلَأَذِ الْيَوْمِيَّةِ .

وَيَبْلُغُ ارْتِفَاعُ الْبَرْدِيِّ سِتَّةَ أَمْتَارٍ ، وَيُؤَلِّفُ الْبَرْدِيُّ غَابَاتٍ صَغِيرَةً مُدْهَمَّةَةً  
يُوجِبُ نَمُوَّهَا الدَّائِمُ مَنَظَرًا لَطِيفًا مَنَسْجِيًّا ، وَعِنْدَمَا تَخْرُجُ الْأَشْطَاءُ <sup>(١)</sup> الْخُضْرُ اللَّامِعَةُ  
عَلَى طَرَفِ الْمَاءِ وَتَحْتَ قَدِيمِ النَّبَاتِ مُتَصِلَةً بِهَذَا النَّبَاتِ فِي ظِلِّ الْغَابَةِ الْبَكْرِ وَقَدْ  
الشَّقَقُ غَيْرَ مَظْهَرَةٍ رُؤُوسَهَا عَلَى شَكْلِ سَنَابِلٍ بَعْدُ يُشْمَرُ بِرُؤُوسِ حَيَاةٍ نَبَاتِيَّةٍ تَخْرُجُ  
مِنْ تِلْكَ الْكُتْلِ التي تَرْتَجُّ وَتُدَوِّي وَتُصَوِّتُ دَوْمًا عِنْدَ أَصْفَرِ هَبَّةِ رِيحٍ .  
وَإِذَا قَيْسَ بِالْبَرْدِيِّ كَلَّا الْقِيلُ ذُو السُّوقِ الْكَبِيرَةِ كَالْخَيْرُانِ وَجِدَّ عَاطِلًا  
مِنْ الرُّوْعَةِ رَجُولِيًّا مَثِيرًا نَاصِبًا أَوْرَاقَهُ اللَّذْرِبَةَ <sup>(٢)</sup> وَأَزْهَارَهُ الشَّمْرَ كَالْمُتَحَدِّثِ .

(١) الْأَشْطَاءُ : جَمْعُ الظَّأِ ، وَهُوَ مَا خَرَجَ حَوْلَ أَصُولِ الشَّجَرِ - (٢) الْمُنْرِبَةُ : الْمُنْرِبَةُ .

وَيَكْسُو الْأَرْضَ بَيْنَ مَكَانٍ وَمَكَانٍ قَرُورًا أَخْضَرُ مَنِيرٌ ذُو شُعُورٍ طَوِيلَةٍ وَظُرُوفٍ  
مَعْقُوفَةٍ غَيْرِ قَصِيرَةٍ ، وَهُوَ الَّذِي وَرَدَ ذِكْرُهُ فِي التَّوْرَةِ بِاسْمِ أُمِّ الصُّوفِ ، وَهُوَ الَّذِي  
يُسَمَّى الزُّنُوجَ أُمُّ الْقَطَنِ ، وَيَنْمُو هَذَا النَّبَاتُ فِي الْمَاءِ الَّذِي يَكُونُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ  
الْعُمُقِ حَيْثُ تَكُونُ الْأَرْضُ مُسْتَوِيَةً .

وَيُسَيِّرُ عَلَى جَمِيعِ مَا ذَكَرَ نَبَاتٌ مَائِيٌّ رَابِعٌ ، وَيُظْهَرُ هَذَا النَّبَاتُ شَجَرًا صَغِيرًا  
أَكْثَرَ مِنْ ظُهُورِهِ كَلًّا ، وَيَتَأَلَّفُ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَاتِ غِصَّاتٌ حَقِيقَةٌ سَرِيعَةٌ  
النَّمُو تَسْبِقُ فَيْضَانَ النَّيْلِ سَرْعَةً ، تَجَاوِزُ مُسْتَوَاهُ سِتَّةَ أَمْتَارٍ ، تَبْرُزُ فِي كُلِّ وَقْتٍ  
فَوْقَ أَعْلَى الْمِيَاهِ ، وَلِهَذَا النَّبَاتُ يَمْنَعُ عَصْدَ الْإِنْسَانِ ، وَهُوَ يَسْتَدْقُ كُلَّ مَا زَادَ ارْتِفَاعًا ،  
وَهُوَ ذُو خَشَبٍ لَسْتَنَجِيٍّ وَلَبٍّ لِيَفِيٍّ ، وَهُوَ ذُو أَشْوَالٍ خَفِيفَةِ الْإِنْحَاءِ وَأَوْرَاقٍ  
مُبْقَرَّةٍ كَمَا فِي السُّتْحِيَّةِ<sup>(١)</sup> ، وَتُحِيطُ بِهِ لِمُرَشَّاتُ ذَاتِ الْأَزْهَارِ الزُّرْقِ مِنْ كُلِّ  
جَانِبٍ ، وَهَذَا هُوَ التَّنْبِجُ الَّذِي يُنْبِئُ الزَّيْتِيَّ مِنْهُ طَوْفُهُ الْبَالِغُ مِنَ الْخَلِيفَةِ  
مَا يَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ مَعَهُ أَنْ يَحْمِلَهُ عَلَى كَيْفِهِ وَبِالْبَالِغِ مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَحْتَمِلُ مَعَهُ  
خَمْسَةَ رِجَالٍ .

وَأَضِيفُوا إِلَى ذَلِكَ عَالَمَ نَبَاتَاتِ الصَّخْصَحِ الْمَائَةِ أَوْ الثَّابِتَةِ ، وَالْمَصْقُولَةِ أَوْ  
الْمَرْصُوعَةِ ، وَالتَّصَلُّ بِبَعْضِهَا بِبَعْضٍ بِالنَّيْلُوفَرِ الْأَزْرَقِ وَبِالْبَجَلَةِ وَلَقَمَةِ الْقَاضِي الصَّفْرَاءِ  
وَحَيِّ الْعَالَمِ الشَّمْسِيِّ الشَّكْلِ وَالْأَشْنَةَ الْمَائِيَّةَ فَتَحُولُ بِهَا الْأَحْوَاضُ إِلَى مَرْوِجٍ  
وَالْأَنْهَارُ إِلَى مُرْطٍ مُخْطَطَةٍ بِنُجُومٍ .

وَفِي هَذَا النَّظَرِ الْمُسْتَوَى اسْتَوَاهُ تَمَلُّيًا يَسْتَوْفِقُكُمْ صَوْتُ الْعَصَافِيرِ وَغَيْرِهَا مِنْ  
الْحَيَوَانَاتِ أَقَلِّ مِنْ حَيِّفِ الْكَلَالِ وَفَضِيضِهِ ، وَفِي مَدْخَلِ الْمَنَاقِعِ بِالْجَرَى التَّحْتَانِيِّ

(١) المستحية : نباتة إذا لمستها اطبق ورقها .

### الثل الأبيض

من مُنْتَقَلًا بُنْصِرْ جَزِيرَةٍ يَسْكُنُهَا زَوْجَانِ مِنَ الْأَفْيَالِ مِنْذُ خَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةٍ لَيْسَا مِنَ الشَّجَاعَةِ مَا يَتَّبِعَانِ مَعَهُ النَّهْرَ فِي هَذَا الْمَسْكَانِ عَلَى ضَيْقِهِ ، وَلَدَيْنَكَ الزَّوْجَيْنِ صَغِيرَانِ ، وَقَدْ أَتَاهُمَا وَدَاسًا كُلُّ شَيْءٍ ، وَهَما يَشَاهِدَانِ الْبَوَاحِرَ الَّتِي تَمُرُّ مِنْ هُنَاكَ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ ، فَكَأَنَّهُمَا أُسِيرَانِ مَتَطَوِّعَانِ فِي حَدِيقَةِ حَيَوَانَاتٍ فَرِيدَةٍ فِي الدُّنْيَا .

وَكَلَّا أَوْخَلَتْ فِي الْحَجَرِ التَّحْتَانِيَّ لَمْ تَرَ فِي مِنتَقَةِ الضَّحَاحِ غَيْرَ أَنْوَاعٍ قَلِيلَةٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَلَكِنْ مَعَ طَبَائِعٍ غَرِيبَةٍ .

فَهَذَاكَ الثَّمَلُ الْأَبْيَضُ الَّذِي تُسَوِّغُ أَعْمَالَهُ تَلْقِيَهُ بِالْقَدَّرِ كَمَا فِي اللَّاتِينِيَّةِ ، فَهُوَ يَقْرُضُ كُلَّ مَا يَحِيدُ ، وَهُوَ يُكَدِّرُهُ قَبْلَ أَنْ يَمْسَهُ كَمَا يَصْنَعُ بَعْضُ مُحَبِّرِي السِّيَاسَةِ ، وَهُوَ يُخْرِجُ دِهَالِيزَ تَحْتِ مَا يُوَدُّ هَلَاكَهُ نَفْعًا لَهُ أَوْ يَسْتَرُهُ بِالتَّرَابِ ، وَالرَّزْمُ فَرِيستُهُ فَضْلًا عَنِ الشَّجَرِ وَالسَّلَالِ وَالصَّانِدِيقِ ، وَتُحْفَظُ بَقَايَاهُ فِي تِلَالٍ يَتَبَلَّغُ ارْتِفَاعُهَا أَرْبَعَةً أَمْتَارًا أحيانًا فَلَا تُنْسَفُ إِلَّا بِالْمُتَضَجِّراتِ ، وَلَا يُقْفَى عَلَى هَذَا النِّظَامِ إِلَّا بِقَتْلِ مَلِكِيَّتِهِ ، فَإِذَا مَاتَتْ تَفَرَّقَ شَمْلُ تِلْكَ الْأَرْضِ <sup>(١)</sup> تَفَرُّقًا تَامًا

وَمَعَ ذَلِكَ تَرَى لِتِلْكَ الْحَيَوَانَاتِ عَدُوًّا أَقْلَ مِنْهَا ذِكَاً وَأَعْظَمَ مِنْهَا مَكْرًا ، وَالْعَدُوُّ هُمُ الزَّوْجُ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الْوِلَايَةَ أَكْلًا لَهَا ، وَالزَّوْجُ يَعْرِفُونَ أَنَّ الْأَرْضَ تُخْرِجُ مِنْ قَرَايَاهَا عِنْدَ الْمَطَرِ ، فَيُطَبِّطُونَ بِلُطْفٍ فَوْقَ التَّلِّ ، فَتُظَلُّ هَذِهِ الْحَشَرَاتُ سَمَاعِمَا نَزُولِ الْمَطَرِ وَتُخْرِجُ وَيَلْتَقِطُونَ الْأُلُوفَ مِنْهَا ، وَيَنْتَهِي الْأَمَلُ فِي حَالِهِ إِلَى قَدْرِ أَشْرَقِ زَيْجَةِ تَنْفُوقِ الْحَصَاءِ .

وَيَعِيشُ دَيْبُ الْحَوْتِ فِي الثَّقُوبِ عَلَى ضِفَافِ النَّهْرِ ، وَهُوَ إِذَا مَا حَقَرَ لَهُ مَرٌّ

(١) الْأَرْضُ : جَمْعُ الْأَرْضَةِ ، وَهِيَ دَوْبَةٌ تَأْكُلُ الْحَبَّ عَلَى الْحَصَى .

## التمساح

في الطين انقضَّ على الإنسان والحيوان وقَحَّ<sup>(١)</sup> كاللعبان ، ولا يُعْرِفُ العفاء  
وإن الزنوج هل هذا من الأسماك أو من الحشرات ، وعلى أنوف الأرض الجافَّة  
تُبَصِّرُ الضَّبَّانَ الضَّخْمَةَ تَدْفِي تحت الشمس وتبصر الأفاعي تُلْقِي الرُّعْبَ في  
الإنسان والقرْد ، وإن كانت ضحاياها أقلَّ عدداً من ضحايا التماسيح التي يبارك  
البلد لها .

والتمساحُ ، كمضوي في نادٍ محافظ ، يَقْضِي مُعْظَمَ حياته ناعساً في الحرِّ على شَفِيرِ  
ناتِي ، ويكون التمساح جباناً في البرِّ مَرهُوباً في الماء مستعداً في كل حين للزُّلُوج<sup>(٢)</sup>  
فيه ، وتفتح التماسيح فكيها ، ويظلُّ رأسها الحادُّ دقائقَ طويلةً مستنداً إلى  
الأرض ، وتَبْدُو عيونها نصفَ مستورةٍ بأجفانها الثقيلة ، ويستلقي بعضها بجانب  
بعض كما لو كانت جلاييدَ .

وإذا ما ابتعد التمساح عن شاطئ النيل مصادفةً وطُورِدَ اتجه إلى النيل على خطِّ  
مستقيم بأسرع من تَطَارُقِ<sup>(٣)</sup> الإبل ونَهْيًا للدِّفَاعِ ، والتمساحُ أشدُّ حَذَرًا من  
الحشرات الأخرى لأنه أدقُّ سمماً منها ، وفي هذا سرُّ طول عمره على ما يحتمل ،  
ومن فَضْلِ الخالق عليه امتدادُ أَجَلِهِ ونُمُوهُ بما يتفق له من الزمن على مَهَلٍ لا يتصوره  
خيال ، فبينما يَبْلُغُ الإنسانُ ثلاثةَ أضعافِ قامته فقط بعد ولادته يكون طول التمساح  
عند ميلاده ثلاثين سنتيمتراً ثم يَبْلُغُ ثلاثةَ أمتارٍ طُولاً ، وَيَحْدُ الزَّيْجِيُّ ، حَقِ  
الكلبُ ، على التمساح أشدَّ الحقد ، ولا تَحِبُّ ، فالتمساحُ عَدُوُّ جميع الحيوانات وجميع  
الناس ، والتمساحُ يصطاد وَيَذْبَحُ الجمل والحير ، والبلاشين أيضاً ، وَغِلانٌ ما قبل

(١) لَحَتُ الحية : صانت من فيها — (٢) الزلوج : الزلق .

(٣) تطارقت الإبل : تبع بعضها بعضاً .

۷ — وادی بحر ابلیل







### أبو مركوب

الطوفان الثلاثة وحدها هي التي لا تخاف التماسح ، ولكنها لا تؤذيه لأنها تأكل الأعشاب ، والتماسح لما لا يشعر به من التخز والنهش<sup>(١)</sup> ، ومن الجحش ، تجده لا يجرح ولا يفنى .

وأبو مركوب طيرٌ نورٌ أيضاً ، وهو أكثر الطيور غرابةً ، وهو يسكن تلك المستنقعات ويسكن منابع النيل ، وهو رماديٌ يفنى مع انعكاساتٍ خضر وبيض ، وهو ينصب رأسه ذا اللينقار الزائد على الحدِّ فوق عنقه المظوف ويقف على رجل واحدة لجميع طيور النذران ، ولهذا الطائر الكتيب الشكس ، المعتزل دوماً ، حركات مفاجئة ، ويلوى هذا الطائر رأسه ٣٦٠ درجة وينشر جناحيه الثقيلين ويفتح ذلك الجيب الواسع كعذة في السق فيصلح له منقاراً ، ويألف في كل وقت حياةً للناعم المتسوفة التي تنميشها تفحات الريح .

وفي أثناء هذا الصمت تبصر اهتزازاً ، تبصر تشنجاً مستمراً ، وتلك هي أصواتٌ مخنوقةٌ توحى برائحة البلد ، ويهيم على ظنين الموام التي هي سيده تلك البقعة ، وعلى خفيف المسب ، تحمل<sup>(٢)</sup> باشقٍ كبير فوق البردي أو غفقة صفر ، ومن هذه الغابة ذات السوق الخضر يتصاعد نافذاً مرهقاً ما ينبعث من الجذور والأشجار الفاسدة

وتهبُّ ريح الجنوب مساءً وتنتشر حرائقُ الشهب حتى السدِّ وتنبير الأفق ، وتقيب الشمس الحمراء الكدرة تحت السماء الرزينة<sup>(٣)</sup> ، وتحرك الطيور للآنية وترتاد المستنقعات ، ويهبط القاوند والقاق ، وتلب أسماك كبيرة فضية خارج

(١) نهشته الحية : تناولته فيها لتؤثر فيه ولا يجرعه — (٢) حمل صوته : بع وخشن .

(٣) لوزينة : الرزينة .

### على نور الشفق البنفسجي

سَمَاطُ البحيرة الأَرْجَوَانِيَّةُ ، وتطير جماعاتُ الإوزِ نحو الشمال ، وَيَتَضَحَّ خُوارُ بقر الماء ، ويستمد بقر الماء. هذا للبحث عن مَرَعَاهُ في الأَرْضَيْنِ ، وترى عشراتِ الألوف من اللُذودِ اللامعة نُفُوهَ أَيْكَةِ الْبَرْدِيِّ .

وعلى نور الشَّفَقِ البنفسجيِّ ، وفي الغدير ، يتساقط الليلُ والصفادُ رويداً رويداً ، ويحول حَيَفُ أوراقِ الْبَرْدِيِّ الْمُتَجَمِّدَةِ إلى جَرَسٍ <sup>(١)</sup> مِرْمِيٍّ يَصْفُو عليه إيقاعٌ <sup>(٢)</sup> هَوَامٌ الليلِ وَيَذَكُرُ بصوتِ الحِنِّ ، وَيَبْدُو البَعُوضُ ضَبَاباً كثيفاً على آخِرِ ضِيَاءِ لأَوَّلِ الليلِ الْمُرْسِلِ سُدُولَهُ <sup>(٣)</sup> ضاربٍ إلى صَفْرَةٍ ، وتمرُّ الوطاطِطُ ، وترى الخطاطيفِ المتأخرة وهي تَرْفُقُ بقلبي باحثةً عن مأوى لها في الليل ، وتظلُّ البلاشينُ ساكنةً على ضِفَةِ النهرِ الوَعْرَةِ ، وأين تنام الجوارحُ <sup>(٤)</sup> ؟ أفتَجِثُ على الأشجارِ اليابسة في المستنقعِ الواسعِ ؟ أفيجب أن تعود إلى الجبالِ البعيدة ؟ والآن تنمُكسُ أَشِيقَةُ الملالِ على ماءِ النهرِ الهادئِ ، وتجري النجومُ هنالك في الأعلى وفوقِ الْبَرْدِيِّ المتحركِ وفوقِ كَمْبِ الشَّهْبِ الإفريقيِّ الأَمُغرِ .

### ١٣

يَتَفُ أُولَئِكَ النَّاسُ كَالطُّيُورِ ، وَيَكَيِّفُ أُولَئِكَ النَّاسُ أَنْفُسَهُمْ مِنْذُ قُرُونٍ وَفَوْقَ مُتَضَيَّاتِ المحيطِ كَطُّيُورِ الْغَدِيرِ ، وَأُولَئِكَ النَّاسُ كَالْقَالِقِ <sup>(٥)</sup> صِفَارُ الرُّؤُوسِ نَحْفُ

(١) الجرس : الصوت أو خفيه — (٢) أوقع المفتي : بين ألحان الضياء على موقعها وميزانها .

(٣) السدول : جمع السدل وهو السر — (٤) الجوارح من الطير هي القترسة كالإباز .

(٥) القالِق : جمع القلق ، وهو طائر طويل العنق والرجلين ، وهو يأكل الحيات ، ويكنى بأبي حديج .

من هو الزنجي ؟

الأعضاء طويلاً الأخاذ فيَطْلُون عِدَّةَ ساعاتٍ وُقُوفاً في البطائح منفردين واضعين لِحْذاً على ركة الفخذ الأخرى .

ومن هو الزنجي ؟ أَوْ يُمْكِنُ أَنْ يُسْأَلَ : من هو الرجل الأبيض ؟ تَجِدُ لِأَخْلَاقِ الشعوب والعروق السود من الأشكال والأنواع كما لجلودهم التي تترجح ألوانها بين القطراني ولَوْنُ القهوة مع اللبن ، وبلوح ، مع ذلك ، أنه يُمَكِّنُ أَنْ يُسَيَّنَ الفارقُ بين السود والبِيضِ على ضِفاف النيل ، والزنجي الوثني في النيل الأعلى هو الذي يَصْلُحُ لهذا البحث ، والزنجي الوثني على ما كان من اتصاله بالسِّيَاحِ والقاحين من البيض حافِظاً على توحشٍ لم يحافظ عليه ، بالقرب من خطِّ الاستواء ، زنجيٌّ أُغْنَدَ للمتعلِّقُ منذ قرون ، ويوجد حول النيل وروافده ، وبين الدرجة الثانية والدرجة الثانية عشرة من العرض ، وفي بلادٍ تزيد مساحته على مساحة فرنسا ، شَعْبٌ مؤلفٌ من ملايين كثيرةٍ احتفظ ببعض الخطوط الأساسية التي لم تُقَدِّرْ على تحوُّلها للملاحة ولا الإدارة ولا التبشير ولا النخاسة أيضاً ، وتوجد هذه الخطوط بفعل الزمن في العالم بأسره ، ولدى جميع زُمَرِ الإنسان المتماثلة لوناً ، كما تُوجَدُ حروفٌ ورسومٌ منقوشةٌ في أصل كلِّ حضارة .

وتُرَدُّ القبائل التي تسالج أمرها إلى أرومة زوج السودان النيلية ، أي إلى العرق الخِلَائي<sup>(١)</sup> ، وتلك القبائل هي اللوري والمادي والباري بين الدرجتين الثانية والسادسة ، أي بين بحيرة ألبرت وأول المنافع ، والدنكا والثوير والشلك في مجرى النهر التحتاني وحول الدرجة الثانية عشرة ونحو كوشيتي

ويكتشف لنا جميع أولئك الوثنيين ، الذين هم أخلاط أملاط<sup>(٢)</sup> متحللون بسطاء مع

---

(١) الخلاسي : الولد من أبوين أبيض وأسود - (٢) أخلاط أملاط : مختلطو النسب .

قليل تأملٍ وكثيرِ انفعالٍ ، عما في الطبيعة الإنسانية من نواحٍ صالحة ونواحٍ طالحة ، وتلك هي غابة الروح البكر التي لم يَشْغُها ولم يَفْرِقْها<sup>(١)</sup> حديدُ الحضارة في غضون القرون ، وفي هذه الغابة البكر الخالصة تنمو للمشاعر الفطرية تحت الشمس والنيت ، وبين السماء والشهب والنهر ، وضمن حرارة شديدة كالتي يتطلبها النبات ، فتتعاون وتتنازع مثله ، وتبدؤ الفرائز البشرية أعظم وضوحاً ، وتظهر الأصوات أكثر حياة وبروراً مما لدى البيض الذين اتفق لها عندهم صقلٌ غير قليل ، وذلك هو الرجل الفردوسي المندفعُ انخِلِي المتصلب السائر عن رغبةٍ ساذجة وعن أثرٍ والشاعرُ بقدرته ، والذي لا يَرُدُّ جماعته غيرُ خشيّة الأرواح ورئيس القبيلة ، وهذا إلى ما لا يَفْقَهُ أساطيرُ البيض من عطفٍ وكرمٍ يُوحِيان إليه بمحبة القريب .

قال العارفُ بأحوال أهل النيل أحسنَ من سواءٍ بِيَكْرٍ : « أجل ، إن الزَّنجِيَّ غيرُ صالح ، ولكنه ليس من السوء ما يكون به الأبيض في أحوالٍ مماثلة ، أجل ، إن الشَّهَوَاتِ اللازمة للطبيعة البشرية هي التي تُوجِّهه ، ولكنه عاطلٌ من عيوبنا التي لا تُطاق ، أجل ، إن القوى يَسْلُب الضميرَ والقبائل تقتتل ، ولكن أترى الأمر غيرَ هذا في أوربة ؟ أجل ، يستبد بعضهم بعضاً ، ولكن منذ كم عدلنا وعدلَ الأمر يكون عن امتلاك العبيد ؟ أجل ، إن الزوج ناكرو الجليل مثلنا في أوربة وإن الزوج غدرَةٌ كَذَبَةٌ ، ولكن أترى الفضيلة سائدة لأوربة ؟ أجل ، إنهم أكفأونا بدنًا ، ولكن لم لا ترفعهم إلى مستوانا ذهناً ؟ ولدى الزَّنجِيِّ الصغير ما ليس عند أولادنا من سرعة الفهم ، ثم يندو أرعنٌ بليداً ، شأنُ القلَوِ<sup>(٢)</sup> الذي لا يُروِّضُ » .

(١) عرق الأرض : أخرج منها الماء — (٢) القلو : الجحش والمهر فلما أو بلغا السنة .

## الرئيس

وكما أن الرجل لا يَخْسَرُ طَهْرَهُ بالحقيقة ، عن عرفانٍ بالجنس الآخر ، بل عن علم بالمال ، يُسْتَفْرَضُ حبُّ الرمح والبخل عن حرمان الزَّنجِيِّ الفنى بسلطته ، والأسود ولَوْحٌ باللَّعِبِ منذ أيام الصبا فيَلْتَبُّ بالحَصْبَاءِ<sup>(١)</sup> على الرمل ، ثم يبدو ولَوْعاً بما شِئَتْهُ وكُوْنُهُ وحريرته ، ولكن مع بقاء مَرَحِهِ ، والرجلُ ، قويّاً كان أو غنياً ، لا يَلْتَبُّ بالحصى ولا يَرْقُصُ ولا يَصْعُقُ قرونَ المفاريت على رأسه ، وهو وحيدٌ حَذِرٌ حيث مُحِبٌّ للانتقام ، وهو حريصٌ يخاف القَتْلَةَ كَالطَّاغِيَةِ الأَيْضُ ، غير أنه لا يُفْعِلُ القساوسةَ ، ولا الأساندةَ الذين يُكَلِّفُونُ يائِثاتِ أهدافه القومية ، شيئاً ، ورئيسُ القبيلة هو كَالطَّاغِيَةِ في الغالب ، فلا يزيد عن المبدِ ثقافةً ، وهو على الصوم لا يمتاز من هذا بغير فنٍ الكلام .

وكلُّ واحدٍ يَودُّ أن يكون رئيساً لثل الأسباب التي تُسَاوِرُ البيض ، فإلى الرئيس تُقدَّمُ الجِيعَةُ كما يريد ، وإليه يُقدَّمُ بعد الصَّيد أطيبُ قطعةٍ من الصدر وجلدُ تمرٍ ، ونابُ فِيلٍ على الخصوص ، وهو إذا ما ارتحل أُخِلَّ له كوخٌ أينما حَلَّ ، وتبدو بِلْيَةُ الفِنَى حتى في هذه المرحلة التي هي أدنى دَرَكَاتِ نزاع الطبقات ، والفنِّيُّ أَى المَلِكُ ، عاجزٌ عن التمتع بكلِّ ما يملك ، وهو لا ينفكُّ يَبْذُلُ جُهْدَهُ في خَدْعِ الموت بتبويرث سلطانه ، وهو إذ كان كثير الأزواج عن طَمَعٍ حَمَلًا للعمل وفق فائدته وعن جهلٍ لمذهب ملتوس<sup>(٢)</sup> ، وهو إذ كان ذا وليدٍ كثير ، تراه يَودُّ إلى قتل الأخ لأخيه بين ورثته ، والأسرُ تتذامج والقبائلُ تتقاتلُ وُصولاً إلى مرور بضعة مئات من الأَمام<sup>(٣)</sup> من قريةٍ إلى أخرى ، ومما وَرَدَ في تاريخ

(١) الحصباء : الحصى — (٢) ملتوس : اقتصادى إنكليزى اشتهر بنظريته عن السكان (١٧٦٦ — ١٨٣٤) — (٣) الأمام : جمع التمس ، ويطلق على الإبل والبقر والغنم .

### أكلة لحوم البشر

النِّيامَ نيام الذين هم من أكلة لحوم البشر ذِكْرُ رئيسٍ قَتَلَ الغَنَبَارِي سِتَّةَ إِخْوَةٍ لَهُ وَذِكْرُ رئيسٍ آخَرَ كَانَ لَهُ مِنَ الْحَقْدَةِ وَاحِدٌ وَعَشْرُونَ بَدَلِ الْمَتَّةِ .  
وَوَجَدَ أَبْنَاءَ أُولَئِكَ الْمُلُوكِ وَحَفَدَتَهُمْ ، وَصَانَعُوا لِلطَّرِيقِ ، صِيْفَةً مَهْدَةً لِكَيْ يُتَخَلَّصَ مِنْهُمْ ، وَهِيَ أَنَّ لِلْمَلِكِ إِذَا مَا أُصِيبَ بِمُدَاعٍ أَوْ مَفْصٍ أَعْلَنُوا أَنَّهُ مِنْ مُمَرِّ الْقَامِ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَمْرُضَ مَعَهُ وَقَتْلَهُ ، وَإِذَا مَا دَافَعَ الْمَلِكُ عَنْ حَيَاتِهِ وَحَاوَلَ أَبْنَاءَهُ وَحَفَدَتَهُ لَهُ أَنْ يَحْمُوهُ عَرَضَ هَؤُلَاءِ أَنْفُسَهُمْ لِلذَّبْحِ ، وَزَنُوجُ النِّيلِ الْفَوَا<sup>(١)</sup> رَمَزًا صَالِحًا لِلسُّلْمِ ، وَهُوَ أَنْ يَخْدِشَ كُلُّ مِنَ الْأَمِيرِينَ ذِرَاعَهُ وَأَنْ يَتَمَسَّ كُلُّ مِنْهُمَا دَمَ الْآخَرِ كَمَا كَانَ الْأَلْمَانُ يَصْنَعُونَ .

وفى مثل هذه القوضى التي يُلَطِّقُهَا الرِّقُّ وَحَدَهَ تَرَى عَيْشَ الرَّاعِي أَسْهَلَ مِنْ عَيْشِ الْفَلَّاحِ الَّذِي لَا يَذَرِي هَلْ يَحْصُدُ مَا يَذَرُ ، وَهَكَذَا تُبْصِرُ مَنَاحِي الْبَلْدِيِّينَ الشُّيُوعِيَّةَ تَسْتَحْذِلُ عَلَى قَوْمٍ مَزَارِعِينَ أَيْضًا ، وَيُعَدُّ أُولَئِكَ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ عَبِيدًا لَا مَالَ لَهُمْ وَلَا حَقَّوْقَ ، وَهُمْ يَمْتَسُّونَ دَوْرًا كَجَمَاعَةٍ ، مَعَ ذَلِكَ ، لَتَكُونُ الْمَرَاعِي وَالصَّيْدُ أُمُورًا خَاصَةً بِالْجَمْعِ ، وَمَتَى ذَهَبَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ لِلْبَحْثِ عَنْ أَرْضٍ يَكْرِى فِيهَا وَرَاءَ السَّهْبِ تَأَلَّفَ ضَرْبٌ مِنَ الْقِطَاعِ تَحْتَ سُلْطَانِ الْمَلِكِ وَخَارِجًا عَنْهُ كَمَا فِي عَهْدِ قِيَاصَةِ رُوسِيَّةِ .  
وَأَكْلَةُ لَحْمِ الْبَشَرِ أَكْثَرُ تَمَدُّنًا ، وَهَذَا الْأَمْرُ الَّذِي يُثِيرُ الْهَوَاجِسَ فِينَاهُ مِنْ تَحْقِيقِ الرُّوَادِ فِي الْكُونَتُو وَلِئِى الْقَرَايِبِ ، وَلِلنِّيَامِ نِيَامَ فِي الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ بَحْرِ الْفَزَالِ وَجِهَةً مَدُورًا وَعِيُونٌَ كَبِيرَةً مُتَبَاعِدَةً وَأَهْدَابٌ مُتَكَاثِفَةٌ وَأَنْوُفٌ مُسْتَقِيمَةٌ وَأَفْوَاهٌ صَغِيرَةٌ وَشِفَاهُ غَلِيظَةٌ ، وَهَؤُلَاءِ السُّودُ الَّذِينَ يَمُدُّهُمْ جِوَارُهُمْ مِنَ الشَّهَاءِ مِنْ الصَّيَادِينَ الَّذِينَ لَا يَمْسُونَ أَيْ حَيَوَانَ أَهْلِي كَانَ ، وَهُمْ يَرْغَبُونَ فِي لَحْمِ الْحَيَوَانَاتِ

(١) أَلْفَا : وَجِلُوا .

البرية فيشوي كل واحد منهم حصته على ناره الخاصة كخبر يريد أن يشبع ،  
ويحسب هؤلاء خبر حالي تلك المنطقة ، ويصورون بالفترة <sup>(١)</sup> أزهاراً ونجوماً على  
أجسامهم ويجددون هذا الدهان مرة في كل يومين ، ولم نظام من أقدم النظم ،  
وتراهم كثيراً الاكثرت لأوربة ، ويتصفون بوقارٍ طبيعي وبصدق العلاقة  
ويشتهرون بالقرى ، واللك يستقبل الغريب في بيت أبيه التوفى ويضع على قدميه  
حرمة رماح كتحية من الميت ويدعوه إلى مائدته ولا يذبحه أبداً ، والنيام نيام  
مكرمون الأم الولد ويحترمون الوفا ، ويفرضون عقوبات شديدة على  
السارقين ويقطعون بنان <sup>(٢)</sup> الزوجة الزانية ، وثلاثاً من بلاميات <sup>(٣)</sup> من يغوي  
يكراً ، وطبايع أكلة لحم البشر أولئك دقيقة ، فلا يذكرن السبب في أنه لا يحق  
لهم أن يأكلوا رجلاً حكم عليه عرف بالموت أو عدواً مقهوراً ، كما أنهم لا يذكرن  
السبب في أنه لا ينبغي لهم أن يقدموا إلى ضيفهم رجلاً بشرية مسلوقة مع  
توابل وفطائر .

وقال القرغوم رائد إنكليزي ، والقرغوم أكلة لحوم البشر في إفريقية  
الغربية : « النانغ في كل موضع ، هوفينا وفيك ، هو الروح الخفية التي تنقل  
بعد الموت إلى حيوان لنا ، لا إلى إنسان ، نحن لا نذبح بقرة ، ولكننا إذا ما أكلنا  
إنساناً لم يكن هنالك ما نخشاه من أكل نانغنا الخاص » .

ولم نلوم أناساً ذلك مدى ذوقهم وكرامتهم على قسوتهم ؟ أفلم يكن أكل  
عدو أكثر ملاءمة للطبيعة من أكل دجاج أو خنزير مدة سنوات ؟ ألا

(١) الفترة : العين الأحمر يصح به - (٢) البنان : أطراف الأصابع .

(٣) السلايات : عظام الأصابع ، وهي جمع سلاى .

تبقى حَيَّةٌ تلك المناظرُ في أُخيلةِ هؤلاء النصارى الخاقدين الذين تحُولُ العاداتُ  
الحاضرة وحدها دون افتراسهم مَنْ يُؤدّي تذيبهم إلى تمتعهم بأعظم اللذات في  
الزمن الراهن ؟

## ١٤

لم تَكْذُ عاداتُ زواج النبل تتغير مع الاتصال بالبيض والأحباش ، وبذلك  
العاداتِ نَفَّذُ في غابةِ الشاعر البشرية البكر ، ومن غير استبعادٍ لتناقضها باسم  
الأخلاق نرى هذا التناقض هو مَنْ تَعَدُّ التفسير كالتناقض في أخلاق  
الإنسان الأبيض .

وهم إذا ما عَزَوْا إلى عجوز تصرفاً سيئاً تَزَعُوا المَرارة<sup>(١)</sup> منها عن  
جهل عاذين إياها مقرأً للسحر كما كان يصنع أغارقة مصر الأوميريُّ البعيدين من  
أولئك ألوف الفراسخ والسنين ، ولا يَذْبَحُ أولئك الناسُ أنعامهم مُقَدَّسين لها مع  
ذلك ، وإذا هَلَكَتْ بقرةٌ لدى الدُّنْكَافُطِيخَتِ ابتعد صاحبها ولم يشترك في الطعام  
منها ، وإذا تَمَّ لهم نصرٌ أفرطوا في الأكل وانهمكوا في الشكر ولكن مع العناية  
بالأسير ، ومن الرجال كثيرٌ يتركون لنسائهم كلَّ حرية في عالم الغرام ، لا في حقل  
العمل ، وهم لا يَصْرِفُونهن إلا عند رداءة الطحن ، لا بسبب عشاقهن ، ولا يَحْيِي للرجل  
من البونفون أن يتزوج أكثر من ثلاث نسوة ، وهو إذا ما تزوجهن ظَلَّ وفياً لهن ،  
وإذا وضعت بنتٌ ولداً للمادى وَجِبَ عليه أن يتزوجها ، والمرأة من البانجورُو

(١) المرارة : هي الحوصلة الصفراوية ، وهي شبه كيس لازقة بالكبد تكون فيها مادة صفراء .



هى ، بالعكس ، تشتري مَنْ يَزْنِي بها بِحُرَّةٍ جَيَّةٍ ، ومن الزوج قبائلُ تُحْكَمُ على الغاوى بغرامةٍ تَعْدِلُ قِيَمَةَ الْمَرْأَةِ ، وهذه هى عادةٌ لَا يُوصَى الْبَيْضُ بها كثيراً ، وهنا تُبَصِّرُ السُّودَ أَعْلَى ذَوْقاً من البيض ، فبينما ترى نساءَ الوجهاء من البيض فى أوبرةٍ يَفْعَلْنَ ما يَرْضَوْنَ تُبَصِّرُ الزَّوْجَ ، حتى ذَوَاتِ الْأَخْلَاقِ الْهَيِّنَةِ من قبائلهم ، لا ينظرون بعين التسامح إلى من يَكُنُّ غيرَ وَفِيَّاتٍ من أزواجِ الرؤساءِ وذوى الجاهِ منهم .

وَيَحْتَلِلُ الشُّلُوكَ بعد وضع الولد الأولِ نساءهم على بيان أسماء مَنْ كانوا يعاشرونهن ، فَيُلْزَمُ كُلُّ عَاشِقٍ بِتَقْدِيمِ بَقَرَةٍ إِلَى الزَّوْجِ تَكْفِيراً عَنْ خَطَايَاهُ وَحِلاً جَدِيداً لِلشَّرَفِ الْجَنَسِيِّ ، وَإِذَا كَانَ لِلْمَرْأَةِ عِدَّةٌ عَشَّاقٍ وَكَانَتْ جَرِيئةً أَخَذَتْ قُبْضَةً مِنَ التُّرَابِ وَتَرْتَّبَهَا فِي الْمَوَاءِ وَقَالَتْ صَارِخَةً : « هَذَا هُوَ عِدَدُ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ » ، وَهَنَالِكَ يَشْتِمُ الزَّوْجُ أُمَّهَا مَعاقِباً عَلَى سُوءِ تَرْبِيَتِهَا لَهَا .

ومن الزوج قبائلٌ قَلِيلَةٌ تَقْتُلُ الْعَجَائِزَ لَمَذْنٍ مِنَ السَّوَاخِرِ ، وَمِنْهُمْ قِبَائِلُ تُبَجِّلُهُنَّ ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُقَامُ احْتِفَالٌ فِي آخِرِ الصَّيْدِ الْأَكْبَرِ فَتَرْقُصُ أُمُّ الصَّائِدِ الْغَافِرَ وَحَدَّاهَا عَارِيَةً بَيْنَ الْجُمْهُورِ فَيَهْتِفُ الْجُمْهُورُ قَائِلًا : « انظُرُوا إِلَى الْجِسْمِ الَّذِي حَمَلَ الصَّيَادَ الْأَعْظَمَ » ، وَمِنَ الزَّوْجِ قِبَائِلٌ تَضَعُ أَحَدَ الْأَوْلَادِ عَلَى الْمِنْفَضِ<sup>(١)</sup> وَتَبْدَأُ بِشَيْءٍ ، فَيَتَوَقَّفُ لِإِقَادِهِمْ نَارَ الْحَرْبِ عَلَى حَيَاةِ هَذَا الْوَلَدِ أَوْ مَوْتِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ يُحِبُّ هَؤُلَاءِ النَّاسُ أَوْلَادَهُمْ وَيَجْعَلُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَهْرًا<sup>(٢)</sup> لَمْ ، وَمِنْ هَوَا الْأُورُبِيِّ الَّذِي يَحْتَلِلُ وَلَدَهُ الْفَتَى عَلَى كَتِفِهِ سِتَّ عَشْرَةَ سَاعَةً كَمَا شَاهَدَهُ سَائِحٌ لَدَى الدَّنَّكَاسِ ؟ وَإِذَا حَدَّثَ أَيَّامَ الْجَدْبِ أَنَّ صَانِعَ الطَّرِ ، وَهُوَ شَبُهُ رَئِيسِ الْقَبِيلَةِ وَشَبُهُ سَاحِرٍ ، لَمْ يَرْفَعْ مَسْتَوِىَ مَاءِ النَّيْلِ دُبْحَ لِيَا سَبَقَ مِنْ اخْتِخَارِهِ بِسُلْطَانِهِ عَلَى الْمَنَاصِرِ ، وَتَبْلِغُ

(١) الْمِنْفَضُ : السُّفُودُ ، وَهُوَ حَدِيدَةٌ يَتَوَلَّى عَلَيْهَا الْإِصْبَعُ — (٢) الْمَهْرُ : جَمْعُ الْمَهْدِ .

حِصَّةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ النَّيْلِ وَالْفَرَارِيجِ ، وَهْمٌ ، بِالْعَكْسِ ، إِذَا مَا احْتَرَمُوا رَجُلًا أَيْضًا كَيْكِرَ رَمَوْا فِي النَّيْلِ مَا وَهَبَهُ لَهُمْ مِنْ خَرَزٍ تَسْكِينًا لِقَرِ الْمَاءِ الَّتِي يُمْكِنُهُ أَنْ يُقْلِبَ قَارِبَهُ ، وَأَحَبُّ إِخْوَانِهِمْ مِنْ أَهْلِ تَنْغَانِيَقَا لِيْفِيْنَسْتُنْ فَجَعَفُوا جُثَّتَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ وَمَلَحُّوْهَا وَحَمَلُوهَا تِسْمَةً أَشْهَرَ بِمَجَاوِزِينَ بِقَاعًا غَامِرَةً<sup>(١)</sup> مُعْتَقِدِينَ وَجُوبَ جَلْبَاهَا إِلَى السَّاحِلِ وَتَسْلِيمِهَا إِلَى الْبَيْضِ .

وَلَمْ يُحَدِّثْهُمْ لِيْفِيْنَسْتُنْ عَنِ النَّقْدِ قَطُّ ، بَلْ كَانَ يُحَدِّثُهُمْ ، قَطُّ ، عَنِ الْأَبِ الْقَادِرِ الَّتِي يَجْعَلُ جَمِيعَ النَّاسِ إِخْوَانًا ، وَقَدْ أَرَاهُمْ سَاعَتَهُ وَبَوَصَلَتَهُ بَدَلًا مِنْ أَنْ يُعَلِّمَهُمْ أَسَاطِيرَ غَرِيبَةً ، وَمِنْ قَوْلِهِ : « لَا يُؤَثَّرُ فِي السُّودِ بِالْبِنَادِقِ وَالْآلَاتِ الْبَخَارِيَّةِ ، بَلْ يُؤَثَّرُ فِيهِمْ بِدَوَامِ اللَّطْفِ وَالْإِحْسَانِ ، وَيُؤَثَّرُ بِذَلِكَ فِي بَعْضِهِمْ وَحَدَهُ مَعَ ذَلِكَ » ، وَمِنْ النَّادِرِ أَنْ كَانَ يِمَازِيهِمْ ، وَمَا كَانَ يُوحِي إِلَيْهِمْ بِاحْتِيَاجَاتِ جَدِيدَةٍ ، وَمِنْ نَتَائِجِ تَحْيِيئِهِ نَفْسَهُ إِلَيْهِمْ جَعَلَهُمْ نَصَارَى ، وَلَمْ تَكُنْ رِسَالَتُهُ الَّتِي أَمْلَاهَا فَوَّادُهُ عَلَيْهِ ضَارَّةً كَرِسَالَةِ أَنَاسٍ كَثِيرِينَ مُتَعَطِّشِينَ إِلَى الْغَنَبِ وَالسُّلْطَانِ عَنْ غَيْرِ شُعُورٍ أَحْيَانًا ، وَلَمْ أَجْعِ جَمِيعَ الْعَارِفِينَ بِالسُّودِ عَلَى الْإِرْتِيَابِ مِنَ الْمُبْشِرِينَ ؟ وَأُولَئِكَ أَنَاسٌ يَجْهَلُونَ الْكُتُبَ وَالشُّوْرَ ، وَلَا يَكَادُونَ يَحْوِزُونَ بِضَمَّةٍ أَفْكَارٍ دِينِيَّةٍ انْتَقَلَتْ إِلَيْهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ ، وَعَلَى أُولَئِكَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّوِ الْبَيْضِ رَفْعًا لِمَنْ الْقَطْنِ وَلِسُنْدَاتِ مَصَانِعِ الْقَطْنِ ، وَكَانَ لِيْفِيْنَسْتُنْ خَالِيًا مِنَ التَّمَصُّبِ وَرُوحِ التَّجَارَةِ فَكَانَ يَمَامِلُ الزَّوْجِ كَمَا يَمَامِلُ الْأَوْلَادَ ، وَكَانَ لِيْفِيْنَسْتُنْ يَسْتَقْدُ إِلَى الْخُرَافَةِ بَدَلًا مِنْ مَكَلَفَتِهَا لِمَا أَبْصَرَهُ مِنْ كَوْنِهَا مُصَدَّرَ سُرُورِهِمْ كَمَا فِي كُلِّ مَكَانٍ .

وَهَلْ تَجِدُ عَالِمًا أَيْضًا اكْتَشَفَ عَنِ الْقِرْدِ أَكْثَرَ مِمَّا اكْتَشَفَتْهُ الْقَبَائِلُ الْجَنُوبِيَّةُ

(١) النامر : الأرض الخراب .

### صانع المطر

من أهل النيل الأعلى الذين يَحْكُمُونَ بِقَتْلِ كُلِّ إِنْسَانٍ يَقْتُلُ الشَّبْتَنَزِيَّ<sup>(١)</sup> لسابق انتسابه إلى الجنس البشري؟ ومن الزوج قبائلُ تحترم الأفعى فتكتفى بطردها من الأكواخ من غير أن تُقدِّم على قتلها ، ومن الزوج قبائلُ كثيرةٌ لا تقتل الحيوان الحامى لها ولو كان أسداً أو نَمِراً .

ويعتقد الباري أن كثيراً من الأموات يَتَحَوَّلُ إلى أنمار ، ومن الزوج أناسٌ لا يُطْلَقُونَ النار على بعض الصُّبَاح ليلاً معتقدين أنها تكتسب شكلاً بشرياً في النهار، وتلك القبائل ، كعُظْمَ الوحوش ، تَخْشَى الأرواح الشريرة التي توجب للمرض والموت والمصافة والجَدْب ، ولكنها لا تعرف الأرواح الطيبة ، وليس لتلك القبائل أصنامٌ كما في إفريقيا الغربية ، ولكنهم ينجِّتُونَ أحياناً آلهةً يَتَّبِعُهَا لَهْمٌ من خشب ، وهم يَسْمُونُ السعادةَ والشقاءَ لُومًا وإن شئت فقل القَدَرُ الذي يَعْرِضُ إلى سبب خارجي . فيقولون « لُومًا أمرضه » ، أو يقولون عن الصائد عند عودته صَفَرُ اليد : « لم يكن له لُومًا » .

ويحتاج الممجي\* ، الذي هو عُرْصَةُ العناصر والمرض أكثر منا ، إلى ساحرٍ يَعْرِضُ إليه كلَّ قدرةٍ وَيَرْجِعُ إليه في كلِّ حال ، وصانعُ المطر هو طاغيةٌ مُدْبِرٌ أو مُرْهَبٌ لرئيس القبيلة كما يشاء ، وهو يَهْدِيهِ بالجوع والجَدْب والحرب نيلاً لجعلِ أَجْزَلَ من قَبْل ، وهو يَرْقِصُ الجُمُهور ، ويُقدِّمُ إليه جِصَّةً ، وهو يَرَأْسُ الرُؤُوسِ الرسمية حيث يَنْصَحُ بالدم بعضَ الحجارة السحرية ، وهو يَقِنُ ببيانه ، وهو قد يقول الصدق في حَصْرَةِ صانعي المطر الآخرين ، ومما قاله أحدُ هؤلاء لبيكر : « ولا يَمُنُّ لِي أن أصنع مطراً قبل أن يُعطوني حُبُوباً وَمَمَرًا ودَجَاجًا ، وهم قد هَدَدُونِي بالقتل ،

(١) الشبتنزي : قرد إفريقي هو أعلى الفردة وأقربها شبيها للإنسان .

والآن ، لن نَزِلْ قَطْرَةً مَاءٍ عَلَى أَوْيُو ، وسَأَجِفُّ حَصَادَهُمْ وَسَأَسْلُطُ الْوَبَاءَ عَلَى قِطَاعِهِمْ ، وهكذا يُبَايِ السَّاحِرُ الرَّجْمِيَّ بِقُدْرَةٍ لَا يُؤْمِنُ بِهَا ، ولكنك نَجِدُ بَيْنَ الشُّودِ أَنْاسًا يُتَجَدُّونَهُ وَلَوْ تَخَلَّصُوا مِنْهُ كَمَا تَجَدُّ شُعوبًا بَيْضًا يَشَاهِبُونَهُمْ ، فإذا حدثَ أَنْ لِلْمَدِيِّ حَرَقُوا صَانِعَ مَطْرَمَ جَعَمُوا مَا يَسِيلُ مِنْ شَحْنِهِ لِيَكُونَ عِلَاجًا لَجُرُوحِهِمْ . والحقُّ أننا لا نزال قَرِيبِينَ مِنْ عَالَمِ الْمَشَاعِرِ لَدَى هَؤُلَاءِ الْوَحُوشِ ، ولكن الرَّجْمِيَّ إِذَا لَقِيَ أَيْضًا عَشَى<sup>(١)</sup> كَأَنَّهُ دَخَلَ رَوَاقًا بَاهِرَ الْأَنْوَارِ ، مع أَنَّ إِفْرِيقِيَّةً تَبْدُو لِلْبَيْضِ شَمْسًا تَجْتَذِبُ مِنْ يَمِينِهِمْ بِهَا زَمَنًا طَوِيلًا أَكْثَرَ مِنْ تَمَقُّطِهِمْ إِلَى السَّيْطَرَةِ ، وإِفْرِيقِيَّةٌ لِلْبَيْضِ جَنَّةٌ يُلْقَى جَوْهَرُهَا الْمُنْعَشُ سُلُوفًا فِي نَفْسِهِمْ ، أَجَلٌ ، إِنْ مَتَاعِبَ إِفْرِيقِيَّةٍ وَأَمْرَاسَهَا يُقْصِّرُ أَجَالَهُمْ ، ولكن مِثَالَةَ قُوَّاهَا الطَّبِيعِيَّةِ تُقَوِّي أَرْوَاحَهُمْ ، حتَّى إِنْ اعْتَزَلَ الْعَالِمُ وَالشَّاعِرُ ، الْعَالِمَيْنِ بِالسَّائِلِ الْخَالِدَةِ ، لِمَوْضَاعِ الْعَالَمِ الْأَوْرَبِيِّ وَالْعَالَمِ الْأَمْرِيكِيِّ وَحَقَائِقِهِمَا أَقْلٌ سَهْلَةٌ مِنْ اعْتَزَالِ الرَّائِدِ أَوْ الصَّانِدِ أَوْ الْفَارِسِ فِي إِفْرِيقِيَّةِ الْإِسْتَوَانِيَّةِ ، وَلَا يَأْتِي النُّفُوذُ الْمُطَهَّرُ مِنَ الْخَطَرِ الْيَوْمِيِّ وَمِنْ مَكَافَةِ الْعُنَاصِرِ فَقَطْ ، بَلْ يَأْتِي أَيْضًا مِنْ عِيُونِ الرَّجْمِيِّ وَمِنْ وَضُوحِ أَوْضَاعِهِ الَّتِي تَتِمُّ عَلَى مَا يَدُورُ فِي خَلْدِهِ ، وَمِنْ فَضُولِهِ الطُّقُولِيِّ وَمِنْ وَتَارِهِ وَوَأَقْسَمِيَّتِهِ وَلَا شُعُورِيَّتِهِ .

وَشَبَّ الشُّودُ بِالْأَوْلَادِ ، وَالشُّودُ عَلَى شَوَاطِئِ النَّيْلِ أَوْلَادُ قَرْحَى مَرْحَى تُشْفِرُ سَدَاجَتَهُمُ الْكَلْبِيَّةَ عَنْ قَسْوَةٍ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، نَعَمْ ، يُمَكِّنُ الرَّجْمِيُّ أَنْ يَقْتُلَ خَصْمَهُ فِي سُورَةِ غَضَبٍ ، وَلَكِنَّهُ يَجْهَلُ الْخُبْرَ وَكُلَّ شَيْءٍ يَسُودُ حَيَاةَ الْبَيْضِ ، وَلَا يَحْفَظُهُ الْحَقْدُ وَالْحَرَصُ وَالْحَسَدُ وَحُبُّ الذَّهَبِ إِلَى الْإِحْرَامِ ، وَرُؤْسَاءُ الْقَبَائِلِ وَحُدُودُ الدِّينِ تُسَاوِرُهُمْ هَذِهِ الْمَشَاعِرُ ، فَهَمُ كَبُضِ رُؤْسَاءِ الْبَيْضِ يُثِيرُونَ فِي نَفْسِ

(١) عَشَى : سَاءَ بَصَرُهُ .

رَعَايَاهُمْ رُوحَ الانتقام والحقد ضدَّ القبائل الأخرى فيدفعونهم إلى الحرب والموت .  
 وكان الأبيض لا يجلب غير الخرز إلى الأسود في مقابل عاجه الذى يَسْلُبُهُ  
 إياه ، والأبيض قد نَزَعَ منه عمله البدوى لِمَا أدت إليه العجائب التى أُطْلِعَ عليها  
 من تقليل غريزة التقليد فيه ، ولم يَبْدُلْ كبيرَ جُهدٍ فى شَحْذِ نَفْسِهِ ما دام  
 الأبيض يُعْطِيهِ سِكِّينًا راسًا فى مقابل قطعةٍ من اللَّطَاطِ ؟ وعاملُ المصريون من بلغهم  
 من زنج النبل الأعلى كما علمت الكنيسةُ عامَّةَ الناس ، فلم يُعْلَمُوهم حتى استمالَ  
 إطارِ الفخار ، وغابت صِنَاعَةُ مَطْلٍ<sup>(١)</sup> النَّصَالِ وهاجرت إلى النافع البعيدة المنفعة ،  
 ولا يُوَحِّى الأبيض إلى الزنجيِّ يَتَذَوَّقُ العملَ إلَّا بِإِشْرَاكِهِ فى ملاذٍّ غيرِ معروفةٍ  
 عنده واحتذاء به بذلك إلى مُغْرِيَّاتِ الحضارة ، والأبيض ، لكى يَكِيبَ مَالًا ، يحتاج  
 إلى عملٍ يدوىٍ رخيص ، فتراه يُخْرِجُ الزنجيَّ من جَنَّةِ البطالة .

وسَهِّلَ الرِّقُّ الذى يمانية فريقٌ من الناس ذلك العملَ ، والعملُ لا يقوم  
 به النساء وحدهنَّ ، بل يقوم به أيضًا أَسْرَى الحرب ومن أَلَمَ بِهِمُ الْفَقْرُ ، ولا تَحْدُ  
 بين السود فروقًا مُوْغِرَةً لِفَقْدَانِ المِلَادِ الْغَالِيَةِ والثياب الفاخرة والبيوت والأغذية  
 الأنيقة تقريبًا وليا لا يَبْدُو به أحدٌ أَكْثَرُ مما هو عليه خلاقًا للبيض ، وعلى  
 الأبيض بتوقف الرِّجِّ وَالضُّرَّانِ ، وَالزَّنجيُّ ، لِحُرْمَانِهِ حَقَّ السَّكْسَلِ ، ينال آلاتِ  
 الخياطة والمصاييحَ وَرَحِيقَ الرِّيسكى مَقَابِضَةً ، وهذه هى خاتمةُ حياته النباتية  
 ونهايةُ سلامَةِ طَوْبَتِهِ ، وهو يُفِيقُ وَيَسْمَى لِيَسْتَقِلَّ وَيَبْتَغِي وَجهاً آخر من الحرية ،  
 أى حرية ظاهرةً كالتى تتمتع بها الأمم المتعدنة ، ومن التَّيْثِ فى الساعة الحاضرة أن  
 تجعل دولةً أوروبية من الزنجيِّ عبدًا ، والزنجيُّ يندو عبدًا للحضارة من تلقاء نفسه .

(١) مطل الحديد : ضربه ومده ليطول ، سبكه ومده صحيفة .

مَنْ يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِهِمْ يَعْرِفُ هَلْ مِنْ الرُّعَاةِ أَوْ مِنَ الْفَلَاحِينَ ، وَالْأَيْضُ  
بِجَانِبِ النَّتَى الشُّلُكِيِّ يَبْدُو ثَقِيلاً بليداً عَلَى الدَّوَامِ ، وَارْجِعِ الْبَصَرَ إِلَى الشُّلُكِيِّ  
تَجِدْهُ يُدَكِّكُ بِمِثَالِ بَاخُوس<sup>(١)</sup> الْبَرُونَزِيِّ بِجَمَالِهِ وَإِغْوَانِهِ كَرَاهِقِ إِغْرِيقٍ  
وَمَدَّةِ سَاقِيهِ الدَّقِيقَتَيْنِ الطَّوِيلَتَيْنِ وَسُكُونِهِ وَزَهْوِهِ وَعُزْبِهِ وَوَضْعِهِ جِلْدَ حَيَوَانٍ عَلَى  
كَتِفَيْهِ وَجَلَالِ يَدَيْهِ وَشَعْوَرِهِ بِحُسْنِهِ ، وَتَظَلُّ الْعُرُوقُ الْجَمِيلَةُ فِي إِفْرِيقِيَّةِ الْوَسْطَى كَامِلَةً  
الْعُرَى كَرُغْيَانٍ أَوْ غَنَدَةٍ ، عَلَى حِينِ تَرَى الزَّرْعَ الصَّخَّارَ وَالرَّبْعَاتِ<sup>(٢)</sup> لَا بَسِينَ ثِيَاباً  
وَلَوْ كَانُوا مِنَ الْقُرَاءِ .

وما عند الرُّعَاةِ ، الَّذِينَ لَمْ رِفْعَةً شَأْنِ بَصِيرِهِمْ وَخُلُوْهُ بِالْهَمِّ ، مِنْ ظَرْفٍ طَبِيعِيٍّ  
قَدْ زَادَ بَرُؤَى الْقَبَائِلِ النَّبِيلَةِ وَبُفْضُولِهِمُ الَّذِي يَتَمَقَّبُونَ بِهِ حَرَكَاتِ الْبَيْضِ ، وَهُمْ  
لَا يُشَوِّهُونَ أَنْفُسَهُمْ بِقَضِيبِ الْقَمِّ وَلَا بِحَلَقِ الْأَنْفِ ، وَلَا تَجِدُ فِيهِمْ حَتَّى وَشَمٍ<sup>(٣)</sup>  
عَشِيرَتِهِمْ ، وَلِجَالِمِ الطُّفُولِيِّ غِنًى فِي كَوْنِ شَعْرِهِ عَلَى شَكْلِ الْمَفْرِ<sup>(٤)</sup> ، وَلَا بَدٌّ مِنْ  
انْقِضَاءِ أَشْهُرٍ عَلَى اللَّاتُوكِيِّ ، وَاللَّاتُوكُ هُمْ أَجَلُّ عِرْقٍ عَلَى شَوَاطِئِ النَّيْلِ عَلَى  
مَا يَحْتَمِلُ ، حَتَّى يَصْنَعَ مِفْغَرًا طَبِيعِيًّا مِنْ شَعْرِهِ الْجَعْدِ وَمِنْ الْخِيطِ وَالْقَشْرِ مَعَ إِسْكَالِ  
مِخْدَتِهِ الصُّخْمَةِ الدُّنْيَا بِصَفَائِحٍ مِنْ نَحَاسٍ وَإِدْمَاجِ صَدْفٍ وَرِيَشٍ نَعَامٍ فِيهِ ، وَهُوَ  
يُرَى أَسْنَانُهُ الْجَمِيلَةُ عِنْدَ مَا يَتَأَمَّلُهَا أَجْنَبِيٌّ مَبْهُوتًا .

(١) باخوس : إله الخمر عند الرومان ، وهو يقابل ديونيزوس لدى الأغارقة .

(٢) الرِّيمَةُ : الوَسِيطُ الْفَامَةُ — (٣) وَشَمُ الْبَدَنِ : غُرْزُهَا بِالْإِبْرَةِ ثُمَّ ذَرَّ عَلَيْهَا النَّيْلَ فَصَارَ  
فِيهَا رَسُومٌ وَخُطُوطٌ — (٤) الْمَفْرُ : زَرْدٌ يَلْبِسُهُ الْمُحَارِبُ تَحْتَ الْقُلْبِ .

وانظروا إلى رئيس العشيرة الذى يَدْحَنُ تَجِدُوهُ مُتَّخِذاً وضعا خاصاً ، فهو يَسْعُ مِرْقَهُ الأيمن على مَتَكَا وَيَقْعُدُ الأَرْبَاءَ<sup>(١)</sup> ، وهو يُمَسِّكُ قَصَبَةَ غَلْيُونِهِ بيده اليسرى وَيَتَنَفَّسُ طويلاً ثم يُسَلِّمُ الغَلْيُونُ إلى الصبد عن خِيَلَاءٍ وَيَرُدُّ الدُّخَانَ إلى أَسْنَانِهِ رويداً رويداً فى نهاية الأمر .

وما لنا بالملوك حاجة ، ولنا بالرهعة مظهر لا يوجد فى غير إفريقية ، وتُبَصِّرُ من الدُّنْكَا فِتْيَاناً عُرَاءَ غِرَافَا كالأوعال التى يَلْبَسُونَ جلودها مُعَلِّقَةً على أكتافهم ، غِيدَا<sup>(٢)</sup> كالفهود التى يقتلونها ، غير مُبْدِينَ هنالك حَرَآكَ قريبا ، ويُقَدِّمُ الأصفرُ إلى الأكبر مسفارة لا يعرف مآناها ، ويمُدُّ الآخر يده إلى هذا الشَّبَّ السحريُّ المُسْتَهْيَ كثيرا بسهولة مَرَهَلَةً كالتى تُرَى فى صُورِ القراعنة المنقوشة على الجدر ، وتُبَصِّرُ فى الخلف آخرَ لباسٍ جلداً مدبوغاً بلونٍ أحر ، كما لو كان مُدْتَرِياً بِرَدَاهِ إغريقيٍّ ، مَتَوَكِّئاً على عصا طولها ثلاثة أمتارٍ منتظراً صامتاً ، ويوحى وَضْعُ هَوْلَاءِ الثلاثة بوضعِ جَمْعٍ من الثَّيْلَاءِ الذين لا يَرْتَفِعُونَ أَيْسَهُمُ للعمل ، بل للصيد إذا ما هَدَّدُوا أو جاعوا مُوجَّهِينَ ضربةَ رُجُولِيَّةٍ .

وهم إذ كانوا لا يعرفون الحياء يُبْدُونَ أبدانهم دوماً وَيُبَاهُونَ بذلك كما يُبَاهِي الأَيْضُ بُنْيَابِهِ ، بَيِّدَ أَنَّهُمْ لَا يَهْدِفُونَ أَبَداً إلى أن يكونوا أَقْلَ سَوَاداً ، وَيَتَرَجَّحُ لَوْنُهُم بَيْنَ سَوَادِ الْقَطْرَانِ وَصُفْرِ الْحَدِيدِ ، وترى منهم من هم بلون الشُّكْلَانَةِ والقوة وتنبغ الهَوَانَةُ<sup>(٣)</sup> وَمَنْ هُمْ صُفْرُ الْجُلُودِ ، ومن القِبَائِلِ عِدَّةٌ قَلِيلٌ يَدْحَنُ بِالرَّامَادِ أو بالْتَفْرِه فلا يُحْسِنُ الدَّهْنَ ، وهم يَمِيلُونَ إلى الجناحمِ السَّطْلِيَّةِ فيَضْطَعُ مَلُوكُهُمْ رُؤُوسَ أَوْلَادِهِمْ وَيُحِيطُ بِهَا بِالمَصَائِبِ وَصُولاً إلى هذه الغاية ، ومن الأمور الكريهة

(١) قعد الأرباء : ثنى نفسه تحت نغديه مخالفاً لها — (٢) النيد : جمع الأغيد ، وهو

الناعم المثنى — (٣) Havana .

وَشَكْمُهُمْ<sup>(١)</sup> ، أى سِمَاتُ عَشِيرَتِهِمْ أو غَلَامَاتُ شَجَاعَتِهِمْ الَّتِي تُدَكَّرُ بِأَنْدَابٍ<sup>(٢)</sup> طَلَّابِ الْأَلْمَانِ ، وَتَفَاخُرِ النِّسَاءِ بِأَنَّهُنَّ خُطَطْنَ بِحَدِيدٍ حَامٍ لِيَكُونَ ذَلِكَ آيَةً عَلَى لَوَاعِجِ الْحُبِّ ، وَلَا يَخِيلُ الزَّوْجَ قَلَانَدَ مِنْ غَيْرِ أَسْنَانٍ مَا ذَبَّحُوهُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ ، وَهُمْ يَسْخَرُونَ مِنَ الْبَيْضِ الَّذِينَ يَشْرُونَ مِنْهُمْ هَذِهِ الْقَلَانَدَ أَوْ قَوَارِي<sup>(٣)</sup> رِمَاحٍ .

وَمَنْ يَفْقَهُونَ الْبَيْضَ بِسَالَةٍ وَوَقَارًا وَمَهَارَةً فِي الصَّيْدِ أَيْضًا ، وَهُمْ قَلِمَا يَسْتَعْمَلُونَ الْأَسْلِحَةَ النَّارِيَّةَ ، وَعَلَيْهِمْ ، إِذَنْ ، أَنْ يَكْلِفُوا كِفَاحَ حَيَاةٍ وَمَوْتَ ضِدَّ الْأَسَدِ وَالتَّيْرِ وَضِدَّ الْحَيَوَانَاتِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ حَيَوَانَاتِ مَا قَبْلَ الطُّوفَانِ ، وَهَذَا كَمَا لَا يَزَالُ الْعَيْدُ ، الَّذِي خَفَصَ الْأَبْيَضُ مَنْزِلَتَهُ بِجَمَلِهِ رِيَاضَةً بِلا خَطَرٍ ، كَمَا كَانَ فِي أَرْسِنَةِ مَا قَبْلَ التَّارِيخِ ، وَهُمْ يَخْفِرُونَ قُفُورًا يَفْقَعُ فِيهَا الْكَرَّكَدَنْ ، وَهُمْ لِكَيْ يُصْنُوهُ يَرَوْنَ مَهَاجَتَهُ مِنَ الْأَعْلَى بِالرَّمْحِ أَوْ مِنَ الْقُرْبِ بِالسَّيْفِ ، وَالتَّارُ وَالضُّوْضَاءُ مِمَّا يُبْعِدُ بَقَرِ الْمَاءِ ، فَيَجِبُ لَصَيْدِهِ أَنْ يُرْمَى بِالْكَالِيلِ وَالتَّنْبَالِ ، وَهُمْ يَخَافُونَ التَّمْسَاحَ وَيَقْتَنِرُونَهُ أَكْثَرَ مِنْ مَقْتَنِهِمُ الضُّوَارَى لِمَا يُوْجِبُهُ مِنْ جَذْبِ الْحَيَوَانَاتِ وَالْأَدْمِيعِ إِلَى النَّهْرِ ، وَهُمْ يَتَلَبَّسُونَ عَلَيْهِ بِالْخَطَاطِيفِ<sup>(٤)</sup> وَبِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْخَيْطِ كَمَا فِي مِصْرَ قَدِيمًا ، وَمِنْ الزُّورِيِّ ، عَلَى الْعُمُومِ ، يَصِيهِ الصَّائِدَ بِضَرْبَةٍ مُمَيَّنَةٍ ، أَيْ بِضَرْبَةٍ سَهْمٍ فِي ظَهْرِهِ تُمَدُّ دَلِيلًا عَلَى شَجَاعَةٍ لَا تَقَاوِمُ ، وَهُمْ بَعْدَ الْقَنْصِ يَهَافُونَ عَلَى الْعَدُوِّ الَّتِي تَهَافَتَ الْوَحُوشُ ، وَيُقَطِّعُونَ هَذَا الصَّيْدَ<sup>(٥)</sup> لِإِزْبَا بِإِزْبَا بِأَسْنَانِهِمْ كَمَا هُمْ يَنْقَضُونَ مِنْهُ لِلرَّأَةِ الْأَخِيرَةِ .

(١) الوشام : جمع الوشم — (٢) الأنساب : جمع التندبة ، وهى أترالجرح الباقي على الجلد  
(٣) القوارى : جمع القارية ، وهى أسفل الرمح أو أعلاه — (٤) الخطاطيف : جمع الخطاف ، وهو حديدية يختلف بها — (٥) الصيد : ما يصاد .



### عادات الزواج

ولا يُبدى مُعظم هذه القبائل كبيرَ حماسةٍ في اصطيد الفيل ، وما يحدث أحياناً أن يُوقدوا غاباتٍ بأجملها فتحترق إناثُ الفيل وصغارُها ، وإذ أن الفيل لا يهاجم الإنسان أبداً ، وإذ أن الأراضي المزروعة في هذا الترض قليلةٌ فلا يستطيع أن يعيشَ هنا كما يفعل في أوغندا ، فإنه لا يُقتل عن حقد ، ولا عن انتقام ، بل عن طمع رئيسٍ في العاج لإرضاء لَهبي النفاس من التمدنين .

ولا مناصَ لهم من الاستعداد للمستمرِّ لمكافأة الصَّواري ، ومن ثمَّ كان إبداءهم ما عندهم من براعةٍ في صنع السلاح ، فاخترعوا سهاماً مُستَنَّةً لأقواسهم البالغة من الثُلُوثَ متراً ونصفَ متر ، ولديهم رِماحٌ مُدَرَّبة ، وهم ينتفعون بلبَنٍ نوعٍ من البَتَّوع<sup>(١)</sup> في سَمِّ نِبَالم .

والمرأة لدى جميع القبائل هي دُونَ الرجل جمالاً وقواماً وذكاءً ، والمرأة عند هؤلاء السود ليست غيرَ آلةٍ للعمل من دون دَلَال ، ولا يبالي كلاً الجنسين بالهندام أو بالأناقة ، ومع ذلك لا تحبُّ سوى نسائٍ يُشَوِّهن شِفاههن بِمَخَاصِر<sup>(٢)</sup> أو عِقَاصٍ<sup>(٣)</sup> ، ومع ذلك لا يسوغُ للأوربية التي تنزع أهدابها وحاجبتيها أن تهرأ بما تزيّن به أختها الزنجية من الوشم ومن زَرَافين<sup>(٤)</sup> الحديد ، والصَّبُّ هناك أكثرُ ملازمةً للأخلاق مما عند البيض ، وذلك لأن الفتاة تختار الرجل لأنه يَروِّقها ، لا لأنه غنيٌّ ، واللَّوْرِي يدَعُون الفتاة وحدها في خيمة مع القتي الذي تَرَقَّب فيه بعد أن يصبح تَدْيَاها بمقدار جُمع كَفُّها ، فإذا أضحت الفتاة حاملاً تُحْمِل القتي على ابتلاعها ، والفتاة عند الباري لا تَعرِف زوجها إلا يوم الزواج ، والأم تدخل

(١) البتوع : كل نبات له لبن — (٢) المخاسر : جمع المخصرة وهي شيء كالسوط .

(٣) العفاس والنفاس : جمع القفصة ، وهي صغيرة الشعر — (٤) الزرافين : هي الحلق الصغيرة ، واحدها زرفين .

الكوخ في أثناء مأدبة العرس وتسأل الرجل عن سروره بالمرأة فَيُبْلَغُ ذلك بصُراخٍ  
يَسْمَعُهُ على الارتياح .

وحِشْمَةُ نساء السود أَسْمَى من حِشْمَةِ نساء البيض اللاتي لَا تَمْتَنِعْنَ السِّنُّ من  
كَشْفِ أَعْنَاقِهِنَّ ، وَالْقَتِيَّاتُ وَحَدَهِنَّ هُنَّ اللَّاتِي يَطْلُرْنَ عَارِيَاتٍ عَلَى ضِفافِ  
النَّيلِ الأَعْلَى وعند مُعْظَمِ القِبَائِلِ ، وَتَلْبَسُ الْمَرْأَةُ الْبَارِيَّةُ وَزُرَّةً بَعْدَ أَنْ تَضَعَ وَلَدَهَا  
الأولَ ، وَهناك نِسْوَةٌ أُخَرُ يَضَعْنَ خَلْفَهُنَّ ذَنْبًا مِنْ خَرَزٍ أَوْ طَاقَةٍ مِنْ أَوْرَاقٍ  
عَفْصَةٍ تُغَيِّرُ كُلَّ يَوْمٍ ، وَالْعَرَبُ يَدْعُونَ نساءَ الْجُورِ بِالْمَذْنَبَاتِ لَوْضَعِهِنَّ عَلَى  
سُرْتَنِ ذَنْبًا مِنْ أَهْدَابِ الْجِلْدِ النَّاعِمَةِ ، وَإِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ عَاقِرًا أَشْكَنَ طَلَاقُهَا  
وَاسْتِرْدَادُ مَهْرِهَا ، وَيَحْنُ لِلْمَرْأَةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْقِبَائِلِ أَنْ تَتْرَكَ بَعْلَهَا عِنْدَ وَجُودِ  
مَعَايِبٍ كَبِيرَةٍ فِيهِ .

وَإِذَا تَمَثَّلَ لِلْمَرْأَةِ رَأْسَ مَالٍ تَتَجَلَّى فَوَائِدُهُ فِي عَمَلٍ يُمَكِّنُ بَيْعَ ثَمَرَاتِهِ فَإِنَّهَا تَعْدِلُ  
لدى الزَّيْجِيِّ عَلَى ضِفافِ النَّيلِ سَنَدًا تَجَارِيًا عِنْدَ الْأَبْيَضِ قَرِيبًا ، وَإِذَا مَا زَوَّجَ  
الرجُلُ عَشْرَ بَنَاتٍ وَلِئِنْ مِنْ امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ نَالَ مِثْلَ بَقَرَةٍ يَحْفَظُهَا أَوْلَادُهُ الْآخَرُونَ ،  
وَلَمَّا يُرَحَّبُ الْبَارِي بِالْبِنْتِ أَكْثَرُ مَا بِالْأَبْنِ ، وَالْبَارِي يَتَطْلِيُونَ<sup>(١)</sup> مِنَ التَّوَاهِمِ  
فَيَمْدُونَهَا خَرِيمَةً لِلطَّلَاقِ .

(١) تطليق : تفاسم .

يَقْطُنُ الْمَرَادُ<sup>(١)</sup> فِي النَّاقِعِ ، وَم لَا يَنْبَعِدُونَ مِنَ الْأَقْرَامِ أَكْثَرَ مِنْ بَعْدِ نِيُورُوكَ  
 مِنْ وَشْنَمُنْ أَوْ بُسْدِ زُورِيخَ مِنْ مِيلَانَ ، وَم يَطْهَرُونَ عَلَى صِفَةِ النَّيْلِ الْيَسْرَى  
 بِالْقَرَبِ مِنْ بَحْرِ الْفَزَالِ ، وَيَنْزِلُونَ عَلَى الصِّفَةِ الْيَمْنَى حَتَّى الْمَرَجَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ ،  
 وَلَكِنْ الْمُسْتَقْعُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ لَوْجُوهُمْ مَعْنَى ، وَكَأَنَّ أَقْرَامَ رُونِزُورِي  
 قَصَرُوا بِعَيْشِهِمْ تَحْتَ دَوْنِ الْأَيْكَةِ الْيَكْرَ مِنْذُ مِثَالِ السَّنِينَ أَصْبَحَ الدُّنْكَالُ الَّذِينَ هُمْ  
 سَكَانُ تِلْكَ الْبِلَادِ الْأَوَّلُونَ أَطْوَلَ رِجَالِ الْأَرْضِ بِعَيْشِهِمْ كَالْقَالِقِ فِي الضَّحَاضِحِ وَعَلَى  
 رُؤُوسِ الشُّدْرَانِ ، وَبَيْنَا تَرَى أَوَّلَ تِلْكَ لَا يَزِيدُونَ طُولًا عَلَى مِثْرٍ وَثَلَاثِينَ سَنْتِيْمَةً  
 يَنْبُلُغُ الدُّنْكَالُ مِنَ الطُّوْلِ مِثْرَيْنِ ، وَيُقَدَّرُ مُعَدَّلُ الطُّوْلِ لِلتُّوسَطِ لَدَى الدُّنْكَالِ بِمِثْرٍ  
 وَتِسْعِينَ سَنْتِيْمَةً ، وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى هَذِهِ الْقَامَةِ مَعَ اسْتَوَاءِ أَرْجُلِهِمْ وَامْتِدَادِ أَعْقَابِهِمْ<sup>(٢)</sup>  
 وَأَعْنَاقِهِمْ أَبْصَرْتَ دَرَجَةً تَمَازِلُ أَحْوَالَ الْعَيْشِ وَتَقَارِبَهَا فِي الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ ، وَقَدْ  
 يُرَى الْبَحْثُ هُنَا عَنْ مَصْدَرِ الْأَسْطُورَةِ الْأَوْمِيرِيَّةِ حَوْلَ اصْطِرَاعِ الطُّوَالِ وَالْأَقْرَامِ .  
 وَيُظَلُّ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ سَاعَاتٍ بِأَشْرَافِهَا وَاقِفًا عَلَى إِحْدَى سَاقِيهِ اللَّتِي  
 لَا حِمَاةَ<sup>(٣)</sup> فِيهَا ، وَذَلِكَ مَعَ وَضْعِ السَّاقِ الْأُخْرَى فَوْقَ رُكْبَةِ تِلْكَ السَّاقِ  
 وَعُقْدِهَا بِهَا ، وَذَلِكَ مَعَ اسْتِنَادِهِ إِلَى مَنْسَأَةٍ<sup>(٤)</sup> ، وَمَعَ عَطْلِهِ مِنْ شَرَكٍ وَشَبَكٍ ،  
 وَمَعَ بُعْدِهِ مِنْ مَوَاشِيهِمْ .

(١) المراد : جمع المارء ، وهو الطويل المرتفع — (٢) الأعقاب : جمع العقب وهو مؤنث  
 القدم — (٣) الحماة : عضلة الساق ، وهي تعرف لدى الهملة بالبلطة — (٤) المنسأة : العصا  
 الظليلة التي تكون مع الراعى .

وهم أيقاظٌ غير رُقودٍ ، وهم يَرْتَقِبُونَ ماذا يَقَعُ بلا حركةٍ ولا بُنيةٍ ولا فِكْرَةٍ ولا رَغْبَةٍ ولا كِبَرٍ عاطفةٍ في الظاهر ، وهم يَرَوْنَ فوق ذلك السَّاطِ المائيَّ الواسع من فراسخٍ بعيدةٍ ، فيبدو تضاداً دائماً بينهم وبين الأقرام الذين يعيشون كالتمل على مُنَحْدَرَاتِ البراكين حَذَرِينَ خافين فاعلين مترقبين ، وفيما هم يشاهدون البلاشين بُنْحُولَهُم واستواء ظهورهم ودقة قاماتهم واستطالة جاجهم وانحناء أنوفهم وِرْقَةً شِفَاهِهِمْ وَلُفْطَ مفاصلِهِمْ يُذَكِّرُنَا الأقرامَ بالمناجذ<sup>(١)</sup> .

ونحافتهم سببُ ظهورهم أكثر طولاً ، وهي تُنَاسِبُ كسلهم الذي لا يَمُدُّهُ كسلُ شعبٍ آخر ، وهم لكسلهم يُفَضِّلُونَ تناول حَسَاءٍ من كَلٍّ على إقبال أنفسهم بصيد السمك ، حتى إن التَّوَيَّرَ الذين هم أشدُّهم كَسَلًا لا يَدْفِنُونَ موتاهم ، ويحاول البيضُ مكافئة هذه السَّجِيَّةِ باسم الأخلاق ظاهراً ، وعن احتياجٍ إلى عملهم باطناً ، راجين أن يَحْمِلَهُم الدَّيَّابُ الذي يَهْلِكُ قِطَاعَهُمْ على تماطى الزَّراعة ، والحقُّ أن الأراضى الخصيبة هنالك هي من الاتساع الكبير ما يمكن تحويلها إلى أراضٍ صالحة للزراعة « لو انتهى الزَّنجِيُّ إلى تقدير قيمة العمل » ، ولكن الحاجة إلى الذراع تَقِلُّ في العالم بأجمعه ، ولكن الدَّنْكَا يكونون من أصحاب الحظِّ إذا ما فروا من تلك التصارييف واستمروا على عيشهم القردوسيُّ الذي نَفَرَ منه إخوانهم حديثاً بعد ألوف السنين .

وأكثرُ الدَّنْكَا من الرُّعاة ومن الذين يُعْتَوْنَ بترية اللواشى ، فتَجِدُ لأقرم أربع بقراتٍ وَتَجِدُ لأغنام ألف بقرَةٍ . ومن القِطَاعِ ما يشتمل الواحدُ منها على ثلاثة آلاف من النَّمِّ<sup>(٢)</sup> ، والبقرُ يُقَدَّسُ له ، والبقرُ يُعْبَدُ ، وهذا أفضلُ من عبادة

(١) المناجذ : جمع خلد من غير لفته ، وهو نوع من القوائم يعيش تحت الأرض ، وهو ليس له عيان ولا أذنان — (٢) النَّم : البقر والنم وما إليهما .

الْبَيْضُ لِلْعَجَلِ الذَّهَبِيِّ ، وَيُوصَلُ الْحَيَوَانُ الَّذِي يَتَقَدَّمُ الْقَطِيعَ بِدَعَاٍ فِي الصَّبَاحِ ،  
وَتِلْكَ بَقَرَاتٌ جَمِيلَةٌ سُمُرُهُ نَيِّرَةٌ قَصِيرَةٌ الْقُرُونُ ذَاتُ حَدَبٍ كَبِيرٍ ، وَهِيَ تُزَيِّنُ  
بِالْأَزْهَارِ أَيَّامَ الْأَعْيَادِ ، وَهِيَ تُرْتَشُّ بِالْمَاءِ وَقْتُ الْحَلَبِ حَفْظًا لَهَا مِنَ الدُّبَابِ .  
وَهِيَ تُحْفَظُ لَيْلًا بَيْنَ سِيَّاحَاتٍ شَائِكَةٍ أَوْ بَيْنَ يَتَوَعَّاتٍ جَايَةٍ لَهَا مِنَ الْأَسَدِ ، وَيَنَامُ  
الرَّجُلُ بِجَانِبِ قَرَانِهِ <sup>(١)</sup> الْمُفْضَلُ الَّذِي يَقْصِدُهُ بَقَارِيَّتُهُ <sup>(٢)</sup> مَرَّةً وَاحِدَةً فِي كُلِّ شَهْرٍ ،  
وَقَدْ اسْتَفْلَ النَّحَاسُونَ هَذِهِ الْعَاطِفَةَ نَحْوَ الْحَيَوَانِ الَّذِي يَقَايِضُ بِالنَّاسِ ، وَإِذَا بَحِثْتَ  
عَنِ جَمِيعِ الْحَمَلَاتِ وَجَمِيعِ الْحُرُوبِ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ وَجَدْتَ سَرَقَةَ الْحَيَوَانَاتِ سَبِيحًا لَهَا ،  
وَالسَّرَقَةُ تَمَلَأُ أَقَاصِيصَ الدُّنْكَ وَأَسَاطِيرَهُمْ ، وَالِدُّنْكَ يُؤْمِنُونَ بِالْبَقَرِ الْقُدْسِ الَّذِي  
يَحْفَظُهُ غَوْلُ النَّيْلِ وَالَّذِي يَرْتَعَى لَيْلًا مَقْرُونًا بِأَوْتَادٍ عِنْدَمَا يَسْتُرُ الضَّبَابُ  
ضِيفَانَ النَّهْرِ .

وَإِذَا كَانَ لِلْوَيْسَمِ جَافًا وَارْتَمَ <sup>(٣)</sup> مَا عَلَى الشَّهْبِ تُقِلَّتِ الْمَاشِيَةُ مِنْ ضِيفَةِ النَّيْلِ  
الْبَنِيِّ إِلَى ضِيفَتِهِ الْبُيُوتِ ، وَيُظَلُّ النِّسَاءُ وَالْأَوْلَادُ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ مِنَ النَّهْرِ فِي  
أَكْوَانِهِمْ الْخَفِيفَةِ ، وَيَسْبُرُ الرِّجَالُ نَهْرَ النَّيْلِ فِي سُوقٍ مُجَوَّفَةٍ مِنَ الشَّجَرِ جَارَيْنِ  
وَرَاءَهُمْ عَجَالًا <sup>(٤)</sup> مَرْبُوطَةً بِجِبَالٍ ، وَمَا يَصْدُرُ عَنْ هَذِهِ الْعِجَالِ مِنْ خَوَارٍ هَوْلٍ قَيْحِيلٍ  
أُمَانِيَهَا عَلَى اتِّبَاعِهَا سَابِحَةً فَتَلْحَقُ الثَّيْرَانُ هَذِهِ الْأُمَمَاتُ ، وَيُنْقَلُ الضَّأْنُ فِي زَوَارِقٍ ،  
فَتَرَفُقُ الْكِلَابُ الْقَطِيعَ عَائِمَةً مَعَ مَا فِي هَذَا مِنْ خَطَرٍ ، وَيَتِيمُ اسْتِقَالَ كُلُّ أُسْرَةٍ فِي  
يَوْمَيْنِ ، وَفِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ يَفُفُّ السَّاحِرُ عَلَى شَفِيرِ <sup>(٥)</sup> الْوَادِي مُعْزِمًا <sup>(٦)</sup> عَلَى التَّمَسِيحِ  
الَّتِي لَا تَقْوِيهَا غَنِيَّةٌ مَعَ ذَلِكَ .

(١) الْفَرَاةُ : حَارِ الْوَحْشِ — (٢) الْفَارِيَّةُ : أَعْلَى الرِّمَحِ — (٣) ارْتَمَ مَا عَلَى الشَّهْبِ :  
اِكْتَفَى (٤) الْجِبَالُ : جَمْعُ الْجَلِ (٥) شَفِيرُ الْوَادِي : نَاحِيَتُهُ مِنْ أَعْلَاهُ — (٦) عَزَمَ  
السَّاحِرُ : قَرَأَ الْمَزَامِيرَ ، وَالْمَزَامِيرُ : جَمْعُ الزَّمْعَةِ ، أَيْ الرِّقِيَّةِ .

والدُّنْكَا بضعةٌ مُحْتَمَاتٌ مجاورةٌ لإخوانهم النَّيَّامَ نِيَّامٌ على ضِفافِ بحر الغزال ،  
وهكذا تُبَصِّرُ كلاً من النباتين وأَسَكَّةَ لحم البشر يَرْقُبُ الآخرَ ويَحْتَمِرُهُ ، وذلك  
لأنَّ أحدَ الفريقين لا يَفْتَنُذِي من الدُّخْنِ واللَّبنِ وحدهما كما أنَّ الفريق الآخر  
لا يَفْتَنُذِي بلحم الإنسان قط ، فإِذَا تَحْمَلُونَ من حقدٍ على رجلٍ نصفِ خَصَمٍ لَكُمْ  
فَأَكْثَرُ من حقدكم على رجلٍ يخاصمكم أَشدَّ الحِصَامِ ، وَيَهْزَأُ أَحَدُ الْقَبِيلَيْنِ<sup>(١)</sup>  
بـ « التَّيْلِينِ » ، وَيَهْزَأُ الْقَبِيلُ الْآخَرُ بِـ « الرِّجَالِ الْقَصَبِ » ، وذلك لِلْمُسَاةِ التي  
يَحْمِلُهَا الدُّنْكَا في كُلِّ وقت تقريباً ، وإِذَا مَا وَاحِدُهُ رَجُلٌ هَذَا الِيرْقُ ، الذي  
هُوَ أَسْوَدُ عُرْقٍ إفريقية الوسطى مع شَرَارِيهِمْ<sup>(٢)</sup> الكَرِيهَةِ الحُمْرِ ومغافِرهم وريش  
قَلَانِسِهِمْ<sup>(٣)</sup> وأَسْنَانِهِم المُشْدَّبةَ بِالْمُنْشَارِ ، أَسَكَّةَ لُحُومِ البَشَرِ الَّذِينَ هُمْ أَكْثَرُ عَدَا  
مِنْهُمْ عَدَا رَأَيْنَا فِي الْقِيَمِ الخُلُقِيَّةِ مِنَ المُضْحَكَاتِ .

وَإِذَا كَانَ أَسَكَّةَ لُحُومِ البَشَرِ يَزْدُرُونَ الدُّنْكَا الَّذِينَ هُمْ وَحُوشٌ يُقْبِلُونَ الْبَهَائِمَ  
وَيَكْرَهُونَ الصَّنِيدَ وَيَجْهَلُونَ آدَابَ السُّلُوكِ فَإِنَّ الدُّنْكَا مِنْ نَاحِيَتِهِمْ يَزْدُرُونَ الْجُورَ  
الَّذِينَ يُجْهَزُونَهُمْ بِالْحَدِيدِ ، وَالْجُورُ يَقْبَعُونَ النَّيْلَ وَمِنَاقِعَ النَّيْلِ الْمُتَقَلِّبَةَ وَمَنَاجِمَ  
الْحَدِيدِ قِيَمُورُونَ ذَلِكَ النَّهْرَ فِي الرَّيْعِ وَيَعْمُرُونَ الْبِقَاعَ الْعَامِرَةَ ، وَالْجُورُ يَرْكُونَ  
فَحْمَ الْغَابِ وَالْمَدِينِ الطَّامِ لِلْحَطَمِ فِي مَوَاقِدَ ابْتِدَائِيَّةٍ ، وَلَدَى هَؤُلَاءِ الْحَدَّادِينَ  
سَنْدَانٌ<sup>(٤)</sup> مِنْ حَجَرٍ وَمِدْقٌ حَدِيدِيٌّ مَرِيعٌ الزَّوَايا عَاطِلٌ مِنْ مِقْبَضِ وَقِطْعَةٍ خَشْيِيَّةٍ  
مَشْقُوقَةٍ عَلَى شَكْلِ الْكَلَابَةِ<sup>(٥)</sup> فَيَطْرُقُونَ بِهِذِهِ الْأَلَاتِ حَدِيداً مُتَبَيَّنً ، وَتَضَعُ

(١) القليل : الجماعة من الثلاثة فصاعداً — (٢) الشراريب : جمع الصرابية ، وهي عند المولدين ضمة  
من خيوط يعلق طرفها الواحد بالطريش وغيره ويصلي الآخر — (٣) القلانس : جمع قلنسة ، وهي  
نوع من ملابس الرأس ، وهي على هيئة متصدعة — (٤) السندان : آلة يطرُق عليها الحديد  
والكلبة من النخيل — (٥) الكلابة أو الكلبتان : آلة من الحديد يأخذ بها الحداد الحديد  
الحصى .

نَسَاوُهُمْ قَرَّاطِلٌ<sup>(١)</sup> وَسِلَالًا سَمَا يَصْنَعْنَ قَرْنًا وَقِلَالًا<sup>(٢)</sup> ، وَيُقَوِّضُ مَخِيمَ أَوْلَئِكَ  
النَّوْرِ الرَّأَةَ فِي الْقَابِ إِذَا مَا جَعُوا مِنَ الْحَدِيدِ مَا يَكْفِي لَصْنَعِ نِصَالٍ وَنِبَالٍ وَخِلَاطٍ  
وَأَسُورَةٍ لِلدَّنْكَ .

وهكذا ترى قبائل السود حَوْلَ النيل يحاولون رَفْعَ قِيَمَتِهِم بِتَحَادُثِهِمْ وَازْدِرَاءِ  
بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ كَالْأُورِيِّينَ .

## ١٧

وفي أَقْصَى شِمالِ المناقِعِ ، ونَحْوَ الدَّرَجَةِ العَاشِرَةِ مِنَ الْقَرَضِ ، يَمْتَدُّ هَوُورٌ<sup>(٣)</sup>  
وَاسِعٌ مِمَّا نَحْنُ لِلْأَهْوَارِ الأُخْرَى ، وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُبْصَرَ غَايَتُهُ ، وَذَلِكَ لِهُوَ هُوَ  
بَحِيرَةٌ نُوَالِي هِيَ نَقْطَةُ انْطِلَاقٍ جَدِيدَةٍ لِلنَّيْلِ ، وَالنَّيْلُ بِذَلِكَ يُبْلَغُ الْحَدَّ الْغَرْبِيَّ مِنْ  
مَجْرَاهُ فِي الدَّرَجَةِ الثَّلَاثِينَ مِنَ الطُّولِ الشَّرْقِيِّ الَّتِي تُبْلَغُ مَرَّةً أُخْرَى بِالشَّلَالِ الثَّالِثِ ،  
وَبِالْقُرْبِ مِنْ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ وَإِلَى هَذِهِ الْبَحِيرَةِ نَفْسُهَا تَنْتَهِي الرِّوَاغِدُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي تُعَيَّنُ  
نِظَامُ مِيَاهِ النَّيْلِ ، وَيُرَى مَسِيرَ النِّهْرِ فِي هَذِهِ الْبَحِيرَةِ الَّتِي يُجَدِّثُ فِيهَا عَطْفَةً مَبَاغِتَةً  
نَحْوَ الشَّرْقِ حَيْثُ يَدَاوِمُ عَلَى اتِّجَاهِهِ ١٢٠ كِيلُومِتْرَ إِلَى أَنْ يَنْبُلُغَ مَلَاكَالَ فَيَسْلُكُ  
سَبِيلَهُ الطَّبِيعِيِّ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشِّمَالِ ، وَهَكَذَا يُلَوِّحُ أَنَّهُ يَشْتَدُّ عَلَى مَجْرَاهُ الْعَادِيِّ  
نَيْلًا لِلِسَوَاعِدِ الثَّلَاثِ الَّتِي تَهَبُّ لَهُ حَيَاةً جَدِيدَةً .

(١) القراطيل : جمع القرمط ، وهو السلة من قضبان أو قصب ، والعامية تطلقه على كل سله .

(٢) القلال : جمع القلة ، وهي الجرة القليلة ، والكوز الصغير — (٣) الهور :  
البحيرة تجري إليها مياه غياض وآبارم فتتسع .

### بحر الفزال

وَيَتَغَيَّرُ الْمَنْظَرُ رَوِيداً رَوِيداً بِتَغْيِيرِ اتِّجَاهِ النَّيْلِ وَسَحَابَتِهِ ، وَالْآنَ تَعْدُو الصُّفَافُ أَكْثَرَ وَضوحاً وَأَعْظَمَ عَرْضاً عَنْ يَمِينٍ ، وَيَصِلُ النهر إلى اتساع مئة متر أو يزيد ، ويكون النهر أَقْلَ ازدهاماً بِالْبَرْدِيِّ وَيَنْسَعُ شَجَرُ السَّنَطِ مَطَالاً ، وَتَتَجَمَّعُ الْأَكُوَاحُ الصَّغْرَى الْمَدُورَةُ عَلَى شَكْلِ قَرْيَةٍ ، وَتَشْرَبُ الْمَاشِيَةُ الرَّمَادِيَّةُ اللَّوْنِ مِنَ النهر وَتَحَافِظُ عَلَيْهَا كَلَابُ صَغِيرَةٍ ، وَيُدَخِّنُ الدَّنَكَا جَامِذِينَ بِالْقَرَبِ مِنَ النَّارِ وَيَنْظُرُونَ إِلَى نَسَائِهِمُ اللَّائِي يَسِرْنَ فِي الْوَحَلِ حَتَّى الرُّكْبِ وَيَمْلَأْنَ جِرَارَهُنَّ الزُّرْقَ مِنْ مَاءٍ ضَارِبٍ إِلَى صُفْرَةٍ ، ثُمَّ يَحْمِلْنَ هَذِهِ الْجَرَّ<sup>(١)</sup> عَلَى رُؤُوسِهِنَّ بِجَهْدٍ وَيَرْجِعْنَ إِلَى الْقَرْيَةِ فَارِهَاتٍ<sup>(٢)</sup> ، وَإِذَا مَا وَقَفَ الدَّنَكِيُّ عَلَى سَاقٍ وَاحِدَةٍ مَفْرُداً ظَهَرَ كَالطَّيُورِ الْخَوَاضَةِ الَّتِي يَقِفُ بَعْضُهَا بِجَانِبِ بَعْضٍ فَوْقَ مَسْتَنْقَعٍ .

ذَلِكَ هُوَ مَنْظَرُ الْمَكَانِ الْوَاقِعِ فِي غَرْبِ بَحِيرَةِ نُوْ الْأَقْصَى حَيْثُ يَلْتَقِي بِحَرُّ الْفَزَالِ وَبِحَرُّ الْجَبَلِ ، وَعَلَى مَا يُعَدُّ بِهِ بِحَرُّ الْفَزَالِ مِنْ رَوَافِدِ النَّيْلِ تَرَاهُ عَمَلَاكاً ، فَيَمْتَدُّ حَوْضُهُ عَلَى الدَّرَجَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ الْعَرْضِ وَالدَّرَجَةِ التَّاسِعَةِ مِنَ الطُّولِ وَفِيهَا وَرَاءَ صَخْنِ الْبَحِيرَاتِ الْإِسْتَوَائِيَةِ الَّتِي يُؤَلِّدُ النَّيْلُ مِنْهَا ، وَكَأَنَّ تَارِيخَ الْبَشَرِ يَتَوَرَّثُ الْذَهْنَ أَجْنَاناً ضَيْدَ الْمَبْدَأِ الْقَائِلِ إِنْ دَافَعَ الْإِيمَانُ<sup>(٣)</sup> أَقْوَى مِنَ الذَّنَى تَوَدَّى إِلَيْهِ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ الْأَقْوَى غَيْرَ رَافِدٍ فَإِنَّ الذَّنَى تَكُونُ حَيَوِيَّتُهُ أَعْظَمَ مِنْ سَوَاهِ هُوَ الذَّنَى يَقْلُ مَنْصُوراً ، وَيَمَانِي بِحَرُّ الْفَزَالِ مَصِيراً مَوْثِراً ، وَيَكَايِدُ بِحَرُّ الْفَزَالِ مَغَامِرَةً مَسْرُوحَةً قَبْلَ أَنْ يَدْنُو مِنَ النَّيْلِ ، وَبِحَرُّ الْفَزَالِ أَكْثَرُ مَاءٍ وَأَشَدُّ كِفَاحاً مِنْ كُلِّ نَهْرٍ فِي أَوْرَبَةٍ ، وَيَخْتِياً بِحَرُّ الْفَزَالِ بِسَوَاعِدِهِ الْخَاصَةِ وَحَدَّهَا حَيَاةَ نَهْرٍ كَبِيرٍ ، وَيُبْصِرُ بِحَرُّ الْفَزَالِ عِنْدَ انْصِبَابِهَا

(١) الجر : جمع الجريرة — (٢) القارة : النشيط الخفيف — (٣) الإناوة :

المخارج .



فيه سَبَاسِبٌ<sup>(١)</sup> ذاتَ أدواحٍ<sup>(٢)</sup> ثم يُنْصِرُ الأَيْكَةَ الكثيفةَ البِكْرِ حتى انْطَبَّ  
الفاصل بين مياه الكُونُو، ثم يُنْصِرُ في مجراه الأدنى اصطِراحَ الماء والأرض كما هو  
أمرُ النيل .

والآن ظَهَرَ أَمْرُ الأقوى ، وعند ما يَنْخَسِرُ بحرُ الفزال مجراه واتَّجَاهَهُ وَسَجِيَّتَهُ  
وَتَرَبُّكُهُ الأسدادَ النباتيةَ وَجُزُرُ الكَلَأِ والشَّعْبِ والجداولُ يُضْجِي عُرْضَةً لنفوسِ  
الناقعِ وَيُضِيعُ سُلْطَانَهُ ، فَيَتَرَكُ هنالك ضِعْفِي ما يَتَرَكُ النيل ، وبحرُ الفزال بعد أن  
يَنْدَوُ عاطلاً من الضَّفَافِ وَيَدْخُلُ دوراً كبيراً من الانحلال لم يَبْقَ له غيرُ  
مَضِيقٍ فَيَلَاكِبُهُ هذا المَضِيقُ الذي قاومَ مثلَ تلكَ المِحَنِ وَيَقْبَلُهُ مُتَرَفِّقاً  
وينتفع به .

ولبحر الزراف الذي يَنْصَبُ في النيل بشرقِ بحيرة نُو وعلى ذلك العَرَضِ مغامرتهُ  
أيضاً ، وهو يَخْرُجُ من مناقعِ واقعةٍ « في مكانٍ ما من مجرى أوأى التحتاني » كما  
يقول الجغرافيون وكما يُحَدِّثُونَ عن لقيطٍ يَحْدُوهُ ، وتُوْجِي أضواجهُ في بلدِ الأهوارِ  
بالافتراضِ القائل إنه تَكُونُ في مناقعِ زائِلَةٍ ، وتُوْجِي شِبَاهُ ضِفَافِهِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنْ  
جُذُورٍ متراكمةٍ قديمةٍ ، وإن شئتُ فقلُّ شُعْبَهُ الممتدةَ إلى كلِّ ناحيةٍ كَسُكِبِ الرِّيةِ<sup>(٣)</sup> ،  
وذلك عند النظر إليها من الطائرة ، بفكرَةٍ عن مرضٍ كَرِهَ يَقْضِمَ لِحْمِ  
ذلك البلد .

والسوباتُ أَكْثَرُ الثلاثةِ وَهْمًا للنظر ، وهو يَصُبُّ في النيل حيث يَسْتَرِدُّ النيلُ  
مجراه إلى الشمالِ قريباً من بحرِ الزَّرَافِ التَّحْتَانِيَّ ، والسوباتُ هو الرافدُ الأولُ الذي

(١) السباسب : جمع السبب وهو الأرض البعيدة للسوية — (٢) الأدواح : جمع الواحة ،  
وهي الشجرة الظليلة اللسمة — (٣) الرية : ضرب من حيوانات البحر الرخوة .

## السوبات

يُجْعَلُ إلى النيلِ غِرْيَيْنِ الحَبْشَةِ الذِي يتَجَلَّى به شَأْنُهُ القَادِمُ ، وَيُمَثِّلُ السوباتُ حَوْضًا عَظِيمًا ، وَهُوَ لَا يَتَاوَلُ مِنْ هَضْبَةِ البَحِيرَاتِ الكَبِيرَةِ غَيْرَ جِزءٍ مِنْ مِيَاهِهِ ، وَهُوَ يَتَلَقَّى بَقِيَّةَ مِيَاهِهِ مِنْ جِبَالِ الحَبْشَةِ العَالِيَةِ الَّتِي تَبْلُغُ ذُرَاهَا الجَنُوبِيَّةُ الفَرِيَّةُ مِنَ الرَّوْعَةِ الشَّيْءَ الكَثِيرَ عَلَى رِوَايَةِ العَارِفِينَ بِهَا ، وَيَسِيرُ السُّوبَاتُ عَلَى غِرَارِ أَنْهَارِ الحَبْشَةِ الأُخْرَى التَّوْجُّهُ إِلَى النيلِ فيَقُومُ بِجَوْلَةٍ طَوِيلَةٍ فِي الجِبَالِ فَلَا يَجْرِي فِي السَّهُولِ غَيْرَ زَمَنِ قَلِيلٍ لِلْمَلَاكَةِ الأَشْهَارِ الآتِيَةِ مِنَ البَحِيرَاتِ الكَبِيرَةِ ، وَيَسْقُتُ السوباتُ طَرِيقًا لِنَفْسِهِ بِحَزْمٍ فِي جَرِيهِ الصَّائِلِ ، وَيَتَغَلَّبُ السوباتُ عَلَى مُغْرِيَاتِ حَيَاتِهِ الْمُقْبِلَةِ بِقُوَّةٍ شَبَابِهِ الرَّاهِنِ .

وَعَلَى مَا يَتَّفِقُ للسُّوبَاتِ مِنْ ابْتِمَادٍ عَنْ أَخْطَارِ المُنَاقِعِ أَكْثَرًا مِمَّا يَتَّفِقُ لِبَحْرِ الفَزَالِ تَرَاهُ يَتَرَكُ هُنَاكَ كَثِيرًا مِنْ مِيَاهِهِ ، وَبِمَا أَنَّ ضِفَافَهُ أَكْثَرُ ارْتِفَاعًا مِنْ جِوَارِهَا لَا تَجْزُرُ<sup>(١)</sup> مِيَاهُ الفَيْضَانِ إِلَى السُّوبَاتِ بَعْدَ مَوْسَمِ الأمْطَارِ بَلْ تَقْلُ رَاقِدَةً مَدَى العَامِ مَا لَمْ يُجْرِهَا الزَّوْجُ نَيْلًا لِلسَّمَكِ وَيُمَثِّلُ السُّوبَاتُ ، مَعَ ذَلِكَ ، ١٤ فِي المِئَةِ مِنْ مِيَاهِ النيلِ فِي الشَّرْطِ طَوْمٍ .

وَفِي مَلَاكَالٍ ، وَبَعْدَ تِلْكَ المُلْتَقِيَّاتِ الثَّلَاثَةِ ، وَحِينَ يَنْحَرِفُ النُّهْرُ نَحْوَ الشَّامَالِ ، يَجْعَلُ هَذَا النُّهْرُ اسْمَهُ الرَّابِعَ ، وَكَانَ هَذَا النُّهْرُ قَدْ دُعِيَ نَيْلَ فَيْكُتُورِيَّةٍ وَنَيْلَ أَلْبِرْتِ بَعْدَ اجْتِمَاعِهِمَا بِبَحْرِ الجَبَلِ ، وَتُبْصِرُ النِّيلَ الأَبْيَضَ بَعْدَ الآنِ ، وَسَيَجْرِي هَذَا النُّهْرُ مُسْتَقِيمًا نَحْوَ الشَّامَالِ بِلَا رَوَافِدٍ ، وَذَلِكَ إِلَى أَنْ يُسَطَّ اسْمُهُ أَغْرَبُ التَّقَاءِ مَرَّةً أُخْرَى .

---

(١) جَزْرُ المَاءِ : انْحَصَر ، وَهُوَ رَجُوعُهُ إِلَى الْوَرَاءِ .

قُطِعَتِ النُّقْطَةُ الاسْتَوَائِيَّةُ ، وَاقْتَضَتْ مَغَارَتُ الشَّبَابِ ، وَبَسِيرُ نَهْرٍ مُتَزِنٌ  
كَهْلًا إِلَى مَصِيرِهِ .

وَلَمَّا لَمَسَ النُّهْرُ فِي بَعْدِ مِنَ الْوَقْتِ مَا يَذْكُرُ فِيهِ مَبَازِغَاتِهِ مِنْ بَحِيرَاتٍ وَمَسَاقِطَ  
وَدَوَاقِعَ وَمَخَاطِرَ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ فِي النَّاقِعِ وَكَفَاحٍ ضِدَّ الْأَهْوَارِ ، هُوَ لَيْسَ عَمِيقًا ،  
هُوَ يَبْلُغُ مِنَ التَّمَقُّقِ خَمْسَةَ أَمْتَارٍ عَلَى الْعُمُومِ ، وَمَتَرَيْنِ فِي بَعْضِ الْمَرَاتِ ، فَتَنْشَبُ  
حَتَّى الْبَوَاحِرُ الْمُسْتَوِيَّةُ الْقَعْرِ فِي الرَّمْلِ أحيانًا ، وَهُوَ فِي الْغَالِبِ يَكُونُ عَرِيضًا  
كَأَحْدَى الْبَحِيرَاتِ ، وَهُوَ بِالْمُخْدَارَةِ مَلِيْمَتَيْنِ فِي الْكِيلُو مَتْرٍ الْوَاحِدِ يَبْدُو سَاكِنًا  
غَيْرَ جَارٍ مِرَارًا ، وَبِمَتَدُّ السَّهْلِ الْوَاسِعِ الَّذِي يَتَحَرَّكُ فِيهِ النَّيْلُ بِلا خَطَرٍ وَلَا مَانِعٍ  
١٢٠٠ كِيلُو مَتْرٍ بَيْنَ سَفْحِ هَضْبَةِ الْبَحِيرَاتِ وَالْخُرُطُومِ فَيَحْدُهُ مِنَ الشَّرْقِ مُنْحَدَرَاتُ  
جِبَالِ الْحَبَشَةِ وَمِنْ الْغَرْبِ جِبَالُ نُوْبَةِ وَتِلَالِ كُرْدُفَانِ ، وَمَا فِي ضِفَاقِ النَّهْرِ  
مِنْ تَمَرُّجَاتٍ أَرْضِيَّةٍ خَفِيفَةٍ فَيَحُولُ دُونَ الْقِيَصَانِ وَيَمْنَعُ مِنْ نَشْوِ الْفُلْدِرَانِ  
وَيَكْنِي لَضَبِطِ النَّهْرِ فِي عَجْرَاهُ وَجْهًا صَالِحًا لِلْمَلَاخَةِ ، وَهَذِهِ هِيَ النُّقْطَةُ الَّتِي أُنْتَهَتْ  
إِلَيْهَا مَعْرِفَةُ بَعْضِ شُمُوبِ الْأُمِّ الْقَدِيمَةِ عَنِ النَّيْلِ .

وَالصَّغْعُ الَّذِي يُقَيَّدُ جَمِيعَ ذَلِكَ هُوَ الشَّهْبُ الَّذِي هُوَ لِلنَّيْلِ نَذِيرُ الصَّعْرَاءِ ، وَآيَةُ  
الْبُقْعَةِ تَتَجَلَّى فِي السَّطْحِ فِي الْأَلْوَانِ ، فِي السَّطْحِ الْأَخْضَرِ وَالْقَصْيِ وَالرَّمْلِ الْأَصْفَرِ  
وَالضَّارِبِ إِلَى الْبَنَفْسَجِيِّ ، وَتَرَى أَمَامَهُ نِطَاقًا مِنَ الْحَصَائِدِ التَّهْيِيَةِ ، وَتَرَى بِالْقَرَبِ  
مِنْ الضُّفَافِ حَرَقًا مِنَ الْمَشْبِ الْأَخْضَرِ الْأَسْوَدِ وَقَلِيلًا مِنَ الْبَرْدِيِّ وَكَثِيرًا مِنْ

## السهب

أَجْدُ الصُّوفِ ، وَتَرَى أَمَامَ هَذَا الْحَرَفِ وَعِنْدَ الْمَاءِ وَبَيْنَ مَكَانٍ وَمَكَانٍ صَفًّا مِنْ الطِّينِ الْأَسْوَدِ ، وَمَا تَرَاهُ فِي شَهْرِ مَارَسٍ عَلَى الْخُصُوصِ ظُهُورُ الشَّهْبِ مُنَوِّدًا ، وَالسَّنْطُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَبْدُو مُنْفَصِلًا عَنِ السَّهْلِ الْمُحْتَرَقِ ، وَمِنْ عَادَةِ الْقَبَائِلِ الْمُنَشَّرَةِ عَلَى الصُّفْتَيْنِ حَرَقُ الشَّهْبِ ، وَهَذَا مَعَ اسْتِثْنَاءِ الْقَبَائِلِ الَّتِي تَتَمَتَّعُ عِنْدَ خَطِّ الاسْتَوَاءِ بِوَابِلٍ يَرَوْنَهُ ، وَمَعَ مَا فِي هَذِهِ الْعَادَةِ مِنْ خَطَرٍ عَلَى شَجَرِ الشَّهْبِ تَحْمِذُهَا مُتَأَصِّلَةً وَهِيَ تُفَسَّرُ بِمَجْزِ الْمَوَاشِي عَنْ قَطْمِ أَطْرَافِ الْعُشْبِ اللَّذِيذَةِ إِذَا مَا ارْتَفَعَ كَثِيرًا وَزَادَ كَثَافَةً .

وَلَيْسَ الشَّهْبُ سِوَى ضَرْبٍ مِنْ ثِيَابِ الشَّتْوَى ، فَالْمَاءُ يَفْقَرُهُ وَقْتُ ارْتِفَاعِ الْمِيَاهِ عَلَى عَرْضِ خَمْسَةِ كِيلُومِتَرَاتٍ ، وَيَقِلُّ الْمَطَرُ فِي أَثْنَاءِ السَّنَةِ حَتَّى كُوسْتِي ، وَكَلَّا نَزَلَ إِلَى الشَّامِ تَوَجَّعَ الشَّهْبُ مِنَ الْحَرِّ ، وَفَرَّ الْحَيَوَانُ وَيَزْجَلُ (١) حَذَّ الصَّيْدِ .  
وَتَنْتَشِرُ عَلَى طُولِ النِّهْرِ مَرْتَفَعَاتٌ صَغِيرَةٌ ، وَيَبْلُغُ السَّهْلُ مِنَ الْاسْتَوَاءِ مَعَ ذَلِكَ مَا يَكْفِي مَعَهُ ارْتِفَاعُ مَتْرَيْنِ لَتَصِينِ مَقَرٍّ لِلْإِدَارَةِ ، وَلَا يَزِيدُ مِيلُ النَّيْلِ عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ مِتْرًا فِي ثَمَانِيَةِ مِنَ الْكِيلُومِتَرَاتِ .

وَتَبْدُو أَشْجَارٌ جَدِيدَةٌ حَوْلَ الرُّنْكَ أَيْ حَوَالَى الْمَرَجَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ مِنَ الْعَرْضِ الشَّامِلِ ، وَإِذْ كُرُّ مِنْ شَجَرِ الشَّهْبِ الْبَاوِيَابِ ، النَّبَاتِ الثَّمِينِ الْقِشْرِ ، وَيَزِيدُ عَرْضُهُ عَلَى عُلُوِّهِ ، وَهُوَ بَيْنَ النَّبَاتِ تَجْوِيفًا كَالْخَطِيبِ الشَّعْبِيِّ بَيْنَ الدَّهْمَاءِ نَاقِثًا ، وَيُنْتَفِعُ بِشَرِّهِ الضَّارِبِ إِلَى خُصْرَةٍ فِي إِعْدَادِ شَرَابٍ تَافِهِ .

وَفِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ ، وَفِي مُسْتَقْبَلِ جَرِيَةِ النِّهْرِ حَوْلَ ثَوْنَةٍ ، تَبْصُرُ أُلُوفَ الْأَكْوَانِ مُتَرَاصَةً فِي صَفٍّ ، وَهَذِهِ هِيَ مَسَاكُنُ الشَّلَكِ الَّذِينَ دَحَرُوا مِنْذُ نَحْوِ مِائَتَيْ عَامٍ إِلَى

(١) زحل : تحول عن مكانه .

## المجلد

الشمال ، إلى منافع بحر الغزال ، ثم أشرقَ قَيْصُ السَّكَّانِ في تلكِ المِنطقة الضيقة الخصبية عن هجرة قاموا بها حتى بحيرة أَلِيرت في الجَنُوبِ منتشرين تحت كلِّ اسم ، وهكذا أُلقي رُعاة النيل البدويون هنا وهناك بين الجفاف والقيصان في صِراخٍ أبدى بين النهر والأطيان .

وَبَدَّ كَرْنَا ذلكَ المِرْقُ الأصيلُ بما في القبور الفرعونية من اللثال المصري مع الأنفِ الأَقْنَى المنفصل عن الجَبِينِ بأخدودٍ أعمقَ من أخاديد جميع الزوج الآخرين ومع الأسنان الجميلة والأرجل الصغيرة والحركات البطيئة كالذئب ، ولكن أولئك القومُ يَشَوِّهون أنفسهم بدهن أبدانهم وشعورهم بالسَّناج<sup>(١)</sup> حتى يصيروا مُمرًا مُحرًا ككلابهم السَّلْوَقية ، وهم من اللَّهزة في صنْع أو عيبتهم وأكواخهم ، وهم ينفعون بالسَّنَط ، الذي يشتمل السودان منه على أحد عشر نوعًا كما يُرى ، انتفاع إخوانهم من سكان خطِّ الاستواء بالطلح ، ومن السَّنَط يَصْنَعون زوارق ودواليبَ ووَقُودًا وِدَباغًا وصمغًا وعلفًا .

وللرعاة الأولى تَرَى الجَمَل ، الذي هو حيوانُ الشَّهب والصحرَاء ، يأتي لِيَشْرَبَ على ضفاف النيل ، وتَرَى رجلًا معه يَدْنُو من النهر فيهيم عليه بأحسن مما يمكن أن يفعله أكثر الزوج تفكيرًا ، وتَقُومُ الأكواخُ المَكْمَنَة مقام الأكواخ المستديرة ، ولم تَلْبَثِ البيوت المَكْمَلَة أن تنمكس على النيل ، ويختفي الرجال المرأة الطليثون ، وتَقْصِلُ نسالة لابسَات ثيابًا مُلوَّنة ملابسهن في ماء النيل ، وتَجُوبُ العذراء شاطئ النهر راكبةً حمارًا مُحَجَّجَةً بِخِمَارٍ<sup>(٢)</sup> أزرق ، وتُبْصِرُ إِبْرَاهِيمَ ويسقوبُ بجانيها ، وتَسْطَعُ خيمةُ ييضاء تحت وهج الشمس وتُخْرُجُ منها رجلٌ ،

(١) السناج : أثر دخان السراج في الملاحظ مثلا — (٢) الخمار : ما تغطي به المرأة رأسها .

ولا يزيد لونه رَوْحًا عن لونٍ آخرٍ مَنْ لا قينام من الزوج ، ولكن مع لُبِّهِ  
برُئسًا ، وشاهد بجانبه غلامًا يسوق حصانًا أدهمَ ذا سنابكٍ بيضٍ .

وتتوارى إفريقية الحقيقية ، أو إفريقية الوحشية ، مع انتهاء فتاء النيل ، ويلوح  
فَجْرُ بلاد العرب في الأفق ، وتُظهِرُ نُوبِيَّةٌ مع كثيرِ زَيْنَانٍ ، وتَبْدُو ظَافِرَةٌ بوجودها  
الأنثى فيا تَقَدِّمُ من الحضارات وما تأخر ، وَيَبْزُرُ بقرُ الماء من خلال الأمواج ،  
ولكن على قِلَّةٍ ، وهناك حيث يستقي الحمارُ والفرسُ والجملُ من النهر ، وحيث  
تنتشر الأشُرعة<sup>(١)</sup> المثلثة تتقدم روح آسية المجاورة إلى النيل .

ويزيد النيل عرضًا مقداراً فقذاراً ، وتَلْمَحُ الأشُرعةُ البيضاءُ فوقه شيئًا فشيئًا ،  
وتُكَدِّسُ البراملُ والصناديق في المَحَطَّاتِ ، وتنتظر الباهرة أوفُ أكيس  
القطن ، وتُخْبِرُ عَوَامَةً لَمَاعَةً بَقَرُ النهر ، ويظهر جسرٌ من قَوَرِهِ بعد عطلة خفيفة ،  
ويظهر قطارٌ فوق الجسر ، وهذا هو أولُ جسر ، وهذا هو أولُ قطار ، وهما  
يُفْجِرَانِ النهر منذ منبعه الذي يَبْعُدُ ثلاثة آلاف كيلومتر من الجنوب في خطِّ  
الاستواء ، وهناك منازلٌ من ألواح حديدٍ مُقَصَّنةٍ وسُقُفٌ من حجرٍ وصَفَارَاتُ  
الشُرطة وطلقةُ التجل والزيت وعرقُ العامل وحركةُ تَدَكُّرنا بمرافق  
البحر المتوسط ، وهناك ، في كُوسْتِي ، يُنْفِي كلُّ شيءٍ بإمبراطورية استعمارية  
جديدة ، وذلك مع مشاهدتنا عَمُودَ المِثْدَنَةِ الأولى الأهيف الرائع بدلًا من بُرْج  
جَرَسِ الكنيسة .

وهنا ، وفي كُوسْتِي وبعد كُوسْتِي ، يَقَعُ فِرْدَوْسٌ جديدٌ للطيور .

وهنا ، في منتصف مجرى النهر ، تَرَى الجَنَّةَ الثانيةَ للطيور ، وأما الجَنَّةُ الأولى

(١) الأشُرعة : جمع الفراع .

ففي منبعه ، وأما الجنة الثالثة ففي مَصْبِهِ ، وهنا يختلط الغرباء من الطيور بأهل البلاد من الطيور أكثر مما في أية جهة أخرى ، وذلك لما تجده الطيور المهاجرة من الشمال من مسكنٍ شتويٍّ كبير بين الخرطوم وكوستي ، وترى فوق الأرض والماء ما لا يُحصى من ذوات الريش الأسود والأبيض ، وتَسْتَرُ ذَوَاتُ الْأَجْنَحَةِ الساكنة على مَدَى البصر الضفاف الخضر والأجرف<sup>(١)</sup> الصفرة وصغرى الجزر وصغرى الخُلُج<sup>(٢)</sup> ومخاوض النهر ومعاربه ، وتَمَلَأُ الْأَذَانُ والميرون بما يصدر عنها من أصوات الاستغاثة وخفيف الأجنحة ، ويَحُولُ صِفَاؤُ الطير عن كِبَارِهِ الْأَسْمَاعِ والأبصار كما تُحوِّلها الفرقة الكثيرة الأفراد بآلاتها ذوات الأوتار عن صوت الصفرة<sup>(٣)</sup> .

ولا يَفِدُ أولئك الضيوف جِئاعاً قارئين من الشمال ، ولو كان نزوحهم عن برزد وجوع لوجدوا الدفء والطعام فيما هو أدنى من هنا ، وما كانوا ليفادروا المكان الحار الذي يعيشون فيه ، ولم يَظَلُّ السُّنُونُ المِصرِيُّ ، الذي يَبْنِي وَكْرَهُ في يناير ، حيث هو على حين يَطِيرُ السُّنُونُ الشِّمَالِيُّ بعيداً وبيداً حتى خط الاستواء ؟ ومن البطء بمصر الدنيا أنواع تهاجر حتى بحيرة فيكتورية ، حتى خط الاستواء ، بالنسبة في طَيرَاتِهَا ما يَعدُّلُ سُدُسَ استدارة الكرة الأرضية ، ومن البَجَعِ<sup>(٤)</sup> أنواع ، كالصُفْرَدِ<sup>(٥)</sup> تَرَكُّضُ من الشمال ، وفي جميع الطريق ، على أرجلها ما لم يُكْرِهها البحر على الطيران ، وما الذي يَدْفَعُهَا إلى ترك غلب الزين<sup>(٦)</sup> والصَّوْبَرِ قاصدة

(١) الأجرف : جمع الجرف ، وهو الجانب الذي أسكله الماء من حاشية النهر — (٢) الخُلُج : جمع الخُلُج — (٣) الصفرة : النطاس الأسفر — (٤) البجع : طائر عريض المنقار طويله ، له حوصلة عظيمة تحت منقاره ، واحدة بحجة — (٥) الصفر : طائر كاللوى يضرب به التل في الجبن — (٦) الزين : شجر كانوا يملكون منه الرماح .

شجرَ السَّنط والطلّح ؟ وما هو السبب في هجرة الجميع وعدم رَحْمِهِ <sup>(١)</sup> ؟ إن الراحة مع الطعام هدَفُ أولئك ، وإن الحبَّ مع الزواج خاصٌّ بالشَّمال ، ويرى أولئك ، مع ذلك ، أن إخوانهم من طيور البلاد الأصليين يفتنون ويحتضنون ويُطعمون صفارهم .

وتثيرُ زيارة هؤلاء الأقاربِ الأبعدِ حَذراً كبيراً لدى الطيور التي تأتي إليها ألوفاً مؤلفةً كما يثيرُ زاورُ الأدميين فيما بينهم ، ولا يَخْتلط الصُّردُ <sup>(٢)</sup> المرتعشُ ريشُ رأسِهِ ، والصَّيْلُ الساطعُ ريشَهُ كالحِلْيِ ، والشَّخْرُورُ النهميُّ ، والخطَّاف الليليُّ ، بطيور البلد ، ولا تُهاجم طيورُ البلد تلك الطيورَ ، ولكن مع ابتعادها عن هؤلاء الدُّخلاء من أبناء عما ، ومن المحتمل أن يذهشَ الشاهين من صِفَر أخيه الصُّرَّ الثوبِيَّ ذى العُنُقِ الأحمر ، واستعْ ما هو أعظمُ من ذلك ، فسا في البلد من لَقَّتْ وتورِس <sup>(٣)</sup> وسُنُونُو يَخْلِي مكانَهُ مع الحذر لإخوانه الآتين من أوربة ذاهباً إلى الجنُوب ، حتى إن ذا العُرْفِ من الكَرَائِكِي لا يُسرُّ وقت الظريف بورود الكَرَائِكِي الرَّمَادِيَةِ اللون التي تأكل من الحبوب ما لا تَسْمَعُه أذنٌ بِحُجَّة نَسْلِ الريش ، حتى إن الفلاح يُفَضِّلُ عليها البازَ الذي يسير سيراً معقولاً فيقتنِى بالجراد .

وهكذا تعيش هذه المليارات من الطيور ، التي هي شعوبٌ حقيقيةٌ للقامات والقَوَات ، بلا كفاح على مجرى النبل الأوسط وعلى مَسَافَةِ ضيقة ضيقة نسيباً ، وتلك هي حالُ فِرْدَوْسِيَةِ لدى الحيوان ، ولدى الزَّيْجِيَّ جزئياً ، مفقودةٌ لدى الإنسان الأبيض ، ويذهب عن بال أنبياء حرب البطولة الذين يدعون طَوْعاً إلى التنازع في

(١) رخصت الدجاجة البيض : حصته — (٢) الصرد : طائر ضخم الرأس أبيض البطن أخضر الظهر يصطاد صفار الطير — (٣) التورس : طائر مائي في حجم الحمام أو أكبر يلو في الجو ثم يزرغ نفسه في الماء ، ولا يأكل غير السمك ، ويدعى أيضاً زمغ الماء .





ا — البردی



## الكرائي الرمادية

سبيل البقاء ضمن الطبيعة أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يحارب جنسه لخاصة على مقياس واسع ، وهناك يمكنهم أن يروا ما يسود تلك الأم المحلية والتأزيم من اتفاق ومن بقاء اغتداء بعضها بجانب بعض

والبحر مُسَلِّ ، فهو يصطاد ويأكل ويهضم مشتركاً ، والناظر يُظنُّ أنه يرى سوراً أحرَّ أصفر من حجارة مدقوقة دقاً غريباً ، وهذه هي أصول بحجر شبه نائم شبه جامد مُلتَوِي العُنُق ، ثم يتجلى لك بها حال أساتذة شيب بدن<sup>(١)</sup> يأخذون في الرحيل متايلين ، فطوراً يبدون فلاسفة صامتين ، وطوراً يبدون مجادلين صاخين ، ويرفع البجع أكفَّه الكبيرة التي لها لون اللحم فيقترب من مكان يكون عمق الماء فيه قليلاً ليُدخِر كئائب من السمك في حوصلة العظيمة تحت منقاره ، شأن الأولاد الذين يجمعون ثوباً في جيوبهم فيأتون به إلى بيوتهم .

وينصب الطوال<sup>(٢)</sup> على أرجله وقوراً في وسط النهر على رمل الجوزيرات الذهبية أو على كلال الصفاف ، وإنه كذلك إذ يتحرك تبعاً للإشارة لم نشعر بها ، وهناك تحدث صجة فيرتفع كسحاب ذا صوت لطيف ، فتتألف خطوط مائلة ميلاً خفيفاً وتغيب داخل الأرض ، وينسلل خفية فوق رؤوس السنت وفوق ذرا القصب اليابسة ويمود كما ذهب ويدور على محالَّه المفضلة ويهبط ، والآن يظهر منتصباً على أرجله مُجدِّداً ساكناً كتماثيل من برونز .

وقصِّل الكراكي الرمادية من الشمال ذات رؤوس صغيرة متعاطمة ومنافرة قوية قمالة ، ويستتر ريش أسمر لامع حذبة ظهرها للنسجة ليصل إلى ذنبي أشد اغبراراً ، وتنزل بانتران وتكتفها أجنحتها الواسعة ، وتظهر القتالي بجانب

(١) البعن : جمع البادن - (٢) الطوال : طير مفرط الطول .

الكَرَّاءِيَّ حَصْرَيْنِ صَفَاراً سُوداً وَبَيْضاً ، وَهِيَ جَلِيلَةٌ فِي طَيَرَانِهَا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ  
بَاهِرَةً الْجَمَالِ ، وَيَبْدُو أَبُو مِلْمَقَةٍ مِنْهُمْ كَأَنَّ الْقُرْبَ مِنَ الْمَاءِ قِيَمَتْ بَيْنَهُ زَمَارُ الرَّمْلِ  
وَالْمُطَوَّقُ عَنْ مَرَحٍ ، وَيَطِيرُ أَسْرَابًا فَوْقَ النَّهْرِ مَعَ انْحِرَافٍ عَجِيبٍ لَا يُعَدُّهُ أَبَدًا ،  
وَيَقَالُ إِنَّهُ يَأْتِي مِنْ بَرْصِيَّةٍ ، وَتَرَى عَلَى حِجَارِهِ أَمَامَ الْكُثْبَانِ ذُعْرَةً رَاضَةً  
تَشْرَبُ عَلَى جَرَعَاتٍ صَغِيرَةٍ فَيَسْتَجِيعُ أَمَامَهَا إِيَّاهُ النَّيْلُ ثَقِيلاً غَيْرَ ظَرِيفٍ كَالْمُرَبِّيَّاتِ  
الشَّابَّاتِ اللَّائِي يَقْضِيْنَ الطَّالِبَاتِ مِنَ الْقَتِيَّاتِ .

وَيَسْتَمِرُّ الْإِيْسُ الْمَقْدِسُ عَلَى الدَّوْرِ فَوْقَ النَّهْرِ نَاشِراً جَنَاحَيْهِ نَشْراً ظَرِيفاً مَاذَا  
عُنُقُهُ مَصُوباً مِمَّنَّارَهُ الْأَحْجَنَ<sup>(١)</sup> إِلَى السَّمَاءِ ، وَتُبْنِصِرُ لِذَجَاجِ الْمَاءِ وَلِلْبَطِّ مِنْ كُلِّ  
لَوْنٍ وَنَوْعٍ غَابِئٍ بَيْنَ الْأَسَلِ<sup>(٢)</sup> عَلَى الصَّفَافِ ، وَتَسْتَجِيعُ هَذِهِ الطَّيُورُ هَادِئَةً بَيْنَ  
ذَوِي الرِّجَالِ مِنْ أَسْرَتِهَا ، وَيَطِيرُ الْخَطَّافُ الَّذِي لَا يَكِلُ فَوْقَ الْمَاءِ وَالْحَقُولُ طُولَ  
النَّهَارِ مَرْتَعاً بِسَهولَةٍ فِي السَّمَاءِ الزَّرْقَا ، الْقَيْرُوزِيَّةِ حَيْثُ الْبَاشِقُ يُرْتَقِبُ سَاكِنًا إِلَى  
أَنْ يَنْقَضَ كَالْقَضِيبِ عَلَى فَرِيستِهِ ، وَتَمُرُّ صَقُورٌ صَفَارٌ كَالشَّهَامِ الْفَضِيَّةِ فَوْقَ  
طَلَقَاتِ السَّنَطِ عَلَى حِينِ تَصْعَدُ قَرَقَرَةً الْقَمَرِ الْبَرِّيَّةِ مِنْ بَيْنِ الْفَيَاضِ الَّتِي تَحِيطُ بِهَا .  
وَيُكْرَدِحُ<sup>(٣)</sup> الشُّفْقَابُ وَالنَّبَّاحُ ، وَهَمَا ذَوَا صَوْتٍ مُسَلٍّ ، عَلَى الْأَكْثَبَةِ الضَّئِيفَةِ  
حَيْثُ لَا مَكَانَ لِكِبَارِ الطَّيْرِ ، وَيَخْرُجُ الْمُتْدُهُدُ مِنْ دَغَلٍ<sup>(٤)</sup> وَيَقِفُ عَلَى  
الْأَرْضِ وَيَسْطُرُ عُرْفَهُ الدَّقِيقَ وَيَنْشُرُ ذَنَبَهُ وَيَعْرِضُ هَيْفَهُ ، ثُمَّ يَطِيرُ لِبَضْعِ نَوَانٍ  
وَهَذَا لِلنَّظَرِ فِي مَكَانٍ آخَرَ .

(١) الْأَحْجَنُ : الْأَعْوَجُ — (٢) الْأَسَلُ : نَبَاتٌ دَقِيقُ الْأَغْصَانِ طَوِيلُهُمَا — (٣) كَرَدَحٍ :

عَدَا عَدُوِّ الْقَصْرِ — (٤) الدَّغَلُ : الْفَجَرُ الْكَثِيرُ لِلْخَفِّ .

يظهر الإله الجديد من بين الأفواس المَعرِيَّة ويَدْنُو من النيل والعابد في طريقه إلى الشرق وقبل عبوره النهر يَرْكَع على العُشْب الأخضر لابساً ثوباً أبيض وعِمَامَةً بيضاء ، ثم يَفْسِل رجليه في النيل ، قَبِيْدُو وحيداً أمام هذا المنظر الصحراويّ الأصفر والأزرق الذي يُبْمِزُ بوضوح في الهواء الشَّفاف الصافي ، وتُخَمِّمُ زُمر من الناس على ضِفَّة النهر العالية . وبين الكُشْبان والتلال ترعى الوَسْمَة <sup>(١)</sup> الخضراء قِطَاعٌ من اللَّمَز الأبيض والأسود بقيادة بضعة رُعَاةٍ لابسين جلابيب بيضاء ، وفي النهر تستقي مِثاتُ الإبل من الماء حتى الرُّكَب ، وتنتظر نَوْبَهَا جِمالٌ أخرى بحراسة رُعيانٍ رُكبان خافضة رؤوسها غير مُتَمَجِّلة حائرة على النمط الشرقى ، وتشرَّب بجانبها أفراسُ حَرَسِها من ذلك الماء الأصفر ، والماء هو هو على الدوام ، وضيوْفُه هم الذين تَمَيَّرُوا ، والخبيلُ والإبلُ هما آية مجرى النيل الأوسط ، وهنا يُلَوِّح كلُّ شَيْءٍ مطمئنئاً هادئ البال ، وفي النهر ترتفع الجزُر المستورة بغابات كثيفة كالأهات ساكنة فتزيد ما توجي به الحياة الواسعة المُتَرَبِّة الشَّريفة .

ولا يزال الماء يَجْرُفُ أكْداساً من البرْدِيّ ، وتَبْدُو أكْداساً البَرْدِيّ هذه كجُرُ عائمة وكآخر شهودٍ على اعتراك النافع وكأسارى حربٍ كبيرة يعودون إلى عالمٍ تَسُوْدُه سَلَمٌ فلا يستطيعون أن يَجِدُوا لأنفسهم نافذةً يَلَامُونَه بها ، ولا تَقْدِر تلك الأكْداس على معرفة نهر مُضْطَهْد كانت عالمةً به ، أو على تَبَيُّن نهر يسير الآن جليلاً بين حقول القُرَّة القريية من أهرام الحَبِّ للركوم والتي يَفْصِلُ الماء

(١) الوسمة : ورق القيل ، أو بات يختضب بورقه ، ويقال هو النظم .

يلوح كل شيء سعيًا

الصابى بين تَلَمَّها<sup>(١)</sup> الأخضر والشَّهْبِ ذى الرمل الأصفر .

ويُظْهَرُ كلُّ شيءٍ من شجرٍ ودارٍ وإنسانٍ وحيوانٍ منفصلاً بَعْضُهُ عن بعضٍ في الثَّوَرِ الباهر ، ويُظْهَرُ كلُّ شيءٍ بذلك رَمْزاً أو فِكْرةً أو صورةً عن جميع الأشجار والمنازل وعن جميع العُباد والإبل في عالم الضياء والرمل ذلك ، وهنا يسير كلُّ شيءٍ على رِسلِهِ<sup>(٢)</sup> ، والسفنُ الشَّراعية وحدها هى التى تُسْرِعُ بفعل الرياح ، ولا مناصَ للرجل المديِر لَدَفْها من أن يكونَ شديدَ اليَقْظة اجتناباً للضاحض الكثیرة المتقلِّة فى النيل ، والشاطئُ أَقلُّ حرارةً مما يُنْتَظَرُ ، فنِ خواصُ انحدارِ الماء على شكلٍ سَماطٍ أن يُرْطَبَ ریح بلاد العرب المُحرَّقة .

وفى حياة الأحلام هذه ، وفى رواية الناس والطيور هذه ، يَلُوحُ كلُّ شيءٍ سعيًا خلا خالقِ هذه الحياة ، خلا النيلَ ، والنيلُ مغمومٌ ، والنيلُ يُشْعِرُ بأن قوَّةَ تَقِيَّهِ ، والنيلُ لا يَفْرِفُ أيةَ قدرَةٍ خفيةٍ تقائله ، وكلما امتدت مياه النيل صيفاً قَدَسَ له أهله ، فإذا حَلَّ فصلُ الخريف وتقلَّص النيل أتى أولئك السكان حُبوبهم وحَصَدُوا ما زَرَعُوهُ بعد ثلاثة أشهر ، ويَجْهَلُ النهر ذلك ، وكلُّ ما يَفْرِقه هو أن نظامَ جَرِيَّتِهِ يَقْضِى عليه بأن يداوم على النزول ، وهو ، مع ضَعْفِ انحداره ، يحاول أن يَتَغَلَّبَ على القوَّة التى تقاومه ، بَيِّدَ أنه يَنْسَعُ بنسبةٍ تقدِّمه ، فيَتَحَوَّلُ البلد إلى بحرٍ صغير ، لا إلى غدير ، وتنصب على بُعْدٍ جُدُرٌ وأبراجٌ أعلى وأوسعُ من جميع مالا فاه حتى الآن ، وهو يَدُنُّ من مدينَةٍ ، وهو يَنتَظِرُ لِيَرْزَى أموراً أخرى .

وتَزِيدُ المساومةُ ، وَيَنْقُصُ ضَغْطُهُ الخاصُّ مقداراً فقذاراً وتَظْمُ الأبراجُ

(١) التلم : ما يهتفه محراث الفلاح من الأرض — (٢) سار على رسله : متى على ماله .

والصَّروُح<sup>(١)</sup> ، ويزيد عدد الرجال والجمال والأحمال والزُّبُن ، ويسُفَّر النيل بهدير لا ينفكُّ يكبُر ، وهذا هو أشدُّ من كلِّ ما سمِعَه ، وهذا هو صوت نهر يساويه .

ويجاوز النيلَ جِسْرٌ ذو سبعة أعمدة مضاعفة مَفْرُوزة في مجراه فتَهْتَرُ هُنا خفيفاً إذا ما طعقت عَرَبَاتُ القِطار فوقه ، ولا تزال تُرَى أمواجٌ قليلة ، ثم يَهْجُم على النيل من ناحية اليمين نهرٌ يَعْدِلُهُ عَرْضاً ويفوقه صَوْلَةً ، وذلك النهر المسمى القائم الباسل المَزِيد هو الذى كان يَفِّق جَرِيَّةً منذ زمن !

وينطلق النهر الغرب من تحت جسرٍ طويل عالٍ كالنيل له ، ويَضْطُ النيل الأبيض الرخيص في مَضِيقٍ ضَيِّقٍ على صِفَتِهِ الغربية وينقُصُ على جزيرة دائمة الخُضرة ذاتِ حَيف ، ثم يَقْدِف الآخرَ أمام لسانها الغالى<sup>(٢)</sup> بأواجه الهائلة ، وما كانت مياهُ أحدهما لَتُتَرَجَّ<sup>(٣)</sup> في مياه الآخر بعد ، فالجَرِيُّ السريع القائم يُهَيِّئ على النيل حيناً من الزمن ، وما كان ذلك رافداً عادياً ينتهى أمره في مَصْبِهِ ، بل هو قِرْنٌ<sup>(٤)</sup> يعامل النيلَ معاملةَ النظير للنظير عن زهوٍ وغريزةٍ لى يوجب العالمَ معه جَوْاباً مشتركاً ، وهو يأتيه بذِكْرِيَّاتِ جبالِ شِبابه الذى لا يزال خافياً والذى سيغدو مؤلداً للحياة عما قليل .

وهكذا يلتقى النيلُ الأبيض والنيلُ الأزرق تحت نَخِيلِ الخُرطوم ، وهكذا يُوجِدانَ يَناقهما الأَخَوَى مكاناً من أروعِ بقاع الدنيا ، ويسُفِّر اتحادُ مقاديرهما عن وجودٍ مصيرٍ مصر .

(١) الصروح : جمع الصرح ، وهو البناء العالي — (٢) الغالى : نية إلى الغاية .

(٣) مرجه : خلطه — (٤) القرن : النظير .





## الجزء الثاني أوحشُ الأَجْوِينْ

« بَيِّدْ أَنْ الْوَادِيَّ الْوَارِقَ<sup>(١)</sup> لَا يَقْفُهُ ، بَلْ  
يَقْذِفُ السَّهْلَ بِمَجْرَاهِ الْمُلْتَوِي ، وَتَقْصُمُ الْجِدَاوُلُ  
أَمْوَاجَهَا إِلَى أَمْوَاجِهِ ، وَيَقْتَرُ بِفَلَاحِهِ<sup>(٢)</sup> الْفِضْيَةُ  
فَيَدْخُلُ السَّهْلَ ، وَيَقْتَرُ السَّهْلُ بِهِ وَتُحْيِيهِ أَنْهَارُ  
الرَّيْفِ وَجِدَاوُلُ الْجِبَالِ فَرِحَةً وَتَهْتِفُ قَائِلَةً :  
أَخِي ! أَخِي ! خُذْ إِخْوَتَكَ مَعَكَ وَأَتِ بِهِمْ جَمِيعاً  
أَبَاكَ الشَّائِبَ : الْحَيْطُ الْخَالِدُ »  
« غَوْتُهُ »

---

(١) الْوَارِقُ : الْكَثِيرُ الْوَرَقِ الْأَخْضَرِ الْحَسَنُ — (٢) الْفَلَاحُ : جَمْعُ الْفَلَاحِ ، وَهُوَ مِنَ الْتَهْرِ  
مَوْجُهُ الْمُسْتَدِيرُ الْمُرْتَدِدُ .





٩ — دهاب إلى الميد



الرياحُ سَبَبُهُ ! ومن أين يأتي المطر لولا وجودُ الرياح الموسمية ولولا وُصولُها في الوقت المناسب وفي الاتجاه الرُّتَقَب ؟ والنيلُ الأزرق وليدُ المطر والجبل ، وما مَصْدَرُ معجزة هذا النيل الثاني إلا تنازعُ العناصر والبراكين وما عليها من سحب مزدحم ، ولولا جبالُ الحَبَشَةِ الشَّوَاهِقُ ، ولولم تكن هذه الشَّوَاهِقُ براكينَ تتعلم عليها الرياح ونصبُ عليها سيول الماء ، ما تَكُونُ هذا النهر مُنْسابًا كالحية نحو السهل ، آخذًا من الحواجز الصخرية أجزاء معدنية تؤدي إلى إحياء الصحراء بعد ألف ميل . وتتحول تلك الأجزاء إلى غُرَيَيْنِ ، والغُرَيْنِ إلى واحةٍ ، ومصرُ ، حين تَنُتُّ من الجَدَبِ البعيد التدعى في المكان والبعيد الأمد في الزمان ، تراها مَدِينَةً في رَكِيائِها للبراكين والسَّحْبِ والأمطار والرياح ، وإذا أن عمل العناصر ذلك يتجدد بانتظام في غضون القرون وتحت أعين الناس في كلِّ عامٍ فقد أسفر تناسقُ القَدِّ والجَزَرِ هذا عن معرفة الشهور ومنازل القمر للمرة الأولى وعن أول دراسةٍ للشمس والسيَّارات وعن أول تنظيمٍ وأول حقٍّ ، والقلاخُ ، كافي كلِّ بلدٍ آخرَ ، يَرْتَقِبُ المطرَ ، وكان رجال الصحراء أولئك ينتظرون واقفين في مجرى النهر ورُودَ الفيضان الحَبِيشِ الذي لولاد لَهْلَكُوا ، ولا يزالون يصنعون ذلك حتى الزمنِ الراهن .

ومن أين تأتي تلك الرياح ؟ يجب أن تصادم هي ورياحُ أخرى ، وأن تُدْعِنَ لها جَنَابًا للمطر ، والمقاومة وحدها هي التي تَجْعَلُها ملائمةً ، وفي الشتاء تأتي رياح الشمال الشرقي الموسمية بالمطر من آسية إلى البحر الأحمر ما دامت الريحُ الشمالية تهبُ ،

من أين تأتي الرياح ؟

ولكن مع جفافها تقريباً حين بلوغها الهضاب العالية في الحبشة ، وفي الربيع ، حينما تهبُّ الرياح الجنوبية الغربية من جنوب الأطلنطي وفوق إفريقية ، تُضيف إلى ندوة البحر جميع رطوبة الغابة البكر في خط الاستواء ، وهكذا تجوب السودان مثقلة حتى تُلطِّم الجبال التي تنصب أمامها وتفرغ ما يحمله البخار من ماء منقول في ألوف الكيلومترات عند مس تلك الجُدُر الوعرة ، ويقول الفلاح الحبشي إن المطر يأتي عند ما تهبُّ الرياح من لقاء الصحراء ، ومثل هذا ما يقوله مهندسو دلتا النيل الذين يستندون في حساباتهم إلى تلك الرياح .

وهكذا تؤدي رياح إفريقية إلى وجود النهر الإفريقي في المكان الذي ينم فيه على التراب بالإخصاب ، ولا تتخلَّى هذه الرياح في غير الخريف عن موضعها لأخواتها القدومات ، أي لرياح الشمال الجافة المرسلة من الهند ، وتؤثر كل من الرياح والجبال في الأخرى ، ويوجب ارتفاع هذه الجبال ووعورها امتداداً فصل الأمطار وإن ساعدت الرياح على شكل دُرّ الجبال الغربية ، ويُقلِّب المطر المواسم رأساً على عقب حين ينظّمها ، أي إنه يتفق للهضاب الوسطى العالية ، التي يتراوح ارتفاعها بين ألفي متر وثلاثة آلاف متر ، شتاءً كرواً<sup>(١)</sup> من غير أن يكون بارداً أبداً ، وذلك لعدم مثل أشعة الشمس كثيراً في الدرجة الثانية عشرة من العرض ، ولأن المطر يُلطِّف حرارة الصيف من ناحية أخرى فتوازن أحوال الجو التي لا يزيد اختلافها على سبع درجات في السنة .

وتفرح القلاح المصري بنتائج ذلك المطر في شهر أكتوبر ، ويفرح بها الفلاح الحبشي قبل ذلك بقليل وقت ، ويكتسب ذلك المطر شكلاً هائلاً للحبشي مع

---

(١) الكز : النفض اليابس

ذلك ، فقتُسر الأُصاير التي يَكْثُر وقوعها هنالك بأشدَّ مما في أى مكان آخر ، ويُسرِ المطر الجارف والبرَد اللذان يأتیان ويتواريان بفتة ككل شيء في ذلك البلد العجيب ، عن هلاك كثير من الإنسان والحيوان والمساكن ، وتقتل الصواقي مئات من الآدميين في كل عام ، وبلغ ما ناز من العواصف في سنة واحدة أربعمئة ، ولما يَخْصُ زمنٌ طويل على أمر النجاشي بإقامة الصَّلوات العامة بسبب كثرة الأشخاص الذين قُصَّت عليهم الصواقي .

ويصل المطر في الوقت المعين دوماً ، وتسبق المطر هَمَراتٌ<sup>(١)</sup> خفيفة ، ويبلغ المطر أقصى قُوته في وَسَط شهر يونيه كما تدلُّ عليه سجلات المصريين منذ أوف السنين ، ولكن مع كبير اختلاف بين مقادير ما يَنزِل منه في كل سنة .

والجبال ، وهي عنصر التذكير في هذا الاقتران ، تَقِفُ رواسخ ، ومن المحتمل أنها لم تتغير في ملايين السنين القليلة الأخيرة ، والبحر والغابة البكر ، وهما عنصرا التأنيث في هذا الاقتران ، وهما أقل ما يَعْرِف عنه الإنسان في السكرة الأرضية ، يُحْمَلان الرياح كثير رطوبة أو قليل ندوة ، وما أكثر الشعوب المصرية ، وما أكثر أجيال المصريين ، التي دَرَسَتْ هذه المسئلة الحيوية من غير أن يمكن البَصْرُ بمقدار ارتفاع الفيضان في العام القادم ، وكان أحد الفيضانات ضعفي ما للآخر في أربع سنوات متوالية ، أى بين سنة ١٩٠٤ وسنة ١٩٠٨ .

والنيل الفائض في مَسَيط رأسه ليس مُنْقَذاً كالتيل الفائض في مصر ، والنيل والمطر في الحبشة الهان هالجان ، ويخرج من منطقة بحيرة طانة ، حيث ينال النيل منبعاً له ، رافدان مُهِمَّان من روافده كما يَخْرُج منها عددٌ من سواعده الصغيرة ،

(١) الهمة : الفتحة من المطر .

والمطربة وحدها هي التي تجري نحو الشمال ، وتظل جميع المجارى النهرية تلك جافةً بفض الجفاف في فصل الشتاء ، وتكون الروافد رملية في الغالب ، وتكون العطربة مرملةً على الدوام ، وتُفرض البدأة على شعوب ذلك البلد إذن ، وتُفنى هذه الشعوب أشهر الجفاف التسعة بالقرب من الأمكنة المشتعلة على ماء قليل والتي يمكن الإنسان والحيوان أن يعيشا فيها ، وتكثر إحاطة الأجام بالأنهار والضفاف المغمورة الدنيا ، ويجري النيل الأزرق والعطربة في مضائق عميقة ، ولها لا يفيضان تقريباً ، ولها يفصلان عن الشب أو الصحراء بطراند<sup>(١)</sup> ضيقة ، وينبت السنت على شفير<sup>(٢)</sup> الجداول الأقل مياهاً كما تنبت النخل ، وماتحت الأرض من مياه في إفريقية فدين في الغالب للأنهار بوجوده ، وتحد هذه المياه كثيراً من الآبار .

ويُفضل أهل البدو من العرب أن ينصبوا خيامهم في الدوات<sup>(٣)</sup> المرتفعة ، ولا سيما القريبة من المجارى حيث تكون الينابيع أكثر مما في الصحراء التي يأتون منها ، وهم يحلون مع نسائهم وأولادهم وجالهم ومعرهم ، وهم يقتطفون ثمر الدوم<sup>(٤)</sup> ويستخرجون منه طعناً علكاً . يخلطونه باللبن ويصنعون منه أقراصاً ، وهم يختبطون سنوف<sup>(٥)</sup> السنت فيكون لأنفسهم بها طعام زيتي على حين يكتفى الجل بالفروع الشائكة اليابسة ، وهم يرتقون ، أخيراً ، خيامهم المصنوعة من أوراق النخل ، وهم ينقصون بليف النخل في صنع خضرهم وجالهم ، ولم يترك الماء

(١) الطراند : جمع الطريدة ، وهي شقة مستطيلة من الحرير أو الأرض أو سواها .

(٢) الشفير : من الوادي ناحيته من أعلاه (٣) الدوات : جمع الدوة ، وهي شاطئ .

الوادي وجانبه — (٤) الدوم : شجر يشبه النخل — (٥) السنوف : جمع السنف ، وهو قعر النبات .



الموجودة هنالك عنصر أساسي في حياتهم .

والتماسيح في هذه المناطق <sup>(١)</sup> تنسى الجفاف ، فتقضي الشتاء نائمة ، وتشرب الألواف من القمير والقطا ، غير خائفة ، من الجدوال التي تنام التماسيح فيها ، حتى إن الفيلان التي هي أكثر الحيوانات نفورا ترد قبل طلوع الشمس وقبل غروبها بساعة واحدة ذلك المورد الهزيل الذي يتركه النيل وراءه .

والأحفار <sup>(٢)</sup> مصدر الأخطار لما يجتذبه من الضواري فضلا عن الإنسان والواشي ، والعربي يصدّر <sup>(٣)</sup> أنعامه عن الأحفار وقت النسق <sup>(٤)</sup> تخليا المسكان للأسود والأغار ، والقردوح <sup>(٥)</sup> وحده ، وهو الذي يجب أن يكون أكثر حذرا من سواه ، هو الذي يكون من الفيلة أحيانا ما يمسكه به الإنسان ، وذلك أنه يسكر ببقايا جثة الذرة التي تترك هنالك ، فيفقدو غير قادر على الفرار ، ولكن ليس هذا الرفاح <sup>(٦)</sup> من شبه البشر ؟

وفما تكون السماء زرقاء صافية إذ يُسمع من بعيد قصيف رعد ، فيدوي من كل ناحية صوت قاتل : « البحر ! » ، وهنالك ينطلق ألواف الرجال والنساء المخيمين في الوادي حاملين خيامهم ومتاعهم لاثنيين بالفرار .

وأولئك الأعراب الكسائي الجبريون ، وإن كانوا يحبون الزمن تبعا للقمر والنجوم ، يباغتون في كل عام بانحدار النهر من الجبل الشاهق في وسط شهر يونيو ، وفي بضع دقائق يتحول الهدير إلى زفير يُعد إشارة مرجوة مرهوبة ، وفي مصر ، وعلى بعد ألواف الكيلومترات من المجرى التحتاني ، يطلع المهندس برقيا ، وبين

(١) المفايس : جمع النفيض ، وهو مجتمع الماء في الأرض — (٢) الأحفار : جمع الحفر ، وهو البئر الموسعة — (٣) أصدره عن الماء : أرسجه عنه — (٤) النسق : ظلمة أول الليل .  
(٥) القردوح : القرد الضخم — (٦) الرفاح : القرد الذكور ، ويجمع على راييح .

ساعة وساعة ، على تَقَدُّم الفيضان وارتفاع الماء وعلى ما يحتويه من غِرَين ، وذلك مع عدم وجود راكبٍ جليلٍ مَهْرِيٍّ<sup>(١)</sup> يُخَيِّرُ ساكني الوادي أولئك عما يقع بعد دقيقة ، وهَزِيمُ الرعد وحده هو الذي يُنبئهم بذلك .

والبحرُ ناثِر ! والبحرُ سُورٌ سائرٌ يَبْلُغُ من الاتساع خَمْسَمِئَةِ متر ، والبحرُ يَدْحِرُ أمواجاً مُهْمَرًا وَيَجْخَفُ<sup>(٢)</sup> أشجاراً وَيَجْرُفُ خَيْرُانًا وَيَجْلِبُ غَرِينًا .

وإذا ما واصلَ النهرُ بَنَةً بُعِثَتِ الحياة على الضفاف من قَوَرِها ، والتَّيْتُ هناك ، وتَنَمُّو البراعمُ<sup>(٣)</sup> وتنبسط الأوراق ، وُبوؤدى فتاء النيل إلى ظهور بلد مُخَضَّرٍ كان يلوح هلاك كل شيءٍ عَطَشًا فيه ، ولم تَكْذُ بضعة أيامٍ تَمُضِي على الوقت الذي كانت الطيور تَبْلُ فيه حُلُوقَهَا في منافعٍ قَئِيرةٍ حتى صِرَتْ تُبْصِرُ الإوزَ البَرِّيَّ يَرْزَعُ<sup>(٤)</sup> ويلعب ويتزاوج ويبني أو كاره هنا ، وجميعُ الحيوانات تَشْرَبُ وتَمُشِي في الطين وتُفَوِّجُ<sup>(٥)</sup> عن نفسها ، وَيَضْحُكُ التماسح وَيَظُنُّ أن كابوساً كان جائعاً عليه .

وترى في المِصْابِ العليا أُلُوفَ الناس ينادرون منازلهم ويُقَصِّدون الجبال فِرَاراً من ذلك الطوفان ، وَيَقِفُ كلُّ جَوَلَانٍ في موسم الأمطار ، ولا يستطيع أحدٌ جَوْبَ السيول والأنهار ، حتى إن الفقير الذي يذهب إلى القرية المجاورة يكون لديه مِعْطَفٌ من البَرْدِيِّ يَلْبَأُ إليه كما يَلْبَأُ إلى خِيمةٍ عند حدوث طوفانٍ جديد ، ويتعذر عبورُ الأودية ، وتَكُونُ الخِيُولُ العارية من الشُرُوجِ في الأكواخ بجانب أصحابها الذين ينتظرون صابرين ، فَرِحِينَ أحياناً ، نهايةَ المطر عارفين عدم دوامه زمناً طويلاً .

(١) Méhariste ، الجبل المَهْرِي هو المنسوب إلى المهرة بن حيدان من عرب اليمن ، وقالوا إنه كان لا يعمل به شيء في سرعة جرياته — (٢) جفطه : جرفته — (٣) البراعم : جميع البرعم : وهو زهر النبات قبل أن يفتح — (٤) رزع في المكان : أظلم وتمم وأكل فيه وشرب ما شاء في خصب وسعة ووجد — (٥) فوج عن همة : برد .

والأعرابُ وحدهم لا يستطيعون أن يَتَرَقَّوْا ، فإذا ما عادت إلى البَطْحاء خَضَرَتْهَا تَحَوَّلَتْ إلى غديرٍ وارتفعَ سحابٌ من الهَوَامِّ وَغَدَتْ القِطَاعُ في حَظَرٍ ، والجلُّ الذي هو أوفى رفيقٍ للإنسان يَتَعَثَّرُ أيضاً ، وذلك عندما لا ينتظر سائقه أن يُخَفِّفَ شمسُ الصباح وجهَ الأرض بعضَ الشيء ، وتَرَى الإنسانَ والحيوانَ يُولِّيَانِ وجوههما شَطْرَ البِقَاعِ العاليةِ ، والنيلُ يُسِيرُ أهلَ البدْوِ ، ويَهْطِلُ جميعَ مطرِ العام في ثلاثة أشهر تقريباً وَيُسْفِرُ عن القِيَصَانِ .

ويأخذُ الناسُ في النزولِ بعد أن يَبْدَأَ الماءُ بالانخفاض ، ويُعَدُّ سبتمبرُ شهرَ بركةٍ ، ففيه تُنْبِضُ جميعُ البلادِ مُخْضَرًا ، وتصبحُ الجيوبُ التي بُذِرَتْ بالبُودِ في ترابٍ ناعم ذي غرينٍ صالحةٍ للحَصَادِ في بضعةِ أسابيع .

وفي حَوْضِ النيلِ الأزرقِ ذي الانحداراتِ القوية تَتَعَدُّ القِيَصَانَاتُ القوية المشابهة لقيصانات النيل الأبيض ، فقد نَحَتَ المطرُ أخاديدَ عميقةً في الصخور البركانية ، ومن هذه الخنادق الضيقة تجرى سيولٌ نحو الغرب ، نحو النيل ، وترى داخلَ الهَضْبَةِ العليا مَتَمَرِّقًا بِأَسْرِهِ ، والنهرُ ، في مجراه التختاني ، وحينما يَبْلُغُ الحِجَارَةَ الرملية ، يَشُقُّ هذه الحِجَارَةَ شَقًّا خَفِيفًا ويلقي الصخورَ الأَبْكَارَ ، وهناك ، حيث خَدَّ<sup>(١)</sup> مجراه عمودياً في الأراضي البركانية كما خَدَّهُ على الهَضْبَةِ ، يَنْفِصِلُ جِوَامِدَ فيخلطها بترابِ صالحٍ للنبات في أثناء جَرَّيَانِهِ ، وهكذا يتألف الغرينُ من مجموعةٍ مُنَحَلَّةٍ الأجزاء من القِلْسَبَارِ<sup>(٢)</sup> وَالْمَيْسَكَا<sup>(٣)</sup> والرَّخَامِ السَّلَوْنِ والترابِ الكِلْسَنِيِّ والحديدِيِّ متجولةٍ بين عامٍ وعامٍ مختلفةٍ في النيلِ .الأزرقِ عما في التَّطْبَرَةِ ،

(١) خد الأرض : شقها — (٢) القِلْسَبَارُ : نوع من الصوان الخليل — (٣) الميسكا : معدن شفاف يشغلي إذا دق .

وهذا ما یَجْعَلُنَا نفترض وجودَ أنواعٍ كثيرةٍ من الرواسب والمتحولات في قوة النهر .

والإنسان له عملٌ في تلك القیضانات أيضاً ، وما لا ریبَ فیهِ أن ماءً قليلاً وغریباً ضئیلاً كانا یَنزِلان من الجبل في أزمنةٍ ما قبل التاريخ حينما كان البلد بأجمعه مستوراً بالغابِ ، وما یُرجَحُ أن كان النيل الأزرق لا یَصُبُّ في النيل الأبيض في الدور الذي كان یَسْتُرُ فیهِ خلیجٌ من البحر المتوسط صحراء مصر ، وما لا یراءُ فیهِ أن حرقَ الإنسانُ ، قديماً ، سُهباً وغاباً لینال لقطاعه كلاً غُصّاً ، والإنسانُ ، إذن ، قد أباد آجاً كما في الوقت الحاضر فجعل الحقلَ مِنطقةً حرّةً للأمطار والأنهار التي تأتي بالتراب الصالح للنبات ، والآن تنتصب الجلامیدُ السودُ الجُرْدُ نحو السماء ، ومن هذه الجنادل<sup>(١)</sup> یَفْصِلُ الهواء والماء ملايين الأجزاء التي یُتَلفُ الفِرینُ السنوی السخی منها .

وهكذا جعلت الأحوالُ الفريدة من الحَبْشَة « سَفْ إفریقیة الشرقیة » التي یَبْلُغُ من الُلو ما یُدُّ معه السهلُ المرتفعُ ١٨٠٠ متر من الأراضي المنخفضة ، وقُولِکِن<sup>(٢)</sup> هو فاعلُ ذلك ، ولا یشتمل بلدٌ على براکین هامدةٍ مثل اشتال الحَبْشَة ، وتُبْدی بقایا الأزمنة الأولى هذه للسماء أشکالها الغریبة والطریفة دوماً ، والیوم لا تزال المخروطاتُ الرَمادیة والحجارةُ البرکانیة والینابیعُ الحارة والأبحرَةُ الکبریة شاهدة على ارتجافات الأرض ، ویُمْکِنُ الحَبْشَة في ملايين السنين القادمة أن تَمُنَّ بالمواد الأولية التي یَجْرُها النيل ومَحْطُها فتتحولُ إلى ترابٍ جدید .

(١) الجنادل : جمع الجندل ، وهو الصخر العظيم — (٢) فولکن : إله النار والمعدن لدى الرومان ، وهو ابن بلویتير وجونون وزوج لیتوس .

ورِيَّاحُ الْحَبَشَةِ وَأَمطارُها وجبالُها تُحَدِّثُ تلكَ الواحةَ العجيبةَ في الشمالِ البعيدِ  
بفضلِ رسولِها النيلِ ، تُحَدِّثُ « مصر » .

## ٢

يَخْرُجُ النيلُ الأزرقُ من بحيرةٍ كأخيه الرِّزينِ ، ولكن من المُحَقَّقِ أَنَّهُ يَنْصَبُ  
في تلكَ البحيرةِ كنهرٍ قصيرٍ ويجاوزُها ، وَأَنَّهُ يَحِقُّ لِلْأَبَّيِّ الأصغرِ أَنْ يُكَيِّ  
ب « أمَّ النيلِ الأزرقِ » ، ومنبُعُ الأَبَّيِّ في جبالٍ عاليةٍ ، وهذا هو أولُ توافقٍ  
أصواتٍ من بعضِ الوجوه .

وَيَقَعُ ذلكَ المنبُعُ في جَنُوبِ بحيرةٍ طانةٍ بوادي غِيَشٍ على ارتفاعِ ٢٧٠٠ متر ،  
أى على ما هو أعلى من مُعْظَمِ أنهارِ أوربيةٍ ، وتَقَطِّعُ تَسَوِيَّاتُ بَرَكانِيَّةٍ نصفُ مستويةٍ  
بترابٍ أحمرَ غابةٍ زاهيةٍ من الأَرَزِ والقرَعَرِ<sup>(١)</sup> والتينِ واليَتُونُجِ ، وليس للخلنج هنا  
يَمَارٌ كما في خطِّ الاستواءِ ، ولكنه ذو أزهارٍ وافرةٍ ، وبجانبه يَنْشُرُ شجرُ البَلَسَمِ  
الأبيضُ والوردى أغصانهَ الحُمْرَ ، وتُوجِبُ أزهارُ الكَرْيُوبِيسِ<sup>(٢)</sup> النَهْيَةَ  
وأزهارُ الأَقْنَثَا<sup>(٣)</sup> الأَرَجُوانِيَّةِ فَرَحًا في هذه الغابةِ الخضراءِ .

والغابةُ تُنَفِّسُها الطيورُ أيضاً ، وَيَقَطِّعُ صوتُ السَّيْدِ<sup>(٤)</sup> سكونَ الليلِ ويُخْرِجُ  
الْمُخَوِّذِ<sup>(٥)</sup> صوتهَ البُوقِ قبلَ طلوعِ الشمسِ ، ويُجَرِّبُ الرَّمَّارُ<sup>(٦)</sup> مِرْمارهَ ،  
ثم يَأْتِي دَوْرُ الزَّرَازِيرِ فتصوِّتُ حينَ يُتَرَدُّ الخَطَّافُ صباحاً ، وتَصِيحُ الصراصيرُ

(١) الرعرع : شجر يشبه السرو لاساق له — (٢) Corbopsis — (٣) Acanthus

(٤) السيد : طائر ريشه غطط وهو واسع القم مفطاح الرأس والمقار (٥) Helmet-bird

(٦) Flute-bird

### يمد في المهد كيمسى

كذلك ، بيد أن صَخَبَ الزَّرْغَرِ<sup>(١)</sup> والتَّبَعَاوَاتِ لَا يُعَمُّ أَنْ يَصْفُوَ عَلَى هَذِهِ  
الْأَلْحَانِ الرِّقِيقَةِ .

وفوق المِخْدَارِ متَوَرِّجٌ ، وَفِي وَسْطِ غَدِيرٍ ، بِحَيْطِ سِيَاحٍ مِنْ الْخَيْزُرَانِ بِمَنْفَذٍ  
تَزِيدُ اسْتِدَارَتُهُ زِيَادَةَ قَلِيلَةٍ عَلَى مِثْرِ مَرْبَعٍ ، وَيَجْرَى بِهَلْوَى ، وَمِنْ بَثْرِ ذَاتِ عُنُقٍ  
مَتَوَسِّطٍ ، مَالَا صَافٍ بَارِدٌ خَالٍ مِنْ حَبَبٍ<sup>(٢)</sup> إِلَى خَنْدَقٍ ضَيِّقٍ وَيَتَوَارَى وَرَاءَ  
الْأَيْكَةِ نَحْوَ الشَّرْقِ ، وَهَذَا هُوَ مَنبَعُ النِّيلِ الْأَزْرَقِ ، وَيُوضِحُ أَصْلُهُ الْبِرْكَائِيُّ هَذَا  
الْوَضْعَ الْغَرِيبَ ، وَلِنَقَائِلِ صِفَرِهِ وَسُكُونِهِ وَرَوَقِهِ بِالْمَسْقَطِ الْقَاصِفِ كَالْعِدِّ وَالَّذِي  
يَلِدُ بِهِ النِّيلُ الْأَبْيَضُ لِنَبْصَرِ دَرَجَةِ اللَّغْوِ فِي الْحُكْمِ عِنْدَ أَوَّلِ نَظَرَةٍ عَلَى مَصَابِرِ  
الْمَوْجُودَاتِ ، فَالْمَنبَعُ الصَّاحِبُ بِنَالِ صِفَةِ الْإِتْرَانِ وَالْوَقَارِ ، وَالْجَدُولُ الصَّغِيرُ  
الزَّرِيرُ<sup>(٣)</sup> يَكُونُ لَهُ مِنَ الْمَغَامِرَاتِ مَا يَقْضِي الْعَالَمَ مِنْهُ الْعَجَبَ .

وَيَجْرَى النِّيلُ الْأَبْيَضُ أَلْفَ مِيلٍ قَبْلَ أَنْ يُمَجَّدَ كَأَحَدَى مَجَانِبِ الدُّنْيَا ، وَعَكْسُ  
هَذَا أَمْرُ النِّيلِ الْأَزْرَقِ الَّذِي يُقْبَدُ صَيًّا فِي الْمَهْدِ كِيمَسِي ، وَهَذَا لَاحِ نَجْمٌ لِأَحَدِ  
مُلُوكِ الشَّرْقِ الْبَعِيدِ ، وَيُخْبِرُهُ هَذَا النَّجْمُ بِمَوْلِدِ إِنْسَانٍ قَوِيٍّ فِي الْجِبَالِ هُنَاكَ  
يَحْمِلُ سُلْطَانَ الرَّبِّ وَعِزَّتَهُ مِنْ بَيْنِ الصَّحْرَاءِ حَتَّى شَوَاطِئِ الْبَحْرِ :

وَالنَّصَارَى وَالْوَثْنِيُونَ يُصَلُّونَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ، وَالْأَكُوَاخُ ذَاتِ الشُّفُوفِ  
الْقَصِيَّةِ<sup>(٤)</sup> الْفَائِضَةُ الْوَاقِعَةُ بِالْقَرَبِ مِنْ هَذَا الْمَنبَعِ وَمِنْ مَنبَعَيْنِ أَقْلٍ مِنْهُ أَمِيَّةٌ هِيَ  
كُنَاسٌ حَبَشِيَّةٌ رَسْمِيَّةٌ ، وَالرَّجُلُ الْأَخْيَانُ<sup>(٥)</sup> الْأُمِّيُّ الْمُنْتَصَبُ أَمَامَهَا هُوَ كَاهِنُهَا .  
وَالْوَثْنِيُونَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ بِجَانِبِ النَّصَارَى هُنَا لَا يَدْخُلُونَ النَّهْرَ إِلَّا خُفَاءً .

(١) الزَّرْغَرُ : نَوْعٌ مِنَ الدَّجَاجِ الْبَرِّ — (٢) الْحَبُّ : التَّفَاقِيمُ الَّتِي تَعَالَى الْمَاءُ أَوْ الْحَرُّ .  
(٣) الزَّرِيرُ : الْقَلِيلُ الْخَافَةُ — (٤) نَسَبٌ لِلْقَصَبِ ، وَهُوَ الصَّلْبُ مِنْ سَوَاقِ النَّبَاتِ الَّتِي  
هِيَ أَغَايِبُ صَلْبَةٍ تَسْقُطُ بِهَا الْبُيُوتُ — (٥) الْخْيَانُ : الطَّوِيلُ الْخَفِيَّةُ .

والوثنيون هَدَدُوا أَحَدَ السَّيَّاحِ بِالْقَتْلِ لِأَنَّهُ أَرَادَ غَسْلَ رِثَانِهِ فِيهِ ، وَفِي كُلِّ عَامٍ ،  
وبعدَ أَحَدِ عَشَرَ يَوْمًا مِنْ أَيَّامِ طُلُوعِ الشَّمْسِ<sup>(١)</sup> وَغُرُوبِهَا مَعَ الشَّمْسِ ، يَجْتَمِعُ  
رِجَالُ الْقَبِيلَةِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الْمُقَدَّسِ ، وَيُضَحِّي الْكَاهِنُ بِمِجَلَّةٍ سَوْدَاءَ ، وَيُلْفُ  
رَأْسُهَا فِي جِلْدِهَا وَيُقَطَّسُ فِي الْمَنِيِّ ، وَيَفْسِلُ الشَّيْبُ اللَّحْمَ بِالْمَاءِ الْعَجِيبِ الَّذِي  
يَجْذِبُونَهُ بِبَاطِنِ أَيْدِيهِمْ ، ثُمَّ يُقَطِّعُونَهُ أَجْزَاءَ بِمِدِّ الْقُرَى وَيُوزَعُونَ الْقِطْعَ الَّتِي  
يَأْكُلُونَهَا نَبْثَةً شَارِبِينَ مِنْ مَاءِ النَّيْلِ ، ثُمَّ يُكَلِّسُونَ عِظَامَهَا ، ثُمَّ يَقُومُونَ فِي كَهْفٍ  
وَاقِعٍ تَحْتَ الْمَنِيِّ بِقُدَّاسٍ وَفَقْ طُقُوسٍ غَيْرِ مَعْرُوفَةٍ ، وَيُقَدِّسُ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ لِلنَّيْلِ  
الَّذِي هُوَ « نَوْرُ الْعَالَمِ وَعَيْنُهُ » ، وَيَدْعُونَهُ بِإِلَهِ السَّلَامِ ، وَذَلِكَ لِمَا يُفْسِمُونَ عَلَيْهِ  
فِي الْمَجْلِسِ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالرِّثَامِ ، فَإِذَا قَضَى ذَلِكَ تَقَاتَلُوا بِدِ قَلِيلٍ كَمَا يَقَعُ بَيْنَ  
الْبَيْضِ الْمُتَحَالِفِينَ .

وَيَنْقُضُ الْأَبَائُ الْأَصْفَرَ بِدَوَائِعَ كَثِيرَةٍ نَحْوَ الْقَرَبِ ثُمَّ نَحْوَ الشَّمَالِ ، وَلَمَّا  
يُقَيِّدُ بِمَجْرَاهُ تَمَامًا ، وَلَمْ يَكُنِ النَّيْلُ الْأَزْرَقُ ، مِنْ السَّاعَةِ الْأُولَى ، أَحْسَنَ حَرَسًا  
مِنْ أَمِيرٍ أَوْ مَلِكٍ قَادِمٍ ، وَهُوَ يَقُومُ غَيْرَ مُرَاقِبٍ بِمَجُولَاتٍ طَوِيلَةٍ مِنْ خِلَالِ بَقَاعٍ  
غَيْرِ مَعْلُومَةٍ تَقْرِبًا لَوْقُوفِ الْمَطَرِ ، الَّذِي فِيهِ سِرٌّ شَأْنُهَا ، حِيَالٌ رِيَادِهَا ، وَذَلِكَ  
كَالْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يَمْتَرِزُونَ النَّاسَ فِي الْغَالِبِ قَبْلَ دَوْرِ حَيَاتِهِمُ الْحَاسِمِ .

وَنُلْحَقُ بِالنَّهْرِ الصَّائِلِ جُنَادِلُ بَرَكَانِيَّةٍ ذَاتُ طَبَقَاتٍ أَهْصِيَةٍ مَعَ أُمْرِ نَشَاطٍ جَدِيدٍ  
فَيَكُونُ لَهَا مَنْظَرُ جِبَالٍ ذَاتِ غَابَاتٍ تَقَطِّعُهَا رَوَافِدُ صَغِيرَةٍ كَثِيرَةٍ ، وَيَبْلُغُ عَرْضُ  
ذَلِكَ النَّهْرِ سِتِينَ مِثْرًا فَوْقَ هَضْبَةٍ خَرَّبَهَا السَّيْلُ ، وَنَظَرَهُ بِحِجْرَةٍ كَبِيرَةٍ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ ،

(١) الشَّمْسُ : السُّكُوكِبُ الَّذِي يَطْلُعُ فِي الْجُورَاءِ وَطُلُوعُهُ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ ( يَنْ ٢٢ يُولِيَّةِ  
و ٢٣ أَغْصَاطِ ) .

### بحيرة طانة

وَيَصِلُ الْأَبَّاءُ إِلَى شَاطِئِ بَحِيرَةِ طَانَةِ الْجَنُوبِيِّ الْتَرَبِيِّ حَيْثُ لَا يَنْبَتُ زَمَنًا طَوِيلًا .  
وَتَقَعُ هَذِهِ الْبَحِيرَةُ الضَّارِبَةُ إِلَى خُضْرَةٍ ، وَالتِّي لَهَا شَكْلُ الْقَلْبِ ، عَلَى ارْتِفَاعِ  
١٨٠٠ مِترَ كَبِيرَاتٍ إِنْشَادِينَ<sup>(١)</sup> ، وَتُحِيطُ بِهَا بَضْعَةُ جِبَالٍ صَغِيرَةٍ ، وَهَسَلٌ مُسْتَوٍ  
بِالسَّنْطِ عَلَى الْخُصُوصِ ، وَالتَّخْلُ مَعَ أَكْوَاحٍ هَزِيلَةٍ مِنْ حَصِيرٍ ، وَيَبْدُو أَكْبَرُ  
هَذِهِ الْأَكْوَاحِ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ تَحْتَ شَجَرِ التَّرَعْرِ ، وَهُوَ خَاصٌّ بِالْأَمِيرِ (الرَّاسِ) ،  
أَوْ يُسَمَّلُ كَنِيسَةً .

وَتَقْرُبُ بَحِيرَةُ طَانَةِ مِنْ بَحِيرَةِ أَلْبَرْتِ اتْسَاعًا ، وَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنْ كَانَتْ ضِغْفَهَا  
ضَخَامَةً ، وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَرْفَقَ الْحَمَّ<sup>(٢)</sup> فَجَّرَتْ الْجُدَاوِلُ أَجْزَاءَهَا مِنْذُ أَقْدَمِ  
الْمَعْصُورِ وَوَضَعَتْهَا عَلَى شَوَاطِئِ بَحِيرَةِ طَانَةِ وَضَيِّقَتْ نِطَاقَهَا وَتَمَّ الْحَمُّ وَالنَّسْفُ<sup>(٣)</sup>  
عَلَى أَصْلِ الشَّوَاطِئِ الْبِرْكَانِيِّ ، وَمِنْهَا يَتَأَلَّفُ الْفِرْيَنْ الْأَوَّلُ الَّذِي يَأْتِي بِهِ النِّيلُ ،  
وَتَصُبُّ أَنْهَارُ وَجُدَاوِلُ ثَلَاثُونَ مِيَاهًا فِي تِلْكَ الْبَحِيرَةِ ، وَجَمِيعُهَا أَصْفَرُ مِنَ الْأَبْيَاسِ ،  
وَإِذَا كَانَ الْأَبْيَاسُ الْوَحِيدَ الَّذِي يَخْلُصُ مِنْ بَحِيرَةِ طَانَةِ كَانَتْ هَذِهِ الْبَحِيرَةُ مُنْبَعًا  
مِهْمًا لِلنِّيلِ ، وَيَرَاهَا مَهْنَدِسُو النِّيلِ أَهَمَّ مِنَ الْأَبْيَاسِ الْأَصْفَرِ الَّذِي لَا يُسْفِرُ تَوَارِيهَ عَنْ  
ضَيَاعِ كَثِيرٍ مِيَاهٍ مِنْهَا ، وَلِذَا عُدَّ الْمَنْبَعُ جِغْرَافِيًّا أَكْثَرَ مِنْ عَدِّهِ إِيدِرُوغَرَفِيًّا<sup>(٤)</sup> .  
وَلَا يَصِلُ التَّحَاسُّ إِلَى الْبَحِيرَةِ ، وَلَكِنْ أَهْلُ الْبِلَادِ إِذَا مَا سَافَرُوا عَلَى الْبَحِيرَةِ فِي  
قَوَارِبِهِمُ الصَّنُوعَةَ مِنَ التَّرْدِيِّ وَالْقَصَبِ حَقُّ لَمْ أَنْ يَخَافُوا بَقَرِ الْمَاءِ الْكَثِيرِ ، وَيَتَلَبَّغُ  
صَيْدُ هَذَا الْبَقَرِ الْمَغْرَبِيِّ مِنَ الْإِغْلَالِ مَا يَنْقُصُ مَعَهُ الصَّائِدُ سِمَةً عَشِيرَتِهِ عَلَى كُلِّابِهِ ،  
وَإِذَا حَدَثَ أَنْ قَذَفَ جَرِيَانُ الْمَاءِ الْقَيْنِصَةَ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ مِنَ الشَّاطِئِ كَانَتْ مِنْ

(١) إِنْشَادِينَ : وَادٍ فِي سُوَيْسَةِ يَفْتَقِلُ عَلَى تِلْكَ الْبَحِيرَاتِ — (٢) Laves ، وَهِيَ الْحِجَارَةُ  
الْبِرْكَانِيَّةُ السَّائِلَةُ — (٣) النَّسْفُ : الْحِجَارَةُ السُّودَ ذَاتَ التَّخَارِبِ ، وَاحِدَهَا لَفَةٌ .  
(٤) الْإِيدِرُوغَرَفِيَّا : عِلْمُ الْمِيَاهِ الْبَطْعِيَّةِ وَوَصْفُهَا .



حقوق أول من أصمها ، وهكذا كان أبطال أوميرس<sup>(١)</sup> يتعمقون الخنزير البرى الكليدوني<sup>(٢)</sup> ، ومن شأن سمّة كيمت بحيرة طانة أن كانت تؤدي إلى عدم شجار أتانلته<sup>(٣)</sup> .

وفي المكان الذي يجوب الأباى في البحيرة متوجهاً إلى الجنوب توجهاً منظوراً ، ومن غير أن تختلط مياههما ( وهذا هو جري اثنى عشر كيلومتراً ، وهذا الجريان من القصر ما يبدل جريّة النيل الأبيض في أقصى بحيرة ألبرت ) بالقرب من شبه جزيرة جرجس ، في خليج واسع عميق ، يبدأ النيل الأزرق جريانه الحقيقي ، وفي الحقول تبصر أشجار بّ ذات ثمار حمراء وشبه برّية ، والحبشة هي موطن هذه الأشجار ، ومنها هاجرت إلى بلاد العرب ، وفي الحقول ، بالقرب من شجر البن ، تبصر بهاراً أحمر ، وتبصر بزدياً على مساحات واسعة حتى في الأرض الجافة منها ، ويستتر المنحدرات الوعرة زهر أصفر على شكل النجوم ، وهو ضرب من شوك الشيطان الذي ينشأ في الثياب والجلد فيسبب آلاماً لا تحتمل ، ويكنو الجزر الصخرية صدف وسراطين ، وتبني التباشين<sup>(٤)</sup> والشفانين<sup>(٥)</sup> أو كنهها<sup>(٥)</sup> هنالك ، ويكون ماء النهر البالغ من العرض مئة متر صافياً عند خروجه من البحيرة متدحرجاً من غير انحدار كبير .

ويدل جريان النيل الأزرق على الوجه الذي يتبلغ النهر فيه مصيره ، كالإنسان ، مقتحماً مجاوزاً جميع الحواجز مذركاً مكان نهايته وزمان غايته وفق الشئنة المفروضة

(١) أوميرس : شاعر اليونان المصهور ، وهو صاحب الإلياذة والأوديسة ، وقد تنازعت سبع مدن شرف انسابه إليها — (٢) الكليدوني : نبة للـ كليدونية ، وهي اسكتلندة ؛ (٣) أتانلته : أمير أسطوري من أمراء اليونان — (٤) الشفانين : جمع الشفنين ، نوع من الحام البرى ، ويعرف بالهام أيضاً — (٥) الأوكن : جمع الوكن ، وهو عش الطائر .

عليه ، ومع ما في الخرائط الطبيعية ، التي يَبْدُو الجبلُ لنا بها سببُ كلِّ التواء ، من وضوح كيف تُنْكَرُ القوى السَّحَرِيَّةُ التي تُجَرُّ نَهراً إلى نهرٍ آخَرَ على الرغم من كلِّ مقاومة تَنَلُّها عن الشَّلَالَاتِ والصَّخْرَواتِ والمُنْعَطَقَاتِ المستترة المستغرَبة ؟ ولو أمكنك دراسة حياة رجل بأشراها على خريطةٍ أو البَصْرُ بها من طائرةٍ لبهرتنا الشئان التي تهيمنُ عليها ، ولا شئ ، يُنْبِتُ القَدْرَ أحسنَ من وقائع هذه الحياة الظاهرة ، والرجلُ الملحدُ وحده هو الذي يَرُدُّ إلى الطبيعة مداراً ارتياحه العقلي .

وفي البَدَاةِ يبدو الأَبَّايُ الأكبرُ مبتعداً ابتعاداً تاماً عن اتجاه الأَبَّايِ الأصغر ، وهو يجرى نحو الجنوب الشرقى وصولاً إلى الشمال الغربى ، وذلك لأن الجبال التي وُلِّدَتْ فيها تُسَدُّ طريقه ، ويَدْوُرُ الأَبَّايُ الأكبرُ بانحناءٍ منسجمٍ حَوْلَ جبالِ غُوجَمٍ منعطفاً مرتين ليَصِلَ إلى النيل الأبيض الذي كان أقرب إليه من منبعه ، وتَجَرُّ على سُنَّةِ الأقوي من حين دخوله في السودان ، فمع أنك لا ترى جبلاً يَقْبِضُهُ تَبَصُّرُهُ لا يَسْتَلِكُ أَقْصَرَ الشُّبُلِ ، بل يَتَّجِهْ إلى الشمال الغربى مثل اتجاه النيل الأبيض في شَبَابِهِ ومثل اتجاه جميع روافده الشرقية .

والحركة الأولى للنيل الأزرق ، عند خروجه من بحيرة طانة ، تُكْشِفُ عن عبقرية في سَحِيَّتِهِ ، تُكْشِفُ عن غُفٍّ ممزوجٍ بِسَخَاءٍ ، فهو يُجَوِّفُ لنفسه ممراً عميقاً في الصخر ، وتبلغ أمواجه الفائرة من سرعة الاندفاع ما تَهَيِّطُ معه ١٣٠٠ متر في ثمانين كيلومتراً ، ويَحْمِلُ عنصرَ عمله للقبل ، يَحْمِلُ الغَرِيْنَ مُبْدِياً حَيَوِيَّتَهُ وإِتِّجَاهَهُ من أول الأمر . وتكون الصخور عارية قبل المطر ولدى التقاء الجلاميد والماء عند الشَّلَالِ الأول ، وحينما يَزَلْجُ<sup>(١)</sup> التَّوْجُ وَيَدْخُلُ النهر في مجراه تَظْهَرُ الصخورُ مستورةً بِالْحُثِّ<sup>(٢)</sup> ،

(١) زَلْجٌ : انحدر — (٢) الحث : غطاء السيل أو الطلح إذا قدم عهده وجف .

أى بُشَاءً<sup>(١)</sup> أَحْوَى<sup>(٢)</sup> ، أو بنباتٍ مائى ذى سوقٍ مُتَشَرَّةٍ وجذورٍ جَوِيَّةٍ تَجِفُّ أزهارُها الخضرُ والوردية من الأسفل بالتدرج وتظلُّ هكنا حتى نزولِ أمطارِ العام القادم ، وتَصَادُ الأسماكُ الصغيرة باليد على طول تلك الصخور ، وتظلُّ هذه الأسماك جماعاتٍ مُتَرَاصَّةٍ خائفةً من الأسماك الكبيرة التى ترصدها من الأسفل فتلتهم جميع ما تَجَرَّحه الحجارة منها .

وفى ذلك الصُفْعُ<sup>(٣)</sup> البائر وغير البعيد من البحيرة يَقُومُ جسرٌ حجريٌّ قديمٌ ذو أقواسٍ كثيرة ، وبهذا الجسرِ يَكْتَسِبُ المظهرُ منظرَ نَقْشِ روائىٍ وَيُذَكِّرُ بالحضارة الأوربية الأولى التى يَجْهَلُهَا النيلان فى شبابهما مع استثناء هذه النقطة ، وهذه الحضارة من فَوْرها تَفِيبُ هنالك مرةً أخرى مع ذلك ، ويجب أن يُسمَّ النيلُ جولته فى هذا البلد الخَرِبِ وأن يَلْحَقَ بالسَّهْلِ حتى يَلَا فى جسرٍ مرةً أخرى ، حتى يلاقى جسرًا عَصْرِيًّا كَرِيهًا لِلنَّظَرِ جَدًّا ، والبرتغاليون هم الذين أنشأوا الجسرَ الأول من حجارةٍ بركانية فى القرن السادس عشر ، وهذا الجسرُ منحرفٌ ، والنهرُ يَمُرُّ من تحت القوسِ الأوسط حتى يتسعَ حالاً .

ويضيق المجرى على بعد خمسين كيلومتراً من بحيرة طانة ، وَيَحْمِلُ النيلُ الأزرق على المغامرة بتجربةٍ مَسْقُطٍ كبيرٍ كالنيل الأبيض فى أقصى الجنوب ، وهذه المغامرة هى الوحيدة فى حياة كلِّ من النيلين ، وَيُطْلَقُ أهلُ البلاد الأصليون اسمَ تَبْزِيقاتٍ « النار الزائرة<sup>(٤)</sup> » على هذا المسقط كما تُسَمَّى مساقطُ فيكتورية فى رودسية بـ « المَكانَ<sup>(٥)</sup> الطَّنان » ، وللسافة الضيقة التى تَتَكسَّرُ فيها الأمواجُ المُرْدِدة

(١) الفناء : ما يعلو السيل من الزبد وييس النبات — (٢) الأحوى : الأسود اليابس .

(٣) الصُفْع : الناحية — (٤) الزائرة : من زار الأسد لئلا صات من صدره .

(٥) المكان : المكان .

### العتيق

منظرٌ ثَقْبٍ عميق ، والناسُ يتسائلون عن الكيفية التي يُمكن كَمِيَّةُ الماءِ العظيمةَ الكَمِيَّةِ من البحيرةِ والمطر أن تَمُرَّ منه ، وما يُقصُّ هنالك أن رجلاً في أثناء قتالٍ استطاع أن يَثْب من إحدى الصَّفَتين إلى الأخرى وأن يَذبحَ عَدُوَّهُ وأن يَرْجِعَ واثباً .

والنيلُ ، إذَنْ ، سَجِينُ الآن في عَقِيْقٍ<sup>(١)</sup> ضيقٍ منحوتٍ في حجارةٍ بركانيةٍ ومُحدَقٍ بِجبالٍ شاهقةٍ ، والنيلُ منبعٌ في ثمانية كيلومتر تقريباً ، وَيَبْلُغُ عُقُ الوِهادِ<sup>(٢)</sup> ١٥٠٠ متر ، والعتيقُ مهجورٌ ، ويعتمد الناسُ عن العتيق ويعتمدون ، أيضاً ، عن المرتفعات المجاورة حيث تَرُصِّدُهم الحُمى وتَرُقِبُ قِطَاعَهُم ، وحيث جُزُّ تلك الأَجَمَّةِ ودُخَانُ الكَلَا الحترقِ خائنان فتَنشأ الحُمى عنهما ، وتكون الحياةُ أَسْهَلَ والتنفسُ أيسرَ في ارتفاعٍ يترجَّح بين ثلاثة آلاف متر وأربعة آلاف متر ، وقد أضعاف الرُّوَادُ القليلون الذين حاولوا النزول إلى العتيق مُعْظَمَ حَمَالِهِم بفعل الحُمى فَاكْتَفَوْا بزيارةٍ قصيرةٍ له أو بالإشارة إليه على خرائطهم بخطوطٍ مُتَقَطَّةٍ .

والحيوانُ وحده هو السعيد في ذلك الجزء الجنوبي من النيل الأزرق ، ولا تَهْدَدُ الكلابُ ولا الزاريقُ ولا البُنْدُقُ<sup>(٣)</sup> أَى بَقَرٍ ماءٍ أو تمساحٍ في مجراه كما أنها لا تَهْدَدُ الأسدُ والنَّيِّرُ على ضِفَافِهِ ، فهناك جَنَّةٌ هذه الحيوانات ، وتعيش الضواري هنالك أخلطاً أَمَلًا<sup>(٤)</sup> بعيدةً من محاولات الإنسان أكثر مما في أَى مكانٍ آخرٍ بافريقية غير مباليةٍ بالحرارة التي لا تَنْزِلُ حتَّى في الليل إلى ما هو أقلُّ من الدرجة الأربعين نائلةً في الغابة البكر ما لا يَنْفَدُ من الحيوان والنبات الكثير .

(١) العتيق : الوادى وكل سيل ماء شقه السيل قديماً فوسمه — (٢) الوهاد : جمع الوهدة ، وهي الهوة في الأرض أو الأرض المنخفضة — (٣) البندق : كل ما يرمى به من رصاص كروى وسواه — (٤) خلط ملط : مختلط .



١٠ - حنا



والنيلُ في الدرجة العاشرة من العَرَضِ الشمالي يكون نسيماً في فَجْوَتِهِ<sup>(١)</sup> على ذلك الوجه فَيَرَسُمُ قَوْساً واسعاً من الشرق إلى الغرب ، فلا يُبصر في هذا الجزء من جريانه وجهاً بشرياً ولا يُشَقُّ سطحه مِجْدَافٌ ولا تَنَزِعُ صِثَارَةٌ سَمَكاً منه ولا يَجْرُو إنسانٌ على السَّباحة في مائه .

### ٣

هنالك ، في الدُّوَّة ، تَسْتَقِي الحيوانَ مِثَاتُ الجداول والأنهار قبل أن تَضِيعَ في المجارى العميقة التي تَأْتِي بها إلى النيل ، وفي ذلك الصَّغْعُ الْمُزَقُّ يَحْتَسِبُ البرِّذُونُ<sup>(٢)</sup> عن الإنسان خِدَمَهُ ، فيُضْطَرُّ الرائد إلى المِهْبُوط والصعود ١٢٠٠ متر لدراسة تجرّى أحد الأنهار الأسفل ، ويكون النيلُ في الغالب غائِباً عن الأبصار من علٍ ، ويلوحُ غَوْزُهُ في فُطُور<sup>(٣)</sup> ، ويُحَسَّبُ وجودُ عجَريٍّ له تحت الأرض ، فإذا ما ظهر ثانية لم يَبْدُ مُوسِعاً حتى في فصل الأمطار ، وما تَجَلُّبُهُ إليه الروافدُ غيرُ المهمة فيَقْفِدُهُ بالأبْغَرَّة والماسِط والقيَض<sup>(٤)</sup> .

والغَرِيْرُ هو الذي يَزِيد ، وبما أن مُعْظَمَ روافد النيل تجيء إليه من داخل الجبال التي يُحِيطُ بها يُؤَدِّي ما تَرَدُّ به عليه من الموادِّ المعدنيَّة إلى جعل مائه شديد الاسمرار بعد خروجه من بحيرة طانة كثير الصفلة ، ولا يَدُلُّ تسمية العرب إياه بالبحر الأزرق على كونه نهراً أزرق فقط ، بل يَدُلُّ على أنه أغبر ، وعلى أنه أسود أيضاً ، وينخفض

(١) الصخرة : القرحة بين شيئين — (٢) البرذون : ضرب من الدواب دون الخيل وأقدر من الخيل — (٣) القطور : جمع القطر ، وهو النقي — (٤) القيض : ما سقر أو قُتقت من الحمى .

ماؤه في اللوسم الجاف فلا ينقل أكثر من اثنين في المئة من المواد فيبدو في الغالب أزرق صافياً تحت سماء خالية من السحب ، فإذا ما حل فصل ارتفاع مائه حمل ١٧ في المئة من النيتروجين وظهر أسمراً قائماً ويُعزَّرُ هذا اللون بما يجلبه من مليارات النمل الأبيض ، ومن الإنكليز رؤاد ذهبوا حديثاً إلى النظرية الطريفة القائلة إن هذا النمل الأبيض هو الذي يفسم التراب فيجرحه معه ، وإنه هو العامل الحقيقي في وجود غرين النيل .

وفي الهضبة العليا العامة بالناس تضخم جميع المواد المعدنية البركانية بفيض من النباتات الاستوائية ، وعن تلك الهضبة قال بلونديل الذي هو من البيض القليلين الذين زاروها : « إنها أجل بلد رأيت » ، والحق أن الجفاف في جنوب الحبشة أقل ضرراً مما في الشمال حيث يتملص في شهر فبراير وضع إنسان جثة عذري في صقع صاير كذلك ، والمطر في شمال الألبا يوجد غابة ذات ألوان فتانة .

والأحمر والأصفر هنالك يبهتان الأبصار ، فتهدط طاقات القسم<sup>(١)</sup> الأرجوانية من شجر الخيزران الجسم على استدارة عشرين متراً ، ويتشعب التنوع كالشماع<sup>(٢)</sup> وتتموج خصل كثيفة لألوف الأزهار الصفر البارزة من العليق المعروف بالأبريقم ، ويتبدل الياسمين البري الأزرق الشاحب من الأثل<sup>(٣)</sup> ، وتستر مساط من التوتيس<sup>(٤)</sup> الزرقاء الحية وتخنق أحياناً ما يعيش تحتها ، ويسطمع البيلسان<sup>(٥)</sup> بين الخضر ، وتكسو ذوات القلقتين غابات بأشهرها ، وينحني

(١) النم : شجر له ثمرة حمراء يشبه بها البنان المحضوب — (٢) الشماع : جمع الشمدان ، وهو المنارة يركز عليها السراج وكلية دان فارسية — (٣) الأثل : شجر يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منها ، وهدبه مثل هدبها — (٤) القوية : نبات — (٥) البيلسان : شجر له زهر أبيض صغير بحيث القنايد يستخرج منه دهن عطري الرائحة .



الشيح<sup>(١)</sup> المعطري ظهراً و بطناً فيؤثف أفاقاً<sup>(٢)</sup> أزجوانية تتبلغ من غنى الأزهار ما « قد تذقن فيها قاذلة » .

والزنجبى في قوسى الجبل العالى يزرع الثرة والبر<sup>(٣)</sup> بلا عباء ، وله كل العون بالتراب والمطر ، والقطن أقل من ذلك نجاحاً ، ولا يفلح شجر البن إلا في حال برية كالكرمة فيما مضى ، ولم تنل يد التغير شيئاً من المحراث الذى يستعمل بلا روية ، كانلغازير البرية ، منذ عهد المحراث الذى صنعه آدم بعد إبعاده من الجنة .

وتعيش تلك القبائل الحبسية المتأخرة كثيراً عيشاً ابتدائياً كزئوج النيل الأبيض الأعلى ، ولكنك تجد عديم حيواناً أهلياً ياملونه معاملة الضيوف من الأمراء ، وهل هو ساحر أو حكيم أو أبيض هذا الذى كان عند ذبح سنور الزباد<sup>(٤)</sup> أول من كشف الرائحة الزكية التى تسطع من إحدى غدده ؟ إن المحتمل أن ادهنت بها إحدى سرارى النجاشى الثلاثئة إغواء لسيدها ، ومهما يكن الأمر فإن جميع الشرفا ودوا ذات يوم حيازة سنور الزباد ، فتحملوا عبيداً لم على البحث عنه ، فوجدوه هؤلا . على أبعد شواطئ النيل جنوباً ، ويمسكه السود بحباله<sup>(٥)</sup> ويؤنسونه في أكواخهم ويذذونه بالبئس وقت الظهر وبحساء اللبن وقت المساء ، ويوقدون النار شاء لكيلا يبرد ، ثم يقشطون بملقعة خيزران ضرباً من الرغوة في غده منه لها رائحة المسك ويحفظونه في قرون البقر ، ويبيعونه من التاجر الذى يأتى

(١) الشيح : نبات أنواعه كثيرة كله طيب الرائحة — (٢) الأفاق : جمع الفق ، وهو سرب في الأرض له مخرج في مكان مهود — (٣) البر : القمح — (٤) الزباد : مادة عطرة تتخذ من دابة كالسنور هي أكبر منه قليلا ويقال لها سنور الزباد والسنور هو الحر ويجمع على سنابر . (٥) الحبال : الصيدة .

من المِصر<sup>(١)</sup> في معايل تياب وقصبان ملح أو قود فضية ، وهكذا ترى سوداً لا يَمِرِفون سوى الجوع والصيد والحُب في جبال الحبشة الوحشة يفتنون بفضل ثاقس بلاطٍ بريدٍ ويزيدون قطعاً عنهم وحقوقهم من غير أن يكونوا في نهاية الأمر أكثر سعادة من إخوانهم الذين لا يَفْشِطُونَ غَدَدَ سَنَانِيرِ الزَّبَادِ .

ومن الحيوان ما هو أقلُّ أنساً ، ومن ذلك القُرْدُوح<sup>(٢)</sup> ذو القنابة الرمادية الذي يَتَّخِذُ في كِبَرِهِ سَبْرَ الْأَفَاقِ المنبذ التوحش ، والقُرْدُوحُ يَفْزُو الحقول ، وإذا ما مَنَعَ فلم يَدْخُلْهَا إلا بعد الحَصَادِ استمدَّ كَالْأَحْمِيينَ وَوَضَعَ من الْأَرْصَادِ ما يَخْشِي به صِغَارَهُ نَجَاهَ الْأَنْغَارِ ، وَالْأَنْغَارُ تَخَافُهُ فلا تَدْخُلُ القرية إلا بعد انصرافه .

والقُبُولُ هنا ، كما في كل مكان ، تَسِيرُ بِحَذَرٍ كبير ، والقُبُولُ تَعْرِفُ متى يَضَعُ السُّودُ في قُرَامٍ بُرَّمٍ على ظهور جملهم ، والقُبُولُ وَأَنْبَهُمُ في ذلك الحين فَتَضَعُ الْجِمَالُ أَثْقَالَهَا وَتَنَالُ القُبُولُ ما تريد ، وتقول القِصَّةُ إن أحد الملوك أراد ذات يوم إخضاع زَوجِ ذلك الصُّعْقِ ، وَبَجِدَهُ هؤلاء الزَوجِ من الخُبْثِ والهَوْلِ كَنَهَابِ غَلَاظِهِمُ البغيض ذلك فَبَصِيحُهُونَ عند وصوله بقولهم : « يان هوى ! أنت فيل ! » ، ويسأل الملك عن معنى ذلك ، ويُدْرِكُ الدُّعَابَةَ كَشْرِقٍ وَيَضَعُ حَذَاً للفرزِ وَيَعِدُّ بِأَنْصَافِ كُلِّ مَنْ يَدْعُوهُ على هذا الوجه ، ومن ذلك الحين يَزْكُمُ كُلُّ سَائِلٍ مُلْحِفٍ أَمَامَهُ وهو يقول : « يان هوى » . واليوم تَجِيءُ هذه الكلمة بمعنى « أيها الملك ! يا صاحب الجلالة ! » ، وهكذا يَتَّخِذُ نَجَاشِي الحبشة العادي اسمَ أقوى وأنبه حيوانٍ في السُّكُونِ .

(١) المِصر : الدبنة — (٢) القُرْدُوح : القرد النضج .

### الذهب في النيل

وفي الشتاء يعود القليل إلى إيقاع الجنوب المهجورة مُتَسَلِّقًا مُنْحَذَارَاتٍ تَتَحَدَّى الإنسانَ ، وتجذبُه غابات الخيزُرَانِ حَوْلَ مَصَبِ نهر دِيدِسَا في النيل الأزرق من الناحية اليسرى ، وهناك تُرَى مطروحة على الأرض مئات من الشجر الكبير الذي يُحِبُّ القليلُ التهمِ ثَمَارَه الشَّكْرِيَّةَ الصغيرة ، والقليلُ يَهْزُ الأشجار بحُرْطومه ويُجَنِّدُهَا عندَ عدمِ فائدةِ الحَزِّ ويجمع تلك الثَّمَارَ الشَّكْرِيَّةَ واحدةً بعد الأُخرى باعتبارها .

وفي أقصى عُقْدَةِ النهر يُمَهَّدُ البلدُ رُوبْدَا رُوبْدَا ، وَيَنْدُو المَصِيقُ أَشَدَّ أنْسَا ، ويبدو مجرى النهر أكثرَ ظَهُورًا ، فإذا قُطِعَتْ أُمَيَالٌ قليلة لاحت سهلُ القَنْجِجِ ولاحَت تلالٌ متفرقةٌ في سَهْبِ السودان ، وَيَشْهَدُ النيلُ ، قبل مغادرته الجَبَشَةِ ، منظرًا غريبًا يُوَحِّي بِمَصِيرِ هذا البلد .

وفي مَصَبِ دِيدِسَا وغيره من روافد النيل ، وبالقرب من حدود السودان ، يُجْلِسُ القُرُفَاءُ بضعَ مئاتٍ من الزوجِ عُرَاةٍ في السَّعِيرِ الذي يَفِرُّونَ من حُمَايَتِهِ عادةً ، وَيَخْرُجُ أناسٌ آخرونَ من الغابةِ مَسْكِينِ بضربٍ من صَوْلِجَانِ الكُرَّةِ وَصَفْحَةِ مُسَطَّحَةٍ من الخشبِ وحاملين في أعناقهم قُرْعَةً صغيرةً مَرْبُوطَةً بِسَظَلٍ<sup>(١)</sup> ، وهم يَنْتَحِنُونَ في الماءِ الأدنى وَيَبْتَخِنُونَ بين الحجارةِ وَيَرْمُونَ مُقْلَمَ الحَصَى ، ولكن ما يَضُمُّونَهُ في صحافهم يَنْطَلِعُ تحت الشمسِ ، وإذا ما مَرَّ النهارُ صَبَّوا في القُرْعَةِ ما وَجَدُوهُ وَحَلَّوهُ إلى رَقِيبٍ يَزِينُهُ بِمِيزَانٍ أَوْ بِرِيٍّ صغير .

وَيُفَرِّضُ الحجرُ النَّارِيَّ الأعلى قُرْضًا عميقًا ، وتَظْهَرُ طبقةٌ بِلَوْرِيَّةٍ وَتَشْتَقِي حَصْبَاءَ المَرْوِ<sup>(٢)</sup> وشظاياها يَبْقَا بِأَسْرِهَا وَيُكْتَشَفُ الذهبُ في ذلك منذ القديم .

(١) السحل : الحبل الذي تفل فلا واحدًا - (٢) الرو : السوان البلوري .

ويقوم نصيب ذلك البلد على البحث عن الذهب والميد ، وفي غير مكان .  
خَطَطَ إِلَهُ النار التي تحت الأرض عنصر الذهب بالمواد التي كان يُحرَّكها باليد ،  
وبما أن هذا المعدن يُعرَف بسهولة في الأنهار بحثَ ملوك البلد عنه منذ أقدم  
العصور ، حتى إنه عُلمَ أن بلد الذهب أوفير<sup>(١)</sup> هو هنا ، وبما يُروى أنه يستخرج  
منه ثمانون ألف جنيه في كل عام ، ولكن هل من عادة الملوك المطلقين بيانُ  
الرقم الصحيح لدخلهم ؟ والتجاني يأخذ نصف ذلك رسمياً ضريبة .

ويُجمَع ذلك في قوادم<sup>(٢)</sup> ، ويُصنع منه خواتم ويُبَاع ، وماذا يُنال مقابله ؟  
يُؤخذ سلاح وآلات . ومن يستفيد من ذلك ؟ إن الزوج الذين يفسلون ذهب  
التجاني قاعدتين القرفصاء في الماء عشر ساعات يومياً هم من الغلأ أو من الميد ،  
فلا يُعطون ملحاً ولا نقداً ولا قلائد ولا بقرأ ! والذهب قد ذهب من هنا إلى  
أديس أبابا حيث يُحوَّل سائلُ سينور الزباد القدي إلى عطر ، وفي رَذَهة  
مُقطلة يُسَطَّر بِنَمع الذهب في جيد سيدة ذات لحاظ يُتَقَدُّ شهوة أو تُقَبَّل  
به سيارة إنكليزية أنيقة يركبها منتفخاً رأسُ مُزينة أصامه بالخواتم تواق  
إلى الطامع مشتاق إلى الانتقام ، كما هي الحال منذ ثلاثة آلاف سنة .

(١) أوفير : بلد في الشرق ، وقد يكون اليمن ، وقد يكون إفريقيا ، فكان الملك سليمان يرسل  
من يبعث له عن الذهب فيه — (٢) القوادم : الریشات التي في مقدم الجناح ، وهي كبار الریش ،  
والخرافى منظره ، وهي تحت القوادم .

في ذلك الدور تَزَيَّنَ أجملُ مَلَكَاتِ إثيوبية وأشهرهن بالذهب والحجارة الكريمة لزور أورشلِيم (القدس) وتَتَعَرَّفُ بالأمير الذي يَمْلِكُ هنالك فَيَعِدُّهَا جالاً وصِيَّماً ، ومن الحقُّ أن كانت ملكةَ البلد الذي حَمَلَ بعد زمنٍ اسمَ اليمين ، ومن أورشلِيم جاء تُجَّارٌ إلى اليمين لِيَشْرُوا منها حجارةَ بناءٍ رائعةً بأيِّ ثمن كان وليأتوا بها إلى مولايم الذي كان يُقيمُ هيكلاً عظيماً تمجيداً للإله يَهُوَه .

وكان ذلك الملكُ يَنطَلِقُ بما لا يُحصى من الأحاديث والأمثال وأناشيد الحبِّ ، ولم يَعْرِفْ أحدٌ أيُّ الأمرين كان يَتَغَلَّبُ عليه : الحِكمةُ أم حبُّ النساءِ .

إِذْنً ، ذهبت مَلِكَةُ سَبَأَ إلى الملكِ سَليانَ ، وشَعَرَ كلُّ منهما بِمَيلٍ إلى الآخر ، وكان عندها مثلُ ذِكانه فامتنت عن الإِلفِ<sup>(١)</sup> في بدءِ الأمرِ ولم تُقيمْ بقصره ، ولما تَمَلَّقَهَا سَليانُ خاطبته بالحِكمةَ ، فاضطرَّ طَوَّعاً أو كَرْهاً إلى نِقاشها في الفلسفة ليلايَ بأجمعها لما كان عليه من الثَّبَلِ ، وتَحَيَّنُ ساعةَ الرجلِ وتَعُدُّ القافلةُ مُثَقَلَةً بالهدايا التي تَسِمُّ على بَذْخِ الملكِ اليهوديِّ ذلك ، وتُبْصِرُ المَلِكَةُ تَرَقَّ الملكِ الذي كان غَيباً مع حكته فَسَكَّنَتْ وساوته بأن أَجَلَّتْ سفرَها إلى الغد ، وتَقْدِمُ فتُبلِّغُ سَليانَ أنها تقضى تلكَ الليلةَ الأخيرةَ في قصره إذا أقسمَ ألا يَسْمَحَها ، وتقابل ذلك بتمهدها ألا تأخذ شيئاً مما هو خاصٌّ بها ، ويدرك سَليانُ بحكته معنى كلماتها المضاعفة ، ولكن سَليانَ يَعُوذُ بطاهيه ويأمره بأن يُعَلِّلَ طعامَ الوداعِ بالتوايل والأفاويه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

(١) الإِلاف : العاشرة .

وهناك رأت الملكة أن مُصَيِّفَهَا أدرك أمرها ، فلما اختلّيا كانت الأفاوية  
والخر من شدة التأثير فيها ما اكتفت معه بقولها :

« أَجِلْتُكَ مِنْ عَهْدِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِذَا مَا أَسْقَيْتَنِي » .

وَيُرَوَّى الْمَلِكُ الْفَسْجُ غُلَّتْهَا بِشَقِ الْأَوْضَاعِ ، وَيُؤَخَّرُ السَّفَرُ ، وَلَا يَرِيدُ الْمَلِكُ  
أَنْ يَدْعَهَا تَرْتَحِلَ ، وَتَلُوحُ مَوَاقِفُهَا عَلَى ذَلِكَ ، وَلَمَّا حَلَّتْ مِنْهُ وَشَمَرَتْ جَمِيعُ  
الْبَلَاطِ بِذَلِكَ مَعَ الْوَقْتِ عَزَمَتْ عَلَى الذَّهَابِ ، وَيُظْهَرُ أَنَّ قَرِيبَةَ سَلْيَانَ انْطَفَأَتْ  
مَعَ نَشِيدِ الْأَنْشِيدِ أَيْضًا ، وَنَضَعُ فِي الطَّرِيقِ وَلَدًا قَتَلْتَهُ مِنْ لَيْلِكَ بْنِ حَكِيمٍ ،  
وَكَانَ هَذَا بَاهِرَ الْجَمَالِ .

وَيَصْبِحُ الْغُلَامُ مَلِكًا ، فَيَزُورُ أَبَاهُ فِي أُورُشَلِيمَ وَيُقْبَلُ بِقَبُولٍ حَسَنٍ ،  
وَيَعُودُ مُتَغَلِّيًا بِهَدَايَا مِنْ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْآثَنِي عَشَرَ ، وَيُصْحَبُ مِقَاتِلَةً وَكَنَةً  
لِتَعْلِيمِ الْأَحْبَاشِ دِينَ الْيَهُودِ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ لَيْلِكَ يُتَوَارَى حَتَّى أَبْصَرَ سَلْيَانَ مَذْهُورًا  
اخْتِفَاءً تَابُوتِ الْعَهْدِ أَوْ الْأَوْحَادِ النُّحَاسِيَةِ الَّتِي كَفَسَ مُوسَى عَلَيْهَا وَصَايَا الرَّبِّ  
فَكَانَتْ أَقْدَسَ مَا لَدَى الْيَهُودِ ، وَيُوكِّدُ مِنْ لَيْلِكَ فِيهَا بَعْدَ أَنْ كُفِّهَتْ عَنْهَا سَرَقُوهَا مِنْ غَيْرِ  
أَنْ يَعْلَمَ ذَلِكَ مُتَبَعًا فِي تَصْرِيفِهِ سُنَّةَ مَا يَقَعْلُهُ الْمُلُوكُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ ، وَمِمَّا  
يَكُنُ الْأَمْرُ قَدْ تَذَرَّعَ سَلْيَانُ بِالْحِكْمَةِ فَأَمَرَ الْحَبْرَ الْأَكْبَرَ بِأَنْ يُلْزَمَ جَانِبَ الصَّمْتِ ،  
وَيَتَّقِبَ الْقَافِلَةَ بِنَفْسِهِ عَلَى غَيْرِ جَدْوَى ، قَدْ حَفِظَتْ لِلْأَنْكَةِ الْوُصُوحَ كَدَابِهُمُ  
فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ ، فَجَاوَزَ الْوُصُوحُ الْبَحْرَ الْأَحْمَرَ بِأَنْفَاقٍ وَبَلَفُوا الْقَصْرَ الْمَلِكِيَّ ،  
وَيُوقَفُ سَلْيَانُ لِصُنْعِ مِثْلِ تِلْكَ الْأَوْحَادِ مُسْتَعِينًا بِمَامِلٍ مَاهِرٍ فَلَا يَعْرِفُ عِزِّيَّةَ  
أَنَّهُ يَصْبُدُ تَابُوتَ عَهْدِهِ كَاذِبٌ .

وَأَحَاطَ الْعَرَبُ وَالرَّيْمَانِيُّونَ مَلِكَةً سَيِّئَةً بِأَسَاطِيرِهِمْ ، وَجَعَلُوا مِنْهَا بَلْقِيسَ



١١ — من الشباك





أَوْعَرَاةً تَحْمِلُ الْأَفْهَارَ وَتَقْرِفُ حَتَّى خَشَبَ الصَّلِيبِ الْحَقِيقِيِّ ، وَتَمْسُكُ الْأَحْبَاشُ بِأُخْدُوذَتِهِمْ ، وَيُصَوِّرُونَهَا عَلَى جُدُرِ كَنَائِسِهِمْ ، وَتُنَسِّخُ هَذِهِ الصُّوْرَ فِي بَارِيسَ وَلَنْدَنَ رَسُومًا شَعْبِيَّةً وَتُورِّعُ بَيْنَ أَهْلِ ذَلِكَ الْبَلَدِ ، وَيُرَى فِيهَا كُلُّ مَنْ الْعَاشِقِينَ عَلَى فَرَاشِهِ الْخِلَاصِ ، ثُمَّ يَظْهَرَانِ عَلَى سَرِيرِ عَرِيضٍ ذِي مَنْظَرٍ عَصْرِيٍّ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَبْدُو نَشِيدُ الْأَنَاشِيدِ لِلْأَحْبَاشِ مِنْ قَرَطِ الْمَغَامِرَةِ مَا لَا يُطْبِقُونَهُ مَعَهُ عَلَى مَلِكَتِهِمْ ، وَالْأَحْبَاشُ يَقُولُونَ مُوَكَّدِينَ إِنَّ سُلَيْمَانَ وَضَعَ نَشِيدَ الْأَنَاشِيدِ هَذَا فِي حِضْنِ ابْنَةِ أَحَدِ الْفَرَاعَةِ فَيَحَاوِلُونَ ، عَبَثًا ، حَظْرَ قَرَاءَتِهِ عَلَى الْقَتَاتِ وَعَلَى الْكَهَنَةِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَهُ بِجَمْعَيْنِ ، وَهَكَذَا تَرَى الْفَرَامَ يُسْفِرُ عَنْ إِيجَادِ أُسْرَةٍ مُلْكَبَتِ سِتَّةَ عَشَرَ قَرْنًا ، أَيْ مَا بَيْنَ سَنَةِ ٨٠٠ قَبْلَ الْمِيلَادِ وَسَنَةِ ٨٠٠ بَعْدَ الْمِيلَادِ ، أَيْ مَدَّةً طَوِيلَةً لَمْ يَتَّفَقْ مِثْلُهَا لِأَيَّةِ أُسْرَةٍ مَالِكَةٍ ظَهَرَتْ عَلَى شَوَاطِئِ الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ ، وَلَا نَعْتَجِبُ ، إِذَنْ ، مِنْ ظُهُورِ أَمِيرٍ مَا كَرِيْبٍ فِي أَيَّامِنَا إِقَامَةً عَرْشِهِ لَهْ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ فَيُثْبِتَانِ انْتِسَابَهُ إِلَى تِلْكَ الْأُسْرَةِ الْمَالِكَةِ مِنْ آلِ سُلَيْمَانَ مُتَتَحِلًا اسْمَ مِينِيلِكِ .

وَلَا يُفَسِّرُ جَمِيعُ مَا وَقَعَ مِنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ فِي ذَلِكَ الْقِسْمِ مِنْ إِفْرِيقِيَّةٍ بِغَيْرِ ادْتِلَالٍ الْعُرُوقَ وَالْحَضَارَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَتَّصِلُ بِالْحَبَشَةِ بِطَرِيقِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ وَالصَّحْرَاءِ النَّوْبِيَّةِ ، وَيَعْرِفُ الْأَحْبَاشُ ذَلِكَ فَيُسَمُّونَ بِلَدِهِم بِالْحَبَشَةِ ، أَيْ بِالْمَخْلِيطِ ، وَهَذَا مَا يُمْكِنُ إِطْلَاقُهُ عَلَى جَمِيعِ شُعُوبِ أَوْرَبَةِ .

وَكَانَتْ الْأُمُّ الْقَاتِحَةُ وَالْأُمُّ التَّاجِرَةُ تَتَجَذَّبُ بِلا انْقِطَاعٍ إِلَى الْبَلَدِ الَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَى الذَّهَبِ وَالْعَاجِ وَالرَّقِيقِ ، وَأَيُّ الْعَرَقَيْنِ دَحَرَ الْآخَرُ ؟ وَمَا هُوَ مَدَى دَحْرِ الشُّعُوبِ الْحَاوِيَّةِ لِلشُّعُوبِ السَّانِيَّةِ نَحْوَ الْجَنْوَبِ ؟ ذَلِكَ مَا لَا يُعْرِفُ مَعْرِفَةً نَامَةً وَلَا يَقْدُرُ حَدَّ جَدَلِ الْأَسَاتِذَةِ ، وَيُظْهَرُ أَنَّ الْإِثْيُوبِيِّينَ لَمْ يَأْتُوا بِشَيْءٍ غَرِيزٍ وَاحِدٍ

### النصرانية ترنج

لحضارة أجنبية ، وذلك قد تمَّ حوالي سنة ٧٣٠ قبل الميلاد حين فتحوا مصرَ وأتوا بمقدارٍ من الآلهة والمعادن المصرية ، وبالعناصر اليهودية والعربية اختلط الأغارقة الذين أطلقوا اسمَ إثيوبية الرامن على ذلك البلد وعلى المناطق المجاورة ، وكانت أكرسوم ، التي أسفر الحفرُ الحديث في شمال الحبشة عن إبراز أطلالها للأعين ، مسيطرةً على بلاد العرب ، ونحن لكي نضعَ حدًا لارتباك الحضارات هذا نقول إن أحد أولئك الملوك اليهود العرب تكنى بابن الآرس<sup>(١)</sup> ، وكان ابنُ آلهة اليونان هذا أولَ من تَمَتَّد تكفيراً عن السيئات ، وهكذا ليسَ ابنُ الآرس هذا خواتم الأسطورة الثلاثة قبل أن توجد ، وكان الأحباشُ نصارى قبل مُعظم البيض زمنٍ طويل ، وما كان من تَمَتُّع هذه القبائل بقريةٍ نصرانيةٍ بالتمَّة من القَدَم خمسةَ عشرَ قرناً فيمكننا أن نسأل معه : هل يفوقُ أدبُ هؤلاء النصارى أدبَ جيرانهم من الوثنيين أو المسلمين ؟

وترتجُ هذه النصرانية الجديدة التي هُوِجَت من جهتين في عالمٍ مولدٍ محمد ، وبيان ذلك أن نصارى الحبشة كانوا قد تَوَعَّدُوا مكةَ فرُدُّوا على أعقابهم في ذلك العام ، وهم لم يلبثوا أن أُكْرِهوا على الجلاء عن جنوب بلاد العرب بفعل الجُدري ، وهذا الأمرُ من الأمثلة النادرة التي يكون بها لإحدى الجوائح<sup>(٢)</sup> نتائجُ سياسية في تاريخ العالم ، وفي تلك الأمكنة يبدأ الصراع بين الديانتين ، ويختلط بهذا النِّمَّ اليونانيُّ العربيُّ النصرانيُّ صوتُ اليهود الذين تَسَرَّبَت معتقداتهم في الحبشة مرةً ثانية منذ القرن السادس ، وذلك لما يُروى من استحالة أغارقة الحبشة

(١) Area ، ولعل الاسمَ محرف من الحارث أو الرايش - (٢) الجوائح : جمع الجامعة . وهي البلية والتهلكة والدامية الطويلة .

للإهودية بتأثير بدويين جلبوا عاداتهم إلى بدويين آخرين ، لا بتأثير البعثات التبشيرية ، وفيما يدعوهؤلاء أنفسهم بالقلاشا ( أى المفهوم خطأ ) يتقوى اليهود . ويتخذ مجرى الحوادث سيراً سخرانياً ثابتاً أمره في القرن التاسع ، في ذلك الحين طردت أميرة يهودية من الحبشة آل الملك الذين ينتسبون إلى سليمان ، واتحدت النصرانية ، وتحكم هذه الأميرة في شمال البلاد حاملة اسم الملكة يهوديت ، وكان لا بد من مرور أربعة قرون حتى يدعى أمير من أمراء الجنوب بأنه من سلالة سليمان ومنليك فينتصر على ذرية يهوديت ، ويستتر تحت شتائم هذا الملك اللاسامية تمطشه إلى السلطان وحسده كما لو كان قد ظهر بعد سبعة قرون .

ويقلّب هؤلاء الملوك النصارى بالقمام<sup>(١)</sup> ، ولا يبدون أصلح من الملوك اليهود ، فيبدل منظار تاريخهم في القرون القليلة القادمة على صور مناظر مذهلة ، وذلك لما يرى من تقطيع ملكات مغلوبات إرباً إرباً ورمي هذه القطع للكلاب واحتفال الرهبان بقتلهم في موكب عام ، ولما يرى من قساوسة أظهار يولعون بالنخري وبراء العيش فيرجنون رؤساء وتنين ويقصون<sup>(٢)</sup> معهم ثم يحمّلون عبيدهم على ذبحهم ، وأولئك من النصارى المؤمنين الذين يباهون بانتسابهم إلى أقدم المذاهب .

(١) القمام : جمع القمص ، والكلمة ترجمة Archpriest , Archiprêtre — (٢) قصف : أنام في أكل وشرب ولهو وأكثر من ذلك .

رُئي في بدء الأمر أن الحَبَشَةَ هي الفِرْدَوْسُ في الأرض، وعدَّ يوسف<sup>(١)</sup> النيلَ أحدَ النهرين التَّوَارِثَيْنِ، وفي الحَبَشَةِ بحث الناس عن الذهب والعبيد منذ إخراج آدمَ وحواءَ من الجنة وتوجيهِ الذهبِ والسلطان للرجال في أعمالهم، والحَبَشَةُ مَنَعَةٌ يجلبها ومطرها، مع أن مغازي الفاتحين في سُهوب السودان أسفرت عن قَهْرِ الأُمَمِ المالكة المحلية في قرون كثيرة، وقاومت الحَبَشَةَ جميعَ الغارات كما قاومت سويسرة، لأن المطر فيها يَكْنُسُ الطرقَ والجبوشَ، وإذا عَدَوْتَ مكانًا واحدًا بدا لك الجبلُ قائمًا حتى البحرُ الأحمر الذي تَسِيرُ منه تجارةُ العالمِ في كلِّ زمنٍ، وهكذا، لا ترى من الدول التي ازدهرت في إفريقية، بين الدرجة العاشرة والدرجة الخامسة عشرة من القَرَضِ الشَّامِلِ، غيرَ دولةٍ واحدة ظلت باقيةً، غيرَ بلادِ النيلِ الأزرق الذي هو حِصْنُ طَبِيعِي<sup>\*</sup>.

وكان قداماء المصريين، كَتُجَّارِ اليوم، يَذْهَبُونَ إلى هنالك طَلَبًا لِلْبَنَانِ والمَاجِ والذهب والرقيق، حتى إنه يُفْتَرُ في مصرَ على عاجِ إِيثُوفٍ من عاجِ ما قبل التاريخ، وأدخل أولئك التُّجَّارِ ثلاثة أديانٍ وأربعَ حضاراتٍ أو خمسَ حضاراتٍ وجلبوا معهم أنوارهم واضطربهم إلى تلك الأودية الضيقة الوعرية، ولكن الجنادل والجبال: الأنهار والأمطار كانت تحالف الإنسان على دَفْعِ الأجنبيِّ إذا ما أراد الاستيلاء على البلد، ولكن هذه العناصر تَقَرِّقُ تلك الدولةَ إلى أجزاء كثيرة لا يستطيع أيُّ

(١) يوسف : مؤرخ يهودي ( ٣٧ - ٩٥ ) .

أمير أن يسيطر عليها كلها ، تفرقها إلى أجزاء تتقابل دوماً فتحفز كل إنسان إلى أن يكون محارباً ، وكما أن الأجنبي لم يقدر على فتح ذلك البلد لم تسطع أحد من أهله أن يهيم عليه ، وهذا الحصن الطبيعي الذي يصعب قهره والذي يسوده الشقاق هو عتبة القارة ، فتقطع فيه دول البيض التي تملك البلاد المجاورة لاشتاله على منع التهر الخافل بالأسرار ، وسدّين في مطلب آخر من هذا الكتاب أن هذا البلد ليس من الشأن ما تمرّوه إليه القصة .

وبعد ألوف من السنين تبين الآثار عدد الفاتحين الأجانب الذين طردوا من بلاد الحبشة ، وما انتهى إلينا ما ذكر على البردي من غزوات المصريين وحتلاتهم في البحر الأحمر ، وما انتهى إلينا ما أخصى على الحجارة المنحوتة من معاهدات ملكة سبّا ، وما انتهى إلينا مسلات الإثيوبيين التي نصبت قبل الميلاد بألف سنة يبرقان لم يدرك أمره ، وما انتهى إلينا روايات هيروdotus عن كنوز ذلك البلد ، وكان أباطرة الرومان يحملون على صيد صغار الأنفال هناك ليتلهم بها الشعب ، وكان قياصرة رنطة يأخذون الذهب من هناك في مقابل أدوات لا قيمة لها .

وترى منذ القديم سلسلة متصلة من الأمم البيض قد انقضت على هذه البقاع العاطلة من الطرقي والبيدة التال ، ولا ترى واحدة من هذه الأمم ظلت هناك ، وإنما ملك البلاد أمراء من أهلها بلا انقطاع تقريباً ، وذلك من عهد ابن سليمان حتى الزمن الحاضر .

وأخيراً لم تسطع الشعوب البحرية الكبرى غير الاتجار هناك ، والهندقيون<sup>(١)</sup>

طَرَدُوا العربَ من شواطئ البحر الأحمر، وحَمَلُوهم على نقل الذهب والناج من  
الجَبَشَة فوق الإبل من خلال البادية، ولم تتركْ أ كبرُ دولةٍ بحرية في ذلك الزمن غيرَ  
أثرٍ، غيرَ ألواحٍ رديئةٍ لأفأاقٍ انتحل هنا وَضَعَ تَيْسَيَان<sup>(١)</sup> لجيشه من البُدُوفِيةِ،  
ولا يزال الطراز الإيطاليُّ في ألواحهم الدينية الغليظة يَبْقَى نَظَرَ السَّيَّاحِ.

وَيَشْعُرُ نَجَاشِي الجَبَشَة وبطركها بِخَطَرِ الكُفْرَةِ فَيَذْكُرُ نصرانيته فيستصرخُ  
البابا، ويكتفى البابا بإرسالِ كتابٍ باللغة اللاتينية إليه لم يَقْدِرْ أَحَدٌ في الجَبَشَة على  
قراءته، وبمنح هؤلاء الزوج الأتقياء كنيسةً في رومة لم تنفك تُسَمَّى سان ستيفانو  
دِي مُورِي منذ ثمانية قرون، وَيَعْرِفُ حُجَّاجٌ من الأقباش في القدس بعدَ مدةٍ  
أَن مَلِكِ البرتغالِ هو أقوى ملوك النصرانية، فلما أتى بِلَاطَه وَقَدْ حَبَشِيَّ يَهُوَى وَلَى  
هؤلاء الزوج، الذين لم يَعتقد نصرانيتهِم، ظَهَرَ، فهذا هو الجبلُ السائد حَوْلَ  
الأقباش بعد منيحهم كنيسَتَهُم في رومة بثلاثئة سنة.

وَوَقَعَ بعد قرنٍ فقط تعاقُ الإخوان في يَسُوعَ المسيحِ ووَعْدُ القوى بمساعدة  
الضعيف، وكان البرتغاليون قد عَلِمُوا أَن ذلك القطرَ الافتراضيُّ ذُو أَرْضٍ ثُلُثُها من  
ترابٍ وثُلثُها من ذهبٍ فضلاً عن احتوائه عبيداً وعاجاً كما يُرَاد، وعلى ما وَجَدَهُ  
الملك من مبالغةٍ في ذلك ظَنَّ أَن العكسَ هو الصحيح فأَمَلَ، على ما يحتمل، أَن  
يكون ثُلُثُ الأرض من ذهبٍ وثُلثُها من ترابٍ، والنافرة تُكَافُ البرتغاليين ثَمَناً  
غالياً في بدء الأمر، فلما خَفُوا لِنَصْرِ مَلِكِ البحر الأحمر على العرب الآتين من مصرَ  
والسادة لنصف الجَبَشَة الذي أ كرهوه على الإسلام غَلِبَ ابنُ فاشكودوغامَّا،  
غَلِبَ هذا الفارسُ الذي هو من أنبل فرسانهم، وعُذِّبَ وَقَطَعَ قاهرُهُ رأسه بيده

(١) تيسان: رسام إيطالي مغمور (١٤٧٧ — ١٥٧٦).

وَحُصِيَ جَمِيعُ أَسَارَى النصارى ، وحدث هذا سنة ١٥٤١ ، وكان لا بُدَّ من مرور قرونٍ قبل أن ينقِمَ أحدُ ملوك النصارى وَفْقَ سُنَّةِ الثَّأْرِ ، وينتصر البرتغاليون بعد عامين وَيُعِيدُونَ الْمَلِكَ الْحَبَشِيَّ إِلَى عَرْشِهِ ، وكيف يُبْدِي الْمَلِكُ كَلُودْيُوسُ شُكْرَانَهُ الْآنَ ؟

عَزَمَ على احتلال المذهب الكاثوليكيُّ الرومانيُّ فَأَثَارَ بذلك منازعاتٍ جديدةً ، واستقرَّ البرتغاليون بالبلد مع علماء وتجارٍ ، وكان من عادة الملوك السابقين أَلَّا يَدْعُوا السفراءَ يهودون وأن يَقْمَرُوا بِضُرُوبِ الثَّرَاءِ والنِّسَاءِ لِمَا يُبْدُونَهُ من حسن التَّضَعُّعِ وأن يُبْقُوا أَسْرَى بِمِثْلِ هَذِهِ التَّغْرِيبَاتِ ، وفي هذه المَرْقَةِ أَقَامَ البرتغاليون في شمالِ بحيرة طانة مدينةً غَنَدَارَ وَحِصْنَهَا مع أبراجٍ مُدَوَّرَةٍ ضَخْمَةٍ وَأَسْوَارٍ مُهَيَّجَةٍ كَأَسْوَارِ طَلَيْطَلَةَ ، أَيْ أَنشَأُوا الْأَثَرَ الْوَحِيدَ الَّذِي تَرَكَ الْأُورِيُّونَ خَارِجَ أَدِيسْ أَيْبَا بَيْنَ الْأَكُوَاخِ الرَّثِيمَةِ فِي تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ .

وَكأنه قَدَّرَ على ذلك البلد الجليلُ أنْ يُفَكَّ بِالْمَنَازَعَاتِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي تَقْضِيهَا كَمَا يُفَكُّ بِالْمَطَرِ وَالنَّبْلِ ، ومن اليسوعيين الرومانيين أَنَاسُ أَرْسَلَهُمُ الْبَابَا لِمَ يَأْثُرُوا جُهْدًا فِي تَوْطِيدِ سُلْطَانِهِمْ هُنَاكَ ، وفي عَتَبَةِ الْعَالَمِ النَّصْرَانِيِّ وَبَيْنَ شِبَاهِ الزَّوْجِ تُبْصِرُ الصَّرَاعَ حَوْلَ تَعَالِيمِ يَسُوعَ قَدْ ثَارَ حِينَ ثَارَ فِي أَوْرُبَةٍ وَبِمِثْلِ الْحُمَيَّا الَّتِي هَاجَ فِيهَا لَدَى الْأُورِيِّينَ ، وَلَمَّا عَادَ لِلْمَسُومِينَ لَا يَهْدِدُونَ النَّصْرَانِيَّ عَزَمَ النَّصْرَانِيُّ عَلَى التَّنَاجُحِ ، وَلَمَّا يَتَقَاتَلُ رُؤَسَاءُ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ أَوَّلُتْكَ مَعَ أَنْ مَعَابِدَهُمْ كَانَتْ مِنْ أَكُوَاخِ وَكَانَتْ طُقُوسُهُمْ قَائِمَةً عَلَى الطَّبْلِ وَالنَّهَاءِ ؟

السيحُ مَسْمُوحٌ بِالرُّوحِ الْقُدُّوسِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ ! وَكَانَ الْخَصُومُ يَصْرُخُونَ قَاتِلِينَ : هَذَا ضَلَالٌ ! وَإِنَّمَا يَجْمَعُ هَذَا الْمَسْحُ بَيْنَ طَبِيعَتَيْهِ ، وَآخَرُونَ

يصيرون قائلين : هذا أعظم بُهتان ! ولا سيم فداء البشر على يد المُخلص إلا بالروح القدس ، وفي الحين بعد الحين تتفق هذه المذاهب الثلاثة على القول بأعلى صوت : اقتلوا اليهود ! وذلك على أن تعود إلى سابق انقسامها .

وفي سنة ١٦٣٠ ، حينما كان غوستاف أدولف وكليشيان وتيلي يحولون النصرى بمدافعهم ، كان قاسوة الأقباط والكاثوليك بالحبشة يسلمون رعاياهم بالسيوف والرماح نصراً لثل ذلك المذهب .

وخرت الملكة في أثناء اصطراع المذاهب ذلك كما حدث في ألمانيا وقتئذ ، فن الجنوب أتى الفلاً الوثنيون الذين هم مزيج من الزوج والحامين والعرب واستولوا على البلاد ، وتنقل العاصمة بلا انقطاع في أثناء التفتن وتغير الملوك ، وصار نجاشي غندار لا يتمتع بغير سلطان صوري ، وكان كل أمير يسيطر بالقوة أكثر مما بالعقل ، وتخل سنة ١٨٥٠ فيضع مقامر حذاً لتلك القوضى التي دامت قرنين ، فقد تلقب كاسا الذي كان رئيساً لمصابات ، كأبطال أوميريس كالمطفاة المعاصرين ، بـ « نيجوس نيجسني » ، وحل في الوقت نفسه اسم تيودور .

وكان هذا التمعض النصراني في بدء أمره يبيع الكسو<sup>(٢)</sup> الذي يصلح علاجاً للتينيا<sup>(٣)</sup> ، ثم أصبح رئيساً لجماعة من قاطعي الطرق ، ولم يمض عليه زمن حتى ارتقى إلى العرش كنبليون الذي صار إمبراطوراً بعد أن كان ملازماً ، ويذكرنا هذا الملك بكثير من أولياء الأمور في زماننا أيضاً ، فهو قد أضاع أترانه لما وصل إلى أوج المال ويذا وحشاً ضارياً قاتلاً لكل من يمارضه ، ولكن مع سجله البطرك

(١) ملك الملوك — (٢) الكسو : الخيشة المخبية — (٣) التينيا : الدودة الشريطية .

وهي جنس من الديدان الرقيقة الطفيلية .



بالقوة على منحه البركة ، ويُتروموت زوجه الثانية عن اكتبائه كثيرأ ، وينزوج  
ثالثة تتجلى صفتها البارزة بأنها بنت لأُمير قوى ، وهو يرى العوض فى تتمه  
بامراة غلاوية جميلة ، وكلتاها تراهه فى الحروب ، فتُنصب لكلٍ منهما خيمة على  
مسافة متساوية من خيمته الملكة القرمزية ، وهو إذا ما سار جعل إحداها  
فى الطريق بيده من الأخرى نصف ميل .

والإنكليز وحدهم هم الذين كان تيودور يُدينهم منه ، لاعتماده على عونهم  
ضد المصريين ، وقد بلغ من الصداقة لاثنين منهم ما انتقم معه لقتلها فى إحدى  
معاركه بقطر رؤوس مئات من الأشرى ، وهو ، بعد هلاك الصائد الإيرلندى  
والقنصل الاسكتلندى على ذلك الوجه ، لم يركفوا له غير شخص واحد ، غير  
الملكة فيكتورية التى غدت أيمًا منذ وقت قصير ، وهو قد أبصر أن سلطانها  
على كثير من الشعوب السود يزيد لا ريب إذا ما تزوجت « ملك الملوك »  
بافريقية ، فى سنة ١٨٦٢ ، وبلا واسطة ، عرض عليها الزواج به .

وحدث مالا يُصدق ، حدث أن ظل كتابه من غير جواب ، ويوغر هذا  
الاستخفاف صدر أقوى الملوك قتيق الوزير الإنكليز كميرون ويُقرنه بالأغلال  
مع أحد الجرمين ، وتُنظم إحدى الدول العظمى للمرة الأولى ، أى فى سنة ١٨٦٨ ، حملة  
تأديبية ضد الحبشه ، ويوغل الإنكليز فى البلاد ويحاصرون « ملك الملوك »  
فى قصره الحصين ، ويطلبون إطلاق الأسير ، ويذكروا المغامر تيودور نشأته  
الأولى الباسلة ويقتل نفسه ، وينال بسله هذا احترام الأعقاب وتقديرهم للثمن  
الغالى الذى أداه .

جَعَلَتِ الْجِبَالُ مِنَ الْحَبَشِيِّ مَحَارِبًا ، وَكَانَ الْمَطَرُ يَقْطَعُ كُلَّ حَرْبٍ مِنْذُ أَلُوفِ السِّنِينَ ، وَلَا تُؤْتِي النِّفْضَاءُ أَكُلَهَا إِلَّا بَيْنَ أَكْتُوبَرٍ وَمَايُو ، وَلِذَلِكَ النُّصَرِيُّ لَمْ يُقَلِّبْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ شِبَاهِ الْمَتَمَجِّ تَجَاهَ أَسَالِيبِ الْحُرُوبِ الْحَدِيثَةِ ، بَلِ انْتَصَرُوا فِي سَنَةِ ١٨٧٠ وَسَنَةِ ١٨٩٠ عَلَى شَعِينِ ذَوَىْ أَسْلِحَةٍ جَدِيدَةٍ وَلَمَرَدُوهُمَا مِنْ بِلَادِهِمْ : انْتَصَرُوا عَلَى الْمَصْرِيِّينَ ثَلَاثَ مَرَاتٍ ، ثُمَّ غَلَبُوا إِيْطَالِيَةَ ، وَفِي سَنَةِ ١٨٨٥ كَانَتْ مِصْرُ تَسَالُجُ فِتْنَةَ الْمَهْدِيِّ الَّذِي كَانَ السُّودَانُ قَبْضَتَهُ وَالَّذِي كَانَ يُهْدِّدُ الْحَبَشَةَ ، وَتُحَدِّثُ إِيْطَالِيَةُ نَفْسَهَا بِأَنَّهَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَظْهَرَ حَامِيَةَ لِهَذَا الْبَلَدِ ظَافِرَةً فِي السَّاعَةِ الْآخِرَةِ بِمُحَصَّنَاتِهِ مِنَ الصَّخْلَوِيِّ السُّودَانِ الْكَبِيرِ ، وَيَلُوحُ أَنْ مِصِيرَ الْحَبَشَةِ أَمْرٌ مَفْرُوعٌ مِنْهُ ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ لِيَتَقَدَّ بِقَاءِ كِيَانِهَا .

وَيُقْتَلُ آخَرُ نَجَاشِيٍّ عَلَى الْحُدُودِ فِي أَثْنَاءِ مُحَارِبَتِهِ الْمَهْدِيِّ ، وَيُنَادِي أَحَدُ أَتْبَاعِهِ الْأَقْوِيَاءِ بِنَفْسِهِ نَجَاشِيًّا ، وَيَرَى هَذَا النَجَاشِيَّ الْجَدِيدُ فِي ذَلِكَ الْحِينِ الَّذِي اسْتَفْجَلَ فِيهِ أَمْرُ أَنْصَارِ الْمَهْدِيِّ أَنْ يُقْطِعَ الطَّلَايِنَةَ مِنْطَقَةً مِنَ الْأَرَاضِ وَأَنْ يَرَضَى بِجَائِزَتِهِمْ صُورَةً ، وَيَعْلَمُ ذَلِكَ النَجَاشِيُّ الْمُنْتَازِعُ مِنَ الْبَيْضِ أَنَّ عَلَى وَرَثَةِ الْأَمْرِ أَنْ يُنْبِتَ صَفَاءَ أَصْلِهِ ، فَيَقْسِمُ بِمِثْلِيكَ الثَّانِي ، مُدْعِيًا أَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَةِ مِثْلِيكَ الْأَوَّلِ الَّذِي وَرِثَ حِكْمَةَ سُلَيْمَانَ وَجَمَالَ مَلِكَةِ سَبَّأٍ مِنْذُ ثَلَاثَةِ آلَافِ سَنَةٍ .

وَكَانَ مِثْلِيكَ الثَّانِي مَا كَرَأَ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَكُونَ حَكِيمًا ، وَلَمْ يَكُ جَمِيلًا ، وَلَكِنَّكَ تَحِيدُ فِي سَبْرِهِ مَا يَحْكِي صُورَةَ الْأَسَدِ ، وَلَا تُبْصِرُ رِجْمَةَ السَّامِيَةِ وَلَا

الحامية لدى هذا الملك ذى الشقرة التى هى آية آدمي الشمال ، ولو أخفيت شفته السفلى الغليظة فى صورته لبدأ عضلياً<sup>(١)</sup> اشكند بناوياً ذا عينين عسكيتين ، وكان أقل قنوة وأكثر صواباً وأشدّ قروية من نظرائه الأمراء الآخرين ، وكان رزينا مع دعاية ، وكان ذا طابع مختلف اختلافاً كلياً عن طابع أسلافه ، وعُدّت يده وخطه ضرباً من الجلال ضمن النطاق الذى يُحكم به فى أمر الخط الأخرى . وهو إذ كان ابناً لأمير قوى لم يدخر وسعاً فى توطيد سلطانه بأية وسيلة كانت ، ولما قبض على زمام الأمور فى الخامسة والأربعين من سنيه سالم مُناقسه فزوجه ابنته ، وركن إلى رجال الدين مع عدم اغترار بهم ، وبما أن النجاشي هو المتصرف فى أموال رعائيه كلها وفق شيوعية معكوسة فإنه أباح للأمرأتهب ما يؤدون كما فى الماضى ، وما بدأ به من تغيير قليل فقد أملاه العقل عليه أكثر من أن يُمليه عليه البيض الذين لم يقتبس منهم سوى نظام الجيش ، وما كان ليرضى بالسجون ، فقد قال : « لا أريد أن يُفدّى المجرمون ومُحسّو على حساب أهل الصّلاح والفضل ، ولا ينبغي أن يُروا ، بل يجب أن يُنْسوا بسرعة » ، والجلد جزاء أخف الذنوب ، والجذع والصلم<sup>(٢)</sup> ، أو الخصى ، جزاء الإجرام ، لِمَا فى قرص هذه المقولات من عارٍ وعبرة ، وكان فى كل أحد يُقرى<sup>(٣)</sup> فى عاصمته الجديدة أديس أبيبّا « الزهرة الجديدة » ما بين ثلاثة آلاف رجل وأربعة آلاف رجل فيعطون ، ويُعطى الجنود منهم على الخصوص ، عشرة آلاف رَغيف وأربعة آلاف لتر من البتع<sup>(٤)</sup> ومثى نور .

(١) المصلي : القوى الشديد العظيم من الرجال — (٢) حلم الأذن : قطعها من أصلها .

(٣) قرى الضيف : أضافه — (٤) البتع : نبيذ الصل .

ولاشيء يؤثر فيه مثل الأعمال الصناعية الفنية ، شأن البرابرة ومُظلم البيض ، ولكنه ينظر إلى تلك الأعمال براءة الولد أو الجندي ، وما حدث أن عرض عليه نموذجُ جِسرٍ فأنكر متانته وأبدَّ إنكاره بكسره هذا النموذجَ بجمع كَفَّه ، ويُعرض عليه نموذجٌ ثانٍ أكثر مقاومةً فيرضى به لتجزئه عن رَضَخِه<sup>(١)</sup> ، وتُضرب النقود الذهبية الأولى المشتلة على صورته فيمسح آلة الضرب بالذهن ، ويصيرُ التطلع الأولى في منديله ويأتي بها إلى زوجه ، ويعتمد على منظاره أكثر من اعتمادِه على جواسيسه ، فلما طُلب إليه أن يأخذ حذرَه من مؤامرةٍ صعيد في بُزجه ورتبَ منظاره الطُرق والميادين ثم تركَ مطبناً ، ويوضح له ذات يوم بدُعي<sup>(٢)</sup> تأثير الأنعام المتفجرة بفعل الكهرباء فيطير طائرُه<sup>(٣)</sup> قائلاً : « أهلك هو الأسلوب الذي تريدون الحرب به ؟ وما نفع الشجاعة الشخصية إذا كان أحد الأندال يستطيع أن يُبيد ألوفَ الناس من بعيدٍ بضغط إصبع ؟ » ، وهكذا ترى محارباً إفريقياً باسلاً يُبغين فسادَ نظرية البيض حولَ البطولة .

ومن المحتمل أن كان أحسمُ عملٍ في حياته نتيجةَ غلطٍ ، وهو عندما عاهد إيطالياً أخطأ تقديرَ قوةِ هذه الدولة في ذلك الحين جاهلاً ، تقريباً ، أمر منافساتها من الدول العظمى التي هي أوفرُ منها حظاً بإفريقية ، ومن الممكن أنه كان ينتفع بإيطالية زيادةً في سلارته وكنباً للوقت في نسلحه ، ومهما يكن الأمرُ فقد أعلن حريته في معاملةِ الدول الأوروبية الأخرى لنصِّ المعاهدة على أن من حقه أن ينتفع بإيطالية كوسيطٍ بينه وبين الأمم الأخرى ، ويتمسك الطلاينةُ بأنه ألزم نفسه باتخاذ

(١) رضخه : كسره — (٢) الدمى : جمع الدبة ، وهي السم — (٣) طار طائرُه : غضب أو أسرع ونف .

إيطالية واسطة اتصال ، وبأن كلمة « الحق » شئ عظيم يحاول به منليك أن يفلب من الماهدة ، وكان جيشه مستعداً ، وكان خطر الهدى زائلاً ، وكان معقله الطبيعي مع جباله ومطريه من المنعة كما في دور ظهور البراكين ، ويحاول مبارزة إيطاليا إذن ، ويتأل نصراً حاسماً عزيزاً إذن ، ونعد هذه مقابلة للهزيمة التي وقعت منذ ثلاثة قرون ونصف قرن ، والقصة القديمة تقول إن نجاشي الحبشة النصراني كان قد أمر بمحصى كثير من أسراه النصراني

ولكن تلك الإهانة لم تحرك ساكن وزارات أوربة ، وقد قيل إن الوزير الذي يفكر في مصير جنوده لا يشتر حرباً أبداً ، وقد أوجب عدم وجود مثل هذا انخيلال هلاك للملايين من المؤمنين بالمثل الأعلى الذي يلوح لهم به والى يرون أن من مقتضيات الواجب والشرف أن يصحى بالحياة في سبيله .

وفي سنة ١٨٩٦ ، وبعد معركة عدوى ، يكتب أذكي الأوربيين فلا يعرفون أين كانوا ، فقد هزمت دولة أوربية عظيمة من قبل قبيلة تونها كلون القهوه مع اللابن ، وهل كان ذلك نذير ارتقاء الشعوب السود وعضيان الزوج ؟ وهل كان من الواضح أن الطبيعة تحمي الحبشة تجاه كل غزو وكمايتها لروسيا ؟ وهل نجتمع النبل من أوربة إلى الأبد مع أن مستقبل بلدين كبيرين يتوقف على امتلاكه ؟ لا يزال رجال الهدى يمكنهم السودان وإن صمفوا ، ويمكن « مفتاح النيل » الأسطوري ، الذي يتحدث عنه جميع العالم من غير أن يعرف أمره ، أن يعين السيادة هنالك وفي مصر ، ويؤثر بطل عدوى في زملائه البيض لما كان من عدم مطالبته إيطاليا ، حين إمضاء الماهدة ، بغير الاعتراف بسلطانه ، كما طلب بشارك من النمسة بعد معركة سادوه .

وَيُضْحِي مِّنْلِيكُ ، الَّذِي هُوَ أَقْوَى إِفْرِيقِي فِي عَصْرِنَا ، نَحِيَّةَ امْرَأَةٍ أَرْجَاجِي<sup>(١)</sup>  
 اِسْمُهَا طَيْطُوه رَهَّج<sup>(٢)</sup> شَعَاعُ الشَّمْسِ ، ، وَكَانَ الْأَمِيرُ مِّنْلِيكُ زَوْجَهَا الْخَالِيسَ ،  
 وَكَانَتْ ظَرِيفَةً هَيَّاءَ وَكَانَ يُرْغَبُ فِيهَا لِبَيَاضِ بَشَرَتِهَا ، وَهِيَ لَا تَمُتُ بِصَلَةِ إِلَى  
 الْأُمِّ السَّمِينَةِ الَّتِي نَشَرَّتْ صُورَةَ لَهَا فِي أُورْبَةِ ، وَكَانَ اقْتِرَانُهَا عَقِيماً ، وَهُوَ لَعَلَّهِ  
 مِنْ وَاثَرٍ لِمَرْثَةِ عَيْنِ ابْنِ ابْنَتِهِ وَلِيًّا لِلْعَهْدِ ، وَتَوَدُّ طَيْطُوه أَنْ يَكُونَ أَخُوها نَجَاشِيًّا  
 حِرْصاً عَلَى حِفْظِهَا قِسْطاً مِنَ السُّلْطَةِ ، وَتَلْجَأُ إِلَى وَسِيلَةِ شَاطِئَةِ بَيْنِ أَشْرَافِ الْحَبَشَةِ ،  
 تَلْجَأُ إِلَى الشَّمِّ ، وَلَمْ يُتَغَيَّرِ الشَّمُّ عَنْ مَوْتِ مِّنْلِيكُ وَإِنْ نَاهَزَ<sup>(٣)</sup> السَّنَةَ الْخَامِسَةَ  
 وَالسَّتِينَ مِنْ عُمُرِهِ ، وَلَكِنَّهُ يُصَابُ بِبَقْسٍ ذَهَبِيٍّ وَشَلَلٍ بَدَنِيٍّ ، وَيُذْرِكُ فِي قَتَرَاتِ  
 صَحْوِهِ مَاذَا وَقَعَ وَيَعْنَى وَلِيَّ عَهْدِهِ مَرَّةً ثَانِيَةً ..  
 وَتَلْقَى دَسَائِسُ الْبَلَاطِ رِدَاءً مِنَ الْكَاتِبَةِ عَلَى أَوَاخِرِ أَيَّامِ مِّنْلِيكُ ، وَيُتَوَفَّى  
 مِّنْلِيكُ سَنَةَ ١٩١٣ فِي السَّبْعِينَ مِنْ سِنِينِهِ ، مُوَحِّداً الْحَبَشَةَ بَعْدَ فَوْضَى دَامَتْ أَكْثَرَ  
 مِنْ قَرْنٍ ، جَاعِلاً جَسَماً وَاحِداً مِنْ سَبْعِ مَمَالِكٍ وَمُسْتَعْمَرَاتٍ وَاسِعَةٍ .

## ٧

رَجُلَانِ نِسِيرَانٍ فِي مَرَجٍ<sup>(١)</sup> عَلَى طُولِ نَهْرِ نَصْفِ جَافٍ ، وَكِلَا الرَّجُلَيْنِ عَلَى  
 سَعَرٍ ، وَالَّذِي يُتَقَدَّمُ الْاِثْنَيْنِ هُوَ الرُّسُولُ بِطَرَسِ الْمَشَابِهِ الَّذِي يَبْدُو عَلَى فُسَيْفَسَاءَ  
 رَافِئَةٍ<sup>(٢)</sup> ، فَهُوَ ذُو رَأْسٍ أَسْمَرَ يُحِيطُ بِهِ شَعْرٌ طَوِيلٌ وَلِخْيَةٌ قَصِيرَةٌ سَوْدَاءُ ، وَهُوَ

(١) الْأَرَاغِ : الَّذِي يَمُرُّ النَّاسُ بِضَمِّهِمْ عَلَى بَعْضٍ - (٢) الرَّهَجِ : مَا أَثِيرَ مِنَ الْبَارِ .

(٣) نَاهَزَ : قَارَبَ - (٤) الْمَرَجِ : الطَّرِيقُ الضَّيِّقَةُ - (٥) رَافِئَةُ : مَدِينَةُ إِسْطَالِبَةِ .

## الرسول

ذو عَمْرَةٍ<sup>(١)</sup> لا شَكْلَ لَهَا وَلَا لَوْنٍ ، وهو أسودُ العينين حاملٌ بيده سيفاً مُجَرَّدًا ذا مِقْبَضٍ على صورة الصليب كأنه من جنود الحروب الصليبية ، ويَبْدُو خَلْقَهُ عَبْدٌ جافٌ ذو رِدَاءٍ رَمَادِيٍّ واسع عارى الساقين حاسرُ الرأس حاملٌ حملاً ثَقِيلاً على ظهره خافضُ الرأس خَفَضًا يَحُولُ دُونَ تَبَيُّنِ مَلابَحِهِ ، وهكذا يَسِيحُ الْحَبَشِيُّ البعيدُ من عاصمة بلده على جباله ، راكباً ظهر بفلٍ أحياناً ماشياً غالباً ، وذلك في سنة ١٩٣٠ كما لو كان في سنة ١١٣٠ .

وَيَتَعَدَّرُ في داخل البلاد تمييزُ مختلف الأمثلة البشرية ، فيبينا ترى العِرْقَ العربيَّ غالباً في الساحل يَبْدُو العِرْقَ الزَنْجِيَّ غالباً في الجنوب ، ولذا يكون الجنس الحامِيُّ الأصليُّ قد تَغَيَّرَ تَغْيِيراً ثامناً باختلاط العروق ، وما نشأ عن هذا الامتزاج من شَعْبٍ قَبِيْزٍ جمع اسوداده إلى فعل الشمس وإلى ما فيه من دِمٍ زَنْجِيٍّ ، وليس إلا ضرباً من الرموز أن تكون تلك القبائل ذاتَ أَظْفَارٍ صُفْرٍ يَبِيضٍ وَمُلْتَحِمَاتٍ<sup>(٢)</sup> صُغْرٍ ، ومن صفاتها التي لا تُعَدُّ لها تَفْسِيرُاً هو أنها عُسْرٌ<sup>(٣)</sup> بِأَسْرِها تقريباً ، فهي تَحْمِلُ أسلحتها وآلاتها باليد اليسرى ، وهي لا تَسْتَعْمِلُ اليَدَ اليمْنَى إلا في حالِ تَعَدُّها شاذةً مُقَدَّسةً كَهَذَّ النقود والنزول من ظهور الخَيْلِ .

وللأشراف مِشِيَّةُ الرُّسُلِ ، وإليك القديسَ مرقس اللابسَ حُلَّةً بيضاء ذاتَ كَمَمَيْنِ واللابسَ سِرْوَالاً ضَيِّقاً ، وله طَوْرٌ زَنْطَلِيٌّ حين جلوسه على كُرْسِيهِ المنسوجِ وغَسْلِهِ عِبدٍ لقدميه .

وآخرون يستقبلون الضيوف في أكوأخهم المصنوعة من صَلْصَالٍ ، وهم ،

(١) العمرة : كل شيء يجعل على الرأس من تاج وعملة وغيرها — (٢) Conjunctiva .

(٣) العسر : جمع السراء ، وفي التي تعمل بها لها .

### الباريات المتبررات

بأوضاعهم وملاصيحهم ولوتتهم البرونزي وسنّاء ثيابهم الكثيرة الوشّاء<sup>(١)</sup>، يُذكرُ وتنا  
زِمْرَمَرٍ تَتَوَرَّجُو<sup>(٢)</sup>، وإذا أضفتَ ذلك إلى عيونهم السود وصمّتهم الناطق  
والأسلحة التي يحلونها دوماً أبصرتَ فيهم منظرَ الأبناء المثير للحنّان ويلبّسَ  
الرّسائِ، الذين هم أقوى أولئك، معاطفَ ذاتِ قَبّاتٍ<sup>(٣)</sup> ضيقةٍ مع حواشٍ بيضٍ  
فيشابهون بذلك أعيانَ تَيْسَانٍ لو كانت شفاهُهم رقيقةً، وتحرى في الظلِّ وراءهم  
تُرْساً مُحَدَّباً وسيفاً قصيراً ورُحماً ساطعاً، وتَنِمُّ قُدُودُهم ولَوْنُهم على حُسنِ صحة  
أبدانهم في الغالب، ويُطيلُون الإقامة بالجلال في الهواء الطّليق.

والحِشْمَةُ سِمَةٌ نساء الطبقة العليا، وَيَنْدُرُ أَنْ تَرَاهُنَّ في الطُّرُق، وإذا ما  
أبصرتَهنَّ في البيتِ، والبيتُ وحده هو الذي يَحِقُّ لهنَّ أَنْ يَجْتَمِعْنَ فيه بالرجال،  
بِهَرَّتِكَ عِيُونُهنَّ اللّوزِيَّةُ والعنايةُ العظيمة التي يَبْدُلُها في زينةِ رُؤُوسهنَّ والوقتُ  
الكبير الذي يَفْضِيهِنَّ في هذا السبيل، وهُنَّ، لِمَا يَشْدُدُنَّ بعضَ صَفَائِرهنَّ الصغيرةِ  
المجدولةِ جدلاً فنياً ببعضٍ، يَظْهَرُنَّ قصيراتِ الشُّعُورِ بعضَ التَّصرُّعِ حينَ تَبْدُو  
شعورُ الرجال طويلاً بعضَ الطُّولِ، وَيَبْلُغُ النساءُ من الزَّهْرِ بعملهن هذا ما يَصْنَعُنَّ  
معه رُؤُوسهنَّ على قطعةِ خشبٍ في أثناءِ نَوْمِهِنَّ وُصُولاً إلى دوامِ أثره، والزَّهْمُ<sup>(٤)</sup>  
هو الدَّهَانُ الذي يستعمله كلا الجنسين.

وهنَّ كالباريات المتبررات يَزْعَنَ حواجِبُهُنَّ، ويُحْطِطُنَّ أقواساً سُمراً بدلاً  
منها، وَيَدْهُنُّنَّ الأَجْفَانِ بِصَبَاغٍ أَسْوَدَ، وَيَدْهُنُّنَّ الأَيْدِي والأرجل بِصَبَاغٍ  
أَسْمَرَ وَأَحْمَرَ.

(١) الوشّاء : جمع الوشى ، وهو نقش الثوب — (٢) تتورجو : رسام إيطالي

(٣) قَبّات : (١٥١٢ — ١٥٩٤) Cou (٣) - الزم : الطيب المعروف بالزباد .



وَالْحَبَشَةُ دَوْلَةٌ كَهْمَانٍ بِلَا تَدْبِيْنٍ حَقِيقِيٍّ ، وَكُلُّ شَيْءٍ هُنَاكَ خَائِرٌ<sup>(١)</sup> فِي شَعَائِرَ كَثِيَّةٍ عَاطِلَةٍ مِنَ التَّصَوُّفِ خَلِيقَةٍ بِالْقُرُونِ الْوَسْطَى غَائِرَةٍ فِي الْخُرَافَاتِ فَاسِدَةٍ بِالتَّجَارَاتِ ، وَيَرَى الرَّوَادُ أَنْ خَطَّ الْأَدَبِ الْخُلُقِيُّ هُنَاكَ يَصْعَدُ مِنَ النِّصْرَانِيِّ إِلَى السَّلْمِ قَالِي الْيَهُودِيِّ فَالْوُثْنِيِّ .

وَيَجُوبُ الْبِلَادَ مَنَاقِبُ وَأَلُوفٌ مِنَ الْقَسَاوِصِ وَالرَّهْبَانِ ، وَيُعرفُونَ بِلِحَاظِ الطُّولَةِ السُّودِ أَوْ الرَّمَادِيَّةِ وَشَالَانِهِمُ الْبَيْضِ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ وَأَحْذِيَّتِهِمُ النَّاتِيَةِ الْطَّرْفِ وَبَصْلَاتِهِمُ الذَّهَبِيَّةِ أَوْ التَّمَدُّنِيَّةِ التَّدْلِيَّةِ عَلَى صُدُورِهِمْ ، وَطَبَقَةُ الْكَهَنُوتِ الْعَلِيَا مُؤَلَّفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَهُمْ كَمُعْظَمِ الْأَقْبَاطِ عَارِفُونَ بِمَعْنَى الْمَعْرِفَةِ بِالدُّنْيَا ، وَلَكِنَّهُمْ يَظُنُّونَ فِي بُرْجِهِمُ الْمَاجِيَّ وَيَهْدُدُّونَ بِالْقَتْلِ كُلَّ مَنْ يَدَّ تَرْجَمَةَ التَّوْرَةِ مِنَ الْإِثْيُوبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ إِلَى الْأَنْمَحُورَةِ الْحَدِيثَةِ ، وَهُمْ ، إِذَا يَلْبَاجُونَ إِلَى الْحِرْمِ وَمَا إِلَيْهِ مِنَ الْوَسَائِلِ ، غَدَوَا أَصْحَابَ أَمْلَاقٍ وَاسِعَةٍ يُؤَجِّرُونَهَا أَوْ يَسْتَيْلُونَهَا بِوَاسِطَةِ الْعَبِيدِ ، وَهُمْ كَأَسَاقِفَةِ الْقُرُونِ الْوَسْطَى ، يَعِيشُونَ بِمَا لَمْ مِنْ نَفُوزٍ فِي الْأُمْرَاءِ ، وَيَحْمِلُ الْبَطْرِكُ لِقَبِّ « بَابَا الْأَقْبَاطِ وَالْأَجْبَاشِ » وَهُوَ يُنْتَخَبُ مِنْ قَبْلِ الْجَمْعِ الرُّوحِيِّ الْقِبْطِيِّ فِي الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ دَوَّامًا عِلْمَانِيًّا مِنَ الطَّبَقَةِ الدُّنْيَا ، وَهُوَ كُلَّمَا زَكِيَ ظَهَرَ غُخْتَارًا مِنَ الرَّبِّ ، وَهُوَ يُعْنَى بِتَرْبِيَّتِهِ وَيُكْرَسُ بِاحْتِفَالٍ وَيُرْسَلُ إِلَى الْحَبَشَةِ فَلَا يَحِقُّ لَهُ أَنْ يَفَادِرَهَا بِدَنْدُ ، وَأَطِيبُ مِنْ ذَلِكَ حَيَاةُ سَجِينِ الْفَاتِيكَانِ ..

وَلَا يَصْغُبُ عَلَى جَمَاعَةِ الْقِسْيَسِينَ أَنْ تُخْفِيَ حِكْمَتَهَا عَنِ الشَّعْبِ ، وَهِيَ الَّتِي لَمْ تَعْلَمْ شَيْئًا ، وَهِيَ الَّتِي لَا يَعْرِفُ أَكْثَرُهَا حَتَّى الْقِرَاءَةِ ، وَإِنْ الشَّابُّ الَّذِي يَكُونُ مِنَ الْفَقْرِ مَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمِيشَ مَعَهُ وَجِيهًا إِقْطَاعِيًّا وَالَّذِي يَكُونُ مِنَ الْكَسَلِ

(١) الْحَائِثُ : التَّحْنِ الْفَتْدُ .

ما لا يتعلم معه استعمال السلاح ينال ، عن قرابة أو بوسائل أخرى ، خطوةً لدى قسيس عالٍ فيُصلَّب<sup>(١)</sup> له هذا القسيس ثلاث مراتٍ ويتفخُّ عليه فيصبح قسيساً مُصنَّفاً كأمراء الألمان الذين كانوا ينفذون من قواد الجيش فيصير بذلك في حِمْى من حدّثان بقية أيامه ، ولا مناص من إبطامه لئلا يمتنع به من حق منح البركة وغفران الذنوب ، والناس يزدرونه مع ذلك ، والناس يخشونه مع ذلك ، ويحقُّ للقسيسين التروؤسين أن يتزوجوا مرةً واحدةً ، فإذا ما أمم<sup>(٢)</sup> أحدُهم من زوجته لم يحقَّ له أن ينكح امرأةً أخرى ، ويميشُ الرهبانُ والراهبات في فقرٍ ويطالهُنَّ وعُبورٍ سبيلٍ فاقدن كلَّ كرامة ، ومن هؤلاء أمراءُ مخلوعون وأغنياءُ محرومون ومجرمون سياسيون باحثون عن ملجأٍ لهم في دَيْرٍ وأُناسٌ أفرغتهم ضروبُ الوعيد ، وشغلُ جَحَظَلْ هؤلاء الرهبان للتسولين الوحيدُ هو أن يجادلوا على مدى البصرِ مُبَشِّرِي الأجناب حول طبعي يسوع ليُعيّن أمرُ تصيده مرتين أو ثلاث مراتٍ .

ويقوم القسُّ بالقدّاس في أكوانخ الجبل العالي مرّاً<sup>(٣)</sup> عادةً بجلدٍ ضائعٍ<sup>(٤)</sup> لخصره<sup>(٥)</sup> حاملاً يديه الخليقتين صليباً وسُبُحَةً ورديةً ، ولا ينبغي له ولا لأحدٍ من المؤمنين الحاضرين أن يمسَّ امرأةً بعد هزيعٍ<sup>(٦)</sup> من الليل ولمدة أربع وعشرين ساعةً ، ولكن صُراخ الذكور والإناث وما يمازج دَرْدَابِ الطُّبُول وصوت الدُقُوف من نهيق الخيول وخُوارِ البقر أمورٌ مُثِيرٌ في النفس منظرَ الترهّبات ، ولو قيست التقوى بعدد الأعياد الدينية ما وجدنا أمةً أتقى من أقباط الحبشة ،

(١) صلب الصراخ : حمل إشارة الصليب باليد على نفسه — (٢) كم الرجل من زوجته : فندما — (٣) الزميل : المتكف — (٤) الضائق : مفرد الضائق وهو خلاف المز من الفم — (٥) خصر الرجل : آذاه البرد في أطرافه — (٦) الهزيع من الليل : الطائفة منه أو نحو ثلثه أو ربه .

## المسلمون

ولا عَجَبَ ، فأعيادهم تَمْدِلُ ثُلثَى أيام السنة ، وتَمْدُ أيامُ الأربعماء والجمعة أيامَ صَوْمٍ ، وإذا ما فَكَّرَ فيها يَسُودُ الناسَ هنالك من كَسَلٍ شاملٍ سُلَّ عن المِلَّةِ والملول .

وهكذا يعيش مُعْظَمُ الأحباش في غَسَيٍّ<sup>(١)</sup> ذهنيٍّ ، ولا يُعْرِفُ عددهم معرفةً تائِةً ، ويَزْعُمُ ثلاثة ، أو أربعة ، ملايين من الملايين العشرة أنهم من « الخُلَصِ » وأنهم من نَسْلِ النصارى الأولين ، ومستوأم دونَ ما عليه زُوجُ بحيرة فيكتورية الذين لا يَدْرُونَ ما الدينُ ولا الإيمانُ ، وليس عندهم حتى براءة الدُّنْيَا المخبية النابتة تحت الشمس ، وما يُبْدُونَ من اعتقادٍ كاذبٍ بالرَّبِّ فَيُنِمُّ عليهم بالغرور ويَحْرِيمُهم نعمة الحرية .

والمسلمون أَكْثَرُ عِلًّا ، وَيَبْلُغُ عددهم بضعَ مئاتٍ من الألوف ، ويعيشُ أَكْثَرُهم في ولايةِ هَرَرَ الشَّالِيَةِ ، ولا يساوي ما يحوكونه من نُسُجٍ كبيرٍ شيءٍ ، وهم أهلُ كَدٍّ ، وهم ، وإن كانوا لا يُحَسِّنُونَ إدراكَ تعاليمِ دينهم الصحيحة ، يراعونها على كلِّ حالٍ ، ويُسَمَّى بقرُ الماءِ عندهم « خِزِيرَ النهر » فلا يأكلونه لتحريمِ لحمِ الخِزِيرِ عليهم ، ويستعملون مع الفتيات طريقةً خاصةً اخترعوها ، أو انتقلت إليهم لوجودها في الجرى الأوسط من النيل الأبيض ، وهذه الطريقة أشدُّ ضلًّا من نِطاقِ الطُّهْرِ لدى الصليبيين ، فهم يَلْقِفُونَهُنَّ<sup>(٢)</sup> بِسَائِبِ<sup>(٣)</sup> أنخيل ليَكُنَّ أبكاراً يومَ الزواج ، ومن الأزواج من هم غياري قِلْجَاوَن إلى هذه الوسيلة مع زوجاتهم إذا سافروا ، وهي أرخصُ من حراستهنَّ بالخصيانِ لِما يُكَلِّفُهُ الخصيانُ من أجرٍ عالٍ .

(١) الفسق : ظلمة أول الليل — (٢) لفق الثوب : ضم شقة منه إلى أخرى فغطاها .

(٣) السائب : جمع السيب أو السببة ، وهي من الفرس شعر الذنب والناحية والعرف .

## اليهود

وليست لدينا معرفة تاريخية ثابتة عن اليهود، عن القلاشك، هنالك، وبلغ عدد هؤلاء نحو خمسين ألفاً، أى تمّ دلّ نسبهم بين السكان واحداً من مئتين تقريباً، وهل جاءوا الحبشة حين دخلها دينهم قبل الميلاد بألف سنة أو بعد الميلاد؟ وقد انجذب العرب مبكرين إلى التوحيد اليهودي الذي كان وحيداً في ذلك الحين فاعتنقه أمراؤهم، والآن لا يعرف هؤلاء اليهود العبرية ولا يؤمنون بمسيح (المسيح) ولا يزاولون أية تجارة كانت، وهم من الناحية الجبّانية يشابهون الأحباش الآخرين، فلمهم أنف إفريقيا وفم إفريقيا، مع أنك ترى اليهودي في الناحية الأخرى من البحر الأحمر، وعلى درجة العرض نفسها، يختلف عن العربي اختلافاً تاماً، ويمتاز اليهود من أهل البلاد الآخرين بما يفتّرف لهم به النصارى والمسلمون من ذوقٍ وخلقٍ، ويرى رائد ألماني: «أنهم أفعُ سكان ذلك البلد». ويُقيمون بجوار العاصمة وحول بحيرة طانة، ويظهرون أمره صنّاع الحبشة وأحسن حداثيتها وبنائيتها وصنّاعيتها وخزائنها وصانعيها، وقد يملكون أطياناً، ولكنهم ليسوا من الأغنياء، وهم لا يؤجّرون خدماً ولا يُفرضون نفوداً، وتكاد صلواتهم<sup>(١)</sup> تُشابه بيع<sup>(٢)</sup> النصارى، ولكنهم يكتمون طقوسهم الدينية ورموزهم وكتبهم المقدسة التي هي بالأممحرية، ويحافظون على سنن الأسكل وقواعد النظافة ويتوصّون إذا ما مسوا من ليس يهودياً ولا يعرفون غير قليل من التوراة كالنصارى.

وعلى ما هو واقع من تقصي عدد اليهود كثيراً لا تزال عاداتهم ذات نفوذ كبير

(١) صلوات اليهود: كنائسهم ومساكنهم، ومفردها صلاة، وأصلها بالعبرية صلواتنا.

(٢) البيع: كنائس النصارى، ومفردها بيع، وهي كل متعبدة للنصارى.

في القُوسِ النصرانية كما في الماضي ، فَمَا اتَّبَعَهُ النَّصَارَى مِنْهُمْ خِثَانُ الْجَنَسَيْنِ ،  
وَتَقْدِيسُ السُّبُوتِ مع الآحاد ، وَاِتِّخَاذُ خَلْقِ السَّالْمِ مَبْدَأً لِلتَّارِيخِ ، وَرَقْصُ  
القُوسِ حَوْلَ قُدْسِ الْأَقْدَاسِ ، وَشَيْذُ الْكَنَاسِ لِلْمَهْمَةِ عَلَى طَرَازِ هَيْكَلِ  
سَلْيَانَ ، وَتَفْضِيلُ التَّهْدِ الْقَدِيمِ ، وَاعْتِقَادُ الْقَوْدِ إِلَى أَوْرَشَلِيمَ (القدس) ، وَتَحْيَةُ  
« لَيْكُنِ السَّبْتُ مَعَكَ » .

وَالْفَلَا الْوُثْنِيُونَ ، الَّذِينَ يُقَالُ إِنَّهُمْ هَاجَرُوا إِلَى الْبِلَادِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ  
نَتِيجَةً لِعَدَمِ الرَّمَايِ فِي مَنَاطِقَةِ جَبَلِ الْغُونِ ، كَثِيرُونَ بَيْنَ الْأَرْقَاءِ وَالشَّرَفَاءِ ،  
وَيُعَذُّونَ أَحْسَنَ جُنُودِ الْبَلَدِ ، وَهُمْ سَيَّافَةٌ <sup>(١)</sup> وَنَبَّالَةٌ <sup>(٢)</sup> مَاهِرُونَ ، وَهُمْ فَرَسَانٌ  
مُمْتَازُونَ ، وَهُمْ لَا يَسْتَمْلُونَ الْأَسْلَحَةَ النَّارِيَةَ مع ذَلِكَ ، وَلَا يَنْفُكُ الْأَمْرَاءُ يَنْتَعُونَ  
بِهِمْ فِي حُرُوبِهِمِ الطَّاحِنَةِ كَرْتَرَقَةٍ ، وَيُقَالُ إِنَّهُمْ يَتَّازُونَ مِنَ النَّصَارَى بِأَعْلَامِ  
وَنَشَاطِهِمْ وَقَنَاعَتِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ كَالنَّصَارَى قَسْوَةً وَقَطْعًا إِلَى الْإِنْتِقَامِ ، وَمَنِ الْمُحْتَمِلُ  
أَنْ تَكُونَ عَادَةُ الْمُتَلَّةِ <sup>(٣)</sup> بِالْعَدُوِّ وَخَصِيهِ وَحَمَلِ قَضِيهِ عَلَى الزُّنَارِ <sup>(٤)</sup> كَفَنِيَّةٍ أَوْ  
تَلْقِيَةٍ عَلَى بَابِ الْقَتِيلِ مِنْ مَبْتَكِرَاتِهِمْ ، وَإِذَا عَاشَتْ زَوْجَةُ الْمَغْلُوبِ مع الْغَالِبِ مِنْ  
غَيْرِ مَرَاعَةٍ لِهَذِهِ الْعَادَةِ طَمَعَتْ فِيهَا النِّسَاءُ الْآخَرُ ، وَيُرْوَى أَنَّ الْفَلَا يُقَدِّمُونَ  
قَرَابِينَ بَشَرِيَّةً إِلَى أَهْلِهِمْ ، وَأَنْ هَؤُلَاءِ الضَّحَايَا يُعَيِّنُونَ بِالْقَرْعَةِ وَقَتِ الْمَجَاعَةِ ، وَالْفَلَا  
يُخَافُونَ النَّيْلَ ( الْأَزْرَقُ ) فَيُضْطَحُّونَ عِنْدَ مَتْنِهِ بِمُجُولٍ وَبَقَرٍ ، وَالْفَلَا يُعْتَدُونَ  
الْشَّمْسَ وَالنَّارَ وَالْأَشْجَارَ وَالْحِجَارَةَ الثَّلَاثَةَ الْكُبْرَى الَّتِي سَقَطَتْ مِنَ السَّمَاءِ بِالْقَرَبِ  
مِنَ النَّيْلِ الْأَزْرَقِ ، يَبْدُو أَنَّ عَادَاتِهِمْ تَخْتَلِفُ بَيْنَ قَرْيَةٍ وَقَرْيَةٍ ، وَهُمْ حِينَ تَنْظُرُ

(١) السَّيَافَةُ : جَمْعُ السَّيْفِ ، وَهُوَ صَاحِبُ السَّيْفِ وَالْمُحَارِبُ بِهِ — (٢) النَّبَّالَةُ : جَمْعُ النَّبَالِ ، وَهُوَ  
صَاحِبُ النَّيْلِ وَالرَّابِي بِهِ — (٣) الْمُتَلَّةُ : مَنْ مَثَلَ بِالْعَدُوِّ إِذَا جَدَعَهُ وَظَهَرَ أَعْيُنُهُ عَلَيْهِ تَتَكَلَّمُ .  
(٤) الزُّنَارُ : مَا يُشَدُّ عَلَى الْوَسْطِ .

بينهم هنالك بقايا من التمدن المصرى القديم مع الكاهن التليك والثور المقدس  
يَبْدُو لأعيننا منظرٌ شاملٌ لحضاراتٍ لا يستطيع أن يُحقِّقها غيرُ النيل في جميع  
العالم الغربى\* .

## ٨

ضيقُ الرِّثَاجِ<sup>(١)</sup> ، وظاهرةُ الأمطار ، واتساعُ البلد الذى هو أكبر من فرنسا  
وإيطالية مجتمعين ، وتَمَدُّرُ مراقبته في مجموعه ، ومشكلةُ حكومةٍ في قطريٍّ يَأْتِي  
المركَزِيَّةَ وعاطِلٍ من أىَّ شعورٍ بالتضامن الاجتماعى كما في سويسرة . والفزواتُ  
التي تُمرِّقُلُ الصَّنَاعَةَ ، وجُهورُ الصَّكَّاسَةِ الذين يَخْشَوْنَ العمل ، واستبدادُ السلطة  
المركَزِيَّةِ التي يُحْمَلُ عليها الأفرادُ دَوِّماً ، كلها عواملٌ تُؤدِّي إلى الفوضى ولو لم يكن  
في الأساس عيبٌ ، ولا يَرْتَجَى إصلاحُ اجتماعى بواسطة السيد ، وقد حَلَّتِ المُعْضِلَةُ  
الاجتماعية بأبسط الطرق ، ولو لم يَكُنِ القومُ نصارى ما اغْتَرَضَ على الحلِّ ، وليس  
الخلافاً بين السلطان والإيمان أعظم مما عند شعوب أوربة ، وإنما هو أكثرُ  
منه وضوحاً .

والتجاشى الشديدُ النصرانية هو أولُ من يَتَجَلَّى فيه ذلك الخِلاف ، فنذ ثلاثين  
سنةً مَضَتْ كانت له خمسةُ سُرِّيَّةٍ ، وكان من هؤلاء السَّرَّارى عشرون يُقِمْنَ  
بجِوَارٍ قصره للبائس ، ( وهذا ما يَصْنُبُ تحقيقه الآن ) ، وتَجِدُ أصلَ هذه العادة في  
اللبدا الغريب السائد لجميع تلك القبائل ، وهو أن على التليك أن يكون له أكبرُ عددٍ

(١) الرِّثَاجُ : جمع الرِثَاجَةِ ، وهى الطريق الضيقة .

ممکن من الأولاد ، وفي بلاد العرب القديمة ، حيث تَقْتَرِنُ الحُطُولَةُ بالتَزَلُّة ، كانت حَظِيَّةُ السُّلْطَانِ تُنْعَمُ بالهدايا كما في رواية ألف ليلة وليلة ، واليوم يَمْدُ النجاشي مثلَ هذا الأمر من شِدَّةِ القبول ما يَجِبُ معه على كلِّ سُرِّيَّةٍ أن تأتي بِجهازٍ جميل ؛ أن تأتي بالبقر والحَيَلِ والسَّيِّدِ والقِرَاءِ ، وبما يُضَيِّفُهُ التَّمَدُّنُ إلى ذلك أحياناً إحضارُ اثني عشرَ هِراً لِإِبَادَةِ القِرَّانِ ، وهذا إلى وجوبِ اعتناقِ السُّرِّيَّةِ للنصرانية ، والسُّرِّيَّةُ إِذَا وَضَعَتْ ابناً غيرَ شرعيٍّ كانت أوفرَ حظاً من الإمبراطورة التي يُسَجِّنُ أبناؤها على العموم عند تَفسِيرِ ولى الأمر ، والقرآنُ يُنْظَمُ هذا الوضعُ بأحسنَ من ذلك ، وأَكْثَرُ من ذلك مَلاَمَةٌ للقِطْرَةِ وَضَعُ الزَّجْجِيِّ الوَثْقِيِّ الذي يَمْدُ المرأةَ أداةً للعمل فلا يُفَرِّقُ حتى بين الولد الشرعيِّ والولد غير الشرعيِّ الذي كان اختراعُ البَيْضِ لِعِلْمِ شَرْعِيَّتِهِ أعظمَ الأمور مخالفةً للأخلاق !

وَتَوُجَّجَ النجاشي الجديدُ سنة ١٩٣٠ ، وَيَلُوحُ أَنَّهُ عَصْرِيٌّ أَكْثَرُ مما يَوَدُّ أن يَبْدُو به ، وَلَكِنَّهُ يُسَيِّطِرُ كأحد الخلفاء ، والخطُّ الحديديُّ الوحيدُ في بلدِه هو الذي يَصِلُ الساحلَ بِالعاصمة التي لا تحتوى غيرَ هاتفٍ واحد ، وبالقرب من بحيرة طانة تَرى أعمدةً مقلوبةً نَظْمَ بَرْقِيٍّ خَرِبٍ ، وَيَأْكلُ النجاشي على أَطْباقٍ من ذَهَبٍ ، غيرَ أن أَكْثَرَ مَسَاكِينِ مدنه الثلاثِ من الوَثْقِ<sup>(١)</sup> ، وهو قد دَعَا بِمَجْلِسَيْنِ ليقومَ عليهما الوحيدُ على المواقفة بِهَرِّ الرُّؤُوسِ ، وهو مع ذلك قد كان من النباهة ما رَوَّجَ معه أحدَ أمرائه بِقَرْيَةٍ لِلْمَلِكِ قُطْنٍ يَابَانِيٍّ في سنة ١٩٣٢ حين مَنَحَ اليابَانِ امتيازاتٍ عَظِيمَةً .

وَإِذَا مَا أَقَامَ النجاشي مَهْرَجَانًا تَرْوِيحًا لِحَرَمِهِ فَصَلَّتْهُ هُوَ وَحَاشِيَتُهُ سِتَائِرُ

(١) الوقت : صغار الحطب الذي تَصْبِحُ بِهِ النار .

### رئيس التصرفات

متسرحية كثيرة من الرواق الذي يُعبد فيه ألفا جندى، وتترى بجانب من الستار منظرًا من مناظر القرون الوسطى، ترى ضباط القصر جُثيًا، وتترى ملكًا يأكل ويشرب ويسمع لمن، ويهنمن، وتترى في الجانب الآخر جمهورًا جالسًا القرفصاء حول موائد منخفضة صاحبًا مصفًا لينسجم هو وجوقة مؤلفة من دُفوف وطبول، وبين الصُفوف تُنصر مئات السيد يُحضرون ضانًا كاملة وأرباع بقر فيمكن كل مدعو أن يقطع حصته بسكينه، ثم يؤتى بطُوت<sup>(١)</sup> مملوءة ماء وبمناشف لنسل الأيدي القذرة بعد المأدبة، ثم يُجلب شراب القسل في براميل والجمعة في دنان<sup>(٢)</sup> فيملا عيّد آخرون أكوابًا وقُرُونًا للشرب، ويرفع الستار في آخر الأمر فتجبر الحُضور للنجاشى ساجدين، وهكذا تُشد في يوم واحد مشاعر ثلاثين ألفًا من الرعايا الأوفياء.

ورئيسُ التشريفات أكثر رجال الحبسة همًا، وذلك لأن الألف من كبار الموظفين هم في دور الانتظار بحكم المقام والرسام، وإلى أي مدى يكون صدرُ النجاشى مُجردًا، وما هو المقدار الذي يجب أن يكون به بدنُ الأعيان كاسيًا؟ وما هو عدد الدفّافين<sup>(٣)</sup> والطبّالين الذين يجوز أن يتقدموا أحد الموظفين في الطريق، أي إلى أي مدى يحق لموسيقاه أن تكون صاخبة، وإلى أي درجة يجب أن تكون موسيقى الموظف التابع أقلّ ضجيجًا؟ ومن ذا الذي يحق له أن يلبس سروالًا كسروال النجاشى أو ممانلاً لسراويل الوزراء؟ ومن ذا الذي يكون على مقبض سيفه شيء لوح مدّفي؟ ومن هم أصحاب الامتيازات الذين

(١) الطُوت : جمع الطلت، وهو إناء من نحاس لصل الأيدي — (٢) الدنان : جمع الدن، وهو الراوند النظيم لا يقعد إلا أن يحفر له — (٣) الدفّاف : الضارب بالدف.



## الهرم الحيدى

يستطيعون أن يتحصلوا بعض الألوان لمطافهم ومطالهم ؟ هذه هي المسائل التي تشغل بال الأشراف في طول البلاد وعرضها ، وهي مصدر كل سلطان ، وبفضل علامات الشرف هذه يتمتع بملاذ الحياة .

وتُبصر على ذروة الهرم الحبشى إمبراطوراً واحداً ، وتُبصر ألوف السيد دونه ، والواقع أن الحجارة في الهرم يثقل بعضها على بعض ، فلي المرء أن يسعى ليكون فوق غيره إذن ، على أن النجاشى إذا ما أراد أن يكون عادلاً لم يستطع أن يرى كل شيء ، فالجبال أعلى من هرمه ، ولم يتحدث حتى الآن أن بحث رجل أبيض بحثاً عميقاً عن لُصوحيّة الإقطاعيين في المدن والقرى والمراعى وضياف الأودية العليا ، وعن الأساليب الجديرة بالقرون الوسطى قيعيش بها الأمراء والشرفاء والقساوسة على حساب مروضيهم ، وليس للضباط والموظفين شهرتات أو لا يَفْقِضُونَ غير رواتب هزيلة فتجدهم يتهبّون الشعب مع ازدرائهم إياه كازدراء الشعب لفقراء الضباط والقسوس ، ومما يروى أن راساً أتر وهو يُحتَضَرُ قائلاً : « ادفنوا مع ترك ذراع لي خارج التراب حتى أستطيع أن أجيّ ضرائب » .

ومن ذا الذي يشعر بخافٍ نسو إلى العمل في هذه الدولة التي لا يكون غير الموظفين أصحاب مال فيها ؟ وكل شيء هنالك خاص بالنجاشى ، والنجاشى لا يُقطع الثمرين أرضاً إلا لكي يجمعوا ضرائب عالية ، ومثل هذه الضرائب لا تُجبي في بلاد سيئ الزراعة كذلك البلد إلا بالإغضاء عن اللصاص<sup>(١)</sup> والنخاسة ، ولا يُجد غنياً يشغل هنالك ، وتجار المسلمين وحدهم ، وهم أوسع حيلة من النصارى ، يتالون بعض الربح من السلع التي يُصدّرها النجاشى كالعلاج والبُنّ والشمع والجلود ، أى

(١) اللصاص : الصومية .

ما تَمْدَل قِيمَتُهُ ثَلَاثِينَ مِليونَ دُولَارٍ<sup>(١)</sup> دَعَّ عَنْكَ حَسَابَ الذَّهَبِ .  
وليس النقودُ النَهِيمةُ هي التي يَمَزُقُها الجَمِيعُ وَيَرَضَى بِهَا ، وإنما هي الدُولاراتُ  
الْقِصِيَّةُ الْكُبْرَى الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى صُورَةٍ عَاهِلَةٍ بَعِيدَةٍ يَمْجَهُلُهَا النَّاسُ فِي الْحَبَشَةِ جَهْلًا  
تَامًا ، فَمَا حَدَّثَ مِنْذُ قَرْنٍ وَنِصْفِ قَرْنٍ أَنْ أُدْخِلَ نَمَسَوِيُونَ مِنْ بُجَّارِ الشَّرْقِ  
الْأَدْنَى تَالِيَةَ مَارِي تِيرِيز ، فَلَمْ يَنْقَطِعْ ضَرْبُ هَذِهِ النُّقُودِ مِنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ لِهَذَا  
السَّبَبِ ، وَيُسْتَحَبُّ أَنْ تُلَوِّثَ النُّقُودُ قَبْلَ أَنْ يُتَدَاوَلَ بِهَا لِرَفْضِ الْقِطْعِ الْإِلَامَةِ  
مِنْ قِبَلِ سَكَانِ الْبِلَادِ الْأَصْلِيِّينَ ، وَعِنْدَ يَكْرَأَنَّ سَبَبَ خُطْوَةِ هَذِهِ النُّقُودِ هُوَ  
وُضُوحُ قُوَّسِهَا الْبَارِزَةِ .

وليس لِنَصَارَى الْحَبَشَةِ ، بَدَ اتِّصَالِ قُرُونٍ بِالْحَضَارَةِ ، حَتَّى اخْلَاقُ الْأَوْغَنْدِيِّينَ  
الْوَثْنِيِّينَ وَأَوْضَاعُهُمْ قَبْلَ وَصُولِ الْبَيْضِ الْأَوَّلِينَ ، فَالشَّعْبُ يُمَزَّقُ اللَّحْمَ الَّتِيءُ  
بِالْأَسْنَانِ ، وَهُمْ لَا يَخْتَلِفُونَ عَنِ الْأَنْمَارِ فِي ذَلِكَ إِلَّا بِقِطْعِهِمُ اللَّحْمَ بِسَكَكِينِهِمْ بَيْنَ  
أَسْنَانِهِمْ ، وَالْأَغْنِيَاءِ مِنْهُمْ ، وَيَلْبَسُونَ قَلَانِدَ كَثِيرَةً مِنْ ذَهَبٍ وَرِيَشٍ ، لَا يُفَكِّرُونَ  
إِلَّا نَادِرًا فِي تَعْلِيمِ أَوْلَادِهِمْ شَيْئًا غَيْرَ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ ، وَقَلِيلًا مِنْ تَارِيخِ بِلَدِهِمْ  
وَجُغْرَافِيَّتِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، وَمَعَارِفَ ضَيْلَةٍ عَمَّا يَمِيشُ فِيهِ مِنْ حَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ ،  
وَلَا تَرَى هُنَا شَيْئًا مِنْ مَهَارَةِ زَوْجِ إِفْرِيقِيَّةِ الْفَرِيَّةِ ، وَتَقْتَصِرُ الْمَوْسِيقَى عَلَى الْأَوْرَادِ  
الْكَنْسِيَّةِ الْمُمِلَّةِ وَعَلَى صَوْتِ الدَّقُوفِ وَدَرْدَابِ الْعُطُولِ ، وَلَا تُبْصِرُ رَقَصًا قَوْمِيًّا ،  
وَلَا تَعْرِفُ الدُّشْمَى الَّتِي هِيَ أَلْمُوبَةُ جَمِيعِ الْقَبَائِلِ الرَّثِيمِيَّةِ ، وَتُلْعَبُ لُبَّةُ الدَّامَا  
وَضَرْبُ مِنْ لُتْمَةِ الْكُرَّةِ وَالصَّوْلَجَانِ .

(١) كَانَ دُولَارُ مَارِي تِيرِيزِ يَمْدَلُ فِي سَنَةِ ١٩٣٤ ثَلَاثَةَ وَثَلَاثِينَ دُولَارًا أَمْرِيكِيًّا .

وكيف يُدَاوِمُ شعبُ بُرْسِيلَ في كلِّ سنةٍ أُلُوفَ الْحَبِيجِ إِلَى الْقُدْسِ عَلَى السَّكَنِ مَعَ الْأَنْعَامِ فِي أَكْوَاخٍ مَصْنُوعَةٍ مِنْ سَوَقِ الشَّجَرِ مِنَ التَّوَسِجِ<sup>(١)</sup> وَالشَّشْبِ وَالتَّبَعْرِ، أَيْ يَأْتِي أَمْرًا لَا يُطِيقُهُ مُعْظَمُ الزَّوْجِ؟ وَفِي كُلِّ يَوْمٍ، وَبِالْإِسْلَاسِكِيِّ، تَتَصَلُّ الْعَاصِمَةُ بِأُورْبَةِ، وَيَسِيلُ الْعَاصِمَةُ بِالْبَحْرِ خَطَّ حَدِيدِيٍّ، وَلَا تَرَى، مَعَ ذَلِكَ، طَرِيقًا صَالِحًا لِمُرُورِ الْقَرَبَاتِ، وَيَطْفَحُ الْبَلَدُ بِالْحَدِيدِ وَالرُّخَامِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ ابْنُ الْبَلَدِ أَنْ يُجْنِذَلَ شَجَرَةً مَعَ ذَلِكَ، وَابْنُ الْبَلَدِ يَحْمَرُّهَا بِالْقَرَبِ مِنَ الْأَرْضِ إِسْقَاطًا لَهَا مَعَ ذَلِكَ، وَلَا تَقُولُ إِنَّ التَّوَمَ هُنَاكَ لَا يَزَالُونَ يَعْيشُونَ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى، فَقَدْ دَخَلَتْ الْحَضَارَةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ فِي الْحَبَشَةِ قَبْلَ دُخُولِهَا فِي فَرَنْسَةِ بَرْزَنْ طَوِيلٍ، وَمِنْذَ نَحْوِ ثَمَانِينَ سَنَةً، أَيْ أَيَّامَ الْحَمَلَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ فِي سَنَةِ ١٨٦٢، اخْتَرَعَ الْأَجْبَاشُ عَذَابًا جَدِيدًا قَائِمًا عَلَى شِدَّةِ الْأَسَارَى بِالْوَتَاقِ<sup>(٢)</sup> وَقَتْلِهِمْ بِإِدْخَالِ مَسَامِيدٍ طَوِيلَةٍ إِلَى صُدُورِهِمْ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ جِبَّتَهُمْ مَصْدَرُ هَذِهِ الْوَحْشِيَّةِ، وَأَنَّ الْمَطَرُ وَالرَّيْحَ وَالْجِبْلَ وَالسَّيْلَ مَصْدَرُ هَذِهِ الْجَبِيلَةِ.

وَمِنَ الْعَطِيبِيِّ أَنْ يَظْلَعَ عَاطِلًا مِنَ الْحِرَاثَةِ وَالنَّقَافَةِ ذَلِكَ الْبَلَدُ ذُو الْجِبَالِ الْمَوْحِشَةِ وَالَّذِي تَتَحَوَّلُ طَرَفُهُ فِي كُلِّ صَيْفٍ إِلَى أَنْهَارٍ وَالَّذِي يَسِيرُ عَلَيْهِ أَشْرَافُ مُتَحَارِبُونَ يَحَافِظُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِجَبُوشٍ مِنَ الْمَيْدِ، وَلَا يَطْمَئِنُّ الْقَلَّاحُ إِلَى النَّدِّ وَلَا يَفْرِفُ مَصِيرَ أَرْضِهِ فَيُثِيرُ طَرَفًا مِنَ الْخَلْفِ مُتَرَاخِيًا وَيُلْجَأُ إِلَى أَحَدِ الْخَائِبِ الَّذِي تَكَثَّرَ فِي

(١) التَّوَسِجُ: مِنْ شَجَرِ التَّوَكِّ — (٢) الْوَتَاقُ: مَا يَشُدُّ بِهِ مِنْ قِيدٍ وَجِلٍ وَنَحْوِهِ.

البراكين الهامدة ، وتَنَمُّو البسالة والقسوة هنالك تحت ظِلِّ نصرانية مُشدَّبة تشذيباً غليظاً .

وما تُنبِصره من نُدوبٍ <sup>(١)</sup> سَكنِي <sup>(٢)</sup> كثيرة في الأولاد قَيْنِم على الأسلوب الذي يُلقَنُون به الشجاعة ، والبطل هو الذي يُمَسِّك في يده عَصَافَةً <sup>(٣)</sup> ملتهبة أو خشبة مشتعلة في أطول زمن ممكن ، وإن التَّينِياء <sup>(٤)</sup> ، التي جعل الإفراط في أكل اللحم التي . والتقدرة منها مرضاً قوياً ، هي من كثرة الشُّيوع ما يَبْدُو بعض القبائل عدم وجودها معه أمراً مُخْزِياً ، أَجَلْ ، إن الزَّنجِيَّ يَخْضِي المرض ، ولكنه لا يسير على غرار كثير من القبائل الحَبَشِيَّة فيَحْرُقُ يَتَأَمَّلُ على مُصابين بالجُدْرِي ويَمْنَع هؤلاء الترفُّض من القرار بقوة الحِرَاب ، أَجَلْ ، إن الزَّنجِيَّ يَمَلُقُ رأس عدوه المهور في ميدانه عام ، ولكن الحَبَشِيُّ يَحْمِلُ على زُنَّارِهِ قضيبَ عدوه المقتول كخِزَام الفَشَك <sup>(٥)</sup> وكأية على الخِصَاء الذي هو من خواص ذلك البلد ، أَجَلْ ، إن النصراني الأبيض يَذْبَح بقرأ أيضاً ، ولكنه لا يُوَجِّهه في بدء الأمر شَطْرَ القُدُس <sup>(٦)</sup> صارخاً : « باسم الآب والابن والروح القدس ! » ، أَجَلْ ، إن الزَّنجِيَّ يأكل اللحم التي ، ولكن اللَّسَانِي يَحْكِرُونَ أفضَل المادَات الحَبَشِيَّة ، فهم إذا ما أَوَلَمُوا <sup>(٧)</sup> أَتَوَا بِتَوَرُّ إلى الرِّذْهَةِ وقَطَعُوهُ حياً من غير مَسِّ شرايينه لكي يموت بِتَزْيِفٍ بطيء على أعين الضُّيُوف وهو يَخْجُرُ <sup>(٨)</sup> ، ولا تزال هذه المادَةُ قَائِمَةً منذ قرون وإن أَتَكَرَّ أمرُها ، وهي لم تَزَلْ ، وقد وَكَّدَ الرُّوَادُ الماصرون خبرها كما وَكَّدَهُ

(١) الندوب : جمع الندبة ، وهي أثر الجرح الباقي على الجلد — (٢) السَكنِي : إحقاق الجلد بمجديدة ونحوها — (٣) العَصَافَةُ : ما سقط من السيل كالطين — (٤) التَّينِيَاء : هي جنس من الدفئان الرميضة الطفيلية ، وتعرف بالدودة القريطية والدودة المتريضة — (٥) Cartridge . (٦) شَطْرَ القُدُس : نحو القُدُس — (٧) أَوَلَمَ : عمل الوليمة — (٨) خار البقر : صاح .

الزَّوَادُ السَّابِقُونَ ، وأى الرجلين أَكْثَرُ ضَرْقَةً : آ الرَّجُلُ الَّذِي يَأْكُلُ لَحْمَ إِنْسَانٍ  
مِيتَةٍ أُمَ الَّذِي يَمَضُو<sup>(١)</sup> حَيَوَانًا حَيًّا ؟

ومن شَأْنِ الْخِرَافَاتِ ، الَّتِي يَسْتَرِ الْخُوفُ تَحْتَهَا لَدَى الْقِسَاءِ ، أَنْ تَزِيدَ اضْطِرَابَ  
الشَّاعِرِ ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْحَبَشِيَّ يَتَلَفَّفُ لِبَلًا فِي نَسَاجِ خَشْيَةِ الْأَلَمِ<sup>(٢)</sup> ،  
فَالزَّوْجَانِ الْمُزْمَلَّانِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ يَشَاهِبَانِ الْأَجْسَامَ الْمُحْتَطَّةَ .

وَالْفَلَاطُ حُرُكَاتٌ جَمِيلَةٌ أحيانًا ، وَالْفَلَاطُ يَقُومُونَ بِأَوْضَاعٍ قَتْمَةٍ قُوبَضًا  
مِنْ أَعْمَالٍ أَتَوْهَا مِنْ أَفِيَةِ الْأَدَبِ وَإِعَادَةِ لِنِظَامِ قُوضُوا دَعَائِهِ ، وَإِذَا مَا اتَّقَى رَجُلَانِ  
رَاكِبَانِ ضَلِيلَيْنِ تَرَجَّلَا قَبْلَ أَنْ يُسَمَّ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ ، وَرَفَعَا مِنَ الصَّدْرِ طَرَفَ  
نُوعٍ مِنَ الْحَلَّةِ يَتَخَذُونَهُ ثَوْبًا ، وَهَذَا كَمَا تَجَرَّدَا كَانَ ذَلِكَ دَلِيلَ احْتِرَامٍ عَمِيقٍ .

وَالنَّكَاحُ سِرٌّ مُقَدَّسٌ يَسْتَطِيعُ كُلُّ وَاحِدٍ أَنْ يَأْخُذَ بِهِ مَا طَابَ لَهُ مِنَ النِّسَاءِ ،  
وَيَكُونُ جَمِيعُ أَوْلَادِ الرَّجُلِ شَرِيعِينَ خِلَافًا لِأَوْلَادِ النِّجَاشِيِّ ، وَتَنَالُ كُلُّ زَوْجَةٍ  
مَا تَدَّعِيهِ مِنَ نَفَقَةٍ ، وَعَلَى مَا يُقْضَى هُنَاكَ مِنْ حَيَاتِهِ جَدِيدَةٍ بِالْقُرُونِ الْوَسْطَى تَرَى  
النَّاسَ يَتَمَتَّعُونَ بِنِظَامٍ عَصْرِيٍّ تَامَ الْجِدَّةُ ، وَهُوَ الزَّوْاجُ التَّجَرِّيُّ مَعَ الشُّعَارِ :  
« لِنُبْصِرْ هَلْ تَحْمِلُ أَوْلَادًا » ، وَتَرْتَبِطُ الْبَنَاتُ بِأَبْوَيْهِنَّ فِي الزَّوْاجِ الْأَوَّلِ بَيْنَ السَّنَةِ  
الْحَادِيَةِ عَشْرَةٍ وَالسَّنَةِ الثَّلَاثَةِ عَشْرَةِ ، ثُمَّ يَصْبَحْنَ حُرًّا فِي الْإِخْتِيَارِ ، وَإِذَا لَمْ تَحْمِدِ  
الْبَنْتُ النِّفْيَةَ زَوْجًا اتَّخَذَتْ لَهَا خَلِيلًا عَاشِقًا فَتَدْفَعُ إِلَيْهِ جُحْلًا وَتَصَالُهُ مِثْلَ خَادِمٍ ،  
وَهُوَ يُدْعَى « قُوْنِيْتِيَا » أَوْ « طَاهِيَا » ، وَيُلْزَمُ أَنْ يَعِيشَ فِي الْجِرَارِ وَأَنْ يَظَلَّ وَفِيَّ  
لَهَا مَعَ احْفَاطِهَا بِمَجْرِيَّتِهَا !

(١) غُضَا الْمَيُونِ : جَزَاءُ — (٢) الْأَمَةُ : الْمَيَنُ الَّتِي تَصِيبُ بِهِ ، وَكُلُّ مَا يَخَافُ مِنْ  
نَزْعٍ وَشَرٍّ ، وَهَذَا : « أَعْيَنَهُ مِنْ كُلِّ هَامَةٍ وَأَمَةٍ » .

## بيع الزوجات

ولا يَحِقُّ للمخاطب أن يَرْوَرَ خطيئته ، فإذا فعل ذلك وَجَبَ عليها أن تَفِرَّ مذعورةً عند وصوله مع أن من حقوقها أن تستقبل شاباً آخرين أفراداً ، ويَجْهَلُ الأحباشُ القُبْلَةَ ، وإنما يَذْكُرُونَ مَقَابِلَةَ مَيَّامِنْ أَنْوْفِهِم بِالسَّبَّابَاتِ <sup>(١)</sup> ، وهم يشترون أزواجهم كالزَّوْجِ ، وهم كالبيض يُؤْلَوْنَ وَيَقْصُفُونَ <sup>(٢)</sup> يومَ الزَّوْاجِ ، حتى إنه يُدْعَى إلى المأدبة « تَلْقَامٌ » <sup>(٣)</sup> يتلع خمساً وعشرين لَبَنَةً من الجِعة ويلتهم من الطعام مثلَ هذا المقدارِ وتُشابه هذه الجِعةُ شرابَ الصل ، وهي لا تُشْرَفُ ، كما في الألمانية ، بأسماء الملوك والنسَر والأسد ، وهي تُسَمَّى شرابَ الفلأ ، أى « شرابَ العبد » .  
والقسُّ يُمَثِّلُ دوراً مهماً عند الولادة وإن كان غيرَ ذى قيمةٍ في حفلة الزَّوْاجِ ، ويَجْتَنِبُ الرجالُ الآخرونَ يَبْتَغِ النَّسَاءَ خَوْفاً من التدنُّسِ ، وهم يَفِرُّونَ تحتِ وابلٍ من سَخَرٍ صدائقِ الأمِّ الفتاة ، وليس للزوج غيرُ حقٍّ رَكَزَ حَرَبَتِهِ فِي وَسْطِ البابِ ليكون الوليدُ شجاعاً ، وينشأ عن اعتقاد دَنَسِ الزوجة ، وهو اعتقاد غريبٌ لدى النصارى ، منعها من صُنْعِ خُبْزِ الذبيحة ، والزَّوجَاتُ يُخَاطَبْنَ أزواجهن بصيغة الجمعِ المخاطَبِ ، والأزواجُ يُخَاطَبُونَ زوجاتهم بصيغة المفردِ المخاطَبِ ، ويسَهَلُ حُلُّ النكاحِ كما يَسَهَلُ عَقْدُهُ ، وَيُمْكِنُ الزَّوْجُ أَنْ يَبِيعَ زَوْجَتَهُ نَيْلًا لِلْمَالِ ، والزوجةُ تَصْنَعُ ما ترى انتقاماً لنفسها .

(١) السبابة : الأصبع التى بين الإبهام والوسطى — (٢) قصف : أقام فى أكل وشرب وهو وأكثر من ذلك — (٣) التلقام : العظم اللحم .

ونوح هو مصدر الخطأ ، ولا ريب في أنه كان نشوان حين لقن ابنه حاماً وحكم عليه بأن يخدم إخوته ، فصار جميع تجار الرقيق يستشهدون به ، ولم يعرف ماذا كان يفعل ، فما كان حام شراً من سام ، ولم يقل ما أتاه اللاحاميون من ظلم عما أتاه اللاساميون ، ومهما يكن الأمر ، وعلى ما كان من اضطهاد اليهود ، فإن ورطة اليهود دون ورطة حقة حام الذين قصوا حياتهم موثقين بالقبود ، أو عدوا سلباً وظلوا عبيداً حتى الساعة الحاضرة ، والحق أن المظهد يمكنه أن يصارع وينتصر ، وأن قيمته الشخصية تزيد بمقلومته ، وهو إذا ما قهر وذعر صبر ووجد في الانتقام القادم سبب سرور له ، والبدء مع ضياع الحرية يتخسر أمل الانتقام ، وإذا ما جرت القيد جيلاً بعد جيل ذبلت المشاعر كذبول الأعضاء المظلة وزالت في نهاية الأمر ، ويلوح أن نظرة الأسد الذي ولد في الأمر نيم على أنه يعلم فضل القضيان له عن الحرية في غابة آبائه ، وعاد العبد لا يدافع .

وفي ذلك تفسير للسر في وجود عيد منذ سبعة آلاف سنة وفي قلة عصيانهم ، وتاريخ العيد أطول من تاريخ الطوائف الأخرى ومن تاريخ السكينة ، وكان لأكابر محيي الإنسانية عيداً ، وكان للحكيم سولون<sup>(١)</sup> وللمادل ليكورغ<sup>(٢)</sup> عيد ، وكان قيصر يسيطر على إمبراطورية ثلاثها عيداً ، وما كان للسلمون أحسن سيراً ،

(١) سولون : مشرع أثينة ، وأحد حكماء اليونان السبعة (٦٤٠ — ٥٥٨ ق.م) .

(٢) ليكورغ : مشرع إسبارطة ، وقد عاش في القرن التاسع قبل الميلاد .

### الكنيسة والميد

ولكنهم كانوا أقوى دليلاً، وكان محمد، كجوستينيان<sup>(١)</sup>، الذي عاش قُبَيْل ظهوره، شاعراً بما بين مذهب وبين الرِّقِّ من تناقض، وهو لم يُبَدِّ من الإقدام ما يَدُّكُ به رُكْنُ الدولة ذلك مع ذلك مكثياً بأمره بالرِّقِّ بالرقيق، وهو قد أخضع الكافرين من غير إكراهٍ على اعتناق الدين، واليوم يمتنع المسلمُ في بلاد الرِّقِّ عن حَلِّ الزَّنجيِّ على الإسلام لِمَا يُوْدِي إليه إسلامه من إعتاقه، ولا مكانَ هنا لتَصْنَعِ العَنَان، ولا أحدٌ يَرْمُ تساوى الناس، الله أكبرُ، ودَعْنَا نبيع الكافرين في دار الحرب إذَنْ ! ولم يَقْمَلِ الخَلْفُ بما أمر به صاحبُ الشريعة من رِفْقٍ بالموالي.

والرِّقُّ في عهد أشدِّ ملوك إسبانية كَثَلَكَةً دام حتى القرن السادس عشر فذلك ما أدَّثر به من رِذَالٍ رثا على درجة ابتعاد دين عيسى عن مذهب صاحبه أكثر من ابتعاد دين محمد عن مذهب صاحبه، ولَمَّا بدأ البرتغاليون، قبل كريستوف كولومبُس، بتجارة الرقيق في الشاطئ الإفريقي الغربي كان لهم بلونٌ جلود ضاياهم راحةٌ ضمير، ولَمَّا أخذوا يَتَصَيَّدُونَ الناسَ وَيَرْدُرُّونَهُمْ بِالْأُلُوفِ فوق سُفُنِهِمْ وينقلونهم إلى أمريكا الجنووية اقتطافاً لثمراتِ البلاد الحارة واستخراجاً للذهب أوجبوا بذلك غزاً ومضنوفاً جاوز بنتائجه جميع ما تقدَّمه من المنازى، وتخلَّوْا إفريقية، وبمِلُّ الذهب من أمريكا ويُبْثَرى الرِّزَاعُ وَيَقَى الزوج.

وكما باع المسلمون النصارى يَبِيعُ النصارى الوثنيين في العصر الحاضر، وقد صرَّح أحد آباء الكنيسة العظام بأن الرِّقِّ عملٌ صالح، وذلك لأنه يُتَبَّحُ لهؤلاء

(١) جوستينيان : من قياصرة الروم، وهو صاحب المدونة المعروفة باسمه، وقد دام عهده من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥.



۱۲ - چمنستان طالق





الكافرين من الخطِّ غير المنتظر ما يتنصَّرون به ، ومن البائِوت من قالوا مُؤكِّدين إن الرِّقَّ نتيجةٌ حتميةٌ للخطيئة الأصلية فكان موضعَ حَدمِهم ، ثم جاء دورُ الإنكليز فأنصَوا معاهداتٍ لإمداد أمريكا بالسيد ، وإذا كان الأُصحاب<sup>(١)</sup> الأولون من الإنكليز فإن شَرَفَ إيقاظ الضمير البشريَّ يَرُجِعُ إلى الولايات المتحدة ، ثم ، هَرَّ كلارك كُسن<sup>(٢)</sup> شعور الإنكليز ، ولكن الرأسمالين من النصارى استعانوا في القرن التاسع عشرَ بزملائهم من المسلمين في تجارة الرقيق ، وما افسكت كتبُ الجغرافيا المدرسية ، حوَالَى سنة ١٩٠٠ ، نَعْدُ المَاجَ وريشَ النِّعَامِ والمطَّاطِ والرقيقِ مُنتجاتٍ لبعض الدول الرِّمِّيَّةِ ، والواقعُ أن كلَّ من لا يَحْمِلُ سِيفاً أو قَلْبَسَوَّةَ راهبٍ في الحَبْشَةِ يُحَسَّبُ عبداً .

وكانت الحَبْشَةُ منذ القرن الثامن محاطةً بمسلمين يستبدون أسارى النصارى ، وهل يوجَدُ ما يُوجِبُ الشكوى من النصارى لسوئهم هذا التَّجَدُّ بعد أن أتاَمَ السلطان ؟ كان يُحِبُّ أن يكونوا أرقى من إخوانهم البيض بأوربة لئلا يفعلوا ذلك ، وقد دام هذا أكثرَ من ألف عام ، ومما رواه مبشرون حوَالَى سنة ١٨٥٠ مشاهدتهم نَحَّاسِينَ من نصارى البرتغال هَدَمُوا قَرْيَ بأسْرِها وذَبَحُوا ١٥٠ زنجي لِيَفْنَمُوا ٥٢ امرأةً ، وكانت الفتاةُ الغُلَّاءُ واللَّيْجَةُ تُساوَى ثَمناً يترجح بين ٢٥ و ٠ ناليراً في أسواق الشمال .

وحاول بعضُ النظرين طويلَ زمنٍ أن يدافعوا عن النِّعَاسَةِ ، ومما كانوا يُشَبِّهُونَهُ خُلُوُّ المهد الجديد من أيِّ حَظَرٍ لها ، وكونُ مبدأ مساواة الناس أمامَ

(١) Quakers ، وتُحمى هذه الكلمة بمعنى المهترن — (٢) كلاركسن : فيلسوف إنكليزي

دعا إلى إلنا، الرق بحملة (١٧٦٠ — ١٨٤٦) .

#### دفاع عن النخاسة

الرب ليس غير « تلطيف » للنص ، وما كانت الثورة الفرنسية التي حاولت تطبيق هذا المبدأ في العتق السلمي ، ولا جهود الأحماب ، لتستطيع أن تقضى على النخاسة ، وكان لا بد ، بلوغ ذلك ، من سيادة النظام الآلى الذى يؤدى إلى بطالة كثير من الناس ونقص قيمة العبيد في بعض الأصناف على الأقل ، ويُنْتِج نقص أمان السبيد عن نقص في الشَّخْط ، ويَجِدُ الرأسماليون البيض ، ويَصِفُون بالحدَر دوماً ، فرّقاً بين الرِّقِّ والاجتار بالزَّنوج ، فيحكُمون على الأول مع الاستنكار ( لخلوّه من الرِّج ) ويدأومون على مزاولته الثانى ، وكيف يمكن الأجاش ، الذين يُجْهِزُهُم إخوانهم في المسيح ينتم الحاضرة ، أن ينالوا هذه النعم من غير بيع عاج وأناس ؟ أجل ، إن صيد الناس نقص إذا قيس بما كان عليه في القرن السادس عشر ، ولكنه لم يُبْطَل تماماً ، والحلُّ الحاضر من القيمة ما لمبدأ التَّنَاضُح الذى يُرَى له ، ومن شأن إلتناء السلاح أن يؤدى إلى نظام أمورٍ جديد ، وعن العبيد قال سيك : « إنهم مسحورون ، فهم عاطلون من الشعور بقوتهم عطلّ الحيوانات الأهلية » . .

ومن براهين البيض من النصارى أن الإعتاق الفوريّ يؤدى إلى نفسِ أناسٍ غير أهلٍ للحرية وارتباكهم بحسٍّ مسؤوليّة جَهِلُوهَا في كلِّ زمن ، ولا مرآة في أن من الشَّاهِد رجوع حيواناتٍ إلى أقفاصها بعد أن مُرِّحَتْ ، ولكن صِفَارَهَا التى وُلِدَتْ حُرَّةً لم تَفْعَلْ مثلاً هذا قطُّ ، ولا يَصْلُح رِفْقُ بعض النَخَّاسين ، الذى يَذْكُرُهُ المدافعون عن الرِّقِّ ، أن يكون دليلاً مقبولاً أكثر من تمجيد مِرْوَةِ الطَّنَاة ، وما يُرَى وجود عبيدٍ يُعَامَلُونَ بأحسن مما يعاملُ به الخَدَمُ لِمَا لَا يُبْرَرُ عنه الخَدَمُ بشين ، وما يُرَى وجود قبائل كثيرة في الحبشة تَمُدُّ من

الجَوْرَ يَبْتَغِ عَبْدٌ أَقَامَ بَيْنَهَا زَمَنًا طَوِيلًا ، وَلَكِنْ مِثْلَ هَذَا الْعَبْدِ يَكُونُ مَهْدَدًا بِالْبَيْعِ عَلَى الدَّوَامِ .

وَيُرَى مَعَ التَّوَكِيدِ أَنَّ السُّلَمِينَ أَكْرَمُ مِنَ النَّصَارَى فِي ذَلِكَ ، وَمِنْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ مِنْ أُمَةٍ يُلْزَمُ بِتَحْرِيرِهَا مَعَ أَنَّ قِسَاوَةَ النَّصَارَى لَا يُشْتَقُونَ عِيْدَهُمْ ، وَبِمَا أَنَّ الْقُرْآنَ يُحَرِّمُ الزَّوَاجَ بِأَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعِ نِسَوَةٍ فَإِنَّ مِنَ النَّادِرِ أَنْ يَتَزَوَّجَ الْمُسْلِمُ أُمَةً كَانَتْ سُرِّيَّةً لَدَيْهِ ، وَالشَّرِيعَةُ تَكْلِفُ<sup>(١)</sup> الْعَبْدَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، فَالْعَبْدُ يُحَرَّرُ إِذَا مَا قَفَا سَيِّدُهُ عَيْنَهُ ، وَهَذِهِ مِبَادِلُهُ جَهَنِمِيَّةٌ أَدْعَى إِلَى الْفَرَجِ مِنْ حَقِّ الْقَتْلِ !

وَمَا هُوَ مَصِيرُ الْعَبْدِ بَعْدَ أَنْ يُحَرَّرَ ؟ هُوَ يَعُدُّ نَفْسَهُ ، مِنْ فَوْرِهِ ، مَسَاوِيًا لِأَيِّ شَخْصٍ كَانَ ، وَهُوَ يَدْعُو الشُّوَدَّ الْآخَرِينَ بِالْوَحْشِ ، وَهُوَ إِذَا مَا اكْتَسَبَ ، أَوْ سَرَقَ ، مَا لَا اشْتَرَى عَبْدًا ، وَامْتَنَعَ عَنْ كُلِّ عَمَلٍ وَقَطَاعِي النَّخَاسَةِ مُقَصِّلًا إِيَّاهَا عَلَى غَيْرِهَا ، وَإِذَا أَنْ خَوْفَ الرَّبِّ ، لَا السَّبَبَ الْأَدْبِيَّ ، هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ تَحْرِيرَهُ فَإِنَّهُ يُوْدِي إِلَى أُمُورٍ لَا أَخْلَاقِيَّةَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ عَمَالَ الْإِنْسَانَ تَكُونُ ذَاتَ رَدٍّ فَعَلٍ فِي تَتَابُعِهَا ، فَالْعَتِيقُ الْقَاجِرُ الْكِسْلَانُ الْمُتَفَنِّخُ يَحَاوِلُ كَتْمَ مَاضِيهِ وَتُفْهِدِ مُسْتَقْبَلَهُ ، وَهَذَا الْعَتِيقُ إِذَا مَا أَفْلَسَ عَادَ إِلَى مَوْلَاهُ الْقَدِيمِ وَرَكَّعَ أُمَامَهُ ، وَتَعَدَّلَ الْجَنَائِيَّةَ الْقَدِيمَةَ فِي إِبْقَاءِ الرَّجُلِ عَبْدًا بِسَبَبِ مَوْلَاهُ جَنَائِيَّةَ حَرَمَانِهِ كُلِّ حَقٍّ بِسَبَبِ عَقِيدَتِهِ ، وَالْمُؤَقَّتَةَ وَحْدَهَا ، لَا الْمَعْنَرَةَ وَلَا الْمَغْفَرَةَ ، هِيَ الَّتِي تُزِيلُهَا .

(١) كَلَامُهُ : حَفَظَهُ وَحَرَسَهُ .

كان يجوب أوربة كردينال، حوالى سنة ١٨٨٠، فينطق بمواعظ نارية ضد الرق، ويتبارى سادة الدنيا في تنظيم الولائم وفي إلقاء الخطب، ولكنهم لم يغيروا شيئاً تقريباً، ولم يبلغ الرق في روسيا وفي الولايات المتحدة إلا منذ عشرين عاماً قبل ذلك التاريخ، ويستفعل الأمر، ويتربب العالم النصراني من إمكان وجود عبيد من النصارى في الخيشة، وكان القمص النجاشي يوحنا قد حاول منع النخاسة، وقد كلم أحد الشياح الفرنسيين منليك عن الشنط الذي أثاره الكردينال لافيجيرى ضد النخاسة، ويفكر النجاشي في الأمر ثلاثة أيام، ويصدر مرسوماً ضد النخاسين المسلمين، ويأمر بتسريح كل أسير حرب في سبع سنين، ثم يذبح خبر تحرير بضعة آلاف من الآدميين، ويشترك رسمياً في عهد مكافئة الرق بروكسل الذي ينص في مئة فقرة على أمور حاول بعض الموقعين أن يتخلص منها.

ويخصى عام على ذلك المرسوم الأول الذي أصدره منليك فيبيع هذا النجاشي لجنوده أن يقتنوا عبيداً، ولما أيقن أمر تقديم أرقاء إلى بعض الضباط الأخلياء رضى بأن يهدى إليه عبيد مثلهم أيضاً، وكان محتاجاً إلى تجار من المسلمين لبيع الذهب والمانع فأغض عينيه، ويُبصر دوام « منافاة الأدب » في دولته فيود أن يستفيد منها، ويطالب بتاليرين عن كل عبد يُباع، فيعيد الانسجام إلى عاله بهذه العبقرية.

## جمعية الأمم والرفق

ومع ذلك يكون عَمَلُ جمعية الأمم شاقاً إذا ما أُلْقَتْ حِلَقاً وأُوجِدَتْ فيه شُرْطَةٌ أدبيةٌ فوق العروق والعقائد ، وما الذي ظَفِرَتْ به جمعية الأمم ؟

حلَّ اليومُ التاسعُ من شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ فَرَفَعَ العلمُ الأبيض فوق ميادين القتال في العالم ، وتَحَشَّى بنتُ مَنيليك الإمبراطورةُ حدوثَ انقلابٍ عامٍ فَتَدْبِعُ مرسوماً تَحْظُرُ النُّخَاسَةَ فيه فلم يُقْتَلْ بهذا المرسوم كما أنه لم يُعْمَلْ بالمراسم السابقة ، وَيَسْخَرُ الأشرافُ في أوديتهم العليا من تحريمِ بَيْعِ به دخلهم ويَحْدُ تِجَارَ خَشْبِ الأبنوس طُرُقاً ملتويةً كما يَحْدُ المهربون في جميع البلدان الجبلية .

وإذا كان الرِّقُّ مباحاً فإن النُّخَاسَةَ محظورةٌ ، وإذا كانت بلادُ العرب هدفَ النُّخَاسَةِ وجب على السُّلْطَةِ أَنْ تُجَاوِزَ البحرَ الأحمرَ ، والبحرُ الأحمرُ مما تَمَخَّرُ فيه سَفُنُ البَيْضِ وقَطَعَ مِهْمَةٌ من الأساطيل الأوربية ، ومن الممكن ، إذن ، أَنْ يُوْخَذَ النُّخَاسُونَ مُتَلَبِّينَ بالجريمة وأن تراقبَ للرافى الثلاثةُ التي يقومون فيها بمهتهم ، وكان النصرُ قد تَمَّ لِلنَّكُولِ في صِرَاعِهِ أصعبَ من ذلك ، ولم يَضَعِ البَيْضُ شَيْئاً .

وفي غُضُونِ ذلك تَلَمَّ الإمبراطورةُ من رُسُلِها أو من بعض الشَّيَاحِ أَنَّهُ يَجِبُ على من يودُّ أَنْ يكون من العالمِ المتمدن أن يصبحَ صاحبَ مَقْعَدٍ في جَنيفَ ، وَتَكَثَّرَتْ المصالحُ التِّجَارِيَّةُ أَكْثَرَ مما للحضارة والدين ، وَتَطَلَّبُ رسمياً قبولُها في جمعية الأمم ، وَنُصِّرَحُ في طلبها بأن النُّخَاسَةَ مُحَرَّمَةٌ في الحِلْبَةِ وأن الرِّقَّ يزول بالتدريج فيها «مع استثناء حال الحرب» ، وهذا الاستثناء مما يَحْدُثُ في كلِّ حين .

وَيَبْنَحُ الدَّبْلُيُونُ عن «الصَّيْفَةِ» التي تنسب بها الحِلْبَةُ إلى جمعية الأمم بدلاً من إقصائها عنها إلى أن يُلغى الرِّقُّ فيها ، ولم ينفك الخبراء في ثمانى سنوات ،

### يبحثون عن « الصيغة »

أى فيما بين سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٣١ ، يبحثون عن تلك « الصيغة » فى الاجتماعات والأجبان والمشاورات والمناقشات وأُخْلِطَبَ والمحاضر والإفطارات والولائم ، وم يُفَجَّبُونَ بِوَجْهَةِ النظر الحبشية القائلة : « حيث يوجد الرِّقُّ لا يكون الأَرِقَاءُ مُنْصَاءً وَلَا يُمَاتَلُونَ بِسوءٍ » .

وترى لَجَنَةُ التحقيق « أن ذوى البأس من الرؤساء يمكنهم أن يَحُولُوا دون إلغاء الرِّقِّ وأن يُحْرِجُوا الحكومة الحبشية بذلك » ، وأن التحرير قد يؤدى إلى « نتائج جالبة للنواب » ، وما كان غير هذا قول وزراء القيصر ، وقول ممثلى دول الجنوب للولايات المتحدة ، وقول ذوى الأملاك الكبيرة ، وقول أنصار سياك التسليح فى الوقت الحاضر .

وتُحَدِّدُ اللُّجَنَةُ بلهجة ذات بهرج من المصاعب التى يؤدى إليها ذلك فى الحبشة من الوجهة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمالية ، « وفى غُضُونِ ذلك يُتَمَتَّى من الدول . . . » .

ولم يكن لدى خبراء جمعية الأمم من الشجاعة ما يَنْشُرُونَ معه جميع التقرير الذى قَدَّمَهُ وكيلهم اللورد لونغارد والذى جاء مُصَدِّقًا لِمَا أبداه الرؤود والسيَّاح من ملاحظات قائلة إن مراسيم النجاشى التى يُبْطِلُ بها الرِّقُّ لم تكن غير حبرٍ على ورق ، وقد أُلِّىَ تقرير سنة ١٩٢٥ مسؤولية ما وَقَعَ من بَيْعٍ جديد لألوف العبيد على كاهل الكهنوت ، وصَرََّحَ راس قوى لسانهم : « نُفَضِّلُ الموت على العُدول عن عبيدنا » . ووردَ فى تقرير قُدِّمَ إلى الحكومة الفرنسية أن تجارة الرقيق فى أديس أبابا تَتِمُّ على رأى من السفراء الأوربيين ، ويُصَيِّفُ التقرير إلى ذلك من دون سُخْرِيَةٍ أن نخاسين شُنْفًا ، ويذكر كاتبان إنكليزيان مؤخرًا



أن الوضع زاد سوءاً بالفتن الأهلية بعد موت منليك ، ويُقدّر أن عدد العبيد هنالك بمخمة ملايين . وتمضي عشر سنين فترى أحد هذين الكاتبين أن مديريات تمحّلت إلى خراب بياب<sup>(١)</sup> بعد ازدهار لبيع أهلها ، وأنه أقام بأديس أبيبا فأخذ النجاشي في أثناء إقامته بها هدية مؤلفة « من ١٤٠ قتي وفتاة ترجع أعمارهم بين ست سنوات وأربع عشرة سنة ، ومن نساء كثير يرضعن طفلاً » . والشئون تمضي ، ولا يُبدى بلد حراكا ، ونيوزيلندة وحدها ، وهي قُطر صغير ، هي التي تحاول إقازد الشرف بما تُصدره من احتجاجات شديدة ، ويُحمل نصف الشعب على اتخاذ وضع عبيد مصر الفرعونية ، فتركع أو يسجد إذا ما أُعطي شيئا ويشرب بباطن اليد (لظفر استعمال الطاسات عليه) ، وهو يشد بالوثاق إذا حاول الفرار ، وفي السفر يقدّم سليل سليمان ، أي مسيح الرب ، عبيد حاملون مشاعل ، أو يستمع إلى جوقه من الخصبان ، وتكتب لجنة جمعية الأمم تقارير ، وتخرى أن على الإكليروس أن يوجدوا جوا ملائما وأن على رجال الدين أن يكونوا أول من يحرّون عبيدهم ، وتبحث تلك اللجنة عن حق السفن الحربية في تفتيش السفن المشتبه فيها ، وتُنكر حقها في الجواب مع إعرابها عن رجائها الحار في درّس هذه المسئلة العويصة .

وتُنبت هذه الأساليب للحكومة الحبشية حاصل ما يُبدىه البيض النصارى من نشاط في الأمر ، وتتلّهي الحكومة الحبشية في إصدار مراسم تنص على مجازاة كل من يبيع عبداً أو يهبه بمثل ما يُجازى به تاجر الرقيق ، ولا أحد يعاقب النخاس ، ويُقدّم مغوّض حبشي إلى جمعية الأمم بمخيف وثيقة تشتمل

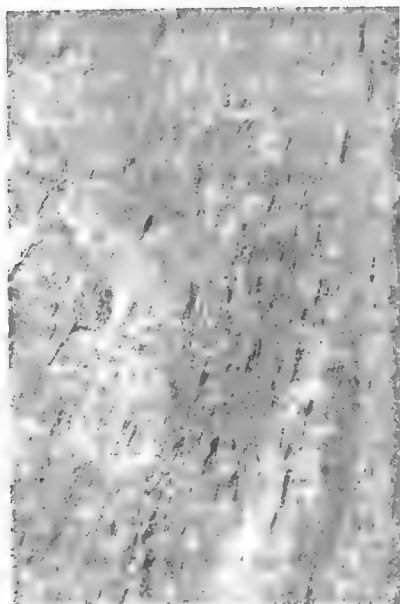
(١) ألياب : الخراب .

على تحرير ٢٩٨ من العيد في أثناء السنة ، وأما ملايين العيد الخمسة فقد ظلوا أرقاء !

وتواتر أسواق العيد مع ذلك ، وعاد لا يدفع نقدًا ثمنًا لهم ، وإنما يُشرون وينادق وقذائف ، ويُنتفع في الخارج بما يُوجبه من اعتراض تقليدي فيقال : إنهم التكفير في مستقبل هؤلاء الناس هو الذي يحول دون تحريرهم ، وإن الحركة الزراعية تنفي في جميع البلد كما وقع في كوتها وهابتي ، وإن المجاعة ثم كاد وقع في أرترية عندما حررت إيطاليا فيها موالى مصريين ، ولا أحد يُبصر أنه لا بُد من وجود نهاية للمجاعة ، مع إن الرق يهلك أجيالاً في قرون ، ولا أحد يعترف بأن النجاشي لا يدفع رواتب إلى موظفيه ولا إلى جنوده ، وأن ضارته تُجبي عبيداً رخص هذه الوسيلة إذا ما حُل العيد على التناسل الكافي ، ولا أحد يذكر أن الشريف يصطاد ويحارب لأنه لم يتعلم شيئاً آخر ، أسمر كان هذا الشريف أو أبيض أو أصفر .

وفوق البحر الأحمر الذي تشق عبابه سفن جميلة في كل يوم ، ومن درجة عرض جدة المخرفة ، وحين يريح النسيم الليلي على سطح المراكب حسناً من متاعب النهار ، تبصر قلوباً<sup>(١)</sup> بيضاً تجري على اللوح ، ويتعمقها ضباط بمنظارهم ، ويتبسمون على ما يمتثل ، ثم يحولون أبصارهم لما لا يجدون في ذلك ما يعينهم ، ومما حدث ذات مرة أن تنبعت سفينة حربية إنكليزية زورقاً من ذلك الطراز ، ويقذف الزئبان جميع العيد من فوق المركب ، ويحمل الإنكليز على إقناذهم بذلك ، ويبرئ بهذه الحيلة ويسأل بعد حين قائلاً : « لم يبلغ الأجانب من حُب »

(١) القلوب : جمع القلب ، وهو شراع السفينة .





العبيد ما يُنْقِدُونَ معه نحو اثني عشرَ منهم تاركين شِرَاعاً كَشِرَاعِي الجبل  
يَهْرُبُ على هذا الوجه ؟ .

وَتُلْقَى قواربُ أُخْرَى مَراسِيهَا بالقرب من جَزَيراتٍ صخرية في البحر الأحمر ،  
وَتُسَلَّمُ حَمَلُهَا إِلَى قاربٍ آخَرَ يَنْقُلُهُ إِلَى الحجاز ، ولا يُوجَدُ لِلنَّخَاسَةِ سُوقٌ فِي جُدَّةَ ،  
ومثْلُ هذه السُّوقِ موجودٌ في مَكَّةَ حَيْثُ يُوفَى بِمِثَالٍ من العبيد على أَنهم من  
الحُجَّاجِ ، وتَقْلَمُ جَمِيعَةُ الأُمَمِ ذلك وتُنظِّمُ تَقَارِيرُ فرنسيةٌ رائِعةٌ في سنة ١٩٣٠  
مَوْكِّدَةً خَبَرَ ذلك ، وتَقْلِعُ جَمِيعُ السُّلْطَاتِ على حَقِيقَةِ ذلك ، وَيَعْرِفُ جَمِيعُ  
القُتَّاصِلِ فِي السَّاحِلِ أَسْمَاءَ النَّخَّاسِينَ ، وهؤلاء لا يَأْخُذُونَ من المُشْتَرِي زِيَادَةً على  
تَمَنِ الْمَبِيعِ ، وَلَكِنْ تَرَى فِي كُلِّ مَكَانٍ سَمَاسَةً كَثِيرَةً السَّخَاءُ يَذْفَعُونَ  
نَحْوَ ١٢٠ جَنِيهٍ ثَمَنًا لِلْغُلَامِ الْجَبِلِ الْبَالِغِ مِنَ الْعُمُرِ اثْنَيْ عَشَرَ سَنَةً أَوِ الْبَنَتِ الْبَالِغَةِ  
مِنَ الْعُمُرِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً وَيَبْدُو ثَمَنُ الْمَرْأَةِ الْعَبْثَى الَّتِي قَدْ تَمُودُ جَمِيلَةً بَعْدَ الْوَضْعِ  
أَرْخَصَ مِنْ ذَلِكَ لِاتِّبَاعِ الْوَلَدِ الْمُشْتَرَى مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ فِي الثَّمَنِ .

وَكَانَتْ أَسْوَاقُ النَّخَّاسَةِ عَلَنِيَّةً فِي أَدِيسْ أَبِيَّا حَتَّى سَنَةِ ١٩١٣ ، وَالْآنَ تَقُومُ  
لِلْمُسْتَوْدَعَاتِ مَقَامَهَا فِي هَرَرٍ عَلَى الْخُصُوصِ ، وَهَذِهِ الْمُسْتَوْدَعَاتُ تَابِعَةٌ لِلنَّجَاشِيِّ  
رَأْسًا ، وَهَنَالِكَ قَوْمٌ بِأَسْرِهِا تَعِيشُ بِالنَّقُودِ الَّتِي تُدْفَعُ ثَمَنًا لِسُكُوتِهَا ، وَلَهَا أَفَانِينُ  
مِنَ الْعُمَلَاتِ مَعَ رُؤَسَاءِ الْقَوَافِلِ ، وَلَا يَبْدُو الْخَطَرُ إِلَّا بَيْنَ الْإِخْطَافِ وَبِجَاوِزَةِ  
الصَّحْرَاءِ ، وَيَتَّخِذُ جَمِيعُ النِّازِلِ مَخَابِيءَ مَعَ جَبَابِ (١) يَنَامُ فِيهَا الْأَشْرَى وَظَلٌّ مُسْتَوْرَةٌ  
حَتَّى يَسَارَ إِلَى الْبَحْرِ ، وَفِي السَّاعَةِ الْحَاضِرَةِ ، كَمَا فِي اللَّاضِي ، تَرَى الطَّرِيقَ الصَّحْرَاوِيَّةَ  
مَرْصَعَةً بِجُبْشِ أَنْاسٍ هَلَكُوا عَنْ ضَنَى وَنَصَبٍ ، وَيُرْوَى أَنَّ نِصْفَ الْأَشْرَى

(١) الجباب : جمع الجب ، وهو الحفرة .

يموتون مقدماً بسبب الخصاص الذي يترتب عن فقرهم ومن غير طيبين .

وما وجه من مفاز إلى الغرب والجنوب ، أى نحو كينية والسودان ، قد نبهت السلطات الإنكليزية إليه من غير أن تقدر على منعه في كل وقت ، ويجد الأجاش هذه الفزوات أمراً طبعياً ، وعند الأجاش أن هذه الفزوات تنطوي على معنى التعويض عن فرار عبيدهم إلى ما وراء الحدود ما دام الإنكليز والطالنة لا يسيدونهم إليهم ، ويؤمن موظفو الإنكليز في القصارف ، البعيدة من الحدود ١٣٠ كيلومتراً ، قبول هؤلاء الفارين ، ويجدون لهم عملاً ولسائهم أزواجاً .

يبدو أن أصحاب العبيد يرون الضرر قد مسهم ، فيرسلون من يطالب برده بضاعتهم إليهم ، وإليك نص أحد الكتب التي يخاطبون بها الموظف البريطاني في الحدود : « نسال الله أن يلهمك العدل إنا الحكومة هي حامية الفقراء وحارسة أموالهم ، وقد فر جميع السيد في منطقتنا إلى القصارف ، فأدى ذلك إلى خراب بيوتنا نحن المساكين الذين لا يقدرّون على العمل بلا عبيد ، وإليك أبث ابني لتساعده في الموضوع ، وإني لك من الشاكرين ألف مرة » (١) .

(١) نجد في تلك الصفحات التي كتبت قبل الحرب الإيطالية الحبشية إيضاحاً لمرحلة الحبشة ، ولدينا منظر فاجر لحرب تنتهى لغير المغلوب بعد النظر إلى فوائد الغالب الشكوك فيها ، ولا ينبغي أن نخط أهداف الغالب بتأنيص النصر ، والواقع أن إيطاليا لم توفق في تلك الحرب لتحرير السيد ، ولكن هؤلاء السيد غدوا أحراراً ، ونجت البلاد من عامل أسفر عنه وفراره في أخرج الساعات عن عطف أوربة التي لم يكن أملاً له في أي زمان كان ، والصربون كانوا قد استقبلوا الإسكندر كعذ مع أنه دخل بلادهم قائماً ، وتحضى مئة سنة فيزدرى خلقاؤه في جميع البلد ، ولم تبد الشعوب التي حررت شاكراً قط ، وهذه ظاهرة يقتض لها العذر من الذين ينفون تحت غطاء من الأخلاق طمعهم في السلطان والتوسع ، ومن المختل أن تهدد إفريقيا المستقلة أوربة بعد مئة سنة ، وما نعتده أنه لن يرفع في ذلك الحين علم أوربي فوق تلك القارة .

بَلَّغَ النيل الأزرق سهل السودان ، وَيَتَّجِهْ إِلَى الشمال الغربي ، يَتَّجِهْ إِلَى هَذَفٍ غَيْرِ معروف ، وتنتهى مغارات العقيق ، ولا تَحْمِيهِ الصخورُ والغابات ، وَيَجْزِي مِنْ خِلَالِ الشَّهْبِ الخائق وَيَهْدَأُ ، ولا يزال من الفناء ما يحتمل معه الشُّنْ ، ويكون فى الرُّصَيْرِص ، أى على ٦٥٠ كيلومتر من المُلتَقَى ، من شِدَّةِ العُمُقِ والاتساع ما تَزِيدُ به مقاومته ، وتَقْلُوهُ باخرةُ بيضاء ، وَيَحْمِلُ النيلُ النُّفُورُ البَصُوحَ حِجَالًا ، ومع ذلك تراه ، بمجره السَّريع ولونه اللاجن وما يَجْرُ مِنْ غِرَّتَيْنِ ، يمتاز من أخيه الساكن مع تماثلٍ فى المظهر .

وَتَحِفُّ حديقَةُ مِنْ حَوْلِ مجراه ، ولم تَصُدِّهْ يدُ الإنكليزِ للبدعةُ تقريبًا ، وتَمِثُّ طريقَ السيارات فوق الضَّفَّةِ اليسرى على بُلْدٍ جديد ، وَيَمُرُّ النيلُ أمامَ سِنْفَا التِّى تشابه القلعةُ والتي يَدُلُّ لِلدَّفْعَانِ أمامها على ما حدث هناك منذ زمنٍ غير طویل ، وتشاقب القرى مستديرةً مُسَوَّرةً شِبْهَ متواليةٍ بين خُصْرَةِ الضَّفَّاف ، وفى وَسَطِ حقول الذَّرة ، ونُسُودِ السُّلْمِ هنا ، أو سُودِ السَّكُونِ على الأُفْلِ هنا ، وتُعَيِّنُ الحياةُ بظاهرةٍ جديدةٍ فى مجرى النهر التَّحْتَانِي .

والآن يمانى النيلُ الأزرقُ مثلَ ما عاناه النيل الأبيض فى المجرى القوقازيُّ بِالخَرْطُومِ ، فهو يَلْهَثُ وَيَتَفَّ وَيَشْعُرُ بأنه يَتَمَطَّى لَمَوْقِ حاجزٍ غيرِ منظُورٍ جَرَبِيَّةٍ ، وهو يَصْدِمُ بِنَتَّةٍ سُورًا حاجزًا يَبْلُغُ ارتفاعه ثلاثين مترًا ويبلغ عرضه ثلاثة كيلومترات تقريبًا ، وَتَقِفُّ أَيْدٍ خَفِيَّةٌ لَأَسْبَابٍ مَجْهُولَةٍ ، وَيَمُرُّ مُزْبَلًا مِنْ أَبْوَابِ

حجرية تُفْتَح له وتُفَلَق دونه مناوبة ، ويسطر عليه سدٌ سِنَار ويُنَظَّم مجراه ،  
ويا لها من تجربة مريضة ! وَيَقْدُو الحِصَان السَّيُّ طليقاً ، ولا يُسَمُّ أن يَشْعُرُ بجبلٍ  
حول عُنُقِهِ ، ثم يَأْتِي مُرَوَّضٌ فيُكْرَهُه على السَّيْرِ بِحَرَكَاتٍ مَقِيدَةٍ في أَوَاقَاتٍ مَعِينَةٍ ،  
وتكون المفاجأةُ من المِظْلَم ما تَقِفُ معه السفينة ، وليس للسُّدِّ تَرْعٌ ، وتنتظر باخراً  
في الناحية الأخرى .

وينضمُّ إلى النيل من الناحية اليمنى رافدان من فُورِها وعلى مسافةٍ قصيرةٍ بينهما .  
والرَّهْدُ والدُّنْدِرُ أَخَوَانٌ حَقِيقَيَانِ مَدَى الحياة ، وَيَقَعُ مُنْبَعُ كُلِّ مِنْهَا على  
الهُضْبَةِ الشَّالِيَةِ الغربية من بحيرة طانة ، وتَفْذِيهِمَا جداولٌ تُعَدُّ قِسْماً من شَبَكَةِ  
لسيول كثيرة ، ويتوجَّهان إلى الشمال الغربي في بدء الأمر ، ثم يَبْدُوَانِ موازَيْنِ  
للنيل الأزرق ، ويتساويان طولاً وَحَجْماً تقريباً ، وتَرَى بِجَرَى الرَّهْدِ أَكْثَرَ انْخِصَافاً  
مع ذلك ، وهو يَجُوبُ أرضاً أَوْفَرَ غُرْبَتِهَا ، وهو على ما يبدو من ضَيْفِهِ يَزِيدُ على  
الدُّنْدِرِ ، الذي هو أَعْرَضُ مِنْهُ وَأَطْلُ ، احتواءً لِلغُرْبَيْنِ ، وكلا الرافدين يلاقى النيل  
في الصيف على حين تُبْصِرُ رافداً ثالثاً واقفاً في شمال ذلك يقاسم العطبرة  
مسيره أحياناً .

ومنبعُ العطبرة واقعٌ في مِنطَقَةِ بحيرة طانة وبالتقرب من ذُنُوكِ الرافدين ، والعطبرة  
في التَّكْدَاةِ سِيلٌ جَبَلِيٌّ شَقَافٌ فَوَارٌ صَوَّالٌ ، ثم تُغَيَّرُ الروافدُ الثلاثة التي تنضمُّ إليه  
جِيلَتُهُ وتُجِمَّتُهُ بِمَقْدَارٍ كبير من الغُرْبَيْنِ يُقَرَّرُ مَسيرُهُ ، وأطولُ هذه الروافد يأتيه من  
النَّيْبِ البركانيِّ الحارِّ الواقع شرق بحيرة طانة ، ويأتيه الرافدان الآخران من أخايد  
الغرب العميقة الجبلية التي ينال بها اسمُ العطبرة العربي الذي يَمْنَى « الأسود » !  
ورافدُ النيل هنا مع رافدَي النيل الآخرين مما يُلقَى في نفوس أهل البدو حيرةٌ فاجعة .



### الطبرة

ويَحِفُّ نَهْرُ الطَّبْرَةِ فِي شَهْرِ يَنَازِيرَ ، وَيَصْبِحُ بَائِسًا ، وَتَبْتَلَعُهُ الصَّحْرَاءُ ، وَلَا يَرَى عَلَى مَسَافَةِ ثَمَانِينَ كِيلُومِتْرًا مِنْ مَقْصَبِهِ غَيْرُ مَجْرَى مِنَ الْحَصَى وَالْوَحْلِ ، يَبْدُو أَنَّ الطَّبْرَةَ فِي أَشْهَرِ نَشَاطِهِ وَصُولِهِ الثَّلَاثَةَ يَكُونُ أَغْنَعُ مِنَ الْأَنْهَارِ الْأُخْرَى فِي عَامِهِ ، وَهُوَ يَلْقَى النِّيلَ فِي الْمَجْرَى التَّحْتَانِيَّ عَلَى بُعْدِ ثَلَاثِمِئَةِ كِيلُومِتْرٍ مِنَ التَّقَاءِ النِّيلِ الْأَبْيَضِ وَالنِّيلِ الْأَزْرَقِ .

وَيَسْكُونُ لِكُلِّ النِّيلَيْنِ أَكْثَرُ مِنْ مِقَامَةٍ سَلَكًا ، وَيَسْهُلُ عَلَى النِّيلِ الْأَزْرَقِ احْتِمَالُ كِرَاهَةِ السَّدِّ ، وَهُوَ يَشْعُرُ بِأَن قِسْمًا مِنْ مِيَاهِهِ يَجْرِي فِي قَنَوَاتٍ غَيْرِ مَعْرُوفَةٍ ، وَهُوَ لَا يَلْبِثُ أَنْ يَسْتَرِدَّ عَرْضَهُ وَصَحْفَهُ فَيَجْرِي مَسْرِعًا هَادِنًا بَيْنَ صِفَتَيْنِ ثَابِتَتَيْنِ ، وَهُوَ ، مَعَ ضَعْفِ انْخِدَارِهِ فِي ذَلِكَ الشَّهْبِ ، لَا يَكُونُ لَهُ مَا لِلنِّيلِ الْأَبْيَضِ مِنْ سَبْرِ مِكْسَالٍ ، وَهُوَ مِنْ بَعْدِ السَّدِّ يُبْصَرُ وَيَسْمَعُ عَنْ شِمَالِهِ الْقِطَارَ الْحَدِيدِيَّ الَّذِي يَنْقُلُ الْقَطَنَ .

وَهُوَ يَرَى بَعْدَ ذَلِكَ أَبْرَاجَ الْخُرُطُومِ الَّتِي أُعْجِبَ بِهَا أَخُوهُ ، وَهُوَ يَضَاقِقُ وَيَسْتَوْقِفُ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَضَاقِقَ وَيُسْتَوْقِفَ ، وَتَكُونُ الْقِطَاعُ فِي الرَّاعِي ، فِي الْحِدَاقِ الْوَاسِعَةِ ، لَيْلَ نَهَارٍ ، وَتُنْذِرُ أَسْدَادًا خَشِيئَةً خَفِيفَةً بِانْتِهَاءِ بِلَادِ الْبُدُوبِيِّينَ ، وَتَبْزُرُ فِي الشَّهْبِ بَعْضُ الْبُيُوتِ الْمَصْنُوعَةِ مِنَ الْآجُرِّ لِتَكُونَ طَلَائِعُ الْمِصْرِ الَّتِي يُبْصَرُ بِالْقُرْبِ مِنْهَا شَجَرٌ حَدِيثٌ يُحْفَظُهُ مِنَ التَّعْزِ الْأَوَّلِ وَصَفَائِحُ ، وَتُحَدِّدُ أَوْتَادٌ بَيْضٌ بِقَاعًا لِكُرَّةِ الْقَدَمِ ، وَتَشَاهَدُ عَرَائِشُ مَصْنُوعَةٌ مِنْ جُدُوعٍ<sup>(١)</sup> تَحُلُّ عَلَى شَكْلِ أَعْمَدَةٍ ، وَكُلُّ شَيْءٍ يُجَيِّزُ الْبُدُويَّ الَّذِي يَدْنُو لِلرَّوْادِ الْأُولَى مِنْ عَاصِمَةِ كَالْنِيلِ الْأَزْرَقِ الَّذِي يَمُرُّ مِنْ غَابَاتٍ فِي الشَّهْبِ .

(١) الجنوع : جمع الجذع ، وهو ساق النخلة .

### الى الخرطوم

وهو سَجِدُ نفسه أمام جسرٍ ذى أعمدةٍ متينة وأقواسٍ عريضة تمرُّ عليه القَطْرُ<sup>(١)</sup> الناهية إلى الخرطوم، المدينة الرائعة في سَوَاءِ<sup>(٢)</sup> الصحراء، المدينة الخضراء ذات البيوت البيض والقصور التى تسطر النخل الفريدة عليها فيبنى على رؤوس هذه النخل وَكَرَّه الأُنُوقُ<sup>(٣)</sup>.

وبعد الحسرى ينتصب قصرٌ منيعٌ على الضفة اليسرى فتنبصر على أجنحته مدافع وجنوداً ذوى رِثَاتٍ مختلفة الألوان كما لو كانوا حرسَ شرفٍ لأميرٍ إقطاعيٍّ كبير، وتزرى زوارق أنيقة وخيولاً أصيلةً مقرونة برِثَاتٍ جميلة تنظر أمام الباب، وهناك، وبعد مسافة قصيرة، يُفتَح رِثَاجٌ<sup>(٤)</sup> فيتدفق منه بضغُماتٍ من الشبان السمر لا بسين رِثَاتٍ أيضاً وذاهبين إلى الرصيف المستور بالنخيل ليتلّهوا، وهذا هو قصرُ الحاكم الإنكليزى، وهذه هى الكلية التى يتخرج فيها ثلاثة نوابٍ، وسيرٌ ميلاً يندُ لك الحسرى الثانى العظيم ويظهر لك تحته النيل الأبيض الواسع الزين المسهب. أَوْ يشرُ النيل الأزرق الطائشُ الساذج فى ذلك الحين بأنه ليس إلا جزءاً من كلٍّ؟ أَوْ يفتقد أن النهر المتناقل الشاحب الذى يلاقيه هو رافدٌ يجب عليه أن يقبله طوعاً أو كرهاً؟

ذاتك أخوان يتماثلان من غير تنافس، ولا يمدُّ أحدهما أفضلَ من الآخر أو تائباً له، ويضاعفُ عناقهما قوة النهر، والنهر، كما يلوح، يجمع جميعَ هِمَّتِهِ ليدو جديراً بمصره فى أثناء النصف الثانى من حياته.

ولن ترى غيرَ نيلٍ واحدٍ بعد الآن، وهذا النيلُ سيكافح الإنسان.

(١) القطر: جمع القطار — (٢) السواء: الوسط — (٣) الأنوق: العقاب، و ه هو أعز من يرض الأنوق، مثل يضرب لئلا يسيل إليه — (٤) الرثاج: الباب العظيم.

## الجزء الثالث مكافحة الإنسان

« يَفْتَرَسَنَا الرَّمْلُ الْغَلِيلُ <sup>(١)</sup> فِي الْبَادِيَةِ  
الْجَدِيدَةِ ، وَالشَّمْسُ فِي السَّمَاءِ تَمْتَصُّ دَمَنَا ،  
وَقِفْنَا تَلَّ كَيْمَاطٍ سَاكِنٍ ، فَيَأْيِهَا الْأَخْ ،  
خُذْ إِخْوَتَكَ مِنَ السَّهْلِ ، خُذْ إِخْوَتَكَ مِنَ  
الْجَبَلِ ، وَجِيءْ بِهِمْ إِلَى أَيْكَ » .  
( غوته )

---

(١) الغليل : السمطان عطشا عذيقاً .



طائرةٌ مُخَلَّقُ فوق رَاكِبِ قَلُوصٍ<sup>(١)</sup> عَصُوفٍ<sup>(٢)</sup> ، ذلك هو طابِعُ بريدِ السودان ، ولو سار ذلك الراكِبُ عن شمال النيل منحرفاً قليلاً إلى غرب بحيرة نُؤْ لَأَمَكْنَهُ أَنْ يَفْطَعَ عَشْرِينَ دَرَجَةً عَرْضٍ ، أَيْ أَلْفَيْ كِيلُومِتْرٍ عَلَى خَطِّ مُسْتَقِيمٍ ، وَأَنْ يَصِلَ إِلَى الْقَاهِرَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلَاقِيَ مَجْرَى مَاءٍ ، وَهُوَ إِذَا مَا انْطَلَقَ مِنَ الصَّفَةِ الْيَمْنَى ، مِنْ مَصَبِّ الْقَطْرَةِ ، بَلَغَ مَصَبَّ النَّيْلِ بِمَدِّ جَوْبٍ اثْنَيْ عَشَرَ دَرَجَةً مِنَ الْعَرْضِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَجِدَ نَهْرًا أَوْ مَطَرًا ، وَتَمْتَدُّ تِلْكَ الْبُقْعَةُ الْعَاطِلَةُ مِنَ الْمَاءِ حَتَّى شَاطِئِ إِفْرِيقِيَةِ الْغَرْبِ<sup>(٣)</sup> اثْنَيْ عَشَرَ دَرَجَةً مِنَ الْعَرْضِ وَنَحْوَ خَمْسِينَ دَرَجَةً مِنَ الطُّولِ ، وَهَذِهِ هِيَ الصَّحْرَاءُ ، وَهِيَ الصَّحْرَاءُ نَفْسُهَا فِي شَرْقِ النَّيْلِ مَعَ اخْتِلَافِ الْأَسْمِ .

وَمَعَ ذَلِكَ ، وَفِي ذَلِكَ الْمَكَانِ حَيْثُ لَا يَمْتَرِضُ النَّهْرُ جِبِلٌّ ، يَتَرَكُّ النَّهْرُ اتِّجَاهَهُ نَحْوَ الشِّمَالِ وَيَنْمُطُ ، وَهَذِهِ الْمَنْطَقَةُ هِيَ الْوَحِيدَةُ فِي حَيَاتِهِ ، وَفِيهَا يَسِيرُ الْقِطَارُ وَالطَّائِرَةُ وَالْجَمَلُ عَلَى قَمُودِهِ<sup>(٤)</sup> يَمِينًا إِذْ يَقِفُ النَّهْرُ عَاقِقُ فَيْرَاسٍ<sup>(٥)</sup> فِي رَمْلِ الصَّحْرَاءِ الْأَمْعَرِ<sup>(٦)</sup> .

وَلَوْ تَقَدَّ مَاؤُهُ ، وَلَوْ مَاتَ ظَلَمًا ، مَا قَفَى أَحَدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَجَبِ ، وَلِجُنُبِ فَارِسٍ سَهْلًا خَالِيًا مِنَ النَّبَاتِ ، بِالْقَاءِ مِنَ الْإِسْعَاقِ نِصْفَ مِسَاحَةِ أَوْرُبَةِ ، وَلَيْسَ كُنْ

(١) القلوص : الناقة الطويلة القوائم — (٢) العصفوف : السرج السير .

(٣) القمود : الناقة الطويلة القوائم كالقلوص — (٤) الأمعر : ما كان على لون للفرسة ، وهي لون ليس ناصع الحمر أو شقرة بكثرة .

ذلك الفارسُ عاطلاً من آخر أو صديق يأتيه بماء ، وليعرض ذلك الفارسُ يوماً بعد يومٍ لسَيرٍ لا ينفُ حُرّه إلا ليلاً ، ولْيَقِفْ ذلك الفارسُ حاجزٌ من صَوَانٍ بنته ، ولْيَقْضِ عليه لهذا السبب أن يَقْطَعَ دَوْرَةَ مِائَةِ الكيلومترات مع ضرورة إسرعه لبلوغ بلده أو لبلوغ البحر أو المرافئ ، أفلا تَهْلِكُ ناقته إعياء قبل الوصول إلى هَدَفِ الرَّحْلة ؟

والنيلُ ، مع ذلك ، يَجْرِي منذ ألوف السنين إلى البحر نفسه ماراً من الصحراء المحرقة عاطلاً من مطرٍ أو صديقٍ أو رفيقٍ فيَجِدُ بأمواله ما يَنْعِشُهُ ، وَيَقِفُ النيلُ حاجزٌ من الصَوَانِ فيدورُ حَوْلَهُ ويستردُّ بهذا التماسٍ قواه ونشاطه ويَحْتَمِلُ سفناً فيكافحها ويكافحُ الإنسانَ الذي يُريدُ إمساكَه ، ويُوقِفُ في ذلك ، ولا يَحْتَسِرُ النهرُ بآسَته ولا يَنْشَفُ ، وَيُثْقِلُ نفسه طريقاً من بين رمالٍ لا حدَّ لها كما قَهَرَ المناقع ، ويقاومُ الجفافَ كما قاومَ الأهوار<sup>(١)</sup> ، وَيَصِلُ إلى البلد الذي أوجده والذي ماغنىَ بِزُرُوبِهِ منذ الأزل ، يَصِلُ إلى الدلتا ، إلى الموانئ ، إلى البحر ، إلى مهد جميع الأنهار ، ويأله من نهر !

وليس الذي يكافحه النيلُ هَضْبَةً أو جبالاً ، بل بلدٌ أكثَرُ يَتَخَلَّلُ السهلَ الرملِيَّ فيه تلالٌ حجريةٌ مُحْرِقَةٌ وخروقٌ مَدُورَةٌ وأهرامٌ وجنادلٌ ذاتُ زوايا مُصَرَّسةٍ وأجوافٌ مُفْتَتَّةٌ وَقِيَابٌ مُقَرَّصَةٌ وما إلى ذلك من الأمور التي تَمُّ على الريح ، أى على موجدتها الغُضُوبِ ، وكما أن عنصرَ التذكيرِ العجيبِ يختلطُ بعنصرِ التأنيثِ في السجاياءِ المتموجةِ تَنْضَبُ تلالُ صَوَانٍ بين مِساحاتٍ واسعةٍ من الرمالِ للمتموجةِ ، فبعد أن يَسِيخَ الجُلُّ حتى الرُّكْبِ في تلك الرمالِ للمتموجةِ يكاد يَفْقَدُ

(١) الأهوار : جم المور ، وهو البحيرة تجري إليها مياه غياض وأجام تنتعش .

### الصحراء والبحر وحقل الجليد:

رجله على تلك الزوايا الوعرة، وتُشبه الصحراء بالبحر في الغالب، ولا بد من الرقبة ليكون هذا المنصر المتحرك مشابهاً للصحراء الممتدة، وفي أعماق البحر يقوم عالم خفي من النبات والحيوان لا تنفذ إليه غير عين النواصير، والحركة والتحول وفوضى الأشكال آية كل شيء فيه، أي ما يماكس تلك البادية، وذلك لأن الجلود يعود إلى تلك الأرض الميتة إذا ما كفت الريح عن كفيتها.

والرمي هو الأمر الوحيد المشترك بين البحر والصحراء، وبينهما وبين حقل الجليد، والإنسان، وهو الذي تعود الشعور بالحياة حوله، يُدثر تجاه العناصر، فلا يزال بكون البحر والصحراء وحقل الجليد أشياء تعيش حقاً، ومن شأن البساطة التي تقوم مقام التنوع، والتنوع مما يُزعج الجمهور، أن تفصل سكان هذه البقاع الثلاث عن العناصر الصامتة وأن تجعل بعض هذه العناصر مشابهاً لبعض، وأن تعد الجميع ساكناً خاشعاً.

وهل هي صامتة؟ يسمع ابن الجبل صي البربوع<sup>(١)</sup> حتى ذرى أعلى المرتفعات، وتزدح حقل الجليد والبحار والقفار صدى الجوارح التي تحوم حول سمكة في الماء ونداء الرمة<sup>(٢)</sup> في الرمل، ومن المحتمل أن كانت غابة هذا الصوت هي الدلالة على حياة تلك الأشياء، ويهيمن على العناصر الثلاثة هزير الرياح<sup>(٣)</sup> أو صوت العواصف، فتضمر<sup>(٤)</sup> منه جلود أكثر الناس إقبالاً.

ويا للتنوع في الصحراء! تقوم في سواء الأتاريه<sup>(٥)</sup> الصخرية جبال من الصوان والزخام السماقي يبلغ ارتفاعها ألفي متر، ويقال إنها تكونت في شرق النيل حين

(١) صي البربوع: صوته، والبربوع: نوع من القوالم يشبه الفأر قصير اليدين طويل الرجلين وله ذنب طويل — (٢) الرمة: ما يلي من الظلام — (٣) هزير الرياح: دويها. — (٤) تضمر: ترقص — (٥) الأتاريه: جميع التيه وهو الغمر يمل فيه..

هبوط وهذه<sup>(١)</sup> إفريقية الغربية الكبرى، وَيَقْبُ الصَّخُورُ السُّودَ صَخُورُ تَبَرَّةَ  
من الرُّحَامِ الَّتِي إِذَا مَا فُصِّلَتْ عَنْهُ قِطْعَةٌ بِالْمَدَقِّ وَجِدَتْ بِيضَاءَ كَرَّاحٍ كَارَارًا<sup>(٢)</sup> أَوْ  
ذَاتَ عُرُوقٍ مُحَرٍّ وَسُودَ، وَفِي غَرْبِ النَّيْلِ، حَتَّى مَحَارِ لَبِيَّةَ، تَظْهَرُ أَوْدِيَةُ صَخْرِيَّةٌ  
طَوِيلَةٌ مَتَرَقَةٌ أَوْ أَوْدِيَةُ وَأَنْهَارٌ مَتَحَجِرَةٌ عَنْ كَعْنَةٍ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةُ  
وَالْأَنْهَارُ الرَّهْبِيَّةُ رَوَافِدٌ نَافِذَةٌ إِلَى النَّيْلِ عَلَى الرَّاجِحِ، وَالضِّيَاءُ هُنَا يَتَغَيَّرُ تَغَيَّرُ  
الشَّكَالِ وَإِنْ لَمْ يَنْخُلْهُ<sup>(٣)</sup> غَمَامٌ، وَفِي أَيَّامِ الضَّبَابِ تُنِيرُ شَمْسٌ زُرْقَاءَ شَاحِبَةٌ بِحَرٍّ  
بَلَوْنِ الزَّعْفَرَانِ<sup>(٤)</sup>، وَهَنَالِكَ يَشْبُهُ الْأَعْرَابُ الشَّمْسَ بِالْقَمَرِ فِي أَغَانِهِمْ، وَهَذِهِ  
الظَّاهِرَةُ هِيَ طَلِيمَةُ الزُّوْبَةِ فِي الْغَالِبِ.

وَيُقِيمُ نَوْرُ النَّهَارِ الَّتِي يُغْشَى الْأَبْصَارَ، وَيَقْبُهُ وَمِيعُ ضَارِبٌ إِلَى صُفْرَةٍ،  
وَتَلُوحُ أَطْوَادُ<sup>(٥)</sup> سُمُرٌ كَسَلَسَلَةٍ يُمْكِنُ لَمْسُهَا، وَلَا تَشْمُرُ بِهَيْجَةٍ رِيحٌ، وَيَصْنُطُكُ  
صَوْتٌ أَوْ «ظَلَامٌ كَثِيفٌ» كَمَا جَاءَ فِي التَّوْرَةِ، وَيَذْنُو سَحَابٌ مِغْمٌ يَصْنَعُهُ  
هَزِيمٌ<sup>(٦)</sup> بَيْدٌ، وَتَهَبُّ عَاصِفَةٌ مَحْرَقَةٌ مَتَوَعَّدَةٌ صَاحِبَةٌ قَازِقَةٌ بِرَمَالٍ وَحِجَارَةٍ،  
وَيُسْتَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ لِمَا تُوَجِّهُ مِنْ خِطَرٍ وَقَتْلٍ لِلْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ،  
وَتَقْلَبُ الْخِيَامَ وَتُقَطِّعُ الْحَبَالَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْتَبِهَ أَحَدٌ إِلَى ذَلِكَ، وَالْجَمِيعُ يَرْجِفُ  
فَرَقًا مِنْ هَذَا الْإِعْصَارِ الَّتِي يُسَوِّدُ وَيَغْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَوْ أَنَّكُمْ إِلَهُ الرِّيحِ نَظَرْتُمْ فِي  
هَذَا الْمَنْظَرِ لِأَبْصَرَ، لَا رَيْبَ، أَنَّ أَوْلَئِكَ النَّفَرِ مِنَ النَّاسِ يَضُرَّعُونَ إِلَيْهِ سَاجِدِينَ،  
وَالْعَالِمُ، وَإِنْ كَانَ يُفَسِّرُ فِي مَكْتَبِهِ الْهَادِي بِأَكْثَرِ كُفُورٍ، تِلْكَ الْأَعَاصِرُ الْجَنُوبِيَّةُ  
الْغَرْبِيَّةُ بِأَنَّهَا صَادِرَةٌ عَنْ التَّقَارِ الشَّحْبِ الْبَارِدَةِ وَحَرَارَةِ الصَّحَرَاءِ الشَّدِيدَةِ، يَذْهَبُ

(١) الوحدة : الموة في الأرض — (٢) كارارا : ولاية إيطالية مشهورة برخامها الأبيض .

(٣) نخل النقي : اختاره وصفاه — (٤) الزعفران : نبات أصفر الزهر له أصل كالبلبل .

(٥) الأطواد : جمع الطود ، وهو الجبل العظيم — (٦) الهزيم : صوت الرعد .



## الماء في الصحراء

عند الرّجل ، كالعرب ، إلى أنها من عملِ الجنِّ أو الأرواح الشريرة التي تُثيرُ أعمدة الرمل .

وتزول الرّوبة ، في الغالب ، بسرعةٍ كالتي تهبُّ بها ، وفيما ينهض الإنسان والحيوان سالّين حائرّين إذ يُبصران بجانبهما طيراً ميتاً على ما يحتمل ، أو يبصران قنبرةً من قنابر الصحراء التجأت إلى رُقُوفٍ<sup>(١)</sup> خيمةً مفوّضةً فمادت إلى الطيران مُعَرَّدةً ، ولا شيءَ أكثر تأثيراً في النفس من تلحين القنبرة البعيدة من كلِّ واحة ، والتي لا يعلمُ الشيء الذي تعيش به سوى الله ، والتي تشابه التورس<sup>(٢)</sup> المرافق للسفينة مع ابتعادٍ عن البرِّ أياماً طويلة .

والماء في الصحراء أمرٌ وهميٌّ كالهواء ، والآبارُ تهبُّ الحياة للصحراء مع عدم بصريّتها ومع عدم انتظامها ، والآبارُ في الصحراء تَبْدُو بفتنةٍ كالنجوم اللذّبة فتحدّث فيها بعمقٍ خُصراً ومراحلٍ صغيرة ، أجل ، هنالك طُرُقٌ قديمةٌ تسير عليها القوافل بين بئرٍ وبئر ، بيدّ أن الآبارَ تظهرُ اتفاقاً كالمجاري البحرية الواقعة تحت الأرض وكفُكُوعٍ<sup>(٣)</sup> حقول الجليد فتنتقل مثلها بين مكانٍ ومكان وفي الحين بعد الحين ، وينبع الماءُ المنقذُ للحياة في قفَرٍ وادٍ عميق ، ولا يلبثُ كلُّ شيءٍ أن يختصرَّ حوله ، وتظهرُ بعضُ أشجار السَّنط الشائكة وبعضُ النخيل اليابسة كأنها هبةٌ من الآلهة ، ويَطْرَحُ كلُّ من الإنسان والحيوان نفسه لتذوّق هذا الترياق<sup>(٤)</sup> الذي ينجّو به من الشمس المحرّقة ، وهمُّ إلى البحر !

(١) الرّوف : خرة تخاط في أسفل السراويل والضمطاط ، أي ذيله — (٢) التورس : طائر مائي في حجم الحمام أو أكبر يلو في الجو ثم يزعجه في الماء ، ولا يأكل غير السمك ، ويدعى أيضاً « زجع الماء » — (٣) القلوع : جمع القلع ، وهو الثقب في القدم وغيرها .  
(٤) الترياق : دواء يدفع السموم .

وما يَحْدُثُ أحياناً أن يكون الجسمُ والروحُ قد سُفِّعا<sup>(١)</sup> منذ أيام بريح خفيفةٍ محرقةٍ فتعوجُّ عَمْدُ الخيامِ ويُفْلَجُ<sup>(٢)</sup> علاجُ مقابضِ السكاكينِ، وتُفْلَعُ<sup>(٣)</sup> مَلَفَاتُ الورقِ، ويُفَصَّقُ الرِّدَاءُ بالِنِطَاءِ، ويَخْرُجُ من القميصِ شَرَرٌ إذا ما كُشِفَ كما يَخْرُجُ من الشعرِ إذا ما سُطِّطَ، وتُلَوِّحُ طائفةٌ من شجرِ السَّنَطِ لتَنْفِيبِ أخيراً مُخْبِرَةً بوجودِ ما.. وتُبْلَغُ، واهّا واهّا، لا تَجِدُ هنالك واحاً<sup>(٤)</sup>، ولا تَجِدُ هنالك يَنْبوعاً يُنْفِيعُ<sup>(٥)</sup> غَلَّةَ المسافرينِ المنهوكينِ، وتُخَفِّرُ بَرْثَ على عَجَلٍ كَشْفًا لِسِاطٍ ماءٍ تحت الأرضِ يَمُنُّ بالحياة على النباتِ، وفيها ترى المازقَ<sup>(٦)</sup> تجتاسُ<sup>(٧)</sup> الماءَ في الترابِ إذ تَسْمَعُ صريفاً<sup>(٨)</sup> في الشجرةِ المتفُشِّرةِ نتيجةً لانفصالِ الصَّبْغِ عن الأغصانِ .

وكيف يُحَفِّظُ ذلك الماءُ ؟ لقد اخترع الأعرابيُّ، ليعيش، أوعيةً تَرايية ذاتَ منافذٍ يَعدُّها أثنى من جميع التَّرامِسِ<sup>(٩)</sup>، وذلك لأن الماءَ الفاترَ يصيرُ فيها بارداً نهاراً، ويصيرُ صافياً ليلاً، وما يُفْزِعُ البدويَّ والسائحَ الأبيضُ انسدادُ مَسَامِ تلك الآنية، وقد يَحْفَظُ لِيُثَوَّنَا في غُلْبَةٍ صَفِيحٍ حَفِظًا له من الجَمَافِ قِيْقَسِمِهِ أرباعاً على أن يَمُصَّ في كلِّ نصفِ ساعة رُبْماً، وقد تَبْلَغُ أولُ واحدةٍ على هذا الوجه، وَيَقَعُ قَعُودٌ<sup>(١٠)</sup>، ويَذَلُّ غَمِيقُ العِيقَانِ<sup>(١١)</sup> على أنه لن يَبْقَى منه غيرُ المِيعَلِ المِطْمَئِنِّ . وعظامُ الإبلِ، كالشَّوْصَى<sup>(١٢)</sup>، دليلٌ على الدَّرْبِ الصحراويِّ، وتُبْصِرُ في كلِّ

(١) سفت ربح السموم وجهه : لفتحه فتيرت لون بصرته — (٢) فلع الشيء : شقه .  
(٣) فلع الشيء : شقه — (٤) الواح أو الواحة : مفرد الواحات ، وهي أراض خصبة في صحار رملية كما هو معروف — (٥) أقم غلته : أروى عطشه الشديد — (٦) المازق : جمع المزق ، وهو الآلة من الحديد ونحوه مما يحفر به — (٧) اجتلس الشيء : طله بالحرص والاستقصاء — (٨) من صرف الباب صريفاً إذا صوت عند فتحه أو إغلاقه — (٩) الترامس : جمع الترمس (Thermos bottle) وهو زجاجة تحفظ درجة حرارة ما يوضع فيها ساخناً أو بارداً .  
(١٠) القود من الإبل ما يقتضه الراعي في كل حاجة — (١١) غقيق العيقان : صوتها ، والعيقان جمع العقاب وهو الطائر المروف — (١٢) الصوى : جمع الصوة ، وهي حجر يكون دليلاً في الطريق .

### المظام في الرمل

مِيل، في الغالب، ستة، أو ثمانية، هياكل عظيمة متباعدة منتظمة بفعل الشمس والشمس كأنها أعدت لتكون نماذج في متحف، وترى الشكل على الأرض مع ذلك، وترى هيكل جميل كامل مع ذلك، وستحرق تلك المظام بالشمس، وستختلط بالرمل، وستتم دورة الكائن الحي: من هباء<sup>(١)</sup> إلى هباء.

وتهب ريح القرون فوق ذلك، ويمحورمل العصور آثار جميع الناس، آثار ولادة القراعة وفاتحي الإنكليز، وآثار عبادة الشمس والمؤمنين بنبينا شواطئ البحر المتوسط، وآثار سلسلة متصلة من الآدميين الذين ماتوا ظمأ فأيضت عظامهم تحت زرقاة قاسية لهذه السماء ذات الابتسامة الكلية، وبليت بالريح وتمحوت إلى غبار بقوة الشمس واختلطت برمل برتقالي اللون يمزج عليه الآن سيل أبناء الصحراء أولئك راكبا جلهم سائلا في نفسه: هل يصل إلى الحد، إلى الشهب والنهر؟

وهنا، ما أكثر ما ابتهل إلى الآلهة في أثناء الزوامة! وفيما كان السكان القطريون يجوبون تلك الصحراء ليأتوا بنبا عن الشهب أو ليسوقوا قطعاً حتى النيل جاهلين فاتحي الأجانب وأكتمهم كانوا يعبدون النجوم لاهتدائهم في الطريق يسرها، ولا أحد يعرف عدد من غلبه النكاس منهم على قموده فضل لم يند غير عظام تذرو الریح ريمها<sup>(٢)</sup> مع ريم حيوانه، وحيناً أو غل الفاتحون المبشرون بعقائد جديدة في الشهب، آتين من البحر الأحمر فاعتق أهل البدو دين اليونان ثم

(١) الهباء: الغبار، ودقائق التراب سائلة ومتحركة على وجه الأرض.

(٢) ذوت الريح ريمها: أطارتها وفرقتها، والرسم جمع الرمة، وهي ما بقي من

المظام.

النصرانية ثم الإسلام في جمع غريب، صَرَعُوا إِلَى هِرْ كُول<sup>(١)</sup> وَاِنْ<sup>(٢)</sup> وَاِيَزِس<sup>(٣)</sup> وَيُسُوعَ وَمِرْ كُور<sup>(٤)</sup> وَأَرِس<sup>(٥)</sup>، ولكنهم من عُبَادِ النجوم في قرارة أنفسهم حتى الزمنِ الراهن ، وَيَزُودُ مَوْلُودُ الْعَرَبِ قِصَّةَ غَرِيبَةٍ ، يَزُودُونَ أَنْ أَبْنَاءَ الصَّحْرَاءِ وَالشَّهْبِ يُؤْمِنُونَ بِإِلَهِ بَاقٍ وَإِلَهِ ثَانٍ فَإِنْ لَا اسْمَ لَهُ .

وكان عيدُ الفراعنة ييحتون عن الذهب بين تلال تلك الصحراء فتتضي عواصفُ الرمل عليهم وعلى الأمراء الإقطاعيين والقواد والجنود ، وبصيصِون طُغْمَةً لِلْعَبَّانِ ، وَلَسَكَتْ لَا تَرَى مِنْ جَمِيعٍ مَنْ لَمَعُوا طَمَعٌ وَلَّى الْأَمْرَ فِي السُّلْطَانِ وَقَطَلَتْهُ إِلَيْهِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ حَيَاتِهِمْ سَوَى اسْمِ ابْنِ الْمَلِكِ أَوْ اسْمِ وَجِيهِ كُتِبَ لَهُ الْبَقَاءُ بِنَقْشِهِ عَلَى جِدَارِ مَعْبَدٍ فِي طَبَقَةٍ ، وَمِنْ الْأَغَارِقَةِ أَنْاسُ نَزَلُوا إِلَى هُنَا بِأَمْرِ قَمْبِيز<sup>(٦)</sup> ، وَلَمْ يَبْقَاوْا ، وَكُلُّ مَا يُعْرِفُ عَنْهُمْ هُوَ أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَمُدَّ قَطُّ ، وَقَدْ أزالَ الرَّمْلُ وَالشَّمْسُ كُلَّ أَثَرٍ لَهُذِهِ الْحَمَلَةِ الرَّائِعَةِ ، وَلَمْ يَمُتْ أَثَرُ تَخْلِيدِ قِصَّتِهَا فَيُسْتَفَرَّ عَنْ تَحْوِيلِهَا إِلَى قِصَّةِ أَبْطَالٍ ، وَقَدْ دُودُوا عِظَامَهَا رُقَاتًا<sup>(٧)</sup> وَأَعْفَارًا ، وَتَمَحَّجَى أَسْمَاؤُهُمْ مِنْهُمْ ، وَهَذَا هُوَ جَبَرُوتُ الصَّحْرَاءِ .

(١) هر كول : أشهر الأبطال الذين ورد ذكرهم في أساطير اليونان — (٢) بان : إله اللواحي وممثل الطبيعة المبدعة كما جاء في أساطير اليونان — (٣) إيزيس : إلهة الحب والزواج وزراعة القمح إلخ لدى قدماء المصريين — (٤) مركور : إله البيان والتجارة والشمس كما جاء في أساطير اليونان — (٥) آرس : إله الحرب كما جاء في أساطير اليونان — (٦) قمبيز : هو ملك فارس وابن كورش وخليفته ، وقد فتح مصر فأمن في الظلم والفساد ، وقد دام سلطانه من سنة ٥٢٩ إلى سنة ٥٢٢ قبل الميلاد — (٧) الرقات : الحطام ، وكل ما تكسر ويلى .

١-١-١١





تُخَفَّفُ جَمِيعُ الأشكال في الشَّهْبِ ، وَيَنْدُرُ انتصابُ الصَّوَانِ والقُنِّ (١) ،  
وتَلَطَّفُ الخطوط والألوان ، وتلك هي بملكة السَّنَط ، وهذا الشجرُ الشائك ، حين  
يَمُرُّ الثَّورُ من خلال فروعهِ المُجَرَّدة من الورق ، يُنِيعُ على ذلك السهل المُحْرِق  
الستور بسوق الزرع المقطوع منظرًا خياليًا لَا يَمُنُّ بِمثله غيرُ الصَّبِيرِ الجافِّ ، وفي  
هذه البُقعة التي تَفْصِلُ ، بِلَمَّانِها وبأسماءٍ مختلفةٍ ، مِنطَقَةَ الصحراءِ العاطلة من  
المطر عن مِنطَقَةِ الأمطار الاستوائية ، وعن السَّلَالِ الرابع حتى أولِ المناقع ، وعن  
دُنُقَلَا مع الاتجاه نحو أعلى النيل حتى مَلَاكَال ، تُبْصِرُ البدويَّ يَسْتَفِيتُ بالمطر  
الذي يمكنه ، كشمس الصحراء ، أن يُهْلِكَه هو وقِطَاعُهُ عند ما يَأْتِي جَارِفًا ،  
ولكن المطر يُبْقِيهِ في يومين معجزة الشَّهْبِ الذي يُقَيِّتُ مواشِيَهُ ، ولكن المطر  
ينقطع بعد أن ينهر بضع ساعات ، أي بسرعة كالتى ظَهَرَ بها ، والشَّهْبُ ، وهو  
الذي يَحْنُقُ النيلَ في المناقع تقريبًا ، يُجَسِّنُ إلى الإنسان والحيوان على ضِفَتَيْ هذا  
النهر ، وإذا ما نَزَلَ الفَيْثُ بضع ساعاتٍ تفتحت أوراقُ رِيشِيَّةٍ صغيرةٍ على شجر  
السَّنَط ، وتنتظرها الجبال ، ويُنْقَذُ كلُّ شَيْءٍ ، وتَسْتَرِدُّ أَلُوفُ الفُصُونِ قُوَّتَهَا في  
أسبوع ، وتَسْمَنُ أَسِنَّةُ الإبل ، ويتحول الشَّهْبُ الأصفر إلى سُهْبٍ أخضر .  
يَبْدُو أَنَّهُ لَا يُعْتَمَدُ أن يدافع ، فَالكلُّ الناضج يَنْخَسُ وَيَبْضَعُ (٢) وَيَمَزُقُ الثياب

(١) القُنُّ : جمع القن ، وهو الأرض المرة السوداء كأن جارتها عرقة .

(٢) بضع الشيء : قلمه ، شقه بالمضع .

### الإبل

والجلود ويذبح كل مسافر ، وإذا ما سَمِنَت القطيع في الجوار انتظر الرائد الأجنبي من البدوي أن يُوقِد النار في الشَّهْب وأن يُبَيِّدَ ما كان قد طَلَبَهُ من الماء بجمرة ، وذلك هو تناوبُ اصطراعِ العناصرِ النيفِ في تلك البقاع التي قام الإفراط فيها مقام التوازن بين الشمس والمطر ، كما هو الأمرُ لدى ذَوِي الخَبَلِ الذين يَفْتَنُونَ في وَجْدٍ من السَّراءِ والضرَّاءِ .

وفي موسم الأمطار ، تَنْبُت الدَّرَّةُ وَيَخْضَرُ شجر الدَّوْمِ ولا يلبث أن يُؤْتِيَ أُكْلَهُ ، وَيَهْرُسُ الأعرابُ حَبَّهُ بِاللِّدْقِ وَيَصْنَعُونَ منه نوعاً من الدقيق إذا أُنْتُلتِ الشمسُ زرعهم ، وَيَقَعُ ذَلِكَ في مئاتٍ من المناطقِ المتوسطة بين الشَّهْبِ والصحراءِ . والآن يُمَثِّلُ دَوْحُ البَوَّابِ دوراً هماً لم يُتَوَقَّعْ عند الخَلْقَةِ ، ويتحول هذا الشجر العظيم ، أو هذا القَطَرُ<sup>(١)</sup> المائل ، الإِسْتَفْجِي القَبَبِ إلى رِزْمِيلٍ بعد موسم الأمطار ، وذلك بأن تُسْقَطُ أَغْصَانُهُ الشَّعْلَى وَيُجَوَّفُ وَسَطُ ساقه فيحتوى عشرين متراً مُكْعَباً من الماء في قَطْرِ بالغ خمسة عشر متراً ، وتدوم حياة البَوَّابِ مع بقاء جوانبٍ رَقيقَةٍ له ، ومن العلماء من يقولون مُوكِّدِينَ إنه يَبْلُغُ من العُمُرِ خمسة آلاف سنة ، وعلماء النبات أُجْرَأُ من المُوَرِّخِينَ في تقدير ذلك .

والجَمَلُ هو من الأشباح التي تجتمع حَوْلَ السَّنْطِ ، ولا أحدَ يدرك كيف يكتفى هذا الحيوان الضخم بتلك الأشواك وتلك الأوراق ، هُوَ قَنُوعٌ ، ولكنه غير متواضع ، هُوَ صَبُورٌ ، ولكنه شَرِيْرٌ جبان ، هُوَ غَيٌّ مُتَاوِيٌّ ، هُوَ هائلٌ حين التَّشْيِيرِ<sup>(٢)</sup> ، هُوَ لَا يَمُفِّفُ على غير صِغَارِهِ كما يلوح ، والجلُّ يُخْدَمُ الإنسان ، ولكنه لا يَعْرِفُهُ

(١) القَطَرُ : نوع من الكأء ، وقد شبه البواب به لتمامها في الصورة فقط — (٢) عِشْرَتِ الثاقفة : صارت عِشْرَاءَ ، وهي التي مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية أشهر ، وهذا إطلاق جمل على الأنثى قليل « شربت لبن جمل » .



### يخفى غواء السبع

ولا يُحِبُّهُ، وما له من منظرٍ غريبٍ غيرٍ ظريفٍ فيجعل له مكاناً منفرداً بين الحيوانات الأخرى، فيظهر أنه استعار رَقَبَتَهُ من الزَّرَافَةِ ورأسَهُ من الخِنْزِيرِ وذَنَبَهُ من البقرِ، وسِنَانُهُ وحَدَّهُ هو سِمَتُهُ الخاصةُ، ولم يدخل الجملُ مصرَ إلا في عهد الرومان مع أن مصرَ عَرَفَتِ الضَّانَ والمَعَزَ والبقرَ والخليل منذ ألوف السنين .

ولا حيوانَ له في النفس من الأثر المُرَوِّحِ الحزن كما للجمل، والجمل يَتْرَكَ لِيُحْتَمَلَ بعد كثيرٍ من الهدير والضرب، وهو يَتَنَبَّأُ قَائِمَتِهِ الخلفيتين ثلاثاً كما لو كانتا لُتْبَةً آليَةً، وهو إذا سار صَمَبَ امْتِطَاؤُهُ لانفراده في الدَّمَلِ<sup>(١)</sup> بين ذوات التُّدِيِّ، وهو إذا ما عَصَفَ<sup>(٢)</sup> براكه هَزَّهَ هَزّاً شديداً لَرَفَعِهِ قَائِمَتَهُ الخَلْفِيَّةَ قبل قَائِمَتِهِ الأماميةِ برُيْعٍ ثانية، ويَحْمِلُ الظُّنُونُ<sup>(٣)</sup> القوى سبعةَ قناطيرَ، ويسير البعيرُ المَصُوفُ ١٥٠ كيلومتراً في أربع وعشرين ساعة، ولا يُرَكَّنُ إلى الجَلَمَلِ كما يُرَكَّنُ إلى الفرسِ الأصيلِ، فهو يَرْتَعُو<sup>(٤)</sup> بُقْتَةً وَيَقُورُ ويحاول أن يَعْصُ حتى صاحبه، وهو يَخْتَشَى غَوَاءَ السَّبْعِ من بعيد، وهو عند المَسَوَلِ يَخْرُجُ من قَبْهِ ضَرْبٌ من الحَلَبِ<sup>(٥)</sup> كالذي يَخْرُجُ من فَمِ المُحْتَضِرِ لدى قَدَماءِ المصورين .

والجملُ مَقْصُودٌ عليه بأن يقوم بحِرْفَةِ الحَمَّالِ مَدَى حياته، فيكون على كاهله، حتى في أسعدِ أوقاته، عَرُوسٌ وزَخَارِفُ ثَقِيلَةٌ من سُيُورٍ<sup>(٦)</sup> مُنَمَّرٍ وَصَدَفٍ وجِلَاجِلٍ<sup>(٧)</sup>، ومن المحتمل أن يكون أحد تلك الهياكل العظميَّةِ النظيفةِ، التي

(١) ذمل البعير : سار سيرا لنا — (٢) عصفت الرجل : أسرع، وعصفت الناقة براكيها : أسرع البعير به كأنها الريح، والمصوف من النوق السريعة — (٣) الظنون : البعير يحمل عليه.  
(٤) رغا البعير : صوت وضع — (٥) الحب : التفافيق التي تملأ الماء أو الخمر .  
(٦) السيور : جمع السير ، وهو قفدة مستطيلة من الجلد — (٧) الجلاجل : الأجراس الصغيرة .

تَظْهَرُ بِيضًا فِي الصَّحْرَاءِ ذَاتِ الرَّمَالِ ، لِعِمْرِ مَرَّةٍ مِنْ شَوَارِعِ الْخُرُومِ ذَاتِ مَرَّةٍ إِلَى عُرْسِ أَمِيرَةٍ مَزِينًا بِأَبْهَى جِهَازٍ .

وَالنَّمَامَةُ أَسْرَعُ مِنَ الْبَعِيرِ ، وَتَنِيْمُ عَلَى صِلَةٍ نَسَبٍ بِهِ ، وَذَلِكَ بِسَاقِيهَا الطَّوِيلَتَيْنِ وَسُوءِ سَبْرِهَا وَرَعْنِ<sup>(١)</sup> ظَاهِرِهَا ، وَتَذْكُرُنَا النَّمَامَةُ بِصُنْفِهَا الدَّقِيقِ وَمَنْظَرِ رَأْسِهَا الْأَخْبِلِ بِالْخَيْالِ الْمُحْتَلِّ الَّذِي يَتَفَرَّقُ مِنَ الْعَالَمِ إِذَا مَا عَارَضَ أَحْلَامَهُ .

وَكَانَتْ النَّمَامَةُ تَعْلِيْرُ ، وَيَرَى الزَّوْجُ أَنْ النَّمَامَةَ وَاعَدَتْ الْحَبَّارَى<sup>(٢)</sup> بِالسَّبَّاحَةِ فِي النَّيْلِ قَسَمَتِ أَنْ تُضَيَّفَ إِلَى وَعْدِهَا بِالْحَضُورِ كَلِمَةً « إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ، فَمَاقَبَهَا اللَّهُ فِي الْغَدِّ عَلَى زَهْوِهَا بِأَنْ شَيِّطَ<sup>(٣)</sup> جَنَاحَيْهَا فَخَرَّتْ صَرِيْعَةً مِثْلَ إِيكَارٍ<sup>(٤)</sup> وَصَارَتْ لَا تَعْلِيْرُ بَعْدَ ذَلِكَ .

وَلَكِنْ اللَّهُ لَمْ يَحْفَظْ النَّمَامَةَ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ ، الَّذِينَ يَتَعَقَّبُونَهَا فِرْسَانًا اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ مُنَاقِبَةً مَعَ إِتْبَاعِهِمْ جَمَالًا حَامِلَةً مَاءً ، وَتَهْنِ النَّمَامَةُ إِعْيَاءً ، وَيُهَيِّكُونَهَا بِضَرَبَاتِ عِصَىٍ وَيَنْخَرُونَهَا ، لَا حُبًّا لِلْجَمْعِ مَا اشْتَمَلُ أَقْلُ غَزَالٍ يَسْهَلُ صَيْدُهُ عَلَى لَحْمٍ أَكْثَرَ مِنْهَا ، بَلْ طَعْمًا فِي رِيْشِهَا الْأَبْيَضِ الَّذِي يَتَرَجَّجُ عَدْدُهُ بَيْنَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رِيْشَةً وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ رِيْشَةً وَالَّذِي يَتَخَذُهُ نِسَاءُ بَاشَوَاتِ الْبَيْضِ مَرَاوِحَ لَهْنٍ ، وَهَذَا الرِّيْشُ أَجْمَلُ عَلَى النَّعَامِ فِي الْأَسْرِ مَعَ ذَلِكَ ، وَهُوَ كَجَمَالِ بَعْضِ الطَّيُورِ الْمُرْدَّةِ وَبَعْضِ الشَّعْرَاءِ ، وَيَجْتَنِبُ الصَّائِدُ تَلْوِيْثَ ذَلِكَ الرِّيْشِ بِالْدَّمَ ، وَالصَّائِدُ ، لَكِي يَسِيْمَ لَهُ ذَلِكَ ، يَفْرِزُ مِنْ قَوْرِهِ أَحَدًا أَظْلَافَرِ رِجْلِي النَّمَامَةِ الطَّوِيلَتَيْنِ فِي الْجُرْحِ

(١) الرعن : الهوج والعليش — (٢) الحبارى : طائر أكبر من البجاج الأهلي وأطول عنقا منه ، يضرب به المثل في البلاء فيقال : «أبلى من الحبارى» ، قيل لها ذلك لأنها إذا غابت عنها ذهبت عنه وحضنت بيض غيرها — (٣) شيط جناحه : عرضه لئلا يحرق ما عليه من الشعر .  
(٤) إيكار : رجل أسطوري يوناني يضرب بنوره الليل .

دَرَاهِمُ الإِيجَاءِ هَذِهِ الْحِلْيَةُ بِفِكْرَةِ الْمَوْتِ ، كَمَا تُدْرَأُ فِكْرَةُ الْمَوْتِ فِي الْأَنَاشِيدِ الْوَطَنِيَّةِ الْحَرَبِيَّةِ ، وَهَكَذَا تُبَيَّرُ أَسْرَعُ حَيَوَانَاتِ الْعَالَمِ عَدُوًّا يُصْرَعُ فِي الرَّمْلِ لَتَيْسٍ<sup>(١)</sup> إِحْدَى النِّسَاءِ فِي سَانِ مُورِيْتِزْ<sup>(٢)</sup> حَامِلَةً مِرْوَوحَةً ، وَهَكَذَا تَسْقُطُ نَعَامَةٌ فِي سَبِيلِ الْوَرَّةِ .

وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ عَدَمُ فَائِدَةٍ صَيْدُ الزَّرَافَةِ لَعَدَمِ ضَرَرِهَا ، وَهِيَ إِذَا صِيدَتْ لَا تَعْدُ غَنِيمَةً ، وَالزَّرَافَةُ أَبْهَجُ مِنْ جَمِيعِ مَا فِي الْغَابَةِ ، وَالزَّرَافَةُ حَيَوَانٌ لَا عَدُوَّ لَهُ ، وَيَتَسَاوَى سَمُّهَا وَشَمُّهَا وَبَصَرُهَا حَادَةً وَتَجَاوُزُ كُلَّ مَوْجُودٍ حَيٍّ ، وَتَجَاوُزُ الْقَيْلَ ، عَدَّةَ أَقْدَامِ طَوَلَا ، وَتَمْدُو الزَّرَافِيُّ جَمَاعَةً كَمَا لَوْ كَانَتْ فِي فِرْزُدُوسَ ، وَتَقْطَعُ الزَّرَافِيُّ أَوْرَاقَ الْأَشْجَارِ الطَّوِيلَةِ وَفُرُوعَهَا الطَّرِيقَةَ وَتَتَرَصَّدُ دَوْنَهَا ، وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ جُبْنٍ ، وَمَعَ اعْتِدَالِ دَمِ كَالطَّوَالِ الَّذِينَ يُشْرِفُونَ عَلَى الْآخَرِينَ .

وَإِذَا مَا شَبَّكَ عُنُقَا زَرَافَتَيْنِ ، وَذَلِكَ أَحَدُهَا بِالْآخَرِ ، بَدَتْ لِلنَّاظِرِ لُغْبَةً حَيَّةً عَظِيمَةً ، وَإِذَا رَفَعَتِ الزَّرَافِيُّ رُؤُوسَهَا بَدَتْ آيَةً فِي الرُّوْعَةِ ، وَإِذَا خَفَضَتْ الزَرَافِيُّ رُؤُوسَهَا بَدَتْ مَتَحَذَلَةً كَأَسَانَةِ الْفَلَسَفَةِ ، وَإِذَا تُبَيَّرُ الزَرَافِيُّ مِنْ عَلَيِّ فَإِنَّهَا تَدِيدُهُ حُبٌّ لِلْإِطْلَاعِ فَتَوَدُّ أَنْ تَرَى مَاذَا يَحْدُثُ فَتُلْقِي نَفْسَهَا إِلَى التَّهْلُكَةِ بِذَلِكَ ، وَتَسِيرُ الزَرَافِيُّ سَيْرًا أُخْرَقَ مُتَدَلِّاً بَعِيداً مِنَ الرَّهْوِ<sup>(٣)</sup> ، وَالزَرَافِيُّ دُونَ النَّعَامِ سَرْعَةً ، وَلَا شَبَّةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَقِيَةِ حَيَوَانِ الشَّهْبِ عَدُوًّا ، وَيَبْلُغُ ارْتِفَاعُ قَائِمَتَيْهَا الْأَمَامِيَّتَيْنِ مَتْرَيْنِ فِي الْعَالِبِ ، فَيُمْكِنُ الرَّجُلُ ، غَيْرَ الدُّنْكَوِيِّ ، أَنْ يَمُرَّ مِنْ تَحْتِ زَوْرِهَا<sup>(٤)</sup> مِنْ دُونِ أَنْ يَخْتَفِضَ رَأْسُهُ .

(١) مَلَسَ الرَّجُلُ : مَعَى وَهُوَ يَتَأَيَّلُ وَيَنْفَجِرُ — (٢) سَانِ مُورِيْتِزْ : مَدِينَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ مَدَنِ سُوَيْمِرَةِ — (٣) رَهَا يَرُوهَا : نَارٌ سَيَّرَ سَهْلًا — (٤) الزَّوْرُ : أَعْلَى وَسَطِ الْمَدْرِ أَوْ مَلْتَقَى عِظَامِ الْمَدْرِ .

وكيف يَشْرَبُ من النيل حيوانٌ يَبْلُغُ ارتفاعه ستة أمتار؟ لا تُؤَقِّقُ الزرافةُ لذلك إلا بمباعدتها ما بين قانتَيْها الأماميتين مبالغةً شديدةً مع التواء، ولذا تُفَضِّلُ الزرافةُ لَعَقَ أوراقِ الشجرِ المُبَدَّلَةِ في موسم الأمطار، ولا تَبْكُلُ الزرافةُ بِالرَّجُلِ الأبيض إلا قليلاً، ولكن الزرافةَ سَحَرَتْ بظاهرةٍ من أطوار الحضارة، وقد ظَهَرَ منذ بضع سنين حيوانٌ جديدٌ في الشَّهْبِ له أربع قوائمٍ مدورة، وهو أسرع من جميع الحيوانات، وهو أسرع من الزرافة، وإليك الزرافةُ تَعْدُو بِجَانِبِ السيارة وتسايقُها، ولا تَحْبِبُ إذا ما لاح النصر بجانب سائقِ السيارة بعد نصف ساعة. والوعولُ، لا تلك الحيواناتُ الثلاثة، هي التي تُنَشِشُ الشَّهْبَ قبل كل شيء، وفي الشَّهْبِ تَعْبَثُ أَلُوفُ الوعولِ طليقةً غيرَ خائفةٍ على أعينِ الفارس، وهي تَبْدُو كَأَلُوفٍ تُقَاطِرُ صغيرةٍ في سُهْبٍ لا نهايةَ له.

وهي إذا ما سَحَرَتْ باقترابِ أسدٍ من سَافَةٍ بعيدة أبصرَ الفارسُ فِرَارَها هائجةً عن غريزةٍ أو بقيادةٍ زعيمٍ فَيُحَيِّلُ إليه أنه يَرَى صفوفَ خيولٍ هاربة، وتَلْبِهُ الوعولُ فوق العشبِ اليابسِ أو المحترقِ بين التمامِ والزُرْفَى الرَّاكِضَةِ باحثةً عن ملجأٍ غيرِ معروفٍ احتباءً من عَدُوٍّ غيرِ منظورٍ، وللوعولِ أنواعٌ كثيرةٌ وقرونٌ متنوعة، ومن أنواعها الوعولُ السَّوْرُ والبَيْضُ والمُخَطَّطَةُ والمُنْقَطَةُ، ويمكنُ مُتَفَنِّناً أن يَرُسِّها في يومٍ تَجَلَّ فَيَبْزُرُ منها أَيْلُ آدمَ والنزالُ العَوَامُ وطَبَقِي القصبِ وتَبْسُ الغابِ وأصنافاً من الفِرْلانِ تَقْفِرُ بقوائمها الرائعة رشقةً بادئةً المروقِ نحت جلدِها، فيَجِدُّ شعراءُ العربُ بها مَعِينَ مجازٍ واستمارةٍ لا يَنْصُبُ فيفترون منه في التفتي بهَيْفٍ المشوقة ولينٍ مَلَمَّها.

وما في الشَّهْبِ من طيورٍ صغيرةٍ فأقلُّ كثيراً مما في منطقة الأمطار، ولكن

الشَّهْبَ يَشْتَمِلُ عَلَى الْهَذْدُ الَّذِي يَعِيشُ دَوَّماً فِي جَمَاعَةٍ ، فَيَهْدِيدُ<sup>(١)</sup> مَعَ جِيرَانِهِ  
بِلا انقطاع ، وَيُعِدُّ الْهَذْدُ وَحِيدَ الزَّوْجِ وَيَصْبُحُ وَيَتَوَحَّجُ إِذَا صِيدَتْ أَثْنَاهُ ، وَذَكَرُ  
الْمُهَاذِهِ الْأَكْثَرُ قَرْقَرَةٌ<sup>(٢)</sup> ، وَيَتَلَهَّى الْمُرَيْسُ الطَّاوَرُ<sup>(٣)</sup> كَمَا يَتَوَدُّ ، وَلَكِنَّهُ  
اخْتَرَعَ نَفْلاً خَاصّاً لِأَثْنَاهُ وَلِصَفَارِهِ ، فَهُوَ يُسَوِّرُ وَكَرَّهُ بَطِينٍ مُبْتَلٍ وَلَا يَدْعُ مِنْهُ غَيْرَ  
ثُغْرَةٍ صَغِيرَةٍ يَأْتِي إِلَى الْأَفْرَاحِ بِالطَّعَامِ مِنْهَا حَتَّى تَقْدِرَ عَلَى الطَّيْرَانِ ، وَإِذَا حَضَرَهُ  
الْمَوْتُ قَبْلَ سَوَاءِ وَجَدَ الْعَزَاءُ فِي مَوْتِ أَثْنَاهُ مَعَ كَامِيرٍ هِنْدِيٍّ ، وَبَيْنَ الطَّيُورِ  
الْكَبِيرَةِ نَذْرُ الْبَازِ ذَا الْمَنْقِ الْأَحْمَرِ الْمَحَبِّ لِلنَّخِيلِ وَالَّذِي يَبْلُغُ مِنْ شِدَّةِ الْجُرْأَةِ  
وَسُرْعَةِ الطَّيْرَانِ مَا يَبْلُغُهُ إِخْوَانُهُ مِنْ بِيْزَانِ الشَّالِ ، وَيَقَعُ النَّسْرُ الْقَنْبَرَانِيُّ عَلَى  
غُصْنِ السَّنَطِ الْمَجْرَدِ فَيَنْشُرُ قَنْبَرَتَهُ وَيَجْمَعُهَا غَيْرَ مَرَّةٍ فِي عِدَّةٍ سَاعَاتٍ .

وَلَكِنْ شُرْطَى الْهَوَاءِ الْأَعْظَمُ ، وَلَكِنْ الْمَسِيرُ الْأَكْبَرُ ، هُوَ الْأَنْوَقُ الَّذِي هُوَ  
نَوْعٌ مِنَ الْعِقَابِ ، هُوَ النَّسْرُ ذُو الْأَجْنَحَةِ الْوَاسِعَةِ الثَّقِيلَةِ الَّذِي يَحْمِلُ رَقَصَ الْمَوْتِ فِي  
الصحراء والشَّهْبِ ، هُوَ الرَّحْمُ<sup>(٤)</sup> الَّذِي يُقْبِلُ مُبَاعِداً بَيْنَ سَاقِيهِ مَائِلَ الرَّأْسِ إِلَى  
الْأَمَامِ حَادِّ الْبَصَرِ حُبْتُ ، وَمَا كَانَ عِلْمَاءُ الصَّحَةِ لِيَخْتَرَعُوا وَسَائِلَ أَحْسَنَ مِمَّا عِنْدَهُ  
لَمَنْعِ الْقَتَنِ وَمَا يُوْدِي إِلَيْهِ مِنَ الْغَازِ الْقَاتِلِ فِي ذَلِكَ الْإِقْلِيمِ ، وَدَلِيلُ الْعِقَابِ بِأَصْرَتِهِ ،  
لَا شَامِتُهُ ، وَالْعِقَابُ ، لِأَنَّهُ مِنْ أَجْنَحَةٍ قَوِيَةٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجُوبَ بِهَا مَسَافَاتٍ  
كَبِيرَةً ، لَا يَفُوتُهُ جَلٌّ مَطْرُوحٍ أَوْ غَزَالٌ هَالِكٌ ، وَهَنَا لَا تَنْشُئُ رَائِحَةً جَيِّفَةً أَبَداً ،  
فَالْعِقَابُ تَصِلُ فِي الْحَالِ ، وَالْعِقَابُ تَرُدُّ بِسُرْعَةٍ كَالْوَرْدَةِ ، وَالْعِقَابُ تَبْحَثُ بِمَنَاقِبِهَا

(١) مهدد المهدد : ردد صوته — (٢) قرقر المهدد : ردد صوته .

(٣) Rhinoceros-bird, L'oiseau Rhinocéros ، والمرميس هو الكركدن .

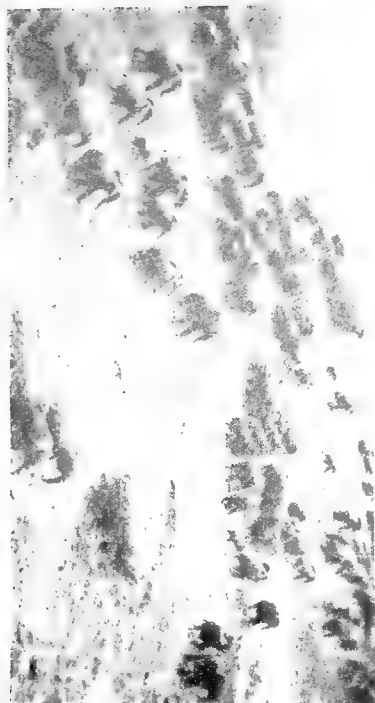
(٤) الرخم : طائر من الجوارح الكبيرة الجثة الوحشية الطامع .

المُغْتَفَ (١) في الجَيْبِ وتقتل وتتنازع القطع ، ولا تكاد تَمُضِي خمسُ دقائقَ حتى لا يبق من الكلب المَفْزُور (٢) أثرٌ ، وعكسُ ذلك ما يقع في التاحف حيث تنبعث من النُسر رائحةٌ كريهةٌ عِدَّةُ سنواتٍ مع حُشْوِهِ بِالتُّبَنِ وتطهيره ، ومما يَحْدُثُ ، على الرغم من هذا ، أن يأكل أَرْقَاهُ أَبَاقُ (٣) من لحم المُقَابِ عن سَعَبٍ (٤) .

وفي المساء ، وفوق السهل ، وفوق النهر ، نُصَاءُ قُبَّةُ السَّمَاءِ بنور لطيف ، وفي الغرب تبصر خطاً أصفرَ فاقحَ اللون ، ثم تُبصر شريطاً ضيقاً لَصَابِ ضارب إلى خُضْرَةٍ ، وفي الأعلى يكون كلُّ شَيْءٍ بنفسجياً فلا يَلْبَثُ أن يتحول إلى لِيلِكِي (٥) ثم يتحول في سِتِّ الرَأْسِ (٦) إلى زُرْقَةٍ الحَمَامِ ، وفي الشرق يظهر كَمَعَانٌ ضاربٌ إلى سُحْمَةٍ ممزوجٌ بلونٍ أزرقٍ بَرَقَاقٍ وبلونٍ بنفسجيٍّ رَمَادِيٍّ وبلونٍ ورديٍّ زامٍ ، ويتحول جميعُ ذلك إلى لونٍ أزرقٍ قَوْلَ ذِيٍّ في دقيقة واحدة قَلِيلٌ هذا اللون آسَامُ (٧) رملٍ ذاتِ لونٍ صَدْقِيٍّ ، وفي الشرق يكون الثور بارداً والورد رَمَادِيًّا .

وفي الغرب ، وبين الحين والحين ، يكتب طرفُ الأفقِ لوناً أصفرَ كَبْرِيَّاً كريهاً ، فيصير النيلُ ، الذي يُحَلِّقُ فوقه طيرٌ أسودٌ ، أصفرَ اللون ، وذلك مع عُبْثٍ ظلالٍ وأنوارٍ وأمواجٍ ضاربةٍ إلى زُرْقَةٍ ، ويتحول وَسَطُ طرفِ الأفقِ الأوسطِ إلى لونٍ برتقاليٍّ يَطْلُ الشرقَ الشَّهَبِ (٨) ويَكْدُرُهُ ، ويتسع في المكان الذي تنيب فيه الشمس مثلُ خليجٍ وَيَمْتَدُّ على أمواجٍ زعفرانيةٍ نحاسيةٍ ، ثم يُرْجِي الليلُ الذي

(١) المغتف : جمع الأعقف وهو الموج — (٢) مفزور : هقه وفسخه — (٣) الأباقي : جمع الأبق ، من أبقى البعد إذا هرب من سيده — (٤) السب : الجوع — (٥) عطف ، وهو ما كان بين اللونين الأزرق والوردي — (٦) سمت الرأس : في علم الهيئة نقطة من القلّة ينتمي إليها الخط الخارج من مركز الكرة الأرضية على استقامة قامة الرجل — (٧) الآكام : جمع الآكة وهي الخلل — (٨) الشهب : ياتى يتخلله سواد .



١٠ — جبهة من الأحيال





### البدوى والفلاح

يَصْعَدُ مِنَ الشَّرْقِ سُدُولَهُ عَلَى تِلْكَ الْمُنْطَقَةِ النَحَاسِيَةِ وَيَسْتَوِلَى عَلَى السَّمَاءِ ، وَتَصِيرُ  
الْأَلْوَانُ فِي خَيْرِ كَانٍ .

وَيَزِيدُ خَرِيرُ النِّهْرِ ، وَيَسِيرُ النِّيلُ فِي اللَّيْلِ إِلَى الشَّامِ .

### ٣

البدوى وحده سيد الصحراء وسيد الشهب ، وذلك لأنه يعيش من مواشيه ،  
ولأنه مكره على جلبها من مَرَعَى إِلَى مَرَعَى وَفَقَّ هَوَى جَوِّ النِّيلِ وَهَوَى الْمَطَرِ ،  
وَيَتَمَدُّ أَمَامَ الْبَدْوِيِّ مَمَالِكُ ، وَلَيْسَ الْبَدْوِيُّ مُلْكَ أَحَدٍ ، وَإِذَا لَمْ يَزِرْ الْبَدْوِيُّ  
فَتَحَهَا اضْطَرَّ ، دَوْمًا ، إِلَى الْبَحْثِ عَنْ غَيْرِهَا قَبْلَ أَنْ يَمُودَ إِلَى التِّي كَانَ  
يَشْفَلُهَا سَابِقًا .

وهو يُوَكِّدُ تَقَالِيدَ الْفَلَاحِينَ الْقَدِيمَةَ الَّذِينَ يُرِيحُونَ الْحَقْلَ بِهَا بَعْدَ الْحَصَادِ ،  
وَهُنَاكَ دَوْرُ انْتِقَالٍ بَيْنَ الْبَدَاوَةِ وَالْحَضَارَةِ ، وَعَرَبُ جَنُوبِ مَرْوَى مِمَّنْ شِبَاهُ  
الْأَعْرَابِ الَّذِينَ يَتَسَكَّمُونَ<sup>(١)</sup> مَعَ قِطَاعِهِمْ ، وَلَكِنْ مَعَ بَذْرِ حَبِيبِهِمْ ، وَهُمْ يَزْخَلُونَ  
بَعْدَ الْبَذْرِ تَارِكِينَ حِفْظَ حَقُولِهِمْ ، ثُمَّ يَزْجِعُونَ لِحَصَادِهَا ، ثُمَّ يَطْلُتُونَ الْحَبَّ  
وَيَأْكُلُونَ الْخُبْزَ وَيَزْخَلُونَ مَرَّةً أُخْرَى ، وَالذَّرَّةُ كَالْحِمَالِ لَا تَحْتَاجُ إِلَى عَنَاءٍ ،  
وَالذَّرَّةُ تَعْطَى خَمْسَمِئَةِ ضِعْفٍ مَا يُبَذَرُ مِنْهَا ، وَالذَّرَّةُ تَسْتُرُ نِصْفَ مَا يُزْرَعُ  
مِنْ أَرْضِي السُّودَانِ ، وَتَتْرَكَ قِبَالُ أُخْرَى بَعْضَ الْأَسْرِ الْمُخْتَارَةِ فِي الْوَاحَاتِ  
لِزِرَاعَةِ الْحَبِيبِ ، وَتَصِيرُ هَذِهِ الْأَسْرُ حَضَرِيَّةً ، فَإِذَا مَرَّتْ بَضْعَةُ أَجْيَالٍ انْخَطَلَتْ  
وَتَعَاظَمَتِ التِّجَارَةُ .

---

(١) تَسَكَّمٌ : مَعْنَى عَلَى غَيْرِ هِدَايَةٍ .

## الأعراب

والبدوى مَلِكٌ فى كلِّ مكان ، وليس الفلاحُ غيرُ أَجبر ولو كان أغنى من الملك ،  
وَلَيْسَكُنَّ الفلاحُ شاطىء النبل ، أو لَيْسَكُنَّ واحِدٌ قد تَبْلُغُ من الاتساع ما يَعْدِلُ  
ولابِتٍ فى بعض الأحيان ، ليرى أن عاصفةً واحدة تكفى لإتلاف عمله ، وهو  
يُوجِّهُ بصره إلى الأرض مغموماً ، وهو يُؤَلِّفُ زُمرًا للدفاع عن النفس تجاه  
الضواري والناصر ، وهو ، مع ذلك ، لا يخافُ أمراً يحوفه من البدوى الضارب  
خبيته على حدود الشهب والذى يَمُدُّ الواحةً طليمةً مُعدَّةً للحصار والانتهاك ،  
والفلاحُ يَحْذَرُ البدوى حَذَرَ اللدنى من الأفاق ، ويستحوذ على الفلاح احتياجٌ  
إلى أَمْنٍ غير موجود ، ويَرْكَنُ إلى قوانين مذبذبة ، ويظلُّ عُرْضةً لِمَا للنبل  
والطر من أهواء لا يقدِرُ أحدٌ على البَصْرِ بها وَيَفْقِدُ رَوْعته .

وبعضُ البدوين من الحِسان ، وللبدوين من الملامح ما هو مشتركٌ بين  
جميع القبائل على الرغم من تَفَرُّقها فى السهل الماطل من الأنهار والشلال ، وقد  
أسفر توالد أولئك الإثيوبيين والعرب الذين جاوزوا البحر الأحمر منذ أربعمئة  
سنة عن جمل أولئك الأعراب أعرق سَجِيَّةً ، وهناك الإبلُ والبقرُ والضأنُ  
( ويبلغ عددها سبعة ملايين فى السودان ) ، وهناك الخيلُ والأكواخ والنساء  
والولدان والآبار ، وهناك تَبِيَّةٌ وَتَقَلُّبٌ فى ساعات العمل وشيخٌ زعيم ، وهناك  
قِتالٌ يَنْفِصِلُ الخصومات فى الحال ، وهناك عدمُ أَمْنٍ وإيمانٍ وخُرَافة ،  
وهناك أرضٌ بلا حدودٍ وحريةٌ لا نهايةَ لها ، وهناك حياةٌ قال عنها عُتوهُ فى  
« طَلَّاسِيم <sup>(١)</sup> العرب » :

(١) الطلاسيم : جمع الطلسم ، وهو خطوط أو كتابة يتصلها الساحر ويَزعم أنه يدفع بها كل  
مؤذٍ ، والكلمة من الغنيل .

• له هيئة للفرح •

« الربُّ هو المشرق ، الربُّ هو المغرب ! والأرضون في الشمال والجنوب  
ساكنة سكّون سَلَمٍ بين يديه ... دَعُونِي أَعِشْ كما أهُوَى فوق سَرَجِي الزُّمُورِ  
أَكُوَاخَكُمْ ، الزُّمُورِ خِيَامَكُمْ ، وأما أنا فإذهب بعيداً مسروراً مع النجوم التي هي  
فوق عَمَرَتِي ! » .

أفلا يدنو الإنسان من الله بتلك الحياة التي دامت ألوفَ السنين ؟ أفلا يتدو  
الإنسانُ بذلك أكثرَ جَلالاً ؟

وترى بدوىَّ الشَّهْرِ واقفاً بجانب جَمَلِهِ طويلاً خفيفاً بادىَ العظام لا يأكل  
عن جوعٍ حتى الشَّيْبِ ، هو أسمرُ مع أشياء تُلَطَّفُ نَفْسَهُ بَشَرَتِهِ ومع مفاصلٍ دقيقةٍ  
إلى الغاية ، هو ذو لَحْيَةٍ قصيرةٍ مُحِيطٍ بوجهِهِ يَتَقَيَّ ، هو ذو أذنين كبيرتين  
لاصقتين كأذني الوَعَلِ ، هو ذو أنفٍ يرتبط بفكاه<sup>(١)</sup> في عروقِ الشمال الكريمة ،  
هو ذو جبين مُقْضَنٍّ<sup>(٢)</sup> ناني- فوق عينيه الفأرتين كعين الصَّيَّادِ ، وهو ذو فمٍ صغيرٍ  
كثومٍ محتزٍ ، هو ذو شفتين قويتين مع عدم برُوزٍ ، أي ذو مجموعةٍ نَتِمْ على  
الشجاعة والرزانة والكرامة ، وعلى سَجِيَّةٍ فطريةٍ لرجلٍ أَلْقَى جَبلَهُ على غارِهِ ففدا  
نَحْتِ رَحمةِ أهواءِ القَدَرِ على الدوام . وَيَقْضِي البدويُّ جميعَ حياته كما يقضي الأيغُسُ  
دَوْرَ شَبَابِهِ ، وطَبَعَتِ الشمسُ والنجومُ بطابعهما ، وكان هيرودوتس<sup>(٣)</sup> يقول : « له  
هيئةُ الملقوح » ، وهو شخصٌ يُوحِي بَدَنُهُ على اعتياده على نفسه ، وهو شخصٌ له  
من حِدَّةِ البصرِ ما هو أقوى مما لدى الأوربيِّ ثلاثَ مراتٍ فيدلُّ على قوةِ نفسه ،

(١) في الألف بيتي قنا : ارتفع وسط قمته وضاق منخراه فهو أنثى .

(٢) مقضن : مجعد — (٣) هيرودوتس : مؤرخ يوناني عرف بأبي التاريخ

(حوالي ٤٨٤ ق.م — ٤٢٥ ق.م)

### حرية النساء

وهو رجل كان أجداده يختارون أجملهم مِلكاً لهم ، فإذا ما عَطِلَ عَمَلُ عضوه له صَحَّتْ يَطانتُهُ بِمِثْلِهِ ، واشْتَرَا بُونَ<sup>(١)</sup> هو الذي رَوَى لنا هذه العادات ، ولا يزال كثيرٌ منها باقياً حتى الآن .

وظلَّ القتالُ في ذلك الإقليم ، وبين تلك القبائل ، ضرورةً ، ومن ثمَّ بَقِيَ رائداً ، وَبَقِيَ القتالُ مواجهةً ، ولا يزال الصِّراعُ والقَوُّ والذِّبحُ أموراً مكتوبةً في اللُّوحِ المحفوظ ، والكَرَمُ فضيلةٌ كالاستقام . ومن الإصابات أن استطاع هؤلاء الوثنيون أن يعتنقوا الإسلام ، وما انضكت النصرانية تكون غريبةً عنهم ، وما فَتَنُوا يحافظون على كثيرٍ من عادات أهل البدو الذين وَرَدَ ذِكْرُهُم في التوراة كاللُّثَرُ واحترام المَشِيبِ وَتَنَرِ النَّبَارِ وقتَ الخطرِ وشقُّ الثياب ، ونَرَى حُجَّاجاً بين هؤلاء البدويين ، ومن زُوجِ غرب إفريقيا أناسٌ يُجَوِّبون جميعَ القارةِ لِيَرَوْا مَكَّةَ وَيَسْكَونَ في الطريقِ ليعيشوا ، وَيُقيموا ، أحياناً ، أعواماً بأرضها بين النيل الأزرق والنيل الأبيض فيؤثِّفون أُسْراً ولا يبلُغون قَبْرَ النَّبِيِّ إِلَّا بعد عشرين سنةً من مفادتهم بلادهم عن إيمانٍ عميقٍ لم يَرَوْا مثله تاريخُ أيةِ فرقةٍ دينيةٍ في الغرب .

ولكنك لا تَحْدُ مثلَ هذا المزاجِ النفسيِّ لدى بَدَوِيِّ البلاد الأصليين ، وهؤلاء لا يدرون ما القرآنُ ولأَسْوَرُ القرآنِ ، وهؤلاء لا يَمْرِفون من مَكَّةَ غَيْرَ قَبْلَتِهَا التي يُوجِّهون سَجَادَتَهُمْ نحوها قبل الصلاة واضعين إياها على الرمل .

ويَدْعُ البدويُّ للنساء من الحرية أكثرَ مما تَسْمَحُ به الديانات والعادات المحيطةُ به ، ويُذَرِّكُ البدويُّ معنى الغرام ، وتنشأ عن عدم حَجَبِ النساء في دوائر الحرم مكاييدٌ ومنازعاتٌ ، ومنذ مئة سنةٍ خَلَّتْ اكتشف رائدُ إنكليزيٍّ بين

(١) عالم جغرافي من علماء اليونان (حوال ٥٨ ق . م — حوال ٢١ ب . م) .

### تطهير المروج

سِتَارَ وَكَرْدُفَانَ قَبِيلَةَ بَلَغَ سُلْطَانُ النِّسَاءِ فِيهَا مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَطْلُبُنِ مَعَهُ يَوْمَ زَوَاجِنَّ عَهْدًا خَطِيئًا يَكُونُ لَهُنَّ بِهِ حَرْبَةٌ مُطْلَقَةً يَوْمًا وَاحِدًا فِي كُلِّ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ، وَالْيَوْمَ لَا يَزَالُ يُوجَدُ فِي تِلْكَ الْبَقْعَةِ سَوَاحِرُ يُصَيِّنُ الرِّجَالُ بِالْعَجْزِ فَلَا يُدْنِ الْبِهِمُ سَابِقَ رُجُوتِهِمْ إِلَّا لِمَصْلَحَتِهِمْ .

وَيُوكَّدُ أَمْرُ هَذِهِ الْحَرْبَةِ فِي الْفَرَامِ بِالْوَجْهِ الَّذِي يَحْضُرُ بِهِ أُولَئِكَ الْبُدُيُونَ مِيرَاسَهُمْ فِي الْإِنْثَاءِ ، وَعَنِ الْبَشَارِينَ الَّذِينَ هُمْ أَجْمَلُ الْبُدُيِينَ يَقُولُ كَاتِبٌ عَرَبِيٌّ : «لَا يُطْمَأَنُّ إِلَى أَنْ الزَّوْجَ هُوَ الْأَبُ ، بَلْ يُطْمَأَنُّ إِلَى الْأُمِّ» ، وَهَمْ يَرَوْنَ أَنَّ الْبِنُوَّةَ بِالْبِنْتِ أَوْ الْأَخْتَ أَصَحُّ فَيَخْرِمُونَ أَبْنَاءَهُمْ الْإِرْثَ فِي سَبِيلِ أَبْنَاءِ بَنَاتِهِمْ أَوْ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِمْ عَادِينَ إِيَّاهُمْ وَرِثَةً لَا جِدَالَ فِيهِمْ مِنْ نَاحِيَةِ الدِّمِّ ، وَالْأُمُومَةُ هِيَ الَّتِي كَانَتْ تُعَمِّنُ الْحَقَّ فِي وِرَاثَةِ الْعَرْشِ لَدَى مُلُوكِ آلِ سِتَارَ إِلَى حِينِ انْقِرَاضِ هَؤُلَاءِ الْآلِ مِنْذِمَّةَ سَنَةٍ .

وَالْبُدِيُّ يُطَهِّرُ أَرْضِيَّهِ مَرَّةً فِي كُلِّ عَامٍ ، وَهُوَ يُقَلِّمُ غُصْنًا عَلَى شَكْلِ الشَّوْكَ أَوْ الْقَرْنِ مِنْ «شَجَرِ الْوَقْدِ» ذِي السُّنُوفِ <sup>(١)</sup> ، وَتُحَدِّثُ نَقَبًا فِي غُصْنٍ آخَرَ وَيُدْخُلُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْغُصْنُ الْمَشْدُبُ حَتَّى يَتَكَوَّنَ ضَرْبٌ مِنَ الْغُبَارِ الَّذِي يُدَخِّنُ وَيَحْتَرِقُ فَيَسْتَعْمَلُهُ فِي إِشْعَالِ الشُّبِّ الْيَابِسِ بِأَتْمَاجِ الرِّيحِ ، وَالتَّارُ تَعَمُّ الشُّبَّ فِي نِصْفِ سَاعَةِ فَتَفْرِغُ الْغُبَاءُ ، وَلَا يُفَكِّرُ النَّبْرُ فِي رَيْبَتِهِ ، وَلَا يُفَكِّرُ النَّمْرُ فِي غَيْرِ إِفْقَادِ حَيَاتِهِ ، وَتَبْحَثُ الْأَفَاعِي عَنْ مَلِجٍ ، وَتَفْزُدُ الْحَشْرَاتُ الَّتِي تَحَاوِلُ الْاِعْتِصَامَ بِشَجِيرَاتِ طُعْمَةِ الْوَرُورِ <sup>(٢)</sup> وَتَبْتَصِّدُ الْبَازُ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الطَّيْرِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَهْرُبُ مِنَ الشُّبِّ أَرْسَالًا <sup>(٣)</sup> .

وَالْبُدِيُّ وَحْدَهُ يَنْظُرُ إِلَى الْحَرِيقِ بَيْنَ الرِّضَا ، فَقَدْ قَطَّعَ مَرْجُوهُ .

(١) السُّنُوفُ : جَمِيعُ السَّنَفِ ، وَهُوَ الْوُودُ الْمَجْرَدُ مِنَ الْوَرَقِ — (٢) الْوَرُورُ : طَائِرٌ قَصِيرُ الرَّجْلَيْنِ طَوِيلُ الْمَنْقَارِ أَسْوَدُ فِي قَعِّ رَأْسِهِ حَمْرٌ وَتَحْتَ عُنُقِهِ طَوِيفٌ يَمِيلُ لَوْنُهُ إِلَى الصَّفَرِ وَسَائِرُهُ أَخْضَرُ إِلَى الزَّرْقَةِ وَفِي وَسْطِ ذَنَبِهِ رِيْشَتَانِ طَوِيلَتَانِ — (٣) الْأَرْسَالُ : جَمِيعُ الرُّسُلِ ، وَهُوَ الْجَمَاعَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

إذا لم تنقيد بحرفية مثل نطق به عالم عربي قديم أمكننا أن نذهب معه إلى أن النيل يجري أربعة أشهر من الصحراء (الغاب البكر والجبال والناقم) ويجري شهرين من بلد الزوج وشهراً واحداً من دار الإسلام .

والثلث العربي يقول : « تحيك الرحمن حينما صنع السودان » ، ونسأل في أنفسنا عن قسم السودان الذي تحيك من أجله ، وذلك لأن السودان عالم قائم بنفسه يشتمل على نواح كثيرة وأخرى زاهرة ، والسودان يمتد من الغابة الاستوائية إلى الصحراء ومن خلال إفريقية الشمالية الشرقية ، والسودان يعدل فرصة خمس مرات مساحة ، ويشتمل على ستة ملايين من الآدميين ، والنيل والطر في السودان طابع مختلف أشد الاختلاف ، وفي الجنوب يرتفع السودان ألف متر ، ثم يهبط زويداً رويداً ليتقدو بلاد تلال وسهل خلا منطقة دارفور البركانية ، وتحف الجبال حول السودان من الجنوب والشرق وجزء من الغرب ، ويرتفع السودان نحو الشرق ، أي نحو الحبشة ، ويخضع لحكم الأمطار في أدوار مختلفة على حسب الارتفاع ، ولذا لا نجد في السودان أية مطابقة في الحيوان والنبات والإنسان . ويتنزل من الماء متر في منطقة المناقع سنوياً ، ويتنزل من الماء متر ونصف متر في الخرطوم سنوياً ، ولا يتنزل مالا فيما بين الدرجة الثامنة عشرة من العرض الشمالى والقاهرة ، أى بعد بربر تقريباً ، وفي جنوب دائرة السرطان ، وعلى عرض الخرطوم ، حيث سمت الشمس ينف الرياح الموسمية وحيث الهواء الصاعد

### الطر في السودان

يَبْرُدُ الْآخَرُ ، يَنْزِلُ الطَّرُ بين يونية وأغسطس لِيَقْدَمَ ذَلِكَ السَّمْتُ وتَأْخُره إلى أَقْصَى حَدٍّ فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ .

وتلك هي أمطارُ صيفٍ خفيفةٍ تُنْبِتُ الْكَلَأَ وَالطَّرْفَاءَ وَالْمَلِيقَ وَالسَّنْطَ ، وفي الجنوب ، أى على مَسَافَةٍ كَثِيرَةٍ الْبُعْدَ من دائرة السَّرْطَانِ ، يكون للأمطار موسمان غير منفصل أحدهما عن الآخر انفصالاً يَبِينُ ، ويكون الجفافُ ثَمًا بين مايو وأغسطس ، وفي شهر سبتمبر تَجَفَّفُ الشَّمْسُ ما في الأرض من بَلَلٍ فيُحْتَمِلُ إلى الإنسان أنه في سَحَامٍ تَرْكِيَّةٍ .

وليس بلادُ النوبة غيرَ جزءٍ من السودان يمتدُّ من الخُرطوم إلى أسوان تقريباً ، وتمدُّ نوبية العليا التابعة للسودان حتى وادى حلفا ، والدولُ الأوربية هي التي عَيَّنَتْ الحدَّ الغربيَّ لاشتغال الصحراء على جميع القارّة من هذه الجهة ، وتَسْتَرُ الرياحُ والرمالُ ما غُرِزَ من الأوتاد على مَسَافَاتٍ طويلة فصلًا للأُمَلَاكِ الإنكليزية عن الأملاك الفرنسية في عالم الصحراء الواحد .

وكان للصريون يُطْلِقُونَهم والتّوارة على البُقعة الواقعة فوق وادى حلفا اسمَ كُوشَ ، وكان الرومان يُطْلِقُونَ عليها اسمَ إثيوبية ، واليومَ لا تَعْرِفُ من نواحيها غيرَ كُرْدُفَانِ التي تُصَدِّرُ الذهبَ والمطاطَ منذ زمن طويل ، والعالمُ يَعْرِفُ أيضاً أن شمال السودان ظلَّ نصرانيّاً قرونًا كثيرةً . فأسلمَ في القرن الرابع عشرَ ، وأن الساميين والحاميين المُطْعَمِينَ بدمِ زِنْجِيِّيِّهِ يَتَقَطَّنُونَ في الشمال وأن الزنوج المُطْعَمِينَ بدمِ حامِيِّهِ يَتَقَطَّنُونَ في الجنوب ، وحافظتْ بلادُ النوبة ، وهي المِنطَقَةُ التي نُسِّمُ بها قِسمَ السودان الواقعَ في شمال الخُرطوم ، على عاداتها أحسن من محافظة مصر التي عَمَّرَهَا الْأَجَانِبُ ، ولم تَنْقُضْ حضارةَ الشمال فيها إلّا في أقدم

## بلاد النوبة

الأزمان وفي العصر الحاضر ، وعانت بلادُ النوبة في تلك الفترة سلطانَ العرب الذين أتوا من الشمال ومن البحر الأحمر والذين اكتشفوا زنجبار قبل الأوربيين بعدة قرون .

وعين النيلُ تطورَ تلك البقعة التاريخية لأنه غيرُ صالحٍ للإحالة صلاحاً دائماً ، وينقطع عملُ حضارة البحر المتوسط في أسوان عند الشلال الأول ، وقد حاولت جميع السلطات المتدنة أن تتجاوز المساقط المؤقتة وجوهاً شطراً منابع النيل في قوارب على طول ضفافه ، وذلك بقوة الحِرَابِ وضربِ السيَّاطِ وبين أنين أبناء البلاد الذين عيَّدهم الفتحُ من عهد الفراعنة إلى عهد محمد علي .

ولم يستطع أحدٌ قبل مئة سنة أن يؤخِّد هذا البلدَ الكبير ، وهذا التوحيدُ من صنعِ غصننا ، ويمكن أن يُقضى عليه قبل أن يؤطِّد أمره ويُحقَّق تحقيقاً تاماً ، ولم يَبْقَ غيرُ آثارٍ وضيعةٍ مما صنَّعه رجال القرون القديمة في النيل الأوسط ، وقد قامت ممالك في داخل البلاد حيث فسَّحت الغابُ للشَّهْبِ مجالاً ، وحيث لا يستطيع الملوك أن يَرْتَقِبُوا الشَّهْبَ أكثر مما تستطيع الزرافة ، فيشترك الملوكُ والزرافاتُ كلاهما في الشَّهوبِ إذنٌ .

ومن هؤلاء الملوك من ملك ما بين النيل الأبيض والنيل الأزرق ، ومنهم من ملك دارفورَ على النيل الأبيض ، فكان كلٌّ منهم لا يَعْرِفُ من أمر الآخرين إلا قليلاً ، وكانوا يَخْتَلِفُونَ ديناً ولغةً فلا يَرْتَبِطُ بعضهم ببعضٍ غيرُ نهرٍ يتعذر عبوره ، ويُقيم القُوُجُجُ مملكة في عصر سرفانتيس<sup>(١)</sup> وليونارد دافنسي<sup>(٢)</sup> فيحتفظون بقسمٍ من نوبة

(١) سرفانتس : كاتب إسباني مشهور (١٥٤٢ - ١٦١٦) - (٢) ليونارد فني : من أشهر متفني الطلاينة (١٤٥٢ - ١٥١٩) .



### أصل الخرطوم

العليا ثلاثة قرون ، ويذكرهم التاريخ لما كان من اشتغال بلأطهر على علماء من بغداد وبلاد العرب ، ومن المحتمل أن تناول الأسطورة أمر ذلك الملك العربي الظريف الذي شاد ثلاثاً وثلاثين غرفة لتسوته الثلاث والثلاثين والذي جلب إلى قصره مقداراً كبيراً من الحبة و ٣٦٥ من الموز ثم انزوى فيه مستريحاً سنة كاملة على ألا يدخل عليه وزيره سوى مرة واحدة في كل يوم ، والحق أن هذا الملك ، الذي عاش في القرن الثامن عشر فكان لا يقوم بشؤون الحكم غير نصف ساعة من أربع وعشرين ساعة ، جعل شعبه أسعد حالاً من أسلافه الفاتحين ، وأسقط هؤلاء الملوك حوالي سنة ١٨٠٠ ، ولم يقب وارثهم الأصغر النسب إلا سنة ١٩١٦ ، وتميش ذراهم في سيفا الواقعة على النيل الأزرق بأكوخ حسنة الترتيب تحت نخيل ، وهؤلاء الذين هم بقايا سلالة الملوك أقوياء يُقدّمون القهوة إليهم بوقار .

ويصبح نخيل بسيط عاصمة السودان منذ قرن ، ويعرف أمير مصرى فاتح أهمية هذا المكان الذي يلتقي النيلان عنده فيسميه الخرطوم بسبب شكل الجزيرة الموجودة هناك ، وتقع الخرطوم على الخط الذي يصل منبع النيل بمصبه وبين النيل الأبيض ومصب النيل الأزرق فتعد مركز النهر ، ويقف مكانها نظراً حتى عند عدم قيامها عليه ، وتمتد الخرطوم من ضفة النيل الخصيبة إلى حدود الشهب ، وهي تصل الحدائق الاستوائية برمل الصحراء وفق خيال النهر الذي أبدعها ، وبها تلتقي جميع الطرق التي تجتمع في ذلك الموضع بين البحرين المحيطين ، وكان أولو الحجاج والتجار ، قبل إنشاء الجسر من زمن طويل ، يعبرون هنا ضارعين راجين محاولين الإفلات من التعب والالتجاء إلى الصحراء القريبة ، ولو نهض جميع أشباح العبيد ، ولو نبت من سيقوا من كردفان إلى البحر الأحمر فهلكوا في بلاد العرب

المنية لَدَامَ عَرَضُهُمْ أسابيع كثيرة ، ولو كُدَّسَ الذهبُ الذى رَيمَهُ نَحَّاسُهُمْ لِقَامِ  
منه جبلٌ يَسُدُّ النِّيلَ فيؤدِّى إلى إغراق البلاد وإبطال الرِّقِّ ، ولكن مع موتِ  
مصرَ عَطَشًا .

وفى المكان الذى يتصاق فيه التيلان عِنَاقُ الأخوين ، وبين شُعْبَتَى النيلِ  
الأزرقِ ، تقوم جزيرة خصيبة وارفة<sup>(١)</sup> الظِّلُّ ذاتَ نَحِيلٍ ، فَتَنَبَّطَ فيها الخُصْرُ  
والقواكه ، وهناك تَدُورُ الناعورة<sup>(٢)</sup> بالقرب من الحِسر حَتَّى فى أيامنا ، وهناك تَرَى  
الخطوطَ الحديدية والزوارقَ البخارية والطائراتِ التى هى آياتُ عصرنا .

وجزيرةُ تَوْنِي القريبةُ من الخُرطومِ هى أولُ أرضٍ واقعةٍ على النيلِ الأبيضِ  
يُحْصِيهَا غُرَيْنُ النيلِ الأزرقِ ، وتَسْقِي مِثْلَ النواعيرِ نخلاً باسقاتٍ<sup>(٣)</sup> وأشجارَ  
بُزَابٍ عظيمةٍ أيامًا وأعوامًا وقرونًا فَتَنْصِبُ هذه النباتاتُ فى حدائقِ رائعةٍ  
لِحُكَّامِ وموظفينِ عالينَ يَمْكُونُ إنكلترةَ فى قصورهم ويوتهم الحجرية المشتملة على  
وسائلِ إراحةٍ ، وهناك مَرَاتِي مُحْكَمَةُ الدرجاتِ تَهْبِطُ من أولئك الكِبَارِ إلى  
اليونانيين والسوريين فإلى السودِ نيين الذين لا يبدو عليهم أنهم أصحاب البلاد مطلقًا .

وفى المكان الذى تنتهى فيه تلك البساتينُ ، وبالقرب من مُلْتَقَى النيلين ومن  
الجِسرِ الثانى تَجِدُ أطْرَفَ حدائقِ حيواناتِ الدنيا المُتَّسعةَ بذوقٍ كبيرٍ فلا تَحْتَوِى غيرَ  
حيواناتٍ من السودان ، وَتَجُولُ الفِزْلَانِ هناك هادئةً غيرَ خائفةٍ وتُبدِى ظَرَفًا  
ودلالًا أمامَ الأسدِ الذى يَنْظُرُ من وراء قِضبانِهِ مغمومًا إلى حيواناتِ الصَّيدِ الأسيرةِ  
هذه ، وَيُرَى بجانبها أَبُو مَرْكُوبِ المضحكُ بِمَشْيِهِ ، وَتَمِيسُ الكراكِىُّ وتفتسلُ

(١) ورف الظل : امتد واتسع — (٢) الناعورة : آلة لرفع الماء قوامها دولاب كبير وقواديس  
مركبة على دائرة وتجمع على نواعير — (٣) بسف النخلة : ارتفعت أغصانها وطالت ففى باسقة .

البلاشين، ويجوب بجمل عصفوف فوق العشب، ويفترقه الوردى بقر ماء صغير خلف حاجز خفيف، كما لو كان جميع ذلك صورا غير ضارة عن الذى يطوف طليقا خارج سياج الحديقة، وكالو كان ذلك عرضا جميلا بدلا من حرب.

وعندما يصل مدير الحديقة الحب للإنسان والحيوان والمتخصص في أمور هؤلاء الأحياء يهرع إليه الجميع من كل جهة، فينطحه الغزال نطحا خفيفا في ظهره لما يذله من امتلاء جيبه بالطعام، ويتترس<sup>(١)</sup> الفهد بقضبان قصه كالمرء والمرء، إذا ما أنهم النظر في إفريقية المصفرة مع حيواناتها المؤنسة أو المخطرة<sup>(٢)</sup>، سأل في نفسه عن ملايين الأهالي السبعة الذين يدربون فينتلون من دور الحياة القطرية إلى عمال يشتغلون في حقول القطن مياومة<sup>(٣)</sup> ويحمل منهم معلمين وموظفي مصارف من غير أن يقول إنهم لا يزالون يعدلون حيوانات تلك الحديقة هجيبة.

وعلى الضفة اليسرى من النيل الأبيض تقوم مدينة أم درمان الأهلية التي هي أكبر من مدينة الخرطوم البريطانية ثلاث مرات، وتبنى أم درمان منذ خمسين سنة على سيف<sup>(٤)</sup> خال، فتبدو قلعة بيضاء مواجهة لمدينة الخرطوم ذات الآجر الأحمر، وهي مهدمة الأسوار الآن، ولكن جمهور السودانهافت، عوضا عن ذلك، على هذه المدينة التي هي من أكبر مدن إفريقية، وهل يظل السود طوعا مع أنهم كانوا منذ نحو ثلاثين سنة يشتغلون القصر القوطي القائم على الضفة الأخرى؟ وفي تلك الواحة الزاخرة بالسكان تشرق الشمس بما لا تأتي مثله في سوى حقول الجليلد، والثور يتمر طرقا وشوارع تخرج بجمهور من الصناعات وأرباب الحرف

(١) تمس بالي: احتك به — (٢) حظر الحيوان: حبه في الخطيرة، والتشديد للبالغة — (٣) يومه: عامله بالأيام — (٤) السيف: الساحل.

## شوارع

كالنبتين الذين يحيطون وسائد من جلدٍ مختلف الألوان ، ويُدخلون مسامير لامعة إلى الشرج ، وكالحلادين الذين يكتسبون على مَازِب<sup>(١)</sup> بين أصابعهم المسلوخة ، وكالصوّاع الذين يُحيطون بالنفثة أكواعاً دقيقة رافعين ميزاناً يزنون الرّبيّات<sup>(٢)</sup> به ، وتتمّ تجارة الخيل والإبل والحير في داخل المدينة وتباع الزوارق والشراع<sup>(٣)</sup> على ضفة<sup>(٤)</sup> النهر ، ويتسابق الإنسان والحيوان في الشراخ ، وتُبصر عائم وطرايش ، وذوائب أعرابٍ معتنى بها وزرؤوس تجارٍ من المصريين مخلوقة ، وتُبصر كماماً مستوراً بذباب كالذى يُرى على اللحم وفي أسواق الضأن المشابهة للشّمام الضخم ، وتُبصر أولاداً وقسناً<sup>(٥)</sup> وأناساً يهصّحون وآخرين يتنجّبون ، وتُبصر بائعاً بسطٍ وأصحاب مواخير<sup>(٦)</sup> ، وتُبصر شيوخاً ومُسمّوزين وموظلين وسائقين ومُكّالين<sup>(٧)</sup> ، وتُبصر زوجاً شديدي الشّوة مع ريش كثير الألوان ، وتبصر سورين زيتيّ اللون ويونانيين هيفاً لابسين ثياباً استعمارية ، وتُبصر كُرْدانين طوالاً مُرتدين لباساً أحمرّ حريراً ، وتُبصر فرساً مربوعين حاملين فرّاء البيع ، وتُبصر خِلاسيّين<sup>(٨)</sup> ذوى شعورٍ مُجمّدة وحواجبٍ حمرٍ وأنوفٍ قنوّ كما لو كانوا من سلالة أمير إسكندريّ قبل ألف سنة أو من أبناء شريف إنكليزيّ معاصر ، ويزدحم جميع هذا الجتمع في شوارع ضيقةٍ يعضّ بين صُغْبٍ مُصمّرٍ وروائح خبيثةٍ نَفْثَةٍ ، ولا بُدّ لسائق الترام من أن يكون ذا أعصابٍ حديدية حتى يستطيع أن يَعود ، وهو يدقّ الجرس ، ومن غيرِ حادثٍ ، مركبته المُثقلّة بالركاب داخلاً وخارجاً .

(١) المازب : جم المزة ، وهى البصية من حديد — (٢) الرية : قد معروف .

(٣) الصرع : جمع الصراع ، وهو معروف — (٤) ذوايب : جمع ذؤابة ، وهى شمرة

مقدم الرأس — (٥) قسان : جمع القيس — (٦) المواخير : جمع الماخور ، وهو بيت الرية

والعدارة — (٧) المكاري : مكري الدواب — (٨) الخلاسي : الولد من أبوين أبيض وأسود .

## البليار

وهناك ، حيث تُلقي الشمس أشعتها على الأمواج من سماءٍ غير ذات سَحَاب ، ترى شائبا يسير ببطءٍ على الرصيف مُتَوَكِّثًا على عصاٍ ومعتمداً على صبي عاري ، وهو يَسْمَعُ إخوانه ، وهو يَشْعُرُ بهم ، غير أن الله تَزَع منه البصر ، حَرَمَهُ النور ، الذي هو أروعُ ما في إفريقيا .

## ٥

في قهوةٍ صغيرة بباريس ، بين خَدَمٍ لابسين سُرّاً بيضاً ، وبين رجالٍ ونساءٍ جالسين أمام قُفْبٍ<sup>(١)</sup> جَمْعُهُ محاولين أن يتخاطبوا على الرغم من حالكِ<sup>(٢)</sup> صاحبِ ، يَهْفُ رَجُلَانِ ذَوَا قَتَانٍ<sup>(٣)</sup> على نورٍ مِضْطَبَّحٍ أخضرٍ مُعَلَّقٍ وَيَلْبَعَانِ لُعبَةَ البليار وَيَتَلَوَّيَانِ كثيراً مَدًّا لَدَيْهِمَا الطويل على السِاطِ الأخضرِ الناعم ، ولا غَرْوٌ ، فهما اثنان من أبناء الطبقة الوسطى جَمْعاً ، أو نَصْدًا ، نماذجٌ في النهار بأُسْرِهِ فَيَدْفَعَانِ الآن صامتين كُرَّةً بيضاء نحو عِصَابَةِ المِنَصْدَةِ<sup>(٤)</sup> المَطْلِيَةِ بالطَّاطِ لكي تَمْسَ كَرَتَيْنِ أُخْرَيْنِ وَفَقَ بمض القواعد ، وفي العالم ، في تلك الساعة ، في القهوات والأندية<sup>(٥)</sup> ، يَلْعَبُ بضمةٍ أَلْفٍ من الناس للمساكين الماهرين تلك اللُعبة ، وعلى ما كان من اختراع البليكار في إيطاليا منذ أربعة قرون تَرى لُعبته وَقفاً على أقلية ، وذلك لما تقتضيه لُعبة الذَّرَاعِ والرأس هذه من دِقَّةٍ كثيرة على جُهور يَلْعَبُ لُعبة الصُّوْلْجَانِ بذرعه ويَلْعَبُ لُعبة الورق برأسه

(١) القُب: القُدح الضخم البسيط — (٢) الماكي: الفونوغراف — (٣) القَتَان: كَمِ القَبِيص — (٤) المِنَصْدَةُ: شيء له أربع قوائم وهو المعروف بالطاوله — (٥) الأندية: جميع لُجج النادي .

## العاج

ولصنع هذه الكُرّات الثلاث التي يدرجها ذاك الرجلان على البساط الأخضر يُصنّى بأقوى حيوانات الدنيا التي هو آخرُ جابرة العالم الابتدائي ، ومن عاجيته يُقَمَل ثمانى كُرّاتٍ أو عشرُ كُرّاتٍ ، أى ما يُجهز ثلاثة بليارات أو ستة رجال ذوى أكامٍ قيص تحت مصباح أخضر ، وأما الأدوات الأخرى التي تُصنع من هذا العاج ( وقد كان الرومان يعملون منه أسناناً صناعية ) ، وذلك من أمشاطٍ ومراوحٍ وقِطَعٍ شُطرنجٍ ومساطرٍ وأصابعٍ يَبَانٍ ومقابضٍ مِظَالٍ وما إلى ذلك ، فليست سوى نُقَاةٍ مصنوعاتٍ ، فليست سوى أدوات زينةٍ ولِصَبٍ يَسْهَلُ استبدال غيرها بها ، وما كان يوجد للكُرّاتِ مادةٌ لها ما للعاج من صلاحة على حين كان يمكن صنع الأدوات الأخرى من القرون أو الخشب الثمين ، والنساء حتى القرن الثامن عشر كنَّ يَضْرِبْنَ بأيديهن البيض على أصابعٍ سودٍ ، فلما حُمِلْنَ على استعمال أصابعٍ بيض خضن لأمرٍ صالح اقتضته الموسيقى ، فالأصابعُ العاجيةُ في البيان أفضلُ من غيرها .

وكان صائدو الفيل على ضفاف النيل يجهلون ذلك جهلَ القيل له ، وكلُّ ما كانوا يُبْصِرُونَهُ هو أن العرب والترك يَجْلُبُونَ على جملهم وفي قواربهم أشياءً جميلةً من كل نوعٍ فلا يَطْلُبُونَ غيرَ عاجِ الفيل بدلاً منها ، ولا يَعْرِفُ الزنوج حتى الساعةِ الحاضرة ما هو السبب في كون البيض يُفَضَّلُونُ العاجَ على جلد بقر الماء الذى يَصْلُحُ لصنع السِّبَاطِ والشُّرُوجِ ، أو على قرون الكوفوفى التي يَسْهَلُ نَحْتُهَا ، أو على عُصَاوِرِ بعض النباتات التي تَسْمُ بِهَا السَّهَامُ ، أَجَلْ ، إن الأبيض يأخذ من الزنوج هذه اللوادة أيضاً ، ولكنه لا يكثر لسوى العاج ، وما يُروى أن رئيساً دنكاًوياً كان أبوه قد أطلع على ذلك المتوس فَعَلِمَ عاجاً احتياطياً في ضفة النيل فصار ابنه هذا ينال

ما يؤد من ثمن لذلك عادةً نفسه سيدّ الدنيا .

وكان الزنجي لا يصطاد الفيل إلا نادراً ، وكان لا يصطاده إلا إذا خرب حقوله ، لا من أجل لحمه ما دام بقر الماء أسهل منلاً ، وأما العاج فكان يتصدع سريعاً ولا يستعمل إلا أوتاداً لشد البقر ، والفيل ، مع ذلك ، هو على خلاف الأسد والثور والتمساح ، فلا يهاجم الإنسان ولا الحيوان فيكفئ في بعض الأحيان بطرده من الزرع بالصرّاح والتباح ، وقول الأقاصيص الزنجية إن الفيل ذكي في الغالب وإنه ليس شريراً .

وظلّ العاج ، زمناً طويلاً ، لا يتخذ للزينة إلا من قبل بعض الملوك ، ووالع الرجل الأبيض بالعاج هو الذي جعل الفيل موضوع تجارة مهمة ، وذلك منذ قرون في شمال الخرطوم ، أي منذ وصول « التركي » ، وذلك منذ مئة سنة في النيل الأعلى ، وما كان يفرّض على الزوج من خرز وبنادق عوضاً من العاج قد أدى إلى الإقبال على صيد الفيل ، ويضحى الفيل « عدواً تقليدياً » فيوجه جميع الناس أسلحتهم إليه .

ولا يستطيع الإنسان أن يذنو من أقوى الحيوانات وأذكاهما إلا بالحيلة والمهارة ، والإنسان ينصب أشراكه بجانب الماء ، ويسترها بثلط<sup>(١)</sup> الأفيال ويجهز على هذا الحيوان العاطل من السلاح بالحراّب ، ويحيط ألوف الرجال بالشهب ويحرقونه ويتقدمون ويصيّفون الدائرة إلى أن يضطرب الفيل الذي أعماه اللهب ، ويطارده الفيل مئات الناس ويحملونه على القرار إلى حيث يرميه بفالميم زوج مستخفون في أشجار ، وتزق هذه النبال بدنه حتى يهلك في نهاية الأمر ، والبقارة

(١) الثلط : رجع الفيل ، أي روثه .

### القبيل الإفريقي والقبيل الهندي

وحدّهم ، و يقيمون بالمنطقة الواقعة في جنّوب أنطوطوم ، هم الذين يحاربونه يُنبّل ، ومن هؤلاء الثوّيين يُخْرِجُ اثنان مسلّحان برمحَيْن من الخيْزُرَان اللّتين وَيَدَوّان فارسَيْن نحو جماعة القِيُول وَيَقْرَآن عنها أَحْسَنَهَا عِلْجاً وَيُثِيرُهُ أَحَدُهَا رَاكِباً حِصَانَهُ وَيَلْبِيقُ الْآخَرُ إِلَى الْأَرْضِ وَيَطْمُنْ بطنَ القيل برمح طَفَنَةٍ تَجَلَاء وَيَرْجِعُ رَاكِباً تاركاً لرفيقه إِتِمَامَ الصَّرَاعِ بِالْعَوْدَةِ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ الْوَسِيلَةِ .

وإذا ما خَرَّ القيلُ البطلُ صريعاً خَرَجَ الرّجال من مكّانهم ودَوّتْ أصواتُ السّرور في السُّهْبِ ابتهاجاً باغْتِنَامِ عَاجِئَيْنِ رَاسَيْنِ أَيْضَيْنِ ثَمِيلَيْن ، وستندرج تسعُ كُرّات على بُدْ أَلْفِ الْأَمِيال من هنالك ، وفوقُ بَسْطِ خُضِرٍ وأمام ستة رجال ذوى قُنّان<sup>(١)</sup> .

ويصمبُ ذَنَبُ القيل ، وَحَبَّتِ الطَّيْعَةُ هَذِهِ الطَّرْفَةُ الرَّائِمَةُ بِوَسَائِلِ الْوَقَايَةِ فِي تِلْكَ الْقَارَةِ عَلَى الْخُصُوصِ ، فَانْظُرْ إِلَى دِمَاحِ الْقَيْلِ الْإِفْرِيْقِيِّ تَجِدُهُ قَدْ بَلَغَ مِنْ مَنِ الْمَنَمَةِ بِلَوْحِ عَظْمِيٍّ وَاقِعٍ فَوْقَ جِذْوَرِهِ الصَّرْسِيَةِ الْعَلِيَا مَا تَزَلَّقَ مَعَهُ الْقَدِيفَةُ عِنْدَ رَفْعِ رَأْسِهِ ، أَى عِنْدَ مَا يَأْخُذُ هَذَا الْوَضْعَ الطَّبِيعِيَّ حِينَ اسْتَفْرَازِهِ وَمُوَاجَهَةِ الْعَدُوِّ ، وَتَسْتَقِرُّ الْقَذَائِفُ الَّتِي تُطْلَقُ مُجَابَنَةً فِي الْبِطْطَامِ وَالنَّضَارِيفِ<sup>(٢)</sup> الثَّخِينَةِ حَيْثُ تُوْجَدُ جِذْوَرُ الْمَاجِ الَّتِي تَرْمِخُ نَحْوَ مِترٍ عَمِيقاً حِفْظاً لِاتِّزَانِ الرَّأْسِ وَقِيَاماً بِالْجُهْدِ وَقَدْ اتَّخَذَ الْمَاجُ عَتَلَةً<sup>(٣)</sup> وَاقْتَلَعَ شَجَرَةً .

والقبيلُ الْإِفْرِيْقِيُّ أُسْمِيَ مِنْ أَخِيهِ الْهِنْدِيِّ ، وَيَسَاعِدُ ظَهْرَهُ الْأَرْزُورُ<sup>(٤)</sup> وَأَذْنَاهُ الْعَظِيمَتَانِ ، الَّتَانِ تَسْرُانُ عُنُقَهُ عِنْدَ خَفْضِهِمَا وَتُوجِبَانِ دُخْرًا عِنْدَ نَصْبِهِمَا ، وَجِيْنُهُ

(١) القنّان : كم القميس — (٢) التضاريف : جميع التضروف ، وهو كل عظم رخص .

(٣) العتلة : العما الفضخة من حديد يهيم بها المايط — (٤) الأزور : الأعوج



الحَدَبُ وَفِيهِ<sup>(١)</sup> النافرُ على زيادة قوة الدفع فيه ، ويزيد ارتفاعُ الذكر من القِيَلَةِ على ثلاثة أمتار ، وتَمْدُلُ قامةُ الأنثى منها قامةَ القيلِ المندى<sup>(٢)</sup> ، وعالجُ القيلِ الإفريقيُّ أقوى من عالجِ القيلِ المندى بدرجات ، والقيلِ الإفريقيُّ قليلُ قُرْطَمَةٍ للأعشاب وكثيرُ رَمٍ<sup>(٣)</sup> للورق ، وفي السودان تَجَثُّ الأفيالُ أشجاراً يَبْلُغُ ارتفاعها ثلاثين متراً ، وذلك بأن يُدْخِلُ بعضها عاجه كَعَتَلٍ وبأن يجتذب بعضها الآخرُ أغصانَ الأشجار بالخراطيم ، ولذا لا تُقَتِّلُ القِيُولُ الإفريقيةَ مواجهةً لسلحها ذلك ، ولأنها أشدُّ بأساً في السَّهْبِ الطليق من القِيُولِ الهندية في غابات سيلان ، ويُمكن تدوينها مع ذلك بإطلاق الميَكَاتِ النارية الثقيلة عليها إطلاقاً مستمراً .

والقيلُ الإفريقيُّ أَجَلُ من القيلِ المندى شكلاً ، ويبدو هذا الجلال كما في التماثيل المصرية ، ويتألفُ من رأس القيلِ السودانيَّ وخرطوميه وأذنيه كلٌّ كاملٌ لا ترى نظيره في القيلِ المندى<sup>(٤)</sup> ، ولا تَجِدُ مثلَ رَشَاقَةِ هذا الحيوان الذي هو أَثْقَلُ جميع الحيوانات وزناً ، ويميلُ هذا القيلُ إلى الجَوْلِ عن هِياجٍ وقلةِ صبرٍ ، فيَهْزُ قوائمه الضَّخْمةَ ويسير كالرجل الذي يَثْبُ على سواء مع بقائه سيداً أعصابه ، ومُجْمَلُ القولِ كَوْنُ القيلِ عنوانَ الخِفَّةِ والِقِتْنَةِ كالولد .

والآن تَرَى القيلَ ميتاً مطروحاً فوق السَّهْبِ ، والآن تراه محاطاً بمئاتٍ من السود يترصدون لحته وعاجه ، ويدُلُّ تَكَرُّشُ جلده على تاريخ السَّهْبِ والسَّيْبِ<sup>(٥)</sup> وعلى تاريخ الزوابع والحشرات ، وهو مثلُ خريطةٍ جغرافيةٍ مشتملةٍ على أما كنْ مُلْسٍ سالمةٍ كالوكانت على نفسِ رجلِ شائب .

(١) النصف : العظم الذي فوق الصاغ — (٢) رمة : تناوله منه وأكله .

(٣) السَّهْبِ : الأرض البعيدة المستوية .

وأخيراً يُنزعُ السِّلْبَانُ<sup>(١)</sup> الأبيضان<sup>(٢)</sup> من فمه ، ولكنهما غير متماثلين ، وفي الغالب تجدد أحد العاجين أكثر استعمالاً من الآخر كيّد الإنسان اليمنى ، ومما يُرى أحياناً وجودُ كثيرٍ في العاج نتيجةً لإصابة حُرْبَةٍ أو قذيفةٍ أسفرت عن إحداث ضَرْبٍ من المُقَرَنَصاتِ<sup>(٣)</sup> ، والعاجُ لِمَا يَقَعُ من مُنَوَّهٍ ، في أكثر من قرنٍ ، حَلَقَاتٍ من الداخل إلى الخارج كما في الشجر ، لا يُنصر فيه طبقاتٌ ، ولا تَوْنًا ، على وَرَيرَةٍ واحدة ، ويدور النَفْدُ والتحليل حَوْلَ القيل القتل كما يدور حَوْلَ رجلٍ عظيمٍ بعد هلاكه ، وإن كان القيل منذ هُنَيْهَةٍ قائماً قياماً منسجماً ، وإن كان القيلُ قبل ذلك مجموعةً حَيَّةً .

وعلى أثر ذلك ، وفي الحال ، يَقَطَعُ الزوج قوائمَ القيل الأربع ، فالرئيسُ يطالبُ بها كما يطالبُ بالعاج خَشْيَةَ الخِدَاعِ .

وَجَمَعَ كثيرٌ من ملوك الزوج في النيل الأعلى كنوزاً حَقِيقَةً من عاج القيل كما جَمَعَ أسلافهم كنوزاً من الذهب ، واليوم تجدُ ثمانين في المئة من العاج من هذا النوع القديم ، وقد قلَّ طلبُ العاج لِمَا حدث من صُنْعِ كُرَاتٍ من موادَّ تركيبيةٍ بَلَفَتْ من الإِثْنانِ مالا يَحُدُّها معه متانةُ سَوَى الكُرَاتِ المصنوعة من عاج إفريقية النزبة القاسى غافقت على قيمتها ، وقد نُظِّمَتْ تجارةُ العاج ، كما نُظِّمَتْ تجارةُ الألباس والراذُوم ، منذ اكتشاف أماكنِ جاعاتِ القيل الكبيرة في النيل الأعلى بالطائرة ، ومنذ ادِّخارِ الإنكليز مقاديرَ عظيمةً من العاج وفرَضِهِمْ ضريبةً خمسين جنيهاً عن كلِّ قِيلٍ يُقْتَل ، ومنذ صارت الأسواق العالمية تَرْتَفِبُ ثمنَ العاج .

(١) السلب : ما يؤخذ نهراً — (٢) الأجن : الأعوج — (٣) المقرنصات (Stalactites) : المدليات .

### في سوق أهرس

وفي سوق أهرس<sup>(١)</sup> يُصَنَّفُ العاج على حسب لونه ومئاته وكثافته وحجته  
ويبيَّضُ العاجُ الذي تُصنع منه أصابعُ البيان لتُدْرَه الأبيض الناصع في الطبيعة ،  
ويزنُ عاجان ٤٥٠ رطلٍ إنكليزي فيقدَّمان إلى الملك جورج هدية عرسٍ فلا  
يَدْرِي ماذا يصنع بهما ، وتُصنع الكُرَات من العاج ، وتُلْقَى نُقَابَاتُهُ في وعاء ،  
وتُحوَّلُ هذه النُقَابَاتُ إلى أُسُورَةٍ ومقايضٍ وأدواتٍ مرصعةٍ ومساحيقٍ جلاٍ  
وهَلَامٍ<sup>(٢)</sup> صالح للطعام .

وتُصدَّر إفريقيا في الوقت الحاضر عاجاً ثمنه مليون جنيه ، وليس ملكُ النيل  
الأعلى الرتبيُّ الذي يملك ألفَ عاجٍ أحسنَ وضْعاً من مدير أحد المصانع بلندن  
الذي لم يرَ النيلَ قطُّ والذي يُريكم ، وهو جالس على كرسية ، وبما لديه من قوائم ،  
أنه يملك في مخزنه ثلاثين ألفَ كُرَةٍ بليارد مُنَوَّعةٍ ، وقد أهلك ثلاثة آلاف فيل  
لنيل ذلك ، وكلُّ فيلٍ من هذه القِيُول أَجَلٌ وأقوى من اللدبر ذلك !

### ٦

يتحوَّلُ صيدُ الفيل إلى صيد الإنسان ، وما كان تاريخُ النيل الحديث ونشوء  
السودان ، كما عَيَّنَتْها تجارة الرقيق ، لتبْدُوا بحلها المعروفة لولا اختراعُ البليارد ،  
ومن الآدميين أُلوفٌ كانوا يَقْضُونَ حياةً فردوسيةً فَقَدُوا أَسَارِي ، أو خَصِيَانًا ،  
لدى أناسٍ آخرين ، وذلك لأن رجلين من أبناء الطبقة الوسطى ذَوِي قُنَانٍ كانا  
يحتاجان إلى ثلاث كُرَاتٍ على بساطٍ أخضر .

(١) أهرس : مرفأ بلجي معهور — (٢) الهلام : مادة غريبة .

وفى بدء الأمر ين لتاجر عبرى أن يقايض بلؤلؤ زجاجي<sup>١</sup> ، ويُقن السوداني<sup>٢</sup> فيعطيه علاج قليل في مقابل خمسة لآلئ كبيرة ، وهل كان هذا غشاً ؟ وهل كانت الآلئ التي تساوى عشرة دنانق أقل<sup>٣</sup> جالاً من الآلئ الحقيقية التي كانت تساوى مئة جنيه ؟ أفلم تكن قيمة كُرّة البليارد أمراً خيالياً ما صار تقليدها في الحال ممكناً كما قلدت الدرر ؟ وهل رَوْعة الألمس أم نُدْرته هي التي تُقرر قيمته ؟ نجد من الحجارة العادية اللطيفة ما هو أكثر تأثيراً في النفوس من الألمس ، وبما يلاحظ ما يكون للدرر من قيمة تامة للهوى عند ما تقوم سيدات لا بات قلائد من لآلئ ملونة بمركات موزونة كالقصص الزئجية .

إذن ، لم يكن الزئجي<sup>٤</sup> أنصوحة<sup>٥</sup> ، وإنما كان مُختبراً ، وقد بهره التمتع الحجارة والبُرُوز<sup>(١)</sup> الكثيرة الألوان التي كان يستخر بها عربي<sup>٦</sup> مكار فيطلب الزيادة ، وتنقبه فيه روح القايضة ، ويكون هذا آية طرده من الجنة ، ويقابل بين كنزه ودُرر جاره ، ويظل ساعات أمام صناديق التاجر ، ويُقلب بين أصابعه هذا النسيج ، أو ذلك النسيج ، الرائع الذي يُقدم على سرقته لو كان التاجر أعزل من السلاح ، ولا مناص له من اشترائه ، ولكن بأي شيء ؟ عاد غير ذي علاج ، ويجب أن يفضي وقت كبير حتى يُنظّم موكب صيد جديد لينال أربعة أنياب أوسنة<sup>٧</sup> أنياب من الأفيال ، والموسم كان موسم أمطار ، ومياه النيل كانت مرتفعة ، وساعد النيل كانت تقوق الصيد ، وماذا يستطيع أن يقدم إلى هذا الباشا الكبير وهو رئيس قبيلة زئجية فقير لا يملك غير أنعام وعيد ؟

وهل يضارب التاجر على بضعة عيد ؟ ويومي التاجر برأسه ، وهذا ما كان

(١) البروز : جمع البر ، وهو الثياب من الكتان أو القطن .

ينتظره ، أفلم يُسلم أجداده ، في قرنٍ ، سُودَ الحَبَشَةِ إلى العربِ العِطَاشِ إلى الصيد على الدوام ويقتنوا ؟ وتلك الفكرة رائمةٌ إِذَنْ ، وفي ذلك البلد الذي لا يَعْرِفُ حقاً ولا رَقَابَةً يُحْكِنُ التاجرُ المسلحَ ينادقه أن ينال في مقابل لَآلِيهِ وَزُرُوزِهِ أرباحاً من الرقيق لا توجب ارتفاعاً في أسعار العاج .

وكانت الفكرةُ جديدةً لدى رئيس القبيلة ، وكان يُفْتَصِّرُ حتى ذلك الحين على اغتصاب الناس ، ولا سِيا النساء ، من القبائل المغلوبة حرباً لاستخدامهم في أعمال الحقول ، وكان ذلك ثمناً للنصر ، بيد أن تجارة الرقيق التي كانت تُزاول في سواحل غرب إفريقيا مما لم تُعرِفْهُ شواطئُ النيل ، ويُقْبَلُ عليها في هذه الشواطئ بعدئذٍ ، ولا تُعَارَضُ ، وينتشر هذا الجورُ بمثل السرعة التي يُمُّ بها حريقٌ في الشهب ، ورئيسٌ آخرٌ كان محتاجاً إلى ثلاثين امرأة للقيام بأمور الزراعة وإلى ثلاثين راعياً ، ولكنه كان لا يريد الحربَ عن خَوْفٍ ، أو عن بِلَادَةٍ ، أو عن شُبْنَةٍ ، ويُبَصِّرُ بضمّ مثاتٍ من الآدميين زُرُوزِينَ في حظيرة صديقه العربي قَيْعِرِضَ عليه عاجٌ فيلٍ في مقابل ثلاثة عبيد .

والمعاوضةُ في القرن التاسع عشرَ ، وبوجوهها المتقلبة التي يُعْجِبُهَا الشرقُ ، حَوَّلَتْ تاجرَ العاجِ إلى تاجرٍ رقيقٍ ثم إلى صائدٍ رقيقٍ ليمُودَ تاجرَ عاجٍ ، وهكذا وَقَعَ سباقٌ بين صيد الإنسان وصيد القيل في النيل الأعلى ، وكان يقيم بالخرطوم تجارٌ من العرب ، فَعَمَدُ هؤلاء التجارِ معاهداتٍ مع رؤساء القبائل مستفيدين من تنافسهم وصاروا يشترون أناساً من رعائهم سالكين مثل السيل التي سلكتها إنكلترة في سواء أَلَمَانِيَةِ في القرن الثامن عشرَ ، ويألها من مكناتٍ تَصُدَّرُ عن نفوسٍ مُبْدِعَةٍ لا ضميرٍ لها ! وَوَجَدَ أَحَدُ هؤلاء طريقَ بحرِ الفِزَالِ المارَّةِ من النافع فَاكْتَشَفَ هنالك

قوماً مجهولين فقبضَ عليهم وباعهم حائزاً شرف رائدٍ وشرفٍ ممثلٍ للحضارة !  
وغدا شرق إفريقيا « دار الرق » أيضاً ، ولولا الطمع في الساج ما أقدم تاجرٌ على  
السير حتى الدرجة الثالثة من العرَض الشماليِّ وما اقتحم مخاطر النيل وعانى  
أهوالَ الزوج .

ومما كان يحدث أحياناً أن يُقنع أفاقٌ ، أو شاردٌ ، نسميه علياً ، أحدَ  
مُتموِّلي الخراطوم ، بأن يُقرضه مئة جنيهٍ على أن يدفع ضِعْفَها عاجاً بعد ستة  
أشهر ، ويُغري على هذا نفرًا من المُتنبه فيهم ، ويشتري زوارق وبنادق وقذائفَ  
وبضع مئات أرطالٍ من لؤلؤ فينيسية الزجاجيِّ ، ويدفع إلى كلِّ واحدٍ من  
أولئك رواتبَ خمسة أشهرٍ مُقدِّماً ( ١٥ تاليراً ) ، ويعدُّهم بضِعف ما دَفَع عند  
العود من الفزو ، وينالهم ورقة لتقيد حساباتهم ، ويرُدُّون الورقة إليه لأنه الوحيدُ  
الذي يَعْرِف الكتابة ، ويُسار في شهر ديسمبر إلى جهة منابع النيل حيث يقيم  
الشَّلْك والدُّنْكا ، ويرتبط على رابطة الصداقة في أحدِ الرؤساء ويُهْدَى إليه بضِع  
بنادق ، وينطلق هذا الرئيسُ إلى محاربة جيرانه وأعدائه ، ويهاجم على ورجاله  
قرية في تلك الأثناء ويحرقها ويقتل بعضَ أهلها الزنوج ويُقطع أيديهم أخذاً  
لأسبورتهم ، ويقتاد الناس والأولاد واللواشي ويعود إلى صديقه الأسود الجديد  
فيُقدِّم إليه فتاةً حسنة مع شيء من اللواشي .

وتُساوِر للكَ الرِّجْجِيَّ رغبةً في أخذ كثير من القطاع ، ويُخرج عاجه من  
الأرض ويأتي به إلى ذلك الغريب الذي يَعُدُّه من الباشوات أو من الأئمة قريباً ،  
ويأخذ الخُفْراء نصيبهم من الفنائم ، حتى من العبيد ، وتقام سوقٌ ، ويَشْرَى  
كلُّ واحدٍ أقصى ما يمكنه منها ، ويُقَيَّد على كلِّ شيء حتى يُنزله من أجور

### أساليب التخاسين

رجاله ، ثم يُعيد العبيد الموثقين بالأغلال إلى نسايتهم البائسات أو إلى آبائهم في مقابل أنياب فيلٍ جميلة .

ويُختم ذلك باختصاص الرئيس وحليفه ونسبته على ويقتله ويؤود نساءه وأولاده عبيداً ، وتمتلك القوارب ويستعد للرحيل ، ويتخلف بعض الرجال إدامة للنهب وإعداداً لفنمية أخرى في العام القادم ، وبالترب من الخرطوم تُنزل هذه السلعة البشرية وتوزع بين الباعة خشية اطلاع السلطات على مقدار الثروة التي جمعها على ، ويُنقل العبيد بطريق الصحراء والبحر الأحمر إلى بلاد العرب ، ويساق بعض العبيد إلى القاهرة ، ويوضع حول عنق كل واحد منهم ملقط ذو مقبض طويل لاسر لئلا يهرب منه ، فإذا ما أرغى ذراعه اختنق ، ويأتي على دأته بالعاج الموعود ، ويبلغ ما يجي به من العاج في العام الجيد عشرة آلاف كيلو غرام ، أى ما تساوى قيمته في الخرطوم أربعة آلاف جنيه إنكليزي ، ويدفع إلى رجاله عبيداً فلا يكلفونه شيئاً لهذا السبب ، ويبلغ نصيب رئيس الفرقة بضع مئات من العبيد يُباع كل واحد منهم بخمسة جنيهات أو ستة جنيهات ، وهكذا يفتنى على بمحصول ثانوى ككثير من تجار البيض

وهكذا صار التخاسون أصحاب سلطة سياسية فندت في الجنوب أقوى من سلطة الحكومة لتحالفهم مع بعض الأمراء ضدها في الشمال ، وكانت بعض الرواتب تدفع إلى الموظفين المصريين عبيداً ، وكان كبار الموظفين وصغارهم ، وكان باشا الخرطوم ، وكان هؤلاء جميعهم ، يضاربون كافي مصفق نيويورك عند ارتفاع الأسعار ، وما يروى مع التوكيد أنه بيع ما بين أربعين ألفاً وستين ألفاً من الآدميين في كل سنة ما بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٦٠ ، ولا يُعرف عدد الموتي

الكثيرُ في تلك السنين ، وأصبحت التجارة التي بدأت بالعاج في النيل الأعلى أمراً ضرورياً للدولة ، وأسفرت في نهاية الأمر عن أزمة سياسية وعن أُولِ السيادة المصرية .

## ٧

مَثَل ذات يوم فرنسيٌّ ، مَثَل الرَّحَّالَةِ كايو ، أمام والى مصرَ مع هدية غربية ، وذلك أنه جَلَبَ إليه من السودان كيساً مشتملاً على بذور قطنٍ وشماعه ، وأثار لديه فكرة تجرّبة زراعة القطن في دلتا مصر ، ولم يقرأ محمد على كتابَ بلينى<sup>(١)</sup> لأنه جندىٌّ من أصل ألبانى ، وقد سمع محمد على عن القطن المصرى لا ريب ، وإذ كان محمد على فاتحاً ، لا أميراً وراثياً ، كان لديه من الذكاء ما يدرك معه أهمية هذه الإشارات التي ستكلم عنها في مكان آخر ، وفي سنة ١٨٢٠ جاء تقريرُ الرائد مُمياً لتقارير الضباط والموظفين ، ويَعْلَمُ الباشا من كايو أموراً طريفة جامعة بين الحقيقة والخيال كما في جميع الأفاصيص الشرقية ، يَعْلَمُ الباشا منه وجودَ ذهبٍ في السودان وأن القراعة كانوا ينالونه منه وأنه يبيعُ بالعاج والأفيال وأن كُرْدَفان بلدُ اللّبان ، وأن الأملاس الذي يُحدّث عنه منذ أقدم الأزمان يُوجد حوالى الدرجة الثانية عشرة من العرض لما يوجد منه في الأمكنة الإفريقية الأخرى الواقعة حول هذه الدرجة ، ومما جَلَبه كايو زجاجة ماءٍ من ملتقى النيلين ، وكان كايو عالماً حَسِماً في آنٍ واحد فأيقظ روح الإقدام في محمد على على

(١) بلينى : عالم طبيعى من علماء الرومان ، وقد هلك عند نوران بركان فيزوف سنة ٧٩ .



### فتح السودان الأول

هذا الوجه ، ويا للمجد الذي يناله ولئى أمر يكتشف منبع النيل ! وستخضع خصومة أوربة ضد فاتح مصر إذا ما صار نصيراً للعلم .

ومن المحتمل قليلاً أن يكون محمد على قد أسرَّ إلى كايو بما يُضير من أفكار سياسية ، أجل ، كان يمدُّ الذهب والألماس معدنين مفيدين ، ولكنه كان يرى أن الأفضل منهما أن ينقذ القاهرة من المالك الذين كانوا قد ثاروا عليه وأن يُلهم كتابه الألبانية والتركية وأن يجتذب إلى مصر تجارة البحر الأحمر ، وأن يجمع جنوداً على الخصوص ، ومن أحلام جميع الطغاة أن يجمعوا جنوداً كثيرين ، ولو بلغ جنودهم من كثرة العدد ما يصبحون معه عاطلين من العمل ! والجنود عبيد حرُّروا لتفرض عليهم عبودية جديدة ، ولم يدفع النوبيين ضرائب منذ سنين كثيرة ، وأرهمتهم الجبابة عُسرًا ، ووحد هذا سبباً لجباية ضريبة مُنتجة ، سبباً لجميع جنود ، وإذا كان القطن ينبت من تلقاء نفسه فلم لا تزرع منه مقادير كبيرة هنالك ويُنتفع به في مصر ؟ وإلى هذا يضاف الذهب والعاج وتجذُّ اكتشاف منابع النيل !

ولا يبدأ تاريخ السودان إلا بالحمالات التي وجهها إليه محمد على بين سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٤٠ ، وقد دفع هذا الرجل الممتاز ثمن إقدامه غالباً ، فقد أخضع ابنه البالغ من العمر اثنين وعشرين سنة قبائل السود حتى الدرجة الحادية عشرة من الترض فوقَّع في شرك ، وذلك أنه طلب في شيندي ، الواقعة على النيل في شمال الخرطوم ، من الملك نر ألف بقره وألف أمة فتاة وأقامن الإبل والضأن والمز وألف رجل بيير من الجوب وألف رجل بيير من الثبن ، وينحى الملك ويقول : « إن حسابكم هو من البساطة ما يوجب العجب ، ويظهر أن الألف هو الرقم الذى تفرِّفونه » ، ولما جمَّع كل شيء وكُدس الثبن حول المسكر دعا الملك الغزاة إلى وليمة ،

ويتوارى الملك في ختامها ويحرق التبن ، ويهلك القاتع التي هو وضباطه بين  
اللهب ، ويقب ذلك انتقام هائل قد أحرقت شندى وذبح ألف امرأة وولد  
على ضفاف النيل ، ويوفق الملك نمر وحده للفرار إلى الصحراء .

وأعانت تلك العمالات على اكتشافات مع ما تخلفها من فظائع ، كأن ترسل إلى  
القاهرة آذان الأسارى ، وكان يمد ملك في سينار كبد الإنسان مع الحبة طامه  
الفضل ، وكانت الخرطوم تقام ، وكانت تسير قوارب خفيفة إلى الدنكا الذين لم  
يصل إليهم أحد من قبل ، ويذهب محمد على إلى السودان بنفسه ، ويخلد نفسه هناك  
بابتكاره أسلوباً جديداً في جباية الضرائب ، وذلك بتعليقه بشجرة في كل قرية كبساً  
محتوياً بتمر بغير أرمأ بأن تدفع كل قرية تاليرات بمقد مافي الكيس من بمرات .  
وأخيراً تسود السلم فيما يمكن أن يرقب من نواحي البلد ، وتنتع هذه النواحي  
بسكون القابر ، ويسير اللصوص على أثر الرواد في الجنوب كما يقع في كل زمان ، كما  
يقع حتى الآن ، ويبدأ ارتياد تلك البقاع بلا حرس ، ويتجه خلف العلماء تجاراً من  
ذوى الجشع نحو منبع النيل ، ويوغل المبشرون في السهب ويضطرون إلى الرجوع .  
وتندو إفريقية لدى البابا « وكالة » ، ولدى قنصل سردينية « قاعدة » ،  
ويلاقى التجار والأشرا المصريون رهباناً نمسويين ، ويحاول هؤلاء أن يكسبوا  
الزنجى ليسوع ، ويحاول أولئك أن ينالوا عاجاً ، وتخفى دول في أوربة ما تضير  
من مقاصد وراء رسالة نبي ، وتمتد دول أخرى على رسالة نبي تسويفاً لاصطياد  
العبيد ، وفي تلك المجهل يُثير جميع ذلك حقد النوبي على النصراني ويثير عطف  
النصراني على الزنجى .

وتخفى ثلاثون سنة أو أربعون سنة فيقاوم تجار الرقيق في قصورهم إسماعيل باشا

### صموئيل بيكر

الذى هو حفيدُ محمد علي ، ولا يَدْفَعُون من الضرائب إلا بالمقدار الذى يناسب كتابتهم الشخصية ، وعلى ما كان يساور إسماعيل باشا من أطيّب الثّيّات تقصُر يده بسبب أعدائه وديونه ويكون أولَ مصرى يطلب من أجنبي أن يُسرّع إلى مساعدته فى السودان ، و يَعْضُ هذا الحاكم على الأمر بالتواجد كحاكم وكنصراني وكإنكليزي ، وتواجدُ هذا الأجنبي كانت غايةً فى المتانة .

وكان صموئيل بيكر فى الأربعين من عُمره حينما حفرَه نشاطه إلى قَصد إفريقية ، وكان بيكرُ هذا ، حتى ذلك الحين ، صائداً عنيداً فى سيلان وجوياً وثناباً فى العالم ، وكان هذا ممازجاً لدمه ، ولا حُجَب ، فقد كان منذ صباه يُفِسر سفن أبيه ذات القلوع<sup>(١)</sup> تفادى جايكا مع شِحن<sup>(٢)</sup> من السكر قاصدةً إنكلترة ، وهو صُرب من المالقة ذو رثتين وعينين وعَصَلَاتٍ تقاوم كلَّ ابتلاء ، وسيلانُ كانت أولَ ما ذهب إليه لصيد النّير ، وهو عندما تَشَرَ قصة ذلك لم يَشْك أحدٌ فى حجة مآثره القريبة من الخيال ، ويبدو هنالك نصفَ عارٍ ، ويبدو حاملاً رجماً ، فيُلقي فى النفس انطباعَ الرجل الفطرى ، ويُدركُ أمرَ احتياجه إلى « مدفعية بنادق » .

ولست التسوة من مَحَبَّتِهِ ، فكانت الحيوانات والأولاد أشدَّما يُحِبُّ ويُنهم ، وقد رَئى عبداً صغيراً ودبَّ الأيسُ فى نفسه عندما قدَّ ثلاثة من أولاده فى ثلاثة أعوام ، وكان غَضُوباً مع سرعة رِضا ، وكان متجبراً مع كرمٍ وقرى ، وكان مستقلاً بفضل ما ورثه من ثروة ، وكان يَطْفَحُ حمةً فيلوح أنه خَلِقَ للقنارات ، والحربُ هى التى كان يحتاج إليها .

(١) القلوع: جمع القلع ، وهو شراع السفينة — (٢) الشحن : جمع السفنة ، وهى ما تشحن به السفينة ، أى تملأ به .

## خُصُوم

وَيَصِلُ إِلَى مِيدَانِ الْقَرِيمِ الْحَرْبِيِّ مُتَأَخِّرًا ، وَيَجِدُ ، بَعْدَ مَوْتِ زَوْجِهِ الْأَوَّلَى هُنَالِكَ ، شَرِيكَةَ حَيَاتِهِ الَّتِي تَصْلُحُ لَهُ ، يَجِدُ حَسَنَاءَ مَجَرِيَّةً بِصِطَادِ الدَّبَبَةِ مَعَهَا فِي آسِيَةِ الصُّخْرَى ، وَيَسْتَحِذُ السَّامَ عَلَيْهِ بِسُرْعَةٍ ، وَكَانَ صَيَادُ الْإِنْكَلِيزِ وَمَغَامِرُومِ فِي ذَلِكَ الدَّوْرِ ، أَيْ حَوَالَى سَنَةِ ١٨٦١ ، لَا يَحْمِلُونَ بِغَيْرِ النَّيْلِ حَيْثُ الْقُبُولُ وَالْأَسْوَدُ الَّتِي تَخْتَلِفُ عَمَّا فِي سِيلَانِ ، وَحَيْثُ لَا حَدَّ لِأَرْضِي الصَّيْدِ ، وَكَانَ يُوجَدُ فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ أَمْرٌ يَقِيمُ الْعَالَمَ الْغَرْبِيَّ وَيَقْعِدُهُ ، كَانَ يُوجَدُ عَمَلٌ يَتَطَلَّبُ إِنْجَازًا ، كَانَ يُوجَدُ جِهَادٌ يَتَطَلَّبُ جَمِيعَ الْجُهُودِ ، كَانَ يَوْجَدُ كِفَاحٌ ضِدَّ الرِّقِّ ، فَالْحُرِيَّةُ وَالْإِنْسَانِيَّةُ وَالْمُجْدُ أُمُورٌ كَانَتْ هُنَالِكَ .

وَيَبْذُلُ يَكْرُ جُهْدَ بَطُولَةٍ وَيَجَاهِدُ يَكْرُ وَيَمَانِي ضَرْبَ الْعِرْمَانِ مَدَّةَ ثَلَاثِ سَنِينَ ، وَتَرَاقَهُ زَوْجُهُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ عَلَى الدَّوَامِ ، وَيَكْتَشِفُ مَنَبْعَ النَّيْلِ الْثَانِي ، يَكْتَشِفُ بِحِيرَةَ أَلْبَرْتِ ، وَيَمُتُّ خَبْرُ مَجْدُ صَائِدِ الْأَسَادِ صَمُوئِيلِ أَرْجَاءَ جَمِيعِ إِفْرِيْقِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ .

وَيَقُودُ مَحَبَّةَ الزَّوْجِ الشَّهِيرُ ذَلِكَ مَوْظَفًا كَبِيرًا بَعْدَ خَمْسَةِ أَعْوَامٍ ، وَيَكُونُ عُرْضَةً لِلْحَدِّ وَسُوءِ الظَّنِّ ، وَلِمَاذَا يَأْتِي لِيُكَدِّرَ صَفْوَةَ تِجَارِ الرِّقِّ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي أُذِنَ لِهَذَا النَّصْرَانِيِّ فِي التَّعَرُّضِ لِعَالِمِ الْقُرْآنِ الَّتِي يَبِيعُ الْمُسْلِمُ تَحْتَ سِتَارِهَا وَثَنِي الزَّوْجِ ؟ وَمَا هِيَ عِلَاقَةُ حَرْبِ النَّصَارَى الْأَمْرِيكِيِّينَ بِـ « مَسْلَى إِفْرِيْقِيَّةِ » الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ عِبِيدِهِمْ بِخَمْسَةِ جَنْهَاتٍ ؟ وَالْحَرْبُ الطَّوِيلَةُ بَيْنَ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ بِأَمْرِيْكَةِ كَانَتْ تُثَبِّتُ مَعَ ذَلِكَ ضَرُورَةَ نِظَامِ الرِّقِّ وَرِضَا الرَّبِّ عَنْهُ ، وَمَاذَا كَانَ فِي النَّيْلِ الْأَعْلَى مَعْنَى الْبِرَّةِ الرَّسْمِيَّةِ الزَّاهِيَةِ الَّتِي أَنْتُمْ الْخُذِيوْهَا عَلَى يَكْرِ فِي الْقَاهِرَةِ ؟ وَمَنْ الْمُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ يَكْرِ قَدْ وَضَعَ فِي نَفْسِهِ هَذِهِ الْأَسْئَلَةَ فِي أَقْمِ الْأَوْقَاتِ ،

### مكافحة النخاسة

ويأتى صائد الآساد والأفيال لتدبح الأفعى العظيمة التى تهلك مِنطقة النيل الأعلى تلك ، يأتى للقضاء على تجارة الرقيق ، لا على الرقِّ ، ويهزأ بيكر بتبجح جميلات مكافحة الرقِّ فى إنكلترة ، ويوجه إليها سهام اللوم بقوله إن على أعضائها أن يمتنوا فى بدء الأمر بالأم إخوانهم فى مناجم الفحم .

وكان يسكر بحبِّ الزوج ولا يُحسن الظنَّ بالمرب ، شأنُ جميع مَنْ خَلَقوه ، ولكنه كان لا يحبُّ العبدَ كحبِّ تولستوى<sup>(١)</sup> له ولكنه كان لا يريد تحريره كما كان لِنسكولن<sup>(٢)</sup> يريد ، وإنما الذى كان يؤدُّه هو مكافحة النخاسة ، وكان العبد فى بلده نصيبُ المال الآخرين ، فإذا ما نُقلَ إلى مكانٍ آخر لم يكن غيرَ سِلعة ، غيرَ ثمرة ذاتِ منظرٍ سارٍ أحياناً ، ذاتِ عَيْبٍ خفىٍّ حقيقَةٍ ، غيرَ أداةٍ تسليةٍ وسُخريَةٍ فى دوائرِ الحرِّم ، ويرى يسكر أن ينظرَ إلى كرامة الإنسان أكثرَ ما إلى سعادته ، ويكره يسكر بيعَ الإنسان للإنسان ، ويُبصر يسكر فى القاهرة بأشواتِ سِمانٍ يتنزهون فى عَرَباتٍ يَحِفُّ من حَوْلِها سُواسٌ لا يسون سترًا مؤشاةً بالذهب فيُخِيلُ إلى الناظر أنه يشاهد ما ينقل به إلى دور ألف ليلة وليلة ، وما سَمِعَه هناك ضجيجُ وشاقٍ ما كرين مصانعين يُروون سيدهم آثارَ إخوانهم الأباقي<sup>(٣)</sup> عارفين بإيَّام من شكل أباهمهم ومن راحتهم ، وما اطلع عليه يسكر بعينه صبيان من الزوج سُمْتُلقون على الرمل تخشِئونَ يَمِضُّع مع صَبِّ رصاصٍ على الجروح قطعاً لتزقيها ، وكان بعض الأديار القبطية يعتمد فى دَخْلِه ، قبل كلِّ شَيْءٍ ، على صنْع خَصِيان ، والنِصَاءُ ،

(١) تولستوى : كاتب روائى وأديب روسى مشهور ( ١٨٢٨ — ١٩١٠ ) .

(٢) نِسكولن : أحد رؤساء جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية المضمهرين ( ١٨٠٩ — ١٨٦٥ ) .

(٣) الأباقي : جمع الأباقي ، وهو العبد المملوك .

وقد يؤدي إلى هلاك الخصى\*، هو من اختراع المسلمين والنصارى، والخصاء\* مما كان الزوج الوثنيون يجهلونه .

وأثبت ريكس، الذي كان صائداً فندا رائداً، أنه رجلٌ حكوميّ، قد جعل ولايةً من المنطقة التي كان قد رادها منذ عشر سنوات، يد أنه كان وحيداً، وكان النوبيون والمصريون الذين هم تحت إشرته يخذعونه، وبما ثبتَ عنده أن أعلى موقعيه كانوا متواطئين هم والتخاسون الذين كانوا يبدون ذوى سلطان لا يقهر .

ومن أولئك من كانوا ذوى عبقرية، فقد ظهر من النوبيين مغامر اسمه الزير، وكان الزير هذا جاهلاً فقيراً فصار صاحبَ مقامٍ عن فسادٍ ورشوقٍ، فأقام دار نخاسةٍ في النيل الأعلى وجمعَ كتائبَ المحافظة عليها وأنشأ نوعاً من القلاع مع عيشه في أكواخ ذات بسطٍ وأدوات فضية، ويجزئ مدخل القلعة أسدٌ مقيدٌ للتأثير في زائريه، وما كان ليخشى حكومة القاهرة الضعيفة ولا حاكم الخرطوم الإنكليزيّ، وإنما كان يخاف الشكّ للقاتلين الذين يهاجمونه دوماً كما كان يخاف الأسد الذي يمكنه أن يسدّ النيل ويقطع طرقه، وكان يستطيع أن يعلن نفسه ملكاً، وقد صنع ابنه ذلك فتسمّى سليمان، ونادى بنفسه ملكاً لبحر الغزال وبور ومكاكا، وكان تاجر الرقيق بالجملة هذا معاهداً سيراً لباشوات القاهرة وموظفي الخرطوم، وكلّ يكرّهُ الإنكليزيّ الذي جاء ليضع عراقيلَ في الشوايب<sup>(١)</sup>.

وكانت الضغائن تسودُ جميعَ ذلك البلد، فكان الزنجيُّ يفتُّ العربيّ الذي هو

(١) الشوايب: جمع دولاب، وهو كل آلة تدور على محور، والكلمة مولدة، وقد استعملها الحريري في قوله: «ومنا يا أول الألباب ميار الآداب، وأشد ملغزا في الدولاب».

عَيْنٌ عَلَيْهِ فَيَأْخُذُهُ غَضَبًا وَيَبْغِيهِ ، وكان العربيُّ يَمُتُ التُّرْكَ وَيَقُولُ لَا يَنْبُتُ  
الْكَلَّا حَيْثُ يَمُرُّ التُّرْكَ ، وكان التُّرْكَ الَّذِي يَوْذُ أَنْ تُجْبَى إِلَيْهِ تَمَرَاتُ كُلِّ  
شَيْءٍ يَمُتُ الْأُورُبِّيَّ لِمَا يُبْصِرُهُ مِنْ مَطَامِعِ الْأُورُبِّيِّ الَّتِي حَمَلَتْ الْخُلْدِيَّ عَلَى فَتْحِ  
أَبْوَابِ بِلَدِهِ لَهُ تَأْدِيَةٌ لَدَيُونِهِ النَّاشِئَةِ عَنْ تَبْذِيرِهِ ، وكان الوَثْنِيُّ يَمُتُ لِلْمَسْلَمِ الَّذِي أَبَاحَ  
النَّبِيُّ لَهُ اسْتِعْبَادَ الْكَافِرِينَ ، وكان الْمَسْلَمُ يَمُتُ النَّصْرَانِيَّ الَّذِي حَظَرَ عَلَيْهِ نَبِيُّهُ  
تَعَدُّ الزَّوْجَاتِ ، وكانت هَذِهِ الْبَغْضَاءُ الْعَامَّةُ تَنْتَدِجُ مِنَ الْأَسْوَدِ إِلَى الْأَسْمَرِ ، وَمِنْ  
الْأَسْمَرِ إِلَى الزَّيْتِيِّ وَإِلَى الْأَبْيَضِ ، وَلَا عَكْسَ ، وكان الْأَبْيَضُ يُشْعَرُ بِمَاطِفَةٍ نَحْوِ  
السُّودِ ، وَهُوَ ذَلِكَ كَالرَّجُلِ الذَّكَاءِ الَّذِي يُفْضَلُ الْأَوْلَادُ عَلَى أَنْصَافِ الْعُلَمَاءِ .

وكان يَبْكُ وَحِيدًا فَوْقَ هَذَا الْبَرْكَانِ كَدُعَاةِ السَّلَامِ فِي أَيْمَانِنَا ، وَأَقْنَى هُنَاكَ  
أَرْبَعُ سِنِينَ مِنْ حَيَاتِهِ وَعَادَ إِلَى بِلَدِهِ صَاحِبًا عَادًا مِنَ الْمَعْجَزَاتِ عَوْدَتِهِ مِنْ رِحْلَتِهِ  
صَحِيحًا سَالِمًا .

وَتَمَضَى عَشْرُ سِنِينَ ، وَتَحْتَفِلُ « جَمِيعَةُ مَكَاظِفَةِ الرُّقِّ الْأَجْنِبِيَّةِ » فِي لَنْدُنَ بِسِدِّهَا  
الذَّهَبِيِّ ، وَيُدْعَى يَبْكُ إِلَى أَنْ يَكُونَ صَنِيفَ الشَّرَفِ ، وَيَرْفُضُ ذَلِكَ بِمَا يَنْدُرُ  
صُدُورُهُ عَنْهُ مِنْ غِلْظَةٍ فَيَقُولُ فِي جَوَابِهِ : « لَا أَجِدُ مَا يُسَوِّغُ الْإِحْتِفَالَ بِهَذَا الْعِيدِ  
الْمُخْسِفِ فِي إِنْكَاتَرَةٍ مَعَ مَزِيَجٍ مَمْقُوتٍ بِشَيْءٍ مِنَ الرِّثَاءِ وَالذَّوَاءِ » .

وَقَوْلُهُ جَرِيٌّ فَرِيدٌ فِي بَابِهِ كَهَذَا مَا يَجْعَلُ ، فِي الْغَالِبِ ، لِلرَّجُلِ الشَّرِيفِ مَكَانًا  
فِي التَّارِيخِ أَكْثَرَ دَوَامًا مِنْ جَمِيعِ أَعْمَالِهِ .

كان خَلْفَهُ على خِلَافِهِ تَمَلَّكاً ، فبعد الصائد الضخم الشديد اللَّحْيَانِ ، وبعد  
 المحاربِ المسلَّحِ اللابسِ مَوْقاً<sup>(١)</sup> ، يُعَيِّنُ الخلدِو خاكاً للسودان رجلاً صغيراً نحيفاً  
 ماهراً أشقرَ الشعرِ أشيبَ الشاربِ دائمَ الحركة غيرَ مُقَيَّدٍ بِبِرَّةٍ ولا بَعْمَرَةٍ ، وكان  
 بهاء لونه وصفاءه يَتَحَدَّى شمسَ الصحراء ، وكان محافطاً على بساطةٍ ، على رشاقةٍ ،  
 صيبانيةٍ تقريباً ، وعلى غَضَارَةٍ<sup>(٢)</sup> رجل رياضي ، وما كان جميعُ ذلك لِيُنِعمَ عليه  
 بسلطانٍ كبيرٍ بين أولئك الشود والشمر لولا عيانه الزرقاوان القولاذيتان الثَّقَاذَتان  
 في الرِّجَالِ كالنَّبالِ ، وعنه قال صديقٌ له : « إنه ذو بَصَرٍ يُثِيرُ العَجَبَ بنوره ،  
 وإن لم يمتدُّ إلى بعيدٍ في جميعِ الأوقات » .

ذلك هو أمرُ الجنرالِ غوردون الذي يُشْمَلُهُ لَهَبٌ باطنى مع عَطَلَةٍ مما كان يتصف به  
 يكره من بأسٍ وبصرٍ صَرَعَ بهما القُيُولَ واكتشف بهما البعيرَاتِ ووَفَّقَ بهما  
 لمفارقةِ إفريقيا ، التي خَسِرَ غوردون فيها حياته ، صحيحاً سالماً .

وفى الغالبِ يُحَاوِلُ رَفْعُ فضائلِ رجلٍ خُتِمَتِ حياتهُ بفاجعةٍ إلى أعلى مرتبةٍ ،  
 وأفضلُ من ذلك أن يُسْتَمَانِ بهذا اللوث في إيضاحِ مزاجه ، والحقُّ أن غوردون  
 دَهَبَ صَخِيَةً خَلَقَهُ ، فالذى كان يُنَمِّسُهُ وَيَشُدُّهُ مع ترددِهِ ، والذي كان يَنْمُنُّ عليه  
 بذلك الحَزْمُ الذى يُفَرِّقُ فى نظره ، هو اعتمادهُ الروائى على الله ، وهو فى هذا يشابه  
 كرومويلَ مع قلَّةِ كَابِيَةٍ ، وإذا كان اتصالُ الرُّوَادِ الآخرين الدائمُ بالمسلمين

(١) اللوث : خف غليظ يلبس فوق خف أرق منه — (٢) النضارة : السمة والحصب .





١٦ — الغطاء النيل الأبيض والنيل الأزرق



## أخلاق غوردون

والوثنيين لم يؤدَّ إلى تثبيت إيمانهم النصراني فإن إيمان غوردون لم يتزعزع قط ، فغوردون ، مع ليفينغستون ، هو الإنكليزي الإفريقي الوحيد الراسخ الإيمان . وكان غوردون يستلهم النبي إشعياء إذا أراد أن يتقدم أو يقف ، وإذا لم يجد في دأرقور ماء أشار إلى نصر في سفر الملوك الثاني ، فيلوح أنه ظلَّ يتلو التوراة في كل صباح أو مساء من كل يوم مرة مدة عشرين أو عشرين سنة ، وما كان فيه من كرم صادر عن إيمانه قيَّده إلى إطلاق خصم غدار كسليان ، وما كان يؤرِّع به ماله من سخاء فيكفي وحده لتبديد شهرة الاسكتلنديين بالبخل ، وحدث ذات يوم أن قدَّ عنده ما يمكن أن يساعد به مريضاً من حاشيته فباع الوسام الذهبي الذي كان عاهل الصين قد أنعم به عليه .

وقائد هذا مزاجه كان لا بدَّ من قلبه قلباً خَطِراً ، فطوراً يبدؤ راحاً وطوراً يبدؤ قاصماً ، فقد أعرب عن تحننه على أعدائه الذين خرُّوا صرعى ، وذلك في كتاب أرسله إلى أخته التي ما اختلف يرأسها في أثناء نصف حياته ، وهو ، إذ كان يثق بسهولة ، كان يقسو في معاقبة من يخادعه ، وهو لم يتأخر عن إعدام من يرتضى من موظفيه ، وهو قد جعل زنجياً مجيِّه<sup>(١)</sup> فداحنه<sup>(٢)</sup> هذا النجي ، وإذا ما وجب عليه في المارك وحين المخاطر أن يقرَّر أمراً خطراً دخول أحدٍ عليه في خيمته يوماً بأجمعه ليرجع إلى التوراة ويُقلَّب للوضوع في قلبه ويسأل في نفسه : « ما هو الخلق ؟ ما هي حرية العبد ؟ ما هو الصَّيت ؟ » ، وما كان من تفكيره في الصيت ملياً ومن إنعامه النظر في الجبد إنعاماً عاطفياً ، مثيراً للشخيرة لا ريب ، فيكفي وحده لجملة جدابا .

(١) النجي : من تلوه — (٢) داحنه : داهنه وخاتله :

وكان هذا الاسكتلنديُّ الجبليُّ الواضعُ في توراتهِ شَريفاً أزرقَ أخضرَ أصفرَ رمزاً إلى قومه ، ضابطاً مهندساً ، ولكن التقوى كانت تُقرأ على سباه منذ صباه ، فكانت له هيئةُ القديس ميشيل حين استناده إلى إيمانه وسيفه ، حتى إذا ظهر مسيحٌ جديدٌ في الصين عَيْنَ الكولونيل غوردون جنرالاً وفَوْضَ إليه أن يقاتله ، ويُوفَّقَ في ذلك ، ويُقال مع التوكيد ، مؤخراً ، إنه أخذ الصين ، وكان ، بين بشاته إلى الأستانة والقدس ، يعود إلى إنكلترة في كلِّ مرةٍ ويُنشئُ حصناً ، ثم يستأنف سفره إلى الخارج ويَرْهُدُ في النساءِ ظاهراً على الأقلِّ من غيرِ مسحٍ قديسٍ ، ولو كان أطولَ مما هو عليه قليلاً لأَوْحَى رَوْقُهُ الوردى الحسنَ ومُحَيَّاهُ<sup>(١)</sup> المشرقِ المتناسقِ وعيناه الرامتان بثال الاسكتلنديِّ الجليل ، وقد كان في الأربعين من عمره حيناً وَصَلَ إلى السودان .

وَمَنْ يَكُ ذا نفسٍ يَقِيَّةٍ يَبْدُ أ كَثَرَتْ سَاحاً تجاهَ المجرمين من رجل الدنيا الذي لَا يَفْقَهُ سَبَبَ الجرمِ أبداً ، وفي سنة ١٨٧٤ يرسل إسماعيلُ غوردونَ حاكماً للنيل الأعلى وَيُفَوِّضُ إليه فَتْحَهُ من أَجْلِ مصر ، فيكثُرُ لفتح هذه المِنطقة أ كَثَرُ مما لمكالحفة الرِّقِّ ، وَيُفَضِّلُ أن يَكْسِبَ قلوبَ الزنوج أكثرَ من مقاتلة العرب ، وما كان مِنْ عبوره النيل سابحاً بالقرب من دوافر جُوباً غيرَ وَجِلٍ من التماسيح ومن إمساكه بندقيته عالياً قد نال به احترامَ الزنوج ، وقد انتشرت على طول النهر قِصَّةُ الأيبيض السابح حاملاً بندقيته بيده اليسرى .

وَيَمُضِي عامان فيصبح غوردونُ حاكماً لجميع السودان ويثيرُ من الحقد مثلاً أنارَ بيكر ، وكان ملك الزنوج الزُّبير من القُوَّة ما يستطيع معه أن يطرُد ملوك

دارفور الذين ظَلَّ الثُّلُكُ في آلم خمسة سنة ، ولكنه ، كثير من الأقباطين ، لم يَعْرِفْ أن يقاوم رَغَائِبَ الخديو فالتجذب إلى القاهرة حيث مُنِعَ من التَّوَدُّ ، ولما أراد غوردون دعوةَ سليمانَ بنِ الزبير ، الذي كان دون أبيه قِيةً ، إلى سلوك سبيل العقل لم يدَّعه إلى محكمته ولا إلى ضيافته ، ولم يُوجِّهْ إليه كتاباً قوياً مع مدافع ضَخْمَةٍ ، وإنما استفتح التوراة وسار نصرانياً ، لا حاكماً ، ويغامر في الصحراء مع متقى فارس ، ويَحْتُ بِبِرِّهِ ، وَيَقْطَعُ كلَّ يوم ، وبين مرحلة ومرحلة ، مثلاً كيلومتر ، حتى يَبْرُزَ وحده أمام عدوه ، ويدخلُ مُحْجَمَ الأشرار والزنوج رويداً رويداً متوكلاً على الربِّ وعلى زَرَدَه <sup>(١)</sup> المذهب ، وهل كان من الممكن أن يَعْرِفَ أناسٌ من التهمج وَضَعَهُ ؟ هم لم يَمَسُّوه بسوء ، ووَعَدَ سليمانُ بمقابلة المذنبين ، ولما أدرك الحرسُ غوردونَ دُعُوا إلى وليمة ، وخِيلَ إلى غوردونَ أن الحقَّ ومقاتلة العالِي انتصرا على الرذيلة ، وما كاد غوردون ينصرف حتى عاد كلُّ شَيْءٍ إلى ما كان عليه ، وهناك أرسل الإيطاليُّ الباسلَ جِسِّيَّ مع جيشٍ حقيقٍ ، لا مَعَ زَرَدٍ مُذْهَبٍ ، فَقَلَبَ جِسِّيَّ سليمانَ وقتله ، وهناك حَرَّرَ الزنوج الذين لم يَعتَمُوا أن عَتَوْا <sup>(٢)</sup> ، وطَرَدَ العربَ الذين مُنُوا <sup>(٣)</sup> بِالطَّالَةِ ومِلُّوا غِيظاً وانتشروا في جميع المِنَاطِقَةِ ، وكان التحولُ مفاجئاً إلى الغاية ، وتلاشى النَخَّاسُونَ وتلاشت النخاسة من غيرِ إغناءٍ للسبب ، وقد نشأ عن مقاصد أولئك الرجالِ الرائعةِ إِذْ : - جميع من يَقْبِضُ في السودان على المال والسلطان ضِدَّ الحُكُومَةِ المِصْرِيَّةِ التي أَحَالَتْ سُلْطَتَهَا إلى هؤلاء الأوربيين .

(١) الزرد : الدرع المزروعة يتدخل بعضها في بعض — (٢) عتا : استكبر وجاوز الحد .

(٣) منى به : أصيب به .

وينادر غوردون السودان مفاضيا كما صنع يسكر منذ سبع سنين ، ويضع مواهبه وخدمته تحت تصرف إنكلترة ، ويترك غوردون البلاد بعد إصلاحات عشر سنين على الشئ البريطانىة ، وما حدث من مكافئة العرب النوبيين فى سبيل السود فقد ضاعف القوضى بدلا من تنظيم البلاد وإمتاعها بالسلم ، والسودانيون ، مع السنين ، يفتنون بالتدريج حكمة خلقت للوك المحليين لتتمتع بأطايب النعم عند مصب النيل هنالك بفضل مظالم الباشوات ، وكان الأغنياء يتفقون على الإفلات من الضرائب وعلى الإبراء بتجارة العاج والقيق ، وكان الفقراء لا يعرفون شيئا غير كون هؤلاء الكلاب النصارى يطالبون الخديو اللديون بإبطال النخاسة ، وكان ما فى سبب تحريرهم من دنس يكفى لاحترامهم ، وقد حظرت الحكومة المصرية على التجار بيع الشمع ، وريش النعام ، وجلد بقر الماء ، والببغاوات ، والعاج على الخصوص ، محتكرة هذه الأشياء .

وكان جنود الخديو ، إذا ما بلغوا واحدة ، يسكرون فيها على حساب البدوى إلى أن يؤدئ ما عليه ، فإذا رقص ذلك ريط بنخله أوجر إلى مجرى جاف حتى تآنى زوجه بماله أو أنعام ، وعلى هذه الأساليب كانت تقوم أجرة الجندى الذى لا يدفع إليه راتب فى سنوات وجعل رئيس القبيلة الذى يطالب بأكثر مما يطلب الجندى منه ، وكان شباه الأعراب يتكون غلاتهم ويفرون مع أنعامهم إلى شهب منيع ، وكان الفلاح المكلف بضريبة عن حقله وعن كل واحد من أفراد أسرته يدع أرضه بورا ويتوجه نحو منابع النيل الأبيض ويقطع طرقا أو يبيع رقيقا ، ويؤخذ من كل شئ خرج ، يؤخذ من الناعورة التى هى مصدر الحياة فى شواطئ النيل ، ومن النخلة ولوعطلت من الثمر ، ومن ختان الأولاد ، ويعد إلى الخرطوم باشا

### المنع القاضى

عابدٌ للذهب كان غوردون قد عَزَلَه وكان يسير على غرار أسلافه ، وينصِب هذا الباشا مَذْفَعاً ويسميه قاضياً ، فكان كلُّ من يعاصره يُقَادُ إلى هذا القاضى ويُزَبَط أمام فُوْهته ويُزَقَّ إِرْبَا إِرْبَا بِقَذِيفَةٍ تُطْلَقُ منه .

وَحَوْلَى سنة ١٨٨٠ ، وفى أثناء ذلك الاستعداد العام بالسودان ، كانت جميع الأحوال حَبَالَى لَتَلَدَ حزباً قومياً اجْتِماعياً ، وكان لا بُدَّ من خطيبٍ شعبيٍّ يَمْدُ كلمةَ الشَّرِّ حتى تَقْبِعه ملايينُ الآدميين مع عَمَى كَمْثَى بصيرةِ البيض .

### ٩

كان محمد أحد قديراً فى صباه ، وكان قد أُذِلَّ فى صِغَرِهِ ، وكان له ، ككثير من حديثى النعمة ، حَفْطُ الحُبُوط فى بدء أمره لِمَا اشتدت به عزيمته وما اكتسبه به من عنادٍ ، وكان ابن قَديرٍ نُوفِيَّ صانع لقواربٍ من خشبِ النخل بين الشَّلَالَاتِ فى دُنُقَلَه ، وبلازم شيخاً فلم يستظهر سوى أسماءِ النبىِّ التسع والتسمين ، ويتعلم الكتابة والقراءة بعد حينٍ قَبِيحٍ ، ليمشَ ، قَطَعَ ورقٍ مشتملةً على مَلامِحِ صِدِّ السُّحر والمرض ، ويُلومُ ، ذاتَ يومٍ ، معلمه لخالفته حكماً دينياً ويُفَضِّب عليه معلمه ويعاقبه بوضْعٍ ملقَطٍ حَوْلَ عُنُقِهِ لَمَسٍ لِنِراهِ المَبسُوطَةِ ، ويَطْلُب محمدُ العَفْوَ صاغراً ، ويفندو خادماً لدى مديرِ مدرسةٍ لتعليم القرآن عدولاً أَرَزَقَ لذلك للمعلم .

ويُقْبَل هذا الآبقُ بقبولٍ حَسَنٍ فى المُعسكر للمقابل ، ويُبَيِّر اتصافه بثلاثة أمورٍ نافعةٍ فيه : يُبَيِّر أن اسمه محمدٌ ، وأنه جيلُ السنينِ ناعمُ الشعر ، وأنه أقرؤُ التَّنَايَا وذو خالٍ على خَدِّه الأيمن ، ويُدْرِك أن قومه السانطين اليائسين محتاجون إلى زعيم ، ويُفَكِّر ، وهو التَّسَنُّ ، فى قدرته على تمثيل هذا الدور ، ولكنَّ كان يجب

عليه أن يَبْدُو ناسكاً ولياً في بدء الأمر ، أو أن يعيش منزوياً مع مشاهدة الجميع إياه ، وأين يَفِضُ حياةً ولياً ناسك مع توجيه الأنظار إليه ؟

ويذكر أن أحد أعمامه كان يصنع زوارق في جزيرة كبيرة واقعة في مجرى النهر القوقازي من الخرطوم ، أي في مكان مركزي رائع مناسب لناسك مرتي من كل ناحية ، وكانت جميع الزوارق تمتد على شواطئ هذه الجزيرة ، وكان كثير من الزوارق يقف هنالك للإصلاح ، وكان حُجَّاج مكة الآتون من الغرب وتجار الرقيق الآتون من الجنوب يَمُرُّون أمامها ، ويستقر محمد هنالك مثل ولي إذن ، وذلك مع تقديمه زوجه كفاستين عنده ، وذلك مع اقتصاره في طعامه على الخضر والسمير ، وكان يتلو القرآن ويُفِي بِشعره الجليل الطويل ، وكان يتعطى بالعبير الثمين فيثير برائحته الزكية حُب الإطلاع لدى الجميع ولا سيما النساء ، ويمرُّ بضع سنين فيعرف ولي جزيرة أباً في كل مكان ، ويأتي الأولاد لمشاهدة خاله الجليل وتقبل ثوبه الأبيض كالثلج ، وتأتيه النساء بالمال ، ويطلب الجنود والفلاحون طلاس منه ، يطلبها الجنود للوقاية من مزاريق عبّاد الأصنام ، ويطلبها الفلاحون لحفظ مواشهم من الأوبئة ، وكان محمد يدعى بالزاهد لتوزيمه على الفقراء جميع ما يأتيه من الهبات ، وذلك عن جهل بأن قراء الجزيرة هم الذين يُمَوَّنُونَهُ ، وإذا حدث اتفاقاً أن جاوز النيل وتزّده على صيفته هازجاً<sup>(١)</sup> أو منشداً حاملاً طاساً يده مُمَيَّ « الأب الأفلاج<sup>(٢)</sup> » وحيّاه الجميع .

وكان محمد ينتظر مجيئ يومه مع صبرٍ شرقي يكون به دُبُلِيّاً أُمَهر من الغربي

(١) مزج اللحن في غنايته : ترنم وطرب في غنايته أو قراءته — (٢) الأفلاج : من تباعد ما بين أسنانه .



العصبي<sup>١</sup> ، وذلك مع ملاحظته صامتاً ذلك المهيّجان المزايّد الذي يصفه له اللاّخون الآتون من جميع جهات السودان للرّسني في جزيرته ، وأخيراً يُنبئ<sup>٢</sup> مريديه بقرب ظهور المهديّ المنتظر ، أي المسيح الذي أخبر به القرآن ، والواقع هو أنه منذ قرون ، وفي كلّ مرة يتمخض الإسلام عن ثورة ، يُخبرُ رجلٌ بظهور المهدي ، بظهور مرّسلِ النبيّ الذي يُنمّ عمله ويقوم مقامه ، ويُبلّغُ محدّأمرَ ظهور المهديّ ، وجميع الناس يقولون مرّديّن : « سيظهر المهديّ ، ومن يكون المهديّ ؟ » .

ولم يخامر السلطات شكٌّ في الخروطوم ، وحظَرَ الحاكمُ على باخره أخذَ حطب من جزيرة أبابا ، وحلّها على التمهّل عندها داعيةً المسافرين إلى الصلاة بصفّاراتٍ بخارية ، ويردّ موظفٌ قبليّ عالٍ إلى الجزيرة ذات يوم ، ويُقدّم الوليَّ الجليلُ إليه شراباً ، وتظللُ الجيرة المشتعلة عليه مملوءة ، ويقصُّ القبليّ على الباشا نبأ هذه الكرامة فيُدّهِشُ الباشا .

ويُنصّر محمد رَعَن<sup>(١)</sup> أولياء الأمور ، ونخاصم زعماء الأحزاب ، وزيادة فاقة الشعب ، ويرى أن عليه أن يؤمنَ بنفسه حتى يؤمنَ الناس به ، ويتعزّم على إعلان مَهْدِيّته ، ويأتي بجريديه إلى تحت النخيل في جزيرته ويقصُّ خبرَ رؤياه في الليلة الماضية ، يقصُّ عليهم أنه رأى كتيبةً نيرةً من اللاتسكة والأولياء والصالحين تُحيط به وأنه رأى النبيّ محدّأ نزل إليه لابساً بُردته الخضراء وقال : « هذا هو المهديّ ، فمن لم يُصدّق بمَهْدِيّته فقد كفر بالله ورسوله » ، ويركّع التلاميذُ أمام وليّهم صامتين مرتجفين ، ويقول المهديّ لهم : « اعلوا يا أصحابي أني المهديّ المنتظر ! » ، ثم يدّعي أنه من ذرية محمد وأنه مُسمّى باسمه لذلك السبب ، وأن الله جعل من

(١) الرعين : الحماقة

السَّعة التي على وجهه آية على كونه صَفِيه ، أَجَلْ ، كان المثلث من الناس مستعدين للإيمان به ، ولكنه كان محتاجاً إلى مليون حتى يَقُودَ حزبه إلى النصر ، وفي ذلك الحين يترك وضع الولي ويُرْسِلُ أصحابه إلى أنحاء البلاد ليعلموا ظهوره المُعْجِز :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الولي الكريم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم ، وبعد فَمِنْ البعد المقتدر إلى الله محمد المهدي بن عبد الله إلى أَحِبَّائِي في الله المؤمنين بالله وبكتابه . . . ثم تَفَضَّلَ اللهُ على بالخلافة الكبرى ، وأخبرني سيد الوجود (ص) بأن المهدي المنتظر وخلفي بالجلوس على كُرْسِيَّة بحضرة الخلفاء والأقطاب ، وأيدني الله بالملائكة والأولياء . . . ثم أخبرني سيد الوجود (ص) بأن الله جعل لك على المهديَّة علامة ، وهي الخال على خدِّي الأيمن ، وكذلك جعل لي علامة أخرى : تَخْرُجُ راية من نور ، وتكون معي في حالة الحرب يَحْمِلُهَا عزرائيل فَيُنْبِئُ اللهُ بها أصحابي وَيُنْزِلُ الرعبَ في قلوب أعدائي فلا يلقاني أحدٌ بعداًوةٍ إِلَّا خَذَلَهُ اللهُ . . . ثم قال لي النبي (ص) : إنك مخلوق من نور عنان قلبي ، فَمَنْ له سعادةٌ صَدَّقَ بآني المهدي المنتظر ، ولكن الله جعل في قلوب الذين يُحِبُّونَ الجلاءَ النفاقَ فلا يُصَدِّقُونَ حِرْصاً على جاههم . . . والسلام عليكم » .

وهكذا لم يتدع المهدي رسالته الرِّبَّانية قط ، بل تَوَعَّدَ باسم الله جميع مَنْ هم في شكٍّ من أمره أو ينتقدونه ، وكانت سياسته تستند إلى عقيدته ما دام القرآن دستوراً مدنياً أيضاً وما دام الشيوخ مفسرين للشريعة وحماة لهذه الشريعة الجديدة معاً ، وكان لهذا الزعيم الجديد بالقرآن ، الذي هو أيسر لأولي الأمر المطلعين من التوراة ،



١٧ — ظاء في الصحراء



• سيتعلم النيل •

ما يَرْغَبُ فيه من حُكْمٍ ، وفي القرآن : « وَظَلِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يقاتلونكم ... وَاقتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ ... »

وَيَتَدَخَلُ الحاكمُ المصريُّ الجبانُ الذي خَلَفَ غورخونَ بعد الأوان ، فيرسلُ مرافقه إلى الجزيرة ليدْعُوَ المهديَّ إلى الخرطوم ، فاسمع تحاورها :

— أنا المهديُّ ، ويجب على الباشا أن يؤمن بي !

— وكيف تُثَبِّت ذلك ؟

— لما يَحِلُّ وقت ذلك .

— سيُؤْتَىُ بِجنودٍ لِمقاتلتك .

— سيتعلم النيل .

وترُسَلُ باخرةٌ مع ثلاثمئة رجلٍ ومدفعٍ لحاربته ، وإنها لترسُو أمام الجزيرة إذ يتنازع الضباط الثلاثة قيادةَ الكتائب ، ولا تَعْرِفُ الكتائبُ تلك الأرضَ فَتَسِيرُ قبل طلوع الشمس على غير هدى ، ويُبَاغِتُهُم مريدو المهديِّ ، ولا يَجِدُ المِدْفَعُ باروداً ولا قنابلَ على الضَّفَّة ، ثم يُطْلِقُ النارَ في الهواء إلى أن كُسِرَتِ الحبلَةُ وعاد رجالُها إلى الباخرة بعد أن هَلَكَ نصفُهُم ، ويتحدَّثُ الناسُ في السودان عن انتصار المهديِّ العجيب .

والآن ينطلقُ الزعيمُ لِيَجْمَعَ في جميع الأوساط أكثرَ ما يُمكن من الأنصار ، وهو يُبَشِّرُ الفقراءَ بالشيوعية ، وهو يقولُ بالناء الإتاوات والقضاء على كبار الملاك ، وهو يُشِيدُ بفاضائل الفلاح ، وهذا ما أدَّى إلى انتهاب بعض الأغنياء وقتلهم ، وهو في الوقت نفسه يجتنبُ أربابَ رؤوس الأموال ببراہين دينيةٍ ويُصرِّحُ بأن الترك والألبان ، أي الجبَّاة والحُكَّام ، غيرُ أهلٍ لِيُعَدُّوا مسلمين وأن إطاعتهم غيرُ واجبة ، ويخاطِبُ هذا « الزعيمُ » مشاعرَ القوم الوطنية والاجتماعية على هذا الوجه

#### خليفة المهدي

فَيَجْمَعُ تحت رايته طبقات متعادلة ومنافع متناقضة ، وَيَصْحَكُ أغنياء النوبة منه ويسرون معه لِمَا يَلُوح من حمايته أموالهم ضدّ القوضى ، وَيَبْنِي الصعاليكُ بكلامه الشيوعيّ الفخْم ، وَيُسْرِ العربُ بإمكان عودتهم إلى تجارة العبيد الذين لم يَلْبَسُوا أن تَبَرَّمُوا من حَمْلِ محرميهم الأوربيين إِيَّاهم على العمل والذين اعتقدوا خلاصَ أعدائهم الرُّزْق ، البَقَّارة ، من البيض ، وهكذا كان جميع هؤلاء الناس يَرْجُونَ إنقاذهم من وَضْعهم الموجب للقنوط .

ويحتاج المهدي إلى عِلْمٍ بعد الآن ، وهو شُبُه الممبجى الذى يُدْرِكُ قِيَمَةَ الْعِلْمِ عند شباه التَمَج ، وَتَحْقِيقُ أَعْلَامِهِ الْخُضْرُ وَالْحُمْرُ أَمَامَهُ فى أسفاره بين النيل الأبيض والأزرق أو فى دارفور ، وَيَزِيدُ أَتْبَاعُهُ بَيْنَ يَوْمٍ وَيَوْمٍ لِرَعْدِهِ إِيَّاهُمْ بِمَا يَوَدُّونَ ، سَيَدُ أَنَّهُ كَانَ مَحْتَاَجًا إِلَى وَكَيْلَيْنِ ، يَقْرِبُ أَحَدُهُمَا بِالسِّيفِ وَيَذْعُرُ الْآخَرَ إِلَيْهِ النَّاسَ ، وهو ، مع قيامه بالدعوة رأساً ، وهو ، مع عبادة ألوف الناس إِيَّاهُ ، كَانَ مَحْتَاَجًا إِلَى رَئِيسٍ يُدِيرُ أَمْرَ الدَّعْوَةِ ، وَإِذْ أَنَّ الْمِهْنَ فى السودان لم تَدْخُلْ مِشْمَنَ دَوَائِرَ من الاختصاص حتى ذَلِكَ الحين فإِنَّ أَعْرَابِيًّا ذَا أَنْفٍ كَبِيرٍ وَذَا آثَارٍ من الْجُدْرِيِّ فِيهِ صَارَ عَامِلَ دِعَايَتِهِ وَرَئِيسَ حَرِيَّتِهِ ، وَاسْمُ هَذَا الْأَعْرَابِيِّ عَبْدُ اللَّهِ ( التَعَائِشِي ) ، وَكَانَ أَكْبَرَ من المهدي سِنًا ، وَكَانَ فى سَنَةِ ١٨٨١ فى الثَّالِثَةِ وَالثَّلَاثِينَ من عَمْرِهِ ، وَكَانَ مِنَ الْبَقَّارَةِ الَّتِى هِىَ أَشَدُّ قِبَالَ النُّوبَةِ بِأَسَا ، وَمَا حَدَّثَ من قَتْلٍ فى السَّنِينَ التَّسْعِ الْأَخِيرَةِ فَادَى إِلَى اسْتِصْالِهِ هُوَ وَعَشِيرَتُهُ ، وَيَشُقُّ طَرِيقَهُ وَيَبْدُو مُسْتَعْدًّا لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَيَهَبُ نَفْسَهُ لِهَذَا الْوَلِيِّ الْجَلِيدِ ، وَيَقُومُ الْحُسَامُ مَقَامَ الْكَلَامِ ، وَيُدَوِّى طِبْلُ الدَّرَاوِشِ الْكَبِيرُ فى طُولِ السُّودَانِ وَعَرَضُهُ ، وَيَكُونُ آيَةُ انْتِقَالٍ طَبِيعِيٍّ بَيْنَ السِّيفِ وَالْإِعْلَانِ .

وهناك يجب أن يُفَعَّى بالمظاهر والبركات التي هي أداة كل حركة شعبية لدى الهَمَج من البيض والسود على السواء ، ويُطَلَق اسمُ الدراويش على اسم الجيش الذي أوجده المهديُّ بسرعة ، وتلبس الدراويش « الجبّة » ، وهي قميص أبيض مُزَيَّنٌ يَقَطَعُ من نُسُجٍ يُقَعِر ، ويؤدي الدراويش عَيْنَ مبايعة المهديِّ بِشَبَك الأيدي ، ويرافق خليفة المهديِّ ، عبدُ الله ، زعيته في كل مكان ، ويتقدمه علمٌ أسودٌ ويصلي بصوت عال ، ولا يبالي بغير أمرٍ واحد ، بغير محاربة « الترك » الذين أذلُّوا قِبلته والذين نشأ عن دفعه ضرائب إليهم تَرَعُ قِطاعه منه ، ومع ذلك تدعو الطبولُ مختلفَ المِثَار ، خارجَ الأكواخ ، فتصخمُ الكتابُ القديمة بذلك ، وتكاد تُقَطَعُ حناجرُ الدراويش بفعل القدو والصراخ ، ويصابون بضربٍ من الهذيان عند رفع أصواتهم بذكر أسماء الله .

وهذا الزعيمُ القويُّ ، وهذا القاتلُ بالعودة إلى العادات القديمة البسيطة ، وهذا المهديُّ ، كان يَسْجُنُ جميعَ من لا يؤمنون به ويصادر أموالَ جميعِ من لا يُحَدِّثونه بالمال ، وكان يَنْصِبُ المشايخ على حين تَشَدُّ مِثَالُ السَّيَاطُ المصنوعة من جلد وحيد القرن<sup>(١)</sup> إيمانَ الناس برسالته ، وكان الوليُّ مع ذلك ، وكان المئاتُ من الوُعَاظُ يُذَيِّعون أنه الإمامُ الثاني عشر الذي أخبر به القرآن ( ! ) والذي ينتظره الإسلام منذ اثني عشر قرناً لِيُفَعَّى الإيمان ويَحْمِلَ الناس على مذهبه ، ويُطَلَنُ الجهاد ، ويُجَدُّ النساء على نَيْصِ دَجاجهن رموزاً ، فيُطَلَنُ الدراويش أنها الحروفُ العربية الأولى لاسم الزعيم الأكبر ، وكان المهديُّ يَمْتَلِ لإثارة زائريه بابتسامه ودموعه ، وما ذكره غوردون في يوميته أن المهديَّ كان يَقَعُ قُلُقلاً تحت أظفاره كما اكتشف

(١) وحيد القرن : الكركدن .

ذلك أحد اليونان ، فما كان عليه إلا أن يُرَّ يدَه على عينيه حتى يسكن متى أراد .  
 وكان للمهدىُ يجبل الأسطورة ملاحةً له عند عدم انطباقها عليه ، أجل ، إنه  
 كان غير مؤثر في القرات فلم يحفَّ عند ظهوره ولم يدلَّ على الذهب في مجراه ، غير  
 أنه أبصر في إحدى الرؤى تحولَ جبل مائه من سلسلة دَرَن<sup>(١)</sup> ، الذي كان  
 يجب أن يخرج منه المهدىُ الجديد ، إلى جبل قدير بالسودان ، ويذهب محمدٌ إلى  
 الجبل غير الحقيقى محاطاً بجميع عظيم ، أى رفاقه جيشٌ مع نساءٍ وأولاد ، ويُستكر  
 هذا الجمعُ في الشفوح ويُوقدُ النساءُ والأولاد نار الحية بأصواتهم بدلاً من أن يكونوا  
 سببَ إزعاج ، ويهبُ المهدىُ عبَّاده أجلَ بناتهم ليكن أزواجاً له ، وتُنصب  
 خيامهن حولَ خيمته في الجبل ، ويدوم على تمثيل دور الولي مع ذلك !  
 وبعضُ مواعظ المهدى في الجبل شففى ، وبصفاً خطي ، ويُذيع المهدى هذه  
 المواعظ في بلاغاتٍ لاحقة تُنقل بقنوات<sup>(٢)</sup> الجنود ، ويصرُّ المهدى على أصله ،  
 ويؤكد أن خالَ خذَه هو منبع قوته الأدبية ، ويذكر أن جميع العلام أصبحت  
 واضحة ، ويستبدل كلمة محمد أحمد بكلمة محمد في جملة : « لا إله إلا الله ، محمدٌ  
 رسول الله » الألفية ، ويحتل أنه أولُ خطيبٍ عصرى أدرك أن الأُكثوية  
 إذا ما كرَّرت باستمرار اكتسبت مسحةً من الحقيقة .

ويعين أربعة خلفاء كالنبي فيما مضى ، ويصنع تحت إمرة كل واحدٍ منهم  
 زعماء مساعدين ، ويتدع نظاماً معقداً من الأعلام المختلفة الألوان ويجمع الخليفة  
 عبد الله جيشاً عظيماً من جميع السودان في أثناء هذه الاحتفالات والخطب  
 ورفق الرايات .

(١) جبال درن ( Aden ) : واقعة في الغرب الأقصى — (٢) القنوات : جمع القناة ، وهي  
 الرمح أو عوده .



وَضَعَ الإنكليز في القاهرة حداً للهَرَج والوَج وفق مصلحتهم ، وَضَرَب الإنكليزُ الإسكندريةَ بالمَدافع في أثناء فتنَةٍ وأعلنوا ضرورةَ إعادة الأمن إلى نصابه وقبضوا على زمام السلطة ، ولاح ، بعد هذا النجاح ، استعدادهم لمغادرة السودان ، ومع ذلك ، وعلى الرغم مما حُدِّر به الكولونيلُ الإنكليزيُّ هيكسٌ من قِبَل حكومته ، وعلى الرغم من معارضة مُعظم الضباط المصريين ، فَطَّم هذا الكولونيل الذي كان مستخدماً لدى مصر جيشاً لقائِلَة المهدي وإِغَاذِ السودان .

وَبَدَأَ هيكسٌ للهزيمة منذ البَدْءة لِجَهْلِهِ لغةَ البلاد ، ولانْتِخَاذِهِ أدْلَاءَ من الأعرابِ يُضَلُّونَهُ ، ولاستِعْمالِهِ من الأسلحة المصرية ما لا ينفع في حرب العِصَابَات وفي الصحراء ، وَيَبْدُو عاملان متناقضان في المعركة الحاسمة ، فمن جهةٍ ترى المصريين مُجَهَّزِينَ بأسلحةٍ حديثة ، ولكن من غير أن يَعْرِفُوا كيف يَنْتَفِعُونَ بها في كُلِّ حِينٍ ، ومن جهةٍ أخرى ترى جيشاً يَجُولُ في مقدمته رؤساءُ لابسون دُرُوعاً وَزُرُوداً وَحَلَقاً لوقاية النُرُوعان والسِّتَان كما لو كانوا من الصليبيين ، وَتَرَى سودانيين صاخبين راقصين يَتَّبِعُونَهُ هَازِينَ مزاريقهم ، وَتَرَى زُنُوجاً عُرَاةً رَامِينَ أَقْوَامَهُمْ في الهواء ، ويسير ضابطٌ إنكليزيٌّ لا لبسَ يَدُلُّهُ صَفراءَ نَظْفَةٍ وقابضٌ على مُسَدَّسٍ حديثٍ نحو أميرِ نوبيٍّ لا لبسَ عِمامة من حريرٍ وَبُرُتُوساً مُخْتَلَفَ الألوان ، وَمَهْزِيَةً سيفه الأُحْدَبَ الكبير وهامزٌ<sup>(١)</sup> حِصَانَهُ الرَبِيَّ ، ويكون هذا النوبيُّ غالباً في كُلِّ مَرَّة .

(١) حمز القرس : نخسه بالهامز ليمدو .

وَيُفَقَى عَلَى الْجَيْشِ الْمِصْرِيِّ فِي الْمَسَاءِ ، وَيَكُونُ الْكُولُونِيلُ هِيكْسُ مِنْ آخِرِهِ مَنْ يَخْرُونَ ، وَيُوتَقَى بَرُوسُ ضَبَاطِ الْإِنْكِلِيزِ لِقَطْعَةِ كَفَنَاتِهِمْ ، وَلَمْ يُفْلِتْ مِنَ الذَّبْحِ غَيْرُ ثَلَاثَةِ رَجُلٍ عَلَى مَا يُرْوَى .

وَالْمُهْدِيُّ بَعْدَ النَّصْرِ يَصْبِحُ الْبَطْلَ الْحَبِيبَ ، وَالْمُهْدِيُّ بَعْدَ النَّصْرِ يَصْبِحُ سَيِّدَ السُّودَانِ كُلِّهِ تَقْرِيبًا ، وَالْمُهْدِيُّ يَقْبُرُ النَّيْلَ وَيَدْخُلُ الْأَبْيَضَ ، وَيَتَقَدَّمُهُ دُرُوشُ حَامِلٌ عَلَى حَرْبَتِهِ رَأْسَ الْكُولُونِيلِ هِيكْسِ الْمُنْتَحَجِرِ ، وَأَخِيرًا ، وَبَعْدَ أَسَابِيعَ ، يُنْزَلُ الدُرُوشُ هَذَا الرَّأْسَ لِكَيْ يَقْبَلَ التَّرَابَ أَمَامَ حِصْنِ الْعَاثِرِ الْمَاكِرِ ، وَكَانَ السَّيْفُ الَّذِي يُحْمَلُ أَمَامَ الْمُهْدِيِّ خَاصًّا بِسُلْطَانِ دَارْفُورَ ، وَكَانَ يَشْتَمِلُ عَلَى كِتَابَةِ لَمْ يَسْطِيعَ أَحَدٌ حَطْلَهَا ، وَهِيَ : « الْإِمْبَرَاطُورُ الرُّومَانِيُّ شَارْلُ الْخَامِسِ » ، وَمَنْ الْمُحْتَمَلُ أَنَّ كَانَ السَّيْفُ لِصَلِيبِيٍّ مُتَعَوِّقٍ حَارِبٍ قُرْبَانَ الْجَزَائِرِ ، فَوَقَعَ السَّيْفُ بَعْدَ مَوْتِهِ بَيْنَ يَدَيْ قِبَائِلٍ مَتَوَحِّشَةٍ ، فَانْتَقَلَ مِنْ يَدٍ إِلَى يَدٍ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الصَّحْرَاءِ السُّودَانِيَّةِ ، وَهَكَذَا يَصِيرُ سِلَاحُ إِمْبَرَاطُورٍ نَصْرَانِيٍّ مُتَدِينٍ آيَةً انْتِصَارِ السَّلَامِ النَّوْبِيِّ .

وَأَخْصَى الْمُهْدِيُّ يُؤْمِنُ بِرِسَالَتِهِ بَعْدَ تِلْكَ الْاِتِّصَارَاتِ ، وَيَعْبُدُهُ الْجَمِيعُ ، فَيَفْقِدُ رَشْدَهُ وَيَثْقُلُ فَيَزِيدُ عَدَدَ نِسَائِهِ مَقْدَارًا فَقْدَارًا ، وَيَلْبَسُ ثَوْبًا حَرِيرِيًّا أَصْفَرًا وَعِمَامَةً خَضْرَاءَ وَتَتَوَدَّهَ نَوَابِتُ رَحْمَةٍ وَجُورَ ، وَيَسْتَوَلِي عَلَيْهِ جُنُونُ الْعُظْمَى فَيَمَاقِبُ رَجُلًا جَعَلَ اللَّهُ فَوْقَهُ ، وَيَقُولُ إِنَّ الرِّجْلَ ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا فِيمَا أَبْدَاهُ ، فَمَلَّ ذَلِكَ مَهْجَمًا ، وَيَفْدُو خَلِيفَتَهُ رَئِيسَ الْمَجْلِسِ فَيَشْغُلُ بِأَلِهِ ، عَلَى الْخُصُوصِ ، بِأَجْزَاءِ التَّسَاحِجِ الَّتِي تَخَاطَبُ عَلَى بَزَّتِهِ الرَّسْمِيَّةِ ، وَيَتَقَدَّمُ هَذَا الْخَلِيفَةُ ، إِذَا مَا خَرَجَ ، رَجُلًا فِي صُورٍ <sup>(١)</sup> مِنْ عَاجٍ ، وَيَذْهَبُ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ نَحْيَةَ الْمَلَقِ الْعَامِّ ، وَيَذْهَبُ الْآخَرُ

(١) الصَّوْرُ : الْفَرَنْ يَنْفُخُ فِيهِ ، الْبُوقُ .

أمر قطع !

نحية غنمه ، وكان المهديّ صوّلاً ماهراً عند تطلّعه إلى السّلطة فاستفاد من ضنك شعبه وحنينه إلى وطنه ، وهو قد خرّج بذلك من القفر والذلّ اللذين نشأ فيهما ومَلَك بأسلوب استبداديّ جمعاّ سحرَ بوعوده ، وما كان من خُفوق عَلمه ومن هُتاف جمهورٍ عن هُوسٍ ومن ركوع هذا الجمهور أمامه قد أوجب إيمانه بأن رسالته إلهية ، ويَفقد أثرانه الباطنيّ بذلك ، ويَفقُ وقتَه في المظاهر والاحتضالات لذلك ، وتُساوِرُه أهواءٌ جامحة فيَنطِقُ بأحكامٍ قتلٍ وتقرأ كم خطبته ، ويُميتُه الله عما قليل .

ويحلُّ شهر نوفمبر سنة ١٨٨٣ ، وكان غلامنٌ وبسارك والملكة فيكتورية ووليهم الأول وكريسي<sup>(١)</sup> والملك هُنيرت<sup>(٢)</sup> وفرنسوا جوزيف وليون الثالث عشر<sup>(٣)</sup> ، يسيطرون على أوربة ، ويكثرُ الجميع ، ماعدا الروس ، لتقسيم إفريقيا التي كان جزءٌ منها موزعاً قبل ذلك ، وكان انهيارُ مصرَ ، كدولةٍ حرةٍ وماليةٍ ، نذيرٌ انقراضٍ على إفريقيا الشرقية ، وإذا عدوت الحبشة التي هي حصنٌ طبيعيٌّ وجدت القارة بأسرها مفتحة الأبواب لدول البيض ومُطمعة لها ، وليذهب إلى هناك ، وسيقبض من العرب والزنج سرياً .

ويحدث أمرٌ فظيعٌ لم تسمع بمثله أذنٌ ، يحدث قهْرُ ضباط من الإنكليز ، وقهرُ فرقٍ مصريةٍ ألقها هؤلاء الضباط ، مع ضربٍ أعناقٍ وإهانةٍ بعد الموت ، من قبلِ أخطائهم من الأعراب والفلاحين والنوبيين والزنج ، وتحاول إنكلترة ، على غير جدوى ، اجتباب مسؤوليةَ يَفْرِضُها ماتمٌ لها من سلطانٍ على مصرَ ، ومصرُ قد أُخْرِجت من النيل الأوسط والنيل الأعلى اللذين استقرت بهما مدة ستين سنةً ،

(١) كريسي : من أخطاب السياسة الإيطالية (١٨١٩ — ١٩٠١) .

(٢) هنرت : من ملوك إيطاليا ، وقد جلس على العرش سنة ١٨٧٨ (١٨٤٤ — ١٩٠٠) .

(٣) ليون الثالث عشر : أحد البابوات ، وقد اُتُخب باباً سنة ١٨٧٨ (١٨١٠ — ١٩٠٣) .

ولم يُصَبِّ الهمجُ أوربة النصرانية بِمثل ذلك الخِزْيِ منذ قرون ، ويُكرِّه سلاطينُ  
وُلِيَّتُنْ ، وأحدُهما تَمْسُوى\* والآخرُ إنكليزى\* ، وهما حاكمان لِمَنْطَقَتَيْنِ سودانيتين ،  
وهما باشوان بفضل الخديو ، على التسليم وعلى الركوع أمام المهديِّ للعبادة وعلى  
الارتداد عن دينهما وعلى الجهاد ضِدَّ النصارى الكِلاب ، والآن يَبْدُو هذان  
الرجلان ، اللذان هما من أبناء الطبقة الوسطى بِقِئَةِ ولندن ، الصديقين : عبد القادر وعبد الله ،  
والآن يسيران حافيين من جِهَى الجواد المَظَلَم<sup>(١)</sup> السَّرَج<sup>(٢)</sup> الذى يُحِبُّ المهديَّ  
به الطُرُقِ والشُّهُوبِ ، أفلم تكن هذه آيةٌ تُدْعَى بها الشعوب والقبائل المَلُوءةُ الأخرى  
إلى تحطيم الأغلال التى يُقَيِّدها السادة البيض بها ؟

ولم تُسَكِّرْ أوربة فى الانتقام مع ذلك ، قَمَدَدُ الأسارى من الأوربيين قليلٌ ،  
والأسارى من الأوربيين نَكِرَاتٌ ، والحوادثُ عن الأسارى الأوربيين غيرُ  
واضحةٍ ، ولو نَظَرْتُ إلى الأمر من وَجْهة المصريين ، الذين يدير شؤونهم بَارِنِغ  
( اللورد كرومر ) منذ عام ، لوجدتَ الصحراء بين كتابهم وبين الثائرين ، وماذا  
كان أمرُ أولئك الجنود الذين غُلِبُوا ؟ كان سلاحهم سيئاً سوء شوقهم وقوتهم  
الأدبية ، وكان أحرارُ الإنكليز يَرَوْنَ تضيق نِطاق الاستعمار فيؤيدون غلادستون  
الشائب الذى كان لا يبالى بإفريقية ، ويُفَرِّرُ تركُ السودان واستردادُ حامية  
الخرطوم ، وكان القيام بهذا العمل يستلزم وجودَ ضابطٍ عارفٍ بالبلد متصفٍ  
بنصيب من الحكمة يستطيع به أن يحارب متفهماً غيرَ ساعٍ إلى مجْدٍ ، ولا يُنْتَظَرُ  
إنكارُ القات هذ من صَيِّدِ الأسود يكر ، ويُبْحَثُ عن هو أُخْبِلُ منه ، ويُفْتَرُ  
على غوردون .

(١) الجواد المظلم : الجواد التام الحسن — (٢) أسرج القوس : شد عليه السرج .

ولكن غوردون ، كهتليت<sup>(١)</sup> ، لا يكون مجنوناً إلا إذا هبت الريح من الشمال والشمال الغربي ، وما كان يعرف ماذا يعمل في الساعة الحرجة ، وما كان يعرف هل يعمل بما يؤثر به ، وهو لذلك يصلح لحكومة متافرة ورأي عام متردد ، وما كان الجلاء عن السودان ليلوح في برنامج غوردون ، وغوردون كان قد صرح ذات حين بـ « أن السودان امرأة بانث عن بعلها المصري » ، فإذا أرادت أن تتزوجه ثانية فدعها تفعل ذلك ، ثم يمكن أن يكون لنا شأن معها هنالك .

وكان قد أسدل على غوردون ستار النسيان منذ عودته من الخرطوم ، أي منذ خمسة أعوام ، وغوردون قضى هذه اللدة في الصين والهند والكاك وجزيرة موريس ، وغوردون قضى من هذه اللدة علماً في الأرض المقدسة ( فلسطين ) إعلاء لقوته الأديية ، وغوردون زار بلد اسكتلند مرات كثيرة في أثناء ذلك ، وغوردون نال بذلك تجارب باطنية ، لا تجارب ظاهرية ، كما تشهد بذلك رسائله ، وغوردون أوشك أن يمود إلى إفريقية ليخدم الملك ليوبولد البلجي في الكونغو التي أبدى ستانلي نشاطاً غصاً في ارتيادها ، لا ليخدم إنكفزة .

ويدعى غوردون من بروكسل إلى لندن ، ويُقلى عن خطته في الذهاب إلى الكونغو ، ويتقبل وكالة الأمة في أثناء مقابلة ، ولم يكن غوردون من القائلين بالجلاء ، ومن قول غوردون : « يعني وجود الهدي في الخرطوم رجوعاً إلى المحبة وتهديداً لمصر » ، ويعين غوردون ، مع ذلك ، من قبل وزراء يرتابون منه ، ويدعين اللورد كرومر مع اعتقاده أن حاكم الخرطوم السابق ذلك لا يوافق على الجلاء

(١) هلت : أمير غوتلندة التي عرف أمره من أسطورة فرلي أنه عاش في القرن الخامس ، وقد بلغ غاية الجنون في الانكفام لأبيه غله هكسبر اسمه .

يعتمد على سيفه وعلى توراته

عنها ، وَيَبْدُو الرأى العام ، المسيطر على انكلترة ، بجانب غوردون ، وَيَطْلُ السائبُ غلادستون وحده في الظل ، وَيُجِيزُ الأمرَ بريقاً بعد إصرار ثلاثة وزراء على ذلك الأمر المهم ، وَتَكْلُ الأمةُ غوردونَ برغائبها كما لو كان ذاهباً لفتح بلير ، لا للجلاء عن قُطرٍ .

وماذا كانت حالُ الرجلِ النفسيةُ حيناً قَبْلَ تلكِ الرسالة ؟ هـي جَئِلُ البِيضِ والموظفين في الخرطوم آمنين ، واستردادُ الكتاب ، وتركُ شبهِ حكومةٍ في هذه المدينة ، وكونه آخرَ من يفادر السودان من البِيضِ ، والرجلُ جَبرَ بغيرِ ذلك قبل تعيينه بضيعة أيام ، والرجلُ يُجُوبُ الصحراءَ أعزلَ وحيداً لَيَبْلُغَ بلداً لا يكون له فيه سوى بضعِ كتابٍ مرابطةٍ في الخرطوم ، والرجلُ إذا ما جاوزَ الشلالاتِ أمكن العدو أن يَحيطَ به في تلكِ المدينة وأن يقطعَ صلاته بالشمالِ والعالمِ التمدن ، والرجلُ ، قد أبصرَ ذلكَ عندما كان ضابطاً لا ريبَ ، والرجلُ ، سياسياً ، كان يَعْرِفُ البلدةَ ولا يَجهلُ قوَّةَ مُجمُورٍ خُرُصَ على التعصبِ ولا درجةَ بُفْضِهِ للنصارى ولكلِّ مُرْسَلٍ من مصر .

ولكن غوردونَ صليبيٌّ يعتمد على سيفه وعلى توراته ، ولكن غوردونَ فيلسوفٌ هيريتانيٌّ<sup>(١)</sup> يعتمد على ذكائه وعلى وجدانه ، أَجَلْ ، كان غوردونُ متساعماً إلى الغاية فكان يَرْضَى بأن يُعَيِّدَ الربُّ على مئة وَبَيَّةٍ ، غير أن المجد كان يَهْزُهُ في جميع حياته فَبَرْدُ دِجَاحِ رُوحِ المجد في نفسه لَمَّا ينطوى عليه المجد من دَنَسِ دنوبى ، وَيُذَارِى رُوحَ الواجب في نفسه ككثيرٍ من النصارى السابقين ، وكان في الخمسين من عُمره ، وكانت حياته حافلةً بالفاخر في أنحاء العالم ، وكان ذا سَنَدٍ

(١) البروتانية : شعبة من شبح البروتستان الإنكليز .

قليل في الوزارة فلا يتصرف في غير وسائل ناقصة ، وكان كرومر في القاهرة محدود الثقة به ، وكان غلادستن يتحزّز منه ، غير أن رئيس أركان الحرب والمهندس والحاكم العارف بالصحراء والنيل غوردون كان كسلافه ذا حنين إلى إفريقية وإلى عمله وإلى جنوده وزوجه وإلى المآثر ، وإلى الموت على ما يحتمل .

ولم يبقَ شيء مما شاده هو ويكر في الخرطوم بعد غياب خمس سنين ، وما أشدّ ما يجب أن يكون عليه من شجاعة لكيلا يُنفذ أمر الحكومة فلا يقوّض المُعسكر بأسرع ما يمكن ، وتستدل برقياته للطوّلة إلى الحكومة على قرارات مطوّلة ، ولكنك لا تجد فيها اختلافاً حول رأيه الأساسي القائل إنه لا ينبغي أن تبادر البلاد ولا الخرطوم ، وكيف يُحصل على الجلاء ستون ألف شخص وجندي وموظف وامرأة وغير وسائل النقل ؟ وهل يجوز ترك هؤلاء هناك بعد أن استقبلوه كالنبي إيليا الذي ذكر في التوراة ؟ ولا يمكن من الناحية العملية ، ولا الناحية الأدبية ، تنفيذ الأمر الصادر ، ويسير غوردون مثل ضابط إذن ، فيحصن الخرطوم ويقيم عمل قناة طولها خمسة كيلومترات كان سلفه قد أراد بها أن يصل النيل الأزرق بالنيل الأبيض فيقطع بها خرطوم النيل وينفذ جزيرة ، ويقيم الحصون في الجزر وينتفع بتغير<sup>(١)</sup> النهر ليُسّر الهجوم على هذه المدينة ، ويدرب كتابه ويشدّ عزائمها مخبراً إياها بورود جيش إغاثة ، لا يمتدّد ، هو نفسه ، حقيقة أمره .

ويمجي غوردون البوريثاني أمام غوردون الضابط ، كما كان كرومويل ، فلا يأمر بأن يحكم أمام قصره ما كان يستعمله الباشوات الذين حلّ محلهم من الأغلال والسياط ، ويُلبني حظّ اعتناء الرقيق قاصداً بذلك ترع سلاح ممالى

(١) شفير النهر : ناحية من أعلاه .

المهديّ ، ويريد جلب ملك العيد الزبير من القاهرة التي حُجِرَ فيها فيَجْمَلُ السلطة بذلك قَبْضَةَ السودانيّ القادر وحده على مقاومة المهديّ ، وهذه هي فكرة قُطْبٍ سياسيٍّ ، وهذه فكرة تُجْتَنَّبُ في لندن لِمَا كان من صُراخ جمعية مكلفة الرُّقَّ المؤلَّفة من سادّة لم يعيشوا بين وحوشٍ قَطُّ فكأنوا ينظرون إلى الأمر من الناحية الخُلقية بدلاً من أن يفكروا في الأمر مليّاً ، ومن الغرابة بمكان أن يطلُبَ ، على غير جَدْوَى ، مُحَرَّرُ السيد غوردون ملكَ السيد لإنقاذهِ ، شأنُ غُوستاف أدولف<sup>(١)</sup> الذي أساء إلى تسامح كنيسته الخاصة في أواخر عمره .

وماذا يُفَعَلُ ؟ أيذاع بلاغٌ يعود به البلدُ إلى ملوكه السابقين ؟ لقد فات الوقت ، أم يَزُورُ المهديّ لابساً درعاً مُذهَبَةً كما صنع لدى ملك العيد منذ بضع سنين ؟ يَوْضَعُ هذا التدبيرُ الأخرقُ في الميزان فيلوحُ جَمَلُ صاحبه عبداً ثالثاً يَمْدُو بجانب حصان المهديّ ، ويبدأ غوردون بِعَرْضِ سلطنة كُرْدُفَان على المهديّ ، وَيَعْرِفُ خطيبُ الشعب هذا كيف يقابل مثلَ هذه الأمور بِحَذَرٍ ، فيقول في رفضه هذا العَرْضَ إنه لا ينبغي للإنسان أن يعرض عليه السلطان ، وَيَذْكُرُ محمدُ المهديّ للاسكتلنديّ اليُورِثانيّ ماذا قال سليمانُ لملكه سبأ : « أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ ، فَمَا آتَانِي اللهُ خَيْرٌ مما آتاكم ، بل أنتم بهدِّيتكم تَفْرَحُونَ ، ارجِعِ إليهم فلنأتيهم بِجُنُودٍ لا قِيلَ لهم بها ، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وهم صاغرون » ، ويحاول المهديّ أن يستشهد أيضاً ببيسى الذي عُدَّ في القرآن نبياً عظيماً ، ويَصْرِّحُ غوردونُ للمطمئنِّ إلى توراتهِ بعدم صحة ذلك .

(١) غوستاف أدولف : هو ملك اسوج الداهية غوستاف الثاني الذي جلس على العرش سنة

١٦١١ (١٥٩٤-١٦٣٢) .



ويُضيف للمهدي إلى جوابه هدية منه مؤلفة من جبة درويشٍ ورداءٍ وسِرِّوَالٍ وِعِمامةٍ وطاقيّةٍ وجرّامٍ ومُبيحةٍ مع قوله : « هذه كسوةُ الزُّهادِ وأهل السعادة الكبرى الذين لا يبالون بما فات من الشّهيات طلباً لعالى الدرجات ... فإن أنبتَ إلى الله وطلبتَ ما عنده لا يَصُفُّ عليك أن تلبسَ ذلك وتوجه لدايم حَظِّكَ ... » ، وكان لدى هذا الزاهد الذى يكتب ذلك دائرة حريمٍ تحوى أكثر من مئة امرأة !

ويَتَبَسَّمُ غُورْدُونُ وَيُسْجِلُ فى يوميته قوله : « يلوح لى أن السلم يخاف الله كما نخافه ، والسلمُ ، عند إخلاصه ، نصرانيٌّ مثلاً ، وكلُّنا على شىء من الوثنية ! » ، هذه هى حالُ فيلسوفٍ متسامحٍ فى حياته الخاصة ، غير أن هذا الحاكم يُتْلُو كتابَ المهديِّ على من يَتَمَيَّ من وجوه الخروطوم فى اجتماعٍ رسمىٍ ويُطرحُ جِبةَ الزاهد المرسلَةِ إليه وَيَدُوسُها بِمِجْذاته العسكرية .

ويَتَأَهَّبُ كلُّ من المدونين بعد تلك المفاوضة ، وتُسْعَرُ قبائلُ شمال الخروطوم بأن غوردون يُهدِّدها من الجنوب وبأن الكتائب المُعلنَ عنها تُهدِّدها من الشمال فتتَحَارُّ إلى المهديِّ نهائياً ، وازجِجَ البَصَرُ إلى ذلك الإنكليزيِّ تَحِيَّه مع بعض الكتائب قد فُصِّلَ عن بقية العالم من قِبَلِ خمسين ألف درويش ، والبرقُ وحده هو الذى ظلَّ باقياً ، ويُوَعِّدُ بالمددِ برقيّاً فى نهاية الأمر ، وهل يَصِلُ إليه المددُ فى الوقت المناسب ؟ والحكومة المصرية عاجزةٌ ، والحكومة الإنكليزية حائرةٌ ، ومن المحتمل أن كان غلادِسْتُنْ يَضَعُنْ على ذلك الرجل الذى أدى تمرده إلى الحملة العسكرية الحاضرة كما يَضَعُنْ على زملائه لإرسالهم غوردونَ راجينَ ألاَّ يُنْفَذَ الأوامرُ الصادرة إليه ، وفيما كان غلادِسْتُنْ يُوَخِّرُ إرسالَ المددِ حلاً لنوردونَ على مفادرة الخروطوم

كان غوردونُ عازماً على البقاء فيها إبقاءً للسودان ومصرَ قبضةً إنكلترةً ، وتُشنُّ حملةً صحافيةً في أغسطس سنة ١٨٨٤ قُتِلَ عن فوز الوزراء القاتلين بالتدخل ، يَبْدُ أن الكتائب التي كانت تستطيع إيقاد الموقف في شهر مايو لم تذهب إلا بعد ثلاثة أشهر .

ويُبصر غوردونُ ما يُعدُّ من نكبة ، ويذكر الحقيقةَ سافرةً في برقياته إلى اللورد كرومر ، ويدع الحوادثُ نسيتهُ فيما بعد ، ويُقرّر بنفسه ما هو ضروريٌّ من الأمور ، وقد يسير نحو خطِّ الاستواء « وأدعُكم عُرْضةً لعاري لا يَمَحِي بتركِ حامية الخرطوم » ، ويقول في يومياته : « نحن قومُ أسوياء <sup>(١)</sup> » غير أن الدُّبْلَمِيَّينَ منا ما كرون عاطلون من الشرف للهوى .

ويَحْكُمُ العاقلُ في أمرِ المتعصبِ بإنصافٍ أعظمَ مما يَحْكُمُ به المتعصبُ في أمرِ العاقلِ ، فيزدرد <sup>(٢)</sup> اللورد كرومر الإهانةَ ويمتدح غوردونَ بعد حينٍ لخلوهِ من نفاقِ القومِ .

ويَتَّفِقُ النيلُ وغلادستن على عدم خَلَاصِ غوردون ، ومما حَدَثَ أن أرسل غوردونُ كتيبةً نحو دُفْلة وأن كُسرَتِ الباهرة الحاملةُ لها في شلالٍ وأن دَبَح الدراويشُ غرقاها ، ويَحِلُّ فصلُ الخريف فيتنازع النُّبى الأسودُ والمُؤْمِنُ الأبيض ، ويزيد ما يَجْمَعُه الخليفةُ حَوْلَ الخرطوم مقداراً فقديراً ، ويحاول الحاكمُ أن يُحوِّل هذه المدينة إلى حصنٍ فيَحْتَرِ خنادقٍ وَيَسْطُرُ فوقها حَيْشاً <sup>(٣)</sup> ، وَيُصْنَعُ خَبَزٌ من الجُبَّار <sup>(٤)</sup> والصَّغْ وتوزَّعَ الجَرَائِزُ بين الأهالي ، وتُضْرَبُ النقود ، وَيَشْدُ

(١) الأسوياء : جمع البوى ، وهو المستوى الخلق الذى لا عب فيه ولا حياء — (٢) ازدرد اللقمة : بلها وأسرع — (٣) الحيش : نسيج خشن من الكتان — (٤) الجبار : شعير النخل .

### حق النيل يخيس

غوردون عزائمُ ألوف الأدميين الذين صاروا يُبصرون تضيقَ نِطاق الحِصار ويَرَوْنَ ما يَحْيِقُ بهم من الدمار إذا ما وصلَ الإنكليز متأخرين .

ويقيم المهدى بضفة النيل الأبيض الأخرى في أمْ دُرمان التي استولى عليها في ديسمبر ، فإذا خَرَجَ من دائرة حَرِيْمِهِ ، التي أخذَ يُطِيلُ المُكثَ بها ، وصعدَ في سطح بيته العربيّ الأبيض أمكنه أن يُبصر وراء النيلين سطحَ القصر القوطيّ الذي يسكنه عدُوُّه ، وهو إذا ما استعملَ للنظّار استطاع أن يَتَبَيَّنَ شَبَحَ غوردون لقضائه ساعاتٍ على سطح قَصْرِهِ الذي هو أعلى نقطةٍ في الخرطوم ، وإن شئتَ قُلْ استطاع أن يُعرِفَ تَرِيستان<sup>(١)</sup> الجديدَ متربِّحاً سَقيّةَ الخلاص من الشمال ، ومن المحتمل أن كان غيرَ مُنتظِرٍ شيئاً ، ومن المحتمل أن كانت توابه نبوءة الشهداء الذين لا يكادون يرغبون في الإقذاف ، ويُقطعُ خطُّ البرق ويُمتنع من كلِّ اتصالٍ بالعالم وينقاد لتردده النفسُ ويُنشئُ يوميته ، ويَرْمُمُ فيها صُوراً هزليّةً للورد كرومر وللوزراء ، ويُعْجَبُ بمهارة خصبه مع خُلُوفٍ من التَرَضِ أفلاطونيّ كثيرٍ على قائده ومع محافظته على نشاطه مفكراً في حال جميع مَنْ وَثَقُوا به .

حق النيل يخيس<sup>(٢)</sup> بالمهدى في نهاية الأمر ، فقد هَبَطَ مستواه أكثر مما في فصول الشتاء الماضية ، وبنهار ما بناه غوردون من متاريس<sup>(٣)</sup> وأسوارٍ ، ويُسَكِّنُ مَنْقَعٌ واسع بينها وبين النهر ، فلا يكون للمحصورين وقايةٌ به إلا عند عدم جَنَافِهِ ، وتَزِيدُ المجاعةُ وتكتظُّ الشوارعُ بِجُثثِ الناس والجِمالِ ، وتحومُ العِقبان فوق الخرطوم ولا يَصِلُ إليها صغيرُ باخرة ، ويريد غوردون أن يُرى المحصورين أن قائدهم

(١) تَرِيستان : رجل أسطوري في القرون الوسطى .

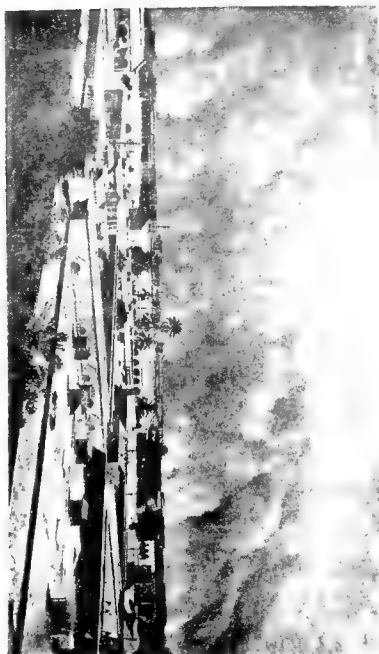
(٢) خاس بالمهدى : نكت وغدر ، وخاس بالوعد : أخلف .

(٣) المتاريس : جمع المتريس ، وهو ما يستتر به من العدو كالحائط .

لا يخاف قتال المهدي فِينِيَرُ نوافذ قصره ، وتبيضُ جميعُ خُصَلُ غوردون الشُّعْرَ في الأسابيع الأخيرة من حياته ويكتب قبل خاتمة بأسبوعين إلى أخته قوله : « قد يكون هذا آخرَ كُتْبِي إِلَيْكَ ، فقد عَوَّقَ اللَّذْدُ كَثِيرًا ، واللهُ هو السَّيَرُ ، وَلَيْسَكُنْ مَا يُرِيدُ ، أَجِدُنِي سَمِيدًا تَمَامًا . . . وأُحَدِّثُ اللهَ على أنني لم أَدْخِرْ وَسْمًا في القيام بالواجب . »

ويَدْفُو الجيشُ الصغيرُ الآتي من الشمال سِيَّ الحِطَّ على النهر ، ويَتَرَدَّدُ عِدَّةَ أيام ، ويُطْلِقُ الدراويش ، العارِفون بدوافع النهر والتُّوَارُون في الأُشْكَه ، نَارًا على البواخر فيُكْرِهون مَلَاحِيها على الوقوف في كلِّ ساعة ، وَيَتَّخِذُ هؤلاءُ المَلَّاحونُ خَشَبَ النواعير وقودًا لِقُدُورِ بواخرهم ، ثم يسير ذلك الجيشُ إلى الخرطوم من عُقْدَةِ النهر في الجَنُوب قاطعًا الصحراء ، ويُبْصِرُ الخليفةُ سَيْرَ ذلك الجيش بضعةَ أيام فيأمرُ بالهجوم على المَصْرِ المحصور منذ ثلاثين يوم ، ويرى غوردون في الصباح ، ومن سطح قصره ، زَحَفَ جيشِ الدراويش نحو الخرطوم .

وكان غوردون قد قرَّرَ قَتْلَ نفسه في مثل تلك الحال ، وتَحَوَّلُ وسواسُهُ الدينيةُ دون ذلك ، ويَوَدُّ أن يموتَ شهيدًا ، وَيَنْدُو هادئًا هدوءًا تامًّا ، وَيَذْكُرُ مَوَاقِمَهُ وَيَلْبَسُ بِذِلَّةِ الرِّسْمَةِ البيضاء ، ويتقلد سيفه ومُسَدَّسه وَيَنْزِلُ من الدرج حين اقتحام العدو بابَ قصره ، وَيَتَرَدَّدُ جمعُ الدراويش بضِعَ ثَوَانٍ عن خَوْفِهِ ، ثم يَصْرُخُ أَحَدُهُم قائلًا : « اقتلوا عدوَّ الله ! » ، وَيُرْمِي بَرْمَجَ ، وَيَنْظُرُ إلى ذلك شَرْرًا ، ويذكرُ شهودَ دُعَا إلى مجلس القضاء فيما بعد أنه شَقَّ لنفسه طريقًا قابضًا على سيفه متوجهًا إلى الباب حيث خَرَّ صَريعًا بطعناتِ سيوفٍ وخناجرٍ ، ويُوَثِّي



١٨ — زوية رمل فوق الخرطوم



برأسه إلى المهدي<sup>٢٢</sup> ثم يوضع على رأس مِرْزاقٍ أمام منزله ويُرْجَم ، وكان هذا فاتحةً مذهبةً عظيمةً في الخرطوم .

وفي الغد يُعْبَرُ المهديُّ النيلين على باخرة غوردون ، ويذهب لمشاهدة جُثَّةِ عَدُوِّهِ المقتولِ الرأس ، وتطرح الطُّرُقُ بِجُثَّتِ آخِرِ البيض والمصريين ، وتُصَدَّبُ النساءُ سَحْلًا لمن على إظهار مخابي قودهن ، ويُرْفَسُ السيد على سادتهم المُخْتَصَرِينَ ، وتُرْسُ السُكَّاب مع أصحابها بالكحول وتُحْرَق ، ويقوم بضروب القبايعُ بجهورٍ هَذا<sup>(١)</sup> سَير<sup>(٢)</sup> ينتقم لنفسه من استبعاد نصف قرن ، ويكون المهديُّ أولَ مَنْ يَخْتَارُ مَنْ يَرْوُهُ من البنات والبنين الأسارى ، ثم يأتي دورُ الخليفة ، ويأمر الخليفةُ بِحَمَلِ مِغْطَسِ غوردون ومراثيه إلى بيته في ضِفَةِ النيل الأخرى بِأَمِّ دُرْمان ، وتُحوَّلُ الخرطوم إلى رماد .

ويمضي يومان على سقوط الخرطوم ، فتأتي كتابُ اسكتلندية حاملةُ شِعارِ عشيرة غوردون ، وتبلغُ جزيرة تُونِي ، فتُسْتَقْبَلُ بِرصاص البنادق ، وتُكْرَهُ على العدوِّ وتصاب بالخنبة في الساقط ، ويَهْلِكُ مُعْظَمُهَا ، ويأتي من نَجَوْا بِنْدَ ذَلِكَ إلى المُسَكَّرِ في مجرى النهر التحتاني ، وَيَبْدُونُ صُفْرَ الوجوه كالرسول في خِتامِ مَأساة يونانية .

ويَسْنُ المهديُّ وَيَرِمُ<sup>(٣)</sup> في السنوات الأخيرة فلا يمشي غيرَ أربعة أشهر بعد النصر ، وكان منزل هذا الزاهد محاطًا بسلسلة من بيوت النساء حيث يكثرُ الذهب والتأثيرات ، وكانت تُجْمَعُ له أكياس عظيمة احتياطية من الثروة كما لو كان يَحْتَشِي القسطنطين ، وكنتَ تَرَى بجانب ذلك كَوْنَهُ عَجِيبَةً من الأدوات الأوربية ، أى كُدْسًا

(١) الهذاء : السكير المذبان — (٢) السر : المجنون — (٣) يرم : يتفخ .

لا عيب فيه ولا يرهب الردى

من المصاييح والمكبات والطابع ومن فانوسٍ سحرى عُدَّ من أجهزة السحر لدى النصارى .

فُتِحَ السودان ، وماذا يَصْنَعُ المهديُّ به ؟ لقد أرسلَ رُسُلًا إلى البلدان الأجنبية طالبًا الإيمانَ به ، أَجَلٌ ، كانَ يَعْظُ الناسَ بنفسه في الحين بعد الحين كما في الماضى ، ولكنه تركَ الحكومةَ للخليفة فصار لا يُفَكِّرُ في غير الأكل والعناية بأمانة الحسناء التى ذُبِحَ زوجها وأبوها في الخرطوم تاركًا الدراويشَ وشبابَ الأنصار يتنازعون المناصبَ والأموالَ .

ويداوم المهديُّ في خارج منزله على لبسِ ثيابٍ من كَتَّان ، فإذا ما كان في بيته ارتدى ملابسَ من نسايجَ خميّةٍ ، وهو إذا ما استلقى على وسائدٍ من سُندُسٍ<sup>(١)</sup> وإِسْتَبْرَقٍ<sup>(٢)</sup> أراحه نساؤه القائمتُ وراءَه بريشِ النعام ، ومَسَدَنَهُ<sup>(٣)</sup> نساءُ أُخَرَ ، ويلبَسُ أقربُهنَّ وقوفًا منه ثيابًا أخَرَ من ثياب غيرهن ، ويُباعُ الماءُ الذى يَنْقَسِلُ به والترابُ الذى يَطْلُوهُ من المؤمنين ، ويَمْرَضُ ستة أيام ، ويموت مسمومًا من قِبَلِ أُمينةٍ أو ضحيةٍ رَمَنَهُ .

وكان غوردون مخلصًا بإسلامٍ شريفًا صَندِيدًا لا عَيْبَ فيه ولا يَرْهَبُ الرَدَى فخرًا صريعًا وحيدًا بطعناتٍ جَمَعَ من القَتْلَةِ ، وقد نَعَقَ الخطيبُ الشمعى عن كَتِّابٍ مُتَوَرِّمًا متفَنِّحًا محاطًا بنساءٍ وأكياسٍ من ذَهَبٍ ، فظلَّ أحدهما مَلْمُومًا وتَوَجَّحَ الآخَرُ بِأَكْلِيلٍ أسطورى .

(١) السندس : رفيق الديباچ ورفيقه ، والديباچ ما كان سداه ولمحته حريرا .

(٢) الإِسْتَبْرَق : الديباچ الثخين النسيج — (٣) مسد : أمر يده عليه شديداً ، والكلمة عابية ولا هم كلمة \* دلوكه \* مقابها .



كان النيلُ قبضةَ قبائلٍ من الهمجِ وَدَّتْ لو تَسُدُّه ، وماذا يكون مصيرُ مصرَ لو وَقَعَ ذلك ؟ حتى إن النيلَ لو حاومَ على جريانه ، حتى إن غِرَيْنَ النيلِ الأزرقِ لو داومَ على إخصابِ الوادى ، ما حال ذلك ، ذاتَ يومٍ ، دونَ نزولِ تلكِ القبائلِ ، كأجدادِها منذ أَلْفَيَ سنةٍ أو ثلاثةِ آلافِ سنةٍ ، إلى مصرَ للاستيلاءِ عليها ومراقبةِ ساحلِ البحرِ الأحمرِ وقَطْعِ طريقِ الهندِ على السفُنِ البريطانيةِ ، وهل يَتَمَنَّى ذلكَ بعدُ الذى حَدَثَ ؟

وَيُفْهِرُ أوروبيةٌ مذعورةٌ كَوْنِ خِطْطِها فى تقسيمِ إفريقياِ أمراً يُمارى<sup>(١)</sup> فيه ، ويكونُ للمستعمرين من الإنكليزِ ، بعدُ الآنَ ، بَعْلٌ تَدْعُوهم ذِكرُاه إلى الجهادِ والانتقامِ ، وَيَفْذُو غوردونُ رَمَزَ السلطانِ السيامى<sup>٢</sup> الذى يَحْتَمِلُ أن يكونَ قد حَلَمَ به فى ساعاتِ انفرادهِ على سطحِ قصرهِ ، وإذا حَدَثَ أن أمةً لم تَقُمْ بالواجبِ نحوَ رجلٍ هَلَكَ فى سبيلِها فَاتِها عَمِلَتِ الشئُ الكثيرَ من أَجْلِ ذِكرِاه وفاءٍ لِمَا عليها تِجَاهَهُ ، وقد حَفَزَتِ هذهِ العواملُ كُلُّها إنكسارَها إلى كِفاسٍ لم تُحَرِّدْهُ بعدُ هلاكِ الكولونيلِ هيكس .

وَيُنْتَظَرُ ثلاثَ عشرةَ سنةً مع ذلكَ ، وبسيطرِ الخليفةِ على السودانِ فيما بين سنةِ ١٨٨٥ وسنةِ ١٨٩٨ أو يحاولُ قَرَضَ سُلْطانه عليه إِرهاباً ، ويبدأُ الخليفةُ بقتلِ جميعِ من يضايقه من أَقرباءِ المهدي<sup>٣</sup> ، ثم يَهْدِدُ مصرَ العليا فى الشمالِ والزُوجَ فى

(١) ملوى : جادل وتنازع .

### تدخل إنكلترة

الجنوب ودارفور في الغرب والحبشة في الشرق ، وينال نصراً أو يعاني كسراً في كل الجهات منلوبة ، وتنقص دول البيض المجاورة ، إنكلترة وفرنسة وبلجيكة ، بلاد السودان من أطرافها بلا قتال .

وتعفى إحدى عشرة سنة بعد موت غوردون فيكون الحادث من الأثر ما يدفع إنكلترة إلى اتخاذ قرار ، قد أسفر سحق الطلائنة من قبل النجاشي منليك في عدوى ، في شهر مايو سنة ١٨٩٦ ، عن حمل الأحرار على إدراكهم ضرورة تدخل بريطانيا العظمى أو جلائها عن مستعمراتها ، والحق أن الدولتين الكبيرتين ، إنكلترة وإيطالية ، غلبتا من قبل أناس ملوئين تابعين للبلدين بشرق إفريقيا متحاربين في ذلك الحين مع احتمال تحالفهما بين حين وحين ، ويجل وقت السير فتقرر لندن أن تدخل في السودان بعد معركة عدوى بأحد عشر يوماً .

وكان ذلك خلافاً ، وكان تقسيم إفريقيا قد تم تقريباً ، والأمة التي تحتل السودان تدعّم إمبراطوريتها الاستعمارية اقتصادياً وعسكرياً وتسيطر ، بوجه خاص ، على الطريق الصالحة لفرنسة من الغرب وإنكلترة من الجنوب ، ولم تقدم بريطانيا العظمى وسيلة للإطلاع مصر على ما يساورها بعد احتلالها فاصدة البقاء فيها لا ريب ، وأمكن بريطانيا العظمى أن تستند لبوغ ذلك إلى ثلاث ظواهر متساوية بطولية وهي : أن تنفذ ذلك القطر من القوضى وأن تحمي مصر وأن تنتم لغوردون مع منها توسع فرنسا أو ألمانيا من الغرب والجنوب ، وكان من الرأي السائد منذ بضع سنين أن يترك في فطنة الإنكليز ، وأن يمتدح خطهم أو المصادفات التي ساعدتهم ، وأما في الحال الراهنة فيجب أن يعترف لهم باتساع الدارك في سياستهم .

والنيل مصدر الحياة لمصر ، والنيل يقطع السودان ، حتى في الوقت الحاضر

### خط حديدي يقطع الصحراء

يقول إنكليزي من أنحاب للناصب المالية إنه لا يحق لإنكلترة أن تجرّ إلى مصر خطر استيلاء أمة ثالثة على النيل الأعلى فيكشف الثّاقب بذلك عن رغبة دولة في الضم لا تزال ترؤم النصر في الحروب الاستعمارية ، وهكذا يذهب البريطاني إلى الحرب ليُنْفِذَ مصرَ ويقترنَ بها ويتمتعَ بملها وجمالها لكثير من أبطال الأساطير. وتنتفع إنكلترة بتجارها السابقة ، وتقتضي هذه الحملة رجالاً ومالاً أقل مما اقتضته الحملة الأولى ، وتُكَلَّفُ بالنصر ، وتُقدَّمُ مصرُ المالَ والرجالَ لما رُغم من خطرٍ على سلامتها ، ولم يُنفق الإنكليز غيرَ ١٥٣٠٠٠٠٠ جنيه ، أي أقل مما بذروه في مقاتلة الهدي بشر مرات .

أجل ، يبدو الانتصار أرخص من الانكسار على العموم ، غير أن الآلهة جعلت الفرق وجهاد اليوم أمام تاج النصر ، والصحراء بلا ماء تقريباً هي التي تمتد من حدود مصر إلى الخرطوم ، أي بين الدرجة الثانية والشرين والدرجة السادسة عشرة من العرض الشمالي ، وإذا اعتُيد على النيل ودوافه وانطافه كان الهلاك كما وقع لهيكس وغوردون ، والنيل هدف الحملة ، والنيل أداة الفتح أيضاً ، والنيل لا يصلح طريقاً للسير إلى الأمام ، ولا بدّ من خطٍ حديدي يقطع الصحراء ، ولا جبال ولا نهر هناك ، ولا احتياج إلى صنّع أنفاق أو إنشاء جسور كثيرة لذلك ، وهذا إلى أن الخط الحديدي دليل نشاط أكثر من أن يكون آية فن ، فيديره ضباط ، والجو ، لا الأرض ، هو العدو الذي يجب أن يُفهم ، ويدخل هذا ضمن إرادة الجنود الذين قرؤوا بذلك العمل .

وكان محمّد القائد في الصحراء يناهز الأربعين ، وكان رصين الوجه ، وكان أهيف طويلاً كثير الشعر أحمَر بفعل الشمس صحيح البنية مرناً إلى الغاية عند

ركوبه حصاناً على الخصوص ، وما كان حوله مزججاً إذا ما علم أنه نتيجة قَلَجٍ في العَصَلِ الأعلى لعينه اليسرى ، وما كان من وَضْعِهِ القاتر ونفوره من الناس وصمته المتَجَبَّرُ فلا يَجْمَلُهُ محلّ عطفٍ ، وما كان من طِرَازِ مصابخته فيُوحِي بأنه رجل لا يُوَدُّ أن يَقَعَ من الناس مَوْقِعَ الرِّضَا ، وإنما يريد أن يُؤَثِّرَ فيهم .

وقضى شبابه منزوياً ، ورُبِّي في منزله تربية خاصة غير مستعين بمدرسة ولا نادٍ ، وما كان من اجتماع هذا الضابط القتي بزملائه ، ولو قليلاً ، قد ألهب طموحه ، وكان نفوره ينطوي على إخلاصٍ مُطلقٍ لِمَهنته وعلى شعورٍ بالواجب كما عند الموظف البروسي ، وسواءً عليه أَوْضَعُ خرائطٍ في قبرس أم وَضَعَ رسومَ جُيُوشٍ في فلسطين لم يَمِشْ غيرَ وحيدٍ عاداً أقلّ لَوْمٍ لإهانةٍ شاكياً رؤسائه إلى لندن في الحال ، وكان لا يُوَحِي بسلفٍ إلى الرجال ولا إلى النساء ، وكان يُفَضِّلُ أن يُخَافَ على أن يُحِبَّ ، وقليلٌ من الأصدقاء مَنْ كان يدافع عنه ، فإذا فعلوا ذلك فبحاسةٍ وهوى ، وهو قد جُرَّبَ جندياً وفارساً في إفريقية ، وفي غير معركةٍ ، فَخَسِرَ ذَقْنَهُ على سواحل البحر الأحمر تقريباً ، وَيَمْضِي زمنٌ وينال هذا المستبدُّ مناصبَ عاليةٍ ويُعَابَ على غِلْظَتِهِ فيصنع في أثناء خِدْمِهِ ما يؤيدها فيشتدُّ غطرسةً ويرتاح إلى زيادة خصومه ، وكان لا يُضْئِي إلى أحدٍ ، وكان لا يَمَانِي فَوْذَ أحدٍ ولا يُنْقِذُ غيرَ ما عزم عليه فينتهي إلى نتائجٍ رائقةٍ .

ذلك هو الرجل الذي أنشأ الخطَّ الحديديَّ من خلال الصحراء وهَرَمَ الدراويشَ وفتح السودان في سبيل بلاده ، وكان كَثَشْتَرُ قد شاهد ضَرْبَ الإسكندرية بالقنابل في أثناء إجازةٍ ، وصار كَثَشْتَرُ رئيساً لأركان حرب الجيش المصري الجديد ، وصنَّع كَثَشْتَرُ ما استطاع ليُنظِمَ حَمَلَةً تُنْقِذُ غوردون ، ولو حُكِمَ في أمر كَثَشْتَرِ بعد النظر

إلى ما حَقَّقَ لَوُجِدَ أَنَّهُ الْوَحِيدُ الَّذِي كَانَ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ ، وَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنْ لَازِمَهُ هَذَا الرَّأْيُ حِينَ كَانَ رَاكِبًا ظَهَرَ الْجَلُّ مُنْفَرِدًا مُتَبِعًا إِتِشَاءَ الْخَطِّ الْحَدِيدِيِّ مُفَكِّرًا فِي صُرُوفِ الْقَدَرِ الَّذِي اخْتَارَهُ لِثَأَرِ ذَلِكَ الَّذِي لَمْ يُوقِّقْ لِإِتْقَانِهِ .

وَأَفْكَارُ مِنْ ذَلِكَ الطَّرَازِ مِمَّا كَانَ يُسَيِّرُهُ فِي الْغَالِبِ ، لِأَنَّهُ كُنْشَرُ كَانَ جَبَرِيًّا ، وَمِمَّا أَدَّتْ إِلَيْهِ إِقَامَتُهُ بِالْشَرْقِ وَصِلَاتُهُ بِالْمُسْلِمِينَ أَنْ تَمَكَّنَ مِنْ هَذَا الْاِحْتِقَادِ بِالْقَدَرِ الَّذِي يَلِثُ طُيُوحَهُ ، وَمِنْ الْعَرَبِ ، الَّذِينَ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِلُغَتِهِمْ عَلَى قَدَرِ الْإِمْكَانِ ، اقْتَبَسَ مَا يَنْبَسِيهِ ، اقْتَبَسَ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ وَرَفَضَ كُلَّ نِقَاشٍ مَعَ رَجَالِهِ وَتَذَوَّقَ الْفَنِّ الشَّرْقِيِّ ، وَكَانَ جَامِعًا لِلْآثَارِ فَيَأْتِي مِنَ الْأَسْوَاقِ إِلَى قَصْرِهِ جَالِبًا لَهَا مُحْتَزًّا ، وَبَعْدُ هَذَا التَّلَذُّدِ ، وَتَعَدُّ الْحَدِيدِيَّةُ الرِّوَايَةُ الْحَسَنَةُ التَّنْسِيقُ فِي جَزِيرَةِ نِيلِيَّةٍ أَمَامَ أَسْوَانَ ، مَظْهَرٌ هُوَ الْوَحِيدَيْنِ الَّذِينَ يُبَيِّحُهُمَا مَا يَحْتَرِقُ فِي قَلْبِهِ مِنْ طُيُوحٍ ، وَكَانَ يُؤَوِّقُ إِلَيْهِ بِالْبَرِيدِ فَيَطْرُحُ كُلَّ شَيْءٍ جَانِبًا وَيَقْرَأُ تَقْرِيرَ بَسْتَانِيَّةٍ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ ، وَكَانَ يُفَضِّلُ أَنْ يَنْتَهِيَ تَحْتَ عُرْشِ الْوَرْدِ عَلَى أَنْ يَكُونَ وَحْدَهُ عَلَى الدَّوَامِ .

وَفِي سَنَةِ ١٩١٦ قَتَلَ كُنْشَرُ بَلْفَمِ الْمَانِي حِينَ كَانَ ذَاهِبًا إِلَى رُوسِيَّةٍ لِيُصَوِّنَ الْاِتِّتْلَافَ مِنَ التَّصَدُّعِ .

وَفِيهَا كَانَتْ الْخَطُوطُ الْحَدِيدِيَّةُ تُنَمِّدُ فِي الصَّحْرَاءِ كَانَ الْخَبْرَاءُ فِي لَنْدَنِ يُصَرِّحُونَ بِأَنْ مَشْرُوعَهَا خَالَفَ لِلصَّوَابِ ، وَفِيهَا كَانَ كُنْشَرُ يَرْسُمُ خُطَّتَهُ مَعَ ضَابِطٍ فِي خِيَمَتِهِ بِالْقَرْبِ مِنْ وَادِي حَلْتَا كَانَتْ الْكِتَابُ الْمَصْرِيَّةُ ، وَالْكِتَابُ السُّودَانِيَّةُ عَلَى الْخُصُوصِ ، تُدَرِّبُ تَدْرِيبًا نَظَامِيًّا ، وَكَانَ يَقْرِفُ سَهُولَةَ انْخِلَالِ عَزِيمَةِ الشَّرْقِ عِنْدَ أَقْلٍ جَبُوطٍ ، وَكَانَ يَعْلَمُ دَرَجَةَ ضَرُورَةِ الْمَدْوَةِ وَالْمَنَادِ وَقُوَّةَ الْمَقَاوِمَةِ لِلْقِيَامِ بِذَلِكَ الْعَمَلِ ، وَكَانَتْ كِتْمِيَّةُ الْخَطُوطِ الْحَدِيدِيَّةِ مُؤَلَّفَةً مِنْ ثَمَانِيَةِ رَجُلٍ ، أَيْ مِنْ أَخْلَاطِ

الى أبي حد

جميع شعوب شمال إفريقيا الشرق ، أى من القلاحين وأشرى البراوش والدنكا والشك ، وكان لا بدّ من تعليمهم وضَع الموارض وربط الخطوط وتسييرها ، وفيها كانت الكيلومترات الأولى من الخطوط الحديدية تُوغَل مستقيمةً في الصحراء كان فتیان من الزوج يجلسون تحت النخل ويتمنون الأجدية المورسية<sup>(١)</sup> ويتخصصون في أمور البرق .

ويبدو الخط الحديدى غير موفى إلى شيء في البداية ، ثم يتجلى ككل أمر يتحق وفق خطة أحسن حسابها ، ومعد الخطوط الأولى فينقل عليها قوت ثلاثة آلاف رجل ، ومقدار متزايد من القضبان الحديدية والموارض ، ومن الماء على الخصوص ، ويُفتقر إلى الوقت والنقد ، ويجب أن يتم العمل قبل الشتاء ، ولم يوجد ما فيه الوقاية من هجوم يشنه أعراب الخليفة فيبيدون به هذه العصابة المعادية التى ليس لديها من الماء ما يكفي لأكثر من شرب ثلاثة أيام ، وبما حدث ذات مرة أنهم قوضوا الخط للتهى عند الشلال الثالث والذى أنشأه إسماعيل باشا سنة ١٨٨٤ .

ويوجه كشنر مفرزة من وادى حلفا إلى مجرى النيل القوقانى حفظاً لذلك الجزء من النهر على حين يُنفذ في السبر إلى أبى حمد بأقصى منعطف النهر في الجنوب الشرقى ، ومسافة ذلك خمسة كيلومتر ، وذلك الجزء هو أصعب ما فى الخط وأقصره ، ويتقدم عمال الصحراء أولئك من بين الرمال والجنادل ، خالين من خراط ومن خطوط برق ومن لاسلكى ، غير مهتدين بسوى البوصلة والفرجار والنجوم ، ويتساءل عمال الصحراء أولئك ، دوماً ، عن إمكان ملاقاتهم العدو أمامهم ،

(١) نسبة إلى الرسام والعالم الفيزيوى الأمريكى مورس الذى ولد سنة ١٧٩١ ومات سنة ١٨٧٢ .



١٩ - سفير من خلال السيف





وَيَنْبَغُ لِلْمُهَنْدِسِينَ فِي كُلِّ عَشْرَةِ كِيلُومِتْرَاتٍ إِلَى الْأَمَامِ أَلْفٌ وَخَمْسُمِئَةُ شَخْصٍ يُمَهِّدُونَ الْأَرْضَ وَأَلْفٌ شَخْصٌ آخَرُ يَضُمُونَ الْخُطُوطَ الْحَدِيدِيَّةَ ، وَفِي كُلِّ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ تَتَقَدَّمُ طَلِيعَةُ فَنِيَّةٍ عَسْكَرِيَّةٍ عَشْرَةَ كِيلُومِتْرَاتٍ مَعَ مَا يَجْلِبُهُ الْقِطَارُ الْأَوَّلُ مِنْ لَحْمٍ لِيُغْرِزُوا بُولَ وَمَاءَ وَادِي حَلَقًا ، وَذَلِكَ كَأَنَّمَا عَطُوفٌ تَأْتِي أَوْلَادَهَا بِفَدَاءٍ فِي أَثْنَاءِ نَزْهَةٍ ، وَيَمُدُّ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ نَحْوَ خَمْسِ كِيلُومِتْرَاتٍ مِنَ الْخُطُوطِ الْحَدِيدِيَّةِ .

وَبَرَقَبُ جَوَاسِيسِ الدَّرَاوِشِ مَا يَقَعُ ، وَيُخْبِرُونَ الْخُرُطُومَ أَنَّ التَّنِينَ الْقَوْلَازِيَّ النَّافِثَ لِلْهَبِّ يَقْتَرِبُ مَقْدَارًا فَقْدَارًا ، وَالْآنَ يَدْعُوهُ الدَّرَاوِشُ بِالْبَاخِرَةِ عَلَى الدَّوَالِيبِ ، وَهَلْ يُخَرِّبُونَهُ مِنْ جِهَةِ النَّيْلِ ؟ وَتَتَوَرَّعُ صَافَةُ لِسَاعِدَتِهِمْ فَتُدْرَعُ عَشْرِينَ كِيلُومِتْرًا مِنَ الْخُطُوطِ الْحَدِيدِيَّةِ فِي نِصْفِ سَاعَةٍ ، وَيَتَقَدَّمُ الرِّجَالُ الْبَيْضُ مَعَ ذَلِكَ ، وَيَذُو الرِّجَالُ الْبَيْضُ أَنْسَاءً لَا يُقْبَلُونَ مَعَ ذَلِكَ ، فَتَمَنَّ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى السَّفَنِ فَيَجَاوِزُ الشَّلَالَاتِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ فَوْقَ الْأَيْتَنِ<sup>(١)</sup> فَيَجُوبُ الصَّحْرَاءَ وَيَسْبِقُ الْخُطَّ الْحَدِيدِيَّ ، وَمَاذَا يَحْدُثُ لَوْ هَزَمَتْ كِتَابَةُ الْخُلَيْفَةِ فِي أَبِي حُدِّ تِلْكَ الْكِتَابَةِ الْمُؤَلَّيَّةَ وَجْهَهَا قِبَلَ النَّيْلِ الْأَعْلَى ؟ وَمَاذَا يُصْبِحُ التَّنِينَ الْقَوْلَازِيُّ إِذْ ذَاكَ ؟ يَتَذَكَّرُ أَنَّ الْإِنْكَازِ يَسْتَوْلُونَ عَلَى أَبِي حُدِّ ، وَتَلْحَقُ بِهِمْ طُلُوعُ الصَّحْرَاءِ وَتُحْيِيهِمْ كَالْقَمَلَةِ الَّذِينَ يَسِيرُونَ مِنْ طَرَفٍ نَفَقَةٍ فَيَلْتَقُونَ فِي نَقْطَةٍ مَعِينَةٍ مُقَدَّمًا ، اللَّهُ أَكْبَرُ ! هَا هُوَ ذَا النَّيْلِ ، هَا هُوَ ذَا الْمَاءِ ، وَيُمْكِنُ بَعْدَ الْآنَ أَنْ يُخَفَّ إِلَى مُسَاعَدَةِ بُيَاةِ الْخُطَّ الْحَدِيدِيِّ وَإِعْدَادِ الْأَرْضِ فِي الْجَنُوبِ حَتَّى مَصَبِ الْقَطْرِ .

وَيَمُتَصِّى الْخُرَيْفُ وَالشَّتَاءُ ، وَيَكُونُ كَتَشْتَرُ فِي بَرْزَرٍ فِي شَهْرِ مَارَسَ ، وَيَمُدُّ سَاحِرًا لِمَا يُلْقِيهِ خُطُّهُ الْحَدِيدِيُّ مِنَ الرُّغْبِ أَكْثَرًا مِمَّا يُلْقِيهِ جُنُودُهُ ، وَيَنْطَوِي

(١) الْأَيْتَنِ : جَمْعُ النَّائَةِ .

## معركة أم درمان

سلطانُ التَّيْنِ القولاذِيُّ الحافلُ بالأسرار وحرَكَتهُ التي لا تُدرِكها الأُهمامُ على قَدَرٍ لا يُعْرِفُ الرَّحَةَ ، ويَحْمِلُ سودانيُّو بَرَزِيرَ مَرَضاهُم إلى القاطرة لِيَمْسُوها ، وبالأَمْس كان لَمَسُ نوبِ الخليفةِ يَكْفِي للشِّفاء . واليوم يتوجهون إلى التَّيْنِ الذي سَيُعْفِي الخليفة .

ويُدرِجُ نهرُ العظيرةِ غُرَيْنَ جبالِ الحَبَشَةِ ومياها ، يَدَّ أنه يجب أن يُنصَبَ الجِيشُ عليه بسرعة ، وتُتِمَّ الشركةُ الأمريكية ، وقد فُوضَ إليها أمرُ إنشائه ، في اثنين وأربعين يوماً ، ويَبْلُغُ طوله ٣٤٠ متر ، وتَمُرُّ عليه إنكَلترةُ لفتحِ ملقى النيلين ، وذلك بفضلِ ميكانيكَيْنِ <sup>(١)</sup> من الأمريكيين وعمالٍ من الإفريقيين .

وفي صباحِ اليومِ الثاني من شهرِ ديسمبر سنة ١٨٩٨ ينقضُ الجِيشُ المؤلفُ من ثمانية آلاف إنكليزيٍّ وثمانية عشر ألفَ مصريٍّ بأسلحتهم الحديثة على جيشِ الدراويش الضَّخْمِ في أمِّ دُرْمانِ الواقعةِ على الصِّفَةِ اليسرى من النيل الأبيض ، وكانت هذه آخرَ معركةٍ روائيةٍ في القِصَّةِ لِمَا تَحَلَّلَها من حِمَلاتِ فرسانٍ والتحامٍ بالسلاحِ الأبيض . واصطراعُ كُتَيْبِ القوزِ فيه للبسالةِ الشخصيةِ والبَطُولَةِ ، ولِمَشَاهِدِ تَذَكُّرنا بالوِاحِ المَعارِكِ ، وتُشابهُ تلكَ المَلْحَمَةُ مَعارِكَ فِرْدريك الأكبر التي وَقَعَتْ منذ مِئَةِ وخمسين سنةً أكثرَ من مُشابهَتها مَعارِكِ الحربِ العظمى التي اشتملتِ بِمدِّ ستِّ عشرةِ سنةٍ فوصفها تشرشل بقلمه الرَّافع .

وبذلك يكون قد انْتَقِمَ الجِندُ الرُّعْدونُ ، والأمرُ هو أن جميعَ الشعوبِ وجميعِ المَروءِ تُدْعَى في كلِّ زمنٍ إلى التَّكْفِيرِ ، وهذا التَّكْفِيرُ أَقلُّ نَتِيجَةِ لِنَصْرِ البِيضِ واستقرارِهِم بالسودانِ مما أَصاب الخليفةُ به البلادُ من خرابٍ وضيقٍ على الرغمِ من

Mécaniciens (١)

## يحرر زينا

وعوده الطمّانة ، وقد تمّ ميزان المهديّة في عشرين سنةً على مليونين من السودانيين بدلاً من ثمانية ملايين ، وما هي العلةُ في هلاك تلك الملايين الستة ؟ وهل حرّك الأملُ والزّهو نفوسهم ؟ وهل رَفَعَ الأملُ والزّهو قيمةَ حياتهم ؟ وهل كانت حياة أولئك الملايين الستة بالغة التّعصّر بالغة التوتر فترَعَزَها للثُلُ الأعلى الجديد منهم ؟ وهل الجُمهور رُبِحَ من تلك النزاعات ؟ وَشَقَّ مغامرٌ نفسه أكثر مما يَجِبُ مثنة مرة ، ويساعده بضعة آلافٍ ويساعدون بذلك أقتسم ، وَجَعَى الآخرون بضروبِ الخِيبَةِ وَيَقْدُونَ من الضحايا ، وما يتزعزع الخارجُ من تكفيرٍ فلا يفيد مَنْ أَصْلَهُم الطاغيةُ ، وذلك لأنهم لم ينفكوا يُضَرِّعون في المارك التي لا نفعَ منها لهم ، ولا لوطنهم .

ولم تكن البنادق السريعةُ الطلقاتِ ، ولا الدافعُ الحديثُ التي نُقِلَتْ على خطوط الصحراء الحديدية إلى قلب إفريقيا ، ولا النظامُ والشجاعةُ وتجربة القائد الإنكليزيّ ، وحدها عواملُ النصر ، وقد مضى خمسة عشرَ عاماً ، قد انطلقت نَارُ الإيمان الذي انتشر بين السودانيين كالحريق في الشهب ، وقد حاول في السنوات التي أتت فيما بعد مهديان صغيران أو ثلاثة مهديين صِغاراً أَنْ يُلْهِبُوا ذلك الإيمانَ مرةً ثانية فلم يُوقِّعُوا ، ومن سعادة من ظَلَمُوا أَنْ قُضِيَ على الطغيان كما في جميع الأحيان ، وانحاز كثيرٌ من القبائل إلى الإنكليز طَوْعاً وعن سرورٍ ، واختفى الخليفةُ علماً في البقاع النائية ، ثم يحاصره الإنكليزُ ، وينتظر المدوّ ، ويجلس على سَجَادَةٍ كبيرة محاطاً بمريديه مبصراً حُكْمَ القَدَرِ كسلّمٍ صالح ، ولا يقاوم ، ولا يطلب العفو ، ويُقتلُ رزينا بالرصاص هو وأتباعه بالقرب من تلك الجزيرة النيلية التي ظهر للمهدي منها .

وَيُحَرَّبُ كَثَشَرِ قَبْرِ الْمَهْدِيِّ ، وَيَأْمُرُ بِقَلْبِهِ رَأْسًا عَلَى عَقَبٍ ، لِكَيْ لَا يَصْبَحَ مَحَلٌّ  
حُجْرَةً ، وَتُحَرِّقُ عِظَامُهُ وَيُلْقَى رَمَادُهَا فِي النَّيْلِ وَيَقْبَرُ كَثَشَرُ وَجُودُهُ النَّيْلَ  
الْأَبْيَضَ وَالنَّيْلَ الْأَزْرَقَ بَعْدَ النَّصْرِ وَيَدْخُلُونَ الْخَرْطُومَ كَمَا صَنَعَ الْمَهْدِيُّ مِنْذُ  
خَمْسَةِ عَشَرَ عَامًا ، وَيَتَوَجَّهُونَ إِلَى أَنْقَاضِ الْقَصْرِ ، وَيُرْفَعُ عَلَمَانُ بَدَلًا مِنْ عِلْمِهِ  
وَاحِدٌ فَوْقَ الْكَتَائِبِ الَّتِي صُنِّتْ عَلَى شَكْلِ مَرْيَمَ ، يُرْفَعُ الْعِلْمُ الْإِنْكَلَبِيُّ وَالْعِلْمُ  
الْمَصْرِيُّ ، وَيُنَشِّدُ الشَّيْدَانِ الْوَطَنِيَّانِ ثَمَّ نَشِيدُ غُورْدُونِ الْفَضْلُ : « أَقِمِ مَعِيَ » ،  
وَيُرْوَى أَنَّ كَثَشَرَ الثَّابِتَ الْجَنَانِ لَمْ يَسْطِعْ أَنْ يَكْتُمَ وَجْدَهُ عِنْدَئِذٍ عَنْ حَنَانٍ .

## ١٢

بَيْنَمَا كَانَتْ دَوْلَةٌ مِنَ الْبَيْضِ تُمَثِّلُ دَوْرَ الْمُنْتَقِمِ قَسَتْ عَلَى بِلَادِ الشُّوَدِ كَانَتْ تَسِيرُ  
عَلَى الدَّرْبِ دَوْلَةٌ أُخْرَى مُنَافِسَةٌ لَهَا مُحَاوَلَةً الْوُصُولِ قَبْلَهَا ، وَتَبْدَأُ مُسَابَقَةً يَفْقُرُ  
عنها الْخِيَالُ .

وَلَمْ تَقْتَأُ فِرْنَسَا مِنْذُ عَشْرِينَ عَامًا تَسْعَى فِي إِقَامَةِ إِمْبَرَاطُورِيَّةٍ اسْتِمَارِيَّةٍ لِإَفْرِيقِيَّةٍ  
بِتَأْيِيدٍ مِنْ بَسَارِكِ الَّذِي كَانَ يَرِيدُ أَنْ يُنْصِبَهَا سَيِّدَانِ<sup>(١)</sup> ، وَتُصَادِمُ فِرْنَسَا مِرَازِمَ  
إِنْكَلْتَرَا عَلَى الْخُصُوصِ ، حَتَّى فِي مِصْرَ مَا انْفَكَّتْ فِرْنَسَا مِنْذُ عَهْدِ نَآبِلْيُونِ الْأَوَّلِ  
تَكُونُ ذَاتَ تَأْثِيرٍ عَظِيمٍ ، وَتَذْخَرُهَا إِنْكَلْتَرَا هُنَاكَ ، وَمَا زَادَ الرُّضْعُ تَوْتَرًا  
مَا كَانَ مِنْ الْقَضَايَا الْمُقَدَّةِ حَوْلَ تَوْظِيفِ الْأَمْوَالِ الْآتِيَةِ مِنَ الْقُرُوضِ ، وَلَا  
أَصْبَحَتِ السُّودَانُ أَرْضًا مُبَاحَةً ، عَلَى حَسَبِ تَعْبِيرِ رِجَالِ السِّيَاسَةِ ، وَدَوَّتْ فِرْنَسَا

(١) سَيِّدَانِ : مِنْ بِلَادِ فِرْنَسَا ، وَهِيَ الْمَكَانُ الَّذِي مَنِيَتْ فِيهِ فِرْنَسَا ، فِي سَنَةِ ١٨٧٠ ، بِهَزِيمَةٍ  
عَظِيمَةٍ أَصْفَرَتْ عَنْ أَسْرِ نَآبِلْيُونِ الثَّالِثِ عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ مُؤَلَّفٍ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ مُقَاتِلٍ .

### تحاول فرسة أن تنام

لو تكون لها نقطة ارتكاز على النيل ، فأرسلت من ممتلكاتها في الكونغو رُؤَوداً إلى أعلى بحر الغزال ، وتَصَرَّحَ لندن في سنة ١٨٩٥ بأن ذلك عملٌ غيرٌ وِدْقِيٍّ ، فلم تَسْطِعْ فرسة أن تنازع في الأمرِ لما كانت تعانيه من أزمةٍ حادة ، وتَقْرِضُ فرسة أن تُنْهِمَ في حلةٍ كَثَشَرِ في نهاية الأمرِ فَتَرُدُّ مَنَافِئَهَا عَرَضَهَا ، ومن كان من الفرنسيين يَعْلَمُ في انقسام العالمِ فَيُثَابِّ بِقَمَرٍ مما وقع مِن تَأَخُّرٍ ، وفي ذلك الحين تَلُوحُ لبعض الرجالِ خِطَّةٌ خيالية :

وَلْتَقَمْ بهجوم نحو النيل ! يسير الإنكليزُ من الشمال نحو النيل الأوسط ، ولْيَتَهِرِ الفرنسيون من الغرب نحو النيل الأعلى ، وكلما اقتربت فرسة من منبع النيل الحافل بالأسرار زادت قوةً ، وإذا ما صارت فرسة سيدة النيل الأبيض في الدرجة الثانية عشرة من العرض الشمالي أزهجت إنكلترة وحرمت مصر ، على ما يحتمل ، ما تحتاج إليه من الماء بما يُبْنَى من الأسداد ، وذلك لعدم كفاية ما يأتي به النيل الأزرق في الدرجة الخامسة عشرة من العرض الشمالي ، وهكذا تنطوى القبائل المتوحشة والمناقع المنيع والسهوب والصحارى والبحيرات على مُغْضِلةٍ عاليةٍ تحتاج إلى فصل .

وتحاول فرسة أن تنام ، ومع ذلك خَسِرَتْ فرسة السَّابِقَ قبل أن تسير ، وذلك لأن الغالب لا يكون أولَ من يَصِلُ وأولَ من يَرْفَعُ عِلْمَهُ ، وإنما الغالبُ هو من يَصِلُ في أحوال ملائمة مع رجالٍ كثيرٍ ويكون من القوة ما يستطيع به أن يَبْقَى ، وهل يَتَقَدَّرُ الفرنسيون على إنشاء خط حديديٍّ من الكونغو إلى النيل ؟ وإذا عَدَّوَتْ رائدين أو ثلاثة رُؤُودٍ لم تَجِدْ أحداً قد عَبَرَ حَوْضَ بحر الغزال . وما كانت تُعْرِفُ حتى القبائلُ التي يُسَارُ مِنْ بَيْنِهَا .

وضابط ، مع شِرْذِمَةٍ من الزنوج ، ومع عَطَلٍ من المدافع ، هوكلٌ ما أرسلته  
فرنسة من خلال القابة الخضره ومن بين أوحش البلاد بلوغ النيل ، وبلوغ أقرب  
مكان من منبع النيل ، بما يمكن من السرعة ، وفي تلك الأثناء تنطلق إنكلترة من  
قاعدة أمينة وتُنشئُ خطأً حديدياً لنقل جيشها وجيش مصرَ ضدَّ العدو ، ومن  
المحتمل أن كان هذا العدو سيدَ ما حَوَّلَ فاشودة في الجنوب الأقصى .

ومن كان الكولونيل مَرَشَان ؟ كان مَرَشَان كما وصفه وزيرُه « رَخْصاً <sup>(١)</sup> »  
كالمِفْعُول <sup>(٢)</sup> » وذا عيون كالتَّيْل ، وهو إذا ما تكلم نَطَقَ بإحكام ، ويبدو كلُّ شيء  
فيه ، من اتِّخَاصٍ <sup>(٣)</sup> قلمه إلى قَمْعِ رأسه ، مشحوناً بالكهرباء ، وكان في بدء أمره  
كاتباً عند وكيلٍ للدواوى ، فلم يَثْبُتْ ، فانتسب إلى قَيْلِقِ الشَّاةِ الاستثمارى  
بأفريقية ، وصار ضابطاً ، وكان في الثالثة والثلاثين من سِنِيهِ حيناً أراد أن يقفَى على  
القصة القائلة إن سوء الحظ يُبْلِمُ بفرنسة على النيل في كلِّ وقت ، ويضامِرُ بفزوه  
السريع ضدَّ إنكلترة مع ٢٣ من البيض و ٥٠٠ من السِّنْغَالِيين ، وذلك من غير أن  
يكون مؤيِّداً تأييداً تاماً من بلده الذى لم يُعِدَّ سوى « بِنْتِ ارْتِيَادِ » مُدَارِيّاً عند  
الحيوط نَزَقَ تَرْكِيَةِ التى عاد لا يُشْعَرُ بسلطانها في الدرجة العاشرة من العرض  
الشمالى <sup>(٤)</sup> ، ويَظْهَرُ مَرَشَانُ مثلَ فرسان القرون الوسطى حين قيامه بمغامرته ضارباً  
بصروف القدرِ عُرْضَ الحائط ، ولا يَحْتَجِبُ ، فقد حاول أن يَأْتِيَ بِمِثْلِ ما كان يَرِيَانُ  
ذُو بَرَا غَلِيْرٍ قد قام به على ضِفَافِ نهر السَّيْنِ منذ ألف سنة .

ويسير خليفةُ أبطالِ قِدماءِ الثُّورْمان ، مَرَشَانُ ، من لَوَاتِنُو متوجهاً إلى  
الشرق ويُوغِلُ في القابة اليَكْرِ من وادى الكُونْتُو ، ويصير لِرَأمَا عليه أن يقاتل

(١) الرخص : العين — (٢) المفعول : فصل طويل — (٣) أخس القدم : بالنها .

### يرفع العلم الثالث الألوان

الضواري وأن يقاتل أكلة لحوم البشر الذين كانوا يفترون صياديه وحاليه ، وكان يعرف أن الإنكليز يتسلحون ويُنشئون خطهم الحديدى ويقدمون فى النيل الأوسط ، ولكن أين كانوا ؟ وهل كانت الصحراء وعواصف الرمل تتخطف رجالهم كما كانت الأسود والوحوش تتخطف رجاله ؟ وهل كان جيش الدراويش يقيمهم فى الشمال بمون الله فيدع الطريق حرة للفرنسيين فى الجنوب ؟ جهل مرشان ذلك أساميع وأشهرأ ثم أتاه نبأ مشوه ، وكان يؤد أن يصل قبل أن يتففى الإنكليز على الدراويش ، وكان خوفه من السلم الأسمر الممجى والعدو للحضارة أقل من خوفه من الإنكليزى النصرانى الأبيض التمدن ، لستمع الإنكليزى بمصر ولما عند الإنكليزى من مدافع وفوز .

وتطول الطريق على القارس الفرنسى ، وتطول وتطول ، وتندو مياه بحر الزغال فى هذه السنة من الانخفاض ما يتأخر معه السير ستة أشهر ، ويلوح كل شئ إلى<sup>(١)</sup> على مرشان الحارب ، ومع ذلك يقدم مرشان غير قانط ، ومع ذلك يمشى مرشان وكنتيته التى تنقص مقداراً فقداراً ، وفى نهاية الأمر ، وفى يولييه سنة ١٨٩٨ يبلغ مرشان غاية أحلامه ، يبلغ النهر ، ويرفع باحتفال العلم الثالث الألوان فوق فاشودة التى هى ملتقى الطرق ، وسار مرشان ثلاث سنين ، فأين الناس الذى يحقق علمه فوق علمه ؟ لا شئ غير شاعلت نجسم فى إفريقية كل شئ ونفم<sup>(٢)</sup> عند كل شئ كالسراب ، وكان الفرنسيون ، الذين أضوا فى الدرجة الماشرة من العرض الشمالى ، يجهلون نيل الإنكليز أول نصير على الدراويش

(١) الإلب : القوم يجمعون على عداوة إنسان ومنه « قد أصبح الناس علينا إلباً » .

(٢) أغم : صار ذا غمام .

### وجود أبيض في فاشودة

يَبْزَرُ في الدرجة الثامنة عشرة من العرض الشمالى، وما كان الإنكليزُ يَلْمُونَ وجودَ أبيضٍ خصمٍ لهم وللشود على شاطئِ النهرِ نفسه وعلى بُعْدِ ألف كيلو متر من الجنوب .

وكان الدراويش من الضَّعْفِ في تلك البُقعة ما فَرَّوا منه أمامَ مَرَّشان الذى كان بلا عتادٍ تقريباً ، وُبْنِشَى مَرَّشان حصناً صغيراً على ضِفَةِ النهر ، وَيَقْدُ معاهدةَ حمايةٍ مع رئيسِ الشُّلُكْ وَيَزْرَعُ بعضُ الخَصَرِ ، غيرَ أنه كان يُعَوِّزُهُ ما يتوقف عليه كلُّ أمرٍ من مَدَدٍ وَعُدَدٍ واتصالٍ بوطنه فيحاول أن يكون ذا علاقةٍ بالكُونَتُو والحَبَشَةُ فلا يُوقِّقُ ، ويظلُّ وحيداً ، هو هنالك ، هو على النيلِ مع أواخرِ ضباطه البيضِ ومع بعضِ بنادقٍ ، وَيَقِفُ الريحُ في أشهرِ الصيفِ فيبدو التَّمُّ مُطْلَقاً بموَدِهِ في حالٍ يُرَى لها .

وَيَدُومُ مَدُّ الخطِّ الحديديِّ الإنكليزى في تلك الأثناء بلا هَوَادَةٍ ، وَيَدْحَرُ العدوُّ أمامه حتى فاشودة على ما يحتمل ، ولم يَعرِفْ أحدٌ ما ذا كان يَقَعُ في ذلك البلد الذى هو طُغْمَةُ القوضى ، والنيلُ وحده هو القادرُ على وَصْلِ مَرَّشان بِكِيشَنر ، وما زال السُّلُوكُ يَفْصِلُون بين المتنافسين ، وما كان الإنكليزى يَخْشَى شيئاً ، وما كان الإنكليزى يَخْشَى سَيَر ٢٣ فرنسياً و ٥٠٠ سِنْغَالِي ، منذ ثلاثِ سنين ، ولوطَلُوا كلُّهم أحياء ، ولوحَلُوا بِضِفَةِ النيلِ ، فهؤلاء ليسوا مرهوبين . وتمَرُّ خمسةُ أيامٍ على ما تَمَّ في أُمِّ دُرَّمان من نصيرِ حاسم ، وتمَرُّ أربعةُ أيامٍ على احتلالِ الخرطوم فتأتى باخرةٌ بأولِ نبيٍّ من الجنوب ، تأتى بنياً وجودِ أبيضٍ في فاشودة عَقَدَ معاهدةً مع الشُّلُكْ ، وكان يمكنَ رَكِيشَنرَ أن يستريحَ بضعةَ أيامٍ بعد عتاءِ عامين ، ولكنه لم يتألك أن أدرك ما هنالك ، فقام بنصفِ جَوْلَةٍ في



الباهرة ، فلما انقضت ثلاثة أيام تَوَجَّه نحو منبع النيل ليزور ذلك القرنىّ النّس ،  
ويَجْلِب معه كتاب سودانية ومئة اشكتلنديّ وبضع سفن ذات مدافع حتى  
يُذرك مُضيفهُ مَغْرَى زيارته .

وبعد تسعة أيام ترسو السفن الإنكليزية فى فاشودة حيث يتّوج علم كبير  
مثلث الألوان ، ومن القصول الروائية ، حقاً ، أن يلتقى ضابطان من البيض متانلان  
هيئة مع اختلافهما شِماراً ، منتسبان إلى أمتين جارتين مع تسالهما على بعد ألوف  
الأميال من هنالك ، مَوْض إلى كلٍ منهما خلع الآخر ، ويستحق إقدام ككتشر  
كلّ إعجاب ، ويتّجه المطف العامّ فى ذلك الحين إلى مَرشانّ العاطل من الرجال  
ومن السّند ومن توجيه بارس له ( على خلاف ككتشر الذى يوجّه برقيّاً فى  
الخرطوم ) والذى يُقدّم إلى الغالب بالأس غير مُجهّز بسوى مسدس لا ينبغي له  
أن يستعمله وبسوى علم لا تحقّق الرّيح فيه .

ويتحدث الفأفان فى كوخ مَرشانّ ، وذلك بأن هنأ الإنكليزى القرنىّ بإيصاله  
مغامرته إلى هدف حسن ، وذلك بأن هنأ القرنىّ الإنكليزى بالنصر الكبير الذى  
علم خبره من الزنوج ، ولا أحد يعرف مقدار الصمت الذى غُلب تينك التهنيتين ،  
وإنما علم فقط أن مَرشانّ صرّح قائلاً : « أقامتى حكومتى وكيلاً عنها فى احتلال  
بحر الفزال حتى ملقاه ببحر الجبل ، أى باجتلال أراضى الشُّك الواقعة على  
شمال النيل » .

ويجب ككتشر عن ذلك قائلاً : « لىّ تفويضٌ بالآ أوافق على وجود سلطان  
لدولة من البيض فى وادى النيل » ، ويسلم إلى مَرشانّ مذكرة رسمية ، ثم ينهض  
ليأبج من وجوب رفع علمه بجانب العلم القرنىّ ، وهنا يتجلى الرجل للماجد ،

« إذن ، سأموت هنا »

قد أدرك مشاعر زميله ، ولم يُكرِّهه على إنزال عَلمِه لِمَا قد يؤدي إليه ذلك من نتائج هائلة ، بل ذهب إلى بُعد خمسة متر ورَفَعَ العلم التركي<sup>(١)</sup> ثم تَوَجَّهَ مَسِيرَةً يوم نحو منبع النيل وأنشأ مركزاً على الشواطئ ، وعاد ، وترك في فاشودة حرساً سودانياً وأربعة مدافع وبلغَ مرَّشان بأدبٍ لا غبار عليه أن « البلد » خاضع للحكم الثنائي الإنكليزي للصري وأنه مَنَعَ كلَّ قِبلٍ للعتاد الحربي على النيل .

ويظل الضابطان واقفين متواجهين .

مرشان : « لا أتلقى أمراً من غير حكومتى » .

كتشنر : « وإذا ما اضطرت ... » .

ولم يكد كتشنر يلفظ بذلك حتى قال مرشان :

« إذن سأموت هنا » .

ويقع كل شيء وفق شِعار الشرف العسكري ، ويُقدَّم كتشنر تقريره عن هذا اللقاء ، وتحلُّ المهرأة الإفريقية في أوروقة على حسب العادة القديمة ، ويصبح الرجلان الموبتين بين أيدي السياسيين والمضاربين ، وتهتك باريس ولندن في هذا الأمر ، ويلوح شبحُ الحرب ، وضعفُ فرنسا في ذلك الحين ، لا حيلة إنكلترة ، هو الذي حال دون نشوبها ، وفي الصحف يتجلى الجشع ، وفي الصحف تُطلق الأحقاد من عقالها في أثناء مفاوضات وزارتَيْن ، ويدوم ذلك ستة أسابيع ، وتحلُّ باريس على الخضوع ، ويُشاد بذكر مرَّشان رسولاً للحضارة ، ويُفمر بأكاليل الغار سراً للجلاء عن فاشودة وصرفاً للأذهان عما مُنيت به فرنسا من جُبوب .

ويقول كتشنر مؤكداً بعد أمة<sup>(١)</sup> إن انتصاره في أم دُرمان هو الذي أنقذ مرشان ،

---

(١) الأمة : الحين .

فلولا هذا النصر لَقَتَلَهُ الدراویش ، ومما یکن من أمرٍ قد تمَّ للحکومة الإنکلیزیه نصرٌ سَلَّیَّ على الحکومة الفرنسیة ، وقد أیقنت الحکومة الفرنسیة أنها لا تقدر على شئ من غیر إنکلترة فزمت على السیر معها فیا بعد ، ویتحول مرشانُ إلى رائدٍ بعد أن تحلَّی عنه رؤسؤه فیرفض إطلاعة الأمر بالذهاب ، ویُثلین احتیاجه إلى القتاد والقوت ، ویضعُ کتشر ما یحتاج إلیه تحت تصرفه ، ویعرض علیه باخرته ، ویرغب مرشانُ عن السفر على باخرة خصمه البخیث<sup>(١)</sup> ثم عن السفر فی القطار الجدید وعن تشیسه بضروب من التکریم الرئائی ، وعن المود إلى فرنسة بحراً بعد ذلك ، وبذلك یكون مرشانُ رائداً آخر للنیل رافضاً أن یکان ، وذلك فی مکانٍ غیر بعيد من المكان الذى رَفَضَ فیهِ أمین باشا ، منذ عشرين عاماً ، أن یُنقذه ستانلی ، ویزمیر مرشان على شقِّ طریق له من الحبسة ، وهكذا یجوب إفريقيا من جانب إلى جانب ، وهكذا یبدو مرشان مثل دوندکیشوت على الرغم منه ، وهكذا یظهر العالمُ مهزاةً لهذا الشخص المجعوع ، وهكذا رأى رجلٌ ، رفع العلم للثلث الألوان على النیل فاضطرب إلى طیبه بعد انتظار خمسة أشهر على غیر جدوى ، أن یُنقذ الشرف کمنظاره فی القرون الوسطی ، وهو إذا لم یُنقذ شرف فرنسة الذى أبصره مُعرّضاً لخطرٍ فاضحٍ فقد أنقذ شرف نفسه ، أى شرف رجلٍ کان من أبناء الطبقة الوسطی وكان جندياً عادياً فصار قائداً ، أى شرف الفاحش الشقی جان بابتیست مرشان ذو نواسه . وتحالف فرنسة وإنکلترة بعد ست سنواتٍ من تاریخ عودته ، وکنتیجة غیر مباشرة لفزوته ، ویمحارب فی أثناء الحرب العظمی بجانب الإنکلیز ، ثم یكون شاهداً بعدئذ على ما بین البلادین من فتورٍ ، یموت فی سنة ١٩٣٤ ، ویرى قبل

(١) البخیث : المخطوط .

مونه إمبراطورية فرنسة الاستعمارية الكبرى في غرب إفريقية من غير أن يكون النيل جزءاً منها .

### ١٣

كان العلم الذي رفعه ككتشر فوق فاشودة أحمر اللون ، كان العلم التركي ، والآل يحقّق العلم الأخضر الجليل ، العلم المصري ، فوق جميع السفن والمباني العامة بجانب العلم الإنكليزي ، ويدوم الحكم الثنائي منذ ربع قرن ، ويمكنه أن يدوم زمناً طويلاً على الرغم من اعتراض أضعف الفريقين .

ويُعَيّن النيلُ مصيرَ السودان مرةً أخرى ، وقد كان الإشراف على النيل في سبيل مصر وتنظيم مجراه الأعلى ذرائع وعواملَ تتسك بها إنكلترة القابضة على زمام مصر ، فيما مضى ، قبضاً مطلقاً تقريباً ، وقد حالت إنكلترة دون إفلاس هذا البلد لِتُمسِكهُ إلى الأبد ، وهل تترك إنكلترة لغيرها مجرى النهر الأوسط وملتحق النيلين بعد أن مَلَكَت منبمه وفوهته ؟ أو تتركهما للسودانيين ، لهؤلاء الهِمَج ، الذين كانوا تابعين للهدى ؟ أو تتركهما للمصريين الذين كان للسودان بهم خرابٌ مدة خمس وستين سنة ؟ أو تتركهما للفرنسيين ؟ إذا وُجِدَ من الناس من يمكنهم أن يُرْعِجُوا مصرَ بالنيل من جهة السودان فالإنكليز وحدهم هم أولئك الناس .

وكانت مصرُ من الضَّعْف ما لا يستطيع معه أن تستردَّ السودان وتُدِيره ، وكانت مصرُ تُفَضِّل ، لذلك ، أن تدعَ مكانها للإنكليز على أن تدعَها للسودانيين

والفرنسيين ، وكان لبريطانية العظمى من المصالح البالغة الأهمية ما تدافع به عن مصر الدنيا فلا تُقدّم على تقويض دعائمها حين الاختلاف ، ولو اقتصر الإنكليز ، بعد انتصارهم في أمّ دُرْمان ، على رفع علمهم وحده ما استطاع المصريون أن يحولوا دون ذلك ، غير أنه كان لمصر من الحلفاء المكتومين ما نعتدّ إنكلترة بماله ونفوذه في القاهرة ، وقد اجْتَنَبَ احتراقُ إنكلترة وفرسة الذي لاح شَبْحُهُ أيام فاشودة ، لا عن ضَعْفٍ في فرسة قطع ، بل عن عَزْمٍ لإنكلترة ، أيضاً ، على رفع العلم التركي رمزاً كما فعل كشتنر فوق زاوية مُحَصَّنَةٍ في الدرجة العاشرة من الرض الشاملي ، وقد استفاد المصريون ، كشرقيين حقيقيين ، من تنازع الدول الغربية ، فإذا كان سواه إدارتهم قد أوجب ضياع السودان فإنهم صاروا شركاء في سيادة ذلك البلد الذي أعيد فتحه بمالهم وجنودهم مع قُوّادٍ من الإنكليز ، والذي حُفِظَ بفضل النفوذ الإنكليزي .

واللورد كرومر هو الذي عَنّ له أمرُ العليين ، واللورد كرومر هو القاتل : « لا يؤدي أقول هذا الحكم الثاني إلى سَكَبِ عِبْرَةٍ من يَقِيلُ مُخْتَرِعُهُ إذا ما اسْتُبْدِلَ به حكمٌ أَمِنُ منه » ، وإذا كان هذا النظام قد ظل قائماً بما شِئِرَ حَبْرَةٌ الجميع فلتوزيع الحقوق بين الفريقين توزيعاً غير منساقٍ ، ويمكن أن يقال إن هذا قِرَانٌ شَرِيفٌ يُقَدَّمُ به الزوجُ مالها وتَضَعُ أولادها من غير أن تنال في مقابل ذلك غيرَ حَقِّ الحياة ، أي ماء النيل ، وهي مع ذلك زوجٌ شرعيٌّ سَمَرٌ في الأحوال العظيمة تحت أقواس النصر رابكةٌ حِصَانًا بجانب بَقْلها مضورةٌ بالخيلِ مُحَبَّبَةٌ تملأ ، والسودانُ هو أول بلدٍ وُضِعَ تحت الانتداب في التاريخ ، وكان هذا قبل استعمال هذه الكلمة من قِبَلِ مؤتمر باريس في سنة ١٩١٩ حين أقيمت مضاهها .

وإن الحاكم العام، وإن جميع أكابر الموظفين، في السودان الإنكليزيّ المصريّ هم من الإنكليز، ولو حَدَّثَ أن رَفَضَ الملكُ بالقاهرة تعيينَ حاكمٍ تُوصي به الحكومة الإنكليزية لَوَجَدَ جميع الإمبراطورية البريطانية ضِدّه، ولهذا الحاكم، الذي لا يَقْدِرُ الملكُ على عزّله، مثلُ ما كان للمهديّ من الحقوق، وذلك لِمَا لا يزال القانونُ العرقيّ العسكريّ معمولاً به في السودان، والحاكمُ هو الذي يُقرّر جميع المسائل المهمة، وهو الذي يَقْضِي فيها طاغيةً، وكانت مصرُ هي التي تُقدّم الجنودَ، ولا تزال مصرُ تقومُ بنسبٍ كبير من نفقات الاحتلال (٧٥٠.٠٠٠ جنيه).

ولمصرَ فائدةٌ من وراء ذلك مع ذلك، ولو خَسِرَت مصرُ النبلَ الأوسطَ حرباً نِجَاهَ إنكلترة لوجدت في الأدب التاريخيّ ما يُسَوِّغُ تفكيرها في الانتقام، والواقعُ أن مصرَ عادت، بتدخلٍ من إنكلترة، إلى امتلاكِ بلادٍ بالاشتراك كانت قد أخاضعته عن سوءِ إدارةٍ لسكانه النوبيين الأصليين.

ويُشعرُ المصريون بأنهم أرقى من أولئك السكان كما تَشعرُ به أية دولة من دول البيض المنتدبة على الزنوج، وتظهر طبقات المصريين العليا، وهي غيرُ طبقة الفلاحين، من قِلّة العدد كالأشراف وكأبناء الطبقة الوسطى الراقية في العهد القيصريّ الروسيّ، وهي تُعدُّ نفسها واردةً لحضارةٍ بَلَغَتْ من القِدَم خمسة آلاف سنة، وهي لا تَشعرُ بغير ازدهار السودانيين الذين هم من أَكَلَّةِ لحوم البشر، والذين يَصْلُحون للعناية بالخليل والعلطنى وليكونوا خَدَمًا في قصور القاهرة، وكان الخَدَمُ السودانيون حتى سنة ١٩٠٠ أبناء لعبيد أُعْزِدُوا قَتَاصِينَ في الغارات كالباز في الصيد، ويعود أولئك الخَدَمُ إلى بلادهم بعد غياب بضع سنين جالين معهم قَدْماً ومزاعماً وزَهَوَ أنصافُ الجُهَّال.

## دورة أدية

وأثار احتفال المصريين لوضع السيد المتعالى حقد جيل السودان الحاضر عليهم ، وليس المصرى سيداً يحشاه خدمه ، والسودانى يمتق البشا الذى كان للمهدى قد طرده ، والسودانى يمتق التركى الذى عاد على أكتاف مرّدة من البيض والذى يمتح أحذيته ويفعل سياراته فى القاهرة بضعة آلاف من القتيان ، وما هى فائدته من هؤلاء السادة المحلين أو الأجانب ؟ أليس من رأى أن يفتك السودان بالفلاح على ضفة النهر حين يُدبر نُورُهُ ناعورةً ويطحن نساؤه الدرة بأيديهنّ القوية وينمل<sup>(١)</sup> أولاده فى النخل قطعاً لليسار<sup>(٢)</sup> ، والفلاح ، كالسودانى يجهل الحكمة القديمة المكتوبة على ألياف البردى ، والفلاح لا يفتك الخطأ الهيروغلى فى الوقت الحاضر كما لا يفتك السودان الذى يُعلم القراءة .

ومرانا مرة أخرى تجاه تلك الدورة الأدية التى تبدأ من قدرة الأبيض على حرية الأسود لتمود إلى هجر الأبيض ، ولم يقم حكم إنكلترة على التجلد بسياطر مصنوعة من جلد وحيد القرن ، ولم تأت إنكلترة بقوانين ولا بتدابير عقية ، وتستند إنكلترة منذ البداية إلى مساعدة القبائل باحترامها عاداتها ، وترك إنكلترة لسكان البلاد الأصليين درجة القضاء الأولى فتجد ٥٥ فى المئة من الوظائف الدنيا بيد السودانين ، وتجد ٢٣ فى المئة من الوظائف الدنيا بيد المصريين ، ويوجد فى الوقت الحاضر من أهل البلاد ١٢٠٠ مكاس<sup>(٣)</sup> و بريد ومعلم وجاب و ٣٠٠٠ موظف من القضاة والطبّاعين والمهندسين والممدّ ومستخدّمى الخطوط الحديدية والأطباء الناشئين فى السودان من الأقباء إلى ما هم عليه ، ويتخذون دليلاً على جهد إنكلترة فى التمدين ،

(١) نمل فى الفجر : صمد — (٢) البشار : جنح البسر ، وهو الثمر إذا لون ولم ينضج .

(٣) المكاس : هو ما يبرف اليوم بموظف الجرك .

### تطور السودانيين

ويزيد عددهم بسرعة، وهم ، وإن لم يكونوا ذوى حَظَرٍ في الساعة الراهنة ، يُعَدُّون طلائع قومٍ تَحَوَّلَهُم التربة إلى منافسين لساحتهم .

ومن شأن ذلك التطور أن يُعَيِّن مصير مصر والسودان في نهاية القرن العشرين ، ولم يَحْطُ القابع المصريُّ في القرن التاسع عشرَ شيئاً إلى السودانيّ ، ولذا لا يُوجي المصريُّ إلى السودانيّ بأقلِّ احترام ، وكان لأهل شمال ذلك القطر الكبير ماله من اعتقادٍ بِصِلِ المؤمن بالله وبالقَدَرِ وبأدب الدولة أحسنَ مما بِصِلِ الإيمانُ النصرانيّ الأبيضَ به ، وإليك كيف يُعبّر عن مشاعر السودانيين نحو البيض هروُلد مَكْمَايْكِل الذي هو من أعلم الناس بالسودانيين : « هؤلاء البيض الأفذاذ نِيَّاتٌ طيبة لا ريب ، ولكنهم ذوو تصور هزيل حَول الدين ، وَبِمِ كثيرٍ من عاداتهم على نقصٍ في النوق السليم » .

وكان هذا الشعب المُبْعَدُ المُبْعَدُ قد ثار بطرفة من النفرة فَدَعَهُ زَعَاؤُهُ وداسوه بأقدامهم ، ثم استولت عليه كتائب من البيض فاتقتل بفتة من الظلمات إلى نُور الغرب ، وكان السودانيون في أوائل هذا القرن ، ومنذ مدةٍ أَقَلِّ من خمسين سنة ، يُنْقَلُونَ في أوربة زُمَرًا زُمَرًا مع أُسَرِهِم من حديقة حيواناتٍ إلى حديقة حيوانات فيزَرِبُون كضواري قُطْرِهِم عَرَضًا لرقصِ بلادهم وللصيد في ديارهم ترويحاً للبيض ، واليوم ترى حديدَهم جالساً أمام مُجَهَّرٍ في مُعْهَدِ الباحث بالخرطوم لِيُدَقِّقَ في جرائم النبل ! أَجَلْ ، ليس الاثنا عشر ألفَ سودانيّ الذين يَعْرِفُونَ القراءة غيرَ جزءٍ صغير من سودانيين بَلَغَ عددهم حديثاً ستة ملايين ، بيد أن معرفة هذه الأقلية تنتشر بأسرع مما في القرون الوسطى ، في زمن الرهبان الذين كان قليلٌ منهم أعلى من معاصريهم ، ولم يُسَانِوْا سلطان الفلاحين الذين يُبْعِثُونَ في



التطور مثلهم ؟ أو تجد في القاهرة مدرسة لأبناء الفلاحين فيها من وسائل التسلية ما في كلية غوردون القائمة على ضفاف النيل والقرية من قصر الحاكم فيخرج منها وقت الظهر خمسة طلاب لابس جلباباً أبيض فيتزهون اثنين اثنين زاهين في حدائق الخرطوم كفرسان برسيغال<sup>(١)</sup> ؟ وأنشأ البيض مدارس بلغت من العدد ألفاً وخمسة ثلاثين ألف طالب ، ومن هذه المدارس كليات يتدرب فيها ضباط وموظفو برید وأطباء ، ويزيد عدد المصريين بسرعة ، وسيكون جميع الوادي الأدنى مزروعاً حوالى سنة ١٩٥٠ فلا يكفي لإطعام سكانه ، وسيستقر ذلك عن هجرة ما يفيض من الفلاحين نحو بحرى النيل الأعلى طلباً لأراضٍ جيدة في السودان الذي يُعدُّ هُرياً<sup>(٢)</sup> نابغاً لهم ، وكان الفلاحون قد ساروا على هذا الدرب بعد طرد ملوك إثيوبية فيما مضى .

ويضاف جميع ذلك إلى الشعور القومى الذى يقتبسه أصحاب الجلود الملونة من البيض فيدلُّ على تحولاتٍ عنيفة تُفنى إنكلترة بتعديلها ، ومن قول اللورد لوفارد الذى هو آخرُ إفريقيٍّ عظيم : « يمكننا أن نرى الزوج في جيلين أو ثلاثة أجيال حقيقة أمرنا ، ثم يدعوننا إلى الرحيل ، وسنضطرُّ إلى ترك البلاد لأصحابها مع جعلهم يشعرون بأننا في الحقل التجارى أصدقاه أكثرُ أمةً من البيض الآخرين » ، ويذهب الريشال ليوتى إلى ما هو أبعد من ذلك فيقول : « الطيبُ هو ذريعة الاستعمار الوحيدة » ، وهذا هو رأى اثنين من رؤود دور الفتح .

وسهلت جهودُ إنكلترة في السودان بفتح العلم الحديث ، وزادت بعد محاربة

(١) برسيغال : اسم رواية موسيقية لفاغر مؤلفة من ثلاثة فصول (١٨٨٢) ، وهي آخر ما وضع هذا المصنف العجيب — (٢) الهري : بيت كبير يجمع فيه الفصح وغيره .

المهدي\* أهمية الخط الحديدى\* ، الذى يَقْطَعُ مُنْعَطَفَ النيل فيختصر مسافة ٣٥٠ كيلومتر، فينقلكم هذا الخط من القاهرة إلى الخرطوم فى مئة ساعة، وتنقلكم الطائرة بين هذين المَصرين فى أربع عشرة ساعة، وينقلكم الخط الحديدى بين القاهرة والبحر الأحمر فى سبع وعشرين ساعة، ويَصْدُرُ فى كل سنة من بور سودان، حيث أُعيد بناء الرفأ القديم غير الصالح، ثلاثة ملايين طنٍّ تَبْلُغُ قيمتها خمسة ملايين جنيه، وهذا هو طريق البحر الأحمر المؤدى إلى داخل إفريقيا والذى يُنْحَتُ عنه منذ القديم، وتسير فى كل أسبوع سفن نحو النيل الأعلى، وحُفِرَت أَبَارٌ على طول طريق القوافل، وأنشئت مستودعات لزيوت الطائرات، وتوزع حبوب فى سِنَى الجباغات، ويُنتَجُ الصُغُ العربى بمقادير أكبر مما فى الماضى فيوجب ذلك ابتياع كثير من الحُلُويات، ويُنال الملح بما يَحْدُثُ على ساحل البحر الأحمر من تَبَخُّر، ويكون صديق الإنسان الطيب مستعداً، ويحمى الناس من الرق الذى لم يَبْقَ له أثرٌ فى غير حدود الحبشة لما هى عليه من طول يتعذر معه رقابتها، وليس جميع ذلك من فضائل عصرنا، ولكنه من عمل الحكومة القائمة فى السودان، ويظهر مصداق هذا عند مقابلة السودان بالمستعمرات الأخرى، حتى الزيفان<sup>(١)</sup> تنتفع بالحضارة الإنكليزية، ففي الخرطوم تجتمع الزيفان صمم<sup>(٢)</sup> زجاجات المياه المعدنية الالامه وتختطفها وتقلبها فتتألف من ذلك مناظر على الأرضفة المَبْلَطَة .

ونظّم قسم مهم من السودان من قِبَل الضباط فجاء هذا دليلاً على وجود رجال

(١) الزيفان : جمع الزاغ ، وهو غراب صغير ريش ظهره وبلته أبيض — (٢) الصمم : جمع الصمة ، وهى سداد الفارور وتوخمها .

بين الضباط قادرين على القيام بأعمالٍ غير صُنِع الموت ، ومن نتائج الحرب العظمى أن اغتنى السودان بما قَبِضه من ثمن اللُّوْن العظيمة ، وقد نشأ عن انهيار تركية ونصب مَلِكٍ في القاهرة تعزيزُ مركز الإنكليز في السودان ، وما كان من القِتْن التي أوجبتها تلاميذُ غوردون القدماء قد أزعج إنكلترة بضعة أيام ، وما كان من عصيان كتائب السود الخاضعة لضباطٍ من السودان قد حل الإنكليز على التفكير فيما ينطوى عليه التطور السريع من مخاطر ، وكيف التَّخَلَّصُ من المصريين الذين حَرَّضُوا على تلك القِتْن والذين يَحْدُمُونَ في الجيش منذ قيام الحكم الثنائي ؟ لم يَكْفِ قَتْلُ مُرْسَلٍ بِجَيْلَةٍ لِنَيْلِ ذَلِكَ .

قَتَلَ نَفَرٌ من دُعاة الوطنية بمصر حاكم السودان العام في شهر نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، وفي أثناء إقامته بالقاهرة ، ولم تنتظر بريطانيا العظمى في هذه المرة ثلاثَ عشرة سنةً كما فعلت بعد قتل غوردون ، بل نالت مبتغاها في إخراج جميع الكتائب المصرية من السودان في ثلاثة أيام ، وبإندثارٍ ، وفضلاً عن التعويضات وغيرها من العقوبات ، ويُدْعَر القَوَمِيُّونَ من المصريين لَوْضْعِ النِيلِ على أساسِ القَلَمِ الأبيض رمزاً للسياسة ، ويرتعد المتدلون من المصريين تجاه وعيد صاحب السلطان في النيل الأعلى .

وهكذا ينزولُ آخر أثر لسيادة مصر على السودان بخروج كتائبها منه ، وصار العلم الأخضرُ لا يَحْتَقِقُ بجانب العلم الإنكليزي إلا على سطح قصر الحاكم في الخرطوم وعلى مؤخرة البواخر التي تَمْتَحِرُ في النيل .

يحافظ النيل على منظره الابتدائي إلى ما بعد الخرطوم ، وما تراه من أنصاب<sup>(١)</sup> مرّقة مفرزة في الشاطئ فيدل<sup>٢</sup> وحده على أن الإنسان يرقب النيل ، وما تراه من قرى تنعش ضفته فلا ينم<sup>٣</sup> على غير الأمس واليوم ، وتبصر على ضفاف القسم الثاني من النيل أعمدة ومابد وجنادل<sup>٤</sup> مُشدّبة وأهراماً أقامها الإنسان لتكون شاهدة على مآثره منذ خمسة آلاف سنة في واحة كثيرة الصّيق بالغة من الطول ألفي كيلومتر ، وليس للخرانيت الخالد ، ولا للحجر الرمل<sup>٥</sup> القصيف أن يحشّى المطر ولا البرد ، فلا تزال تلك الأعمدة باقية كما لو كان الإنسان الذي يقاتل الإنسان غير صانع لها ، ولا يلوح شيء يجاوز صواري<sup>(٦)</sup> الجوّارى<sup>(٧)</sup> الجميلة في المكان الذي يفادر فيه النيلان المزدوجان ازدواجاً أخوياً أول<sup>٨</sup> مصر أقيم على ضفافه ، أى في الخرطوم ، وانظر إلى قباب المدينة الأهلية القائمة على النيل الأبيض والتي يَبْدُو تلاشيها في الصحراء تجدها من الانخفاض كأبراج الإنكليز على النيل الأزرق ، ولا شيء يُذكر هناك بدؤف<sup>(٩)</sup> مدّتنا الأوربية القديمة على ضفاف التايمس والسّين والدانوب وموشقوه ، ولنهر المزدوج في ذلك المكان من الجلال ما يجنّد معه أن يسيطر على عاصمة كبيرة في ضفافه الأربع .

(١) الأنصاب : جمع النصب ، وهو الشيء المنسوب — (٢) الصواري : جمع الصارى ، وهو عمود مركز في وسط السفينة — (٣) الجوّارى : جمع الجارية ، وهي السفينة — (٤) السدوف : جمع السدف ، وهو الشخص يرى من بعيد ، والشخص هو سواد الإنسان وغيره تراه من بعد .

## أراض متحركة

وتقع جزيرة توقي أمام ضفة النيل الأزرق اليمنى ثم أمام ضفة النيلين المتحدتين ، وهي ذات شواطئ منحدرة ، وهي تجتذبكم بحالها ، وقد غمرها الغرين بالنقى ، ولا تجد في مكان ما لنخلها من الرؤعة ، ويمتاز نخلها باسمراره على الشهب الأصفر ، ويُنال من دوح جَمِيْزها ما يُرغَب فيه من الطراوة ، والجزيرة ذات غابٍ وظلالٍ ، والجزيرة مثيرة للخيال ، والجزيرة تنتهي في مجرى النهر التحتاني برأسٍ تسره أسجة حقيقية .

وتظهر بالقرب من تلك الجزيرة جُزُراتٌ في ملتقى النيلين ، وتتوارى هذه الجزُراتُ تحت الأمواج وقت الفيضان ، ثم تُكُون مرةً أخرى على بعض المسافة برواسب من الحصى والرمل ، ويبدأ نخاصم أهل الشاطئ :

أحمد صارخًا : كانت هذه جزيرة .

محمد زاعقًا : كلاً ، هذه هي الجزيرة التي حَرَّتْهَا في الشتاء الماضي .

ويَضُغ الأمرُ على القاضي ، فالعالمُ مغبورةٌ بالنهر .

وتنقل الإنسان والحيوان من ضفة إلى أخرى قواربُ مُنْقَلَة ، ويُذَكِّرُكم الآدميون ، عند مرورهم مُكَدِّسِينَ تحت شرعٍ كبيرة لابسين جلابيهم البيض ، بَرُمَرِ سِتِيكس<sup>(١)</sup> وبخطرة الأزمنة القريبة حين كانت الريح تدفع إلى النار تلك الزوارق المشحونة بالميد ، وتصلح تلك المراكب الكبيرة ، التي تُرَى بين الخرطوم ومصب النهر ، لعبور النيل أكثر مما للطواف فيه ، وهي ابتدائية إلى الناية مع مؤقِدٍ من طين في المقدمة ودَقَّةٍ عالية يديرها رجلٌ عارفٌ بالرياح والصخور ، وتحوّل الجاديفُ الجَهْزَةَ برَقَاصاتٍ دون ذهاب الزوارق نحو الصخور ولا يُنْسِكها

(١) ستيكس : نهر في جهنم له سبع دورات كاجاه في الأساطير .

سوى أناسٍ من الخبراء ، وإذا ما نفخت الريحُ الأشربةَ الثلاثةَ الشكلَ والمُلقَّةَ في صاريين منحنينَ حُيِّلَ إلى القارس الذي لا يُبصرُ النهرَ أنها طيورٌ عظيمةٌ تسير مُتَّيِّدَةً على أرض الصحراء .

ويَدَّخِرُ النيلُ الأزرقُ الصائلُ النيلَ الأبيضَ نحوَ الضَّفةِ الغربية ، ولكن لا لزمنٍ طويل ، وذلك لأن أخاه الأكبرَ لا يَلْبَثُ أن يَتَفَوَّقَ عليه ، فَيَرْجِعُ إليه سابقُ اتساعه ، ولا يَقُوفُهُ النيلُ الأزرقُ إلَّا حينَ الفيضانِ الأعظمِ الذي يَنْجُمُ عن أمطارِ الجبَّةِ ، ويعود احترابُ العناصرِ هذا على صِفَارٍ من الموجوداتِ بالريح ، ومن ذلك أن سَمَكَ النيلِ الأزرقِ يَجْفُلُ من انتفاخِ التَّيَّارِ فيهاجرُ إلى حوضٍ هادئٍ على الضَّفةِ غيرِ عالمٍ أن بَجَعَ<sup>(١)</sup> النيلُ الأبيضُ ينتظره هنالك ليصطاده ، وهكذا يصطريحُ تابعو المتنافسينَ العظيمينَ بعد تصالحهما .

وللنهرِ في الخرطوم من المنظرِ ما يُسَوِّغُ تَجَدُّهَ الأسطوريَّ ، وللنهرِ هنا كما في القاهرة سِرٌّ مَلِكٍ ، والنهرُ نالَ ذلك بعد مغامراتٍ فتَّائِهِ ، والنهرُ يظلُّ على ذلك بعد أن يَجْزِي أسابيعَ في الصحراء ، وفي هذا سِرُّ حياته .

ومع ذلك ترى النيلَ يقاتلُ نفسه في دَوَامِهِ<sup>(٢)</sup> حينَ يبدأ بمصارعةِ الصحراءِ كأعظمِ الرجالِ الذين يَضُنُّونَ في مكائِهم العالمَ وفي مجاهدةٍ أنفُسهم ، ويبدأ دورُ الشلالاتِ ، والشلالاتُ ، كالتناقصِ مابَقاً ، قد جعلتها الطبيعة كالأعداءِ لاخْتِبارِ شجاعته وقدرته وإظهارِ سجاياه في الأمورِ الكبيرة .

وفي مجرى النهرِ التَّحْتَانِيَّ بعد الخرطوم يُعَدُّ جوب السهبِ حتى ملقى المطربة

(١) البجع : طائرٌ عريض المنقار له حوصلة عظيمة تحت منقاره ، واحده بجعة - (٢) الدوام : جمع الدوامة ، وهي لبة من خشب يلف الصبي عليها خيطاً ثم يقفزه بسرعة فتدور ، أى تدور على الأرض ، وهناتجى : بمعنى الدردور ، وهو موضع في البحر يجيش ماؤه فيضاً فيه الفرق .

وَدَاعَا لِلطَّيْبَةِ قَبْلَ دُخُولِ الصَّحْرَاءِ الَّتِي تَرَاقَهُ حَتَّى الْبَحْرِ تَقْرِيبًا ، وَلَا يُزَالُ  
الْأَبْنُسُ<sup>(١)</sup> وَالكَابِلِيُّ<sup>(٢)</sup> يَنْتَبِهُنَّ هُنَاكَ ، وَيَتَلُغُ الْعِظْلَمُ<sup>(٣)</sup> مِنَ السَّكْرَةِ مَا كَانَ  
مَعَهُ مَعْمَلٌ لِاسْتِفْلَاةِ هُنَاكَ ، وَيَتَلُغُ السَّنَطُ مِنَ الْقُوَّةِ مَا أَنْشَأَ التَّرْكُ مَعَهُ دُورًا لِصِنْعِ  
السَّفَنِ هُنَاكَ ، وَهُنَاكَ يَنْمُو شَجَرٌ آخَرُهُ خَشْبٌ كَالْقَلْبَيْنِ وَتُصِيبُ عُصَارَتُهُ عَيْنَ  
الْحَطَّابِ بِالْمَتَى فَيَجْتَنِبُهُ جَمِيعُ الْحَيَوَانَاتِ خِلَا الْمَرْءِ الَّذِي يَقْضِمُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُصَابَ  
بَأَذَى ، وَيَسْطُ السَّنَطُ جُذُورَهُ فَيَلْتَمِسُ بِذَلِكَ مَدَّ النِّهْرِ وَجَزْرَهُ ، وَيَكُونُ مَاءُ النِّيلِ  
مِنَ الْبُرُودَةِ فِي تِلْكَ الْمُنْطَقَةِ مَا لَا يَكْفِي مَعَهُ قُرْ<sup>(٤)</sup> اللَّيَالِي لِتَفْسِيرِهِ .

وَإِذَا سِيرْتَ مِنَ الْخُرُطُومِ مَرَحِلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ مَرَاكِحَ ، أَيْ مَسَافَةً تَسَعِينَ كِيلُومِتْرًا  
مِنْ مَجْرَى النِّهْرِ التَّحْتَانِيَّ ، وَجَدْتَ عَرْضَ النِّيلِ لَا يَزِيدُ عَلَى خَمْسَةِ وَسْعِينَ مِتْرًا ،  
وَأَبْصَرْتَ عَمُودَيْنِ مِنَ الْحِجَرِ الْبِرْكَانِيِّ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَدْخَلِ مَضِيقٍ ، وَهَذَا هُوَ  
بَدْءُ الشَّلَالِ ، وَيُسَمِّيهِ الْجِغْرَافِيُونَ بِالشَّلَالِ السَّادِسِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ عَدُّوا الشَّلَالَاتِ  
بَادِئِينَ مِنْ مَصْرَ متوجهين مع الحضارة إلى مجرى النهر الفوقاني ، وَأَرَانَا مَضْطَرِينَ  
إِلَى مَجَارَاتِهِمْ مَعَ أَنَّ النِّهْرَ يُوصَفُ كَمَا تُوصَفُ حَيَاةُ الْإِنْسَانِ فَلَا يُبْدَأُ مِنْ خَاتَمَتِهَا ،  
وَيُنْجِصِي الْعَرَبُ<sup>(٥)</sup> ٣١ شَلَالًا ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَعُدُّونَ كَثِيرًا مِنَ الْمَاقَطِ مِنَ الشَّلَالَاتِ ،  
وَالْعَرَبُ قَدْ دَعَا الشَّلَالَاتِ بِأَسْمَاءِ خِيَالِيَّةٍ بَدَلًا مِنْ تَسْمِيئِهَا بِأَرْقَامٍ ، فَقَالُوا : عُنُقُ  
الْجَمَلِ وَالرَّجَاجَانِ وَنَيْتُ الْعَبْدِ وَالْمَغْفُورُ وَالْمَوْحِلُ وَالْحَارِكُ<sup>(٦)</sup> ، وَتَبَدَّأَ عُرُوءَةُ النِّيلِ  
الْكُبْرَى ، وَهِيَ الْوَحِيدَةُ فِي مَجْرَاهِ الطَّوِيلِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ ، عِنْدَ الشَّلَالِ  
السَّادِسِ ، وَتَنْتَهِي بِالشَّلَالِ الْأَوَّلِ تَمَامًا ، وَيَقَعُ الشَّلَالُ السَّادِسُ ، أَيْ خَانِقُ سُبُلُوقَةِ ،

(١) الْأَبْنُسُ : شَجَرٌ عَظِيمٌ صَلْبُ الْوُودِ أَسْوَدُهُ — (٢) Aca ou — (٣) الْعِظْلَمُ : نَبْتٌ  
يَصْنَعُ بِهِ — (٤) الْقُرْ : الْبُرْدُ — (٥) الْعَرَبُ لَمْ تَجِدْ جَدَّ الْبَحْثِ ذِيَا نَهْيٍ إِلَيْنَا مِنَ الْكُتُبِ أَصْلًا لِهَذِهِ  
الْأَسْمَاءِ ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْوُؤُفُ مَصْدَرَهَا قَرَجْنَاهَا .

### اللال تأخذ بخناق النيل

في الدرجة السادسة عشرة من المرض الشألى\*، ويقع اللال الأول في الدرجة الرابعة والعشرين من المرض الشألى\*، أى عند أسوان، ويقعُ كلا اللالين على درجة واحدة من الطول.

وفي الصحراء، حيث لا شأى يقف النهار، تسدُ طريقه غرايت وجنادلُ ترجع إلى ما قبل الطوفان فتفرض عليه حطفة ١٢٠٠ كيلومتر، ولكن مكافئة الصخر هذه تردُّ إلى النيل من النشاط والحوية ما يحول دون جفافه بين سهلين من الرمل، والنيل يُبتلى بـ ٣١ شلالاً ثم يخرج منها ظافراً كما خرج من الناقع.

وجميع اللال التي تأخذ بخناق النيل في أثناء ذلك السير ويقف الملاحه هي من الصوان والصخر البلورية ومن صفائح من صلصال<sup>(١)</sup>، أى من صخر ابتدائية، ولو استطاع الإنسان أن ينفذ قنوات على طول الناقع لوجب عليه أن ينفذ المليارات حتى يتقلب على الغرايت، ولن تكون الطريق الصالحة للملاحه هذه غير قوس دائره يكون خطُ كشنر الحديدى\* وتراً لها، والنيل ثلاثة فروع صالحة للملاحه، فأما الفرع الأول فيبلغ من الطول ٢٥٠ كيلومتر في القسم الأعلى من النيل، وأما الفرع الثانى فيبلغ من الطول ١٨٠٠ كيلو متر ويقع بين رجاف وانلرطوم، وأما الفرع الثالث فيبلغ من الطول ١٣٠٠ كيلو متر ويقع بين وادى حلقا والمصب\*، وإذا عدت النيل الأزرق الصالح للملاحه في ستمئة كيلو متر منه لم تجد النهر الصلاق نافعا لسير السفن في نصف مجراه وإن كانت السفن تنحدر على مساف<sup>(٢)</sup> قصيرة بين شلالاته، ولأنهار إفريقية الأربعة الكبرى مثل

(١) الصلصال: الطين اليابس الذى يصل من يسه أى يصوت.

(٢) المساف: جمع المسافة.



ذلك النصب ، وما في هذه القارة من هضابٍ قبيحٍ من وجود شرايين كبيرة للتجارة العالمية فيها كما في القارات الأخرى .

وتبدو ظاهرة المئة جزيرة في هذا المكان ، وعلى مسافة ألفي كيلومتر من هرَم رجاف ، وسنرى هذه الظاهرة في جميع الشلالات .

وَيَكُونُ النيلُ على ثمانية عشرَ كيلومتراً ، وبين مساقط صغيرة وكبيرة ، علماً من الجزُر المستورة بالخضر والبللَّة بالطراء والزَّبد ، والبادية مثل جنة صغيرة مقابلة لصخرٍ صلبٍ<sup>(١)</sup> وسهٍ جافٍ أصفر ، وتظلُّ هذه الجزائر بالسَّنط ذى الفروع الطويلة وأشجار الجُمَّيز الجميلة وأشجار الدَّوم<sup>(٢)</sup> التى تلتقى عليها المَرشَّات كما فى الأيكة البكر ، ولها بالخضر الدائم بين الماء الهارب تعويضٌ من غزتها ومن حياة الخيال الذى لا يكدَّر صفوه حيوانٌ ولا إنسانٌ إلا نادراً ، وهكذا تُبصر تحت ظل حديقة رائعة نسوةٌ من ذوات السعادة يدغن سُبَّاح الحياة الخالدين يَمْرُون من غير أن يَحْسُدَ منهم . وعندما تَدَحْرُ الصخرُ النيلَ نحو الشرق ، وتقرض عليه مرِّقها ، لا تَمَيِّنُ مجراه فقط ، بل تُرَرِّرُ بإحداها ، أيضاً ، مصيرَ الأراضى الممتدة على طول الضفاف ، وتكفى هذه الأراضى الضيقة الخصبية المُطَطَّاة بالنِرين ، والتي لا يزيد طول الواحدة منها على خمسة أمتار في بعض الأحيان ، لتكوين قرية قائمة أكواخها الطينية على الصخر ، وذلك مع العناية بأصغر قطعة أرض لزراعة الحبوب وغرس النخيل .

وتقع شدى على ضفة النيل الشرقية ، ولشدى مقدارٌ غير قليل من الأراضى الصالحة للزراعة ، ثم يُوغل النهرُ فى الصحراء بعد أن يقابل آخرَ رسولٍ من الشرق وذلك كلكٍ يقابل آخرَ ساعٍ قبل ذهابه إلى معركة كبيرة ، فنهْرُ المعبرة ينضمُّ إلى

(١) الصلح : الأملس الذى لا يلبث شيئاً - (٢) الدوم : عجر يشبه النخل .

### « النهر الأسود »

النيل في مجراه التحتاني بعد ثلاثئة كيلومتر من الخرطوم ، ويَصِلُ هذا الرافدُ الأخيرُ من البراكين الحَبَشِيَّةِ التي يَخْرُجُ النيل الأزرق منها .

ولا يَعْلَمُ السَّاحِلُ الَّذِي يَمُرُّ في شهر يونيه من قنطرة العظيمة الكبرى ، وهي الجِسْرُ الرابع بعد منبع النيل ، إنفاقَ كنشَرِ مبالغٍ كثيرةٍ لإدخال أركانِ أقواسها الستِ عميقةً إلى الصخر ، وذلك لأن مجرى النهر الفَافِرَ فاه جافٌ ، وإذا ما عاد في شهر يوليهِ هَدَرَ سيلُ عَرْضُهُ خَمْسُمِةَ مترٍ بالغٍ من الصَفِّ حول تلك الأركانِ ما تَلَطَّحَ أمواجهُ الوَحْدَلَةُ معه ضِفَّةُ النيل الغربية ، أَى تَصَدِّمَ ما بعد مَصَبِّهِ على مَسَافَةٍ غَيْرِ قَصِيرَةٍ ، وهذا هو سبب تسمية العرب إياه بـ « النهر الأسود » ، ويَخْرُجُ نَهْرُ العظيمة في جِرْبَتِهِ القَصُوبِ الشَّاهِقَةِ لَجَرِيَةِ النيل الأزرق ، ونَهْرُ العظيمة يَتَفَدَّى بِمَا يَتَفَدَّى بِهِ النيل الأزرق من الأمطار ، خَيْرُ رَأَا وَسُوقًا وَأَصُولًا وَجُدُورًا وَبَرًّا وَفُيُولًا مُمَزَّقَةً وَعِلَالًا غَافِلًا مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ فَاجَاءَ وَحَمَلَهُ وَقَتَلَهُ كَمَا تَجَرُّفُ الْعَاصِفَةُ الثَّوْرِيَّةُ أَبْنَاءَ الطَّبَقَةِ الْوَسْطَى النَّعْسِ .

ذلك هو آخرُ رافدٍ للنيل ، وتلك هي الصحراء ، ويظلُّ النهرُ وحيداً ، ومع سابق مياهه حتى النهاية .

ولو ادى النيل في أثناء الجُرَى من تلك المُرُوءَةِ الكبرى ثلاثة ألوان ، فالصحراء شديدةُ الصُّفْرِ في الناحيتين إلى ما لا حَدَّ لَهُ ، والأراضي المزروعةُ شديدةُ الخُضْرَةِ ، ويكون عَرَضُ هذه الأراضي نحوَ ميلٍ أحياناً ، وتكون هذه الأراضي ضيقةً غالباً ، ولا تكادُ تَبْلُغُ من المَقُومَةِ قَدَمَ عُمُومًا ، وفي الوسطِ يَبْرُزُ غَرَانِيتٌ مُتَبَلِّلٌ رَمَادِيٌّ لَامِعٌ ، وَتَبْرُزُ جَزِيرَاتٌ وَصُخُورٌ مِنَ الْمَاءِ الْقَاطِرِ وَتُحْدِثُ مَسَاقَطَ ،

### الدوايب ذوات الصريف

وَيَعُدُّ الاِسْتِقَالَ لِلْفَاجِئِ مِنْ الرَّمْلِ الْأَصْفَرِ إِلَى الشَّفِيرِ<sup>(١)</sup> الْأَخْضَرِ ، وَيُعَدُّ خِصْبُ أَصْفَرِ أَرْضٍ ، وَيُعَدُّ عَدَمُ وَجُودِ مِثْقَلَةِ نِصْفِ سَحْرَاوِيَّةٍ ، أَمُورًا شَاهِدَةً عَلَى اِفْتِقَادِ حَقُولِ يَمُنُّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِمِطَرٍ قَلِيلٍ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ وَعَلَى عَمَلِ الْإِنْسَانِ الَّذِي أَبْدَعَ حَدِيقَةً عَلَى الرِّغْمِ مِنَ الْبَادِيَةِ بِمَتْحِهِ<sup>(٢)</sup> مَاءً مِنَ النِّهْرِ فِي مَجْرَاهِ الْحَجَرِيِّ .

وَالسَّاقِيَّةُ ، أَوْ النَّاعُورَةُ ، هِيَ الْجَنَّةُ الَّتِي يُعَدُّ جَمِيعُ مَا تَقْدُمُ مَدِينَاتُهَا ، وَتَسْتَقُومُ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْعَمَلِ فِي مِصْرَ عِنْدَ مَا يَبْلُغُ الْفَيْضَانُ السَّرِيعَ نِهَائَتَهُ ، وَتُرَافِقُ النِّهْرَ أُلُوفُ الدَّوَالِبِ ذَوَاتِ الصَّرِيفِ<sup>(٣)</sup> وَالْقَصِيفِ<sup>(٤)</sup> ، وَتُدِيرُ أُلُوفُ الثِّيْرَانِ فِي عَشْرِ سَاعَاتٍ مِنْ كُلِّ يَوْمٍ دَوَالِبَ مُنْتَصِبَةٍ بَاحِثَةً عَنِ الْمَاءِ ، وَيَحْتُ كُلُّ زَوْجَيْنِ مِنَ الثِّيْرَانِ رَجُلًا أَوْ صَبِيًّا يَدُورُ مَعَهَا ، وَأُولَئِكَ الثِّيْرَانُ وَأُولَئِكَ الصِّيَانُ هُمْ حَفْدَةُ ثُبْرَانٍ وَأَنَاسٍ يَمْتَحِنُونَ ، مِنْذُ أُلُوفِ السِّنِينَ ، مَاءَ النَّيْلِ فِي الْمَكَانِ بَيْنَهُ وَبِالدَّوَالِبِ وَالْقَوَادِيسِ<sup>(٥)</sup> بَيْنَهَا .

وَمَا النَّخْلُ الَّتِي يُتَخَذُ خَشْبُهَا فِي صَنْعِ النَّوَاعِيرِ تَحْتَ وَهَجِ الشَّمْسِ إِلَّا مَصَادِرُهُ عَنْ النَّخْلِ الَّتِي غَرَسَهَا الْمَصْرِيُّونَ وَالرُّومَانُ وَالْوَثْنِيُّونَ وَاللَّسَلُونُ وَالنَّصَارَى فِي تِلْكَ الضُّفَافِ الْمُسْتَوِيَةِ ، وَالَّتِي شَدَّبُوهَا عَلَى نَخَطٍ وَاحِدٍ وَجَهَّزُوهَا بِجِبَالٍ وَأَسْنَانٍ تَهْتَأُ لِدَوْرَةِ الْمَاءِ وَلِلخِصْبِ حَتَّى حُدُودِ الصَّحْرَاءِ ، وَالدَّوَالِبُ يُعْنَى بِلِحْنَةِ الْمَطَرِ الدَّالِّ عَلَى مَسَافَةِ أُلُوفِ الْأَمْيَالِ ، وَالدَّوَالِبُ الْقَدِيمُ الْأَعْقَدُ<sup>(٦)</sup> الْأَقْصَفُ يُجَوَّلُ طَرَفَ الصَّحْرَاءِ إِلَى نَهْرِ مِنْ

(١) الشفير : من الوادي ناحيته من أعلاه — (٢) متع الماء : نزرعه — (٣) صرف : صوت عند فتحه وإغلاقه — (٤) القصيف : حدر البئر — (٥) القواديس : جميع القادوس ، وهو إزاء ما يخرج به الماء من السواقي — (٦) الأعقد : ما كان به عقد .

النخل تغطي كل شئ.

زُرْءِد، وذلك كالإله قُورَكن<sup>(١)</sup> الذي هو أبشع الآلهة فكان يصنع حُلَيْتَةً من الزُرْءِد بين الدَّنى<sup>(٢)</sup> والثَّان<sup>(٣)</sup>.

وعلى الجُرْفِ<sup>(٤)</sup>، وفوق النهر، تُحَرَّكُ جِبَالٌ غليظةٌ دُولَاباً عُمُودِيّاً حاملان نحو عشرين من الجِرَارِ الطويلة للصنوعة من طين لازب<sup>(٥)</sup> أحرّ، وهذا الدُولَابُ يدُورُ حَوْلَ جِذْعِ<sup>(٦)</sup> نخلةٍ مُدْمَجٍ تَدْمِجاً أَقْفِيّاً في مركزه، وفي الأسفل تَنْطِيسُ كُلِّ جَرَّةٍ في الماء وتمتلئ، فإذا ما صَعِدَتْ ثَانِيَةً انْجَرَفَتْ عن عُمُودَيْهَا وَصَبَّتْ الماءَ في ساقِ شَجَرَةٍ مُجَوَّفَةٍ تَجَلْبُهُ إلى خَنْدَقٍ صَغِيرٍ، ويندمج جِذْعُ النخل الأَقْفِيّ، على ارتفاع بضعة أمتار، في دُولَابٍ كَثِيفٍ ثَانٍ يُدِيرُهُ الثَّوْرَانِ حَوْلَ مِخْوَرٍ عُمُودِيٍّ، وَيَجْلِسُ الصَّبِيُّ السَّائِقُ لَهَا على تَوَحُّصٍ صَغِيرٍ خَلْفَهَا، وهو في كُلِّ دَوْرَةٍ يُغْنِي رَأْسَهُ مَرَّتَيْنِ تَحْتَ نَخْلَةٍ ثَالِثَةٍ أُتْخِذَتْ زَافِرَةً<sup>(٧)</sup>، وهو في مَرَاتٍ أُخَرَ يسير وراء الثَّيْرَانِ مُمَسِّكاً الرِّسْنَ غَيْرَ مُضْطَرِّ إلى الانحناء كثيراً كما في تلك الحال.

وعندما يتحرك الدُولَابُ المُحَرَّكُ يدُورُ جِذْعُ النخلة العُمُودِيّ في مركز خشبيّ موضوع في الأسفل فيؤدّي ذلك إلى الصَّرِيف الذي يُسَمَّع على طول النيل في بلاد النوبة ومصر، ولا يَقْدِرُ الفقيرُ على رَكْزِ مَدَارٍ في الأرض لِمَا لَيْسَ لَدَيْهِ مِنْ جَبَرٍ<sup>(٨)</sup> ومسامير، فترى كُلَّ شَيْءٍ مُشْدَباً في الخَشَبِ، والنخلُ تَغطّي كُلَّ شَيْءٍ، تَغطّي جُدُوعَهَا وَشُرَطَهَا<sup>(٩)</sup> وأوراقها الجافّة التي تَبْقَى القَلاحَ حَرَّ الشَّمْسِ،

(١) فولكن : إله النار والمعدن عند الرومان كما جاء في الأساطير — (٢) الدنى : الرامحة السكرية — (٣) الثان : الدخان والنيار — (٤) الجرف : الجانب الذي أسفله الماء من ماحية النهر — (٥) الطين اللازب : هو الطين المترج المتناسك الذي يلزم بفضه بعضاً — (٦) جذع النخلة : -انها — (٧) زافرة البناء : ما يدعم به — (٨) الجبر : الجبس .  
(٩) الشرط : جمع المريط ، وهو الخور المتدل ، والجوس هو ورق النخل .

والدولابُ وحده هو الذى يُصنع من خشب السَّنط في الغالب ، ويسير الفلاحُ على مَنَّة أجداده فلا يتناع غيرَ الجِرار ، وإذا ما كَبِرَتْ جَرَّةُ استبدال الفلاحُ بها ، في الوقت الحاضر ، إنَّه من صفيح الزيت أو عُلْبَةٍ كَبِيرَةٍ من عُلَبِ المحفوظات <sup>(١)</sup> الفارغة .

والعَلَبُ اللامعة بنور الشمس هي كلُّ ما بُدِّل في الساقية منذ عهد الفراعنة ، وتَدُورُ الساقية المَصَوَّرَةُ على جُدُرِ قبور الفراعنة كما تَدُور اليوم ، وإذا ما حَرَّكَتْ كلُّ واحدةٍ من الساقيتين أو السواقي الثلاث أو الأربع بنوَجين من الثيران بَلَّغَ ماء النيل في بضع دقائق مِنطَقَةً مرتفعة عنه عشرين متراً جافَّةً مُجَرَّدَةً منتظرة سَمَى الإنسان لِقَسْرَتِ الحَضَر .

تلك هي الآلة السحرية القديمة التي تقوم مقام المطر في الأشهر الثمانية التي لا يأتي النهر في أثنائها بماء جبال العَبَشَةِ الذى يفيض على الأراضي الممتدة حَوْلَه ، وَيَقْفِدُ المحراثُ فائدته فيَجْهَلُ أمرُه في مساوِفَ واسعةٍ في بلاد النوبة ، وفي مصرَ بعدئذ ، حيث يَصِلُ الماء وصولاً طَبِيعياً أو مصنوعاً فيُنْجِمُ بالمحاصيل قسراً ، وحيث تقوم ثلاثة أشهر ، أو بضعة أسابيع في بعض الأحيان ، مقامَ دَوَرَيْنَا من الخريف إلى الربيع ، ويُحْدِثُ الفلاحُ حُفْراً بطرف حديدية ، أو يَمْسِكُ قَدَمَ أحياناً ، ويَرْمِي فيها بعضَ الحبوب ، ولا يَمُرُّ الفلاحُ سَمَاداً غيرَ الكَلأِ الفاسد الذى يَثْقَلُه ، وينبُت الحبُّ بسرعةٍ وتَبْلُغُ الشُّوقُ ارتفاعَ خمسة أمتار في بعض الأحيان ، وتُعْطِي الأَنْوَاعَ الجيدة عرائسَ ذاتِ خُصَلٍ كَبِيرَةٍ وَحَبِّ أَيْضَ ذى غلافٍ دقيق ، وتُفْنِي هذه الثَّرَّة عن البُرِّ والشَّعير ، وَيَزْرَع ابن الشاطئ فضلاً عن ذلك

ثامراً<sup>(١)</sup> وفولاً وعدساً وقرعاً وكتماً وتبغاً وفلفلاً أحمر وخروعاً ، وينضج أحلى ما في جميع وادى النيل من الرطب حول بزر ودقته ، وتتخذ طريقة طريفة لتأبير<sup>(٢)</sup> النخل ، وذلك أن النخل ، لقلة ما فيها من فصاحيل<sup>(٣)</sup> ، يوزع بينها القفاح<sup>(٤)</sup> كما في نظام الأمومة ، فإذا حل فصل الربيع تم<sup>(٥)</sup> الأولاد في النخل وجنوا عسليجها<sup>(٦)</sup> للزهرة ورموا الكش<sup>(٧)</sup> على أشاها وسقوها بماء الناعورة ، وإذا هبت ريح السموم حذوا الله ، فالتل<sup>(٨)</sup> العربي يقول : « يَنُمُو بَلَحُ اللَّهِ وَرِجْلُهُ فِي الْمَاءِ وَرَأْسُهُ فِي نَارِ السَّمَاءِ » .

واليك أناساً سمرأ طوالاً يخافاً ، كلهم من عصب وعصل ، كلهم من غير شعهم بفعل رمل الصحراء وحرها ، إليك البرابرة الذين يقيمون بأطراف غروة النيل منذ ألوف السنين ، وقد كانوا بدويين فيما مضى ، ولا يزال أبناء جنسهم من أهل البدو ، ويحلقون شعورهم ولحاهم ملطاً ، ولهم جياه راجعة ، وهم قُعم<sup>(٩)</sup> الأنوف ، خوص<sup>(١٠)</sup> العيون كما تبدو تحت حواجبهم الكثيرة الشعر ، وتظهر الحياة على سيامهم بصرهم ، ويدونشاطهم وودادهم من أول اختلاط بهم ، ويتخذهم أغنياء المصريين في القاهرة خدماً وسعاةً وعلهاء وخوذيين<sup>(١١)</sup> لما عُرِف من إخلاصهم لسادتهم ، ويُعدون أكثر أهل إفريقية الشرقية قري ، ويفتنون بالذرة والخبثنة وخفنة من التمر ، وينامون في الغالب على صندوق قديم من غير أن يزول أنسهم ، ويدرهمون شاة

(١) الثامر: الولياء (٢) أبر النخل تأبيراً : لقها — (٣) الفصاحيل : جمع الفحل والفعال ، وهو ذكر النخل — (٤) القفاح : فتح اللام ما تفتح به النخلة — (٥) حل في الشجر : سعد : (٦) العسليج : جمع السلوخ ، وهو مالان من قضبان الشجر — (٧) الكش : ما تفتح به النخل — (٨) القم : جمع الأقم ، وهو ذو القم ، أي الميل في الأنف — (٩) الخوص : جمع الأخوص ، وهو من غارت عينه في رأسه — (١٠) الموذى : المسحت الخيل أو الدواب على السر ، ويستمونها الآن لسائق المركبة ، وتسميه العامة بالكلمة التركية « العربي » .

تكريماً لضعفهم ، وبحشون له عن كَبْنٍ سائرٍ وَيُنَّ حَسَنٍ من مَسَافَةٍ بعيدة ،  
وَيَحْرُسُونَهُ وقتَ نَوْمِهِ أوْ يَقْضُونَ عليه أَقاصيصَ قَدِيمَةٍ تحتَ السماءِ ذاتِ الكواكبِ ،  
وفي لَحْظِهِم من البَقايا ما يَنْبَغُ على أَنَّهُم كانوا نصارى قبل أنْ يصيروا مسلمين ،  
ولا يزالون يُسْمَوْنَ يَوْمَ الأَحدِ يَوْمَ الرَّبِّ\* .

وعاصمتُهُم ، بَرْبَرُ ، بُقْعَةٌ خَضراءُ في الصحراءِ الصفراءِ ، وهى واقعةٌ على مجرى  
النهرِ التَّحتانيِّ بعدَ مَصَبِّ العُطْبَةِ ، وهى ، وإنْ لم تكن هِمةً فى الوقتِ الحاضرِ ،  
كانتْ أَكْبَرَ مَدِينَةٍ على النيلِ الأَعلى منذَ ثمانينِ سنةً ، وكانتِ السفنُ الشَّراعِيَّةُ  
تَقْصِدُها ، وكانتْ منذَ القَدِيمِ سوقاً للماعِجِ والذهبِ ، ولِلنَّخاسةِ على الخُصوصِ ،  
وما فيها من حداثٍ ظَلِيلَةٍ لِشَيْبِ المُوَظَّفينِ والتَّجارِ قَدِيْرٍ ، بِالْحَقِيقَةِ ، لَمَرَقَ  
الإنسانَ والحَيوانَ .

والنَّيلُ صَوْتُ فى تلكَ المِنطَقَةِ ، والنَّيلُ فى مَنطَقَةِ الشَّلالاتِ تلكَ ، والنَّيلُ فى  
ذلكَ المُنْعَطِفِ الذى يَجاوِزُ أربعَ دَرَجاتٍ من الرِّضِ ، يَهْدِرُ وَيُزْمَجِرُ وَيُرْعِدُ وَيُزِيدُ ،  
ولا مِرَاءَ فى أنْ فِقرَ الصَّوَّانِ تلكَ ، ولا مِرَاءَ فى أنْ حوَّاجَرَ الفَرانِيَّتِ تلكَ ، كانتْ  
تَوَلَّفُ بِحيراتٍ كَبِيرَةٍ قبلَ أنْ يَشُقَّ النَّيلُ لِنَفْسِهِ طَرِيقاً ، وهى لَكى تَتَوَارَى وَجَبَّ  
انْقِضاءُ أَلوفِ السِّنِينَ فى اصْطِراعِ المِاءِ والصَّخْرِ ، ولم تَنْفَكِ الصَّخُورُ تَدْرُسُ<sup>(١)</sup>  
وتُدَّاسُ<sup>(٢)</sup> بِالْمَوْجِ الظَّافِرِ غَيْرِ تارِكَةٍ لِلْمَوْجِ غَيْرَ ذَرَاتٍ وَحَصِيَّاتٍ نَتِيجَةً لِنَحْضُوعِها ،  
وَيَنْقُصُ النَّهْرُ بينَ مِئاتِ الجُنَدالِ والجَزَيراتِ ومن خِلالِ الدَّوابعِ ، التى تَبْلُغُ من  
الطَّوْلِ عِدَّةَ كِيلومِتراتٍ ، مُضَوِّضَةً<sup>(٣)</sup> ضَوْضاءَ زَعَمَ كاتِبُ رومانىٍّ أنْ أَهلَ الشَّوْاطِىِّ  
كانوا يَهاجِرُونَ بسببِهِ خَوْفاً من أنْ يَصْبَحُوا صُماً ، ومِهما يَكُنْ من أَمْرِ فَإِنْ ما يُخْرِجُه

(١) درسُ النِّقى : جَلَهَ بالِيا — (٢) داسُ السِّيفِ : سَفَلَه — (٣) ضامناً القومَ فى الحربِ  
وضوئاً : صَوَّرَها .

الببراءة من أصوات هائلة فى الوقت الحاضر يمدُّ دليلاً على أن الضرورة تُقَوِّى أىَّ عضوٍ كان ، وذلك لبلوغ أصواتهم من ضيفة إلى أخرى مع هدير الموج ، على حين لا يكاد الرجل الأبيض يُسمِعُ صوته لآسافةٍ عشرَ خطوات .

ولأذُننا أن تقضى العجب فى تلك الضفاف الرائعة ، فالسائحُ الذى يسير بين كثيرين راكباً بعيراً دانياً من النهر من غير أن يرى رأس نخلةٍ أو يرى جاريةً سفينةٍ يُفتَنُ أيضاً بسماعه من بعيدٍ خريرَ المياه كما كان يُفتَنُ أغارقةُ عصر هيرودوتس بمثل ذلك عند مشاهدتهم البحر ، والسائحُ الذى يمشى على الضفة وقت القيضان يَسْمَعُ اختلاط هدير الأمواج باصطكاك الحصى عند زحولها<sup>(١)</sup> عن الشاطئ بقوة المدِّ .

وتحاول جُرُوسُهم وجزيئات كثيرة عند الشلال الخامس ، وبعدهميين كيلومتراً من برّبر على مجرى النهر التحتانى ، أن تسدَّ مجرى النهر فى عشرة كيلومترات على غير جدوى ، ثم تتغلب الصخورُ على الماء حول الدرجة العشرين من العرض الشمالى وبعدها خرطوم بأربعته كيلومتر من الخط الحديدى ، وتُكرِّهه على الصراع متقهراً ، ويحمل السَّماطُ البركانى التَّخينُ ، الذى يجوب الصحراء من الشرق إلى الغرب ، نهر النيل على الرجوع إلى وراء اللرة الوحيدة فى حياته ، وعلى الجريان نحو الجنوب لبضع مئاتٍ من الكيلومترات كالمائد إلى منبعه ، وهو إذا كان على بُعدٍ من خصه الفرائضى استأنف جريته إلى الشمال من فوزه ، أى سلك السيل السَّعدة له ، وذلك كالرجل الذى يُغيَّر وجهته ليرجع إليها بقوى منطوية .

ويَتَمَّعُ حِرْفَقُ أبى حمء والخرطوم وأسوان على خطِّ عمودى واحد تقريباً ،

(١) زحل عن مكانه زحولا : زال وتباعد وتحي .





٢٠ — العمل الثاني



### الفرقاء هم السعداء

وَيَبْدُو فِي هَذَا الْمُنْعَلَفِ إِحْدَى جُزُرِ النَّيْلِ الْكَبِيرَةِ ، الْبَالِغَةِ مِنَ الطُّولِ عَشْرِينَ مِيلًا وَمِنَ الْعَرْضِ ثَلَاثَةَ أَمْيَالٍ ، شَاهِدَةً عَلَى اصْطِرَاعِ الْعَانِصَرِ ذَلِكَ ، عَلَى حِينِ يَصِيقُ النَّهْرُ بَيْنَ صِفَتَيْهِ الصَّوَانَتَيْنِ وَيَتَسَّعُ مُتَنَابِغًا بَيْنَ مَتْنَى مَتْرٍ وَأَلْفِي مَتْرٍ ، وَكَانَ الْقَدَمَاءُ يَبْحَثُونَ عَنِ الْذَهَبِ وَالْفِضَّةِ فِي جُزُرِهِ ، وَيَتَكَلَّمُ دِيُونُورُسُ عَنْ وَجُودِ نَحَاسٍ وَحِجَارَةٍ ثَمِينَةٍ بِجَانِبِهِمَا ، وَهَذِهِ إِمَّا أَنْ تَكُونَ قَدْ سُرِقَتْ مِنْ هُنَاكَ ، وَإِمَّا أَلَّا تَكُونَ قَدْ وَجِدْتَ هُنَاكَ .

وَلَا يَنْقَطِعُ قُطَاعُ الطَّرِيقِ عَنْ تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ ، لِأَنَّ النَّيْلَ هُوَ السَّبِيلُ الْوَحِيدُ بَيْنَ الصَّحْرَاوَيْنِ ، وَإِذَا مَا لَاحَ لَنَا قَصْرٌ قَدِيمٌ أَسْوَدُ بَرَقَاقٍ قَامَ عَلَى شَاهِقٍ فَوْقَ الشَّاطِئِ وَأَبْصَرْنَا النَّهْرَ يُولِّفُ دَوَافِعَ جَدِيدَةٍ لِيَصِيقَ بَيْنَ حَاجِزَيْنِ أُدْجِنَيْنِ فِيمَا بَعْدَ رَأْيِنَا كَوْنَهَا هَزِيلًا يَسْتَدِلُّ إِلَى جَنْدَلٍ وَوَجَدْنَا فِيهِ زَوْجَيْنِ وَأَوْلَادَهُمَا يَكْسِيَانِ عَيْشَهُمَا مِنْ قِطْعَةٍ صَغِيرَةٍ إِلَى الْغَايَةِ وَاقِعَةٍ عَلَى الصُّفَّةِ تَمَثَّلَتْ لَنَا ذِكْرِيَاتُ الْقُرُونِ الْوَسْطَى ، تَمَثَّلَتْ لَنَا الْقَارِسُ الْقَاطِعُ لِلْسَّبِيلِ وَالتَّاجِرُ الْأَسِيرُ وَالْفَلَّاحُ الْمُسْتَعْطَى ، وَالْفَرَقَاءُ هُمُ السَّعْدَاءُ كَمَا جَاءَ فِي الْأَسَاطِيرِ ، وَلَا تَعْجَبْ ، فَقَلَّاحُ تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ يَقُولُونَ لِلشَّيَاحِ إِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ الْأَمْرَاضَ .

وَالشَّلَالُ الرَّابِعُ أَعْفَى مِنَ الشَّلَالِ الْخَامِسِ ، فَلَيْسَ الْفَرَانِيتُ وَالْبَرْزَلْتُ وَحْدَهُمَا هُمَا اللَّذَانِ يَمُوتَانِ النَّهْرَ ، بَلْ يَمُوتُهُ الرُّخَامُ السَّمَاوِيُّ وَالصَّوَانُ أَيْضًا ، وَيَقْرَضُ النَّهْرُ فِي سِتَّةِ كِيلُومِتْرَاتٍ طَرِيقَهُ مِنْ تَلٍّ أَسْوَدَ مُنْهٍ فَيُظْهِرُ مَحْصُورًا كَثِيبًا مُوَحِّشًا ، وَهَذَا هُوَ أَصْعَبُ قِسْمٍ مِنَ النَّيْلِ الْأَوْسَطِ ، وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْبِلَادِ خَيْرُهُ هُمُ الَّذِينَ يَجَاوِزُونَهُ ، وَيَتِمَاوَنُ الرِّقَاءُ عَلَى جَرِّ الْقَوَارِبِ الْمَاعِدَةِ فِي الشَّلَالَاتِ صِدِّ الْتِيَّارِ ، وَذَلِكَ بَأَنْ يُقَرَّنَ كُلُّ دُولَابٍ بِمَجْلٍ حَتَّى الدُولَابِ التَّالِيِ ، وَجَمِيعُ النُّوْبِيِّينَ

سُبَّاحَ ماهرون ، فإذا أراد أحدهم أن ينزل إلى النهر تَفَحَّحَ في قِرْبَتِهِ ، أو جَلَسَ على رَمَتِهِ<sup>(١)</sup> مُدْرَبٍ<sup>(٢)</sup> مصنوعٍ من سَوَقِ الدُّرَّةِ مَرْوَكًا بجَنْبِ وتَرٍ في قشر كَيْتَمَامٍ فيقضي أياماً بأُسْرَها عائمًا سائرًا على النيل مُدْبِرًا للأمر بيده الماهرة .

وقد يُقْتَلُ رَجُلًا ، أو قد يُخَطَفُ كما كان يصنعه باريس<sup>(٣)</sup> الأسود الشهير الذي كان يُقَوِّى حسانَ بلاد النوبة فيأتي بهنَّ إلى « كَعْبِ » العبد الذي لا يزال أقاضه بادية على الشاطئ ، والعبد رقيقٌ بسيطٌ أضلَّ زوجَ سيده فغاب بها إلى الصحراء الحَجَرِيَّةِ حيث شاد لها قصرًا منيعًا ، ولم يجد هذا النوبيُّ شاعرًا مثل أوميرس يُسَيِّدُ بذكره فلم يُكْتَبِ الخلودُ لِمَلِكٍ يمينه هيلانة السوداء تلك ، غير أن أسطورتها تجري بتوَدِّعٍ على شِفاه الزنوج بين هدير النيل .

ويظهر النهر موحشًا بين تلك الصخور والجُرُرِ كما في منبعه ، وهناك يستأنف الكفاح بقر الماء والتمساح ، أى سيد النيل ولصته ، وهناك يرقبان الساج ، وعندما يَصْرَعُ التمساحُ ، نصفُ المطمور في الرمل ، رجلًا بذنبه لأَعْيَبِهِ كالمُرِّ مُرْعَبًا إخوانه ، وليس لدى هؤلاء ما لدى الشُّلُك من مهارةٍ ووسائلٍ دفاعٍ في مثل تلك الحال ، وهم يزعمون أن التمساح يُفَضِّلُ الأبيضَ على الزَّهْجِيِّ تفضيلًا يُزْهَدُ الأوربيُّ فيه مختارًا ، ويجادل كثيرٌ من الرُّوَادِ في تَتَبُّعِ التمساح للإنسان على الشاطئ ، ويؤكد النوبيُّ عكسَ ذلك فيَنْصَحُ الضحية بالركض دوائر دوائر لإيقاظ نفسه .

ولبتر الماء ما للنيل من طبائع ، فإذا داس في النيل إنسانًا أو حيوانًا بين حين

(١) الرت : خشب يضم بعضه إلى بعض ويركب في البحر — (٢) مدرب : حاد .

(٣) باريس : من أبطال أساطير اليونان أغوى زوجة متيلاس : هيلانة — (٤) الكعب : الجسم الذي له ستة سطوح مربعة متساوية ، ويأتي هنا بمعنى البيت .

وحين تَرَكَه وشأنه ، وإذا قَلَبَ زورقاً فلأن الزورق صغير ولأن الربَّ خَلَقَهُ كبيراً ، وهو لا يَجِرُّ إنساناً ولا حيواناً إلى الماء أبداً ، وهو في السَّباحة كالقيل في الأرض ، وهو بطل في الحركة دَيْثُ الخُلُقِ طَيِّبُ المزاج بين قُرَّاته ، وهو في الثَّالب أقلُّ ضوضاء ودوراناً من باخرة نبيلة صغيرة تَشَقُلُ مثله حَبْرَ طَنْينٍ من الماء ، وهو ذولونير زيتونير سِنْجَابِي<sup>(١)</sup> ، وهو من الجود ما يُمِدُّ معه جُلُوداً بارزاً من الماء لو لم تَسِمَ شاماته الرديئة الجميلة وعينه وأذناه وَخَطَهُ<sup>(٢)</sup> على أنه حيوانٌ ، ولو لم يَفْقَرْ فاه بفتة عارضاً أسناناً ماثلة بالية كاشفاً على لسانه المريض قَصَفَ النَّيْلُوفَر<sup>(٣)</sup> الذي قَفَّى الشعراء بلفظه .

وليس لبحر الماء عيانان فائرتان كعيني القيل ، بل تبلغ عيناه من الكِبَرِ ما يُبْخِلُ إلى الناظر معه أنهما موضوعتان على وجهه ، ولبحر الماء بهما مع أذنيه الصغيرتين من قوة الشعور ما يُحِسُّ به حضور أعدائه ، وهو إذ كان لا يَحْشَى أحداً من هؤلاء تراه كثير المدود فيما خلا وقت السَّعاد<sup>(٤)</sup> ، وإذا كَثُرَت النياتُ المائية لم يَخْرُجْ من الماء في الليل ، وهو يَقْصِدُ الشاطئ مساءً اجتباعاً<sup>(٥)</sup> للكلأ ، وإذا صَمِحَ خُوارُه أَتَنَدَّى ظَنُّهُ أنه خارج من مغارة فتوَلَّى الأدبارُ لقدرته على سَخْفِ ثَوَرٍ عند مروره ، وهو يُحَدِّثُ في الحقل الذي يَحْوِيهِ إذ ذاك حُفراً أعَمَقَ مما يُحَدِّثُهُ يَحْزَاتُ حديدِيَّة .

ثم يعود إلى النهر الذي هو موطنه .

(١) السنجابي : نسبة إلى الحيوان المعروف بالسنجاب ذي اللون الأزرق الرمادي — (٢) الخطم من الفأرة : مقدم أنفها وفها — (٣) النيلوفر : ضرب من النبات ينبت في المياه الراكدة له أصل كالجزر وساق أملس يطول بحسب عمق الماء فإذا ساوى سطح الماء أوردق وأزهر — (٤) ساعد الذكر أثناء سفاد : جاسمها — (٥) اجتبع القوم الكلأ : ذهبوا لطلبه في أماكنه .

جانب النيل في مجراه الطويل جبالا ومناقع ومحارى فلم يصادف على ضفتيه أثراً  
لماضى ، ولو كان عموداً مكسوراً

وتُبصر من قورنك حقلاً من الأهرام في مجرى النيل التحتانى بعد الشلال الرابع ،  
تُبصر أكثر من أربعين جَدَّناً<sup>(١)</sup> لأناس من ذوى السلطان ، وتُبصر في أقصى  
جنوب منقطع النيل ثمانية أجداث أو تسعة أجداث على سفح تل ومن مسافة  
بعيدة ، أى في صنم أبى دُوم ، فإذا اتجه النهر إلى الشمال مجدداً تعاقبت الأعمدة  
والباني والأهرام مع فواصل طويلة حتى الشلال الثانى ، وإلى أى دور من ظلمات  
التاريخ تُبصرنا تلك الآثار ؟ ومن هو الفاتح الذى نقش على الفرائيت وبالخط  
المهيوغلىق ، أسماء قبائل الزنوج الوحشية وكتبها على أوراق البردى لتُنقل إلى  
الأعقاب ؟ ذلك الفاتح هم المصريون الذين جاءوا عن طمع في الذهب والبيد ،  
والذين هم أقدم العروق على النيل وفي العالم الغربى .

والنيل هو الذى عارضهم بشلالاته ، والنيل الحافل بالأسرار ، وهو كالتقيس  
الذى يمنع المؤمنين من رؤية وجه الله ، هو الذى يلوح أنه حال دون مد الأجانب  
عيونهم إلى عزلة اللياه التى تمن عليهم بالحياة ، وهل كان المصريون يتوجهون إلى  
مجرى النيل الأعلى على زوارقهم ، وهل كانوا يصنعون زوارق بين الشلالات ؟  
لا ماء في الصحراء ، وكثير ماء في النيل حين الفيضان ، فما كان يمكن الأجانب

(١) المجلد : القبر .

### الفراعة في بلاد النوبة

أن يسيروا إلى مجراه الأعلى لهذا السبب ، وزمر قليلة فقط هي التي كانت تجرؤ على التقدم عند إغضاء الأهالي الأصليين عن ذلك ، ويكون الهلاك نصيبها إذا ناصبها القداوة ، وتدل الأفاصيص الألفية على أولئك الغافرين الذين دفعهم فضولهم فردعهم فزعهم .

وسير رمسيس الكبير متوجهاً إلى مجرى النهر الأعلى في نهاية الأمر ، وقيم رمسيس هذا مستمرات على ضفته ، ويشيد معابد ومدناً على ضفته ، ويسكن فلاحين وصناعاً هنالك ، ويخلد مآثره بإقامة مباني وتماثيل في بلاد النوبة ، ورست الملكة حاتشپسوت على جذرها زنجاً جالين لما مواشى وزرائف وجلود أسود وحلق ذهب مع اتخاذ أوضاع الملوك ، وترجع هذه الآثار إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، وما حدث قبل المسيح بألفي سنة أن أوغل الفراعة حتى النيل الأزرق ذات مرة ، وبما لا ريب فيه أن امتد سلطانهم بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١١٠٠ قبل الميلاد إلى الشلال الرابع وأن أخذوا من بلاد النوبة عبيداً وذهباً .

ومع ذلك كان النيل ينحى من أبنائه من لم يفتته الأجنبي ، ومع ذلك كان النيل يحطم سفن الفزاة فيهب هؤلاء الأبناء إلى قتلهم ، ومع ذلك كانت سياطة المرفأ تغلو هؤلاء الأبناء في الغالب فيكروهون على حفر دهايز في التلال وتذبح عروق الذهب فيها وفك الصخور بإحائها وإسقاطها بمحاول من حديد ، وفيما يحمل الشباب على الجني عراة وعلى جمع القطع التي تسقط على ضوء السراج<sup>(١)</sup> المترجرج ، والحبوي<sup>(٢)</sup> بها إلى نور النهار ، يستحقها الشيب والنساء يرحى حتى

(١) السراج : جمع السراج ، وهو إناء يحمل فيه زيت أو نحوه فيعمد في فيه ويصل إلى مواد مشتتة في طرفها عند ما تحس النار فيستضاء به — (٢) جالول يجبر حبوا : زحف على يديه ويطنه .

تصبح فِذْرًا<sup>(١)</sup> بحجم العدس فتُطْرَح بعد الفيضان على طول زَوْزِقٍ ضيق طويل ،  
ثم تُفْسَل على ألواح حجرية مُتَحَنَّة<sup>(٢)</sup> حتى لا يبقى منها غيرُ شُدُورٍ<sup>(٣)</sup> لأمعة قليلة ،  
ثم يَصْهَرُ الأجنبيُّ هذا الثَّيَرُ في بَوَاتِقٍ<sup>(٤)</sup> من طينٍ مع رصاصٍ وملح مدة  
خمس أيام حتى يصنع منها حَلَقًا وألواحًا .

وهكذا أضاعت قبائلُ النوبة أجيالَ أولادها ، وثارت وقهرت فما قَيَّ أبناؤها  
يكونون عبيدًا .

أَجَلٌ ، يَدْرِكُ النوبيون معنى نَزْعِ الفَرَازِ الأجانب ريشَ البُغَامَةِ النوبية  
الأبيض ، وسلخهم جلود الأبقار لأخذها على ظهور الجبال ، وذبحهم الأفيال لتتيل  
عاجها ، وحملهم أبناء الصحراء الأقوياء على النزول إلى التهر معهم وإلباسهم  
بِرَّاتٍ مختلفة الألوان وجلبهم شُرَطًا<sup>(٥)</sup> على مفارق الطرق ، ولكن النوبيين  
لا يَدْرِكُونَ معنى اهتمام سادة البلاد بثلث الأقراص المعدنية الصَّغِيرَةِ الهزيلة التي تُنْحَى  
في سبيلها بألوفٍ العبيد ، وذلك بأن هَلَكَ نصفهم في الصحراء أو في النهر ، وبأن أُعِدَّ  
نصفهم الآخر لتقليب البواتق أو لرقاية المَعْدِنِينَ تحت السَّيَاط ، وقد جَهِلَ هؤلاء  
النوبيون إنشاء فرعون في أثناء حياته ضريحه أَوْقَرَهُ المُشْتَمَل على ثلاثين ألف  
رطلٍ من ذهب بلادهم .

وكان رَمْسِيْس في القرن الثالث عشر يفاخر بأنه الملكُ الذي « يُسْتَخْرَجُ الذهبُ  
باسمه من الجبال » ، قَبْلَ أن تنظم مناجاه ما يُمَكِّن معه أن يُنْتَفَعَ بها في أيامنا ،  
وكان حِذْقُ أولئك الفراعنة يَعْدِلُ طمعهم ، وظلَّ ذهب النوبة هـ طويل زمنٍ ،

(١) القدر : جمع القدرة ، وهي القطعة — (٢) متحنية : معوجة — (٣) الشدور : جمع  
الشفرة ، وهي قطعة من الذهب تُلَفَّف من معدنه — (٤) البواتق : جمع البوطة ، وهي الوعاء الذي  
يُنْزَب فيه الصائغ المُنْفَع — (٥) الشرط : جمع المرطى .



عنصرًا رئيسًا من عناصر سلطانهم ، والنوبة تعني « أرض الذهب » ، ومع ذلك كانوا لا يجيئون ما في الذهب من لئنة ، فقد أنبأهم كهنتهم بأن كتابة في مصر الدنيا تقول : « إن الذهب هو جسم الآلهة ، وهو غير خاص بكم » .

وتحققت تلك اللعنة ذات يوم ، ولم يحدث أن خرج النوبيون من الحياة البردوسية التي ينعمون بها فساروا نحو مجرى النهر التحتاني ، والآن يستحوذ عليهم الغضب والفُصول والهلع وحب الانتقام ، فقد علم أحد ملوكهم ، يانكي ، ما بين ملوك مصر من شقاق فجتمع جيشًا ، وجاوز الحدود بزوارقه وثيرانه ، وقهر أعداءه ، ودخل طيبة ومنفيس في سنة ٧٥٠ قبل الميلاد ، وصار سيد جميع مصر هو وذريته من بعده ، وقد أتى هؤلاء الفاتحون الوحوش النشأ من كوش الفقيرة ، قبضوا بقلعة على زمام المصريين ، وبدوا للمصريين البائس التهذيب كالهياطة<sup>(١)</sup> ، وتدل الكتابات على عدم اكتراث ذلك الملك المتخلق بمثل أخلاق البروسيين للحسان في قصر هليوبوليس ، وعلى نذرته من نقص علف خيله ، وذهب أحد أولئك الملوك إلى فلسطين نصرًا للملك حزقيًا على أعدائه الأشوريين ، ولا نعرف مدى تأثير المعابد والقصور والفلكيين والتلاحين وأمور نافعة أخرى في هؤلاء الهمج الذين غزوا الحضارة واستقرهم السلطان عن إرهاب ، وهما تكن الحال فقد طردوا في نهاية الأمر ، ولكن مع نزوئهم بمحارف كانوا يمدونها ضربًا من الأساطير .

وقامت دولة قبل تلك التتوح وبعدها ممتدة من الشلالات إلى مكان بعيد من شرق بلاد النوبة ، وكانت مملكة مروى هذه واقعة في أقصى الجنوب من عروة

(١) الهياطة ( Les Huns ) : قوم من الوحوش كانوا يكون شواطئ بحر قزوين فغزوا أوربة بقيادة أنيلا في أواسط القرن الخامس .

النيل الكبرى ، وكانت عاصمتها نَبَاتَة ، وكانت مستعمرةُ الفراعنة هذه قد دَعَتْ إلى السلطان كَهَنَاءَ مصريين يَلْفُوا هنالك مهاجرين أو أسارى أو علماء فيلوج أنهم أَوْخَرُوا إلى ملوكِ الشُّود بمغازى الانتقام ، فلما عاد الفاتحون إلى بلادهم حاولوا أن يَدْخِلُوا إليها فنَّ البناءِ المِصرىَّ وعاداتِ المصريين وقوانينهم ، ولما أراد الملكِ بِتَانَسْكِ أن يَحْلِدَ مفاخره على غِرَارِ الفراعنة أو على سُنَّةِ الطُّغَاةِ المعاصرين نَعَتْ نفسه في كتاباتِ أحدِ المأبدِ العظيمة بالكلمة : « جالب السلام إلى البلدين وملك الشمال والجنوب وابن الشمس وصاحب التيجان » ، وَصُورَ الإلهَ آمون وهو يُقَدِّمُ إلى ذلك الملك سيفاً قصيراً ، وَصُورَ ذلك الملك في وَضْعٍ يَصْرُحُ به بضمة نَفِرٍ من أعدائه .

وطلَّت تلك الملكةُ الواقعة بين الشلالِ الثالثِ والشلالِ الخامس حليفةً مدةَ خمسة قرونٍ لَطِيفَةِ ولِلْهِ الدولة ، آمون ، ذى السيطرة على الحكومة ، وما انفكَّ ملوكُ نَبَاتَة يُلقِبُونَ أنفسهم بـ « ملوكِ البلدين » إلى ما بعد قرنين من سيطرتهم القصيرة على الدلتا ، وكذلك الفراعنة كانوا يُبَاهُونَ بأنهم سادةُ بلادِ النوبة مع أنهم أضاعوا كلَّ سلطانٍ لهم هنالك منذ زمنٍ طويل ، وذلك ضَرْبٌ من عنادِ المستبدين الذين لا يَتَنَزَّلُونَ عن ولاياتٍ يَحْتَسِرُونَهَا ، ولكن ملوك ذلك الزمن كانوا يقومون بِمَحَلَّاتٍ على رأسِ جيوشهم ، وقد طَعَنَ توتْموزيسُ الأولُ ملكَ النوبة يده وابتقر من الشلالِ الثالثِ .

وغابت هالةُ الملوكِ تلك في القرونِ القادمة ، وصار الحكمُ قبضةَ الكهنة وأُشْدِلَ سِتَارُ النسيان على العاداتِ المصرية ، واشتُبِدَتْ لهُ شُعْبَةٌ ، تحلَّتْ وحدها في آتِ الوقتِ الحاضر ، باللغة الميروغليفية التي لم تكن في غير الكتابة الرسمية ، ويأتى دَوْرُ





لم يتم بحلّه غير جيش العرب

الملك فيز الأسطوريّ ، ولا أحد يَعْرِف كيف وقع ذلك ، ويُشَدُّ كِتَابُ من الأغارقة بذكر ذلك البلد العجيب بحماسة كبيرة فلا يَنْصَحُ أحدٌ ما يقولون على حِكْمَةٍ التند ، ويرتدُّ الملوك المحليون حتى الشلال الرابع لِيَتَعَذَّرَ قهرم ، وذلك لِما لماصتهم الجديدة مَرَوِي من حماية بالنيل ومن عدم جعلهم عُرْضَةً لِأَيِّ اعتداء كان ، و يروى استرأبون أن الملوك هناك كانوا يُنْتَحَبُونَ من أجل الناس وأكثرهم مهارة وأعظمهم بسالة ، ثم خَلَفَ هؤلاء الأجداد القصة خَلَفَ صِغَافُ فَخَصَّعَ هؤلاء الأعقاب لِكَمَّان كانوا يقولون إن الآلهة هي التي تُملِي عليهم أوامرهم الفادرة ، وكاتوا من السلطان ما يَفْرِضُونَ الانتحارَ معه على الملوك ، ووُجِدَ من هؤلاء الملوك واحدٌ فقط لم يُمكنْ الكهنة من نفسه قاتلاً الكاهن الأكبر .

وكانت الأمُّ الملكة تقوم في أثناء صِغَرِ الملوك بشؤون السلطة وصيةً على العرش مع إشراف الكهنة ، وكانت تحتفظ بالسلطة لنفسها زمناً طويلاً ، وقد فَتَحَتْ إحدى هؤلاء الملكات جزءاً من مصر العليا ووَصَلَتْ إلى أسوان وبَلّاق<sup>(١)</sup> ، غير أن شعباً جديداً مرهوباً كان يستولى على البلاد ، غير أن الرومان أرسلوا جيشاً للانتقام بسبب إهانةٍ وُجِّهَتْ إلى إمبراطورهم الذي كَبَّكَبَتْ تلك الملكة تماثيله فأوغل هذا الجيش في البلاد قَبْلَ الشلال الثاني ، ويَمْنِي ألفاسنة فلا يقوم بمثل ذلك العمل أحدٌ سوى جيش العرب .

وهكذا يتناوب الحقدُ وحظُّ السلاح وضروبُ الانتقام ذينك البلدين الواقعيين .

---

(١) بلّاق (Philoe) : جزيرة واقعة في جنوب أسوان على الشلال الأول ، فيها معبد لبطليموس الثاني اسمه عند العامة «قصر أنس الوجود» ، وهي غير جزيرة أسوان التي كان فيها سوق الماعج الوارد من الأقطار السودانية ، وقلبك سماها اليونان « جزيرة الفيل » ( Éléphantine )

على ضفاف النيل ، وذلك حتى سنة ٣٠٠ بعد الميلاد حين غادر الإمبراطورُ  
ديوكليسيان بلادَ النوبة .

## ١٦

تَرَى الأرضَ الضيقةَ الممتدةَ على طول النهر حين اتجأه إلى الشمال مستورةً  
بالنخل ، وتَرَى واحاتٍ كثيرةً على طول الطريق للمتدة بين الشلال الرابع والشلال  
الثالث والبالغة ثلاثين كيلومتر .

ويكون الطيرُ حيث يكون الحبُّ ، ويقفُ الأولادُ ، لاصطيادِ الطيور مع  
وجود الحر ، على أنلام<sup>(١)</sup> معروفة ومُحَرَّكُون أغصاناً في النهار كله ، على حين  
تَصْرِفُ النواصيرُ التي لا تَعْرِفُ التعبَ وتدور الثيرانُ الكبيرة ، التي يَتَدَلَّى جلدُ  
عُنُقِهَا كَثَرًا ، مدةَ عشرِ ساعات تحت وَهَجِ الشمسِ إصداً للماء ، ولا تَقْلَمُ  
فِيمَ تُفَكِّرُ ، ومن طبيعة الإنسان أن يُقْنِعَ نفسه بأن عِبْدَهُ ، إنساناً كان أو  
حيواناً ، راضٍ بنصيبه ، ومما يُخَيِّلُ إلينا أن حُصْنَ دُقْلَةِ الْبَيْضِ المعروفة منذ القديم  
تَقْضِي حياةً طيبة ، ومن المحتمل أن تَحْسُدَ في أثناء عَذْوِهَا شِبْرَ الْوَحْشِيِّ ما تراه من  
البهائم يَدُورُ دُورَانَا دَائِماً بِخَطِّهَا رَزِينَةٍ .

وَتُكَدِّسُ آثَارُ أُلُوفِ السنين في هذا القسم من الْمُتَعَطِّلِ الذي تسير القوافل  
من ناحيته الجَنُوبِيَّةِ إلى الجَنُوبِ .

وَتَضَجُّ قِطْعَةٌ مِنَ الصَّوَّانِ عَلَى الْأَرْضِ بِالْقَرَبِ مِنْ دُقْلَةٍ ، وَتُتْرَكُ هَذِهِ الْقِطْعَةُ

(١) الأتلام : جمع الظلم ، وهو ما يجمعه سكة الفلاح من الأرض .

### قطعة حجر

هنالك منذ خراب بيت من طين ، وكانت تتألف منها إحدى زوايا هذا البيت الذي كان جنوداً من الاسكتلنديين ينزلون فيه أيام حملة كوش الأخرى ، وبملا ربيب فيه أن كانت تلك القطعة دعاماً لتاعورة لا تاريخ لها ، وكان البتأمون قد ترعوا ذلك الحجر من قبر عربي ، وكان ذلك الحجر قد حال ، هكذا ، دون غارات العقبان على جثمان عبد دفنه ابنه التقي سراً منذ بضع عشرات من السنوات ، وكان هذا الابن قد فصل الحجر ليلاً عن أحد الحصون التي أقامها المماليك لمقاومة محمد علي ، وكان هؤلاء المماليك قد حلقوا الحجر من زاوية مسجد شاده صلاح الدين في القرن الثاني عشر حينما أمر بقتل جميع الأساقفة بعد دور طويل من السلام .

وكانت النصرانية في وادي النيل الأوسط ذلك مسيطرة على كثير من الأماكن مدة تزيد على ستة قرون ، فمن الممكن أن كانت تلك القطعة حجر زاوية لكنيسة شادها الملك سيككون الدنقلي تكريماً للتدبسين ، وكان الصليبيون المدرعون في ذلك الزمن يربطون حصنهم الجميلة بحلقة ثابتة في الحجر عند ما يدخلون تلك الكنيسة قبل اقتحام مخاطر الصحراء ضارعين إلى المذراء أن تحميهم ، وذلك على أن يفك هؤلاء الفرسان جيادهم من حلقة الحجر وأن يهيموا بلطف خواصرها مع إمساك ركبها<sup>(١)</sup> بمقدم أحذيتهم فقط ، ولا يزال أثر الحلقة منظوراً حتى اليوم ، وارجع البصر إلى ما هو أقدم من ذلك نجد الحجر جزءاً من رواق معبد بتخور الذي تقوم أعمدته الحجرية الرملية الحمر ، حتى الآن ، على مدخل غايبة النخل فتعد شاهد على علي إغريق أنى متأخراً ، والذي يحتمل أن يكون قد كرس<sup>(٢)</sup>

(١) الركب : جمع الركاب — (٢) كرس البناء : أسسه ، وكرس الأسقف البية والأواني وغيرها خصصاً لخدمة الله ، وهذه صراية دخيلة .

### أطول جزر النيل

للاله مارس الذي يدعوا اسمه الروماني في مملكة تروى إلى الحيرة ، ثم إن العبد الذين عملوا في ذلك البناء كانوا قد اتزعوا الحجر من قاعدة تمثال صتم نرعون نجل اسمه مكبكي على شاطئ دقطة منذ مئات السنين .

وكل شيء زال ، قضي أمر الحضارات والتبائنات والفاتحين والمخوين الذين عبدوا النور والقوة بأسماء وسمات مختلفة ، حتى أولئك الذين كانوا يعتقدون أن القوة في الرحمة ، وهم قد أرادوا تمجيد الحياة بالحضون والمساجد والمعابد والحاميات ، وهم قد تواروا ونسوا ، وهم قد ذوى مجدهم ، وصوان النيل وحده هو الباقي ، هو الأبدى ، وهو قد احتمل الضغط وإزميل<sup>(١)</sup> النقاش ونقب الزرفين<sup>(٢)</sup> والناعورة والتبر وألوف السنين ، وهو ضائع على شاطئ النهر ، والنهر يمس مساً خفيفاً دائماً من غير أن يفنيه .

والغرائب في مجرى النهر الفوقاني من دقطة يقاوم اللوج من جديد ، وتقيم النهر جزيرة أرغو التي هي أطول جزر النيل والبالغ طولها ٣٥ كيلومتراً ، ويتبع هذه الجزيرة بضع جزيرات وكتل صخرية يضيق بها النيل ويرغى ويريد في سبع دوافع .

والنيل يثير منظرة في الشلال الثالث ، وعلى بعد ١١٠٠ كيلومتر من الخرطوم ، ووسط الروقة الكبرى ، ثقل الشور بالشهب ، ويكون مجرى النهر أقل عرضاً ، ويتدفق الماء نادراً ، وتتم على الحضارة عصابات لصوص أحسن تنظيم ، وكل شيء يشجع هذه العصابات الأكبر رجالها خيلاً أو جالاً على مهاجمة المسافرين ، وتفرض نلال على النهر منتطقاً مفاجئاً من الشرق إلى الغرب ، وتدفق سلسلة

(١) الإزميل : آلة من حديد يقر بها الحجر — (٢) الزرفين : الحقة .



## • حياة الحجر •

جبال مرتفعة بمضّ الارتفاع قَبِزِلَ عليها ماء السماء في الشتاء أحياناً ، ويجرى النهر من جديد في مضائق ومسايل من رُغَامٍ أَحْمَرَ وأخضر ، وَيَبْلُغُ النهر في بعض الرات من الضيق ما يستطيع معه نوبى ماهرٌ أَنْ يَرْمِيَ جَبْرًا من ضِفَةٍ إلى أخرى ، أى على مسافة ثمانين متراً ، وَتَحُولُ مُنْعَرَجَاتٌ كَثِيرَةٌ وصخورٌ ضاغطةٌ ودَوَامَاتٌ غَيْرُ قَلِيلَةٍ دون كُلِّ مِلاحَةٍ في ذلك الوادى الذى يَدْعُوهُ العرب بلسانهم التَّصَوِيرُ<sup>١</sup> لِلرَّيْنِ « حَيَاةَ الْحَجَرِ » .

وأهلُ تلكِ المِنطقة أَقلُّ مَهارةً في المِلاحَةِ من إخوانهم في الجَنُوبِ ، فَتَفْتَرِقُ في الغالب أَرْمَاتُهُم المصنوعة من أربعة سُوْقٍ من النخيل المُحْدَبَةِ قَلِيلاً من الخارج إلى الداخل والسيِّئَةِ الإدارةِ بِمَجادِفٍ مفلوجةٍ من أعلاها ، وأما في السَّباحَةِ فلا تَجِدُ أَيضاً يُجَيِّدُهَا مِثْلَهُم ، والأَسودُ يَرْبِطُ مِطْرَدَهُ<sup>(١)</sup> على رأسه رِبْطاً أَقْبِيّاً وَيَعْتَبِرُ النهرَ سَابِجاً ، وعلى الأَسود أن يَجَاوِزَ الماءَ لِيَصِلَ من أَوْعَرِ ناحِيَةٍ في الضَّنَّةِ إلى حَقْلِهِ الضَّيِّقِ وَيَبْدُرَ فِيهِ حُفْنَةً من الحبوب أو اللُّوبِيَاءِ ، وذلك على أن يعود إليه لِيَحْصِدَ ما زَرَعَ وَيَجْلِبَهُ إلى كُوخِهِ سَابِجاً حَامِلاً إِيَّاهُ على رأسه ، وإذا عَدَوَتْ المحيطُ المتجمدُ لم تَجِدْ مكاناً يَفْسُرُ كَسْبُ العِيشِ فِيهِ كما في ذلك البلد .

ومن يَمْلِكُ في تلكِ البُقعة كُوخاً وبقرتين وأربعة من اللَّمَزِ يتكلم عن وِاحَتِهِ ، وَنُعْدُ الناعورةُ دَلِيلاً على النِّعَى ، وَنُعْدُ النخلةُ دَلِيلاً على نعمة الله ، وَتَلُوحُ مَأْرُ الدُّولِ الكبرى الفابرة بين علامِ العِيشِ الرَاحِنِ المَهِزِلَةِ ، ومع ذلك لم تكن الأعمدةُ المائلةُ التى نَصَبَهَا أَمْنُوفِيسُ وَتُوتْمُوزِيسُ وَسِيزُوسْتَرِيسُ للإِشادةِ بِمَجْدِهِم في وَسَطِ

(١) المطرد : الرمح القصير .

سوقٍ ولا على طريقٍ تجاريةٍ زاخرة ، وقد حَكَتْ حُزْنُوانِيَّةُ<sup>(١)</sup> القراعنة أُلُوفَ  
المبيد على تمجيدهم بين الصخور السود والصحراء الصفراء المَفْرَاء وفي سميرٍ مُعَمٍّ  
وَقَفَرٍ لا ينطوى على رِعايَةٍ شِعْرية منذ ذلك الزمن ، ولو كان لأولئك الملوك  
غُنْيَةٌ عن إعجاب جمهورٍ من الحُضُور ، ولو كان أولئك الملوك يَفْلَمُونَ أن ماكرهم  
المنقوشة على الحجر مما لا يراه غيرُ بضعة مئاتٍ من الرعاة العُرَاة ومن الفلاحين  
الذين جَفَفَتْهُمْ الشمس ، لاعتقدوا أنهم أُنْذَادُ الآلهة بما شادوه وبما فَكَّرُوا فيه  
لألوف السنين ، ومهما يكن الأمر فإننا نعلم من أحد تلك الآثار أن مستوى النيل  
الاعتيادي كان في عهد أمينوفيس الثالث أعلى مما هو عليه في الوقت الحاضر بثنائية  
أمتار ، وسببُ هذا الفرق هو عملُ الماء في ثلاثة آلاف سنة .

ومع ذلك نُقِشتَ كتابةٌ وَجِبَ تَفسيرُها للسكان المحليين جيلاً بعد جيل ،  
فبالتقرب من وادي حَقًا ، وفي نهاية الشلالات ، وحيث يصبح النيلُ صالحاً للرياحلة ،  
أمرَ أحدُ القراعنة بأن تُنْقَشَ على عَمُودٍ من الفرانيت الكلمة : « يُنْظَرُ على  
الزئوج بعد هذا الموضع أن يسيروا مع النيل على سفينة » .

وفي الزمن الذي وُضِعَ فيه ذلك الانذارُ المتوَعَّد كان حَدُّ مصرَ الجنوبي  
هناك ، بالقرب من الشلال الثاني ، وعلى مَسَافَةٍ ١٥٠٠ كيلومتر من مجرى النهر  
التحتاني بعد الخرطوم ، ولا يزال حَدُّ مصرَ الجنوبي في ذلك المكان ، وهذا  
الشلالُ الثاني مؤثِّرٌ في النفس أكثر من سواء ، وهذا الشلالُ بركانيٌّ مُجَرَّدٌ من  
النبات ، ولهذا الشلالُ منظرٌ للمهالك ، وإذا ما دَنَا الإنسانُ منه خَبِلَ إليه أنه أمام  
جفيلٍ من بقر الماء المتحجر البارز اللامع على نور الشمس ، وذلك لتدوير الماء كلَّ

(١) الحزوانية : جنون الظلمة .

يدخل مصر

شئ ، وما يحدث حول الصخور من دَوْرَانِ مائٍ خفيف فيَتَوَيِّ الوهم .  
وتُحْرَى من فوق جَنْدَل أبي صير ، وعلى ضِفَّة النهر اليسرى ، حجارةٌ أَكْثَرُ  
من الماء ، وُبرَى في الشتاء ثلاثُ مئة وخمسون جزيرةً ، وَيَبْقَى من هذه الجزُر حين  
الفيضان أَكْثَرُ من مئة جزيرة ، والناسُ يَسْكُنُون خمسين جزيرةً منها على الأقل ،  
وهي تشتتل على أَكْوَاحٍ من طينٍ لازِبٍ وعلى أَشجارٍ سَنَطٍ قوية قاومت كثيراً  
من الفيضانات ، وتَبْدُو أَتْلَامُ حقولِ القول والعدس مُرَبَّاتٍ متروكة لأولادٍ في  
زاوية من حديقة ، ويذهب الأهالي إلى الحقول مرتين في كلِّ عام راكبين زوارقَ  
شراعيةً أو قواربَ ذواتِ مجاديف ، وذلك للبَذْرِ والحصاد .

وتمتدُّ مدينة وادي حلفا الصغيرة على ضِفَّة النيل اليمنى ، وفلك مع وجوه أبليةٍ  
بيضٍ وكثافةٍ سكانٍ ونخلٍ ، ويسيطر عليها تَلٌّ فوق الضِفَّة اليسرى يُدَكَّرُ  
بكُشْبَانٍ شاطيء البحر العالية ، وما تُبَصِّرُه من نزول الدَّهْيِيَّاتِ مع النهر ومن بدء  
الخطِّ الحديدى ومن تَلَبُّثٍ في اللِّاحَةِ فأَمُورٌ تَهَبُّ الحيلة إلى مصر ، ويَحْتَفِقُ علمُ  
مصرَ الأخضرُ وحده غموراً بعد الآن .

ويُبَسِّمُ النيلُ مفاخرته الثالثة مسروراً ، ويمجاوز النيلُ مِنطَقَةَ الشلالات سعيداً ،  
هو يسير مُتَّيِّداً عريضاً جليلاً أَكْثَرُ مما في الخرطوم ، هو يَدْخُلُ مصر .

## ١٧

ولمست مصرُ هنالك بَدْءُ ، وتمتدُّ المِنطَقَةُ الواقعة بين وادي حلفا وأَسْوانَ ،  
والمسماة نوبة الدنيا ، ٣٥٠ كيلومتر على طول النيل ، وهي شديدة الانخفاض نحو

الشرق ، وهي من أقر أجزاء مصر وأشدها وحشة ، ولقد تجد فيها أراضى مزروعة تزيد عرضها على مئة متر ، وتكاد الصحراء تمس نهر النيل في التال .

وتماثل حياة الفلاح المصرى هنا حياة أخيه في الشلالات ، وكلاهما نوبى ، وكلاهما تابع للساقية والفيضان ، ولا أثر هنا لما يتخذ في بناء البيوت الحجرية والخشبية من غرايت ونخيل ، والبيوت تُصنع من طين النيل فيما بعد ، ومن هنا كان الزجاج<sup>(١)</sup> للصيرى الذى فرّست مادة النيل الطينية شكله فجعلته كأبراج الرمل التى يضمنها الصبيان على الساحل .

وكانت نوية الدنيا في القرون القديمة منطقة يمر منها المصريون إلى السودان لجلب السيد والذهب فطلت الطريق للمكنة الوحيدة المؤدية إليه في قرون كثيرة ، وكرّكت الحماصات للتعاقب آثاراً غريبة هناك ، وإليك ضفة النيل اليسرى بالقرب من وادى حلفا ، وإليك بقايا قلعة أقيمت في القرون الوسطى بالقرب من معبد منحوت في الصخر حيث تُبصر قوفاً مصرية قديمة بارزة رسمت عليها صور قديسى النصرى ، وحيث تُبصر رأس الإله خنوم السكبش ينظر إلى القديس إبيباخوس ، وحيث تُبصر الإله أنوكيت يرضع أحد القراعة ، وحيث تُبصر الصنداء قنم الضبي يسوع إلى صدرها ، وترى على القبة مسيحياً بزنبطاً يرفع يده متوعداً ، وترى بجانبه الملك حارمهاش واقفاً أمام الإله توت .

وتُبصر بقايا معبد لهاتور بجانب أخاض حصن نوبى يرجع إلى عهد ملكة مصرية ، وتُبصر بجانب هذا اللبد قبوراً إسلامية ، ونقش كاهن قبطى على بيد من

(١) الزجاج : البلب الظلم .

### تمثيل أبي سنبل

ذلك ، وفي معبد الدّر ، اسم إبراهيم بين صور الآلهة المصرية معتقداً أن ملكاً  
نوياً كان قد صلبه في ذلك المكان ، وقد قاتل الكهنة والملوك ، والآلهة والعبيد ،  
والقديسون والفلاحون ، حول اسم الرب وصورته فدعاهم إليه وجعلهم رملًا .

وتسير الصحراوان على ارتفاع مختلف على طول النهر ، وتزى في القرب  
صحراء ليبية الصفراء كالذهب مع جبال سُمر ، وتزى في الشرق صحراء العرب  
الأكثر صخرًا وذات اللون الأسمر الرمادي ، وتنفق الميلاحة بينهما  
كُشبانٌ عريضة .

والبواخرُ بيضُ قرية العوز ، ويأتيها القمح من بيدٍ ، يأتيها من نيوكاسل ،  
وتبقى مواصلها غير مُتلفة في هذا البلد العاطل من المطر فيُخيل إلى الإنسان مرور  
قطار على النهر ، وتجرُ سفينة أختها حيث يكون الشود ، ويقطعُ المسافرون في كل  
منها أن من على الأخرى هم من مسافري الدرجة الثانية ، وتسير الجارة والمجرورة  
على الأمواج رويداً رويداً رمزاً إلى القهر الذي يجمع بين العريقين ، أجل ، تجدُ  
الآلة والماغ الموجهة عند البيض ، غير أن الأيدي الوقادة شديدة الشمة كأيدي  
الزُين<sup>(١)</sup> في الباخرة الأخرى ، وهذه الباخرة الثانية هي التي تنقل محاصيل البلد  
إلى الشمال .

وتنصب بين هذه التلال وبين الماء أربعة تماثيل ضخمة من الحجارة الصخر على  
بُعد ستين كيلو متراً من مجرى النهر التحتاني بعد وادي حلقا ، أي في أبي سنبل ،  
حيث قصير تلال ليبية إلى النيل ، فتزى الرجلُ بينه جالساً أربع مرات

(١) الزين : جمع الزبون ، وهو من يتردد في الفراء على باع واحد ، وليس من الصواب  
جمع الكلمة على زياتن ، والصواب زين لأنه فاعل كصبر وغير جمع صبور وغير

### تأليه رميسى

أمام جدار معبد ، ترى إلهًا ، ترى مَلِكًا على ما يحتمل ، ترى معبودًا متزوجًا إلى مَطْلَعِ الشَّمس منذ ثلاثة آلاف سنة حين استُخْرِجَ من القَلْع ، أو هذا تمثالُ أبٍ منصور أقامه له ابنه ، أم تمثال بطلٍ مُمَثِّلٍ لِإِلَهِه الحافظ ، أم تمثال ابنِ بَاسِلٍ خَلَدَتْهُ به أمه المَلِكَةُ ، أم أُمُّ المَلِكِ نَذَرَهُ رعاياه للآلهة بعد موته ؟

كلًا ، وإنما هو تمثالُ رَمْسِيَسِ الثَّانِي الذى خَلَدَ نَفْسَهُ بنفسه ، وقد دام عهْدُ هذا الماهل سبعةً وستين سنةً ، فكان لديه من الوقت ما يَسْهَرُ به على عَجْدِهِ ، فأقام في سبعة أمكنةٍ لآلهته ولنفسه أضخمَ ما في مصرَ من المابِدِ التى يُعَدُّ هذا المبدُ القائمُ في أبى سنبلٍ بالقرب من الحدِّ أَجْنَوِيٍّ صَغِيرًا بجانبها ، وهكذا ضَرَبَ أعظمُ الأمثال على عبادتهِ الْفَاتِيَةِ فى القرون القديمة ، وما كان لِيُقَبَّ بِرَمْسِيَسِ الْأكْبَرِ لولا تلك الدُّعَايَةُ المباحةُ الثَّابِتَةُ على تَكَرُّارِ اسمه بلا انقطاع ، ثم حَمَلُ الأباطرةِ بعد زمنٍ زُمَرَةً الْكهنَةِ التَّهَرَّةِ على التصريح بأنهم « رُسُلُ الله » ، أو حَمَلُوا فريقَ العلماء على التصريح بأنهم « منبعُ الْحِكْمَةِ » ، ولكن ما هو معنى هذا ، وما هو شأنُ خطباءِ زماننا الشعيون بجانب ملكٍ كان يُحْمَلُ على نَحْتِ تمثاله الخاصِّ فى جَنْدَلٍ على أربعِ نُسُجٍ متصلةٍ وعلى ارتفاعِ عشرين مترًا ليكون جالسًا عند آلهته ؟

أَجَلْ ، هو رَمْسِيَسُ الطويلُ الأنفِ طولًا تاريخيًا والمُدَوَّرُ الوجه قليلًا مع إينٍ ، هو رَمْسِيَسُ الحاملُ لتيجانٍ مصرَ العليا ومصرَ الدنيا ، هو رمسيسُ المُوَلَّى وجهه هادئًا شَطْرَ الشرقِ والواضعُ يديه على ركبتيه ، هو العِمْلَاقُ الذى لا يَحْتَمَى شَمَاعُ الشمسِ والذى يُبْقَى نظرةً بعد استراحةٍ ليلية على وادى النيل الذى يَصْحَوُ ، وهو يَرَى تحت عينيه وتحت السماء الزرقاء حَقْلَ كَعِيرٍ صَغِيرٍ قَرِيبٍ من ساقيةٍ بأكية منذ عهده ، على ما يلوح ، فَيُحَرِّكُهَا ثَوْرَانِ ذَوَا خَطَاٍ بَطِيئَةٍ ، وتذهب امرأةٌ

### النيل أقوى منه ألف مرة

مُدَّثَرَةٌ بِأَزَارٍ أَسْوَدَ وَحَامِلَةٌ جَرَّةً لَمْلَمًا مِنَ النَّيْلِ الْبَالِغِ الرُّرْقَةِ وَالَّذِي يُحَدِّثُ نَسِيمُ الصَّبَاحِ عَلَيْهِ غُضُوءًا فُضِيَّةً صَغِيرَةً ، وَيَتَوَجَّهُ إِلَى الشَّاطِئِ شِرَاعٌ أَيْضُ ، وَيَصْعَدُ غَلَامٌ فِي الصَّارِي لِرَفْعِهِ ، وَيَمَسُّ طَرَفُ الصَّحْرَاءِ شَفِيرَ الصُّفَّةِ الْوَحِلِ .

وَمَهْمَا يَكُنْ قَدَمُ ذَلِكَ الْمَلِكِ ذِي التَّيْجَانِ الْأَرْبَعَةِ هُنَاكَ ، وَمَهْمَا يَكُنْ جَبَرُوتُهُ ، فَإِنَّ النَّيْلَ أَقْدَمُ مِنْهُ وَأَقْوَى أَلْفَ مَرَّةٍ ، وَالْمَلِكُ مَدِينٌ لِمَوْجِ النَّيْلِ بِسُلْطَانِهِ مِنْذُ أَجْيَالٍ وَأَجْيَالٍ ، وَيُكْتَسَرُ أَحَدُ تَمَائِيلِ الْمَلِكِ الْأَرْبَعَةِ ، وَيَضْجَعُ نِصْفُهُ الْفَوْقَانِي فِي الرَّمْلِ كَمَا لَوْ كَانَ طَافِيَةً مَرْقَةً عَيْدُهُ الثَّانُونَ ، وَيَبْدُو بَعْضُ الشَّيْءِ بَيْنَ سَيْقَانِ تِلْكَ التَّمَائِيلِ ، يَبْدُو أَلْ رَمْسِيْسِ ، يَبْدُو زَوْجُهُ وَأَوْلَادُهُ ، وَيَفْرَضُ تَمَالٌ وَالذَّتَةُ الَّتِي كَانَتْ مِنْ قَلْبٍ لِلطَّبِيعَةِ ظُهُورُهَا بَيْنَ سَاقَيْهَا الْهَامَلَتَيْنِ ، وَهَنَالِكَ تَقَشُّ رَمْسِيْسُ اسْمِهِ بَيْنَ قَدَمَيْهِ كَمَا تَقَشُّ عَلَى ذِرَاعَيْهِ وَعَلَى قَلَادَتِهِ ، ثُمَّ أَتَى قَوَادُ جَيْشٍ وَمَرْقَقَةٌ فَرَأَوْا أَنْ يَحْصُدُوا نَفْسِيَّهِمْ مِنَ الْحِجْدِ فَسَجَّلُوا مَا عَزَمَ عَلَى أَعْضَاءِ ذَلِكَ الْمَلِكِ الْقَدِيمِ وَقَاعَدَتِهِ ، فَكَانَتْ الْكَلِمَةُ : « نَحْنُ أَرْخُونُ بْنُ أُمُويِيخُوسَ ، وَبِيلِيكُوسُ بْنُ أُودُومُوسَ ، قَدْ سَجَّلْنَا ذَلِكَ » ، وَغَدَا هَؤُلَاءِ الْقَادَةُ النَّكِرَاتُ الْهَزَلِيَّةُ <sup>(١)</sup> ، الَّذِينَ أَنْتَ بِهِمُ الْمَصَادِفَةُ إِلَى هُنَاكَ ، أَشْهَرُ مِنْ ذَلِكَ الْمَلِكِ الْأَكْبَرِ الَّذِي تَقَشُّوا بَيْنَ أَبْهَامِ رَجْلَيْهِ أَسْمَاءَهُمْ ، وَذَلِكَ لِاسْتَطَاعَةِ كَثِيرٍ مِنَ الشَّيَاحِ فِي الشَّرْقِ أَنْ يَقْرَمُوا الْيُونَانِيَّةَ عَلَى حِينٍ لَا يَنْفَكُ الْخَطُّ الْهَبِيرُ وَغُلْفِيٌّ غَيْرُ بَضْعَةٍ عِلَاءِ .

وَأَعْلَنَ رَمْسِيْسُ نِصْفَ أَلُوْهِتِهِ فِي دَاخِلِ الْكَهْفِ بِأَنْ مَثَّلَ بِسِلْسِلَةٍ مِنَ التَّمَائِيلِ الْبَالِغَةِ مِنَ الِارْتِفَاعِ عَشْرَةَ أَمْتَارَ ، وَيَبْدُو الْإِلَهُ الشَّمْسُ ذُو الرُّأْسِ الصَّغِيرِ أَصْفَرُ مِنَ الْمَلِكِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَفِي تَصَاوِيرِ الْجُدُرِ يُقَدِّمُ رَمْسِيْسُ إِلَيْهِ قَرَابَانًا مَعَ صُورَتِهِ

(١) الهزلي : جمع الهزلي .

المؤلّة ، ونرى رمسيس أيضاً يتناول السيف من إله ويقتل عدوه ويترنم من فوق شُرْفَةٍ خصومه الضارعين والطالبين عفوّه ، ويأمرُ بإحصاء أيدي أعدائه المقطوعة في الحرب أو يَقودُ موكب المخلوبين أمام تمثاله المؤلّة .

وتصبح عبادته الذاتية هذه من الفن في بعض الأحيان ، فيكون للملك القاتل عدواً ، والجاعل خصمه المقهور تحت قدمه ، رَوْعةُ نقش يونانيّ بارز ، وهو يُصْنِي إلى امرأةٍ تُمَسِّك زِنْدَه بلطفٍ ، وتُبَارِك التليكة برَفْعِ التُّرْعَانِ إلَاهَتَانِ مُرَيَّتَتَانِ بِمَثَلِ زِيْنَةِ اليومِ حاملتان مفتاح الحياة .

وفي الصباح تَنفُذُ أشعةُ الشمس في ذلك الفار ، وتُغير هذا المزارَ الذي هو قُدْسُ الاقداس ، ويَمُنُّ ضياءُ الكهربا الكشافُ في الليل بمنظرٍ جامعٍ مفاجئٍ ، ويُنعِمُ بمظهرٍ مُؤثِّرٍ إلى الغاية ، ولا نبأى ، مع ذلك ، بهذه الأشكال والكتابات المجاوزة الحدِّ كما نبأى بما ينطوى عليه الخط نفسه من صُوَرٍ فنية ، ولا تسترعى أسماء الحليّين والنوبيين والليبيين أسماءنا كما يسترعيها دَوَى تلك الأمواج من بعيد ، ولا يُوجّه انتباهنا شيءٌ من وثائق الحق الملكيّ لو لم تدلّنا هذه الوثائق ، من خلال مناظر ذاتٍ في صبيانيّ ، على الحياة في الزمن الذي وُضِعَتْ فيه ، وبها تُبصر جنوداً وعبيداً ، وتُبصر المصريين وأعداء المصريين يعيشون في المُعسكر ويملفون خيولهم ، وترى في المبد المجاور للدرّ ، والقرب من رمسيس نفسه ، قُرَاراً آخذين جِرَحام على حين تَرى في الضفة الأخرى أهلهم ينتظرونهم حِرَاناً مع مواشيهم ، وترى زوجاً يُقدّمون إلى الملك قُروداً وكلاباً سلوقيّةً ونعاماً وزرّافٍ وعاجاً وذهباً ، وترى امرأةً حاملةً طفلاً في سَلٍّ مربوطٍ بِصُصِيَّةٍ على جبينها ، ويؤنّى بمرحٍ إلى قريته حيث تجلس امرأته القُرُفُصاء بالقرب من النار ، وحيث تَقِفُ فوق



## تحول النيل

مِتراس امرأة أخرى حاملةً طفلاً على ذراعها ، ولم تُؤثِّرْ فينا هذه المناظرُ الصغيرة أكثر مما تؤثِّره الصخرة التي تحوّلت إلى إله ؟  
أفلا تروُنَ الارتباكَ النفسى الذى توجه فينا عظمة ذلك الماهل فى تلك الصحراء ناشئاً عن النهر المنتصب بجانبه ؟

## ١٨

يسير النيل للقيام بمغامرة رابعة ، ولا يُبَصِّرُ النيل خصمه ، ولكنه يَشْمُرُ بنتائج اعتدائه فيزيد همّه ، وهناك ما يَصْفُطُهُ ، وهناك ضغطٌ أشدُّ هَوَلاً من جميع ما حدث من عهد سقوطه الأعظم وسيره فى المنابع أيام شبابه ، وهناك ضغطٌ أذعَى إلى القلح مما فى الشلالات أيام كهولته ، وما قَبِيَ مستواه يرتفع من غير أن يَتَلَقَى ماءً مطر ، والنهرُ يملو حتى مَسَافَةِ ٣٥٠ كيلومتر من مجراه الفوقانى قبل أسوان ، بيد أن هذا ليس الفيضانَ الأكبر الذى تُنْفِرُ عنه أمطار الصيف النازلة على جبال الجبسة فتصُبُّ فى النيل الأزرق ، وَتَقِفُ النيلَ قُوًى حافلة بالأسرار ، ولو كان النيل ذا ذاكرة لقال فى نفسه إنه لم يَحْدُثْ منذ ألوف السنين من حياته أن عَمَرَ البلاد فى الشتاء خلافاً لما اتَّفَقَ له منذ ثلاثين عاماً ، وأكثر من ذلك إلنازاً هو أن مياهه ترتفع وقت الحصاد وتَهْبِطُ فى الصيف وقت الفيضان .

والآثارُ الدالة على سرعة هذا التحول فى الشتاء كثيرة ، ومنها انتصابُ شِعَافٍ<sup>(١)</sup> النخل فى النهر من غير أن تَنْبُتَ النخيلُ فيه ، ويمسُ حَيَروم<sup>(٢)</sup> الباخرة

(١) الصفاف : جمع الشفة ، وشفة كل شئ . أعلاه — (٢) الحيزوم : وسط الصدر ، وما يظم عليه الحزام .

جُدراً فيَحْوُلُها إلى عُبَارٍ كما لو كانت مدينةُ إيس<sup>(١)</sup> قد بُلِيتْ هنا ، ولكن تلك الجُدُرُ ليست سوى أكواخٍ ترائية أقامها فلاحون قَتَرَجِع إلى الذي جَهَّزها بالمادة ، تَرَجِّع إلى أبيها النيل ، ويَبْرُزُ رأسُ الناعورة من بين الأمواج ، وتُكوِّنُ جُرَيْرَاتٍ عند ما تَسْقُطُ النخل ويقرأكم الطين هناك ، وهي ليست من نوع الجُرُرِ المائعة في المنافع ، والأمرُ هو أن الجُرُرَ القديمة تَبْرُزُ في الزمن الراهن ، فيعود أهلها إليها بالزوارق ، وَيَنْبُلُ الأولاد في رؤوس النخيل البارزة من الماء والمستورة بالتمار ، وإن ظَلَّتْ شَيْبَةً غارقة سعة أشهر من شهر السنة .

وينتصب على التلال المتصلة بالصفاف الجديدة بيوتٌ من طين لازب ، ومن حجر في بعض الأحيان ، لظهور الترانيت ثانية هنا ، وتَبْدُو هذه البيوت ، تحت طلائها الكلسي الجديد ، مُتَجَهِّمةً كالحصون في ألواح النحاس القديمة ، ولا ترى لهذه البيوت نوافذ ، ولا تَضِيءُ الشمس وجوهها ، وتُسْمِرُ شُرَفَاتُها الغريبة بأنها مبهورة ، وتُدْكَرُنا بالتماذج التي وَضَعَهَا مهندس لتغيير المنظر .

وتَنْزِلُ نِسْوَةٌ من عَلٍ لزرج طرف حقلهن ، ويكون للطين البَجْدُ مظهرُ رصيفٍ على طول النهر ، وتَمُرُّ من هنالك نِسْوَةٌ على ظهور حيرهن الصغار ، والنساء وحدهن هن اللاتي يَسِرْنَ ما دام الرجال كَنَاسِينَ في القاهرة أو مُنْطَفِي أطباقٍ في مطاعمها ، وهؤلاء الرجال هم أكثرُ أمانةً وأقلُّ ذكاءً من فلاحي مصر الدنيا ، وهؤلاء الرجال يهاجرون إلى السودان ليكونوا خَدَمًا عسكريين لدى ضباط كَتَشَنر ولكن لسنة واحدة فقط ، ثم يَرَجِعُونَ إلى أزواجهم .

ويَصْنَعُ حطُّ هؤلاء الفلاحين ويَهَيِّطُ بين هذه الصفاف الوعرة الجديدة ،

(١) إيس : مدينة بريطانية قديمة ابطلتها الأمواج في القرن الرابع أو الخامس بعد الميلاد .

لا يتركون أرض أجدادهم

وقد رُفِعَ خَزَانُ أَسْوَانَ مَرَّتَيْنِ ، وَغَمَرَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ مَسَاكِنَ أُلُوفِ الْأَسْرَةِ ، وَقُدِّمَتْ إِلَيْهَا أَرْضِيٌّ فِي مِصْرَ الْخَصِيصَةِ ، وَهِيَ لَمْ تُرَدِّ مُغَادِرَةَ تِلْكَ التَّرْبَةِ الْمَرَّتَ (١) ذَاتِ الْوَحْلِ وَالْحَجَرِ وَالَّتِي عَاشَ عَلَيْهَا أَجْدَادُهَا ، وَهِيَ قَدِ انْقَلَمَتْ أَكْوَاحًا جَدِيدَةً فِي أَمَاكِنَ أَكْثَرَ ارْتِفَاعًا ، وَطَلَّتِ النَّخْلُ الْخَالِصَةُ مُلْكًا لَهَا ، وَطَلَّتْ نَعْدُهَا شَجَرَ آبَائِهَا وَتَوَدُّ أَنْ تَأْكُلَ رُطَبَهَا وَإِنْ وَجَبَ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهَا رَاكِبَةً سَفِينَةً .

وَتَكَوَّنَتْ أَشْبَاهُ جُزُرٍ فِيَجْرَى النهر من بينها في فيُورْدَاتٍ (٢) صَغِيرَةٍ ، وَنَسْتُرُ شَوَاطِئِهَا قُرَى خَرِبَةً وَسَيَفْعُرُهَا الْمَاءُ فِي الشَّهْرِ الْقَادِمِ ، وَيَتَرَجَّحُ عَرْضُ الْأَرْضِ الْمُخْصَرَّةِ فِي شَهْرِ فَبْرَايِرِ بَيْنَ خَمْسِينَ مِثْرًا وَثَلَاثِمِثَّةَ مِثْرٍ ، وَيُضْطَرُّ النَّوَبِيُّونَ بَعْدَ الْحَصَادِ إِلَى نَقْلِ حَبُوبِهِمْ إِلَى مَنَازِلِهِمُ الْجَدِيدَةِ ، لِكَيْلَا يَجْرُقَها الْمَاءُ فِي فَصْلِ الشَّتَاءِ .

وَالشَّهْرُ مَدِينَةٌ صَغِيرَةٌ يَجْعَلُهَا ارْتِفَاعُهَا الْقَلِيلُ فِي رَحْمَى مِنَ الْفَيْضَانَاتِ ، وَهِيَ تَقَعُ فِي نِهَآيَةِ مُنْعَطَفِ النَّيْلِ ، وَتَقَرُّبُ مِنْهَا كَرُوسُكُو حَيْثُ تَقْرُضُ الْجِبَالُ عَلَى النَّيْلِ عُرُوقًا قَصِيرَةً مُتَّجِهَةً نَحْوَ الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ ، وَتَقَعُ هَذِهِ الْجِبَالُ فِي بُقْعَةٍ خَصِيصَةٍ يُخْرِجُ جَذْرُ النَّخْلَةِ الْوَاحِدَةِ بِهَا عِدَّةَ أَصُولٍ ، وَهَنَالِكَ يَبْدُو النَّاسُ أَسْحَاءَ نَشَاطًا ، وَتَبْدُو السُّوقُ زَاخِرَةً ، وَتَلْمَعُ السُّبُوتُ مِنْ خِلَالِ شَجَرِ السَّنَطِ الْأَصْفَرِ ، وَهَنَالِكَ كَانَتْ تُحْمَلُ الْجِبَالُ فَتَقْلَعُ أَبَى حَمْدٌ عِنْدَ الشَّلَالِ الرَّابِعِ فِي ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ أَحْيَانًا قَاطِعَةً عُرُوقَ النَّيْلِ مِنَ الطَّرِيقِ الَّتِي يَتَّبِعُهَا الْخَطُّ الْحَدِيدِيُّ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، وَمِنْ هَنَالِكَ كَانَ حُجَّاجُ مَكَّةَ يَسِيرُونَ نَحْوَ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ ، وَالْيَوْمَ تَزُرُّ وَتَبُوقُ سِيَارَاتُ فُورْدِ الصَّغِيرَةِ فِي الطَّرِيقِ فَتَنْظُرُ جَالَ كَرْدُفَانَ الْجَبِيلَةَ بِأَسِيرَةٍ (٣) كَأَنَّهَا تَعْرِفُ أَنَّهَا صَارَتْ لَا تَسَاوِي

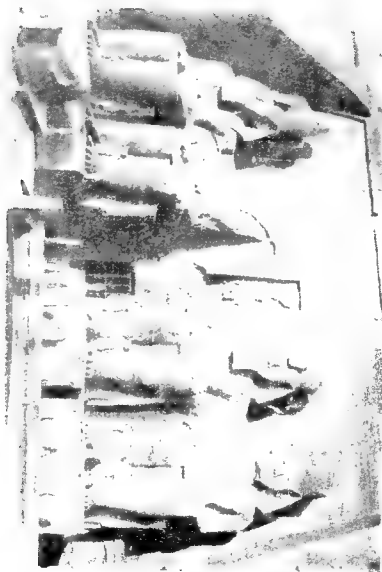
(١) التربة المَرَّتَ : الأرض التي لا نبات فيها — (٢) الفيورد (Fjord) : هو الخليج الضيق السيق ، ويكثر وجود هذه الفيوردات في النرويج — (٣) بسر : قطب وجهه ، فهو بأسر .

أكثر من جنهين بعد أن كانت تساوى عشرة جنهيات ، وأن نزول قيمتها جعل منها في القاهرة جَزُوراً<sup>(١)</sup> مع أن غوردون وكنتشر جايا الصحراء على مُتُون آبائها فكانت حاملة أول رُسُل الحضارة في مَهُوب السودان الموحشة .

والسد يجعل النهر عريضاً مقداراً فقداً ، ويصبح النيل بحيرة عند حدود مصر الحقيقية ، أى في دائرة السرطان ، والنظرُ خياليٌ أسمى ياهرُ خال من النبات ، ويَبْدُو الحجر والرَّيى والجُرُ والصخور الطريفة الأشكال والمقولة المركومة رَكناً مستديراً غريباً ، وتبدو الجنادلُ مستويةً أو عَدَداً أو كَتَلًا أو أطواداً ، وهكذا يظهر الشلالُ الأولُ ، شلالُ أسوان ، تَكَرَّراً للشلالِ الثانى ، ولكن مع اتساعٍ لاحتدَّ له ، وبدلاً من ضفاف نهرٍ لا يُرى منه غيرُ شواطئٍ بعيدةٍ من الغرائث الأحر واقعٍ حَوْلَ شفير تلك البحيرة نصف المتحجرة التى تنتصب خارجها رؤوسُ نخيلٍ كأرواح الفَرْقَى في رؤيا داتى ، وَيَبْلُغُ ذلك السَّماطُ السائل من التأثير في النفس والبعد من الحقيقة وإعشاء الأبصار ما لا يُمتَجَب منه الإنسان إذا ما اشتغل ، ويلوح القطار الأبيض المواجه ، أى الشلال ، أنه تَنْينٌ مستعدٌ للوثوب على الملاحين الذين يَصِلون إلى هنالك .

ومع ذلك تَزَلُّقُ قُلُوع الزوارق الأولى التى هى مصريةٌ خالصة فوق تلك البحيرة كالطيور السَّوَاحِج<sup>(٢)</sup> مع أعلامٍ مختلفَةٍ الألوان على السارية أو الرَّمْحَةِ<sup>(٣)</sup> ، وهى تَمَسُّ سَعُوفَ<sup>(٤)</sup> النخل الغمورة مساً خفيفاً ، وَيَضَعُ الرِّجَالان ذراعاه على السُّكَّانِ<sup>(٥)</sup>

(١) الجزور : ما ينجر من النوق والنجم — (٢) السواح : جمع الساع وهو الذى يأتى من جانب البين ، ويقال به البارج ، وهو الذى يأتى من جانب اليسار ، والغرب تقيمن بالساع ، وتقسم بالبارج — (٣) الرمح : صدر القينة — (٤) السعوف : جمع السف ، وهو جريد النخل . (٥) السكان : دفة القينة .





ويشتدّ تجاه ربح الشمال ، ويرتدّ قيصره الأبيض متوجّحاً إلى الزواء كالإزار في تتال فيكتوار<sup>(١)</sup> ، وتبلغُ صخور الأساس الخمرُ حتى الخصر ، وتحيط به الصحراء الصفراء التي تُغشى من كلّ جانبٍ على حين يقترب الزورق من تيجان الأعمدة الطرفية .

وتنصب الرُشج<sup>(٢)</sup> والقند رؤوسها خارج البحيرة ، وهي بقايا خيالٍ ساخر في الماضي غير مبالٍ بدساتير الحياة الراحنة ، وهي ظلالُ ذكرياتِ آلهةٍ آفلةٍ ، وهي حلمٌ روحٍ روايتيٌّ تشكي كلِّ شيءٍ رهين القناء ، وتستحوذ الأفكار على المسافر الذي يدنو من جزيرة القيل (بلاق) فوق زورقٍ ، وذلك في الشتاء حين ارتفاع المياه ، وحين يرمى عُصْفِيرٌ أبيضٌ ذنبه عند مستوى الماء وعلى إفريز أوزيريس الذي هو عاقلٌ غطريسٌ يغسل رجلَيْه في النيل وعلى تاج إيزيس التي يظهر وحده من بين الأمواج ، ويمسّ المجدافُ سقفَ صرح<sup>(٣)</sup> أقلّ ارتفاعاً ، غير أن الثقوب ، غير أن الأجزاء التي نُزعت بالإزميل ، تدلُّ على أن حصد القساوسة أدى إلى مضارٍّ أكثر مما أدى إليه السدُّ الذي ما قَبِيَّ يَفمرُ معبدِ بلاق منذ ثلاثين سنة ، فإذا حلَّ فصل الخريف وفتح الخزّان وعاد النيل إلى مستواه العاديّ بدتْ للمابد جافّةٌ كما في الماضي ، ولكن مع استتار الجُدُرِ بطبقةٍ من الطين الضارب إلى خُصرة ، ويمكن هذه الأماكن المقدسة أن تصلح لسكن الجن .

وكان المصريون والنوبيون يُمضون عقودهم حول السِّلِّ أمام هذه المابد ، التي هي ضرائحُ لأهلهم ، أيام كانت غير مضمورة ، ومن المحتمل أن وضعت

(١) فيكتوار: من إلهات اليونان كما جاء في الأساطير — (٢) الرّج: جمع الرّاج ، وقد

من تفسيره — (٣) الصرح: القصر ، كل بناء عال .

### منبع النيل على جدار

كليوباترة ذراعها على يد عيده جالس القُفْصاء في ذلك المكان الذي يَبْنِي  
الخطَّاف وَكْرَه فيه ، وهنا كان السلطان بعدها لآلهة الأولنيا ، بيد أن القيصر  
هادريان أراد أن ينال حظوة لدى الآلهة المصرية فعبَدَ إيزس وهوروس خارج  
رومة ، وصوّر منبع النيل على جدار ، وذلك بأن جعلَ إله النيل جالساً مع أفعاه  
عند قاعدة صخره صاباً الماء من جرتين على حين ينظر إليه عقابٌ وباز .

وكانت هجرة إيزس إلى هذا الطرف الجنوبي حين تمَّ النصر ليسوع في الدلتا ،  
ثم وُضِعَ كهانٌ تمثالُ المذراء بين الآلهة المصرية ، ثم جاء أتباع محمدٍ قبلوا تلك  
الصُور واستبدلوا آيات قرآنية بها ، غير أن المباني الرائعة التي شيدت في القرن  
الثالث الذي هو عصر الانحطاط كانت قائمة ، وهذه المابِد ، التي هي أصغرُ من  
الأخرى وأهيفُ ، والتي هي أكثر من الأخرى أناقةً وزُخرفاً ، عاظلة من المسنحة  
السِّكَلَسِيَّة<sup>(١)</sup> ، وهي لا تزال واقفة في وسط النيل ولم تُصَيِّها العناصرُ بضر ،  
وما تتصف به هذه المابِد من قرط الزينة فيجعل منها منظرًا من الميزمار للسحور ،  
ولم تُزل هذه المابِد في حالٍ حسنة عندما نقشَ الفرنسيون أسماءهم على الجُدُر  
البطلية ، وقد عُيِّنَ الفرنسيون يحمل أسماءهم على ارتفاع يمكن أن ترى به  
فوق الرنكاج الشرقي من الزورق ، وقد سار الفرنسيون على غرارِ القراعة  
فأشادوا بذكر معركة الأهرام مع درج جميع أسماء الجنرالات ، ثم جاء إنكليزيٌّ  
فحكَّ اسمَ نابليون عن حَقٍّ ، ثم جدَّه ابنُ نابليون فأعادَه إلى ما كان عليه  
مع الكلمة : « لا يجوز تدنيسُ صفحة من التاريخ » ، فهذا يصلح أن يكون درساً  
للمتصيين في زماننا .



وإذا ما صعدنا فوق رتاجٍ يبراقٍ من حديد ، ونظرنا إلى الغرب وقت الساء ،  
فإننا نُبصر تكرار ألوان المبد الرائعة في الطبيعة ، نُبصر بحيرة النيل زرقاء كالعظم<sup>(١)</sup> ،  
وَنُبصر النخلَ رَماديةً خضراء ، وَنُبصر الجبال المجاورة بَرَقَالِيَّة اللون مع ظلالٍ  
زُرْقٍ خُضَر ، وَنُبصر الصحراء وَرديةً والجبالَ البعيدة بنفسجية ، وَنَقُفُ الشمسِ  
قَرْمُزِيَّةً في السماء الغربية الخضراء الزرقاء ، على حين نُنشُرُ الساء الشمالية ، من  
طرفها الأروجانيّ ، طريقاً بين السحاب الورديّ والسحاب الأخضر اللامع الذي  
ينتهي في الأعلى ، في سمت الرأس ، في العهد الذهبي لخط سَهْمِيّ ، مُودَعاً آخر  
هَبَاتِ النهار ، ثم تَمُضُ بضع دقائق فيَذْوِي النورُ وتَصِيرُ الجبالُ شَبَاءً<sup>(٢)</sup> دَكْناء  
وَيَقْطُسُ النيلُ غيرُ المحدود في الظلام .

وَتَقْطَعُ سلسلةً من الأنوار بفتة ، وَتَقْطَعُ الشَّقَقَ بضعُ مئات من الشُّهُبِ<sup>(٣)</sup>  
كالكسكين ، وَتُظْهِرُ هذه الشُّهُبُ ما تشتمل فوقه من بناء هائل ، وَتَسْقُطُ شرارةً في  
هذا العالم الذي يَرْجِعُ إلى ما قبل الطوفان ، وَيُبْتَرِّجُ جدارٌ من فوره وبنهار ، وهذه  
هي خاتمة القوضى ، قد فَرَضَتْ عزيمةً نازلةً سلطاتها ، وتلاشت ألوانُ السماء  
والمبدِ وتوارت الغيلانُ الحجرية ، وَيَسُدُّ خَزَانٌ من الحجر الرمادي تلك البحيرةَ  
في وجه الشمال ، فلم يَبْرُزْ غيرُ رُجُجِ المبدِ ، ونرى من ناحية هذا السدِّ الأخرى  
سلسلةً من المساقط المصنوعة الموضوعة وضماً منتظماً ، وهذا العمل هو سبب كلِّ  
شيء ، وهذا العمل هو الذي يُرْجِعُ نوبة الدنيا على طول ٣٥٠ كيلومتر ، لحرمانه  
ألوف الفلاحين بيوتهم ولدحره إيامهم إلى التلال الجُرْدِ ، ولإغراقه النخيلَ ومعبدةً

(١) الظلم : نبات أزرق يصبغ به وهو ما يعرف بالنيل — (٢) الشبها : مؤنث الأشهب ،  
وهو ما كان في لونه شبهة أي يلبس بخلقه سواد — (٣) الشهب : جمع الشهاب ، وهو كل  
مضيء متولد من النار ، وقيل الكوكب عموماً .

ذلك هو خزان أسوان

بِإِلَاقِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ ، وَالْإِنْسَانُ قَدْ قَهَرَ النَّيْلَ بِذَلِكَ الْبُنْيَانِ ، وَذَلِكَ هُوَ اخْتِرَاعُ  
جَرَى: قَدْ عَيَّنَ مَصِيرَ النِّهْرِ فِي جِرَاءِ التَّخَانِيَّ وَجِرَاءِ الْقَوَاقِيَّ ، وَذَلِكَ هُوَ الْمَكَانُ  
الَّذِي يَخْصُرُ النَّيْلُ فِيهِ حَرِيَّتَهُ .  
وَذَلِكَ هُوَ خَزَانُ أُسْوَانَ .

١٩

مُكَافَأَةُ الْإِنْسَانِ أَوْقَعَتِ النَّيْلَ فِي خَطَرٍ عَلَى طُولِ جِرَاءِ الْأَوْسَطِ مِنْ غَيْرِ أَنْ  
تُغَيِّرَهُ فِي أَىِّ مَكَانٍ كَانَ ، وَلَمْ يُغْلِبِ النَّيْلُ فِي الْمَنَاقِعِ وَلَا فِي الشَّلَالَاتِ ، وَقَاوَمَ النَّيْلُ  
مُنْغِيَاةَ السَّهْلِ ، وَالنَّيْلُ أَيْلَى الْجَنَادِلِ ، وَالنَّيْلُ قَدْ تَقَلَّتْ مِنْ يَدِ الْإِنْسَانِ ، وَالنَّيْلُ  
قَدْ أَحْبَطَ جَمِيعَ خُطَطِ إِنْشَاءِ الْقَنَوَاتِ وَجَمِيعَ الْجُهُودِ لَجْعَلِهِ صَاحِلًا لِلِإِلَاحَةِ ، وَالنَّيْلُ  
فِي وَادِي خَلْفًا ، وَحِينَ خُرُوجِهِ مِنَ الشَّلَالِ السَّابِقِ لِلْأَخِيرِ ، مَلِكٌ أَقْوَى مِنْ  
الْفَرَاعَةِ الْفَطَّارِيْسِ ، وَالنَّيْلُ الصَّامِتُ الْقَلِيلُ الْهَيَّجَانُ قَدْ اقْتَحَمَ الْجَلَامِيدَ وَالْمَنَاقِعَ  
وَالصَّحْرَاءَ مَنْصُورًا .

ثُمَّ عَانِيَ النَّيْلُ هَذِهِ الْمَفَازَةَ الْأَخِيرَةَ الَّتِي هِيَ أَدْعَى الْمَفَازَاتِ إِلَى الْجَزَعِ  
لَمَجْزِهِ عَنِ الدَّفَاعِ ضِدَّ عَدُوِّ خَفِيٍّ ، وَقَدْ رَآهُ أَنْ رَأَى تَصَاعُدَ مَوْجِهِ بِإِلَاقِطَاعِ  
وِامْتِدَادِهِ إِلَى مَا لَا حَدَّ لَهُ ، وَلَمَّا غَطَّى بِارْتِفَاعِهِ الْمُسْتَمِرِّ أَطْرَافَ الصَّحْرَاءِ كَانَ عَلَيْهِ  
أَثَرُ الْقَمِّ لَا أَثَرَ التَّحَرُّرِ ، وَإِنِّهِ لَكَذَلِكَ إِذْ يُنْصِرُ انْتِصَابَ جِدَارِ هَائِلِ غَلِيظِ أَمَامِهِ ،  
إِذْ يَرَى قِيَامَ عَدُوٍّ لَا يُقَهَّرُ أَمَامَهُ جَامِعٍ لِلْقُوَّةِ وَالْحِيلَةِ ، وَمِنَ الْبَثِّ أَنْ حَاوَلَتْ  
الصَّحْرَاءُ وَالصَّخْرُ وَقَفَتِ النَّهْرُ وَقَهَرَهُ ، فَلَمْ يُرِدِ الْإِنْسَانُ الْبَارِعُ زَوَالَهُ ، وَإِنَّمَا عَبَّدَهُ .

من أين يأتي الماء ؟

ونعدُّ أسوان علامةً ختام المغامرة في حياة النيل وآيةً نهاية القوضى الرائعة فيها ،  
والنيلُ يُفْتَحُ ، والنيلُ نافع ، والنيلُ الذي لم تقدر عليه العناصر ينثنى بين يدي الإنسان  
ويخضع لإرادة العقل ، ويبلغُ عمل ذلك السدِّ من القوة ما يُعَيِّنُ معه الربع الأخير  
من مجرى النيل فضلاً عن أنه يؤثِّرُ بنتائجه وممكناته في النهر بأسره حتى خمسة آلاف  
كيلومتر من مجرى القوقاز وإعطائه معنى جديداً لجميع ما وصفناه ، وستكلم بعد  
حينٍ عن تأثير هذا العمل الفلوسى<sup>(١)</sup> في مصرَ ، وقد حلَّ الوقت الذي ندرُسُ  
فيه النيل الذي هو الوسيلة الوحيدة ، كمنصرٍ وكاء ، لإدراك السبب في وجوب  
تعيين مصيره بأسوان .

ومن أين يأتي الماء الذي يُوقَفُ على ذلك الوجه ؟ وفي أي وقت وبأية قوة يصلُ  
الوجع غداً ؟ يجب على المهندس بالقاهرة أن يَعرِفَ ماذا تَكْشِفُ له الطبيعة التابعة  
لهواها عن أمر النيل الأعلى لِيُعَيِّنَ مقدارَ الماء الذي تُرْسِلُهُ حواجز أسوان إلى القسم  
الأدنى من النهر ويُعَيِّنَ مقدارَ ما يجب حفظه وإلى أي حين ، والمهندسُ في مكتبته  
الصغير وبقلبه الرصاصيُّ وخراطة وما عنده من جدولٍ في الأنساب العددية يُعدُّ  
الدماغُ للدير ، وما يرُسِّمُ على جهازٍ مُورَسٍ من خطوطٍ بيضٍ في كلِّ صباح فيُظَلِّمُ  
به ارتفاعُ مياه النيلين حتى الرصيرص وتلا كمال ويُعَيِّنُهُ على تكوين رأيٍ حول  
ذلك فيصنِّدُ الأوامرَ ويُبْرِقُ إلى مهندسِ أسوان عن مقدار الحواجز التي يجب أن  
يفتحها في ذلك اليوم .

وإذا كان القياسُ عن المجرى القوقازيَّ قَلِيْلًا لا يُقَهَّرُ النهرُ مُقَدِّمًا فيُضَنَعُ سدٌّ في  
النيل الأعلى والنيل الأوسط ؟ وإذا نُظِرَ إلى الأمر من أسوان فما هوشان التهر الشابُ

(١) الفلوسى : نسبة إلى فلوسْت الذي هو جل إحدى روايات غوته المروقة بهذا الاسم .

وشأنُ البحیرات والنّاقع والشلالات ؟ وما شأنُ کلِّ من النیلین لدى ذلک السّدّ الأعظم الذی یرتّبُ جیع أهوائهما ویقیدها ؟  
وإذا وقّف علی السّدّ تحت دائرة السرطان ، وإذا رُجِعَ البصر إلی الجری القوّاتی وسُئِلَ عما یجب عملُه تحت خطّ الاستواء ، غُیِّرَت اللّهُجَةُ ووجهُ النظر ، فالسّائلُ جدیدة ، ولم یُوجد الخزان إلا منذ ثلاثین سنة ، وکثیرٌ من الملاحظات خاصٌّ بالمستقبل .

وتنافس بجیرتان کتّابِ النیل الأبيض مثل تنافس النیلین ، ویوجد لمنطقة بحیرة ألبرت الجبلیة ، ولوقوع هذه البحیرة علی الطرف الغربیّ من الزّهدة الإفريقية الکبری ، ولإمدادها بجمال رُوْنزُورِی العظيمة ، تأثیرٌ کبیرٌ فی حجم النیل الأبيض ، وإذا ما درسنا مساحَة تینک البحیرتین معاً ودرسنا نظامهما النهریّ وَجَدْنَا حاصلَ نحوِ مليونِ کيلومتر مربع یُعَدّی مصرَ ۳۰۰۰۰ کيلومتر مربع ، وإذا نظرنا إلی الأمر من الناحية العملية رُئِيَ أن نصف الماء الجاری یأتی إلی مصرَ من تینک البحیرتین وأن هذا النصف ایس مديناً بغير جزء منه للأشهار الّتی تفتقهما .  
والواقعُ هو أنّ جیع ما یجرى نحو بحیرة فیکتوریة لا یملأ صحنها ، وإذا عَدَوْتَ کاحیرا وجدتَ البرْدِیّ فی أشهرٍ یحوّل دون وصول مياه الروافد إلیها ، والمطرُ النازلُ من السحاب هو الذی یملأ البحیرة ، وهذا یسوغُ الأسطورة القديمة القائلة إن النیل یأتی من الجَنَّة ، وتزید مساحَة بحیرة فیکتوریة علی مساحَة سويسرة بمقدار نصف مساحَة هذا البلد ، وترى تقاصّاً بین فیض مساحَة البحیرة وما یوجبه تبخُّرُ ماؤها بسرعةٍ من نقصٍ ، ویعدّل ما یتجمّع عن المطر والتبخُّر من کسبٍ وخُسْرٍ فی بحیرة فیکتوریة نحو أربعة أمثال ما یتجمّع عن الروافد وجریان المياه من

### بحيرة ألبرت أصلح لصنع الد

كُتِبَ وخُسر ، ويكفى أن يقام سدٌّ عند مسقط ريبون ، وأن يُحفظ الماء على هذا الوجه لسنوات الجفاف ، لتحويل هذه البحيرة إلى حوض احتياطي ثابتاً أكيد لمصر ، ولكن هذا الماء يمرُّ من إستفنجية بحيرة كيوغا ومن منافع أخرى ، فيكون الخسران كبيراً نسبياً كالذي ينشأ عن ترك الماء يجرى طليقاً .

ويرى أن بحيرة ألبرت أصلح من بحيرة فيكتورية للسدِّ نظراً إلى صغرها وقلة نُفُوعها ، ووقوف شواطئها ، وظهورها خزاناً طبيعياً مثاليًا ، فيكفى سدُّ ارتفاعه متر واحد لتجش خمسة مليارات ونصف مليار من أمتار الماء السكبة ، أى أكثر مما فى أسوان ، ولا تكون البحيرة ، ولا التَّبَحُّر ، أكبر مما عليه لما عليه الشواطئ من حذرٍ ووعرٍ ، ولكن كيف يُصان صلاح النيل الأعلى للملاحة مع أن منبعه الثانى فى أقصى شمال البحيرة ؟ والمسئلة هى أن يُعرف ، إذن ، أى الأمرين أفضل : إقامة السدِّ عند مخرج بحيرة ألبرت فى بَكَوَاتش أم إقامته بعد مئى كيلو متر عند نموله ؟

ويتلقى النهر الشاب فى مجراه من مخرج بحيرة ألبرت كثيراً من السواعد التى تُضَاعَف ربحه فى موسم الأمطار ، غير أن هذا النهر يَبْدُو مغامراً فيخسر فى أسبوع ما كان قد ربحه فى الأسبوع الماضى ، فيترك فى منافع مُنْفَعَةٌ ما يَقْرُب من نصف مكاسبه ، ويكاد يَجِفُّ لو لم يَخَفَّ بحر الغزال إلى مساعدته ، ويتلُغ الخسران فى المنافع من الكثرة ما يَقدَّر ١٣,٥ مليار متر مكعب من ١٤ مليار متر ماء مكعب ، أى ما يكفى لجلل مساحة الأراضى الصالحة للزراعة فى مصر ثلاثة أمثالها ، وهكذا لا يُعين بحر الغزال وبحر الجبل ضير المُشر من مجموع النيل .

ولكن بما أن سواعدها عاطلة من الانحدار فى القسم الأسفل من مجراها فإن جميع

### « خطة فرعون »

ذلك يسير إلى ذلك المستنقع ، وتمرى هنالك بُقعةٌ يستطيع بقر الماء ، حين يسقُ طريقاً ، أن يُقَوِّضَ فيها ضِفَّةَ نهرٍ فيغير مجراه ، وأُرِيدَت معالجة ذلك قَوَرَدَتِ الذهنَ « خِطَّةُ فرعونَ » ، خِطَّةٌ مِيناً التي طَبَّقَهَا على النيل الأدنى ، وهذا النظامُ هو من سرعة التنفيذ وكثرة التوفير ما يُجْتَنَبُ به ضَيَاعُ الماء في المناقع ، فيه يُحَدَّثُ سَدٌّ حَجَرِيٌّ على الضِفَّةِ اليسرى من بحر الجبل ، بين رجاف ومَلَا كَال ، بالغ من العرض عشرة أمتار ومن الارتفاع مترين فيُخَصَّرُ بحر الغزال بذلك ، وبذلك النظام يُنْشَأُ عن يمين تلك التسوية سَدٌّ ثانٍ عازِلٌ لنصف مناقع بحر الجبل ، فتَقِلُّ مساحتها بمقدار النصف ، وبذلك النظام يكون بحر الجبل قد رُدَّ إلى حِجَّةِ بحر الزراف فيرتفع مستواه ، ومع أن الأرض ترتفع بذلك ارتفاعاً خفيفاً نحو الاتجاه الشرقى فإن المناقع الشرقية تَزِيدُ هنالك وتَضِيقُ على طول بحر الغزال ، ويُمكن ذِئكَ السَّدَّينِ الفرعويين الطويلين تسَمَّتُهُ كيلومتر ، والبالغين من التكاليف مليونَ جنيه ، أن يُقَامَا في ست سنين وأن يَفْصِلَا نصفَ المناقع ، ويُحَرِّمُ الماء نصفُ المناقع بذلك فلا يَنْقَذُ غيرُ ربعِ ١٥٥ مليار متر مكعبٍ التي تَقِيبُ في تلك البُقعة فيكون لمصرَ نَعْمٌ كبيرٌ في سِنِي الجفاف .

والمناقعُ تستنزفُ النيلَ ما لم يُحَقِّقْ ذلك المشروع ، وسيُناطُ مصيرُ مصرَ بروافدِ المجرى التحتاني والسُّوْبَاطِ قبل كلِّ شيءٍ ، والسُّوْبَاطُ هو الذي يأتي بماء الحَبَشَةِ الجنوبي ، والسُّوْبَاطُ خاضعٌ لنظامِ أمطار الجبال العالية ، فيَجِفُّ شتاءً ويتدفع كالسيل صيفاً ، ويكفى قليلٌ تعديلٍ في الجوِّ حتى تَبْلُغَ المناقعُ جميعَ ماء البحيرات ويصيحُ النيلُ نهراً حَبَشِيًّا خالصاً .



٢٣ — جرى النيل الضفاف من أسوان





والنيل كالنهر الذى ينام فى كل أمرٍ فيخسر كل شيء فى مشروع هير<sup>(١)</sup> ، فهو يكاد يحفّ لو لم يأت الشواطئ لمساعدته فى الدقة الأخيرة ، أى فورَ التقاء بحر الزئال وبحر الجبل ، أجل ، تُقلل الشواطئ فيضاناته فى مجراه الأعلى ، فلا يصل إلى حدّه الأقصى إلا فى شهر نوفمبر مع أن ارتفاعه يبدأ فى شهر إبريل ، غير أن الشواطئ فى فصل الخريف يكون من القوة ما يسدّ به مجرى النيل ويذخر به مياهه حتى بحيرة نو ، ولا يجوب السودان ، إذن ، سوى قليل من ماء النيل فى ثلاثة أشهر .

وماء الجبشة ، أى نهر الشواطئ مع توابه ، هو الذى يجرى على هيئة نحو الخرطوم فى مجرى النيل الأبيض .

## ٢٠

النيل يُقلب جميع سنن الطبيعة رأساً على عقب كما يلوح ، والطبيعة تبذل غاياتها بهذا القلب مع ذلك ، فالنيل يجوب الصحارى والمناطق من غير أن يحفّ تماماً ، والنيل فى الصيف ، حين تحفّ الأنهار الأخرى ، هو الذى يُقلب بمياهه المرتفعة نظامَ القصور المادى ، والنيل يُبقى مع أنه دون الكونفور والدانوب الأدنى غزارة ومع اتباعه أحوال حياة أشدّ تقيداً ، والنيل ، مع سيره من مناطق بلا مطر ، يكون من القوة ما يحتمل معه الجفاف ، وقد نالت الطبيعة هذه النتيجة بفضل تأخى النيلين .

(١) الهير : الذى يتهور فى الأمور .

أى النيلين أفضل ؟

ومن الصعب أن يُعرَف أىُّ النهرين أُمُّ من الآخر كما يَصْنَعُ تعيينُ نصيب كلِّ من العالمين الشريكتين في الفضل كـمسيو كُورِي ومدام كُورِي ، أو الأخوين رايت ، اللذين اقترن ما فيهما من علم رياضيٍّ وتصوُّر وإلهام وبحثٍّ وصولاً إلى اكتشافاتهما ، نَمَّ ، إن النيل الأبيض أشدُّ بَطْناً ، غير أن هذا البَطْوَةُ يُقَدِّمُصرَ ، ويؤخِّرُ عدمُ انحداره وصولَ مياهه التي تَمُرُّ من الخرطوم بين الشهرين أغسطس وديسمبر ، مع أن النيل الأزرق ، الذي هو أكثرُ سرعةً ، يُلقَى مياهه بين يوليه وسبتمبر ، ثم إن النيل الأبيض الوحيد لا يَخْرُجُ من مجراه ، وتظلُّ الزراعة مقصورةً على الضفاف المباشرة التي تَسْقِيها التواعير ، ولولاه ، مع ذلك ، لما نت مصرُ عطشاً في فصل الجفاف حين يَحْمِلُ النيلُ الأزرقُ ماءً قليلاً تحت سطح الأرض ، ولم تَهَبِ الطبيعةُ النصرَ للأقوى عن حكمةٍ ، فأكبرُ الأخوين ضامنُ حياةٍ وأصغرهما صاحبُ عبقرية .

وأرقامُ حساب النيل الأزرق دليلٌ على عُنف مزاجه ، فيما ترى نسبة الارتفاع والتزول في النيل الأبيض ١ : ٥ تَجِدُها في النيل الأزرق ١ : ٥٠٠ ، ويمكن أن يُبَصِّرَ حسابُ النيل في مصرَ بين الشهرين ديسمبر ومايو ، لأن الذي فيه آتئذٍ هو ماء النيل الأزرق ، ولا يُعرَف ، مطلقاً ، ماذا تكون الزيادة في شهر يونيه لأنها مدينةٌ للنيل الأزرق ، أى لجلال الجبشة وللرياح الموسمية ، ولا يَلْبَثُ النيلُ الأزرق العنيفُ التابع لهواه أن يَكْفَ عن المساعدة ، ثم يقوم بجميع العمل متى عَنَّ له ، وهو يحتمل ثلثي الحساب في الشهرين أغسطس وسبتمبر ، ولا يحتمل كلُّ من المطبرة والنيل الأبيض سوى السدس ، وإذا حَكِم في الأمر من حيث غزارة الماء قيل إن بحر الجبل هو مصدرُ النيل الأبيض وإن النيل الأزرق هو مصدرُ النيل بأشره ،

وهذا إلى أن النيل الأبيض ليس أبيض كما أن النيل الأزرق ليس أزرق ، ففي الربيع يكون النيل الأبيض أخضر ، ثم يصير ضارباً إلى حمرة ، ولا تكون مياهه شفافة حتى في فصل الشتاء ، ويكون لون النيل الأزرق في موسم الفيضان كلون الشكولاتة مع اسمرار ، ثم يصبح أكثر صفاء .

ومع ذلك لا يبدل النيل الأزرق على عبقريته بصورة أمواجه ، بل بتركيبها ، فالنيل الأزرق ، إذ يخرج من جبال بركانية ويحول أجزاء البرلت الحبيبي إلى غرين خصب ، يأتي أمراً لا يقدر عليه النيل الأبيض ولا جميع أنهار أوربة ، وتعرف قيمة الغرين على ضفاف نهر الفنج أيضاً ، ومتى فاض نهر الفنج فأنلف الفلال تبسّم الهندوسى باتزان البرهمنى لما يعلمه من قوة خصب التراب في العام القادم ، وكان المصريون منذ خمسة آلاف سنة يعرفون أن الغرين سبب وجود الدلتا ، وأن محاصيلهم مدينة للغرين في كل سنة .

أجل ، يحيى النيل الأبيض ، أيضاً ، بمواد محلوقة عالقة به ، وتمثل النسبة للثوية لهذه المواد للمكينة الانحلال ما في النيل الأزرق من غرين ، غير أن تلك المواد من أصل نباتي على الخصوص ، وذلك لأن النافع تقوم بعمل المصفاة العظيمة ، ولأن الانحدار أقل مائلاً ، ولأن الجزر تقف ما يبقى ، ولأن التراب الخزفي لا يمكن كثره ، ويحبل السوابط نصف الحبيبي غريناً ، ويفقد معظم غرينه في منافسه الخاصة .

وما يحمله النيل الأبيض والشواطئ من المواد الصلبة فيرتب في مجاريهما ومناقصهما ، ويأتي النيل الأزرق بـ ٨٦ في المئة من مجموع تلك المواد في شهرى فيضانه ، أى في أغسطس وسبتمبر ، وفي الشلالات أيضاً يجزئ النهر ما يقرضه من البرلت

### تأثير الغرين

والغرائب والجبر ، وإلى الغرين يُضاف رملُ النهر ، وما في النهر من موادَّ عَفْنَةٍ ،  
و في المنة مما يَحْمِلُ هو من الموادَّ العُصْبِيَّة ، فَيَتَلَفُ في أثناء مروره من الصحراء  
وبفعل الجفاف والهواء ، وهكذا تزيد الصحراء عدوًّا للماء قوةً ، وإذا ما انتهى  
الفيضان وسكنَ أخذت الطيور ، من فورها ، تَفْتَرِسُ السمكَ الميت وأنواعَ الحيف  
المنتشرة على الضفاف .

ويَجْرُ النيلُ الأزرق ، في أثناء جريانه الهاائج ، كلَّ شيءٍ في طريقه كَرُسُلٍ من  
بلاده ، ويَعُدُّ من عليه في أميالٍ كثيرٍ من القنّات والمضائق والمزالق ، وَيَقْطُرُ<sup>(١)</sup>  
الغرين من الحواجز ، وإذا ما تحول النهر إلى سيلٍ جَرَفَ شفيره المتفتت ، وَيَتَصَبَّبُ  
نُشَارٌ براكين الحَبْشَةِ و ترابٌ منحدراتِ الأودية المتساقطُ ورمالُ الصحراء التي تأتي بها  
الريح ورمادُ حرائقِ السُهب التي يُوقدها هَمَجٌ إثيوبيّة تجديداً لمراعهم أو قريباً من  
وادي الأباي الجنوبي للدفاع ضدَّ جماعات الفُيُول ، أَى يَتَصَبَّبُ جميعُ هذه الموادَّ  
السود والشمر ، في أشهر ، ومن خلال سُهب بلاد النوبة وسحرائها ، لتُخْرِجَ من  
أرض مصر ، التي لا يَنْزِلُ إليها مطرٌ ، أسرعَ وأَبْرَكَ ما في الدنيا من غَلّاتٍ في  
الغالب ، وهكذا تُتَنَاطُ حسابات الرجال الذين يضاربون على القطن في مَنَشِشَر بأهواء  
نهر نَقُورٍ لم يُيَمِّ أحدٌ استغلاله من منبعه إلى مصَّبه .

ويشتمل الغرين ، أَى مصدرُ الغنى ، على ذهبٍ يُعَدُّ رمزاً لقيمته ، حتى إنه  
يُصَفَّى على حدود السودان في الحين بعد الحين ، ولكن بمقاديرٍ قليلٍ لِمَا يتطلبه  
استغلاله المنتظم من نفقاتٍ كثيرة . وقد حَسَبَ أناسٌ من ذوى الاختصاص ما في  
الغرين من سَمَادٍ فوجدوا أن كلَّ فدانٍ في مصرٍ يحتوي منه ما قيمته جنيه ونصفُ

(١) قطر : سال وجري قطرة قطرة .

### النيل قد أوجد الدلتا

جنيه ، ويزيد خصْبُهُ بالحرارة ، وما فيه من أكسيد الحديد فيزيد قوة امتصاصه . تلك هي طبيعة الهَيْة الكبرى التي تَمُنُّ بها أمطار الحبشة على مصر فتجبل منها بحراً عموماً ، وإذا كان غرّين النيل عنصرَ التذكير المُولد فإن الأرض التي يَنْشأها مستعدةٌ لَهَبِ الحياة ، وما يكون من جفافٍ بعد الفيضان فيوجب تصدّعَ أرضِ مصرَ ، ويتخلّل الهواء في القُطُور<sup>(١)</sup> التي تشابه ما تشقُّها حديدَةُ المِحراث في أماكنٍ أخرى ، وغيرُ قليلٍ مقدارُ الموادِّ اللصّقة التي ترسب بين الحصادين ، وينفذ الفيضان الآتي نفوذاً عميقاً ويحلُّ الموادَّ الضرورية لنموِّ النبات ، ويودع الغرينَ ويُقلِّلُ صلَـةَ ملُح الطبقات الدنيا من التراب

والنيلُ قد أوجد الدلتا قبل أن يحوّل الإنسانُ الغرينَ إلى غلالٍ بألوف السنين ، والنيلُ قد شقَّ طريقه في الصحراء قبل ذلك بألوف السنين ، وترجعُ أولى العلامِ والأرقام الخاصة بالفيضان إلى ما هو أقدمُ من جميع وثائق الرب التاريخية ، وهي تبُلِّغ من القدم نحو ستة آلاف سنة ، وهي تمدُّ قريةً من الصحة في الوقت الحاضر ، والثورة الكبرى التي عاها النيلُ هي من عمل الإنسان ، ولا تزيد في القدم على قرن .

ونفلمن من التصاوير على جذران قبور القراعنة كيف كانت الحبوب تُبْدَر في الغرين بعد الفيضان وكيف كان يُحصَد بعد شهرين ، ونرى على تلك الجُدُر أسداً مُحيطاً بِحِياضٍ كما في الزمن الحاضر ، ومن الكتابات ما يدلُّنا على أن الحكومات كانت تُوجِّه ماء الفيضان من حوضٍ إلى آخرٍ إيصالاً للغرين الولد إلى مكانٍ بعيد ، وكان مُحْتَمَلٌ منذ أربعين سنة مَضَتْ ، أي قبل إنشاء خزان أسوان ، باليوم الذي

(١) القُطُور : جمع القطر ، وهو الدق .

## الفيضان

تغادر أمواج النيل الأزرق الأولى جبال الحبشة كما كان يُحْتَفَلْ قبل خمسة آلاف سنة ، والأسماء هي التي اختلفت ، فكان الكَهَّانُ يُخْبِرُونَ الشعبَ بأن إيزيس يَسْكُبُ حموعه في النيل حين يبكي أخاه أوزيرس فيرتفع النهر ، واليوم يُبْرِقْ مهندسُ الرِّصْرِصِ إلى القاهرة مُخْبِراً بوصول الفيضان ، واليوم يقول النصارى والمسلمون إن قَطْرَةَ رَبَانِيَّةٍ تَنْزِلُ ليلة اليوم السابع عشر من شهر يونيه ، ولن يستطيع عالمٌ أن يَطْفِئَ شُعْلَةَ خيال الناس الشَّعْرَى .

وَيَقْمَرُ الفيضانُ مصرَ في فصل الصيف ، فيُخَصِّبُ الحقولَ الجافَّةَ بالفرين ويكون الشتاء لطيفاً غيرَ حارٍّ كما في المناطق الاستوائية فَيَنْبُتُ الحبُّ من تلقاء نفسه ، ويأتى الفيضان الحَبِيثُ في الوقت المناسب إذن ، ويكون على عكس الفيضان الذي يَقْمَرُ العراقَ إذنْ ، ونَعْرِفُ مقدار الزمن الذي تدوم فيه رحلة الموجة ، ففي النيل الأزرق الأعلى يبدأ الفيضان في أبريل وَيَبْلُغُ أسوانَ في يونيه ، وَيَصِلُ إلى الدلتا في يولييه .

وَمُعْظَمُ المياه يَصْبُ في البحر منذ أوف السنين من غير أن يُنْتَفِعَ به ، وكان لا بُدَّ من حاول عصرنا حتى يُشَادَّ سَدُّ أسوان وسواه في مصرَ وتُسْقَى الأراضي على طول النيل وإلى ارتفاع ما ، فَتُطْفِئُ الأَطْيَانُ محاصيل أو ثلاثة محاصيل وتَقْدُو الصحراء من ورائها خصيبةً .

## ٢١

تري ابن ضفاف كلَّ جلول منذ أقدم الأزمنة في غَمٍّ من أعمال ابن الجري التوقائي وحركاته فيسأل في نفسه عن استفاد هذا الجارِ كثيراً من الماء وعن تحويله

إياه إلى مصلحته ، وتحمي قوانين جميع البلدان ابن الجري التحتاني من اعتداء ابن الجري القوقاني إذا كان كلا الفريقين يسكنان بلداً واحداً على الأقل ، وإذا كان منبع جدول خاصاً بمالك أرض آخر فإن الانتفاع الصحيح بمجرى الماء يصبح صعباً لما يصير به جميع الدوايب التي يديرها جميع الأموال الخاصة في خطر ، ويبدو الوضع أشد خطراً عند ما يتوقف أمر بلاد بأسره على مجرى ماء عظيم ، لا من أجل مائه الصالح للشرب ، بل من أجل الحبوب التي تُغذي سكانه ، وذلك عند ما يكون منبع مجرى الماء هذا في بلد آخر ، وعلى أصحاب السلطة في المصب أن ينفذوا في نفس أصحاب السلطة في المنبع نفوذاً تاماً حتى يفرقوا مقاصدهم ، وماذا يقع لو تنافر الفريقان فصرف سائر الجري القوقاني منبع الماء عن وجهته عن حُبش غير خائف مقابلة بالمثل ؟ فلاشترع الدولي في أمور الرمي وهي ككل حق دولي .

وما كان يساور قداماء المصريين من غم فتل ما يساور للمصريين المعاصرين ، وذلك تجاه أمة إثيوبية البعيدة النكرة التي وضعت الآلهة منبع النيل الأزرق بين يديها كما وضعت الفيضان الأكبر والغرين المولدة اللذين لا يمكن مصر أن تعيش بدونهما ، وفي الأساطير والكتابات شواهد على تنازع أهل الجري التحتاني وأهل الجري القوقاني وتفاوضهما ، وقد أدى هذا الوضع إلى مخاوف مخالفة للعقل في الغالب .

وفي القصة أن الفيضان لم يقع في سنة ١١٠٦ فضربت المجاعة أهلها في مصر فأوفد السلطان الأمير النصراني والبطرك القبطي ، ميخائيل ، إلى نجاشي الحبشة النصراني مع كثير من الهدايا ، وقد أثر الذهب في النجاشي وثار فيه عاطفة الخناك فخرق السد الصغير الذي يحول الأبواب الأعلى ، فلم يلبث الفيضان

أن عمَّ السودانَ صاعداً في كل يوم ثلاثةَ قراريط<sup>(١)</sup> ، وفي نهايةَ الفيضان استقبلَ ميخائيلُ في الدلتا استقبالَ الظافرين ، لما كان من سياحته بأبطاً من الماء ، وخشىَ السلطانُ أن يُسلمَ النصارى البيضُ مصرَ إلى أخيهام النصارى القمُصِ ، كما خشيَ هذا القمُصُ النجاشي أن يُغيرَ عليه السلطانُ بفتةً راعباً في الاستئثار بالنيلِ كله إلى الأبد ، والنهرُ ، إذ يتقلَّت من المنافع ، يتورط في المنازعات الدينية ، أو في عالمٍ من الأفكار غريبةٍ عنه غُرَبَةُ النيرين البركانيَّ عن مذاهب الأنبياء .

وما رُوي من قصة الاجتماع في القاهرة سنة ١٤٨٨ فيصف لنا السلطان وهو متكئاً على أريكته في خيمته الذهبية وسفراء جميع ملوك البيض يُقبلون الأرض مرتين أمامه ، ويصلُ رسولُ النجاشي وحده مضطجماً في مِحْمَةٍ<sup>(٢)</sup> كالسلطان فيرفضُ النهوضَ والمُخرج منها ، ويسأل :

— مولاي ! أتريد السلمَ مع سيدك وسيدى القمُصِ يَوْحَنَّا ؟

— لقد عاش آباءُي في سلمٍ مع هذا القمُصِ .

— لا تدعُه قبيساً ، وإنما ادعُه بـ « سيدى » .

ويكرِّر هذا الأمرَ ثلاث مرات ، فيقول السلطان بتأنٍ : « أريد السلمَ مع سيدى القمُصِ يَوْحَنَّا » .

وهناك سلمُ الحبشي إلى سلطان مصر قَوْساً وستةَ سهامٍ من ذهبٍ وقال :

— أصبتَ إذ قلتَ سيدى ، خيأتك وموتك بين يديهِ ، وأنت تعرف

(١) القراريط : جم القباط ، وهو في الساحة عرض الأصبع ، والسكفة من الخيل .

(٢) المحفة : سرر تسيّل عليه المسافر ، ويسمى تخدوان .



السبب ، فالتيلُ يأتي من بلدنا ، ولو أراد سيدي لقطع الماء وأمانكم جميعكم جوعاً .

السلطان : « ذلك حق » .

وَيُفسَّرُ المؤرخ حين ذلك الإكراهَ بِجَهْلِ التُّركِ وَحِيلِ الأقباطِ وَخِيَلِهِ الأحابشِ .

وحاول نصراني من الغرب أن يَحْتَلِ من تلك الأسطورة حقيقة ، ففي سنة ١٥٠٠ كان ألفونسو دُوَّالبُوكِرُكَ البرتغالي ، الذي جُعِلَ منه رجلٌ عظيم ، نائباً للملك في الهند ، فأراد أن يَتَزَعَ من السلطان طُرُقَه التجارية وإهلاك مصرَ فاعتمد على القُصَصِ يوحنا وسى في تحويل النيل الأزرق إلى البحر الأحمر ، فلم يَحْبِطْ عمله ، كما روى ابنه ، إلا لعدم وجود عمالٍ ماهرين ، « وإلا كان يمكنه أن يَحْرِقَ تِلًا ، فتموت مصرُ عطشاً » .

والآن أيضاً ، أى بعد أربعين سنة أو تزيد ، وَضِعَ من الكتب الحديثة ما عُدَّ به تحقيقُ ذلك المشروع أمراً ممكنًا ، ومع ذلك يجب على جميع العالم أن يَعْلَمَ أن أهمَّ ما يأتي به النيل الأزرق لا يأتي من مجرى يمكن تحويله ، بل من مئات السبيل التي يتعدى ضبطها من بعيد ، وما في النيل الأزرق من مخاطرٍ ومنافعٍ فقد حُلَّ على قياسِ جريانه وحسابه قبل أن يُصَنَعَ مثلُ ذلك عن النيل الأبيض ، وقد عُيِّنَ بالأمر سنة ١٩٣٠ ، وسُيُعَيَّنَ به في المستقبل لا ريب .

ووضعت مشاريعُ سدِّ بحيرة طانة منذ ثلاثين سنة خلت ، ولن تُنْكَرَ التَّجَسُّةُ على مَنَحِ إِمْتِيازاتٍ ما دامت مستقلةً وما دام الرِّقُّ يُفْنِيها عن كلِّ قَرْضٍ من الخارج ، وهذا ما جَعَلَ من غارستن ، الذي تَتَخَذُ حساباته عن النيل أساساً

رئيساً لجميع مسائل الرِّىِّ ، عاملاً فى اتفاق إنكلترة والنجاشى يُعَاهِد به هذا الأخير على عدم القيام بأعمالٍ فى الأُبَّاءى الأعلى وعلى عدم السماح لأحدٍ بصنع ذلك من غير أن توافق عليه إنكلترة ومصرُ متدِّماً ، وقد اعترفت إيطاليا فى سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٥ بمركز إنكلترة للمناز فى مقابل ضمان القسم الغربى من الحبشة عند إنشاء مثل ذلك السِّدِّ ، وقد وَقَّع هذا باسم « مناطق النفوذ » التى هى شكلُ عصرىٍّ للفتح الاستعمارىِّ ، وما فَتَحَتْ فرنسا تُثْبِتُ رِيبَ نجاشى الحبشة ، ثم غَيَّرَتْ فرنسا سياستها فى صيف سنة ١٩٣٥ .

وفى سنة ١٩٢٧ عَرَضَتْ إنكلترة على الأحباش ما هو ضرورىٌّ من النقود لإنشاء سِدٍّ مُؤَدٍّ إلى زيادة رِىِّ زراعة قطنها السودانىِّ ، ويُوَلِّى النجاشى وجهه شَطْرَ الأمريكيين ، ويُشِيرُ هذا عن وضع مشروع سِدٍّ من قِبَل شركة فى نيويورك ، وتَحْشَى إنكلترة أن يكون للأموال الأمريكية ومصالح ملوك القطن الأمريكيين تأثيرٌ فى مجرى النيل فَصَلَّتْ الاتفاق مع منافسها هؤلاء ، ثم حدثت الأزمة العالمية فَوَقَّفَ كلُّ شَيْءٍ .

وَيُشِيرُ سِدٌّ بحيرة طانة ، وهو سِقَام ذات يوم ، حسد الدول العظمى ، ويقاومه أحباش أدبس أيباً لِمَا يوجب من دخول الأجانب فى البلاد ، ولِمَا يُجْهَلُ به وقت خروجهم منها ، ويَزْعَم سكان شواطئ بحيرة طانة ، بوَحْشٍ من قُسُوسهم ، أن الأجانب الآتين من أَجْلِ المشاريع يريدون إقامة سِدٍّ يبلغ ارتفاعه مئة متر فيؤدى إلى هدم كنائسهم وإلى تحويل الأُبَّاءى ، وأن الأجانب كانوا قد سَمَّوْا بحيرة طانة ، والمصريون وحدهم ، وهم الذين أَهْمَّتْهم الحبشة فى عهد السلاطين ، لم يكثرُوا لذلك ، فهم يَقُولُونَ فى الوقت الحاضر أن ثلاثةً فى المئة من الفيضان يَصِلُ إلى

لا يردون أن يكونوا تابعين

مصر من بحيرة طانة ، وأن ذلك السد لا يجرهم ماء ، ولا غريناً يقوم عليه عيشهم ، وأن الغرين لا يأتي من هذه البحيرة ، وأن ذلك السد يحفظ ، بالعكس ، ثلاثة مليارات متر مكعب من الماء لمصر والسودان عند الجفاف ، وأنه يحفظ هذا المقدار للسودان وجزيرته وحدهما بعد إنشاء مصر لجميع أسداد النيل الأبيض ، وفي هذه الحال ، وفيما خلا الشتاء وقت الفيضان ، يكون النيل الأزرق سودانياً صرفاً ويكون النيل الأبيض مصرياً خالصاً .

وترى إنكلترة في الوقت الحاضر إنشاء سد على النيل الأزرق حيث يكون الماء خاصاً بها ، وذلك على بُعد ثلاثئة كيلومتر من فوق الخرطوم ومن ملتقى النيلين : الأزرق والأبيض ، وذلك لئلا يؤدي إليه من رافع مجرى النهر وسد النهر وسقي حقول القطن بالماء المغزون ، وتتخذ إنكلترة هذا القرار بعد النجاح الذي نيل في أسوان بوقت قصير ، ويحدث مثل هذا النجاح موضة<sup>(١)</sup> كما تحدث الكتب والطغاة ، ويبدو القوم جُسرًا مُترين ، ولا يريد أصحاب المصانع في منشستر أن يكونوا تابعين للولايات المتحدة الأمريكية ، ويؤذ الإنكليز ، أن يلودوا بالتقاليد القائمة منذ زمن ، ولا يعد الأمر بدعاً<sup>(٢)</sup> يُلقى النّم في قلوبهم ، والواقع هو أن القطن يُزرع في الجزيرة منذ قرن ، والواقع أن الجزيرة مثلث يبلغ من المساحة خمسة ملايين فدان إنكليزي ، والخرطوم رأس المثلث ، والنيلان ضلعاه ، وتقطع قاعدته الشّهب بين كوشتي وسنار ، ويمدّل نصف سويسرة ، ويمدّل جميع أراضي مصر الصالحة للزراعة تقريباً .

يبد أن هذا القطن الذي كان يزرعه أهل البلاد هو من الهزال كالقطن شينو

(١) Fashion, Mode (٢) البدع : المحدث الجديد .

البرّي الذي يُزرع الآن في حقول الحَبْشَة ، وهو لا يمكن أن يزاحم القطن الأمريكي ، لما ليس في الجزيرة من أثر للحَذَق والفن ، ولقلة ما في الجزيرة من الماء على الخصوص ، ولا تَسْقِي الأمطارُ غيرُ المنتظمة الحَقولَ في الوقت المناسب ولا بدرجة الكفاية ، وإذا ما أُتِمَّ المطرُ شَيْهَ الاستوائِ بالرّيِّ كان للوايل<sup>(١)</sup> الذي يَهْلِل بين الشهرين ، مايو وسبتمبر ، أحسنُ عملٍ ، وكانت هذه المنطقة تُنْبِت سِمِياً ومطاطاً ، وكانت المِصْحَاتُ الضَّخْمَةُ تُسْتَعْمَلُ في أوائل هذا القرن فكان يُؤَخَذُ أُمْلَبُ محصول ، وأراد كَتَشَر بِمَآثِرِهِ أن يكون للأرض رَخاءً وعَظْمَةً فنال من الحكومة ضِمانَ قَرْضٍ مُعَدٍّ لِنَفْطِيَةِ نَفَقَاتِ حَزَانِ سِنَارِ مَكْوَار ، ووُضِعَتِ المَشارِيعُ سنة ١٩١٣ ، وأُجِّلَتِ الأعمالُ ، التي كان يجب أن تبدأ في سنة ١٩١٤ ، بسبب الحرب ، ولم يَتِمَّ قِيَامُ هذا السدِّ إلا في سنة ١٩٢٥ ، وكان التقدير الأوَّلِيُّ لثَلَاثَةِ ملايين جنيه قبلت نفقات السدِّ ثَلَاثَةَ عَشَرَ مليونَ جنيه ونصفَ مليونَ جنيه ، ويجب أن يُسَارَ أكثرُ من نصف ساعةٍ لقطع ما بين طَرَفَيْ جِدَارِ الدَّعَامِ<sup>(٢)</sup> البالغ من الطول ثلاثة كيلومترات ، ولكن من الصَّعَابِ وكثرة النفقات أن تُنَال من نَهِرٍ تَنَاجُ لا تُنَال من بحيرة بصموبة ، ويمكن بحيرة طانة أن تَمْنَحَ بسدٍّ طوله مئة مترٍ وعرضه متران من الماء أكثر مما يَمْنَحُهُ حوضُ سِنَارِ بسدٍّ أطول من ذلك ثلاثين مرةً وأعلى منه ثمانين مرةً ، ومقدارُ مِثْلٍ هذا مما يمكن أن يُمدَّ لندن بما يحتاج إليه من الماء لمدة سنتين .

ولا يُورَعُ هذا الماء كما في مصر من كُومِي<sup>(٣)</sup> بمقادير معينة ، وإنما يَمْرُ وَفَقَ

(١) الوايل : المطر الشديد — (٢) الدعام : الدعامة — (٣) الكوى : جمع الكوة ، وهي الحرق في الحائط .

نظام القنّوات بَلَغَ من الكمال ما يُعَدُّ معه فريداً في العالم وما يوزَّع الماء به على ثُلث الجزيرة ، وهنالك قناة رئيسة طولها مئة كيلومتر موزّيةً للنهر مع اجتناب أضواجه<sup>(١)</sup> ، وإذا نُظِرَ إليها بالطائفة من الجوّ وَجِدَ خطٌّ مستقيمٌ خالصٌ مُصَادِّاً لمقاصد الطبيعة الروائية ، وترى القنّوات الجانبية ، التي يسهّل حفرها في أرض الجزيرة المجردة من الحجارة ، تضيق متداراً فقديراً ، وهي تتبلّغ من الضيق ما يُمكن معه عبورُ أصغرها بمخلوطة ، بيد أن مجموعها يبلّغ من الطول ١٥٠٠٠ كيلومتر ، أي ضِعْفَي طول النيل الأبيض والنيل الأزرق مجتمعين ، وكان لا يُنتفع بهذا الماء منذ عشر سنين ، وكان يجرى إلى البحر من غير أن يفيد إنساناً .

ويَنَالُ أبعدُ الجداول وأضيقها في أوقات معينة ، وبفضل نظام التوزيع الرائع ، مقداراً معيناً من الماء على نسبةٍ ما يَنَزِلُ من المطر في هَضَابِ الحَبَشَةِ ، وإذا حدث في النصف الثاني من شهر يونيه أن مَلَأَ الفيضانُ الحَوْضَ اشتملت القناة الرئيسة على ماء يوزَّع في تسعة أشهر .

وذلك منظرٌ منيرٌ ، وما كان التحدي الذي يُوحى به الاستثمار المُزْدَمِي واستعباده التوارى ، ولا الأسفُ على سعادة أناسٍ أنزلهم النظام الآليُّ إلى مرتبةِ العمال بدلاً من أن يعيشوا في البطالة المادئة تحت الشمس ، ليقالَ إجمابنا بتلك الأدمة التي بلغت من الجَبَرُوت ما يَمُدُّ قدرةَ العناصر ، وفي الجزيرة كان السودانيُّ ، للسلم منذ مئات السنين ، عبداً للفُوج ، عبداً لـ « السلاطين الزُرَّاق » ، أي كان معروداً من الجنة ، وما كان الرجل الأبيض قد بناه له قد أغناه من عِدَّةٍ وجوه فيذكرُ ذلك حتى الشبان ، وكانت محاصيلُ الدَّرةِ عظيمةً في السنوات الكثيرة المطر ،

(١) الأضواج : جمع الضوج ، وهو متعطف الإحدى .

### كانت مفاجأة

وكان يقال إن الجزيرة نثر<sup>(١)</sup> السودان ، غير أن هذا كان يقع مرة واحدة في العشرين ، وقد أبصرنا بأنفسنا تلك الحقول المستورة بالعُبار في حال يُرثى لها ، وكان النساء يَعرِفُن احتفالات القطن ، ولكن متى أراد الله ، والله لا يريد ذلك في كل وقت .

وكان ابن البلد يُدْعَر إذا ما فُسِّرَ له نظامُ حياته الجديد ، وقد زادت مخاوفه عندما اتخذت الحكومة سجلاً للأُملاك نتيجةً لعملِ سنين طويلةٍ ، فحُسِبَ دَخْلُ القندان الواحدِ وَفُقِّ للمُدَّال المتوسط لأربعين عامًا ، وقد قُسمَت البلاد في ذلك السجل إلى مربعات يشتمل كلُّ واحدٍ منها على عشرة فدادين ، ويُفَصِّلُ بين كلِّ واحدٍ منها جدولٌ ماء ، فصار الألوف من السودانيين لا يَفْرُقُونَ بين حقولهم ، وغدا غير واحدٍ من الشَّيْب يَفِلُّ حَقْدًا على أولئك الذين يَزْعُمُونَ أنهم يَجْلِبُونَ السعادة إليه .

ثم كانت مفاجأةٌ فقد حَفَزَ ما في النساء والأولاد من فُضُولٍ إلى فتح الثَّقَبِ الذى يَجْلِبُ الماء إلى جدولهم ، وقد أوجب وصولُ الماء إلى الحقولِ المزروع هُتافَهُم سروراً ، ثم أَهْرِعُوا إلى الجدولِ التالى فوجدوه يَعمُرُ الحقولَ أيضاً ، وقد بَدَّرُوا في كلِّ مكانٍ ما أَنَّهُم به البيض من أكياس بُذُور النِّرة والقطن فأبصروا ازدهاراً في الموسم الجديد ، أبصروا الثمارَ خيراً مما في الماضى ورأوا جَوَرَةَ القطن أنصحَ مما في السنوات الخِوَالى ، وجلست النساء أمام أكواخهن ، وتعلَّمن تنظيف القطن بأحسنَ مما كانت تصنع أمهاتهن ووضع الرجال القطن في أكياس راكبن إياها بأرجلهم ، ومَضَّتِ الجِمالُ مُحَمَّلَةً أثقالاً عظيمة إلى محطة الخط الحديدي التى بناها

(١) الثبر والأنياب: بيت التجار القى تشدد فيه اللال والمناح .

هل هو أسعد من أخيه ؟

الأبيض في مكانٍ قريب فَنَقَلَ القطنُ إلى البحر الأحمر حتى يُرْسَلَ إلى البحر المحيط ، إلى جزيرةٍ أخرى أتى منها سادةُ السدِّ وأعمالُ القنّات .

والآن يتعلّم ابن لا قطة القطن في للدرسة ما هو السدُّ وما هو الدِّعَام وما هو حَفَرُ القنّات ، فإذا كان ذكياً ذهب ، على ما يَحْتَمَل ، إلى كلية غوردون في مدينة الخرطوم الكبيرة ، وإذا مرّت بضعةُ أعوامِ اخْتَبَرَ طبيعةَ أرض الجزيرة أو وَضَعَ جداولَ مستوى النيل أيام الفيضان ، ويَنَالُ مئةَ وخمسين قرشاً واثناً شهرياً ويسكُنُ بيتاً حجرياً ويدخُلُ سياورته مساءً .

وهل يكون أسعدُ حالاً من أخيه الذي يحافظ على عادات آبائه ؟ وأخوه ، مع كسبه ، يتنفع من بناء السدِّ ، وأخوه يَكْسِبُ وقتَ الحَصَادِ ثلاثةَ شلناتٍ في ثلاثةِ أيامٍ ، أى ما كان أبوه يَكْسِبُهُ في شهرٍ ، وأخوه يستطيع أن يَطْلُلَ مستلقياً تحت الشمس أو مع النساء في السبعة والعشرين يوماً التي تَقَعُله عن القمر الآتِي ، وكثيرٌ من القبائل مِكَالٌ ، والإنكليز لا يَفْرِضُونَ العملَ قهراً ، فالضرورة تقضى بجلبِ عاملٍ من الخارج .

وسيكون أولئك العمال من الحجاجِ الناهيين إلى مكة ، ويأتى أولئك من الساحل الغربي ويجوؤون إفريقيا ، وسيجاوزون البحر الأحمر لزيارة قبر النبيؐ ، وأولئك أمْرَنُ على الأعمال الزراعية من الرُعيان الذين هم من أنصاف هَمَجِ السودان ، وأولئك يَنْصِبُونَ خيامهم وَيَزْرَعُونَ بِمَنْزِلِهِمْ طَوْعاً على ضِيفَةِ النيل لِيُقيموا هنالك ستة أشهر وليكسبوا من اللال ما هو ضرورى لإتمام سفرهم ، ويُحْمِنُ الإنكليز ، على الرغم من مُبَشِّرِهِمْ ، قبولَ هؤلاء الحجاجِ المتحصين الذين هم من العمال الصالحين ، وإذا حدث أن أصبح أولئك ذوى صلاتٍ جنسيةٍ بالنساء المحليات فإن

ذلك يُعدُّ خيراً للعرق الذي يشتدُّ وينتشب بهذا التوالد كما في كلِّ مكان .

وثُلثُ الجزيرة قطعاً هو الذي يُستعملُ بذلك الماء في الوقت الحاضر ، ويُنتج هذا الثلثُ ما يُبدلُ خُفَسَ القطن الذي يُحصَد في الدلتا المصرية ، ولكن من أصناف مختلفة فيُصرَّح الخبراء بأن بعضها أجود منه . وبأن بعضها الآخر أردأ منه ، وتؤدِّي الحرارة اليابسة والمطر المتدلُّ في بدء النمو والجفاف حين النَّضج والاعتفاف وتهوية الأرض إلى وجود تربةٍ ممتازة صالحة لزراعة القطن أكثر من صلاح الجزيرة الواقعة بين دجلة والفرات الأوسط والتي تُنتج بريةً مصنوع قطعاً يُعرف باسم الجزيرة أيضاً ، ويُبلغ محصول القطن على ضفة النيل الأزرق في الموسم الجيد خمسةً رطل إنكليزيٍّ أو أكثر من هذا المقدار .

وكانت السنين التي أتت بعد بناء السدِّ بالغة الجودة ، وأفسدت القابضة ، التي يحقُّ لها أن تأخذ من الدخل أربعين في المئة ، الحكومة بجعلها تنال من ذلك خمسةً وثلاثين في المئة ، فكان الأمرُ كما في الزواج الذي تتعود الفتاة فيه على الإففاق الكثير عندما لا تُحمَل على الحساب ، ومما كان يسرُّ الأسر للزراعة البالغ عددها عشرين ألفاً ، والتي كانت صاحبةً لأُملاكٍ فيما مضى ، أن تشتري آلات خياطة وفونوغرافات بأموالها تقسرب في إنكلترة بعد اشتراكها في استغلال جُجميِّ كما في روسية السوفييتية ، وكان ملوك القطن يأتون إلى هنا ، إلى داخل إفريقية ، ليتاعوا المحصول في محله ، وكان كلُّ فدانٍ يُعطى ثلاثين جنياً إنكليزيًّا ربما خالصاً ، وكان المال الاحتياطيُّ يزيدَ خصَّصت حكومة السودان للدارس والطرق والصحة بليون جنيه في كلِّ سنة ، وقد بَلَغَ الجِرنس على الإمبراع في إعداد أراضي الماء غايته ، وقد بَلَغَ قَدَّ اليد العاملة من الشدَّة ما صار



معه المضاربون الفِصَاب من كلِّ الأهالي يَتَمَنُّونَ إبادةَ الحَيِّ المَدِيَّةِ اللوْاسِي حَتَّى لِلْبُدُوِينِ عَلَى الزَّرَاعَةِ ، وَإِتْلَافِ دُبَابِ نَيْسِي لِقِطَاعِ الدُّنْكَ إِكْرَاهًا لَمْ عَلَى إِرْسَالِ أَوْلَادِهِمْ لِقَطْفِ الْقِطْنِ .

ولسُرْعَانِ مَا أَتَتْ سَنُونُ شِدَادٍ كَمَا فِي التَّوْرَةِ ، فِي سَنَةِ ١٩٢٩ ، وَفِيهَا كَانَتْ تَزَادُ مِسَاحَةُ الْأَرْضِ النَّابَةِ لِلرَّيِّ ، هَبَطَتْ أَمْنَانُ الْقِطْنِ ، وَعَادَ لَا يَشْتَرِي مِنْهُ أَحَدٌ ، وَصَارَ الْقِدَانُ لَا يَتَوَدُّ بَغِيرَ سَبْعَةِ جَنِيهَاتٍ بَدَلًا مِنْ ثَلَاثِينَ ، وَأَخَذَ الْمَطَرُ الْمَلَامَ فِيهَا مَضَى لَا يَنْزِلُ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ ، وَغَدَا غَزِيرًا ، وَأَصِيبَ نَبَاتِ الْقِطْنِ بِالْمَرَضِ وَاسْتَوْلَى الْعُشْبُ الصَّارُّ عَلَى الْحَقُولِ ، وَعَمَّتِ الْبَلَاءُ أَوْبَةً بَعْدَ بِنَاءِ السَّدِّ ، وَكَانَ الْحَبِيصُ الْآخُونَ مِنَ الْقَرْبِ قَدْ تَقَلَّوْا الْبِلْهَارِزِيَا ، الَّتِي هِيَ مَرَضٌ فَطِيعٌ صَادِرٌ عَنْ نَوْعٍ مِنَ الْبِيدَانِ ، إِلَى سِتَّارِ قَبْلِ إِنْشَاءِ السَّدِّ فِي مَدِيرِيَةِ دُقْلَةٍ ، وَانْتَشَرَتْ الْحُمَى الْمُغِيَّةُ <sup>(١)</sup> وَالْبُرْدَاةُ <sup>(٢)</sup> وَالْجُدْرِيُّ ، وَتَوَجَّهَ دُغْرًا ، وَيَرَى الْأَهَالِي أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي صَبَّ غَضَبَهُ بِذَلِكَ عَلَى الْآلَاتِ الْكَبِيرَةِ ، وَبَلَغَ عَدْدُ الَّذِينَ قَصَدُوا الشَّافِيَ فِي سَنَةِ ١٩٣٠ أَلَوْفًا مِنْ أَهْلِ السُّودَانِ ، وَاسْتَعْدِمَ الْعِلَاءُ وَالْأَطْبَاءُ فِي مَكَاثِفَةِ تِلْكَ الْأَمْرَاضِ الْوَاقِدَةِ ، وَقَامَ جَحَقْلٌ مِنَ الْكِيَاوِينِ بِمَكَاثِفَةِ الْجِرَادِ ، وَحَقَرَ الْعَرَبُ وَالشَّرَطُ خُنَادِقَ وَاسْتَمَانُوا بِالْشَّمِّ لِإِقْصَاءِ حَشَرَاتِ الْحَصَائِدِ هَذِهِ ، وَتَحَلَّقَ فَوْقَ الْأَهَالِي طَائِرَةٌ آتِيَةٌ بِالْأَدْوِيَةِ مِنْ إِنْكَاتَرَةٍ ، فَيَنْظُرُ هَؤُلَاءُ إِلَيْهَا شَرًّا وَيَقُولُونَ إِنْ الْعَاطَرَاتِ هِيَ أَسَاسُ الْبَلَاءِ .

وهذا هو الإِنبَادُ الْقَاسِي الَّذِي سَيَرُّ فِي آذَانِنَا بِمَصْرَ مَرَّةٍ أُخْرَى ، أَجَلٌ ،

(١) الحمى اللبنة : هي الحمى الدورية التي تأتي تارة وتقطع أخرى — (٢) البرداء : الحمى مع البرد ، وهي اللابرد .

قضت الأزمنة العالمة والطرف والأوثنة على كل حساب لاح صحيحاً وظهراً صالحاً في بدء الأمر ، ولكن لم تُصدَرُ مادةٌ أوليةٌ جديدةٌ من بلدٍ لا يستطيع أن يُنتجها إلا إذا حُرِمَ الحبّ الذي كان يُنتجه منذ قرون والذي كادت الأسداذ والقنّات والآلات وعقول المهندسين تُضاعف مقداره ؟

## ٢٢

في الخرطوم ، حيث ملتقى النهرين الأخوين ، نرى الأخ الأصغر لآخر مرة يشتدُّ بجميع سيول الحبشة فينفضُّ على أخيه الأكبر بُنْفٍ بالغٍ فيصده ثلاثة أشهر ، ويدخره إلى مسافةٍ ما أيضاً ، كما كان السوابط قد صنعه به ، وهذا الصّدُّ الطبيعيُّ ضروريٌّ لمصرَ ، وذلك لأنَّ مُعْظَمَ الماء وقت البركة هناك يجرى إلى البحر من دون أن يُنتفع به ، ولكن النيل الأبيض يحفظ قواه لفصل الشتاء حين تفتش مصرُ فُيْعِيْنَهَا عند وَهْنِ أخيه ، فبمثل هذا الرّمز تتجلى سجايا كلا النيلين .

وظاهرة الدّخر تلك أوحّت إلى المهندسين بتحويل حوض النيل الأبيض الطبيعيِّ إلى خزانٍ مصنوعٍ كما فُكِّرَ في أمر بحيرة طانة أو بحيرة ألبرت ، وإطالِقَ وقوفِ المياه بسدٍّ وتأخيرِ إرسالِ الماء للدّخرِ إلى مصر حتى فصل الربيع حين تكون مصرُ أحوَجَ إلى الماء مما في فصل الشتاء ووقايةِ البلاد من مثل الفيضانات التي كانت تُخربها في الغالب ، فإذا جُمِلَ الفيضان ، هكذا ، عنيفاً تارةً وضيئفاً تارةً أخرى يكون قد أُسْرِعَ وتأخّرَ وفقَّ احتياجات البلاد ، ويُثير هذا المشروعُ

### خزان جبل الأولياء

البادئ البساطة ، والذي هو من وضع بريطانيين خبيرين ، شعور جميع المصريين الوطنيين فيقول هؤلاء "مؤكدين إن الإنكليز يودّون سدّ النيل في السودان ، ويصّرّون بأن ذلك عمل شيطانيّ" يمكن أن يؤدي آلياً إلى إهلاك مصر عطشاً ، ويجعل نداه الاستغاثة هذا ملايين المصريين أعداء للإنكليز ، وتدور الانتخابات حول ذلك المشروع ، ويتهّم الماهل ووزراؤه بخيانة الشعب لصالحهم بإنشاء السدّ ، ولوعدهم بدفع نفقات بنائه أيضاً ، وذلك مع الادعاء بأن السدّ سيكون سلاحاً بيد الإنكليز عند تصادم مصر الواقعة تحت النفوذ الإنكليزيّ والسودان الخاضع لإنكلترة .

ويؤمّنك إنشاء خزان جبل الأولياء أن يتيمّ على مسافة خمسين كيلومتراً من الخرطوم في المجرى التوفانيّ فتقطع النيل الأبيض ذكّة كلسية ، وسيتمكّل بناء الخزان في سنة ١٩٣٧ وسيكون مفيداً لمصر لا ريب ، أجلّ ، يمكن أن يكون سلاحاً بين أيدي الإنكليز ، ولكن لا لإجاعة مصر ، أجلّ ، يدرك قلق من يرون قوتهم اليوميّ قبضة الأجنبيّ ، ولكن قليل منطلق يكفي لتبديد مخاوفهم ، وتفترض أن حرباً ، أو شبح حرب ، يحفز إنكلترة التي يؤديها الرأي العام إلى اتخاذ هذا الأسلوب الإرهابيّ المخالف للزواج الإنكليزيّ ، وتفترض أن مصالح إنكلترة في مصر لا تزدها عن سلوك سبيل الشدة ، لئلا تأخير الفيضان الربيعيّ أو تقليله لا يضرّ مصر إلا لوقت قصير ، وذلك لتعذر سدّ النيل سدّاً تامّاً ، ولما يؤدي إليه ذلك من إغراق جميع وادي النيل الأعلى ومن تعذر الزراعة وانتشار الأوبئة فيه .

وفي سنة ١٩٢٦ يقطع الوفد المصريّ ، الذي هو حزب مصر القوميّ ، كلّ

## المباحث المائية

استعداد لإنشاء خزان جبل الأولياء ، عملاً بما رآه مستشاروه من كون تلبية خزان أسوان تؤدي إلى النتيجة نفسها وإلى جمع ما تحتاج إليه مصر من الماء حتى فصل الربيع ، وما زاد الوفدين سوء ظن ما بدا من تشويق الإنكليز الذين يحملون قبل كل شيء بالقوائد التي ينالونها من إنشاء الخزّان الجديد والذين لا يُنكرون نفعه للسودان ، غير أن إنكثارة في جميع اتفاقاتها ، وفي اتفاق سنة ١٩٢٩ ، أيضاً ، ألزمت نفسها رسمياً تجاه المصريين بالأّ تصنع ما يؤثّر في مقدار جري النيل ومستواه ووقت فيضانه في مصر .

وكلا الأمرين يحدث بعد مفاوضات لا حدّ لها ، فقد زيد ارتفاع خزان أسوان وحمل بمشروع خزان جبل الأولياء الذي يمكنه أن يقوم بوظيفته في جميع أيام السنة من غير أن يفتقره الغريّن ما دام النيل الأبيض يترك جميع غريّنه في النافع وراءه ، ومن نتائج العمل القائم الآن على ساقٍ وقدم أن يساعد على ضمان مستقبل مصر .

وستحقّق مشروعات أخرى في عشرات السنين الآتية ، وتبلغ غفقات المباحث المائية<sup>(١)</sup> للنيل ، الذي هو أكثر أنهار الدنيا موضعاً للدراسات ، مئة ألف جنيه في كلّ سنة ، ويثير هذا النهر من المسائل المهمة المعقّدة ما يتساق مع إحصاء مياهه وزيادته سكان حوضه ومع مقتضيات الصحة والعرفة في البلاد ، ويحسب أن أسداد بحيرة طانة وبحيرة ألبرت وجبل الأولياء لا تناسب نشوء مصر والسودان في آن واحد ، ويطلب تقدمهما أسداً أخرى في منابع النيل أو بحيرة فيكتورية ، فيجب تنظيم مجرى البارو قبل التقائه بالسوياط كما يجب تنظيم مجرى الغزال وبحر الجبل ،

ومع ذلك لا يُحْزَن بذلك سوى ثلاثة أرباع ما يجب من الماء الاحتياطي في  
السنين السيئة .

واليوم يستلزم النيلُ ميزانيةَ دولةٍ تَقِلُّ مواردها ويزيد سكانُها ، وتُضْطَرُّ  
إلى إدخال ما لا غِنْيَةَ لها عنه من الموادِّ الأولية ، أى من الماء ، ولا تستطيع بعمل  
أبنائها ولا بالضرائب أن تُوسِّع نطاق حَرَّتِها وزَرعها .

## ٢٢

نَمَّ النصرُ للإنسان على النيل في أسوان ، وكان لا بدَّ للإنسان من القيام  
بعملٍ جَلَلٍ حتى ينالَ ذلك ، وكلُّ شيء في ذلك الخزان القريد في بابه فرعونى\*  
علوًا واستملاً وأثراً ، ولو لَقِيَ نابليونُ عدوًّا طويلًا كالنيل لحسبنا بهزيمته ،  
والنيلُ نَحِيَّةٌ طبيعته كجميع ذوى السجايا العظيمة ، ويَنْتَفِعُ خزانُ أسوان من صَمَفِ  
النهر ، أى من عدم انتظام أهوج النيلين .

كان أحد الفراعنة قد شاد سدًّا بحيرة مُوريس في القرن التاسع عشر قبل الميلاد  
فيلوح أنه كان يَجْمَعُ من الماء بمقدار ما يُجْمَعُ في أسوان في أواخر القرن التاسع عشر بعد  
الميلاد ، ويُروى أن الصين والهند قامتا بأعمال مماثلة في القرون القديمة ، نَمَّ ،  
يزيد ارتفاعُ عددٍ من الأسداد على ارتفاع سدِّ أسوان ، ولكنتك إذا عدَّوت  
سدًّا غائسًا لِلْعِلَاحَةِ في قناة بنَّامَا لم تَرَ في العالم سدًّا يمسك من الماء ما يمسكه هذا السدُّ ،  
وللأسداد الرأمة التي أنشأها السُوفِيَّتْ غَرَضٌ آخرُ ، وللايَمَّةُ إنشاد سدِّ باولدر في  
الولايات المتحدة ، ويُمسِكُ أهمُّ أسداد سويسرة ١٤٠ مليون متر مكعب ، ويُمسِكُ السدُّ

### فكرة سد أسوان قديمة

الإسباني ، الذى هو أعظمُ أسدَاد أوربة بعد أسدَاد الاتحاد السوفيتى ، ١٢٠٠ مليون متر مكعب ، ويُسمِّك سد نُوريس الذى هو أعظمُ الأسدَاد بأمرِكة ٣٥٠٠ مليون متر مكعب ، وأما سدُّ أسوان فيمسك خمسة مليارات متر مكعب ، ولذا يُشعَّر بدحره الله حتى وادى خلفا ، أى على مسافة ٣٦٠ كيلو متر من المجرى الفوقانى .

وأهدافُ سدِّ أسوان خاصةٌ خصوصاً أبعاده ، ومن الأسدَاد عددٌ كبير مُعدٌّ لتوليد الكهرباء ، أو القوة ، وتوزيها ، ومن الأسدَاد عددٌ آخرٌ لتنظيم جريان المياه ، وما أتى من الأعمال على النيل فلزيادة مساحة الأرضى الصالحة للزراعة فى بلدٍ كان يُفْلَح من أراضيه ٣٣ فى المئة ثم صار يُفْلَح منها ٥٠ فى المئة والحماية ١٥ مليون إنسان ضدَّ مجاعةٍ تؤدى إليها زيادةُ عدد السكان ، ويقوم السدُّ بعملِ فأوست فى تَمَهِص أطراف الصحراء وتحويلِ خسين ألفَ كيلو مترٍ مربع من الأرضى ، أى ما يزيد على مساحة سويسرة بأشْرِها ، إلى أطيانٍ خَصبية ، ولم يمكن ذلك إلا لأن مصرَ عاطلةٌ من الجيران ولأن البقعة الواقعة حول مجرى النهر الفوقانى قبل أسوان قليلةُ السكان ولأنه يسهلُ تسويضُ أهل الضفاف ، وما لا رَيْبَ فيه أن الماء يَفُمرُ أرضَ وطنٍ لا تُقدَّرُ بثمن ، يَفُمرُ معبدَ يِلَاقِ الجليل .

وفكرةُ سدِّ أسوان قديمةٌ إلى الغاية ، غير أنه لم يُقدِّم اقتراحٌ على لإنشائه فى سوى القرن الأخير ، وليس صاحبُ هذا الاقتراح محترفاً ، ولكنه المبقريُّ الهاوى ييكر الذى أبصر المستقبل فأوصى فى سنة ١٨٦٧ بإقامته قائلاً بصوتٍ عالٍ : « إن الطبيعة أوجبت دلتات ، ولا تزال تُوجد ، فلم لا يصنع العلم من الدلتات ما يناسب وسائله التى يتصرف فيها بإقامته أسدَاداً ؟ » ، وفى ذلك الجين كان يوجد

### ويلكوكس وكسل

من الأسداد المصرية القليلة ما لا يجعل حلَّ المُضلة أمراً سهلاً ، وتبدأ التجربة بإنشاء سدٍّ على مقياس واسع .

ويَصِّعُ المهندسُ المؤمنُ المُقدِّمُ ويلكوكسُ مشروعاً حوَّالَى سنة ١٨٩٠ قَرَضَهُ الحكومةُ الإنكليزية ، وَيُوفَّقُ وَيَلْكُوكْسُ وأصحابه لضمِّ رجلٍ مُهمٍّ مثلهم إليهم ، وكان السير إرنست كاسلُ جامعاً في شخصه سذاجة الإنكليزي وعنادَه وبَصَرَ السائِءِ وحسابه ، فظهر في مصرَ كأنه يوسفُ جديدٌ جاء من الخارج ليُعين على نشوئها ، وكان هذا الرجلُ مُطلِعاً على قوة المال أكثرَ من اطلاعه على قوة الناصر ، وكان عارفاً بِرأحة مَصَنَّقٍ<sup>(١)</sup> لندن وضوئائه أكبرَ من وَخْشة شلالات إفريقيا وما ينبعث من اللناقع ، فوجِدَ ذاتَ يومٍ حاملاً يده خرائط ومشاريع أمام دوافع أسوان ، وفيما كان المهندسون يَحْسُبُونَ صَفْطَ الماء وسرعة الجريان واتساع الكوَّات كان كاسلُ يَجْمَعُ نَفَقَاتِ الإنشاء مُصِيفاً إليها ، عن نباهة ، خسين في اللذة احتياطاً ، ثم قال : « حَسَنًا ، إلى الأمام » .

يُسْمَعُ في المكان الذي يَبْلُغُ التِّلْغُ فيه غايته من المرض ضوضاءٌ جديرةٌ بعهد القراعنة ، يُسْمَعُ رجالٌ من شعوب تَمَيَّزَ ألوانُها تحت شمس قاسية في تلك السماء العاطلة من المطر فَتَخْرُجُ من هؤلاء الرجالُ المَرأةَ رَوَّاحٌ من كلِّ نوعٍ ويتكلم هؤلاء الرجالُ بلغاتٍ من كلِّ فرعٍ ، وَيَقْتُلُ هؤلاء الرجالُ بِدِقَّةٍ في إقامة بناء خافٍ عليهم ، وذلك وَفْقَ أوامرٍ مَلِكٍ غَيْرِ منظورٍ مُجَدِّدٍ مناظرَ بناء الأهرام بعد ثلاثة آلاف سنة ، هؤلاء هم العمالُ المَرأةُ أَنفُسُهم ، وهؤلاء هم المَرْفَأَةُ الأَشْدَاءُ أَنفُسُهم ، وهذه هي الحِجَارَةُ العظيمة نَفْسُها ، وهذا هو الفرائيتُ نَفْسُهُ ، والفرقُ هو في أن يُؤَدَّى

العبيد أجوراً بدلاً من القوة ، والقرق هو أن تحمل الأثقال الكبيرة آلات مُدْرَكَةً بدلاً من أكتاف الرجال ، ولا تَطَاعُ أهواء ملك يرى نفسه إلهاً ، ولا يَبْنِي العبيدُ المعاصرون ضريحَ مَنْ هو فاني مثلهم ، وإنما يَبِيرُ رجلٌ واحد في سبيل الملايين من الآدميين ، وإنما يَتَمَثَّلُ الرجلُ عملاً يُحْمَلُ به عنصرٌ مسيطرٌ على أمرٍ مُبْتَكِر .

وَيَقُفُّ الأهرامُ القائمةُ القائمةُ على ضفاف النيل منذ ألوف السنين ، والتي أراد بها قهر الموت أكثر من عاهلٍ معتزله مُبْجَلٍ ، عملٌ مملوء حياةً وعهوداً مُعَدَّةً لاقطاعِ أراضٍ جديدة من الصحراء وجفانِ محاصيل الأطنان القديمة ثلاثة أمثالها ، ومع ذلك يَبْدُو منظرُ العمل الثاني ذا مظهرٍ فرعونى في بدء الأمر .

وفي صحراء التجبر والماء تلك تُسَمَّعُ ذات صباح حركةٌ جَذَافِ الزورق الأول الآتى ، كما في اليوم الأول من التكوين ، لِيُحِلَّ النظامَ محلَّ الفوضى ، وكان ذلك في فصل الربيع ، وكان ذلك عند انخفاض المياه إلى أقصى حدٍّ ، وتَدَوَّى من الزورق هتافاتٌ غربية ، تَدَوَّى منه الكلمات : « باب الحارون ! الباب الكبير ! الباب الصغير ! » ، وهذه هي أسماء ثلاثة من مساقط الماء الكبيرة الخمسة المهيمنة على الشلال والمعدودة خِطَرَةً إلى الناية منذ القديم ، ويَحَاطُ بأدناها كما يُحَاطُ بتساح ، ولكن لا يُقْتَرَبُ منه والحراب في اليد ، وإنما يُوقَى بِقِطْعِ شَخْصَةٍ من الحجارة ويقام أولُ سدٍّ حوله وَيُسْتَنْفَدُ الماءُ بِالْمِصْحَاتِ وَيُسْتَنْزَفُ وَيُمْلَأُ<sup>(١)</sup> من الرحاب<sup>(٢)</sup> ما هو ضرورى لِيُوضَعَ فيه القيل الأعظم الذى يَرْفَعُ بِمُحْرَطومه أثقل

(١) ملط : الحائط : ملاد بالملط ، وهو الطين الذى يملأ به الحائط — (٢) الرحاب :

جمع الرجة ، وهي الساحة أو القجوة بين البيوت .



### القبيل الحديدي

الحجارة وَيَنْقُلُهَا، وَيُجَلِّبُ هَذَا الْقَبِيلُ عَلَى سَفِينَةٍ، وَيُنْصَبُ بِنَاءٌ عَلَى الْمَكَانِ الْجَنَافِ، وَيُرْجَلُ الصَّخُورَ الَّتِي كَانَ أُلُوفُ النَّاسِ يَنْقُلُونَهَا قِبْرَاطًا قِبْرَاطًا لَيْلَ نَهَارٍ، وَذَلِكَ فِي عَهْدِ الْقِرَاعَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ أَنْ يَنْحَتُوا فِي الْفِرَانِيتِ مِسَلَّاتٍ تَجِيدًا لَهُمْ، وَمِنَ الْمِسَلَّاتِ وَاحِدَةٌ لَا تَزَالُ نَاقِصَةً رَاقِدَةً عَلَى الصُّفَّةِ الْأُخْرَى هُنَاكَ، وَيَدِيرُ ذَلِكَ الْعِمْلَاقُ الْحَدِيدِيُّ خُرُطُومَهُ الْمَرْنِ إِلَى كُلِّ جِهَةٍ، وَهُوَ يَرْفَعُهُ وَيَخْفِضُهُ وَفَقْرُ أَوَامِرِ مَوْلَاهُ مَعَ صَرِيْفٍ وَصَرٍّ سِلَاسِلَ وَبَسْهُولَةٍ كَالَّتِي يَجْتَثُّ مِثْلَهُ بِهَا الْأَشْجَارَ عِنْدَ مَنَبْعِ النِّيلِ لِأَنَّ كُلَّ شِمَارِهَا، وَتَتَوَارَدُ مِثَالُ آلَاتِ رَفْعِ الْأَثْقَالِ بَعْدَ هَذِهِ آلَةِ الْمَدِينَةِ الْأُولَى، وَهِيَ تُطَيِّعُ قِيَادَهَا<sup>(١)</sup> الْحَاسِبَ كَمَا لَوْ كَانَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ أَقْبَالِ مُسْتَعْمَرَةِ سِيلَانِ.

وَلَمْ يَبْقَ حَتَّى الْآنَ غَيْرُ سِتَّةِ مَوَاقِفٍ مُصَوَّرَةٍ مُعَدَّةٍ لَعَزْلِ مَسْقَطِ مَاءٍ وَاحِدٍ، لَعَزْلِ مَسْقَطِ بَابِ الْحَارُونَ، وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ عَمَلِ شَهْرَيْنِ حَتَّى يَقُومَ أَوَّلُ رَكْنٍ مَعَ جِدَارِ تِسْعَةِ أَمْتَارٍ تُنْصَبُ الْخُطُوطُ الْأُولَى عَلَيْهِ، وَكَانَ يَعْمَلُ هُنَاكَ عَشْرَةُ آلَافٍ مِنَ النَّوْبِيِّينَ وَالْمَصْرِيِّينَ يَنْقُلُونَ عَلَى زَوَارِقِ سُوْدٍ وَيَحْمِلُونَ حِجَارَةً ثَقِيلَةً عَلَى ظُهُورِهِمُ الْحُذْبَ مَعَ دَرَارِيْعٍ<sup>(٢)</sup> وَجَلَابِيْبَ بَيْضٍ طَوِيلَةٍ تُزَجِّجُهُمْ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ فَيَقْسِمُونَهَا بِمَاءِ النِّيلِ مَسَاءً، وَالنِّيلُ الَّذِي أَتَى هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ لِمُكَافَحَتِهِ يُبْدِي مِنَ الْكَرَمِ مَا يُنْعِمُ بِهِ عَلَيْهِمْ مَاءً لِلشُّرْبِ وَالطَّهْوِ وَالْإِغْتِسَالِ وَالرَّخْفِصِ<sup>(٣)</sup>، وَصَنَعَ الْإِلَاطُ وَسَيَّرَ الْآلَاتِ.

وَعَلَى الصُّفَّةِ الْبَيْنِي، وَفِي سِوَاءِ السَّعِيرِ، يَسْتَخْرِجُ مِنَ الْجِبَلِ بَضْعُ آلَافٍ مِنَ النَّوْبِيِّينَ،

(١) النِّيلُ : مَرُوضُ الْقَبِيلِ وَقَائِمُهُ — (٢) الدَّرَارِيْعُ : جَمْعُ الدَّرَاعَةِ ، وَهِيَ جِبَةٌ مَشْقُوقَةٌ الْقَدَمِ — (٣) رَخْفِصُ الثَّوْبِ : غَسْلُهُ.

العائدين أحياناً بسفنٍ من حصير ، غرايتا سوانياً<sup>(١)</sup> أبيضَ وردبياً ، والقرب من هؤلاء يُشير طلائيةً أضرّ منهم يَنْحَتون حجارةً ويُعدّونها دعائم للجدران ، وفي القرون القديمة كانت مدينة سوانوقاعةً هنالك ، ومن هنالك كانت تُنقل حجارة منها لتُصنع منها أعمدة لمعابد الفراعنة ، ثم يُنقل النوبيون تلك الحجارة بقرّبات إلى سكة حديدية ويأتون بها إلى الضفة وإلى النهر حيث تنتظرها مئات الأيدي لتطرحها في سفن ذات قُلُوعٍ منقوخة قليلاً جالبة إياها إلى أول السدّ .

وتُبصر صفوفاً من القوارب محجوبة وراء ما أُثبت من الحجارة هنالك ، محاطة برجالٍ عراةٍ بارزين من الماء ، وتُبصر مئات من النوبيين اللاسين جلايبٍ يُخْرِجون من هذه القوارب أكياسَ أسمنتٍ ثقيلة وهم يُفْتَنون بألحانٍ محزنة ، وتُبصر قوّجا من المصريين يرفضون قضباناً حديديةً إلى الأعلى ، وتُبصر زُمرةً من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة يأتون ، والعريف الحامل سوطاً يرقبهم ، في سلالٍ بالقحم الضروري لرافعات الأثقال من الآلات ، يأتون بهذا القحم بعد أن يكون قد نُقل ستّ مراتٍ بعد خروجه من نيوكاسل وقبل حطه في وَسَطِ النهر هنا ، وتُبصر أناساً من السودانين يَحْطُون ذراعَهم لِمَا يَعتريهم من برِّدٍ حتى الساعة التاسعة صباحاً ، وتُبصر بجانبهم مهندساً أورياً يروّج على نفسه لتَصْبِيهِ عَرَقاً من الساعة الثامنة ، وتُبصر هذا المهندس يُنظّم أجهزة قياس الزوايا ، وتُبصر الصبيّ الأسمَرَ المُسَمِّك له محفظةٌ يَفَكِّرُ في الأحذية الجليلة التي يمكن أن تُصنع من جلدها ، وتُبصر مِصْحَةً متينةً تَنْشَقُ رملَ النهر بلا انقطاع على حين ترى رجالاً حُدْبَ الظُّهُور يأتون بأكياسِ الرمل الضروري لصنع الأسمنت ، وتُبصر رجالاً

(١) لبة إلى مدينة سوانو ، وكانت أسوان تسمى بهذا الاسم .

### عزيمة مبدعة

آخرين يَتَقَبَّحُونَ الصخور المزججة للممورة بالماء لَسَفَهَا غيرَ ناظرين حتى إخوانهم الذين يَجِشُّونَ بالحجارة للنحوتة ، ولو لم يُعَلِّمْ أَنَّ عزيمةً مبدعةً هي التي تُشْرِفُ على هذا الاختلاط والاختباط لَحُكِمَ بِأَنَّ ذَلِكَ يَجْمَعُ مجانين

وخَلَفَ صمْتِ جبال القمر البعيدة العميق ، وبالقرب من بِلَاقٍ ومن المكان الذي يَمِزُّ الماء فيه بلطفٍ حول قِطْعٍ من الحجارة ، وحيث يُبْنَى السدُّ ، يتألف من صَلَافَةِ الحديد فوق الجدار الجديد ، ومن حركة الخَرَّامة العاملة بالهواء المضغوط ، ومن صريرِ الناشير ، ومن الانفجارات المتصاعدة ، ومن صوت اللدَّاقِ وصدى المطارق التي ترتفع وتَقَعُ ، ومن خَشْخَشَةِ الحَصَا التي تَزَلُّقُ على مُنَحْدَرٍ قبل أن تعود إلى الماء ، ومن نَقاءِ<sup>(١)</sup> الآلات ، ضجيجٍ ، أو تنافرٍ الحانٍ ، مُؤَكِّدٍ إلى الثَّوَارِ ، ويستفيث الطائر المروف بأبي مِنْجَلٍ وَيَفِرُّ إلى تيجان أعمدة العابد ، وَيُسْمَعُ نداؤه وتصفيفه بأجنحته من خِلال ذلك اللَّفْظِ نَتِيجَةً لمدم انتظامها لجميع أصوات الطبيعة .

ولا يُبَدِي الجميعُ عَجَلَةً ولا هيجاناً ، ويُوَحِّي الجوّ بالترَّح ، ويُخِلُّ إلى الناظر من بعيدٍ أنه يرى عيداً من عهد القراعنة ، وبطلُ هذا العيد ، أَوْ مَلِكُهُ ، هو المهندس اللابس ثياباً بيضاء ، وخُوْدَةً من القَلِينِ<sup>(٢)</sup> والسكَّان ، وَتُرْسُ هذا المهندس هو إضْطَارَّتُهُ<sup>(٣)</sup> ، وسيفُ هذا المهندس هو فِرْجَانُهُ ، وَيَبْدُو هذا المهندسُ أميراً إقطاعياً لتلك المِنْطَقَةِ ، وذلك لصمته وعدم تَلَوُّثِهِ وإصدارِهِ أوامره بالإسبع لا بالكلام ، وَيَفْصِلُهُ اترانه عن ذلك الشَّهْوَور ذِي المشاعر الصبائية ، وينتظره

(١) تما النور يسمو ناء : صات — Cork (٧) — (٣) الإنشيرة : الحزمة من الصف .

### فرعون الأبيض

زورقه الآلى بالقرب من الصخرة الواقف عليها ، وهو يَبْتَخِثُ عن وجود صُدُوعٍ أو نُتُوعٍ<sup>(١)</sup> أو عن سَدِّ ينبوعٍ بالأسمنت أو عن إمكان قَرَضِ القَطْرَةِ ، التى تَخْرُجُ مع كلِّ ما يُعْمَلُ ، لقاعدة الركن الذى لا بُدَّ من إقامته هنا .

وذلك المهندسُ يشابه الجراحى الذى يَمَسَحُ بِرَفَادَةٍ<sup>(٢)</sup> من القطن ما لا يَزَالُ يَنْزِفُ من الدَّمِ مستوحياً حَذَرَهُ وتَجَرِبَتَهُ قبل أن يَخِيطَ الجرحَ ، وعلى المهندس أن يكون يَقِظًا ما تَوَقَّعت الحياة ، أو ما خلقه الله أو أبدعه الإنسان من النظام ، على قراره ، وما وَجَبَ ألا يَنْتَمِ السَّبْعُ الواقع تحت الأرض لنفسه ، وذلك لأن الركن إذا ما ارتجَّجَ تَجَرَّجَ جميعُ البناءِ ، وهو يظلُّ صامتا هُناك بين ما يَصْدُرُ عن مكتبه من حركة يوجبها ولا يسمعا كما يثبت ذلك تحديقُهُ إلى الأرض ، وهو يَضَعُ في جيبه برقيةً يُوقِئُ بها إليه ، وهو لا ينظر إلى غير هذا الشَّقِّ الذى يجب أن يَكْشِفَ له عما فى الصخر .

ولا يرى هذا المهندسُ قَوْسَ قَرْحٍ الذى يَرِيطُ أمله ذلك الاختلاط بانشاء السدِّ ، ويريد مهندسُ مساقط الماء هذا أن يَسْتُرَ بنوره السحرى جميعَ نتائجِ حسابه ، وفرعونُ الأبيضُ هذا لا يُنْصَرُ بعينه شيئا ، وإنما يَنْتَبُ إلى قاربه الآلى ويُسْهِرُ إلى الشرقِ ياصبعه ، وهو يكون بعد عشر دقائق فى مكتبه الصغير الذى تَسْتُرُ جُدُرَهُ الْمُجَصَّصَةُ مئاتُ الرسومِ النالقة على علاقات كلِّ صخرةٍ بالصخور المجاورة ؛ وهو يَحْسَبُ طاقةَ الركنِ ويُقَرِّرُ أن يفحص قاعدته غَوَّاصًا ، وذلك لأن تَصَدُّعَهُ بضغطِ الماء يؤدى إلى انهيار جميع ما بُيِّنَ على ما يحتمل .

ولا ينبغى تبديدُ الوقتِ ، ولا بُدَّ من أن تكون ثمانية أركانٍ فى مكانها قبل

(١) تنوع الماء من العين تنوعا : خرج قليلا قليلا — (٢) الرفادة : خرقه تجعل على الجرح .

### في الظلام

الفيضان القادم ، وذلك وَفْقَ حساباتٍ مُحْكَمَةٍ ، إحكامَ ما عند القراعة ، صادرة عن تَفَرُّجِ جميعين في ذلك للكتب .

وَلِلسَّنَنِ النهر ، لا لِسَنَنِ النور ، يَخْضَعُ ذلك العملُ المُدَّ قهر النيل ، وبعد غِيَابِ الشمس ، وبعد دخول عشرة آلاف رجل من مختلفِ الألوان في خيامهم على الشاطئ . واستلقائهم على حُصْرَم ، يَنْهَضُ عشرة آلاف رجل غيرهم في الليل اللامع ويمدُّون قسمَ السَّدِّ الناقصِ مستعينين بِنِكَرَاتِ اتصالِ راكبين زوارقَ وَتَقَالَاتٍ مداومين على عيد العمل ذلك ليلاً .

وتُنْصَبُ الفَيُولُ القولاذية الكبيرة على الجدار الذي يُبْنَى ، وذلك على نور مصابيحٍ مُحْدَثَةٍ ، وترتفع مع الحَذَرِ خراطيمُها التي لا تَعْرِفُ التعبَ أكياسُ الحجارة المُكْسَرَةِ وَتَضَعُها في زوارقَ بَطْلِينَةٍ مُتَعَيِّرَةٍ بعضها ببعض ، فيتألف منها أسطولٌ صغير يَجْرُهُ مركبٌ بخاريٌّ في الليل البهيم ، وتَسْمَعُ عند أسفل ذلك الجدار السائر لثلاث عرضِ النهر غولاً يُخْرِجُ صغيرَ غضبٍ ، وَيَنْفِثُ هذا التَّنْبِيْهِنَ وميضاً عن لَهْثٍ ، وَيَنْسُطُ ذراعيه لحماية صِفَارِهِ ، وهذه الجَبَّالَةُ التي لا تَسْبِغُ تَبْلُغُ أكياساً وصناديقَ مملوءةً رملًا ، ويساعد الماء على صُنْعِ البِتُونِ<sup>(١)</sup> الذي يمتزج جيداً عند طراوة الليل والذي يُمَدُّ للسيطرة على النهر .

وفوق ذلك ، وفي الظلام ، تنصب أركانٌ غيرُ تامةٍ كأعمدة مكسورة ، كشهود على ماضٍ يمجيد ، وذلك على ألواح مائلة موضوعة في كُوْىٍ واسعةٍ يكاد صُنْعُها يَتِمُّ ، ويلوح رجالٌ قائمون بتنظيف الحجارة فوق رؤوسهم كما لو كان عاهلٌ يَصِلُ غداً على سفينة فاخرة ، ويَكُونُ الأجواءُ الناقصةَ وحدَها بالقارِ<sup>(٢)</sup> ، وذلك لضرورة جَبَّافٍ

(١) Béton — (٢) القار : مادة سوداء تصل بها السفن ، وقيل هو الزيت .

كل ركن في أرمية أشهر ، والوقت يُلح  
وفي الأسفل يصرُخ رجال حين يَمِرُّون قطعة حجرٍ من مجرى النهر الجاف في  
هذا المكان بعد أن أُحيطت بمجالٍ ضيقهم ، وذلك كما لو كان يُوقى بقر ماء  
مذبوح لتقطيعه .

وترى فوق رؤوسهم ، وفوق مستوى الجدار ، وبجانب خرطوم الفيل ، وفي قصص  
مُهَنَّرٍ ، قتي يُديرُ مُخَلَّلاً<sup>(١)</sup> عند كل حركة للخرطوم ، مع تسليته بالنظر إلى المصباح  
المُحَدَّب المجاور ، وترى رجلاً أقرب من سواه إلى النور غير تابع لناموس الثقل ،  
سيداً للسد والليل ، وهذا الرجل هو فروع اليد الصاحب .

## ٢٤

دامت عَرَبْدَةُ العمل تلك ثلاث سنين في سواه النيل ، واستمرت أكثر  
من ألف نهارٍ وألف ليلة لم يَقْطَعْ اتصالها قطعاً جزئياً غير الفيضانات ، وفيما  
تتحوّل مهالكُ الضخ إلى سدٍّ مستقيم بين ضوضاء العناصر والآلات والرجال كان  
مديرو هذا العمل يُقيمون بأكواخٍ لطيفة جديدة بجانب شغلهم ، وتُفَرَسُ بواسطة  
خَدَمِهِم السود بساتين راتمة حيث أتوا بالترين قبل أن يَفْرَأَ أَقْلَ حقلٍ مصريٍّ ،  
وتتحوّل الصحراء باثرةٍ ينسوّهم إلى غابٍ من غارٍ أبيض ووردي ، وذلك  
يمثل السرعة التي يَظْهَرُ بها السدُّ الحجري .

وكان مبدعو الطراز الجديد إذا ما انتقلوا من نور الظهيرة الذي يُشْهِى الأبصارَ

(١) الخلل : عند المولدين آلة مستطيلة من حديد ونحوه ترفع بها الحجارة .

الى طراوة مساكنهم فوات الظل أبصروا مجدّد مسرح فينوس<sup>(١)</sup> ومازنس<sup>(٢)</sup> على الطريقة الإنكليزية مع الشاي والسندويش الضروريين حتى في مدار السرطان، وما في تلك الواحة من مأس فصدّره الجوّ وتوتر الأعصاب والعزّة وما واجبه نحو مئة رجل من حياة خطرة بين العناصر والميد، وكان الإفلاس نصيب اللتزمين الذين فوّض إليهم أن يقوموا بقسم من العمل، وذلك لما أدّى إليه سقوط بعض الصخور من قلب حساباتهم رأساً على عقب، وما حدث أن اقترف هندس مشهور من الخطأ عند ارتفاع السد ما ذهب معه قانطاً إلى الإسكندرية فانطلق في زورق وأغرق نفسه في مصب النهر التي هو سبب هلاكه، لا سبب مجده.

ولم يكن الجزان عند تمامه مرتفعاً بدرجة الكفاية، وتظهر مصر بأسرها محتاجة إلى الماء في فصل الربيع، ويبدو الخوض اللارد قصيراً، ويرى رفع جدار الدعم في سنة ١٩١٢، ثم في سنة ١٩٣٣، إلى ٥٥ متراً، مع أنه كان مرتفعاً ٤٠ متراً في بدء الأمر، ويحسب ويكوكس أن النفقات تكون مليوني جنيه بدلاً من ٣٠٠ و ٢٠٠ لو قامت الحكومة نفسها بذلك، مقيماً التينة ضدّ الادعاء بأن المال الخاص يقتل، دوماً، وفق حساب أوفق من حساب الدولة.

وبالسد روعة تلك التعلية، وتدمج الدعائم في الجدار التصل الأكثر تحنناً ويوسع الجسر فوقه ويكتسب شكلاً جانبياً جميلاً بذلك، ويستعمل الفرايت الوردى الأقل مقاومة حيث رُئي ضغط الماء والهواء أقل شدة، أي

(١) فينوس: إلهة الجمال كما جاء في أساطير اليونان — (٢) مازن: إله الحرب كما جاء في أساطير اليونان.

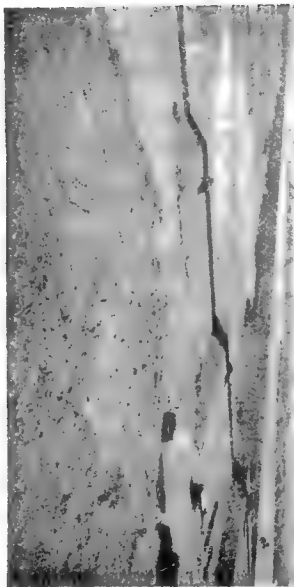
## الكوى

في الناحية الشمالية ، ويُنصره النريب ، الذى يأتى من أسوان ، ساطعاً من بعيد ، وتسمُ الفروق غير المرتبة ذلك الانتظام القسريّ في تلك الكتلة بشيء من المفاجأة ، فتُفتَح من الـ ١٨٠ كوة مجموعات رباعية فتتحاً غير منتظم ويتدفق الماء الزيد كأربعة حصنٍ مقرونة نازرة منقصة بعد وقع الحوافر على الأرض وراء الزئاج ، والمهندسُ الجالس في الحُجيرة البيضاء بأقصى الغرب من السدّ هو الذى يعرف عدد الكوى ، وأى الكوى ، التى يجب أن تُفتَح وسبب فتح هذه الكوى دون سواها . وإذا ما أُغلق السدّ بين نوفمبر ويناير لكى يتخلّى بعد الفيضان وجب أن يُستَمر على إرسال مقدار من الماء إلى مصر ، ويُفرغ الماء فيما بين أبريل ويونيه ويمجرى إلى مصر في هذه الأشهر الثلاثة أكثر من ستة ملياراتٍ من الأمتار المكعبة ، ويتبلّغ المرض والطلب من التوازن ما يُشِير معه عدد الكوى المفتوحة وارتفاع ما يُفتَح اثنتى عشرة مرة في اليوم الواحد ، ومن حسن الحظ أن الأبواب تُحرك بدواليب موضوعية على السدّ سهلة الإدارة فيستطيع صبي أن يطابق الماء المضطرب أو أن يسيطر عليه ، وتُقلّ البحيرة ساكنة خلف السدّ مع ذلك ، وتحويلُ مستواها وحده هو الذى يُوحى إلى الزرع بما يقع في الجهة الأخرى ، وكلما ارتفع الماء غاصّ معبدٌ بلاق .

وعندما يأتى الفيضان في شهر يولييه يفتح المهندس الكوى الـ ١٨٠ بأسرها ، ويهبط مستوى البحيرة ، وتبرز أعمدة معبدٍ بلاق من حمامها مع قواعدها الوحلة ، وترى مصر في كل سنة مدينة لهذا الرىّ النظم بمحصولين وبنثلاثة محاصيل في سبعة ملايين فدانٍ على حين يداوم ١٢٠٠٠٠٠ فدانٍ على إعطاء محصول واحد وفوق نظام الرىّ القديم .



۲۴ - خزان آسمان





## أخطار

واللهندسُ بمصرَ، حين ينهك في أرقامه وجداوله ورسومه وحساباته، يَبْدُو ككديرِ صندوقِ توفيرٍ يأتيه خَزَنَتُهُ في كلِّ صباحٍ بقائمةٍ عن الدخل والخرج ، وهو يستعين بالبرقيات التسع ، التي يأخذها في أول كلِّ نهارٍ عن جريان النيل الأبيض حتى ملاكال وجريان النيل الأزرق حتى الرُصَيْرِص ، في حساب مقدار الماء الذي يَدْخُلُ الحوضَ في كلِّ أربع وعشرين ساعة وفي حساب الارتفاع الذي يَتَلَفُهُ هذا الماء ، وذلك لأنه يَظُنُّ أن وصول موج النيل من ملاكال إلى أسوان يَتِمُّ في أربعة وأربعين يوماً وأن أصحاب المصالح يطالبون ، دَوْماً ، مقابل رأس المال الذي قدَّموه كضرائبٍ لإقامة السدِّ .

وترى ذلك المهندسُ ، ككديرِ صندوقِ التوفير ، تابلاً للقوى القاهرة التي يمكن أن تَقْلِبَ خِطَطُهُ رأساً على عَقِبٍ ، فتجدُّ بين سنة ١٩١٣ وسنة ١٩١٨ ، وفي الأشهر بعينها ، فَرَقَ ستين في المائة بين أعلى مستوى للماء وأدنى مستوى له ، والنيلُ الأبيض ، الذي هو أثبتُ الأخوين ، هو المسؤول عن ذلك ، وما يأتي به أشرسُها مَزِيداً في شهر يولييه فيوضُ على رُكْبِ الآلهة .

ولا يزال عاملُ الانتقام في المنصر المتفهور كابناً تحت النيل ، ولا ينبغي لليد التي سيطرت على النهر الحافل بالأسرار أن ترتجف ، فلا يُعَمِّمُ النيلُ أن يَبْدُو عَنيفاً ، فإذا ما أغلق المهندسُ كَوَى السدِّ بسرعة بعد الفيضان ، أو إذا ما أغلق كثيراً منها دفعةً واحدة ، انهارت أُرصفةُ النهر وتَدَاخَى ما على هذه الأُرصفة من بيوت ، وإذا ما كان ماء الأحوال كثيرُ الملح اضطرَّ الفلاح إلى استعمال السماد كجسمٍ فَلَاحِي العالم الذين ينتظرون ماء السماء من غير أن ينالوا غيرَنا من الأرض ، وإذا ما مضى الفيضان وزَرَغ نوبُ الجري الأعلى حقله بالقرب من الضفة وجب أن يَمُوتَ ما بَذَرَ

### مشاهدة أسوان من الطائرة

بسرعة ، أى قبل أن يعود الماء فيُذهبه .

ولو أقیمَ حَرَآنُ أسوان في القرون القديمة لعدَّ من عجائب الدنيا ، وهو من عجائب العالم في هذا الزمن أيضاً ، ولم يكدْ بضعُ عشراتٍ من السنين يَمُضِ على نُبوَّةِ بيكر حتى أخذت هذه النبوءة تتحقق ، « فَيَأْتِي زمنٌ يُعْجَبُ فيه العالمُ بقدرة مصرَ حيث يَتَمَوَّجُ الفتح على مَدَى البصر في هذه الصحارى الرملية البائسة ، وحيث تَرَى الجبل وحده يكافح الطبيعة المنهكة في الوقت الحاضر ، وسيُقيمُ الناسُ ، من بعض المراكز التي تَرْفَعُ ، نظَرَهُم في شَبَكَةٍ من القنَّات والأحواض فيتساءلون مدهوشين عن كيفية بقاء قوة هذا النهر مجهولةً طویلَ زمنٍ كما بَقِيَ منبهُ أمراً مكتوماً » .

وقد يُلَیِّحُ ذلك الارتفاعُ في الوقت الحاضر ، ففي كل يوم تُبْصِرُ بالطائرة منظرًا ، تُبْصِرُ بين صحراويْن قطعةً أرضٍ خضراءٍ ضيقةً تتألف مصرُ منها ، والسَّحْبُ حين يطير فوق السدِّ يشاهد زورقًا قديمًا يَمُرُّ على قناةٍ طويلة في الطرف الغربي خاصةً بالملاحه ، قِيَدُ كَرِ الرِّسَالَةِ التي بُلِّغَتْ إلى فاوست .

« زورقٌ كبيرٌ على القناة » ، ولا يراه فاوستُ الأعْمى ، وأما نحنُ فإِنَّا نَعْجَبُ ، ما تَرَكْ لَنَا الإلهُ قلوبًا تَحْقِيقَ وعيونا تَرى ، بالنيل القديم وبمغامراته وبقهره وترويضه ، وبتهذنته كفيلسوفٍ شائبٍ ، وجعلِهِ نصيراً للمُذنبين يزدحمون على ضِفافِهِ مُحَقِّقًا بَقْوَاهُ التي تَذْأَرِي بِحِكْمَةٍ أَكْثَرُ مما يُحَقِّقُ في أثناء فتاكِهِ المُتَجَبَّرِ ، ونرى الشَّرَاحَ الثَّلَثَ الزوايا الذي كان يُتَخَذُ في عهد الفراعنة ، وهنا تتلاحق أساطيرُ ستة آلاف سنة وأعمالها وأفكارها ، وهنا ، في هذا القسم الأخير من مجراه ، يكتسب النهرُ العجيبُ السائر إلى البحر ألوانَ جميع الأدوار التي جاوزها وصدَّى جميع الحضارات التي أوجدتها فأبصر ازدهارها وموتها .

## الجزء الرابع النهر المجهور

« والآن يزدهو بأعظم مجد ، فالشعب يرفع  
الأمير إلى ذروة العظمة ، والأمير في موكب  
نصره يُعين البقاع فتقوم مدُن على أثر خطاه »  
( غوه )



« اعلم يا أمير المؤمنين أن مصرَ تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهرٌ وعرضها عشرٌ ، يكتنفها جبلٌ أغبر ، ورملٌ أغبر ، يَحْطُّ وَسَطُهَا نَهْرٌ مباركٌ الغدقات ميمونُ الرِّوَاحات ، يَجْرِي بِالزَّيَادَةِ والنقصان كَجَرَى الشمس والقمر له أوانٌ ، بدرٌ حلابه ، وَيَكْثُرُ كحاجه ، وتَمُظُّ أمواجه ، فتفيض على الجانبين ، فلا يمكن التخلص من القُرَى بعضها إلى بعض إلا في صِلارٍ للراكب ، وخِفَافٍ القوارب ، وزوارقُ كلِّهنَّ الخايل<sup>(١)</sup> ، أو ورق<sup>(٢)</sup> الأصائل ، فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبه كأول ما بدأ في جريته ومما<sup>(٣)</sup> في درته ، فعند ذلك تَخْرُجُ مِلَّةٌ محقورة يَحْمَرُّون بطون الأرض ، وَيَبْذُرُونَ بها الحبَّ ، يَرْجُونَ بذلك النماء من الربِّ ، لَقِيَهُمْ ما سَعَوْا من كدِّهم ، فثابه عنهم أناسٌ بغير جدِّهم ، فإذا أشرق الزرعُ وأشرف سقاء الندى ، وغداه من تحته الترى ، فبينما مصرُ يا أمير المؤمنين لؤلؤةٌ بيضاء فإذا هي عنبرٌ سوداء ، فإذا هي زُمُرَدَةٌ خضراء ، فإذا هي دِيبَاجَةٌ رَقْشاه ، فتبارك اللهُ الخالقُ لِمَا يَشَاءُ .

وليس الذى وَصَفَ وادى النيل الأدنى بهذا الوصف الرائع شاعراً أو جِغرافياً أو مفتناً أو سائحاً ، وإنما هو القائدُ الربُّيُّ عمرو بنُ العاص الذى فَتَحَ مصرَ في القرن السابع لمولاه الخليفة عمرَ ، وهكذا يَصِفُ رجلُ العمل والتزم ذلك البلَدَ

(١) الخايل من السحب : المنفرة بالهجر — (٢) الورق : جمع الورثاء ، أى التى لونها لون الرماد — (٣) ملا للواء : ارتفع وملا التهر ، ولما البحر امتلا .

## لا تبصر ضباباً ولا غلا

الذى فيه سِرُّ مجده كما لو كان ذلك حُلماً جليلاً ، ومن الشعراء كثيرٌ يَصِفُون أحدَ البلاد كأنهم فاتحوه ، والنيلُ والشمسُ هما الإلهان اللذان أوجدا مصرَ ويَحْفَظَانِها اليوم كما فى الماضى ، والنيلُ والشمسُ هما اللذان وَلَدَا وأَخَصَبَا أَخْضَرَ واحاتِ العالم طُرّاً ، ولكن الإله الشمس هو الذى أبدع النيل ، كقول إخناتون : « أنت الذى خَلَقَ النيل فى أعماق الأرض ، وأنت الذى قاده حول الأرض لإطعام الناس حيث تشاء » ، ولا ترى بلداً أضاءته الشمسُ بمثل تلك القوة ، وتمتصُّ الصحراء كلَّ رطوبة فلا تُبْصِرُ هناك ضباباً ولا طلاً<sup>(١)</sup> ، وكلُّ من العناصر الأولى ، الأرض والماء والشمس ، منفصلٌ عن الآخرين انفصلاً جليلاً ، فلا تَقِيرُ ولا انتقل ، والهواء صافٍ خالٍ من الجراثيم ، والليلُ الذى يحىء بالطَّراء إلى دائرتى الانقلاب يأتى به من الصحراء الواضحة إلى هنا ، إلى هذه الواحة التى تُسْتَرُّ بالنَدَى وقت الصباح وفى بعض الأحيان .

ولا تُطَبِّقُ الأحوالُ الجويةُ فى البلدان الأخرى على هذه البُقعة الضيقة القاطعة للصحراء والماطلة من اللط من الشجر والغاب والظل ، وعند ما نَحْدُ فى قبور الملوك ، وبالتقرب من الجماجم ذواتِ الجُبْنِ المائلة إلى البوداء التى تَرْجِعُ إلى ما قبل التاريخ ، عظماً لبقر الماء وللذئب تتمثل لنا غاباتُ نخيل ويَتَوَعَّ<sup>(٢)</sup> حيث كان الإنسان العارى يصططاز الجلأموس والأسد والضَّبُع ، ثم تَحَوَّلَت هذه الغاباتُ الأبكار إلى سَبَسَب<sup>(٣)</sup> فإلى سُهْبٍ ثم إلى صحراء ، وصار الإنسان بدوياً أو فلاحاً .

يَدَّ أن تلك المراحل قُطِعتُ بأسرع مما فى الأماكن الأخرى ، فلم يكن هناك

(١) الطل : للطر الضيف — (٢) يتوع : كل نبات له لبن — (٣) السبسب : البسب : الأرض البعيدة المتوىة .



### النيل الأصل

دورٌ جليلٌ كما في أوربة ، وقد نَكُونُ سَهْلٌ ، أو صحراءٍ لينة التي يَقْطَعُهَا النيل الأول كما تَدُلُّ عليه آثار الأنهار التي توارت ، وذلك بدلاً من الخليج الكبير الذي كان يُوغَلُ حَتَّى أُسْوان فحسب عنه هيرودوتس ، ثم تَوَجَّهَتِ الصحراء إلى الشرق ، إلى جهة الأخدود الطويل الذي كان البحر يَقُوصُ فيه ، وكانت أرضُ شمال إفريقيا ، حين ظهور الإنسان ، ترتفع مقداراً ففقداراً كما يَظُنُّ ، فكان النيل يجري من خلال الخليج القديم ، واكتشفت رسومُ الإنسان الأول وأدواته الحجرية على الرصيف الترابي الثاني الذي هو نتيجة تآكلٍ متعاقب ، ولم يصبح شمالُ إفريقيا صحراء إلا بعد ذلك .

وعادت الغابة بعد ذلك غيرَ موجودة لتُلقَى الرُّعْبُ في قلوب الناس ، وعاد الناس لا يصطادون ، وقد اجتذبهم النهر العجيب وجمعَ منهم عدداً كبيراً بأكثر وأبكر مما في أيِّ مكانٍ آخر غير الواحة الأخرى بين دجلة والفرات . ومن المحتمل أن وُلِدَتِ جميع الحضارات في واحاتٍ من هذا النوع ، وعلى ما بين النهرين ، أو هذه الواحة التي هي أوسعُ من تلك ، تحولاتٍ كثيرة قامت بها أممٌ سكنت الشُحُوبَ والجبالَ المجاورة ، وتقعُ مصرُ بين بحرينِ وثلاثِ قاراتٍ من دون أن يكون لها جارتُ سوى الصحراء والبحر ، وظَهَرَتِ حضارتها من صميم الأزل ذى الصفاء والجمال الكلاسيكي<sup>(١)</sup> ، ومنَ الجَوُّ عليها بالصفة والثراء والسعادة .

وإذا كان أنبياء ما بعد الطليعة الثلاثة ظهروا في صحراء بلاد العرب بعد حينٍ فإن غِرَيْنِ النيل الزَّيْنِ أَسْفَرَ عن دينٍ عِفِّيٍّ مقتبسٍ من الحياة راجعٍ إلى الموت بَشَرِيٍّ خالصٍ ، وتَبَدُّوْا عادات المصريين الأولى واضحة صافية صفاء هواه بلدهم ،

(١) Classique

## جفاف الصحراء

وَتُعَيِّنُ شِئْمُهُمْ مِنْذُ ثَلَاثَةِ آلَافِ سَنَةٍ قَبْلَ الْمِيلَادِ بِضِيقِ الْمَكَانِ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْحَيَاةِ مِنْ دَحْجِينَ تَابِعًا بِمُضْمِهِمْ لِبَعْضٍ غَيْرِ قَادِرِينَ عَلَى الْعَيْشِ مِنْفَرِدِينَ .

وداوم بيض الشمال البعيد وراء البحر وسود الجنوب البعيد عند منبع النهر ، في ألوف السنين ، وفي غاباتهم الكثيرة المطر ، على العيش كالتهمج وعلى التذامج والقوضى القائل بقاءن الأقوى ، ومع ذلك أكره النهر في هذه الواحة شعباً كثيراً العدد على العيش معاً وعلى الانقسام إلى فلاحين وصيادين ومُحترفين وكاتبين ، والإقليم وحده هو الذي عَلَّمَ الأعقاب ماذا كان أولئك يعلمون ، وذلك لأن القبور والبرديّ اللذين أداما تاريخ مصر قاوما القرون بفضل جفاف الصحراء ، ونحن إذا ما أمسكنا بحجة رَمْسِيْسِ الثالثِ السليمة بأيدينا عَلِمْنَا بها ماذا كان صاحبها يَعْمَلُ وفيهِمْ كَانَ يُفَكِّرُ .

## ٢

يَتَقَدَّمُ رَجُلٌ عَلَى نُورِ الصَّحْرَاءِ وَحْدَهُ ، وَهَذَا الرَّجُلُ طَوِيلٌ أَسْمَرٌ كَأَحَدِ الْأَلْهَةِ ، وَهُوَ رَهِيْنٌ مُوتٍ دَرَجِيٍّ <sup>(١)</sup> مَا لَمْ يَسْلُكْ طَرِيقَ الْوَاحَةِ فِي الْوَقْتِ الْمَعِيْنِ بِسُرْعَةِ الْجَمَلِ ، وَهُوَ يَهْلِكُ ، حَتَّى فِي وَادِي النَّيْلِ ، مَا لَمْ يَتَشَارَكَهُ وَأُلُوفُ الْأَحْمِيَيْنِ ، وَمَا يَنْمُرُ بِهِ مِنْ عَنَفِ هَذَا النَّهْرِ ، مِنْذُ أُلُوفِ السِّنِينَ حَتَّى قِيَامِ السِّدِّ الْإِنْكَلْبِيّ الْأَخِيرِ ، ذَلِكَ الْبَلَدَ وَمَا يُفَعِّلُ بِهِ الْحَقُولَ مِنْ غَرَبَيْنِ ، فَيُظِلُّ عَقِيًّا أَوْ يُغَرِّي الْإِنْسَانَ بِالْإِنْسَانِ لَوْ لَمْ يَتَضَافَرِ الْجَمِيعُ عَلَى حَسَابِ ارْتِفَاعِ الْقِيْضَانِ تَوْزِيْعًا لِمَاتِهِ وَإِنْشَاءً لِأَسْدَادِهِ الصَّغِيرَةِ وَلَوْ لَمْ

. Dramatique (١)



٢٥ - نلاح على ضفة النيل



## أوجد النيل أمورا

يتألف من الجميع شركاء وجميات تنطوى على القيادة والطاعة للسيطرة على هذا الفيضان الخصب والانتفاع بهذا القادم من جبال الجبسة البعيدة ومن جبال القمر المجهولة مجاوزاً الصحراء .

ولم يكن النيل ، الذى يستولى على الواحة فى كل سنة بصولة جالية للبلابا ، ليصبح محسناً إلا بفضل ذكاء الإنسان وحذقه ، ولا بد لأمة لا تعيش بغير ماء يأتيها من بعيد ، لا بد لهذه الأمة التى ترتب قلقه ورود ذلك الفيضان ، كقبائل الأنكييمو التى تنتظر السفينة التى تأتيها بالقوت الضرورى فى كل صيف ، من أن تكون قد انتهت إلى إقامة دولة من نفسها قبل الدور الميروغلفى ، وفى وقت لا أثر فيه لكلمة الدولة . وقسم أناس ما قبل التاريخ جميع البلد إلى أحواض ذات حواجز قائمة الزوايا فيذكر للربع على مديرية كما فى الخط الميروغلفى ، وفى النيل أسفرت الضرورة عن أول معنى السلطة المركزية والطاعة ، والنيل ، أيضاً ، هو الذى دفع الكهنة إلى رصد النجوم لحساب وقت الفيضان ، والنيل هو الذى أوحى إليهم بفكرة قياس الملو لمعرفة ارتفاع الفيضان ومسح القسام للاهتداء إلى حدود الحقول التى يمحوها الماء فى كل عام ولحماية نظام التملك والفصل فى خصومات الحدود ، والنيل هو الذى أوجد علم الفلك والرياضيات والحق والقانون والنقد والشريعة مع عدم وجود هذه الأمور لدى أية جماعة بشرية كانت ، وهل وجد شعب آخر صاحب تقويم منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد وعارف بدائرة البروج قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة ؟ النيل هو الذى علم المصريين جميع هذه العلوم ، ولاحظ نابليون ذلك فقال : « تفتدو سهول بوس ويرى »<sup>(١)</sup> خصية بانتظام ماء السماء ، ولا عمل للإدارة فى ذلك ، والنيل يكتسب من

(١) بوس ويرى : من مديريات فرقة .

### ريج السوم

الصحراء بفضل إدارة رشيدة ، والصحراء تَكْسِب من النيل فضل إدارة رديئة ، وفي مصر يبدو النيل أو رسول الخير والصحراء أو رسول الشر مائلين على الدوام . ذلك هو المثل الكلاسيكي لبلد عاطل من المطر ، ومن الجوار تقريباً ، وذلك هو المثل الكلاسيكي لبلد تَقْرُض الأرض فيه سلطانها ولا وجود لسنة الغَسَب فيه ، وذلك لأن الأرض وماءها المُلَفَز هما اللذان يُحوِّلان الأم التي تستقر بذلك الوادي ويجعلان من هذه الأم مصريين مهما كانت ، حتى إن الثيران التي تُدْخَل من بعيد تتحول هنا في بضعة أجيال وتنال مثل حذبة بقر هذا البلد .

ولا يُطَبَّق ذلك على غير الواحة المجردة من المطر حتى عَرَض القاهرة ، حتى مَنْفِسَ فيها مَضَى ، أى حتى رأس الدلتا ، ولا يُهَدَّد الصَّخَّاف الصَّحْبِي هنا في سوى الربيع حين تَهْبُّ ريح الجَنُوب الشرقي الحارة ، حين تَهْبُّ الخماسين ، ويكفهر الجو فجأةً ويأتى بظلمات جواش مصر التي تمتد حتى فلسطين زمناً بعد زمن فيحتمل أنها كانت تَنْفِث يومَ موت يسوع ، ويسبها العرب ريج السَّوْم ، ويرتفع ميزان الحرارة إلى الدرجة الثامنة والأربعين ، وتَبْلُغ درجة حرارة النيل ستاً وعشرين ، ويمتص الهواء كل بخارٍ بعد الفيضان ، ويَجِفُّ ما يُفْسَل من الثياب في عشرين دقيقةً ، وَيَجِفُّ رثائنا وأنوفنا وأفواهنا وشفاهنا كما يَجِفُّ الأشجار التي تُحِيط بنا .

ويَدُلُّنا مقدار الأمطار السنوية على القروق بين بلاد النيل الأربعة ، ففي منبع النيل الأزرق بـجبال الحبشة يَنْزِل ١٣٠٠ مليمتراً ، وفي منبع النيل الأبيض يَنْزِل ١٢٠٠ مليمتراً ، وفي السودان الأوسط يَنْزِل ٥٠٠ مليمتراً ، وفي الخرطوم يَنْزِل ١٠٠ مليمتراً ، ولا يَنْزِل شيء في مصر العليا ، ويَنْزِل في القاهرة ٣٠ مليمتراً ، وفي الإسكندرية يَنْزِل ١٥٠ مليمتراً .

ويا لقرابة شعب تَكُونُ حيث لا يَنزِلُ من السماء ماء في كل سنة وحيث يكون السكان أكتفَ بما في أي مكان في النصف الغربي من الكرة الأرضية ، وإذا كانت مساحة مصر البالغة مليون كيلومتر مربع تزيد على مساحة إيطاليا وفرنسة مجتمعين فإن معظم هذه المساحة صحراء خالية تقريباً ، فترى سكانها البالغ عددهم أربعة عشر مليوناً مركومين في وادي النيل على أرض أقل اتساعاً من سويسرة ، وتبلغ كثافة سكان مصر ضِعْفَي كثافة سكان بلجيكة ، فيشتمل النكيلومتر المربع في بعض مديرياتها على سبعة من الأهلين ، وكثافة مثل هذه أحرزت منذ آلاف السنين في ذلك البلد مما يؤدي إلى إيجاد شعب اجتاحي أو غير اجتاحي ، ومن حمل النيل أن جعل من المصريين ذوى أنس .

إذن ، إنما شعب ، تَكُونُ شعب بفضل إلهي ، فترى هذا الشعب مديناً للشمس بالمتعة ورح الحياة ، وتمام مديناً للنيل بروح النظام والطاعة ، وهنا قامت دولة فجعلت من فرعون إلهاً ، وجعلت من العمل ضرورة ، ومن الرعي فناً ، ومن العقل والجلي مبدأ ، وعلى ما كان من قلة عدد الأغنياء ما فني هؤلاء يفرضون على ألوف الفقراء حمل العمل اليدوي الذي هو أقسى مما في الأماكن الأخرى على ما يحتمل ، ولا سيما ما هو ضروري من أعمال الرعي ، وتُبصر هؤلاء الفقراء طغي المزاج مع ذلك ، فلم يتحدث قط أن ناروا على الأغنياء تقريباً ، وفي هذا البلد يظهر أن الشمس جففت إرادة التردد كالنيل بما فرضته من حساب قفصت على المعنى الفلسفي ، ومع ما كان من اختراع هذا الشعب أموراً كثيرة قبل الشعوب الأخرى بألوف السنين ، حاشا ما تم في وادي الترات ، ومع ما كان من عظمة هذا الشعب ببلده وآثاره التي تنطوي على حسابات بادية حتى في أقدم التماثيل ، كان

### أقدم إنسان في مصر

هذا الشعبُ العملُ القدامُ عاجزاً عن إيجادهِ لنفسه علماً عُلوياً ، فلم يكن العالمُ المتنوعُ الذي تصوره عما بعد الموت غيرَ صورةٍ عن حياتهم في هذه الدنيا ، قد جعلهم خوفُهم من العنصر ، من النيل ، أتقياء اجتماعيين محافظين ، وما كان من اختراع هؤلاء القوم للخطِّ حوالي سنة ٣٣٠٠ قبل الميلاد فلم يُنمِ عليهم بأفكارٍ وأغانٍ مشابهةٍ لما يُوحى به توقُّدُ اليهود وعُنى اليونان ونصوِّف الهندوس ، والمصريون كتبوا للحساب أكثرَ مما للطَّرب ، والمصريون كتبوا لتنظيم التقارير أكثرَ مما للخيال والتصوير ، ولا نجدُ المصريين أساطيرَ وأقاصيصَ عن آلهةٍ متماثلة ، بل نجدُ أخلاطاً قصصٍ موجبةً لفكرةٍ واحدة مفروضةٍ على جميع أبناء الشمس هؤلاء ، وهذه الفكرةُ هي مكافئةٌ للموت .

تلك هي قوةُ شمس مصر ، وذلك هو صفاء هواء الصحراء ، وذلك هو سخاء النهر الموزع للحياة ، والناسُ هياتُ الحياة على ضفاف النيل مع ما يُثقل كواهلهم من أعباء ، وذلك هو الذي يحرِّكنا حقاً ، والقنواتُ قصيدةُ هؤلاء الناس ، والأسدادُ رواياتُهم ، والأهرامُ فلسفتُهم .

### ٣

كان أقدمُ إنسانٍ حفَّظه هواء مصر الجاف مطموراً في رمل الصحراء بالقرب من حلوان ، ولا أحدٌ يترَف زمنَ ما قبل التاريخ الذي ظهر فيه ، ووُجدَ محاطاً بقواريرٍ وبياتيا حيواناتٍ وبسكاكينٍ وأسورةٍ من برؤنٍ ونحاسٍ ، ووُجدَ مُثَنِّباً كالجبنين موضوعاً على الشكل الذي كان عليه في بطن أمه ، وكان يلوح ،



بنوع من السحر، أنه يُشعر من خلال ألوف السنين إلى الأمِّ الأولى أو الأب الأول، فكأنه مُصدِّقٌ لقاصي العرب الذين يَرَجِعون، عن جُرْأَةِ شجرة كلِّ خليفة وكلِّ حكيم إلى آدم، ومن أين أتى أولئك الناس الذين انتهت أسماؤهم إلينا فَنَجِدُ أفيالاً وأغماراً وأبقارَ ماهٍ وزرائفَ وأفاعى ودلادل<sup>(١)</sup> محفورة على خناجرهم فتعود إلى دوبر كان النحاس والعاج فيه مجهولين حتى في شواطئ القرات؟ أجاوا من الشمال أم من الجنوب؟

تلك المسئلة موضعُ جدلٍ لدى العلماء، فلا يجدون لها حلاً، ولا شيء أكثر عُقماً من إثارة مسئلة العروق في مصر حيث تحوُّل الطبيعة والجو المتجبر كل من يَدُو من النيل، ويُثبت سيفره أن السلتين كانوا أول الفزاة، ويردُّ قولنه ذلك بأن أولئك من الزوج، ويرى فينكلين أنهم من الصينيين، ويحدِّثهم جونس من البولينيزيين، ويجهل ييتري جميع هؤلاء ويقول موكداً إن أولئك من الأجاش، وبسخر روجه من تلك الآراء كلها ويُقرر أن أولئك من البابليين:

ولم يتجلَّ عدمُ أهمية العرق وتأثير الأرض القاطع في مكانٍ مثل تجليهما هنا، ففي هذه الواحة العجيبة غدا جميع العروق والأجناس من إنسان وحيوان مصرياً، ومن الموصة<sup>(٢)</sup> بين العلماء في الوقت الحاضر أن يصيروا على الرأى القائل إن المصريين الأولين كانوا من الغماميين المصاهرين للتلل والصوماليين والمختلطين بالساميين المهاجرين إلى الدلتا الشرقية، وليس في هذا ما يُنير الأمر، وأفضل من ذلك كله أن يُقابل بين أقدم الأجسام المَحْتَمَّة ووجوه فتیان الفلاحين، فهناك يَدُو طول الأعناق والأنوف

(١) الدلادل: جمع الدلاد، وهو حيوان على ظهره شوك طويل، وهو معروف بالتنفذ —

(٢) Mode, Faahion (٢)

الآسيوية مع أنوف الزنوج القُطُس وشفاهِهم الغليظة ، أى تَبْدُو تَأْخُجُ تَوَالِدِ دَامَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ فَاسْفَرِ عَنْ مَنَحَ أَوْلَئِكَ صَحَّةً وَفَسَاطًا إِنْ لَمْ يَمْنَحْهُمْ عِرْقًا خَالِصًا .  
ولنا أبسطُ الأمثلة من الطبيعة والنهر ، أى من الشمس والنيل ، فالنيلُ يَأْتِي مِنَ الْجَنُوبِ ، وَالزَّوَارِقُ تَجْرِي فِيهِ نَازِلَةً نَحْوَ مَجْرَاهِ التَّحْتَانِيَّ مُنْذُ أَقْدَمِ الْأَزْمَانِ وَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ الشَّلَالَاتِ ، وَمَا لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّ نَقْلَ الشُّعُوبِ وَالرُّعَاةِ ثَمَرَةً تَجَارِيهِمْ ، ثُمَّ وَصَلَ السَّامِيُّونَ مِنَ الشَّرْقِ بِمَاجُوزِينَ الصَّحْرَاءِ وَالْبَحْرِ الْأَحْمَرَ تِجَارًا وَجُنُودًا أَلَا حَيٍّ (١) فَلَمْ يَنْفَكْ الْقَرَاعَةُ عَلَى قُبُورِهِمْ يَضْرِبُونَهُمْ أَوْ يَقَطِّعُونَ رِءُوسَهُمْ ، وَمَنْ نَزَلَ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الشَّامِ ، إِلَى الدَّلَّتِ الْمُسْتَفْدَةِ ، فَمِنَ الْإِبْجِيِّينَ وَالْفَنِيْقِيِّينَ وَالْقُرْسِ وَالْأَقْرِيْطِيِّينَ الَّذِينَ أَتَوْا بَعْدَ الْقَرَاعَةِ التَّارِيْخِيِّينَ ، وَمِنَ الطَّبِيعِيِّينَ أَنَّ وَجِدَتْ فِي النَّيْلِ الْأَعْلَى هَيْكَلٌ عَظْمِيَّةٌ لَزَنْوِجٍ وَأَنَّ وَجِدَتْ فِي النَّيْلِ الْأَدْنَى هَيْكَلٌ عَظْمِيَّةٌ لَأَسْيُوبِيِّينَ ، وَإِذَا كَانَ قَدْ وَجِدَ فِي أَقْدَمِ الْقُبُورِ قَمِيْحٌ مُفَحَّمٌ وَقَضْبَانٌ كَرَّمٌ فَإِنَّ مِنَ الْمَوْكِدِ أَنَّ تَكُونَ هَذِهِ الْقَضْبَانِ ، وَمِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنَّ تَكُونَ الْحُبُوبِ ، قَدْ جَاءَتْ مِنْ شَوَاطِئِ الْقَرَاتِ ، وَإِذَا كَانَ ذُو الرُّأْسِ السَّكْبَشِيِّ أَمُونٌ قَدْ وَجِدَ مَرْسُومًا فِي الصَّخُورِ الْإِفْرِيْقِيَّةِ فَلَمْ يَمْنَحْ لِلَّامِ الْمَجَاوِرَةِ الْكَثِيرَةِ أَنَّ تَمَزَّجَ الْحَيَّوَانَ بِالْإِلَهِ ، وَلَمْ يَلَمْ يَفْكَرْ الْقَلَّاحُ الْأَوَّلُ عَلَى النَّيْلِ فِي رَسْمِ خَطِّهِ بِالْعَصَا عَلَى الْأَرْضِ ذَاتِ الْفِرْدَيْنِ النَّاعِمِ فَيَخْتَرَعُ الْحُرَاثَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ؟  
أَجَلْ ، عَرَفَ الْمَصْرِيُّونَ أَنَّ يَشِيدُوا مَبَانِيَّ وَأَنَّ يَنْحِتُوا حِجَارَةً مِنْ غَيْرِ أَنَّ يُعَلِّمَهُمْ ذَلِكَ أَجْنَبِيٌّ ، وَلَكِنْ النَّيْ لَا رَيْبَ فِيهِ هُوَ أَنَّ أَوَّلَ صَنْمٍ مِصْرِيٍّ كَانَ إِلَهَةً لَهَا جِسْمٌ بِقَرِ اللَّاءِ .

(١) الْأَخْيَ : جَمْعُ الْأَخِي ، وَهُوَ الطَّوِيلُ الْحَيَّةِ .

والنيل لدى أولئك القوم مقياس كل شيء في كل زمن ، سواء أكان ذلك منذ ستة آلاف سنة أم في الوقت الحاضر ، وعند أحد القراءنة أن العجدة من عناصر حياة النلود فصَرَخ قائلاً : « يمكن الناس أن يقولوا عني ذات يوم إنه كان نيلاً ! » ، وعلى من يمثّل بين يدَي أوريس وقضاة الموت أن يُبرّئ نفسه مع الممين من الكباتر الأربع والأربعين فيقول عن إحداها : « إنني لم ألوث ماء النيل ولم أحبسّه عن الجريان في موسمه ولم أسدّ قناة » ، وقد بَلَغ أولئك القوم من تقدّس النهر بما كان أهل ضفافه يَحْتَفِلُون معه من يَفْرِق فيه ويَدْفِنُونه مغوراً بالأزهار كما لو عاد غير بدني بشري ، وقد بَلَغ النيل من تميّنه الجنسية ما كان معه الإله آمون يصُرح بلسان كهنته قائلاً : « إن البلد الذي يَفِضُ فيه النيل هو مصر ، فكل من يَشْرَب من النيل في مجراه التختاني بعد يلاق <sup>(١)</sup> فهو مصري » .

وحَقّ ذلك بما هو أعمق عن روح شرعية ، ويستعمل أوميروس ضمير المذكّر للنيل وضمير المؤنث لمصر ، ويَرمُزُ هذا الفرقُ النحوي إلى مصر ، ولم تكن التماثيل التي جَلَلَت النحاتون بها من النيل رجلاً متفتّحاً بطيئاً ذا نُدَى ، ولم تكن الأناشيد المصرية ، ولم تكن الشوَرُ الرائعة التي رَسَمَهَا من ظَهَر من المصورين في تاريخ متأخر ، لَتُعَبَّرَ عن الأسطورة بمثل الكلمة التي صَدَرَت عن ذلك الإغريقي الأجنبي المذرك لِمَا في النهر من قوة مُؤَلَّمة قبل هيرودوتس بأربعة قرون .

وقد حدّدَ نيل النوبة ، ويختلف عن نيل مصر بشالاته الست السُكُونَةِ من الفرائيت والحجر الرملِي الصَوَائِي ، أمور الرّئي والزراعة تحديداً لم تكن الفلاحة معه لَتَمْتَدَّ في ١٢٠٠ كيلومتر على غير كيلومترين أو ثلاثة كيلومترات من العرض ،

وَيُسَيِّرُ الْكَلْسُ الصَّدْفَىٰ تَحْتَ أُسْوَانَ حَيْثُ تَبْدَأُ مَصْرُ جِيُولُوجِيًا ، فَيَتَغَيَّرُ النِّيلُ بِجَرَاهِ الْعَرِيضِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ اللَّيِّنَةِ وَيَسْتَطِيعُ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ أَنْ يَتَزَنَّ هُنَا مَا يَجْرُهُ مِنْ غَرِيزٍ فِي أَلُوفِ الْكِيلُومِتَرَاتِ ، وَهَكَذَا يَتَكَوَّنُ بِلَدِّ خَصِيبٍ أَوْسَعِ مِمَّا فِي السُّودَانِ خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً ، وَالْآنَ تَرَى الْوَادِيَّ الْبَالِغَ الضَّيْقِ وَغَيْرَ الْمَوْجُودِ فِي الثَّالِبِ بَيْنَ وَادِي حَلْفَا وَأُسْوَانَ يَتَنَحَّى مَعَ اتِّسَاعِ يَسْتَرٍ مَا بَيْنَ عَشْرَةِ كِيلُومِتَرَاتٍ وَخَمْسَةِ وَعَشْرِينَ كِيلُومِتَرًا ، وَلَوْ كَانَ طَوْلُهُ مُنَاسِبًا لِعَرْضِهِ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَبْلُغَ أَلْفَ كِيلُومِتَرٍ لَظَهَرَتْ وَاحِدَةٌ كَبِيرَةٌ فِي الصَّحْرَاءِ .

وَمَعَ ذَلِكَ تَفْصِيلُ خُطْوَةٍ وَاحِدَةٍ مَا بَيْنَ الْحَقْلِ الْأَخْضَرِ وَالصَّحْرَاءِ ذَاتِ اللَّوْنِ الْأَصْفَرِ ، وَمَنْ يَشَاهِدْ هَذَا الْمَنْظَرَ مِنَ الطَّائِرَةِ الْمُنْتَبِجَةِ إِلَى الشِّمَالِ لَا يَكَادُ يُصَدِّقُ أَنَّهُ مِنَ الْحَقَائِقِ ، وَإِنَّمَا يُخَيَّلُ إِلَيْهِ وَجُودُ خَرِيطَةٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ دَالَّةٌ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَتَغَلَّبُ بِهِ الْمَاءُ عَلَى الرَّمْلِ وَالذِّكَاةِ عَلَى الْمَاءِ ، وَعَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْتَصِرَانِ بِهِ عَلَى الشَّمْسِ .

#### ٤

إِنْ مَا يُنْجِزُهُ النَّيْلُ قَبْلَ أَنْ يُوْغَلَ فِي مَصْرٍ خَاصٍّ بِعَالَمِ الْأَسَاطِيرِ عَلَى مَا يَظْهَرُ ، وَالنَّيْلُ ، إِذْ يُخْرُجُ مِنْ بَحِيرَةٍ عَظِيمَةٍ ، فَيَسْكُمُ <sup>(١)</sup> بَيْنَ مَنَفْعٍ وَمَنَفْعٍ وَيَمْرُضُ أَعْزَلَ لِلشَّهْبِ وَالصَّحْرَاءِ وَيُصَدُّ بِمَتَارِسِ الصَّوَّانِ ، يُذَكِّرُنَا بِأُولَئِكَ الْأَبْطَالِ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْ جَمِيعِ الْغَامِرَاتِ وَيَنْجُونَ مِنْ جَمِيعِ الْمَصَائِبِ لِمَا قُدِّرَ عَلَيْهِمْ

(١) سَكَمَ : مَعَى عَلَى غَيْرِ هِدَايَةٍ .

### النيل يقلب نظام المواسم

أن يقوموا بعمل يُتِمُّونه في مَشْيِهِمْ ، وما عَانَوْه من ابتلاء قد بلغ من شَدِّ نفوسهم ما تُحَلُّ العُقْدَةُ معه بوصولهم ، وهذا هو أمرُ النيل الذي إذا ما مَضَى في مصرَ أَدَّى حضورُهُ إلى ولادةِ بلدٍ من غيرِ نزاعٍ بما فيه من قدرةٍ على التكوين .

والنيلُ في كلِّ عامٍ يُنْبِتُ نشاطَه وإبداعه ، وذلك قبله نظامُ المواسم رأساً على عَقِب ، والنيلُ في الصيف ، حين تَجِفُّ مياهُ الأنهار الأخرى أو تَنْقُصُ إلى أدنى درجةٍ ، يَتَبَلَّغُ النَايَةَ من الزيادة ، والنيلُ فيما بين يونيه وسبتمبر يَتَبَلَّغُ مستواه من الارتفاع في مصرَ العليا ١٣ ذراعاً أو ١٤ ذراعاً وَيَتَبَلَّغُ من الارتفاع في الدلتا سبعَ أذرعٍ أو ثَمَانِي أذرعٍ ، والنيلُ في أثناء هذه الأيام الثلاثة يَقْبِضُ على هذه الأرض التي تنتظره ، ثم يرتدُّ النيلُ كَالِهٍ غيرَ تاركٍ وراءه سوى كَهَانِهِ يقومون مقامه وَيَحْمِلُونَ مَعْبَدَهُ ، ولا يزال الناس ، والقاصون أيضاً ، يَمْدُدُونَهُ على ضِفَافِهِ مثلَ إله .

ويُنْظَرُ للمصريين إلى الفيضان الذي هو مُقَسِّمُ الأرزاق فَظَرَ الخائفَ الرَّاجِي ، وترى المصريين ، كالأُمِّ التي تُسَأَلُ نَفْسَهَا في أشهرِ الحَملِ التسعِ عن وَضْعِهَا ذِكْراً أو أنثى ، يَزْجِمُونَ إلى الفألِ والجُفْرِ والسَكَنَةِ والمهندسين ليَعرِفُوا مقدارَ ارتفاعِ الفيضانِ القادم ، وكان دهبانُ الأقباطِ يَمْرِضُونَ لِعَرَاءِ الليلِ قطعةً من فَخَّارٍ على أن يَزِنُوهَا في الصباحِ وفي السَّاءِ ويستخرجوا من فَرْقِ الوزَنِ قوَّةَ الفيضانِ ، وكان المَنْجَمُونَ يَحْسُبُونَ اقترانَ السياراتِ وصولاً إلى ذلك ، وكان العربُ في القرونِ الوسطى يَزِنُونَ أن اصطبلَ التهرِ باللونِ الأخضرِ دليلٌ على الفيضانِ الضعيفِ ، وذلك لأنَّ عدمَ كفايةِ الأمطارِ يؤدي إلى جَبْرٍ النيلِ جميعَ أعشابِ البحيرات التي يَأْتِي منها .

### مقاييس النيل

واليوم نُعلم أمواج الكهرباء في كل ساعة فريقَ الهندسين في القاهرة وأسوان مقدار ارتفاع النيل ، وقد يبلغ فن الرّئي في كثيرٍ من الأماكن بمصرَ درجةً من السّكال تقضي بالعجب ، فترى من القوام ما يتّهلّ معه في كل يومٍ حسابُ مقدارِ الماء الذي يصلُ ووجهُ توزيعه وما كان يحمله القراعة والرومان والعرب مع ما لديهم من مقاييس النيل ، ولكننا إذا ما سألنا أقدرَ مهندسي الرّئي عن مقدار الفيضان القادم وجدّناهم من المتّجز عن الجواب مالا يفوقون معه أقدم السكان الذين كانوا منذ ألوف السنين يُنشِثون على ضفاف النهر أولَ الأسداد والذين كانوا أولَ من جرّ المِخراث ورفعَ الماء بالساقية الأولى .

وكان القدماء مع جهلهم يُصيرون الفيضان قبل وقوعه كما يُبصرون وإن كنا نعرّف مصدره ، وتقول نظريةٌ يونانيةٌ إن ربح الشمال تدخّر النيل وتحوّل دون انصبابه في البحر ، وتقولُ نظريةٌ أخرى إن البحر يحيط بقرص الأرض وإن النيل يأتي من البحر ، وتقولُ نظريةٌ ثالثةٌ إن النيل يأتي من ثلوج الجبال العالية البعيدة ، ويهزأ هيرودوتس بجميع ذلك من غير أن يجيء بما هو خيرٌ من ذلك ، فننقله : « تُلفز الطبيعة في وضح النهار من دون أن تدع أحداً يهتك حجابها » ، واليوم ، أيضاً ، يظنُّ سِرُّ الرياح الموسمية خفياً مع أنه يتّكسرُ على جبال الحبشة ، ولا أحدٌ يعرف قوة هذه الرياح ، ولا أحدٌ يقدرُ مقلماً على حساب ما تحمله من سحب ، ولا على حساب مقدار الأمطار التي تنزل على إثيوبية ، ولا على حساب قوة الفيضان التي يصور النيل الأزرق والعبقرة .

ومع ذلك نستطيع أن نقيس الفيضان ونوزّعه عند وصوله ، وهذا ما كان القراعة يصنونه فيما مضى ، وكان يُقاس ارتفاع الفيضان وكانت الآلهة تُسأل أن

يَنْلُحُ القَبِيضَانِ سِتَّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا قَبْلَ هِيرُودُوتُسَ بَرَزْمَنِ طَوِيلٍ ، هِيرُودُوتُسَ  
الَّذِي جَابَ مِصْرَ قَبْلَ الْمِلَادِ بِخَمْسَةِ قُرُونٍ .

وَلِذَا أُحِيطَ تَمَالُ النَّيْلِ الْأَلْعَى الشَّهْرُ الْمَوْجُودُ فِي الْقَاتِيكَانِ بَسْتَةَ عَشْرٍ وَلِذَا ،  
وَيُلَخَّصُ بِلَيْقِي ذَلِكَ بِمَا عُرِفَ عَنِ الرُّومَانِ مِنْ إِيجَازٍ يَقُولُ : « تَكُونُ الْمَجَاعَةُ  
بِاتْنَيْ عَشْرَةَ ذِرَاعًا ، وَتَكُونُ الْكَفَايَةُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا ، وَتَكُونُ الْمَسَرَّةُ  
بَارْبَعِ عَشْرَةَ ذِرَاعًا ، وَتَكُونُ السَّلَامَةُ بِخَمْسَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا ، وَتَكُونُ السَّعَةُ  
بِسِتَّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا » ، وَتَجَلِي رُوحِهِ الدِّينِيَّةِ الْعَمِيقَةِ حِينَمَا يُضَيِّفُ إِلَى ذَلِكَ قَوْلَهُ  
إِنْ انْتَقَاضَ مِيَاهُ النَّيْلِ فِي عَامِ فِرْسَالُوسَ <sup>(١)</sup> يُثَبِّتُ أَنَّ هَذَا النَّهْرَ أَرَادَ إظهارَ  
مَا سَاوَرَهُ مِنْ نَقُورٍ بِسَبَبِ قَتْلِ يُونَنِييِ ! وَمَاذَا يَحْدُثُ لَوْ أَنَّ الْأَنْهَارَ فِي الْمِصْرِ  
الْحَاضِرَةِ تَدَخَّلَتْ فِي سِيَاسَةِ أَوْرُوبَةِ ؟

وَتَرْجِعُ الْحَسَابَاتُ إِلَى أَقْدَمِ الْأَزْمَنِ كَمَا يَظْهَرُ ، وَمَا وَجَدَ بَيْنَ أَسْوَانٍ وَالْقَاهِرَةِ  
مِنْ مَقَايِسَ عَشْرِينَ لِلنَّيْلِ قَدْ كَانَ لَهُ عَلَى رِوَايَةِ الْحَدِيثِ الْعَرَبِيِّ الْمُتَرْتِيبِي ، شَكْلُ  
بَيْرٍ رُخَامِيَّةٍ قَائِمٍ عَلَى فُوهَتِهَا نَشْرَانِ مِنْ نُحَاسٍ أَحَدُهُمَا ذَكَرٌ وَالْآخَرُ أُنْثَى ، فَكَانَ  
الْجُمْهُورُ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَبِيضَانِ يَرْتَصِدُّ أَوَّلَ صَفِيرِ النَّشْرِ عِنْدَ فَتْحِ فَرْعُونَ  
وَالْكَاهِنُ لِلْبَيْرِ ، فَإِذَا خَرَجَ الصَّفِيرُ الْأَوَّلُ مِنْ ذَكَرِ النَّشْرِ عُدَّ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى  
غَزَاةِ الْقَبِيضَانِ وَزَادَ الْمَلِكُ ثَمَنَ الْحَبِّ الَّذِي لَمْ يُبَدَّرْ ، فَيَأْتِي الْإِتِّحَادُ وَجَدِّ الْفَرَاغَةِ  
الدِّينِيَّةِ وَرُوحِهِمُ الْعَمَلِيَّةِ !

وَيَجِدُ الْجِغَرَاْفِيُونَ قِيَاسَ النَّيْلِ أَمْرًا طَبِيعِيًّا بَعْدَ زَمَنِ وَفِي عَهْدِ الطُّفَاةِ ،  
وَيُصَرِّحُ إِبْنُ تَابُونٍ فِي زَمَنِ قِصَرٍ بِأَنَّهُ لَا شَيْءَ أَقْدَمُ مِنْ مَقَايِسِ النَّيْلِ لِلْفَلَاحِ الَّذِي

فِرْسَالُوسَ : مِنْ يَلَادِ الْيُونَانِ ، وَفِيهَا انْتَصَرَ قِصْرٌ عَلَى يُونَنِي سَنَةِ ٤٨٠ بَعْدَ الْمِلَادِ .

يَعْلَمُ بِهَا مَقْدَارَ مَا يَتَعَمَدُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَاءِ وَمَا يَجِبُ أَنْ يَدَّخِرَهُ لِلْقَنَوَاتِ وَالْأَسْدَادِ ، وَبِأَنَّهُ لَا شَيْءَ أَفِيدُ مِنْ مَقَائِسِ النَّيْلِ لِلْحُكُومَةِ الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهَا فِي فَرْضِ الضَّرَائِبِ فَتَزِيدُهَا بَزِيَادَةِ الْفَيْضَانِ ، وَبِرَاهَا جِيرَارٌ وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى ضِفَافِ النَّيْلِ مَعَ الْجَنَرَالِ بُونَابَارْتِ بَعْدَ أَلْفِي سَنَةٍ فَيَذْعُوهَا بِمَا أَثَّرَ عَنْ عَصَرِهِ مِنْ تَهَكُّمِ بَرِيهِ بِهِ الذَّخَائِرِ الْمُقَدَّسَةِ لِمَا كَانَتْ الْحُكُومَةُ تَقْدَرُ عَلَيْهِ مِنْ رَفْعِ عِلَامَةٍ مُسْتَوًى الْفَيْضَانِ وَصَوْلًا إِلَى ضَرَائِبٍ عَالِيَةٍ .

وَنَعْلَمُ تَوَارِيخَ ارْتِفَاعِ فَيْضَانَاتِ النَّيْلِ مِنْذَ ثَلَاثَةِ عَشَرَ قَرْنًا قَرِيبًا وَنِصْفَ قَرْنٍ قَرِيبًا ، بِأَوْثَقِ عَمَّا فِي تَوَارِيخِ أَوْرَبَةِ مِنْ أَنْبَاءٍ ، وَلَمْ يَقُلْ لَنَا عِلْمَاءُ الْعَرَبِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنَ الْمِلَادِ كَيْفَ اهْتَدَوْا إِلَى أَرْقَامِ الْقُرُونِ السَّتَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَلَمْ يَذْكُرُوا لَنَا مَصَادِرَهُمْ ، يَدُّ أَنْ مَا نَرَاهُ مِنْ بَسَاطَةِ تَجَاوُلِ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ الْكَثِيرِينَ وَمَا نَأْتِيهِ مِنْ مُقَابَلَةِ أَرْقَامِ الْقُرُونِ الْقَادِمَةِ يُجَيِّزُ لَنَا أَنْ نَعْتَقِدَ صِحَّةَ تِلْكَ الْأَرْقَامِ التَّامَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ . وَمِنْذَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ فِي سَنَةِ ٦٢٢ لَمْ نُعَوِّزْنَا الْأَرْقَامَ حَتَّى سَنَةِ ١٩٣٥ ، وَعَنْ جَمِيعِ تِلْكَ الْقُرُونِ ، إِلَّا لِمَدَّةِ ١٩٢ سَنَةٍ ، وَنَحْنُ نَعْرِفُ ارْتِفَاعَ الْفَيْضَانَاتِ لِمَدَّةِ ١١٣٢ سَنَةٍ . وَتَطْلُقُ الْقَوَائِمُ بِأَرْقَامِهَا كَمَا يَتَرَمَّ الْكَهَنَةُ فِي صَلَوَاتِهِمْ ، وَيَقْرَعُ رَنِينُ ذَلِكَ أَذَانَنَا وَيُذَكِّرُ عَلَى الْمَعْدَلِ الْمُتَوَسِّطِ لِلْمُسْتَوَى الْأَدْنَى بِالْقُرُونِ هَكَذَا : فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ ١١٠٥١ ذِرَاعًا ، وَفِي الْقَرْنِ الْتَّاسِعِ ١٢٠٥٢ ، وَفِي الْقَرْنِ الثَّلَاثِ عَشَرَ ١٣٠٩٠ ، وَيُذَكِّرُ عَلَى الْمَعْدَلِ الْمُتَوَسِّطِ لِلْمُسْتَوَى الْأَعْلَى بِالْقُرُونِ هَكَذَا : فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ ١٧٠٥٥ ، وَفِي الْقَرْنِ الْتَّاسِعِ ١٨٠٢١ ، وَفِي الْقَرْنِ الثَّلَاثِ عَشَرَ ١٩٠٣١ ، وَخَلْفَ هَذِهِ الْأَرْقَامِ الْبَزَنْطِيَّةِ وَالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ وَالصَّلِيبِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ وَالتَّرَنْجِيَّةِ يَمُرُّ الْخُلَفَاءُ وَالْقَوَادُّ وَالْأَبَاطِرَةُ وَالْكَرَادِلَةُ وَالْأَثَرِيُّونَ وَالْفُنْدُقِيُّونَ عَلَى طُولِ النَّيْلِ حَتَّى وَصُولِ الْإِنْكِلِيزِ الْقَدِيرِ



قَهَرُوا النهرَ بالسُّدَادِ وَعَبَّدُوهُ لَتَسْتَقِلَّ مَصَانِعُ جَزِيرِهِمُ الْبَعِيدَةِ فَلَا يَرُدُّ الْقَطَنُ  
الَّذِي يُسْتَعْمَلُ فِي مَتَشَسِّتٍ مِنْ تَكْسَلٍ بِمَدَنَدٍ .

ومن خلال رقص الحوادث ذلك تبدُّو إحدى الحقائق من أعماق التاريخ ،  
وإذ كان يُسْقَدُ على طول النيل مع القرون فإنه يُسْتَخْرَجُ من جداول جغرافي  
العرب وقاصيهم تلك أمرٌ فريد في تاريخ معارفنا ، فبما أنه أمكن أن يقابل بين أعلى  
المياه وأدناها في ألف وثلاثمئة سنة أمكن أيضاً أن يُقاسَ ما يأتيه النيل في كل سنة  
من غرين في أربعة أماكن واقعة بين أسوان والقاهرة ، فالأرض قد ارتفعت بين  
القرن الثاني والقرن الثاني عشر متراً وثلاثين ستمتراً كما ارتفعت بعد ذلك ، أى في  
٧٧٠ سنة ، متراً واحداً ، وفي حسابات أخرى رُبُّ أن ارتفاع هذا المتر وَقَعَ في  
السنوات الـ ٥٧٠ الأخيرة .

وحينما تحدَّث عن ألوف السنين التي لا بُدَّ من انفصالها قبل أن يَصِلَ إلينا نور  
الشموس البعيدة نبيه في بحرٍ من الأرقام كما نفيه عندما يَبْحَثُ علماء المُسْتَحَثَّات<sup>(١)</sup> في  
قِدَمِ الأرض ويَحْضُون في مئاتِ ألوف السنين ، فالنور الطَّيِّبُ والأنسابُ العَدَوِيَّةُ  
والمراقب والهاجم أمورٌ تُثِيرُ من اللَّدَدِ ما لا يَخْطُرُ على قلب بشر .

ولكن مدة ٧٧٠ سنة مما يتصوره الذهن ، ومنذ ٧٧٠ سنة خَلَّتْ دَخَلَ الإمبراطور  
بارباروس ميلانَ مصالِحاً البابا بعد حَرْبٍ محاطاً بأمراء من الألمان وقساوسةٍ من  
الطلَّيَّان وبأولاده وحَفَدته وحاول أن يحقق مشاربهُ الواسعة ، ثم مات غرقاً في نهر  
بَاسِيَةِ الصغرى ، ويحيى دورُ عظمة إيطالية بعد القرون الوسطى ، ويتخاضع اللغات من  
الملوك والأمراء ، وتتنازع مُدُنٌ وبلدانٌ ، وتتجمع أممٌ ويحاول بعضها إبادة بعض ،

### لم يختر عيش الفلاح

ويظهر سان لويس ثم آل نابليون ، ويظهر فردريك الثاني ثم الجمهورية الألمانية ، ويظهر دانتى ثم نيتشه ، ويظهر جيوتو<sup>(١)</sup> ثم رودان<sup>(٢)</sup> ، ويظهر حصان الفارس ثم الدبابة ، ويتمازك الناس بأوربة في سبيل آرائهم مدة سبعة قرون ، ويتقاتل الخلفاء وزعماء الشعب بمصر ، وفيما كانت الشُحُب الثَّقَال تصدِّم جبال الحبشة سبعة مئة مرة كان النيل الأزرق يَجْرُ المليارات من ثَنَار البراكين سبعة مئة مرة ليَصْعَمَ على ضفاف النهر رَفْعاً لمستوى هذه الواحة العاطلة من الماء متراً واحداً ، وهذا أمرٌ تُذَكِّرُه ، وهذا أمرٌ نَلِسُه .

وما الذى ظلَّ ثابتاً غير متغيرٍ في وادى النيل في هذه القرون السبعة ؟ إطاعةُ العبد لسيده وموتُ ملايين الناس الصامتُ في سبيل مجدٍ ، أو خِزْيٍ ، أولئك الذين حَفِظَ التاريخُ أسماءهم ، وما بَدَّلَه للفكرِ من جهودٍ ، أو ما قام به الأقوياء والأغنياء من مضارباتٍ ، لم يَمْنَحَ الفلاح في نهاية القرون السبعة من العيشِ بئساً كما كان عليه أجداده في عهد الفراعنة الأولين ، ولكن الفلاح كان يعيش منذ خمسة آلاف سنة على أرضٍ أسفلَ من الأرضِ الحاضرة سبعة أمتار .

والنيلُ كخامعٍ موهوبٍ لم يفتأ يَزِيدُ وَيَزِيدُ كُنُوزَ الدهنِ ، والنيلُ ، منذ البُداء ، يَجْمَعُ الموادَ الخصبيةَ الضروريةَ لَشَيْبَتِهِ وَيُوسِّعُ طَالِمَهُ بلا انقطاع ، وإذا كانت الأرضُ التى يَحْرُمُهَا الفلاحُ غَرِيناً عمقه اثنا عشر متراً فَفَكَّرُوا فيما يُوْدَى إليه هذا من سرعة الحصول وكثرته .

(١) جيوتو : مصور فلورنسى وصديق لداينى ( ١٢٦٦ — ١٣٢٦ ) — ( ٢ ) رودان :

نحات فرنسى ( ١٨٤٠ — ١٩١٧ ) .

## أقسام التوات

ولذلك السبب ترى ضفاف النيل نفسها أعلى من الأراضي البعيدة التي لا تأخذ من الفيضين غير القسم الذي تصافه الأراضي القريبة، ويتوقف الخصب، أيضاً، على عرض النهر وانحداره، وكلما كان هذا الانحدار كثيراً قلَّ الفيضان المخزون، ويكاد الانحدار يكون متراً واحداً في كل عشرة كيلومترات بين أسوان والقاهرة، وظلَّ مُعدَّل ارتفاع الأرض التبريجي في مصر العليا ومصر الدنيا على حاله في غضون القرون .

والطبيعة هنا، كما في كل محلٍّ، تُوزَّع عطاياها بإحكام، والطبيعة تُخصِّب فيريْن الحبشة أرض هذه الواحة العاطلة من اللط، والطبيعة تدعُ الشمس والفيريْن الجديد يتغذَّان في كل مكان، والحقل إذا ما سحبه الفيضان القادم أعلى محصولاً بلايخوات، أوجب حصداً لا ينفك يطيب، وذلك لأن الفيض يحمل المواد اللافقة ويساعد على نموّ النبات، حتى إن حوادث التاريخ تُعين على عمل الطبيعة هذا بأن تتحول إلى سماءٍ أطلال المدن والقرى والبيوت التبنية بذلك التراب .

ومع ذلك تكسب صحراء ليبيا في الغرب أرضاً وتزرع من الإنسان أطيافاً كان أجداده يزرعونها، وهكذا تُبصر تنازع التراب والماء يحل الإنسان المستقر بصفاف النيل على التأمل، وهكذا تجد الطبيعة حافزة للإنسان إلى التفكير في أمر الرى .

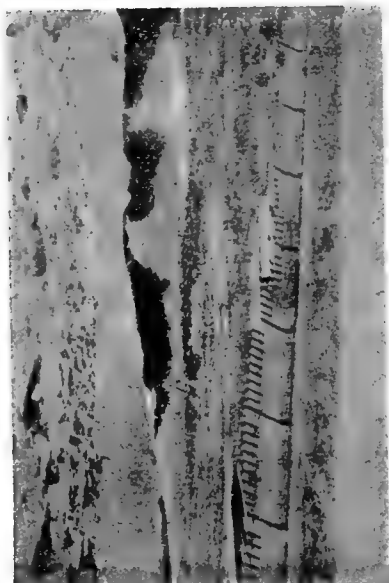
أجل، يرجع الرى إلى أوائل الزراعة في وادي النيل، غير أن أول تقيية تعود إلى عهد سيزومتريس الذى جعل، حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد، أئسى الحرب على حير الترع، وقد توجَّع هيرودوتس من مصر لأنها بلد لا يظاف فيه برية أو على حصان .

### الرى القرعونى

والطوافُ ممكنٌ فى الوقت الحاضر ، فقد غدت الأسدادُ دُرُوبَ هذا البلد الذى تسيّر فيه السيارات بسهولةٍ فلا يشكُّ السائحُ فى أن الأسدادَ الملائمةَ للرّى هى طُرُقُ هذا الوادى الضيق الثمين .

ولا يزال أسلوبُ القراعة ، أى الرّى بواسطة الأحواض ، مستعملاً فى مجرى النهر القوقائى قبل أسيوط ، فإذا جاوزت الدرجة السابعة والعشرين من العرض الشمالى ، أى إذا بلغت بدءَ منطقة زراعة القطن ، أبصرت احتياجاً إلى رىٍ دائمٍ تَضمُّنه الأسداد ، وبما لا ريب فيه أن فنَّ الأسداد وحَرَ القنوات بلغ درجة من الكمال فى عهد القراعة والخلقاء ، وذلك لأنّ للذن والقرى كانت تَبَرِّزُ كجُزُرٍ فى وسطِ مصر التى لم تَظْهَرْ غيرَ بحيرةٍ كبيرةٍ فى الصيف ، واليوم ترى عدد تلك الجزيرات قليلاً إلى النفاية ، واليوم تَحْزُنُ الأحواضُ الماءَ الغزيرينى وتَحْظِلُهُ أربعين يوماً ثم يجرى هذا الماء إلى أحواضٍ تنحدر مقداراً فقداً فتألف منها سلسلة . وتبلغُ الحواجزُ التى تفصلُ بعضَ هذه الأحواض عن بعضٍ من العلو ما بين مَترين وثلاثة أمتار فتُشكُّ الماءَ فى حقولٍ يترجى عَمَقُها بين خمسين سنتيمتراً ومَترين وفقَ وضع الأرض ، ويبقى الماء فى تلك الأحواض بين منتصف شهر أغسطس وآخر شهر سبتمبر ، ويكون الجنود من التيقظة ما يمتنون به الفلاح الحافى من خرق الحواجز برجله أو هدمها بها ، وذلك كما تُرَقِّبُ مياه المَرَارِ<sup>(١)</sup> حَوْلَ ميلان أو كما تُحَرِّسُ خزائن المصارف<sup>(٢)</sup> الكبرى فى المدن ، وهناك محكمة خاصة للحكم على لصوبس الماء ، بيد أن الفلاح يكون من الانتباه بفضل الله أكثر من الجندى فى الطالب .

(١) المَرَارِ : جمع المَرَّة ، وهو منبت الأرز — (٢) المصارف : البنوك .



۴۹ - جزای اسیر ط



وجميع الناس يَسْمَوْنَ في الاستقرار بالقرب من الماء ما قَدَرُوا على ذلك ، وهم في ذلك كالألمان الذين يتهاقون على برميل الرحلة حيناً يُقَبُّ لِيَسْتَقَى منه مَرُغِيّاً ، وذلك لأن الذي يكون بعيداً من النيل قريباً من حدود الصحراء ، يُحَرِّم « الماء الأحمر » ، على حين يستطيع من يَبْدُرُ بالقرب من الصَّفَّة أن يَسْقَى حِفْله بالساقية وينالَ محصولين .

والملح سببُ ألمٍ أيضاً ، وفي غاياتِ بحيرة أَلْبَرْت ، وعند منبع النيل ، وفي اليوم بعد اليوم ، تَجَرُّفُ الزُّنْحِيَّاتُ الملح من فوق الأرض بأيديهنَّ لِيَأْخُذَهُ الْأَقْرَامُ ثَمَنًا لطرائدَ وَحِرَابٍ حَادَّةٍ ، ولكن ما يُعَوِّزُ النيلَ في شَبَابِهِ يَزُجُّهُ في مَسِيهِ ، فما تحت الأرض من سُطْحَاءٍ فيُدْخِلُ الملح إلى ماء القنوات الصافي ويُهْلِكُ ، حديثاً ، أشجارَ الجُمُيزِ وَاللِّشِشِ ، وُثْمُكُ أَسْدَادُ النيل ملحا كذلك ، ومع ذلك تَرَى سِمَاطَ النيل الواقع تحت الأرض يُعِينُ الْأَطْيَانَ على الحياة حين الهرم قَبِيحُهُمْ حَوَ أَلْفِ بَرَأَرِ تَوَازِيَةِ وَأَكْثَرُ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ نَاعُورَةٍ .

وإن بلدًا يَضْمَنُ رِزْقَهُ على ذلك الوجه القريب يُثِيرُ أساطيرَ لا ريب ، فما يُضَدِّدُهُ مِنْ بَرٍّ كَثِيرٍ فيَجْعَلُ مِنْهُ نَبْرَ قَيْضٍ وَوَقْرٍ ، وهل يكون بلدٌ هذا أمرُهُ مع صفاء سماء غير سعيد ؟ وَبِتَصَحُّحِ أَحَدِ عُلَمَاءِ الْجُغْرَافِيَةِ في القرن الثامنَ عَشَرَ أَنْ يُخَلِّطُ تَرَابُ مِصْرَ بِالرَّمْلِ لِسَكِيلَايَكُونَ كَثِيرَ الْخِصْبِ ، وما قاله هذا الجغرافيُّ أَنَّ الْإِنَاثَ في مِصْرَ مِنْ قُوَّةِ التَّسَلِّ مَا تَلِدُ الْأُنْثَى مِنْهُ مَرَّتَيْنِ في العام وما تَلِدُ الْمَرْأَةُ مِنْهُ تَوَّامًا في كُلِّ مَرَّةٍ قَرِيبًا

ويوح أن هيرودوتس لاحظ مثلَ هذا البشَرِ عند الكهنة في القرن الخامس قبل الميلاد ، ومن المحتمل أن كان هؤلاء الكهنة يتسمون حيناً قالوا له : « بما أن

بلاد اليونان عاطلةٌ من نهر يَرْوِيها صار من الممكن أن تموتوا جوعاً إذا لم يُنْزِلْ إليكم مطراً عليكم ، واسمع جوابه : « وأنتم ، أيها الماكرون ، تنالون ثمرات الأرض في الوقت الحاضر بأسهل مما يناله به سواكم من الناس ، أى من غير أن تستعملوا حتى المِخْرَاط ، ولكن إذا دام ما أثبتموه لى من ارتفاع أرض الدلتا كما أخذ يقع في القرون التسعة الأخيرة أقل ما يُصَابُ أبناءكم بالجاعة يوم ينقطع النيلُ عن الخروج من مجراه فانصأ ؟ » .

وهذا وَقَعَ في حادثةٍ معبدٍ منفيش حين تحدث كَهَنَةُ آمون وضيئهم العالم الذى كان يؤمن بزوس<sup>(١)</sup> فيزايدهم عن غرور قوى وزهو ديني .

## ٥

اليوم ترى العصر مقهوراً، وسيُحدَّثنا النهر عن معنى ذلك ، وفي السنين الثلاثين الأخيرة يُحوَّلُ سدُّ أسوان وتُحوَّلُ أسدَادُ أربعة أخرى في مجرى النهر التحتاني نظام الرى الألفى المصرى للمرة الأولى ، ويوجب تحويلُ منطقة جبوبٍ إلى منطقة قطنٍ نظامَ قنّواتٍ يُورَّعُ به الماء في العام كله توزيعاً يُستغنى به البلد على اللوام ، ويُستغنى مع ذلك في إخصاب أراضٍ بعيدة واقعة عند حدود الصحراء .

وهكذا يُستغنى عن أمرين مختلفين أشدَّ الاختلاف ، وأولُ الأمرين هو تسييد إحدى قوى الطبيعة ، وذلك بأن يُحبَسَ في أحواض فيضانٍ ما قِيٌّ منذ أقدم الأزمنة ينتشر مُصَابِلاً في كلِّ صيف حتى يَنزوى ، ويُجْعَلُ من

(١) زوس : هو أبوالآلهة وسيدهما لدى الإغريق كاجاء في الأساطير، وهو يسمى جوبيتر أيضاً.



مغامر كائناً رزينا مقتصداً ، ويُحَرِّمُ العالمُ منظرًا مؤثراً يُعْطِي بضعَةَ ملايينَ من أطنان القطن زيادةً على ما كان يُعْطَى ، وكان مقدار القطن يَكُنْى الجميعُ كما هو الأمرُ قَبْلَ ذلك ، وليس ما وَقَعَ غيرَ شعُوذةٍ ينتقل بها المحصول من يدٍ إلى أخرى ، غيرَ خُدْعَةٍ يَمُرُّ بها القطن من أيدي الأمريكيين إلى يد الأنفلومصريين .

والأمرُ الثاني ، وهو رَهْنُ التحقيق ، جُهِدَ فُلُوسَفِيٌّ لَمْ تَسْمَعْ بِمِثْلِهِ أُذُنٌ ، أَى دَخْرُ لِحُدُودِ الصَّحراءِ سنةً بعد سنة ، وليست زراعةُ القطن هي التي تَنْبُئُ على هذه الأُسْدَادِ بالمعنى الفلسفيِّ ، وإنما ينشأ ذلك عن اذهيمار<sup>(١)</sup> ما يَزِيدُ على ثلاثة آلاف كيلومتر مربع من الأرض الصحراوية ، أَى ما يَزِيدُ على مِساحةِ تَيْسَانَ<sup>(٢)</sup> .

وانظُرْ إلى الأرقامِ تَحَدُّ أن المزرُوعُ في الوقت الحاضر هو ٢٢٠٠٠ كيلومتر مربع من ٣٠٠٠٠ كيلومتر مربع ، وأن ٨٠٠٠ كيلومتر مربع سَيُزْرَعُ قريباً ، وأن ٣٠٠٠ كيلومتر مربع هي من مِنطَقة الرِّئى الجَدِيدِ في مِصرَ العَلِيا ، فإذا ما انقضى ثلاثون عاماً بُلِغَ الحَدُّ من الأراضى الصالحة للزراعة بمِصرَ ، ولكن مِصرَ تكون قد بَلَّغَتْ من السَّكَّانِ في ذلك الحين ما بين الـ ١٨ والـ ٢٠ من الملايين ، والآن يُعْطَى سبعون في المِئَةِ من الأراضى التي تُزْرَعُ بِمِصرَ محصولين أو ثلاثة محاصيل سنوياً ، ويُطَبَّقُ نظامُ الرِّئى وَفْقَ مَقْتَضَى الأَحْواضِ في مجرى النهر الفوقانيِّ قَبْلَ أُسْبُوطِ كَافِي الماضى ، أَى في النصف الأول من مجرى النيل بِمِصرَ ، أَى على الرُّبْعِ من مجموع الأراضى الصالحة لِلْفِلاحةِ قَطَطَ ، وذلك بعد النظرِ إلى ضَيْقِ الوادى .

وَلَنْدَكُرَ من أين يَأْتِى الماءُ ، ففى الصَّيفِ ، بين فبراير وأغسطس ، يكون النيلُ

(١) ادهام يدعام ادهيلما فهو مدعام وهي مدعامه : اخضر اخضراراً يضرب الى السواد من شدة الحُمْرة — (٢) تيسان : من كتوبات سويسرة .

### أداة ضغط بيد الإنكليز

الأبيض بالغ القوة ، فيأتى بنائين في المئة من الماء محتيلاً العِبءَ ، ويهبط ما يجيء به النيل الأزرق إلى خمسة في المئة من الماء في بعض السنين ، فإذا حَلَّ زمن الفيضان قُلِبَت النسبة تقريباً ، والأرقام تقريبية مع ذلك فَتُصَنَّفُ سنواتُ انخفاضِ الماء عادةً هكذا : ( ١٧٨١ — ١٧٩٧ ، ١٨٩٩ — ١٩١٥ ) ، ويترجح مقدارُ الماء الذى يَمُرُّ من خَزَانِ أسوان بين ٤١ مليار متر مكعب و ١٣٨ مليار متر مكعب ، ولولا خَزَانُ أسوان لأسفرت سنة سيئة كسنة ١٩١٣ عن مجاعةٍ في مصر ، ومحصولُ القطن وحده هو الذى أصابه الضرُّ في تلك السنة .

ولا تُبَصِّرُ في أيام السَّلم على الأقلِ سداً يُرَى إنشاؤه في النيل الأعلى مُهدداً لمصر ، وقد أنبئنا في جزء آخر أن من الأساطير أن تُزعم قدرةً إنكلترة على إغلاق الكوى وإماتة مصر جوعاً ، ومع ذلك تَحْدُ أن الفيضانات هي من التغير ما يُمكن الأسدادَ في حال الحرب أن تكون به أداة ضغط بيد الإنكليز ، ومن السهل أن يُرَفَّعَ مستوى اللباه التى يَحْمِلُهَا سدُّ بحيرة ألبرت الأعلى متراً واحداً ، فتَمَسِكُ بذلك خمسة مليارات متر مكعب ، وبما أن معدلَ ضياع الماء في المنافع ثمانية عشر ملياراً متر مكعب وَجِبَ إنشاء القناة التى تكلمنا عنها آنفاً ، ففى هذه الحال يَصِلُ الماء من بحيرة ألبرت إلى أسوان في خمسة وخمسين يوماً .

ويقال إن من شأن خَزَانِ جبل الأولياء الذى يُقَامُ في مجرى النهر القوافى قُبَيْلَ الخرطوم أن يَبْقَى مصرَ حَظَرَ الطوفان ، ومن شأن السَّد الذى رُسم مشروعُ إنشاؤه منذ خمس عشرة سنةً في بحيرة طانة أن يُنَمِّسِكَ من الماء أكثر مما يُنَمِّسِكَ بحيرة ألبرت ، أى يُنَمِّسِكَ سبعة مليارات متر مكعب فتَسْقِي ثلاثة ملياراتٍ منها قطنَ الجزيرة على حين يَبْقَى أربعة ملياراتٍ احتياطاً لِمَا لَا يُنْتَظَرُ من الماء في

### معم الأرزاق

السنين ذوت الكوارث ، فهناك يُفَرِّغُ الحوضُ من غير أن يُخْشِرَ مصرُ قَعْلَةَ ماء ، وذلك لأن مياه النيل الأزرق التي تَنْصَبُ في النيل الأبيض بالخرطوم تَجْتَمِعُ في المجرى التحتاني بعد بحيرة طانة بِمَسَافَةٍ بعيدة وعند الحدِّ بين الحبشة والسودان . ويتطابق الفيضانُ والصيف من بين مواسم مصر الثلاثة ، الفيضان والشتاء والصيف ، وذلك لأن الفيضان ، وإن كان يبدأ في يونيه ، يَبْلُغُ غايته في أول سبتمبر حين تكون أحواضُ مصر العليا مملوءةً وحين تَصُبُّ القناتُ ماءً كافياً في الأرض التي جَفَفَتْها الصيف ، ثم يَنْدُو بعض الأرض مُعَدّاً لِلْبَذَرِ فيُفْعِلُ غَلَّةً شتويةً هزيلة ، وتَسْقِي الناعورةُ من القنجر ما بار من الأرض في أبريل عند ما يَحِلُّ وقت الحصاد ويؤخذُ آخرُ شِمَالِهِ<sup>(١)</sup> ، وهكذا تَرَى أرضَ مصرَ مزروعةً ١٤٠ في المئة .

والنيلُ هو الذي يُعَيِّنُ الزراعة ، والنيلُ هو الإله ذو الأهواء ، والشمسُ فوق النيل هي الإله القَسَمُ الأرزاق ، والأرُّ قليلٌ ، والأرُّ يحتاج إلى ماء كثير ، والأرُّ يُوتِي أَكْلَهُ في ستة أشهر ، ويُزَعُّ الماء بالمَصْخَآتِ لَسْتِي قصب السكر الذي يحتاج إلى ثمان عشرة رِيْ<sup>(٢)</sup> ، ومع أن القطن لا يتطلب غيرَ عشر شَرَبَاتٍ بعدُ المَجَلَّ الذهبي الذي يُصَحَّى بكلِّ شيء في سبيله .

ولا يَزْرَعُ القلاحُ غيرَ ما يستطيع سقْيُهُ بنفسه ، وهو يَزْرَعُ من البرسيم لماشيته ما يَتَقَيَّه ثمانى مراتٍ وما يَحْشُهُ ستَ مراتٍ في السنة ، وهو يَزْرَعُ بصلاً وفولاً وذرةً وخُصراً ، وبراً يَبْدُرُهُ في الفَرَيْنِ في شهر أكتوبر وَيَسْقِيهِ ثلاثَ

(١) الصبال : كل قبضة من الزرع يقبض عليها الحاصد (٢) الروى : هو الرى ، وهو الصرب حتى الصبح كما هو معلوم .

## ارتفاع قيمة الأرض

مراتٍ فقط لِيُعْطِيَهُ في شهر أبريل ما يحتاج إليه من الخُبْزِ هو وأولاده .  
وَيُنْبِت النِيلُ ، في تلك الأرض الضيقة الواقعة على المجرى الفوقاني قبل أسيوط ،  
مثلَ الحبوب التي كانت في عهد القراعة بفضل الأحواض والنواير بينها ،  
وَيُخَصَّص ثلثُ ما بين أسيوط والقاهرة من أراضٍ للقطن ، وَيَتَوَقَّفُ كُلُّ شَيْءٍ على  
الأسداد ، وَيُنْبِت أَقْلُ بصل للفلاح بإشراف مهندسي أسوان .

ومن نتائج إنشاء خَزَانِ أسوانَ أن أسفرت زراعة القطن في مصر العليا عن  
ارتفاع قيمة الأرض بنحو ١٨٠٠ جنيه لكل كيلومتر مربع ، وأن اشتدَّت كثافةُ  
السكان فصار كلُّ كيلومتر مربع يشتغل على مئة من الناس زيادةً على ما في أيِّ  
مكان آخر ، وأن كانت هذه الزيادة على حَسَبِ خواصِّ الأرض ، ويؤدي ارتفاع  
ثَمَنِ كُلِّ قطعة أرض جنبيين إلى تأسيس أسرة إضافية ، وهكذا يَبْدُو أثرُ خَزَانِ  
أسوانَ على مَسَافَةِ أربعمئة كيلومتر من المجرى التحتاني .

ومن أطرف نتائج إقامة الأسداد هو الخوفُ من غزارة الفيضانات ، وما يَحْدُثُ  
منذ عهد القراعة حتى هذه الأيام ، وفي بعض الأحيان ، أن تُجاوِز الفيضانات  
الحدَّ ، ولكن هذا هو من التُدْرَةِ ما لا ينفكُّ الناسُ معه يَدْعُونَ الآلهة أن تجعل  
الفيضان قوياً جداً ، واليوم يُخَشَى أن يؤدي الفيضان إلى خراب السدِّ ،  
ومن كَيْفَ ترى الجبلَ الذي قَهَرَ النصر يخاف انهياراً ما بَيَّ ، فهو في هذا كالتلغاية  
الذي يخاف الثورة .

وكما أن الْفَنَى يزيد الإنسانُ جُبُلًا وتمطُّشًا إلى الذهب تَرَى كِبَارَ المالِكينِ  
يتوجعون دَوماً من قَلَةٍ في الماء كان أجدادهم يمانونها أشهراً بأشرها ، وترى الباشا  
في القاهرة يُؤَكِّد ضرورة إنشاء سدِّي الخرطوم وبميرة طانة ، وسدِّ بجميرة أَلْبِرْتِ

### صغار الفاريت

على ما يحتمل ، وصولاً إلى ازدهار قطنه في ديروط ، والقيرو ، من ناحيته ، تابعٌ للقيرو ومائه ، ولا شيء ، يلوح كافيًا منذ ثورة الري التي نشأت عن شديد سد أسوان في سنة ١٩٠٠ .

ومع ذلك تبصر أنواعاً من صغار الفاريت يتكهنون ببذر القوضى في العمل العظيم الذي أتم ، وذلك أن لدى الزارع ، الذي أستم بضائبه في إقامة الأسداد والذي يحلم بأتمان فلكية لقطنه ، أسباباً كثيرة للشكوى ، فالله المحجوز خالٍ من الغرين لوروده من النيل الأبيض حتى فصل الصيف ، وهو يبتقى في حقوله مدة أقل من التي يبتقى بها ماء الأحواض ، وهو يترك قليل خيرة ويُعطى قليل محصول ، ومع ذلك كيف يتخلص من زيادة هذا الماء الذي يزد في جميع السنة ؟ وتكلف المصحات ثمنًا غاليًا ولا يؤمن جانبها ، وأما الفلاح ، وأما هذا الزارع المياوم<sup>(١)</sup> عند ذلك الزارع ، فقد استحوذ عليه الغم ، وذلك لأن الملح الذي تأتي به مياه النيل الأبيض للمدينة ، تذكره على استعمال السّاد للمرة الأولى منذ ألوف السنين .

ثم ماذا ؟ يضطر نبر الدنيا القديم إلى استيراد الحبوب من الخارج بعد أن صار يصدر القطن إليه ، ويفتني بذلك على حساب استقلاله ، أجل ، له أهداف واسعة ، غير أنه عاد لا يتمتع بالهدوء الداخلي ، وكان غوته قد أبصر مثل هذا الفرق بين العمل والفكر فقال : « الفكر يُوسّع ، ولكنه يطلّ ، والعمل يُلبّس ، ولكنه يحدّد » ، وإذا كان الفنان في الجري التوقائي قبل أسبوط يأتي بثمانية عشر جنياً فإن فنان القطن في الجري التحتاني بعد أسبوط يؤدّي حتى ثمانية وعشرين جنياً ، ويزيد

(١) يابومه : عامله بالأيام .

« لا زيادة أسداد ! لا زيادة ماء ! »

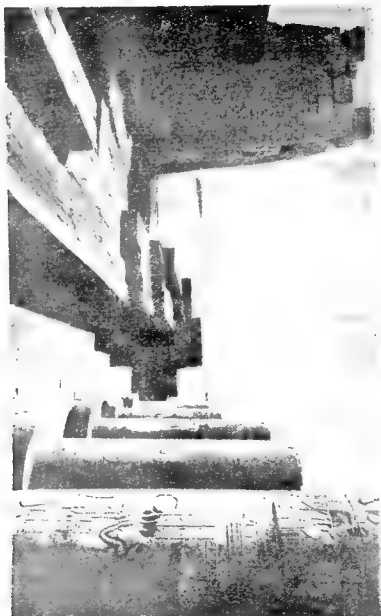
مما للزراع في الدقتر الكبير ، ويَرْخَرُ السكان ، ولا تَكْثُرُ مَسَرَّةُ الحياة ، ويُسْتَرُ البلد بالحشرات التي يُوَدِّي إليها اتصالُ الماء بعد أن كانَ حَيِّيًا مع الجفاف ، وتُظْهِرُ أمراضٌ جديدة فتُعَدُّ البِلْهَارْتِيَا التي تَرافِقُ النِيلَ المُوسَّعَ من جوامع مصر ، ويقول الناسُ بصوتٍ عالٍ : « لا زيادة أسداد ! لا زيادة ماء ! » .

ويعود الفلاح ، مُتَزِنَ الخطأ ، إلى الساقية التي انتقلت إليه من أجداده ، والتي لم يَسْطِيعْ مهندسٌ أن يستبدل بها غيرَ المِصْحَاحَاتِ التي تنتشر رويداً رويداً ، ويدام دُولَابُ القراصة الخشبيُّ على الدوران بالقرب من الأسداد البِتْوَرِيَّةِ مُتَشَدِّداً بسيطاً كالْحِصَانِ الذي يَجُولُ بجانب السيارة .

ويَدُورُ الدُولَابُ وَيَصِيرُ<sup>(١)</sup> ، وَيَسُودُ مِصْرَ صَوْتَانِ : الصَّراخ والعويل ، أي رسولاً أَلَمَ مِصْرَ اللذان أوجدتهما الشمس والنيل كما في الماضي ، وتَرَى فوق النهر وفوقَ وشاحه الأخضر ، هُورُوسَ ، تَرَى الصَّعْرَ ، يُحَلِّقُ وَيَهْبِطُ وَيَقِفُ لِيُحَلِّقَ ثانيةً وَلِيَتَقَ<sup>(٢)</sup> ، وهو إذا ما وَقَعَ على ساحة معبد إدفو جَهْلَ أن هُورُوسَ الحَجَرِيُّ الذي يَحْمُومُ حَوَّله هو جَدُّه الإلهي ، وَيَرْنُ نداؤه عاليًا من خلال السماء الزرقاء ، أَفْتَمَبَّرَ بهذا الأسلوب عن الحُبِّ أم عن الجوع أم عن الفرح ؟

له الجوابُ بنواحي الساقية التي يدور دُولَابُهَا حولَ محورٍ خشبيٍّ ، وَيَعْرِفُ النِيلُ هذا الصريفَ من بلاد النوبة وما بعدها ، ويزيد هذا الصريفُ زيادةً لا حدَّ لها فوق تلك الأرضِ الزاهرة بالسكان ، وتساوق خمسون ساقيةً أو مئةً ساقيةً ، ومن يُبَصِّرُهَا تَحْصُوسَ من بعيدٍ يَتَمَثَّلُ له فريقٌ من الأَثَرِيِّينَ يبحثُ في الأرضِ مُبَارِكِيًا . وفي هذه الواحة الضيقة يَحْشَى الناسُ كُلَّ ارتفاعٍ في الأرض ولو متراً واحداً ،

(١) صر : صوت — (٢) غق الصقر : صوت .



۲۷ - کوم ایند





### الشاحوف

وذلك لما يجب عليهم من رفع الماء إليها في هذا البلد الذي لا يُنزل الله عليه من السماء ماء ولا يُصعد الماء فيه إلى الأعلى ، ولا ترى جُتاً<sup>(١)</sup> تزيد على ثلاثة أمتار أو أربعة أمتار ارتفاعاً ، وهي تُهدّد الحياة اليومية والتجيز اليومي مع ذلك ، ولا يستطيع سدّ أن يقهرها ، ويبدأ الرّق بالساقية ، ويدلنا البردى منذ أقدم الأزمنة على كثرة من حاولوا النجاة من هذا المذنب .

ولا يُستعمل الدولاب في كل مكان ، فترى في الحلّ الواحد رجلين عارين واقفين في الرّجل يستخرجان الماء بوعاء من ليفٍ ويقذفان به إلى ما فوقهما ، وهما ينتفعان في بعض الأحيان بخشبة طويلة متحركة يُربط الوعاء أو الثلوثُ بها فيصّب الماء منه فوقهما ، وهما يتخذان ميزان الثّقلة من طين النيل المُجفّف ، وهذه هي الميزنة<sup>(٢)</sup> ، فإذا ما نُصِبَت ثلاث منازل فوق بعضها بعضاً أُسكن رفع الماء من النيل إلى الحلّ المرتفع ثلاثة أمتار في دقائق قليلة ، وتظلّ الساقية ، أو الناعورة ، مع الجواميس الدوّارة ومع الصبيّ المُحرّك لها تحت الجُميزة ، وسيلة الرّأي الكلاسيّة في مصر كما في بلاد النوبة ، وهذه هي مجموعة الألحان التي تَرِنُ في جميع مصر .

وبمازج هذا الصريف التّوايح ، في بعض الأحيان ، غناء الصبيّ الأغن<sup>(٣)</sup> الذي يُحرّك الجاموسين بقوله : « تعال يا جاموسى ، واملا ركيسى » ، ويعلّم الصبيّ ، مع ذلك ، أنه لا يملأ كيسه بدوّرائه عشر ساعات ، بل يملأ كيس سيده ، ويصمّ هذا الأخير لحنة الشخصى إلى لحن الساقية ، ويقرعُ الدّولاب إناء من صقيح في كلّ دورة ، فبذلك يعلّم المعلم ، وهو في بيته ، عدم انقطاع الدّولاب عن الدّوران .

(١) الجتا : جمع الجنوة ، وهي كومة التراب — (٢) المترقة : ما يستخرج به الماء ، وهي ما يعرف في مصر بالشاحوف — (٣) الأغن : ذو اللّفة ، وهي صوت من الهباء والأف .

وهكذا تمتاز في ألوف الأمكنة ثلاثة ألحان ، وهي : نشيد الأمل الأزلي  
الذي يُنمُّ به العبدُ المُتَبَلِّدُ السائر وراء جاموسيه أو الجالسُ القُرُفُصاء على المَجَرِّ ،  
وقَرَعُ الصَّفِيح الضامن للعلم عمل الإنسان والحيوان ، وصَرِيفُ خَشَب الجَمِيزِ  
القديم الذي كان قد أنبته دُولَابُ خَشَبِيٌّ على ضِفَةِ النبل لِيُحوِّلَهُ بعدئذٍ إلى دُولَابٍ  
يُسْتَخْرَج به الماء للإسقاء أشجارٍ جديدةٍ وحَصَدِ محاصيلٍ جديدةٍ .

## ٦

نَعْلَمُ أَنَّ جميع النباتات التي تَهَبُّ الماء لها الحياة كانت موجودة في عهد الفراغة ،  
وذلك لأن مصر هي بلدُ الدنيا الوحيد الذي تَمَرِّفُ نباته منذ ستة آلاف سنة ،  
ولا تَمَرِّفُ في العالم مكاناً زَيَّنَتْ التقاليدُ فيه القبورَ كما زَيَّنَتْ هنا ، ولا تَمَرِّفُ في العالم  
مكاناً حَفِظَ الحَقَافُ فيه ذلك كما حَفِظَ هنا ، وفي القبور وَجِدَتْ مثلاً نوعُ النبات ،  
ولا سيما عند بَنَاطِ عَصَائِبِ الموميا ، وتُبَصِّرُ على رؤوس الأجسام المَحْنَطَةِ غاراً  
أو ضرباً من السَّدر<sup>(١)</sup> ، وتُبَصِّرُ في أيديها غصناً من الآس<sup>(٢)</sup> أو الأثل<sup>(٣)</sup> ، وتُبَصِّرُ  
حول أجيادها قلانداً من النَّعْنَعِ أو الياسمين ، وكان يُنْتَرِ العَبِيرُانُ<sup>(٤)</sup> والوردُ  
والفاغية<sup>(٥)</sup> والرُّثُ والتَّصَفِ<sup>(٦)</sup> على فراش الموت ، وكان التَّلِجُ يستعمل للصَّبغِ ،  
وكانت الحِثَاءُ تُسْتَعْمَلُ لِلضَّجَعِ<sup>(٧)</sup> المرغنى المَعْدَّةُ لَشُقْرَةِ الشعر .

(١) السدر : شجر النبق — (٢) الآس : شجر يعرف بالريحان — (٣) الأثل : شجر يشبه  
الطرغاف إلا أنه أعظم منها — (٤) العبيران : نبات طيب الرائحة — (٥) الفاغية : غصن الحناء يفرس  
مقلوباً فيخرج زهراً أبيض من الحناء — (٦) التصف : الصنوبر البري — (٧) الضجع :  
غاسول للثياب .

وإلى ذلك أضف ما يُترك للأموات من أقوات وما على القبور من صور ،  
وأضف النقوش البازرة كذلك الشور بالكرك حيث عُرِضَت الحيوانات  
والنباتات عرضاً رائعاً ، وحيث يظهر السدر ذو الأكام والبردى مع زهره ذى  
الأسنان النسع ، وبين ذلك ترى ارتياد المدهد<sup>(١)</sup> والسلى<sup>(٢)</sup> ، ويدو  
الطيطوى تحت شقائق النعمان ، ويدو الإيس المقدس بجانب الزنبق ،  
ويبهز نور الشمس جميع أولئك ، وذلك لأن الصفن غطس أولئك فى معبد ذى  
ظلام دامس فوجب مرور ٣٥٠٠ سنة لتخرجها يد عالم أشرى بصير إلى النور  
الذى كانت قد جاءت منه كهاجها الحية .

والبردى هو أكرم تلك النباتات ، وكان عيد التراعنة يقلّمونه حزماً ،  
ويتزحون ورقه ، ويصنمون منه حيالاً ونمالاً ويمشون سوقه ويحلقون منها أطوافاً  
ويصنعون عليها سقفاً فى الغالب ، وكانت تؤكل جذوره ، وكأ أن الإنسان الحسن  
التقويم يمكنه أن يعمل ويفكر معاً كان يمكن البردى ، بعد أن يكسو الإنسان  
وينقله ويطعمه ، أن يحتفظ بخواص تقضى بالعجب ، فبعد أن كانت سوقه تقطع  
عصائب دقيقة متداخلة كانت هذه المصائب تطرق وتذبذب وتلف منتظرة  
تجهيزها بالمعارف لتسلم إلى أمواج الزمان كالزوارق التى تسير مع النيل مشحونة  
بالمسافرين ، وماذا كنا نعرف عن مصر وعن القرون القديمة لولا هذا النبات ؟  
وكانت تصدر لقائف البردى من القرن الحادى عشر قبل الميلاد إلى سورية ثم  
إلى أئنة قالى رومة ، وكانت الأساطير والتاريخ والفلسفة والقوانين التى تسجل فيها  
تحوّل أبناء الأم البعيدة من خلال العالم فتعود ثانية إلى مصر .

(١) المدهد : جمع المدهد ، وهو طائر معروف — (٢) السلى : طائر يعرف بالسلى .

### النخل

والآن ، فى واحة مصر الضيقة هذه ، ترى مكانًا للروح والغابِ أضيّقَ بما فى الماضى ، والمدنُ وحدها هى التى تنتحل حقَّ غرسِ الشجر ، وبما تشاهد فى الريف أحيانًا جُمُيْرَةً منفردة أو طَرْفًا ذاتُ خَفِيفٍ خَفِيفٍ ، أو قليلٌ من أشجار الثُوتِ ذواتِ الورقِ الواسع ، أو قليلٌ من أشجار السَّنَطِ المتخففة بعضَ الشيء ، أى تشاهد من الشجر ما لا يحتاج إلى غير ماء قليل ، والنخلُ وحدها هى من الفائدة ما نستحقُّ معه أن نُسَقَى ، ويُنتفعَ بِخُوصِ النخلِ وخشبها فى بناء المنازل وفى صنع الأثاث والحصر كما فى النيل الأعلى ، وتبين ثمارها الصُفْرُ والعُمُرُ والعُمُرُ على تغذية الشعب ، ويتمُّ نضجها فى البيوت وقت الشتاء ، كالتفاح والكُمثرى فى أوربة ، وينتشر شجرُ الدَّومِ من السودان حتى أسبوط ، ويؤكلُ من فاكهته وتُشربُ حتى عصارةُ ثمره .

وتعدُّ مصرُ شديدةَ الرياحِ نجاءَ شجرِ المَوْزِ ، وفى الصيف يأكل الفلاح المصرى الصُّبَّارَ مع أزهاره الصُّفْرَ الجميلة أو من دونها ، ويأكلُ الجَمَلُ من الصُّبَّارِ ما هو على أطراف الحقول ما دامت ثمارُ هذا الشجرِ النابت بلاماء تَصْلُحُ لحبوان الصحراء ذلك ، وهل بينهما صهارةٌ مصدرها الحرمان والفقر وتشابهُ الطالع ، أى الأمور التى تؤلِّد الحقدَ لدى الإنسان فى الغالب ؟

ويُزهر السُّدْرُ الأزرق فى قنوات النيل ، كما فى الزمن الذى كانت تُزَيَّنُ به المَوَقى ، وَيَنْبُت السُّدْرُ الهندى الأبيض ، الذى تَتَفَتَّحُ أكامُه فوق الورق الأخضر ، فى الأحواض المنعزلة بين الأقباض ، وقد توارى السُّدْرُ المقدس عن مصر .

وتحوَّلَ عالمُ الحيوان أكثرَ من تحوَّلَ عالمُ النبات والإنسان ، وبَدَتْ هذه الأرض الضيقة ، التى لا مكانَ فيها للغاب ولا للصيد ، وديمةً هادئةً كالنهر وقبل

النهر ، وكانت الطيور وأنواع الحيوان تكثر في الناقع في أزمته ما قبل التاريخ ، حين كان مجرى النيل يترشح من البحر في كل صيف ، وكانت تلك الحيوانات تنقش النهر في عهد القراعنة الذين تزيّن القناص وألواح الصيد قبورهم ، وتجعل النهر خطراً كالقسم الجنوبي من بلاد النوبة في الوقت الحاضر ، ولكن الأسد عادة لا يشرب من النيل المصري أبداً ، وصار بقر الماء لا يتقلب هناك أبداً ، وأصبح التماسح لا يتمطى هناك أبداً ، ومن الطرافة أن يجاوز تماسح أسوان ، وما وقع في سنة ١٨٢١ أن أضى آخر بقر ماء في أسوان لحدث من الهلع كما لو كان الأمر قد جرى على ضفاف نهر الرين أونهر التاميس .

ولم يحدث في مكان من الدنيا أن قدس للحيوان كما قدس له في مصر ، ويروى لنا هيرودوتس أن القوم هناك يمدون جميع الحيوانات مقدسة ، وهيرودوتس ، حين يخز (١) ، يذكر أنه لا يبين أسباب ذلك ، وتدل مئات الشواهد التي لا ريب في أصلها الشعبي على مزاج الفلاح القرعوني وحب هذا الفلاح للحيوان ، وإليك ذنباً ، في أحد النقوش البارزة ، يلاعب غزالاً لثبة الداما ، وإليك كمرأ ، في نقش بارز آخر ، يرمز وهو يحرس غزالاً وإوزاً حاملاً صغارها بين ذراعيه ، ويقاوم الضبع إوزة ألت نفسها في فمه ، ويقود الأسد والثعلب بقر ماء مريض ، ويؤلف القرد والحمار والأسد والتماسح فرقة موسيقية ، وتمسك فأرة صغيرة زهرة وتجلس على كرسى وتبذل أمتها وراءها منتظرة هدايا هرمة ، وتبصر أسد سيوراً يمر من غير أن تبدى حراكاً ، ويرتفع طير نحو بقر ماء قاعد على شجرة ، فكل لنا بهذه المناظر

(١) خرو : نظر بمؤخر عينه وتنامى .

## الحيانة

أن تتمثل شعباً جشعاً حقوداً في بلاد لا يحب الحيوان فيه ؟

وكان لكل حيوان حارسه الخاص ، وكان الرجل التقي يحلق رأس ابنه ويبيع شعره ويُسَلِّمُ الثمن إلى الحارس حتى يُطعم حيوانه القدس ، وإذا ماتت هِرَّةٌ خلقت الأُسرة حواجِبَها ، وإذا مات كلبٌ خلقت الأُسرة جميعَ بَدَنِها ، وأقيم لكلٍ منهما قبرٌ ، وكان للإيس مقابرٌ خاصة ، ووُجدت تماسيحُ وأفاعى مُحَنَطةٌ ، ويُلوح أن الحية التي حوَّلها الله إلى عصا أمام موسى كانت من نوع الصِّل<sup>(١)</sup> ، وتظهر مَزِيَّةٌ تالجا لفرعون .

وكانت مصرُ الجافة مُدَّةً لتكونَ جنة الأفاعى والخفافيش والمقارب والبهوض ، وتُعَدُّ الحَرَّائِي فوق الشجر مع ألسنتها الطويلة وهيئتها الهائلة التي تُدَكِّرُنَا بمحترقي السباسة المتطرفين ، ويمتدُّ الصَّبُّ الجَبَّارُ الأَمُمرُ على الأرض تحتها ، ويُخْرِجُ أصواتاً هزلية وبَهْزُ رأسه كابن الطبقة الوسطى الذي يكتم خوفه من أناسٍ يتوعدونه ، وفي زمن الفيضان تُطْرَدُ هذه الجِملان<sup>(٢)</sup> والضَّبَّان من أجحارها ، ويحاول الفلاح الذي تَفْزُو بيته أن يُبَيِّدها على غير جدوى ، وتأثى الكارثة بنته في بعض الأحيان ، وهي ثالثةٌ بلالاً مصرَ ، وذلك أن أُرْجال<sup>(٣)</sup> الجراد تَحْجُبُ السماء وتُهْلِكُ كلَّ شيء وتزِيدُ كثيراً على الرغم من القارِ<sup>(٤)</sup> والبتول الذين يَسْعَى الفلاح بهما أن يَقْضِيَ على قَصَبِها<sup>(٥)</sup> ، وتمنَحُ الحكومة جوائزَ على ذلك . وكان يلينى قد أوصى بتوزيع مثل هذه الجوائز منذ ثمانية عشر قرناً .

وحافظ النيل على أسمائه . ومنها القِيَصَانَة<sup>(٦)</sup> الشريفة التي تُصطاد اليوم بالشَّبَكَة

(١) Cobra — (٢) الجملان : جمع الجمل وهو ضرب من الخنافس — (٣) أُرْجال :

جمع رجل ، وهي الطمة العظيمة من الجراد — (٤) القار : الوقت — (٥) القصب : ييض الجراد .

(٦) القيصانة : سمكة كبيرة روحية الجسم لطلبه الأف .

والتي هي منحدرَةٌ مما كان المييد يُنْقَفُونَ ويَجْفُونَ على زورق اللك ميرا على حين كان هذا اللك يميل إلى الخلف وَيَسْرِبُ وَيَتَمَتَّعُ بالحياة وإن جَلَسَ في قاربه المائي<sup>١</sup> المَصَوَّر على قبره ، وتنفتح هذه القِيَصَانَةُ كالْمُنْطَاد وتُودَعُ على ظهرها مُعْطَاةٌ بالأشواك ونوم على النيل ناشرةٌ ذِعْرًا حولها ، وهي لا تنفتح على هذا الوجه إلا لأنها مُجَهَّزَةٌ بجهازٍ غُضْرُوفِيٍّ كَوَلِيٍّ ومِمْيَمٍ خَفِيٍّ كالطفاة ، وهي لا صوت لها إلا إذا زال انتضاحها ، فيجذب هذا للنظر الناس إلى الشاطئ .

والرَّعَادُ سَمَكٌ غَرِيبٌ آخَرُ ، والرَّعَادُ طولُ الحية وأوضاعها ، وله في قِيفِهِ<sup>(١)</sup> من الخروق المشابهة لِفَتْخَاتِ قِيفِ الحوت ما يُبْقِي به الماء ، وله مَنَاتٌ ذوات القوائم الأربع ، والرَّعَادُ هو السمك الكَهْرَبِيُّ الذي يَرَى العربُ أن الإنسان إذا مَسَّهُ ارتعش وتَشَجَّجَ وأن نَفْسَهُ يَكْفِي لكَهْرَبَةِ السَّبَاحِ .

وإذا كانت مياه النيل منخفضةً وَفَقَّت الجواميسُ عليها كالبَقَرَاتِ السَّيِّعِ السَّحَابِ والبَقَرَاتِ السَّيِّعِ الْعِجَافِ<sup>(٢)</sup> التي رآها فرعونُ في منامه ، ولكن يجب أن يُفَيِّدَ الذِّكْرُ منها خَشْيَةً فِرَارِهَا بين الماء ، وَيَبْدُو السَّلُوقُ في البارز من نقوش القبور وفي القديم من الأفاصيص ، والسَّلُوقُ جميلٌ مع قذارته وتوحُّشه ، والسَّلُوقُ يطارد ابن آوى على حدود الصحراء ، أَجَلٌ ، تَمَثَّثَ المواعِزُ الشُّقْرُ الْخَطَلُ<sup>(٣)</sup> وصِفَارُ الخنازير على طول الضفاف ، غير أن السَّوْرَ هو الحيوانُ المُفَضَّلُ في الوقت الحاضر كما في الماضي ، وأولُ تَأْنِيْسٍ للسَّوْرِ حَدَّثَ هُنَا ، والسَّوْرُ هنا تَرَى مقبرةً قريية من المسجد كما كان له بالقرب من المعبد في مِصْرَ ، ويشابه المصريُّ الفرنسيُّ يَسْتَوْرَهُ

(١) الفصف : العظم الذي فوق الدماغ — (٢) العجاف : المهازيل البائعات في هزائن التهاية ، مفردا عجفاء — (٣) الخطل : جمع الأنخل ، وهو الطويل الأذنين المسترخيهما .

ومحافظته ، ولكن واحة القرنى أوسع مدى

وترى حيواناً قصيراً أجوجاً<sup>(١)</sup> يَكْرَدُح<sup>(٢)</sup> على السد المستوى الطويل بما هو  
أسلس وأظرف من حَبَب<sup>(٣)</sup> الخليل وأسرع من ذَمِيل<sup>(٤)</sup> الجَمَل الذى لا يُحِبُّ السير  
على الطُرُق المُمَبَّدَة ، والحمارُ هو الحيوانُ السَّرِجِيُّ الإفريقى الأصل ، وأسبى  
مصدر خليل والجمال ، وقد تأخر وصولهما إلى إفريقية ، وقد عدا الحمارُ من جنوب  
هذه القارة إلى الشمال فعدا مَطِيَّة المصريين الحقيقى ، ومن لم يَرَكَب الحمار المصرى  
لا يَعْرِف ما هو الحمار ، وحمارُ الشمال حُرُونٌ بليدٌ كسولٌ يَعُدُّ اسمه وحده سُبَّة ،  
وحمارُ مصر نارىٌّ نشيطٌ جميل ، والحق أن الحمار فى إسبانية واليونان يُحِبُّ ،  
والحق أنك إذا عدوت حيرة الحجاز لم تَحِذْ حماراً يشابه حمار مصر ، وسببُ هذا  
ما يتفق له هنا من بُعْدٍ فى صِغَرِهِ ومن عِلْفٍ يَجْمَع<sup>(٥)</sup> وحسنِ معاملة ، وترجع  
ملاحظته إلى ظَرْف صاحبه ، وهو إذا كَبُر لم يُعَيَّر من البغل بغير أذنيه ضخامة ،  
وهو أغلَى ثَمناً من حِصان متوسط ، وهو يظلُّ تحت الشمس ناظراً بمؤخر عينيه نظراً  
خفيفاً ، وهو يظهر قوياً رشيقياً مرناً أَمْلَسَ نَحْت شَعْرِهِ الرَّمَادى فَحَطَرَتْ لَهُ يَدٌ  
ماهرة رسوماً رائقة ، وهو يبدو زاهياً بَسْرَجِهِ الجميل مستَعِداً ليمتاز من سواه ، وهو  
يَحْمِلُ على ظهره ضرباً من العاقلة ، وهو يُسْرِع فى القَيْظ على طول السَّدَم عَرَقٍ  
أَقْلٍ من عَرَقِ رَاكِبِهِ .

وحمارُ الفلاح أرخصُ ثَمناً من غير أن يكون أقلَّ صلاحاً بدرجات ، وحمارُ الفلاح  
مُحِدٌّ فَطِينٌ قَلِيلُ الْعِيَاد ، والحمارُ خَيْرُ الْأُمَات ، وقد رُنِيت الحمارُ وهى تُنْقِي

(١) الأجوج : الخلوب — (٢) كَرَدَح : عدا عدو القصير كأنه يتحرج — (٣) خب  
الفرس خبياً : راوح بين يديه ورجليه ، أى قام على إحداها مرة وعلى الأخرى مرة — (٤) الذميل :  
السير البين البعير — (٥) يجمع : نافع البدن .



مارلون الدم لا يكثر نضارة الدم

نفسها في إصطبلٍ محترقٍ إثمًا ذاكًا لولمها ، والحارُّ يهتدى إلى طريقه الذى سلكه  
مرتين أو ثلاث مرات ، وهو يأبى أن يتقدم ، أو هو يَسْبُو<sup>(١)</sup> ، إذا ملاح له أن  
راكبه ضَلَّ سبيله ، وما هو القوت الذى يطلبه ؟ لا شئ فى النهار ، ويكتفى فى الليل  
باليرسم وبكل ما يرفضه الحصان والبقر ، وبالحسك<sup>(٢)</sup> والشوك أيضًا ، ويعديل  
الجل من هذه الناحية تقريبًا ، ولله الصاقى هو الذى يؤدّه دَوْمًا .  
ومن ثمَّ يرى كيف يعيش نحوَ خمسين سنةً ، أى إلى أن يضطجع ليوت .

## ٧

يَنْتَفِخُ شِرَائِخُ أَيْضُ انتفاخًا خفيفًا على سارية تنحى أمام خُضْرَةِ الواحة ،  
وينفصل فى الأفق خطُّ جبال الصحراء غير المتظم أصفر على أزرق ، ولا يَجْدُ  
لهذه الألوان الثلاثة فى مكان من الثمق والصفاء أعظم مما هو هنا حيث عراها مدينةٌ  
للتور الباهر الخالى من أى غيم ولرمل البرى من كل عيب وللعقول الرطبة على  
الدوام والتكسوة بالنبات ، والأحرُّ وحده هو المفقود هنا ، وذلك منذ أن ترك  
العلم التركى مكانه للعلم المصرى الذى اختير له لون الأرض الأخضر فعاد لون الدم  
لا يكثر نضارة انسجام الألوان المصرية الأربعة ولا رَوْعَتِها ، وللابيض  
نفسه تأثير اللون بألوف الأشربة على التهر والبيوت على الضفاف وبمبايته الدائمة  
للألوان الثلاثة الأساسية ، وفى المساء يَحْسِرُ الأبيض منزلته ، وفى أسوان يصيرُ  
التهرُ أزرق نيلجياً ، ويصيرُ لون التخييل والسنتط أخضر رمادياً ، ويصير لون

(١) شيا : وقف على رجليه — (٢) المسك : نبات شائك .

## القعية

الجلال القريبة أَسْمَرُ بَرْتَالِيَا مَعَ ظِلَالٍ زُرْقِيٍّ ، وَيَصِيرُ لَوْنُ الصَّحْرَاءِ وَرْدِيًّا ،  
وَيَصِيرُ لَوْنُ الْجِبَالِ الْبَعِيدَةِ بِنَفْسِيًّا ، وَيَلْبَأُ جَمِيعُ الزَّوَارِقِ إِلَى الْخُلْجَانِ الصَّغِيرَةِ ،  
وَيَبْدُو النِّيلُ فِي اللَّيْلِ بِلَا أَنْوَارٍ ، وَإِذَا مَا غَابَتِ الشَّمْسُ أَبْصَرْتَ سِتَارًا مِنْ  
السَّحَابِ يَنَامُ مَارًّا كَالسَّهْمِ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ ، وَيُظْهِرُ جِزَاءَ السَّمَاءِ الشَّمَالِ  
فِي الْأَفْقِ بِنَفْسِيًّا ، وَيَنْعَشُهُ بَعْضُ السُّحُبِ الْوَرْدِيَّةِ ذَاتَ الْحَفْظَةِ ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ  
إِلَى أَخْضَرَ جَلِيلٍ حَتَّى يَتَجَمَّعَ عِنْدَ السَّمَاءِ آخِرُ نَوْرِ النَّهَارِ وَرْدِيًّا زَهِيًّا مَارًّا بِسُرْعَةٍ ،  
وَيَدْخُلُ الْقَمَرُ الشَّاحِبَ مِنْطَقَةَ الْعَالَمِ الذَّهَبِيِّ كَرَسُولٍ يُنْذِرُ بِالرَّحِيلِ ، وَتَلُوحُ  
جِبَالُ الصَّحْرَاءِ شَبَابًا وَيَعُودُ النِّيلُ رَمَادِيًّا مُفَكَّرًا فِي مَشِيهِ .

وَفِي صَبَاحِ الْفَدَى ، وَعَلَى نَوْرِ يَجِيءُ مِنَ الْجِهَةِ الْآخَرَى ، يَنْتَفِخُ الشَّرَاعُ الْأَيْضُ  
مِنْ جَدِيدٍ عَلَى طُولِ السَّازِيَةِ الْمُنْحِنَةِ الْبَادِيَةِ أَطْوَلَ مِنْ أَيْةِ شَجَرَةٍ بِمَصْرِ وَالْمُصْنُوعَةِ  
مِنْ سَاقِي شَجَرَتَيْنِ ، أَوْ أَكْثَرَ ، مُوصُولَةٍ إِحْدَاهُمَا بِالْآخَرَى ، وَالْمُسْتَدَقَّةُ الطَّرْفِ  
كَالسُّوْطِ ، وَيُمَثِّلُ هَذَا الشَّرَاعُ أَحَدَ الْخَطِّينِ الَّذِينَ يَتَجَلَّى بِهِمَا جَمَالُ الذَّهَبِيَّةِ ،  
وَأَمَّا الْآخَرُ فَهُوَ خَطُّ صَدْرِ الْمَرْكَبِ الْمُسْتَدِيرِ الَّذِي يَنْتَصِبُ عَلَيْهِ رَجُلٌ مُسْتَدَقُّ  
ذِرَاعُهُ عَلَى الشُّكَّانِ<sup>(١)</sup> مَتَمَوِّجٌ قَبِيضُهُ بِالرَّيْحِ ، وَهَكَذَا يَجْرِي الْمَرْكَبُ الشَّرَاعِيُّ  
حَامِلًا حِجَارَةً كَاسِيَةً ثَقِيلَةً وَأَكْيَاسَ سَكْرِ وَبُرٍّ أَوْ أَقْصَاصَ دَجَاجٍ ، وَعَلَى ظَهْرِ  
الْمَرْكَبِ تَجَلِّسُ أُسْرَةُ الْقُرْفُصَاءِ وَتَأْكُلُ وَتُدَخِّنُ ، وَعَلَى ظَهْرِ الْمَرْكَبِ تُنْقَرُ هَذِهِ  
الطُّيُورُ جَبًّا فِي أَثْنَاءِ الرَّحْلَةِ ، وَيَنْتَدِي الْإِنْسَانُ وَالْحَيَوَانُ بِمَا يُنْتِجُ النِّيلُ ، وَالْحَارُ  
الْأَغْبَرُ وَحَدَهُ هُوَ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْكُلَ مِنَ التَّلَفِ الَّذِي يَحْمِلُهُ ، وَلَكِنَّهُ  
يُسَمُّهُ وَيُكَدِّفُ<sup>(٢)</sup> .

(١) الشكان : دفة الخينة — (٢) أكدف : كفت الغاية : سمع لحوانها صوت .

### « النهر الذى يجرى على العكس »

وكانَ بَلَدٌ هذا الفلاح في القرون القديمة مثلُ الوضع الحاضر عند ما كانَ يَنْزِلُ مع النهر ، وكانَ شِرَاعُهُ ، وهو على مَقَدِّمِ المركب ، يَجْتَنِبُ الكُثْبَانَ كما هي الحالُ الراهنة ، حتى إن الزوارقَ الخفيفةَ التى تجرى في النيل هنا وهناك كانت موجودةً في ذلك الحين مع سُرْعَةٍ عَظِيمَةٍ لَأَمَّا مصنوعةٌ من البرديّ ، ولو حَدَثَ في ذلك الزمن ، مع ذلك ، أن جاءَ فرعونَ ساحرٌ بزورقٍ بخاريٍّ لَقَتْلَهُ على ما يحتمل ، ولا عَجَبَ ، فقد حارَ كلُّ الحَيَرةِ من الفكرة القائلة بإمكان جَرِيِّ الأنهار إلى جهةٍ غير الشمال ، وما وَقَعَ أن أُوغَلَ تُوْتْمُوزِيسُ الأولُ في آسية ، فذُعِرَ من الانحياز نحو منبع نهر الفرات في الشمال فدعاَ الخليجَ الفارسيَّ لَنَلِكْ بـ « بحر النهر الذى يَجْرِي على العكس » .

وفي مصرَ بأَسْرَها نَدَلُ عَشْرَاتُ السَّوَارِي في كلِّ مَرَسَى على مكان أبي البلد ، على مكان منبع الحياة : النيل ، وَمَنْ يسافر نَهْرًا بين ذلك الوادى الأخضر ويرى الصحراءَ الْمُتَوَعَّدَةَ من جميع الجهات يَمُدُّ نَفْسَهُ سَمِيدًا بين الجِياع ، أَجَلٌ ، هنالك أجوافٌ مَحْفُورَةٌ في التلالِ القريية مشتملةٌ على قبور القراعنة ، غير أن ملايينَ الفلاحين صاروا في الصحراءَ أعفَارًا ، وذلك لأن الأحياء ما كانوا لِيَفْتَدُوا على ضفاف النهر لو لم يَذْهَبُوا الأَمْوَاتَ إلى الرمال .

ويَصْدِمُ الزورقُ الكُفْيَانِ في الغالب ، وذلك لعدم وجود مَصَوِّرٍ لَصَحاحِ سَحَبٍ تنفيرٍ في كلِّ فيضان ، واليوم ، أيضًا ، لا يكون النيلُ صالحًا لِلإِلاَحَةِ ما لم يُنْظَمْ مجراه بنفسه ، وهو يَحْفَرُ مجراهَ شَمْنِ الحَدِّ الذى يَحْمِلُهُ عليه مُعَدِّلُ فيضانه المُتَحَوِّل ، ويتوقف اتساعُ جُزُرِهِ على شدة الفيضان وعلى انطلاف جُزَيْرَاتِ النِزْيَنِ التى يَحْمِلُهَا في كلِّ مكان .

### جزيرة ملائحة للأحلام

وفي أسوان يغادر إلى الأبد ذلك الترانيت الذى أعطى القراعة مِسلاتهم والذى أعطى الإنكليز حجارة سدِّهم المنحوتة (لصعوبة جلبه من شواطئ البحر الأحمر) ، وما انفك الماء وصخرُ الشلال الأول يكونان خطًّا دفاعيًّا تجاه الجنوب ، وبعد الجُرمى بين الصخور من وادى حلقا ، وبعد مأساة النخيل الفارقة ، وفيما يفرُّ الناسُ نحو المُرْتَمَعات والمابد للغمورة ومع الجرى الصحائى المباشر لاختلاط الدوافع والمسايق المائلة ألتاشة عن كوى خزان أسوان يَتَفَتَّحُ وادى النيل عميقاً ضيقاً ، ولكن مع خُضرة وبيوتٍ بيضٍ كثيرة يسكنها برابة ، وتعدُّ أسوان ، الحصنُ والشوقُ معاً ، حدَّ مصر الحقيقى منذ عهد القراعة ، وتتحطَّم العقائدُ والحضارةُ على ذلك الشلال النبع الذى لم يدرِ الفاتحون من الشمال والجنوب حواله إلا نادراً . وإليك جزيرةً صغيرةً ملائحةً للأحلام ، حيث تزهرُ حديقةٌ مفقودةٌ تحت ظلِّ دَوْحِ الأثل والنخل مع أن على هذا التراب الخصب أن يُنبِتَ البرَّ والخُضَرَ ، وهذا من عملِ قاندي ، لا من عملِ شاعر ، وهذا من صنْعِ اللورد كِتشنر الذى تَمَّى ، بعد طوافه فى الصحراء وانتصاراته ، أن يسير مع ذوقه الروائى ، والذى قَطَعَ لُفْمُ ألمانيٍّ نشيده الختامى ، وكان أسلافه فى عهد القراعة قد مرَّوا بالقرب من هنالك ، مرَّوا من بلاق حين غزَّوهم بلاد النوبة ، وكانت الجزيرة تُسمَّى آنئذٍ بـ أوييو ، أى جزيرة الفيلة ، وذلك لما كان من يبيع النوبيين عاجاً فيها ، أو لما كان من نزول ذلك الحيوان العظيم إليها ذات مرة على ما يحتمل ، وكانت مياه النيل من الانخفاض فى تلك الأيام ما استطاع معه القليل أن يجاوزها ، ولا رَيْبُ فى أن الإله خنوم أعانه على ذلك ، والإله خنوم هو الذى كان يَسْكُنُ بلاق فصنَعَ الإنسان بدولابٍ من فخار .

وفى ذلك المكان ، حيث يَنْسَج وادى النيل من جديد ، يَدُنُوا ببناء الصحراء من  
النهر للمرة الأخيرة ، وهم كانوا يأتون إلى هنالك حاملين اسم البليبي ، وهم ، ككثير  
من الشعوب القائمة على الحدود ، كانوا ، دوماً ، جزءاً من الحزب الأقوى فيدافعون  
عن آلهة طيبة تجاه آلهة رومة ويدافعون عن إيزيس تجاه يسوع ويبعثون عن يهود  
الغنى الذى كان يعبده هنا مستعمرون من اليهود ، ومن المحتمل أن حادتهم  
جوفينال<sup>(١)</sup> ، وذلك لأن أول النصارى<sup>(٢)</sup> كان يُنمِد من يقولون الحقيقة .

وهم يخرجون من خيامهم مساء كما فى زمن هيرودوتس ، وهم يدعون بالبشاريين  
فى الوقت الحاضر ، ولكن نفورهم من الفلاح لا يزال ثابتاً لا يتبدل ، وما كان  
البدويون والفلاحون ليتفاهوا أبداً ، وما كان تماس القريقتين ليبدو أجدى من  
تماس رمزيهما ، الرمل واللواء ، أى الصحراء والنيل ، ويعيش الفلاح فى أكثر أقاليم  
الدنيا تعادلاً ، وتسيطر درجة الحرارة فى الصحراء إلى السحر ليلاً ، ويكون البدوى  
كالملاك المحترف عارياً أو مذهباً بعبادة .

وكيف يدرك هؤلاء الرُّحَل من الأزل ، والذين تقوّدوا الحياة فى التساوف  
الواسعة مع بُعد بعضهم من بعض ، وجود زمر من الآدميين لا يفادرون حقولهم  
الصغيرة أبداً ؟ وهؤلاء الرُّحَل دأعو الحركة كالتجوم التى يؤمنون بها ، وهم يجوبون  
الصحراء ، وهم ذوو احتياجات محدودة ، وهم بلدلة فاعنون بلخ<sup>(٣)</sup> صامتون ، وذلك  
فما عدا قتل بعض الأعياد لسكوتهم عن خيلاء ، وماذا يتعلمون من الفلاح ذى  
الجلباب الطويل الذى يزرى برعهم ؟ وماذا يتعلمون من الفلاح الذى يقضى

(١) جوفينال : شاعر لاتينى ( ٤٢ - ١٢٥ ) — (٢) النصارى : جمع نيرى ، وهو اسم  
للإمبراطور الرومانى الذى اشتهر بظلاله وجبروته ، وقد دام عهده من سنة ٤٤ إلى سنة ٦٨ .  
(٣) البلخ : جمع الأبلخ ، وهو المتكبر .

نهاره في سقي قطعة الأرض المُنعمَة بالعيش والذي يُحرم بذلك أجلبَ نِعَمَ الله :  
 أى الحرية والكل ؟ ويزدري جَوَابُ الأفاق النيل ، دَوْمًا ، ابن الطبقة  
 الوسطى المرتبط في بيته ولا يَحْسُدُهُ ولو كان غنيًا ، وإنما يَنْهَبُهُ ، وفي أسوان ،  
 عند ما يبيع البدويُّ جملَه ويشتري منه خُضْرًا وَيَبِضًا ، يكون كلٌّ من الرجلين  
 غريبًا عن الآخر مع أنهما يشكلمان لفةً واحدةً ويتفاهمان أحسنَ من تمام اثنين من  
 الأوربيين ، وقَصِيلُ بينهما روحُ النيل ، وتُعارِضُ ضيفاه المَحْصَرَّةُ والتزاعُ في  
 سبيل الفرزِ بمقاتلة الضواري في الصحراء والغاب ، ويُمدُّ البدويُّ أسعدَ من الفلاح  
 على قَفَرِهِ ومخاطره اليومية وزُهْدِهِ ، وهما إذا ما تقابلا على ذلك الوجه وبدؤا بالسين  
 وساوما كَسَبًا لبضعة دوانقَ وكانا أكثرَ احتياجًا من سوائهما ظهرَ أحدهما سيدًا  
 وظَهَرَ الآخرُ عبدًا ، وهذه هي سُنَنُ الحرية والارتباط في الأرض .

وفيم يفكر البدويُّ النخورُ حينًا يَتَعَتَّرُ مَنْسِمُ جملَه بقطعة صخرٍ طويلة غير  
 مُشَدَّبة في المجامر المجاورة لأسوان ولم يَسْلُطْ مجاوزتها ، أى عند ما يَصُدِّمُ قَدْرَهُ (١)  
 جُلُودِهِ صفراء ذات بُقَعٍ حُمْرٍ كأنها أثَرُ فَنٍّ ، وقد ظلَّ هذا الحجر في المكان الذي  
 استخرجه منه مئات العبيد منذ أربعة آلاف سنة ، ولا يزال الآثار التي تَرَكَها  
 نَحَاوَهُ بالمطارق باديةً ولا يزال الحلُّ الذي كانوا يَقْلَعُونَ فيه الصَوَّانَ بالسَّيْنِ (٢)  
 المَبْلَلُ ظاهرًا ، ولا بدُّ من أن يكون ذلك مُعَدًّا ليكونَ مِسلَةً ، وهذه الكتلة العاطلة  
 من الكتابة ، والتي هُبَّتْ لتكون أداةً لمجد لفرعون ، قد ظَلَّتْ حيث سَقَطَتْ من  
 غير أن تَقْلُ آخرَ أمرٍ تَجَمُّلُهُ ، وتَمَثَّلُ شَيْه مِسلَةٍ أسوان ذلك المصير الذي كان  
 يَصِيبُ جميعَ الفراعنة لولم يأتِ فرنسَى عبقريُّ بعد قرونٍ فيفكُّ كتابَتَهُمْ .

(١) الفقرة : العظمة — (٢) السِّين : حديدة أو خشة تستعمل لقلب الحطب وغيره والكلمة  
 من الخيل .

جاء في القرآن : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » ، ولكن الله عارض الماء بالتلال والصحراء لكي تمارس العناصر ، كالناس ، بعض قواها ضدّ بعض ، ولذا يُصَبِّقُ للمرة الأخيرة مجرى نهره المُفَضَّلَ وَيُخَفِّضُهُ لِأَخِرِ تَجْرِيَةٍ ، والنيلُ ، بين أسوان وأدفو ، وعلى مئة كيلومتر مستقيم ، يجاوز سدّاً من حجر رمليّ كان يُمَسِّكُ ماءَ بحيرة كبيرة على ما يحتل ، والنيلُ نفسه أقلُّ ضنكاً وضيقاً من واديه ، وتزدحم تلال الصحراويّين على ضفافه ، وهي قد بلغت من الاقتراب من الضفة الشرقية ما وَجَبَ معه خَرَقُ ثَقِيٍّ لمرور الخطّ الحديدى ، وهذا الثَقْبُ قصيرٌ جداً ، وهذا الثَقْبُ وحيدٌ على جميع الخطّ ، ولا ريب في جملة المهندسين السويصريّ الذين أنشأه يرى أنه نُقِلَ إلى لِيلِيُوت<sup>(١)</sup> بقوة السحر .

والنيلُ بعد أسوان ، وفي أربعين كيلومتراً ، يَجْرِي على ذلك الوجه ، والنيلُ تنتظره مغامرةٌ جديدةٌ هناك ، والنيلُ قد قَهَرَ وَعُوَّقَ سَيْرُهُ ، والنيلُ قد ضُفِطَ في قصائب<sup>(٢)</sup> تنظيماً للرّى ، لا تَيْلَاقُوةً أو كهرباء ، وَيُخَيَّلُ إلى النيل عند خروجه من الكُوَيْي أَنَّهُ يَسْتَرِدُّ حَرِيَّتَهُ ، وَلَنْ يَقْبَلَ سُدّاً لَطْوِيلَ زَمَنٍ ، يَدُ أَنْ أَرْبَعَةَ أَنْايِبَ عَظِيمَةٍ وَضِعَتْ في مجراه فَتَنَزَّعَ مِنْهُ بَعْضُ قُوَّتِهِ ، وبالقرب من هناك تَصْعَدُ مِدْخَنَةٌ كَبِيرَةٌ سَوْدَاءُ في السماء الزرقاء ، وتُصْمِرُ بِجَانِبِهَا قَاعَةٌ دَكْنَاءُ ،

(١) ليليوت : بعد خيال لا يزيد طول الرجل فيه على ست أسامح — (٢) القصائب : جمع القصبة وهي الأنبوبة .

### كوم أمبو

وَتُبْصِرُ بِجَانِبِ الْقَاعَةِ مَعْبِدًا سَاطِعًا ، وَتُبْصِرُ نَخِيلًا بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ ، وَتُبْصِرُ سَهْلًا أَخْضَرَ خَلْفَ النَخِيلِ عَلَى مَدَى الْبَصَرِ .

ولا ريب في أن النهر القديم يَعْرِفُ أن جميع هذا يَرْجِعُ إلى تاريخ حديث ، وكان سهلُ كوم أمبو الواسعُ أَصْفَرَ قبل ابتغائه ماءه ، وهو مَدِينٌ بِاتْسَاعِهِ الْمَفْرُطَحِ<sup>(١)</sup> لِهَوَادِيزِ النَّافِذِينَ إِلَيْهِ مِنْ جِبَالِ الْعَرَبِ وَالَّذِينَ يَأْتِيَانِ بِالصَّحْرَاءِ الشَّرْقِيَّةِ إِلَى النَّهْرِ ، وَمَا لَا يَرَاءُ فِيهِ أَنْ كَانَ مَهْنَدِسُو الْفِرَاعَةِ يُنْعِمُونَ النَّظَرَ فِيهِ مَعَ سُخْطِهِ عَنْ عَتَجٍ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَسْتَوَى الْفِيضَاتِ خَمْسَةَ عَشَرَ مِثْرًا ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَبْلُغُ مِنَ الارتفاع ما لم يستطيعوا معه غيرَ سَقْيِ شَاطِئِهِ النَّيْلِ الْمُبَاشِرِ ، وَكَانَتْ مَدِينَةُ أَمْبُوسَ الصَّغِيرَةِ قَائِمَةً هُنَاكَ قَبْلَى مِنْهَا بِضَمَّةٍ أَعْمَدُهُ بِجِوَارِ الْمَذَخَةِ .

وَلَمْ تَنْمِ تِلْكَ الْعَجْزَةُ بِفَضْلِ خَزَّانِ أَسْوَانِ ، وَلَكِنْ هَذَا الْخَزَّانُ دَلٌّ مَصْرًا مَاذَا يُمْكِنُ النَّيْلُ أَنْ يَنْفَعُ بِهِ مِصْرَ ، وَكَانَ الْبَاشَوَاتُ يَهْزُونُ أَكْتَافَهُمْ مِنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً حِينَمَا اقْتَرَحَ الْفَرَنْسِيُّونَ عَلَيْهِمْ إِنْشَاءَ سَدٍّ لِسَقْيِ ذَلِكَ السَّهْلِ الْوَاسِعِ ، وَكَانَتْ الصَّبَّاعُ وَبَنَاتُ آوَى تَسْرُكُ هُنَاكَ فِي سَنَةِ ١٩٠٣ .

وَتِلْكَ الْمِنْطَقَةُ زَاهِرَةٌ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، وَهِيَ أَوْسَعُ مِنْ بَقِيَّةِ مِصْرَ الْعَالِيَا ، وَهِيَ تَكْتَفِئُ أَرْبَعِينَ قَرْيَةً ، وَيَطُوفُ أَرْبَعُونَ أَلْفَ شَخْصٍ بَيْنَ شَجَرِ الْمَوْزِ وَقَصَبِ السَّكْرِ ، وَبَيْنَ الْبُرِّ وَالْخَضِرِ ، وَفِي وَسْطِ هَذِهِ الصَّحْرَاءِ الْقَدِيمَةِ تَقُومُ مَدِينَةٌ صَغِيرَةٌ حَيْثُ يَسْمَى الْخَلْدَمُ ، وَحَيْثُ يُتَلَفَّنُ<sup>(٢)</sup> الْكَتَبَةُ ، وَحَيْثُ يَزْهَوُ مَعْلَمُ الْمَدْرَسَةِ بَيْنَ الطَّلَبَةِ وَمَدِيرِ الْبَنْكِ بَيْنَ رُبْنِهِ ، وَفِي الْمَسْكَانِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمُرُ الذَّنَابَ فِيهِ تُبْصِرُ الْمُؤَنَذَ وَاقِفًا عَلَى شُرْفَتِهِ الْمُسْتَدِيرَةِ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ خَمْسَ مَرَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَالْآنَ

(١) المِطْرَحُ : الرِّضَى — (٢) Téphoner



يَنْفُزُهُ ثَلَاثُونَ أَلْفَ فَنَانٍ كَانَ مِنَ النَّادِرِ أَنْ تَسِيرَ مِنْهَا الْبِرَّانُ<sup>(١)</sup> قَبْدُو نَاضِرَةٌ فِي الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ صَفْرَاءَ جَدْبَاءَ مِنْذُ وَجُودِ جِبَالِ الْعَرَبِ الْجَاوِرَةِ ، فَبِذَلِكَ يَكُونُ حُلْمٌ قَاوَسَتْ قَدْ تَحَقَّقَ .

وَيُبَصِّرُ رَجُلَيْنِ حَافِيَيْنِ رَزِينَيْنِ صَامِتَيْنِ أَسْمَرَيْنِ لَا بَسِينَ جِلْبَابَيْنِ يَجُوبَانِ الْقَاعَةَ ذَاتَ الْآلَاتِ الَّتِي لَا تَقْطَعُ أَسَاطِينُهَا عَنِ الصُّعُودِ وَالنُّزُولِ ، وَدَوَالِيهَا عَنِ السُّورَانِ ، وَجِبَالِهَا الْمَصْنُوعَةُ مِنَ الْقَنْبِ عَنِ الصَّرِيرِ ، وَاللَّائِيْمَاتِ<sup>(٢)</sup> عَنِ الْارْتِجَافِ فِي مَحَابِسِهَا الزَّجَاجِيَّةِ ، وَيُقَيِّقُ بِذَهْنِ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَذَلِكَ إِذْ يَلْمَعُ يُوحِي بِاحْتِرَامِ قَدَمَيْهِ ، وَذَلِكَ يَنْفَعُ فِي جَلْبِ مَاءِ النَّيْلِ إِلَى الْأُنْبُوبِ الْقَدِيمِ النَّاضِحِ<sup>(٣)</sup> فَوْقَ الْقَاعَةِ ، وَقَدْ أَدَّى هَذَا الْمَاءُ إِلَى جَبَلِ السَّهْلِ الصَّحْرَاوِيِّ خَصِيْبًا ، وَقَدْ جَلَبَ إِلَى هَذَا السَّهْلِ حَتَّى النَّيْرَيْنِ ، وَيَكُونُ النَّيْلِ وَقْتُ الْقِيْضَانِ عَلَى مَسْتَوَى تِسْعَةِ أَمْتَارٍ ، وَتَصِيرُ الْمِصْطَفَاتُ غَيْرَ مَفِيدَةٍ ، وَيُسْتَفِرُّ ضَغْطُ الْمَاءِ عَنِ صُودِهِ ، وَهَذَا هُوَ فِضْلُ الْآلَاتِ الَّتِي جُلِبَتْ مِنْ جِبَالِ سُوَيْسَةَ مِنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً ، وَصَدَّتْ إِحْدَى قِطْعِ التَّضْيِيرِ بِسُرْعَةٍ فِي تِلْكَ الرُّطُوبَةِ الْمَصْنُوعَةِ فَكَانَ يُمْكِنُ اخْتِذَاهَا حِطْمَةً<sup>(٤)</sup> مِثْلَهُ ، وَعَادَ اسْمُ بَيْتِ شَوْلَزَرِ التِّجَارِيِّ لَا يَكُونُ هُنَاكَ أَكْثَرَ مِنْ حَالِ الْكِتَابَاتِ الْهَبْرُوعِلْفِيَّةِ الَّتِي لَا تَكَادُ تُحْلَلُ ، وَلَقَدْ تَخَصَّسَ سَيَرًا<sup>(٥)</sup> مُوقِّعًا ، وَتَأَنَّى قِدَّةُ اللَّوْمِيَا الْعَصْرِيَّةُ هَذِهِ مِنْ شَافِهَاوَزِنِ .

وَلَكِنْ سَيَرُ الْآلَةِ الْأَسْوَدَةِ هُوَ مِنْ وَبَرِ الْجَلِ ، وَلَا اِحْتِيَاجَ إِلَى النِّعَمِ لِصَنْعِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ طَنْ مُسَكَّرٍ بِكُومِ أَسْبُوفٍ كُلِّ سَنَةٍ ، وَذَلِكَ لِاسْتِمَالِ وَرَقِ قَصَبِ السَّكْرِ

(١) البران : جميع البير — (٢) اللاتومتر : مقياس ضغط السوائل والغازات والأبخرة .

(٣) نضج : رشح — (٤) الحطمة : ما تكسر من الشيء اليس — (٥) البير : لغة من الجبل مسطحة .

## قصب السكر

وَقُوداً ، وَيَفْصِلُ الصَّيَّانَ لِهَذَا الْغَرَضِ مَا هُوَ ذَائِلٌ جافٌّ مِنْ تِلْكَ الْأُورَاقِ ،  
وَمَا كَانَ أَخْصَرَ مِنْهَا فَيَصْلُحُ طَعَاماً لِلْجَوَامِيسِ ، وَيُحْتَمَلُ مَا هُوَ أَصْفَرُ أَوْ ضَارِبٌ إِلَى  
خُمْرةٍ مِنْ قَصَبِ السَّكَّرِ عَلَى عَرَبَاتٍ أَوْ سِيَّارَاتٍ أَوْ حَيَوَانَاتٍ .

وَالْجَمَالُ هِيَ الَّتِي تَرَاهَا مُرْتَبِجَةً ، وَهِيَ مُثْقَلَةٌ مِنَ الْحُلِّ مَا لَا تَتَكَادُ أَعْنَاقُهَا  
وَقَوَائِمُهَا تُرَى مَعَهُ ، وَتُكَدَّسُ جِبَالٌ مِنْ قَصَبِ السَّكَّرِ أَمَامَ قَاعَةِ الْقُدُورِ ، وَيُعِيدُ  
الْحُرْمَ بِالْجَارِفِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا ، وَيُعَيِّي أَرْبَعَةُ رِجَالٍ آخَرُونَ هَذِهِ الْقُدُورَ  
الْثَمِيمَةَ الْفَاقِرَةَ أَفْوَاهَهَا كَالْقَيْوُولِ ، وَعَلَى مَا تَرَاهُ مِنْ تَغْذِيَةِ النَّيْلِ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ تَجِدُ  
الْإِنْسَانَ مُسْتَعْبِداً لَهُ ، وَمَاءَ النَّيْلِ يُنْبِتُ قَصَبَ السَّكَّرِ فِي الصَّحْرَاءِ ، وَالْآنَ يُسَخَّنُ  
قَصَبُ السَّكَّرِ هَذَا الْمَاءَ سَهْلًا لِلصَّخَّاتِ عَلَى الْمَتَلِ .

وَتَبَعْدُ الْأَسَاطِينُ مِنَ اللَّذِخَةِ بَضْعَ خُطُوطَاتٍ ، وَتُعَدُّ مَعَابِدُكُمْ أَمْوَالُ الَّتِي نَعُودُ  
إِلَى عَهْدِ الْبَطَالَةِ مَعَاصِرَةً لِمَعَابِدِ بِلَاقٍ ، وَهِيَ تَنْتَصِبُ عَلَى شَاطِئِ النَّيْلِ ، وَلَهَا  
مِنْ رَوْعَةِ الْمَنْظَرِ مَا لَقُودُ سُونْيُومٍ<sup>(١)</sup> ، وَلَهَا مِنَ الْجَمَالِ مَا هُوَ أَعْلَى مِنْ جَمَالِ مَعَابِدِ  
الْكِرْنَكِ الْقَدِيمَةِ الشَّوْشَةِ ، وَقَدْ نَشَأَ عَنِ الْفِيضَانَاتِ الْكَبِيرِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي الْقُرُونِ  
الْأَخِيرَةِ انْتِزَاعُ قَطْعٍ مِنْهَا وَزِيَادَتُهَا رُوءَاءَ ، وَيَنْتَقِلُ نَظَرُنَا ، مَعَ ذَلِكَ ، مِنْ أَعْدَةِ  
الرَّتَاجِ الْعَشْرَةِ الرَّائِمَةِ ، الَّتِي تَعْلُوها تَيْجَانٌ مُزَيَّنَةٌ بِالْأَغْصَانِ ، إِلَى تِلْكَ اللَّذِخَةِ  
الشَّغْنَاءِ كَقَوْلِكَ<sup>(٢)</sup> نَفْسِهِ ، وَلَكِنْ مَعَ إِخْرَاجِهَا مِنَ الْأَرْضِ نَحْلًا وَمَوْزًا .

وَنُبَصِّرُ «دِيُونِيزُوسَ»<sup>(٣)</sup> الْجَدِيدَ فِي الْقَاعَةِ الثَّالِثَةِ ، نُبَصِّرُ الْإِلَهَ اللَّيْلَ الَّذِي  
شَهِدَ هَذَا الْمَبْدَ تَمْجِيداً لِنَفْسِهِ مُوصِياً الْإِلَهَ الْقَمَرَ ذَا الرَّأْسِ الصَّغِيرِ بِأَنْ يَكْتُبَ

(١) سُونْيُوم: رَأْسُ بِلَادِ الْيُونَانِ وَاقِعٌ فِي الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْأَتِيكَا ، وَيَعْرِفُ الْيَوْمَ بِرَأْسِ  
كِرْلُون - (٢) فُولْسَكِن: إِلَهُ النَّارِ وَالْمَعْدِنِ كَمَا جَاءَ فِي أَسَاطِيرِ الرُّومَانِ - (٣) دِيُونِيزُوس: إِلَهُ الْخَمْرِ  
كَأَنَّ جَاءَ فِي أَسَاطِيرِ الْيُونَانِ .

اسمه على سَمَّة<sup>(١)</sup> ، ولا ريب في أنه كان يُنشئ تلك اللدخنة وكان يُزيِّنُها بفتح الحياء لو اخترع مهندسوه المِصَحَّةَ وَوَسَّعُوا رُقْعَةَ مملكته الصالحة للزراعة .

وعاد ذلك المنظر الفاتسي لا يُجَدَّد ، وعاد بعض الجبال لا يَدْنُو من بعض ، ولا يزيد عرض النيل على ثمانين متراً في السلسلة ، وعلى بعد عشرين كيلو متراً من هنالك ، ويلوح أن بحيرة ساكنة تكونت في ذلك المكان في أزمنة ما قبل التاريخ ، وقد قَرَصَت الصخرَ مع القرون مقداراً فقذاراً وفَرَّتْ بدوافع بلغت من الضَّخْم ما اعتَقَدَ به أن تلك النقطة هي منبعُ النهر فأقيمت شعائرُ دينية فيها على أنها كذلك ، وقَفَدُوا الصَّخْرَ صَفْراً ، وَيَنْسَحُ حَجَرُ التوبة الرملُ في الجبال لجير جبال الصحراء التي تُسْتَخْرَجُ حجارةُ المابد منها ، وهذه البقعة هي من القفر والإقْباض ما لا يُمكن معه أن يُزْرَعَ في هذا المِرْتاج<sup>(٢)</sup> ، في هذا المِرْتاج<sup>(٣)</sup> ، سوى سُبُعِ الضَّفَّة الغربية ، وهذا هو آخرُ مَصِيقِ النيل ، ثم تَبْدُو الضَّفَّة الغربية أَعْرَضَ عما هي عليه ، تَبْدُو سهلاً صغيراً يقوم عليه معبدُ أدفو الذي هو أروعُ معابد مصر ، ولو لم يكن هذا المعبدُ من حَجَرِ رملٍ لَأَمَكُنَ أن يُقَابَلَ بِمَعْبَدِ سِيجِسْت<sup>(٤)</sup> ، وما كان لبعض مختاراتِ من سافو<sup>(٥)</sup> وهيرود<sup>(٦)</sup> ، أو أطلالهِ من أساطين طيبة ، غيرُ تأثيرِ ناقص ، ونحن لا نستطيع أن نَتَمَثَّلَ حالها الأصلية بسوى خيالنا ، وَتَبَرُّزُ الباني شِبْهُ الحَرَبَةِ بقباحة الأجسام المَهْطَلَةِ تحت ذلك

(١) الحقة : جريدة النخل — (٢) المِرْتاج : ما يثقل به الباب — (٣) المِرْتاج : ما يستعمل لإغلاق الباب — (٤) يشير المؤلف إلى معبد سبريس التي لا تزال أطلالها قائمة في إحدى مدن صقلية القديمة سيجست ، وقد خربها طاغية سيرا كوزة ، أفا توكل ، قبل الميلاد بثلاثة قرون تقريباً .  
(٥) سافو : من خواهر لدماء اليونان ظهرت بين القرن السابع والقرن السادس قبل الميلاد .  
(٦) هيرود : من شعراء اليونان ظهر في القرن التاسع أو القرن الثامن قبل الميلاد .

الضياء الزهّاج ومن خلال منظر مصر الأزرق والأصفر، وما في الأهرام من وقعر في النفوس فدينٌ لبقائها سالمةً، ويُسّاد معبدُ أدفو بعد طيبة بألف سنةٍ بأيدٍ إغريقية وعلى طرازٍ شبيهٍ بإغريق، ومن غير أن يمتُّ إلى الطراز الكلاسي<sup>(١)</sup> المصرى بصلته، فيظلُّ أجلّ معابد مصر بفضل بقائه سالماً منفرداً، أى بفضل هذين الماملين اللذين اتفقَ بهما ليستثوم<sup>(٢)</sup> ومعابد السيلينونيز<sup>(٣)</sup> مجدُّ خالد، ويتعذّر تجريدُ المباني والآدميين من المنظر والنور اللذين تراهما بهما.

ويتمُّ بناء معبد أدفو في القرن الثاني قبل الميلاد، ويوح لنا أن هذا المعبد محفوظٌ أكثر من جميع المعابد اليونانية خلا معبد تيزوس القائم بأثينة في موضعٍ عاديٍّ، ويسير مهندسو البطلة في اقتباس ما يرى من النهر عن بُعدٍ من الرّيح<sup>(٤)</sup> وفق رَسْمِ المعابد القديمة التي كان يُسمّدُ هوروسُ فيها، ويقال إنه قتل هنا، أو بعد هنا بمسافةٍ قصيرة من مجرى النهر التحتاني<sup>(٥)</sup>، أخاه وقاتل أبيه أوزيريس، ويُعدُّ الجتلُ الذي يجاوز النيل مع حمله حتى المعبد بمصرّاً، وتمدُّ الساقية التي تُخرج لها بجانبه مصريةً أيضاً، وبرّزق هوروسُ بصوته الحادّ فوقهما نافذاً زرقة السماء.

وكان قدماء المصريين يحملون آلهتهم من النور إلى الظلام، وكان المؤمن الذي يمرُّ تحت برجين كبيرين يدخل ساحةً مملوءة ضياء، ثم كان يجاوز رتاجاً مناراً، أيضاً، إلى إملّاس<sup>(٦)</sup> أول قاعة ذات أعمدة، وإلى قاعةٍ قدّس الأقداس أو إلى باب تلك للشكاة<sup>(٧)</sup> التي كان ينتصب فيها تمثالُ الإله المصنوع من الفرانيت

(١) classique — (٢) يستوم : من مدّن لبطالية القديمة وهي تيمد أربعين كيلو متراً من نابل وهي الآن من الأماليل — (٣) البليوتيز : هي شبه جزيرة المورة الحاضرة الواقعة في جنوب بلاد اليونان — (٤) الرّيح : جمع الرّاج ، وهو الباب العظيم — (٥) الإملّاس : اختلاط الظلام . (٦) المشكاة : الكوة غير النافذة .

فرعون الأخير وحده هو المذنب

الأسود ، وكان الإنسان التقي يتعدن الشمس ليصل إلى رَنَنِ الشمس هذا ، وهو في ذلك كالتفنن الذى يَتَمَثَّل صَوْرَ الحياة الناطقة أو الصاخبة يُحَوِّكها إلى أثرٍ فنيٍّ بين صمتٍ مُحَنَّرَقه .

وإن نَصَمَد<sup>(١)</sup> الظلام من الخارج إلى الداخل بفتحتٍ وكَوَاتٍ تَصْفُرُ قِيَمُلُ معها النور مقداراً فقذاراً ، وإن تدانى الأعمدة في قاعات ذات فضاء مؤثِّرٍ مُعَدٍّ لإزعاج من تَعَوَّدَ نوراً ساطعاً ولقَرَضِ الطاعة عليه في الطَّراءِ والطَّرْفَةِ<sup>(٢)</sup> ، مما لا تراه في مكانٍ كما تراه في أدفو حيث تُبْصِرُ كُلَّ شَيْءٍ من الجُدُرِ الخارجية للقاعة ، حتى حجرة القربان العظيم ، كما كان عليه في الماضي ، وحيث تُبْصِرُ مقاومته المنصر الذى يكتنفه ، أى الشمس لبضعة آلاف من السنين .

وفرعون الأخير وحده هو المذنب ، فقد أراد أن يُقْلِدَ أسلافه في خُزُواٍ نَيْتِهِمْ ، وقد أراد أن يجاوز بقر الماء صورةً ، غير أن العرب ، والنصارى على ما يَحمِلُ ، وَجَدُوا ملجأً بين هؤلاء الوثنيين فنَقَرُوا خُرُوقاً عظيمةً في جسمه ليقيموا بدهاليز الإله هُورُوس ذاتِ الطَّراءِ لما كان من جهلهم أمره ، والسقفُ أسودٌ ، وسبب ذلك أن العلم والرواية طَرَدَا حَقْدَةَ البُناةِ من المبد فتركوا فيه أثر ميزانهم ، وما في الجُدُرِ من تجاويف صغيرة يجادل علماء الآثار في أمرها حديثة أيضاً ، وهى صادرة عن عَيْنِ المصدر الذى هو علةُ الخروق المنحوتة في حجارة الجُسُور الجديدة ، وذلك أن الأولاد يَسْتَوْن عليها التَّوَمَ لتُصَنَعَ منه يَرَامِيع<sup>(٣)</sup> .

وإذا يُلْبِغ سَفَف المبد العظيم الذى يَغْمُرُهُ النورُ الباهرُ اللَّهْزُ لاحت الآلهة والأفاعى

(١) Crescendo — (٢) من طرف الليل إذا انظلم — (٣) اليرامع : جمع اليرمع ، وهو المنحرف أو البوامة .

### الصقر بطير

والقراصة في الأسفل من الهزال كاللهيب للزئج الذي يُرشد الزائر فيؤدى إلى تَعَمُّره  
في الدَّرَج ، وتَجَلَّى أهمية هذا الصبء الرمزية بأكثر مما تقدم إذا ما رُئِيَ في الحدِّ  
بين وادى النيل والصحراء .

وينصب الصقر هوروس للصنوع من الفرائت الأزرق في مدخل الباحة  
عظيماً مُتَجَبِّراً شبيهاً بالبشر أكثر مما بالطير جامعاً بين الوقار وحذر الكواسير التي  
لها ما لأبناء الآلهة من سلطان ، ويظهر أنه يستريح أمام معبده واضعاً تاجين على  
رأسه ، وهل يَسْتَعِ صِرْصِرَةً<sup>(١)</sup> الصقر الحى ؟ وهل يَرَى امتداداً ظِلَّهُ وهو يطير  
على طول جُدُر القاعة تاشراً جناحيه الأسودين اللامعين على حين يَبْدُو بَدَنُهُ  
أزرقاً نيراً كمسورته الإلهية ؟ والصقر يَزْعَقُ وَيَعُودُ إلى النيل حيث يبعث  
عن شيء كايُلُوح .

### ٩

ينتصب رِتا جان في الخُصْرَةِ بين النخل ، ويحتل أنهما قديمان ، ويحتل  
صدورهما عن معبد ، أو عن مَمْدُوج معبدٍ ما داما صغيرين ، ويَصْغُرَانِ كَمَا دَتَوْنَا ،  
وَنَقْبَيْنِ في نهاية الأمر أبراج حمام غريبة شبيهة أسطوانية قائمة على بيت فلاح ،  
وترانا في قرية ما بمصر العليا محاطة بخُصْرَةٍ ، وذلك على حدود الصحراء التي  
أُخْصِيَتْ قِيسَةً منها ، والقِيسَةُ هي وطنُ الفلاح ومنزله المَفْضَلُ في القرية .  
وإن ما عليه من سرعة عَطْيٍ هذه البيوتُ البَيْضُ والسُّمُرُ التَبْلِيَّةُ من طين

(١) صرصر الصقر : صوت .

### طريق قرية

النيل نفسه ، وإن ما عليه هذه البيوت من تكتل ، وإن ما يسود ذلك المدى الضيق من ضوءه ، وإن ما يصندر عن الإنسان والحيوان من ضجيج حاد بعيد من صريف الآلة ، وإن ما ينبعث من خفي<sup>(١)</sup> البقر الجلاف المخرق من رائحة عذيبية ، أمور تدل السائح على حياة عضوية حيوانية غريزية ، ويشعر بالقرية المصرية وتسمع وتذاق حتى قبل أن تدخل .

وترى في الطريق الضيقة جمهوراً منذ الفجر ، ويلب الحمار النطاط الذى ينتظر عند باب النحاس ، ويحاول صاحبه أن يبيع النسيج الملقوف فوق ظهره ، ولا يرفض النحاس ذلك لأنه غير مقتصد ، ويحتاج إلى وقت طويل ليقرر ، ومن المحتمل قبل ذلك أن يؤلى وجهه شطر الخلاق الذى صنع له طست الحلاقة والذى يجوب الطريق مُمَوِّراً باحثاً عن الزبون ، وليس عليه أن يصيح ، وذلك لى ليس لديه سوى مشتركين يؤدون إليه أجرة عمله مرة في السنة مع سلة فول أو عدس ، وأبعد حالاً من ذلك هم الأولاد والدجاج الذين يلعبون على جثوة جافة من وحل النيل ، وكذلك الشائب الجالس على الأرض مديراً بجبات سبخته من غير أن يُعرف من بعيد هل يدعوا الله أو عيسى ، وكذلك السائل الذى ينزل من فوق حماره طالباً صدقة والذى ينصرف وهو يهتهم<sup>(٢)</sup> بعد أن يقوم بحساباته .

ويتمش القرية أنواع الحيوان ، ويلوح أن للدجاج من كل جنس صفة الضابط الذى يعتقد أنه لا تميل لأحد عنه ما دامت مصر تضد من متى مليون بيضة في كل سنة ، ويمد الكلب نجساً فلا تحسن معاملته وينشأ خيفاً ويعود إلى الحال التى يكون عليها ابن آوى ، وليس من خطبته أن يقدو خطراً ، وترقبه الهرة

(١) الحى : ما يرميه البقر من بلته — (٢) مهم : تكلم كلاماً خفياً .

### تخرج أصوات حادة

الضاربة إلى سُحرة والمؤنسة المصني بها والمليدة براوية خاتمة مزدرية معاً ،  
والخنازير خاصة بالنصارى ، ولكن من يعلم أن السلم لا يخالف تعاليم النبي الصحية  
بين أربعة جُدُرٍ فلا يستبدل لدى القبطي قطعة خنزير بقطعة ضأن !  
والحيرُ تنهى مسرورة ، وتتنازع النساء ويتشائمن حول البترحيث يصعد  
الدولاب ذو الصريف ماء من السَّمَط الواقع تحت الأرض ، وهن ينسأطن هل  
تكون الجارة عقيمًا ، وذلك لأن عدواً لما حملتها على ابتلاع حب من السَّمِيم عند  
وضعها ولدها الأخير ، وهن يَدْرُن نحو بائع البصل الذي سمعن صُراخه ويسأون  
بصوت عال ، وهن إذا ما خفن أصواتهن كان ذلك عند الكلام عن ثروة الرجل  
للتواضع الذي يدخن بترجيلته جالساً القُرْفَاء أمام باب اللقهي الفتوح ، وما كان  
ليقفَ نظر أحدٍ لو لم يُبصر تحت كُمي عباءته السراء ما على ثوبه الحريري ،  
الجدير بأحد الخلفاء ، من خطوط خضِر وصُفَر ، وتثبت عمامته انخضاره أنه كان  
في مكة فحق له أن يلبسها لهذا السبب على ما يحتمل ، وهو إذا ما وجّه بصره  
المثير إلى النساء قومن براصهن وسنن شعورهن لمدّها أكثر من وجوههن تهيجاً .  
وتخرج أصوات حادة ، قد قلب حمارٌ يحيل ما يعدل حجم بدنه ست  
مرات دلو امرأة تحلب فيه لبنها على قارعة الطريق لا يساور المشتري من خوف  
إضافتها ماء إليه ، ويتجمع الناس وألبهائم ، ويأتي حيوان غريب من الخلف  
ويبقى ظله عليهم ، ولا يُعرف هذا البعير رازحاً تحت حمله من البر ، ويمط هذا  
الجل عُنفه الطويل المزبل الذي هو أهل لمجوز إنكليزية هزيلة مزينة بالجواهر  
جالسة في دار التمثيل ، ويُنصر صُبَّاراً على طرف الطريق ويلوكه هادئاً بين  
الصخب الذي يسود النداء الثاني الصادر عن المؤذن من شُرْفة المسجدة العالية .



وتنهافت الناس نحو الطرف الآخر من الطريق ، وقد وصلَ الطرفُ من المصيرِ  
راكباً حاراً ، ويزدحم النساء حوله ويمسسنَ ثماثه القِضيةَ وقِططَه وجِملانه <sup>(١)</sup>  
وصورَ العذراء وإيزيس التي لديه والخاصة بجميع الأديان ويضعنها في الوَحْل ويثبن  
فوقها ويُقبَلن ثوبه ، ومن يَلُكُ عندها ما تؤدَّى إليه فلنْها تنال من حَبِّ القِصَال <sup>(٢)</sup>  
ما تتخذهُ للشرب ، وهو ترياق <sup>(٣)</sup> ضدَّ مكاييد الحواسدِ اللآئي يَرُدْنَ أَنْ يَحُلْنَ  
دونَ وضعِها أولاداً آخرين .

ومن المحتمل أن كان المنزل الذي نهى المرأة فيه الطعام من بناء بَنَلِها ، وتحيط  
النخلُ بهذا المنزل ، وتَحْفُ به مقاعدُ جميلةٌ ظَلِيلَةٌ من تين ، وذلك لأنه يُمَلِّ  
ويُستراحُ خارجَ البيت ، وعلى هذا البيتُ صُورٌ جلُّ تصويراً ساذجاً مؤثراً ، وعلى  
ذلك البيتُ صُورٌ خطٌّ حديدى <sup>(٤)</sup> ، لا القِطارُ السريعُ الأبيضُ المتدُّ على شاطئِ  
النيل ، وإنما القِطارُ الثالثُ الطريفُ الذي سافر به ربُّ الأسرة من جُدَّة إلى  
مكة ، وقد أدخلت إلى الثمراتين <sup>(٥)</sup> القائمَيْن فوق البيت صفائحُ من خزفٍ  
أزرقٌ يَحِيها الحِلمام ، وفي المنزل يَرَبُّ يَرْبُ لِنَشِيهِ التين ، والخِي تُصَلِّحُ وَقُوداً .

ولاقى غرفةُ المنزل الوحيدةُ الرطبة المُنْتَمَةُ ساكنيها من الشمس ، بل من  
الليل ، وتجاورها قُرْشٌ مصنوعة من حُصِرٍ وجلود وبضعةُ مراجلٍ وأوعية خشبية وجِرَارٍ  
من قَفَّار ، ويَتَلَسَّ دُخَانُ الخِي المحروقِ مَخْرُجاً من خِلالِ سقفٍ خفيف مصنوع  
من تين الذرة ، ويمتدب الخِي الكلابَ والحِرَّةَ والدَّجَاج ، وإذا لم يكن الأولاد  
في المدرسة تَمَرَّغُوا مع الحيوانات في هذا الجَوْ الخائِق .

(١) الجبلان: جمع الجبل، وهو ضرب من الخنافس — (٢) القِصَال : ذكر النخل — (٣) الترياق :  
دواء يدفع السموم — (٤) الحديد : برج صغير الحِلمام ، ويجمع على حِلماميد .

والفلاحة في فتاتها رائحة النظير لما تكون عليه من صحة ونشاطٍ ومَرَحٍ وعَرَضٍ كَيْفٍ واستقامة صدرٍ مع حُسْنِ اخْتِصَابٍ وَمَشْطٍ ، وهي تَقْدُو زَوْجاً في الثالثة عشرة من سِنِّها ، وهي تنزوج قبل بلوغها السَّنَّ القانونية غالباً ، لتَهَارُمَهَا<sup>(١)</sup> أمامَ القاضى ، وهي لا تَكْلِبُ أَنْ تَصْبَحَ أُمًّا ، وهي تنجذب بجميع أفكارها إلى الحياة الجنسية ما حَمَلَتْهَا الشمسُ وَخِصْبُ الْبَلَدِ عَلَى ذَلِكَ ، وما كانت كثرةُ الولد لتحول دون الْغَيْرَةِ وَهَوَى النَفْسِ ، فلا يُجْجَمُ عن القتل والسَّمِّ في سبيلِ رَجُلٍ تَرْغَبُ فيه امرأةٌ ولا تَرْغَبُ عنه امرأةٌ أُخْرَى ، ولا يقول للمسلون ، على العموم ، بتعدد الزوجات لأسباب مالية فقط ، ولا يُجَاكَلُ الطيب والقرأفُ وَحَدَّاهُ في المسائل الجنسية ، بل تجادل الفتيات فيها أيضاً ، ولكن عن سذاجة ، وتَرَى للمستوى الأدنى أعلى مما في غرب أوربة فيُقْرَضُ النكاح أو الْفِرَاقُ عند وجود فضيحة فتعالج الحاكمُ هذه الأمور ، وليس الزواجُ ، ولا الْفِرَاقُ ، من الأمور الْمُؤَبَّدَةِ ، فيمكن العَوْدُ إلى الأمر ثلاث مراتٍ قبل أن يُكْرَهَ الْفِرَاقُ على التوقف ، حتى إنه يُجِلُّ الزواجُ للمرة الرابعة إذا ما تزوجت بآخرٍ قبل ذلك .

وأبناء مصرَ خرافيون منذ القديم ، فإذا ما أراد رجلٌ أن يتزوج أرملة أخيه ، من أجل قطعة أرضٍ على ما يَحْتَمِلُ ، اتخذ جميع الوسائل وسَحَرَ امرأته لثَمَنَتِهِ ، وهو يَدْفِنُ في قَبْرِ بَيْضَةٍ وَضَمَّتْ يَوْمَ الْأَرْبَاءِ بِمَدَّانٍ يُكْتَبُ عَلَيْهَا اسمُ إِحْدَى الْأَرْوَاحِ الشَّرِّيرَةِ ، والمصريُّ ، نصرانياً كان أو مسلماً ، يعتقد جميع ما ينطوى عليه الساحر من رِثَاءٍ وَتَصْنَعٍ ، والثَّمَنُ لا يزال أحسن وسيلة للخلاص من المرأة ، ولا رَيْبَ في أن المِلْتَوَسِيَّةَ<sup>(٢)</sup> في مصرَ أندرُ مما في أى مكان آخر .

(١) تَهَارُمُ الرَّجُلِ : أرى أنه هرم وليس به — (٢) لبة للالاقتصادى الإنكليزى ملتوس الذى اشتهر بتفريجه المروقة عن السكان (١٧٦٦ — ١٨٤٤) .

## القمام

وتُسَفِّر تلك الحالُ النفسَ عن نسيجَتين ، تُسَفِّر عن شِدَّةٍ نحو البنات واحترام  
عيني نحو الأمِّ ، وللأمِّ المقامُ الأعلى عند الابن ، ولو كان شِعْرُ زوجِه رَمَادِيًّا ،  
وليس للحفيدات أن يَخْرُجْنَ من دون أمهن ، حتى إن الأُمِّ تَفْقِدُ حَقَّهَا ،  
ولا يَحِقُّ لها أن تكون وحدها مع رجالٍ في غرفة واحدة ، ومما يقع في أيامنا ، أيضاً ،  
أن تأتي الأمُّ بابتها الحَيْلَى إلى الصحراء لتذبحها أو أن يَقْتُلَ الأخُ أخته لسوء  
سلوكها ، ونُعَدُّ الولادة ، ولا سيما الأولى ، حادثاً ذا بالٍ ، وتُتَلَقَّى المرأةُ في الجِدار  
صُوراً مُلَوَّنة لرجالٍ حتى تُنِيمَ النظرُ فيها ، وهي ، مُبَيَّلُ الوضع ، تُجَرِّزُ نفسها إلى  
شاطئِ النيل بحثاً عن قطعة غريزيَّة تبلمها في أثناء الطلق ، وتَسْتُرُ جِدها وذراعيها  
بتماويذ لكي تَصْعَ صبيّاً أو ولداً حسن الهيئة ، والمرأة إذا ما وَصَّتْ أختَ عَدَها  
زوجها مُدَّةً مُدَّةً ثلاثين يوماً ، والمرأة إذا ما وضعت ذكراً عَدَها زوجها مُدَّةً  
مدة أربعين يوماً ، وهل هذا بسبب أهمية الذكر ، أو لأن الذكر أكثرُ دَنَساً ؟

وتُرَضِّع المرأة ولدها عامين تقريباً ككثير من فلاحات الترويح ، وتُرى  
المرأة جالسة أمام بابها عارية الصدر مُمَسَّكة الولد الذي يَرْضِعُ يدها اليسرى  
وَمُمَسَّكة أنبوب التَّرجيلة التي تَدَحْنُ يدها اليمنى ، وتُسمَّى الرضعة الأخيرة بالقطام  
كما تُسمَّى سَقِيَّةُ البرِّ الأخيرة به أيضاً ، والمرأة إذا ما حَمَلَتْ ثَانِيَةً عُلِقَتْ على جِديهِ  
ولدها الأكبر عُوْدَةً<sup>(١)</sup> لكيلا يَحْسُدَ أخاه الأصغر ، ويَحْمِلُ الأولاد على أعناقهم  
مصاحفَ صَغيرةَ دَقِيقَةٍ مَحْضُوطَةٍ في أكياس من نسيج قطنيٍّ ، وإذا كان الولد  
نَحِيفاً سَقِيَ الشُّوْ أُنِي به إلى شاطئ النيل في أول القيضان وحَمِلَ على قَدْفِهِ فيه

(١) العودة : اسم معنى الرقية ، وهي التي تكتب وتعلق على الإنسان لتقيه في زعمهم من  
الجنون والعين .

### صفات الفلاح

حَلَوَى وتمراً مع القول بصوتٍ عالٍ في كلِّ مرةٍ : « دَعْنِي ، أيها النيل ، أزيد قوةً كَهْمَتِكَ » .

وفي النهار يكون الزوج في الحقل بجانب الناعورة زارعاً أو حاصداً ، والفلاح مشهورٌ بصحته ونشاطه واعتدال قامته منذ القديم ، هورَبَّةٌ<sup>(١)</sup> ، هو مفتولُ السواعد ، هو يُشابه تماثيل عهد الفراعنة إذا ما وَقَفَ عارياً بجانب المِزْرَفَةِ وتناول رقيقه وعاء الماء .

وللفلاح الخلف في الحقل ، بقميصه الأزرق ، وسرواله الواسع ، أو بعباءته السمراء التي نَسَجَتْهَا له زوجته من شَعَرِ القَزِّ ، مع لبَّادَةٍ كثيفة على رأسه ، هيئة المزارع الرزين الصوت الذي يَرْزَعُ أَرْضَ آبائه في عُصُونِ القرون ، ويُدْ كَرُّنا رأسُ الفلاحُ برأس حيواناته الأهلية ، ولا يَمُتُ الفلاح إلى الزَّيْتِي بِصلة ، وذلك بِمُحْمَجَتِهِ الغليظة البيضِيَّةِ المخلوقة القائمة على رَقَبَةٍ قوية وبجنيته المريض المائل إلى الوراء قليلاً وبأنفه السَّرْجِيَّ وعينيهِ السوداءين اللامعتين تحت حاجبيه الكشيفتين ، وبفمه الكبير وأسنانه الجميلة وذَقْنِهِ المُقَرَّن والأجرد أحياناً ، وليس القسم الأسفل من وجه الفلاح نائلاً كما عند المروق الإفريقية الأخرى ، وجسمُ الفلاح مما يقاوم الآلة ، ولا بُدَّ من انقضاء قرون حتى توافق روحه على تغيير عادية ، والفلاحُ فقيرٌ منذ عهد الفراعنة ، والفلاحُ المصريُّ كالفلاحِ الروسيِّ القديم ما بَلَغَ عددُ الفلاحين بمصرَ اثني عشرَ مليوناً من أربعة عشرَ مليوناً ، ولم يَظَلَّ المصريُّ فقيراً ؟ هو غير كسول ، هو غير غيبيٍّ ، هو ذكيٌّ شغَالٌ مادام شاباً على الأقل ، هو قد أُمْسِكَ في بحرٍ من الجهل ، هو لم يَبْدَأْ بالعناية بتربيته إلا في وقتٍ حديثٍ جداً ، هو قد يكون حسوداً خرافياً ،

(١) الربة :- الوسيط القائمة .

### الحراث والبنر

ولكن مع طيبة قلبه ، ولم يجعل ضيق منزله منه رجلاً عريداً ، وقد حافظ مع القرون على حسن معشره ، ويبدو عنيماً من غير حقد ، فإذا قتل جاراً له اختلاسه منه بضم بصلات بكاه مخلصاً .

وفي بلد لا يجدي فيه المِحْرَاثُ نفعاً تقريباً لا يُتْرَكُ الفلاح فيما عليه إخوانه بالنيل الأعلى ، أو أبناء دينه يبلاد الشرق الأخرى ، من بطالة مباركة ، فعليه أن يدير الناعورة وعليه أن يحمل الدلو على كتفه ، فلا يمن النيل عليه بالخصب بلا عمل ، ويكون الفلاح عند منزقته على ضفة النهر من وقت التجر ، وتستمع الشمس عند كل صباح مُنْشِداً :

« الليفُ المفتول ذراعٌ تحمِلُ دَلْوًا ، لقد اخترعوا الشادوف منذ ألوف السنين لا مراء ، هم قد فعلوا ذلك لأن الماء كان لا ينزل من السماء ، وماذا كان اسم هذا الرجل القى تشكره ؟ وى صالح زبادى ! ياليف أنت قوى ، ويقدر الحر أن يحرقى ، إذا انقزرت قلبى لم أجِدْ من يبيكىنى ، وى صالح زبادى ! »<sup>(١)</sup>

حتى إن الحرّاة عند ضرورتها تطلب الإنسان ببذل جميع قوته ، وإن وجب ألا يكون التلم<sup>(٢)</sup> عيقاً ، ولكن المِحْرَاث لا يزال مؤلفاً من قطعة حطاب منحنية ذات حديدة حادة فيجره ثوران مقرونان بمجرّ طويل ، ويكسر المَدَر<sup>(٣)</sup> بالأيدى فيبذر ، وبما يقع في بعض الأحيان أن تُقَرَّع الأرض بأرجل الفم ، وتكون الحقول صغيرة ، وتبصر عند كل ست أقدام حداً ، ولا تجد غير مربات دقيقة مع انحدارات قليلة يُصنع فيها ثقب أيام القيضان ، أو يُفتح فيها ذلك بالرجل .

(١) لم يعثر المؤلف إلى المصدر القى حللته هذا النشيد البلدى ، وقد حاولنا الوصول إلى أصله فلم نوفق ، فترجمناه — (٢) التلم : ما تشقه سكة الفلاح من الأرض — (٣) المدر : العلين الباك القى لا يخالطه رمل .

### قسم واعدل !

وهل الحصاد هناك أسهل مما في الأماكن الأخرى ؟ وفي الشتاء يَنْضَج القمح والقول والمذس والبرسيم ، وفي الصيف تَنْضَج الذرة والأرز والقطن وقصب السكر ، وفي أثناء الميضان يَنْضَج الدخن والأرز والخُصَر ، وهذه المحاصيل الثلاثة تطابق اليَدَّار ( وفي أول نوفمبر يَبْدُرُ في النيرين ) فتَجِدُ في كثير من بقاع مصر سبعة محاصيل في ثلاثة عشر شهراً ، غير أن عمل السقي يَعْدِل محاسن الشمس ، فظلت الآلات كما في زمن الفراعنة ، وَيَقْطَع القمح بالمناجل في كل مكان تقريباً ، وَتُجْمَعُ هذا القمح أكداً فيَحْمِلُها الجملُ إلى البَيْدَرِ حيث يَدْرُسُه البقر ، ثم يَذْرَى البُرُّ ويَحْفَظُ من الريح بأوراق النخل ، ولا بُدَّ من انقضاء وقتٍ حتى تَحْمَلَ الحِمِيرُ أَكِيَّسَه إلى الهَرَمِيِّ الغروطي .

وكان اثنا عشر مليونَ فلاحٍ يَمْكُنُ من أجل مليوني غَنِيٍّ منذ سنواتٍ قليلةٍ خَلَّتْ ، ولم يطالب الفلاحون لأنفسهم بغير نصف الأرضى حتى بعد اضطرابات سنة ١٩١٨ ، وَيَبْزُرُ البدويون ، الذين لا يقرمون صُحُفاً ولا يَسْمُونُ في واحلتهم خُطْباً ، من قُورم على ضفاف النيل مع الهَتَافِ : « قَسِّمْ واعْدِل ! » ولا يَمْدُو هذا تلخيصاً لنظريات أبناء المدن من قَبْلِ أناسٍ مِلَاحٍ عِرَاقَةٍ صُحْلٍ<sup>(١)</sup> على طرف الصحراء ، واليوم تتحرك الجموع على مَهَلٍ ، فن ناحية يزداد عدد أصحاب الأملاك الصغيرة في هذا البلد الخصب فيَقُومُون هم وأولادهم بأمور الزراعة ، ومن ناحية أخرى يَكْثُرُ عدد المزارعين على أن يكون مُخْساً المحصول لهم .

ويَدْفَعُ أقل مالِكٍ ثلاثة جنيهات أو أربعة جنيهات ضريبة عن كل فدان ، غير أن السكان يَفْدُونُ أكثر كثافةً مقداراً فقداً ، وقد تضاعف عددهم في

(١) الصحل : جمع الأسحل وهو من بع صوته وخشن .

## الحكمة

السنين الثلاثين الأخيرة تقريباً ، وم ما انك أكثرهم يكون ميالاً<sup>(١)</sup> ، أجل ،  
يُسْتَعْدَم عددٌ غير قليل منهم في الطاحن والَصَّخَّات البخارية كما هو الأمر عندنا ،  
غير أن مُعْظَمهم يَمُتَل مثل آبائهم ، فينالون أجورهم غنياً وَيَنْقُل الأولاد والنساء  
أجرة الزوج على رؤوسهم .

وبالاضواء حول الحكمة عند ما يَتَوَجَّه الفلاح إلى المِرْص اجتناباً للحجر !  
ولا حَجَرٌ من عهد كَنْشَرِلِيَا هو أقل من خمسة فدادين ، فإذا عَدَوْتَ هذا أخذ  
الجُباة كل ما سواه ، حتى أصفر قطعة فِضِيَّة مُزَيَّنَةٌ لبرقع زوجته ، وذلك عند  
عدم تأديته ما عليه من الضرائب ، وذلك سواء أ كان الفيضان جيداً أم رديئاً ،  
وها هو ذا بُرَى تحت ظل السَّنْطِر أمام بناء حجري ذي منظر كئيب كافي بقية  
العالم ، ويدنو من كاتب عرائض ليدافع عن حقوقه على حين يَشْرَحُ عشرة فلاحين  
أُخَرُ حالهم لكتبته عشرة آخرين ، ويُبصر في دار القضاء تلك مثل ما في القرية  
من ازدحام وعدم انتظام ، وما يُحرِّك به كاتب المرائض من بطء قلة في النواة فيدلُّ  
على قلة أكثرائه ويقيم على ما يساوره من مكر حول تفكيكه في زبُون أكثر نساء ،  
وإن الأمر لكذلك إذ ينهض جميع الجالسين القُرُفَصاء في القاعة ذات الظل ،  
وذلك عند دخول القاضي ، وإليه يُهرع ، فلهه يكون أول المُتَقاضِينَ .

ويدو القاضي لابساً حُلَّة سوداء ووشاحاً أحمر قبل أن يَسْتَوِيَ أمام مُنْصَدِّته  
العالية ، ويَضْحَكُ الحامون في الصف الأول ويُبْتَزُّون بمثل ما يَظْهَر من وقاحة  
وتجني على ضياف الثوار<sup>(٢)</sup> والتابع<sup>(٣)</sup> والإلبة<sup>(٤)</sup> والأرئو<sup>(٥)</sup> ، ولكن الكلام

(١) يابو : عامله بالأيام — (٢) اللوار : نهر في فرنسا — (٣) التابع : نهر في إنكلترا .

(٤) الإلبة : نهر في ألمانيا — (٥) الأرئو : نهر في إيطاليا .

يخرج على ضفاف النيل من محامين مفاً، ومن زبوتيهما مفاً، ويحيل للماهر أن الأمر واضحٌ عندما تعُدُّ زَعَقَاتُ أربعٍ وتَهْزُ أَيْدِيْ ثَمَانٍ أمامَ القاضي، ويتدافع الحضور إلى الأمام، ويحاول حاجب المحكمة دفعهم على غير جدوى، ويُعين الرجل اللابس وشاحاً بصوتٍ تَمَطِّيٍّ قائلاً: «إن القضية أُجِلَّتْ لثلاثة أشهر».

والفلاحُ يَرْجِعُ تَعَباً إلى الناية من الحَصَادِ والتاعورة والمحكمة، وما تُقدِّمه زَوْجُهُ إليه من خُبْزٍ فيَجِدُهُ جَيِّداً، فهو مصنوعٌ من البرِّ والثِّرة، وهو صالحٌ لبقاء حُسْنِ الأسنان كما يُلوح، والفلاحُ يَفْسِسُهُ في حَسَاءِ البصل والسمن مع الخيَّار والقول، وهذا هو طعمُ المادى المُفَضَّل، ويتصف الفلاحُ بحُبِّ الخير فيُقدِّم من طعامه هذا كُوباً إلى أقرب مَنْ يَمُدُّ يَدَهُ إليه، وذلك لأنه يأكل على عتبة البيت، وينتظر السَّوَرُ نصيبه أيضاً، ويحبُّ الفلاح البصلَ الفِجَّ<sup>(١)</sup> والبصلَ الناضج والعدسَ قبل كلِّ شيء، والخَضَرُ إذا أمكن ذلك، ويؤثِّرُ الفلاحُ ماءَ النيل غير المُصَفَّى مع جميع أوساخه لكي يكون مُطْعِماً، ويؤمن الفلاح بالنيل.

ومن الأمور الشاقَّة أن يُخرج الفلاح من القذارة التي نشأ عليها أجداده جيلاً بعد جيل مع حيواناتهم متضعين بأقلِّ مَرَجِينٍ<sup>(٢)</sup> للحَمَامِ وزبلٍ للأَنْعام، وذلك من غير أن يَنزِلَ من السماء ما يَفْسِلُ الإنسانَ والحيوانَ والنزل والآنية منذ ستة آلاف سنة، وقد يمضى جيلٌ أو جيلان قبل أن يَثِقَ الفلاح بالمشفى الحديث أكثرَ من ثقته بالمَجَبَّةِ التي تَضَعُ سُنْبُلَهُ ذَرَّةً على الساق المريضة مع تلاوة آياتٍ من القرآن، والتي تداوى الحَرَّ<sup>(٣)</sup> بذلك الخلفن بقطعةٍ سكر أو بقطره بمُصارِقِ بصلٍ مع ملح، والتي تَكْشِطُ الجِلْدَ بَصْدَفٍ أو حجارةٍ سحرية.

(١) الفج من القواكا وغيرها: الذى لم يفضج — (٢) السرجين: الزبل — (٣) حُرَّت العين: غلظت أجنفاتها من رمد.





٢٨ - مورتوس (المصر) في أدفو



وتَزُولُ العقائد وَيَبْقَى السَّاحِرُ ، ويَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الظُّلُمَاتُ الَّتِي يَدْفِرُ بِهَا ضَرْبًا مِنْ رَدَدِ الْفِعْلِ لِنُورِ الشَّمْسِ السَّاطِعِ الْخَالِدِ ، وَيَعِيشُ الْفَلَّاحُ خَائِفًا خَوْفًا أَزَلِيًّا مِنَ اللَّامَةِ<sup>(١)</sup> مُخَاطَبًا بِمَنَاتِ التَّمَنُّمِ اللَّامِعَةِ عَلَى جَيْدِ النِّسَاءِ وَرِقَابِ الْحَيْرِ وَالْجَلالِ ، وَيَتَرَنَّحُ الْفَلَّاحُ بِأَفْأَصِصِ الْقَاصِّينَ الَّذِينَ يُكَرَّرُونَ وَقْتَ الْمَاءِ بِمَحْرَكَاتٍ مَسْرُجِيَّةٍ مَا قَفَّهَ عَلَيْهِمْ أَبَاؤُهُمْ مَا دَيْنَ أَذْرُعُهُمْ وَاضْمِينَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى آذَانِهِمْ أَحْيَانًا كَمَا لَوْ كَانُوا يَسْتَوَحُونَ ، وَإِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ وَتَصَاعَدَ دُخَانُ السَّيَافِرِ ظَهَرَتْ فِي جَوْءِ الْمَقَاهِي الْعُدْبِيَّةِ طَائِفَةٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ الرَّهْمِيَّةِ النَّاعِمَةِ الَّتِي تَحْشَى نُورَ النَّهَارِ وَالَّتِي تَرْجِعُ إِلَى الْوَفِّ السَّيْنِ ، وَمَا جَاءَ فِي كِتَابِ الْإِلَهِ تَوْتُ السَّعْرَى أَنْ ابْنًا لِأَحَدِ الْفَرَاغَةِ حَلَّ بِرِدْيَا مَقْدَسًا فِي الْمَاءِ وَشَرِبَهُ فَأُشْرِبَ كُلُّ حَكْمَةٍ ، وَمَا حَدَّثَ فِي سَنَةِ ١٩٣٦ أَنْ قَاضِيًا نَوِيًّا كَتَبَ كَلِمَةً مِنَ الْقُرْآنِ وَحَلَّ حَيْرَهَا فِي الْمَاءِ وَحَلَّ الْمَشْيِكِي وَالتَّهْمَ عَلَى شُرْبِهَا لَكِي يَقُولَا الصَّدَقَ ، وَلَكِنْ الْخُرَافَاتُ تَحِيطُ بِالْحُبِّ وَالْمَوْتِ عَلَى الْخُصُوصِ وَتَصِلُ الْعُرُوسُ رَاكِبَةً جَمَلًا ، أَوْ سَيَّارَةً فُورِيَّةً ، أَحْيَانًا ، مَهَا كَانَتْ فَقِيرَةً ، نَحْمُ يُفَرِّطُ فِي الطَّعَامِ ، وَيَضَعُ الْقَيْسِيسَ ، وَلَوْ كَانَ قَسًّا نَصْرَانِيًّا ، نَسِيجًا مُخَمَّلِيًّا عَلَى كَيْفِ الْعَرِيسِ الْيُمْنَى وَنَحْتُ عَاتِقَهُ الْأَيْسَرَ ، وَيَتَلَوُّ أَدْعِيَتَهُ وَيَجْمَعُ جُودَهُ<sup>(٢)</sup> ، نَحْمُ يَرْفَعُ ذَلِكَ النِّسِيجَ ، وَيَرْقُبُ لُبْسَ كُلِّ مِنَ الْعُرُوسِينَ خَاتَمَةً ، وَيَعْلَنُ رَوَاجِمَهُمَا بِذَلِكَ ، وَفِيهَا يَرْقُصُ لَيْلًا تَدْنُو جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّبَاحِ عَلَى رَائِحَةِ اللَّحْمِ الْمَشْوِيِّ ، وَتُطْرَدُ الصَّبَاحُ ، وَتُجْلَلُ مِنْ بَيْدٍ وَتُزْعَرُ بِنْتُ آوَى ، وَفِي صَبَاحِ الْقَدِّ وَحْدَهُ يَذْهَبُ الزَّوْجُ إِلَى زَوْجَتِهِ ، وَيَكْتَشُهَا بِصَاحٍ مِنْ جِذْعِ النَّخْلِ ، وَتَعُودُ هَذِهِ الْعَادَةُ إِلَى سِتَّةِ آلَافِ سَنَةٍ .

(١) اللَّامَةُ : الْعَيْنُ الْخَصِيَّةُ بِسُوءِ — (٢) الْجِلْدُ : أَجْرُ الْعَامِلِ

## القرينة

وإذا مات أحدهم مات شَبَعَه في الوقت نفسه ، وذلك لأنَّ القَرِينَةَ تولد مع الإنسان ولها شكلُ الإنسان وطبيعته . وهي تكافح قرينةَ خصمه ، وقد تكون قرينةَ سوءٍ في بعض الأحيان فتُزَعِج صاحبها فيُهرَّع في الصباح إلى الشيخ ليسأله الرِّقَابَةَ منها ، وقد تكون المرأةُ شِرْيرَةً فيؤْلِمُ شبعها الولدَ حتى السنة السابعة من عمره ، ثم لا يبق ما يُخَشَى منه بعد ذلك ، وتقول الفتاةُ العاشقةُ للفتى بلطفٍ : « إن قرينتي طَيِّبَةٌ نحوى » .

وإذا مات ولدٌ اضطرب المنزلُ بأُسره ، وشعرَ بِخَطَرٍ يَحِيقُ بالجنس وقوة التناسل ، ويُسرَّع لاجتناب بلايا أخرى ، ويخرُجُ روحه من فمه ككلِّ ميت ، ولكن لا ينبغي أن يَكْفَنَ بشدةٍ خشيةً أن تُصاب أمُّه بالمُغَمِّ ، ثم تُدْبِجُ شاةً ، ويؤثَى بخبز ، ويأتى رَجُلُ الدِّينِ ، ولو كان قَسًا نصرانيًا ، بعد ثلاثة أيام من الموت ، ويُذهِبُ روحَ الولد الميت مع عُثَّانٍ <sup>(١)</sup> الألبان ، ولا تمجِّدُ لذلك ذكرًا في القرآن ولا في التوراة . فهذه العُقُوسُ مصريةُ الأصل .

وهكذا تنفِى حياةُ الفلاح المراققة لصريف الساقية ، والتي تكون على شيء من السعادة ، وذلك مع صفاء صادر عن إلهي أرضه اللذين جَمَلًا بِلَدِهِ مشرأً وجملًا منزله متبجًا ، والفلاحُ ينام على صوت قَصَمِ حمارة لقلوله ، والفلاحُ يَصْحُو على سَجْعِ حمامه .

## ١٠

من المحتمل أن يزور الفلاح مع ابنه ضريحاً ملكياً ، ويكون الدليلُ صديقاً له فيأخذُ له في الدخول ، ويرى على نور الصاييح الكهربية ما كان يُضَاهِيه بالمشاعل

(١) العُثَّان : الدخان .

### ضريح ملكي

إضاءة خفيفة فيما مضى ، أرى على الجُدُر تصاويرٌ ممثلةٌ لجميع حياة الرجل الذي شاد ذلك الضريح والحروب وعيشه المنزلي وقصصه وقصائده وزوجه وأولاده وموظفيه وعبيده وبذوره وحصائده وصيده وألمابه ، وإذا ما كان الضريحُ مفتوحاً حديثاً أبصرت الأدوات والأثاث في مكانها ، ويقفُ الفلاحُ بجانب الشيخ صامتاً حاملاً ابنه بيده ، ولا يفهمُ الفلاحُ ماذا يقولون ، ولكنه يدرك بأحسن مما يدركون جميع ما يشاهده هناك ، ويظلُّ مشدوهاً ، ومن الصحيح ، إذن ، ما يقصُّه عليه الشيخ والساحر وما يذكُرُه القاصُّ في القهوة ! والحياة هي ، ويرفعُ ابنه ضاحكاً ويوضحُ له بصوتٍ خافت ما هو مُصوَّرٌ هنا من تاريخ عجب يترجع إلى ما قبل هجرة النبي بالوف السنين ، وماذا يجيدُ الفلاح في ذلك الضريح الفرعوني ؟ يجيدُ نفسه في كل ناحية منه .

وإليك الشادوف الذي يعلو ويتزلزَل لمتنحٍ<sup>(١)</sup> الماء من غير صريفٍ ولا أنين ، وإليك الحقول الطويلة التي تفصل الجداول بعضها عن بعض ، وإليك اللخراث الذي هو لَوْحٌ ذو قبضتين مربوطٌ بجبلٍ مع عطلٍ من أنفٍ حديدية ، وإليك الجلال والحير والولد الذي يسوق الضأن بعصاه حَملاً لها على دَوَس الحب في الأرض على حين يجذب صبي آخر الضائن من الرأس مع البر ، وماذا يصنعون هناك ؟ إنهم يزيطون الحب الجيد باليدق لكي يكون المحصولُ حسنًا في العام القادم ، ويُعطى الكاهن بواكير الثمرات كما في الزمن الحاضر ، ويصْحُون بثورٍ تكريماً لبناء جديد كما نصنع تكريماً لمِصْحَةٍ بخارية ، والمبدُ هو المبدُ الذي ننزع الحجارة منه عند ما لا يرانا الحارس .

(١) متع الماء : تزع .

### يغرس الفلاح ولده

وَيَقْرُصُ الْفَلَّاحُ لِرَّحْ وَلَدَهُ إِنَارَةً لَانْقَابَاهُ ، وَيُبْصِرُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْآخَرَى ،  
 وَفِي الصُّورَةِ الْجِدَارِيَةِ نَفْسَهَا ، الْأُمُّ وَهِيَ تَحْبُكُ سَلَّةً مِنْ خُوصِ النَّخْلِ  
 كَمَا يُحْبِكُ عَلَى الصُّفَّةِ عِنْدَنَا ، وَيُبْصِرُ أَشْطَاطَهَا الْخَشْيَةَ وَبُرْقُفَهَا ، وَالْمَرَأَةَ هُنَاكَ  
 تُحْطِطُ حَاجِبَيْهَا ، وَالزَّيْنَ هُنَاكَ ، أَوْ أَحَدُ نَفْسِهِ هُنَاكَ ، هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ الرَّأْسَ ،  
 وَتَنْوُحُ النِّسَاءُ لِمَوْتِ أَزْوَاجِهِنَّ مَعَ حَلِّ شَعُورٍ وَشَقِّ ثِيَابٍ وَحَرْقِ لُبَانٍ ، وَيُبْصِرُ  
 مِنَ النَّاحِيَةِ الْآخَرَى ، وَفِي الصُّورَةِ الْجِدَارِيَةِ نَفْسَهَا ، فِرْعَوْنَ الْحَزِينَ يُوَدِّعُ ابْنَهُ  
 اللَّيْتَ ، وَيُبْصِرُ قَرِينَةَ هَذَا الْإِبْنِ ، وَيُحَرِّكُ ذَلِكَ الْمَنْظَرُ سَاكِنَ الْفَلَّاحِ قِيَصْمُ ابْنِهِ إِلَى  
 صَدْرِهِ مِنْ قَوْزِهِ ، ثُمَّ يَضْحَكُ الْفَلَّاحُ عِنْدَ مَا يَرَى كَاتِبًا يَسِمُ الثَّيْرَانَ كَمَا تُوَسِّمُ  
 فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، وَذَلِكَ بِجَانِبِ كَاتِبٍ آخَرَ يُسَجِّلُ عِدْدَ أَكْيَاسِ الْقَمْحِ الَّتِي  
 يُسَلِّمُهَا إِلَى الرُّزْءِ ، وَذَلِكَ بِجَانِبِ أَنَاسٍ يَصْبُونُ الْحَبَّ مِنْ عَلٍ فِي هُرْمَى مَخْرُوطَةٍ  
 كَهْرْمَى الْقَرْيَةِ فِي الزَّمَنِ الْحَالِي \* .

وَيَا لَكثرة مَا كَانَ يَمْلِكُ صَاحِبُ الضَّرِيحِ الْغَنَى ! وَيُشْرَحُ الدَّلِيلُ الْكِتَابَةَ  
 لِلشَّيْخِ ، وَيَتَرَجَّمُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ بِسُرْعَةٍ كَيْ يَعْلَمَ الْفَلَّاحُ ذَلِكَ ، وَفِي الْكِتَابَةِ :  
 « لَدَيْكَ ٨٣٥ رَأْسٌ مِنَ الْبَقَرِ ذِي قُرُونٍ طَوِيلَةٍ ، وَ ٢٢٠ رَأْسٌ مِنَ الْبَقَرِ بِلَاقُرُونٍ ،  
 وَ ٧٦٠ حِمَارٍ ، وَ ٩٧٤ شَاةٍ ، وَ ٢٢٣٤ غَنَزَةٍ » ، وَيَتَخَسَّرُ الْفَلَّاحُ صَاحِبَهَا ، وَذَلِكَ  
 لِأَنَّهُ يَتَمَثَّلُ كُلُّ عَمَاءٍ وَكُلُّ عَرَقٍ يَسِيلُ عَلَى ظُهُورِ آبَائِهِ فِي سَبِيلِ تَرْبِيَةِ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ  
 وَتَغْذِيَّتِهَا ، وَيَتَلَيَّنُّ مِنَ الصُّورَةِ الْجِدَارِيَةِ الثَّلَاثَةِ سَبَبُ هُرْأَلِ الْبَقَّارِ الَّذِي يُزْعَى  
 ثَلَاثَ بَقَرَاتٍ عَلَى حِينِ تَسْمَنِ بَقَرَاتٍ أُخَرَ بِالْعَبِيْنِ .

وَيُحْبَبُ الْفَلَّاحُ بِطُولِ سَنَابِلِ الْقَمْحِ عَلَى صُورَةِ جِدَارِيَةٍ أُخْرَى ، وَيُبْذَرُ  
 الْفَلَّاحُ ارْتِيَاخَهُ مِنْ قَطْعِهَا بِالْمِنْجَلِ عَلَى ارْتِفَاعِ الرِّكْبَةِ ، وَلَكِنْ مُوسِقِيًّا كَانَ يُطْرِبُ

### طيون نعام الحيوانات

الحَصَادُ عَلَى أَهَامِ الزَّمَارِ ، ثُمَّ تُوَاخَذُ جُرْزَةُ<sup>(١)</sup> مِنَ الطَّرْفَيْنِ وَتُرَبَّطُ مِنَ الْوَسْطِ ،  
بَيْدَ أَنْ الْحَمِيرَ لَمْ تَرِدْ أَنْ تُحْمَلَ أَكْثَرَ مِمَّا فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ .

وَيَضْحَكُ الصَّبِيُّ ، فَذَلِكَ مِمَّا يَقَعُ كُلَّ يَوْمٍ فِي الْقَرْيَةِ ، وَيَجْرُو رَجُلُ الْحِمَارِ مِنْ  
أُذُنِهِ وَآخَرُهُ مِنْ قَائِمَتِهِ ، وَلَا تَخْتَلِفُ الْأَكِلَسُ وَالسَّلَالُ الَّتِي تَوْضَعُ عَلَى ظَهْرِهِ  
عَمَّا يَشَاهِدُ فِي أَيْلَانَا ، وَالْآنَ يُضْرَبُ الْحِمَارُ وَيُدْفَعُ عَلَى حَيْنٍ يَحُولُ فَلَاحُ نَالِكٍ دُونَ  
سَقُوطِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْأَرْضِ ، وَهَذَا الْكَاتِبُ يُزِنُ وَيَكِيلُ كُلَّ شَيْءٍ ،  
وَهُوَ فِي ذَلِكَ ككَاتِبِ بَاشَا الْقَاهِرَةِ فِي الْقَرْيَةِ .

وَكَانَ أُولَئِكَ الْقَدَمَاءُ طَبِيبِينَ نِجَاهِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَيَجِبُ أَنْ يُعْتَرَفَ بِذَلِكَ ، وَذَلِكَ  
لَأَنَّكَ تَرَى بَيْنَ الْوَأَشِيِّ السَّمْنَةِ إِوْرًا يَكَادُ بِأَكْلٍ ، وَلَأَنَّكَ تَرَى فِي زَاوِيَةِ كُرْكِيَّا يَكَادُ  
يَشْرَبُ ، وَلَكِنْ أَيْ الْحَيَوَانَاتِ كَانَ يَصْطَادُ سَيِّدُ ذَلِكَ الْبَلَدِ ؟ كَانَ يَصْطَادُ الْأَسَدَ  
وَالنَّمَامَ وَالزَّرَافَةَ وَبَقَرِ الْمَاءِ . أَفَلَا تَرَى مِنَ الْمَنَاطِرِ الْمَصْرِيَةِ أَنْ يَنْزِلَ الْأَكْبَارُ الْبَتِيلَ  
وَيَسْتَلْقُونَ عَلَى جُلُودِ الْحَيَوَانَاتِ فِي زَوَارِقِهِمِ الشَّرَاعِيَةَ الْمُجَهَّزَةَ بِمَخَادَعٍ وَرِيَاشٍ وَأَنْ  
يَمَزِفَ فَنَاتٍ وَيَرْقُضُنْ هَنَالِكَ ؟

وَأَيْ الْحَيَوَانَاتِ الْغَرِيبَةِ يَتَسَلَّقُ أَشْجَارَ التِّينِ هَنَالِكَ ؟ يَضْحَكُ الصَّبِيُّ لِأَنَّهُ  
أَدْرَكَ ذَلِكَ بِأَسْرَعٍ مِمَّا أَدْرَكَ أَبُوهُ ، فَتِلْكَ الْحَيَوَانَاتُ هِيَ قِرَدَةٌ أَلْفَةً تَصْعَدُ فِي  
فُرُوعِ أَشْجَارِ التِّينِ الَّتِي يَتَقَدَّرُ الْارْتِقَاءُ إِلَيْهَا لِتَرْمِيَ بِشَرَاتِهَا ، وَيَا لَيْتَ مَا فِي  
الصُّورَةِ حَقِيقَةٌ !

وَالْآنَ يَنْتَهَى الْحُلْمُ ، فَيَصْعَدُ الزَّاوِيُونَ فِي السَّلْمِ الْمُنْحَنِي نَحْوَ السَّمَاءِ الزَّرْقَاءِ ، نَحْوَ  
الْشَّمْسِ الْمُعْشِيَةِ ، وَيَعْتَرِي الْقَلَّاحَ دَوَّارٌ لِمَا أَبْصَرَ مِنْ مَنَاطِرَ لَا تَكَادُ تُصَدِّقُ ، لِمَا

(١) الجرزة : الخزمة .

## عمودا أمون

أبصرَ من مصيرٍ يَرْجِعُ إلى ألوف السنين ، ويسأل الفلاحُ في نفسه : هل أبصرَ ضريحَ فرعونٍ أو ضريحَ أحدِ تجارِ الدُّلَّةِ ، ويُفَكُّ الفلاحُ حمارَه الذى يَشْتَرِي وَيَوْذُ أن يعود إلى منزله ، وَيَحْمِلُ الحمارُ صاحبه الشَّمِيكَ ابْنَه أمامه وَيَقْدُو على طرف الطريق من خلال الصحراءِ وَيَشُدُّ صاحبه العِنانَ حَلًّا له على التَّمَهْلُ وحفظاً للصبيِّ من السقوط ، وَيُفَكِّرُ الفلاحُ في كلِّ ما رأى وفي أولئك الأغنياء الذين ما فَتَّحُوا يَسْتَحْمِلُونَ الفلاحين وَيَنْزِلُونَ النِّيلَ في زوارقهم للزخرفة جيداً

وإذا ما ذهب الفلاحُ إلى قبور الأقصر أبصرَ بين قصب السكر تماثيلَ عظيمين يَدْعُوها الشَّيْخُ بِمَوْدَى تَمْنُون وإن كان يُسَمِّيهما عادةً بالبقرة والثور ، وذاتك التمثالان المضحكان هما لأحد القراعة الذى كان يَجْلِسُ على العرش أمام معبده مع حِسانٍ بين قدميه ، مع نسائه وأمه على ما يَحْتَمِلُ ، كما هو شأنُ رَمْتِيسَ على حدود النوبة ، وَيَعْرِفُ الفلاحُ وَيُبْصِرُ من لون التمثال أن فرعونَ كان ، لا ريبَ ، يَقْعُدُ في النيل حتى البطنِ وقتَ القِيضانِ .

وما قَصَّ على الفلاح ، أيضاً ، أن تلك التماثيلَ كانت ذاتَ رنينٍ . وما يَبْدُو أن الفلاح يَشْكُ مع استِرابُون<sup>(١)</sup> الذى كان يَرَى أن ذلك الرنينَ يَصْدُرُ عن أناسٍ يحيطون بالتمثال ، وما لا يَصْغُبُ إدراكه ، كما يقول الفلاح في نفسه حينما ينظر إلى الساقية التى تكاد تَدُورُ بجانب شجرة السَّنْطِ الكبيرة ، ألا يكونَ الظنينَ أتياً من أَمْنُوْفِيس الذى نُسِيَ خُلُودُه واسمُه ، أو من شِبَه الإله الذى قَتَلَه أَشِيل<sup>(٢)</sup> قَتِينُ عند ظهور إِيُوس<sup>(٣)</sup> ، فأَنِينُ تَمْتالِ تَمْنُونِ الكبير يَمِىء من الساقية القديمة التى تدور وراءه كما تدور وراء جميع تماثيل القراعة وجميع معابدهم .

(١) استرابون : من علماء الجغرافية لدى اليونان — (٢) أشيل : أشهر الأبطال الذين ذكروا في الإلياذة — (٣) إيوس : إلهة القمر كما جاء في أساطير اليونان .



في صمت ساعات الصباح بالأقصر يُسمعُ ، مع فواصل قصيرة ، صدى  
لصليل ذى إصرارٍ وجريش<sup>(١)</sup> ، وعلى تلك الضفة الباقية النني ، حيث كلُّ شيء  
رطيبٌ مُدْهَمٌ ، وحيث تصلُ رائحةُ التيرين إليكم على الطريق المُعبَّدة ، وفي ذلك  
الجو الفضي المَهترُ ، وبذلك النبات الزاخر ، تجدجنته عَدَن ، وعلى شواطئ النيل  
يُتمتّعُ بملاوة الحياة أكثر مما في أي مكان آخر ، وتُلقي تاليدُ طيبة أشعثها على  
الماء وتوزّع هبات الحياة في قصورها وحدائقها الوارفة بسخاه فرعونى ، ويُصعقُ  
الأجنهى هناك أسطح دَوَرٍ أبصره النيل ولولم تَمُ هُناك أضخم التماثيل وأعلى  
الرماج ، ولولم تَنْتاج هُناك تماثيلُ أبي الهول على صَفٍّ متصل .

وللرة الثانية يرى النهرُ أنه لا يَصْلُحُ ، فقط ، لإنتاج القمح والخُفَر والسُكر  
والقطن ، ويتحول ماؤه وغربته إلى حدائق نخيلٍ كما في الخرطوم البعيدة ،  
ولا يعود النهر لوقت قصير علمل حياة لدى ملايين الآدميين ، بل عنصر رَفاةٍ ،  
وهو في ذلك كالأستاذ الكبير الذى يَسِيرُ ذات حينٍ مع رؤى شرعية .

ومصدرُ الصليل الضليل هو جرّارةُ العشب التى يديرها الفلاح اللابسُ جلباباً  
أبيضَ يديه السراوين ، ومن شأن التيرين القابل النفوذ الذى يُقرش حول  
القدادق ، ومن شأن المِصْغَات والوالاب المائعة العمل ، وجود ذلك النبات الزاخر  
وديموته وإحداث غايّة خضراء على مقياس صغير ، والنيل وحده هو المُوجِدُ من

(١) الجريش : الضجيج .

### الأخضر هو عظم البدوي

إلهي مصر ، والشمس هي مُبيرة<sup>(١)</sup> مستعار<sup>(٢)</sup> ، والأزهارُ الباهرة الكثيرة الألوان لا تفيض إلا تحت ظل النخل ، والحدائق تُحاط بالأسوار كما تُحاط التصاور الفارسية الطريفة بالأطر الثينة ، وتلك الأسوار هي سياجات غليظة من الطين يدافع عنها بالزجاج المكسور وبالصُّبَّار .

ويشري الأجانبُ تمتعهم بهذه النفائس فيجتنبون بها أوار<sup>(٣)</sup> الشمس ، وذلك كما يُفزع إلى الكنيسة اتقاءً لنور الرُّواق الذي يُعمي الأبصار ، وذلك لأن الفار الوردي والجنهي الأرجواني والياسمين والدُّفلى<sup>(٤)</sup> نباتات تزدُّ النور إلى الجُرُر الصغيرة الظليلة تحت النخل ، وهناك يضرب كل لون إلى اذهيما مع التمازج .

والأخضر هو شعار النبي ، والأخضر هو غاية كل من يحب البادية ، والأخضر هو محتلم البدوي الذي يطلب الطراء وبُنية الحاج الذي يتماثل بها هدوء داره ومسرة سريريه ، وتهذيل البياضة التي تقف بها شعراء العرب على غصن المنجى ، ويفتر المهدد بين حفيف سُوف النخل ، وتتفلى دُعران مع اهتزاز على الحصباء . ويخرج هوروس<sup>(٥)</sup> أصوات الفرح لما تبدو الأرض تحته بستاناً صغيراً والسماء خلداً ، ويُفنى فلاح وهو يدير سائر المنزقة في الخارج والقرب من الجدار الطيني ، ويمرّك المصخة ثلاثة فلاحين آخر ويُفترن مواضع اللوالب ، ويسقي فلاح خامس أحواض الزهر ، ويتصل جميع هؤلاء في النهار كله بأغنياء هذا العالم ويُبصرونهم ويستمنونهم ويشعرون بهم ، وهم يرون حسناً من السادة والسيدات ، وخذماً سوداً وراهم ، ينزلون من قطار أبيض ذي خِوَادِع غير

(١) اللبيرة : البهجة - (٢) المستعار : ما تشبه به الثار - (٣) الأوار : الحر .

(٤) الدفلى : نبت زهره كالورد الأحمر وحله كالفرنوب - (٥) قصد المؤلف الباز من

كلمة هوروس - (٦) الخوادم : جمع الخادمة ، وهي الباب الصغير في الباب الكبير .



٢٩ — فلاحون في عهد الفراعنة



### الفلاح القرموني

شَقَّافَةٍ وَذِي مِصْرَاعَيْنِ مِضَاعَفَيْنِ وَذِي أُنْثَى زُبْدِيٍّ أَلَوْنٍ ، وَهُمْ يَرَوْنَهُمْ يَرَكُونُ  
الْحَيْرَ ضَاكِحِينَ لِيَزُورُوا الْمَاعِدَ ، وَهُمْ يَرَوْنَ السِّدَاتِ مِنْهُنَّ سَافِرَاتٍ لَا بَسَاتِ  
سِرَاوِيلَ ، وَهُمْ يُنْصِفُونَ الْجَنْسَ الْخَشْيَ الصَّيْقَ بِأَيْدِيهِمْ الشَّنْرَ حِينَ مَرُورِهِ عَلَيْهِ  
مِنْ أَدْنَى دَرَجَةٍ إِلَى نَاحِيَةِ الْمَرْكَبِ ، ثُمَّ يَشَاهِدُونَهُمْ يَقْتَاوُلُونَ الْقَهْوَةَ عَلَى الشَّاطِئِ  
وَهُمْ يَقْرُءُونَ غِلَامًا بَلَدِيًّا جِيلًا أَوْ يَمْسُتُهُ بِأَذْرَعِهِ الْعَارِيَةَ شَعُورًا بِجَرَارَتِهِ الْبَدْنِيَّةِ ،  
وَهُمْ يَشَاهِدُونَهُمْ مَسَاءً عَلَى كُرَاسٍ مَرْكَبِيَّةٍ بِجَانِبِ سَيِّدٍ فَاتِرِ الزَّوْجِ ظَاهِرًا مُتَأَمِّلٍ فِي  
سَمَاءٍ يَجْهَلُهَا أَهْلُ الشَّامِ ، وَلَكِنْ مَعَ وَقْفِ بُرُوجِ السَّمَاءِ لِأَنْظَارِهِمْ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ  
مَصْرٌ عِنْدَهُمْ لَيْسَتْ غَيْرَ مَرَحَلَةٍ تَتَأَخَّرُ تَأْمُلُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فِيهَا أَنْ تَكُونَ  
كَلِيْرًا بِاتَرَةٍ وَأَنْ تَحْمِدَ فِي طَلَبِ قَيْصَرَ الْإِنْكِلَبِيِّ .

وَأَمَّا الْفَلَّاحُ الْخَامِسُ الَّذِي يَسْقِي أَحْوَاصَ الْأَزْهَارِ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ أَخَا  
لِلَّذِي زَارَ الضَّرِيحَ الْمَلَكِيَّ فِي هَذَا النَّهَارِ ، وَمَنِ الْمُحْتَمَلِ أَنْ تَكُونَ نَظَرُهُ  
امْرَأَةً بَيَاضًا ، مَرَّتْ رَاكِبَةً فِيهَا مَضَى ، قَدْ أَسْفَرَتْ عَنْ عَيْنَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَدِيقَةِ  
النَّاصِرَةِ ، وَمَنِ الْمُحْتَمَلِ أَنَّهُ مِنْ حَفَدَةِ ذَلِكَ الَّذِي كَانَ يَسْقِي مِنْذُ خَمْسَةِ وَثَلَاثِينَ قَرْنًا  
فِي الْمَكَانِ نَفْسَهُ حَدِيقَةَ وَزِيرٍ نَالَ السُّلْطَانَ وَالْثَرَاءَ بِفَضْلِ امْرَأَةٍ أَوْ عَنْ حَظٍّ سَعِيدٍ ،  
وَمَاذَا رَأَى ؟ وَكَيْفَ بَدَتْ الدَّوْلَةُ الطَّيْبِيَّةُ لِهَذَا الْفَلَّاحِ الَّذِي خَدَمَهَا فِي زَهْرِهَا ؟

وَكَانَ فَلَّاحٌ الْقَرَاعِنَةَ يَعِشُ فِي الْمَحَلِّ عَيْنَهُ وَتَحْتَ ظِلِّ أَجْدَادِ هَذِهِ النَّخْلَةِ فَيَسْتَمِعُ  
ضَجِيجَ الْمَدِينَةِ الْكَبِيرَى الَّتِي يَصِلُ إِلَى سُورِ حَدِيقَتِهِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ طَيِّبٌ بَدَتْ  
لَاوَمِيرُسَ ، أَيْضًا ، أَسْطُورَةً مَجِيدَةً ، « قَصُورُهَا مَمْلُوءَةٌ بِضُرُوبِ النَّقْصِ ،  
وَأَبْوَابُهَا الْمُنْتَهَى لِيُخْرِجَ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا مِثْلًا مُقَاتِلًا مَعَ حُصْنِهِمْ وَعُدَدِهِمْ » .  
وَالْحَقُّ أَنَّ أُوْمِيرُسَ كَانَ يَعِشُ بَعْدَ دَوْرٍ عَظِيمٍ طَيِّبَةٍ بِمِثَالِ السَّنِينَ ، فَلَمَّا مَضَتْ

## يسمع الفلاح ويست

أربعة قرون لم يجد هيرودوتس في مكان طيبة غير « طَيْفٍ ضخم » .  
 وكان الصَّخَبُ كبيراً على صِفَةِ النيل تلك حين إسقاء فلاح الفراغة للأحواض  
 تلك ، وكانت أعظم مدن القرون القديمة فأعنة هنالك ، وكان الفلاح يميزُ نشيدن  
 من خلال الضوضاء ، وهنالك ، حيث كان بضغُ مئاتٍ من إخوانه يُحمّلون سفنَ  
 الفراغة الشراعية أكياسَ القمح ، كانوا يُنشدون قائلين :  
 « نَجْرُ حتى الليل سنابل البرِّ وأكياسَ الحبِّ ، وتطفح الأهرام حتى الدَّرَج ،  
 وتكثر الكدَرُ <sup>(١)</sup> ألف مرة ، وتغطس السفن الواسعة ويملأ القمح الصَّفاف ،  
 ولنحبل بلا راحة ، أفتريدون شُرْبَ دماننا ؟ » .  
 وعند ما قَفَّ ضَجَّةُ تلك الجَوْفَةِ يَسْمَعُ الفلاح عن كَثَبٍ ، وتحت الجُمُيزِ ،  
 حيث تستريح سيدته على بُسْطٍ ، غِنَاءُ هذه السيدة وعيدها :  
 « اشْرَبْ حتى التَّكَلُّ ، وتمتّع بهذا اليوم الجميل ، تُتَرَضَّرُ الجارةُ في النِّفَضة ،  
 فاستغفد من زمك ، أجبَلْ ، حتى الدَّجَجِرُ <sup>(٢)</sup> صُبَّ ثمانى عشرة مرة في كُوْبِي  
 الذهبى ، تر <sup>(٣)</sup> هذا الجَفَافُ الذى لا يُسميه لسان فأضناني » .  
 يَسْمَعُ الفلاحُ ويصنّت ، وهو يُفَكِّرُ أكثر مما يظنُّ سادته ، وتعلم هذا  
 من البردي الخفى ، وفيما هو يهضم بإطعام الطيور المائية في البركة إذ يأتي خَدَمُ  
 آخرون بموائد صغيرة فيقومون بخدمة سادتهم وضيوفِ سادتهم ، ويقفزون  
 الأولاد في داخل المنزل حولَ والديهم مع أقزامهم وبجانين ، ويبدأ العبدُ  
 الكلاب والقرودة لتكمل الوليمة ، ويجد أولئك كل شيء في السرايق وقت  
 المساء ، ويتناوبون بين البيت والحديقة القُصْفِ والضحك والحز والحيعة والمُحَبِّ .

(١) الكدَر : جمع الكدرة ، وهي القبضة من الزرع المحصود — (٢) الدجج : الكر .  
 (٣) ثراه : نداء وبه .

## حياة ترف

وآخرُ الدلائل نادرة ، غير أن الحِجَّة هي مُسَكَّرُ المصريين اليومي ، وكانت الحِجَّة تُصَنِّعُ من القمح المطحون بِمَذَاقٍ حَجَرِيَّةٍ على أن يُبَلَّلَ بِمِدْنَدٍ وَيُسْحَقَ فِي دَنٍّ وَيُمَجَّنُ فِي مُنْخَلٍ ثُمَّ يُمَصَّلُ <sup>(١)</sup> ، وكانت هذه الحِجَّة تُحْفَظُ فِي قُلٍّ <sup>(٢)</sup> وَتُصَمَّ <sup>(٣)</sup> بِالْفِرْنِ ، وكانت تُوضَعُ بِطَاقَاتٍ على جِرَارٍ الخمر للدلالة على قِدَمِهَا ، فَيُكْتَبُ على تلك البطاقات : « جيدة ، جيدة مرتين ، جيدة ثمانى مرات » ، وكانت جميعُ الجِرَارِ تُزَخَرَفُ بِالسُّدُرِ كما تُزَيَّنُ به المائدةُ وشعورُ النساء ، وكان النساءُ يَأْذَنُ للرجال في شَمِّ سَدَّاهُ عليهنَّ ، وكان النساءُ يَتَّقِنُ الخمرَ في بعض الأحيان ، ومن المحتمل أن كان أرسطو يُفَسِّرُ في أفلاطون مصرَ عند ما قال إن سُكَّارَى الخمرِ كانوا يَزْنَمُونَ إلى الأمام ، وسُكَّارَى الحِجَّةِ كانوا يَزْنَمُونَ إلى الوراء .

وهكذا كانوا يَجْلِسُونَ في ناحيةٍ من الحديقة على خُصْرِ مُلَوَّنَةٍ مصنوعةٍ من البرديِّ غيرِ بعيدين من كَوَائِنِ القمح التي كان الطُّهَّاءُ يَشْوُونَ عليها السمك المُسَدَّنَ <sup>(٤)</sup> والإوزَ ، أى أُلْعَمَةَ المصريين المُفَضَّلَةَ ، كما كانوا يَشْوُونَ عليها لحمَ البقر ، وكان النِّفْلَانِ المُرَاةُ والراقصاتُ غيرُ المستوراتِ تقريباً يأخذون من الأوضاع ما هو تصويريٌّ في ليل ذلك الفَرَضِ الذي يُرْسِلُ سُدُولَهُ فَجْأَةً ، أو كانوا يَرْتَقِصُونَ على نور مصابيح زيتٍ صغيرةٍ فيوزَّعون عِطْراً سِدْرِيّاً على أولئك السادة والسيدات بين ما لا حَدَّ له من الحُانِ المُودِّ والقِيثارِ ذى الأوتار السبعة والزمَّارِ المزدوج ، وكان النساءُ يَضْطَجِعْنَ هنالك لابساتٍ ثياباً خفيفةً لا تُعْصِمُهَا شُرْطُ الكَتِفِ إلا للحين الذي يُرِدُّهُ ، وقد كُنَّ يَبْذُلْنَ من العناية بشعرهن ما يُقْضِي

(١) مصله : وضعه في خرق ونحوها ليطهر ماؤه — (٢) القل: جمع القلة ، وهي الجرذ .

(٣) صم : سده — (٤) سفد اللحم : نقله في السفود للاشتواء ، والسفود حديثة يشوى عليها اللحم .

معه ساعات في تمشيطها وتغويجها ومنع رياضها بدَّهانٍ غريب مصنوع من دُهْن بقر الماء وتَمَهْدُهَا بَجَوْهٍ من أسنان الأتان مسحوق مع الصل ، وقد كُنَّ يَتَرَفَّنَ ، أو يُخَيِّلُ إِلَيْهِنَّ ، أن الشمرَ مَقَرٌّ إِرُوس<sup>(١)</sup> كما كُنَّ لهذا السبب يَدُهْنُ أَجْثَانَهُنَّ باللون الأخضر وحواجِبَهُنَّ باللون الأسود مع الإطالة زيادةً في التمتع للحاظِلِينَ وجمالِ عيونهن .

وكان ذلك يَقَعُ بين سنة ٢٠٠٠ وسنة ١٠٠٠ قبل الميلاد ، أى بين إِرَاهِيمَ وأوْبَرِس ، وذلك حين كان العالمُ بأسره مأهولاً بالبرابرة فيما عدا السهل الواقع بين النهرين : الفرات ودجلة .

## ١٢

بلغ قدماء المصريين النايةَ بفضل تَذَوُّقِهِمُ الحَيَاةَ ونشاطِهِمُ الذى يَزِيدُ بِتَمَثُّلِهِمُ المتصل للتجددِ للموت ، وبفضل حَيَّتِهِمُ وسَاءَ شمسِهِمُ وما يُسْتَفِرُّ عنه فيضانُ النيل من رَحَاهُ ، غير أن هذه الأحوال خَطَّتْ حدودَ إحساسِهِمُ ومعرفَتِهِمُ ، ويضاف هذا الإحساس إلى أشدِّ مرج في الحياة ، ولا يكون هذا الإحساس حيث تُؤَدَّى ظِلَالُ الشَّفَقِ إلى حِكْمَةٍ أعمق من تلك ، وتمتدُّ الصحراء بجانب الخُضْرَةِ ، بجانب قُدْرَةِ عِلْمِهِمُ على الإبداع ، والعدمُ يبدأ عندهم حيث يبدأ عالم ما بعد الطبيعة لدى الشعوب الأكثر جِرْماناً من الشمس ، ونشأ عن حرارة عبادتهم للحياة ما في عبادتهم للموت من مخالفةٍ للصواب ، ولا فلسفةٍ لشعب لا ظِلَّ عنده .

وذلك يُوضِّحُ لنا إبداعَ الشعبِ البالغ من الأساس ، وكونه اشتَرَعَ الكتابةَ التى

(١) إِرُوس : اسم يونانى لإله الحب .



### أطباء المصريين

توجب دوام الدولة بالعلم ، لا بالحرب ، وعدم تحليقه في سماء ما بعد الطبيعة فلم يترك أنشودة مؤثرة ولا قصيدة حماسية ولا ديانة حقيقية ، وإنما بعد تخطيط هذه الحدود ومعرفة سنن الطبيعة التي فرضتها لم تر غير الإعجاب بمصر في فجر الحضارة .

وأخذت حيوية ذلك الشعب تبهزنا بعد حلّ الوثائق ، وإذا كانت أقلية من الأغنياء وحدها هي التي تمتص بتلك الحياة فإنه لا ينبغي لنا أن ننسى أن مبدأ المساواة لم يكن موجوداً منذ خمسة آلاف سنة أو ستة آلاف سنة وأن الرقي كان أمراً طبيعياً في مصر أكثر مما لدى الأغارقة ، ولدى النصارى الذين انتهكوا آدبه ، بعد ذلك بزمن طويل .

وبالتحدي أولئك القوم للموت ! فلما بلغ رمسيس الثاني من العمر ثمانين سنة احتفل برجوعه إلى الشباب في عيد ست ، وقد داوم على القيام بمثل ذلك الاحتفال حتى السنة التسعين من عمره ، وكانت كل مسألة تنصب تذكاراً لتلك الاحتفال تشتمل على إنباء الآلهة بذلك الرجوع إلى الشباب ، وكانت تُزخرف بجزجج من الذهب والفضة فتعكس عليه أشعة الشمس وتُملأ مصر بذلك نوراً ، ومما حدث أن هاتف الغيب أنبأ بأن أحد قدماء القراعة ميسيرينوس لا يعيش أكثر من ست سنين فقضى هذا العاهل ألفي اليوم للذين بقياً له في التجوُّر وكذب الآلهة بأن عاش ست سنوات أخر على هذا الطراز .

ودرس أطباء المصريين منذ أقدم الأزمان جسم الإنسان التي يجب أن يبقى بأيّ نمي كان ، ووضع هؤلاء الأطباء أسس علم التشريح وعلم الأمراض ، فكان عند المصريين متخصصون في حال كل عضو أصلي ، ومن المحتمل أن شيئاً في مصر لم يؤثر في هيرودوتس تأثيراً عميقاً أكثر من مشاهدته فيها رجالاً لا يعلمون غير

## القراعة الصائجون

الليبيين صحّة<sup>١</sup>، ويُعدُّ هيرودوتسُ المتخصصين والنسبيلات وكلُّ مرضٍ ينشأ عن التغذية، ويميّز هيرودوتسُ هذه الصحّة العامة إلى تساوى الإقليم فيصْرُخ قائلاً: «يَمُوجُ البلد بالأطباء!».

وإذا ما فاخر بيليس ورمسيس ببلوغ أحدهما الخامسة والتسعين، وبلوغ الآخر المئة من العمر، وإذا ما زعم أحد القراعة أنه جلس على العرش خساً وتسعين سنة، أى أطولَ عهدٍ ذُكر في تاريخ العالم، لم تكن هذه الأرقام قريبةً من الصديق فقط كالأرقام التي جاءت في التوراة ما دامت تنمُّ على فراغةٍ حافظوا على قوتهم حتى النهاية، وكان لرمسيس الأكبر من الذكور ١١١ ولد ومن الإناث ٥٩ ولداً، أى من الأبناء ما يُبدُّ دون الحقيقة عند ما يُنمُّ النظر في أهمية دائرة حريمه، وكان القراعة يُحيطون حتى محاولات القتل بين المكاييد التي لا تحصر لها وبين البنين والصفدة وبين فوات الحقد من النساء والبنات اللاتي ينتظرن موتهم، فإذا عدّوت الثوري الكبير لم نجد من قتلته حاشيته إلا نادراً.

وكانوا من القادمين الذين لا يَرَهَّبون الردى، فكانوا يشتركون شخصياً في الحروب التي يؤقّدون نارها، وقد ثبت عندنا ذلك بما نعرفه من الكتابات والتصاوير الجدارية وحدهما، وبما كان من استمرار الملوك مدة ألف سنة بعد آخر القراعة على دعوة أعدائهم إلى المبارزة وفق العادة.

حتى إن الخطر كان يُلوح في القنينة بعد القنينة حينما كانوا يصطادون الصوّاري التي توارث عن مجرى النيل الأدنى فيتمقبون بقر الماء بالحرايب، فما كان مئة عبدٍ نوبى ليقدروا على إلقاء فرعون عند ما يهاجم هذا الحيوان الضخم فاربّه، وكانت التماسيح تُخادع بقطع من الخنزير قتلاً لها بحطاف<sup>(١)</sup>، فتقدّر،

(١) الحطاف: حديدة يختطف بها.

حتى حين التَّزَع ، على تَلَقُّفٍ<sup>(١)</sup> ذراع أو ساق ، وإذا ما اقتصر أحدُ الفراغة في كتابة على ضريحه بأنه صَرَخَ من الأساد ١٠٨ لم يَكُ هذا غيرَ قصةٍ صائتة ، وكان الصيدُ ، بعد الصيد ، يَتَقَرَّون بطلون الحيوانات للذبوحة ويَحْرِجُونَ ما تحويه كُرُوشُها ، وفي القصة أن رجلاً ابتاع تمساحاً ميتاً فأَتَرى بما وَجَّده من خَلِي ذهبية لم يَهْضُمها مع ضحاياه ، وفي تراجم أولياء الأمور المنقوشة على قبرهم تمجيدٌ للأبطال الذين قَضَوْا على جبارته وأَسودَّ كما في روايات القروسية ، وكانوا يُشِيدُونَ بِذكر أسلافهم في كلِّ مكانٍ فَتَجِدُ ، حتى بين زخارف موائدهم الفضية ، تصويراً لحيوانات النيل والصحراء النادرة .

وم ، إذ يقيمون الدليلَ على بسالتهم وخُبثهم على ذلك الوجه ، كانوا يَحْلِسُونَ أمام أقداح خرم وجِصِّهم ، وَيَتَلَهَّوْنَ بمشاهدة حركاتِ راقصاتهم البهلوانية الرائعة ، وَيُزَلِّون إلى حَوْضِ حديقتهِم قارباً « مع عشرين امرأةً من ذوات الصدور والظهور الكاملة التكوين ، ويُفَطِّون كلَّ واحدةٍ منهنَّ مِجْدَافاً مصنوعاً من الأبنوس المرصَّع بالذهب ، ومشتبلاً على مِقْبَضٍ مُصَفَّحٍ بالذهب والفضة ، ثم يُلقَوْنَ عشرين شَرَكاً عليهن » ، ويُطَافُ في الوقت نفسه بتابوتٍ مشتبَلٍ على مومياء من خشب ، فيُنَشِّدُ عبدُ شاعرٍ مُغَنِّياً لهم :

« اليوم تموت الأبدان كما في الماضي ، ومِصْفاً يحيا ومِصْفاً يصبح غابراً ، وهى تَرَقُدُ مُحَوَّلَةً في الأهرام ، فأين من نَبِيكِهِم الآن ؟ لم يَمُدَّ من القرب واحدٌ منهم قطُّ لِيُلبِّي السكينة في نفوسنا عما وراء ذلك ، كُنْ شجاعاً ، فلا نَقْصَ في منزلِك ، واحتفل بهذا اليوم كأنه خير الأيام ، وصَبِّ المرَّ الصالح على شَرِّكَ واسترْ جِسْمَكَ

(١) تَلَقَّفَ الشيء : بلَّسه .

بكتّان خفيف ، والظلام آتٍ لا ريب فيه ، ولا أحدٌ يَرْجِعُ إلى نهارٍ غادره .  
ولم تَكُ روحيةً قطْ بهجةً الحياة التي تتجلى على ذلك الوجه في جميع تلك  
الصُور الجدارية ، وفي جميع الأفاصيص المكتوبة ، ولعبةُ التردّد هي أكملُ مظاهرهم  
الروحية ، وما أتمَّ كهانهم العلماء من أمورٍ كثيرةٍ قد أتوه في سبيل غايةٍ ، في سبيل  
الدولة ، فكان محلٌّ إعجابٍ لهذا السبب ، والبناء والمهندس ، لا الفكر والشاعرُ ،  
ها اللذان بنالان الثراء والصيتَ ، وكان هدفُ الحياة لدى المصريين أن يندو كثيرَ  
النساء والولد ، فأحدُ الفراعنة يتقبّل ٣١٧ امرأةً غريبةً هديةً في دائرة حريمه ،  
وفرعونٌ آخرٌ يأذن لابنة حاجبه أن تحمِل الثعبان المقدس ، أى التاج ، ما دامت  
تشاطره فرائشه ، وقد نقشَ رمسيسُ الثالث على ضريحه نفسه مع أفراد دائرة حريمه  
فبدا عاريًا وبدتْ نساؤه لابساتٍ قلاندَ ونمالاً فقط ، وهؤلاء النسوة العاريات  
هنّ اللاتي انتعمرن بحياته بعد حين .

ولم تكن للليكات ، حتى القادراتُ منهنّ ، ليستطعن أن يَكُنَّ صاحباتِ  
دوائرٍ للحريم ، وكان من عوامل نسلتين أن يتخذن جميع أساليب الحبِّ ،  
ولو كانت مضادةً للطبيعة على روايةٍ يندار<sup>(١)</sup> ، وكُنَّ يعرفن ، على الخصوص ،  
أنهن يجازفن بحياتهن في كلِّ حين ، وكان الأدبُ المرأى في ذلك الزمن يودّى إلى  
مجازاتهن على انهما كهن في ملاذّ تقرضها العادة على أزواجهن تقريباً ، وما كان بين  
الأخ والأخت من غرامٍ وزواجٍ تقليدًا لزواجات الفراعنة الحكومية الإلهية فنفتَرَضُ  
به ، أيضاً ، وجودَ شيءٍ من الفساد الجنسيِّ ، وفي كثيرٍ من الأفاصيص خيرٌ من  
قتلِ المرأة الخائنة ، ورَمَى جُثثها للكلاب ، ومن ذلك أن زوجَ الساحر الأكبر

(١) يندار : أمير الصراء النوبيين لدى الأغارقة (٥٢١ — ٤٤١ ق . م . ) .

» تعالِ معي إلى الحمام ! «

أَو بَانِرٍ كَانَتْ مِنَ النَّفْثَةِ مَا اسْتَخَفَّتْ مَعَهُ بِنَا لِبَيْلِهَا هَذَا مِنْ قُوَّةِ جَنْسِيَّةٍ وَقُدْرَةٍ عَلَى  
الْعِرَافَةِ قَمَرَتُكَ الْعَاشِقِ تَمَسَّحُ أَهْلِي<sup>(٢)</sup> وَكَتَفِي الزَّوْجِ بِمُحَاقَبَةِ زَوْجَتِهِ بِعِقَابٍ عَادِيٍّ ،  
أَيِ بَحْرِهَا ، وَمِنْ تَمَّ تَرَى أَنَّ الْأَزْوَاجَ الَّذِينَ يُحْتَنَانُونَ<sup>(٣)</sup> كَانُوا ، مِنْذُ عَهْدِ خَوْفُو  
الْبُعِيدِ ، يَشْعُرُونَ بِحَقْدِهِ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَقْلًا مِمَّا عَلَى عَشَائِهِمْ .

وَكَانَ مِنْ شَأْنِ حَيَاةِ الْبَلَاطِ وَمَا فِيهِ مِنْ تَرَفٍّ عَظِيمٍ أَنَّ زَادَ الْمُؤَثَّرُ النَّسْوَئُ  
وَكَثُرَتْ مَكَائِدُ النِّسَاءِ ، وَكَانَ الزَّوْاجُ يُفْرَضُ إِبَادًا لِلْأَعْدَاءِ ، وَكَانَ الثَّغْلَاءُ<sup>(٤)</sup>  
يُفَضَّلُونَ عَلَى أَوْلَادِ الْفِرَاشِ<sup>(٥)</sup> ، وَكَانَتْ ذِكْرَى لَيْلَةٍ غَرَامٍ تُقَرَّرُ أَمْرُ الْمِيرَاثِ وَمَصِيرُ  
الْمَمْلُوكَةِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، وَكَانَ النِّسَاءُ وَالْكُفَّانُ عَلَى اتِّفَاقٍ فِي الْغَالِبِ ، فَكَانَ  
الْبَرِيقُ الَّذِي يُخْرَجُ مِنْ تَحْتِ الرَّبِّ فِي أَثْنَاءِ أَحَدِ الْإِحْتَغَالَاتِ يُعَيِّنُ النَّفِيلَ الَّذِي  
يَنْفَدُو ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْفِرَاعَةِ يَتَزَوَّجُهُ ابْنَةُ فَرَعْنَ .

وَيَمْنَعِي زَمَنٌ فَيَحِلُّ بِمَصْرَ ضَرْبُ مِنَ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ فَتَسْمَعُ الْفَتَاةُ الْبَالِغَةُ  
عَاشِقَهَا وَقَوْلَ لَهُ :

» تَعَالِ مَعِيَ إِلَى الْحَمَامِ ، فَيَلْتَمِ قَبِيضِي الْكَتَائِي الْمَلَكِي رَغَابَتِكَ وَأَحَاسِيْسَكَ ،  
أَذْعُوكَ إِلَى طَرَفِ الْبِرْكَةِ ، فَيَجِيءُ لَتَرَى إِحَاطَةَ الْأَزْهَارِ بِدِنَارِي ، وَهَنَالِكَ أَصْطَادُ  
السَّمَكِ حِينَ أُسْتَبَحَ ، فَتَبْلُغُ أَنْتِ يَدِي بَقْعَةً ، كَنْ رَفِيقِي فِي اللَّاءِ ، غَادِرِ الْأَرْضِ ! .  
وَيَوْذُ الْقَتْلَى الْبَالِغُ أَنَّ يَقُومَ مَقَامَ الْعَبْدِ الَّذِي يُعَرِّى سَيِّدَتَهُ ، وَيَتِمَثَّلُ الْخَاطِرُ  
الْخِلَالِيَّةَ وَيَقُولُ :

» وَلِمَ تَسْكُنُ أُخْتِي بَعِيدَةً فِي النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى مِنَ النَّبْلِ ؟ تَجِدُ بَيْنَ ضِفَّتِي

---

(١) لِحَتَاةٍ : خَاتَمُهُ — (٢) الثَّغْلَاءُ : جَمْعُ الثَّغِيلِ ، وَلَدُ الزَّوْجِ — (٣) الْفِرَاشُ : الزَّوْجُ ،  
فَلِإِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الزَّوْجَيْنِ يُسَمَّى فِرَاشًا لِلْآخَرِ .

### طية

وَضَفَّتْهَا تَسَاحًا كَبِيرًا لَا يُرَاسَى أَحَدًا ، وَأَلْقَى نَفْسِي فِي الْمَاءِ مَعَ ذَلِكَ بَادِنًا بِرَأْسِي ،  
وَيَكْفَأُ جَسَدِي الْمَوْجَ حَتَّى تَصِيرَ الْأَرْضُ تَحْتِ رِجْلِي ، حَتَّى يَتَّصِلَ بَدَنِي بِبَدَنِهَا  
الْمَذْذَبُ ، فَلِذَا مَا أَدْنَيْتَ شَفَتَيْكَ مِنِّي سَكِرْتُ بِبَلَايَةٍ ! » .

### ١٣

كَانَ السُّلْطَانُ أَعْظَمَ بَاحِثٍ لِبَهْجَةِ الْحَيَاةِ عِنْدَهُمْ ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي مَهَرِّ  
الدَّوْلَةِ ، الَّذِي يَرْتَعِ مِنْ أَصْفَرِ جَابٍ إِلَى فَرْعُونَ الْمَوْلَى ، يَطْمَحُ بِبَصَرِهِ إِلَى أَرْقَى  
مَكَانٍ مُمْكِنٍ وَإِلَى نَيْلِ السَّعَادَةِ بِالتَّرَاءِ وَوَلَاءِ الْجُمْهُورِ ، أَيْ بِمَنْصَرِفِي الْجَاهِ ،  
وَكَانَتْ طِيَّةٌ ، قَبْلَ تَأْسِيسِ رُومَةِ بِلْفِ سَنَةِ ، جَامِعَةٌ لِكُلِّ مَا عِنْدَ الشُّعُوبِ  
الْمَخَاضَةِ وَلِكُلِّ مَا يَأْتِي بِهِ التِّجَارُ مِنْ شَوَاطِئِ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ وَشَرْقِ إفْرِيقِيَّةِ ، فَلَمَّا  
بَسَطَ أَصْحَابُ مِصْرَ الْعِلْيَا سُلْطَانَهُمْ عَلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ قَبْلَ الْبِلَادِ بِأَلْفِي سَنَةِ أَقَامَتِ الْأُسْرُ  
لِلْمَلِكَةِ فِي الدَّوْلَةِ الْوَسْطَى وَالْدَّوْلَةِ الْجَدِيدَةِ هُنَاكَ مِثَالِ الْعَابِدِ وَالْقُصُورِ فَتَجَمَّعَتْ  
نَحْوَهَا الْخَازِنُ وَالْمَصَانِعُ وَالْمَخَابِئُ وَمَا لَا يَمْتَدُّ إِلَيْهِ الْبَصَرُ مِنْ أَحْيَاءِ الْفَنَاءِ<sup>(١)</sup> وَأُكُوَانِ  
الْفُقَرَاءِ فَرُؤِي أَنْ سَكَانَ تِلْكَ الْمَدِينَةِ بَلَفُوا مِنَ الْمَدَدِ مِليونًا ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ جَمِيعِ  
هَذَا بَيْتٍ وَلَا قَصْرٍ لِمَا كَانَ مِنْ بِنَاءِ كُلِّ فَرْعُونَ لِنَفْسِهِ مَنَازِلَ خَفِيفَةً قَطْعًا ،  
وَلَمْ يَبْقَ هُنَاكَ غَيْرُ الْقُبُورِ وَأَعْمَدَةِ الْمَابِدِ ، وَقَدْ زَالَ كُلُّ أَمْرٍ آخَرَ مِنْ آثَارِ  
الْإِنْسَانِ هُنَاكَ .

وَكَانَ يَصِلُ بِطَرِيقِ النِّيلِ كُلِّ مَا نَعِيشُ بِهِ أَوَّلَى الْمَوَاصِمِ الْكُبْرَى تِلْكَ ،

(١) الْفَنَاءُ : جَمْعُ الْمُنَى ، وَهُوَ الْمَرْتَلُ .

يُعلم جميع من هم تحت إمرته

فكانت المراكب الشراعية الكبرى تأتيها من الجنوب بالأعمدة والسلاط وبما هو ضروري لإنشاء الجسور والمابدوتيجان الأعمدة من الفرائيت والحجر الكليسي، وكانت المراكب الخفيفة تأتيها بالبردي والطيور والسلك والخضر، وكانت تصل إليها من الشمال، أي من الدلتا ومنغيس، أساطيل حقيقية مشحونة بالبر، وكانت هذه الحركة التجارية تدوم العام كله، كانت تدوم من يوليه إلى يوليه، لئلا يكاد ينبت حول طيبة ما يكفي لتكوين قرية واحدة، وبما كان يحدث أحياناً أن تمر السلع النادرة من الدلتا آتية من جزر البحر المتوسط ومن سواحل البلدان المادية أو الصديقة، ومن قبرس وإفريطس وبابل وسورية وبلاد العرب، وكانت تلك السلع مؤلفة من الحرير والمعادن والفواكه والخمر على حين يرد من الجنوب خشب التوبه والحجارة الثمينة والأزورد واليصب والعيد والذهب، وما كان الذهب، الذي هو مصدر كل سلطان، يجي من إثيوبية وحدها، بل كان يجي من الدلتا وسيناء وسورية وتبريز.

وكانت ألوف المرأة من الآدميين بتلك الصفة تصان في ألف سنة تفرغ جميع ما يجلبه النهر، وكان السيلان والقيضان في مجرى النهر القوقاني يحيلان السفن التي لا يزعبها سوى الأمواج وكثبان الرمل، وكانت الثيران والبقران والعبدان تجذبها في مجرى النهر التحتاني فيكون للملك بذلك ما يقضي به جميع أوطاره. ولا تقل رغبة الشخصية وحدها، فهو لكي يدافع عن حياته ويحافظ على سلطانه كان زاماً عليه أن يعلم جميع من هم تحت إمرته من الفلاحين الذين يمتثلون كل شيء ومن ألوف أسارى الحرب الذين هم من المدنيين والكنعانيين واليبين والنوبيين ومن إليهم من الصيد الفرياء الذين يمتد النفوذ في هوسهم، ثم من يجتفل

الكتبة والحاسين والموظفين والمديرين والشُرطيين الحارسين للملك مع استنزاف خزائنه ، وبما لا يُحصىه عدٌ من قِطَاع المواشى التى تساوى الملايين ، ومن أوف الثيران الموقوفة على الإله ، ومن ثمَّ على فرعون .

وذلك لأن فرعون نفسه كان إلهًا ، وهذا ينطوى على سرٍّ فراعنة مصر ، ولم يظهر على ضفاف القرات ملكٌ فى ذلك الحين كان من الجرأة ما يجهر به بأنه إلهٌ كفرعون على ضفاف النيل ، ويتنقى دُور القبائل المتساوية حقوقًا ، ويلوح أن حكومة من الأعيان اختارت أقدر رجالها أو أوسمهم حيلةً رئيساً لها ، ويشيد هذا الرئيسُ نفسه معبداً ويُعلن الكهَّانُ ، عن خوفٍ أو عن طمع ، أنه الكاهنُ الأعظم ، ويُلقى منصبُ الوسيط المُنصف بين الربِّ والشعب ، ويُفرض لمعرفة مشيئة الآلهة أن يخاطب ، فيما بعد ، ذلك الذى يَقْبِضُ على زمام السلطة فى البلد والذى يتحمل ، بحكم الطبيعة ، قدرةً خارقة للعادة والذى يُصرِّح بأنه وارثُ لأوزيريس وابنُ له ، ويقعُ هذا منذ عهد الدولة القديمة ، أى قبل إقامة سُنْفيس ، وينادى الملكُ الأولُ الذى وَحَدَ شمال مصر وجنوبها ، ميناء ، بنفسه وارثاً لأوزيريس ومليكاً للأرض الخصيبة ، وكان هذا قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة .

وكان باني الهرم الأعظم خُوفو قد حملَ لقب ابن أوزيريس ، « ابن رع » ، موحِّداً السماء والأرض بذلك ، وإذ أن فرعون ابنُ الله وكاهنٌ وحاكمٌ وقائدٌ جيوشٍ وساحرٌ فإن له كلَّ شئ . فإن له الينابيع والنبات والحيوان والإنسان ، وعادت الأرض فى هذا البلد ، حيث كان الحكم لأشجع الناس وحيث كان هذا الشخص يُقدِّم حساباً عن نفقاته لأمثاله فى كلِّ عام مرتين ، ملكٌ إلهٌ لا رقيبَ عليه ، ولهذا الإله أن يُقرَّر كلُّ نظام للجمع حتى فى مملكة الأموات ، وقد أُبيح



### يسجدون أمامه

كلُّ شيءٍ لابن أوزيريس ، وقد صار كلُّ شيءٍ ممكنًا لابن أوزيريس ، أَقَلَّ يَقْرَأُ في سائس على قاعدةٍ أمه إيزيس : « إنني كلُّ شيءٍ . كان ويكون وسيكون ، وما استطاع إنسان أن يَرَفَعَ الثَّقَابَ الذي يسترنى ؟ » وَيَقْنِي هذا عند فرعون « أن كلَّ شيءٍ يَرُوقني عادلٌ وأن كلَّ شيءٍ يُكَدِّرُنِي جائرٌ » .

وكان القوم يَسْجُدُونَ أمامه كما يَسْجُدُونَ أمامَ صنم ، وكان من الحظوة أن تُقْبَلَ رِجْلُهُ بدلًا من تقبيل الأرض التي أمامه ، ولم يكن لينطق باسمه في البلاط ، وكان يقال : الطاعة في القصر ، الإله ، أَرَبَ به ، فكيف يحافظ وارثٌ أو حديثُ نصبةٍ على توازنه تجاه هذا ؟ وإذا سأل مستشارو فرعون رأيَه حَوْلَ بئرِ مُنْحَرٍ في حدِّ الصحراء أخذ الزير يُقول : « أنت شبيهٌ برع في كلِّ شيءٍ ، وكلُّ شيءٍ يَوْذُ فَوَازِكُكُ كائنٌ ، وإذا رَغِبْتَ في شيءٍ لِيلاً حَقَّقَ فَجْراً ، وإذا قَلْتَ للماء اغلُ الجبلَ هاج البحرُ المحيط وماج » .

وكان فرعون ، الذي لا يستطيع النوم مع هذا الخطاب ، يأخذ من أمراء حلفاء بأسية مثل الكتاب الآتي : « أرسل إلى ذهباً ، فقد كان أبوك يُرسل إلى ذهباً » ، وَعَجِبَ سَعْوَةُ الأميرُ البعيدُ يابِلَ من عدم أخذه ذهباً فقال : « تَسْتَقْبَلُ رُسُلِي بِناتِي التزوجاتِ ملوكاً فَيَقْدَمْنَ إلى ذهباً معهم » ، واسمع جوابَ توثموزيس عن ذلك : « أجلْ ، إن جوارك من اللوك أقويله جدًّا ، ولكن ماذا تَمْلِكُ ابنتُك التي هي بجانبِي ؟ فلو حَدَّثَ أن أرسلتها إلى مع شيءٍ قليل منك لأرسلتُ الآن هديةً ثمينةً إليك ، وذلك لأنك تُزَوِّجُ بناتِكَ اثنتال فوائدٍ من وراء ذلك » .

وكان لحكومتهم الإلهية نظامٌ عجيب ، ولكن مع عدم صلاحِ بِأَلَمِ الآلهة الحقيقيِّ ، فكان هذا النظام يَنْمُو وَيَزُولُ كالقنابة البكر ، وكان ما يدور حَوْلَ الآلهة التي كان

### « الروح القدس »

فرعونُ ابناً لها من عقائد وأساطير وأسماء وخصائص يَتَغَيَّرُ في غضون القرون ويتبدل بحسب الأماكن في الوقت نفسه ، ويُمدُّ آمون رَعِ الإله الأعلى على العموم .  
وتَضَعُ امرأةٌ أحدَ الفراعنة قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة ، ولكن بفضل « الروح القدس » .

ولم يَصْلُحْ هذا الأصلُ المزعومُ أنه إلهيٌّ لغير تلقين الجماعات ، ولم يَظَلَّ ضرباً من الطُّقُوسِ فقط ، وكان الرجال الذين ما اضْطُّكُوا يُولَّهونُ أُسْراً مالكةً جديدةً ، ويَبْدُونُ رؤساءً للجيش أو الأقاليم ، يمتدِّونَ صِحَّةً ما لم يكن لدى آبائهم الساذجين الساكرين سوى وسيلةٍ للسيطرة ، وكانت تُفَوِّزُهُمُ روحُ النقد والنكتة والحكمة ، وكانوا يمتدِّونَ أنهم من الآلهة حقاً ، وبلت الآلهةُ والأجدادُ والآباء من النزول عن المرتبة ما عادت معه لا تكون سوى خيالٍ للفراغنة ، ولم يُسَمَّ الكهَّانُ أن وَضَعُوا جميعاً ما تقدم في صيغٍ دينية .

ويظهر أن أمينوفيس الثالث كان أولَ مَنْ أنشأ معابدَ لنفسه فَيُعْبَدُ فيها مثاله في أثناء حياته ، وكان آمونُ يَشْكُرُ هنالك « لابنه ومثاله إلهيٌّ » وَيَهْتَفُ هنالك قائلاً : « أَتَيْتُ بالمعجزات من أجلِ جلالتك ، وأوَّلَى وجهي شَطْرَ الجنوب حتى يَخْضَعُ أكابر بلاد النوبة لك » .

وظلَّت عبادة النفس قائمةً على مرَّ القرون مجردةً من أيِّ تبجيل للآباء ، حتى إن من الفراعنة الأتقياء ، كرمسيس الثاني ، مَنْ طَمَسَ في المعابد اسمَ أجداده الحقيقيين حتى يَتَبَدَّلَ اسمه بها ، وبلَّت تماثيلُ الآلهة المنحوتة من مشابهة الفراعنة ما كان يُقالُ معه إن آمونَ شبيهٌ بفرعونِ الحالِي ، بدلاً من أن يُقالَ إن فرعونَ الحالِي شبيهٌ بآمون .

كان لا بُدَّ من تخدير مسرحيٍّ سَحْلًا للشعب على دوام الإيمان بطبيعة فرعون الإلهية ، وكان لا بُدَّ من حروبٍ تَسِمُ بنصرٍ عزيز ، أو كان لا بُدَّ من إقامة أعيادٍ كثيرة في أثناء السنة يُعِينُ عليها الكهَّان حتى يَبْدُو فرعونُ مُغْرِبًا ، وكان ملوكُ الدولة القديمة يطوفون فرسانًا مُزَيَّنِينَ بأذنانٍ أُسدٍ يَهْرَأُ للناس .

وكان الجمهور المبهوتُ يُبْصِرُ في طيبة ، وعلى طول شارع تماثيل أبي الهول ، مرورَ مَوَكِبٍ من الأُمَرَى والكهنة والشعُوزين وأنواع الحيوان ، ثم يَظْهَرُ سَحْلٌ على أكتاف اثني عشرَ جنديًا ، ويَحُفُّ من حَوْلِ هؤلاء الجنود حَمَلَةٌ مَذَابٌ<sup>(١)</sup> وَيَتَقَدَّمُ السَّحْلُ عُدَاهُ<sup>(٢)</sup> يَذْخَرُونَ الحضورَ بالعِصَى فيزيدون بذلك حُبَّ الاطلاع فيهم ! وَيَجْلِسُ فرعونُ في السَّحْلِ صاحبًا لحيةً حَادَّةً مستعارةً ، وواضعا على رأسه نَاجَا مَزَيَّنًا بِصِلٍ<sup>(٣)</sup> ذهبيٍّ منتصب أمام أعدائه ، وَيَقْلُو السِّلَّ تاجٌ مزدوجٌ رمزاً إلى مصرَ العليا ومصرَ الدنيا ، وَيَحْمِلُ بيده صَوْلْجَانًا وَسَوْطًا فيَقُومُ هذان الرمزان في الوقت نفسه مقام المَذْبَةِ عند هذا المصريِّ الصِّلِيَّ ، ثم تأتي سَحَائِلُ النساء والأميرات وعربائهن وتأتي بِطَانَةٍ كافي النأي السَّحْرَى<sup>(٤)</sup>

وكانت السفينة الملكية الكبرى تسير على النيل مع شراعها العظيم الذي يُمَسِّكُه بالسارية الكبرى حبلٌ متينٌ فيستقرُّ فرعونُ تحته أمام حُجَيْرَتِهِ ، وَيَفْسَحُ

(١) المذاب : جمع المذبة، وهي ما يدفع به القباب (٢) العداة: جمع العادي، وهو الراكن .

(٣) الصل : الحية الحيشة جداً — (٤) النأي السحري : اسم رواية غنائية لموزار .

الْجُذَّافُ فِي الْجَالِ لِلْحُجَبَاتِ وَالْحَاشِيَةِ وَالْمَاشِيَةِ فَيَصْطَقُونَ حَوْلَ حَيْزُومِ السَّفِينَةِ<sup>(١)</sup>.  
وكان الوم يُجَدَّد في كلِّ عيد ، وكانت تُنْصَب على جُدْر جميع المعابد صُورٌ  
عظيمة لفرعون وهو يَسْحَق أعداءه ، وإذا ما تَلَكَّت القوم مِلْكَةً بَجَلَتْ نفسها  
بمثل صورة الإله في جميع الأمور الرَّبَّانِيَّة .

وهل كان كثير من المصريين يعتقدون أوهية من يَمْلِكُونهم ؟ كان القوم  
البُسْطَله بعض البسطة في الدولة القديمة يُمَجِّدُون ، مثل إله ، فرعون الجَوَّال  
بينهم ، الظاهر لجميعهم ، الموزَّع للأجر والعقاب بينهم ، وينهض مبكراً فيطوف براكباً  
حصاناً ويزور المقالع ويأمرُ بِحَفْرِ الْقَنَوَات ، ويأكلُ وينام ككثير الناس ويخاطر  
بحياته في الممارك ، ويمدُّ خالداً مع ذلك لأنه هُورُوسُ وإن كان يَعْبُدُ الإله  
هُورُوسَ ، ويكرُّ الزمن ، ويبلغُ النظامُ اللدني والديني من التعقيد ، ويفدو المعنى  
الاجتماعي من التمسُّ لى الشعب ، ما يرى فرعونُ بلا انقطاع أن يُوكِّدَ معه  
اكثرائه ورحمته وتيمته تجاه الشعب وإخلاصه نحو الدولة ، وعاد فرعون لا يفرض  
نفسه على الجميع مثل إله لا يصلُ إليه سلطانُ النقد ، بل أخذ يَتَدَوُّ مثل مَلِكٍ  
كريم يومَ قِضَانِ النِيل ، في العام الجديد ، فيوزَّعُ العَرَبَاتِ القِضِيَّةَ ويوزَّعُ  
تَمَنَّاهُ العَاجِيَّ وتَمَنَّيْلَ لَأَبِي المَوَلِ على صورته وعُدَّةَ أسلحةٍ وجِجَاباً<sup>(٢)</sup> وسيفاً ومَرَايا  
من المعادن الثمينة ، ومن النادر أن كان يُوقَدُ نارَ الحرب .

وليس التاريخُ من عَمَلِ الحرب في تلك الواحة ، وما كان ذلك الوادي العجيبُ  
الواقع بين صحراويين والماطل من المطر والجارِ لِيَحْضُرَ على الفتوح أو لِيَتَقَبَّلَ الفاتحين ،  
وكان لا مناص من البحث عن الذهب ، أَجَلْ ، كان كثير من الأدوات يَرُدُّ إلى

(١) حيزوم الفينة : مقعدها — (٢) الجباب : جمع الجمبة ، وهي كناية عن الشهاب .

٣٠ — قرية على حائل النيل





### نصيب الجندي دون نصيب الكاتب

الدلتا بواسطة شعوب سورية، ولكن التجارة في قرون كثيرة ظلت وسيلة صلات بين مصر وآسية الصغرى وشرق إفريقية، ولم تمان مصر سلطان الأجنبي غير ثلاثئة سنة من ٢٧٠٠ سنة، ولم يحتل الإثيوبيون والليبيون مصر إلا جزئياً ولوقت قصير، ولم يبق من المكسوس<sup>(١)</sup>، الذين مكثوا بمصر قرناً فكان أمر عرقهم موضع جدل بين العلماء، غير رأيهم في قرن الخيل بالمرات الحرية وغير أخذ وتهم المستلثة إن أحد ملوكهم الساكن في الدلتا طلب من أمير طيبة أن يذبح ما كان في النيل من بقر الماء لعدم توفيه بسبب خواره.

ولم يبق أثر للعروق الثلاثة أو الأربعة التي غزت البلاد، ولم تنل مصر فائدة من الفتح التي قامت بها، ولم يأت الحاربون المظلمة توموزيس الثالث وأمنوفيس الثاني وسيتوس الأول بشيء في سبيل مجد مصر، ولا يعرف المؤرخ غير خير مآثرهم، أي أنهم بلفوا القرات والنيل الأبيض، بيد أن العالم ينظر بعين الإعجاب إلى أعدة معابد رمسيس الثاني التي لم يتم في عهده، أي في سبع وستين سنة، بأي فتح، والذي ترك شمال سورية للحيثيين كتباً لصدقتهم، وما كانت الواحات لتنتفر عن محاربيهن، وكان أحسن الجنود لدى أصحاب هذه الواحات من النوبيين وأسرى الآسيويين الذين يذهبون إلى الحرب غير آسفين على النيل غير مفكرين فيه.

ويعبر أستاذ<sup>(٢)</sup>، في تاريخ شعبي، في ضرب من الشعر المدرسي، عن الرأي السائر حول الجندي كما يأتي: «أَوْ تَقُلُّ أَنْ نَصِيبَهُ أَفْضَلُ مِنْ نَصِيبِ الْكَاتِبِ؟

(١) اللوك الرعاة — (٢) هو الأستاذ موره في كتاب Le Nil et la Civilisation Egyptienne  
( النيل والحضارة المصرية )

## أسطورة سيكت

هو يُؤخَذ في صباه ويَحْتَبَس في ثُكَنَةٍ ، ويُضْرَب على بطنه وعلى حاجبه فيَبْدُو كأنه كَبِيرُ الرَأْس ، ثُمَّ يُخَبَطُ كما يُخَبَطُ الْبَرْدِيُّ ، وَهَلْ أَقْصَى عَلَيْكَ نَبَأُ رَحْنِهِ إِلَى سُورِيَةِ ؟ هُوَ يُحْمَلُ خَبْرًا وَمَاءً كَالْحَمَارِ فَيُظَهَرُ أَحَدَ الْظَهْرِ ، ثُمَّ لَا يَكُونُ عِنْدَهُ غَيْرُ مَاءٍ نَتْنٍ ، ثُمَّ يَلُوحُ الْعَدُوُّ فَيَقَعُ أُسِيرًا كَالْمُصْفُورِ لَتَصَلِّبَ أَعْضَانَهُ ، وَإِذَا مَا قُيِّضَ لَهُ أَنْ يَعُودَ إِلَى بِلَدِهِ كَانَ كَالنَّشْبِ النَّخِيرِ ، وَأُعِيدَ عَلَى حِمَارٍ ، وَقَدْ سُرِقَتْ ثِيَابُهُ مِنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ لِرَحِيلِ خَادِمِهِ ، فَغَيَّرَ رَأْيَكَ أَيُّهَا الْكَاتِبُ إِنِّي نَهَ وَقُلْ إِذَنْ :  
إِنْ نَصِيبَ الْكَاتِبِ خَيْرٌ مِنْ نَصِيبِ الْجُنْدِيِّ .

وَفِي أُسْطُورَةٍ بِالْإِلَهِةِ الْحَرْبِ الَّتِي لَهَا رَأْسُ الْإِبْهَةِ<sup>(١)</sup> سَيَكُنُ تَصْيِيرٌ عَنْ كَاتِبَةٍ فَطَاعَةِ الْحَرْبِ ، فَلَمَّا شَابَ رَعَ أَرْسَلَهَا إِلَى الْأَرْضِ لِاسْتِصْالِ أَعْدَائِهِ النَّاسِ ، فَانْطَلَقَتْ وَتَغَمَّرَتْ إِحْدَى الذَّنَجِ بِحِمَامٍ مِنَ السَّمَاءِ ، فَلَمَّا أَبْصَرَ رَعَ ذَلِكَ وَقْتَ الصَّبَاحِ قَالَ مَذْعُورًا لَخَدَمِهِ : « أَفْضَلُ حَيَاةِ الْبَشَرِ . . . فَلْتَنْمَرْ جَمِيعُ الْحَقُولِ بِالسُّكْرِ مِنَ السَّائِلِ الْأَحْمَرِ » ، وَتَعُوذُ الْإِلَهِةُ وَتَنْظُرُ إِلَى خِيَالِهَا فِي الْمَائِعِ وَتَشْرَبُ مِنْهُ وَتَسْكُرُ فَلَا تَعْرِفُ النَّاسَ بِذَنُورٍ وَتَدْعُهُمْ آمَنِينَ .

## ١٥

النَّيْلُ ، لَا الْحَرْبُ ، هُوَ الَّذِي عَيَّنَ مَصِيرَ ذَلِكَ الشَّعْبِ ، وَمَا أَسْفَرَ عَنْهُ النَّيْلُ مِنْ اكْتِسَابِ الْبِلَادِ شِكْلًا مُلْتَوِيًا كَالْجِلْدِ قَدْ حَالَ دُونَ نَيْلٍ وَلَيْلٍ وَجِهَةً نَظَرٍ يَرْقُبُهُ بِهَا ، وَيُمْكِنُ طَرَفَهُ أَنْ يُفْصَلَ عَنْهُ كَالثَّعْبَانِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤَثَّرَ ذَلِكَ فِي أَعْضَانِهِ

.. (١) الْإِبْهَةُ : أُنْثَى الْأَسَدِ .



### النيل يقوى ميل الأمة إلى التعاون

المركية ، وكان فرعونُ ، لكي يَصْغَحَ حَدًّا الصراعَ الرُّمَاءَ المتصل ضدّه ، يَمْتَلِ على إلقاء الرُّعْبِ في قلوبهم بماله من أصلٍ إلهي ، وكان يَرْقُبُهُمْ بما لديه من سلسلة مراتب وما يُوجِبُهُ من إعجابهم به ، وما بين الآلهة من صلة دينية ، وما في النظام القرطاسي من علاقة واقعية ، فتقوم عليهما طُرُقُ فرعون في الحكم .

وعلى ما لسيّد الناس والأراضي هذا من سلطانٍ كان يُمرِّضُ لَصَيَّاعِ كُلِّ شَيْءٍ عند كلِّ فيضانٍ للنيل إذا لم يهيم على هذا الفيضان ، إذا لم يوزع الماء بقنّواته ، إذا لم يزد الأرزاق والجَرَائِزَ<sup>(١)</sup> ، وما كان حتى اليوم من استعمال أمراء البرابرة لقوَّاهم في مغازي قطع الطرق وفي محاربة ضِعاف الجيران أو أغنيائهم فكانت حكومة القراعنة تَتَّخِذُهُ في إصلاح نظامها ، والنيلُ ، منذ تلك الأزمنة القديمة ، سَحَلَّ القراعنة على تأليف أمةٍ من الفلاحين ، لا من الحاربين ، والنيلُ ، بدلاً من الجَبَرَوْتِ ، سَحَلَّ القراعنة على إقامة دولة إقطاعية اكتُشِفَ فيها العلمُ والقرنُ لَقَهَرِ النهر وارتقت فيها إطاعة السيد إلى مرتبة الألفة ودرجة التعاون ، وفي سبيل دراسة النيل يُفرَّقُ بين البرُوج في عالم النجوم ، وفي سبيل توزيع النيل تُقسَمُ الأرضُ إلى قسَمٍ تُصَغَّرُ مقداراً فمقداراً ، والنيلُ من ناحيته يُقَوِّمُ قابليات هذه الأمة وميلها إلى التعاون داخلاً وخارجاً .

وكان إيمانُ فُلاحٍ أذْفُو بحكمة الحكومة يزيد كلما أبصر الرسول الحامل علاماتٍ مقياس النيل من جزيرة القيل يصلُ لِيُقَدِّمَ أرقامه في قوائمٍ تَسَكِّيَّةٍ ويقابلُ فيها بينها ، وكان زَعَمُ فرعون أنه ابنُ لهوَرُوسٍ يُؤَيِّدُ بِمِخْذَقِهِ في حساب الحصول سلفاً ، وكان فرعونُ حليفَ العناصر ، وكان القَلاحُ يسألُ في نفسه ، مستطعماً ، عن مَدَى

(١) الجراية : ما يتاله الجندي كل يوم .

### ابتهال الكاهن

خضوع هذه العناصر لفرعون، وكان يُقال للفلاح في العبد : « إن فرعون يأمر النيل بالارتفاع ، فيطيعه النيلُ في أخرج ساعة ، أى حين يُوشِكُ أن يتوارى في الهاوية » .

وإن الأمر لكذلك إذ يسمع الفلاحُ ابتهالَ الكاهن إلى النيل بنشيدٍ بالغِ القَدَمِ منقولٍ على جُدْر طيبة ، وإليكه :

« السلامُ عليك أيها النيل الذى يَخْرُجُ من الأرض لِيُعْذَى مصرَ ، والذى يَخْرُجُ من الظُّلُماتِ إلى النور لِيَشَادَ برورده ، أنت تَسْقِي الحَقولَ ، وقد خَلَقْتَ رَعَ لِنُطْعِمَ القِطَاعَ ، أنت تَرْوِي حَتَّى الصَّحراءَ البعيدةَ من كلِّ ماء ، ما دام الطَّلُّ هو الذى يَنْزِلُ من السماء ، وإذا ما كان النيلُ مِكْسَالاً سُدَّتْ الأنوفُ وهَزَلِ الناسُ وزالتِ القرايين وماتت الملايين ، وإذا ما ارتفع النيلُ كانت الأرضُ في سرورٍ وكانت المِعْدُ في حُبُورٍ ، وَصَحِكَتِ الظُّهُورُ وابْتَسَمَتِ الثُّنُورُ .

« والنيلُ هو الذى يُنْبِتُ الشجرَ ويُفْجِ الشُّفْنَ لَتَعْدُرَ صَنِيعُهَا من الحجارة ، ومن ذا الذى يَجْرُو أَنْ يَسْبِغَكَ بالبحر الذى لا يُخْرِجُ حَبًّا أيها النيلُ الكريمُ الذى يَرْوِي المروجَ وَيَهْبُ القُوَّةَ إلى الناسِ ؟

« وإذا ما جاء فيضانُكَ قَدَمْنَا الضَّحَايا إليك ، وَدَبَحْنَا بَقْرًا وَسَمْنَا إِبْرًا وَاحْتَبَلْنَا<sup>(١)</sup> وَحَوْلًا في الصَّحراءَ لَنَرُدَّ إِلَيْكَ الْخَيْرَ الذى تُنْعِمُ بِهِ علينا ، وَلِنَتَوَسَّلَ إلى الآلهةِ التَّسعةِ إِذْنُ ، وَلِنَخْشَ القُدْرَةَ التى يُبْذِيها سيدُ الدُّنيا ، أنت الذى يَجْعَلُ الضَّغافَ خُضْرًا ، أنت الذى يَقُوْتُ الناسَ بِفَضْلِ قِطَاعِهِ ، أنت الذى يَقُوْتُ القِطَاعَ بِفَضْلِ المَرْعى ، أيها النيلُ ، أنت مُخَضَّرُ ! أيها النيلُ ، أنت مُخَضَّرُ ! » .

(١) احتبل الصيد : أخذه بالبالاة .

### امتزاج جيل

وهكذا يمتزج بعض رموز الآلهة وأعمالها ببعض امتزاجاً جليلاً ، وكان المصريون يجهلون سلسلة المراتب بين الآلهة لميجرهم عن تنظيم ما يتغير إدراكه ، والمصريون ، على العكس من ذلك ، كان لهم بما هو مادي من فنّ الإنسان وقُدرة الدولة ما يصلح لإقامة الهرم العجيب ، والنيل ، عُصراً ، قوة غامضة هائلة ، والنيل في الدولة أمرٌ منظمٌ ، وكلُّ حوضٍ يُحدث ولايةً زراعية ، ويتوقف أمرُ كلِّ منطقة على المناطق المجاورة ، ويُديرُ الماء كلُّ مديرٍ ناظرًا إلى حساب الجار ، ويُعتبرُ اللديرون عن رغائبهم للسلطة المركزية فتقرّر هذه السلطة ما ترى ، وهكذا يؤدي النيل إلى نظام الحكم المطلق ، ولم يقدّ فرعون ابنًا حقيقياً لإله إلا بعد أن اتحل لقب ابن هيس ، فصار يُحتسب ، من بين جميع الآلهة ، هيس ، النيل ، على الخصوص . ويشتمل « عمود سني المجاعة السبع » ، على كتابة من أقدم كتابات مصر ، ويحتمل أن هذه الكتابة أقدم من الأهرام ، ويثن أحد القرائن على هذا العمود بما يأتي : « لم يرتفع النيل منذ سبع سنين ، ويعوزنا الحب ، وقد جفت الحقول ، وعاد الرجل لا يذفن جاره ، وصار الجميع يقرّ على الأبرّج ، ويبسّ الولد ، ويذوي الشاب ، ويذبل الثائب ، وتزول قوة سوقيهم ، ويحلبسون القرفصاء على الأرض متكتفين » ، ويكون النيل مؤذياً إذا زادت قوته كثيراً ، ويعضى أفا سنة على ذلك فيقول أحد فرائع الأثرية الثالثة والعشرين متحسراً : « أصبح الوادي مجراً بأنسره ، ومثلت المعابد بالماء ، فلوح أن الناس تحوّلوا إلى طيور مائية » . ومع ذلك يتندر أن نضع نكبة كتلك بُنيان تلك السلسلة المُحكّم ، ذلك النظام الذي هو أعجب ما في القرون القديمة والذي لم يفتّه شيء عصرى قط ، ويشتمل هذا النظام على « جميع ما أسسه فتاح وكتبه في السماء ، وتبصر الشمس

### يأتى الكهنة بعد الملك

والقمر والعناصر الأخرى فى الأعلى ، ثم يأتى العالم بأجمعه من الموجودات العلوية والآلهة والإلهات والملك والمملكة ووزير الملك إلى موظفى طيبة والولاية والوادى مع كل ما يخص المعابد والقانون والمالية والجيش فالى كتبة الملك وصناعه ونحاتيه وتجاريه وحذائيه ، وتقف القائمة عند هذا الحد .

وإن نظاماً كنظام بقاء الدولة هذا يسير من الشمس حتى الحذاء لإظهار فرعون قريباً من الشمس ويهيم على شعب مؤلف من ثمانية ملايين نفس مما لم يعرفه التاريخ قبل ذلك قط ، وسيظهر هذا النظام جميع طغاة المستقبل المفطورين ، وكان هناك شعب يؤله ملوكه ، ولم تكن المصادفة هى التى ساقطت قيصراً ونابليون إلى أبى المول ، وساورت الأغارقة الأولين الذين دنوا من النيل روى روائية ، وما فئ النيل بدم يسبح جميع من دخلوا مصر من الروح الفرعونية ، وكان الإنكليز آخرهم .

ويأتى الكهنة على ذروة الهرم ويبتدئ الملك ، أجل ، إن فرعون يعلم إلهاً ، ولكنهم لا يفعلون عنه حرفة عين ، والكهنة يتداولون السلطان مدة أقدم من مدة أسر الملوك المتبدلة ، والكهنة أسقطوا أكثر من فرعون واحد ، وإذا ما توجه فرعون ، عن نعمة ، إلى تمثال أبيه الرب أمسك كاهنان يديه ، وإذا ما رفع فرعون عينيه وضع كاهنان قناع الباز وقناع إيس لتمثيل هوروس وتوت ، وإذا ما ركب فرعون وتماقب هو والكهنة تلاوة الأدعية على تمزييمهم<sup>(١)</sup> على الدوام ، ولما حاول أكثر القراعة إمتناعاً أن يثور على الكهنة ذات مرة خرج من ذلك خاسراً .

(١) عزم الرافى : قرأ الزمام ، ومى جم العزعة ، أى الرقية .

### ثروة الكهنة

وكان همُّ الكهنة مصروفًا إلى تَبْلِ الذهب والوِاشي والأراضى ، وأن يَتَسَمَّوا ، هكذا ، بأَطْيَاب الحياة وملأذَّ السلطان ، وما يُقَدَّمُ إلى المبد وما هو خاصُّ بالمبد فيمُدُّ مالا لهم ، وتَدُلُّ سجلاتُ قبور الفراعنة على أن الكهنة كانوا يَمْلِكُونَ فى طيبةً وحدَها ٨٠٠٠٠ عبد و٢٠٠٠٠ رأس غنم و٢٤٠٠ كيلومتر مربع من الأراضى الصالحة للزراعة و٨٣ سفينة و٤٦ مَرْمَى و٥٦ قرية ، و٥٠ كيلوغراماً من الذهب و١٠٠٠ كيلوغرام من الفضة و٢٤٠٠ كيلوغرام من النحاس و٢٥٠٠ قَلَّةً مِسْطَراً<sup>(١)</sup> وخمير ، و٣٠٠ كيس من البُرِّ و٢٩٠ من الطير ، وقد أدَّى الفلاحون هذه الكنوز إلى الكهنة ثَمناً للحبِّ ، ولا يزال يوجد عندنا من وثائق الإيصال ما يثبت ذلك ، وقد قال غوته ذات مرة : « من المحتمل أن كان كهَّان مصرَ يَعرِفون مَهْتَمهم كما فى كلِّ مكان ، فلم يكن ضحيَّتهم حَوْلَ الأموات إلا ليسيِّطروا على الأحياء » .

وإذا كان الكهَّان حَمَلَةَ جميع المعارف وكانوا سَاحِرِينَ وعُلماء حَقِيقِينَ فإنهم كانوا يَتَّخِذُونَ سُلْطَانَهُم الدِّينِيَّ للتهديد وكانوا يَتَّخِذُونَ صِلَاتِهِم بِالْأَلَمَةِ وسيلةً للسلب ، ويَمُتُّ ائِلْطُ الدارج بين الناس نتيجة إصلاح ، ويُوَفِّقُ الكهَّان لحفظ كلِّ ما كان خَفِيًّا ، وما قَبِيَّ الكهَّان فى قرون كثيرة يُؤَثَّرُونَ فى الجمهور بِمِثَالِ سائس المُقَنَّن مع أن الفِئاع لم يَسْتُرْ سوى سَهْمِينَ متعارضين ، وزِدَ على ذلك أن الكهنة كانوا يَرْتَقِبُونَ الناس بِمَدارس طِبِّهم وبمَناسِلهم ويبيع كلِّ ما هو ضرورى للتحنيط واللَّخْد والإِجْبال على التماثيل للصفوفة ما خُصَّ الكَرْنَك معه بِمُخْسَمَةٍ من إلهات الحروب فواتِ الرُّؤوس الأَسَدِيَّة ، وبالضايَة بالحيرات المقدسة كالهِرَّة والبقر والسَمَك والتامسيح والجِلْجَلان التى تتطلب جيشاً من الحرس للمحافظة عليها .

(١) للسلطان : أول عصر الحجر قبل طبعه .

## عيد النيل

وإلى ذلك أضيفوا الأعياد التي أُسْتُع عليها ملوك الدولة الجديدة المُطْلَقون مظهراً  
ديمقراطياً عن لَبَاقَةٍ، فكان القومُ يُحَضُّرونها ويأكلون وَيَشْرَبون مَجَاناً فيها،  
ويعُدُّ الجُمُهورُ نفسه سعيداً يوماً وليلةً عند ما يشاهد في أهمِّ الأعياد، في مهرجَانِ  
زيادة النيل، مَوْكَبَ الكهنة الحاملين زورقَ أُمُون رَعَ المقدس، وقَدَّمَ تماثيل  
قدماء الملوك هذا المَوْكَبَ، وعَقَبَ فرعونَ هذا المَوْكَبَ، وأعياداً جديدةً بألف  
ليلةٍ وليلةٍ مُضَاعَةً بألوف المصاييح، وصَدَرَ فرعون في يِلَاقٍ إلى حَمَامَةِ الرمزِيةِ  
بماء النيل، وليس اللحمُ، ولا المِزْرُ<sup>(١)</sup>، هما اللذان كانا يملآن نفوسهم المُعْبَدَةَ آمالاً،  
وإنما النيلُ وحده، وإنما النيلُ بفيضانه الذي اُبْتِهَل إليه كثيراً، وإنما النيلُ الذي  
كُتِبَ أمواجهَ عَمَدَ مبدَأَيِدُوسَ كأنها تبحث عن قاربِ الربِّ.

وإذا ما وَصَلَ اللُوجُ من طيبة إلى منفيس وفتحت الأسدَادُ بَدَأَ العيدُ الشعبيُّ  
عيدَ غرامٍ أيضاً، فكان يُحْتَفَلُ بالنيل غاصباً ممشوقته مالِكاً للأرض، وكانت ليالي  
الحُبِّ والقرانِ تُحْمَى تحت رعايته، وكان الماشقُ يُفَى:

«أَعْبُرُ النهرَ! ويُحْدَفُ في الفيضان، وتزِينُ الأزهارُ عَمْرَتِي<sup>(٢)</sup>، وأُفْرَعُ مع  
الجُمُهورِ إلى الآلهة، إلى فتاحِ الأكبر! أَنْعِمُ علىَّ بمن أُحِبُّ، ولْيَذْهَبِ الخمرُ  
والزَّهرُ، سأكون بجانبها في هذه الليلة، هي ذاتُ بصري مملوءةٌ وَجُوداً، ولكن ابتسامها  
في الصباح يكون مزدوجاً جالاً، أَيْ تَنْفِيس! أيتها الزاخرةُ شَدَا<sup>(٣)</sup> وضحيجاً!  
احتفى بنا فستوارى جيداً! ».

واستمع جوابها:

«أركبُ الزورقَ هنالك حيث خريِرُ الماء المقدس، وأكونُ تحت الشُرَاقِ

(١) المِزْرُ: نبتة الصبر أو الخنطة -- (٢) العمرة: كل شيء يجعل على الرأس.

(٣) الشدا: قوة زكاه الراححة.



٢١ — ستور عالية على السطح المرفوعة





## زواج النهر

فأستمعهم يفتحون القنوت، وهل ألاميه، ياروحى؟ وهل تتبادل الأزهار عند أبواب الجداول؟ أذنومته باسمه سدولة الشعر إشكاراً له، عند ما أكون بجانبه أشعر بأننى كبنات فرعون، ولى أمرنا فى كلتا الملكتين! » .

وفى المهرجان يصار إلى زواج النهر الذكر زواجاً رمزياً بمنزلة نحره أيضاً على إخصاب الأرض، وكثير عدد الأساطير التى تذكرنا بقدرة النيل الجنسية الابتدائية، وأقدم الآثار يعرض النيل جامعا للذكورة والأنوثة، وارجع البصر إلى ذكر كورته تجيد صورتها القرية ذات نديين كبيرين ويطن راب أيضاً دليلاً على الخصب وكان فرعون، قبيل الفيضان، يزكّب النيل، أحياناً، متوجهاً إلى مجراه التوقائى فيبلغ السلسلة ويغيب فى تضيئه الضيق ويحاول استعطافه بالهدايا، فيقدم إليه ثوراً أورك<sup>(١)</sup>، ويقذف فى أمواجه مقلداً من البردى مشتتلاً على كلام سحرى، وذلك ليحيله على الخروج من الأرض .

وكانت هذه الأعياد تؤدى إلى زيادة سلطان الكهنة السياسى والاجتماعى، وكان الموظفون يبدون بجانب الكهان راجين أن ينالوا قسطاً من الأصل الربانى الذى يمدل السيادة العليا، وسر من فرعون إلى مدير المكوس نجد الجميع يتمسك يوم الموكب بالتقاليد نيلاً لقطعة معينة من كل ثور أو قلعة جمعة، وأوجب وجود أوف من الموظفين بلا عمل تعيين « مدير حقيقى الوظائف » وتعيين « قاض حقيقى » بجانب مدير الوظائف، وذلك على حين كان موظفو البلاط يعملون مثل الألقاب: « رئيس مديرية النيل » و « منسق القرون والحوافر والرئيس » و « مزيّن فرعون وحفاته » و « مستشار التاج الخاص » و « رئيس

(١) الأورك: الرماح .

## الكتبة

أسرار الصباح » و « رئيس مكتبة قلعة حاتم الملكة الكبرى » و « مدير جميع النزه الجيلة » ، وأضحى من ذلك كله لقب « قائد الصحراء » .

وكان الكاتب دولاب ذلك النظام الرئيس ، ووجد في أحد القبور تصوير جداري لمكتب يُنظَّم الكتبة فيه محاضر ويحسبون ويُقَدِّون ويُرسِلون بإشراف رئيس كاتب بلا عمل ، فذلك هي صورة إدارة أسامت استعمال خطه اختراع حديثاً . وكان سيزوستريس<sup>(١)</sup> ، حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، قد قسَّم الأرض إلى مربعات صغيرة بين جميع المصريين ، وكان على الذي يُزِيلُ النيل قطعة له أن يُمَثِّلَ بين يدي فرعون شاكياً ، ويخفي الزمن ، وتزدهر طيبة ، فقتل على رُمِّ من المهندسين والجباة وصندى المياه وعلى جمعيات العناية بالمعابد والجداول وصيادي السمك والخطابين والمقابر ، حتى إن الفاريت الذين يجرئون سفينة الشمس إلى الجحيم ليلاً كانت لهم رقابة ، ويوح أن ما لا حد له من القوائم لم يُوضَّعَ إلا لشغل الكاتب ، وتعلَّأ خزائن الوثائق وتلقَّت البردى بيوتاً بأسرها ، وفي كلام الناس تشبيه للكاتب بالحمار الذي يسوق الموظفين المثقلين كما يهوى .

وبلَّغ أمر إحصاء السكان من التقدم ما غدا الكاتب معه أقوى في مصر والولاية ، وبلغ الأريب أتمازيس ، الذي هو من أواخر الفراعنة المحليين ، من القلوة في النظام القرطاسي والاشتراكية الحكومية ما كان يجب معه على كل مصري في كل سنة أن يصرِّح لشرطة مديريته بوسائل عيشه ، فكان يُحكَّم بالوثق على من لم يكن لديه من وسائل العيش ما يمكن تحقيقه ، وكان سؤلون قد أدخل إلى أئينة قانوناً مماثلاً مُقتبساً من مصر على ما يحتمل .

(١) هو رمسيس الثاني .

ورقابة حكومية مثل تلك يُرادُ إعادتها في أيامنا هي مما يُحتمل بين أناسٍ من الأحرار ، وسلطان مثل ذلك في دولة مؤلفة من عبيدٍ أو آميين مُعَيَّدين لا يمكن قيامه إلا بالارهاب .

## ١٦

وماذا كان على فرعون أن يَحْتَسِيَ ؟ كان عليه أن يخاف المرض قبل كل شيء ، لأنه قد يَقْضَى على حياته أو على سلطانه على الأقل ، ومما نَعْرِفُ أن الكهنة يَمْرُونَ الواقعة على النيل الأوسط كانوا يقتلونه لِيُحِلُّوا رُوحه في بدنٍ خَلْفِ أقوى شَكِيسَةٍ ، ولا تزال هذه المادة موجودة لدى الشُّكُّ في النيل الأعلى ، وفرعون كان يجازف بتاجه بعد حربٍ خاسرة أو محصولٍ ردى ، وفي التوراة نصٌّ على مسؤوليته عن السنوات السبع الشَّدَادِ في زمن يوسف . وعن جوائح مصر في زمن موسى ، وأشدُّ ما يَحْبِقُ بالفراعنة من خطرٍ هو ما كان يَصْدُرُ عن شعبهم وَتَجْهَلُ أَىُّ الفراعنة حَقَّرَ أو مُقِتَ ، وذلك لأن التاريخ ، الذى يُعْرَضُ بكتاباتٍ وتصاوِيرٍ على جُدُرِ المعابد والقبور وعلى المِسلَّات ، صادرٌ عن العقيدة القائلة بالنسبِ الإلهيِّ وعن عواملٍ حكومية .

وقبض على زمام الحكم بمصر ثلاثون أسرةً في ثلاثة آلاف سنة فيكون المعدل المتوسط لكل أسرة قرناً واحداً ، وما كان من نسبِ إلهيٍّ ولَوْهٍ شعبيٍّ لَيَصُونُ فرعون من حذرٍ عميقٍ تجاه أولئك الذين جرّدهم من كلِّ حقٍّ ، فهو إذا ما كان على شُرْفَةِ قصره ساورته الرِّيبُ ، لارِيبَ ، حَوْلَ ما يَأْتِي به النهرُ إلى

المصمة وحول ما يحمله الفلاحون أو العمال على ظهورهم من حجارة استخراجها هؤلاء العبيد من المقالع ومن محصول قطعوه ودرسوه بأنفسهم ، وأبصر المرق يتصب على سيقانهم عند ما يضطفون على سد النيل ، فيقول في نفسه إن أمون رع وهبى لم يكونا من غير التلأ على هؤلاء التمساء المحكوم عليهم بنزف الماء وحله مدى حياتهم .

وما كان الفلاح ليمتاز من البهائم بنير الغذاء والفكر ، وكان غذاءه الفلاح أردأ من غذاء البهائم في الغالب ، وذلك لأن الناس كثير ، ويسهل استبدال بعضهم ببعض ، ولم يكن لدى الفلاح ، مهما كان حراً ، سوى فكر الفراغة ، وكان لأشرفى الحرب مثل نصيب الأهليين تقريباً ، وما كان من عليهم على ضفاف النيل وفي الحقول وفي المقالع والقبور فيؤدى إلى مثل ضنى أولئك ، وكانت الحرية حراماً على كلا الفريقين وإن لم يحمل الفلاح اسم الرقيق ، وكان الجميع من القذابين خلا طبقة متوسطة قليلة العدد من التجار والصناع ، وللجميع مثل نصيب آبائهم فيندر أن يرتقى الواحد منهم إلى ما هو فوق حاله ، وفي الأمثال : « لا يؤلد الولد إلا لينزع من ذراعى أمه ، فإذا صار رجلاً كبرت عظامه » ، وهم يؤسمون في ذرعانهم كاللواشى .

وليست الميزة أشق أعمالهم ، ويجب عليهم في المقالع ، حيث تستخرج التماثيل الضخمة من غير استعانة بألة ، أن ينقروا خروفاً في الصخر ، وكان للثلاث من الناس يعملون عامهم في نقل جندل يبلغ من الطول خمسة أمتار ومن الوزن ألف قطار إلى كفرن ، وكان قياس كل من حجرى سقف مبدى باليوم ثمانية أمتار ، وكان طول كثير من المسلات يزيد على ٣٣ متراً ، وكان يؤتى بمرانيت التماثيل

والتواويس الأسود من خلال الصحراء على مراكب خشبية بلا عجل ، ويرى في أحد النقوش البارزة عريف واقف على ركبتيه تمثال ضخم يجره مئات السيد إلى أحد القبور فيصرخ لكي يروى الطريق مئات من الناس فيحولوا بذلك دون التهاب الخشب .

وكان الفلاح لا يعرف بالضبط مدى تملكه لحقله ، وهل كان الحاكم أو الملتزم أو فرعون نفسه ولي عليه وصاحب أرضه ؟ وإذا كان الفلاح في بدء الأمر يفعل هو وأهله فيقيم قرية معهم فإنه كان يبدو حراً إذا ما قيس بأسير الحرب ، والتقاليد ، لا القوانين ، هي التي كانت تبيع بيعة ، ويتجلى لنا مصير ألوف الفلاحين عند ما نقرأ على البردي وصف حياة الفلاحين للوزير الآتي :

« قرضت الحشرات نصف الحبوب ، والتهم بقر الماء نصفها الآخر ، وتبدو القتران كثيرة في الحقول ، ويأتي الجراد ، وتطم للماشية ، وتنفق البقرة ، ويأخذ اللصوص ما بقي في الجرن<sup>(١)</sup> ، وهلك الأنعام من الحرث ودرس البر ، وهالك يأتي الكاتب على زورقه جمعا للفلة ، وويل للفلاح ! ولدى الموظفين عصى ، ولدى الزوج جذوع<sup>(٢)</sup> ، ويقولون صارخين : سلم حبك ! وإذا لم يكن عنده من الحب شيء ضربوه وقيدوه وقذفوه في القناة حتى يفرق ، وتوتق زوجته وأولاده أمامه ، ويفر الجيران إنقاذاً لقمحهم .

وفيم يسكر الطواب عند ما ينجر النحات كتابة مائتة لحاكم ممقوت أساء استعمال الحياة كما يأتي : « لم أمي قط معاملة بنت من بنات الشعب ، ولم أنج قط على أئيم ، ولم أسجن قط راعياً ولم آخذ قط عمال مستصنع » ؟ وفيم يسكر

(١) الجرن : اليد — (٢) الجذوع : جمع الجذع ، وهو ساق النخلة .

### اضراب من أجل القوت

الفلاح عندما ينزل الكاتب من القارب إلى قريته وَيُنْثِي<sup>١</sup> الْجُمْهُورَ الْمَهْرُولَ<sup>(١)</sup> بمرورِ فرعونَ عما قليل وبضرورة إعداده ما يأتي على الضَّغَّةِ : ١٥٠٠٠ رغيف جيد من خمسة أنواع ، و ١٤٢٠٠ رغيف آخر ، و ٢٠٠٠ كهكة ، و ٧٠ جَرَّةً و ٢٠٠٠ وعاء آخر ، و ١٠٠٠ سَلَّةَ لَحْمٍ مُجَفَّفٍ ، و ٦٠ قُلَّةَ لَبَنٍ ، و ٩٠ قُلَّةَ زُبْدَةٍ ، وكثير من الحطب الضروري للطهي ، وكثير من سلال التين والعنب ، وكثير من طاقات الزَّهَر لتزيين الموائد ؟

وفي الحين نفسه يُضْرِبُ الْعَمَالُ الَّذِينَ يُنْشِئُونَ مَدِينَةَ رَمْسِيسِ الْمَآتِمَةِ لِيُعْطُوا<sup>٢</sup> أَرْزَاقًا ، وما انتهى إلينا من وثائق ستة أشهر فيُظْهِرُهم وَقُوفًا في أول الأمر ثم يُمْدِدُهم سائرَين ضارعين قائلين : « لم يكن عندنا ما نأكله من سمكٍ وَخُبْزٍ وَخَضِرٍ منذ ثمانية عشر يومًا ، فالحق أنه يُسَلَّكُ سَلَكٌ خَيْثُ في هذا المكان من المملكة ، فهذه الوسيلة يتألون من الكتَّابَةِ والشرطَةِ خمسين كيسًا من الحَبِّ في كل شهر مع أن هذه الإدارة تَسَلَّمُ إلى كَهَنَةِ طيبة وَحَدَمَ ١٠٠٠٠ كيسٍ من الحَبِّ في كل سنة .

وما يُكْرِّرُهُ أولئك كونُ فرعونَ قد أعطى إحدى نسائه ضرائبَ محصولٍ مديريَّةٍ بِأَسْرِهَا لتُدْفَعَ ثَمَنُ أَحْذِيَّتِهَا ، وَكَوْنُ دَخَلِ خَرَأَنْتَيْلِيسَ بِالْأَلْتَا حُصَصَ<sup>٣</sup> لدفع ثَمَنِ مَشَادٍ<sup>(٢)</sup> امرأتِهِ أُخْرَى وَنُطْقِهَا ، على حين يُضْرِمُونَ النَّارَ لِإِذَا مَا تَقْتَضِيهِ مصاريحُ أَبْوَابِ مَعْبَدِ طيبة العظيمة من مُرُونَز ، أو على حين يَجْلِبُونَ من بلادِ قَطْعَةِ حَجَرٍ وَاحِدَةٍ بِالْفَتْةِ من الوزن ستة آلاف قنطار أي ما تَطَلَّبُ عَمَلُ أَلْفِي رَجُلٍ في ثلاث سنين .

(١) مهول : أسرع في مشيه — (٢) للشاد : جمع اللشد ، وهو ثوب تعد به المرأة خصرها .

### أهالي مدينة

ومما يَفِيقُ أحياناً أن تدورَ بين الشعب أهاليُّ شديدةً قِيَسَها كاتبُ لِيَسْلَى  
سَيِّدَهُ بها :

« رأيتُ عاملَ المادن حينَ عمله ، فأبصرتُ أصابتهُ كالتمساح ، وهو يلاقى من  
التعب في الليل أكثرَ مما تحمله ذُرْعَانُهُ ، وإذا ما أُنْجِزَ النَّحْلُ عَمَلُهُ وَقَعَ منهوكاً  
على حجر ، وَيَبْتَثُّ الحَلَّاقُ عن رُبْنٍ له حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل فيكادُ يُقَطِّعُ  
أذْرَعَهُ تَيْمَلاً جَوْفَهُ ، ويمسكُ التَّلَاحُ الذي يَنْقُلُ سِلْمَهُ حتى الدُّلَا أكثرَ مما تستطيع  
سواعدهُ وَيَقْتُلُهُ التَّبَعُوسُ ، ويجلسُ الحائِكُ القُرْقُصَاءُ في مَصْنَعِهِ على ما هو أسوأ  
من حالِ امرأَةٍ فلا يكادُ يَنْفَسُ ، ويذهبُ الرسولُ إلى البلادِ الأجنبية فيُؤْمِى  
بأمواله لزوجهِ وأولاده خوفاً من الآساد والآسيوين ، وَيَحْلِفُ السَّكَّافُ دَوْماً  
ويأْكُلُ جلدهُ ، وَيَسْقِلُ النَّسَّالُ الثَّيَابَ على الرِّصيفِ ويكونُ جاراً للتامسيحِ ،  
ويزيدُ صيادُ السمكِ عليه سوماً لأنه أقربُ إلى التماسيح منه .  
وتدومُ تلكَ الحالُ عِدَّةَ قرون .

ومع كل ذلك نازَ فَلَاحُو مصرَ وَعُمَّالُهَا واشتاتوا<sup>(١)</sup> على ساداتهم ذاتَ مرة ،  
فأشْفَرَتِ الفتنةُ عن كَثَرِ شَوْكَةِ الأغنياء والكهنة ، وتدومُ الثَّوَرَةُ مدةً طويلةً ، تدومُ  
في أواخرِ البوالة القديمة من سنة ٢٣٥٠ إلى سنة ٢١٥٠ قبل الميلاد ، أي قبل يُوْسُفَ  
بعْدَةِ كبيرة ، ويحتملُ أن تكونَ قد بدأتُ بصبيانِ ضِدِّ عاهلِ ظالمِ اسمِهِ كَيْفَى  
أو نشأتُ عن زواجِ أحدِ القراعةِ بإحدى بناتِ الشعبِ كما يَرَى بعضُ العلماء ، ومهما  
يكنُ الأمرُ فقد صدرتُ مسؤوليةُ فرعونَ نِجَاهِ الأُمَّةِ عن ذلك ، وقد قَتَلَ الكهنةُ  
هذهَ المسؤوليةَ ، منذَ الأُمَرَةِ الخامسة ، من السماء إلى الأرض على نَمَطِ البرونستان .

(١) اشتط عليه : التهب غيظاً .

### ثورة الفلاحين

وهذه هي الثورة الوحيدة التي اشتملت في تاريخ ذلك العالم فلم تَنْتَه إلينا وثائق عنها غير التي جاءت من المغلوب ، وليس عندنا خبرٌ عنها من الغالبين مادام انْطَلَقَ الهيرودغليفي وحده هو الذي كان موجوداً ، ولم يكن الكَهَّان من الشجاعة ما يَذْكُرُون الوقائع معه ، وما وَصَلَ إلينا من أنباء عن العويل والأنين فيهم مُحوَّل إلى رموزٍ وأمثالٍ على نحو الأحاديث الإسرائيلية والقِصص العربية المنسجمة ، وهو ممتنع برؤيته ، طريفٌ بسهولة نقله من لهجة المغلوبين الصغرى إلى لهجة الطالب الكبرى ، وقد قال أحد كهَّان هَلْيُو بوليس :

« ضاع البلد ، وعادت الشمس لا تضيء ، وغدا النيلُ فارغاً ، فيمكنك أن تَعْبُرَه ماشياً ، وتَشْرَبُ ضواري الصحراء من نهر مصر ، وَيَنْهَضُ أعداءُ في الشرق فيَرْوَن هذا البلد في مائمه وألم ، وكلُّ واحدٍ يَقْتُل الآخرَ ، وَيَسُودُ الحقد بين أهل المدُن ، ويُحْمَلُ النَمُ التكلم على السكوت ، ويتقلبُ كلامُ الآخرين إلى نارٍ في القواد » .  
وإليك كيف يَصِفُ موظفُ سلطانٍ الفقراء :

« الفقراء ينتصرون ، ولتَفْهَرِ الأقوياء ، ويُقَلَبُ أولئك الذين يَلْبَسُونَ النُّسُجَ الناعمة ، وَيَبْزُزُ مَنْ لَمْ يَرَ النُّورَ قَطُّ ، وينال الناصبُ ، وعلى من يَرُدُّ أن يعمل أن يتسلح ، والنيلُ يَفِيضُ ، ولكنه لا يُعْمَلُ شيء بعد ، فكلُّ يقول : لا نَعْرِفُ ماذا يَحْدُثُ في البلد ، وتَصِلُ القِطَاعُ بلا راعٍ ، وَتَهْلِكُ الحرث ، وَتُعْوِزُنَا الثياب والتوابل والزيت ، وَتُهْدَمُ المخازن ويُقْتَلُ حَرَسُهَا ، وَيُؤْكَلُ من الكَلأِ وَيُشْرَبُ من الماء ، ولا تَلِدُ النساءُ ، ولم يَحْمِلْ<sup>(١)</sup> بي أبي ؟ وَيُفْرَمُ من المدُن ، وَتَنْصَبُ الخيام مُجَدِّدًا ، فقد حُرِّقَت الأبواب والأعمدة والجُدُران .

(١) نَحَلَ به أيوه : ولده .



## • المكبر جاع •

• وأصبح صاحب سرير من كان غير ذى حائط ينام عليه ، وأصبح ينام تحت الشجر من كان غير ذى فئ<sup>(١)</sup> ، وأصبح غُرَضَ الرياح والزوايح من كان ذا ظِلٍّ وأصبح مالكاً هُرياً من كان لا يجدُ خبراً ، وأصبح حائزاً قِيَارَةً من كان يطلب كِنَارَةً<sup>(٢)</sup> ، وصارت ذات جِرَارٍ زيوتٍ عِطْرِيَّةٍ من كانت غير ذاتِ خِصَابٍ ، وصارت صاحبةَ مرآةٍ من كانت ترى خيالها في النيل فقط .

• يَبْدُ أَنْ الْكِبَارَ جِيَاعٌ يَكُونُ ، وما كانت الأهرامُ تُحِبُّهُ قَدَ غدا فارغاً وكُشِفَ الْقِنَاعَ عما هو خَفِيٌّ ، ولم يَبْدُ لِقَرَعُونَ عَوَائِدُ مع أن الحُبَّ والسكَّ والطيور والبرونز والزيت وجميع الأشياء الطيبة مَالٌ لَهُ ، وَعَطَّلَ الْوِزِيرُ من خدامٍ لِمَا لَمْ يَبْقَ من خَدَمٍ ، ومن كانوا يَحْمِلُونَ الْآخَرِينَ على بناء قبورهم صاروا يَمْسُكُونَ بِأَيْدِيهِمْ ، وَأَيْنَ تَجِدُ الرَّاغِبِينَ لتطهير النَّوَى والزيت لتحنيطها ؟ وَمَنْ يَذْهَبُ لِبَحْثِهَا فِي بَيْبُلُوس<sup>(٣)</sup> ؟ وَيُرْمَى اللَّوْثُ فِي النَّهْرِ ، وَيُضْعَى النِّيلُ مَدِينَةَ الْأَمْوَاتِ ، وَتُخَادَعُ الْآلِهَةُ فِي الْمَابِدِ فَيَقْدَمُ إِلَيْهَا الْيَوْمُ بدلاً من البقر ، ومن المملحين من يقول : لو كنتُ أَعْرِفُ أَيْنَ الرَّبُّ لَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ قُرْبَانِي ، وَتَوَارَى الضَّحْكَ ، وَصَارَ أَمْرٌ غَيْرَ مَعْرُوفٍ ، وَاهَاً وَاهَاً ، يَا لَيْتَ هَذَا آخِرُ الْعَالَمِ ، إِذَنْ لَكَانَ هَذَا آخِرَ الشُّعْبِ وَالْاضْطِرَابِ ! •

وستظلُّ تلك الثَّوْرَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي قَامَ بِهَا الْقِتْلَاحُ لِلْمِصْرِيِّ فِي غُصُونِ خَسِينٍ مِنَ الْقُرُونِ غَامِضَةً الْأَمْرَ إِلَى الْأَبَدِ كَمَا تَشْهَدُ بِذَلِكَ قُبُورُ الْفُقَرَاءِ الْقَلِيلَةِ لِلصَّنُوعَةِ مِنَ الْآجَرِ وَالْمُدْرَجَةِ بَيْنَ قُبُورِ الْمَظْلَمَاءِ الْهَيْفِ الَّتِي أَنْشِئَتْ فِي ذَلِكَ الْمِصْرِ ، وَكُلُّ مَا صُنِعَ

(١) القئ : الظل — (٢) الكِنَارَةُ : واحدة الكناير ، وهي البيدان أو الدفوف أو الطبول ، وهي هنا ترجمة لكلمة *lyre* كما اسطلع عليه مجمع فؤاد الأول لقنة الحرية .  
(٣) بيبُلُوس : من بلاد فيقية سابقاً ، وتسمى جبيل في الوقت الحاضر .

### تأتى الثورة من عل

أن أطلق ، بعد الحل ، على شكوى الأثنياء المغلوبين الفريدة بما تخويه من سوداء ، ولنا بالتحويلات التي أوجها ملوك طيبة في الدولة الوسطى ، حوالت سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وأيام الأسرتين المالكتين الحادية عشرة والثانية عشرة ، فكر عن نتائج تلك الثورة ، فلما اعتبر الأمراء والسكّان بالكارثة التي أصابت آباءهم منحو الشعب بعض الحقوق ، فسحوا له بالاشتراك في الطقوس الدينية وأخذوا يقرضون حياته وطبائعه على القبور ، وصاروا يصرون بأن الخلود يكتب لمن يخلص للعادات ، وذلك لأن الشعب غدا مطلقاً على أسرار معبد أوزيريس بانتهاءه ، وتكّن هذه الشعبة الكلية الجمهور المتوحد ، وهكذا يرجّ القم ، قبل القديس بولس بأبني سنة ، من المضطهدين والمكروبين بيمت مزج في الله حيث يكون الجميع متساوين ، ويسلك سبل الوضوح فيؤذن للوظيفة ، وللصناع أيضاً ، في إنشاء قبور لأنفسهم وفي الاشتراك في الخلود على هذا الوجه .

تأتى الثورة من عل ولمرة واحدة في تاريخ مصر ، وهي من عمل إخناتون ، فرعون الوحيد الذي يستحق أن يكتب تاريخ حياته ، وإخناتون هذا هو أمينوفيس الرابع الذي نحر كذا صورته حتى في هذه الأيام ، ويجعل فرعون هذا من الشمس سيد العالم فيكتب التشيد الآتي في سبيلها :

« أنت ترتقي جيلاً إلى أفق السماء ، يا أتون ، يا من هو مطلق على أسرار الحياة ، وأنت حينما تستدير في الأفق تملأ الأرض من جمالك ، وأنت تبدو منيراً فوق الأرض ، ففضاها بأنوارك كما تضي كل شيء خلقته ، وإذا ما ركنت إلى الراحة في الأفق الغربي أظلمت الأرض كأنها ميتة ونام الناس في غرهم وأمكنك سرعة كل ما يضمونه تحت رؤوسهم من غير أن يروا ذلك .

### نريد أخواتهن

« ولكنك إذا ما بدوت في الأفق بددت الظلام ، وعم الأرضين سرور ،  
ويثيب الناس على أرجلهم ، ويفتلون ويلبسون ثيابهم ويرتقون أكفهم إليك  
عند طلوعك عابدين ، وتعمل الأرض بأسرها ، وترضى الحيوانات بأقواتها ،  
وتذو الأشجار والنباتات وتقفز الخملان ، وتطير الطيور من وكنتها<sup>(١)</sup> ،  
وتسبح لك بأجنحتها ، ويتضح كل طريق بنور أشعتك ، وتمخر السفن في النهر  
طلوعاً وزولاً ، وتطير<sup>(٢)</sup> الأسماك نحوك لنفوذ أنوارك عميقة في البحر ، وتنبئ  
الأولاد في بطون أمهاتهم ، وتهبهم فيها لكيلا يبكوا ، ثم تهب إليهم صفة التنفس ،  
وإذا ما وضيع الوليد فتحت فمه وقمت باحتياجه ، وإذا ما كان القرخ في القبيض<sup>(٣)</sup>  
منعته روحاً وقوة لتنف<sup>(٤)</sup> البيض ، وها هو ذا يسير ويرتاد .

٣٣. « وكل شيء خلقته عظيم ، وبما خلقت نذكر الناس والحيوانات والكبار  
والصغار وجميع ما يدوس تراب الأرض وجميع ما يطير في الهواء وبلاد سورية  
والنوبة وقطر مصر ، وتضع كل إنسان في مكانه وتنعم عليه بما يحتاج إليه ، وقد  
قسمت الناس إلى شعوب مختلفة اللغات والأشكال والألوان .

« وأنت خلقت النيل في العالم الأدنى فأنتيت به إلى حيث تود إطعام الناس  
يارب الجميع ، وقد وصعت النيل في السماء أيضاً ، لكي ينزل نحوهم فيلطم الجبال  
بأمواجه كبحر ويسقي حقولهم بما فيه الكفاية ، وفي السماء نيل واحد للبلاد الجبلية  
ولجميع الحيوانات التي تذهب إلى سفوحها ، وقد وهبت نيل العالم الأدنى لمصر .  
« وأنت خلقت السماء البعيدة لتضع إليها ، ولتنصير من علي كل ما أبدعت

(١) الروكة : عش العائر — (٢) طفر : وثب — (٣) القبيض : قشرة البيضة اليابسة .

(٤) تفت القرخ البيضة : تبها وخرج منها .

## الكتابة المصرية

وحذك ، والجميع يُرَفِّعُ بَصَرَهُ إِلَيْكَ ، أَنْتَ أَيُّهَا الشَّمْسُ ، وَمَكَانُكَ فِي قَلْبِي ،  
وَلَا أَحَدٌ يَذْكُرُكَ أَمْرَكَ غَيْرِي ، أَنَا ابْنُكَ إِخْنَاتُون ، وَقَدْ أَطْلَقْتَهُ عَلَى خِيَطِكَ ،  
أَنْتَ يَا حَيَاتِنَا وَيَا مَنْ نَعِيشُ بِهِ ، وَقَدْ نَشَأْتَ ، مِنْذُ خَلَقْتَ الْأَرْضَ ، جَمِيعَ النَّاسِ  
فِي سَبِيلِ ابْنِكَ الَّذِي خَرَجَ مِنْ صُلْبِكَ فِي سَبِيلِ مَنْ يُحِبُّ ، فِي سَبِيلِ الْمَلِكَةِ الَّتِي  
نَعِيشُ وَنَسْتَعِدُّ سَعَادَةً أَبَدِيَّةً .

## ١٧

نشأ الخطُ المصريُّ عن عاملين : النيل الذي هو سببُ الإدارة ، ورجاء البقاء  
الذي أشقَر عن إحياء الحاضر ، ومن ثَمَّ كَانَ أعظمُ الاكتشافات البالغُ القِدَمُ  
والذي يَرْجِعُ إِلَى الْأَمْرِ الْمَالِكَةِ الثَّلَاثِ الْأَوَّلَى ، وَمَا عَلَى الْأَعْمَدَةِ وَالْجُسُورِ  
وَالْتَمَاثِيلِ مِنْ كِتَابَاتٍ قَدِيمَةٍ عَلَى خُلُقِ الْمِصْرِيِّ وَصِرَاحَتِهِ وَقِنَاعَتِهِ وَمِزَاجِهِ الْعَمَلِيِّ  
وَاسْتِعْدَادِهِ لِلنِّظَامِ ، وَالْكِتَابَةُ الْمِصْرِيَّةُ أَجَلٌ مِنْ كِتَابَةِ السُّومَرِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا  
يَنْقُرُونَ فِي الْحَجَرِ ، وَمِنْ كِتَابَةِ الْأَشُورِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا يَطْبَعُونَ حُرُوفَهُمْ الْمِيسَرِيَّةَ  
عَلَى الْأَجْرِ ، وَبِمَا أَنَّ غَرِيزَ النَّيْلِ كَانَ يَتَفَقَّتُ بَيْنَ أَصَابِعِ الْمِصْرِيِّينَ كَانَ هَؤُلَاءِ  
يَتَّخِذُونَ قَصَبًا حَادًّا الْأَطْرَافَ عَلَى شَكْلِ مِطْنَاتٍ <sup>(١)</sup> أَوْ قَرَاجِينَ <sup>(٢)</sup> وَكَانُوا يَتَخَذُونَ  
أَوْعِيَةً صَغِيرَةً حُمْرًا وَسُودًا لِلْكِتَابَةِ عَلَى أَلْوَانٍ خَشْيِيَّةٍ أَوْ عَلَى الْبَرْدِيِّ .

أَجَلٌ ، كَانَتِ الْكِتَابَاتُ تَتَأَلَّفُ مِنْ مَدَائِحَ عَلَى الْخُصُوصِ ، وَلَكِنْ هَلْ تَرَكَ  
لَنَا مُعْظَمُ قَدَمَاءِ الْمُؤَرِّخِينَ أُمُورًا أُخْرَى ؟ قَدْ عُرِضَ الْكَاتِبُ الْقُدُّوسُ وَإِلَهُ الْكِتَبَةِ

(١) الطلعة : خشبة مستديرة يرى بها الصبيان في لعبة لهم — (٢) القراجين : جمع الفرجون .

وهو الحصة .

## اكتشاف

نوت على شكل قِرْد ذى شعورٍ بيض ، وكان عَرَضُهُ على هذه الصورة وَفَّقَ الخيال الشعبي ككلَّ دُعَابَةٍ في مصرَ ، والدُّعَابَةُ ما لا تَجِدُ له أثرًا عند القرائنة ، وبما أدت إليه الكتابةُ نفسها وجودَ طبقاتٍ بين القرائنة والشعب ، وغدا الكاتبُ موظفًا قويًّا محترمًا مثلَ الأمراء في الدولة القديمة ، وكان يوجد اختلافٌ بين الكاتب والجندي كما في كلِّ مكان ، وذلك مع رُجحانِ كَفَّةِ الكاتب ، وذلك لأن المصريين ظلُّوا قوماً غيرَ محاربين حتى النهاية .

وفي مصرَ كانت تلك الكتابةُ ، والعِلْمُ معها ، من الأمور الواقعية التي تَهْدَفُ إلى غايةٍ مادية ، ولذا لا تَجِدُ واحدةً من تلك الأقاصيص التي كُتِبَ الخلودُ بها للفلسفة أو للمعنى القسِّيِّ عند الأمم الأخرى ، وقد حَكَمَ النيلُ على المصريين بأن يكونوا من الحاسبين ، وقد وَجَّهَ المصريون ذكاهم إلى حلِّ ما فَرَضَهُ النيلُ عليهم من عملٍ حلاً عمليًّا .

وفي أيِّ القرون التي لا حَدَّ لها رَصَدَ الفلكُ أبنائه الصغراء أولئك ليكتشفوا التقويمَ قبل القرائنة الأولين بألف سنة ؟ لقد أُثْبِتَ أنهم استعملوا التقويمَ قبل الميلاد ٤٢٣٦ سنة ، وقد كانوا يُقَسِّمُونَ السنةَ إلى ثلاثة أقسام : الفيضان والبذر والحصاد ، وذلك مع علمهم منذ أقدم الأزمان كونَ السنة مؤلفةً من ٣٦٥ يوم ونصف يوم ، وذلك مع جَمْعِهِم السنةَ اثني عشرَ شهرًا وجَمْعِهِم الشهرَ الواحدَ ثلاثين يومًا مُصَيِّفِينَ إلى هذه الشهور خمسةَ أيام ، وهكذا كان يُؤَخَّرُ ستُ ساعاتٍ في كلِّ سنة ، فإذا ما مضى خمسةُ سنة قَلِبَ نظامُ القصول قلبًا تائمًا ، ثم وجب في نهاية سنة ١٤٦٠ وَضَعُ سنة ١٤٦١ كسنةً كَبِيْسةً رَدًّا للسنين إلى محلِّها .

وَوَقَّعَ ذلك للمرة الأولى في سنة ٢٧٧٦ قبل الميلاد ، أي في عهد أحد القرائنة

زَوْزِرَى الذى بنى الهرم ذا الدرجات ، وَوَقَعَ ذلك للمرة الثانية فى عهد خَلَفٍ لِإِخْشَانُونَ فى سنة ١٣١٦ قبل الميلاد ، وأما فى المرة الثالثة ، أى فى سنة ١٤٤١ بعد الميلاد ، فقد كان القراعنة الحقيقيون قد غابوا ، وكان المُلْكُ قُبْضَةً بِطليموس الذى هو أعظمُ رياضى عصره ، وأما المرة الرابعة فقد كانت فى عصر الماليك ، ولم يَفْزُ الجنرال يونابارتُ مصرَ إلا بعدها بقرنين ، فهذه هى أدوارُ أمةٍ اكْتَشَفَتْ التقويم منذ ستة آلاف سنة ، وهى تُثِيرُ فى الذهن رؤيا قصرٍ عجيب يُسَمَّعُ تحته صوتُ نهرٍ حافل بالأسرار .

وإذا كانت الساقيةُ تَرَفَعُ مقداراً مُعَيَّناً من الماء فى زمنٍ مُعَيَّنٍ فإن النيل أعان على تقسيم الزمان أيضاً ، وقد اخترع المصريون المِرْوَلَةَ<sup>(١)</sup> للنهار والساعة المائتة لليل ، وهذه الساعةُ هى حَوْضٌ حَجَرِيٌّ نُقِشَ فى داخله مَدْرَجٌ يُشِيرُ إلى الساعات ، وَيَجْرِى الماء منه بِمَجْرُوقٍ ذاتِ اتساعات مختلفة باختلاف الفصول وطول الليالى ، وكان المصريون ينتضمون بالنجوم أيضاً ، وكان يستوى كهانان متواجهان على سَفَفِ المبد ، فيَنْظُرُ أحدهما إلى الشمال وَيَنْظُرُ الآخرُ إلى الجنوب ، وَيُمَسِّكَانِ يَدَيَ زِيحَا لبروج كلِّ ليلةٍ وَيُمَسِّكَانِ يَدَيَ أخرى جهازاً صالحاً للرصد ، فيمكن تعيينُ الساعة بحسب وضعِ النجم ، و بعد النظرِ إلى المِرْفَقِ الأيمن والأُذُنِ المواجهة اليسرى .

وإذا كان المصريون يَحْتَسِبُونَ حركاتِ النجوم والقمر من أبراجٍ معايدهم على ذلك الوجه فإن واقصيتهم لم تَوَكِّدْ إلى استنباط أية نتيجة من وضعِ الكواكب ، وهم فى ذلك على عكس البابليين ، وهم كانوا يَجِدُونَ فى زيادة معارفهم تنظيماً لأعمالهم ، وهم إذا ما

(١) : المِرْوَلَةُ : كلمة وضوحها للدلالة على الساعة الشمسية التى يبين فيها الظهور الحقيقى بظل الفاعض الذى يرفع عليها .

دَلُّوا اللَّيْتَ فِي الْقَبْرِ إِلَى حَرَكَاتِ النُّجُومِ كَانَ ذَلِكَ لِلْأُسْبُوعَيْنِ الْآتَيْنِ قَطْعُ مُقَدَّرَيْنِ أَنَّ اللَّيْتَ يَسْتَطِيعُ صُنْعُ مِثْلِ ذَلِكَ فِي السَّيِّئِ لِمَا يَكُونُ لَهُ مِنْ الْوَقْتِ مَا يَكْفِي لِلْحِسَابِ ، وَهُمْ فِي زَمَنِ الدَّوْلَةِ الْجَدِيدَةِ قَدْ وَضَعُوا اثْنَيْ عَشَرَ عَلَامَةً لِمَنْطَقَةِ الْبُرُوجِ وَاكْتَشَفُوا خَسًّا مِنَ السَّيَّارَاتِ وَجَمَعُوا لَهَا أَسْمَاءً ، فَوَجِبَ انْقِضَاءُ ثَلَاثَةِ آلَافِ سَنَةٍ لَا اكْتِشَافَ سَيَّارَتَيْنِ أُخْرَيْنِ ، وَهُمْ ، لَكِنِّي يَقْطَعُوا الْحَقُولَ بِجِدَالٍ عَلَى طُولِ النَّيْلِ ، قَدْ اخْتَرَعُوا الْقَدَمَ وَالْقِرَاعَ ، كَمَا اخْتَرَعُوا النِّظَامَ الْقُسْرِيَّ<sup>(١)</sup> الَّذِي غَابَتْ رَوْعَتُهُ عَنِ الْإِنْكِلَابِ حَتَّى الْوَقْتِ الْحَاضِرِ .

وَإِذَا كَانَتْ رُوحُ الْمَصْرِيِّينَ إِنْشَائِيَّةً أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَكُونَ فَنِيَّةً فَإِنَّ تِلْكَ الْإِكْتِشَافَاتِ تُثِيرُ إِعْجَابَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تُثِيرُهُ مَبَانِيهِمْ مَعَ أَنَّ شِدَّةَ هَذِهِ الْمَبَانِي يَنْطَوِي عَلَى فَنٍّ يَصْغُبُ إِدْرَاكُهُ وَلَوْ نَظَرْنَا إِلَى مَلَائِكَةِ الْعِيدِ الَّذِينَ قَامُوا بِهَا .

وَقَدْ سَهَّلَ النَّيْلُ جَمِيعَ الْأَعْمَالِ الْفَنِّيَّةِ وَالْجَمَاعِيَّةِ ، وَقَدْ حَالَ النَّيْلُ دُونَ إِقَامَةِ مَبَانٍ حَيْثُ يَكُونُ الْحَجَرُ ، وَتَجِدُ الْمَابِدَ مَنْتَشِرَةً فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنْ وَادِي النَّيْلِ خِلَافَ هَذَا ، وَتُضَافُ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ السَّيِّئَةُ إِلَى ظَاهِرَةٍ أُخْرَى تَجَمُّعُ تِلْكَ الْمَابِدِ أَدْنَى قِيَمَةٍ مِنْ آثَارِ الْأَغَارِقَةِ ، فَبَيْنَمَا يَتَبَدُّو حَجَرُ الْكَرْنَكِ الْيَكْلَسِيُّ غَيْرَ جَمِيلٍ إِلَّا إِذَا كَانَ تَحْتَ أَشِعَّةِ الْقَمَرِ تَرَى الْبَارْتِينُونَ يَعْزِضُ رُخَامَهُ لَشُعَاعِ شَمْسٍ الْخَلِيجِ فَيُؤَدِّي مَرَّةً الْقُرُونِ إِلَى زِيَادَةِ زِينَتِهِ<sup>(٢)</sup> الْأَصْفَرُ وَالْوَرْدِيُّ ، وَيَتَرَكُ النَّيْلُ خَلْفَهُ ، وَعَلَى أَمْرِ دُخُولِهِ مِصْرَ ، عَلَى أَمْرِ دُخُولِهِ أَسْوَانَ ، تِلْكَ الصُّخُورُ الرَّائِمَةُ ، ذَلِكَ الْفَرَايِنْتُ الْوَبِيُّ<sup>(٣)</sup> الَّذِي يَحْكِي الذَّهَبَ ، وَيُقَلِّلُ السَّهْلَ ، مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى ، تَأْتِيهِ مَا يُقَامُ عَلَيْهِ مِنْ قُصُورٍ وَمَعَابِدَ مَا دُمْنَا قَدْ تَمَوَّدْنَا وَضَعُ الرَّبِّ وَالْمَلِكِ عَلَى التَّلَالِ فَوْقَنَا .

(١) الزنجبار : صفا النحاس .

وتجلى جوية المصرى وتمطشهُ إلى الخلود في المسلاتِ المنفصلة عن الصخور  
الابتدائية والتي يلوح أن تمودجها مقتبس من الطبيعة ، وقد أحسن العالم  
الجيولوجي ، غوته ، الذى كان يدرس الكونَ يصيرة إله ، تقديرَ ذلك فقال :  
« إننى حين درستُ أشكال الفرايت المختلفة عن كَشْبِ أبصرتُ مطابقةً عامةً  
تقريباً ، أبصرتُ الأجرام المتوازية السطوح التى تتألف منه مُقطَّعةً تقطيعاً منحرفاً  
فاكتسبت بذلك شكلَ مسلَّتين ، ويُرجَّحُ أن كان هذا الحادثُ كثيرَ الظهور في  
صَوَانِ جبال مصر العليا ، وكأ أنه يُنصبُّ حجرٌ كبيرٌ للدلالة على محلِّ ذى بالٍ  
تَرَى أنه بُحِثَ في ذلك البلد عن حجارةٍ حادةٍ كبيرة ، نادرة على ما يحتمل ،  
لتُصنَّع منها آثارٌ عامة » .

ويا لكثرة ماواجه تلك الأعمدة من مغامرات ! فن المسلات الأربع التى  
نقشَ عليها أحدُ القراعنة الأقوياء ثوثموزيسُ الثالثُ مآثره نقلَ الإمبراطورُ  
قسطنطينَ واحدةً إلى رَنْطَة ، ونُقِلَت أخرى إلى رومة فأقيمت في الميدان العام ،  
ثم ظَلَّت مُلقاةً هنالك عِدَّةَ قرون إلى أن نصَّبا أحدُ البابوات أمام اللاتران حوالى  
سنة ١٦٠٠ ، وبقيت المسلةُ الثالثةُ مُلقاةً ألفَ سنة ، ثم أُخِذَت إلى إنكلترة  
سنة ١٨٠٠ ونُصِبَت على رصيف التاميس ، وتروى المسلةُ الرابعة في الحديقة المركزية  
بنيويورك ، وتبهرنا آثارُ فرعونَ ذلك بعد ألوف السنين إذا وُجِدَ من يقرأها ،  
ويقرأ أحدُ كهنة آمون على ابن أخٍ للإمبراطور طيبريوس تلك الكتابة التى  
يُشَادُ فيها بالانتصارات على مادى وفارس وافتتح ليدية وسورية ، والتى يُذكرُ  
فيها عددُ الصَّرَبَاتِ الحربيةِ ومقاديرُ ما أُخِذَ من الذهب والعاج فيُصرَّحُ بأن  
صاحب هذه المقاهر هو رئيسُ الأكبر ، واليوم لا يزال ترجانُ الشَّيخِ الدليلُ



## التمثيل

يَفْزُو جِيعَ هَذِهِ الْأُمُورِ الْمَصْرِِيَّةِ الرَّائِعَةِ إِلَى رَمْسِيْسِ الْأَكْبَرِ .

وَتَدُورُ السَّيَّارَاتُ حَوْلَ تِلْكَ الْمِسَلَّاتِ فِي أَجْلِ مِبَادِينِ بَارِيْسَ وَرُومَةَ وَلَنْدُنَ وَنِيُورُوكَ ، وَتُبَصِّرُهَا فِي أَثْنَاءِ النَّهَارِ بِمَحَاطَةِ بَيْتُونِ مَا هُكَانَ فِرْعَوْنُ يُفَقِّقُ نَصْفَ كَنْزُوهِ عَلَى مَنْظَرِهَا لَوْ عَلِمَ أَمْرُهَا ، أَجَلٌ ، لَا أَحَدَ يَفْقَهُ مَعْنَى مَا تَحْوِيهِ مِنْ كِتَابَةٍ ، غَيْرِ أَنَّهَا تَضَاهِي فِي اللَّيْلِ بَنُوَ سَحْرَى يَأْتِي مِنْ تَحْتِهَا ، فَكَأَنَّ أَوْزِيرِيْسَ لَا يَزَالُ يُنِيرُ مَجْدَ ابْنِهِ مِنَ الْعَالَمِ الْأَدْنَى .

وَيَلُوحُ أَنَّ فَنَ النِّحْتِ الْمَصْرِِيَّ مُقْتَبَسٌ مِنْ فَنِ الْبِنَاءِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ ، وَيَتَقَلَّبُ تَوَازُنُ الْأَجْرَامِ عَلَى الْخَطُوطِ عِنْدَ الْمَصْرِيِّينَ ، وَيَصْدُرُ عَنْ فَنِ الْبِنَاءِ أَكْثَرُ مَا عَنِ فَنِ النِّحْتِ الْمَكْسَبِ <sup>(١)</sup> الَّتِي يَخْرُجُ مِنْهُ رَأْسٌ صَغِيرٌ وَرَأْسٌ كَبِيرٌ تَتِمِّيلًا لِمَوْظَفِ بِلَاطِيَرِ مُمْلِكِ أَمِيرَةٍ ، وَتَقْرِضُ جَمِيعُ هَذِهِ التَّمَاثِيلِ أَشْخَاصًا هَادِثِينَ وَقَاعِدِينَ الْقُرْفُصَاءَ وَجَالِسِينَ وَمُقَدِّمِينَ مَعَ سُكُونٍ وَعَطَلٍ مِنَ الْخُصُومَةِ وَالرَّغْبَةِ ، وَجَمِيعُ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ ضُلُوعٌ <sup>(٢)</sup> مُتَوَازِنُونَ فِي أَفْكَالِهِمْ وَمَشَاعِرِهِمْ مُحْتَمِلُونَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَاقْنُونَ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَالرُّؤُوسُ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تُكْتَلِ عَادَةً ، وَأَمَّا اسْتِدَارَاتُ الْأَجْسَامِ فَهِيَ مَرْسُومَةٌ رَسْمًا خَفِيفًا بَسِيطًا كَمَا لَوْ أُرِيدَ أَنْ يُدَلَّ بِهَا عَلَى حَيَاةٍ لُحْصَتِ بِمَحَاشِي مَكْتُوبَةٍ فِي أَسْفَلِهَا .

وَاللَّاتَارُ الَّتِي انْتَهَتْ إِلَيْهَا مِنَ الدَّوْلَةِ الْقَدِيمَةِ تَأْثِيرٌ كَثِيرٌ الْاِخْتِلَافِ نَائِبٌ لِنَاصِيهَا وَمَوَادِّهَا مَا دَامَ الْأَثَرُ الْمُنْدَمِىُّ الْمَاثِلُ لَا يَكُونُ تَامًّا التَّأْثِيرُ إِلَّا بِالْحَجَرِ وَفِي الْمَبْنَى ، وَانْظُرْ إِلَى الزُّمَرَةِ الصَّغِيرَةِ الْمَشْهُورَةِ الْمَنْصُوعَةِ مِنَ الْحَجَرِ الْيَكْسَى وَلِلْوَلُوفَةِ مِنَ الزَّوْجِ

(١) تمجد هذا التمثال يبرلين في الوقت الحاضر — (٢) الضلع : جمع الضليع ، وهو العديد الأضلاع ، الهوى .

والزوجة القاعدتين التكتفين تبدُّ لك الزوجة من ملاحظها ربة منزل ويبدُّ لك الزوج من ملاحظه مطواعاً ، ويبدُّ لك كلُّ منها مضحكاً كما تبدُّ الزمر الأخرى في مُتَحَف القاهرة ، ويظهر ملوك الدولة الوسطى المرأة برسومهم المكعبة كالأنفاز الرياضية ، وعكس ذلك أمرُ رنَافِر ذى الحجم الطبيعى ، فهو لا يزال ذا سنّاه مع مرور أربعة آلاف سنة على رأسه ، وهو يظهر صِنديداً مستندلاً مشابهاً لسباحة معاصرة ، وهو يظهر مثلاً الرجل الهادىء الثابت العزم بُنْقَه المكشوف وشعره المُكَوَّر كاليفر وعينه الثابتين مع حُسن تقويم ، وفردى الشفتين الدالتين على الشبهة دلالة خفيفة ، وذى الروحة الذى ليس كبيراً فلا يكاد يزيدُ على أنه القوى عَرَضاً ، وارْجِج البصرَ إلى تمثال تى تَجِدُه مائلاً لذلك ، ولكن مع زيادة على ما فى الطبيعة ، ولكن مع فَرْ وأَنْفٍ أَكْثَر اتساعاً وشهوةً أَشَدَّ بَرُوزاً وقليل أنزلُذغِر ، ثم ارْجِج البصرَ إلى رأس بَرَهْرَ نَفَرْت ذى النظرة الأعظم بُنْها وهَلْما وذى القم الخفيف التَّيْل تَجِدُه صاحب شخصية كالتمثال الخشبى الصغير الرائع المجهول الاسم ( مُتَحَف القاهرة ٢٦٠٦ ) ، مع نظرتة الحائرة التى تَنمُّ على الفتاه ، وارْجِج البصرَ إلى تلك التصاوير أيضاً ، إلى تمثال زُوَيْرَى النصفى الذى هو أقدم ما لدينا على ما يحتمل تَجِدُه ذا أذنين بَلَفَتَا من التعبير القوى ما تتمثل معه الأنف والعينين العاطلئ منهما ، ويبدُّ جَدُّ الألة ونهالِقُ الألة والأشياء فتاحُ إله الفن أيضاً ، وكان المصريون يقولون إن إبداع الأثر القفى يعنى منحه الحياة .

ويعلمهم النيل الكتابة فيعلمون اللون ، وتُرى على أقدم التماثيل رَوْعَةُ الألوان ، وتخرج هذه التماثيل ، بفضل الجوّ ، وفى الغالب ، سليمة من العُرف اللَّاتَمِيَّة ، فتدلُّ على الحياة كما كانت عند أولئك الذين عرَّضوا على ذلك الوجه ،

### هزال فن التصوير عندم

ونُبْعِرُ زوجين من الأسرة الرابعة ، نُبْعِرُ راحوتب وزوجته نُفريت ، جالسين على عرشين أبيضين ، وتُظْهَرُ الزوجة على أحدث طراز ، تَظْهَرُ ملهفةً صمّةً مستديرةً ضمن منقطعها ، ملونةً بالأبيض والأسفر مع قليل يُقَعُّ من الأخضر والأحمر في جيدها ، وتُصَنِّعُ عيناها من الحجارة الملونة ، وتبدو شعورها والخطوط الهيروغليفية مُوداً ، وتبدو الزوج مُتَزَوِّجاً أحمر داجناً فيلوح أنه ملاكمٌ ساذجٌ غيٌّ فيُخَزَّرُ من ملامحها تاريخُ نُهرِها ولياليهما وأولادها وخصوماتهما وسماتهما .

ومالئن تصوير أولئك القوم من قيمة هزيله فيلُّ على أنهم لم يُبَالُوا بغير ثلاثة أبعادٍ قط ، وقد كانوا يَعْرِفُونَ تلوينَ تماثيل ، ومن النادر أن كانوا يَعْرِفُونَ نُقْشَ جِسمِ بشري ، ولا يَدُلُّ أحسنُ ما لدينا من التصوير الجدارية الكثيرة على غير قليلٍ من الحَذَقِ القفِّ ، ومع ذلك تَرى في مُصَلِّياتٍ معبدٍ سِتْهُوس بأبيدوس قليلاً من النقوش البارزة الملونة التي هي على جانبٍ كبيرٍ من الجمال فتَرْجِعُ إلى القرن الثالث عشر ، ويُوَدِّى الملكُ واجبَ الاحترام إلى إيزس ، إلى هذه الإلهة الصفراء اللون مع حُرَّةٍ خفيفة على غطاء الرأس ، ويُظْهَرُ الملكُ أحمرَ أو ضارباً إلى حُمرةٍ مع شعرٍ وتاجٍ أصفرين ، وهكذا يمتازُ الرجال في وَضَحٍ التهار من كِبَرِيَّاتِ السيداتِ المُتَخَصِّباتِ .

ولم يُصَنِّعِ المصريون ، على الصوم ، أشياءً عظيمةً من غير الحجر الذي هو مصريٌّ ، ولم يكن لدى المصريين خشبٌ ، وكان المصريون يأتون بالخشب من الخارج أيضاً ، وقد تَمَازَجَسُ الطرازُ الحِجْرِيُّ لديهم في ثلاثة آلاف سنة من غير أن يُبَاكَرَ أو يُحْتَجَّ على فنِّ البناء هنا .

يَبْدُو أن الأسرةَ المالكةَ الأولى أنشأت ، حَوَالَى سنة ٣٠٠٠ ، في داخل المعابد

## المحل

المظلية ، مُصَلِّياتٍ صغيرة كانت سوقُ البردي تَدَعِمُ فيها مظلةً خفيفةً كما زَيَّنَتْ على هذا النمط صُخْرُ التماثيل بأروع الأسورة والقلائد ، يَبْدُو أن طريقة المصريين في صقل القبرور وفي مَظَلِّ حُلِيِّهم للمُخَرَّمَةِ البَقِيَّةِ ظَلَّتْ خافيةً علينا كالوسائل التي كانوا يَرْفَعُونَ بها حجارةَ الأهرام الكبيرة .

## ١٨

كاد جميع ذلك الماضي المترجِّح بين خمسة وثلاثين قرناً وأربعين قرناً يظَلُّ مجهولاً لدينا تقريباً ، وكَدِّنا نَعْتَمِدُ مع الحَذَرِ على القِصَصِ الناقصةِ المُتَمِّعةِ الحَيَّةِ التي جاء بها هيرودوتس وسترابون وديودورس ، فقد عاد الخطُّ الهيرودوتى لا يُسْتَعْمَلُ منذ قرون التاريخ النصرانى الأولى ، وبما حدث في القرن الثالث من الميلاد أن ظَهَرَ كاهنٌ مِصرىٌّ كبيرٌ اسمه ما نيتون عالمٌ باللغتين اليونانية والأهلية فَوَضَعَ جدولاً مهمًّا للأَسَرِ المَالِكَةِ والملوك قائماً على تَقْسِيمِ خمسةِ قرون ، فلما أَغْلَقَتْ معابدُ إيزيس غابت لَمَةُ الكَهَنَةِ وغابت معها معرفة الخطِّ الهيرودوتى ، وأَخَذَ رهبانُ الأقباط ، الذين كانوا يستعملون تلك اللغة في بدء الأمر ، ينتحلون اليونانية كجميع العالم ، وصارت القبطية لا تُمارَسُ في سوى الصلوات للمصرية النصرانية .

ولكن كلما سَرَّ صَدَأُ القرون تلك الكتابة استولى عليها الخيال ، وَمَنْ كان في القرون الوسطى يُريد أن يَدْنُو بالأسرار من الصليب الوردى والتبائن الأحرار وضروب التصوف لم يَزِدْ بَدَأْ من الرجوع إلى العالم المِصرى الكثير الإنفاذ ما ظَلَّ

حقلًا طليقًا للوم ، وعند الشَّيَاح أن « الشَّقَّ القدس » أو لغةً تائبيل أبي المول  
الحرية تلاثم سجيّة النيل المبيجة ، ولم يَمَنَّ لأحدٍ كَوْنُ التماع الجَوِّ يتضمن  
وضوح الطبايع والأفكار .

ويلوم ذلك الجبلُ قرونا ، يدم حتى وصولِ بونابارات ، أَجَلْ ، لم يُحقِّق  
بونابارات أيةَ خِطَّة من التي كانت تساوره ، غير أن إحدى فكره جعلت من تلك  
الحلة الضارّة حادًا ذا شأن في تاريخ العالم ، فقد بحثت عن التجدد على ضفاف النيل ،  
بحث عن مجد الفاتح مُرَجِّحًا ، عن مجد العالم الأثريّ في جميع الأحوال ، ولولم يأت  
بونابارات معه بكنية من العلماء لكسّر جنوده ما يلاقونه من تحف على ما يحتمل .  
وما أهمية حَجَرٍ مستورٍ بإشارات غير مقروءة يُخرجه من الأرض جنوده عند  
حفرهم خندقًا بالقرب من رشيدٍ في شرق الدلتا؟ ويأمر الضابطُ بحملِ الحجر إلى  
القاهرة ، ويُرى أن مرسومًا أصدره بطليموس الخامس سنة ١٩٦ قبل الميلاد نُقش  
على ذلك الحجر مع عنوان : « بالخطّ القدس والخطّ الدارج والخطّ اليوناني » .

ويألبهجة العلماء وجدّهم ! ويقرءون النصّ الإغريقيّ ، ولكن أيجدون عينَ  
النصّ في الأسفل بالخطّ الميروغليقيّ والخطّ الدارج ؟ ولعلهم يهتفون طامعين كما هتف  
فاؤست غوته في التّورِ فيه :

« أَلَزَمَ البابَ ، فلا بُدَّ من أن يكون المفتاح لديكم ، غير أن من مفتاحكم هو  
من شِدّة التبضع ما لا يجرّك لسان القفل معه » .

ويحاول حلّ اللغز بصاد ، ويُدير المفتاح في القفل الصّديّ « أقدّر التقالين ،  
ويعودون قيديرُونه ، ويظلّ البابُ مُغلّقًا مع ما بُدِّل من جهود وما تُسمع من  
قنقلة ، أو يمثّل الميروغليفي أفكارًا أم أصواتًا ، وهل الميروغليفي حطّ تصويريّ

## شنوليون

أو خطأ صوقي ! وأين تكون أسماء الأعلام التي يُستعان بها على ذلك ؟ ويمضي خمس عشرة سنة في نقاش تمارجه مسائل قومية ، ويحتل الإنكليز مصر فيسلبون ذلك الحجر الشهير ويُرسِلونه إلى المتحف البريطاني حيث لا يزال موجوداً ، ويكون لدى القرنسنيين نُسخٌ صالحةٌ عنه فلا يألون جهداً في كشف معنى ذلك الشيء الذي كان أعداؤهم قد اغتصبوه منهم ، ويُضاف إلى عاملِ الطموح والمنافسة ما تأصل بالتدريج من وجود قطري مصري حافل بالأسرار ، وتُدور الحميا في رؤوس الباحثين فيجدون في كشف السر ، وفي ذلك الدور يدرس العالم الطبيعي الإنكليزي المعروف ثوماس يانغ خنجرَ الإنسان لتعيين درج الأصوات فيه ، وفي ذلك الدور يبحث ذلك العالم في جميع الأبجديات القديمة والحديثة ليصل إلى تلك الغاية فيجد نفسه أمام ذلك الحجر المسمى ، وفي ذلك الدور يفوس ذلك العالم في هذه المُعضلة بما أوتي من قلم وهوى فيطلع على صوتية الميرغليف ، غير أن ذلك العالم هو من الروح العلمية والرياضية ومن الاهتمام في حساباته ما لا يبلغ الهدف منه .

ويستحوذ شيطانُ البحث على أحد القِتيان في الناحية الأخرى من اللانث ، فقد كان شنوليون ( ١٧٩٠ — ١٨٣٢ ) منذ صباه موسوماً بالقدر ، وما تذرَّع به شنوليون من حِماة وإصرار قد أوجب انتصاره .

بلغ شنوليون الخامسة من سنه ، وما قتي يلازم دكان أبيه المكتبي بالقرب من غرينوبل فيقطعُ سحروفاً في كتاب صلواتٍ لأمه ويُؤلف منها كلمات ، وما كان عليه من وجهٍ بيضٍ ومن حدقتين سوداوين محاطتين بأجزاء صفراء فيقطعه ملامح شرقية ويجهل عُرصةً لكثيرٍ من المباحكات التي لم تقطع إلا حين رفض بونابارت

أن يجلب إلى مصر أخاه الشاب العالم الذى يزيد عليه فى العمر اثني عشر عاماً،  
 وينفذ بلاد رمسيس من التقديس ما لا يجوز أحد معه أن يتكلم عنه ، ويمرّ ست  
 سنين ( وكان شنبوليون فى السنة الرابعة عشرة من عمره ) فيعين مدير جديد  
 للإيزر ، يعين فوريه الساعد العلى الفضال للحملة المصرية نتيجة لسقوط خطوة  
 لدى الإمبراطور ، وتصبح مصر موضوع بحث ثانية ، ويتكلم جميع العالم عن زيج  
 دندرة الذى اكتشف حديثاً ، فيقضى به العالم الغريغولي الناشئ أكثر من عناية  
 ناپليون ، ويحلّم شنبوليون برمسيس ، ويلاحظ فوريه هذا الغلام المتمرد على نظام  
 الكلية العسكرية ، والذى يتعلم الصينية والقبطية والعربية ، والذى يفتي معاجه تحت  
 وسادته للدراسة على نور أحد المصاييح ، ويعين الغلام ، عند خروجه من الكلية ،  
 عضواً فى أكاديمية غريغولي لما كان من عرضه عليها مذكرة عن جغرافية مصر ،  
 ويبلغ السابعة عشرة من سنه ويبدأ بصيد الكتابات المهروغليفية ، ويصور طالباً  
 بباريس ويتصل بالأقباط من الطلاب ، ويتغير رنين صوته بفعل تكلمه اللغة  
 العربية ، ويخلف أستاذ العربية فيلقبه الطلاب الأكبر منه سناً بالطرك ، ويرى  
 أن يتعمّن فيستسخن نصوصاً قبطية بالخط الدارج ، ويوثق أن يكشف سر الخط  
 المهروغليفي وإن لم ينطع أن يفكه ، ويعترف قبل يانغ بأربع سنين أن تلك  
 إشارات صوتية فيقول فى إحدى رسائله : « تبلى شعورنا للستارة درجة الهذيان  
 حيناً تزعم أنها تمثل فكرة ، وأجادل حتى فى تمثيلها كلمة واحدة » .

وتاوره الطنون ويحرّكه عدم الصبر فيؤلى وجهه شطر الباب المغلق الذى  
 ينتصب وراءه رمسيس للستولى على أخيلته .

وهل ينهب إلى مصر ؟ لم يتطرق ذلك على قلب فرنسي فى سنة ١٨١٢ ،

وما كانت ثقة السَّيِّد تُذْفَعُ إلى الطالب لو أراد ذلك ، ومن حسن الحظ أن كان أخوه يعتقد نبوغه وأن كان موضع ميرته ورجائه ، وهو لعلهِ وفضله يُعِينُ مَادَّةَ ذلك الأَخ الأصغر النحيل ويساعده على أعماله ، ولكن الذى كان يَمِيزُ الأَخ الأصغر من الأَخ الأكبر ومن جميع العلماء المقرونين بالمسئلة المصرية هو ما كان يَحْتُمُّ من اقتران العمل والنظر واقتران الوجهة والتنهج ، هو اقترانُ الإيمانِ القوِّى <sup>(١)</sup> وروح البحث .

ويُعَدُّ اليوم الثامن من شهر مارس سنة ١٨١٥ تاريخاً جديراً بالذكر عنده ، فقد مَثَّلَ فيه بين يَدَيِ نابليون الذى ناهضه هو وأقرباؤه سِراً ، وكان ذلك بعد العَوْد من جزيرة إلبه بثمانية أيام ، ويَحْدُ الإمبراطور وقتاً لاستقبال جامعة غرينوبل ، ويتحدث فى أكثر من ساعة هو والأخوان شَنبُوليون ، وَيَطَّلِع على آثار الأَخ الأصغر حَوَّلَ اللغة التبعية ، وَيَحْلُمُ فى جعلها لغة مصر الرسمية ، ويتكلم عن النيل وعن ألوف الترع التى لا بُدَّ منها ضمناً لمستقبل واديه ، وهو إذ يَبْدُو واقفاً لابساً مِطْفَافه الرَّمادى القديم ويواجهُ جميعَ العالمِ للمرة الثانية ويحتمل نتائج ذلك يُلقَى نَفْطَرَةً على الماضى ويفكر فى مستقبل مصر ! وَيَحْلُمُ الشابُّ الهزيلُ الخَجَلُ ، الذى يُطْلِعُه على أعماله ، بماضٍ يريد أن يَفْكَّهُ ، ومع ذلك يَشْعُرُ كلُّ من الرجلين ، اللذين يأخذ أحدهما العروشَ وَيَدَّعِى الآخرُ منها قدرته على البحث ، بأنه أدرك أمرَ صاحبه .

وما كان أحدٌ بين العلماء يَعْرِفُ قيمةَ أعمالِ شَنبُوليون ، وقد اكتشف بأنغ أن كتابته فى حَقِّه تَفْصِي مَلِكاً ، وَيَعْرِفُ فيما بعد أن الكلمة المحاطة بإطار فى حجر

(١) نية للملحاح الأمازيغى الكبير هوتيه .



### بِكَادِ الْبَابِ يَنْعَن

رشيد تَدَكُّ على اسم بطليموس، ويرى الباحث الإنكليزي والباحث الفرنسي أولَ وَهَلَةٍ أن ما يخالف الصواب أن تُتَمَقَّد الحقائق الخفية التي تَحَقِّقُهَا إشاراتُ لُغْزِيَّةٍ من فُضُولِ الجُمُهور، وأن عليهما أن يسالجا كتابةً واضحةً مناسبةً مؤلَّفةً من إشاراتٍ أَكْثَرُها صَوْنٌ وَأَقْلَبُها تَصَوِيرٌ، بَيِّدَ أن رمسيس يَفِيفُ دوماً خَلْفَ البابِ المُقَلَّلِ :

وتغرُّ أعوامٌ، أعوامٌ كفلاحٍ ضِدَّ الزملاء الذين يقاومونه نتيجةً لتشجيع أخيه، أعوامٌ مَقَمَرٌ وقمرٌ تَحُولُ دون سفره إلى لندن لدراسة أوراقِ البرَدِيِّ، ويميش شَنْبُوليون يباريسَ في مُخْتَرَفِ مصوِّرٍ لأصدقائه ويُصَوِّرُ على المِرْفاةِ حَلَقًا مَلَكِيَّةً وإشاراتٍ غريبةً، ويُعرِفُ كتابةَ الآسَمِينِ كَلِيبَ پاتِرَ و بطليموس بالخطِّ المِطروغَلِقي، ولكن مع عجز عن إثبات عدم زَلَّه، وَيَبْلُغُ السَّنةَ الحادية والثلاثين من عمره، وَيَسْتَلِكُ الدَّرَجَ الصَّالِحَ، ولكنه لا يُقْنِعُ أحداً، وقد قال : « هذه هي دار الصَّنَاعَةِ التي أُطْرِقَ الحديديَّةُ وأُعِدُّ أَسْلِحَتِي فيها »، وعنده المَفَاتِيحُ مع أسنانِها الغريبة، والمَفَاتِيحُ أَقْلُ قَلَقَلَةٍ، ولكنها لا تَفْتَحُ شَيْئًا.

ويَجْلِبُ الرحالةُ كَابُونَمَاجَ قَطَنٍ إلى مصر في تلك الأثناء ويمُودُ من بِلاقي بطليمَ حَجَرِيٍّ لِمَسَلَّةٍ مُستورةٍ بإشاراتٍ، ومن هذه الإشاراتِ واحدةٌ مُحاطَةٌ بِدائرةٍ، وَيَفْتَرِضُ شَنْبُوليون، بِمَلَامَةِ يونانيةٍ، أن الأمرَ خاصٌ بِكَلِيبَ پاتِرَ، وَيُحَقِّقُ وَيُمِيدُ تَأْلِيفَ اسمِها تَأْلِيفًا مضبوطًا على هذا الوجه، وكان قدماه المصريين يكتبون كما فَرَضَ الشابُّ الفرنسيُّ، وَيُمَسُّ الحُلَّ، وَيَكَادُ البابُ يَذْغِنُ، ولا يزالُ القَلَلُ يقاومُ .

ويمضي زمنٌ فَتَرَسَلُ إلى شَنْبُوليون نُسخٌ من التَّقَوُّشِ البارِزةِ في العَبِيدِ،

• لقد أمسكت الأمر •

تُرْسَلُ إليه الورقة الأولى من أبي سنبل ، ويميزُ في الدائرة الملكية حرف (س) مضاعفاً ، ويُقَرَّبُ أحدهما من إشارة أخرى وتُسَمَّى المقابلة بالقبطيَّ عن حلِّ مَقْطَع (مِس) ، وترى فوق الدائرة الشمسية ، التي تُمَثِّلُ (رَع) ، أى الإله الشمس ، قِطْرًا (رَع ، مِس) ، رعميس ، ويُعيد النظرَ في الورقة فيجدُ وجوهاً كثيرةً لهذا الاسم الذي يُنَحَثُ عنه منذ عشرين عاماً ، ويكسر القفلَ ويسقط الغطاء ، ولم يكُ هناك أمرٌ مَرِيءٌ ، قد كان ذلك الخطُّ أثرَ وضوحٍ ونتيجةً عقلٍ ، ويحيى ما هو مُصَدِّقٌ لافتراضات ذلك القرنى الواقى العقلى وتثبت صحةُ نظريته ، ويستطيع فيما بعد أن يقرأ الكتاباتِ وأوراقَ البرديِّ وأن يظهرَ تاريخَ أقدمِ أمرِ الأرض وحضارتها ، وقد قام بهذا الاكتشاف على بُعد ألف ميلٍ من مصر ، في غرفةٍ صغيرةٍ مستعينةً بأوراقٍ وصُورٍ قليلة ، ومن غيرِ انتفاعٍ بِدَقِّ العالمِ الأخرى ومِطْرَقَةٍ . ويهرعُ إلى أخيه حاملاً أوراقه ويصمها على المنضدة ويقول بصوتٍ عالٍ : « لقد أمسكتُ الأمر » ، ثم يَقَعُ على الأرض ، وتمضي خمسةُ أيامٍ قبل أن يُشْفَى ، ويلزمَ السريرَ ستةَ أيامٍ مع خَوْفِهِ أن يَرى إفلاتَ شرفِ اكتشافه منه ، ويميلُ على أخيه مجموعةً كاملةً من الخطِّ الميروغليينى ، وتمضي خمسةَ عشرَ يوماً ، ويعرض الأمرَ على جَمْعٍ من العلماءِ جامعٍ لِيَانِغْ وهَنْبُولْد ، ويُقتل ، مع ذلك ، رأى أخيه المعارفَ بأمرِ الحياة فيكُم فُجَاءَةً اكتشافه ويُقدِّمه نتيجةً لأعمالٍ متصلةٍ وفقِ الواقعِ من الأساس ! ويندو شنبوليون مشهوراً على الرغم من سَحَلَاتِ الحسدِ التي قام بها المتخصصون بالآثار المصرية من القرنين ، ومن الألمان على الخصوص ، بيدَ أنه ينتظرُ ستَ سنينٍ قبل أن يُوجِّهَ نفسه بشةً إلى مصر ، ويُحَسِّبُ من فضائل النيلِ الطريفة أن يتَّصِدَ مصرَ قاتحَ بلا فرسانٍ ولامدافعٍ قابضٌ على مفتاحِ سحرى

#### إيصاله إلى الترفة

فتكلمه القبور والمسلات وجذُر المابد ومُحَدِّثه عن تاريخ بلدها ، وقد أُرْخى لحيته  
وبدا عريئاً بملاحه وليس ثوباً عريئاً ، وصار الجمهور يُحْيِي هذا الأجنبي الذي يقرأ  
كتابة الحجارة ، ويدعوه الباشا في ختام هذه الرحلة ويطلب منه أن يَقْصَّ عليه  
حوادث بلده في الماضي ، فظهر كلٌّ من وليُّ الأمر والساحر مواجهاً للآخر بذلك ،  
وكان أحدهما يَعْرِفُ ماذا يُنَقَّمُ في الند كناپليون في غرينوبل ، وكان الآخر  
يَعْرِفُ الماضي ، ولكنه كان أَسْنَّ منه ثلاث عشرة سنة ، وكانت أيامه معدودات .  
ويُعوِدُ « المصري » ، ويَحْمِلُ هذا القَبَّ منذ زمن طويل ، ويَزُورُ جاره <sup>(١)</sup>  
القديم فورييه الذي كان راغباً أن يَعْرِفَ ماذا صَنَعَ هذا التلميذ الذي فاقه ، ويُنْصِتُ  
له بدقة ، ويموت في الند ، ويَبْذُو التلميذ نفسه منهوكاً أيضاً ، وقد أَغْمِيَ عليه في  
صَرَجِ رمسيس الرابع ، ويَحْمِلُ بعد علمين ، أى قبل أن يموت في المنزل ، على  
إيصاله إلى الترفة « حيث نَبَتَ عَلَيْهِ ، ولم تَصْنَعْ غيرَ واحد ، وليَكُنْ كتابُ  
نحوى وبطاقةُ زيارتي للأعقاب » .

#### ١٩

تظهر واحات في صحراء التاريخ القديم ، ويَرْبِطُ ما بين هذه الواحات طُرُقٌ غيرُ  
سالكة لم يَعْرِفْها غيرُ قَلِيلٍ من الرُّوَادِ المَدُونِينَ للتاريخ ، ومن كان من الشعوب  
ذا صلةٍ بمصر التي هي أعظمُ هذه الواحات فقد دَخَلَ حظيرة التاريخ ، ولولا مصرُ  
لظلَّ الشومريُّون والكنعانيُّون والمِكْسُوسُ والآثيو يون الذين ظهروا قبل الميلاد بألْفَي

(١) الجار : المجير .

لم يصل اليهود الى مصر فاتحين

سنة أو ثلاثة آلاف سنة مجهولى الأمر ، وإذا ما أغضى عما بين النهرين ، دجلة والفرات ، وَجَدْنَا شعباً واحداً اتصل بالمصريين وساوام أو فاقهم صيتاً ، وهذا الشعب هو أول من وَجَّهَ أنظارَ الناس إلى مصرَ مع عدم قضائه طويلاً زمنٍ هنالك ومع تحطه من السلطان في ذلك البلد ، والتوراة قد أدخلت مصرَ إلى أدب العالم ، ولا تزال الملايين من الآدميين تَحَرَى أن فرعونَ هو اسمُ ملكٍ مُعَيَّنٍ لقرضه على هذا الوجه في سفر الخروج .

ولم يصل اليهود إلى مصرَ فاتحين ، وفي البداة استقرت أسرةٌ يهودية واحدة بمصرَ ، وزاد عددُ اليهود بمصرَ ، وهم كلما زَادَ عددهم في مصرَ صارَ وضعهم غيرَ ثابتٍ فَهَجَرُوا هذا البلدَ الذى كان يُعَبِّدُهم في نهاية الأمر ، وهم ، مع ذلك ، قد عَمِلُوا على ذُبُوحِ صِيتِ مصرَ أكثرَ مما عَمِلَتْ جميع الأمم التى غَزَاهَا وَمَلَكَتْهَا ، وقد أدَّتْ بضعةً صَفَحَاتٍ من كتابِ دَوْنَةِ الأعداء بلسانٍ معروفٍ قليلاً إلى تخليد الشعب الذى مثَّلَ هنالك دَوْرَ الباغى ، وقد أثار رجالان أعزَّلان خيالَ جميع العالم بفضل ذكائهما ، ومن المحتل ، أيضاً ، أن أحاطت أغنى شاعرٍ ذينك الرجلين بنسجٍ ساطعٍ من الأساطير ، ومن الأجيال ألوفٌ ومن الأمم مئاتٌ تَجْهَلُ رَمَيسَ وأيسينوفيسَ وتعرف تاريخَ يوسفَ وموسى ، ولا ريب في أنهما عاشا هنالك ، ثم أَسْفَرَتْ دراسة الكتابات الهيروغليفية عن إقناع العلماء في ذلك ، وأُثْبِتَ أ . س . يهودا ، بما قام به من مباحثٍ ممتازة ، دِقَّةَ التوراة التاريخية فجعل يوسفَ في مصرَ حَوَالَى سنة ١٨٥٠ قبل الميلاد وجعلَ خروجَ العبريين مع موسى منها سنة ١٤٥٠ قبل الميلاد .

ومن الواضح عَطَلْنَا من أية وثيقة كانت ، ما لم نَعُدَّ من الوثائق ما وَجِدَ في

الدُّلُتَا من الخنافس مع خطوطٍ من المير وغليف دالَّةٌ على يعقوبَ ، وبها يكن من أمرٍ فإن المقابلة بين النصوص التوراتية والمادَاتِ المصورة على القبور وأوراق البردي تَظْهِرُ من الأدلة ما لا يمكن دَحْضُهُ ، وإن لم تكن الأسماء بينها هنالك ، وذلك إلى أننا نستطيع بما عندنا من علمٍ بأحوال الدولة الجديدة أن نُقَيِّنَ التاريخَ الذي سَبَقَ قيامَ يوسفَ بانقلابه في طيبة ، وذلك إلى قرب قلعة زَارُو التي سُجِنَ يوسفُ فيها من حدود آسية ، وإلى كون رؤيا البَقَرَاتِ السَّبعِ تطابقُ بَقَرَاتِ هاتُور السبع المقدسة في اللدريَّاتِ السَّبعِ ، وإلى المدَّائِنِ الذين يَتَقَدَّمُونَ عَرَبَةَ الوَزيزِ كما صُنِعَ ذلك في زمن اللورد كرور ، وإلى حَلِي الوَزيزِ قِلَادَةً حول العُنُقِ وسَوْقِي يوسفَ إلى فرعونَ وحَلَقِي لحيته الآسيوية الكثيفة ، ويُسَكِّنُ يوسفُ إخوته أرضَ جاسان ، وتَمُتُّ هذه الواحةُ في شرق الدُّلُتَا بين النيل والطرف الشمالي من البحر الأحمر ، وقد امتدح خِصْبَهَا كاتبٌ في عهد رَمْسِيسَ الثاني .

وكلُّ شَيْءٍ في يوسف يَبْدُو غريباً في مصرَ ، ويوسفُ هو اليهودي الخياليُّ المملوء لطفاً ووقاراً ، ويوسفُ هو الفتى الذي يَفْتِنُ النساءَ ، وذلك لأنه ، على حَسَبِ رواية التوراة ، ذو قَوَامٍ جميل ووجهٍ وسمٍ مع حُسْنِ سلوكٍ ، ويوسفُ ، في الوقت نفسه ، هو رجلُ الأعمالِ النبيهُ الذي أغنى ملكه من غير أن يَحْرُمَ أحداً حقَّه ، وهو الدُّبْلِيُّ الماهرُ في كَمِّ مشاعره ، وهو الصابرُ الذي يَدْعُ خِطْلَهُ تَنْصَجُ رويداً رويداً ، وهو البالغُ الشرفِ الكاتمُ للسرِّ الإنسانيِّ مع البَصَرِ بالأُمُورِ ، وإذا عَدَوْتَ هواه أباً وأخاً لم يَجِدْ الشهوةَ سبيلاً إلى اعتداله واتزانهِ ذكاه وخيالاً وشعوره بقيمته الشخصية ، أى إلى الأمور التي يَجِدُ بها مواهبَ حياته طبيعيةً ، وما كان من اقتران ذكائه وقلبه وزُخُورِ مشاعره العميقة وأفكاره الحكيمية قد

جملت منه يهودياً عظيماً كديسر ائيلي<sup>(١)</sup> بعد زمنٍ طويل .

وذلك الخلقُ وحده هو الذى أمكن به نجاحه ، وذلك النجاحُ وحيدٌ فى التاريخ ، وذلك الفوزُ قد ناله أجنبيٌّ لا جازَ له ولا سلاحَ عنده ولا معارفَ خاصةً لديه ، وهو ، مع هوىِ الناصر وعدمِ المَطَرِ فى إثيوبية وفيضانِ النيل مدةَ سبعِ سنين ، قد جعلَ من الملكِ سيدَ جميعِ البلادِ حينَ وَجَبَ عليه أن يَهَابَ الثورةَ ، ويَرْهَبَ الرَّدَى ، ويَجْمَعَ الحَبَّ فى سِنِي الخَيرِ السبعِ « فلم يُكْتَل منه لكثرة » ، ويَحْسُبُ سلطانه الاستبدادى مقدماً تقديراً للمباعدة الآتية والزمن الذى يُصْبِحُ فرعونُ فيه بالتحبُّ الحبَّ الوحيدَ ، وهكذا يَقْصِدُونَ فرعونَ لِيَعْرِضُوا عليه أنصاتهم وأبدانهم وأطيانهم إذا ما أتمَّ عليهم بالطعام ، « وهكذا يَحُولُ يوسفُ بذكائه وبصره دون موت المصريين جوعاً وَيَضْمَنُ للملكِ جميعَ أملاكِ البلدِ بمضاربةٍ لم تَسْمَعْ بمثُلها أُذُنٌ » .

وَيُلَخِّصُ غوته بتلك الكلماتِ عبقريَّةَ رجلِ الدولة والعملِ يوسفَ ، وَيُفَكِّرُ يوسفُ بثلاثِ سلطاتٍ دفعةً واحدةً ، فَيُجَلِّ الفلاحونَ ذلك الذى أُنْذِمَ من الزعماءِ المحليين الوسطاءِ بينهم وبين فرعونَ مُرَجِّحِينَ أن يكونوا تابعين لفرعونَ رأساً لِمَا يَرَوْنَ فيه رَبّاً مُنْقِذاً ، ويكونَ لدى فرعونَ من الأسبابِ الكثيرةِ ما يُثْنِي معه عليه ، وَيَخْفَعُ له النيل ، ويوسفُ هو الرجل الوحيد الذى سيطر على النيل حتى ذلك الحين .

تَمَّ النصرُ لتلك الذى بلغَ الثلاثين من عمره ، وذلك لأنه كان قادراً على استخراجِ درسٍ من أحلامه وتفسيرِها تفسيراً عملياً ، وذلك لأن هذا الواقعَ

(١) ديسر ائيلي : هو القبط السياسى الإنكليزى المشهور بالورد يكونسفيلد (١٨٠٤ — ١٨٨١) .

اعتدى بخياله واستقل من أنعام الطنبور إلى ميدان العمل وَيَسِّرْ ذَلِكَ الْعَمَلُ الْقُدُّ  
 فِي السِّيَاسَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ عَلَى إِنْسَانِيَّتِهِ وَثُلَّةِ وَمَسَاوَاتِهِ فِيهَا لَفِرْعَوْنَ الَّذِي وَثِقَ  
 بِهِ واعتمد عليه ، وهذا القريبُ هو من كَرَّمَ الْحَدِيدَ مَا يُنْسَى مَعَهُ أَنَّهُ بَدَأَ عَمَلَهُ عِنْدَ  
 مَوْظِفٍ فِي الْبَلَاطِ ، وَلَا مِرَاءَ فِي أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي يَخْتَلِعُ فِرْعَوْنُ فِيهَا  
 ثِيَابًا كَتَّانِيَّةً نَاعِمَةً عَلَى أَسِيرٍ لَا يُعْرِفُ مَاتَاهُ وَيَضَعُ بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَصَحَاها قِلَادَةً مِنْ  
 ذَهَبٍ حَوْلَ عُنُقِهِ وَيُلْبِسُهُ خَاتَمَهُ وَيُسَمِّيهِ «مُعَيْتَ الْبَوَلَةِ» قَبْلَ أَنْ يَخْتَبِرَهُ ، وَبَعْدَ  
 أَنْ أَصْنَى خِلْطَةً نَشَأَتْ عَنْ رُؤْيَا !

إِذَنْ ، لَا تَعْجَبْ فِي اخْتِئَاءِ فِرْعَوْنَ أَمَامَ رَجُلٍ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى ، أَجَلْ ، إِنْ أَبَا يَوْسُفَ ،  
 يَقُوبَ ، كَانَ فِي السَّنَةِ الثَّلَاثِينَ بَعْدَ الْمِثَّةِ مِنْ عُمرِهِ كَارُوِي ، وَإِنْ هَذَا السَّبَبُ كَانَ  
 يَكْفِي لِحَقَارَتِهِ ، غَيْرَ أَنَّ يَقُوبَ الْأَجْنَبِيَّ نَهَضَ فِي نَهَايَةِ اجْتِمَاعِهِ بِفِرْعَوْنَ وَبَارَكَ لَهُ  
 وَفَقَّ الْعَادَةَ الْأَجْنَبِيَّةَ ، وَيَخْفِي مِثَالُ الرَّبِّ فِي الْأَرْضِ ، ابْنُ رُحْ ، رَأْسُهُ أَمَامَ خَفِيدِ  
 رَيْسٍ تَقِيلُهُ بَعِيدَةً وَيُنَالُ الْبَرَكَةَ مِنَ اللَّهِ لَا تُوجَدُ حَتَّى صُورَةً لَهُ .

سَيَطِرُ يَوْسُفُ عَلَى النَّيْلِ ، وَاجْتَنِبَ تَتَأَمَّجُ أَهْوَانُهُ ، وَعَدَّ مُوسَى ابْنًا لِلنَّيْلِ ، وَكَادَ  
 مُوسَى يُقْتَلُ مَعَ جَمِيعِ الْأَوْلَادِ الذَّكُورِ مِنَ الْمَبْرِينَ الَّذِينَ كَثُرَ عَدَدُهُمْ فِي مِصْرَ ،  
 وَوَجَدَتْ ابْنَةُ فِرْعَوْنَ مُوسَى فِي سَقَطٍ<sup>(١)</sup> وَيُسَمَّى مُوشِي ، وَنَجَّى كَلَّةً (مُو) بِمَعْنَى  
 الْإِبْنِ وَكَلَّةً (شِه) بِمَعْنَى الْحَوْضِ أَوْ النَّيْلِ .

وَيَلِدُ وَجْهَ النَّيِّ السُّوسُ الْمَقْرَنُ وَرَاءَ وَجْهِ الْأَمِيرِ الْقَاتِنِ الْعَلِيفِ السَّمِيدِ ، وَيَقْطُرُ  
 بَعْدَ ذَلِكَ الَّذِي أَبْدَى جَوَانِحَ مِصْرَ هَذَا الَّذِي جَلَبَتْهَا إِلَيْهَا ، وَلَمْ يَكْ مُوسَى مَحْبُوبًا مِنْ  
 زَمَنِهِ وَلَا مِنَ الْأَعْقَابِ ، وَكَانَتْ شَخْصِيَّتُهُ أَقْلَ ظُهُورًا ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ وَاسِطَةٌ بَيْنَ الرَّبِّ

(١) السَّقَطُ : وَهَاءٌ كَالْفَهْ ، وَيَسْطَرُ لِلتَّابُوتِ الْمَغِيرِ .

• وباركوني أيضاً ! •

والناس قبل كل شيء . ولأن رسالته الروائية هي من شدة الرمزية ما لا تَصِحُّ معه على ذلك الوجه ، وما كانت القصة التي تُتَوَجَّحُ كلُّ أسطورةٍ فتَضْمَنُ حِثَّهَا الأولى لتدوم إلا من أجل ولادته ، وَيُلَوِّحُ أن القتل الذي اقترفه يُذَكِّرُ بأمرٍ معروف ، وكان المبرئ موسى ، الذي قَتَلَ مصرياً لإيذائه عبرياً ، رجلاً عَنِيداً مستقلاً مدافعاً بغيرته عن شرف عِرْقِهِ الذي مَسَّهُ لُثْمٌ بسوءه ، ويمتاز موسى من الأنبياء الذين بَدَّوْا بَعْدَهُ مُتَّقِدِينَ أَذْلَاءَ لَأْوَامِرِ الرَّبِّ

ولا ريب في أن موسى لم يكن أمام الشعب الذي واجهه يوسف ، وكان على موسى أن يبالغ أمر أناسٍ غُسرَاءٍ لم يتحولوا إلى أمةٍ إلا بفضلِهِ ، وكان الراعي المجهولُ ، الذي خَدَمَ أَجْنِيَاءَ فَبَدَأَ زَعِيماً قَوْمِيّاً لَجَمْعٍ ناقص التكوين ، يُثِيرُ حَوْلَهُ مِنَ الْخُصُومَةِ أَكْثَرًا مما أثار يوسفُ الذي سَحَاهُ فِرْعَوْنُ فَعَمِلَ لَهُ ، وهذا إلى أن موسى كان يخاطب شعباً مضطهداً قَتَرِيذُهُ السُّودِيَّةُ وَالْحَقْدُ قُوَّةٌ ، ولم يكن العبريون أول من خدم المصريين في طرف الدلتا ، فقد مرَّ أناسٌ من تَرْوَادَةِ وَبَابِلَ لِيُصَدِّقُوا هُنَاكَ ، ومن المحتمل أن كان فرعونُ الذي أَرَادَ إبَادَةَ الْعِبْرِيِّينَ مَعَ رَفْضِهِ السَّامِحِ لَهُم بِالْزَهَابِ هُوَ أَمِينُوفِيسُ الثَّانِي ، وَفِي سِفْرِ الْمُلُوكِ مَا يُجِيزُ هَذَا الْافْتِرَاضَ ، وَهُوَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ فَاسِقٌ ظَالِمٌ تَجِدُّ لَهُ مِثْلًا بَيْنَ طُفَاةِ زَمَانِنَا ، وَيُرْسَلُ الْيَهُودُ إِلَى مَعْقَلَاتٍ مَرْكَزِيَّةٍ وَيُزْعَرُ مِنْهُمْ التَّيْبَنُ الضَّرُورِيُّ لِصُنْعِ الْآجُرِّ مَعَ مَطَالِبَتِهِمْ بِتَقْدِيرِ مِنَ الْآجُرِّ كَمَا فِي الْمَاضِي ، وَيُكَزِّرُهُ فِرْعَوْنُ عَلَى تَرْكِهِمْ يَرْتَحِلُونَ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ ، وَيُرَدِّدُ فِرْعَوْنُ صَدَى الطَّاعِيَةِ الَّتِي يَنْدُو عَاجِزاً حِينَ يَقُولُ : « وَبَارَكُونِي أَيْضاً ! » .

ويدلُّ عمل موسى في مصرَ على أنه ابنُ ظَافِرٍ لِأَجْدَادِهِ أَشْدَاءَ ، وَلَمْ يَبْقَ أَثَرُهُ لَتَرْيِيَّتِهِ فِي الْبَلَاطِ أَوْ بِأَشْرَافِ الْبَلَاطِ . وَلَا لِلْحَضَارَةِ الْمِصْرِيَّةِ وَلَا لَصَلْتِهِ بِالْقَبِيلَةِ الَّتِي







### ابن الصحراء

تَزَوَّجَ امرأةً أصيلةً منها ، ولم يَطْلُبْهُ اسمُهُ ، ابنُ النيل ، وصيابه بطابهما قطاً ، فهو ابنُ الصحراء المعتزلُ دوماً المحاورُ ربَّه النهوكُ عن انتظارٍ للفخر الجديرة بقوة ذراعيه ، وما كان في سنين كثيرةٍ ليعرِفَ شيئاً عن قومه خلا ما تأتبه به القوافلُ من أخبارٍ ، ويمتلك نفسه ، وتوحى حياة البادية إلى هذا التهوُّس برغبةٍ في إعادة أولئك القوم الذين لم يتَّصل بهم إلى بلادٍ أبجداً .

بيدَ أن هذا الرجل الصبور البسيط التذكير لم يتردد في اعتقاده مخادعة طاغية كفرعونَ يمين في إبادة العبريين بالأعمال الشاقة وسوء المعاملة ويدبِّح أبناءهم ويحول دون رحيل هذا الشعب الذي يزعم حقدَه عليه والذي يريد الفرار ، ويسخر من موسى وهرون ويدَّعي أن هؤلاء الثرىاء قتلوا حرثَ الأرض وصاروا صنّاعاً في بلاده ، وهنَّيف إلى استئصالهم خوفاً من مخالفتهم أعداءه ، والآن يمنهم من الرحيل بعد أن حرَّمتهم كلُّ حقٍّ ، والآن يقول ابن حنيفة ككل طاغية : « لقد كثُرَ عددُ هؤلاء القوم في البلاد في الوقت الحاضر ، وأتم تريدون قطعَ ما اتصل من سُخرتهم » .

ولم يبالِ فرعونُ بإله العبريين ، ولا بموسى الذي يقابل الكبر بالسكر ، وما كان من قتلِ موسى في شبابه مصرئاً عن حبٍّ للانتقام فيَحْقِرُهُ إلى ذبحِ أبناء المصريين الذين كانوا يقتلون أبناء قومه ، ومن الراجح أن وجدَّ اليهود ما يشجِّعهم على النضال في ذكرى جدِّهم يوسف الذي أُنقذ المصريين من الجوع فيما مضى .

ومن المحتمل أن مرَّوا من بين البحيرات الكبيرة المرَّة والبحر الأحمر ، ومن المحتمل أن مرَّوا من طريق غَزَّة حتى سيناء على طول البحر ، ثم من خلال بلاد اللدنيين والمؤابيين حتى الأردن ، ومن المحتمل أن جاؤا البادية .

ويرى غوته أن من المستحيل أن يتحمل رجل فقال حازم نشيط كوسى قوماً كثيراً المدد على التيه أربعين علماء بلا سبب وصولاً إلى غاية راتمة يؤدّ بلوغها، حتى إن غوته هزأ بعالم فرنسي حاول أن يوضح ذلك الإبطاء جغرافياً، قال: « إن هذا يعني رقص بولونية لقافلة ».

ويقترض غوته نفسه أن ساقّة المبرين كانت مؤلّفة من أناس قست قلوبهم بذبح الأبناء المولودين حديثاً فكان المجال ملائماً لأسلوبهم في القتال لا ريب، ومهما يكن الأمر فإن البحر الأحمر قد ابتلع عربات فرعون الحريّة البالغة ستّة.

## ٢٠

تضيق في الأفق رويداً رويداً أعدّة الكرنك التي هي شهود الفراغة. وما يحيط بالنيل في مجراه التحتاني من طيبة هو أقدم، أو أحدث، من الدولة الطيبة، ويُرّجّع في جوار القاهرة إلى ما قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة أو ثلاثة آلاف سنة، وتبلغ مصر أم البحر للتوسط بعد طويل زمن، ويتّجمع سلطانها بالقرب من الساحل وعند بدء الدلتا، أي في المكان الذي يدور الآن كل شيء فيه حول القطن وتحوّل التجارة العالمية، ويبلغ النيل في سهل الأقصر ذروة مجده، ويؤسس النيل في المجرى التحتاني عاصمة أخرى للعالم، ويُقيم الإسكندرية التي لم تكن غير ذات مجد موقت كطية، وتسيطر جبال صحراء العرب على ٤٠٠ كيلومتر من المجرى فوقاني قبل القاهرة، وتتّجه هذه الجبال نحو الغرب فتقرض على النيل قوساً يكاد يكون تاماً فتصدّقنا والواسطى طرفيه، وتتقدم هذه السلسلة حتى التهر

فيكون قسم الوادي العريض الخصب على الضفة اليسرى كما في مصر العليا ،  
ويعين ذلك وضع القنوات .

ولا يتركز آخر مسير للنهر الشائب من غير حوادث ، فالنهر يمانى ضغطين ،  
فن ناحية قرض عليه جبال الشرق ، وجبال الغرب أيضاً ، مقداراً من التلايف  
والتمازج والأصواع فيحمله ذلك على تكوين عدد من الجزر كما لو كانت آخر  
نداء لرجل يجره كرهاً ، ومن ناحية أخرى تقيد به الإنسان بما ينشئه من جداول  
وأسداد ، ويظهر النيل كملاقى غصوب مكبل<sup>(١)</sup> فيقاوم ويثير الإنسان بقوته .  
وتنسك الأسداد ، التي تبرز سد أسوان بين أسوان والقاهرة ، من الغرين  
الكثير ( نحو ٥٨ في المئة ) ما يجب معه جرف النيل دوماً ، وإن كانت الجزر  
تظهر وتزول بلا انقطاع ، وكان يحاط بجزيرة جرجا من الشرق في بدء الأمر ثم من  
الغرب ، والآن تبلغ هذه الجزيرة من الاتساع ما تبلغ معه من الضفة الشرقية  
مشياً على الأقدام .

ولا يمكن أن يصنع كما في أنهار أوربة فيحول النيل بالقرب من الأسداد ،  
ولذا يجب في بعض الأماكن أن يفرغ كثير من السفن الشراعية حجارة من مسافة  
خمين كيلومتراً أو مما هو أبعد من ذلك رفياً لمستوى التهر ما بين مترين ومترين ،  
وهكذا بدوم اصطراع الإنسان والنيل مع تفاوت ، وذلك مع وجود ما يرضاه النهر  
من إكراهه الإنسان على الحد في كل وقت ، ويزيد السكان كثافة وتنظم  
الحركة مقداراً فقداً ، ويرى النيل حين مروره ازدهار الحياة التي أوجبها ،  
وتحسب الأسداد طرقاً يلتقي للمسافرون عليها .

(١) كبله : قيده .

من قَبيل دون كيشوت

وإليك رجلاً طويلاً نحيفاً ، من قَبيل دُون كيشوت ، مُسلِّحاً بقَصَبَةٍ سكر كبيرة ، وتجاوزه سيارةُ فوردٍ قديمةٌ مشتملةٌ على ستةٍ من العرب اللابسين عمامَهم أيضاً وجِباباً متدوجةً بفعل الريح ، ومن الوَقار عند هؤلاء أن يَلْبَسُوا ثياباً كثيرة في أثناء السفر ، وتتقدم ، مع حملٍ ثَقِيلٍ وهَدَفٍ إلى النقل ، أربعةُ جمالٍ وحماران وجمعٌ من الأولاد رجلاً وزوجته ، ويتجاذب هذه القافلةُ الصغيرةُ التي أرادت ذلك أوْحِلَتْ على ذلك عاملاً الخوف والرجاء ، ويتمارض بُرْقُمَاتَانِ لابستين جِلْبَابَيْنِ أسودين ، ويَجْلِبُ غلامٌ كبيراً إلى الحوض ، ويُصَلِّي ثلاثةُ شبابٍ تحت جُحَيْرَةٍ محرَّكين أبدانَهم ورافعين أيديهم إلى آذانهم ، وترتممُ<sup>(١)</sup> خيلٌ بجانبهم ، وتبدو ظلالُ سُمُرَيْنِ زُغفران الصحراء الأصفر والقيروز الساوي الأزرق ، وتُبْصِرُ بين حجارة الجبل الرملية الصُفْر رجلاً طويلاً أبيضَ الثياب ذاهباً إلى المَقْلَعِ كما لو كان موسى حين نزوله من جبل حُورِيب ، وانظر إلى هذا الجَمْعِ المؤلَّف من رجالٍ حاملين سِلَاحاً على أكتافهم فتنبذوا أشباحهم واضحةً في الأفق مُجَمَّدةً مع حياةٍ منفصلةٍ عن جدار أحد العابد ، ويُرى هيكلٌ عظيمٌ للجبل على ضِفَةِ مرتفعةٍ فإذا هو يتحول إلى هيكلٍ قاربٍ حُرْكَ حيث أنشئ فيرفسه القيضان في الصيف القادم ، فالنيلُ آتٍ للبحث عن سُفْنِهِ ، والنيلُ قد أزال الترابَ عن أسفل شجرةٍ أثلي قديمةٍ قَبَدَتْ جنودَها ، والنيلُ إذا ما كانت كُهوفُ الجبال قريّةً منه أَلْقَى الصَّيَّادُونَ أَشْرَاكَهُمْ فِيهِ ، ومن النادر أن تَرَى في هذا النهر زُورَقٌ تَجْدِيفٍ بلا شراعٍ .

وفي وَسَطِ أحد الحقول تُبْصِرُ ثَلَاثَ منازلٍ تَرَفُّعُ للهِاء من سِماطٍ تحت الأرض ، فتتكون بئر هنالك مادامت الأرضُ أعمقَ من الأحواض متراً ونصفَ متر ، ويقوم

---

(١) ارتعت البهيمة : تناولت البيدان بعضها .

### يهنئ النهر قريباً من القاهرة

بهذا العمل في أربعين يوماً ستة رجال قائم بعضهم فوق بعض ، ومن كان من هؤلاء في الأسفل فأحسن مكاناً في الصيف ، ولكنه في هذا الزمن ، في يناير ، يعمل في الظلام والبرد فيبقى دالاً على حياته ، ويترك قطعاً من القنز ويمدو الظلام الذي يحرسه بما أوتي من قوة ليذكره . ويعتبر النيل في زورق كبير فريق من الرجال والحيوانات فيسير في الوخل على الضفة غير المتأسكة وتلصقهم امرأة محجبة بالأسود على حمير ذى قوائم دقيقة ، ويسلك هؤلاء سبيل السهل الضيق الحصبب وصولاً إلى الصحراء ، فالواحة هي هدف سفرهم لا ريب .

ويتموج قصب السكر على جزيرة طويلة فينزل عشرون رجلاً من الساقية نحو الضفة ، ويرى على بُعد بضعة أمتار أربع عربات كبيرة فوق سفن تجرها باخرة صغيرة ، ويرى بضع عشرات من الفلاحين المرأة يحطون الأمتال عن الجمال ، ويرى فلاحون آخرون ينقلون قصب السكر إلى تلك السفن التي تمنع نقص الماء من ربطها بقلوس<sup>(١)</sup> ، وتجرح تلك الباخرة ذلك الأسطول الصغير إلى رصيف في المجرى التحتاني حيث تماد التربات إلى خط حديدى وإلى مصنع سكر قريب وقد انتفع بحجارة معبد خرب لبطليموس في إنشاء معبد إله السكر هذا .

ويهنئ النهر قريباً من القاهرة ، ويصلى للملاح مساء فيقعد منحرفاً في قاربه الضيق ، فهو يعرف أين تكون مكة على الرغم من جميع التعاريج ، ويدير الجارية<sup>(٢)</sup> جريان النهر قليلاً ويغير الرجل مكانه من قوته ويقل متوجهاً إلى جهة نبيه ، وترى في جزيرة بعيدة من الشاطئ بعض البمد امرأة وأولاداً قعوداً بجانب حمير تترتم ويصطاد الزوج سمكاً بصنارة ساجماً في رؤياه ، ولا يرى منزلهم ، فيشعر

(١) القلوس : جمع القلس ، وهو جبل ضخم الخفية — (٢) الجارية : الخفية .

### طرائف جيولوجية

بأنهم أبطال أسطورة يحاطون بنور شفق في سواء النيل ، وتصل باخرة متجهة وتقف فارغة قريباً ، ويرفع رجل دراعته<sup>(١)</sup> ويبلغ المركب ويفرز في الأرض مساراً طوله متر ، ويدخل رجال آخرون أو تاداً إلى الأرض بمطارق طويلة من خشب كما في غابر الأزمان ، ويمد نسيج حول السفينة ، وينتظر المسافر الليلة في خليج . وتؤلف تلال الشرق رصيفاً ثلاثياً قريباً من الضفة ، وتبصر في الأسفل قاعدة ذات درجتين متوازيتين تماماً ، ثم تبصر بقعة مركزية رميلة حفرها الريح ، ثم تبصر هضبة صخرية وخطوطاً عمودية هابطة نحو القاعدة التي يلوح أن أقدام أفيال نقشت آثارها فيها ، وتلقى هضبة عالية موحدة في النفس أثراً فنياً صادراً عنها ، فيظن أنها قطعة موسيقية ليخ<sup>(٢)</sup> .

وتدور جبال العرب من النيل في متفوط والقوصية ، وتعدو المناظر الجيولوجية ذات وقع في النفس مقداراً فقداراً ، ويكون للطبقات الرسوبية الكلسية الممتدة بفعل الماء والريح ما للشعب من تغير الأشكال ، وتبدو هضبة صحراوية جدية فوق الحضرة على ارتفاع مترين ، وتبدو قاعدة سوداء غرين النيل وقرصتها الريح ، فكانها وجه متكرش لشائب ، وتبدو هنالك لموب<sup>(٣)</sup> كظهور الفيول وأعمدة مسددة مخططة ، وتبدو في وسط ذلك كله قطعة أرض لا يكاد طولها يبلغ مئة خطوة وعرضها عشرين خطوة حيث ينتهي قوله فلاح لابس جلباباً أزرق ومميك دلوأ يده فيصعد المنحدر وينزل منه متواضعاً باحثاً عن الماء ، وعن الماء على الدوام .

(١) الدراعة : حجة مثقوبة القدم — (٢) باخ : موسيقى ألاتي مشهور (١٦٨٥ — ١٧٥٠) .

(٣) الهوب : جمع الهب ، وهو القرعة والمهواة بين الجبلين أو الصدق في الجبل



في قنّاء ، وبعد المجرى التحتاني من طيبة بقليل ، وحيث آخر أضواج<sup>(١)</sup> النيل الكبرى ، لا يَبْعُدُ النيل غير مئة كيلومتر من البحر الأحمر ، وَيَمْتَدُّ كثير من علماء الأرض أن النيل كان في البداءة يَصُبُّ في البحر الأحمر بعد أن يَجْرِي من وَهْدَةِ جبال العرب ، ولو صَحَّ الأمرُ وحافظ النيل على هذا الانحياز لكان غير ما هو عليه جميعُ التاريخ القديم الذي لم يَكْ ، إذ ذاك ، تاريخًا للبحر المتوسط ، ولا ريب في وجود حُصِيَّةٍ مدرّجة في ذلك الانخفاض ، وفي القرون القديمة كان يُذَهَب من هنالك إلى البحر بحثًا عن اللبّان ، وكان نَحَّاتو تماثيل القراصة يَجِدُون حجارَتَهُم القاسية السوداء هنالك ، وكان يَحْتَلُّ تلك البُقعة كتابُ مصرية ، وكان يُعْبَد فيها إله المسافرين في الصحراء مِين ، ولا تزال ترى فيها طريقًا مؤديًا إلى البحر الأحمر وإلى مكة .

واليومَ بُسِّعَ هنالك ملايين الجِرار ليرْفَعَ للماء بها ، وإذا كان النيل إله ذلك البلد فإن هذه الجِرارَ كَهَنَتُهُ الذين يُوَرِّعُونَ بين الناس روحَ هذا الإله ، وكان القراصة يَمْرُقُونَ صلاح تلك الأرض للثَغَار فيَدْعُونَهَا قنّاء ، أي الأرض السوداء ، معارضين بذلك صَفْرَةَ رمل الصحراء ، ويَرَى بعضهم اشتقاقَ كلمة الكيمياء من تلك الكلمة ، ولناس الذين يُسَيِّرُونَ دُولَابَ الثَغَار ، أبا عن جدٍّ ، ومنذ قرون ، صَرَّبَ من القدرة السحرية ، ولولاهم ما دارت الناعورة ولفلَّ قَسَمٌ من مصر جديداً

(١) الأضواج : جمع الضوج ، وهو منطفئ الوادي .

## المراخم

ويُعدُّ نساء قنأ العجين الزيتي تحت ظل النخل بدوِّه مع قليل ماء وثنين  
مُجَزَّأً ، غير أن العمل الإبداعي ، غير أن صنع الفَخَّار ، يظلُّ خاصاً بالرجل ،  
ويجلس الرجل في خَلْوَةٍ مصنوعة من آجَرٍ ومُغَطَّاة بِمَوْصٍ<sup>(١)</sup> ومفتوحة من  
الأمام ، ويديرها برجليه كما لو كان يجب ألاَّ يَمُوتَ الدُّولَابُ شَيْءً ، ويضع قليلاً  
من الطين على الدُّولَابِ المُكَبَّلِ ، وَيَنزِعُ قليلاً منه ، ولكن لا بالقدر نفسه ،  
ومن بين الـ ٣٠٠٠٠٠٠ قَلَّةً ، التي تُصنع في كلِّ عامٍ فيُستخرج بها الماء أو يُصَبُّ  
للشرب ، لا تَمُتُّ واحدة مطابقةً للأخرى مطابقةً تامّة ، وَيَطْفُو الإِهَامُ المُبْدِع من  
عدم الانتظام عليها كما في جِرَارٍ ، وإناء ، القُبُورِ وقوشها البارزة ، ومن الممكن  
جداً أن يكون الرجل الذي يَصْنَعُها اليومَ من دُرِّيَّة الرجل الذي كان يَصْنَعُها منذ  
ثلاثة آلاف سنة فيُشْتَلُّ أقدمُ أَسَرِّ العالمِ على هذا الوجه ، وهو لا يُحاطُ بأطلال ،  
وتُسدُّ خروق الجُدُرِ بِكَيْسَرٍ ، ويثلم الإيريق الذي يشرب منه .

وَتُجَفَّفُ تلك القُلَلُ تحت الشمس في أربعة أيامٍ صيفاً وفي ثمانية أيامٍ شتاءً ، ثم  
تُنْقَلُ إلى الوادي المجاور في سِلَالٍ خفيفة ، وتَوْضَعُ في الأَتُونِ<sup>(٢)</sup> مدةً أربع وعشرين  
ساعة ، وتُكَدَّسُ في زورقٍ بالمئات بعد أن تُحاط بِمَوْصٍ مفتول فتلاً فنيّاً ، وتسير  
مع النيل وتهتزُّ كما لو كانت على ظهر جملٍ مُنْقَلٍ بِحِمْلٍ ، ويُذْتَمَعُ بها قواديسُ  
للتواغير فيرفع بها الماء .

ويَرْجِعُ استعمالُ المَرَاخِمِ<sup>(٣)</sup> إلى ذلك القِدَمِ في سوهاج بعد قليلٍ من مجرى  
النهر التحتاني ، ويلوح أنه أتى بها إلى مصرَ من الصين مارةً من العراق ،

(١) الموص : اللبن - (٢) الأتون : الموقد - (٣) من رخت الحمامة البيض : حضته ،  
وتسمى أيضاً بالرهاء ، وهي من الطير القاعدة على البيض .



۲۳ — نقش بارز



### تريداً مواجِه القهورة

وَيُجَبِّبُ السَّيَّاحَ بِهَا فِي كُلِّ زَمَنٍ ، وَهِيَ خَاصَّةٌ ، مِنْذُ الْقَدِيمِ ، بِضِعْرِ قُرْمَى يَذْهَبُ  
سُكَّانُهَا بِانْتِظَامٍ إِلَى الدَّلْتَا لِيَقْنُوا بِالْأَفْرَانِ الَّتِي هِيَ مِنْ هَذَا التَّرْعِ وَالَّتِي تَبْلُغُ ٢٥ مِثْرًا  
مِنَ الطُّوْلِ وَ٨ أَمْتَارٍ مِنَ الْعَرْضِ وَالَّتِي تُدْفَأُ سَاعَةً وَاحِدَةً فِي الصَّبَاحِ وَالْمَاءُ ،  
وَيُوضَعُ فِيهَا أَرْبَعَةُ آلَافِ بَيْضَةٍ دَفْعَةً وَاحِدَةً فَيُفْتَتِحُ ٩٨ فِي الْمَتَّةِ مِنْهَا. فِرَاحًا  
فِي ثَلَاثَةِ أَسَابِيعَ ، فَتُقَسَّمُ مَنَاصِفَةً بَيْنَ الْمُسْكُتَرِيِّ وَمَالِكِ الرَّفْعَاءِ الَّتِي يُبَكِّرُ  
الْعَمَلَ عَيْنَهُ عَشْرَ مَرَاتٍ فِي الْعَامِ .

وَفِي سِوَاءِ عَالَمِ الْفَلَاحِينَ ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَمِشُونَ مَعَ فِرَاحِهِمْ وَخَزَنَتِهِمْ كَمَا فِي زَمَنِ  
الْفَرَاعِنَةِ ، أُشْنِتُ ثَلَاثَةُ أَسْدَادٍ فِي السَّنِينَ الثَّلَاثِينَ الْآخِرَةِ عَلَى مَسَافَةٍ مِثَّى كِيلُومِتْرٍ  
بِاسْنَا وَتَجْعُ هَمَادِي وَأَسِيوِطُ فَضْمِنُ الْمَاءِ فِي جَمِيعِ الْعَامِ ثَلَاثَ مَدِيرِيَّاتٍ مِنْ أَجْلِ  
إِتَاجِ الْقَطَنِ ، وَلَيْسَ لِسَدِّ أَسِيوِطَ ، الَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَى ١١١ خَوْخَةٍ<sup>(١)</sup> ، غَيْرُ  
مَا يَمْدِلُ نِصْفَ طَوْلِ سَدِّ أَسْوَانَ وَثُلْثَ ارْتِفَاعِهِ ، وَقَدْ جُلِبَ الْفَرَانِيْتُ الَّتِي  
اسْتُعْمِلَ فِي بَنَائِهِ مِنْ مَسَافَةِ ثَلَاثِمِئَةِ كِيلُومِتْرٍ عَلَى مَجْرَى النِّهْرِ الْقَوَقَانِيِّ ، وَتَسْقِي  
هَذِهِ الْأَسْدَادُ الْأَرْبَعَةَ فِي مَرْكَزِ وَادِي مِصْرَ ، حَيْثُ يَمْدُ ٢١ كِيلُومِتْرًا مَرْزُوعًا عَلَى  
عَرْضِ ٢٥ كِيلُومِتْرًا ، نَبَاتَ الْقَطَنِ فِي أَشَدِّ شَهْوَرِ السَّنَةِ جَفَاقًا بَيْنَ أِبْرِيلَ  
وَسِبْتَمْبَرِ ، فَتُغْنِي ذَلِكَ الْقَطَرُ بِذَلِكَ ، وَتَظَلُّ الْأَسْدَادُ مِفَاتِيحَ حَيَاةِ مِصْرَ وَمُسْتَقْبَلِهَا  
كَامَتَحَ شَنْبُولِيُونِ مِفْتَاحَ مَاضِيهَا ، وَلَوْ كَانَتْ هُنَاكَ زِيَادَةٌ فِي إِتَاجِ الْقَطَنِ ،  
أَوْ لَوِ ادَّتَى عَمَلُ الْقَطَنِ الصَّنَاعِيَّ إِلَى تَرْكِ زِرَاعَتِهِ .

وَيَشْتَرُ النِّهْرُ بِذَلِكَ ، وَتَزِيدُ أَمْوَاجُهُ الْقَهْوَرَةَ وَقَصِفَ مُنْكَسَّرَةً عَلَى أَبْوَابِ  
السُّكُومَى الَّتِي فُتِّحَتْ لِلْمَلَاحَةِ عَلَى طَرَفِ كُلِّ سَدٍّ ، وَإِذَا مَا أَدَارَ الرِّجَالُ فِي اللَّيْلِ

(١) الخوخة : السكوة .

الْحَقَّقَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي تُحَرِّكُ الْأَبْوَابَ الْحَدِيدِيَّةَ عَلَى مَدَارِهَا أُخْلُوا يُقْتُونُ ، وَهُمْ كَمَا زَادَ عَلَيْهِمْ سُرْعَةً أُسْرَعُوا فِي النَّهَاءِ ، وَمَنِ الْمُحْتَلِ أَنْ كَانَ هَذَا إِحْيَاءٌ لِلْغَنَاءِ الَّتِي كَانَ أَجْدَادُهُمْ يَحَاوِلُونَ بِهِ تَسْكِينَ النَّيْلِ ، وَهُمْ ، حِينَ يَقْتُونُ فَوْقَ السَّدِّ الْحَجَرِيِّ وَيَنْتَصِبُونَ كَأَكْثَرِ نَحْوِ السَّيَاءِ ذَاتِ الْكَوَاكِبِ ، يَقْتَادُونَ السَّفِينَةَ الْمُرْبُوطَةَ بِقُلُوسٍ ذَاتِ كَلَالِيْبٍ ثَابِتَةٍ فِي الْجِدَارِ وَيَكُونُونَ مِنَ الْيَقِظَةِ مَا يَحَاوِلُونَ بِهِ دُونَ كُلِّ تَحَاكٍ ، وَتُفْلَقُ الْأَبْوَابُ الْعَالِيَا بِصَرِيرٍ كَرْتِيرٍ الضَّارِي ، وَتُقَادُ بِأَيْدِي حَفَظَةِ السَّدِّ الشَّمْرُ الْمَادَّةُ عَلَى حِينَ تُنْمِشِكُ أَرْجُلُهُمُ الْمُجَرَّدَةِ مِمْرَقَاتِ الْجِدَارِ الْحَدِيدِيَّةِ ، وَتُمَلَأُ التَّرْفَةُ بِالمَاءِ فِي بَضْعِ دَقَائِقٍ ، وَتَقْصُرُ الْأَبْوَابُ السُّفْلَى ، وَتُفْتَحُ وَتَمُرُّ السَّفِينَةُ ، وَيَسُودُ الصَّرِيرُ ، وَيَحْوِلُ الْمَاءُ التَّمْزِيدُ دُونَ انْخِلَاقِ الْبَابَيْنِ انْخِلَاقًا تَامًا . آيَةٌ عَلَى آخِرِ مَقَاوِمِ تَصُدُّرِ عَنِ الْعَنْصَرِ الْمَغْلُوبِ ، وَيُفْتَحُ وَقَادُ الْبَاخِرَةِ مَوْقِدَهَا وَيَنْدُلِعُ اللَّهَبُ مِنْ بَطْنِهَا وَيُنِيرُ الْجُدْرَ الرَّمَادِيَّةَ الَّتِي غَادَرَهَا فَفَدَّتْ وَرَاءَهُ ، وَهَكَذَا يَتَلَقَّى كُلُّ مَنْ الْمَاءِ وَالنَّارِ بِجَانِبِ الْآخِرِ ، وَلَكِنْ بَيْنَ يَدَيِ الْإِنْسَانِ ، وَيُفْلَقُ كُلُّ مَنْ صَفِيرَهَا وَنُورَهَا مَتَوَعِّدًا ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُقْتَمَدَ عَلَيْهِمَا أَبَدًا .

وَيَقْدُو النَّيْلُ ، بُنَيْدَ آخِرِ هَذِهِ الْأُسْدَادِ ، مِنْ تَقَدُّمِ السَّنِّ مَا لَا يَقُومُ مَعَهُ بِغَفَارَاتٍ أُخْرَى ، وَيَقَادُ النَّيْلُ بِعَيْدِهَا لَهْوَى غَرِيبٍ ، وَيَسُودُ النَّيْلُ بَعْدَ الْعَظِيمَةِ غَيْرِ ذِي رَوَافِدٍ ، وَيَضَعُ النَّيْلُ مِنْ نَفْسِهِ نَيْلًا آخَرَ يَبْعُدُ مِنْهُ نَحْوَ اثْنَيْ عَشَرَ كِيلُومِتْرًا وَيَر\_اقُهُ أَكْثَرَ مِنْ ٢٥٠ كِيلُومِتْرٍ ، وَيَكُونُ النَّيْلُ عِدَدًا مِنَ الْأَصْو\_اجِ غَيْرِ الْمَقِيدَةِ الَّتِي لَمْ تَنْشَأْ عَنْ جِبَالٍ أَوْ عَنْ عِلَالٍ أُخْرَى فَتُسْتَعْرَعُ زِيَادَةُ ثَمَانِينَ كِيلُومِتْرًا فِي طَوْلِهِ ، وَهَذَا هُوَ يَحْرِ يَوْسُفَ الَّذِي يَظْهَرُ فِي دِيْرُوطٍ قَبْعُدُ ضَرْبًا مِنْ ظِلِّ النَّيْلِ ، وَهُوَ يُسَمَّى قَنَآةَ يَوْسُفَ أَيْضًا ، وَتَرْيِبُهُ الْقِصَّةَ يَوْسُفَ ، وَإِنْ كَانَ مَجْرَاهُ الْمَوْجُ يَنْقَاضُهَا .

### ينقصونه أمام فرعون

والآن لا يزال الفلاحون يَمْشُونَ أَسْطُورَةَ البُطْرِك يوسف ، قَبِذْ كُرُونُ أَنْ رَجَالَ التَّبْلَاطِ سَمَّوْا مِنْهُ كَمَا يَسْأَمُونَ مِنْ كُلِّ وَزِيرٍ يَحْتَفِظُ بِالسُّلْطَانِ زَمَنًا طَوِيلًا قَوِّدُوا أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْهُ فَأَخَذُوا يَنْقُصُونَهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَيَقُولُونَ لَهُ : « يَا فِرْعَوْنُ الْعَظِيمُ ، لَقَدْ شَابَ يُوسُفُ كَثِيرًا ، وَقَلَّ ذِكَاؤُهُ وَزَالَ جَمَالُهُ وَضَعَفَ رَأْيُهُ » ، غَيْرَ أَنَّ فِرْعَوْنَ ، الَّذِي لَمْ يَنْسَ مَا تَمَّ عَلَى يَدِ يُوسُفَ مِنْ حُلِّ مَعْلَمٍ ، أَرَادَ أَنْ يُبْرِيهِمَ مَا لَا يَزَالُ عِنْدَ يُوسُفَ مِنْ قُدْرَةٍ سَحَرِيَّةٍ عَظِيمَةٍ فَقَالَ لَهُ :

« وَالْآنَ ، أَتَدِينُونِي لِي ذَلِكَ ، وَالْآنَ أَسْأَلُوهُ أَنْ يَقُومَ بِعَمَلٍ عَظِيمٍ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِنْجَازِهِ » ، قَالَ خُصُومُ يُوسُفَ :

« مَرَّةً أَنْ يَسْتَنْزِفَ مَاءَ النَّيْلِ مِنَ الْأَرْضِ الْمُسْتَفْدِرَةِ تَحْتَ الْبَحِيرَةِ وَأَنْ يُخَفِّفَ هَذِهِ الْأَرْضَ وَأَنْ يَنْقِيَهَا فَيَكُونَ لَكَ بِذَلِكَ وَلايَةٌ جَدِيدَةٌ وَدَخَلَ جَدِيدٌ .  
وَيُظَاهِرُ فِرْعَوْنَ إِشَارَةَ الْقَبُولِ ، وَيَدْعُو يُوسُفَ وَيَقُولُ لَهُ : « يُوسُفُ إِلَى ابْنَةِ مُفَضَّلَةٍ أُرِيدُ أَنْ أَحْسِنَ جِهَازَهَا ، وَلَكِنْ لَيْسَ عِنْدَنَا أَرْضٌ ، أَفَتَقْدِرُ أَنْ تُحَوِّلَ الْبُقْعَةَ الْمُسْتَفْدِرَةَ هُنَاكَ إِلَى وَلايَةٍ ؟ هِيَ حَسَنَةُ الْمَوْقِعِ ، وَهِيَ غَيْرُ بَعِيدَةٍ مِنْ عَاصِمَتِي ، وَهِيَ فِي وَسْطِ الصَّحَارَى ، وَتَكُونُ ابْنَتِي مُسْتَقَلَّةً فِيهَا » .

وَهُنَاكَ يَسْأَلُ يُوسُفُ : « وَمَتَى تَرِيدُ ذَلِكَ يَا فِرْعَوْنُ الْعَظِيمُ ؟ فَيَكُونُ ذَلِكَ بِعَوْنِ اللَّهِ » .

وَهُنَاكَ يُجِيبُ فِرْعَوْنُ قَائِلًا كَكُلِّ صَاحِبِ سُلْطَانٍ : « بِمَا يُسْكِنُ مِنَ السَّرْعَةِ » .

وَهُنَاكَ يَأْمُرُ اللَّهُ يُوسُفَ بِأَنْ يُنْشِئَ ثَلَاثَ قَنَوَاتٍ ، فَتَكُونُ إِحْدَاهَا مِنْ مِصْرَ الْعُلْيَا ، وَتَكُونُ الثَّانِيَّةُ مِنَ الشَّرْقِ ، وَالثَّلَاثَةُ مِنَ الْغَرْبِ ، فَتُسْتَنْزَفُ الْأَرْضُ بِهَذِهِ

### قناة إبراهيم

القَنَوَاتُ ، وَيَقْرُسُ يُوسُفُ فِيهَا أَشْجَارًا وَأَقَامَ مِنَ الْأَثَلِ ، ويدخل النيلُ في وقت الفيضان إحدى القَنَوَاتِ وَيَسْقَى الْبَلَدَ الْجَنَفَ وَيَخْرُجُ مِنَ الْقَنَاةِ الْأُخْرَى ، وَيَتِمُّ كُلُّ شَيْءٍ فِي سَبْعِينَ يَوْمًا ، ويقول فرعونُ لرجاله بَلَامُهُ حِينَئِذٍ : « هذا هو الذى عَمِلَهُ يوسُفُ الشائب الضعيفُ الرأى، وهذا ما لا تقدرُونَ على صنعه فى ألف يوم ! » ، وما فتى ذَلِكَ الْبَلَدُ يُسَمَّى بِلَدِّ أَلْفِ يَوْمٍ أَوِ الْقِيَوْمِ !

وقناة إبراهيم هى أطولُ قناة بمصرَ فى الوقت الحاضر ؟ وهى تمتدُّ على شاطئِ النيل الأيسر موازيةً لخطِّ الحديدى بِمَدِّ سَدِّ أَسِيوطَ ، ولذا ترى بعدَ ديروط ثلاثة أنيَالٍ يُرَوَّى اثْنَانِ مِنْهَا وَاحِدَةُ الْقِيَوْمِ ، وليست هذه القَنَوَاتُ كَامِلَةً ، صغيرةٌ كانت أو كبيرةً ، وَيُسْتَعْدُّ فى كُلِّ وَقْتٍ لِإِصْلَاحِهَا وَتَجْدِيدِهَا وَتَوْسِيعِهَا ، وَيُعْمَلُ فِيهَا دَاخِلًا وَخَارِجًا كَمَا فى الكُنَائِسِ الْقَوَاطِيَةِ الزَاخِرَةِ بِصِفَالَتِ<sup>(١)</sup> الْبِنَاءِ دَوْمًا ، وَيَمُجُّ مَا يَجِفُّ وَمَا يُصْنَعُ مِنَ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ بِالْمِائَاتِ مِنْ نَاقِلِي التَّرَابِ كَمَا فى زَمَنِ الْقِرَاعَةِ ، وَيَتِمُّ كُلُّ عَمَلٍ يَبْدُ الْإِنْسَانُ ، وَيُشِيرُ الْعَرِيفُ إِلَى هَذَا الْجُمْهُورِ وَيَقُولُ : « سِتَّةَ مِلايِنِ مِتر مَكْمَبِ » ، وَيَتَصَرَّفُ كُلُّ نَاقِلٍ تَرَابٍ فى ثَلَاثَةِ أَشْخَاصٍ أَحَدُتْ مِنْهُ سِنًا ، وَيَشْتَغِلُ مَعَهُمُ اثْنَتَى عَشْرَةَ سَاعَةً أَوْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَاعَةً مِنْ كُلِّ يَوْمٍ ، وَيُعَدُّ عَمَلُهُ أَقْسَى مِنَ الْعَمَلِ فى السَّاقِيَةِ ، وَيَتَأَلَّفُ طَعَامُهُ مِنَ الْخُبْزِ الْأَسْوَدِ وَالْبَصْلِ وَالْقُجْلِ قَطْ ، وَيَخْتَارُ عَمَالُ كُلِّ زَمْرَةٍ ، فى كُلِّ يَوْمَيْنِ ، مِنْ يُمَسِّكُ السَّوْطَ ، وَيَنْقُلُ كُلُّ حِمَالٍ فى الْيَوْمِ الْوَاحِدِ ١٢٥ قَمَّةً مُشْتَمِلَةً كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا عَلَى اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ كِيلُوغَرَامًا ، أَى مَا يَمْدُلُ ثَلَاثَةَ أَمْتَارِ مَكْمَبَةٍ وَنِصْفَ مِتر مَكْمَبِ فى كُلِّ يَوْمٍ ، وَمِنْ قَمَّةٍ تَسَاوِى سِتَّةَ الْمِلايِنِ مِنَ الْأَمْتَارِ لِلْمَكْمَبَةِ نَحْوِ

Echafaudage, Scaffolding (١)



٣١٤٢٨٥٠٠٠ قفة تراب ، وأجرة الرجل شلن إنكليزي واحد في كل يوم ، ولا يُحَسَّب ما يسيل من المَرَق ، ويُعْهَدُ إلى عَمَالٍ بالنَّي البراعة أمرُ المُنْحَدَرَاتِ والدَّرَجَاتِ ، وَيَزِيدُ ما يئالونه من أجرة يومية نصف شلن على ما يئاله أولئك ، وَيَعْرِفُونَ القياس والكتابة وَيَعْلَمُونَ أين يجب أن تُبْنَى المُنْحَدَرَاتُ مُقَدَّرِينَ قَرَضَ الزواجع للصفحة .

وإذا ما غَدَت تلك القَنَوَاتُ فارغةً في الشتاء أَكْرِيَت أَهْلاً صَغِيرَةً كُنْهَاقُ حَقُولُ حَبِّ ، ويري الفلاح أن قليل انخفاض في الأرض يُسْفِرُ عن كثير غَرِينِ ، فيختار هذه القطعة ويَحْصُدُ زرعها في شهر مايو .

ويشابه النيلُ المِسْنُ نُورِيَّاً هُداً عن مَشِيْبِ قَسَاوَرِه فَوَرَاتُ تَهْوَرُ ، فيُزِيحُ الجُزُرَ سنة بعد سنة ، وَيُزِيغُ مجراه بقوة نحو الغرب في بعض الأماكن كما في منفلوط ، غير أن الرجلَ أَكْثَرُ مَكْرَاً منه ، فيسرُّ النهرُ يُكْشِفُ بلونه الذي يَعْرِفُ به الفلاحُ أنه لا يستطيع المرورَ حيث مرَّ في العام الماضي بمَرَو ٢٥ مستمراً من دخول المركب في الماء ، وتعارضُ أَعْمَالُ اللِّفَاعِ على طول الصَّفَافِ سُنَنَ النهر نفسها لما يُبْنَى من رَصَفَاتٍ من حجارةٍ حادةٍ للهيئة على النَرَيْنِ وإِنْفَاقِ الأَسْدَادِ ، ومن الطبيعيُّ أن يُشِيرَ شَكْلُ الحجارة مناقشاتٍ بين المهندسين ، فإذا أراد الإنكليزُ أن تكون مُثَلَّة القاعدة وأن يكون طرفها متجهاً إلى الأسفل اكتسب الجدالُ حَوْلَ المسئلة صفةً سياسية ، وينتقم النهرُ نفسه ، وعلى أسلوبه ، من كَيْدِ الإنسان هذا ، فإذا ما قُسِّمَتْ جزيرةٌ لتقنيته تَجَمُّعُ النَرَيْنِ في وَسَطِ مجراه ، وساخت الباخرة فيه ، فوجب لتمويمها قضاء ساعاتٍ على مُضَيِّقٍ مقرونٍ بدعوة الربِّ وصبِّ العَنَقَاتِ . والعملُ في الصحراء المجاورة أشدُّ من ذلك وأقسى ، ففي الصحراء تبصر صَخَرَ

المصر الجليدي ممزوجاً بالكلس فيُنسَف هذا الحجر بالديناميت ، وفي المساء يرى  
الفلاحون على نور النار ، حين يجلسون القُرُفَصاء قريباً منها ، عيون بنات آوى  
والضباع اللامعة ويسمعون عواءها .

وقد أحدثت قناة يوسف أخصب الواحات وأقربها بين تلك التي تخطّ صحراء  
مصر على طول النيل ، وتفصل الصحراء والجبل القيوم عن النيل ، ولم تترك تلال  
ليبية ، التي تحدّ واديه من الغرب بحوار بني سوف ، غير معبر ضيق صالح لمرور تلك  
القناة الطبيعية ، ولولا ذلك المنفذ الذي يجاوزه الططار في بضع دقائق ما وجدت تلك  
المديرة التي هي أخصب مديريات مصر على ما يحتمل ، ومن شأن طول هذه القناة  
وعدم الانحدار أن يُمسِكَ الماء حتى بعد الفيضان .

وكانت بحيرة فارون ، وهي بحيرة موريس فيما مضى ، ضرورة في القيوم<sup>(١)</sup>  
لتنظيم قناة يوسف ، وكان يُظن في القرون القديمة أنها مصنوعة حينما كان يُحدث  
عن قناة وعن حوض ، لا عن نهر وعن بحيرة ، ويلوح أن الطبيعة والرأي أقصا  
أبعاد هذه البحيرة التي كانت تُتخذ منذ أيام استرابون ، خزناً في زمن الفيضان ،  
قدرُ ما يزيد من ملئها إلى النيل في الفصل الجاف ، وكانت الطبيعة تساعد بكوى  
يعلوها الماء ، وكان ذلك العالم الجغرافي الإغريقي يُسَمّي هذه الظاهرة « ترويض  
الطبيعة » ، وطُيرت آثار حضارة ترجع في القدم إلى ثمانية آلاف سنة في هذه  
البحيرة ، وما وجدت من سكانين وحجارة مصقولة وبقايا أدوات مستعملة قديم  
على وجود أناس كانوا قبل الميلاد بستة آلاف سنة يعيشون من الصيد ، ومن الزراعة  
أيضاً ، هنالك حيث لا تجد الآن غير صيادين .

(١) تسمى كافة القيوم بمعنى البحيرة في المصرية والمصرية ( المؤلف ) .

ولا تَحْدُ في جميع وادى النيل مكاناً أحسن من هذا المكان يَتَوَقَّفُ فيه الرِّىُّ فيه على حكمة الطبيعة وعلى أهوائها على ما يحتمل ، وقد ضاقت تلك البحيرة فى ألوف السنين على حين كانت القناة تَتَسَّعُ ، وقد حَوَّلَ البطالمةُ تلك الناقع إلى حَقول حَبِّ ، وَغَيَّرُوا الزراعة فى الدلتا من هذه الناحية ، وَبَلَّغُوا من تسييرهم إياها ما نستطيع أن نَتَقَبَّعَ به جميع المراحل حتى أعمالِ الرِّىِّ العظيمة فى أيامنا .  
وتلك البحيرة ملحة غامرة غير مُقَرَّاة ضاربة إلى خُصْرَةٍ فَبَغَلَّتْ الإوزُ البرىُّ فيها من الصائد ، وما كانت عين الإنسان الجزُوع لتَفَرَّ إلا بِمَنْظَرٍ ما على طرف الواحة الجنوبي من خُصْرَةٍ وَخِصْبٍ ، والبحيرة هى دون مستوى البحر بأربعين متراً ، ومما تَوَدَّى إليه أنقاضُ المابد والمدن الواقعة على شواطئها أن تَرِيدها كآبةً ، وإذا ما قرأنا أن الشابَّ إِيْخَنَاتُونُ عاش هنا مع حاشية أمه لم يَبْلُغْ ذلك دائرة المعاناة ولم يَعدْ ذلك حدَّ الفكر .

وليس تلك الواحة الخصبية ، التى فَتَتَ هيرودوتس والى رآها استرابون مستورةً بشجر الزيتون والعنب ، جميلةً فى غير جنوب البحيرة ، وتَبْدُو اليوم ضَرْباً من المراعى الخصبية التى يَحْلُمُ بها القلاح بما فيها من مئات الجداول الصادرة عن القناة نفسها وبما هى مَكْسُوءَةٌ به من البرِّ والأُرْ والزيتون والخُصْرَ ، ولكنها عادت غير ملكٍ للقلاح ككلُّ بُقْعَةٍ بالغةِ الفنى بمصر .

يَذْنُو النيل من أكبر مدينة في مجراه وقارته مُتَشَدِّداً هادئاً ، ويصل النيلُ إلى حيث يَفْقَدُ وَحْدَتَهُ ، إلى حيث يُقَسَّمُ إلى عددٍ من الشُعَبِ حين يُحِيطُ بِجُزُرٍ عظيمة ويَحْفُظُ به بُقْعَةً واسعةً مُخَضَّرَةً من ناحية الغرب ومُتَشَكِّكَةً جبالاً من ناحية الشرق ، ولكن النيلَ يُبْعِرُ على القسم الشمالي من عَرْضِ القيوم ، يُبَصِّرُ عن الشمال ، بناءً غريباً من الحجر ، يُبْعِرُ هَرَمَ يِيدُومَ ، ثم سلسلة أهرامٍ أخرى في الكيلومترات الثمانين التي تَسْبِقُ القاهرة ، ولا ترى أَقْلَ من سِتٍّ مجموعات من الأهرام في مكان منفيس ، وهي تَبْرُزُ في وَضَحِ الجَوِّ وأمامَ التلالِ الغريبةِ العاليةِ مقداراً فقداً ، وَيَقَعُ آخرُ الأهرام على عَرْضِ القاهرة تقريباً ، وَجَنَابِهَا<sup>(١)</sup> النيلُ قبل أن يَصِلَ إلى مَأْذَنِ العاصمةِ وَجَنَابِهَا وقصورها ، وأهرامُ الحيزَةِ الثلاثةُ هي أقدمُ مباني البشر الحجرية ، أو أقدمُ ما ظَلَّ قائماً من هذه المباني .

ولا تَذْهَبُنَا رَوْعَةُ هذه الآثارِ بِمَقْدَارِ ما اقتضاه النيلُ والإقليمُ من الصفاتِ الأساسيةِ كروحِ الناسِ الراضيةِ الحاسبةِ وميلهم الجالسِ إلى قهرِ الموتِ بما لم يُسْتَعِ به من الدُّدِّ المؤديةِ إلى برودةِ الخطلوطِ المحترقةِ بالشمسِ وَتَوَثُّرِهَا فَسَحَّرَتْ الرِياضِيَّاتُ لأهدافٍ مضحكةٍ وَسَحَّرَتْ الوُضُوحَ العجيبَ لفاياتٍ غيرِ مُجَنِّدَةٍ ، وما كان من الاختراعاتِ العظيمةِ للتفكيرِ بِنُصْرٍ بِلَدَمِ الأَسَاسِ ، أَيْ رَفْعِ الماءِ وتوزيعه ، أَيْ جَمِيعِ ما أَدْرَكَوه وَعَرَفُوهُ قَبْلَ غَيْرِهِمْ ، أدى إلى هذه النتيجةِ الطائشةِ ، إلى أن هذه

(١) جانبهِ : سار إلى جنبهِ .

### خوفو

الأمّاكن لم تُنمَّ تَجِيداً لِإِلَهِهِ أَوْ تَجِيلاً لِسُلْطَانِ مَلِكِهِ أَوْ بُلُوغاً لِمَسَرَّةِ عَاهِلِهِ أَوْ تَهَنُّتاً بِمَعَاشِقِ سَرِيَّةٍ ، وَإِنَّمَا نُصِيتَ هَذِهِ الْجُدُرَ الَّتِي تَتَاطَحُ السَّمَاءُ نَتِيجَةً خُزْنُوانَةٍ مَلِكٍ مَمْسُوسٍ أَوْ نَتِيجَةً خَوْفِ عَاهِلٍ مَفْتُونٍ .

وتبدو مجموعتها الرَّماديةُ فوق صحراء صفراء مع ظلالٍ واضحة تمتدُّ بعد الظهر ، وتزيد الوجوه المائلة تلك الأشكال الهندسية توترًا ، وعلى ما هو واقع من تأثير الجميع بتلك الآثار البالغة الباسطة لا يستطيع الإنسانُ أن يمنع نفسه من إتمام النظر في عدم فائدتها ، وقد يكون للغمِّ رَوْعَتُهُ ، والغمُّ هنا منطقيٌّ فقط ، وقضى مُفْتَدَانُ كلِّ تصويرٍ فنيٍّ على الخيال تحت هذا النور الشديد ، ولم يَبْقَ غيرُ المفاجأة التي تُشعِّرُ عنها تلك الخطوطُ المستقيمة بين تَمَوْجِ لِيَالِ الصَّحراء .

ولا نَعْرِفُ عن الملوك الثلاثة ، الَّذِينَ بَنَوْا تلك البنايَ الممدودةَ أعظمَ الزارات ، عملاً أَوْ فِكْراً أَوْ رَأْيًا غَيْرَ مَا يَهْدَفُ إِلَى حُلِّ شَعْبٍ عَلَى قَلِّ حِجَارَةٍ فِي مِئَةِ سَنَةٍ لَسِتَرِ نَوَاقِسِهِمْ بِأَبْنِيَةِ مَضَاعِفَةٍ لَمْ يُبْلَغْ لَهَا ارْتِفَاعٌ وَلَا ثِقَلٌ ، وَكُلُّ مَا نَقَطَهُ عَنْ خَوْفِهِمْ أَنَّ الْغَمَّ كَانَ يَسْتَحْذِرُ عَلَيْهِ دَوْمًا فَيَأْتِي مِنْ مَنَفِيسٍ بِسَاحِرٍ لِيُسْكِنَهُ بِقِصَمِيٍّ وَأَحَادِيثٍ ، فَيَعْرِضُ هَذَا السَّاحِرُ عَلَيْهِ أَنْ يُلْزِقَ رَأْسًا مَقْطُوعًا بِيَدَتِهِ الَّتِي فُصِّلَ عَنْهُ .

فرعونُ صائحاً : « إِشْرُونِي بِمَحْكُومٍ عَلَيْهِ ! » .

السَّاحِرُ : « كَلَّا ، لَا رَجُلَ ، بَلْ حَيَّوَانٌ مِنْ زِرَابِكَ <sup>(١)</sup> » ، وَيَذِيحُ إِوْرَةً وَيَقْطَعُ رَأْسَهَا وَيُعِيدُهَا إِلَى حَيْثُ كَانَ ، وَيَنْطَلِقُ هَذَا الطَّيْرُ خَافِقَ الْجَنَاحَيْنِ .

وتطابق أسطورةُ ابنته خُرْعَبَلَاتِ تلك الحياة ، فهو يُكْرِهَهَا عَلَى الْبِقَاءِ وَعَلَى

(١) الزراب : جم الزرية ، وهي حظيرة المواشي .

تريد أن ترى شمس مصر

مطالبة كل واحد من عشاقها بحجر لغير أيها ، وكان هذا القبر يتطلب مليونين ونصف مليون من الأمتار المكعبة ، فلو افترضنا أن تلك البنت كانت لها قوة الحديد وأنها اتخذت ذلك العمل حرفة لها مدة مئة سنة ما استطاعت بذلك أن تساعد على أكثر من حجارة ذروة الهرم .

وعن خلفرع الذي شاد الهرم الثاني فكر ، فهو لما كان أمام تمثاله ، أمام ذلك الوجه العريض البسيط ( إذا كان الرجل العارى الذى يحيل اسمه يُمثله حقاً ) ، لم يلاحظ في بدء الأمر أن هوروس ، الصقر ، يستروءاه ، وأن جناحيه المبسوطين يحتفظان رأسه وعنقه ، وكان منكزع ثالث الثلاثة ، ورئي أنه أحسن من سلفيه فعلاً ملكاً صالحاً ، وقد اكتفى بهرم أقل ارتفاعاً من ذلك بمقدار النصف ، وقد بدأ عاشقاً لابنته بدلاً من أن يبيعها فشقت نفسها غماً ، وقد دفنها أبوها في مجل من ذهب فكان هذا المجل موجوداً في زمن هيرودوتس ، وقد أوصت قبيل موتها بأن ترى الشمس مرة واحدة في كل سنة فصار يُسار باليجل مرة في كل عام .

وتطبق تلك الأساطير البربرية على أناس كان همهم مصروفاً إلى بناء ضرائهم ، ولم يرتفع غير صوت بشرى واحد بين تلك الأقاصيص الكريهة ، غير صوت فتاة تريد أن ترى شمس مصر دقيقة واحدة .

وما يقى لا يفوق طاقة البشر ، بل ينافي الإنسانية ، ويطلق أقدم الروايات ما حُقّق في الوقت الحاضر ، فقد وجب مرور أكثر من مئة سنة على أولئك القرائنة الثلاثة ( على اثنين منهم على ما يحتمل ) لبناء ضرائهم ، وهم قد حشدوا ، إذن ، ثلاثمائة ألف رجل أو أربع مئة ألف رجل في أشهر فيضان النيل الأربعة للجب

وماذا بقي ؟

الحجارة من جبال العرب حتى النهر ونقلها من ضفة إلى أخرى ثم قلبها من طريق جديدة إلى الورشة<sup>(١)</sup> حيث سُورَى وَصُلِحَ ثم تَوَصَّعَ في محلها بالكات لا تَحْطُرُ على قلب أحد ، وهكذا كانت مصرُ بأُسْرِها قَيَّدَ العبودية فأَغْلَقَت المابِدُ مدة قرن ، وإلى ذلك أضيفوا المابِدَ التي تُقَامُ والتمائيل التي تُنْصَبُ حَوْلَ ذلك للقضاء على العُرْلة التي تحيط في الوقت الحاضر بتلك الكُتَل الهائلة ، ويقال إن خَفَرَع وَصَّعَ سبعة وعشرين تمثالاً ضَخْمًا حَوْلَ هَرَمِهِ .

وماذا بقيَ من جميع ذلك ؟

بقيَ اسمُ حُوفُو مقروناً بذلك البناء الذي ظلَّ أعظمَ ما في العالم ، أَجَلٌ ، نِسَى الاسمان الآخِران في الوقت الحاضر ، غير أن الجميع شَتَّعَ عليهم في ألوف السنين من قِبَل الشعب الذي أَكْرَهَ على التضحية بأربعة أجيالٍ منه في سبيل ذلك الهوى الحَجَرِيَّ المَلَكِيَّ ، وما بقيَ الناس في زمن هيرودوس يَمْدُون هؤلاء الملوك من المغاريت والسَحَرَة ، وكان الناسُ يَجْتَنِبُونَ التَّطَلُّقَ بِأَسْمائِهِم اللعينة فيَدْعُونَ المِكانَ الذي وُجِدَتِ الأهرامُ فيه بِفِيليتيس ، أي باسمِ الراعي الذي كان يَرَعَى قِطَاعَهُ هُنَاكَ .

ومع ذلك عاد داخلُ الأهرام التي أُفْرطَ في الدفاعِ عنها لا يشتمل على شيء ، قد قَرَعَ التَّهَابُونَ ، الذين هم أُمَرُؤُ من البَنَاتِين ، النواويسَ وَكَسَرُوهَا فلم يَبْقَ أَيْ اسم ، لم يَبْقَ غَيْرُ ما وُجِدَ على قُبَّةٍ من سِمَةٍ حِراءَ ، غَيْرُ لافِتَةٍ تُشِيرُ إلى عمل نَحَّاتٍ ، وبما بَقِيَ على جدارٍ منذ زمنٍ طويلِ كِتَابَةٌ قَائِلَةٌ إِنَّ السَّمَالَ كانوا قد أَكَلُوا ما قِيمَتُهُ سِتَّةُ مِلايينِ فَرَنْكٍ ذَهَبِيٍّ من البصلِ والتُّبَخْلِ والثُّومِ .

. Chantier (١)

## أبو الهول

ومن ثمّ ترى ثلاثة من الفراعنة قد طلبوا الخلود بأعظم ما فى العالم من كتلٍ حجرية ، فبقى اسمُ رابعٍ وسمّةٌ عاملٍ وحسابٌ بصلٍ ، ومن ثمّ ترى الفلاح قد قهر سادته الفراعنة فى نهاية الأمر .

ودُهِشَ جِزْفَاتُ القرون القديمة الثلاثة واستحوذ عليهم الوجدُ : تجاه الأهرام كما حدى عجائب الدنيا ، ويعدّلهم حيرةً أمام أوابد مبدئى مصر القدماء كلٌّ من يعرف حدود الفن القديم ، وبما كان يعزى إليهم ما فى الأعداد من السرِّ المكنون ، ولم يتقطع هذا التّعبّ حيناً أماط شَفْؤُليون اللّثام عن تمثال سايس <sup>(١)</sup> .

يبد أن أحداً من أولئك المؤلفين الثلاثة لم يتكلم عن أبى الهول الرابض أمام الهرم الثانى ، وهو إذ كان شبيهةً مطمورة فى الرمل فإن من المحتمل أن يكون فى زمن هيرودوتس واسترابون غير ظاهري تقريباً ، وكان توتموزيس الرابع قد أبرزه قبل هيرودوتس بألف سنة ، وبما يُقصُّ أن توتموزيس هذا كان فى أثناء الصيد قد نام ذات يوم عند قدَم أبى الهول فقال له أبو الهول : « سأجعلك من الفراعنة إذا ما أخرجتنى من الرمل » .

وبما كان أبو الهول ليبدو حافلاً بالأسرار لدى المصريين ما دام قد نُحِتَ رمزاً لخفّرع ، وكان لا بدّ من ظهور الأغارقة حتى يُخيفهم أبو الهول ، وقد أبدع ، إذن ، أثرٌ فنى لا يقاس بشئ فى العالم فى سهل الأهرام الثلاثة حيث كلُّ شئ فكرٌ وحساب ، وذلك لأنه لا يزال قريباً من الطبيعة على ما يحتمل .

وكما نظرنا إلى أبى الهول عند غروب الشمس غيرَ هذا اللّكّ الأبدى منظره ، ويبدو وجهه الصامت المشوّه ناطقاً ذا معنى ، ولا نشعر بما توحى به التماثيل

(١) صا الحجر .



« لا نستطيع أن ندرك »

النصفية المتبورة من الشفقة عندما نراه ، فاعليه وَضَعَهُ من سَنَاه فلا يَجْلُنا تَرْقِي  
لطالمة الدينوى .

وإذا رَأَى مواجَهَةً ، ومن غير نظَرٍ إلى تاجه القرونى ، وَجِدَ رَأْسُ شَابِرٍ  
طويلِ المَنَقْ ، ضَيَّرَ الجبين ، بارز الأذنين ، واسع الأنف مع نظامين كأنف  
الفلاح ، ذى تَحْنٍ في شَفَتِهِ السفلى مع نُسْكٍ عن قَرْنٍ ، ذى وجهٍ أصمٍّ مملوه  
صبراً ، ولكن مع إِيْحاءٍ بحجرين عظيمين بين جَفَنَيْنِ كبيرين مفتوحين بجنين  
إلى الوطن يَفْجِرُ القلم عن وصفه ، وعلى الرغم من جميع هذه القوة والهدوء .

« فقد قُتَّ بِمَظَلَّتِكَ جميع أولئك الذين كانوا قبلك ، وذلك لأن عظمتهم  
هبطت إليك ، أنت الأقوى لأنك جوهراً غير منقسم ، أنت تَزْهَدُ في مظاهر  
السلطان والجمال لأنك تُعْطِي قُوَّتَكَ في جسم حيوان ، أنت تتأصل بيدنك في  
الأرض التى نَدَوسُها والى تَجَلِّسٍ عليها القُرُفُصَاء لسؤالك ، أنت قوى القول  
فتصطك رُكْبَنًا برمج كلامك العظيم ، أنت ذو صوتٍ يَدَوِّى في الصحراء  
الواسعة مع سكوتك ، أنت تَبْرُزُ من الرمال التى جَمَعَهَا القرونُ في عُرْلَةِ البرِّيَّة ،  
أنت تَحْمِي حياة ذات أسرار بين الرمل والسماء والقرب من قبور ملوك مجهولين .

« أنت رجلٌ ، وَيُوَيِّدُ ذلك غَضَنُ جبينك وقوة صُدْعَيْكَ وَضُمُورُ خَدَيْكَ ،  
أنت مصرى ذو وَجْهَيْنِ بارزين وفكر كبير ، أنت نَشَأَ بين الرمل والصحراء  
وغيرين النبل ، أنت لست إلهًا ، لأن نظرك الحيوانى يرتفع إلى الشَّمَقِ ، نحو  
النجوم ، من حَجَرَتِي عَيْنِكَ ، وبما أنك تَرْقُو إلى البروج ببصرك فإننا نَبْعُ ذلك ،  
ولا نستطيع أن ندرك ذلك النظام الذى قد تحيط به في صموتك وراء حاجبتك  
فلا نُطْلِعُنا عليه » .



## الجزء الخامس

### القَمَ الذَهَبِيّ

« يَحْمِلُ الْأَمْلَسُ يُونَا مِنَ الْأَرْضِ عَلَى كَتِفَيْهِ  
الْعَظِيمَتَيْنِ ، وَيَتَخَقَّقُ عَلَى رَأْسِهِ أَلْفُ قَلَمٍ شَاهِدٍ  
عَلَى سُلْطَانِهِ ، وَهَكَذَا يَهْدُرُ سُرُوراً وَيَحْمِلُ إِخْوَتَهُ  
وَأَوْلَادَهُ وَغُرَائِمَهُ فِي صَدْرِ الْأَبِ الْمُنْتَظَرِ » .

(هـ)





٣٤ - أحد الفراعنة



تَمْتَدُّ الظلال ، وَتُقْبِلُ اللَّيْلُ ، وَيَدْنُو النهر العظيم المَهْتَزُّ من آخر مجراه ، غير أن المعجائب التي أوجدتها الطبيعة هي نتيجة استمدادٍ كثير وجُهدٍ كبير فلا تُصْغِي الطبيعة بها مع عدم اكتراثٍ كالذي تُصْغِي معه بالملايين من الموجودات الأخرى ، « ولما ، كما قال غوته ، مُفَضِّلُهَا الذين تُعْطِيهِمْ بسخاء ، وهي تَحْنِي ما هو عظيم » ، وتتفعم الطبيعة بِفُسُوقِ الإسكندر لَهْكَ قُوَاهُ ، وكان لا بُدَّ من اثني عشر قاتلاً لَطَعْنَ قِصَرَ بالخنجر ، وكان لا بُدَّ لما من قبائل الشمال لَهْدَمَ دولة الرومان ، وكان لا بُدَّ من البراكين لإهلاك بساتين البرتقال في سَبِينة ، وكان لا بُدَّ من جزيرة قَرَّرَ لَهْدَ نَابليون ، وما كانت الطبيعة لتترك أدعى الأنهار إلى العجب لَطَالِمِهِ من دون أن يَجِدَ شكلاً جديداً غير مُرْتَقِبٍ ، من دون أن يَجِدَ حلاً جديراً به .

وَيَسِيرُ موج النيل من خطِّ الاستواء إلى القاهرة في مئة وخمسين يوماً ، وَيَقْطَعُ أكثر من خمسة آلاف كيلومتر مجاوزاً ما يزيد على ثلاثين درجةً من العرض ، وهل يَصُبُّ في البحر كَمَوْجِ ألوف الأنهار التي تَصِلُ اليابسة بالحيط ؟ وتعيد الطبيعة إلى النيل قدرته على الإبداع مرةً أخرى ، وينقسم النيل قبل مَصْبِهِ ، ويستفيد قاهرُ النهر الإنسانُ من هَوَى الطبيعة هذا ويُحْدِثُ أرضاً جديدة زاهرةً بالقُلَّاتِ ، وإذا ما هَبَّتْ أحدُ الموجودات منهوكةً بَدَتْ للنصر صَوْلَةٌ عظيمة ، فالنهر في الكيلومترات الـ ١٥٠ الأخيرة من مجراه يُكَوِّنُ أخصبَ أقسام العالم المعمور ، وَيُعْطِي معنى كلمة الدلتا وتدلُّ على كل مَقْصَبٍ من ذلك النوع ، وبما أن

سَنَّ الطبيعة تُقَسِّرُ أسرارَ النيل ومغامراتِهِ الغريبةَ فَإِنَّ الملاءَ يَجْثَوْا فِي أمرِ هذا المثلثِ الأرضيِّ المائيِّ المُعَيَّرِ ، وقالوا مُؤَكِّدِينَ إِنَّ الدلتا بلغتْ من السن ١٣٨٦٠ سنةً وَأَثْبَتُوا ذلكَ كما يَأْتِي :

كان النيلُ المقسومُ إلى فروعٍ كثيرةٍ يتوَارَى في الدورِ الابتدائيِّ في مناقعٍ كبيرةٍ مستورةٍ غابغةٍ يَكْرِيقُمُ بها جَمْعٌ لَا يُحْصِيهِ عَدَدٌ من الطيورِ وذواتِ القوائمِ الأربعِ ، وَحُفِرَتِ قَنَوَاتٌ وَأُنشِئَتْ أَسْدَادٌ لتجفيفِ تلكِ المنافعِ وتحويلِها إلى أراضٍ خصيبةٍ قبلِ الفراعنةِ بطولِ زمنٍ ، ومن الحينِ الذي أَعْمَلَ الإنسانُ ذكاهُ وحَذَقَهُ هَناكَ ، والطبيعةُ تُطِيعُ ، وتتحوَّلُ تلكِ البقاعُ البائرةُ مقداراً فقَدَاراً ، وتتغيرُ صورةُ الدلتا الجانِبِيَّةِ وَتُبَسِّطُ في الأزمنةِ التاريخيةِ في نهايةِ الأمرِ .

ويقالُ في بعضِ الأحيانِ إِنَّ الدلتاَ هي أكبرُ جُزُرِ النيلِ ، وكانتِ الشعبتانِ اللتانِ تَحِيطَانِ بها ، وهما كَانُوبٌ وَيِلُوزَه ، أَعْرَضَ من الشعبتينِ الحاضرتينِ : رشيدٌ وحمياطٌ ، وقد عُرِفَ للنيلِ ثلاثُ شعبٍ في بدءِ الأمرِ ، وتَكَلَّمَ هيرودوتسُ عن خمسِ شعبٍ له ، ورأى استرابونٌ وبليني وغيرُهما سبعَ شعبٍ له ، وَعَدَّ الإديسيُّ ، الذي هو أكبرُ جُغرافِيٍّ العربِ ، ستَّ شُعْبٍ له ، ووضعَ الإديسيُّ رأسَ الدلتا شمالَ ما هو عليه في الوقتِ الحاضرِ ، ولم يَضَعْهُ في المكانِ الذي وُضِعَ فيه سابقاً ، وكان أرسطو يستقد أن الشُعْبَةَ الغريبةَ هي الشُعْبَةُ الطبيعيةُ وأن الشُعْبَةَ الأخرى كانت قنَوَاتٍ مصنوعةً ، ومن ينظرُ إلى الخرائطِ القديمةِ يُبَيِّنُ أن بعضَ القَنَوَاتِ غَيَّرَ مكانَهُ خمسَ مرَّاتٍ ، وما وقعَ من تَبْدِيلٍ في القرونِ الـ ١٥ الأخيرةِ قد ضَيَّقَ الدلتا ، ولم يَبْقَ منها في الغربِ غيرُ اسمِ الشُعْبَةِ السابعةِ الجليلِ ، غَيَّرَ الاسمُ الرَّعَائِيَّ الذي كانتِ تُدْعَى به قَبِيلَةُ من الرُّعَاةِ نازِلَةٌ معَ قِطَاعِها هَناك .



وكيف يُنَال ما فيه الكفاية من الماء في هذه الأراضي التي انتزعها الإنسان من المستنقع مع أن هذه التربة الغرينية لا ترتفع كثرة مصر العليا ؟ تَلَمَّ من أقدم القاييس ، التي دَلَّ عليها قياسُ النيل بالروضة القريبة من القاهرة ، ومن أحدث القاييس ، أن ارتفاع الدلتا المتوسط هو ثمانية عشر متراً ، وهو ما يُعَبَّرُ عنه بكلمة « سَجَل ١٨ متراً » ، وبما أن نظام المياه بمصر حتى القاهرة لم يَتَغَيَّرْ في غضون القرون ، وبما أن وادى النيل الطويل الضيق بلاد واقع كان ذا عرض واحد في كل مكان تقريباً ، فإن ارتفاع الأرض ظلَّ كما هو مع تعاقب الزمن ، والواقع هو أن فَرْقَ المستوى بين أسوان والقاهرة ٧٢ متراً ، أى ما يُلْكَ على أن الانحدار هو تسعة سنتيمترات في كل كيلومتر على مسافة ٨٣٠ كيلومتر ، ويكون الانحدار في الدلتا اثني عشر سنتيمتراً ، ويجب أن يكون الارتفاع في السنة الواحدة وفي القرن الواحد أدنى مما في أقسام مصر الأخرى إذن ، والارتفاع واحدٌ مع ذلك .

ومع ما عليه جريان شُحْبِ الدلتا من سرعة أعظم من سرعة النيل قبل أن يُقَسَّمْ يرى أن ارتفاع التربة ناشئ عن رواسب الغرين التي تتوقف على سرعة النهر وطوله ، وبذلكنا قياسُ النيل بالروضة على مقدار ذلك الارتفاع في غضون القرون ، ويساعدنا قياس النيل هذا على اكتشاف حيل الطبيعة ، فارجع البصر إلى ما سَجَّلَهُ ذُو البصائر من الناس في ألف سنة من قياسات ثم انظروا إلى ما انتهى إليه أحدث طُرُقِ البحث تَرَّ التراب بالدلتا يرتفع متراً واحداً في كل ٧٧٠ سنة ، وبما أن مستوى الدلتا الحاضر ثمانية عشر متراً على ستة سطوح يتألف كل واحد منها من نحو ثلاثة أمتار ، وبما أن كل سطح يتم في ٢٣١ سنة ، فإن تكوين الدلتا يكون قد تمَّ في ١٣٨٦٠ سنة على الأقل . ولا نُشْعِزُ بالأرقام ، فكل الحسابات تقوم على أقدم مباحث العرب ، وتُرجِعُ

## رجال النافع

الباحث الأولى في مصر الدنيا إلى ما قبل الميلاد بخمسة آلاف سنة ، ويمكن خيالنا أن يتمثل الدلتا أيام بناء الهرم الأعظم ، ويدلنا على الأدوار القرية ما في قبور الدولة القديمة من تصاوير جدارية ، فهذه التصاوير تبصر مراعى هادئة ورعاة يحتمون من المطر بمخضري ما عادت الدلتا غير صحراء في ذلك الحين ، وما دام البحر يفرض سقته وما دام الماء ينزل من السماء ، وبهذه التصاوير الجدارية نرى الراعى ينام بجانب النافع ونرى كلباً حاد الأذنين يحرسه عند قدميه ، ونرى الماشية تغير الماء ونرى رجالاً عراة يرفقون ذراعهم ضارعين إلى التماسح المتوعد .

ويروى سياح الأغارقة أن هؤلاء الرعاة تحوّلوا إلى لصوص يسكنون جزراً وشبه جزر منيعة تقريباً فيخترجون منها في قواربهم المنقورة في سوق الشجر . وكان هؤلاء رجالاً جِلَاداً<sup>(١)</sup> طولا صغار الأرجل مسلحين برماح حادة فيركبون خيلا غير مسروجة ويسمون بالبياميين في الوثائق الميروغليفية ، أى الآسيويين والأجانب الذين يحتل أنهم من بقايا الهكسوس ، وقد حاول ملوك مصر ، على غير جدوى ، أن يذلّوا هؤلاء الناس الذين حثمت الطبيعة بتحصنهم خلف مناهضهم والذين كانوا يخترجون مباغتين لانتهاج بضعة مدن في زمن ماركوس أوريليوس كما في زمن الخلفاء الأولين ، وكان وغيهم<sup>(٢)</sup> يخيف جنود بوناپارت .

والآن ، وعلى بعد نصف ساعة من القاهرة بالطائرة ، تنقلت هذه القبائل من كل رقابة في جزر متصاة وفي الطرف الشرقي من الدلتا ، وتركب هذه القبائل زوارق ذات شراع مثلثة الزوايا ، وتشرب الماء بمثل منقار البجع وحوصلته ، ويعد هؤلاء الأكديميون في المرتبة دون البدويين الذين يقيسونهم بهم ، وذلك لأنهم

(١) الجلال : جمع البلبد ، وهو ذو القوة والصبر — (٢) الوغى : صيحة الحرب .

كما في زمن هيودوتس

لا ينتفعون ، كالبديين ، بطول ظلهم لمعرفة الساعة ، ولم لا يعرفون غير الصباح والظهر والمساء تقسيماً للوقت ، ولم لا يزالون يملحون السمك كما كانوا يصنعون في زمن هيروُدوتس .

## ٢

لا يعرف التاريخ من آلاف السنين الأربعة عشر التي نستطيع بها أن نتتبع تحول الدنيا غير ثلاثة آلاف ، وليس لدينا سوى علم افتراضي عما حدث في عهد الدولة القديمة ، ولم تكن الأهرام هناك لكانت أعمال الخفر في متفيس القديمة أقل إثارة بمراحل حول ذلك الماضي مما تثيره أعمال الخفر عن الدولة الطيبة في مجرى النهر القوقازي ، أجل ، إن الأسر المالكة التي ظهرت بعد ذلك تأملت بنفسه مجدداً حوالي ألف سنة قبل الميلاد ، غير أن هذه الأسر لم تظل باقية إلا إلى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد

وهلكت طيبة بعد أن ظلت عاصمة العالم نحو ألف عام ، وذهبت طيبة نحية تبديل السادة باستمرار ، وبدأ تماس الأم ، وتكثر صلات بعضها ببعض ، ويصل الآسيويون من الشرق ، ويصل الإفريقيون من الجنوب ، ويأتي أحد الفريقين بالسلع ويأتي الفريق الآخر بزيات الحرب ، وتتابع أسر مالكة مصرية في سبعة قرون ، ويتصل قتالها الأمراء المحليين على حين كانت أسلحة الأجانب الفاتحين الغربي الأطوار من يرض وسود تلمع وعلى حين كان هؤلاء يقتلون في النيل أمام معابد اللامة ، وتختلط أنواع الثياب والمادات واللغات والديانات في

تلك الواحة الضيقة ، وتختلط بأكثر من ذلك في الدلتا الواسعة التي لم تُعم أن اشتركت في يَظَلَّة البحر المتوسط .

وكانت الأم قَيرُ على طول النيل في ستمئة سنة إلى أن وقع الغزو الفارسي ، وما يَقِفُ نظرنا أمام النقوش البارزة الفرعونية اختلاف أسماء هذه الأم الأسطورية أو التوراتية وأسلحتها وأزيائها الغريبة ، ومن هذه الأم نذكر الفلسطينيين ذوى الدروع النحاسية والسيوف الطويلة والثروس للدورة والخوذ للريشة ، ونذكر الآكيين والسردينين الذين أبصروا مينوتور في أقريطش ، والسكالك وغيرهم من القرصان الذين يتعذر النطق بأسمائهم والذين يُعدّون نورمان القرون القديمة لما كان من نزولهم إلى الدلتا، ويحبب الملك سليمان الصحراء ليصالح فرعون الذي غزا أرض كنعان ولينزوج ابنته وليسترد المدن التي أخذت منه كجهاز للعروس ، ولم يستطع سليمان البالغ الحكمة والراغب في الملاذ أن يضمن السلطان لفرسته، فقد سلب أحد ملوك لبيبة الهمج خزائنه وخزائنه ربة الذي لا تُدرِكه الأبصار .

ويبدو الملك الزنجي يانكي أقوى منه ، ويمشي هذا الملك بحمله الرائعة آتياً من بلاد النوبة، ويمثل الإله أمون في نباته ويؤد أن يُبجل إلهه في وطنه طيبة ، ويستخط فرعون من ذلك ، ويمحلم بالمستعمرات النوبية كأجداده قبل ألف سنة ، ويحاصره الإثيوبي ويقتل من رجاله عدداً كثيراً ، ويُذعر المصري من الطاعون ورائحة الجثث ويقف الشور ويُقدّم إلى الغالب حصاناً جليلاً كدليل على الصلح ، وتمتد مصر إلى إثيوبية من جديد بمرأى من الزنجي الظافر ، وتقلب الأوضاع بتبادل المستعمرة وأم الوطن مقاميهما ، فالجنوب هو الذي يملك الشمال .

ثم يأتي الآشوريون من الشرق غزاةً ويفتحون البلاد ، ويفر الإثيوبي أمامهم ،

### بسميتك

وَيَزَحَفُ الغالب حتى طيبة ، وَيُحَرِّبُ عاصِمَةَ السَّالم هذه سنة ٦٦١ قبل الميلاد ، ولم يكن الغالب مهيئاً في المطالبة بما يَهْوَى من الخليل ، وكان الغالب عارفاً ببعض المعرفة بالأدوات الذهبية على الخصوص ، فكان أولَ من عَلَّمَ فاعلي المستقبل كناپليون والإنكليز كيف يأخذون خمسةً وخمسين مثقالاً ومِسةً فكانت سميكتها التفضية والذهبية وحدها تَعْدِلُ ٢٥٠٠ وزنة .

وفما كانت تتنازع أمرَ مصرَ فارَّتان إذ ظهر للمرة الأخيرة سيِّدٌ من الأمراء المحليين المتقاتلين ، وكان بسميتك قد نُفِيَ من سايس إلى شاطئ الدلتا عن وَخِي من الآلهة ، وَيَنْزِلُ من البحر إلى هنالك قرصانٌ مسلحون من اليونان والكاريين ، وَيَنْدُون مرتزقةً عنده ، وَيُهْزَمُ الأمراء المصريون من قِبَلِ هؤلاء الحارِبين الرِّعَائيين<sup>(١)</sup> لِلدَّرْعين<sup>(٢)</sup> ، وَيَتْرُكُ أولئك الأمراء تاجَ القراعة لبسميتك ، ولدينا تمثالٌ لهذا ، ومنه نَعْلَمُ أنه كان مُتَقَبِّضَ الوجه أَذْلَفُ<sup>(٣)</sup> الأنفِ كَثيرَ الأذنين قبيحَ القمَرِ ، وَيُقَطِّعُ مرتزقته أطياناً في الدلتا فاصلاً بينها بِشَعَبِ النيل لكيلا يتذابحوا ، ويستخدمهم في حمايته من رَعِيَّتِهِ ، وهكذا يَفْتَحُ أبوابَ مصرَ للأغارقة الذين يَمْخَرُونَ فيما بين جُزُرِ الأرخييل فيُعِيدُ فَتْحَ بلَدِهِ من قِبَلِ المِلاد<sup>(٤)</sup> .

ويخلد التاريخُ أحدَ القراعة ، نِيخاوا ، لِمَا كان يساوره من روح التمدين قبل المسيح بستبئة سنة ، وقد حاول أن يَخْفِرَ قناةَ السويس التي لم يَسِمَ أمرُها إلا في زماننا .

يبد أنه لم يُصَفَ إلى المبقرية الإنشائية وإلى الذهب ، وإلى عَرَقِ العيد الذي

(١) الرعاب : الذي يخيف الناس — (٢) للدرع : لابس الدرع — (٣) أذلف الأقب : ذو الأنف الصغير الذي استوفت أرقته — (٤) المِلاد : اليونانيون .

رَوْضُ الفراعنةُ نهر النيل بفضلِهِ، رغبةُ الخروجِ من الراحةِ وربطِ النيلِ بالبحرِ ،  
أى ربطِ عنصر حياتهم بنصر جيرانهم من الأمم البحرية ، فالأدمنةُ والأيدى التى  
أقامت الأهرامَ والمسلاتِ والمابدَ والأحواضَ والترعَ تستطيع أن تحفر تلك القناة  
أيضاً لو يَدَّتْ لها رؤيا اتحاد الصحراء والبحر .

وكان لا بُدَّ من ظهور ذلك الملك بعد حين ، وكان لا بُدَّ من ظهور نخاو الذى  
أبصر فاتحي الأجانب يَفْزُونَ بلادَ آبائه ، والذى وَسَّعَ نطاق الدفاعِ حتى سورية ،  
لَتُدْرِكَ رُوحُ البحر وروحُ التجارة ، وَيَبْنِي أسطولا ، وَيَبْلُغُ من كثرة البطانة  
له ما لَيْسَتْ سيداتُ البلاطِ معه دهايسَ صَدَّرَ على شكلِ سَفْنٍ صغيرة ، وَيُفْتَرَّ  
على هذه الحُلِيِّ بعد مرور ٢٥٠٠ سنة وَيَصْغُ في الوقتِ نفسه مشروعَ قناةٍ تكون  
من العرض ما يمكن سفينتين أن تلتقيا فيها .

وكانت القناة التى يُعِدُّها النيلُ بمائه تَقْطَعُ بُقْعَةً خصبيةً حتى أيامنا فتَدْعُ  
السُّفُنَ الزاهيةَ من الشعة الشرقية في الدلتا بالقرب من بُوَيْسْتِيس<sup>(١)</sup> تَصِلُ  
في أربعة أيام إلى المكان القائمة عليه الإسماعيلية في الوقت الحاضر ، وكان على تلك  
القناة أن تنحرف بعد ذلك إلى الجنوب فتَبْلُغَ البحرَ الأحمرَ ، أَجَلْ ، لم يُحْفَرْ  
البرزخُ ، غير أنه كان يُمكن الدلتا أن تَصِلَ البحرَ المتوسطَ بالبحر الأحمر ، وهكذا  
كان النيل في آخر مجراه واسطةً صالحةً بين مراكز حضارة ذلك الزمن ، وهكذا كان  
الفينيقيون والأعارقة يَجْلِبُونَ ، رَأْسًا ، حريرَ الصين وحجارة الهند الكريمة إلى  
منفيس وإلى أقريطش ، وهكذا لم يَكُنْ على صاحب السفينة أن يَنْبُلُ من مركب  
إلى آخر رجاله وجماله .

(١) بويستيس : موضعا تل بطة بجوار مدينة الزقازيق من الجهة الشرقية القبلية .



٣٥ - خرفانة





يقف المشروع عن وحي الهى

وَيَحْبُطُ الْمَشْرُوعَ مَرَّةً أُخْرَىٰ مَعَ ذَلِكَ ، وَوَحَى الْآلَهَةُ ، لَا تَرَأَى الْمَالِ ، وَلَا مَوْتَ ١٢٠.٠٠٠ عِدَّةٌ قِيلَ لِنَهْمُ هَلْ كَوْنِي أَنْشَاءُ الْإِنْسَاءُ ، هُوَ الَّذِي يَتَقَفُ مَشْرُوعَ فِرْعَوْنَ ، وَكَانَتِ الْقَنَاءُ قَدْ تَمَّ نَصْفُهَا عِنْدَ مَا أَنْبَأَ الْكَهْنَةُ بِأَنَّهُ يَقُومُ بِذَلِكَ الْعَمَلِ فِي سَبِيلِ بَرِّهِ ، وَتَعْمَلُ عَوَامِلُ سِيَاسِيَّةٌ خَالِصَةٌ يَنْفُطِقُ بِهَا الْكَهْنَةُ عَلَى لِسَانِ الْآلَهَةِ دُونَ إِكْمَالِ ذَلِكَ الْعَمَلِ ، وَذَلِكَ كَمَا وَقَعَ فِي الْوَقْتُ الْحَاضِرِ فِي أَمْرِ التَّفَقُّقِ الَّذِي يَصِلُ بَيْنَ كَالِيهِ وَدُوْفَرِ فَوْقَهُ عَنْ تَحْوُفٍ كُلِّهِ مِنَ الْجَارِيْنِ الْخَفِيِّ مِنْ أَنْ يُسْتَعْمَدَ لِمَقَاصِدِ الْآخَرِ الْبَرِّمَةِ .

وَيَمْضَى قرنٌ فيظهر البربريُّ، فيفتح دارا الفارسيُّ مصرَ، ويدأوم على عمل القناة ويُبْكِيهَا على ما يحتمل ويُمكن الكتابة التي رُسِيتَ بخمس لغاتٍ على عمود كبيرٍ تمجيدا لآثاره أن تُقَسَّرَ على وجوه مختلفة، وعند ديودورس أن دارا كان يُفَكِّرُ في حفر البرزخ أيضا، وأنه لم يُفْلِحْ عن هذا المشروع إلا خوفاً من إغراق مصر الواقعة على طبقة مائلة إلى الأسفل كما كان يُتَعَدُّ ومن تحويله إلى مستنقع .

ومارئي في قرني القاعين من الأجانب أو قروهم الثلاثة وجودُ فوائدٍ حرية وتجارية في قناة السويس ، وم لم يُعَدِّمْ عن عمل ذلك غير خوفهم من أن ينفع به بربريُّ من الضفة الأخرى كزاحمٍ وفتح ، غير أن كلَّ واحد منهم كان يودُّ أن تساعِدَ القناة على إعلاء جاهه فكانت تُسمَّى « نهر بطليموس ، ونهر تراجان ، ونهر أمير المؤمنين » ، وما كان من هذا التنافس أدى إلى تغيير اتجاهها على ما يحتمل ، ويزعم حاج إيرلنديُّ في القرن الثامن أنه سافر على سفينةٍ من النيل إلى خليج السويس من غير أن ينقل من مركبٍ إلى آخر .

ومهما يكن الامرُ فإن السياسة العليا حالت ذات مرة دون تقارب الجارين

### أمازيغ

الطبيعيّ ، قد أدت فتنة اشتملت في مكة إلى أمر الخليفة بسدّ القناة تجوياً للقناة ، ثم يتصدّى الدين للأمر ، قد امتنع هارون الرشيد عن إعادة القناة خشية اتخاذها ممراً لقرصان من النصارى يختطفون حجاج المسلمين في البحر الأحمر .

واليوم ، أى بعد أحد عشر قرناً من ظهور ذلك الخليفة الذى ترانا مدينين لبياله بأروع القصص ، لا تزال تلك السياسة عياء ، فعلى تهديف إلى سدّ قناة السويس بعد إكمالها بسبعين عاماً ، وذلك متعمداً للدول الاستعمارية من أن يهدّد بعضها بعضاً ، فكان القلب يتوعد الرأس بقطع الشريان .

### ٣

نرى بين القراصة الآخرين الذين ملكوا الدنيا واحداً جديراً بالذكر ، وكان أمازيغ من أصل وضع ، ولم يكن ليخفى أن يُذكر حتى في كتابات المأبد أنه كاتب خزينة سابق ، وأن يُصرّح فيها لرعاياه بأنه لم يملك إلا إلى وقت الظهور ، وذلك لأنه يجب حلّ القوم بعد أن تُستعمل ، ويُعزل القضاة الذين برّءوه في فتائهم ، وذلك لأنهم صدّقوا صرّحاته ببراءته مُثبتاً جهلهم ، ويكافى من حكّموا عليه في شبابه ، وذلك لما أبدّوه من فطنة ، وبأمرٍ بصهر ملست من ذهب كان يُفصل فيه رجله وبأن يصنع منه تمثالاً للرب ، ويُبجّل التذمّاء هذا التمثال ويغبرهم أمازيغ بأنه صنّعه من الطست الذى كان يتصق فيه .

وينقل أمر مصر إلى الفرس في عهد خلقه الضعيف ، ويصل سادة العالم الجدد هؤلاء إلى ضفاف النيل لابسين معاطف واسعة مزخرفة ذات حواشٍ من

## قيزودارا

فِرَاءَ وَقِلَانَسَ دَقِيقَةً طَوِيلَةً ذَاتَ أَطْرَافٍ عَرِيضَةٍ وَأَحْذِيَّةً مُدْرَبَةً وَسِيوْفًا طَوِيلَةً ،  
وَيَدْيَتْرَ مِلْكَامَ ، قَمِيْزُ وَدَارَا ، بِمَاطَفَ قَصِيْرَةٍ كِمَاطَفِ جُنُودِ الْمِيْكَلِ  
وَيَضَعُوْنَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ عَاقَمَ يِضًا كَمَاثَمَ الْمَالِيْكَ ، وَتَقْبَهُمُ نَبَالَةً حَامِلُونَ جِجَابًا<sup>(١)</sup>  
عَلَى ظُهُورِهِمْ وَيَقْبَهُمُ آخَرُونَ حَامِلُونَ رِمَاحًا طَوِيلَةً ، وَيَبْدُوْ جَمِيْعُهُمْ مِنَ الْأَلَاخَى<sup>(٢)</sup> ،  
وَتَزِيْدُهُمْ شَعُورُهُمُ الطَّوِيلَةُ حَابَةً وَيَبْقَوْنَ فِي وَادِي النِّيلِ مَتَى عَامَ ، يَبْقَوْنَ إِلَى  
حِينَ وَصُولِ الْإِسْكَندَرِ .

ومع ذلك ثار المصريون عليهم عدة مرات ، ومما كان يحدث أحياناً أن ينزع  
أميرٌ على منهم فتناً من السلطة ، وكان آخرُ أولئك الأمراء يخرجُ من المناقع الواقعة  
في شمال الدلتا الشرقى ، من تلك البقعة المنيعه الخاصة بالرعاة والصائدين ، من تلك  
الجزرُ الساعية التي لا يجدها أحد ، من تلك الفياض ذات الأعشاب العالية  
والأجام ذات الأشجار الكبيرة ، من تلك المناهى والجداول التي يلجأ إليها الفرار  
منذ أنجب إيزسُ الطريدُ بابه ، وهناك رؤساء عصابة من ذوى البأس كانوا  
يحالفون مرتزقة من الأغارقة ، ومن أغارقة اسبارطة ، الذين يخدمون من يدفع إليهم  
رواتب ، والذين يفسرون في مصر من القرن الرابع قبل الميلاد مقداراً فقداً .

وتصحو حيوية القراعنة في مؤسس آخرِ أسرم الثلاثين ، ويُقيمُ هذا البانى  
معابده بالكرنك وبلاق وحصونا في الدلتا ويستدرج أسطولَ قرنبار الكبير  
ويطبق عليه في شعبة النيل التي كانت لا يخرج لها ، ويتقدم الترسُ إلى منفيس  
مع ذلك ، بيد أن عدواً غيرَ منتظرٍ يقفهم ، بيد أن فيضانا عنيقاً يزدهم إلى الدلتا

(١) الجباب : جمع الجبة ، وهي كنانة النشاب — (٢) الألاخى : جمع الألخى ، وهو  
المظيم الجبة .

فيعدون إلى البحر في نهاية الأمر ، وهكذا يُنفذ النيلُ مصرَ مرةً أخرى .  
وتضى عشرون سنةً ، وبَصِلَ الفرس إلى الدلتا مُجدداً بجيشٍ عظيمٍ ويُكتب  
لم النصر ، ويُفرَّجُ آخرُ فراعنة مصرَ وَيَرْكَبُ النيلَ وَيَتَوَجَّهُ نحو مجراه الأعلى  
مع خزائنه ويلجأ إلى إثيوبية ، فكانت هذه خاتمةً آخرِ الفراعنة ، وهكذا تَذْفَعُه  
آسية البالغةُ القوةُ إلى سُدودِ الشلالات كما لو وَدَّتْ أَنْ تَحْمِلَه على مَلَى تاريخِ النهر  
إلى الخلف .

وتتأثر دولة الفرس بعد عشرين سنةً ، ولم يَبْقَ في مصرَ من الفرس غيرُ شجرةِ  
الدَّرَاقِ التي أتى بها قبيزُ من إثيوبية كما يظهر ، وتَسْقُطُ تلك الدولةُ الآسيويةُ  
العظمى تحت ضَرَبَاتِ قسمٍ من أوربة الحديثة سارَ حاملاً مبدأ النصر .

وُضِعَ لِلْأَعْرَاقَةِ فَتَحُ قِسمٍ من العالمِ للادى والعالمِ الروحيُّ بذلك البدأ الذي  
يُعرفُ بـ ( كالون كاعاثون ) ، ويُمكن أن يُفسَّرَ ذلك للولد باجتماع الذكاء  
والجمال للوجب للخير ، ومن المتمدن أن تجِدَ من التباين بين أمتين ككتابين الفلاح  
والإغريق ، وَيَظَلُّ كلُّ من الفلاح والإغريقُ غريباً عن الآخر ، وَيُسَلَّى مُتَعَنُّ  
الأعراقة الأثني الصغيرَ بالشحرِ من المصريِّ العابد للبقر بدلاً من أكله والمؤلهِ  
للسَّوَرِ بدلاً من سَلْخِهِ ، ولو تواجه فلاحو النيل وفلاحو الإغريق لتفاهما من فورهما ،  
ولكن الجنود والتجار هم الذين يجيئون من ساموس وقبرس وأقريطش وأثينة ،  
ويُدْخِلُون إلى البلاد شجرَ الزيتون والعنبِ كما يَدْخِلُون إليها عاداتهم وألهمهم ،  
ويؤسسون مدناً في الدلتا ، ويقيم زجالاً إيجين معابدَ لجوبيتر ، ويقيم رجالُ  
ساموس معابدَ لجوئون ، وذلك مع إنشائهم مرافئ حرةً لكيلا يَدْفَعُوا مَكُوساً ،  
ويتساءل المصريون حائرين عما يَعمُنُ لأولئك الآسميين من فَرَضِ عاداتهم الأجنبية

### الأغارقة والمصريون

على شعبٍ يوجد خلفه تاريخٌ أربعة آلاف سنة ، وما كان أولئك الغرباء ليدركوا أن هؤلاء الفلاحين يمشون مختلطين بأنعامهم على حين يقبض كهائنهم على ناصية الحكمة العليا .

ونتعارض الأمتان : الديمقراطية والملكية ، ولا يذرك شعبُ الجزيرة أمرَ شعب الواحة ، ويشعر كلُّ منهما بأنه ليس من البرابرة ، والقارقُ بينهما هو أن يظلَّ شأن المصريين الذين يستعملون جميع الوسائل السكياوية حفظاً للبحث خافياً على الأغارقة الذين يحرِّقون موتاهم ، ويُعارضُ الوضع والظرفُ بتصوفٍ تُفوزُهُ وسائلُ التعبير ، وتعارضُ حرية الفكر والشايطُ والشكُّ بضغط التقاليد والثقل والایمان ، ويُعارضُ الجمال والرونة بجمود الجمهور ، ويُعارضُ بلدُ الجبال والينابيع والجداول بالصحراء ، ويُعارضُ البحرُ النهر .

### ٤

كان الإسكندر الأكبر في الرابعة والعشرين من سنِّه عندما بلغَ الدلتا ، ولا ندري هل تشابه صورُهُ النصفية كثيراً ، وإنما الذي نعرفه هو أنه لم يدار بها ، غير أن لنا بتاريخ روحه ونجدِّه صورةً له ، ولكلِّ واحدٍ منا أن يتمثل الإسكندر من خلال نقوده وصورة التَّصفية وتماثله ، وما كان جمالُ الرجل لِيؤثِّر في حياته تأثيراً قاطعاً ، وما انتهى إلينا من أحاديث معاصريه فيؤكد أمرَ هذه المؤهبة التي تميزُهُ من جميع الفاتحين ، ولم يحدث أن فاق نقودُهُ الشخصُ ما عند إنسانٍ آخر من نقود ، ولم يكن المجذُّ والجلالُ لديه من خصائص الغالب ، وإتماماً لذلك في

## الإسكندر

القوى التي تدفعه من قورها إلى فتح العالم، ما دامت الآلهة لم تُنعم عليه بنير حياة قصيرة .

وهو قد جُلَّ على ذلك برغمه أنه سليلُ الآلهة وأنه من عنصرِ أشيل، وأنه ابنُ لبتيس، وكان يحاط بالشعراء، ويحمّد أشيلَ لما كان من تفتي أوميرس به، فإذا ما جئنا<sup>(١)</sup> الليلُ وصَحَّ أوميرس بجانب سيفه في علبة فارسية مطوّقة بالفضة كانت تشتعل على عطور .

وتراء مدينةُ رأسه الأسدى لشعره المفروق في ذروة هاتته والمتدلى من الجانبين ولشدة حركة عينيه للذكورة في كل مكان والتي يشوبها شيء من الأوثنة فيعزى نظره إلى أفروديت، وله، بالعكس، قَمَّ شابٍ، وهذا القمّ لجم من غير أن يكون كبيراً، وما عليه شفتاه من إحساس مُقلّص فتخفّفه نظرةٌ متحوّلة إلى اليمين وإلى السماء كثيراً ويخفّفه ممثّلُ العنق قليلاً إلى الكيف الشمالية، وكان ذا جبين غير متساوٍ مع تنوء ضليل في الأسفل بكثير من المصارعين، وكان ذقنه يدلُّ على المزم وعلى البُعْد من الفنِّ وعلى البراعة في الرماية، لا في هرّ أوتار المزهر<sup>(٢)</sup> .

وتُظهره جميعُ صُورِهِ بعد انتصاراته، حتى إن ليزيب<sup>(٣)</sup> جعلَ له وضعا عصرياً تامَّ الجِدَّة، وفُسّيسله يونيبي وتمثالُ هرّ كولا نُوم وحدهما يُبديانه في حومة القتال، فيبدو في أحدهما فاقدُ الخُوذة طائرُ الشعر مدافعا عن نفسه فوق حصانه الشابي<sup>(٤)</sup>، ويبدو في الآخر مهاجماً العدوَّ ببيضٍ الوجه مُفتَح العينين، وكان قد خاض أقصى

(١) جن الليل : أعظم — (٢) المزهر : المود، وهو آلة الطرب المعهودة .

(٣) ليزيب : صانع تماثيل يوناني ظهر في القرن الرابع قبل الميلاد .

(٤) شبا الفرس : قام على رجله .

### حصر سجّل الإسكندر

معاركه عند ما وصل إلى مصر ، وكان قد انتصر في إشوس واستولى على صور وغزة ، وكاد يُقتل في غزة ، وغدت دولة الفرس غير موجودة ، وصار ما بين البحر الأسود ومصب النيل قبضة هذا الشاب ، ولم يكن للولاية الفارسية ، مصر ، غير أمل قليل في مقاومته .

دخل الإسكندر مصر هادئاً ، وتمّ دور مهم في حياته بعد الفتح بست سنوات ، ومن المحتمل قليلاً أن كان يساوره شعور يدنو أجله .

وجادت عليه الحياة بكل ما يرضيه ، وكانت سعادته في دخوله ميدان الوغى بنفسه ، وما قيئ يثيق بصديقه وإن خدّر منه ، وكان يعتقد أن من الممكن أن يسالم عدوه وفق قانون الزرّاق الذي يرى أنه مدين به لجده أشيل ، ولم يعمل بنصيحة أرسطو فيعامل البرابرة للملوكين كما تعامل الحيوانات والنباتات ، بل عزّم على تقرير الأمر بنفسه مهتدياً بقول معطه : « لا تُقاسُ البقرية بشيء » ، وهي إله بين البشر ، ومن المضحك أن تُقرض قوانينُ عليها ، ويُنظّم الإسكندر حياته بحسب هذا الكلام ، ولا يكون لرغائبه ، ولا لأعماله ، حدّ ، وتستقبل مصر إلهاً ، ومصر ، إذ استغلّها ملوك من الأجانب مدة ثلاثة قرون ، اعتقدت ، مرة أخرى ، أن السيد الجديد هو خير السادة ، ويلوح كل شيء أسطورياً في هذه المرة ، ولم يحتج الإسكندر إلى غير ثمانية أيام حتى يصل من غزة إلى يلوّزة ، ويسير وشعبة النيل الشرقية ويتبع بنفسه من غير أن يُطلق نبأ سبها ، ويبرز للجمهور وارئاً لآخر القراعنة ، لا فاتحاً ، ويُقدّم قرايين إلى الإله فتاح وإلى الثور المقدس ، ويكرّم الكهنة الذين استذلّهم الفرس ، ويأتي من بلاد اليونان بمئات المصارعين ليشتركوا في الألعاب التي يُنظّمها ، فتُحسّ مصر بذلك أنها آمنة تحت حمايته ،

### كتاب لجمية أمم

وَنَصَّمَ مِصْرُ إِلَى أَعْظَمِ دَوْلَةٍ عَرَفَهَا التَّارِخُ حَتَّى ذَلِكَ الْحِينِ فَلَا تَعَانِي أُرَا لِمِثْلِ مَا كَانَ يَقَعُ مِنَ الْحُرُوبِ بَيْنَ الْفَرَسِ وَالْأَغَارِقَةِ ، وَبِئْسَ تَوَلَّى الْأَغَارِقَةُ عَلَى جَمِيعِ شَوَاطِئِ الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ ، وَبِعُودِ الْإِتِّصَالِ بِأَسِيَةِ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مَعَ ذَلِكَ ، وَمَا تَزَكَّهَ الْفَاتِحُ مِنْ حَامِيَّاتٍ قَوِيَّةٍ فُيْلَقِي فِي الرُّوْعِ أَنَّهَا كِتَابُ لْجَمِيَةِ أُمَمٍ ، وَيَخْتَصُّ الْمَرْزَبَانَ<sup>(١)</sup> الْفَارَسِيَّ فِي الْحَالِ ، وَتَصْبِغُ سِيَاسَةَ بَرْقَلَسِ الْقَاتِلَةِ « إِنْ مِصْرَ هِيَ لِأَثْنَةِ » سِيَاسَةِ السَّلْمِ الْعَالَمِيَّةِ ، وَيَقَعُ ذَلِكَ سَنَةَ ٣٣٢ قَبْلَ لِلْيَلَادِ .

وَيَذْهَبُ الْإِسْكَانْدَرُ مِنْ شَعْبَةِ النَّيْلِ الْفَرِيَّةِ ، مِنْ نَاحِيَةِ الْمُلُثِّ الْأُخْرَى ، لِيُعَزِّزَ فِي طَرِيقِهِ مَدِينَةَ الْأَغَارِقَةِ ، وَيَبْلُغُ الْبَحْرَ بِجَوَارِ رَشِيدٍ ، وَيُدْهَشُ النَّاسَ حِينَ وَصُولِهِ إِلَى اللِّسَانِ الَّذِي يَفْصِلُ الْبَحْرَ عَنْ بَحِيرَةِ مَرْيُوطٍ ، وَمَاذَا يَصْنَعُ فِي الْغَرْبِ حِينَ تَدْعُوهُ رِسَالَتُهُ إِلَى الشَّرْقِ ؟ يَتَبَيَّنُ مِنْ قُوَّتِهِ وَجُودَ مَرْفَأٍ لَا تُكْذِّرُهُ الرِّيحُ فِي ذَلِكَ الْخَلِيجِ الْمُنْفَرِجِ صَالِحٍ لَوْضَلِ مِصْرَ بِالْبَحْرِ فَلَا يَلَاهُ غَرِيْنُ النَّيْلِ ، وَيَرَى وَجُوبَ إِقَامَةِ دَوْلَةٍ مَدِينَةٍ هُنَاكَ ، وَيَرَى تَشْجِيعَ رُؤَادِ الْأَغَارِقَةِ عَلَى ضَمَانِ مَا يُشْرَى مِنْ مَحَاصِلِ مِصْرَ ، وَيَرَى إِثَارَةَ خِيَالِ الْعَالَمِ بِإِنْشَاءِ مَدِينَةٍ مُنَاسِبَةٍ لِمَجْدِهِ بِمُجَاهِدِ سَيِّدِ الْعَالَمِ ، وَيَرَسُمُ الْإِسْكَانْدَرُ خَرِيْطَةَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ كَمَا لَوْ كَانَ مِنْ أَمْرِيْكِيِّ الزَّمَنِ الْحَاضِرِ ، وَيُعَيِّنُ الْإِسْكَانْدَرُ أَمَا كُنَّ لِلْبَانِي الْعَامَةِ كَمَا يُعَيِّنُ مَكَانَ الطَّرِيقَيْنِ الرَّئِيسَيْنِ التَّلَاقِيَيْنِ عَلَى زَوَايَا مُسْتَقِيمَةٍ لِلرَّعْدِ الْأَوَّلَى دَالًّا عَلَيْهَا بِحُرُوفِ الْأَبْجِيدِيَّةِ ، وَمَا وَضَعَهُ أَيْضًا رَسْمُ رَصِيفٍ يَرْطِبُ الْبَرَّ بِمُجْزِرَةِ فَارُوسٍ حَيْثُ يُشَادُّ مَعْبَدُ يُقَدَّسُ فِيهِ لِإِيْمَرْسَ وَزُوسَ . مَعًا تَوْحِيدًا لِلشُّعُوبِ بِأَنْ يُسَمَّى فَوْقَ الْأُمَمِ ، وَفِيهَا تَتَكُونُ أَوْرِبَةُ إِذْ يُعْجَلُ بِنَاءُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ تِلْكَ الْحَرَكَةُ الَّتِي حَثَّتِ الْفَرَاغَةَ مِنْ

(١) الْمَرْزَبَانِ : الرَّئِيسَ عِنْدَ الْفَرَسِ .



### بناء الإسكندرية

طية إلى منفيس فجتلت من مصر دولة من دول البحر المتوسط وجذبت النيل إلى منطقة النفوذ الإغريق\*.

وتقول القصة إن الإسكندر بسط الدقيق على مائدة كبيرة في المراه رَمَماً لاجماع الطرُق وأماكن اليادين فانقضت جماعة من الطير على الدقيق وأكلته ، وهنالك بصرخ عراف قائلاً : « إن هذا دليل على غنى المدينة ورخائها » ، ويتحقق ما أنبا به .

وفما يسير الإسكندر على هذا الوجه إذ يندو ألوبة قوى خفية ، ويترك الأشغال الأولى في مدينته الجديدة ويتوجه إلى الغرب مبتعداً عن هدفه مقداراً فقداراً وصولاً إلى أقصى طرف من طوافه نحو الغرب ، ويسير اثني عشر يوماً على طول الساحل مع حرس صغير ، ويوغل في الصحراء ، ويبلغ واحة حيث لا يجد ما يفتح غير الكلام ، وهو يذهب إلى الآلهة ، إلى وحيا ، بدلاً من أن يدعوها ، ولا ريب في مساورة كثير من الأفكار الميعة لياه في أثناء هذا السفر ، في أثناء رُكوبه ستام جلٍ ، قاطماً الصحراء لبسأل إلهها مجهولاً ، ولا غرور ، فقد كانت أمه عرافة تجول بين الجبال حاملة دُبوساً<sup>(١)</sup> بيدها فقصت عليه أنها رأت في المنام بزقاً ينفذ صدرها قولدٍ بعد ذلك بزمان قليل ، وما كان من تسريح فيليب هذه الأم ومن جميع الآلام التي هزت صباه فأقصاه من أيه المقدوني الذي عدّه ديموستين<sup>(٢)</sup> من البرابرة ، ولم يكن بعيداً ذلك الزمن الذي كان الشعراء الهجائيون في أثينة يسخرون فيه من طبائع المقدونيين وعاداتهم المستكرهة في بلاد اليونان ،

(١) الديوس : عصا من خشب أو حديد في رأسها شيء كالسكة . — (٢) ديموستين : أشهر خطباء أثينة ( ٣٨٤ — ٣٢٢ ق . م ) .

### ينهب إلى معبد حافل بالأسرار

فصار الخوف يَحْمِلُهُمْ عَلَى السَّكُوتِ ، وَكَانَ الْأَعْرَاقَةُ قَدْ نَصَبُوا هَيْكَلًا لِلِيزَانْدَرِ<sup>(١)</sup> واقترحوا إقامة معبدٍ لِأَجِيْزِيلَاس<sup>(٢)</sup> ، فَمَثَلِينَ ، إِذَنْ ، أَنَّ يُوْلَةَ الْإِسْكَندَرِ الَّتِي لَمْ يُبَجَّلْ تَبَجُّلاً إِلَهِياً بَعْدُ مَعَ أَنَّهُ اتَّفَقَ لَهُ مِنَ الْمَفاخرِ مَا لَمْ يَتَّفَقْ لِأَوَّلِكَ النَّاسِ . وَيَنْهَبُ الْإِسْكَندَرُ لِلْبَحْثِ فِي أَقْدَمِ الْبِلَادِ عَمَّا ضَنَّ بِهِ عَلَيْهِ رُوس<sup>(٣)</sup> دُودُون<sup>(٤)</sup> وَأَبُولُون<sup>(٥)</sup> دِلَف<sup>(٦)</sup> ، يَنْهَبُ إِلَى مَعْبَدٍ حَافِلٍ بِالْأَسْرَارِ خَفِيٍّ فِي الصَّحْرَاءِ ، يَنْهَبُ إِلَى إِلَهِ أَجْنَبِيٍّ كَانَ يَنْدَارُ<sup>(٧)</sup> قَدْ أَشَادَ بِذِكْرِ وَحْيِهِ الْأَنْفِيِّ ، وَلَمْ يَرْضِ الْإِسْكَندَرُ أَنَّ يَتَوَجَّعَ فِي مَنْفَسٍ كَفَرَعُونَ وَأَنْ يَنْهِيضَ فِي أَعْيُنِ أَوَّلِكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ أَخْضَعَهُمْ ، وَإِنَّمَا كَانَ يَوَدُّ أَنْ يَقْلِبَ الْخِيَالَ بِأَنْ يَبَارِكَهُ كَهَانُ أَقْدَمِ أَدْيَانِ الدُّنْيَا ، فِي حَضْرَةِ شُهَدَاءٍ قَلِيلِينَ ، فِي سَحْرَاءٍ لَمْ يَدْخُلْهَا إِغْرِيْقِيٌّ قَطُّ .

وَكَانَ هِرَّكُولُ<sup>(٨)</sup> قَدْ سَأَلَ الْآلَهَةَ قَبْلَ أَنْ يَمَاتِلَ أَنَّتِه<sup>(٩)</sup> وَبِرْسِه<sup>(١٠)</sup> وَقَبْلَ أَنْ يَقْتُلَ الْقَوْلَ ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ مِنْ أَنْصَافِ الْآلَهَةِ ، وَقَدْ جَرَوْا هِرَّكُولَ عَلَى مَقَاتِلَةِ آلَهَةِ الْخَالِدِينَ وَغَيْرِ الْخَالِدِينَ مِنَ الْأَحْيَاءِ ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْأَفْكَارُ وَالْحِكْمُ وَالْقِصَصُ وَالِدِينِيَّاتِ وَالِدُنْيَوِيَّاتِ ، وَكَانَتْ ذِكْرِيَّاتِ الْأَبِّ وَالْأُمِّ ، تَزِيدُ الْإِسْكَندَرَ عَدَمَ صَبْرِ ، لَا رَيْبَ ، فِي أَثْنَاءِ تِلْكَ الرَّحَلَةِ نَحْوَ وَاحِدَةِ أُمُون .

وَمَا لَا مِرَاءَ فِيهِ أَنَّ الْإِسْكَندَرَ كَانَ يَعْرِفُ تَعْرِيفَ أَرْسَطُو لِلَّهِ الْيُونَانِيَّ حَيْثُ قَالَ : « إِنَّهُ الْكَائِنُ الْمُحَرَّكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَحَرَّكَ ، إِنَّهُ الْكَائِنُ الْقَيُّومُ<sup>(١١)</sup> » ، فَيَحْجِذُ

(١) ليزاندر : هو القائد الإسبارطي الذي قهر أثينة — (٢) أجيزيلاس : هو ملك إسبارطة الذي قهر الفرس — (٣) زوس : من آلهة اليونان — (٤) دودون : من بلاد اليونان — (٥) أبولون : من آلهة اليونان — (٦) دلف : من بلاد اليونان — (٧) يندار : أمير الشعر الثنائي اليوناني (٥٢١ — ٤٤١ ق. م) — (٨) هر كول : أشهر أبطال الأساطير اليونانية . (٩) أنته : غول خنقه هر كول بن ذراعيه — (١٠) برسه : من أبطال الأساطير اليونانية . (١١) القيوم : العالم بذاته .

أن ذلك يطابق بعض صيغ كهان أمون حتى في التفصيل ، وأن هؤلاء مستعدون لاستقباله وإن لم يُقيمهم رسولٌ بقدم العاهل الجديد .

وأخيراً تبدو النخل في الأفق ، ويرى المؤرخ الوصف الذي جاء مع الإسكندر أن سكن ذلك المكان ، المحاط بالنخيل والزيتون والينابيع المالحة والمياه المعدنية ، استهوى الإسكندر ، ويدخل الإسكندر في المبد وحده قبل أن يخرج موكب الكهنة المقدس إلى لقائه ، ويحييه الكاهن الأكبر ويسير به إلى قدس الأقداس ، ويقول ذلك القاص إنه خرج من هناك بعد بضع دقائق طليق الوجه ويصرح بأن جواب الإله ملائم لرغبته ، ثم يحضر التوكب ، ويستأر بالركب المقدس في أثناء ذلك ويوزع الهدايا ويعود إلى منفيس راعياً .

ولا نجد واحدة من الأساطير التي نسجت في ذلك الحين حول ذلك النظر ، ولا واحداً من الأسئلة التي عُرِيت إليه ، ولا سيادة العالم التي وعدها ، ولا الوجه الذي حيّاه به الكاهن الأكبر داعياً إياه ابناً للآلهة ، يعدل ذلك الأثر الذي أوجبه هذان السطران لما تستكشف الحقيقة به من خلال تتجافهما القارئ: زيارة قصيرة وجه طليق وتصریح باسم من العاهل ، وكل شيء على ما يُرام ، وبرى دُئوه من الكاهن اللذعور ، ويُعرب له عن رغبته بأستلقة صغيرة ، ويصادر للمبد بدأن حمل على توكيد كونه ابن أمون ما دام فرعون مصر مصححاً في هذا السبل بشهر من حياته القصيرة ، ويسأله أصدقاؤه في السنوات القادمة عن وحي الآلهة ذلك فلم يقل شيئاً ولم ينكر شيئاً .

ويصادر ابن زوس أمون ، الإسكندر ، مصر على ألا يراها ، ويُنظم الأمور في البلاد استمداً لإدارتها من غير ملكٍ زمن طويل ، فيسلم السلطة إلى ثلاثة قواد

#### لاجالة فيها

من الأعارفة ويسلم الشؤون الداخلية إلى مصريين ، ويتخذ من التدابير ما يضمن حماية الكهنة ، ويبدؤ قرناً آمون بين حُصل شمره في النقود الذهبية المشتلة على صورته ، وهو ، لو لم يكن الإسكندر الأكبر بسبب مآثره ، لكان عندنا كما عند العرب الذين يسمونه الإسكندر ذا القرنين .

وما أخذ من مصر هو وحى الصحراء الذى ألله به ، ويقول قرنه<sup>(١)</sup> الوحيد نابليون فى أواخر حياته : « زادت شهرة الإسكندر بتأسيسه الإسكندرية ، وبشكيره فى جعلها مقراً إمبراطورية أكثر مما بانتصاراته الباهرة ، فكان يجب أن تكون تلك المدينة عاصمة الدنيا » .

#### ٥

لم تلبث الإسكندرية أن أصبحت عاصمة عظيمة ، وصارت فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وبعد إنشائها بمئة عام ، تشتمل على مليون من السكان ، فأضحت ، كطبية فيما مضى ، أكثر بلاد الدنيا أهلاً ، وهى لم تلبث ، بفضل موقعها الذى هو أقوى من موقع طبية ، أن زادت وادى النيل أهمية بربطه بالبحر المتوسط ، بربطه بمركز العالم القديم ، والحق أن إنشاء تلك المدينة أهم حدث فى تاريخ مصر ، والحق أن العرب والإنكليز لم يستطيعوا أن يمتنحوا مصر مرفأ آخر .

ونمت الإسكندرية بأنها المصر الوحيد الذى لا يعرف أحد معنى البطالة فيه ، ويقول الإمبراطور هادريان : « هنالك نجد رجلاً يصنع زجاجاً بالنفخ ،

(١) القرن : النظير .

كل شيء كان استعماريًا

وتجد رجلًا آخرَ يمدُّ أوراقَ البرديِّ ، ويحدُّ رجلًا ثالثًا يَنسِجُ الكتانَ ، ولكلِّ صنعةٍ فيها ، أو يلوِّح أنه ذو صنعةٍ فيها ، وللماجزين عملٌ ، وللعلميان شغلٌ ، ولا ترى مبتلى بداء الفاصل عاطلاً ، فالجميعُ يَمبُدُ إلهاً واحداً ، يَمبُدُ المالَ ، وكان التجار يَصْرُخُونَ في الأسواقِ لَقَعًا لِلأُنظارِ إلى زيتهم وملحهم وخشبهم الأجنبيِّ كما في الوقت الحاضر ، وكانت السيدات في الحَمَاماتِ العامة الباردة والحارة يَفْرِضْنَ قُتُونَهُنَّ ، فَتَنْصَبُ الموائد على الماء ، ولما طُرِدَ جميع المصريين من الإسكندرية قُضتِ الضرورة باستثناء وَقَادَى الحَمَاماتِ منهم ، فكلُّ شيء كان إغريقياً ، وكلُّ شيء كان استعماريًا .

وكان المكانُ غيرَ واسع ، وكان للمكانُ يُبَلِّغُ من الطول ستة كيلومترات ومن العرض كيلومترًا ونصفَ كيلومتر ، فَيُسَبِّهُ برداه قديم ذى حواشٍ من ضماضح تَصُبُّ في بحيرة مريوط ، ويُوَصِّلُ المرفأُ البحرى بالمرفأُ الباطلى ، وتُقامُ مخازنُ للسلع على طول المرفأُ التجارى من الجهة الشرقية ، في مكان زال الآن كلُّ أثرٍ للتجارة فيه ، ويوسَّعُ من الجهة نفسها القصرُ لللكيُّ الذى لم يَلْبَثْ أن أُحِيطَ بِمَكْتَبَةٍ وَمُتَحَفٍ وَمَسْرَحٍ وميدانٍ وملعبٍ ومحاكمٍ ومستودعاتٍ للوناتق ، وكانت تُحَفَظُ هنالك طوامير<sup>(١)</sup> البرديِّ حيث تَحْمِلُ رافعاتُ الأثقالِ رِزْمَ القطنِ في الوقت الحاضر إلى السفن ، ثم يُوَضَعُ مضباحٌ عظيمٌ في بُرْجٍ بأقصى جزيرة فاروس فيَنشُرُ نوراً ساطعاً منعكساً على مرآةٍ مُقَعَّرَةٍ للمرة الأولى ، ويَرى ملاحو البلاد البعيدة أن اسم هذه الجزيرة التى اختارها الإسكندر مردافٌ لكلمة الحماية والسلامة .

(١) الطوامير: جمع الطامور والطومار ، وهو الصحيفة ، يقال: «كتب في الطومار أو الطوامير» .

### بطليموس الأول

ويَصِيرُ بطليموس ، الذى كان من قُوَادِ الإسكندر وكان من أشراف مقدونية الأصاغر وكان أكبر من مولاه سنًا ، ملكاً لمصر ، وَيَقَعُ هذا عند موت الإسكندر وبعد إنشاء الإسكندرية بتسع سنين ، ويختلف بطليموسُ عن الإسكندر بعض الاختلاف فيظهر أنه خُلِقَ ليكون حامياً للأدب والفنون أكثر من أن يكون ملكاً ، ومع ذلك كان من النشاط ما يَحْفَظُ به مَنَصِبُهُ المَلِكِيَّ ، ويدوم سلطانُ هذه الأسرة المالكة التى هى من الدرجة الثانية ثلاثئة سنة ، وتنطفى أسرة الإسكندر معه ، فالعقيدة ليست أمراً وراثياً .

وكان همُّ بطليموس الأولِ مصروفًا إلى حيازة جُثْمان الإسكندر ، وقد مات الإسكندر وغدا غير قادرٍ على الدفاع عن نفسه ، وينقل من يدٍ إلى يدٍ ، ويُسْرِقُ فى بدء الأمر طمعًا فى تابوته المصنوع من ذهب ، ثم يَحْمِلُهُ جَحْفَلٌ فيلبي ، ثم يُجَرِّدُ من تابوته الذهبي ، ومن كان يَحْمُوزُهُ ، ومن كان يَحْمُوزُ إله تلك الإمبراطورية وتلك المدينة ، يَشْعُرُ بأنه موضعُ لَعْنٍ رُوحِهِ ، غير أن آل بطليموس الذين حازوه قرونًا لم يَرِثُوا سوى طالعه .

أَجَلٌ ، كانت حسنة الطالع تلك الأسرة التى هى إغريقية بأفكارها وكلامها وحكومتها ، والى لم تكن مصرية ولا مقدونية ، فقَصَّت جميع الأوطار وتمتعت بضروب تَرَفٍ الحياة وذات طعم الزَّهْوِ واللذة والانتقام والحضارة من غير أن تُسأل عن الوسائل التى تُوَدَّى بها ما يقتضيه ذلك من النفقات ، وكان لأولئك الملوك بلاطُ عرائس وأخذان وفلاسفة ومجرمين ، وشاد أولئك الملوك أجمل مهابد مصر وبدؤوا أكثر الناس قتلًا لَأَسْرِهم ، وكان حب الحياة يُثِيرُ الجنون فيذفع أولئك إلى تأليه خيلاتهم وجعلهم إلهات ، وكانوا يستخضعون نُفَلَاءَهم فى حَوَازِ المساس

حَوْلَ وِرَاثَةِ الْعَرْشِ وَحَوْلَ الْحَاقِلَاتِ الْخَارِجِيَّةِ ، وَمَا كَانُوا يُزَوِّرُونَهُ مِنْ وَصَايَا فَيَسُوغُ قَبْضَهُمْ عَلَى زِمَامِ السُّلْطَةِ ، وَمَا كَانَ يَحْدُثُ أَنْ تَقْتُلَ لِلْمَلِكَةِ بَعْلَهَا لِتَتَزَوَّجَ أَخَاهُ الْأَصْفَرَ ، وَمَا كَانَ يُرَى أَنْ يُتَّخَذَ الذَّهَبُ الَّذِي يُجْمَعُ عَلَى تَجَمُّلِ ضَمَانًا ضَدَّ الْفِتَنِ وَالْحُرُوبِ ، وَمَا كَانَ يُشَاهَدُ ، مَعَ ذَلِكَ ، تَجَمُّعُ نَوَائِبِ الزَّمَنِ حَوْلَ أَوْلَئِكَ فَيُثِيرُونَ حَسَدَ أُنَيْنَةٍ فِي دُورِ زَوَالِهَا وَحَسَدَ رُومَةٍ فِي دُورِ نَهْوِهَا ، وَمَا يَدْهَشُ لَهُ أَنْ يُفْنِيَ أَوْلَئِكَ النَّاسُ حَيَاتَهُمْ وَيَسْتَوْثُوا اسْتِمَالَهَا إِلَى سِنٍّ مُتَقَدِّمَةٍ نَسِيًّا ، وَهُمْ ، لِنُدُورِ انْتِظَارِهِمْ مَوْتَ مَلَقَهُمْ مَوْتًا طَبِيعِيًّا ، كَانُوا يَقْبِضُونَ عَلَى زِمَامِ السُّلْطَةِ صَبِيانًا وَشَبَابًا ، وَتَجِدُ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دَامَ سُلْطَانُهُ مَدَّةً تَرْتَجِعُ بَيْنَ الثَّلَاثِينَ وَالْأَرْبَعِينَ مِنَ السِّنِينَ .

وَمِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنَّ النِّسَاءَ فِي جَمِيعِ تَارِيخِ الْغَرْبِ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ مِنَ السُّلْطَانِ الْكَبِيرِ مِثْلَ مَا كَانَ لَهُنَّ هُنَاكَ ، وَلَا تَجِدُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ الْمَكَانِ نِسَاءً لَا حَقَّ لَهُنَّ فِي أُلُوكِ يُصَنِّفْنَ كَالْمُلُوكِ قَبَرَاتٍ مَا لِلخِلَالَاتِ الْمَشْهُورَاتِ مِنْ اسْمٍ ، وَكَانَ يُسْفِرُ طَمَعُهُنَ الْبَالِغُ عَنْ جَمْعِ جَمِيعِ الْأَدَوَاتِ الثَّمِينَةِ الَّتِي تُنْهَبُ مِنَ الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ ، وَكَانَ وَلِيُّ الْأَمْرِ الْعَاشِقُ لَهُنَّ يَضْحَكُ إِذَا مَا وَزَعْنَ بَيْنَ النَّاسِ تَمَائِلُهُنَّ الصَّغِيرَةَ ذَاتَ الْوُجُوهِ الْمُحْمَرَّةِ وَالْقَمِصَانِ الْقَصِيرَةِ ، وَلَكِنَّهُ يُرْوَى أَنَّ الْمَلِكَ كَانَ يَحْسُدُ الْفَلَاحَ الْجَالِسَ تَحْتَ نَافِذَتِهِ لِأَنَّ كُلَّ خَبْرٍ وَبَصَلٍ .

وَمَعَ ذَلِكَ ظَهَرَ مِنْ أَوْلَئِكَ الْمُلُوكِ مَنْ كَانَ لَدَيْهِ مِنَ الْوَقْتِ وَالْإِتِمَادِ مَا يَسِيرُ بِهِ عَلَى غِرَارِ الْإِسْكَانْدَرِ فِي الْفَتْحِ ؛ فَقَدْ بَلَغَ بِطَلِيمُوسُ الثَّلَاثَ نَهَرَ الْفَرَاتِ وَقَهَرَ السَّالِقِينَ مُسْتَعِينًا بِقَائِدٍ قَدِيرٍ وَظَلَّ أَقْرَى مُلُوكِ عَصْرِهِ بَضْعَ سِنِينَ ، وَقَدْ كَانَ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَ ثَقُودًا تَعْلُو رَأْسَهُ الْكَبِيرَ الرَّخْوَ فِيهَا مِذْرَاةٌ ذَاتُ ثَلَاثِ شُعَبٍ رَمَزًا

إلى سلطانه على البحار ، وقد وَصَّحَ تاجَ القراعنة المضاعفَ على رأسِ بَرَنْيَكِي  
الثانية الجليلِ المُرَرَفَنِ الشَّعْرَ ، وقد كان هذا العامُ صديقاً للعلماء في الوقت نفسه ،  
وقد بهَّرَه ما كان من ملاحظة تلميذٍ لأفليدِس<sup>(١)</sup> أطلَّعه بها على وجودِ شُدُوذٍ  
في التقويمِ المصريِّ في آخر الآلاف الأربعة من السنين وعلى ضرورة إضافة يومٍ  
لثلاثي ذلك ، وكان خلفه بطليموسُ الرابع تلميذاً لإراتوستين<sup>(٢)</sup> فلم يقتبس من العلمِ  
غيرَ ما لَدَّ وطالب ، وكان عابداً لديونيروز<sup>(٣)</sup> فسار نحو مجرى النيل فوقانيِّ راكباً  
ذهبيةً رائعةً مع خيلته ونديمه ، وبُهِتَ إذ وَجَدَ في طيبة أمراءَ محليين معدودين  
ظلالاً لقدماء القراعنة يقومون شؤون الحكم مستقلين منذ سنوات قليلة ، وتَسَبَّحُ  
زوجُه وأخته اللتان قَتَلَتَا أخاه الذي مات غَرَقاً في حَتَّامِه وأُمَّه التي ماتت مسومةً .  
وأخذ البطلةُ يُرْسِلُون حبوباً من مصرَ إلى رومة حَوَّالَى ذلك الدور ،  
أى بمد خرابِ قرطاجة ، وبدأ البطلةُ يَقْمُون تحت نِيرِ رومة شيئاً فشيئاً ،  
وذلك مع الإسراع في الانحطاط داخلَ البلاد .

وكانت نتيجةُ اضطراع رومة والإسكندرية أمراً مشكوكاً فيه حتى قبل بدئه ،  
وكانت معاطفُ البطلة من الطول والجمال ، وكانت وجوهُ البطالة من اللِّحْمِ<sup>(٤)</sup>  
وأفواههم من التَّيْبِ ومقابضُ سيوفهم من النفاسة ما لا يستطيعون معه أن يداهوا  
عن أنفسهم تجاه سلاح مَنْ يطالبون مصرَ بِمِجْزِيَةٍ كأنها بلدٌ تَمَّ لهم فتحه وضدَّ  
رؤوس هؤلاء القاسية وشفاههم الرقيقة ، ويُذَكَّر أواخر البطالة في ذلك الحين  
وينتحلون اسمَ الإسكندر الأول واسمَ الإسكندر الثاني فيبدو الأول راقصاً بارعاً

(١) أفليدِس : عالم يوناني في الهندسة (٣٠٦—٢٨٣ ق. م) — (٢) إراتوستين : من  
فلاسفة مدرسة الإسكندرية ، ولد سنة ٢٧٦ قبل الميلاد ، وأُثْبِتَ فيه جوعاً في الأربعين  
من عمره — (٣) ديونيروز : اسم يوناني لإله البحر باخوس — (٤) اللحم : كثرة اللحم .



#### اختلاط العروق

عارضاً مواهبه على الجمهور ، وريدُ أن يسرق تابوت الإسكندر فيثور جنوده ضده في أثناء فراره ، ويتزوج الآخر حاته ثم يقتلها ، ويقتله الشعب التائر في الملعب ، وكان أعداؤهم الرومان يُثيئون فتح البحر المتوسط في ذلك الحين ، وكانت أورشليم<sup>(١)</sup> وقبرس قبضتهم ، وهرب الزمار بطليموس أوليت إلى رومة حينما طرده ابنته فوُثِفَت في رودس التي كان كاثون مديراً لها ، ولم ينهض هذا حتى لقبوله ، وإنما اقتصر على دعوته إلى الجلوس بجانبه .

#### ٦

ومهما يكن من أمر فإن الإسكندرية ، لا رومة ، هي التي كانت عاصمة العالم في القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد ، وكان ذهب الملوك هو الذي يجذب إليها رجال العلم والأدب ، ويبلغ سحر النساء غايته ، وتثير شهرته حب الاطلاع في الإنسان ، وبنفوذ الميناء خطاً وصل بين القارات الثلاث .

وكان لاختلاط العروق عملٌ واسع خصيب كما في كل مكان ، وكان الملوك فراغنة لدى المصريين في أمور الدين على الخصوص ، وكان الملوك الذين هذه هي حالم يتقنون أن يتبدوا إخواناً للأغارقة التي يُديرون شؤون البلد ، والواقع أن كلاً من الفريقين لم يكُ مغلوفاً ، فكهان مصر يزدهرون هؤلاء المتوحجين الحديثي النعمة الذين لا تُرى وراءهم حضارة أربعة آلاف سنة ، والأغارقة يمدون الكهنة كالمقدونيين الذين هم من شباه البرابرة ، وكان اليهود أغنياء أقوياء في الإسكندرية فيرون أنفسهم فوق الجميع كشعب مختار ، وأما البطالمة فيجدون

(١) أورشليم : القدس .

## الولائم والأعياد

أنهم وروثة الإسكندر وأن من الواجب أن يكونوا سادة العالم ويؤكّدون أصلهم العاديّ بلّبسهم أحذية طويلة وقلانس عريضة من لبند<sup>(١)</sup> مع التكلم بلهجة مقدونية، وقد رأوا تقليد عادات الإسكندر في أواخر حياته فأدخلوا طرقيّ المرازية إلى موائدهم .

حقاً أن الولائم والأعياد كانت أهم ما يشغل بلاط الإسكندرية ، وكان بعض الملوك يحتفلون بعيد ميلادهم في كل شهر فيجوبون الشوارع راكبين عربات مزينة بالصنّاب موزعين خمرأ بين الجمهور ، وإذا ما تصاعدت رائحة الجمهور إلى عربة الملك القضيّة ارتعت أرسينويه الثانية الحسناه إلى الوداء متميزة من النيفظ<sup>(٢)</sup> ، وترى السفينة العظيمة راسية في الميناء محلاً لإعجاب العالم بأجبه بالفة من الطول ١٥٠ متر صالحة لركوب ثلاثة آلاف شخص .

ولما أنشأ بطليموس المكتبة جمع فيها مئة ألف طومار من البرديّ ، ولما حُرقت هذه المكتبة كانت أهم مكتبة في القرون القديمة ، وبلغ البطلمة من الزهو بها ما رأوا معه أن يحولوا دون منافسة قرغاس<sup>(٣)</sup> لما فحظروا إصدار ورق البرديّ ، ويتفق لهم كما يتفق لكل من هو حديث عهد بالملك ، وذلك أنهم كانوا يفرّون بالنهب فيجذبون الأدباء والعلماء من أكثر المدن ثقافة ، فيلتي الرياضيون والجغرافيون والأطباء والخبراء الصحيون دعوتهم ، ويبقى من هؤلاء كثير في الإسكندرية ، ويتقدّون ايقور ، التي هو أكثرهم حكمة ، ملاذ الحياة هنالك ، فيكتب رسالته الأخيرة الخالصة .

(١) اللبّد : كل شعر أو صوف متلبّد — (٢) يتميز من النيفظ : يتفعل من النيفظ .  
(٣) فرغاس (Pergame) : عاصمة مملكة قديمة بآسية الصغرى عرفت بهذا الاسم ، وكانت تقع شمال مملكة لوديه (Lydic) التي هي ولاية إزمير الآن وقد اشتهرت بمكتبتها .

### مكتبة الإسكندرية

وما ابتدعه بطليموسُ الثاني بتلك المكتبة فقد كان أمراً جديداً وحيداً في القرون القديمة، وقد كانت أول مؤسسة أقيمت على غير مأربٍ نفسي من وراء المباحث العلمية فكان يُنفق عليها بسخاء، أُجِلْ، كان لا يُتَمَتَّعُ هنالك بحرية فكرية مطلقة كما في النظمِ الجمهوريّةِ الحاضرة، غير أن الأول والثاني من البطالمة كانا لا يَحْسِلَانِ أحداً على تغيير عقائده بالذهب، وكان الأستاذةُ والطلبةُ يَرُدُّونَ إلى هنالك من جميع البلدان. وكان المصريون واليهود، قبل وصول الرومان، يقاومون مُغْرِياتِ الثَّقافةِ اليونانيةِ، ويناد، وإن سَلَكَتِ الأكثريةُ سَبِيلَ الاندماج كما في كلِّ مكان.

واثنان من أحياء الإسكندرية الخمسة كانا خاصين باليهود، وكان اليهود أقلَّ من الأغارقة وجاهة، ولكنهم كانوا أحسنَ من المصريين مقاما، فينطوى هذا على جورٍ مضاعفٍ وعلى سببٍ مزدوجٍ لاضطهادٍ يَنَقَعُ في المستقبل، وكان ذلك فاتحةً هزتهم، فاتحةً ذلك المصير الذي يَحْمِلُهُمْ على ملازمة أيِّ شعبٍ يعيشون بينه مع عَدَمِ أجانبٍ مع ذلك، وعلى تركهم قسماً كبيراً أحياناً، ضيقاً أحياناً، من تراثِ آلائهم، وعلى تأليفهم دولةً روحيةً ضمن الدولة مع عَطْلٍ من القوة المادية، ويَبْذُونَ بين الأغارقة أغارقةً باللغة والطبائع، وَيَقْتَمِنُونَ بجميع نِعمِ الحياة، وينال أناسٌ كثيرٌ منهم حقَّ المدينة، ويُدِيرُونَ شُؤُونََ أنفسهم بأنفسهم، ويُقيمون زمناً طويلاً من غير أن يُوْذَوْا، ويصبحون من الإغريقية ما يريد أجدُّ كِبَارِ كهانهم معه أن يَجْعَلَ أورشليمَ إغريقيةً، وكان لدى كليوباترة قُوَّادٌ من اليهود

وكان عدد قُوَّاد المصريين ومديريهم أقلَّ من عدد قُوَّاد اليهود ومديريهم على الراجح، ويُلوح أن الأغارقة عَدَّوا مصرَ القديمة ضريحاً لجموعةِ عظامهم من الحيوان والإنسان يُنْتَمِ السامحُ نظره فيه صامتاً من غير أن يبالى بالخرس، وهم، إذ

يَفْرِضُونَ لِحَتَّهُمْ وَيَتَذَوِّنُونَ سَادَةَ الْبِلَادِ ، يَواقِفُونَ عَلَى أَنَّ أَفْلَاطُونَ كَانَ تَلْمِذًا لِكَهْنَةِ الْمَصْرِينَ ، وَلَكِنْ مَعَ حَظَرِهِمْ تَزَاجِرُ الرِّقَاقِ ، وَكَانُوا يَحْكُمُونَ عَنْ رُؤْسِ أُمُومَ ، وَكَانُوا فِي الْقِيَوْمِ يَقْدَمُونَ قَرَابِينَ إِلَى نَعْمِيزِيسَ<sup>(١)</sup> وَإِلَازِمَ مَعَا ، وَكَانُوا يُعْتَنُونَ فِي الْإِسْكَندَرِيَّةِ بِشُورٍ مُقَدَّسٍ مَعَ عَدَمِ ذَلِكَ أَمْرًا مُضْحَكًا ، وَكَانُوا يَتْرَكُونَ لِكَهْنَةِ دَخَلَ عَرَضُ هَذَا الثَّوَرِ عَلَى الْجُمْهُورِ ، وَكَانُوا يُوَدُّونَ عِنْدَ مَوْتِهِ نَفَقَةَ تَكْفِينِهِ النَّالِيَّةَ ، وَلَكِنْ مَعَ إِزَامِ كَهْنَةِ الْمَصْرِينَ بِتَعَلُّمِ الْيُونَانِيَّةِ عَلَى فِقَّتِهِمْ ، وَيُرْفَعُ مَسْتَوَى الدِّيَانَةِ الْمَصْرِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ بِتَأْثِيرِ الدِّيَانَةِ الْإِغْرِيْقِيَّةِ ، وَيَنْقَلُ مَسْأَلَةُ الْحَيَاةِ بِعَدَمِ الْمَوْتِ ، الَّتِي هِيَ أَصْغَبُ مَا فِي الدِّيَانَةِ الْمَصْرِيَّةِ ، أَمْرًا غَامِضًا مَعَ ذَلِكَ الْاِخْتِلَافِ .

وَقَالُوا الشَّعْبُ الْمَصْرِيُّ لِلْمَادَى جَمِيعَ الْعُرُوقِ وَجَمِيعَ اللُّغَاتِ الَّتِي غَزَتْ الدَّلْتَا ، وَتَتَابَعَ السَّادَةُ الْجُدُدُ مَعَ عَادَاتٍ وَلَهْجَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَكَانَ حَفْدَةُ الْفَرَسِ وَالْأَشُورِيِّينَ يُقِيمُونَ بِالنَّيْلِ الْأَعْلَى ، وَكَانَ السُّورِيُّونَ يُوْغِلُونَ فِي الْقِيَوْمِ ، وَكَانَ الْيَهُودُ يُوْغِلُونَ فِي الدَّلْتَا ، وَكَانَ التَّرَاكِكِيُّونَ وَالسَّلِيزِيُّونَ وَاللَّيْبِيُّونَ وَالْقَلَّاطِيُّونَ يَتَجَمَّعُونَ فِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ الَّتِي هِيَ أَصْغَبُ مَا فِي الْأَرْضِ ، غَيْرَ أَنَّ الْأَعَارِقَةَ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يُصْنِدُونَ حُبُوبَهُمْ إِلَى الشَّاطِئِ الْآخَرِ مِنَ الْبَحْرِ لِلتَّوَسُّطِ ، فَإِذَا مَا عَادَتْ مَرَاكِبُهُمْ كَانَتْ مَشْحُونَةً بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَدَوَاتِ النَّافِئَةِ الَّتِي يَذْكُرُ الْإِسْكَندَرِيُّ بِهَا بِلَادَ أَجْدَادِهِ ، وَالَّتِي تَفْرُضُ عَلَى الْفَلَاحِ الْمُسْتَطَلِّعِ كَأَنَّهَا عَجَائِبُ آتِيَةٍ مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ ، وَيُنْفِئُ مَلَاَحُو الْإِغْرِيْقِ مَا يَأْتِي فِي ذَلِكَ الْبِنَاءِ الْكَبِيرِ الَّذِي يَتَلَقَّى فِيهِ الْبَحْرُ وَالنَّيْلِ :

« أَيُّهَا التَّلَاَحُونَ الَّذِينَ يَمْرُؤُونَ عَلَى الْأُمُوجِ الْمَالِحَةِ ، أَيُّهَا التَّلَاَحُونَ الَّذِينَ يَتَحَمَّلُونَ الْأَخْطَارَ بَيْنَ الْأُمُوجِ الْمَزِيدَةِ ، انْظُرُوا إِلَى هَؤُلَاءِ النَّوَاقِ الَّذِينَ يُوحِلُونَ

(١) نَعْمِيزِيسَ : إِلاَمَةُ الْاِقْتِصَامِ كَمَا جَاءَ فِي أَسَاطِيرِ الْيُونَانِ .

في النيل، أعندهم لآل<sup>١٠</sup>م يَدْخُلُونَهُ هَادِثِينَ ، وأما أنا فأعيش كالكلب ! .  
 وكان للفلاح الخالد أن يَنْقُتَ الإِغْرِيقُ<sup>١١</sup> الذي يَنْفُثُ من غير كَيْدٍ والذي لم يكن عليه  
 إلا أن يستأجر مركباً وأن يذهب إلى الجُزُرِ وأن يقوم ييمض الأُشْرِيَّةَ وأن يَشْحَنَ  
 المركبَ بها وأن يبيع سِلَقَه من سيداتٍ غنياتٍ بشرة أضعاف ما تساويه من ثمن .  
 أَجَلٌ ، يُجِيدُ الحائِكُ<sup>١٢</sup> للصريءِ العملَ ، أَجَلٌ ، يقوم الحائِكُ<sup>١٣</sup> المصريُّ بعمله  
 متأنياً فلا يستطيع أن يُنْجِزَ ما تُقْضَى به جميعُ تلك الحاجاتِ ، غير أن الصانع  
 وصانع الشماعِدِ<sup>١٤</sup> والآبِيَّةِ يتخذان الآن نماذجَ إِغْرِيقِيَّةٍ لتزيين موائد البَلَّاطِ  
 وموائد الأغنياء ، وتُدَوِّي الدواليبُ<sup>١٥</sup> والمصانع في جميع المدينة ، وتؤلفُ نقاباتُ<sup>١٦</sup>  
 لوجود ألوفٍ من العمال بجانب السيد ، وتؤاخيهِ جمياتُ<sup>١٧</sup> رأسماليةٍ تقول برفع الأسعار  
 وتخففي الأجور ، وتَقْعُ إضراباتٌ وتشتعلُ فِتَنٌ .  
 يَبْدُو أن أساس جميع تلك الحركة التجارية وجميع الحياة في الدلتا هو الحبُّ<sup>١٨</sup>  
 الذي يُبْذِرُهُ الفلاح ويَحْصِدُهُ على طول النيل كما كان عليه الأمر منذ أربعة آلاف  
 سنة . والفلاحُ لكي يَشْرِي منه ذلك ، والفلاحُ لكي يستطيع العيشَ مع أسرته ،  
 يجب عليه أن يَدْفَعَ ضريبةً عن كلِّ ساقيةٍ وعن كلِّ شِئْرٍ من الأرض ، وإذا ما  
 أنشأ ولَّى الأمر أسداً وقنوتاً<sup>١٩</sup> مَقَابِلَةً<sup>٢٠</sup> وجب إقناع ذلك ، وَيَبْدُو البطالمةُ<sup>٢١</sup>  
 أبرعَ من القراعنة في أمور المال فيحْكِرُونَ الزيت والتمر ويَفْرِضُونَ رسوماً على  
 كلِّ من يريد أن يعيش ، فتؤخذ ضريبةٌ عن الجِعة وعن المثيلين والأخدان ،  
 وعن السطحِ الذي يُنَامُ عليه في ليالي الصيف بعد عملٍ مُعْظَمٍ في النهار ، فالحقُّ أن  
 البطالمة هم الذين اخترعوا ضريبةَ الهواء الذي يُتَنَفَّسُ به .

(١) الشماعد : جمع همدان ، وهو القارة يركز عليها الشمع ، وكلمة دان فارسية .

من الراجح أن كليوباترة أصغرُ سناً من جميع النساء المشهورات ، ولكنك لا تجد من تتمتع بالحياة مثلها يبنهن حتى موتها في التاسعة والثلاثين من بينها ، فهي قد قُبِضَتْ على زمام الملك عشرين عاماً ودام دَوْرُ غرامها ثمانية وعشرين عاماً على الأقل ، وكانت الفتن تهزُّ بلادها وفؤادها في أثناء تلك المدة ، ولكنها لم تُغْلِبْ قط ، ويحتمل أنه لم يُصِبهَا خِزْيٌ غير مرة قط ، وما نالته من نصْرٍ هو من الانتصارات النسوية ، ولم يحدث أن بدت على أعمالها الجريئة وأفعالها الجارمة سمة الرجولة ، وعنها قال هوراس : « إنها امرأة متفطرة » ، وهذا الحكم ناقص ، وذلك لأنها قصّت حياتها بدهاء أكثر مما اتفق لأبيه ملكة أخرى ، وما كانت لتخشى أن تكون ذات ولد في أثناء غلب حياتها خُفَّت بالمخاطر ، وكانت تُذعن لانيفاعات غريزتها مع أنها لم تكن أكثر قسوة من أسلافها ، ومع أنها كانت تظهر مروءة تجاه ما خف من الشتام ، ومع أنها كانت تظلم إلى الانتقام تجاه ما عظم منها ، ومع أنها كانت تعرف عِدَّة لغات وكانت كثيرة الثقافة ، وهي مدينة لفتونها بكل شيء ، وهي قد وصّعت حدّاً لحياة أضحت لا معنى لها عندما أبصرت رجلاً يقاوم سحرها ذلك .

وقد تكون أقلّ جمالاً مما جاء في القصة ، أجل ، يبدؤ إقدامها أظهر من حسنّها في الأوسمة النادرة للوثوق بها ، غير أن المعلن لا يقدر على إظهار سحرها ، ولم تكن الصورة ، ولا الأسطورة ، لتظهر صوتها وحديثها وعدوية لحظها وسحر

نظرها ، والحق أنه كان يُعَوِّزُها شاعرٌ كبيرٌ لِيَتَفَنَّى بها ، وما نالته من انتصاراتٍ على ثلاثة من أعظم الرومان قِيَمٌ على ذلك السَّحر ، ويُقدِّم هؤلاء الأكابر شعراءَ لِقُوتِهَا .

ومن يُرَدُّ أن يَتَبَيَّنَ أساسَ خُلُقِها واقترانَ المَجَانَةِ<sup>(١)</sup> بِمُجَهِّلِ الخيلِ وَالشَّرِّ فَلْيَذْكُرْ أنها وليدةٌ عِدَّةُ عروق ، وهى لِشَرْقِيَّةِ التى تَمِلَتْ بِسُومِ مِصْرَ ، وهى حَفِيدَةُ خَلِيلَةٍ مشهورة وابنةٌ تُنِيلُ بِمُجَرِّم ، وهى فتاةُ الإسكندرية التى بَلَّغَتْ من السَّمرِ ثلاثمئةَ سنة فأخذَ تَحْمِلُهَا يَأْفِلُ بِدَمَوْتِهَا ، ولو سَأَلْتَ عن هذه المدينة التى نَشَأَتْ فيها تلك الفتاةُ لَعَلَّتْ أنها تقع بين قِسْمَى العالمِ الخاضعينِ لرومةِ وأنها عجائزٌ لَجُرُّ أورديةٍ وحدودِ آسيةِ وأنها إفريقيةٌ مع ذلك ، وأنها على شاطئِ البحر ، وأنها قريبةٌ من النيل ، وما كان من انتظارِ نهايةِ العالمِ ومن صليلِ السلاحِ فى الشوارعِ وفى قُصْرِهَا ومن نزولِ المرتزةِ المختلفِ الأجناسِ إلى الدُّلَّةِ قد أثارَ شَوْتَهَا إلى اللَذَّةِ ، وقد انتزعت من القَدَرِ ، مع ذلك ، بَضْعَ سنينِ من الغرامِ لَمَدُّ قَصِيدَةٍ رِغَائِيَّةٍ تقريباً ، ومن المصادفاتِ للباركةِ التى لا يَقَعُ منها غيرُ واحدةٍ فى عشرةِ قرونٍ انجذابُ أقوى رؤساءِ الدولِ إلى بلادها ، ويأتى هؤلاء للبحثِ عن حبوبِ قِيَجِدُونُ فاتنةً .

وَيَعُودُ أَوَّاهُهَا الذى كان يَحْمِلُ اسماً ماحجناً ، يَحْمِلُ اسمَ نِيُوسِ دِيُونِيَرُوسِ فَلَقَّبَهُ الشعبُ بِالرَّهْمَارِ ، من رومةِ التى لجأ إليها فَهَتَلَ فيها مئةً من أهلِ الإسكندريةِ أَنَّهُا لِيُسَوِّغُوا عَصِيَانَتَهُمْ ضِدَّهُ ، ويكتفى فى عاصمتهِ بقتلِ زوجةِ وزُوراءِ الحربِ المارِضِ الموالينِ لها وَرُؤُوحِ ابنتِهِ الكُبْرَى ، كليوباترة ، البالغةِ من العمرِ أربعَ عشرةَ سنةً ، بأخيها البالغِ من العمرِ تسعِ سنينِ لِيَرِثَا عَرْشَهُ ، ثم يموتُ مغموراً بِالْأَزْدَرَاءِ ، وكان مُوْنِي

(١) المجانة : كثرةُ قلةِ المياه .

### زواج كليوباترة الأول

هو الرجل الذى نَصَبَهُ مجلسُ الشيوخ الرومانيِّ وصِيًّا على هذين الزوجين الصغيرين ، وكان يُونِيي هذا موضعَ نقاشٍ عَنيفٍ في مجلسِ الشيوخ ذلكَ محلٌّ شَغَبٍ دام في القُوروم<sup>(١)</sup> ، وكان مثلُ هذه المصادماتِ يَقَعُ في ميدان الإسكندرية في ذلكَ الحين .

وكانت كليوباترة في العشرين من عمرها عند ما أبصرت اقتتالَ يُونِيي وقيصرَ ، وقد راقها يُونِيي ، لا رَيْبَ ، ما دامت قد أَمَدَّتْهُ بخمسين سفينةً لم يُكْتَبَ لها الرجوعُ قطُّ ، وكانت كليوباترة السابعةُ ، وهذا هو لقبُها في ذلكَ الحين ، قد بَلَّغَتْ من مَقْتِ المصاهرة ما طَرَدَهَا معه حزبُ أخيها وزوجها ، وتَجَمَّعَ كتابٌ على الحدودِ العربية حيث تتكلم بلغة قبائلها ، وإنها لتزحفُ ضدَّ أخيها إذ تشاهد رومانيًّا آخرَ يَصِلُ إلى الدلتا بعد قتله يُونِيي .

أصبح قيصرُ سيدَ رومة وسيدَ العالم بعد انتصاره في معركة قَرَسَالُوسَ ، وما كان يُعْزِزُهُ سوى شيء واحد ، سوى المال ، ويجنى مصرَ للبعث عن المال ، ولم يكن من الفضول أن يَرَى تلكَ الملكةَ المترجِّلة التي كانت قد أيدت خصمه ، ويسبق كليوباترة ويدخلُ المدينة ، ويدخلُ القصرَ ، منصوراً خلفَ حَمَلَةِ القُوروس من ضباط الرومان وعلى مرأى من الجمهور الساخط ، بيد أن الملكةَ تَرَكِبُ السفينة من يَلُوزة مُتَنَكِّرة وتَبْلُغُ الإسكندرية وتُخَلِّقُ وتُخَمَلُ إلى القصر حيث قيصرُ وأخوها وزوجها ، ويُنْشَرُ البِساط أمام قيصر الذى اعتقد أنه هدية فتُخْرَجُ منه كليوباترة .

ويرى أخوها التاج على أقدامها مُتَعَاظِباً ، وعلى قيصرَ أن يختار بين صبيٍّ مَظِيظٍ وامرأةٍ فاتنة ، ويحاول من النافذة أن يُسَكِّنَ المجنونَ المَتَوَعَّدَ ، وَيَعْمَلُ

(١) القوروم : هو الميدان الذى كان الشعب يجتمع فيه برومة .



### قيصر يحرق مكتبة الإسكندرية

بوصية بطليموس الزَّمار ويُعيدُ كلاً الزوجين إلى العرش ، غير أن رئيساً لمُرْتَقَة الأغارقة يطالب بمكافأة لإنقاذه الملك ، ويشور الجُهور ، ويُشعلُ قيصرُ السفنَ المصرية التي كانت في الميناء والتي كان عددها اثنتين وسبعين ، فيمتدُّ الألهَبُ إلى المكتبة بفعل الرياح ويحرقُها فيتحوّل بذلك أربعمئة ألف طومارٍ من ورق البرديّ إلى رماد ، ويُقلن في الميدان الواسع نَصَبُ خَصِيٍّ قائداً للكُتّاب ويظلُّ قيصرٌ وكليوباترة وحدهما في القصرِ المُتَحصّر ، وكان في السنة الثانية والخمسين من عمره وكانت في السنة الثانية والعشرين من عمرها ، وتُضاهي ليالى غرامها الأولى باحتراف حكمة العالم كلها .

ويقيم قيصرٌ بمصرَ نحو عامٍ أي ضِعْفُ إقامة الإسكندرية ، وفيما كان أنصارُ بُونَبي يَجْتَمِعُونَ قُوَّام في إيسانية وإفريقية كان الكهلُ الأصْلَحُ قيصرُ براقِ قاهرة تامة لهاواها فيتوجهان إلى مجرى النهر الفوقاني راكبين سفينة فاخرة ، وفيما كان عالمٌ جديدٌ يثُورُ ضدَّ القامح الكبير كان هذا القامح يدرّسُ أعمدة عالمٍ قديم وكتاباتهِ كما يدرّسُ سِحْرُ آخرِ فرعونية ، ويغدو الزوجُ شاباً مزججاً مُتعلِّباً فيُفترقُ في النيل في إحدى المعارك ، ويذهب قيصرُ في نهاية الأمر ، ويَهْزِمُ قَرْناس ويُرسل إلى مجلس الشيوخ كلته المشهورة : « جئتُ فأبصرتُ فَنَلَبْتُ » ، التي ليست ، على ما يحتدل ، سوى كلمة غرامٍ ظافِرٍ سَرَت على لسان كليوباترة المنصورة ، ويتركُ لها ثلاثَ كُتّابٍ وأملَ ولادةٍ ولد ، فتسميه قيصرون .

ومضى عام ، فتذهب إلى رومة ، وتَسْتَقِمُ نصفَ إلهٍ بين ذراعيها ، وهذا اللقبُ هو الذي كان يُقرأ على قاعدة تمثاله في الكابيتول على الأقل ، وتجلسُ على اللِصّة حينما كان قيصرٌ يبصرُ أعداءه المتهورين مُفْرَين في الأصْفاد بالفُوروم ، ويُبصرُ بينهم

### كليوباترة في رومة

أختها أرسينوييه التي كانت تفتتها كثيراً ، وما كانت تُفكر فيه ، لا ريب ، أن ذلك يكون مصيرها لو لم تقن عدوها القوي وقت الحصار ووقت الحريق ، وتتحقق أحلام زهرها في رومة ، ولو لم تتحقق أحلام غرامها ، واستطاعت أن تظهر سعادتها مع الافتخار في عامين ، ولا عجب ، فقد كانت خليفة سيد العالم ، وكانت أغنى منه ، ويحافظ قيصر على شرف امراته ، فهو يمد زوجاً صديقاً للمصرية ويظهرها أمام الجمهور معاً ، ويخيلهما على العيش معاً ، ويدعوها قيصر إلى منزله جميل عبر نهر التيبر ، ويمنح سترها الفرعونى قدماء الجمهوريين الذين هم من طراز شيشرون ، ويؤمن أنها تحرس قيصر على لبس التاج :

بيد أن قيصر يحب كليوباترة ، وهو إذا ما زارها أبصر صورته في ابنه البالغ ستين من العمر لتشابههما تشابهاً غريباً ، ومن المحتمل أن كانت تجد ترويحاً لها بعودة ربيبه أكتافيوس الصاخبة ، فتعد خصم الغد هذا فاتناً ، ويروض قيصر التاج الذى عرضه أنطونيوس عليه في مجلس الشيوخ ، ولكن قيصر ينصب في ذلك الحين تمثالاً ذهبياً لخليلته في معبد فينوس ، ولكن قيصر يُعد قانوناً يحل له أن يكون ذا أزواج شرعية كثيرات ، فكان كل شيء يلوح مهيئاً لجعل ابنو النفيل المصرى كليوباترة إمبراطورة حينما قُتل قيصر .

وهي لم تنفك من الاضطرابات التي عقت ذلك إلا بمجزئة ، حتى إنها لم تهرب ، حتى إنها لم تعد إلى الإسكندرية إلا بعد بضعة أسابيع ، ويتوارى أخوها وزوجها الثانى في تلك الساعة النفسية ، ويتمتعها سادة رومة ، كما لو كانت هذه الساحرة تجذبهم إلى مصر ، ويكتفى أنطونيوس بتقليد قيصر فلا يأتى لجهداً في تبليد خطوة لدى عشيقته الشهيرة تلك ، ولولا ذلك ما جذبته شيء إلى مصر ، وهو لكيلا يستحوذ

## أنطونيوس

عليه ظلُّ قيصَرَ يجب عليه أن يُجَرَّد من كلِّ قِنَاعٍ تلك التي شَفَقَتْ قلبه حبًّا منذ سنين في ولأُم قيصَر .

وكان أنطونيوسُ ، الشعبيُّ الجندىُّ ابنُ الجندىِّ القاهرِ المَعْرُضُ لِنَيْزَةٍ امرأته ، دون قيصَرَ من كلِّ ناحية ، ولكنه كان يفوقه فتاءً ، وكان شريكاً في تراثِ إمبراطورية العالم ، ولكنه كان طالبَ لَذَّةٍ ومعاقرَ خَمَرَةٍ قبل كلِّ شيءٍ ، وكان يُحْيِلُ إليه ، على ما يحتمل ، وجودُ شَبَهٍ بينه وبين الإسكندر على هذا الوجه فيَقْصَلُ أن يكون باخوس في أفسُس<sup>(١)</sup> على أن يكون إمبراطوراً في رومة .

ويدعو كليوباترة إلى أفسُس كهمة ، فلا تُلَبِّي دعوته ، ويكون في طرسُس ، وإنه ليَقْصِد إقامة العدل في ميدانها العامُّ إذ يُنَبِّأ بوجود سفينةٍ فاخرة ذاتِ شراعٍ أرجوانيٍّ ومجاديفٍ فضيةٍ تَسِيرُ في المجرى القوقانيِّ من نهر التبردان<sup>(٢)</sup> ، ولا يَتَزَن ، فيذهب إلى الضَّفَّة ويساعد الملكة حين نزولها إلى التبرِّ ، بين العطر والزَّهر وصوت اليرزهر ، على وَضْع رجلها الصغيرة فوق الأرض ، وكانت كليوباترة في السابعة والعشرين من عُمرها حين واجهت هذا الرومانيَّ الثالث ، ولم يكن أنطونيوسُ في الأربعين من عُمره كما أنه لم يكن أصلع ، وكان أنطونيوسُ دون قيصَر طموحاً وحكمةً ، وكان أقرب إلى الشرقِ بمزاجه وذوقه ، وكان له بذلك اللقاء تبريرٌ لمصيره ، مع أن كليوباترة لم تكن غيرَ حادثٍ عَرَضيٍّ في حياة قيصَر

وتَبَدَّأ الملكة فصلاً جديداً في حياتها في الإسكندرية نفسها ، وفي القصرِ نفسه ، وعلى رأى من رجال البلاط أنفسهم ، وضمن الحدِّ الذي لم تتخلص منه ، وينطوى ذلك الفصل على المفارقة الكبرى ، ويدوم عَشْر سنين .

(١) أفسُس : مدينة قديمة قرب İzmir ، ومكانها الآن أيا مولوق — (٢) البردان : نهر قرب طرسوس ، واسمه بالتركية « قره صو » وباليونانية « كودنوس » .

ولم تَتَجَلَّ عظمَةُ قيصَرَ في خَلْفِهِ ، ولما أعطاهَا هذا الخَلْفُ الرومانيُّ متى ألفٍ طُومارٍ من وَرَقِ التَّبَرْدِيِّ لتَجْدِيدِ المَكْتَبَةِ لم يَمْدِلْ في عَيْنِهَا ذَلِكَ الذي حَرَقَ ضِغْنُ ذَلِكَ لَيْشَمِلَ لَيْلَةَ غَرَامِهَا الْأَوَّلَى ، ويلوح أنها خافَتْهُ أَقْلٌ مما خافت قيصَرَ ، ومع ذَلِكَ كَانَ لِبِهَا من الوقت ما تَقَابَلُ فِيهِ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ والحُكُومَتَيْنِ وَتُقَرَّرُ فِيهِ مَا كَانَتْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصْنَعَهُ إِلَى حَدٍّ مَا من اتِّخَاذِ رُومَةٍ أَوْ الإسْكَندَرِيَّةِ عَاصِمَةٍ للعَالَمِ ، وَلَا يَتَوَقَّفُ هَذَا التَّرَارُ عَلَيْهَا وَحْدَهَا ، وَذَلِكَ أَنَّ عَاشِقَهَا الجَدِيدَ تَوَارَى بِدَ أَوَّلِ شَتَاءٍ لِيَتَزَوَّجَ أُكْتَاثِيَّةٌ أُخْتٌ مَنَافِسَةٌ أُكْتَاثِيُوسَ ، فَلَا تَعْرِفُ كَلِيُوبَا تَرَةً هَلْ يَمُودُ أَوْ لَا ، مَا دَامَ الْأَمْرُ زَوَاجًا سِيَاسِيًّا ، فَصَارَ عَلَيْهَا أَنْ تَرُسَّمَ خِطَّةً جَدِيدَةً لَتَرْجِعَهُ إِلَى حَظِيرَتِهَا .

وَيَسْتَوْلِي السَّأْمُ عَلَى أَطْلُونِيُوسَ فِي شَهْرِ عِشْرِهِ مَعَ زَوْجِهِ الرُّومَانِيَّةِ الْعِزْرَاءِ ، وَتَضَعُ كَلِيُوبَا تَرَةً تَوَآمًا ، « تَضَعُ الْمَلِكُ الشَّمْسِ وَالْمَلِكَةَ الْقَمَرِ » وَفَقَّ تَصْبِيرَهَا ، وَتَرْفُ إِلَيْهِ هَذِهِ الْبَشْرَى ، وَتُخْبِرُهُ بِنُبُوَّةٍ مُنْجِمَةٍ قَائِلَةً إِنَّ مَجْرَى النُّجُومِ لَا يَمُنُّ عَلَيْهِ بِنَصْرِ فِي غَيْرِ الشَّرْقِ ، أَوْ لَيْسَتْ سَاحِرَةٌ ؟ وَلَمْ تَلَازِمَهُ أُكْتَاثِيَّةُ الْفَاضِلَةِ مَعَ أَنَّهَا الْمُسْتَقِيمُ وَأَسَارِيرُهَا الْجَافِيَّةُ ؟ وَبَيَّرُوكَهَا فِي أَثْنَيْنِ ، حَيْثُ كَانَتْ قَوْلُفِيهِ قَدْ مَانَتْ غَيْرَةً ، مَتَذَرَعًا بِأَنَّهُ يَوَدُّ أَنْ يُجَنِّبَهَا بِذَلِكَ عَنَاءَ حَرْبٍ ضِدَّ الْقَرطَانِيِّينَ ، ثُمَّ يَدْعُو كَلِيُوبَا تَرَةً إِلَى الْحَاقِّ بِهِ فِي مَتَصَفِ الطَّرِيقِ ، وَهُوَ ، يَمْتَنِعُهَا بِمَضَى الْجُزْرِ وَجِزْمًا مِنْ فَنِيْقِيَّةٍ لَعَدَمِ اسْتَطَاعَتِهِ أَنْ يُعْطِيَهَا أُورُشَلِيمَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُجَرِّدَ صَدِيقَهُ هِيرُودُسَ .

غَيْرَ أَنَّ سَوَاءَ الْحَظِّ يُلِيهِ بِهِ . فَهَزِمَهُ الْقَرطَانِيُّونَ عَلَى حَبْنِ يَنَالِ أُكْتَاثِيُوسَ نَصْرًا بَعْدَ نَصْرٍ ، وَلَنْ يُرْسِلَ هَذَا الْمَنَافِسُ إِلَيْهِ مَدَدًا مَا لَمْ يَتْرَكْ تِلْكَ الصَّرِيَّةَ ،

### هزقة أكسيوم

ومن حسن الطالع أن كانت الإمبراطورية الرومانية من الاتساع ما تسترّد معه مُسمّتها بأن تتّوجه ضدّ شعبٍ آخر ، ويُقلّب الأرمُن ، وُيرتجِعُ إلى الإسكندرية حيث يُعرّض مَوْكَبُ النصر أمام كليوباترة التي صارت زوجة أنطونيوس الشرعية أيضاً ، ويبدو القائد الروماني والملّكة المصرية على دَكَّةٍ فضية واحدة ويجلس أحدهما بجانب الآخر على عرش من الذهب ، وتظهر ابنة الخامسة والثلاثين من عمرها على زِيٍّ إيزس وتنتحل أشعرتها ، ويظهر على زِيٍّ ديونيزوس ، ويظهر التوأمان فيلادلفيا وسيلينه أمانتهما في السنة السادسة من عمرها ، ويظهر بجانبها صبيٌ جيلٌ في العاشرة من عمره ، يظهر قيصرُون الذي يُدَكَّرُ تلك السياحة الزاهية فوق النيل مع قيصر ، ويلبس الأولاد أحيةً مقدونية ، وذلك لأن الإسكندر ترك هنالك أحد البرابرة منذ ثلاثئة سنة ، ترك جدّ عريقهم ، ويُعرّض أشرى البرابرة مُقيدين بسلاسل ذهبية ، وتتأذى كليوباترة ، على ما يحتمل ، حيناً يُحييها بوجه عيوسٍ من غير أن يَرَكُوا أمانها ، ويُنصب الأولاد الثلاثة ملوكاً لولايات رومانية .

ويُخفي ذلك قطع العلاقات برومة ، ويُمدّد ذلك دليل القتال ، ويتحدّى أكتايوس أنطونيوس ويُقلّبه في أكسيوم أمام كليوباترة ، لا عن خطأٍ اقترفته . كما زعيم ، ولو تمّ النصر لأنطونيوس لصارت مصرُ مركزَ العالم وصارت الإسكندرية عاصمته ولقد النيل ملك الأنهار ونهر الملوك ، ويعود القلوبون إلى مصر هادئين ، ويحاول أنطونيوس أن يفاوض قاهره علناً ، ويُرسِل إليه ابنه مع هدايا ، ويُرسِل كليوباترة أشعيرة الملّكة المصرية إلى أكتايوس سراً ، وترى أن تقوم بلمعها مرةً أخرى .

## وصول أكتافوس

والواقع أن هذا الروماني الرابع هو روماني أكثر من أسلافه ، فهو لا يريد أن يطلّعي ، وهو لا يرى من الكرامة أن يحوزَ خليفة قيصر ، وإنما كان يُفكر في أخذها مقيدةً بسلاسل ضمن مَوَكِب نصره برومة ، وذلك عن مقت لقيصرون ، الابن الحقيقي لقيصر ، وذلك لما يُبصره من إمكانِ منازعته إمبراطورية العالم ، وكان يُعزّزه الذهبُ والحبُّ فيجيء مصر للبحث عنها ، ويرفض الذهاب إلى مجرى النيل القوقائي ، ويرفض أن يكون فريسة الواحة المسحورة وفريسة حرّ شمسها وفريسة أساليب نساها السخريّة .

وتلقى سُفُنُ أكتافوسُ مراسيها ، وتُنزل الكتاب الرومانية إلى البرّ ، ويذكر أنطونيوس أنه روماني ، ويقع على سيفه ، ويوقى به مُحْتَضراً إلى كليوباترة . وتحتج في ضريحها هي وابنتها وماشطتها ، ويموت أنطونيوس ، ويحصل سيفه الدامي إلى أكتافوس ، ويُروى أن أكتافوس سكب دموعاً عند هذا المنظر كما صنع قيصرُ أمام رأس بونبي ، ويدخل أكتافوس الإسكندرية ويفقو عن الشعب ، « احتراماً للإسكندر الأكبر وإرضاء لصديقه الفيلسوف أريوس » ، وكان أولَ عملٍ قام به أن جلبَ إليه قيصرون ووعدّه بأن يكون صديقه .

ويزور كليوباترة المريضة المستلقية على سريرها في قصرها بعد بضعة أيام ، فترقى على قدميه عند دخوله وتسلّم إليه قائمةً بكنوزها ، ويتهما أحدُ موظفي البلاط المطلع على الحقيقة بأنها أخفت قسماً منها ، ويضحك أكتافوس ويبدو مهذباً ويسرّ من حسن محبتها لاستطاعته أن يأتي بها أسيرةً إلى رومة ، يند أن هذا الرجل سيقع في شرك خداعها ، ويُجرب خطتها الأخيرة ما دامت تنحاز

إلى الغالب في كل وقت ، ويَحْبِطُ ما سعت إليه ، ولكن مع تَمَكُّنِهَا من عدم المراقبة ، وفيما هو يَجُوبُ القصرَ صاعداً نازلاً مُتَمَثِّلاً نصره الآتي إذ تَقْتُلُ أسيرته نفسها تحت سَقْفٍ واحدٍ بِلَدَغَةٍ حَيَّةٍ على ما يحتمل ، فتتوت مَوْتَةً خَلِيقَةٍ بِمِلَكَةٍ وبخَلِيلَةٍ قِصْرٍ ، وَيَمَثِّلُ قِصْرُونَ أمامُ أكتافيوس خاضعاً قَتْلَهُ أكتافيوس ، وهكذا يَقْضَى في دَقِيقَةٍ واحدة على عِرْقِ الإسكندر ودمِ قِصْرٍ .

## ٨

ينال النبلُ في العهد الرومانيُّ أعظمَ تَبْجِيلٍ في تاريخه ، وتَحْظُرُ رومة على جميع الشيوخ والفرسان أن يَطَّأُوا أرضَ مصرَ ، وَيَبْلُغُ هذا البلدُ من عَظَمِ الإغراء ما كان يجب معه أن يَحْرُمَ دخوله على كبار موظفي الإمبراطورية ، وكان الباعلُ في ذلك الحَظَرِ الفريدِ في بابه هو أن الرومانيَّ يَشْعُرُ بأنه سيدُ العالمِ إذا ما بدا سيدَ ذلك النَّبَرِ الكبيرِ ، وفي ذلك الحين يَقْعِدُ ديودرس أ كَالِيلِ الثناء على المصريين فيقول إنهم أكثرُ شعوبِ العالمِ عِرفَاناً بِالْجِيلِ .

وتصبح مصرُ ولايةً رومانية بعد موت كليوباترة ، ونظراً كذلك سَبْعِمِئَةِ سَنَةٍ ، ويكافِئُ الرومانُ كلَّ شَيْءٍ يونانيٍّ هُنَاكَ كما يَقْتُلُونَ في كلِّ مكانٍ ، وتَقْرُبُ صفاتهم من صفات القراعة فيما يَصْدُرُ عنهم من الأوامر على الأهلِ ، وَيَتَصِفُونَ كالقراعة بروح النظام والتنظيم والإدارة والبناء .

وكان الرومانُ يُدْرِكُونَ أمر النبل ، أمر هذا النهر الذي يُمكن أن يلاحظ ويقاس على الجوام ، ومن العناصر عنصرٌ تتوقف قاعدته على ذكاء سكان الضفاف وبراعتهم

### تمثال النيل

فيزيد من الخيال ما يذني المصريين من أمريكي الوقت الحاضر، ومما كان يلائمهم أن تُحفر قنوات وتُنشأ أسداد وتوضَّع علامات لوصول الفيضان وأن تُنظَّم تقارير وحسابات، وكان الأباطرة يَحْمِلُونَ رجال الكتاب على قياس ارتفاع النهر فيكتب أحدهم إلى عامله بمصر: «بَلَغَ النيل في اليوم العشرين من سبتمبر خمس عشرة ذراعاً وفق تقرير القائد، وكُنْ سعيداً بأن تُعرف ذلك مني عندما لا تُعرفه من أحد»، ويَبيِّن هذا الكتابُ الذي أُرسل من رومة إلى الإسكندرية على دِقَّةِ الرومانيِّ وغلظته المزوجتين بالزُّهو الإمبراطوري، ويظهر من هذا الكتاب ما بين الإدارة المدنية والإدارة العسكرية من تمارض يتجلى في هذا الوقت.

وإلى ذلك الزمن يرجع تمثال النيل الذي يُصوِّر لنا رجلاً لُخِيَانِيًّا مع ستة عشر ولداً رمزاً إلى أذرع الفيضان الـ ١٦، كما يدلُّ على الروح العملية لدى أولئك الواقعيين أمام ذلك النهر العجيب.

ويَفِدُو ذلك النهر نهر ذهب، فيُفتَح نصف ما تحتاج إليه إيطاليا من الحبوب، فإذا ما وَصَلَ الأسطولُ المصريُّ إليها في شهر يونيه أقيم مهرَجان شعبيٌّ فيها، وكان الرومان يُنَمُّون بحماية ذلك البلد عن غيرة، وكانوا يُسَكِّنُونَ «بَنَاتين» هنالك ليرْقُبُوا الجداول الصغيرة ويرْقُبُوا الفِرَيْن ويَصِلُوا ما بين القنوات ليُمكن المرور من بعض شُعَبِ النيل السبع إلى بعض، وقد عَبَّدُوا طُرُقاً في الصحراء لعدم قدرتهم على قضاء شهوة إنشاء الطرق كاملة بمصر، ويوسِّع تراجان قناة نخلو السويسية فيجعلها صالحة لسيَر السفن التجارية الكبيرة، ويحدِّد منَحُ الحقل





۲۶ - خزان آسوان



دوماً ، ويُستعى في زيادة إنتاجها ، ويُلبَّجُ كُلُّ مديرٍ إلى الزراعة القَصرية إرضاءً للإمبراطوره ، وذلك لأن تلك الولاية عُدَّتْ مُلكاً خاصاً به مقداراً فقديراً فصار يُنظر إليها ولاية نموذجية .

وكانت مصر في الوقت نفسه تُعدُّ صندوقاً يستعين به الإمبراطور لمكافأة ذوى الحُطوة لديه ، وكانت حيازة مصر تُقرَّر وراثته التاج غير مرة ، ومع ذلك لم يَزُرْ ضيفان النيل غير قليل من الأباطرة ، والأباطرة كانوا يستمدون على خِصْبها من غير أن يَسْأَلُوا عن الشعب الذي يقضى ضروبُ المَشاقِّ في سيلهم .

ولكن الرومان عادوا لا يَدْفِنُونَ الثَّورَ المقدس كما كان الإسكندر والبطالمة يصنعون ، ولكن الرومان عادوا لا يأذنون للمصريين في الحَلْفَ بآلهتهم ، ولكن الرومان أخذوا يَرَقِبُونَ الكَهَنانَ فصاروا يأخذون نصفَ دخلهم ، فإذا ما سَمَحُوا لهؤلاء بإنشاء معابد على الطراز المصري عُرِضُوا فيها على أنهم خلفاء القراعنة ، وكانوا يستمدون أنهم يستطيعون أن يحكموا في أقدم الشعوب كما يحكمون في التَّروِيْدِ بيريطنية ، وكان الشَّيَاح من الرومان يُنْشِدُونَ أغاني رومة الشعبية في أبواب المعابد القديمة وَيَسْخَرُونَ في هذه المعابد بما هو مقدسٌ من الحريرة والإيس ، وتُشْمَلُ المَوْضِعُ<sup>(١)</sup> آلهة مصر فيُبتَدَعُ هورُوسُ قيصر ، يُبتَدَعُ محارب رومانيٌّ ذورأسٍ صقريٌّ وتاج شوكيٌّ ، وتنتم الآلهة المصرية لنفسها ذات يوم بسبب عدم الاحترام ذلك ، فلما نَدَّ الأميرُ جِرْمَانِيكُوسُ قطعة من الحُلَى إلى الثَّورِ إيس اثني هذا الحيوان المقدس وَوَقَفَ هذا الرومانيُّ حيث كان ، ويُسَفِّرُ هذا الحادثُ الطفيفُ عن هَيْجَانٍ كبير في مصرَ فَيُدَلُّ ذلك على درجة ما كان يساورها من تَوَثُّرٍ .

ولم يختلف الأباطرة القليلون الذين زاروا مصرَ عن هادريان الذى نمتَ المصريين بالغنى والشرِّ والكسل والتَّلب، ويتنكَّرَ كَرَاكَلًا السماء انتقامًا نَجْمَهُ أَغْنَى الإسكندرَين المِهْنَةَ، ويَدْعُو للمصريين بالأجلاف الفِلاظ، وكان ذلك البلدُ يُعَدُّمُ بالقَبِّ وَيَقْرُ الماءَ والتماسيح التى كان الجُمُهورُ المُتَجَمِّعُ فى الميدانِ يَتَلَعَّى باصطراعها، ومَرَّ كُوسُ أَوْرِيْلْيُوسَ وحَدَّه هو الذى ذهب إلى مصرَ ليتعلمَ فجلسَ فى مَجْمَعِ الإسكندرية العُلَى عند أَقدامِ أكابرِ العلماءِ وناقشَ لوسيانَ الذى كان موظفًا بمصرَ، وَتَجَدَّ النِيلُ بقوله الشعرى :

« تلك أرضٌ راضيةٌ عن خَيْرَاتِها، تلك أرضٌ راضيةٌ عن غيرِ سِلَاحِها، هى غيرُ مفتقرةٍ إلى جُوبَيْتِرَ ما دام النِيلُ يحلُّ نَقْطَها » .

وجعل الرومانُ من ذلك المَجْمَعِ الذى كان أهمُّ ما فى ذلك العصر مدرسةً فنيةً عاليةً، فاخترع هارون فيها أولَ آلَةٍ بَيَّاعَةٍ تُخْرِجُ لك هديةً إذا ما أُدخلتَ إليها قطعةٌ من النقود. وأنشأ آخرون فيها أولَ عَرَبِيَّةٍ تسيرُ بنفسها، وأولَ آلَةٍ بخارية، وأولَ مِدْفَعٍ، وابتدع الاختزالَ الذى هو سيارةُ الكاتبِ عالمٌ موهوبٌ فيها، ويظهر العالمُ الجغرافى بطليموس الذى هو آخرُ من نَبَعَ فى الإسكندرية فَعَدَّ مكتشفًا لِسِرِّ منابعِ النِيلِ، والذى هو بقيةُ أكابرِ الباحثين الذين عاشوا هنالك، ما كان ذلك البلدُ وتلك المدينة قبضةَ الأغرارة .

وظلَّ الأغرارةُ سادةً مدةً ثلاثة قرونٍ فى تلك العاصمة الجامعة بين العقلِ والعاطفةِ فصاروا يَأْسَفُونَ على البطلةِ وعلى أَتْهَمَتِهم وإسرافهم وعلى جرائعهم الطريفة، وكان الأغرارةُ يُقَطِّعُونَ تجاهَ النظامِ العسكرى وتجاهَ ما يَمُرُّونَه من قُتُورٍ وعدمِ خيالٍ لى الحُكَّامِ الرومان الذين يُبَيِّزُونَ جميعَ النازلِ بأرقامٍ فيحملونها على نِظَافَةٍ

### سبل ذهب من الدلتا إلى رومة

لا تُطلق والذين لا يرغبون في غير أمر واحد ، في غير قرَر ثروة كافية يَتَمَكَّنون بها من استئثار هواء رومة مُجدِّداً ، ويُقرَض على الأغارقة في تلك الأثناء وظائفُ فخريَّةٌ فيحتلون نفقاتها ويفتخرون من أجلها ، وما كان قِيَّيْثُ القرون القديمة هؤلاء لِيُطِيقُوا الهواء البروسيَّ ، وكان أصحابُ ذلك البلد الحقيقيون محتَمَرِّين هنالك مع ذلك ، ويانُ ذلك أن المصريين لم يَمُدُّوا البطلةَ من الفاحين قَطُّ ، وأن هؤلاء البطالةَ من ناحيتهم كانوا يَتَشَقُّون بالمصريين ، وأن الرومان كانوا يَحْسُبُون المصريين من الأعداء المفلوطين ، فلما تابست القرونُ تحوَّلت مشاعرُ المفلوطين حقدٍ إلى بَقْضاء ، وإذا نظرتُ إلى كثيرٍ من الرسائل والتقارير وجدتها تنصُّ على « أن المصريَّ ليس إنساناً » ، وإذا كان الرومان قد حَظَرُوا على موظفيهم لطويلِ زمنٍ كلَّ زواج باليونانيات فإن حقَّ الوطنيِّ ، وحقَّ الانتساب إلى الجيش الرومانيِّ أيضاً ، كانا مُحَرَّمَيْنِ على المصريِّ حتى في القرن الثالث ، وكان يَحِقُّ للرومان وللأغارقة أن يَجْمَعُوا الأولادَ الذين تتركهم أمهاتهم على الرُّدُوم وأن يُرَبِّوهم عبيداً لهم ، وكان يماقِبُ المصريُّ الذي يَجْرُؤُ على إنقاذ ولدٍ رومانيٍّ من الموت جوعاً !

ويجري سبلُ ذهبٍ من الدلتا إلى رومة في قرون ، وتحولت أمورُ التجارة هنالك منذ صارت الإسكندرية ، التي هي أكبر ميناء تجاريٍّ في العالم والتي هي محلُّ مبادلةِ سلع الشرق بأجمعا ، جزءاً من الإمبراطورية الرومانية ، فصار تجارُ الرومان يَحْسُبُون غير ما كان تجارُ اليونان يَحْسُبُون ، فتجلبَّبُ سفنهم الأباذير والحجارة الغنية من الهند وتَجَلَّبُ النساءُ الحريرية من الصين ، وتُدْخِلُ إلى مصرَ خمرَ سورية وخيلها وثياباً للرومان وجنودهم وتُصدِّرُ منها زجاجاً وبردياً ونُسجاً ، وجباً على الخصوص ، وتأتى بذلك حتى الرين ، ومن المحتمل أن يكون أغسطسُ

قد قاوم قيام دولة عربية ليحول دون انحطاط الإسكندرية .

وتبلغ الودائع والسفاحج<sup>(١)</sup> من التضخم ما لا يُرى مثله قبل وصول الإنكليز ، وترجع فوائد النقود بين ٢٤ و ١٦ في المئة ، ويأتى للمرة الأولى سيّاح من الرومان للإعجاب بآثار مصر ، وتجهز سفن للسياحة فى شعب النيل ، وتنظم نزهة ليلية مغالاة فى الأجور .

وأكثرُ الناس بُساً هو الذى لولاه لظلت الأهرام فارغة ، هو الفلاح ، ويحمل الفلاح على الإغريقية مدة ثلاثة قرون من غير أن يتعلم كلمة يونانية ، والآن يجب عليه أن يصبح لاتينياً ، ويقاوم ذلك بما فطر عليه من غريزة بالقوة ، وكانت أمور الجباية الإمبراطورية تسير كما فى عهد القراغة فلم يتفككت منها أحد ، وكان طيبريوس يُقرّر مقدار الضريبة التى يجب على مصر أن تدفعها فى العام القادم ، وكان الحكام والديرون يكلفون بتحصيل ذلك فيأخذون معلوماً فى المئة لأنفسهم ، ونفلم من مذكرات الطلب أن الفلاح كان يدفع تسعة فى المئة فائدة عن ديونه بدلاً من عشرة فى المئة كما فى العهد الفرعونى ، وأن جنود الرومان كانوا يججزون جملة وحماره ، وثياب أمه المجوز أيضاً ، وكان يؤخذ رسم عن كل مؤنية ، وكانت تؤخذ ضريبة إضافية عن كل كرامة باسم باخوس ، وكان حديثو النعمة فى ذلك الدور أساتذة فى فن ابتداع الأسماء الجميلة اعتصاراً للشعب .

ومن مقتضيات النظام القرطاسى الرومانى المشهور إكراه الفلاح على التصريح لعمدة القرية بعدد المجول التى يؤد أن يأتى بها إلى السوق ، وكان الفلاح يُحمل على حفر مقدار معين من الأرض لإنشاء جداول جديدة وحفظ القديم منها فى حال

(١) السفاحج : جمع السفجة ، وهى الحوالة المالية .

جيدة ، فالكاتبُ موجودٌ هناك على الدوام ، وأما الغنى المصرى فكان يتنازع السلطة الرومانية وظيفته كاهن أو يكتري قرية ليَجُورَ على الفلاح كما يشاء ، ويبلغ سكانُ مصر في العهد الإمبراطورى سبعة ملايين ، وما نفعُ الفلاح من جميع ذلك ؟ ويؤلفُ الفلاحون تسعين في المئة من الأهلين ، ومع ذلك لم يكن لدى هؤلاء الفلاحين المحكوم عليهم بالعمل والملاك ما يُحتملُ به ارتقاؤهم إلى حالٍ أعلى مما هم عليه في الوقت الحاضر .

ولم يُسْتَنْ من الضرائب غير أمر واحد : حقُّ الفلاح في نقل مواته إلى ضِفَّة النيل اليسرى لِيَدْفِنَهُم في الغرب ، فقد تركَ الرومانُ له حقَّ الموت !

## ٩

ملَّكَ الفرس والأغارقة والرومان مصرَ سبعة قرون بقوة السلاح ، ثم يَتَوَجَّه نحو مجرى النيل القوقازى ، للمرة الأولى ، أنلسُ عَزَلٌ من السيوف والدروع والسهام والأقواس ، وذلك على شكلِ دُمرٍ ومن غير رغبة في بيع الفلاح شيئاً من السلع ، وهم لا يسأونه أجراً على ما يجلبون إليه ، أجراً على الدين الجديد ، أو المذهب الجديد تقريباً على الأقل ، وكانت الشعوب الأخرى تَبْحَث في مصرَ عن الحبوب وتَدْعُ الآلهة ، فلما جاء أولئك الناس تركوا الحبوب في مصر وأتوها يالهُ جديد ، وما فَتَنَّت مصرُ تكون ملجأً للنصارى منذ القرن الثانى .

وكانت الصحراء تجتذبهم ، وكانوا يَرِدُونَ بلاداً تكفى حُطوةً فيه للانتقال من ضوضاء الحياة إلى السَّوْءة ، ومن الشمس والرمل إلى تلك العزلة الكبرى التى لا تشابه سوى عزلة الصحراء والبحر وحقل الجليد ، وإذا عَدَوْتَ النقرة في فُنْدُقٍ

### القدّيس أنطون

عصرى لم يَجِدْ في مكانٍ ما هو أسهلُّ من عيش الناسك في صحارى مصر ، وما كان على يسوع والقدّيس يوحنا أن يبعثا عنه خارجَ فلسطين وَجَدَهُ النصارى الحقيقون الأولون على طرف الطريق هنا ، وهم لولا هجرتهم إلى واحاتٍ لكانوا قريبين دوماً من واحة النيل الكبرى للبحث فيها عن أدنى حدٍّ ضرورىٍّ للحياة ، وهذا إلى أنك لا ترى زاهداً ظلاً في الدلتا ، وجميعُ الزَّهادِ تَوَجَّهوا إلى الجنوب الغربى ، إلى النيل الأعلى على الخصوص ، وهذا إلى أنك ترى الكثيرين قد رَغِبُوا في استنشاق هواء البلد الذى عاش فيه موسى وعيسى وُلِدَيْنِ .

وَيَتَصَرَّفُ الرجلُ التَّيِّبُ من تقلبات الزمن في جزء من بَرِيَّةٍ يلجأ إليها ، ولا يبقى أولئك الأطهار منزولين في هجرتهم زمناً طويلاً ، وهم يَتَجَمَّعون في البدأة اثنين اثنين ثم يتجمعون زُمرًا ، ويصبح الناسك راهباً ، ويقوم الدَّيرُ مقام الكهف ، فلا يمكن بعد ذلك أن يدع الرجلُ أمره إلى الله وأن يَتَّخِذَ به تماماً .

ويَدُلُّنا القدّيس أنطون في القرن الثالث على أن الذى يَبْتَحث عن الله محكومٌ عليه ، خلافاً لمقاصده ، بتأليف زمرَةٍ وبالتدخل نهائياً في منازعات هذا العالم الذى كان يودُّ الفرار منه ، وكان ذلك القدّيس ابناً لَقَتْنِي في جِوار طيبة ، فلما بَلَغ العشرين من عمره ترك جميع ماله طالباً نجاة رُوحه ، فانزوى في الصحراء خنقاً لشهواته في المكان الذى كان القراعة يصطادون الأسود والظباء فيه منذ بضعة آلاف سنة ، فإذا ما حلَّ وقتُ المساء يَهْرَسَم ثيابُ نساكهم الشَّافِقة ، وَيَبْلُغُ الخامسة والثلاثين من سِنِيهِ فَيَشْتُرُ بأنه قَهَرَ نفسه وَيُقِمُّ بِمَحْصَنٍ خَرِبٍ في إحدى الواحات حيث يَتَمَتَّعُ بِمَزَلَّةٍ كاملة في عشرين سنة كما يظهر ، وفى ذلك الحين يُصِرُّ عليه رجالٌ ضِعَافٌ من مُجَبِّى الخير ، ومن الباحثين عن قُدُوةٍ لهم ، بأن يكون



### أديار النيل

مُملَّتهم ، فبنشئ هذا الزاهد الذى أصبح فى السبعين من عمره والذى عاش خمسين عاماً وحيداً مع الرب ، أولَ دَيْرٍ ، فكان أولَ راهبٍ فى التاريخ .

إِذْنُ ، يصير أباً للصحراء ناصراً للإيمان والنبي ، ويسافر إلى الإسكندرية فى دور من الاضطهاد ثقيبتاً لقلوب النصارى ، ثم يقول لأصحابه : « تَمُوتُ الأسماءُ إذا ما أُخْرِجَتْ من الماء ، وَتَفْقَدُ الرهبانُ كلَّ نشاطٍ إذا ما صاروا فى المِصْرِ ، فَلتَرْجِعْ إلى جبالنا بسرعة » ، وهكذا يعترف هذا الشائبُ النشيط بأن التَّسَكُّ فى الصحراء أسهلُّ مما فى العاصمة ، وما قيمة ما يمكن الإمبراطورَ قسطنطين أن يَفْرَضَهُ عليه من طَلَبٍ وضيعٍ ليُصَلَّى بعد الآن من أَجْلِ بِزَنْطَةِ ، من أَجْلِ رومة الجديدة ، لامن أَجْلِ رومة القديمة ؟ ومن أروع مظاهر سجيته أن كان يَسْمُو فوق هذه المطالب ، وكان جيلاً طَيِّبَ المزاج عند ما مات فى ديره مجاوزاً المئة من العمر .

ومن المحتمل أن كان سَلَفُهُ بُولُسُ المِصْرِيُّ أكثرَ انقياداً لنداء ضميره ، فهو ، بعد أن عاش تسعين عاماً بجانب يَنْبُوعٍ فى الصحراء ، لم يَتْرُكْ حين وفاته غيرَ قِيصِهِ الذى أَوْصَى به للقديس أنطون ، وما كان هذا الأخيرُ لِيَلْبِسَهُ فى سوى الأعياد الكبرى ، وهو فى هذا كفرسان الرومان الذين كانوا يَلْبَسُونَ دُرُوعَهُمَ المُنْتَظَلَةَ إليهم إِرْتِئاً .

والحق أن ذينك الشخصين كانا يَمَثِّلَانِ مَبْدَأَيْنِ للحياة يَفْصِلَانِ بينهما كما كان يُفْصَلُ فرعونُ عن الفلاح ، وإذا كان القديس أنطون قد وُقِّقَ للتوفيق بينهما فإن ذلك لم يكن ممكناً لدى ألوف الرهبان الذين كانوا فى القرن الرابع والقرن الخامس قد تجمَعُوا فى أديار مُحَصَّنَةٍ على طول النيل للدفاع عن أنفسهم تجاه الأشرار ، حتى إنهم

يؤلفون مؤمراً سنوياً

أقاموا مُدناً حقيقيةً ، حتى إنه كان يوجد بالقرب من مكان السويس الحاضر جمعٌ دَبرِ مؤلفٍ من عشرة آلاف راهبٍ يحرثُ الأرض ويكسِبُ المالَ ويرتلُ في المساء أناشيدَ حمدِ الرَّبِّ ، وكانت المُثَلَّات والخليلات يأتين من الإسكندرية ليشاهدنَ ذلك المنظر اللانِسَوِيَّ ، وكان يجتمع في القرن الخامس خمسون ألفَ راهبٍ فيؤلّفون مؤمراً سنوياً .

والواقع أن الألوْف من أولئك كانوا من الفلاحين ، وليس من المحتمل أن ينتحل الرهبانية ملايين الفلاحين مع استمرارهم على زرع حقول أجدادهم ، وقد عانى الفلاحون طائفةً من السَّكَّارَةِ مُدَّةَ ثلاثة آلاف سنة من عهد الفراعنة ، ومُدَّةَ سبعةِئة سنة من السلطان الأجنبيِّ ، وللرة الأولى يقول أناسٌ من أقوى الأيمان للعبيد المضطَّهدين على ضفاف النيل ما ليس لسيهم عنه غيرُ فِكْرِ مُبْتَهَمٍ ، يقولون لم إن الإنسان في الحياة الآخرة يحاكم على مقياس آخر فتتوقف سلامته على طهارة قلبه ، لا على أهبة ضريحه .

وتُقلَن هذه البُشْرَى السارَّةُ بلفظِ الفلاح لأول مرة ، وكان الفلاح كارهاً لاغريقيَّة أنصار الأفلاطونية الجديدة وللآتينية عُبَادِ جوبيتر كايبتولينوس ، أو إن هؤلاء وأولئك كانوا يبدون له ، على الأقلِّ ، غرباء مثل كَهَّانِ مصر القديمة بلفظهم المُقدَّسة ، وكان الفقر سمة المهاجرين والقديسين من النصارى الأولين ، وكانوا ، كالفلاح ، ينتظون بحُفْنَةٍ من القول والبصل ، وقد عَرَفُوا لفظَ الفلاح فصاروا يرمسونها بالحروف اليونانية ، وقد استقروا ببسدين من المدن ، وما كان الأغارقة والرومان ليوعِّلوا كثيراً في تلك المِنطقة الطَّيِّبَةِ حيث يُعَلِّمُ أناسٌ من ذوى الحاسة فريقَ المكروبين أن يضربوا على مصيرٍ ليس غيرَ موقتٍ بالحقيقة ، ويكنسح

21-1





## اختلاط الأديان

المذهب الجديد وادى النيل بأسرع مما وى مكان آخر من العالم .  
ويظهر كنهة إيزيس عزلاً ، ويمكن الفقراء أن يشيلوا نورة كاتى وقعت منذ  
ثلاثة آلاف سنة ، ويتصرفون فى الأمر ببراءة فيوجون الجموع ضد الأجنبي ،  
ويعد الأغارقة والرومان من عبدة الأصنام للمرة الأولى ، لا من قبل النصارى ، بل  
من قبل أتباع الدور القديم بمصر .

وظاهرة ما بعد ذلك الحين هى اختلاط الأديان ، لا اختلاط الشعوب واللغات  
وحده ، واذهب إلى جزيرة بلاق الصغيرة ، التى يطاف حولها فى نصف ساعة ،  
ترآه أنه كان يُقام فى وقت واحد من كل يوم بشعائر يسوع وإيزيس ، وينقلب  
معبد التليكة حاثيشيت المائى إلى مصح يوناني ثم إلى دير نصراني ، واذهب  
إلى شواطئ بحيرة مريوط ترز زمره يهودية كانت تحفل فى كل خمسين يوماً بيد  
مشتق من أسطورة الإسكندر حولتها البدهية (البوذية) ، واذهب إلى معبد  
الكرنك ترآه استعمل كنيسة ، ويجعل النصارى الجدد بأدفو القديس أبولون  
من خليفة هوروس ، وتظهر على الجدر ، التى حذف إخناتون أسلافه منها ، لجاء  
الإسكندر ليخذه منها ، وجوه أناس من ذوى الهوس مجدوا بأسلوب جديد فقام  
التاج مقام مفتاح الحياة فوق رؤوسهم .

ويستمع القلاح إلى هؤلاء الرهبان الذين كانوا يسألون الرب الجديد أن يرفع  
ماء النيل ، ويستع القلاح هؤلاء الرهبان الذين كانوا يقولون إن يسوع الإله ذا  
المالة ليس غير أوزيريس المحول ، وإنه ليس عليه أن ينزع عنه التيمة التى  
يخمنها على عنقه ، وما كتب رئيس الثانى على الجدر : « سيطل هذا بيت  
الرب إلى الأبد » ، فكان ذلك ، ولا قيمة للاسم فى ذلك .

وَيَقْبُ الحَاسَةَ الْأُولَى تَنْظِيمٌ ، وَيَتَحَوَّلُ لِلتَّعْصِبُونَ إِلَى مُبَشِّرِينَ ، وَيَبْدُو فَوْقَ  
الرَّهْبَانِ أَسَاقِةٌ فَتَفْتَحُ رُومَةَ فِي وَجْهِهِمْ ، وَلَا عَجَبَ ، هَؤُلَاءِ النَّاسُ يَجْرُؤُونَ عَلَى  
الْقَوْلِ بِأَنَّ جَمِيعَ الشُّعُوبِ مُتَسَاوِيَةٌ أَمَامَ اللَّهِ فَيَرْفِضُ أُلُوفُ النَّاسِ حَمْلَ السِّلَاحِ فِي سَبِيلِ  
رُومَةَ ، حَتَّى إِنْ أَحَدَ الْأُدْيَارِ الْمُحَصَّنَةِ يُقَدِّمُ عَلَى طَرْدِ رَسُولِ الْإِمْبَرِاطُورِ خَارِجَ أَبْوَابِهِ ،  
وَيَكْتَرِثُ الْإِمْبَرِاطُورُ مِنْ قُوَّتِهِ لِلتَّوَرَهَائِي الَّذِي كَانَ مَحَلَّ احْتِقَارِهِ فِيمَا مَضَى ، وَيَأْمُرُ  
بِتَقْدِيمِ الْقَرَايِينِ إِلَى أَلَمَةِ مِصْرَ ، وَذَلِكَ لِمَا يُسَاوِرُهُ مِنْ غَمٍّ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْيَهُودِيَّ  
الشَّاذِّ الْأَطْوَارِ الَّذِي قَبِلَ إِنْهُ صُلِبَ أَمَامَ رَايَةِ الرُّومَانِ ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى يَبْدَأُ الرُّومَانُ ،  
بَعْدَ أَنْ هَدَمُوا مَعَابِدَ الْيَهُودِ ، بِمَقْتِ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ مَا فَتَنُوا يُقَدَّرُونَ صِدْقَهُمْ .  
وَمَعَ ذَلِكَ يَشُدُّ الْأَضْطِهَادُ عِزَانَهُمْ جُوعَ النَّصَارَى ، وَيَنْزِلُ أَغْيَاءُ مِنَ الْأَغَارِقَةِ  
عَنْ أَمْوَالِهِمُ لِلْكَنِيسَةِ الَّتِي قَامَتْ بِأَعْمَالٍ إِصْدَارٍ كَبِيرَةٍ فَأُرْسِلَتْ إِلَى مَا وَرَاءَ الْبَحْرِ  
ثَلَاثَةَ عَشَرَ مَرَكَبًا خَاصًّا بِهَا ، وَلَمْ يَلْبَثْ بِطَرِكِ الإسْكَندَرِيَّةِ أَنْ صَارَ غَنِيًّا كَالْبَطَالِمَةِ فِي  
الْمَاضِي ، وَلَمْ يَنْفَكْ النَّاسُ يَرَوْنَ ظُهُورَ مَنُهَوَسِينَ ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ أَفْرُوزِيْنُ الْبَاهِرَةُ الْجَمَالِ  
الَّتِي هَجَرَتْ زَوْجَهَا ، عَنْ اقْتِضَاحٍ فِي الْعَاصِمَةِ ، لَتَمِيشَ فِي حُجَيْرَةٍ فَتَقْضِي ثَمَانِيَةً وَثَلَاثِينَ  
عَامًا فِي الصَّلَاةِ ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ شَرِيفٌ رُومَانِيٌّ شَابٌّ صَدِيقٌ لِمَرْكُسُ أُورِيلْيُوسُ  
وَحَامِلٌ لَاسْمِ نِيَطُسُ فَلَافْيُوسُ قَدْ اعْتَنَقَ النَّصْرَانِيَّةَ وَاتَّحَلَ اسْمُ كَلِيمَانَ فَصَارَ يَحْمِلُ عَلَى  
لُبْسِ الثِّيَابِ الْقَصِيرَةِ الَّتِي تَبْدُو مِنْهَا الرُّكْبُ كَمَا يَحْمِلُ عَلَى الذُّبُولِ السَّابِقَةِ<sup>(١)</sup> الَّتِي تَكُنُّسُ  
الْأَرْضَ وَعَلَى النَّسَاجِ الشَّفَافَةِ وَالْجَوَارِبِ الرَّقِيقَةِ فَيَقْدُو مَحَلَّ حَدِيثٍ غُرِفَ الْاسْتِقْبَالِ .  
وَيُعْتَرَفُ بِالنَّصْرَانِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ فَيَفُوقُ نَصَارَى مِصْرَ مُضْطَهَدِيهِمْ غُنْفًا ،  
وَيُظْهِرُ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّصَارَى أَنَاثُ بَلَّغُوا مِنَ التَّعْصِبِ مَا يَهْدُمُونَ بِهِ الْعَابِدَةَ

(١) الذُّبُولِ السَّابِقَةِ : الْقَبُولِ الْوَاقِعَةِ الطَّوِيلَةِ .

### نبوة حكيم في الإسكندرية

والكتابات والتماثيل والصُورَ الجدارية التي لم يَمَسَّها أيُّ شعب أجنبيٍّ في ألوف  
السنين ، ويُقتلُ مَنْ يُزَعَمُ أنهم وثنيون بالثلاث ، وتُقطَعُ تليذةُ أفلاطونَ الحسناء  
ومُعَلِّمَةُ علم الفلك في الجامعة ، هَيْثَانِيَّة ، إِرْبَانِيَّا وَنَحْوَيَّ كصنعةٍ للشيطان ،  
ولمَّا نُوبَ معبدُ السَّرائيمِوم من غير أن تنزِلَ صاعقةٌ على الهدَّامين كان ذلك خاتمةً  
لأحد وجوه العالم القديم .

وَيَنْبَغُ أَحَدُ حُكَّاءِ الإسكندرية للتأخرين : أَسْكِليبيُّوس بما يأتي :

« يقرب الوقتُ الذي لا يَعْرِفُ فيه أَحَدٌ دِيَانَةَ المصريين ، وسيُهَجَرُ بلدُنَا ؛  
وستكون القبور والموتى ، فقط ، شهوداً عليه ، فيا مصرُ ! لن يَبْقَ من مذهبِكِ  
سوى أساطير لا يؤمن بها أَحَدٌ من الأعقاب ، ولن يبقَ غيرُ الكلامِ النفوس على  
الحجر والذي يُحَدِّثُ عن قدماء الآلهة . »

### ١٠

يُحَطَّمُ القِرَاعَةُ على الجُذُرَانِ ، ويمتنق الفلاحون الدينَ الجديدَ فَرَحِينَ ، والآلَ  
يَبْدُو الرَّبُّ أَقْرَبَ إِلَيْهِمْ مِمَّا إِلَى آبَائِهِمْ ، وذلك لأنه يتكلمُ المصرية ، وهم سَمَّاهُ  
منذ أخذَ الرهبانُ يَتَلَوْنَ عليهم الإنجيلَ بلهجتهم التي لم تَقْضِ عليها لغةُ الكُهَّانِ  
الهيروغليفيةِ الجَلِيلَةِ ، وما كان لِيُزَعِّجَهُمْ أَنْ يَرَوْا كِتَابَةً لِقَتَمِ بالحروف اليونانية  
ما داموا يجهلون القراءة ، وقد أُنْهَضَ من بَعِيدٍ قَهْرٌ فَوَادَهُمْ .

والواقعُ أن رومةَ عادت لا تَمْلِكُ من القوةِ ما تمارِضُ به النصرانية ، وكان  
النصارى شُبَّانًا والرومانُ شَيْبًا ، ويقترفُ الرومانُ أعظمَ خطيئتهم باعْتِقَالِهِمْ دِينَ

## البربرة

أعدائهم لما ينطوى عليه ذلك من الحكم بهلاك أنفسهم ، لما يؤدي إليه من تزعم سلاحهم وتسليم سيوفهم إلى أولئك الذين قاتلهم ، يند أن من الأوف ؛ حتى في زماننا ، أن ينتحل الورثة ما كانوا زناً طويلاً من سياسة ووسائل عمل ، ويصبح الإمبراطور أشقى رومة المسكح .

ويسير البربرة إلى فتح العالم بين ديتك المبدأين ، ويقادر هؤلاء البربرة ، الذين هم قبائل وحشية من لابس جلود الحيوان ، غابات البلوط ، ويرتدى هؤلاء الجرمان ثياب مرتزة الرومان مع بحث عن مفارقات لحسابهم الخاص فيترضون أنفسهم على صفاف النيل بالحديد والنار ، وتجد في كتابة مائمية بأذقو قولاً عن الهياطة<sup>(١)</sup> ، الذين « اعتنقوا النصرانية فصاروا دخلاء في كل مكان » ، كاذب إليه حديثاً أحد علماء الألمان ، ويهود اليوم وبلاد وحدهم هم الذين لم يترض إليهم هؤلاء ، وما حدث أن امرأة حسنة من صفاف الزين ، وقد كانت أمة فيما مضى ، راققت هؤلاء الوندال وتلبأت لمصر بمستقبل زاهر تحت سلطان الجرمان وتنداعى الأسداد والقنوات تحت أحذية هذه العشائر التي صارت كتائب الرومان المهوبة عاجزة عن وقفها ، وعادت الناعورة لا تدور ، وأخذ الذهب يقل مقداراً فقداً . وصار عدد العيد يزيد ، وبدأ الحب ينقص بين عام وعام ، وأصبح ثقله إلى أوسنيا<sup>(٢)</sup> يتطلب ربع ما كان يجب من السفن ، ويتصرف بضغ أسير كبيرة في الدلتا الخصبية وفي السهول الخضراء الواقعة عند حد الصحراء فتقف مراكب حب منافسها وتسد قنوات أعدائها ، ويترأ أوف من الفلاحين مخلاً من الضرائب الجائرة المطلقة التي تقرضها ، ويقطع هؤلاء الفلاحون السابلة ،

(١) Les Huns — (٢) أوسنيا : ميناء قدم واقع عند مصب نهر النيل بإيطالية .



ويؤثرون عصابات مستعنيين بمرزقة الجرمان لنهب الأديار وقصور الأغارقة وسلب ما فيها من مالٍ وأنعام .

وتوَدَّى تلك القوضى إلى انهيار مصر ، وتحتاج مصرُ إلى النظام أكثر من أي بلدٍ كان ، ولم يَسْطِمْ جوستينيانُ أن يَسْتَلِ النبل بسله ، ولم يَأُلْ جوستينيان جُهداً في نصر النصرانية فحمل البدوين والبيلى ، وزوج جوار دُنْغَلَة أيضاً ، على العِمَاد<sup>(١)</sup> ، وكان هذا قَبْلَ ولادة محمد بزمانٍ قليل ، وما كان من نزاع بين المذاهب وصَبَفَ في الحكومة البنظية قد اجتذب القُرْسَ مرةً ثانية فدام احتلالهم العاصمة عَشْرَ سنين ، ولكن القضاء على تلك القوضى كان يتطلب أمةً أَقْتِ مثل ذلك الإقليم وتَمَوَّدَت شِدَّةَ الحرارة مع عدم عبادة إلهٍ بِلَا عِتَادٍ ، مع عبادة إلهٍ قويمٍ قائل بالقوة ، ولكن القضاء على تلك القوضى كان يتطلب أمةً جديدةً لم يَقْدِر على استعبادها الآشوريون والفرس والمصريون والبطلة والرومان .

كان أولئك الناس يَحْمِلُونَ عن شِمَالِهِمْ سِيوفاً طويلةً ، وكانوا يَحْمِلُونَ عن يَمِينِهِمْ سِيوفاً قصيرةً مُحَدَّبةً النَّصْلَ داخلةً في مَنطِقٍ ، وكانوا يَحْمِلُونَ تروساً مُدَوَّرةً ، وكان النَّبَالَةُ منهم يَلْبَسُونَ جواربَ وأحذيةً مستوية ، وكان الفرسان منهم يَلْبَسُونَ جرابيقَ وصُدْرَاتٍ قصيرةً وثلاثةَ أَوْشَحَةٍ مُلَوَّنَةٍ ملفوفةٍ حَوْلَ الخَصْرِ والصَّدْرِ والرأس ، وَيَدْخُلُ العربُ في سنة ٦٤٠ ، أى بعد وفاة محمد بن سِنِينَ ثَمَانٍ ، حَفَظَةَ التاريخ والدلتا عن انبثاق دينيٍ حَرْبٍ ، يدخلها أبناء البحر والصحراء هؤلاء ، يَدْخُلُها سكانُ شِبْهِ الجزيرة المجاورة هؤلاء .

(١) العِمَاد : الاسم من عمد الولد : أى غله بما المصودية ، ومى غل المبي وغيره بما .  
باسم الآب والابن والروح القدس .

### تخية

ويستولى عمرو بن العاص ، وكان قائداً لجيش الخليفة الثاني عمر ، على ميناء يبلوزة وهليوبوليس ومدن أخرى في الدلتا ، ويقوم عمرو بن العاص ، ويعدّ نشيده مجدداً لمصر ، بذلك العمل خلافاً لأمر مولاة عمر الذي قدّر عدم كفاية أربعة آلاف فارس لذلك الفتح ، ومن النادر أن تُنفّر مثل تلك المخالفة عن مثل تلك الفائدة ، ويدوم سلطان العرب هناك تسعة سنة بفضل تلك اليد القوية .

ويُخيل إلى بطرك الإسكندرية وقوادير نقطة أنهم لا يواجهون غير أخلاط من الأعراب المتهجّج الذين جاؤوا الصحراء على حين كان العرب الحقيقيون يعملون في سورية وفلسطين ، ويدلّون بذلك على جهلهم عواطف الأقباط ، عواطف فلاحي النصارى ، الذين عدّوا الفاتح الجديد منقذاً فساروا على غرار آبائهم الذين هتفوا لقيصر منذ ستين سنة وللإسكندر منذ تسعة سنة .

ويبقى الفاتح حيرة في قلوب البزنطيين إذ يُخبرهم بين اعتناق المصريين دين الإسلام فيغدون إخواناً للمسلمين وبين إعطائهم الجزية ، ويناقش في الأمر ولا يوصل إلى حل ، ويقترح قيصر بزنطة أن يؤخّر بأحد الأمرين الفريين الآتين هما : أن يعتنق القائد العربي دين النصارى ويتزوج ابنة القيصر أو أن تدوم الحرب ، ويرفض القائد العربي ذلك ، ويستند على الشعب فيزحف إلى الإسكندرية ويحاصرها نحو عام - ويسلم البطرك هذه المدينة التي لم تمان جماعة ولم تُصب بهزيمة ، ويرضى البطرك إعطاء جزية في مقابل حرية شعائر دينه ، وهل ستم الإسكندرية اجتناباً للمحنة ؟ لم تكن لدى المدوّ سفن ، وكان يمكنه أن يفتك الحصار عن الإسكندرية مستعيناً بأسطول البسطينية ، وهل كان مأكراً

أو جيانا ، أو متديناً فقط ، فضحى بالإسكندرية إيماناً ؟ ويروى أنه مات بعد زمنٍ قليلٍ مُعَذَّبٍ الضمير شاهداً على صرامة الفاتحين . ويتوجّه الأسطول إلى بزنطة مقهوراً ، وتلوح عودته خاتمة قصّة محزنة أكثر من أن تلوح خاتمة احتلال قرنين . وتقوم بزنطة بأخيرة محاولة لاسترداد الإسكندرية فتجد جميع مصر مكافحة لها بجانب سادنها الجدد ، وتهذم أسوار الإسكندرية بعد أن ظلت عاصمة الدنيا ثلاثة قرون ثم عاصمة مصر وأُمّ مراكب البحر المتوسط ستة قرون ، ويبذو جميع نصارى مصر أنصاراً شديدي الحية للعرب الفاتحين الذين طردوا السادة من الأجانب فتركوا للأقباط الابن الذى هو من جواهر الآب ، ولم يكرههم على عبادة إله واحد ليس ذلك الابن من جوهرة .

ويبنى حصنٌ جديد ، يُبنى السُّطُطُطُ بالقرب من شُفُفُفُفُ وعلى رأس الدلتا ، ويُنقل نحو الشمال قليلاً خفيفاً في غضون القرون الآتية ، ويُقدو عاصمة مصر ، ويُطلق العرب عليه اسم إحدى السيارات مارس التى مرّت في ساعات إنشائه الأولى من دائرة نصف نهاره فيدعونه « القاهرة » .

## ١١

يُنزلُ غبارٌ كثيف من الشمال الشرقى إلى القاهرة ، وهذه هى طريق الصحراء الكبرى ، وهى تسوق إلى العاصمة كل من يصل من سورية ، سواء من ناحية دمياط أو على طول القناة القديمة الآتية من البحر الأحمر ، ويتجمع الجمهور أمام أسوار المدينة سائراً بسرعة من جميع القرى المجاورة ، فسيختل غداً بقاء النيل ،

وحرانا في ١٥ من أغسطس سنة ١٣٩٥ ، والوقت بعد الظهر ، ويمسب الفارس السنة وفق التاريخ الهجري ، فيقول إنها سنة ٧٧٣ .

وذلك الفارس غريب عنا ، وذلك الفارس تركي حارب تحت إمرة برقوق من غير أن ينال مرتبة أو أن يحوز صيتاً ، ولكن بمثل شجاعة من ساعدتهم الحظ ففدوا من عظماء التاريخ ، ومن المحتمل أن سلب مؤلّياً من قتلى جيش تيسورلنك في معركة دارت رحاها في تلك السنوات ، ولما يمضي كبير زمن على عودة القائد الذي يدفع إليه أجره ، على عودة برقوق إلى القاهرة منصوراً ، وبرقوق هذا كان مملوكاً شركياً قبض على زمام السلطة مرتين عن جسارية وحيلة ومثل دور سلطان مصر في سوزة من الجهد والإجرام ، ويتبع ذلك الفارس برقوق في غناطه ومغامراته طمعا في مشاهدة تلك المدينة المشهورة الزاهرة منذ قرون كثيرة ، ويفرض مضاف شريف على ذلك الفارس التركي أن يكون زبيله ، وقد يقضى شهراً هنا ، وقد يقضى جميع حياته هنا إذا أراد الله ذلك .

وليس السفر شاقاً ، فطريق الصحراء موشاة بسلسلة من الفنادق العامة التي يجدها فيها الحجاج والبرد والمهاجرون والمسافرون ما يحتاجون إليه هم وجمالهم من الماء والطعام ، وذلك لأن الفاطميين وخلفاءهم أنشأوا لساكنيهم وكتائبهم طريقاً بين مصر والشام بلغت من الجودة ، ومرابط بلغت من حسن النظام ، ما كان البريد يقطع معه ما بين القاهرة ودمشق في أربعة أيام .

ويشقى ذلك الفارس طريقاً لنفسه بين الثبار والحر وبين أصوات الإنسان والحيوان فيزيده إسراره تعباً ، وراقه عبث واحد فقط ، يراقه سائس فرسه ، ولا يستطيع الناظر من بعيد أن يميز أحد الرجلين الأعفرين من الآخر ، ويُنصر

الناظر من قريب أن أحدهما راكبٌ جواداً أصيلاً حاملٌ سلاحاً أحسنَ مما لدى الآخر .

والآن يُبصرُ القارس من خلال الهواء المهتزَّ حرارةً سوراً أصفرَ عالياً مع عِدَّةِ أبراجٍ بارزةٍ بين زُرقة السماء ، ولكن أين القلعة ؟ ولكن أين التيباب والمآذن ؟ ولكن أين النبلُ الذي حَدَّثَ عنه كثيراً ولم يَرَ غيرَ شُعْبٍ هزيلةٍ وتُرُجٍ ضيقةٍ له ؟ هو لم يشاهد حتى الآن ما يختلف عما رآه في آسية .

وتَدْنُو الدهماء من باب النصر ذى الأبراج المربعة المدورة قليلاً نحو الخارج فتبدو هذه الأبراج أقربَ إلى الوعيد مما إلى الترحيب ، ويَصْرُخُ الصرافون والمكاسون ورجالُ الشرطة بين البُبار وتدافع الناس ، وتَلَمَّحُ تحت الأقواس العرية ، وفي السكّوات ، سيوفٌ وجرايبٌ ، فما حَدَّثَ غيرَ مرةٍ أن أسفر المجومُ المفاجئ على أحد تلك الأبواب عن تقرير مصير أسيرةٍ مالكةٍ بأشرها ، ويُسرُّ الشَّيَاحُ ، فهناك ظلُّ الشَّيَاحِ يَفْرَحون بتلك الدقائق القليلة التي يَقْضُونَهَا في رَحْمَى من النور بين تلك الحجارة العظيمة الحامية ، بين الآتين والمنتظرين ، بين نَبْزِ المَرْقِ والنسيم المحرق ، بين دَنَسِ الأبل ، والشَّيَاحِ يَشْعُرُونَ بِمِثْلِ بَهْجَةٍ كُلٌّ مَنْ يَجُوبُ الصحراء ، وذلك لما يَرَوْنَ أنفسهم مُحاطِينَ بِجُدُرٍ تَقِيهِمُ تلك الشمسُ اللعينة .

ويَلُوحُ كلُّ شيءٍ تحت قُبَّةٍ ، وتَبْدُو الطريقُ المؤدِّية إلى الباب ضيقةً كجميع طُرُقِ الشرق ، وتَسْقُفُ الشُّرُفَاتُ نَيْلاً لظِلِّ كاملٍ ، وتُمَدُّ البُسُطُ والنَّسُجُ بين صَفَةٍ وصَفَةٍ من المنازل فلا يَرَى القادمُ غيرَ الظلِّ بين الجُدُرِ كُنْ العالية ، غيرَ ضياءٍ بخاريٍّ قائمٍ مُتَمَيِّزٌ به السُّطُور ، وفي الغالب يَنْقَبِيزُ القادمُ ما يراه بما يَسُدُّو من صوتٍ وما يَنْقَبِيزُ من رائحةٍ

وَيَبْلُغُ الْفَارِسَ غَايَةَ رَحْلَتِهِ ، وَيَشْعُرُ بِنَشَاطٍ مُجَدَّدٍ ، وَيَوَدُّ أَنْ يُلْقَى نَظْرَةً عَلَى الْمَدِينَةِ مِنْ قُوْرِهِ مَعَ تَطَلُّعٍ مَمْلُوكِهِ إِلَى الْمَنْزِلِ الَّتِي يَكْمُلُ فِيهِ كَمَا يَرِيدُ ، وَيَحَاوِلُ غَلَامٌ أَنْ يَجْتَذِبَهُ بِصَوْتِهِ الْمَالِي إِلَى أَحَدِ الْفَنَاقِ ، وَمَا زَالَ مَجْهُولًا أَمْرُ الْقَهْوَةِ وَالتَّبْنِغِ الَّذِينَ هُمَا مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ لَدَى الشَّرْقِ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، وَالْحُرُّ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَيَجْلِسُ الْفَارِسُ عَلَى وِسَادَةٍ أَمَامَ الْبَابِ وَيَنْتَظِرُ صَابِرًا ، ثُمَّ يَأْتِيهِ غَلَامٌ نَاعَسٌ بِشَرَابٍ مِنْ عَسَلٍ أَوْ بِقَصَبٍ سَكِرٍ أَوْ بِشَامٍ أَوْ بِتَمْرٍ ، ثُمَّ يَخْفِضُ ثَلَاثَةَ سَقَاتَيْنِ حَامِلَيْنِ عَلَى أَكْتَافِهِمْ قَرِيبًا جَلْدِيَّةً تَرَشَّعُ مَاءً عَلَى ثِيَابِهِمِ الْبَالِيَةِ فَيَعْرِضُونَ عَلَيْهِ أَنْ يَقُومُوا بِوَجَابِ خِدْمَتِهِ ، وَيَذْنُونُ مِنْهُ أَنْاسٌ مُخْتَلِفُو الْمِرِّ ، فَيَمْدُدُّ أَحَدُهُمْ إِلَيْهِ ذِرَاعَهُ الْمُقْطُوعَةَ الْيَدِ ( لِاحْتِمَالِ كَوْنِهِ سَارِقًا أَقْبَمَ عَلَيْهِ الْحُلْدُ ) ، وَيُرِيهِ أَعْرَجٌ سَاقَهُ الْبَرَاءَةِ وَعَظْلَهُ مِنَ الرَّجْلِ ، وَيُرْتَلِّ الْجَمِيعُ بِصَوْتٍ أَغْنَى : « حَمْدًا لِمَنْ أَلْقَى الرَّحْمَةَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ ، تَصَدِّقُ عَلَيْنَا بِمَا يُمَسِّكُ رَمَقَنَا » ، وَيَطْرُدُهُمْ رَقِيقُ الْفُنْدُقِ إِلَى الشَّارِعِ صَارِخًا : « يَا أَوْلَادَ الْكَلْبِ ! يَا أَوْلَادَ الْمَرَاةِ ! » ، وَفِيَا يَنْقُزِلُ<sup>(١)</sup> الْأَعْرَجُ إِذْ يُلْقِطُ كِسْرَةً خَبِيزٍ يَابِسَةً ، وَيَضَعُهَا عَلَى جَبِينِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَهَا ، ثُمَّ يَنْتَحِلُ وَضْعَ وَلَى .

وَتَقْدَمُ طَبُولٌ وَمَزَامِيرُ مَوْكِيًا نَازِلًا مِنَ الْعَرِيقِ الضَّيْقَةِ ، وَيَتَظَاهَرُ الْجُمْهُورُ بِالسَّيْرِ مَعَ الْمَوْسِقِيِّينَ ، وَيَتَمَتَّرُ أَمَامَهُمْ صِبْيَانٌ لِلْقَسْوَلِ أَوْ لَوْفِ النَّظَرِ ، وَيَطْرُجُ النَّاسُ مِنْ حَوَائِثِهِمُ الْمَرْضَةَ لِكُلِّ رِيحٍ كَالْمُفْرِجُونَ مِنْ كُلِّ قَاعَةٍ لِيُشَاهِدُوا مَوْكِبَ الْعُرْسِ ، حَتَّى النِّسَاءُ يَنْظُرُنَ إِلَيْهِ مِنْ وَرَاءِ شَبَائِكِهِنَّ الْخَشِيئَةِ ، وَالنِّسَاءُ ، مَعَ أَنْهِنَّ يَلْمُنَنَّ ذِكْرَى زَوَاجِهِنَّ فِي الْغَالِبِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يِيَاوُرْنَهَا ، يَهْزُهُنَّ ذَلِكَ الْمَوْكِبُ ؛

(١) نَزَلَ: مَعَى مَشِيَةِ الْأَعْرَجِ .

## الأزهر

لِمَا يثيره منظر العروس من صورة ضحيّة ومن خيال حافل بالأسرار ، وإليك  
 جمعا يثقل طريقه بين تلك الجلوة والعروس ، إليك أناسا مع حصان مستأجر  
 يعود ولدين إلى الختان ، ويظهر الولدان على الحصان فينكب أحدُهما السرج  
 ويتشبث الآخر بأبيه خشيّة أن يذبحا ضحية أيضا ، ويلبسان ثياب بنت دفعا  
 للعين الشريرة ، وإن كان هذا التنكر من الأمور المروعة التي تميم على حقيقة  
 الجنس ، ويمشي مساعد الحلاق أمام الحصان المحاط بجمع من الأقرباء والأصدقاء ،  
 ويلبس مساعد الحلاق هذا ثوبا ملوّنًا ويمسك بيده صندوقا صغيرا محضرا مزينا  
 بمزايّا ، ويهز الحلاق اللابس ثوبا أيضا سيكينة ساخرا كأنه يحول مهنته إلى  
 مهزاة ، ثم يستمر مؤكب العرس على سبيله ، وتشعر العروس في هودجها المحمول  
 على جمل بغم كالذي يشعر به ذاك الصبيّان ، ومع ذلك تلتقي العروس نتجما  
 من صديقاتها ، ومع ذلك يهتف لها الحضور ، فيكتسب هذا المنظر صورة مأساة  
 ممروجة بهزل .

ويخلو الطريق ، ويثب القارس على حصان بعد راحة ، ويرى من خلال باحة  
 برجين عالين ، ويسأل فيقال له : إن ذلك هو « الأزهر » ، ويكثر للأمر كثيرا  
 ويقف أمام أقدم جامعة إسلامية سمع جميع الشرق حديثا عنها ، ولا يدلّ مظهرها  
 على أنها بالقوة من العمرار بمائة عام ، وذلك لأن بناءها جُدّد منذ سنة نتيجة  
 للحريق الكبير ، ويُعجب الفارس بارتفاع المآذن ويخلع ثيابه قبل أن يدخل الجامع  
 الأزهر ، وذلك في الزوايا التي يجلس فيه بعض الطلبة على كراسٍ قصيرة منتظرين  
 نوبة خلق رؤوسهم ، ويوسم كل ما يعلم في الأزهر ، من الفقه والبيان والفيزياء  
 والجبر والمروء ، يستعد الدين كما في تفسير القرآن الذي يشغل أمم قسم من التسليم .

ومن الفقراء أولئك الذين يسرون في الرواق الكبير حول المحوض ، وأولئك الذين يجلسون القُرُفَصَاء ويضطجعون ، وأولئك الذين يذُرُسُون ويثرثرون وينامون ، وأولئك الذين يُعْتَنُونَ بالأموال النُهنية فلا يبالون بعيش ولا بمستقبل ، وثُبُصَر عشرين أو أكثر منهم جالسين على حَصِير حَوْلَ أستاذهم مستندين إلى عمود ، ويُفَسِّر الأستاذ بصوتٍ تَمُطِّي آية من القرآن الذي يُفَتَّى بدراسته أكثر من العناية بالتوراة والإنجيل وكل كتاب آخر في العالم لما ينطوي عليه من مبادئ الحياة في الدنيا والآخرة ، وتُبْلَغُ الغاية في تلك الدراسة الخاصة بالقرآن وحده والتي تدوم عَشْرَ سنين في بعض الأحيان ، ومن يحفظ القرآن بأجمعه على ظهر القلب ويُقَدِّر على تفسيره يُؤَدِّن له في تعليمه ، أَجَلٌ ، يَقْضَى التلاميذ أياماً في البِطَالَة ، ولكنهم من الحاضرين ، والسلطان يُعَلِّمُ الأساتيد والتلاميذ ، ولا يُصَفِّقُ أحدٌ منهم . ويُسَمِعُ ضَجِيجٌ كبير في زاوية مظلمة من الرواق ، ويسْمَعُ الفارسُ شَتائمَ وأصواتٍ مضاربةٍ بالمِصْبَى ويُهْرَعُ الفارس إلى مكان الضوضاء فيرى رجالاً يقاتلون الهواء كالجهانين ، يرى تلاميذ من الثمانيان ، والعُمَيَّان لا يُبْصِرُونَ النور الخارجي ولا يَرَوْنَ غيرَ ما هو فيهم ، والثمانيان أسرعُ انفعالاً وأكثرُ تشاجراً من رفاقهم الثُبُصَرين لهذا السبب ، ويسْمَعُونَ صوت منادٍ ، فالشيخُ يَمُرُّ وَيَقِفُ تنازعهم ، ويتوجهون إلى الرواق مُتَمَسِّكين ، ويتوجهون على غير هدى كالخفافيش ، ويؤتى بهم إلى أستاذهم في نهاية الأمر ، ويمسكون يده ويقبلونها مرتجفين .



يمشى الفارس فى الأسواق المجاورة للأزهر، وسوق المكتبات هى أول ما يدخل،  
وينشأ جو ثقيل أعفر ننت عن تزامم الإنسان والحيوان والسلم فى هذه الطرُق  
الضيقة، وتحاك الجبال الراشحة قرعاً والحير الناهمة، ويظهر أن الناس والأشياء  
يمشان منذ قرون فى عالم واحد من الجود والقدارة، والحريق وحده هو الذى  
نظف كل شئ بهمه كل شئ، وذلك التاجر ينام على ماله كتين الأسطورة،  
وما يقدر عن وعاء نحاس أو نسج حرير من لمان أقوى من نظرة  
حراسها الشيب، ولا يكثر الفارس للمصاحف القديمة المكتوبة بالخط الكوفى،  
ومجذبه الأسلحة، ويتوسل إليه الباعة فيجلس على وسادة أمام حانوت صيق،  
وبروز قوساً مرصعة بزجاج<sup>(١)</sup> كبيرة، ويفكر فى قتل المفول أو الرافصات  
الجليات على ما يحتمل، ولا يرى أن يشتري، ويسير ماشياً تاركاً مملوكه يمسك  
الحصان يده، ويقدم تاجر إليه عمامة ويقبضها ليريه أنها أطول من رأسه  
سبع مرات وأنها تصلح كفن له ذات يوم إذا ما أراد الله، ويقف طبق كبير من  
عقيق نظرت الفارس الغرب أكثر مما تقدم، ويبدو هذا الطبق أنراً فنياً  
ذا تسعة عشر وجهاً فتلمح بجانبه مصابيح من بلور ومقايض أبواب من برونز،  
وفى هو أبعد من ذلك ترى صدراتاً مخططة من حرير ومعطف ذات خيوط  
من ذهب يخرجها البائع التعب من رزها كما يخرج الله الطائر المسحور الذى  
ذكرته القصة.

(١) الزباج : جمع الزبد ، وهو حجر كريم يشبه الزمرد ، أشهره الأخضر .

## المحوانات

وَيُسْمَعُ بِنْتَهُ صَوْتٌ مِنْ أَصْفَرِ الْحَوَانِثِ ، وَتَسْطَعُ مِنْ هَذَا الْحَوَانُوتِ الصَّغِيرِ رَاحَتُهُ عِطْرُ فَلَايَسَعَ الْقَارِسَ سَوَى دُخُولِهِ ، وَيَرْفَعُ سَاحِرُ الْمَطُورِ زُجَاجَةً وَأُخْرَى مِنْ رُقُوفٍ صَغِيرَةٍ شَابَ بَيْنَهَا ، وَيُحْسِكُهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْفَتَ ، وَيَجْتَذِبُ إِلَيْهِ يَدَ الْغَرِيبِ الْغَلِيظَةَ ، وَيَضَعُ صِحَامَةً عَلَى رَاحَتِهِ وَيَدْعُهُ بِسْمٍ ، وَهَذَا هُوَ شَذَا الْيَاسَمِينَ ، فَشَذَا التَّنْبَرِ وَالطَّيِّبِ ، قَرِيبًا<sup>(١)</sup> الْقَرَنُفُلُ ، ثُمَّ يُرِيهِ الْمَسَاحِقَ وَالْمُتَبَكِّرَاتِ مِنْ بَسْنَكٍ وَمُرٍّ<sup>(٢)</sup> وَلِبَانٍ ، وَيَنْقُلُ الْقَارِسَ بِخِيَالِهِ إِلَى أُمَةٍ تَنْتَظِرُهُ فِي مَنْزِلِهِ فَيَزِيدُهَا عِطْرًا مِنْ مَصْرِ الْبَهِيدَةِ فُتُونًا ، وَيُبْصِرُ الشَّائِبُ مَا يَدُورُ فِي خَلْدِ هَذَا الْمَحَارِبِ وَمَا يَنْتَوِرُهُ هَذَا السَّلْمُ الْحَقِيقُ مِنْ مَاضٍ بَعِيدٍ جَوْلَ لَيَالٍ عِلِمٍ فِيهَا أَنْ الْمَطُورِ تُولِدُ الْحَبَّ .

وَيَدَاوِمُ الْقَارِسُ عَلَى سَبْرِهِ فَيُبْصِرُ أَذْرَعًا مُتَمَرِّدَةً تَرْفَعُ آتِيَةً مُحَاسِيَةً لَامِعَةً مِنْ صُنْعٍ بَلْفَارِيَةٍ ، وَيُبْصِرُ حَرِيرًا مِنْ صُنْعٍ أَرْمِينِيَةٍ يُنْشَرِّبُ بَيْنَ يَدَيِ شَائِبٍ تَعَبٍ ، وَيُبْصِرُ نَسِيجًا مِنْ فَلَانْدِرٍ يُحْشِشُ بَيْنَ أَصَابِعِ غَلَامٍ أَيْضًا اللَّوْنُ جُلْبٌ فِي السَّفِينَةِ نَفْسِهَا عَلَى مَا يَحْتَمِلُ ، وَيُبْصِرُ خَلْفَ الزُّجَاجِ اللَّامِعِ الْوَاردِ مِنْ قَبْرِ امْرَأَةٍ مُرَقَّةٍ تَنْبَغُهُ بِمِثْلِهَا .

وَيَصِلُ الْقَارِسُ إِلَى الشَّارِعِ الرَّئِيسِ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ ، وَيَقَالُ بِصَوْتٍ عَالٍ :  
مَنْ يُرِيدُ مَا ؟ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ أُنْشِثَتْ عَيُونٌ عَنْ تَقْوَى وَتَوْبَةٍ ، وَذَلِكَ أَنْ مُحَمَّدًا سُئِلَ عَنْ خَيْرِ الْأَعْمَالِ فَقَالَ ابْنُ الصَّحْرَاءِ هَذَا بِتَوْزِيعِ الْمَاءِ بَيْنَ النَّاسِ .  
وَتَكَثَّرَ الْمَسَاجِدُ وَالْمَدَارِسُ فِي هَذَا الْحَيِّ ، وَبُقِعَ بَرْقُوقُ ، الَّذِي صَارَ سُلْطَانًا

(١) الرِّيحُ : الرَّاحَةُ الطَّيِّبَةُ — (٢) الْمُرَّ : الْمَرَّ : يَسِيلُ مِنْ شَجَرَةٍ فَيَجْعَدُ ، وَهُوَ طِيبُ الرَّاحَةِ

مِنْ الْعُطْمِ .

في ذلك الحين ، بناءً فيجعله ضريحاً له ، ويُقَصِّلُ برقوقاً أن يميت الآخرين في  
 الزمن الراهن ، وترى في بناء آخر ، أقامه السلطان قلاوون منذ قرن ، رِيتاجاً<sup>(١)</sup>  
 مصنوعاً من رُخام أسود وأبيض فيؤدى هذا الرِيتاج إلى قَبْرِ نعلوه قبة ذات  
 كتابات صدفة فيلمع هذه الكتابات في الظل كما تلمع أعمدة المِحراب الشَّاذِلِيَّة .  
 وتنتصب جُدُرُ القلمة فوق القارس الغرب في نهاية الأمر ، ويحاول القارس أن  
 يُنْذِرَ في السَّيْرِ فلم يَسْطِيعْ من شِدَّةِ الرُّخام ، وَتَقِفْهُ بناء مهم مرة أخرى ، ولم يحدث  
 أن رأى حجارة منقوشة ضَخْمَةً كالتى وَجَدَهَا فيه ، وهذا هو مسجد السلطان حسن  
 الذى نشأ عن قتله جلوسُ السلطان الحاضر على العرش ، ويبرزُ الجدار في السماء  
 الزرقاء مقسوماً إلى خمس عصابات صُفْرِ ضاربة إلى لون بنفسجى ، وتظهر أبواب  
 وأقواس مضاعفة وطاقات ثلاثية مزخرفة مصنوعة من مِلاط واقعة بين ورده  
 جميلة ، ويَتَعَبُ البصرُ بالمتدليات في الخارج ، ويَقْرُ البصرُ بها في الداخل ، وذلك  
 لأنك ترى في وسط ساحة واسعة مربعة مِطْلَعة بالرخام بركة كبيرة يَسِيلُ  
 أناسٌ كثيرون أرجلهم فيها ، وما عليه المصليات الجانبية من تناسق وما عليه  
 البناء من أبعاد واسعة فيلجئ السكينة في قلب المؤمن ، وما على الجُدُر من شرف  
 فيطمئن له الجندي ، وإذا ما رَفَعَ القارسُ بصره وأبصر الجدار عمودياً رأى أعلى  
 أبراج القاهرة ، وإذا ما خَفَضَ القارسُ بصره أبصرَ على طول الأقواس العربية  
 سلاسل حديدية تعلق للصايح بها تَصَوُّراً ليلاً في أول العيد ، ويدلُ الكرمى  
 الثابت من المنبر إلى الوراء على الروح التى توجَّه جميع ذلك ، كما تدلُّ عليها الآية  
 القرآنية البارزة بحروفها البيضاء حول أعلى جدار الساحة الأسمى ، ويتطارد

(١) الرتاج : الباب الضيق .

الْحَمَامُ تحت سماء الله حتى يَظْهَرُ هُورُوس ، حتى يَظْهَرُ الصقرُ الأَكْبَرُ ، قِطْرُدُ  
الْحَمَامُ جميعاً .

وَيَرْكَبُ الفارس حِصَانَهُ وَيَبْلُغُ باب القلعةِ المائلِ وَيَدْخُلُ منه ، وتُسندُ قِطْرَةُ  
الإسلام منذ قرونٍ إلى هذه الأسوار والأبراجِ التي ما فتئَ يُبَدِّلُهَا وَيُقَوِّمُهَا بين جيل  
وجيلٍ كما تَقْدَمُ فنُ الحِصَارِ ، وذلك لأنَّ تلالَ جيلِ المَقْعَمِ تُشْرِفُ على القلعةِ  
وتُهَدِّدُهَا ، وتُكْذِفُ<sup>(١)</sup> الخليل في الساحةِ وتَصْهِلُ ، ويُتَمِّسُ العبيدُ بِرُكْبِ الأُمراءِ  
المتكبرين اللابسينِ معاطفَ ملوَنَةً ، ويضربهم هؤلاء الأُمراءُ على ظهورهم بالسِّياطِ  
إذا لم يُبَدِّدُوا نشاطاً كافياً .

ويُهرَّعُ مئةٌ من الرجالِ نَحْطُ سُلْعَةٍ غريبةٍ عن الجبالِ تَسِيلُ قِطْرَةً قِطْرَةً من  
من رِزْمٍ كثيفةٍ ، ومنذ عهدِ الفاطميين تجلِبُ قافلةٌ في كلِّ يومٍ رِزْمًا مشتملةً على  
تَلْجٍ من لُبْنانٍ لكي يرتشفَ السلطانُ ورجالُ بلاطه أَشْرَبَةً باردةً في فصلِ  
الصيفِ بمصرَ ، وتلوم رِخْلَةُ القافلةِ في الصحراءِ بضمةِ أسابيعٍ . وَيُرِيدُ الله الحيوانَ  
والإنسانَ في أثناءِ هذا الحجِّ المَجِيبِ ، وَيَذْهَبُ صُراخُ العِزَّةِ في وجهِ السائقينِ  
أدراجَ الرياحِ ، ولا يَحُولُ ذَلِكَ دونَ ذَوْبانِ نصفِ الأحمالِ .

ويَقِفُ بجانب خيلِ أولئك وجِمالهم ، التي يحيطُ بها جنودُ عابسونَ وشُرَطُ  
راصدونَ ، بُرْدٌ من كُوشٍ ونوبيةٍ ، ومن غَزاةٍ والإسكندرنيةِ ، ومن بَمَلْبَكٍ  
وبيروتٍ وصيدا ، حاملونَ رسائلَ من وُلاةٍ وأصدقاءٍ وشبَّانٍ أعداءٍ ، ويَحْمُسُ  
في ساحةٍ مجاورةٍ أربعةُ مسلحينَ خِيمةً للأمير قائمةً على مِرْزَاقَيْنِ ، وتَبْدُو القاهرةُ  
للأمير من فُرْجَةٍ في الجدارِ الخَلْقِيِّ .

(١) أَكفَت الخيل : سمع لحوافرها صوت .



٣٨ - الماء على حفاف النيل



### منظر الأهرام

وأخيراً يشاهد القارسُ القريبُ هذا المنظرَ الذي امتدحه له كثيرٌ من الحارين والحجاج والقاصِّين ، وتسيطر الأبراج والقِيَاب على العاصمة على مَدَى البصر ، فن الأسفل يرتفع نحو القارس طنينٌ لا يَنْقُطُ ، ترتفع إليه أصواتٌ وصَرَخَاتٌ مختلطة من كلِّ نوع ، وفي الشرق وراءه تَبْعُ الصحراء وصخرها ، وفي الغرب ، وعلى ضوء الشمس ، يظهر له وادٍ أخضرٌ على ضفاف النهر العريض الذي يَجْرِي إلى الشمال فتحيط أضواجه<sup>(١)</sup> بمجزرتين طويلتين ضيقتين ، ويُطْغِي النهر مِثَالاً من الزوارق تنتفخ أشراعها بنسيم قويٍّ بعض القوة ، ويرى القارسُ النيلَ يَرْضِيهِ المكامل للمرة الأولى ، وَيَقْلُو إلى السماء ذات اللون البنفسجيِّ عددٌ من الخيام الحجرية العظيمة على حَدِّ الأراضى المزروعة ، تملأ أهرامُ الجيزة ، وتملأ أهرامُ سقارة من بعيد ، فتَحْدُ هذه الأهرامُ صَوِي<sup>(٢)</sup> للتاريخ يَتَمَذَّر زوالها .

ويجب على القارس أن يَمُرَّ من حَتْمٍ زاخِرٍ بالسكان حتى يَجِدَ منزل صاحبه ، وذلك لأنَّ بعض الأغنياء والفقراء يَسْكُنُ قريباً من بعضٍ في تلك العاصمة ، ويرى القارس أكواماً مَبْنِيَّةً من الأجر المَجْفَفِ في الهواء أكثر من أن يرى بيوتاً ، ويرى القارسُ أمام بابِ امرأةٍ سافرةٍ لابسةً ثوباً أزرق جالسةً الترفُّفة ، وترتفع البُرْفُوعُ على وجهها بهركةٍ مثديةٍ رمزيةٍ عند ما يَنْظُرُ القارسُ إليها ، ويَهْجُو لأولادها طمامَ السماء للؤلؤ من بَيْضِهِ وَجَيْنِ وَلْبِنِ وأُرْدَ ، ويَسْمُ الرجل راحةَ البصلِ المَقْلِيَّ على مَوْقِدٍ يَشْقُلُ طولَ الترفة الوحيدة ، والرجلُ في فصل

(١) الأضواء : جمع الضو : وهو منطفئ الوادي .

(٢) الصوى : جمع الصوة ، وهي حجر يكون دليلاً في الطريق .

الشتاء ينال في منزله هو وزوجُه على اللوقد الساخن بخي<sup>(١)</sup> البقر ، مع أن أولادها ينالون على حصير فوق الأرض .

ثم يَبْلُغُ منزلُ صاحبه ، ومنزلُ صاحبه هذا مُزَلَّجٌ<sup>(٢)</sup> كجميع بيوت الأغنياء ، كبيوت وطنه دمشق وكيوت العالم الإسلامي ، وهل هذا هو لحفظ سلامته ؟ لا يستطيع المالك أن يدفع هجوماً عن نفسه ، ويكفي قُلَّ مُحْكَمٍ للوقاية من اللصوص ، وليوت المسلمين هيئةُ اللصوص بسبب النساء اللاتي لا يخرجن إلا نادراً ، والنساء يُسَيِّطِرْنَ على الحياة بأمرها مع عطلهن من الحقوق ، ويحيط الرجلُ منزله بسيار من الخدَر ، فتُحجَّبُ أفواه النساء وأذاهن ، وهن لا يتصلن بالعالم إلا بعيونهن ، ومن المحتمل أن تكون هذه الماداة قد عاقت تقدم الإسلام الذي هو أكثر الأديان رجولةً ، ومن المحتمل أن يكون هوان المرأة قد أقداه العالم بيد أن كان قبضته .

ويُوقِفُ وقوف الخليل فبجأة بواب المنزل النائم على الأرض ، ويرتجف البواب ، ويُسمَعُ صوتٌ ، ويصير الباب ، ويظهر حارس آخر حاملٌ رحماً ، ويبيت ويتحذر ، ويهزج ويُغنى بالليل ، وينزل الخائل<sup>(٣)</sup> من الدَرَجِ وقوراً ويسلم على الغريب ماساً الأرض بيده وفؤاده وجبينه ، وتصير النوافذ ، وتسمع النساء وجود غريب هنالك ، ومن النساء امرأتان كاتتا جالستين في الساحة بالقرب من البركة فتصعدان من بابٍ سرّيٍّ إلى دائرة الحريم التي تكون في الطبقة الأولى ، ولا تُسرِعُ النساء مادام تحجاز<sup>(٤)</sup> البيت ملتويًا فلا يستطيع أحد أن يرى

(١) خي البقر : ما يرميه من جلته — (٢) المزجج : اللؤلؤ بالزجاج ، وهو ما يلقوه الباب .

(٣) الخائل : راعي المال ومصلحه — (٤) الحجاز : الطريق والمسلح .



## رب المنزل

ما في الساحة من الباب ، ولا يَحِقُّ للنساء أن يُبصرن ، ولا يَجُوز أن يُبصرن ، حتى إن المِزَن الذي يَدْعُو المؤمنين إلى الصلاة خمس مرات في كلِّ يوم يكون من الغُبان على قَدَر الإمكان ، وذلك لكيلا يرى من فوق المِزنة امرأةً في ساحة بيتِ مُسلمٍ غَفَى .

ويَدْخُل نورٌ ضئيلٌ من نوافذِ شَبَكِيَّةٍ إلى رِداءِ الرجال في الأسفل ، وهذه النوافذُ مقسومةٌ إلى مئاتٍ من المُرَبَّعات الفُسْفَيْسائية أو الخشبية المحفورة على العموم ما دامت مُعرَّضةً للحرِّ ، ونصفُ الرِّدْهة مرتفعٌ ، ومُحيط بها من الداخل مُكَاتٌ مُطَافَةٌ بِفُرُشٍ ووسائدٍ ونساجٍ ثينة ، وبُسُوفٍ كُلِّ شَيْءٍ ، وذلك لنهوض الرجال حتى يَحْمِلُوا القادمَ ، وَيَتَقَدَّم ربُّ المنزل بوَدٍّ وبوقارٍ لا يَرى مثله في غير الشرق .

ويَبْدُو ربُّ المنزل لابساً قيصاً أبيضَ مُتَدَلِّياً على سِرْواله ولا بساً صُدْرَةً بلا كُمٍ وجِلْبَاباً حريريّاً مُخَطَّطاً ذاكُمَيْن ساترين ليد ، وحِذاءً حادَّ الطرف مصنوعاً من جلديِّ مراكشيٍّ أحمر ، وعِمْرَةٌ قصيرة على الرأس ، وَيَقِفُ أمامَ صديقه الفارس لِحْيَانِيّاً ضاحكاً على حين يَخْلَعُ الخَدَمُ ثَقْلَى المسافر وَيُسْفِغُونَهُ بالماء ، ولن يسأله عن مآثاه ومآبه هما كَلَفَهُ ذلك ، وكلُّ ما في الأمر أنه يَرِيه هديةً كان الآخر قد أتاه بها ، ويبلغُ احترامَ حرية الفرد وحياةِ التَّريب درجةً لا يَحَاوِلُ شخصٌ أن يسألَ معها صديقاً له عن أصله وقُصْته وماضيه وأهدافه ، ومع ذلك يَرْتَقِبُ كُلُّ منهما الآخرَ عند تَذَوُّقِ شِرابٍ فيلاحظُ كلُّ حركةٍ وأقلَّ نظرةً إلى الرقيق وإلى الباب ، ويَدْرُسُ كلُّ منهما وضعَ الآخر وثروته وسلامته من غير أن يَنْبَسِ بكلمةٍ خلاها هو خاصُّ ببيدِ النقد .

وَيَسُودُ هَمْسٌ وَثَرَّةٌ فِي الطَّبَقَةِ الْعُلْوِيَّةِ ، فَالنِّسَاءُ يَمِشْنَ وَيَأْكُلْنَ مَعًا ، وَيَتَمَنَّوْنَ فِي الرَّدَّةِ الْكَبِيرَةِ عَادَةً ، شَأْنُ بَنَاتِ بِلَادِنَا فِي الْمَدَارِسِ الدَّاخِلِيَّةِ سَابِقًا ، وَالنِّسَاءُ هُنَاكَ يَجَازِغُ مَبَاطِينُ مَغَايِيرَ مَنَّا كَيْدُ ، وَالنِّسَاءُ هُنَاكَ شَيْقَاتُ كَثِيرَاتُ الاستطلاع ، وَلَا يَزِيدُ عِدَدَهُنَّ هُنَاكَ عَلَى أَرْبَعٍ وَفَقًا لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ ، وَلَيْسَتْ الْإِمَاءُ مِنْ هَذَا الْعَدَدِ ، وَالْإِمَاءُ مِثْلُ نَفُوضِ رَبَّاتِ الْبَيْتِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، وَتَنْشَابُهُ النِّسَاءُ فِي دَوَائِرِ الْحَرِيمِ ، فَهُنَّ ذَوَاتُ وَجُوهٍ مَمْتَلِئَةٍ بِحَاطَةِ بُخَصَلٍ قَصِيرَةٍ ، وَهُنَّ ذَوَاتُ بَشَرَةٍ بَيضاءَ بَعْدَ مِنَ الشَّمْسِ ، وَهُنَّ ذَوَاتُ حَوَاجِبٍ مَقُولَةٍ عَمْدًا ، وَيَلْبَسْنَ سَرَائِلَ حَرِيرِيَّةٍ وَاسِعَةٍ مُسْتَقَرَّةٌ تَحْتَ الرُّكْبَةِ ، وَتُظَهِّرُ صُدُورَهُنَّ شَيْئًا عَارِيَّةً ، وَيُبْدِينَ عَنَاءَةً كَبِيرَةً بِأُظْفَارِهِنَّ وَأَصَابِعِهِنَّ ، وَيُتَخَذْنَ مِنْذُ قُرُونٍ لُغَمًا مُعَدَّةً لِلْفَرَامِ ، وَيَسْرُهُنَّ حَوَكُ الْمَكَايِدِ كَجَمِيعِ الْأَسَارَى ، وَيُوهِنُهُنَّ الْإِصْطِفَاءُ ، فَإِذَا بَلَغْنَ الْعَشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِنَّ أَخَذْنَ فِي التَّهْوِيلِ كَمَا يَرَى الْعَارِفُونَ .

وَلَا دَوَامَ لِاتِّحَادٍ فِي تِلْكَ الْبَيْتَةِ ، وَلَوْ اقْتَصَرَ الرَّجُلُ عَلَى زَوْجَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَإِذَا أَنْ حَيَاةَ الْمَرْأَةِ لَا تَنْتَهِي فِي الْعَشْرِينَ مِنْ عُمْرِهَا فَإِنَّ الْحَقْدَ وَالْإِنْتِقَامَ وَالْإِزْدِرَاءَ وَالْعَيْدَ أُمُورٌ يُبْلَى بِتِلْكَ الْبُيُوتِ الْمُتَفَلِّقَةِ ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ هَذِهِ الْبُيُوتَ لَيْسَتْ مَنَازِلَ مَسْرَّةٍ ، وَفِي هَذِهِ الْمَنَازِلِ يُوَلَّدُ الْأَوْلَادُ وَيُرَبُّونَ ، وَفِي هَذِهِ الْمَنَازِلِ لَا حَدَّ لِسُلْطَانِ الزَّوْجِ ، فَإِذَا مَا قَالَ لِزَوْجَتِهِ « أَنْتِ طَالِقٌ » ، وَأَعَادَهَا ثُلُثَ مَهْرِهَا كَانَ عَمَلًا بِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ كَكُلِّ مُسْلِمٍ تَقِيٍّ ، وَهِيَ لَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ فَإِنَّهُ يَحْزُمُ عَلَيْهِ أَنْ يَقْدِفَ زَوْجَهُ ، وَهُوَ إِذَا مَا اتَّهَمَ امْرَأَةً بِرَيْثَةٍ بِالزَّنا ، وَلَوْ كَانَتْ زَوْجَهُ ، عُدَّ مُقَرَّفًا لِإِحْدَى الْكَبَائِرِ السَّيِّئَةِ الَّتِي لَيْسَ الْبَيْقَاءُ مِنْهَا .

وهكذا تُفْرَلُ خِيُوطُ الشَّرَفِ وَالزَّوْءِ هُنَاكَ ، وَتَرَى حَيَاةَ الْبَدَنِ هِيَ الَّتِي

يُهْدَف إليها في تلك البيوت للرَّحْمَةِ<sup>(١)</sup> جيداً حيث يَفُكُّ القَرَامُ الحِشْيُ جميع  
الفرانز من عَمَّالها ، وحيث يُخَلِّمُ بضروب المغامرات ، وحيث تَبْنُثُ النساء  
بلا انقطاع في الجزئيات الجئانية عن خُبثِ سادَج ، أى في ذلك العالم المُقَلِّ حيث  
يَزِيد ما يَسُودُه من نصيرٍ على ما يَسُودُ الدُّورَ العامَّة ، فيُحَافِظُ على تلك الحيازة  
البدنية وَيُدَافِع عنها بالإيمان ، وبالحسام .

### ١٣

نُضَاءُ جزيرة الروضة والضفاف والنهر في الليلة القادمة فيَحْتَفِلُ جميعُ الناس  
بوفاء النيل ، ويأمرُ السلطانُ النيلَ في القدِّ بمجازة السدِّ الأخير ، واحتفِلَ  
بـ « ليلة النقطة » في ١٧ من يونيه ، أى قبل شهرين ، وذلك لأن دموعَ إيزيس ،  
حين تبكى زوجها ، تجملُ النهرَ زائحاً ، وذلك هو اليومُ الذي يَرْتَفِعُ الطُّرُقُ فيه  
مستوى النيل الأزرق على بُعْدِ مئاتِ الأميال كما تدلُّ عليه مباحث علماء الجغرافية  
قديمًا وحديثاً ، وفي كلِّ أسبوعٍ من زمن الفيضان يُبَشِّرُ منادى النيل ، مع جَوْقَةٍ من  
الصَّيَّان ، سَكَانَ العاصمة بارتفاع النهر ، وفي هذا الصباح يُنْبِئُ للنادي بأن الارتفاع  
بَلَغَ ستَّ عشرة ذراعاً ، وهل هذا صحيح ؟ وهل هذه هى ذريعة أميرية تلجأ  
إليها الحكومة لتزيد الضرائب ؟ لا ضَيْرَ ، ما دام الجميع راضياً حين يَسْمَعُ يُنْشِدُ  
هو وجَوْقَتُهُ قاتلاً : « الله أكبر ، الله بَثَّ النيل من اللوت إلى الحياة ، الله لطف  
بأبلياننا ، قضاة القنوات ، حَمْدًا لمن أنعم على مصرَ بالنهر الجارى ، افرحوا يا مؤمنين !

(١) أرتج الباب : أغلقه إغلاقاً وثيقاً .

## عيد وفاء النيل

سِتْ عَشْرَةَ ذِرَاعًا ۖ اللَّهُ يَسْتَقِي الْأَطْيَانَ الْعَالِيَةَ (١) .

وَيُحْتَقَلُّ بُوْءَاءُ النَّيْلِ مِنْذُ أَلُوفِ السِّنِينَ ، وَيَخْضَعُ جَمِيعُ الْقَائِمِينَ لِهَذِهِ الْمَادَةِ الْقُرْعُونِيَّةِ ، وَلَكِنْ هَذَا الْإِحْتِفَالُ لَمْ يَكُنْ مُضِجًا فِي زَمَنِ كَأَنِّي فِي عَهْدِ الْعَرَبِ .

وَيُؤَلَّفُ بَاعَةُ الْبَطِيخِ صَفًّا طَوِيلًا فَيَسْقُونَ لَأَنفُسِهِمْ طَرِيقًا بَيْنَ الْجُمْهُورِ ، وَيَجْمَلُونَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ هَذِهِ الْقَاكِمَةَ الْقَذِرَةَ الْمُسْتَوْرَةَ بِالدُّثَابِ ، وَلَا يَكْتَفُونَ بِالْبَانِقِ الَّذِي يُدْفَعُ إِلَيْهِمْ عَلَى الْعُصْبِ ، وَإِذَا مَا دَفِعَ إِلَيْهِمْ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ قَالُوا بِصَوْتٍ عَالٍ إِنَّ الْقَوْدَ زَائِمَةٌ ، وَيَتَجَسَّعُ النَّاسُ وَنُكَالُ التَّهْمِ ، وَيَكْثُرُ الْفَقْطُ ثُمَّ يَنْتَهِي الْأَمْرُ بِالضَّحِكِ ، وَيَتِمَّدُ أَحَدُ الْحَاضِرِينَ عَنِ الْجُمْهُورِ أَعْرَاجٌ ، فَهُوَ الَّذِي قَدْ رُمِضَ ، وَإِلَيْكَ مَنْظَرًا غَيْرَ مُتَقَطَّرٍ ، وَإِلَيْكَ صَبِيحَانًا يَنْزِعُونَ عِمَامَةَ شَيْخٍ سَاطِرٍ عَلَى حِمَارِهِ ، فَيَقُولُ الْجُمْهُورُ ضَاحِكًا : « الْقَطُّوْا تَاجَ الْإِسْلَامِ ! » ، وَيَهْتَلِلُ وَجْهُ النَّبِيِّ الْمُسْنَنِ ذَاتَ حَيْنٍ ، فَالْيَوْمَ يَوْمُ الْإِحْتِفَالِ بِوَفَاءِ النَّيْلِ ، وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَذَرَعَ فِيهِ بِالصَّبْرِ

وَيُحِيطُ جُمْهُورٌ قَرِيبٌ بِمَارَيْنَيْنِ مُتَارِزَيْنِ بِمَصَوْنَيْنِ كَبِيرَيْنِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّاسَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ يَوَدُّونَ أَنْ يَرَوْا عَادَاتِهِمْ مَوْضِعَ هُزُوٍّ ، يَدَّ أَنْ الضَّحِكُ لَمْ يَدُمْ ، فَلَمْ يَلْبَثْ النَّاسُ أَنْ تَحْمَمُوا صَوْتًا حَادًّا ، فَحَدِّقُوا إِلَى درويشٍ غَيْرِ هَازِلٍ ، فَقَدْ بَقِرَ هَذَا الدَّرْوِيْشُ بَطْنَهُ بِسِكِّينٍ وَأَخْرَجَ مِنْهُ أَمْعَاءَهُ ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَيْهِ كَمَا يَمِيدُ الْمَلَّاحُ إِلَى قَفْرِ الزُّورِقِ حَبْلًا مَقْلُوبًا ، وَيُثِيرُ النَّظْرَ فَضُولَ الْحَاضِرِ وَدُغْرَمَ قَتَرْمُونٍ إِلَيْهِ فَقَوْلًا نَحَاسَةً ، وَيَكُونُ أَحَدُ الْحَاضِرِينَ مِنَ الْوَقَاحَةِ مَا يَحَاوِلُ مَعَهُ إِزْلَاقَ دَانِيٍّ فِي الْبَطْنِ الْمُفْتَوَحِ .

(١) لم نوفق للاطلاع على النشيد البلدي الأصل ، ولم يذكر المؤلف المصدر فترجناه .

### فرقة موسيقية

والآن يأتي دَوْرُ جمع ذي بال ، ولا يُجَزَعُ هذا الجمعُ من رائحة الجمهور مرة واحدة في العام ، ويتقدم الجمعُ فرسانٌ لابسون مغافرَ ، ثم يأتي خِصِيٌّ لابسٌ مِعْطَافاً أحمرَ واسعاً وواضحاً على رأسه عِمامةٌ بالغةٌ من رِكبِرِ الحجم ما لا تلائم معه وجهه المتورّم ، ثم يأتي نِسْوَةٌ مبرقعاتٌ مستطلمات رَاكِبَاتٌ حُصَنًا ذاتَ سروجٍ مستورةٍ بأغطيةٍ مخشّوةٍ فيظهرنَ كأنهنَّ جالساتٌ على مُشْكَا ، ثم يأتي خَلْفُهُن عبيدٌ يحملون الأولاد على أكتافهم ، ويَبْدُو بجانبهن أزواجهن مُمْتَطِينَ جيداً مع إبعادٍ سيقانٍ ورُكْبٍ إظهاراً لزهوهم ، وتُحْجَبُ صَدِيئةٌ ظريفةٌ نصفُ عاريةٍ وجهها القَدِرُ بطرفِ ثوبٍ اقتداءً بحُسنِ النساءِ ، ويتوسَّلُ إليهنَّ على غيرِ جدوى مُتَسَوِّلون صِغارٌ لابسون أسماً ، ويستنشق هؤلاء السائلون رائحتهن فينقلب إلى مهزاةٍ سواه استمالهن المسك والرزاد ، ويتبعهن فريقٌ من الفقراء المنيّ محيطةً بلمرٍّ أحمرٍ يَحْيِلُهُ أحدهم طالباً للصدقة بأصواتٍ غِنٍ .

وتَسْلُكُ الشارعَ صُعُلاً فرقةٌ موسيقيةٌ رَاكِبَةٌ حيراءَ بَطَرَةٍ فيكون لَزْمُها صوتٌ كبير ، وتتقدم هذه الفرقةُ الحرسَ ، وذلك لأن المالك في ذلك اليوم أيضاً يقومون بعملهم جادّين فيوجبُ وَقْعُ حوافر خيلهم قليلَ ارتعاشٍ لدى أولئك الطيريين ، ويمدّون نحو السدِّ ما بين المئتين والمئتين من الفرسان ، ويلبسون هؤلاء الفرسان برانسٍ مقتبسةً من الصليبيين ، وتَصِلُ سراويلهم المنفتحة إلى أخصرتهم تقريباً ، وتُزَيْنُ ثلاثةٌ خناجرٍ مختلفة زُناجِرُ كلٍّ واحدٍ منهم ، ويكنسُ سيفٌ كبيرٌ خاصةً كلٍّ واحدةٍ من مطاياهم .

وكان بضعُ مئاتٍ من السيد قد أنشأوا في شهر يونيه في المكان الذي يَقْطَعُ فيه القناة الكبرى ، « أي الخليج » ، جسرَ حجريٍّ على بعد مئةٍ مترٍ من منفذِها

إلى النيل ، وبالقرب من الجزيرة الكبرى ، سداً تراثياً أضيق في أعلاه مما في أدناه مسيطراً بستة أمتار على المياه الدنيا ومسيطراً بأربعة أمتار أو خمسة أمتار على مستوى القناة ، واليوم تبلغ الزيادة مستوى السد ، واليوم هو يوم تقبّه ، وكان قد رُفِع بين السد والبحر ركامٌ من تراب على شكلٍ مخروطي ، وهذا هو عروس النيل ، وهذا يذكرنا بالظراء التي كان يُضَحَّى بها في القرون القديمة . وقد جرّفه الفيضان منذ نحو عشرة أيام .

ويقترب الفجر ، ويأمرُ أميرُ حرس الممالك بإعداد مَنَعِ السد ، وتكتمل الدُفْعاء ، وتجرى مع التهرماتُ الزوارقُ المُضَاءة بِمصابيح رُجائية مُلَوّنة ، وذلك بين الهتافات والأناشيد والمناجات الغرامية ، وذلك لأن صَوْلَةَ النيل على الأراضي التي يُحِبُّهَا يُشِيرُ لدى الرجال والنساء خيالَ الأعراس فيجمل هؤلاء من تلك الليلة ليلة أعراس

ويُجَلِّبُ حَفَّارُونَ لثَقِبِ السد ولكي يمارسَ التهرُّ حقوقَ السيد رمّماً ، ويساعد على ذلك مئات الرجال ، ويرزق هؤلاء التراب وينقلونه بقُفَفٍ يُفْرِغُوهُ على الضفة ، ويتسامل ألوفُ الناس في الليلة الحارة الفائرة ويتأزحون ويتحاضون بين ضِفَّةٍ وضِفَّةٍ وجزيرة وجزيرة ، ومن هؤلاء مَنْ يَقْدِفُونَ بأنفسهم في النيل كالجانين ليُخْرِجُوا منه مفلسين ، ومن هؤلاء من يَرْمُونَ في النيل فِطْعَ نَمُودٍ ، فيحاول صبيانٌ من البُهْل أن يلتقطوها بصنابير ، وتهتزُّ الزوارق وتقلب ويقلُّو الصراخ فيقطعوا على صوت الموسيقى في المراكب حيث تقوم راقصات برقصه البطن ، ويشاهدن رجالٌ جالسون القُرُفَصاء في القوارب فيجسجون شيئاً فشيئاً ، وترتفع صواريخ إلى السماء ، وتمتدح ساحرات نصف عاريات خواصاً أشربتهن



٢١ - عود قلیج





القُوَّة لِلبَّاه ، وتقتطف كلابٌ قَطَعَ لَحْمَهُ مَوْضُوعَةً عَلَى أَوْضَامٍ<sup>(١)</sup> ثُمَّ تَمُوتُ  
تَحْتَ السَّيَّاطِ ، وَيُمَسِّكُ لَصُوصٌ وَيَضْرِبُونَ ، وَتَمُرُّ مَوَاكِبٌ مِنْ دِرَاوِيَشٍ مُجَذَّبِينَ  
وَيَرْفُصُ هَؤُلَاءِ وَيَذْخُلُونَ أَظْفَرَ إِلَى صُدُورِهِمْ وَيَضَعُونَ نَارًا تَحْتَ آهَالِهِمْ أَوْ قَطْعًا  
مِنْ رُجَالٍ تَحْتَ أَلْسِنَتِهِمْ ، وَيُوضَعُ مَشْعُونُونَ فِي أَكْيَاسٍ وَيُقَذَّفُونَ فِي النَّهْرِ كَمَا لَوْ كَانُوا  
يَوَدُّونَ أَنْ يَفْرَقُوا فِيهِ ، وَيَرْعَقُ هَؤُلَاءِ النَّاسَ الْمُرْتَجِفُونَ وَيَمْرُقُونَ حَتَّى يَلُوحَ فِي  
السَّمَاءِ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّرْقِ ، خَلْفَ أَرْبَاعِ الْقَلْعَةِ ، ضِيَاءٌ ضَيْلٌ ضَارِبٌ إِلَى خُضْرَةِ ،  
وَلَا يَلْبَثُ هَذَا اللَّوْنُ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى صَفْرَةٍ فَإِلَى زُرْقَةٍ شَاحِبَةٍ .

وَفِيَا تَرْتَقِعُ الشَّمْسُ فِي الْأَفْقِ إِذْ تُبْعِثُ أُلُوفُ النَّاسِ يُهْرَعُونَ نَحْوَ السَّدِّ  
حَيْثُ يَدْعُو اللَّهَ مِثْلَ رَاقِصٍ مُتَفَخِّحٍ التَّوْبِ عَنْ ذُورَانِ ، وَيُرَدِّدُ الْجُمْهُورُ دَعَاءَ هَؤُلَاءِ  
وَيَضْرَعُ إِلَى اللَّهِ التَّيْلَ الَّذِي أَنْفَمَ عَلَيْهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالَّذِي رَفَعَ الْمَاءَ وَخَلَقَ النَّيْلَ  
الَّذِي هُوَ أَصْلُ كُلِّ سَعَادَةٍ .

وَكَانَ قَدْ نَصِبَ سَرَادِقُ قَهْمٍ مُصْنُوعٍ مِنْ حَرِيرٍ ، وَيَشُقُّ الْمَالِكُ بُمَزَارِيهِمْ  
طَرِيقًا وَاسِعَةً تُوَصِّلُ إِلَيْهِ ، فَقَدْ وَصَلَ السُّلْطَانُ بِنَفْسِهِ .

يَأْتِي السُّلْطَانُ وَحَاشِيَتُهُ مِنْ مَسْجِدِ جَزِيرَةِ الرُّوضَةِ حَيْثُ احْتَفَى بِمِقْيَاسِ النَّيْلِ ،  
حَيْثُ احْتَفَى بِذَلِكَ الْقُمُودِ الرَّخَاوِيِّ الْمُتَمَنَّيِ الزَّوَايَا وَالَّذِي مَا قَبِيَ مِنْذُ عَهْدِ الْقَرَاعِنَةِ  
يُخْبِرُ بِمَا فِي زِيَادَةِ الْمِيَاهِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، وَيَقُومُ مَدِيرُ النَّيْلِ وَالْجُدَاوِلِ فِي الْمَاءِ عَلَى  
الرَّغْمِ مِنْ ثِيَابِهِ الْحَرِيرِيَةِ الثَّمِينَةِ ، وَيَمْسَحُ ذَلِكَ السُّودَ الْقُدْسَ بِيَدِهِ الْيَسْرَى بِمَزْجِجٍ  
مِنْ الزُّعْفَرَانِ وَالطَّيِّبِ الْمَحْلُولِ بِمَاءِ الْوَرْدِ يَصُبُّهُ عَلَى يَدِهِ تِلْكَ مِنْ إِبْرَاقٍ فُضِيَّةٍ ،  
وَذَلِكَ مَعَ بَقَائِهِ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ خَوْفًا مِنَ الْفَرَقِ ، وَيَشَاهِدُ السُّلْطَانُ ، وَطِبَّانَتُهُ مِنْ

(١) الْأَوْضَامُ : جَمْعُ الْوَضْمِ ، وَهُوَ خَشِيبَةُ الْجَزَارِ الَّتِي يَطْلَعُ عَلَيْهَا الْحَمَمُ .

### الموكب الرسمى

حَوْلِهِ ، ذلك المنظرُ من علٍ ، وَيَرْقُبُ السُّلْطَانُ اقْتِرَابَ أَنَاسٍ مَوْثُوقٍ بِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْمَقْيَاسِ لِيُحَقِّقُوا ارْتِفَاعَ النَّيْلِ تَحْقِيقًا صَحِيحًا .

وَيَصِلُ الْمَوْكِبُ الرَّسْمِيُّ إِلَى الشَّرَاقِ ، وَيَلْبَقِي الشَّمْسَ الْجَدِيدَةَ سَيْلٌ مِنَ الْأَلْوَانِ ، وَيَسْطَعُ مِنْ مِثَةِ ثَوْبٍ ثَمِينٍ وَمِنْ مَقَابِضِ سَيْوْفٍ مُرْصَعَةٍ كَمَعَانٍ مَا فِي الْقَصْرِ السُّلْطَانِيِّ مِنْ سَنَاءٍ يُعْرَضُ فِي الْأَوْقَاتِ الْأُخْرَى تَحْتَ ظِلِّ الْقُصُورِ الْمُتَمَلِّقَةِ ، وَيُتَرَفُّ السُّلْطَانُ بِجَوَادِهِ الْمُطَهَّمِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي لِأَمِيرٍ أَنْ يُبَارِيَهُ بِمِثْلِهِ كَمَا يُعَرَفُ بِوَقُوفِهِ فِي الْوَسْطِ لِأَسَاءَةِ الْعَامَةِ النَّبِيَّةِ الْخَضِرَاءِ ، وَيُؤْمِنُ السُّلْطَانُ ، وَيَسْكُتُ الْجُمْهُورُ ، وَيَتَلَوُّ الْوَزِيرُ مَنْشُورًا يُحَمِّدُ السُّلْطَانَ فِيهِ اللَّهُ عَلَى آلَاتِهِ ، وَيَشْكُرُ فِيهِ لِلنَّيْلِ فِضَاءَهُ ، وَيَتَهَلُّ فِيهِ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَمُنَّ عَلَى مَصَرٍ بِالْبَرَكَةِ ، وَيَرْفَعُ مِثَاتُ الْعَبِيدِ الَّذِينَ أَنْشَأُوا السَّدَّ قَهْدَهُمْ مَعَ الْحَفَّارِينَ أَيْدِيَهُمْ نَحْوَ مَعْبُودِهِمُ السُّلْطَانِ نَاطِرِينَ إِلَيْهِ .

وَيُقَدِّمُ إِلَيْهِ بِحُجْرَةٍ ، وَيَقْدِفُ بِهَا فِي فُرْجَةِ السَّدِّ ، وَيَصِلُ قَارِبٌ ، بَعْدَ انْتِظَارٍ بِجَانِبِ الْقَنَاةِ ، إِلَى وَسْطِ السَّدِّ الَّذِي لَا يَزَالُ قَائِمًا فِي الظَّاهِرِ ، مَا دَامَ الْمَاءُ قَدْ وَجَدَ طَرِيقَهُ مِنْذُ زَمَنِ ، وَتَعْمَلُ الْحَادِيفُ فِي ذَلِكَ الْقِسْمِ الضَّيِيقِ مِنَ السَّدِّ وَتَشُقُّ لِلْقَارِبِ سَبِيلًا مِنْهُ عَلَى حِينٍ يَهْدُدُ شَلَالٌ صَغِيرٌ بِإِغْرَاقِ الْقَارِبِ فَيُسْرِعُ إِلَى الضَّفَةِ الْجَدِيدَةِ إِنْقَاذًا لِنَفْسِهِ .

وَيَخْرُجُ مِثَاتُ الْأُلُوفِ مِنْ أَصْوَاتِ الْفَرَسِ إِنْظَارًا لِاقْتِحَامِ الْمَخْرَجِ ، وَتَشْتَمِلُ حَزْمٌ مِنَ الصَّوَارِيخِ فِي السَّمَاءِ الزَّرْقَاءِ ، وَتُصَيِّمُ الْأَصْوَاتُ وَلَا تَبْهَرُ أَحَدًا ، وَتَنْتَهِي الْبَلِيَّةُ الطَّائِثَةُ مَعَ الْقَمَرِ وَتَشْجِبُ وَجْهَ النِّسَاءِ عِنْدَ الصَّبَاحِ ، وَيَعُودُ الرِّجَالُ غَيْرَ مَكْتَرِثِينَ لَهْنٍ ، وَيَعِيدُ جَذَلُ رُجُولَةٍ نَشَاطَهُمْ إِلَيْهِمْ ، فَتَقْدُ الْبَلَدُ وَأَبُو الْحُبِّ النَّيْلُ هُنَالِكَ ! وَيَرْمِي السُّلْطَانُ إِلَى الْعَبِيدِ ، مِنْ عَلٍ ، كَيْسًا مَمْلُوءًا ذَهَبًا ... وَتَدُورُ

#### السلطان ووزيره

رَحَى معركة هائلة بينهم لَطَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَأْخُذَ دِينَارَ جَارِهِ ، فَالَسَاءُ لَا تُنْظَرُ ذَهَابُ سَوَى رَمَةٍ وَاحِدَةٍ فِي السَّنَةِ ، وَتَتَوَارَدُ الزَّوَارِقُ إِلَى الْقَنَاطَةِ لَتَمُرَّ مِنَ الْقَرْجَةِ وَتَحْتَ الْجَيْشِ الْحَجَرِيِّ ، وَيَقَابِلُ السُّلْطَانُ بِالتَّحِيَّةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَيُهْتَفُّ لَهُ إِنَّ فِي كُلِّ مَكَانٍ .

وَيَقِفُ السُّلْطَانُ فَوْقَ الصُّفَّةِ ، وَيَقِفُ وَزِيرُهُ بِجَانِبِهِ ، وَيَسَاوِرُهُمَا فِكْرٌ وَاحِدٌ ، فَأَمْرُ الضَّرَائِبِ مَضُونٌ ، قَدْ أَنْبَأَنَا الْقَوْمَ بِ ١٦ ذِرَاعًا ، وَلَا أَحَدَ مِنَ الْقَوْمِ يَتَمَنَّاهُ أَنْ لَا يَكُنْ هُنَاكَ غَيْرُ ١٤ ذِرَاعًا .

#### ١٤

قَبَضَ عَلَى زِمَامِ الْحَكْمِ بِمِصْرَ مَدَّةَ خَمْسَةِ قُرُونٍ أَوْلِيَاءُ أُمَرٍ مُسْلِمُونَ مُسْتَقِلُونَ لَيْسُوا عَرَبًا وَلَا أَمْرَاءَ تَابِعِينَ لَخُلَفَاءِ بَنْدَادٍ ، فَكَانُوا يُطْلَقُونَ أَنَّهُمْ خُصُومٌ لِلْخُلَيفَةِ وَكَانُوا يَمُرُّونَ أَنَّهُمْ أَصْدَقُ إِيْمَانًا وَحَدِيثًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْعَرَبِ الَّذِينَ فَتَحُوا مِصْرَ حَوْلَ السَّنَةِ ٦٤٠ ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْقَاطِمِيُّونَ الَّذِينَ اسْتَوْلَوْا عَلَى مِصْرَ وَدَامَ مُلْكُهُمْ فِيهَا مِثْقَلُ عَامٍ يَدْعُونَ أَنَّهُمْ مِنْ أَبْنَاءِ فَاطِمَةَ بِنْتِ النَّبِيِّ ، أَيْ مِنْ صُلْبِ النَّبِيِّ ، وَكَانَ الْقَاطِمِيُّونَ مُقَاتِلِينَ لَا يَمْتَدُّونَ عَلَى غَيْرِ الْقُوَّةِ ، وَمَا حَدَّثَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّ سُئِلَ الرَّئِيسُ ، الَّذِي جَاءَ هُوَ وَعِصَابَاتُهُ مِنْ طَرَابِلُسِ الْغَرْبِ فَأَنْشَأَ الْقَاهِرَةَ عَنْ أَصْلِهِ ، لِمَا كَانَ مِنْ إِنْكَارٍ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَّةِ فَاطِمَةَ ، فَاسْتَلَّ سَيْفَهُ وَقَالَ : « هَذَا نَسَبِي ! » ، ثُمَّ نَثَرَ ثَوْدًا مِنْ ذَهَبٍ عَلَى الْجُمْهُورِ وَقَالَ : « هَذَا نَسَبِي ! » .

وكان أولئك الفرزاة الذين هم من شمال إفريقية قد استولوا على صقلية وسورية منذ زمن حينما كان عليهم أن يحاربوا الصليبيين ، ولما نزل المعز إلى مصر كان عازماً قبل كل شيء على الإقامة بأقوى دولة في قارته ، وذلك لأنه كان قد أتى بعظام أبيه ليذقها على شاطئ النيل ، وما لا ريب فيه أن كان ابنه ملكاً حقيقياً ، وقد كتب يقول : « مما تفر به عيني أن تكون رعيتي مدينةً لعمل بكل ما فيه سعادتها من ذهب وفضة وجواهر وخيل وثياب وأراض وبيوت <sup>(١)</sup> » .

وكان حفيده الحاكم هلوفاً يلقي في الروع هولاً ، وكان الحاكم هذا مجنوناً يتسكع في المدينة ليلاً ، وكان الحاكم هذا ابناً لنصرانية فيتحبها أولاً ، ثم ينقلب إلى عدوٍ ضد النصارى ويمعن في خرق الكنائس إلى أن غاب في جبل المقطم غياباً غامضاً ، ولم يوجد جسده قط .

وتعقب الفاطميون أسر مالكة أخرى ، ويكون رجالها من أهل الحرب ، ولكنها لم تلبث أن انحطت ، ولم ينقطع صلاح الدين الشهير عن الحرب ، فلم يعيش في عاصمته غير سنين قليلة ، وما كان لصلاح الدين من سلطان بعيد المدى فقد أدى إلى حوك كثير من الأقاليم عنه على ما يحتمل ، وقد بنى صلاح الدين القلعة ضد رعيته أكثر مما ضد أعدائه ، وقد كان الرجل الذي عهد إليه في بناء القلعة خصياً ، لا جندياً ، فهدم هذا الخصى أهراماً صغيرة في الحيزة لينتفع بجدارتها في بناء القلعة ، ولم يجند صلاح الدين قومه لشيد ضريحه ، بل أمر بأن يأتي كل زورق يجرى مع النيل بمدد معين من الحجارة فيحمل أسرى من الفرنج على شتيا ، ولما دخل السلطان عاصمته ظل يتأمل القلعة التي ينشئها ساعات

(١) لم نجد نصاً أصلياً لهذه الكلمة فترجمناها .

كثيرةً فَيَقْتَلَهُ أَحْيَانًا بَأَن يَحْمِلَ حَجْرًا بِنَفْسِهِ .

وَيَتَجَلَّى الْفَرْقُ بَيْنَ الْفَرَاغَةِ وَالْمُسْلِمِينَ فِي أَنَّ الْفَرَاغَةَ أَفْتَنُوا أَحْيَالًا بِأَجْمَعِهَا فِي نَقْلِ حِجَارَةٍ إِلَى ضِفَةِ النَّيْلِ الْيُسْرَى نَيْلًا لِلْعُجَا يَمِشُونَ فِيهِ إِلَى الْأَبَدِ ، وَفِي أَنَّ الْمُسْلِمِينَ ، فِي الْمَكَانِ فِيهِ تَقْرِيْبًا ، وَلَكِنْ عَلَى الشُّعْنَةِ الْيَمْنَى ، أَتَوْا بِحِجَارَةٍ لِإِقَامَةِ قَلْعَةٍ لَمْ تَرْمَصْ مِثْلَهَا قَبْلَ ذَلِكَ الْحَيْنِ ، وَبِذَلِكَ تَبْدُو ذَلِكَ مُقَابَلَةً بَيْنَ ضِمَانِ تَجَاهِ الْمَوْتِ وَضِمَانِ فِي سَبِيلِ الْأَحْيَاءِ ، وَفِي كِلْتَا الْحَالَيْنِ يُحْرَمُ تَعَبُّ حَرْبَتِهِ نَتِيجَةً حُلْمُ مَلِكٍ بِالْإِسْلَامِ ، وَيَبْقَى الْفَلَاحُ عَبْدًا وَيَدْلُومُ عَلَى حَمْلِ حِجَارَةٍ عَلَى ظَهْرِهِ .

وَمَعَ ذَلِكَ يَقَعُ فِي مِصْرَ أَمْرٌ لَا مِثْلَ لَهُ سَابِقًا ، فَالْمَرَّةُ الْأُولَى يَقْبِضُ الْعَبْدُ ، لَا الْفَلَاحُ ، عَلَى زِمَامِ أُمُورِ مِصْرَ ، وَيَظَلُّ ابْنُ الْبَلَدِ التَّعِيسُ تَابِعًا مِصْرِيًّا ، وَيَصِلُ الْمَالِكُ ، أَيْ الْعَمِيدُ الْبَيْضُ ، مِنْ أَسِيَةِ الَّتِي يَجْلِبُ تِجَارَ الرَّقِيقِ مِنْهَا رِجَالًا أَسْحَاءَ مِلَاحًا ، وَلَمْ يَتَذَكَّرْ أَنَّ رَأْيَ النَّيْلِ فِي جَرِيهِ الطَّوِيلِ مِثْلَ ذَلِكَ الْمَنْظَرِ ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْمَالِكِ الَّذِينَ مَلَكَوْا مِصْرَ نَحْوَ ثَلَاثِمِئَةِ سَنَةٍ ( ١٢٥٤ - ١٥١٧ ) وَلِدُّوْا عِيْدًا ، وَجَمِيعُ هَؤُلَاءِ الْمَالِكِ مِنْ أَصْلٍ نَذَلِ لَمْ يَحَاوِلُوا كِتَابَتَهُ فَتَحَارَ بِذَلِكَ النُّفُوسُ .

وَنَقَشَ جَمِيعُ فَاتِحِي بِلَادِ الْمُلُوكِ الْمُؤَلَّهِينَ هَذَا صُورَهُمْ فِي الْجِدُرِ عَلَى صُورَةِ الْفَرَاغَةِ فِي أَكْثَرِ مِنْ أَلْفِ سَنَةٍ ، وَالْآنَ يَقْعُدُ فِي دَرَجِ الْعَرْشِ أَنَاسٌ مِنْ أَصْلٍ وَضِيعٍ فِي الْمَجْتَمَعِ ، أَنَاسٌ غَدُوا سِلْمًا كَسَلَةً تَيْنٍ أَوْ كُتُوبٍ مِنْ حَرِيرٍ ، وَكَانَ أَوَائِلُ السَّلَاطِينِ يَحَافِظُونَ رِسْمِيًّا عَلَى قَسَبِ الْبَحْرِيَّةِ ، نَسَبَةً إِلَى الْبَحْرِ ، نَسَبَةً إِلَى النَّيْلِ ، حَيْثُ كَانَ آبَاؤُهُمْ يَمْلِكُونَ عُرَاهَ عَلَى ضِفَتِهِ فِي حُصُونِ جَزِيرَةِ الرُّؤْسَةِ . وَمِنْ أَوَّلِكَ مَنْ كَانُوا يُضَيِّفُونَ إِلَى اسْمِهِمُ الرَّسْمِيَّ اسْمَ تَلَاغِيَرِ الرَّقِيقِ الْأَوَّلِ الَّذِي بَاعَهُمْ كُتْلَاهُمْ

### هوق الى الارتقاء

يُودُونَ تخليد الرجل الذى يَرَوْنَ أنهم مَدِينُونَ له بِسعادتهم ، ومن أولئك من كانوا يعتمدون على قُوَّتهم ، كالسلطان الفاطمى الذى تكلمنا عنه آنفاً ، فيَحْظَرُونَ وِدَاةَ العرش .

وبما أن السلاطين يحتاجون ، دوماً ، إلى جنود ، كانت الضرورة تقضى عليهم بجلب ألوفٍ من العبيد ، وبلغ ما اشتراه قلاوون أربعةً وعشرين ألفَ عبدٍ ، وكان الوزراء والأمرأ والأغنياء يتتاعون عبيداً أيضاً ، وذلك لأن العبيد يحافظون عليهم ويذأروهم ويصانفونهم ، وكان العبيد من ناحيتهم يلاحظون بمجملهم قوامين على غلمانٍ حسانٍ مشهورين بطول قُدودهم ومواهبهم الفنية ، وكان التجار يَعرِفون لماذا يبحثون في بلاد التتقاس عن الغلمان والجواري بين الكُرْجيات والشركسيات اللاتي هنَّ أجملُ مَنْ في العالم ، ويسهل على المرء أن يقدِّمَ ضرورياً بالملكة ومعرفة حسن السلوك ، ويمكن الشخص أن يختار غلاماً بنظرة وجهه وبنظرة سلطانٍ أحياناً ، وإذا ما أُضيفَ التَّيْفُ إلى الهداء استطاع صاحبها أن يصبح من الحُرِّس وحُرَّر على العموم ، وإذا كان هذا الصاحبُ من ذوى الحِظِّ ولم يَقبَ عن نظر مولاه صار حاملَ سيفٍ وحافظَ مَدَّادٍ وعَيْنٍ منذ صباه « أميرَ عشرة » ، أى نُصِبَ صاحباً لأدنى المراتب بين مَنْ يَقْبِضُونَ على زِمَامِ قِيَادَةٍ ، ثمَّ يُثَلُّ دَوْرَه في دسائس القلعة وينحاز إلى أميرِ الإصطبل أو إلى الساقى الأكبر الذى هو خَصْمُ أميرِ الإصطبل هذا ، ثم يشترك في العام القادم في مؤامرةٍ فيُصبح كلُّ شيءٍ ممكناً له .

ويا للحُرِّص على الحياة ! ويا للشَّوقِ إلى الارتقاء ! وَيُفَكِّرُ الملوك منذ دُوْنِ سفينة التاجر من الإسكندرية ، وَيُفَكِّرُ الملوك منذ مشاهدته شاطئاً إفريقية

المستوى للمرة الأولى ، في إخوانه الذين كانوا قد نزلوا إلى البرّ مثله فصاروا وزراء وسلاطين ، فتثيره رغبة واحدة ، تثيره شدة ميل إلى نيل حريته ، وذلك لما يعلمه من جميع المخاطر المباركة التي وقعت في عشرات السنين الأخيرة ، ويقف برفوق الجليل نظراً تاجر في قرية من شواطئ البحر الأسود فيشتريه من أبيه بنحو عشرين ديناراً ، وينقله إلى الإسكندرية على سفينة شراعية ويبيعه من أمير في القاهرة بخمسين ديناراً ، وتخصي عشرون سنة فينادى برفوق سلطاناً لمصر ، ثم ينادى بالمؤيد سلطاناً لمصر بعد أن اشتراه برفوق برع قرن ، وينال قايتباي ، الذي صار سلطاناً كبيراً بعدئذ ، خطوة عند أمير إقطاعي كبير لئلا تصف به من حذق في السّيافة والرماية فيحتق ، ويزهو قايتباي بأصله فيختار من أبنائه ابن أمة له ليتخلّفه .

ولم يكن هؤلاء الملوك المجهولون النسب ذوى صلات بملوك من أصل مماثل لأصلهم قطع ، بل كانوا ، أيضاً ، ذوى صلات بأمراء بلغوا الثروة من علو النسب ، فيضطر هؤلاء إلى معاملتهم معاملة الند للند ، ومن ذلك أن تقاوض السلطان قلاوون ورؤؤلف الهاينبرغى ، ومن ذلك أن أنتم بيرس مالم يستطيع صلاح الدين أن يتيه فطرده الصليبيين ، ومع ذلك كان هؤلاء المالك يعنون بحفظ سليل حقيق للخلفاء بجانبهم إبقاء للخلافة في القاهرة ، وكان هؤلاء المالك يطلون في أثناء الاضطرابات والفتن ملوكاً للبلاد المقدسة فيرسلون كنوز الكعبة المصنوعة من حرير إلى مكة .

ويستمدون قوتهم من الإسلام ، ومع أن النصرانية لم تقبل بحماسة كما قيلت به في وادي النيل دخل نصارى مصر في الإسلام أفواجا أفواجا قبلت الإسلام من قوة

## قوة الإسلام

الاستقرار بمصر في هذه القرون الثلاثة عشر ما يتعدّد معه على النصارى أن يُنصّروها مرة أخرى، وفيهم تجدُّ سير ذلك النجاح؟ تجدّه في المنطق الذي ضيّق للإسلام، دون الأديان الحاضرة الأخرى، تلك الوحدة بين القوة والإيمان، بين الدولة والمسجد، وذلك لأن مؤنّسه جاهد بسيفه في سبيل إله قادرٍ على كلِّ شيء، وتجدُّ ذلك، أيضاً، في عدم وجود تناقضٍ دائمٍ يُضعف الإسلام ويُرَبِّكُهُ، كما يؤدّي إليه دين الدولة النصراني، قال النبي: «السيفُ مفتاحُ الجنة»<sup>(١)</sup>.

وإذا كان الإسلام قد صدّر بعض الصدور عن اليهودية، التي تناول أربعة من أنبيائها الستة كما تناول صورتها الأولى ومبادئها الأساسية ذات الرُّجولَة، فإن مذهبَه الأصلي الذي ما انفك يحافظ عليه قد لآن عن تسامح، فالسلم، وإن عدّ نفسه مؤمناً حقيقياً، لا يحسبُ نفسه صنيّ الله، ويقول القرآن بتعدد الزوجات، ويوصي القرآن بطبيب العَيش، ولا يأمرُ بالزُّهد، ويَجْمَلُ القرآن من الزكاة ركنًا من أركان الإسلام الأربعة فيأمرُ بالتصدق على الفقراء، ويُنصُّ القرآن على أن الجنة لمن يَمْلِكُونَ الصالحات وَيَنَالُونَ عَفْوَ اللَّهِ، ولا يَرَى القرآن أن الجنة معمورة بملائكة متفاوتين مرتبةً ناظرين إلى إكليل الرب، وللمؤمن هنالك سُرادق من لؤلؤٍ وياقوتٍ وزمرد.

والمسلم، على ما يتناوله دينه من أمورٍ دنيوية، يقول بأعظم الفضائل، يقول بالقضاء والقدر فيسلم أمره إلى الله، والله كتب عليه ما يصيبه، ولو كان شرّاً، وسيكون له كفن من العِلمة التي يَضَعُها فوق رأسه، فإذا ما حَصَرَته الوفاة في الصحراء أمكنه أن يشتغل مُتَتِمّاً بالرمل عند عدم وجود الماء، وأن يَحْفِرَ نفسه

(١) لعل المؤلف أراد قول النبي (ص): «الجنة تحت ظلال السيوف».



خُفْرَة ، وأن يَتَلَفَّفَ بِعَامَتِهِ الَّتِي تَسْتُرُهُ حَتَّى قَهْ ، وَأَنْ يَنْتَظِرَ الْمَوْتَ ، وَهَنَالِكَ يُرْسِلُ اللَّهُ ، مُنْعِمًا ، رِيحَ الصَّحْرَاءِ فَتَسْتَفِي عَلَيْهِ رَمَلًا يُؤَارِيهِ .

## ١٥

عاش السلاطين على شواطئ النيل مسلمين للنصارى قروناً كثيرة ، وَيَقَعُ الصَّرَاعُ ذَاتَ حَيْنٍ ، وَتَضَعُبُ مَعْرِفَةُ الْمُسْؤُولِ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَا عَجَبَ ، مَا دُمْنَا لَا نَعْرِفُ الْمُسْؤُولَ عَنْ الْحَوَادِثِ الْمَصْرِِيَّةِ فِي الْغَالِبِ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَلُوحُ أَنَّ التَّيَقُّنَ تَقَعُ عَلَى النَّصَارَى لِمَا كَانَ مِنْ رَغْبَتِهِمْ فِي حَمْلِ النَّاسِ عَلَى دِينِهِمْ ، وَهَلْ اِتَهَكَ الْمُسْلِمُونَ حَرَمَةَ الْقَبْرِ الْقُدُسِ ؟ كَانَ الْمَسِيحُ خَامِسَ الْأَنْبِيَاءِ مَرْتَبَةً لِنَبِيِّ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَ عَمْدٌ قَدْ صَرَّحَ بِصِحَّةِ دِينِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الْأَوَّلِينَ وَأَنَّ كِتَابَهُمُ الْقُدْسَةَ هِيَ الَّتِي حُرِّقَتْ ، وَلَمْ يَسْتَوْلِ الْعَرَبُ وَخُلَفَاؤُهُمْ عَلَى مِصْرَ حَلًّا هَا عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَمَا كَانَ مِنْ بَدَنِهِمْ بِالْمُهْجَرَةِ إِلَيْهَا قَبْلَ مُحَمَّدٍ دَفَعَهُمْ إِلَى تِلْكَ الْأَرْضِ الْخَلْصِيَّةِ طَلَبًا لِلْحَبِّ وَالْحَرِيَّةِ ، لَا حُبًّا لِحَمْلِ النَّاسِ عَلَى دِينِهِمْ ، وَإِذْ كَانَ الْعَرَبُ يَجْهَلُونَ لُغَةَ مِصْرَ مَعَ عَدَمِ تَعَاْفٍ فَإِنَّهُمْ تَمَكَّنُوا إِدَارَةَ مِصْرَ لِلْأَقْبَاطِ الَّتِي كَانُوا أَقْدَرَ مِنْهُمْ عَلَى الْحِسَابِ ، وَيَقُومُ الْأَقْبَاطُ بِفَتْحِ مَتَاعٍ لَزِيذٍ زِيَادَةِ الضَّرَائِبِ فِي الدَّلْتَا فَيُغَيِّدِي الْعَرَبُ شِدَّةً ، وَتُضَيِّحُ الْلُغَةُ الْعَرَبِيَّةَ لُغَةَ مِصْرَ الرَّسْمِيَّةَ بِمَدَقَرَيْنِ فَتَحُلُّ بِذَلِكَ حُلًّا لُغَةُ الْقِبْطِيَّةِ ، وَيَكُونُ الْأَقْبَاطُ أَوَّلَ مَنْ يَتَعَلَّمُ الْعَرَبِيَّةَ .

وَكَانَ النَّصَارَى مُتَمَدِّدِينَ عِنْدَ مَا حَفَرْتُمْ مَقْصِدُ نَبِيلٍ إِلَى الْأَسْتِيلَاءِ عَلَى الْقَبْرِ الْقُدُسِ ، وَلَكِنَّ الْقُدْسَ لَمْ تَقُلْ "نَصْرَانِيَّةً غَيْرَ ١١٣" سَنَةً مِنْ ثَلَاثَةِ عَشْرِ قَرْنًا ،

يسلمون فراراً من الضرائب

ثم عَدَّتْ قبضة المسلمين نهائياً ، ويَلُوح ، إذن ، أن الصِّراع انتهى بعد أن وَقَعَ في الأرض وفي السحاب كما في روايات أوميرس .

ولما صار المسلمون يَضْطَهِدون النصارى في أثناء الحروب الصليبية كان ذلك عن انتقام لأنفسهم ، ثم خَظَرَ السلاطين على الأقباط ركوب الخيل وحيازة عبيد من المسلمين وسَحَلُوهم على لبس عمام زُرْقِي ، وعلى لبس جلابل حَوْلَ أعناقهم عند الذهاب إلى الحُجَّامات ، وعلى وَسَم أيديهم بِسِمَةِ الأسد معاقبين من يخالف بَقْطَع يده ، ولم يَصْدُرْ هذا الاضطهاد ، قَطُّ ، عن مثلي ذلك التمسب الذي دفع النصارى ، في عهد ديوكليسيان ، على التقتيل وعلى هَدْم معابد مصر القديمة .

ومما يروى أنه كان يوجد حوالى سنة ١٣٠٠ سلطان من أصل نصراني ، وإذا ما صُدِّقَت الروايات وَجَدْنَا أن أصل لاشين من شواطئ البحر البلطى وأنه من كتيبة فرسان الألمان غارِب الصقابة في بدء الأمر ثم اشترك في آخر الحروب الصليبية واعتنق دين أعدائه ونُودِيَ به سلطاناً في القاهرة حينما نَسِيَ جميع الناس أصله ، ويُقال رداً على مفارته إن إنباء إسلامياً عجيباً خُطِفَ من خزائن المالك في إحدى القُرُونِ (١) الجرمانية فأُتِيَ به إلى بروسيه فَتَحِدُهُ اليوم في قصر مارينبرغ . ولم يُسَلِّم أوف النصارى عن إكراه أو اقتناع ، بل أسلموا فراراً من الضرائب الثقيلة ، وبلغ عدد من أسلموا من الكثرة ذات حين ما تَزَلَّ معه دخل بيت المال من ثلاثة ملايين جنيه إلى مليوني جنيه وما دَعَرَ معه أمين بيت المال فَطَلَب إلى السلطان أن يَمْنَحَ موقتاً كل اعتناق جديد للإسلام ، وذلك دِراً لِمَا قد يَحْثِقُ بِماليته وسلطته من خطر .

## عمر والنيل

وَيَقُفُّ ذَلِكَ دَوْرٌ كَبِيرٌ مِنَ السَّلْمِ الدِّينِيِّ فِي مِصْرَ، وَيُفَيِّنُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ نَصْرَانِيٌّ وَزَيْرٌ لِّلْمَلِكِ النَّاصِرِ كَمَا كَانَ يُوسُفُ قَدْ عُيِّنَ وَزِيرًا لِأَحَدِ الْقِرَاعَةِ، فَأَخَذَ الْأَقْبَاطُ فِي أَعْيَادِهِمْ يَسْتَعِيرُونَ الشَّمَاعَ وَالْبُسْطَ مِنَ الْمَسَاجِدِ الْمَجَاوِرَةِ، وَصَارَتْ جَمِيعُ الْأَدْيَانِ تَتَّحِدُ عِنْدَ عَدَمِ ارْتِفَاعِ مِيَاهِ النَّيْلِ فَتُؤَلَّفُ مَوَكِّبًا رَسْمِيًّا عَلَى طُولِ النَّهْرِ فَيَتَقَدَّمُ السُّلْطَانُ الْمَوْكِبَ لِأَبْسَ ثَوْبًا مِنْ صُوفٍ أَيْضًا، وَيَكُونُ الْخَلِيفَةُ مُجَانِبَهُ، ثُمَّ يَأْتِي قَاضِي الْقِضَاةِ وَالشَّيْخُ الْأَكْبَرُ، ثُمَّ يَأْتِي أَحْبَارُ الْيَهُودِ وَقُسُوسُ الْقِبْطِ، ثُمَّ تَأْتِي الْكُتُبُ الثَّلَاثَةُ، الْقُرْآنُ وَالتَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ، الَّتِي أُتَتْ إِلَى نَشُوبِ حُرُوبٍ كَثِيرَةٍ، بِجَانِبِ بَعْضِهَا بَعْضًا، ثُمَّ يُضَرَّعُ إِلَى اللَّهِ بِاللُّغَاتِ الثَّلَاثِ، وَبِاسْمِ الْأَنْبِيَاءِ الثَّلَاثَةِ الْغُرَبَاءِ، أَنْ يُنْزَلَ غَيْثُهُ عَلَى النَّهْرِ وَيَسْتُرَ الْبِلَدَ بِالْخَضَرِ، وَكَانَ ذَلِكَ يَقَعُ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى، فِي عَصْرِ التَّمَصُّبِ وَالْجَهْلِ، فِي بِلَدِ التَّمَسَّحِ مِصْرَ الَّتِي قَدْ يُكَرَّرُ فِيهَا ذَلِكَ غَدًا

وَكَانَ سُلُوكُ الْخَلِيفَةِ عَمَرَ أَكْثَرَ رُوحَانِيَّةً عِنْدَمَا يَتَأَخَّرُ فَيُضَانُ النَّيْلَ، فَلَمَّا رَفَعَ فَاتَحَ مِصْرَ، عَمْرُوبُ الْعَاصِ، تَقْدِيمَ عُرُوسٍ لَتَكُونُ قَرْبَانًا لِلنَّيْلِ لِأَنَّ هَذَا النَّهْرُ حَاقِدًا، فَأَبْدَى عَمْرُومَا يَسَاوِرُهُ مِنْ غَمٍّ لِمَوْلَاهُ عَمَرَ الَّذِي كَانَ بِلَمَشَقٍ سَائِلًا إِيَّاهُ عَمَا يَفْعَلُ فَأَرْسَلَ عَمْرُ إِلَى الْكِتَابِ الْآخِرِ أَمَّا إِيَّاهُ بِأَنْ يَقْذِفَهُ فِي النَّيْلِ، وَإِلَيْكَ :

« مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى نَيْلِ مِصْرَ، أَمَا بَعْدَ فَإِنْ كُنْتَ تَجْزِي مِنْ قِبَلِكَ فَلَا تَجْزِي، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ هُوَ الَّذِي يُجْزِيكَ فَسَأَلَ اللَّهُ الْوَاحِدَ الْقَهَّارُ أَنْ يُجْزِيكَ »، وَلَمْ يَسْعَ النَّيْلَ نَحْوَ هَذَا الْوَعِيدِ الْمَلِكِيِّ لِلْمَشْتَمَلِ عَلَى طَائِفَةِ السُّمُومِ وَالْخُشُوعِ مِمَّا إِلَّا الْخُضُوعُ فَفَاضَتْ مِيَاهُهُ فِي الْقَدَمِ، وَهَذَا مَا رَوَاهُ الْقُرَيْزِيُّ

## للمالِك

على الأقل ، وذلك لأنه كان يُؤَدَّن لِلجِغَرافِيين أن يكونوا من الشعراء .

حتى إن السلاطين اتفقوا بقناة السويس القديمة مجدداً ، فكانوا ينقلون بها الحبوب إلى جزيرة العرب ، فلما اشتعلت الفتن في بلاد العرب أمر الخليفة بإغلاقها كما صنع ذلك ملوكُ الفرس فيما مضى .

وفي أربمين يوماً حفر سلطان آخر قناة واسعة بين القاهرة والإسكندرية فوسَّعَ بذلك نطاق جنوب الدلتا الغربي وبي ثلاثون جسراً حجرياً فساعد ذلك على نمو التجارة في تلك البقعة ، وشيدت هناك قصور رائعة ، وأنشئت هناك مئة قرية ، وأُتيَ بأشجار مشمرة من سورية فسير بها ما عُدَّ حتى الآن من الصحارى .

وأنشأ السلاطين طرقاً تجارية كبيرة وغرسوا في منطقة النيل الأعلى من غابِ السَّطْح ما يكون لهم به خشب يُنْشِثون منه سفناً لهم ، وكان يُمكن صنعُ جميع ذلك مع ما يحدث من تبدلٍ مستمرٍ بين أولياء الأمور ، وبفضل ما كان من سلسلة مراتب وثيقة بين الجنود تملأ بالسلح ما يَفْضِلُ السلطان عن رعيته من هوة ، وذلك مع وقوفها دون تأليف نظام إقطاعي ، وذلك لعدم القيام بفتوح ولعدم وجود منزل لضابط ، ومن ناحية أخرى كان لأهل أمير من أمراء المالِك جنوده ، أى كان له عشرة عبيد على الأقل كما كان لأُمير الطُّبُول من العبيد ما بين الأربعين والثمانين وكان للأُمير القائد من العبيد مئة وعشرون ، وكان على كل أمير أن يُجهز رجاله ويُطعمهم بما يُخصَّص له من أرزاق ووظائف ، فكان ما ينطوى عليه نظامُ المالِك هذا من سلطة مركزية قوية ضامناً لسلامة القلعة والماصمة والبلد .

وقد يُقاسُ المالِك بالفرقة الأجنبية ، لِمَا تشتمل عليه من أناسٍ منتسبين إلى

عروق مختلفة ، والماليك هم من الترك والشركس والألبان والروم والصرب ، ومن فرنسي الجنوب ومن الجنويين أيضاً ، فكان في كل سنة ينزل الألوف من هؤلاء إلى الإسكندرية مع حَظَرِ الملوك وجرمِ البابوات ، والفاقر الوحيد هو أن هؤلاء عبيد عابرون ينقلون كائليل بين راكبٍ وراكبٍ ونطمسُ أسماؤهم وأصولهم فلا يحفظون إلا باسم تاجرهم وسيدهم ، وقد ظهر منهم وزراء أقوياء مع ذلك ، وقد نقلَ أبوعهم سلطانهم إلى أبنائهم مع ذلك ، فساروا في ذلك على غيرِ نظارِ القصر في العهد الفرنسي ، وذلك بدلاً من أن يجلسوا بأنفسهم على العرش ، وهل يمكن سلطة قائمة على مثل تلك الوسائل أن تظل مقبولة لدى الشعب زمناً طويلاً ؟

وكان الماليك يمارسون صناعات البلد المكتسبة أو ما قرئوه عن آبائهم ، فازدهرت حِرَفُ القُرس في القاهرة بعضَ الزمن ، وبلغَ حُسْنُ ما كان يُحبك في تينيس ودمياط من نسيج الحرير درجةً يبتاع أمراء الأجانب معها كلَّ ثوبٍ بمئة جنيه ، وبخمسة جنيه إذا كان مُنيراً<sup>(١)</sup> بذهب ، ومن هنالك جلبَ مصطفُ روجرَ الصقلي .

ولم يكن إنشاء المبانى لـتيم بسرعة كما يهوى الماليك المفاقدو الصير ، فإذا لم يكفِ العبيد للعمل سُحَرُ ألوف الناس له بالسَّياط ، وهكذا حوَّلَ مَقْلَعُ واقع في القلعة إلى حظيرة غنمٍ بملٍ متصل دام خمسة أسابيع ، وهكذا كانت الدولة تأخذ فائدة عملِ أرباب الحِرَف ، والفلاح ، البعيد من رقابتها وحده ، هو الذي كان يظل بجانب ساقيته ، فيصعد الماء .

(١) نير الثوب : جمل له نيراً ، والنير هو القصب والخيط إذا اجتمعت ، والنير دهب الثوب وطلته أيضاً .

### حكومات المليك

والدولة هي السلطان ، ويحيقُ الخطرُ بذلك النظام في كل مرة يفرُّ فيها السلطان أو يموت أو يُقتل ، ويقعُ هذا في كل خمس سنين ، ويتعاقب ثلاث وخمسون حكومة من المليك تنتسب إلى اثنتين وعشرين أسرة في ٢١٠ سنة ، وقد مات ثلاثة عشر سلطاناً على فراشهم ، وقد خلع الآخرون أو قتلوا ، وكيف يمكن الذكاء أو المال أن يُغيرَ عن عمل كبير في حال خالٍ من الأمن كما رأيت ؟ حتى إن إدارة النيل لم تفلَّ باقية إلا لأن القراعة اجتدوها منذ أربعة آلاف سنة .

ويادوم النيل على البريان ، ولكن ما أبعد الأمد بينه وبين القراعة ! ويقبُ أمل القراعة في الخلود ذكاء الأغارقة وطرْفهم وروح الرومان العملية القارة ونقصُ النصراري ذوى الأبصار المرتفعة إلى السماء ثم حُب القنال الفريرى لدى الآسيويين ، ثم تُبصر مصر قبضة قساة مغارين يعيشون يوماً بعد يوم ويتهدمون دوماً بما يحوكونه من مؤامرات مستمرة .

ومن يملك : السلطان أم وزيره أم حريمه أم أمراؤه ؟ فهذا هو السؤال الذى كان يحرِّك العاصمة فتتوقف عليه سعادة من يتصرفون في شؤون مصر ولعسهم ، ولا تجدُ في تاريخ مؤلف من تسعة صفحة لمصر في العهد المباسى غير وصف لذلك الاستياء العام تقريباً ، والسماء الحامل لقرْبته والفلاح بجانب ساقته وحدها هما اللذان كانا يأملان أن يُبصرَ شمس الله في الفرد إذا ما داومت قلوبهما على الصَّفْقَان ، وكان الاقتراب من شمس السلطان ، أو ثيلُ الخطوة لدى بطانته على الأقل ، غاية كل رجل وكل امرأة ، وكلما دنا الإنسان من ذلك زاد زَلَّته ، ويستقطم مُعظم الناس قبل بلوغ الفرض .

وصغارُ الناس وحدهم هم الذين كانوا يكتفون بكسب عيشهم ، وأما الآخرون

يسمنونهم ثم يذبحونهم

فكانوا يطالبون الذهب ، وإذ كانت القلعة هي التي تُوزَّعُ الذهبَ والمُكوكُ فإن ذلك أسفر عن حرجٍ من الحباية لم تصل إليها أوروبية في القرن الثامن عشر ، ولم تبلغها سان بطرسبرغ قط ، فلم تزل بقاياها من القاهرة حتى الآن .

وكان من عادة السلاطين في ذلك الزمن أن يسمنوا ذوى الحظوة لديهم ، فإذا ما اكتظروا ذبحوهم وهبوا خزائنهم لمن يتخلفهم في الحظوة ، وكان من الخزنة من ينهبون الأوقاف الخيرية عدة سنوات ويتبرزون أموال الأمراء من غير أن يتمتع أحد ، حتى السلطان ، من إدخال قسم من هذا الذهب إلى جيوبهم ، ويمضي زمن فيقدر السلطان ، الذي لم يكف عن رقابة هؤلاء الخزنة ، أن أحدم بلغ من الثراء ما يعلو معه غنية كبيرة ، فيسجنه ويُبريه ويُقيد يديه ويُركبه حماراً ويأمر بأن يمر من الشوارع على هذا الوجه ، ويكتشف الجلاوزة<sup>(١)</sup> ما عنده من أكداش الحجارة الكريمة والثياب الثمينة ، فيمذَّبون أمه وإخوته وأصدقاءه نبشاً للكثير من الخبايا فيفضي السلطان بذلك يوماً سعيداً ، وكان السلطان الناصر يسأل رُسُلَه عن الحلوان الذي يأخذونه من الأمراء ، وكان الوزير نخميد يقترض بضعة دوانق من أصدقاء له تظاهراً بالفقر .

(١) الجلاوزة : جمع الجلاوز ، وهو الصرط الذي يخنف القهاب والمحير . ين يدعى الأمير .

يدأومُ ذهبُ بلادِ النوبة على الانصباب من النيل الأوسط في خَرَائِنِ سَادَةِ  
مِصْرَ ، وَيُعْمَلُ فِي الْمَنَاجِمِ لَيْلاً لِكَيْ يَسْتَطَعَ التُّبْرُ<sup>(١)</sup> عَلَى نَوْرِ الْمِصْبَاحِ ، وَيَقْلُ  
بَعْضُ الرِّجَالِ نَفْسًا حَتَّى الصَّبَاحِ ، ثُمَّ يَمْلَأُونَ أَكْيَاسًا مِنَ التُّبْرِ فَتُحْمَلُ عَلَى الْجَمَالِ  
حَتَّى الْآبَارِ ، وَهَنَالِكَ يُخْلَطُ التُّبْرُ بِالزَّبَقِ وَيَذَابُ ، فَيُجْلَبُ فِي زَوَارِقَ مُسَلَّحَةٍ  
لِيُضْرَبَ نَقوداً فِي الْقَاهِرَةِ .

وَالطَّمْعُ أَقْفَةُ السَّلَاطِينِ ، وَيَفَاجِيهِ اللهُ هَؤُلَاءِ الطُّمَعَاءُ بِأَمْرِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ،  
وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ جَاءَ الطَّاعُونَ مِنْ بِلَادِ الصِّينِ حِوَالَى سَنَةِ ١٣٥٠ قَمَرًا مِنْ مِصْرَ  
قَبْلَ أَنْ يَجْتَاحَ أَوْرَبَةَ ، فَلَبِغَ عِدَدٌ مِّنْ يَمُوتُونَ بِهِ فِي الْقَاهِرَةِ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ عَشْرِينَ  
أَلْفَ شَخْصٍ أَجْنَابًا ، وَيُفَزَّرُ السَّمَكُ فَيَعُومُ فَوْقَ النَّيْلِ ، وَتُكْسَى أَجْسَامُ  
الْمَوَاشِي بِالذَّمَامِ ، وَيُفْسِدُ الدُّودُ ثِمَارَ النَّخِيلِ ، وَيَصَادِرُ السُّلْطَانُ جَمِيعَ الْمَوَارِيثِ  
الَّتِي يَتِمَتَّدُ تَنْظِيمُ أَمْرِهَا فِي أَثْنَاءِ تِلْكَ الْقَوْضَى السَّائِدَةِ لِكُلِّ مَكَانٍ ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ  
الطَّاعُونَ أَتَقَذُّ سُلَاطِينَ مِصْرَ مِنَ الْإِفْلَاسِ مَرَّتَيْنِ .

وَالسَّلَاطِينُ كَرَمَاءُ مَعَ ذَلِكَ ، وَإِذَا كَانَ الشَّعْبُ قَدْ جَعَلَ مِنَ الْقِرَى أَسَاسًا  
لِلْمَلَاقَاتِ ، وَإِذَا كَانَ أَفْقَرُ مُسْلِمٍ سُلْطَانًا فِي سَبِيلِ ضَيْفِهِ الَّتِي يُؤْوِيهِ تَحْتَ  
سَقْفِهِ ، فَمَا أَعْظَمَ مَا يُنْشِئُ السُّلْطَانُ بِهِ أَنَّهُ مُسْلِمٌ ! وَإِنَّ السَّلَاطِينَ لَيَرْمُونَ إِلَى  
الْفُقَرَاءِ ذَلِكَ الذَّهَبَ الَّتِي يَصْنَعُ ضَمِيرَهُمْ كَمَا يَصْنَعُ ضَمِيرَ كَثِيرٍ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ ، فَيُقَاتِلُ  
أَوَّلَئِكَ الْفُقَرَاءَ لِيَنَالُوهُ ، وَيُنْشِئُ السَّلَاطِينُ سَهَامَاتٍ وَمَسَاجِدَ ، وَيُجْزِلُونَ الْمَطَاءَ

(١) التبر : ما كان من الذهب في تراب معدنه .



### السورة

للشعراء والعلما بلا روية كما يَنْتَرُونَ النُفُودَ في الشارع ، وَيُرْدُونَ الضرائب إلى قرية ما من غير سبب خاص ، وَيُقَدِّمُونَ سلاحاً وَبُرْكَاةً إلى أمراء مُراضين ، وَيُقَدِّمُونَ إلى الرجل الذي يريدون إكرامه أَجَلَ هدية يَعْرِفُهَا عربياً ، يُقَدِّمُونَ إليه جواداً أصيلاً ، وما يُرَوِّى أن السلطان الظاهر دفع مبلغ ١٥٠٠٠ جنيه ثمناً لحِصان ، وقال سلطان آخر لوزيره الذي كان طبيباً كبيراً فَطَرَحَ على قلميه كتابَ طبٍّ : « أريد أن أكَافِئك بأحسن مما كافأ به الإسكندرُ أساتذته » ، فأقطعته أليافاً عظيمة في الدُّنَا ، وَيَعْرِضُ هذا السلطانُ في زمنٍ آخرٍ ما اتَّابه من انحرافٍ إلى مُسَلِّهِ قَوِيٍّ رَبَّه له ذلك الوزير الطيب فيأمر بقتله في الغد مع بلوغه الثمانين من سِنِيهِ .

والسورة هي صفتهم الثانية ، ومن ذلك أن ناظرَ بيتِ مالِ الناصرِ محمد النصرانيِّ الأصيلِ لم يَعدْ كافياً ما قام به من تمذيب أحد الأغنياء حَمَلاً له على الاعتراف فلفَ يديه بنسيجٍ مُبْتَلٍ بِقَطْرَانٍ وأشعل هذا النسيج ، ومن ذلك أن آخرين كانوا يُفَطِّسُونَ في ماءٍ مُمَلَّحٍ وَيُفَسِّلُونَ بِكُلْسٍ ثم يُرْمُونَ على صنائعٍ حجريةٍ باردةٍ ، ولم يكن الجَلَّادُونَ وحدهم هم الذين يَجْلِدُونَ وَيُعْمُونَ وَيَنْزِعُونَ اللسان وَيَنْعَلُونَ الإنسانَ كالْحِصانِ وَيُسَرِّوْنَ الناسَ على الشُرُوجِ ، بل كان السلطانُ يُنِيبُ من فوق عرشه لِيَضْرِبَ صاحبَ مَنْصِبٍ كبيرٍ حتى يَذْمِيهِ ، ومن ذلك أن سلطاناً آخرَ التهبَ غيظاً من عدم كفاية الجباية فأمر بإحضار اثني عشرة حَمَامَةً وقطع رِقابها وقال : « هكذا سأذبحكم جميعاً » ، ومن ذلك أنه لم يُقْتَصِرْ على السَّيْرِ في الشوارعِ برأسٍ مغرورٍ على حَرَبَةٍ لعدوٍّ مقهورٍ ، بل طَرَحَتْ جُثَّةُ هذا العدوِّ في بالوعةٍ إيذاناً للشعب بأن للسلطان حقَّ الحياة والموت على أكابر الرجال في دولته ، ومن

## الإسراف

ذلك أن السلطان الناصر سَجَنَ أَحَدَ الْمُقَرَّبِينَ لديه وحَكَمَ عليه بالموت جُوعاً فأرسل إليه في اليوم الثامن ثلاثة أطباقٍ مُعَطَّاةٍ ، فخُلِّلَ إلى هذا المُخْتَصِرِ أن السلطان عَفَا عنه فَكَشَفَ عن الأطباقِ شَرَاهَا ، وَجَدَ الطبق الأولَ يشتمل على ذهبٍ ، وَجَدَ الطبق الثاني يشتمل على فِضَّةٍ ، وَجَدَ الطبق الثالث يشتمل على حجارة كريمة ، فلما انقضى اثنا عشر يوماً مات الرجل وَوُجِدَتْ في فهِه إصبعٌ انتزعها من يده التي قَرَضَ راحتها .

وقد يتواضعون من قُوَرِهِمْ ، فيأمرون الشيخَ بالآيِنَطِيقِ باسمهم إلا بعد أن يَنْزِلَ درجةً من المنبر ، وَيُصَلُّونَ ساجدين على أرضٍ مُجَرَّدَةٍ من بساطٍ ، وقد يُوقِي إليهم بحدودٍ مقهورة معتقدين دُنُوَّ أَجَلِهِ فَيَرْفُوقونه ويماقونه ، ولكن هذا ليس سوى انحرافٍ عن قسوتهم .

والإسرافُ صفتهم الثالثة ، وأولُ ما يتجلى هذا الإسرافُ في دوائر الحريمِ ثا في زماننا ، فإذا ما عَنَّتْ جاريةٌ على أنفامِ عُوْدٍ أُعْطِيَتْ ستين ثوباً حريراً ، وأربعة حجارة كريمة وستٌ لآلئٌ ، وأُتْطِيعَ مولاهَا أطيافاً ، ويُهْدَى فريقتان من الأمراء إلى السلطان ٣١١ شِمْعةٍ مستورةٍ برسومٍ ، وَيَبْلُغُ وزنُ كُلِّ واحدةٍ منها قِنْطَاراً ، فيقابل المهددين بطلايا يَعدِلُ ثمنها ثلاثة أمثال تلك الهدية ، وَيُزَوِّجُ أَحَدُ السلاطين ابنته فيأمر بنصب خيامٍ مُذَهَّبةٍ وبإحضار ١١٠٠٠ قرصٍ سَكَّرَ محشورٍ بالزَبَّيْنَاتِ ، وَيَرْوِي المُرُوحُونَ أن السلطان صَنَعَ مثلَ ذلك في زواجِ بناته الإحدى عشرةَ فقال ناظر بيت المال مُتَحَسِّراً : « أَفْنِي حَيَاتِي في جَمْعِ مالٍ له ثم يُبَدِّدُهُ » ، وَيَذْهَبُ محمدُ الناصرُ إلى مكةَ حاجاً ، وتقدمه أربعُ سفنٍ في البحر الأحمر ، وتشتمل قافلته على ستمئة رجلٍ مُحَلَّلٍ ألفَ إِبْرَةِ وثلاثة آلافِ قُرُوجَةٍ وعلى قُدُورٍ

### الخوف من اللوات

مملوءة خُصراً طازجةً وعلى صناديق مملوءة أزهاراً ، ويجوب الصحراء مع هذه القافلة ، حتى يَرَكَمُ أمام قبر النبي خاشعاً .

ومع ذلك يساور الخوف أولئك السلاطين دوماً ، فكانوا يخشون وجود خنجر قاتل وراء كل ستار ، ويكشف استياء المالك الذين لم يقبضوا رواتبهم عن وجود مؤامرة يُحَوِّكها أحدُ المُرَكِّين لتطفر بهم ويقتلهم ، ولم يبق للسلاطين قطُّ مثل ما كان للفراعة من صفاء عيش فيتمتعوا بأطيب الحياة على حساب عيدهم وامتدوا أسرهم بها ، وما كان من ربيهم حول كل من يحيط بهم ، وما كان من مكاييد الخيَّصين الذين ينتقمون من رجال أصحاء جنوا عليهم ، وما كان من دسائس لا حد لها في دوائر الحرم ، أمورٌ كان يُخَيَّلُ إلى السلطان معها اتِّبارُ كل شيء به فيضاعف عدد حرسه البلي من قوّره ، أمورٌ كانت تحفز السلطان إلى إغلاق دكاكين بانعي السلاح ، أمورٌ كانت تحمّل السلطان على حظر الرماية على الشبان وعلى طرد جميع سكان العاصمة من منازلهم ، والسلطان إذا ما سافر تحوّل في الليل من خيمة إلى خيمة غير مرة .

وما كان السلاطين لينجوا من قدر الله ، فما يحدث أن يحاط بهم ذات يوم ، وقليل منهم من كان يوفق للفرار ، ومن ذلك أن أُمَيَّدَ السلطان يوسف بفضل مُرضيه المجوز التي سنَّجَتْ<sup>(١)</sup> وجهه بالسُخام وحولته إلى غسالٍ مُحَوَّنٍ فقرّ ، وهو يحمل طبقاً بيده ، من الباب الذي كان يتمتع خلقه قبل يوم .

ويسأل المؤرخ المؤرّع للعدل في نفسه عن وجوب سحر ذكرى أولئك الرجال الذين هلَكُوا كما أهلكوا أعداءهم .

(١) سنجة : لطفه بلون غير لونه .

وَيُمَثِّلُ الكفاحُ والجدُّ والجَلالُ في الإسلام دوراً أعظم مما في جميع الأديان الأخرى ، ومن هنا نجدُ ما عند أتباعه من طرازِ حياةٍ تخالطها رُوحُ المغامرة مع إيمانٍ بالقضاء والقدر ، ومن هنا نجدُ فَقْدانَ روح المواظبة ، ولا تُشِيرُ تلك القرونُ التسعةُ في النفس سوى خيالٍ سيفٍ لامع ، وصوتٍ مؤمِرٍ مُعَذِّب ، وصورةٍ جاريةٍ فتاةٍ كُتِبَ لها الفوزُ بفضلِ قُوَّتها .

## ١٧

وأقلُّ من ذلك ما تركه التركُ ، الذين جاءوا بعدئذ ، من آثار ، وسار التركُ على غرار الرومان فلم يمشوا بمصرَ ، وإنما ابتلعوها جاعلين منها إحدى ولايات دولتهم مع عدم إدخالِ لنظامِ الرومان ، ولم يَبْقَ من هذا العهد الذي دام نحوَ ثلاثة قرون ( ١٥١٧ — ١٧٩٨ ) غيرُ ذكرياتٍ أقلَّ مما بَقِيَ من الأممِ السَّابِقةِ الفاتحة التي أتت قبلهم ، ويقال ، مع ذلك ، إن الخلفاء أذاعوا صِيَتَ مصر على شواطئ البحر المتوسط الأخرى بنقلهم أعمدةَ راثمة من كلِّ دور إلى ضِفاف البُسْفُور ، وذلك لِيَدْعَمُوا سَقْفَ السَّراي ، وذلك مع صَبْرٍ نسايتهم أظافرهن بمسحوقٍ غيرِ معروف بآسية ، وكانت المقابر والمُطُور التي تُرْسَلُ إلى دائرة الحریم تؤلَّفُ جزءاً من الضرائب التَّيْنِيَّةِ التي يَجِبُ على الولايات البسيطة أن تُعَدَّها لِأَمِيرِ المؤمنين .

وإذا نُظِرَ إلى الترك من الناحية التاريخية وَجِدُوا وارثين لِأواخر العباسيين ، وذلك لأن الممالك التي كانوا قابضين على زمام الأمور من الأمير إلى السلطان منذ زمنٍ طويل هم من اللوالب الترك ، وينطلق شعبُ التركِ المُقاتِلُ من الأناضول

فَتَقِيمُ دَوْلَةً عَظِيمَةً كدولة الرومان ، وَيَقُومُ جنود الترك بِجَولاتٍ عَنيفَةٍ يَخْضَعُ للتركُ أمراءُ البلقان وملوكُ الجزائرِ وتونسَ وخاناتُ القِرِمِ وأمراله المومِيل والبصرة ، ويَصْبَحُ ما بين الخليجِ الفارسيِّ والبحرِ الأسودِ حَتَّى مَلْدَاقِيَةِ مُلُكَا لِم ، وَتَهَارُ تلكَ الإمبراطوريةُ فِي الحربِ العالِيَةِ الكَبْرَى فَلَمْ يَتْرُكْ التُّركُ أَى ثُرَاتٍ ثَقَافِيَّةٍ ، حَتَّى إِنْ نَفُذَ الخِلافةُ الَّذِي تَرَعه فَاتَحَ مِصرَ من صاحبه الشرعى الأخيرِ لِم يَكُن من القوةِ ما يَجْمَعُ البلادَ المُفتوحةَ بِهِ حَوْلَ مَثَلٍ عالٍ مُبْدِعٍ لِحَضَارَةٍ .

وَيَدْخُلُ السلطانُ السَّجْدَ الكَبِيرَ فِي سَنَةِ ١٥١٧ ، أَى بَعْدَ اسْتِيلَاءِ السلطانِ عَلَى مِصرَ ، وَيُتَلَقَّى رَاهِبٌ غَامِضٌ الأَمْرَ عَلَى بابِ كَنِيسَةٍ بِأَحْدَى القُرَى الأَلْمَانِيَةِ شَهَرَ حَرْبٍ رُوحِيَةٍ عَلَى البابَا برومة ، وَفِيما كانَ السلطانُ يَفْرِضُ بِالسَّيْفِ نِظَامًا اسْتِبْدَادِيًّا يَشْمَلُ بِلادًا بِأَسْرَها عِدَّةَ قُرُونٍ كانَ الآخَرُ يُؤَسِّسُ بِخِيالِهِ وَإِيمانِهِ جَمِيعَةَ ذَهْنِيَةٍ جَدِيدَةٍ ، وَمَاذَا بَقِيَ من عَمَلِ السلطانِ سَلِيمٍ إِذا ما قِيسَ بِعَمَلِ لُوثَرْ ؟ فَالْراهِبُ ، لاَ السلطانُ ، هُوَ الَّذِي يَبْذُو بِالْعِ الأَثَرِ فِي حَيَاةِ الأُمَمِ مِنْذُ خَمْسَةِ قُرُونٍ ، وَلَمْ يَكُنْ لُوثَرْ مُفَكِّرًا ، وَيُعَدُّ لُوثَرْ مَقَاتِلًا عَظِيمًا فِي كُلِّ زَمَنٍ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَقُولُ لُوثَرْ : « أَجَلٌ ، إِنْ الرُّوحَ والسَّيْفَ هُمَا اللِّذَانِ يَسِطِرانِ عَلَى العالَمِ ، وَلَكِنْ النِّصْرَ يَكُونُ حَلِيفَ الرُّوحِ فِي نِهايةِ الأَمْرِ » .

وَلَا شَيْءَ يَرْتَبِطُ أُولَئِكَ الفاتِحِينَ بِالبلادِ المَقهورَةِ ، وَكُلُّ ما يَكْتَرِثُ لَهُ أُولَئِكَ الفاتِحُونَ هُوَ أَنَّ يَنالُوا مِنْها أَقصى ما يَمكِنُ نَتِيجَتُهُ مِنَ المالِ ، شَأْنُ أَرْبابِ المالِ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ أَسمَهُمَ مِصانِعَ لَمْ يَرَوْها قَطُّ ، وَلَمْ يَأْتِ خَلْقُها السلطانُ إِلى مِصرَ حَتَّى لَزِمَها ، وَلَمْ يَسِرِ الوَلَاةُ الَّذِينَ كانُوا يُرْسِلُونَهُمُ إِلَيها نَحوَ مَجْرى النِّيلِ التَّوْقَافِيَّ ، وَكانَ هَؤُلاءِ الوَلَاةُ يَجهَلُونَ الفَلاحِينَ كما يَجهَلُونَ المَعايِدَ الَّتِي تَجْتَذِبُ مِثائِلَ السَّياحِ

## المالِك والفلاحون

منذ هذا المورد، وكان باشوات القرن السادس عشر والقرن السابع عشر من القوة ما يَفْرِضُون معه مشيئة مولاَم البعيد ، وكان للمالِك أنصاراً للحكومة كما في الماضي ، فينتظرون بعد قتل باشام إرسالَ باشا آخرَ محترمين مثل هذه القواصل في الحكم ، وكان بَلاطُ القلعة مملوءاً بأروع الخيول وأبهى البيد ، وكان البكواتُ والأمرأه يتنافسون في حيازة أثمن الثياب وأحسن الشُرُوج وفي الألباس والبنادق والسيّاط الساطعة فيبْدُون أَجَلَ من عَرَقتهم تلك القلعة ، فكان الله لم يأذن في نسيانِ المئاتِ ممن سبقوهم في ذلك البَلاط وخَنَفَها ، والحق أنهم مصدرُ الجمال والهولِ في تلك العاصمة .

ويَقِفُ الذهب عن الجريان في الوقت نفسه ، ويجتمع الخيالُ والذكاء قبل استيلاء الترك على مصرَ بيضَ سنين ، وبعد عهد أقوى للمالِك بهامين ، قَبِكران قَيَدَ بَلَدَيِ العالم القديم القويين بلا قتال ، قد نشأ عن مجاوزة قاسكو دُوغاماً رأسَ الرجاء الصالح وإلقائه مَراسِي سَفِينَه البرتغالية الثلاث على ساحل الهند الجنوبي خرابُ البندقية ومصرَ ، وقد أوجب ذلك مرورَ منسوجاتِ الصين الحريرية ومنسوجاتِ الهند القطنية والقُفْل والسكر وجَوَزِ الطَّيْبِ وَعُودِ النَّدِّ واللآلئ والحجارة الكريمة من الطريق الجديدة لمدة ثلاثمئة سنة ، وذلك بعد أن دام مرورُ هذه الأشياء من دلتا النيل إلى الغرب مدة ألف سنة ، وقد أوجب ذلك تحويلُ الهولنديين والإنكليز سوقَ العالم إلى أمستردام ولندن .

وهكذا يُصِيبُ الصُّرُومَ مالِكَ مصرَ قِيَتَهَبُونُ الفلاح الذي يَتَلَقَّى الصدمة دَوماً ، سواء أَوَقَفَ النيلُ عن الزيادة والقيضان أم اكتشف بعضُ الأجانب طريقاً بحرية جديدة على بُعْدِ ألف ميل ، وإليك ما ورد في تقريرِ وَصَمِه قناصلُ فرنسيون :

« لَا يَقِفُ جَسَعُ الْمَالِيكَ عِنْدَ حَدِّ مَا لَمْ يَتَجَرَّ الْقَلاَحُونَ عَنِ الدَّفْعِ ، وَلَا يَعْرِفُ هَؤُلَاءِ الْهَائِسُونَ سَبِيلًا إِلَى الْخِلَاصِ غَيْرَ الْفِرَارِ ، وَالْقَلَاخُ ، إِذَا مَا غَدَا غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى تَسْكِينِ شَرِّهِ سَادَتِهِ ، غَادَرَ حَقْوَلَهُ وَمَنْزَلَهُ ، وَبَحَثَ مَعَ زَوْجِهِ وَأَوْلَادِهِ عَنْ أَرْضٍ يَزْرَعُهَا فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى وَعَنْ سَادَةٍ أَقْلَ طَمَعًا مِنْ أَوْلَئِكَ ، وَيَعَامَلُ الْقَلاَحُونَ ، وَيُعْدُونَ مِنَ الْفَدَّادِينَ ، كَأَحْقَرِ مَنْ يُقِيمُونَ بِتِلْكَ السُّلْطَنَةِ ، لَا كَحَفْدَةِ شَعْبٍ فَاتِحٍ مِصْرَى ، وَهَمْ ، لِمَا لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنْ شَجَاعَةٍ وَبَأْسٍ ، تَجِدُ مَا يَسَاوِرُ رَوْحَهُمْ مِنْ وَجَلٍ وَخَوْلٍ يَحْمِلُ دُونَ اشْتِرَاكِهِمْ فِي أَصْفَرِ الْقَيْنِ الَّتِي تُحَرِّكُ مِصْرَ فِي الْغَالِبِ ، وَيَنْظُرُ سَادَتُهُمْ إِلَيْهِمْ كَمَا يَنْظُرُونَ إِلَى جَيَوَانَاتِ الزَّرَاعَةِ فَلَا يَرَأَوْنَ بِهِمْ ، وَلَا يَسْمَلُونَهُمْ بِأَيَّةِ رِعَايَةٍ تَقْتَضِيهَا الْإِنْسَانِيَّةُ ، وَيَتَصَرَّفُ سَادَتُهُمْ فِي أُمُورِهِمْ وَحَيَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكْفِيفُ الْحُكُومَةُ هَذَا الطَّغْيَانَ ، وَتُخَرِّصَ الْحُكُومَةُ ، بِسُلُوكِهَا ، عَلَى ذَلِكَ الْجَوْرَ بَدَلًا مِنْ مَعَالَجَتِهِ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا أَبَاحَتْ انْتِهَابَ قُرْمَى بِأَسْرِهَا وَاسْتِنْصَالَ أَهْلِهَا مَتَذَرَعَةً بِشَكَاوَى غَيْرِ صَحِيحَةٍ .. »

« وَيُذَبِّحُ الْإِنْسَانُ فِي الْقَاهِرَةِ كَمَا يُذَبِّحُ الْحَيَوَانَ ، وَيَقُومُ الضَّبَاطُ الَّذِينَ يَطُوفُونَ لَيْلَ نَهَارٍ بِشُؤْنِ الْقَضَاءِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ فَيَتَحَكَّمُونَ وَيَسْتَفْتُونَ النَّاسَ حَالًا ، وَمِنْ يُشَبِّهُهُ فِيهِ بِأَنَّهُ يَحُوزُ مَالًا وَفَقَّ وَشَايَةً عَلَوَى يَدْعَى لِيَتَنَلَّ بِبَيْنِ يَدَى الْبُكَ ، فَإِذَا رَفَعْنَ الدَّعْوَةَ أَوْ أَنْكَرَ وَجُودَ مَا لِيْهِ طُرِحَ عَلَى الْأَرْضِ وَجُلِدَ بِالسَّوْطِ مَتَى جُلِدَهُ أَوْ قُتِلَ مِنْ قَوْرِهِ . »

وَيَقِيلُ سُلْطَانُ بِاشَوَاتِ الْقَاهِرَةِ فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ مَقْدَارًا بِفَقْدَارًا ، فَتَصْبِحُ السُّلْطَنَةُ قَبْضَةً جَمَاعَاتٍ مُؤَلَّفَةٍ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا مِنْ أَعْيَانِهِ يَتَرَجَّحُ عَدَدُهُمْ بَيْنَ الْأَرْبَعَةِ وَالْعَشْرِينَ ، وَمَا كَانَ يَحْدُثُ أحيانًا أَنْ تَقْتَالَ حُكُومَاتٌ ثَلَاثِيَّةٌ ، وَمَا

### النصارى فى القاهرة

كان يحدث أحيانا أن يوفق طائفة للحكم عشر سنين من غير أن يُقتل ، ويرتفع الباشوات على وسائلهم الحرية ويحاولون إغاثة حياتهم على حين كان الجبار إبراهيم يُرهب القاهرة ، ويقابل المالك بكواتهم ، ويقايل البكوات فريق الكاشفية ، ويكافح الشيخ والعلماء فريق الأمراء ، ويفتنى حدة العبيد هؤلاء بسرعة فيتلكون بيوتا جبلة ونساء ذوات ثياب ثمينة ويؤلف حرسهم من أنكشارية يذفون رواتبهم من مالم الخاص إغاطة لخصومهم وبهزأ لعيون الناس ، وأما الجوارى البيض اللاتي يجمعونهن قلنس من الجمال ما يعدل حسن بنات العرب فيما مضى ، فيكتفى بكونهن من السمان « مع وجه كالقمر وأوراك كالوسائد » .

وكان لدى الأقباط عيد أيضا ، وكان الفتي منهم يحوز ثمانين جارية من البيض والشود والمحشيات معا على ألا يرثه أولاده الثملاء ، وإذا مات القبطى أعلنت السلطات إفلاسه وصادرت أمواله ، ولذا كان القبطى فى أثناء حياته يظهر اعتداله ويخفى غناه ، وكان محظورا على النصارى فى القرن الثامن عشر أن يسيروا كبا فرسا فى شوارع القاهرة التى هى من أكثر المدن سكانا فى ذلك الزمن ، وإذا ما كان النصارى راكبا حمارة وجب عليه أن يترجل عند مرور أحد البكوات أو مرور شائب من خيىان السراى راكبا جوادا أصيلا ، وهكذا ترى القبطى يأسف على أنه لا يستطيع أن يقتنى حصانا مطهما ، وهكذا ترى الخصى يأسف على أنه لا يستطيع أن يقتنى نساء حسنا .

وإذا كان القبطى المزدرى كثيرا قد صار لا بد منه فى المعاملات والإدارة كاليهودى فإن فود الترجان أخذ ينظم شيئا فشيئا ، فكان الترجان واسطة لازمة فى جميع الخصومات بين الترك والأوربيين ، ولا يزال الترجان يُشير فى



الذهن صورة طبيبٍ أُسْرَيةً يُعْرِفُ أسرارَ زواجه فيحاول شفاء أمراضه كثيراً حَذَرَ الزوجين مع اكتساب ثقة كلٍّ منهما .

ولم يكن للإنكليز قنصلٌ مقيمون بالقاهرة حتى في القرن السابع عشر ، والإنكليزُ قد نالوا أُمَّ التناجُ الجمهورية بفضل غريبٍ منهم هنالك ، فلما عاد برُوسُ في سنة ١٧٧٣ إلى القاهرة مكتشفاً النيلَ الأزرق بعد مغامراتٍ كثيرة كان من رُتُونَةِ الثياب ما أرسل الوالى التركى إليه بِدَرَّةٍ<sup>(١)</sup> ذهبٍ في سَلَّةٍ برتقال ، ويرفضُ برُوسُ البَدَرَةَ ، فيسأله الوالى عما يستطيع أن يصنع له فيُجِيبُه برُوسُ قائلاً : « انحروا أبناء وطنى حقَّ جَلْبِ سِلْمِهِم الهندية بالسُّنَنِ إلى السويس بدلاً من إكراههم على إزالتها إلى جُدَّة » ، ويُعطى لهم هذا الامتيازُ ، ولم تَلَبَّثْ أهميته أن بَدَتْ وأن أحرَّكها التاجرُ القدير في الشرق الأدنى ، بُلدوين ، الذى عَرَضَ مشاريعه على الحكومة الإنكليزية في تقاريرٍ كثيرةٍ جاء فيها : « وهكذا تجتمع بين الفنج والنيل والتايمس فنشرب على ذُرْوَةِ الهَرَمِ نَحْبَ إنكلترا » ، وكان لا بُدَّ من انقضاء عشر سنين حتى تُدْرِكَ تلك الحكومةُ فائدةَ السويس كرقعةٍ مروية ودرجةٍ اختصار الطريق البرية حتى موانئ الدلتا الشرقية .

وذلك هو الزمنُ الذى بدأ فيه تنافسُ فرنسا وإنكلترا على ضفاف النيل ، وكان الفرنسيون أكثرَ حُظُوَّةً ، ويتنزَّلُ قنصلٌ جديدٌ مع النيل من بولاق إلى رشيد بأهمَّةٍ عظيمة ، وذلك في ذهنية منارةٍ كانت كليوباترة تنَّارُ من دَوْنِهَا لو رأَتْهَا ، ويدنو عهدُ آل البوربون من نهايته ، ويُعْنَى كُلُّ موظفٍ بتزيين نفسه بالزُّنْبُق قبل قُوَاتِ الألوان ، ولما غَيَّرَتِ الثورةُ الفرنسية حياةَ عطاء العالم انتفع بها

(١) البدره : الكيس الموضوعة فيه التمرد .

### تبدا بلينتز

بكواتُ التركُ أنفسهم في القاهرة ، وقد ساروا على طريق أغنياء أوربة في الزمن  
الراهن فصرّحوا بأن حقوق الإنسان التي أعلنت حديثاً جعلتهم مُعسرين فامتنعوا  
عن دفع الخراج إلى الخليفة .

وسوف يَرَوْنَ نزولَ الثورة الفرنسية إلى مَصَبِّ النيل على شكلٍ غيرِ متظر  
عما قليل .

### ١٨

تُبْدَأُ غزوةُ بوناپارت لمصر بلينتز وتُخْتَمُ بِمَجْرَواتِ هيلر ، وكان أحدُ  
هذينِ الفكرينِ العظيمين موحياً بهذه الحملة الخائبة ، وكان الآخرُ ظافراً فيها .

إليك فيلسوفاً في السادسة والعشرين من سنه ، إليك هذا الكاتب في وزارة  
إمارة ألمانية صغيرة ، قد تَمَثَّلَ وسيلة لإبعاد الفرنسيين من حدود ألمانيا ، وكان  
هنا في سنة ١٧٧١ ، وكان هذا حين بلوغ لويس الرابع عشر أوج مجده ، وما  
كان من اتحاد الجيوش الألمانية والجيوش الفرنسية ضدَّ السلطان القى لم تنهز  
سلطته مع هزها ألقى في رُوحه فكرة إمكان فصل قسم من ولاياته من غير  
أن يشبه ذلك إثارة خصمة ، وكانت هذه الفكرة من الفكر الدارجة في ذلك الحين ،  
ولكن من دون أن يُحدِّدها أحدٌ كما صَنَعَ لينتز في رسالته : المُجمَع للمصري ،  
ويَسْمَى في شقٍّ طريقه إلى الملك الشمس ، ولا بدَّ له من تعيين وقتٍ للعقابة ،  
ويُجهِزُه الأميرُ بكتابٍ يُقدِّمه فيه إلى ذلك الملك ، أو ليست هذه المثالية العملية  
من سيمر الألمانى الحقيقى ؟ ويودُّ لينتز أن يُسلمَ إلى ملك فرنسا مذكرةً ينصحه

فيها بأن يفتح بلداً تركيا . وينتظر في باريس أربع سنين على غير جدوى ، وكان ذلك الماهل المنهك في حروبه ونسائه يرى أن اللئك يكون أذكي من أي فيلسوف كان .

ويصيب الملك ويتوارى الفيلسوف ، ومع ذلك تداوم الفكرة على سترها رويداً رويداً ، ومن الضامرين من كانوا يحطون من قيمة الفكرة أحياناً ناظرين إلى عبيد مصر قبل كل شيء ، ويمضي قرن فيعود إلى الفكرة قطب سياسي كبير ، يعود إليها ذوك شوازل في منفاه الرائع بشانطوب فيفهمها شاباً تماشياً بحول الأمر ، يفهمها تاليران الذي أبصر دهائه السياسي قبل كل شخص آخر ، ويمرض تاليران تحت تماثيل اللوفر الداعية ، بعد عشرة أعوام ، أي في سنة ١٧٩٧ ، « ما يجتقى من المستعمرات الجديدة من فوائد في الأحوال الحاضرة » ، وما قاله هنالك عن الشرق ماثلاً في جميع الذكريات ، فلما تَمُرُّ ثلاثون سنة على الزمن الذي طرد الإنكليز فيه الفرنسيين من الهند ، وكل ما هو حديث في ذلك القول هو ما انطوى عليه من برهنة مظهر لأهمية مفتاح الغرب : مصر ، ونال تاليران نجاحاً يائياً بذلك ، وكان تاليران أقل فتوراً من عادته ، وكان تاليران في أمريكا القنطرة قد عَرَفَ كيف يُقَدَّرُ فتون الحياة الاستعمارية ، ويُدَوُّ تاليران وزيراً للخارجية بعد خمسة عشر يوماً .

ولما قرأ الجنرال بونابارت في مؤنبلو ، بعد انتصاراته الأولى بإيطالية ، خطبة الوزير الجديد تلك تأثر مجداً من الشاعر والأفكار السابقة ، فصَحَّو الرياضى والخيال فيه ، وينظر إلى الماضي والمستقبل ، وتمتزع ذكرى الإسكندر وقصر وما نالاه في مصر من مجد بأمله في إنباه إنكلترة ، وكان لللازم القى بونابارت قد

« بَأْتَى كُلُّ مَجْدٍ مِنَ الشَّرْقِ »

كأفح سَأَمَ حياةَ الحاميةِ بقرائه كتبائينَ عن الهندِ ومصرَ مشهورينَ في ذلك الزمنِ ،  
فزار مؤلفَ أحدها وسَجَّلَ في يوميته قولَه : « بَأْتَى كُلُّ مَجْدٍ مِنَ الشَّرْقِ » كما تَأَتَّى  
الشمسُ منه « ، وفي الشرقِ سيَأْفُلُ مَجْدُهُ بعدَ حينٍ ، وبما أن بونا بارتَ كانَ مستعدًّا  
دوماً للانتفاعِ بِالْمَذْقَعِ دَرَجًا لنظرياته الفلسفيةِ أو تَخْلُصًا منها فقد كتبَ ، بعدَ أن قرأَ  
مَذْكُرَةَ تاليرانَ ، يقولُ للحكومةِ الديركتوار إن قهرَ إنكثرةِ لا يَكُونُ في غيرِ البحرِ  
التوسطُ ، وهو لم يَظنَّ أن وَضَعَ خِطَطًا عظيمةً حَوْلَ البحرِ للتوسطِ قائلاً : « ولمَ  
لا نستولى على جزيرةِ مالطة ؟ وإذا ما وَجِبَ علينا أن ننزلَ عن رأسِ الرِجاءِ  
الصالحِ نتيجةً لمصالحتنا إنكثرةُ أصبحَ استيلاؤُنا على مصرَ ضَرْبَةً لَازِبٍ ، ويُمكنُ  
السفرُ من هنا بجيشٍ مؤلفٍ من خمسةٍ وعشرين ألفَ رجلٍ تَحْمِلُهم ثمانيةُ ،  
أو عشرةُ ، مراكبَ حربيةٍ ، وَتَفْتَحُ مصرَ بهؤلاء الجنودِ ، فصرُ ليست مُلْكُ  
السلطانِ » ، وبما ذَكَرَهُ ابنُ الجزيرةِ هذا بعدَ حينٍ مُؤَكِّدًا أن البحرَ للتوسطِ كانَ  
هَدَفَ سياستهِ الأساسيِّ ، ويَجِدُ في ذلك الوقتَ ، كما يَجِدُ كُلُّ جندِيٍّ بَرَى  
تسويةَ فتوحه ، من الأسبابِ الأدبيةِ ما يُبَرِّرُ خِطَطَهُ ، ومن ذلك وجوبُ إقْذافِ  
أولئك المصريينَ البائسينَ من جَوْرِ السلطانِ ، ومن حسنِ حِطَّةٍ أن استطاعَ الانتفاعَ  
بمقررِ قنصلٍ يَتَوَجَّعُ فيه من اعتداءاتِ الحكومةِ التركيةِ .

وَبِمَدِّ بعدَ خمسةِ أشهرٍ جَهْلَةً لم تَجْرُؤْ دولةُ أوربيةٍ على محاولتها ، وما يحيطُ بها  
من غموضٍ قَيْدِمْه إلى الإسراعِ ، وهذا هو بدءُ سياستهِ الأعظمِ الذي دامَ  
سبعَ عشرةَ سنةً فانساقَ فيه هو وزملاؤُهُ وفرنسُهُ والعالمُ بِأَجْمَعِهِ ، « فلا ينبغي أن  
يُقَرَّطَ في دقيقةٍ واحدةٍ » ، ويهيئُ تلكَ الحِصَّةَ في ستةِ وسبعينَ يومًا ، و يبلغُ الدلتا  
بعدَ سفرٍ مُتَيَّرٍ ، وَيَسْهُلُ عليه بلوغُ الدلتا كما سَهَّلَ على الإسكندرِ وقيصرَ من قَبْلِ ،

### أسباب خيبة الحملة

ولم يكن لأحده من هؤلاء القامحين أن يتخوَّضَ غِمَارَ معركةٍ بحرية .

يبد أن أول سببٍ في خُيُوطِ عملِ بوناپارت هو أنه أول من جاء من الغرب لفتح مصر ، وإذا كانت الإمبراطورية الرومانية صاحبة السيادة في بلاد الفُؤُل عند ما استولت على مصر فإن مركزَ ثقلها كان في الشرق ، ولم يكن ليفصلَ مصرَ عن جُزُر البحر المتوسط التابعة لرومة غير وَبْةٍ واحدة في ذلك الحين ، ولم تَرَلْ مدةُ السفر بين طولون والإسكندرية ثمانية أسابيع من دون رَسُوٍ في ميناء ومع مرور أَلْفَي عامٍ على ذلك الزمان ، ومع ضرورة الإفلات من أسطول العدو ، وكان من المتعذر أن تُقَهَّر إنكلترة في مصر سنة ١٧٩٨ كما تَعَذَّرَ قهرُها سنة ١٩١٥ ، وكان استقرار الإنكليز بالدلتا نتيجةً وحيدةً لَحَمَلَةِ بوناپارت .

والسببُ الثاني في جُوطِ عملِ بوناپارت هو جهلهُ الحرب البحرية ، فع أن جنوده غَلَبُوا المماليك على الرغم من شدةِ الحُرِّ في شهر يولييه ، ومن غير أن يُقتَلَ منهم أكثرُ من خمسين رجلاً ، غَلَبُوا في البحر بعد عشرة أيام من قِتْلِ نَاسٍ .

والسببُ الثالث في ذلك الخُيُوطِ هو أنه كان على بوناپارت أن يقاتل بُحَدَاتٍ تأتي من الخارج مع أنه لم يكن على قَمْبِيَر ، ولا على الإسكندر ، ولا على قيصر ، أن يتَحَمَّسُوا تَدَخُّلاً أجنبيّاً من ناحية البحر .

والسببُ الرابع ، وهو أعمقُ الأسباب ، هو أن الفرنسي ، أو نصفَ الفرنسي بوناپارت ، كان ينبغي الرجوعَ إلى الغرب بأيِّ مَنٍّ كان ، وإن لم يَثْبُتْ وضعُه بمصرَ بُدْ ، وكان أكثرُائه لباريس أكثرَ من أكثرُائه لجمعِ سورِ القرآن ، ولم يكن المجدُ الذي يقتطفه على ضِفَافِ النيل ، على ضِفَافِ هذا النهرِ المَلْغِي ، لِيُذَكَّرَ بجانب ما يَجْنِيهِ على ضِفَافِ نهرِ السَّيْنِ ، وَيَعْرِى بوناپارتُ من مصرَ عندما أدرك

يتساق هرم خوفو

ببصيرته أن السلطان بفرسة صائر إليه ، وكان الرجل الذي جاءه بأحدث الأنباء ، وقد مضى عليها شهران ، وبالجرائد المشتملة على أخبار انكسارات فرسة ، إنكليزيًا ، ولولا ودُّ هذا الإنكليزي ما غادر بوناپارت مركزه ، وما ترك ضباطه وجنوده مُستخفيًا خلافاً لكل نظام عسكري ، وما قام باقلابه بعد بضعة أسابيع من عودته مستفيداً من توتر النفوس ، وبوناپارت قرّر كل شيء في ليلة واحدة بالقاهرة قضاها في مطالعة تلك الصحف .

وكان النيل يرتفع يوم معركة الأهرام ، وكان النيل بالنا حده الأقصى من الزيادة حينما تسلق بوناپارت هرم خوفو في يوم من شهر سبتمبر ، ولم ينطلق بوناپارت بكلام فخم في حضرة أبي الهول ، بل أخذ يداعب ، وهو لم ينفك يناكد برئيه ، وذلك لأنه « لا يجد موضع أفكاره في الأعلى هنالك » .

وأراد بعض رفاقه أن ينكص على عقبيه ، لما لا يعرف أحد بباريس ذلك ، فتحملهم بوناپارت على بلوغ القاية من الهرم ، والتي يقف نظرتنا من بناء هذا الجولان هو أن بوناپارت حمل الآخرين على سبقه ، فمن المحتمل أن يكون قد أراد اغتنام بضع دقائق ليواجه أبا الهول وحده كما صنع الإسكندر وقصر فيما مضى ، وتدلنا صورة رسمتها فيمان<sup>(١)</sup> دئون فيما بعد على اتخاذ العلماء وضعا مضحكا لما بدا فيها من وقوفهم على رأس أبي الهول حتى يقيسوا ارتفاعه بفادين<sup>(٢)</sup> .

وأدرك بوناپارت أمر النيل كما أدركه الرومان ، وذلك كما يُفهم من قوله الرائع : « ترى النيل بمصر ، أو رسول الخير ، وحرى الصحراء بمصر ، أو رسول الشر ،

(١) فيان دتون : تحت فرنسا ( ١٧٤٧ — ١٨٢٥ ) — (٢) القادن : في اصطلاح البنائين آلة تتجهن بها استقامة البناء وصحته .

حاضرين على الدوام » ، ويُضيف بوناپارتُ إلى ذلك قوله بإمكان اكتساب مملكة كاملة في الصحراء إذا ما أُنشئت مئاتُ الأسداد والقنوات ، ودرّس بوناپارتُ أمرَ القنوات فرسَمَ ، حتى في جزيرة القديسة هيلانة ، مشاريعَ للتقنية والزراعة ، وسَحَرَت قناةُ السويس القائدَ العظيمَ بوناپارتَ الذي كان لديه مزاجُ مهندسٍ قبل كلِّ شيءٍ ، وإذا كان بوناپارتَ في مناه لم يَنفَكْ بِشَغَلٍ بالله بتقنيات النيل فإنه كان ، حين قيامه بِمَنْصِبٍ ملازم ، يقتطف عباراتٍ من مؤلَّفٍ عن قناة السويس في القرون القديمة فيرى في رسالةٍ تحقيقٍ كتبها أن « حَقَرَ البرزخ » عملٌ يَقَعُ على عاتقه ، وذهب بوناپارتُ إلى السويس غافراً بِحياته ، وذلك أن حَرَسَهُ ظَلٌّ خَلَفَهُ وأنه وَجَدَ مع دليلين بِأَيِّ القناة القديمة فَتَتَبَعُها مَسَافَةً خَمْسَةَ أميالٍ خاسراً حِصَانين وأحدَ الدليلين ، وقام بوناپارتُ بتلك الرَّحَلَةَ بلا مَتَاعٍ فعلاً ، فَبَرِزَ أَمْرُ أَهْلِ تلك الناحية بعد زمنٍ أن كلَّ جنديٍّ كان يَحْمِلُ رَغِيماً مفروراً بِمُجَرَّبَتِهِ وأن كلَّ جنديٍّ كان يُعَلِّقُ قِرْمَةً بِعُنُقِهِ ، وَيَتَّيَنُ بِبوناپارتُ إمكانَ حَفْرِ البرزخ وَوَصْلِهِ البحرَينِ بِقَنَاةٍ مُجَهَّزَةٍ بِأَسْدَادٍ .

وكتب نابليون في جزيرة القديسة هيلانة قوله : « تُحَفَّرُ على طول القناة قَنَوَاتٌ رِىٌّ لِتَوْسِيعِ مَدَى الزَّرْعَةِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِدَّةَ أَمْيَالٍ ... وإذا ما كان من الأسداد ألفٌ غَلِبَ الْبَيْضَانُ وَوُزِعَ ، وَتُقَسَّمُ فِي جَمِيعِ أَتْحَادِ الْبِلَادِ مِلياراتُ أَقْدَامِ الْمِاءِ الْمَكْمُوبَةِ الَّتِي تَضِيعُ كُلَّ سَنَةٍ فِي الْبَحْرِينِ أَقْسَامَ الصَّحَرَاءِ لِلنَّحْفَةِ حَتَّى الْوَاحَاتِ وَإِلَى مَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ فِي جِهَةِ الْغَرْبِ ... وَيُوجِبُ عَدَدُ كَبِيرٍ مِنَ الْمَصْخَّاتِ النَّارِيَةِ وَالطَّلَاحِنِ الْمَوَاتِيَةِ رَفْعَ الْمِاءِ إِلَى الْمَقَامِ حَيْثُ تُؤَخَذُ لِلشَّقَى ... وَتُسْتَنْشَرُ الْحَضَارَةُ دَاخِلَ إِفْرِيقِيَّةٍ بَعْدَ حِيزَاةٍ خَمْسِينَ سَنَةً » .

ولا تَقِلْ حَمَاسَهُ غُورَهُ عَنْ حِمَاةِ نَابِلِيُونِ فِي الْمَوْضِعِ ، وَهَذَا يَكْفِي لَجَلِ الْأَمْرِ حُلًّا بِحِثِّ مِثَالِ الْأَعْيُنِ ، وَتَخْصِي سَبْعُونَ سَنَةً فَتَقُومُ الْإِمْبَرَاطُورَةُ أُوِيْنِي التي هِيَ زَوْجٌ لِنَابِلِيُونٍ آخَرَ بِالإِشَارَةِ الرَّمْزِيَّةِ فَتَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ .

وَيُؤَثِّرُ الْفَرَنْسِيُّ فِي الْفَلَّاحِ عِنْدَ أَوَّلِ تَمَاسٍ كَثَائِيرَ جَمِيعِ الْفَاتَحِينَ السَّابِقِينَ ، فَتَهْتَفُ لَهُ ، وَذَلِكَ لِرَرَارِ ظَالِمِيهِ مِنْ خِلَالِ الصَّحْرَاءِ وَلِأَنَّهُ عَدُوٌّ مَا وَقَعَ جُزْءَ عَهْدِ سَعِيدٍ ، وَمَا أَبْصَرَ الْفَلَّاحُ بَعْدَ مَعْرَكَةِ الْأَهْرَامِ حَنُوءَ الْفَرَنْجِ حِرَابِهِمْ ثَانِيَةً لِتَصِيدِ الْمَالِيكِ الْفَرَنْجِيَّ وَتَجْرِيدِهِمْ مِنْ ذَهَبِهِمْ ، وَمَا أَكْثَرَ مَنْ اغْتَنَى مِنْ جُنُودِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ! وَيُنْصَرُّ الْفَلَّاحُ سَيِّدًا آخَرَ يَحْتَفِلُ بِوَفَاءِ النَّيْلِ ، وَيَقْلُمُ الْفَلَّاحُ أَنَّ هَذَا السَّيِّدَ أَسَّسَ دِيْوَانًا جَدِيدًا بِرَأْسِهِ فِي الْحَيْنِ بَعْدَ الْحَيْنِ ، مَعَ جُلُوسِهِ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْأُورُوبِيَّةِ وَمَعَ ظُهُورِهِ بِهَذَا ، أَيْضًا ، أَعْلَى مِنَ التُّرُكِ الْقَاعِدِينَ الْقَرْفُصَاءِ ، وَيَرَى الْفَلَّاحُ حَاضِرًا أَنَّ النَّصَارَى يَجُوبُونَ الشُّوَارِعَ كَالْإِقْطَاعِيِّينَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُكْرَهُوا عَلَى التَّزْوِلِ مِنْ فَوْقِ حَيْرِهِمْ كَمَا كَانَ فِي الْمَاضِي ، وَيَخْجِبُ ظَنُّهُ أَهْلَ الْقَاهِرَةِ بِمَا رَأَوْا مِنْ بَسَاطَةِ بَاشَاهِمِ الْجَدِيدِ ، وَالْأَذْكِيَاءِ وَحَدَمِهِمُ الَّذِينَ أَدْرَكُوا الْوَضْعَ فَقَالَ أَحَدُهُمْ : « إِنِّي تَاجِرٌ بَسِيطٌ ، وَلَدَيَّْ أَحَدُ عَشَرَ خَادِمًا مَعَ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ عِنْدَ الْقَائِدِ ثَلَاثَةٌ مِنْ أَتْلَدَمِ ، فَلَا تَحْبَبُ مِنْ قَهْرِهِ الْبُكَ لِنَدَاكَ » ، وَيُبْذَلُ جُهْدٌ لِمُعَامَلَةِ الْفَلَّاحِ بِالْمَدَلِّ كَالَّذِي أَبْدَاهُ دِيْرَهُ فِي أَثْنَاءِ حَمَلَتِهِ بِمَصْرَ الْعِلْيَا عَلَى الْخُصُوصِ ، وَمَاذَا يَدُورُ فِي خَلَدِ الْفَلَّاحِ إِذَا أُطْلِعَ عَلَى مَا يُبْدِيهِ الْبَاشَا الْجَدِيدُ نَحْوَ مُوسَى وَعَمْدٍ مِنْ إِعْجَابٍ وَعَلَى جَعْلِهِمَا فَوْقَ عَيْسَى مَرْتَبَةً وَعَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَسْتَحَرُّ بِهِ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَسِيرُوا ؟

وَإِذَا رَجَعَتِ الْبَصَرُ إِلَى جَمِيعِ حُرُوبِ نَابِلِيُونِ لَمْ تَجِدْ لَوَاحِدَةً مِنْهَا ، حَتَّى لِحَرْبِ





٤٠ - زوجان ملكيان من البطالة



روسية ، مثل تلك الصفة غير الحقيقية ، مثل تلك الصفة الوهمية ، ومثير تلك الحيلة في النفس فكرة قطعة ناقصة من الأدب كتبها شاعر في شبابه ، وكل ما يقوم بقوة السلاح يزول حالاً ، وما كان من تسليم فرنسا التام أمام إنكفارة فيعد نتيجة لتلك المغامرة ، حتى إن يونابارت أبصر ذلك قبل عودته ، فأباحه القائد الذي خلقه إذا ما اضطر إليه .

ومع ذلك امتد دوى هذه الحيلة إلى التاريخ الحديث ، وقد طلب يونابارت ارتياد وادي النيل ريادة تاماً لإنشاء مستعمرة فرنسية فيه ، وقد أراد يونابارت أكثر مما هو ضروري نافع قضاء لمطالب الروح ، فترك سلطان فرنسا العابر في مصر آثاراً بيده الفوز مع أن النظام التركي للسلتم به والذي دام ثلاثئة عام لم يتترك أثراً ، والذي يلوح هو أن ذلك القائد الشاب الذي احتل في القاهرة ببلوغه الثلاثين من عمره ودّ لو يضمن نفسه ضد التسيان ، وقد أعلن العلماء على ذلك ، فأخبروا ذكرى ذلك القائد الذي لم يعرف غير قليل نصري في ذلك البلد .

والواقع أنه عن لبونابارت أن يأتي بمجهدي للعلوم والفنون حتى يحارب معه ، والواقع أنه عن لبونابارت هذا الأمر الذي لم يأت بئنه أحد من الفاتحين السابقين ، وما كان من ذبوع صيته ومن تأثير المبادئ العامة في ذلك الزمن حذر أكبر العلماء من ذوى الشعور الشير إلى الإبحار من طولون وإلى الاشتراك في حملة لا يرفون هدفها ، فقال أحدهم ، وكان من علماء الأرض : « أذهب إلى ذلك البلد المجهول ما وجد فيه حجر » ، فلما نزل هؤلاء العلماء والمفتنون ال ١٤٣ ، الذين عني باختيارهم من كل نوع والذين قسموا إلى خمسة فروع ، إلى سفينتهم الشراعية أخذ القائد العالم يقيم ، في كل مساء ، في غرفته بالركب ، - نكتة نقاش

## أسئلة في الاجتماع الأول

بعد أن يكون قد بلغهم الموضوع وقت الصباح ليستعدوا ، وبعد قليل يُقيمون بقصر رائع في القاهرة جدير برواية ألف ليلة وليلة ، ذى روضة غناء يتفلسفون فيها على طريقة اللشائين ، فيرون درجة تقدير القائد لهم ، ويشترك هذا القائد في اجتماعاتهم غير حامل حُسامه ، ويسمى ضابطه هذا المهذب « خليفة القائد المُفضَّل » ، ويُذكر العلماء أن هذا الرجل الذى يوشك أن يفلو الجميع ليس سائقاً عادياً ولا جباراً أمياً ، وإنما هو عبقرى راجب فى الاطلاع بلا انقطاع فيحضر كل اجتماع يفقدونه .

وتتميز ثلاثة أسابيع على فتح القاهرة فيطرح الأسئلة الآتية في اجتماعهم الأول وهى : ١ - كيف يجب أن بُنَى الأفران ؟ ٢ - أو يجب أن تكون الماطن هوائية أم مائية في هذا البلد ؟ ٣ - أى نوع من حشيشة الدينار يجب أن يُستعمل فى الحصة المَحَلِّيَّة ؟ ٤ - تصفية ماء النيل ٥ - أو يوجد هنا من المواد ما يصلح لصنع البارود ؟ ٦ - أو يمكن إصلاح المدل والتربة فى هذا البلد وفق رغائب السكان ؟

وما حدث ، لمرة واحدة فقط ، أن وافق على قراءة صحيفة له بنفسه ، وهو الذى سجل نفسه بين الرياضيين مع حفظ مكان له بين الشراء ، فبين له مُونج مُحذراً ، بلباقه ، أنه لا ينبغي له أن يُنتج ما هو متوسط ، ويُبدل بوناپارت عن الكلام بنفسه ، ويُجمل من شخصه مثلاً على الامتناع لم يتبعه الطنأة الأصغر فى الزمن الحاضر

ويُدْرُس العلماء والمفنون فى ثلاث سنوات جميع ما هو موجود فى وادى النيل فيبحثون فى نباتاته وحيواناته وطبقات سكانه وتاريخ أهله وفى معابده وقبورهِ وتماثيله

### مذكرات للمهد

وكتاباتِه ، وَيَصْعُ بُونَابَارْتُ قَاعَةً عَنْ قَنَوَاتِهِ لَمْ يَسْبِقْهُ أَحَدٌ إِلَى مِثْلِهَا ، وَيُشَارُ فِي هَذِهِ الْقَاعَةِ إِلَى دَرَجَةِ الِاتِّسَاعِ بِالْقَنَوَاتِ وَتَوْسِيعِهَا وَإِلَى مِيسَاةِ الْأَرَاضِ الصَّلَاحَةِ لِلْفَلَاحَةِ ، وَهَذَا عَمَلٌ عَظِيمُ الشَّانِ ، وَهَذَا عَمَلٌ اسْتَفَادَ مِنْهُ الْعَدُوُّ ، اسْتَفَادَ مِنْهُ الْإِنْكِلِيزُ ، وَقَدْ أُخْرِجَ حَجَرٌ رَشِيدٌ مِنَ الْأَرْضِ قَبِيلَ رَجُوعِ بُونَابَارْتِ ، فَاعْتَرَفَ أَعْضَاءُ الْمَعْهَدِ بِأَهَمِّيَّتِهِ مِنْ قَوَرِهِمْ وَإِنْ صَرَّحُوا بِعِلْمِ مَعْرِفَةِ ثَلَاثِي الْخَطُوطِ الثَّلَاثَةِ .

وَكَادَتْ تِلْكَ الْوَثَاقُ الْهَلْمَةُ تَضِيعُ ، فَلَمَّا فَتَحَ الْإِنْكِلِيزُ مِصْرَ وَرَكِبَ الْعِلْمَاءُ سَفُنَ الْإِنْكِلِيزِ فِي سَنَةِ ١٨٠١ وَفَقَّ مَعَاهِدَةَ الْاسْتِسْلَامِ أَمْرَهُمْ أَمِيرُ الْبَحْرِ الْإِنْكِلِيزِيُّ بَانَ يُسَلِّمُوا جُمُوعَهُمْ مَقْدَمًا ، وَيَخْرُجُ شَرَرٌ كَافٍ كُلِّ مَرَّةٍ يَتَصَلَّمُ فِيهَا السِّيفُ وَالرُّوْحُ ، وَيَخْرُجُ الشَّرَرُ مِنَ الرُّوْحِ ، لَا مِنَ السِّيفِ ، فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ جُوفَ رَاسَتِ هِيلِيرِ قَالَ بِشِدَّةٍ لِلْإِنْكِلِيزِيِّ الَّذِي حَصَرَ الْمَفَاوِضَ : « نَفْضَلُ حَرْقَ كَنْوَزَنَا بِأَيْدِينَا عَلَى تَسْلِيمِهَا إِلَيْكُمْ ، وَالصِّتُ هُوَ مَا تَهْدِفُونَ إِلَيْهِ ، فَكُرُّوا فِي صَحَافِ التَّارِيخِ ، ذَلِكَ يَقْبَلُ حَرْقًا ثَانِيًا لِمَكْتَبَةِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ » ، وَنُقِذَ هَذَا الْاِحْتِجَاجُ الْبَلِغُ مَا بَقِيَ مِنْ تِلْكَ الْحَفْلَةِ مِنْ أَمْرٍ وَحِيدٍ ، وَيَتِمُّ النَّصْرُ لِلرُّوحِ عَلَى الْإِنْكِلِيزِيِّ فِي الْمَكَانِ الَّذِي انْتَصَرَتْ فِيهِ قُنَابِلُ الْإِنْكِلِيزِ عَلَى الْفَرَنْسِيِّينَ .

فَتَحَ بُونَابَارْتُ مِصْرَ فِي ثَلَاثَةِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا مِنْ تَارِيخِ وَصُولِ أَوَّلِ مَرْكَبٍ ، وَتَشَرَّتْ مَجْلِدَاتُ الْمَعْهَدِ الْمِصْرِيِّ الثَّمَنَةُ فِي ثَلَاثِ وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَتَمَّ صُدُورُ آخِرِ الْمَجْلِدَاتِ فِي عَهْدِ آلِ الْبُورْبُونِ ، وَتَزَعَّ الْعِلْمَاءُ مِنْ عَمَلِهِمْ قَوَّجِدُوا أَنْفُسَهُمْ أَمَامَ مَلِكٍ حِينَمَا كَانُوا مِنْهُمْ كَيْفِيَّةً فِي تَكْدِيسِ وَثَائِقِهِمْ ، فَكَانَتْهُمْ أَنْاسُ قَصَّوْا لَيْلَةً فِي قَصْفٍ وَلَهَوٍ فَأَبْصَرُوا الْعَجَرَ وَعَادُوا إِلَى مَنَازِلِهِمْ مُحَمَّاةٌ عُشْيَا بِنُورِ النَّهَارِ . وَهَكَذَا خَتِمَتِ الْحَلَّةُ الْمِصْرِيَّةُ ، كَمَا بَدَأَتْ ، بِإِشَارَةٍ مِنْ عَالِمٍ ، وَكُلُّ مَا آتَى

به بوناپارت نفسه من تلك الحملة هو مملوكٌ طويلٌ ينام أمام بابهِ وجُلُّ نَزَعٍ من إصبع أحد القراصة .

## ١٩

يرجع بحث النيل إلى جنديين ، وكما أن اكتشاف منابه في القرن التاسع عشر كان من عمل صيادين ، لا من عمل عالمين ، كان قهرُ مصبه من عمل مستبدين ، لا من عمل مهندسين ، وما فُطِرَ عليه قُوَاذُ التاريخ العظيم الخمسة أو الستة من مزاج جِبَارٍ قد سَحَلَمَ على مكافئة المناصر وعلى الدول عن الحروب المُخَرِّبة الدامية وعلى إيقاد حروبٍ مُؤَلَّدةٍ كانتاتٍ جديدةٍ نَصْرَةٍ ، وإذا كان حُبُّ الإنسانية لم يَدْفَعْهُمْ إلى العمل فإن للناس فوائدٌ من أفعالهم على الأقل ، وهكذا أخضع نابليونُ ومحمدُ عليٌّ نهرَ النيل على وجهٍ جديدٍ قاطع .

ولم يَفِرْ بوناپارتُ من إفريقية ليصير إمبراطوراً في أوربة لحَقِّقَ على ضفاف النيل أحلامَ فتاته كما تَنَلَّبَ بإرادته على القوضى فيما بعد ، والواقعُ أن بوناپارتَ لم يَعْلَمْ بيلدٍ كما حَلِمَ بمصرَ فكانت تتمثل له دوماً كما تتمثل الفتاة للشاعر ، ويتحلم خَلْفَهُ في مصرَ أفكاره ، وَيَبْدُو النيلُ خطاً وَضَلَّ بين رَجُلَيْنِ يُدْعَانِ أعظمَ مَنْ مَنَى عصرهما من السادة .

وليس ذلك مصادفةً صِرْفَةً ، فهناك تجانسٌ عميقٌ بين محمد عليٍّ ونابليون ، بين التركيِّ والفرنسيِّ ، وإن شئتَ فَهَلْ بين الألبانيِّ والقورسِيَّ ، فكلاهما عَمِلَ في سَبِيلِ عظمة وطنه الثاني ، وكلاهما وُلِدَ سنة ١٧٦٩ ، وكلاهما خَرَجَ من طبقةٍ

لم يكن وراءه أى ماضى كان

متوسطة، وكلاهما فقد أباه فى صباه فتشأ بين إخوة وأخوات كثيرين ، وكلاهما اضطرَّ إلى احتمال تَبعة أعماله قبل الأوان فأدرك باكراً أهمية وسيلتي السلطان : المال والسلاح ، ولم يَسْمَعْ كلُّ من الرجلين ، ابن تاجر القهوة الشاب فى قوله وابن المحامى فى أجابسيو ، فى بيته حديثاً عن غير الأراضى والسفن والمال وطرق جمع ذلك كله بفضل جزبه ، ويترك ابنا البحر المتوسط ذاك منذ البداية فى المنازعات المحلية بوطنيهما الصغيرين ، ويؤدَّى الاضطراب الاجتماعى إلى تميّزها وسرّها قديماً ، ويمنُّ وطنهما النكور عليها بالدهاء ، وتوحى صروف الدهر إليهما بالأحلام الجريئة التى يفامر من أجلها بكلِّ شيء والثى يُمكن بها كلُّ شيء ، وتُسَيِّر هذه العناصر الكثيرة الاختلاف عن واقعية يُثيرها الخيال وعن تحويل الرجل نفسه إلى دِبلُومِيٍّ وإلى جندي .

ومع ذلك كان بوناپارت الشاب وارثاً لثقافة ألفية حيناً تشتمل كنوز الماضى ، ومع ذلك لم يكن وراء محمد على أى ماضى فكان ملكاً حيناً تعلّم القراءة فى الأربعين من عمره ، وقد قامت رسالته الأولى على وضع حدٍّ للثورة الفرنسية التى ما قننت تشتمل منذ عشر سنين ، وقد حرك الآخرُ جهوراً فائراً وأيقظ شعباً ناعساً ، وذلك إلى وجود فرقي جوهريّ ، وهو أن نابليون أنجز عمله وأبصر انهياره فى خمسة عشر عاماً مضطرباً . وأن محمداً علياً قضى خمسين عاماً فى إتمام صنّعه ، قضى ما بين الثلاثين والثمانين من عمره فى إنشاء مصر على الرغم من الحروب ، ولما أراد نابليون أن يقوم بعمل جليل سيّره ظلال انتصارات شبابه إلى بقاع بعيدة ، ولما أصبح محمد على شائباً ترك كلَّ ميل إلى الفتح متفرّغاً لإدارة بلده .

وتجد سير الاختامين فى اختلاف طموح الرجلين ، ولا يراءى فى أن طموح محمد على

يَعْدِلُ طُمُوحُ نَابُلْيُون ، فيصْبِحُ تاجِرُ التَّبَغِ السَّابِقُ وَالضَّابِطُ المَجْهُولُ الأَمْرَ هَذَا مَلِكًا ابْنًا لِّلسَّادَةِ والثَّلَاثِينَ ، أَى فِي السَّنِ الثَّانِي غَدَا نَابُلْيُونُ فِيهَا إِمْبَرَاطُورًا ، وَلَكِنْ نَابُلْيُونُ يُتَنَاوَلُ التَّلَاجَ مِنْ يَدَيِ الْبَابَا لِيَضَعَهُ بِنَفْسِهِ عَلَى رَأْسِهِ ، وَلَكِنْ مُحَمَّدًا عَلِيًّا يَنْتَالُ الْوَلَايَةَ مِنَ الْخَلِيفَةِ ، هُوَ جَاكَمٌ مُطْلَقٌ مَعَ بَقَائِهِ تَابَا ، هُوَ لَمْ يَأْتِ حَرَكَةً يَصِيرُ بِهَا مُسْتَقْلَلًا ، هُوَ يَمُوتُ بِأَسَا أَوْ عَزِيزَ مِصْرَ .

وَمَعَ ذَلِكَ كَانَتْ تَسَاوُرُ الْفَاصِيَيْنِ مُسْئَلَةٌ وَاحِدَةٌ ، تَسَاوُرُهُمَا وَرَاثَةُ الْعَرْشِ الْمُبَاشَرَةُ ، وَكَانَ السُّلُطْمُ أَفْزَرَ حَقْلًا مِنَ النَّصْرَانِيَّ فِي هَذَا الأَمْرِ ، وَكَانَ فُؤَادُ الْإِمْبَرَاطُورِ يَفِيضُ حَنَانًا أَشْرِيًّا ، وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُرْزَقَ وَلَدًا حَتَّى الْأَرْبَعِينَ مِنْ عَمَرِهِ ، وَكَانَ مُحَمَّدُ عَلِيٌّ فِي الثَّامِنَةِ عَشْرَةِ مِنْ سِنِيهِ حِينَمَا رُزِقَ ابْنُهُ الْأَوَّلُ ، فَبَلَغَ عَدْدُ أَوْلَادِهِ مِنَ الذَّكُورِ وَالْإِنَاثِ خَمْسَةً وَتِسْعِينَ ، وَمَا كَانَ لِيَحْتَاجَ إِلَى إِخْوَتِهِ وَأَخَوَاتِهِ إِلَّا قَلِيلًا ، وَفِيمَا كَانَ مُحَمَّدُ عَلِيٌّ مُتِمًّا بِالْقَاهِرَةِ جَادًّا فِي الْمَفَاوِضَاتِ كَانَ ابْنُهُ الْأَكْبَرُ ، كَانَ ابْنُهُ الرَّجُلُ الْمُمْتَازُ ، يَنْتَالُ انْتِصَارَاتٍ ، وَلَا يَقَاسُ مُحَمَّدُ عَلِيٌّ بِنَابُلْيُونِ قَانِدًا عَسْكَرِيًّا ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ يَعْدِلُ نَابُلْيُونَ رَجُلًا دِينِيًّا لِكُونِهِ شَرْفِيًّا ، أَجَلٌ ، إِنَّهُ قَهَرُ التُّرْكَ وَالْعَرَبِ وَالزَّنُوجِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقَابِلْ بِجِيُوشِ أَوْرُوبَةِ ، فَكَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَنْتِيلَ بِالْإِنْتِاعِ مَا عَظَّمَهُ نَابُلْيُونُ مِنَ الدُّوَلِ ، وَمِنْ دَوَاعِي الْمَجَبِّ أَنَّهُ كَانَ يَجْهَلُ لِفَاتِ هَذِهِ الدُّوَلِ فَيَتَرَأَّى عَلَى وَجْهِ الْمَفَاوِضِ تَبْلِيغَ تَرْجَانِهِ إِلَيْهِ حَقِيقَةَ الأَمْرِ ، وَمَا عَلَيْهِ هَذَا الرَّجُلُ الْقَصِيرُ وَذُو الْبَصَرِ الْمُنِيرِ مِنْ فُتُونٍ فَكَانَ يَسْخَرُ جَمِيعَ الزَّائِرِينَ وَجَمِيعَ الدِّبْلَمِيَّاتِ .

وَأَكْبَرُ حَظٍّ لِحَمْدِ عَلِيٍّ هُوَ تَوَطُّيدُهُ سُلْطَانَهُ بَيْنَ سَنَةِ ١٨٠٣ وَسَنَةِ ١٨١٣ حِينَمَا كَانَ نَابُلْيُونُ أَخَذًا أَوْرُوبَةَ بِخِنَاقِهَا وَفِي اجْتَذَابِ الشَّمْسِ الْكُبْرَى لِسَيَّارَاتِ نِصْفِ الْكَوْكَبِ



الغربي ، ولولا نابليون ما وُطِئَ محمد علي أرض مصر برجله على يمتثل ، وما استولى عليها وما احتفظ بها لا ريب ، ولذا لا عجب إذا ما أخذ نابليون يجمع قلبه

## ٢٠

يقال إن الألبان من سلالة المقدونيين ، ولما سار أحدهم على غرار الإسكندر كان له حق مضاعف في الادعاء بهذا ، وإن لم يكن ابناً قليب ، وإن كان ابناً لتاجر قهوة في قوّله ، وما فتئ الألبان ، والمصريون أيضاً ، يكونون مُحَرَّكاً إلى زمن قريب ، وما كان الألباني يستطيع فتح مصر لهذا السبب ، وكان يمكن الألباني أن يملك مصر باسم السلطان فقط لهذا السبب ، أجل ، بدأ الحكم التركي في سنة ١٥١٧ ، ودام حتى سنة ١٩١٤ ، ولكن كما أن ملك مصر الأول فؤاداً كان ابناً لخفيد المصامي القدوني محمد علي غدا هذا المصامي المقدوني مؤسس الأسرة المالكة الخاضرة في مصر فلما سبيل بطليموس التي بدأ أمره قائداً للإسكندر فنقل إلى آله ملك مصر مدة ثلاثة قرون ، ويظل صاحب العبقرية عاطلاً من اللقب ، ويرثه من هم دونه من قواد أو صيارفة فينالون تاجاً أو يرتدون شرفاً .

ويسدل محمد علي ستاراً على دَور فتاته ، ويدافع جهراً عن محبة أول زواجه زوجته الأولى وصولاً إلى شرعية بنوه ابنه الأكبر ، ويؤور بلده بعد غياب حسين سنة فلم يميز راية ولم يلاطف فرقة ولم يضرب وساماً تذكاريّاً ، وكل ما صنع هو أنه أسس مدرسة كانت تموزّه في صباه ، وكان هذا الضابط الألباني قد ذهب

إلى مصر مع الكتائب التركية ابناً للتاسعة والعشرين من سنيه ، وكانت هذه الكتائب موجهة ضد بونابارت فحال بونابارت دون نزولها إلى البر ، ولم ينع بصركل من الرجلين على الآخر قط ، وذلك لأن محمداً علياً سقط في البحر نتيجة للارتباك الذي أسفر عن معركة أبي قير الثانية ، فنشله من البحر مركزب إنكليزي لم يدرك في خلده ربانه أى رجل شديد الشكيمة يُنفذ حياته ، وتمضى بضعة أشهر من سنة ١٧٩٩ تلك فيصبح بونابارت القنصل الأول بباريس ويصبح محمد على قائد حامية القاهرة .

وكان كلا الرجلين يعتمد على السلطات القائمة فيسلط بعض الأحزاب على بعض اصليداً في الماء العكر ، وكان محمد على يحرض المالك على الإنكليز الذين يحترسون من الباب العالي ومن القائد الألباني الجديد ، ويقبض هذا الأخير على زمام الموقف في أثناء تمرده ، ولكنه يجعل عدواً أزرق من الباشا المطرود الذي لا ينفك يحوكم الدسائس ضده بالآستانة في سنين كثيرة ، ويقم الألباني بالقلعة ويصبح باشا بفضل مولاه العاجز .

ويجعل من المالك آلة قهر الإنكليز الذين عادوا بعد أربعة أعوام ، ولكنه يبدى من المهارة في هذه المرة ما لا يعتمد معه على عدو مغلوب ، وكان الألباني ابناً للثامنة والثلاثين حين تدخله في السياسة الكبرى على ضفاف النيل ، وهو لى يفلح في عمله الإنشائي ينفع بكل ما لى « الفرنج » من فوائد ويبنى جميع المحازى التى كان النصارى عرصة لها .

وكان السلطان يخشاه فيحترمه ، وما كانت الدول المتقاتلة تنتظر في أمره فلم يلبث أن ضار محبوا لدى الجمهور بمصر ، وكان يؤول على فريق الساعطين منذ البدأة ،



٤١ — باب بيت في القاهرة



## قتل المالك

أى على الشعب المصرى الذى يَشْرُ بأنه مُبْتَصَر ، وقد أعلن أنه « مختار الشعب » فصدقه جميع العالم لما كان يعلم من قيادة الجماهير ، ولم يَبْقَ عليه غير كَسْر الممالك الذين لا يزالون مسلحين فى القاهرة فَتَخَلَّص منهم بأن قتلهم فى يوم واحد .

والتاريخ حتى اليوم ، حتى بعد انقضاء أكثر من مئة عام ، يُحَدِّث بإسهاب عن ذلك اليوم أكثر من حديثه عن جميع أعمال محمد على الأخرى ، وثرانا نَزْهُو على نابليون خُلُقياً لما كان من قتلِه دُوك دُنجان رُمياً بالرصاص ولما كان من قتلِه فرانس الطاعون يافا ، ويُبْدَى من الشَّدَّة تجاه مَنْ يقرِفون مثل ذلك الذبح أكثر مما يُبْدَى تجاه من يتأصلون أمماً بأُسْرِها ، وذلك لأنه يُرى فى هذه الحال أن مجدَّ السلاح يتطلب ضحايا التقليديين ، ويجمع نابليون ومحمد على لحروبهما أُلوفَ الشُّبان قَسْراً فيَقْصُونَ نَحْبَهُمْ لأسباب لا يَهْتُمُّهم أمرُها أو لأسباب يعارضونها مع أنه لم يَهْلِكْ بالقاهرة فى ذلك اليوم من مارس أكثر من ٣٥٠ رجل كانوا يَتَمَتَّعون بضروب السلطان أو الملائد على حساب سعادة نصف أمة ، حتى إن هذا العدد لو زاد على ألف ما عَرَفَ التاريخ مملوكاً واحداً يَأْسَفُ عليه .

ومن تقاليد الترك ، ومن تقاليد المصريين ، أن يُصَارَ إلى إنزال تلك الضربات ، وكان محمد على قد قَهَرَ الممالك فى مصر العليا منذ سنة ، وبما ادعاه وجودُ سِنَاتٍ جديدة على إثمارهم به ، وهذا الادعاء قريب من الصدق ، ويدْعُوهم إلى القلعة لتنظيم حَلَّةٍ ، ويستقبلهم محفلاً فى الرُّوَّاق الكبير ويرفع الجِسرَ الثقيل ، فلما وَقَعُوا فى الفَخِّ أَمَرَ محمد على رجاله من الألبان بإطلاق النار عليهم من فوق الأسوار عند خروجهم من القاعة ، ولم يَتَقَلَّتْ منهم سوى واحدٍ وَتَبَّ يحصانه من الجدار ، ووَصَلَ مملوكٌ آخر متأخراً جيِّداً فوجد الباب مُتَقَلِّقاً فَرَجَعَ فلم يَبْقَ حتى بَلَغَ

يسلم القيادة إلى ابنه إبراهيم

سورية ، ويمثل طيب محمد على الجنوى بين يدي نائب السلطان هذا ويخبره بنجاح العملية ، ويسكت محمد على ، ويؤمى بإحضار ما يشربه .

وكان ذلك الاقلاب الذى تم على الطريقة الشرقية أمراً ضرورياً لإنجاز مشاريع الباشا الجديد ، ولكنه ليس من شيمه ، فهو لم يمد إلى مثله ، وهو لم يلجأ إليه فى أحوال خاصة ولا فى السودان ، والواقع أن تلك المذبحة خيرٌ للبلد الذى نئى منذ قرون تحت نير المالك فكانت تهدف إلى غير هدف المذابح السابقة ، وهذا ما أثبتته محمد على فيما بعد .

ويسلم محمد على قيادة جنوده فى جزيرة العرب إلى ابنه الأكبر إبراهيم فيذهب العالم إذ يبصر ظهور قائد عظيم ، وكان يمكن محمداً علياً أن يقطع صلته بالسلطان مستعيناً بأنه ذلك فيبدؤ سيداً لجميع جزيرة العرب ويمثل من مصر مركز إمبراطورية جديدة كما صنع ابن وطنه الإسكندر المقدونى ، ولم لم يفعل ذلك ؟

هو لم يفعل ذلك ، مع ما ناله من انتصارات سريعة ، لما لم يكن عنده من الجرأة البالغة ، وهو قد كان ، كبعض التماثيل للوضوعة أمام جذر الكنائس القديمة ، محتاجاً إلى الشعور بوجود جدار الخلافة الكبير وراءه ، وهو لم يفتأ يدير ظهره إلى السلطان مع دوام خوفه من انهيار ذلك الجدار وسقوط الإمبراطورية التركية فى زمانه ، وما تم لابنه من انتصارات قد هيأ له سبيل الانفصال مرتين فكان يمكنه أن يتسلط حياته على الأماكن المقدسة بما اتفق له من سلطة ونفوذ قوى بين ملايين المسلمين ، فينادى بنفسه خليفة أو سلطاناً كما صنع صلاح الدين النيرفى وادى النيل منذ سبعة قرون ، وهو لم يفعل هذا ، بل أعلن أنه لم يستول على

سورية وجزيرة العرب إلا تابعا للسلطان عاملا على زيادة شوته .  
وَقَطَعَ الصَّلَاةَ بالسلطان مع ذلك ، وتوالى انتصارات إبراهيم فَبَدَّدَ البُسُورَ ،  
وَتَنَدَّخَلَ روسية ، ثم الدولُ الخسُ العظمى ، فَنَقَضَ السلطان ، وذلك لأن هذه  
الدول لم تكن تَتَخَشَّى شيئا كظهور هذا الألبانيُّ المروء أميراً للإسلام ، وذلك  
لأن هذه الدول لم تكن لَتَرَغَبَ في شيء أكثر من تجديد عهد المالك الضعيف  
القائم على الشهوة والطمع .

والإنكليزُ على الخصوص هم الذين أفرعهم هذا أباشا الذى كان سلطانه يمتدُّ إلى  
جبال أرمينية وإلى الخليج الفارسى ، ولكن الإنكليز لم يَقْهَرُوا نابليون الشرقى  
هذا في عكا ، التى ارتد عنها بوناپارت منذ أربعين سنة ، إلا بمساعدة مراكب  
الدول الأخرى .

وكان محمد على فى السنة الثالثة والسبعين من عمره حينما خَيرَ الفصلَ الأخير ،  
وَبُلِزَمَ بتسليم سورية وبنفخِ جِزْيَةٍ إلى السلطان وترك الأماكن المقدسة له  
وبالتنزل عن قسم من استقلاله للمالى ، والشئ الوحيد الذى ناله بتلك المعاهدة هو  
الشئ الذى كان يشناه فى صميم فؤاده ، هو الاعترافُ بكون الحكم فى مملكة  
مصرَ التابعة أمراً وراثياً فى آله .

وهو إذ لم يَقْضِ على التاج المصرى بنفسه كما صنع نابليون فإنه لم يَسْطِمْ أن  
يَضْمَنَ استقلاله ، وهو إذ كان له حَفْدَةٌ وَتَقَدَّمَ فى السَّنِ فإنه ضَمِنَ لم وِرائَةِ العرش  
خلاقاً لنابليون ، وهنا يُسْأَلُ : أى الرجلين أوفى خطأ لى القدر ؟

وما هو نصيب الفلاح في عهد هذا السيد الجديد ؟

انقضى زمنُ استبداد المالك ، وانقضى معه دورُ الجماعة ودور أسوأ الزنجيات ، وصار الفلاح قليل الخوف من نهَاب الأعراب ، وغدا من النادر أن تُسرق قطاعه ، ولو سار كل شيء كما يريد السيد الجديد لعدَلَ القاضى عن جلد الفلاح جوراً ، بيد أن الباشا كان يقوم بِمِدَّةِ جَوْلَاتٍ في البلاد فلا يُبْدَى نَصَباً ، بل يَظْهَرُ في الغالب نصيراً كريماً ، ومع ذلك كان الباشا مستبداً فيقولُ إنه لا يمكن حلُّ هؤلاء القوم الثَمَسِ إلا بالقوة والسَّوْطِ ، وكان بطرسُ الأكبر قدوةً له في ذلك .

وعلى ما يعانيه الفلاح من قهرٍ بالغ كان يسرُّه أن يَعْرِفَ أن القرُباة عن الأرض لا يُجِيعونه كأجداده ليمِيشوا مَتَرَفِينَ أو لِيَقْتُلُوا أعداءهم ، وكان يشعرُ بوجود رجل في القلعة يَعْمَلُ في سبيل مصرَ على الأقلِّ ، أَجَلٌ ، كان يُكَبِّلُ لِيَجِرَّ إلى الثَّكَنِ ، وكان يُفَرِّضُ عليه نظامٌ شديد ، وكان يُرْسَلُ إلى بلاد النوبة أو الأناضول ، ولكن أولاده كانوا يُوَضَّعُونَ في المدارس وَيُعَلِّمُونَ وَيُطْعَمُونَ على حساب الباشا وتُدْفَعُ إليهم قُودٌ في بعض الأحيان ، وأخذ الفلاحُ يَشْعُرُ في عهد محمد على بوجود أمرٍ كان مجهولاً لديه ، وهو الكرامةُ الشخصية .

والحقُّ أنه كان يَتَمَنَّى عليهم أن يُذَرِّكُوا التاية التي يَسْعَى إِلَيْهَا محمد على ، وقليلٌ مَنْ كان يَعْلَمُ أمرَه في ذلك الحين ، وكان يلوح أنه يَسْلُكُ سبيلَ السَّلْبِ على حين يقوم بأول تجرِيةٍ لاشتراكيةٍ حكومية ، ولا رَيْبَ في أن هذا السلمَ العاجزَ



لكن البلد يزدهر

عس فك حروف القرآن وجد من يتلو عليه قصة يوسف الذي كان وزيراً لفرعون  
فصادر معظم الأراضي الزراعية بنزع ملكية المالك وتمويص المزارعين ، وهكذا  
صار أكبر مالك عقارى بمصر فصار تاجرها الأوحده وأنشأ مصانع أنحى بها  
منتج السلع الأوحده ، وقد أخضع جميع وادى النيل لنظامه الاقتصادى ملزماً بما  
يراه ضرورياً من ضروب الزراعة ، موجهاً لهذه الزراعات طارداً ذوى البطالة  
مكروهاً الفلاح على يتبع حبوبه من الإدارة بشئ معين على أن يقبض بعض  
الغن قنوداً<sup>(١)</sup> من معامل سكره ، ومن ثم ترى أن وادى النيل لم يكن قبل  
ستالين بثمة سنة سوى مزرعة حكومية واحدة يديرها نائب السلطان .

والأغنياء الذين انتزع أملاكهم يذعرون ، والفلاحون يرتجفون ، والوسطاء  
يتننن ، ولكن البلد يزدهر ، ويتقى على النظام الاستبدادى والصلاح الإدارى  
ثلاثون سنة فيتزده تاجر القهوة بقوله على النيل فيحق له أن يلاعب لحيته الأبرية  
فيقول فى نفسه إن مصر لم تنل من الرخاء ما نالته فى أيامه منذ قرون ، وفى عهد  
أى سلطان ، وفى ولاية أى باشا ، أجل ، إن محمداً علياً أخذ من الفلاح نقوده  
وسلبه حريته كما صنع للمالك ، أجل ، إنه أكره الفلاح على حق القنوتات  
وشيد المباني وجمع منه جنوداً لحروبه ، أجل ، إنه جلد به بالسياط حملاً له على  
دفع الضرائب ، أجل ، إنه وضع للحبوب أثماناً لا يستطيع أحد أن يؤذيها ،  
ولكنه قل جميع هذا فى سبيل بلده ، وأما هو فكان يكتب بكرز يأتبه من كريد  
وبأحسن أنواع القهوة والتبغ وبقصر جميل حسن الأثاث صالح لاستقبال ضيوفه  
من الأجانب فيه استقبلاً باهراً ، وقد قال لألماني ذات يوم : « تحتاجون فى بلدكم

(١) القنود : جم القند ، وهو عسل السكر إذا جد .

### جبار شرق

إلى أيدي كثيرة وأما أنا فأدير الآلة وحدي ، ويجب أن أكون سيد رعيتي ، ويجب أن أكون سيداً شديداً ، فأنا طبيبُ الفلاح العاجز عن معرفة أمراضه ، وما قام به محمد علي من عمل فَيُنْتِجُ درجة ما كان لصنع الجبار من إنتاج في الشرق منذ مئة سنة .

ومن أوردته اقتبس كل ما يُمكن أن ينفع به ، ولكنه كان لا يستدين من غير البيوت التجارية فَيَبْلُغُ ما يَدْفَعُهُ من القروض سِلْعاً سبعين في المئة ، وكان يُفَضِّلُ الفرنسيين على غيرهم ، ولا شك في أن إعجابه بنابليون كان يُوجِيهِ إليه بنفوس زائد من إنكلترا ، ومما حَدَّثَ أن حال دون استمرار ضابط سابق من ضباط نابليون على السفر إلى بلاد فارس لِيَتَخَذَ فيها مَقَوِّضاً إليه تنظيم جيشه ، ويعتق الكولونيل سيف الكاثوليكي دين الإسلام فيُدْعَى السلم سليمان باشا ، وترى جيشاً مصرياً للمرة الأولى منذ عهد القرانة ، ويُحْسِنُ الفلاح القتال في جميع الجبهات .

ولم يكن لدى محمد علي "أشريعة" لسُفْنُهُ ، فَحَمَلَ على زراعة القنب الذي لم يُتَخَذَ حتى الآن لنير إسكار المصريين ، كما حَمَلَ على إنشاء مصانع للنسيج الأشرعة منه ، ويُفَرَسُ السَّنَطُ في جميع المديريات نَيْلاً لخشب السفن ، وكان يوجد على طرفي الدَرْبِ لِلزُّدَى إلى قصره مئات من الأبراج الصغيرة المُدَّةِ لحماية الشجيرات ، وغُرَسَ في القيوم ثلاثون ألف شجرة زيتون لصنع الصابون ، وغُرِمَ في أماكن أخرى مليون شجرة توت لإنتاج الحرير ، وينتشر الطاعون البقري فلا يَطْلُبُ حاية الألهة كما كان القرانة والولاطين يَصْنَعُونَ ، بل يُرْسَلُ إلى الحقول ألفاً من أحسن خَيْلِهِ وَيَقْرَبُهَا بِالْجَمال وَيُكْرِهُ الفلاح على الاندفاع معها .

ولم يكن محمد علي محباً للفلاح ، ولكن يلوح أنه كان يُحِبُّ مصرَ على طريقته ،

وَيَصِفُ لَهُ شَنْفُولِيُون ، الَّتِي حَلَّ الْخَطَّ الْمَهْرُوعَلِيَّ ، بِمُسَمِّنٍ رَأَى عَيْشَهُمْ  
مِنَ الْفَلَاحِينَ فِي أَثْنَاءِ مَبَاحَثِهِ فَيَتَمَدَّدُ عَنْ كُلِّ جَوَابٍ سَائِلًا إِلَيْهِ عَنْ عَمَلِهِ ، فَقَرَعُونَ  
الْجَدِيدُ كَانَ يَوْذُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُ شَنْفُولِيُونُ مَاذَا كَانَ أَمْرُ قَدَمَاءِ  
الْفَرَاعَةِ ، وَكَانَ أَسَدُهُ الْمَرْوُضُ رَابِضًا بِجَانِبِهِ ، كَسِيرُوسْتَرِيْسَ ، عَنْ وَلَعِهِ  
بِالْأَوْضَاعِ الْمَسْرُوحَةِ أَمَامِ الْأَجَانِبِ ، غَيْرَ أَنَّ الْفَرَنْسِيَّ لَمْ يُبَدِّ وَجِلًا وَلَا إِعْجَابًا مُدْرِكًا  
بِمَاقِ الْحَالِ مِنْ غَرَابَةِ وَهْزَلٍ ، شَأْنُ مُحَمَّدٍ عَلَى الَّذِي كَانَ ذَا دُعَابَةٍ .

وَيَبْحَثُ عَنِ الذَّهَبِ فِي النَّبْلِ الْأَعْلَى ، وَكَانَ يَقْصِدُ مِنْ حِلَّتِهِ النَّوْبِيَّةِ أَنْ يَنَالِ  
ذَهَبًا وَعَيْدًا كَمَا قَلْنَا ذَلِكَ فِي جِزْءِ آخَرٍ ، وَهُوَ ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ ذَهَبًا قَطُّ ، كَانَ بِأَمْرِ  
بِفَتْشِ كُلِّ مَرْكَبٍ نَبْلِيٍّ فِي مَرْفَأِ الْقَاهِرَةِ ، فَيَأْخُذُ مِنْهُ كُلَّ دَرَمٍ غَضَبًا مُؤَدِّيًّا  
فِي مَقَابِلِ ذَلِكَ سَلَامًا مِنْ مَصَافِهِ ، وَيَأْتُرُّ مُحَمَّدٌ عَلَى بَتْرَجَةِ قَانُونِ نَاطِلِيُونِ  
لِيَدْخُلَ إِلَى بَلَدِهِ بِبَعْضِ الْإِصْلَاحَاتِ ، وَكَانَ مُحَمَّدٌ عَلَى أَوَّلِ وَلِيٍّ أَمْرٍ مِنْذُ عَهْدِ  
الْفَرَاعَةِ ضَمِنَ فِي مَصْرَ غَرَبَةِ الْأَدْيَانِ وَسَلَامَةِ جَمِيعِ طَبَقَاتِ الْمَجْتَمَعِ وَأُمُومَالِهَا ، وَمُحَمَّدٌ  
عَلَى هُوَ الَّذِي أَمَرَ بِفَزْرِ الْقَنَوَاتِ ذَاتِ صَيْفٍ حِينَ تَمَرَّدَ أَنَاسٌ مِنَ الْأَلْبَانِ فَأَغْرَقَ  
قَسِمًا مِنَ الْقَاهِرَةِ وَقَضَى بِذَلِكَ عَلَى الْعَصِيَانِ ، وَهَكَذَا يُنْتَفَعُ بِالنَّبْلِ مَعَ الْقُرُونِ فِي  
إِنْقَازِ جَبَّارِ ذَاتِ مَرَّةٍ .

وَيَصْنَعُ مُحَمَّدٌ عَلَى ، مِنْ نَاحِيَتِهِ ، أَشْيَاءَ كَثِيرَةً فِي سَبِيلِ النَّبْلِ ، فَتَقُوقُ النِّهْرَ سِتَّةُ  
آلَافٍ سَفِينَةٍ جَدِيدَةٍ ، وَتَقَامُ عَلَى ضِغَافِهِ أَرْبَعُونَ أَلْفَ سَاقِيَةٍ جَدِيدَةٍ ، وَيُنْشِئُ  
إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَلَى أَوَّلِي الْمَصْنَعَاتِ الْبَخَارِيَّةِ مُسْتَعْمَلًا فَحَاً إِنْكَلِيزِيًّا ، وَيَضْمَنُ  
جَمِيعُ ذَلِكَ مَعْنَى الشُّخْرَةِ كَمَا فِي زَمَنِ الْمَالِيكِ ، وَيَرَى نَائِبُ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٌ عَلَى فِي  
أَثْنَاءِ سَفَرِهِ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَجُوبَ حَقَرٍ قَنَاقَةٍ فِي مَكَانٍ مَا ، وَيَطْلُبُ الْمَهْنَدِسُ الَّذِي

يطلع على ما كتبه نابليون عن النيل

دُعِيَ لذلك الغرض مدة سنة لإتمام القناة ، فيأمر محمد علي بضربه على رجله مثنى مرة ويتَوَعَّدُهُ بثلاثمائة جلدة أخرى إذا لم يكن إنشاء القناة قد تَمَّ حين عودته بعد أربعة أشهر .

ويُرَوَّى أن عشرين ألفَ رجل قد دوا حياتهم في سبيل إنشاء القناة التي تَصِلُ الإسكندرية بالنيل ، غير أن القناة لم تَكُنْ تَتِمُّ حتى أصبح الرفأ الذي دَخَلَ دَوْرَ الانحطاط منذ قرون كثيرة يكون منفذاً لوادي النيل ، وذلك على حين يَسُدُّ رملُ البحرِ وغِرْيَتُ النهرِ مرفأَ دمياطَ ورشيدَ بلا انقطاع ، ويدْعُو محمد علي تلك القناة باسم متبوعه وعدوه السلطان محمود ، وأعظمُ مشروع قام به هو السدُّ الذي بناه قبل أسداده الإنكليز بخمسين عاماً ، وهذا هو بدء دَوْرٍ جديد في حياة النيل ، ولم يُنْسََ به أحدٌ قبل نابليون ، ولم يُبَصِّرْهُ أحدٌ أحسنَ من نابليون ، والواقعُ أن نابليون أجبر بإقامة أسداده على رأس الدلتا ذات يومٍ فتوجَّه بها المياهُ مناوِبةً بين شعبي النيل فتصاعف بذلك أهمية الفيضان ، والواقعُ أن محمداً علياً جعل بعضهم يقرأ له جميع ما كتبه نابليون في جزيرة القديسة هيلانة عن موضوع النيل ، ومن الواقع معرفة محمد علي كلِّ ما هو خاصٌ بالإمبراطور ، ومن المحتمل أن يكون هذا الجنديُّ الأشمُّ قد أبصر مكافئة نابليون لهذا النصير كما يقاتل عدوَّه في ميدان الوغى ، موجَّهاً جميع قُوَّاه نحو نقطة واحدة ليتمرَّ البلدُ بالماء كما يَتمرُّ الخصرُ بمجنوده .

وعنَّ محمد علي فكر جائر في بدء الأمر ، عنَّ له سدُّ شُعْبَةِ النيل سداً نهائياً لكيلاً يَجْرِي إلى غير دمياط ، وقد أثبت له الفرنسيُّ لِينَانُ تَعَدَّرَ ذلك وأبان له أن الإسكندرية تُغْرَمُ الماءَ العَذْبَ بذلك ، وهناك قرَّرَ أن يقيم أسداده على

## السد الأول

شعبي النيل مستتباً بحجارة الأهرام الكبُرى ، وهو لم يترك هذا المشروع عن شعور ففر ما سخر من علماء الآثار ، وإنما عدلَ عنه لما يوجه النقلُ من نفقات كثيرة ، وإطولُ إنشاء « سدّ النيل » ، لا لما يتطلبه من نفود كثيرة ، ما دام يؤخذ ما يحتاجُ إليه من العمال قسراً ، بل لما انتشر من طاعون ، ثم لما كان من قتالِ السلطان ، ثم لما كان من انتقاد الهندس الجديد للمشروع الأول وعدمِ وضعه ما هو أحسنُ منه ، وبتمّ بناء السدّ في تاريخ متأخر إذنً ، وظلّ السدّ أمم الأسداد وأزمتها من بعض الوجوه مع قدّم طرازه .

والأسدادُ على النيل تنمى القطن على النيل ، ويعلم محمد على من فرنسين قدرة مصر على إنتاج السكر والقطن وإمكانَ ربحها منها أكثر مما تربح من الحبوب ، وهذه هي فكرة رائدة ملوذة بالخطر ، فإذا كان الجو ملائماً لتحقيقها فإن نظام الرى بمصر يحول دون تطيقها ، ويأن ذلك أن نبات القطن لا يطيق الفرق وأنه يتطلب رياً منتظماً فى الصيف حين انخفاض المياه كما يتطلب فصلاً غير جاف فى الشتاء ، والسد وحده هو الذى يوجِد ما هو ضرورى من الأحوال ، ولكن مع وجود نظام كاملٍ للصناعات والدوابب والمصّات ، ولكن مع تصديق القنوات واستخدام سبعة وعشرين رجلاً فى مئة يوم من العام لتنظيفها ، فيتضى ذلك إنفاق بضعة ملايين ، ولا يفسد تاجر القهوة من ذلك المبلغ ما دام عملُ السد لا يكلف شيئاً ، وماذا يحدث عند رداة المحاصيل وفى زمن الأزمات المالية ووقت وقف إدخال ما تحتاج إليه مصر من الحبوب فيما بعد ؟

ويلوح عدم تأثير هذه المصاعب فى محمد على ، ومحمد على لم يصنع أول حجرٍ للسد وفق مشروع الثانى أو الثالث إلا فى سنة ١٨٤٧ ، أى فى أواخر حياته ،

أى حين غمّه وثوّرات غصّبه عن قهر إنكثرة إياه ، وعاد لا يُسمّى إنكثرة بغير اسم « ذلك البلد » ، وحُطِر عليه كلُّ توسّع في الخارج فحصر نشاطه في داخل مملكته وأنجز من الإصلاحات العظيمة ما صار معه أباً حقيقياً للشعب ، وُنشِئَتْ مئات المدارس في كلِّ مكان ، وُمرِّسلُ أساتنة من الأزهر إلى باريس ولندن ليروا وجود كتبٍ أخرى في العالم غير القرآن ، ويؤسّس مدرسةً مصريةً بباريس ، ويَعمرُها بمئة وعشرين طالباً ، ويُدخل إليها بعضُ الأمراء من آلِه غير مفكّرٍ فيها يكون لهذه التربية الباريسية من أثرٍ في حفيده إسماعيل ، ويوزّع كتباً مُنمّعة مطبوعة في القاهرة .

إذن ، يُوحى النبيل إليه بمشاريع جساماً ، وقد بدا له قبل خِطاط الإنكليز الأولى في أسوان بخمسين سنة أن يأخذ ما من تلك الثبقة وأن يقيم فيها مصانع بخارية وأن ينشئ في كلِّ ضِفّة سداً طويلاً كصَرَ وأن يَفْرَق<sup>(١)</sup> جميع الأنواع ، فيكون خيالُ فاؤست قد حَقَّق من قِبَل أمير ، من قِبَل تاجر قهوة ، ونَدَّ كُر من عناصر الرِّخاء الأخرى التي أبصرها في مشيبه ما رآه من تحوّل عدد السكان من مليونين ونصف مليون إلى أربعة ملايين ونصف مليون على الرغم من الأوبئة .

ويقوم محمد علي بِمُحَجِّمٍ قبل موته ، ولكن لا إلى البلد المُقدَّس ما دام غير متدين ، وما ساوره من غَيْظٍ نتيجة لما أُصيب به من غَلَبٍ فيضِرُّه عن التفكير ثانية في مكة ، ويذهب لتقديم وِلايَةِ إلى مولاه السلطان وليصعَ حَدّاً لتناصهما المثير للضغائن ، ويعود إلى الإسكندرية عَوْدَ الظافرين حاملاً على صدره صورة السلطان الحاطة

(١) عزق الأرض : شقها ، أخرج الماء منها ، والأنواع جمع زوج ، وهو منطلف الوادى كما مرّ تفسيره .

### لإبراهيم

ياطار مَرُصَع بالأمس ، وهكذا يُظهِر وفاء التابع عن زَهْوٍ كالنَّيْ أظْهره بشاركُ  
حينما انحنى أمام ولهم الثاني الشاب بعد أربعين سنة .

ويُصَاب محمد علي بصَّف في قُوَّاه العقلية ابنًا للثمانين من عمره ، ويحتمل أنه لم  
يُذكر وفاة ابنه إبراهيم ابنًا للستين من سِنِّه سابقًا إياه إلى القبر قبلَ قليلِ زمنٍ ،  
وما بين الآباء والأبناء من روايةٍ محزنةٍ مُثِّلَتْ بين هذين الرجلين ، وما بين الملك  
وولي العهد من تنافسٍ يُجَلَّى على الطَّريقة الشرقية ، ولا يُسَمَّع حديثٌ في سنين أربعين  
عن وراثته طاغيةٍ من غير أن يُفرضَ زاجره ، وقد أكره إبراهيم على دَوَسٍ ما فيه  
من استعذابٍ فكان ما ترك من رسائلٍ هائلةٍ ، ومن التعمُّدِ تقدُّرٍ ما خسرته مصرُ  
بعوت إبراهيم قبل الأوان ، ولو بلغ من العمر ما بلغ أبوه لاحتُمِلَ أن يفوقه بمقدار  
ما فاق الإمبراطورُ ، هذا القدوني الآخرُ ، أباه فليب ، وعاد إبراهيم القوي لا يكون  
تركيا ولا ألبانيا ، بل صار مصريًا خالصًا ، وليس ابنه ووارثه غيرَ نصفٍ باريسى .  
وحينما كان محمد علي مالكا لقواه العقلية زاره رجلٌ عَجِيه التاريخُ ليكون حكمًا  
في أمره كما يُلوح ، فقد أُرْسِلَ الكونت فاليسكي ، الذي كان ابنًا لنابليون من  
بولونيةٍ حسنةٍ والذي صار وزيراً للخارجية في المستقبل ، إلى القاهرة سنة ١٨٤٠  
ليقوم برسالةٍ خاصةٍ فيها ، فاستمع ما قاله عنه :

« قد تكون الأثرية ، أو الخيلاء ، هي التي أملت على محمد علي مشاعره الأولى ،  
غير أن قراراته كانت نتيجة تفكيرٍ طويلٍ على الدوام ، وما فُطِرَ عليه من عبقريةٍ  
أعظمٍ في حَقْلِ الحضارة مما في حَقْلِ التنظيم ، وهو لم يكن عنده عينُ الدُّسرِ فيرى  
الناسَ والأشياءَ من علي ، وهو لم يكن عنده من الذكاء المالي ما يتَّخِذُ الرجلُ به  
قراراتٍ تُدهِشُ الناسَ أولَ وهلةٍ ، ولكنه كان يَحْصِفُ بذكاءٍ ثاقبٍ وثباتٍ قاطعٍ

وعزم قوى وحذق باهر ، ولو ولد فرنسياً لكان مثل ميريخ أو تاليران أكثر من أن يكون مثل نابليون .

وكان جسوراً عبقرياً بفطرته ، وكان للتجربة شأن كبير في حياته ، ولم يكن للتعليم أى عمل فيه ما دام لم يقرأ كتاباً من الكتب التى تُسمى ثمانى الأميركا يقال ، وقد أثبت ذلك بنفسه على وجه مُسلّ ، فلما سمع حديثاً عن مكياڤلى ودّ أن يعرف كيف يُصيح الناس بالكتب ما اتفق له بلا كتب ، فأمر وزير خارجيته بأن يترجم إلى التركية فصولاً من كتاب الأمير وصار الوزير يُخضّر إليه عشر صفحات في كل يوم ، وإليك ما قاله محمد علي في اليوم الرابع :

« لم أجد في الصفحات البشر الأولى ما هو جديد ولا ما هو جدير بالذكر فصبرت ، ولم تكن الصفحات البشر الثانية خيراً من الأولى ، وأما صفحات أمس فمادية تماماً ، فلا أستطيع أن أعلم شيئاً من هذا الرجل ، وأعريف من المكاييد أكثر مما أعرف ، والآن قف ولا تداوم على الترجمة . »

## ٢٢

من شأن انحطاط أبناء ذوى العبقريّة من الملوك والمتفنين ، من شأن صنى الطبيعة هذا بعد جُذ كبير ، أن تقع أسرهم الجديدة في خطر ، وذلك مع اتزان الأسرة القديمة بعد أن تُجاوز ظافرة دور الحاضر الأولى ، أجل ، صمى محمد علي في خمسين عاماً كفاح ميراث ملكه ، غير أن القدر حرّمه حقه إذ أخذ أحسن بنيه مع بلوغ



### إسماعيل وولعلم الثاني

عدهم خمسة وتسعين ، فلما غاب أبه الأكبر خَلَفَ تاجر القهوه القُدوني على عرش القراعنة رجالٌ صِفَارٌ ، فيسارع حفيده وابن له في السنين الأربع عشرة إلى تغيير الوضع تجاه إنكلترة في ميدان السياسة الخارجية ، كما يسارعان في الداخل إلى العدول عن الاشتراكية الحكومية ، وهكذا يُضَعِفَان ما يخالط العالم من احترام نحو مصر التي كانت تَهَبُّ من نومها ، وهكذا يُمَوِّدَان الدول العظمى على الاعتقاد بأن ما وَقَعَ على ضفاف النيل ليس إلا مقامرة ناپليونية يُمكن صَقْلُ نتائجها سريعاً بمبدأ الملك الشرعي .

وتمكن مقابلة عهد إسماعيل ( ١٨٦٣ - ١٨٧٩ ) بهد ولعلم الثاني ، فهما ، إذ كانا حفيدين لاثنتين من بُنَاة الإمبراطوريات الصَّوَارِم ، لم يكن ليهما رَشْدٌ كافٍ حينما جلس كلٌ منهما ، ابناً للثلاثين ، على عرشٍ لم يكن بعدُ من القوة ما يقاوم معه مُفَاجِئ الحركات وتَزِق الأشارات ، كلاهما موهوبٌ ، كلاهما أنيسٌ ، كلاهما بددَ ثَراث أبيه لا عن معائب كراهية ، ولا عن حروب طموح ، بل كانا ضحيتي دُورٍ صادرٍ عما نالاه بشتة من سلطان لا رقيب عليه تقريباً ، فترَفَه بشاركٌ مُتلهياً بقوله : « إن الإمبراطور يَوَدُّ لو يُحْتَمَلُ بعيد ميلاده كل يوم » ، والواقع أن رجلين من ذوى الجِدِّ والوَقَارِ شَبَّا في دورٍ ثَوْرِيٍّ فَشَقَّ طريقاً لها على مَهْلٍ مع مقاومة الدول البُسْتَّة حفاظاً حتى المَشِيبِ على بساطة العيش ، ثم خَلَفَ كلٌ واحدٍ منهما حفيده غَنِي كَاتِمٌ لتردده تحت سِتَارٍ من غمامة المظهر محاولاً انتزاع احترام المآثم له بما ينتحله من كبرياء ، والواقع أن إسماعيل وولعلم الثاني ، المتقين ما لا مثيل له من الأعياد والحَقَلَاتِ ، قَضَيَا ثلاثين عاماً في تبديد ثَراثٍ عظيمٍ عَهدَ إلهيما في المحافظة عليه فضلياً بقرارٍ من الأعداء الذين رَأَوْا أنها الحقا

ضرراً بهم ، وقد أمضى الرجلان بقية حياتهما في منفىٍ ذهبيٍّ بعيدٍ من المجد والحكمة ملائمٍ لسجنتهما .

ويظهر أن إسماعيلَ الذي نال نصيباً كبيراً من تربيته في باريسَ والذي وَجَدَ ما يُفْسِدُهُ ببِشائِرٍ سياسيةٍ في عواصمِ أوربةٍ اتَّخَذَ أَقْلُ ملوكِ أوربةِ رِصَانَةً في ذلك الدورِ مثلاً له ، اتَّخَذَ نَابِلْيُونَ الثالثَ قُدْوَةً له ، وَيَرَى أن يَجْعَلَ من القاهرةِ ، التي كانت وافرَةَ النَّفْيِ حينَ ارتقائه إلى العرشِ ، باريسَ ثانيةً ، فلا يكون فيها ما هو إفريقيٌّ ، وتُسَكِّرُهُ الإنارةُ بالنافِزِ والخطوطُ الحديديةُ واليادينُ العامةُ والشوارعُ ذاتُ الأشجارِ والنسَاجِ الحريريةِ والزخارفِ ، ولا سيما استقبالاتُ البلاطِ الباهرةُ ، وتُسَكَّرُ ما في دِمِهِ من رُوحِ تجاريةٍ وِريثِها من محمدٍ على فَأَثَبَتْ وجودَها في البداءةِ بإدارةِ أملاكه على الطُّرُقِ العصريةِ .

ويَبْدُو كلُّ شيءٍ باسمًا له عند ما قَبِضَ على زمامِ الحُكْمِ ، فلما أدَّتْ حربُ الانفصالِ إلى عدمِ إصدارِ القطنِ الأمريكيِّ اغتنت مصرُ ، للنتيجةِ الجديدةِ للقطنِ ، من قُوَّرها ، وما كان العالمُ المضطربُ إلى الاكتساءِ لِيُبَالِيَ بما يَدْفَعُهُ من الأثمانِ ، وما كان من ارتفاعِ الأسعارِ بما لم تسمعِ بمثلهِ أذنْ قد أثارَ أسطورةَ الثَّراءِ الخياليِّ ، ويَذْهَبُ مهندسونَ إلى مصرَ طلباً للرِّزْقِ على ضِفافِ النيلِ ، وتتنازعُ فرنساُ وإنكلتراُ حِفْظاً لمركزهما ، وتَجْتَذِبُ قناةُ السويسِ التي كانت تُنْشَأُ ، أَبْصَارَ الناسِ إلى مصرِ ، ولا تَعْجَبُ إذا ما استعدتْ أعظمُ مصارفِ أوربةِ لَوْضَعِ رؤوسِ أموالها تحت تصرفِ الملكِ السعيدِ ، وهل في قبولِ ذلكِ جريمةٌ لا تُفْتَقَرُ؟ وَيَقْتَرِضُ إسماعيلُ من أوربةِ تسعةً وتسعينَ مليونَ جنيهٍ في ستِّ عشرةِ سنةِ .

هو لم يُبَدَّرْ كلُّ شيءٍ ، قد حَفِرَ في عهده من القنَوَاتِ ما طوله أربعة عشرَ

### كان ضخية زهوه

ألف كيلومتر ، وقد حَقَرَقَنَة إبراهيم بالقرب من أسبوط ، وقد أحيا من الأراضي الصالحة للزراعة ما يتعدى ألف ألف فدان على ما يروى مع التوكيد ، والبلاد مدينة له بكثير من المرافق والناور وزيادة في إنتاج القطن ما صار يُصدَر منه بأربعة عشر مليون جنيه بعد أن كان يُصدَر منه ما قيمته أربعة ملايين من الجنيهات ، والبلاد مدينة له برفع عدد مدارسها من مئتي مدرسة إلى خمسة آلاف مدرسة مع تعيين ثمانين ألف جنيه لها في كل عام ، ويعدُّ المُتَخَفُّ الكبير الذى أقامه في القاهرة أعجوبة على حسب ذوق الزمن كما يُعدُّ جسر الجزيرة الذى أقامه بمجانبه .

ومع ذلك كان إسماعيل ضخية الأحوال ، كان ضخية زهوه ، كان ضخية اللؤلؤ واللب المسنن الذى وَضَعَ نفسه عليه فيُسْرِع في الدوران مفداراً فقداراً ، فيصبح في مثل وضع الفلاح الفقير تماماً ، وما حَدَثَ أن سُنَّ قَانُونُ شَائِنُ جَسَلٍ إسماعيل به جميع الأجانب في مَنَجَّى من سلطان القضاء المصرى ومَكَّنَ به أرباب رؤوس الأموال الشرقيين من استعباد الفلاحين بأن يُفْرِضُوهم على حساب محاصيلهم ما هو ضرورى من المال لدفع الضرائب المفروضة عليهم ، وذلك برِّباً فاحش يَتَرَجَّع بين الأربعمين والخمسين في المئة ، ومثلُ هذا ما كان من أكبر صَيَارِفَةِ أوربة الذين استغلُّوا احتياج إسماعيل إلى النقود وعدم اكتراثه لها ، فقد بَلَّغُوا من غَرَمِ وعَشَمِ برِّبائهم وخسرتهم ولجائتهم ودَقَمَاتِهِم الوهمية ، وقد بَلَّغَتْ مَصَافِقُ بَاريس ولندن من ابتكار الحيل ، ما يساقُ الرجلُ المادى معه إلى غِيَاهِبِ الشُّجُونِ ، وقد وَصَفَ إنكليزى<sup>(١)</sup> أولئك الصَيَارِفَةَ الكِبَارَ بِرُؤُوسِ<sup>(٢)</sup> أوربة لطعم تسليمهم

(١) النياهب : جمع التيهب ، وهو الظلَّة — (٢) الفروش : جمع الفرش ، وهو نوع من السك يرف بكلب البحر يقطع الحيوان في الماء بأسنانه كما يقطع السيف ، والفروش هنا بمعنى الأراذل .

إلى الملك البطير غير ستين في المئة من حسابه ، وإذا وُجِدَ رجلٌ جديرٌ بالاحترار في هذا الأمر فالدائنُ ، لا المدينُ ، هو ذلك الرجلُ ، ولا يشعرُ المؤرخُ بعطفٍ نحو أولئك الذين بدّدَ ذلك المبدّرُ أموالهم على ضيفان النيل .

ولم تكن الأمورُ قد بلغتْ تلك الرحلةَ حينما احتفل إسماعيلُ بأبهى يوم في حياته ، حينما احتفل بافتتاح قناة السويس .

وس الفرنسيين رجلٌ أليفٌ ذو ذكاء نادر كان أيام شبابه قد أعطى سلفَ إسماعيلَ المحبوب سعيداً دروساً في الفروسية ، فقال هذا الفرنسي بمصادقته سعيداً وثيقةً ثمينةً امتنع محمد علي ومن خلفه عن مواصلة أحدٍ عليها حتى الآن ، وبهذه الوثيقة المؤلفة من سطرين يؤدّن في إنشاء قناة بين السويس ، الواقعة على البحر الأحمر ، وخليج يبلوزة صالحة لسيْرِ سفنِ البحار ، وكان طيفُ كلٍّ من نابليون وغوته يملّكان فوق هذا المشروع ، وفيما كان العالمُ بأشهره ، ولا سيما عالمُ التجارة الإنكليزية ، يدرك من قوّته أهمية المشروع ، وفيما كان السانسيويثيون في فرنسا يبدّون على رأس الحركة ، كان اللورد بلفورستون ، الذي هو من أشهر أقطاب السياسة في عصره ، يمثّل من نفسه امرأةً حين يكتب في سنة ١٨٥٥ ما يأتي .

« تفعل هذه القناة مصرَ من تركية ، وتوفّق هذه القناة سيّرَ كتائب السلطان ، وهي تجعل مصالح إنكلترة بمصر والمهند تابعة لمشيتة فرنسا » .

وكان خوفه من فرنسا يصفو على بصره بأمر الإمبراطورية البريطانية ، ويرى المتزمتون من البريطان أن يحولوا دون حفر برزخ السويس بما اكتشفوه بفتة من إمكان تسخير القلاح وجعله تحت الرحمة ، ويستبدل أنصار حفر البرزخ

٤٢ — ليرة إعلان ماء من النيل





الفرنسيون بعض الآلات بالفلاح استبدلاً جزئياً ، ويُسمعُ صوتُ جرّافاتٍ بخاريةٍ في البحر الأحمر للمرة الأولى .

وقصةُ قناة السويس خاصةٌ بالتاريخ البشريّ ، لا بتاريخ النيل ، والقناةُ تنافسُ النيلَ من بعض الوجوه لأنها تجرُّ مصرَ إلى البحر ، وكان لدى إسماعيلَ شعورٌ بما سيأتي حيناً صرّحَ في حفلة الافتتاح بأن تلك القناة تفصلُ مصرَ عن إفريقيا وتربطها بأوربة . وإن غابت الناحيةُ الفاجعة عن مزاجه الطيب لا ريب ، والحقُّ أن الماء الذي يصلُ تلك الدولة الإفريقية بخطّ الاستواء أضعُ لإسماعيلَ من الماء الذي قد يُفرّجها ، والحقُّ أن مما يَرى في الساعة الراهنة ارتباطُ مصير مصرَ في النيل ، لا في البحر المتوسط ، والحقُّ أن العالمَ بأجمه استفاد من فتحِ البرزخ وأن مصرَ وحدها هي التي خسرت به ، وكان إسماعيلُ راغباً في إنشاء القناة من أجلِ مصرَ ، لا أن تكون مصرُ خادمةً للقناة ، ويحبطُ مشروعه هذا بسبب سعيّته ، وهو لم يلبث أن خسر جميع أسهمه وما يجِبُ أن ينال من فوائد .

ويبدو سعيّاً يومَ الافتتاح من شهر نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، ويكون إمبراطورُ الفرنسيين وكثيرٌ من الأمراء ضيوفاً عنده ، ويديرُ فردى<sup>(١)</sup> الكبيرُ في أوبرا القاهرة الجديدة أولَ تمثيلٍ لروايته المصرية ، ولن يَرى ذلك المسرفُ الأنيس مثلَ تلك الفرصة لصَبِّ الذهب ، ومع ذلك كان يَظهرُ ذاك التجلّان لطبقةٍ متوسطةٍ غامضةٍ الأمر على شواطئ البحر المتوسط ، ومع ذلك كان يَظهرُ ذاك العاهلان اللذان تَدُلُّ سبياً أحدها على أنه معلّمٌ مدرسة ويَدُلُّ رأسُ الآخر منهما على أنه صيرفيّ ، مضحكين لو لم تقطع الإمبراطورةُ القاتنة أوجيني التي هي وختى حتى

(١) فردى : ملحن وكاتب ورائي إيطالي (١٨١٣ - ١٩٠١) .

يدفع الملايين لئال لقب خديو

لرواية جنبها الخالعة ذلك الشريط الرمزي<sup>١</sup>.

وكان إسماعيل قد دفع الملايين للسلطان كتيلاً للقب خديو وتنظيماً لوراثة العرش بأوثق مما في الماضي ، ويعزم إسماعيل أيام افتتاح القناة على التخلص من متبوعه الضعيف بأن يعلن في خطبة مدوية استقلال مصر وينادي بنفسه ملكاً ، ويمضي هذا المشروع بالإخفاق في الدقيقة الأخيرة لئلا كان من اعتراض دولة أجنبية<sup>(١)</sup>.

ويسير كل شيء من سيئ إلى ما هو أسوأ منه بعد ذلك الحين ، فيخلع الإمبراطور نابليون بعد سنة وتبعد الإمبراطورة ، ثم يأتي دور إسماعيل بعد عشرين سنة ، وتصبح قناة السويس ذات أهمية عالمية ، ويرتفع عدد السفن التي تجازيها من خمسة إلى ستة آلاف في خمسين سنة ، ويرتفع عدد من يعبرها من الشياح من ٢٧٠٠ إلى ٢٥٠٠٠ ، ويزيد الدخل على ما كان عليه مئة مرة ، ومما حدث أن اضطر الخديو للتألف ، عن إفلاس قريب الوقوع ، إلى بيع أسهمه في قناة السويس بأربعة ملايين جنيه ، وفي هذه المرة يبدي الفرنسيون غباوة رفض ما عرضه إسماعيل عليهم ، ويحتفل ديسرائيلي سراً مسؤولية ذلك الشراء بواسطة زوتشيلد ، وترد هزيمة الفرنسيين في إفريقية إلى تلك الخطيئة في سنة ١٨٧٥ .

ويضد إسماعيل خاسراً ، ولا يكون لخطئه في ستمان حماية فرنسا وإنكسار لمصر وفي مداراة السلطان بأكداس الذهب قيمة إذا لم يبق متبوعاً ، والواقع أن التدعويين إلى الباخرة البالغة الزخرفة التي تم استقبال الإمبراطورة فيها كانوا ضيوف أنفسهم من بعض الوجوه مادام إسماعيل قد اضطر لإقامة ذلك المهرجانات ،

---

(١) ذلك ما بلغه الملك فؤاد إلى المؤلف ، ويظهر أن الوثائق الخاصة بهذه المسئلة موجودة في خزائن السجلات الإيطالية .



إلى عقد قرضٍ ماليٍّ في باريس ، وما حَدَثَ من سقوط أمان التطن ونقص  
فيضان النيل مرتين وما أسفر عنه هذا النقص من رَدَاةِ المحاصيل كَجَلِّ حدوث  
الكارثة ، وَبَلَغَ مُوَلُّو الخديو منذ عشر سنوات من الفساد ما لا حَدَّ له ، فإذا  
ما طُلِبَ منهم مِدْفَعٌ للتجربة أرسلوا اثني عشر مِدْفَعًا ، وَيُقَدَّمُ خِيَاطٌ بَارِئٌ  
في أثناء الارتباك العام قائمةً إلى الخديو بمبلغ ١٥٠.٠٠٠ فرنك ثمنًا لثياب أميرة  
واحدة ، ويطالب للزَّيْنُون والجَمَالَةُ والحَمَارَةُ بما يَجِبُ أن يُدْفَعَ إليهم .

وأخيرًا تتدخل الدول ، فترسل إلى القاهرة لجنةً لِتَضَعْ يَدَهَا على دُخُلِ الدولة ،  
وَيَسْتَقْبِلُ إسماعيلُ داتليه تحت سُرَادِقٍ من حرير منصوبٍ عند سَفْحِ الأهرام ،  
وَيُقيمُ مِهْرَجَانًا عَلمًا فَخْمًا لِيَمُنَّ قَوْضُ إليهم أن يبخثوا في مالهته ويتصدَّوا لها ،  
وذلك لِشَاهِدِ أُلوفِ الفلاحين حُسْنَ صلاتِهِ بالدول العظمى .

وتشابه لجنة الديون تلك إحدى المهازى قَرِيبُ إنكليزيٍّ الدُخْلَ وَيَرْقُبُ  
فرنسيٌّ الخَرْجَ ، وَتَجِدُ تلك اللجنةُ في نَيْلِ بعضِ الشئِ للدائنين المهائجين في مصافق  
أوربة ، وعلى الفلاح أن يَدْفَعَ الآن ، كما كان يَدْفَعُ ، نفقاتٍ ما يُقيمه الخديو  
من مِهْرَجَانَاتٍ ، وكان أحد أصحاب الناصب العالية من الإنكليز ، شيول ، قد ذكر  
منذ بضع سنين في تقرير له قوله :

« كان الفلاحون يُجْرُونَ من حقولهم لِيَعْمَلُوا في الأراضى الواسعة التي كان  
الخديو قد اغتصبها منهم ، وَيَهْدُونُ بالسَّيَاطِ دَوْمًا لِيَمْلَأُوا مُسْتَحَرِّين كالعبيد  
في حفظ القنَّوَاتِ نَفْمًا لغيرهم ، وفيما يَطْلُبُ جمعٌ جائعٌ من النساء والأولاد سنبلةً  
ذُرَّةً تَرَى إسماعيلَ جالسًا على العرش بين حاشيته وتَرَى مُسْتَغْنِيَهُ من المصريين  
والأوربيين يفتنون على حسابهِ » .

وُلِّقَتْ كُلُّ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ دَانِي بَاريسَ وَلَنْدَنَ وَبرلينَ الَّذِينَ طَمَعُوا أَنْ يُثْرُوا بِلا تَعْبٍ ، فَلَا يَتَّبِقُ مَا يُؤَدَّى إِلَى مَوْظِعِ الْمَصْرِينَ بِانْتِظَامٍ ، وَالْحَامُونَ لَدَى الْحَاكِمِ الْمُخْتَلِطَةِ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَفْتَنُونَ ، وَعَادَ الْفَلَّاحُ غَيْرَ ذِي عِمَامَةٍ ، وَصَارَ الْفَلَّاحُ يَقْتَصِرُ عَلَى جِلْبَابٍ أَزْرَقٍ ، وَإِذَا مَا كَانَ لَدَى الْفَلَّاحِ ثِيَابٌ أُخْرَى أَخْفَاهَا ، وَلَيْسَ مِنْ الْقَلِيلِ أَنْ كُنْتَ تَرَى شَيْوَحًا يُضْطَرُّونَ إِلَى هَدْرِ كَرَامَتِهِمْ فَيَتَخَرَّجُونَ بِلا جُبِّبٍ .

وَتُبْصِرُ لُجْنَةَ الرِّقَابَةِ ذَاتَ سَنَةٍ وَجُودَ نَقْصِ ١٠,٥٠٠,٠٠٠ جَنِيهِ فِي ٨٠٠,٠٠٠,٠٠٠ جَنِيهِ الْمُخَصَّصَةِ لِلْفَوَائِدِ ، وَهَنَالِكَ يُرْسَلُ إِلَى جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْبِلَادِ اثْنَانِ مِنَ الْبَاشَوَاتِ وَسِتَّةٌ مِنَ الرَّاغِبِينَ لِحَقْلِ الْفَلَّاحِ عَلَى أَنْ يَبِيعَ الْحَاصِيلَ مِنْهُمْ مُقَدِّمًا بِنِصْفِ الثَّمَنِ وَإِنْ لَمْ يَجِدْ وَقْتَ حَصَادِ الْحَبِّ بَعْدَ ، وَذَلِكَ عَلَى أَنْ يُؤَدَّى ذَلِكَ الثَّمَنُ بَعْدَ شَهْرٍ لَعَدِمِ إِدْرَاكِ الْحَبِّ ، وَذَلِكَ إِلَى اسْتِيفَاءِ الضَّرِيَّةِ بِمَا يَمْلِكُ الْفَلَّاحُ وَلَوْ كَانَ قِطْعًا ذَهَبِيَّةً مَخْطِئَةً فِي بَرَاقِعِ نِسَائِهِ ، وَهَكَذَا تُسَلَّمُ الْحُكُومَةُ الْمُبْلَغَ النَّاقِصَ قَبْلَ الْوَقْتِ الْمَعِينِ بِبِضْعِ سَاعَاتٍ ، وَمِمَّا حَدَّثَ أَنَّ الْقَنْصَلَ الْإِنْكَلِيزِيَّ جَرَوْا فِي تَقَارِيرِهِ عَلَى الدِّفَاعِ عَنِ الْفَلَاحِينَ فَأَوْجِبَ الدَّائِنُونَ الْجِيَاعَ إِخْرَاجَهُ مِنْ مَنَاصِبِهِ .

وَكَانَ الْفَلَّاحُ يَجْهَلُ مُؤْتَمَرَ بَرلينَ جَهْلَهُ مِصَارِفَ بَاريسَ ، وَمَعَ ذَلِكَ قَرَّرَ بِسِمَارِكُ مُصِيرَ مِصْرَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ الْمُؤْتَمَرِ ، وَبِسِمَارِكُ كَانَ ، مِنْذُ عَامَيْنِ ، قَدْ صَحَّحَ الْإِنْكَلِيزِ بِأَنْ يَسْتَوْلُوا عَلَى مِصْرَ رَاجِعًا أَنْ يَتَحَوَّلَ هَذَا الْإِحتِلَالُ دُونَ نُشُوبِ حَرْبٍ فِي الشَّرْقِ الْأَدْنَى ، وَبِسِمَارِكُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ يَقْتَرِحُ عَزْلَ الْخَدِيوِ ، وَلَكِنْ الرَّجُلُ الْمُسِنُّ الْمَرِيضُ ، وَلَكِنْ السُّلْطَانُ يَظْهَرُ بِفَتْةٍ كَمَا يَتَحَدَّثُ فِي خَاتِمَةِ الرِّوَايَةِ الْهَزْلِيَّةِ ، فَبَعْدَ أَنْ تَرَكَ السُّلْطَانُ نَائِبَهُ يَقُومُ بِشُؤْنِ الْحُكْمِ عَلَى ضِفَافِ النَّبِيلِ كَمَا يَشَاءُ مَدَّةَ خَمْسِينَ

سنة رأى أن ينتحل وَضْعَ الطاغية فيَحُولَ بِذلك دون تَدْخُلِ البول النرية ، فأرسل إلى إسماعيلَ بَرقيةً عنوانها : « إلى خديو مصر السابق بالقاهرة » .

وَيَتَخَذُ إسماعيلُ من الوَضْعِ ما هو كاملٌ ، وَيَرَوِي شاهدُ عِيَانٍ أَنَّهُ دُهِشَ ، ثم فَتَحَ البرقيةَ هادئاً وقرأ ما يأتي : « أطيعوا صاحبَ الجلالةِ السلطانَ فَسَلُّوا الخديويةَ إلى خديو مصرَ محمد توفيق » ، ثم طَوَى الورقةَ بنايةٍ وقال : « أرسلوا مَنْ يَبْحَثُ عن صاحبِ السموِّ توفيق باشا في الحال » ، فلَمَّا لَاحَ ابنُه أُسْرِعَ إليه مجاوزاً القاعةَ مع طُولِها وَوَضَعَ يَدَ ابنه على فِئَةٍ قائلاً : « أهلاً بمولاي » ، ثم طَجَعَ قُبْلَةً على خَدَيْهِ وهنَّاهُ وَتَمَنَّى لَهُ حُسْنَ التوفيقِ ، ولم يَنْطِقْ بغير ذلك ذاهباً إلى دائرة حريمه تاركاً الأميرَ الشابَّ حائراً مرتعباً ، تاركاً ابنه الذي صار مَلِكاً بين ساعةٍ وأخرى ، فلما كان الغدُ قَصَدَ القصرَ فكان أولَ مَنْ قَبِدَ اسمَه في دَفْتَرِ مَنْشَى وليّ الأمرِ الجديد ، ثم وَضَعَ أمتعتَه في حقائبه وأخذَ بعضَ نِسانِه وأصدقائه ومبلغَ ثلاثة ملايين فرنكٍ وتوجَّهَ إلى إيطاليا بحراً .

وقد قَضَى إسماعيلُ ليلَتَه الأخيرةَ في مصرَ مع ابنه فقط .

## ٢٣

وَيَصْحُو الفلاحُ في أسوأِ ساعاتِ استعباده ، ولم يَنْهَضِ الفلاحُ وحدهُ كما صَنَعَ أجدادهُ منذ ٤٥٠٠ سنة ، بل اتَّبَعَ مَنْ يَقوده من الزعماء للمرة الأولى ، وقد صَدَّرَتِ القوميةُ المصريةُ من الأدنى لأول مرةٍ بعد أن أتى محمد عليّ ، هذا الغريبُ ، بها من الأعلى ، وتَقَوَّضُ الزوبعةُ ذلكَ الشَّرَاقِقَ الحريريَّ الذي أولَمَ الخديو فيه

لثانيه فأبصره الفلاح يصنع ذلك ، ويطوفُ بعض رجال في القرية بعد الأخرى  
مُلقين خُطباً نارية ضدَّ الأجنبيِّ ، ويُدركُ الفلاح أن تلك الأقوال تَهْدِفُ ،  
أيضاً ، إلى الباشوات الذين كانوا يقتنون بفضل الأجنبيِّ ، وهكذا يتقوى العِصيان  
السياسيُّ بالحدِّ الاجتماعيِّ ، ومن القاهرة أناسٌ ساخطون كانوا يتكلمون عن  
جُمهوريَّةٍ على غرار الديموقراطية السويسرية ، فترتبط فيها سورية والحجاز ، وقد  
قال أحدهم : « أرجو ألا أموتَ قبل أن أرى الجُمهوريَّة المصرية ، فجميعنا نودُّ  
رجوعَ العصر الذهبيِّ » .

وكان زعماء تلك الحركة من علماء الأزهر المعترضين على الأوراد القرآنية القديمة ،  
ومن الضباط الساخطين على محابة الترك في الجيش ومن رجال ذوى آراء مختلفة ،  
ولكن مع كَوْن الجميع من المصريين الأصليين الذين هم من الطبقة الوسطى والذين  
كان محمد عليّ قد دَعَا إلى تمثيل دور في المجتمع فخرمهم خلفه حقوقهم ، وكان محمد  
عليّ أولَ من جعلَ من الفلاحين ضباطاً ، ولم يستأصل محمد عليّ المماليك تماماً مع  
ذلك ، فقتلَ اثنان منهم خليفته ، وكان نائبو السلطان يلعَبُون مع السلطان لُعبةَ  
الحرِّ والفار ، وكانوا يُحاطون بِتُرْكٍ في الغالب ، ويَترُز ضابط من بين المُصاةة الذين  
يريدون أن تكون « مصرُ للمصريين » .

كان عرابي فلاحاً ابناً لشيخ قرية في الدلتا ، ووُلِدَ في عهد محمد عليّ ونشأ في  
إحدى المدارس الأولى التي شادها محمد عليّ ، ودرَسَ في الأزهر القرآنَ والسياسةَ  
الجديدة معاً ، وصار جندياً ثم ضابطاً ثم مراقباً لنائب السلطان ، سعيدٍ ، في أثناء  
حجِّه ، ويروى أن سَوْرَةَ خَضِبِ اعترت سعيداً في ذلك الحين فرمى من خيمته  
كتاباً عن « حياة نابليون » فجتمعه عرابي فألبه هذا الكتابُ حاسةً ، والواقعُ

يَتَكَلَّمُ عَنْ بَوَسِ الْفَلَّاحِ

أَنْ مِطَالَمَةِ سِيرَةِ نَابِلْيُونِ تَوَدَّى إِلَى تَنَاجُجِ خَطَرَةٍ فِي الْقَالِبِ

وَكَانَ عَرَابِيٌّ قَائِدَ مِئَةِ عِنْدَ مَوْتِ حَامِيهِ ، وَلَمَّا مَارَ إِسْمَاعِيلُ بِمِثْلِكَ مُسْتَعِينًا  
بِالْأَغْنِيَاءِ وَالتَّرِبَاءِ عَلَى الْفَلَاحِينَ وَالْمَصْرِيِّينَ كَانَ عَرَابِيٌّ فِي الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ  
سِينِيَةِ فَاتَّحَازَ إِلَى النَّشَاطِ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ أَخَذُوا يُفَكِّرُونَ فِي خَلْعِ إِسْمَاعِيلِ مِنْذُ  
ذَلِكَ الْحِينِ ، وَيُلْقِي خُطْبَةً نَارِيَةً تَحْتَ نَوَافِذِ الْقَصْرِ فَيُجَرِّدُهُ مَجْلِسُ حَرَبِيٍّ مِنْ  
رُتْبَتِهِ ، وَيُجَلِّدُ بِالسَّوْطِ عَلَى الْأُرْجَحِ ، وَيُصِيبُهُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي أَثْنَاءِ حَرْبِ الْحَبَشَةِ ،  
وَيُخْرِجُ كَرَامَتَهُ ضَاطِعًا مِصْرِيًّا فَلَاحًا ، وَيَبْلُغُ مِنَ النُّصْحِ مَا يَصِيرُ مَعَهُ زَعِيمًا شَعِيًّا ،  
وَيَكْفِيهِ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى الْكَلَامِ .

وَكَانَ عَرَابِيٌّ طَوِيلَ الْقَامَةِ ، بَلِيٌّ ، الْحَرَكَةُ مُشَابِهًا لِلْفَلَّاحِ أَكْثَرَ بِمَا لِلْجُنْدِيِّ  
مَتَوَانِيًا صَوْتًا لَهُ نَظَرُ الْحَالِمِ ، وَلَمْ يَكُنْ عَرَابِيٌّ مَوْقِفًا ضَاطِعًا وَلَا سِيَاسِيًّا ، وَلَمْ يَكُنْ  
عَرَابِيٌّ ذَا تَأْثِيرٍ فِي غَيْرِ مَخَاطِبَةِ الْجُمْهُورِ ، وَيَرَى الْفَلَّاحَ فِيهِ طَرَفَةٌ لَمْ يَسْمَعْ بِمِثْلِهَا ،  
وَيَمُدُّ الْفَلَاحُ ابْنَهُ الَّذِي يُحَدِّثُهُ عَنْ آلَامِهِ بِلَهْجَتِهِ فَيَسْمَعُ الْفَلَاحَ بِتَحْقِيقِ حُلْمِهِ كَمَا  
يَسْمَعُ بِصُدُورِ سَائِلٍ مِنَ الْحَمَاسَةِ عَنْ هَذَا الرِّصِينِ الصَّادِقِ الَّذِي يَسْتَشْهِدُ بِالْقُرْآنِ  
فَيَدُلُّ عَلَى حُسْنِ إِسْلَامِهِ وَصَلَاحِ مِصْرِيَّتِهِ ، وَيُظَاهِرُ عَرَابِيٍّ مِنْ جَمِيعِ الرُّجُوهِ عَلَى  
النَّقِيضِ مِنْ ذَلِكَ الزَّعِيمِ الَّذِي أَعْلَنَ فِي السُّودَانِ أَنَّهُ لَهْدِيٌّ لِلْمُنْتَظَرِ قُرْآنًا فِي جِزْءِ  
آخِرٍ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ مَا كَانَ يَتَصَفَّ بِهِ مِنْ خِدَاعٍ وَخُبْنٍ وَرِيَاءٍ .

وَكَانَ مَنْظَرُ الشَّارِعِ يُوْحِي إِلَى عَرَابِيٍّ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِمَا يَجِبُ أَنْ يُخَاطَبَ بِهِ الشَّعْبُ  
إِيقَانًا لَهُ ، فَيَتَكَلَّمُ عَنْ إِسْرَافِ إِسْمَاعِيلِ ، عَنْ تَبْذِيرِ هَذَا التُّرْكِيِّ ، هَذَا الْأَجْنَبِيِّ ،  
كَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ عَنْ امْتِنَازَاتِ التُّرْكِ وَبَوَسِ الْفَلَّاحِ مُضِيفًا إِلَى ذَلِكَ إِخْلَاصَهُ لِلْخَلِيفَةِ  
وَقَسَمَهُ بِالْقُرْآنِ وَبِسِيْفِهِ ، مَفَاخِرًا فِي كُلِّ مَكَانٍ بِأَمْضَاتِهِ : عَرَابِيٌّ الْمِصْرِيَّ ، وَلَمْ يَبْقَ

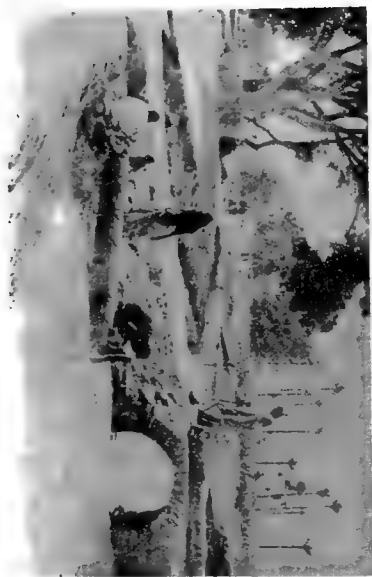
له أن يَمُتَلَ كثيراً حتى يصبح شعبياً خطيراً، فلم يَلْبَثْ أن صار «الوحيد» ، وصار المُلْحِفُونَ والناسِحُونَ يَمَشُّونَ مَنَزِلَهُ ، ولما هاجم الحكومة وطالب بتأليف جيش وطني كبير لم يُذْرِكْ الشعبُ غيرَ أمرٍ واحد ، غيرَ عزمه على طرد المُرَابِّي الأجنبي ، غيرَ طرد اليوناني<sup>(١)</sup> ، فَيَتَبَفَّ له ، ومما قال مُجَلِّحاً<sup>(٢)</sup> ذاتَ يومٍ : « نَذْكُرُ ، نحن الجنود ، أن الخليفةَ عمرَ بنَ مشبه قال للناس ذاتَ مرة : من رأى منكم في أعوجاجاً فليَقْوَمْهُ ، فسمعَ مَنْ يقول له : والله لو وجدنا فيك أعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » .

وبحاول توفيق<sup>(٣)</sup> ، هذا الخديو الجديد ، هذا الوارثُ لديون أبيه وما أدى إليه أبوه من كُرْه الأجنبي ، أن يَدَارِي ذلك الزعيمَ الشعبيَّ الْخَطِرَ فَيُعِينَهُ زعيماً<sup>(٤)</sup> في الجيش ، بَيِّنْدَ أن عرابي يَرَفِضُ إرسال رجاله للعمل في قنوات أملاك الخديو الخاصة ، فيُوقَفُ ويُطْلَقَ جنوده ، ويصير بعد الآن زعيمَ مصرَ الثائرَ على الطاغية التركيِّ والبطلَ الوطني<sup>(٥)</sup> .

ولكنه لم يكن غيرَ نصفِ بطلٍ ، وإن الخديو ، وإن لم يكن بطلاً ، كان يُمكنه ، على الأقل<sup>(٦)</sup> ، أن يمتد منابذة على السلطان وعلى الدول العظمى ، أى على ناحيتين تَمُدَّانِ كل ذلك ضرباً من تمرُّد الجنود ، ويَرْخَفُ عرابي ذاتَ عصرٍ من شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ إلى القصر مع ٢٥٠٠ رجل ، وينتظر الخديو ، ويتوقف كلُّ شيءٍ على جُرْأَةِ كلِّ مَنْ الخُصِصِينَ ، وإذا ما صدَّقنا المرافِقَ الإنكليزيَّ<sup>(٧)</sup> الذي كان مع الخديو وجدنا وَضَعَ الخديو مثيراً للضحك ، وإذا ما صدَّقنا قولَ عرابي نفسه ظهرَ عرابي لنا ناصحاً لا حاسماً .

(١) جليل الرجل : صوت شديد — Colonel (٧)

0215 02 — 47







## لسنا عيداً

وكان الخديو أصغر سنًا من عرابي بأثني عشرة سنة ، وكان خلواً من الروح العسكرية ، فسأل الإنكليزي<sup>(١)</sup> مخافتاً عما يجب أن يفعل ، ففسر<sup>٢</sup> إليه الإنكليزي بأن يأمر الزعيم<sup>(٣)</sup> أن يترجل وأن يقعد سيفه ، ويُطبعُ عرابي ، بيد أن الخديو لم يكن من الشجاعة ما يَمَلُّ معه بنصيحة مرافقه فيطلب من عرابي أن يسلم إليه سيفه ، وذلك لما كان يبدو من روح التهديد على خسين ضابطاً متجمعين عند باب القصر ، ويُعرض عرابي عليه مطالبه السياسية ، ويشتم الخديو بالإنكليزي فيقول : « إننى سيد هذا البلد ، وسأصنع ما يروؤفى » ، ويُجيب عرابي عن ذلك بقوله : « لسنا عيداً ، ولن يتصرف فينا بعد الآن بحق الوراثة » ، وهنا يدخل الخديو قصره ويرتد الجنود .

وذلك النظر الذى رُئى ما هو أعظم منه أمام قصور المواسم الأخرى هو وحيدٌ فى تاريخ مصر منذ ستة آلاف سنة ، وهو نصف قهر للملك شعبة<sup>٤</sup> بامت<sup>٥</sup> ببرلين فى شهر مارس سنة ١٨٤٨ ، ولكن الثورين نالوا فى القاهرة أكثر مما نالوا فى بروسيه ، وذلك لأن الخديو فى ذلك اليوم أجاب زعيم الفتنة إلى جميع ما كان يطلبه حزبه تقريباً ، أى عزل الوزارة وتقوية الجيش ودعوة مجلس النواب ووعد<sup>٦</sup> بسن دستور ، ويُعين عرابي وزيراً للحرية ، والأمر الوحيد الذى منعه منه مولاه هو عرض الجنود فى الشوارع فى ذلك المساء مع عزف الموسيقى .

ومن الطبيعى أن يحذر كل من الرجلين صاحبه ، فيقول الخديو لعرابي إن قلبه كان مع الثائرين ويقول للمثائين إنه سيقضى على الفتنة ، وكان السلطان يَلْتَمِ مع الخديو وعرابي عين اللعيب .

(١) Colonel

ومع ذلك كانت الآلهة القوية ، أى حكومتا إنكلترة وفرنسة ، تقاثل في الشُّحْب فوق هؤلاء المصريين وهؤلاء الترك كما وقع أمام تروادة فيما مضى وكما كان القَدَرُ الثابت على العرش يجلس فوق تلك الآلهة ، قترمي لَجَنَةُ الدائنين رَعْدًا وصواعقَ بين الآلهة والناس لإيقاظ حسين في اللثة على الأهل من ديون إسماعيل خلافا لإرادة الشعب للزيادة ، ونحسُ فرنسة ما يكون من غلبها في مصر فتخفف إلى احتلال ولاية تونس التركية ، وتتفق هي ومنافستها إنكلترة فتعرب للخدو عن حمايته تجاه كل حركة ثورية ، ويراد استدرج زعماء الفتنة فيطلب عزل عرابي ، ولا يوفق لغير إضرام الشعب سُخْطًا ضدَّ الأجانب ، ويهيمُ ألوف الناس خوفاً من الفتك بالنصارى ويعزم السلطان على إرسال سفينة في نهاية الأمر ، ولا تنزل من السفينة إلى البر مدافع ، بل يُنزل صندوقٌ ضيقٌ مشتملٌ على ٢٥٠ وسام مع تخصيص عرابي ، مع تخصيص الثوري الذي ما فتى يعترف بسيادة الخليفة ، بأهمها ، وهذا ما كان يُخَيِّلُ للبلاط القديم أن يقف الثورات به ! ومع ذلك يتدخل الدائنون ، يتدخل ممثلو الأسلوب للماكس بشدة ، لدى حكومتهم فيحملونهما على إرسال أسطول إلى الإسكندرية ، فتلقى مراكبُ بحرية أجنبية مراسيتها في مصب النيل ، ويذهب الفرنسيون من فورهم ، ويحقق العلم البريطاني وحده في الهواء .

وهكذا يحمل عرابي على أعمالٍ يتطلب القيام بها رجالاً أشدَّ بأساً منه ، وينحاز الخديو إلى الأجنبي في الحال فينزِلُ عرابي كائن بلده ، ويقابل عرابي الخديو بمثل ذلك ، ويتعذر الحكم بإنصاف في الأمر ، وذلك لأنه لا يجاب عن السؤال « ما هي الحياة العظمى ؟ » بغير قول شيئا :

« إذا ما تَجَحَّ صُفَحَ عَنْهُ » .

ولما اعتقد أن بضع طَلَقَاتٍ مِذْقِعٍ تَكُنِي لِإِعَادَةِ النِّظَامِ إِلَى نِصَابِهِ وَجِدَتْ كُلُّ ذَرِيعةٍ صَالِحَةٍ ، وَبِضَارِبٍ مَالِطٍ وَحَارِّهِ فِي شَارِعِ الإسكندرية من أَجْلِ أَجْرَةٍ ، وَيَبْلُغُ هَبَاجُ الْجُمْهُورِ غَايَتَهُ بَعْدَ سَاعَةٍ ، وَيُقْتَلُ مِثْلًا شَخْصٌ ، وَيُجْرَحُ الْقَنْصَلُ الْإِنْكَلِيزِيُّ ، وَتُنْهَبُ أَمْوَالُ الْأَوْفِ ، وَتَنْشَأُ هَذِهِ الْحَوَادِثُ عَنْ وَجُودِ مَرَاكِبٍ حَرِيَّةٍ إِنْكَلِيزِيَّةٍ أَغْضَبَ وَصُولُهَا الْمَصْرِيِّينَ مِنْ كُلِّ طَبَقَةٍ ، وَبَضِيطِ عِرَابِي نَفْسِهِ فِي ذَلِكَ الْحِينِ فَيُنْذِرُ الْإِنْكَلِيزِيَّ بِقَوْلِهِ إِنَّ أَوَّلَ قَذِيقَةٍ مِذْقِعٍ يَطْلُقُونَهَا تَوْدِي إِلَى خَلَاصِ الشَّعْبِ الْمَصْرِيِّ مِنْ دِينِهِ ، وَيَسْأَلُ فِي نَفْسِهِ عَنْ انْضِمَامِ سَعْنِ السُّلْطَانِ الْحَرِيَّةِ إِلَى الْأَسْطُولِ الْإِنْكَلِيزِيِّ وَيُجَهِّزُ حُصُونَهُ بِالسَّلَاحِ عَلَى عَجَلٍ ، وَيَحَافِظُ عَلَى اعْتِدَالِ دَمِهِ مَعَ ذَلِكَ ، وَيَأْمُلُ فَيَتَنَادَرُ هُوَ وَصُحْبُهُ وَيَتَبَادَلُونَ الْأَهْلَاجِيَّ لَيْلَةً بِأَسْرَافِهَا ، وَلَكِنْ مَعَ عَطَلٍ مِنْ خِطَّةٍ قَتَالَ مُتَوَرِّدَةً ، وَتَبَيَّرَ مِنَ الْأَجَانِبِ مَنْ يَسْتَطِيعُ الْفِرَارَ ، وَيَسْتَعِدُّ التَّرَكُّ لِلرَّحِيلِ ، وَكَانَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفًا مِنَ النَّصَارَى قَدْ غَادَرُوا الْبِلَادَ ، وَكَانَ ثَلَاثُونَ أَلْفًا مِنْهُمْ قَدْ هَرَبُوا إِلَى أَقْصَامِ مِصْرَ الْأُخْرَى .

وَكَانَ عِرَابِيٌّ فَاقِدَ الْعَزَمِ فِي السَّاعَةِ الْحَاسَةِ كَمَا يُلَوِّحُ ، وَهَلْ كَانَ لِذِقِّهِ أَوْ الْإِيمَانِ هُوَ الَّذِي يُفَوِّزُهُ ؟ وَهَلْ كَانَ يَذْكُرُ حَرْقَ مُوسَى ، كَمَا يَزْعُمُ الْإِنْكَلِيزِيُّ ، فَأَضْرَمَ النَّارَ فِي الْمَدِينَةِ ، أَوْ أَنَّ الْحَرِيقَ كَانَ نَتِيجَةً لِنَفْجَارِ غَيْظِ الْأَهَالِي ؟ إِنَّ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ هُوَ أَنَّ الْإِنْكَلِيزِيَّ ضَرَبُوا الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ بِالْمَدَافِعِ وَدَخَلُوهَا حِينَ كَانَتْ تَأْكُلُهَا الْفَوْضَى ، وَإِنَّ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ هُوَ أَنَّ الْمَصْرِيِّينَ قَامُوا ذَلِكَ الْفَرْزَ الْأَجْنَبِيَّ فِي أَسَابِيعٍ بِحِمِيَّةٍ لَمْ يُبَدُّوا مِثْلَهَا فِي أَلُوفِ السِّنِينَ كَمَا أَنَّهُمْ أَظْهَرُوا مِنَ الزَّمِ وَالشَّعُورِ الْقَوَى مَا لَمْ يُظْهَرُوا مِثْلَهُ تِجَاهَ أَىِّ غَزْوٍ أَجْنَبِيٍّ وَقَعَ فِي جَمِيعِ تَارِيخِهِمْ الْعُلُوبِ .

تقى عرابي إلى سيلان

وَنَزَلَ كَتَاتِبُ إِنْكَلِيزِيَّةٍ إِلَى الْبَرِّ لِحَايَةِ قَنَاةِ السُّوَيْسِ ، وَبَسْرُهُ الْفَرَنْسِيونَ  
مَرَاكِبَهُمْ ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْفَرَنْسِيينَ تَرَكَوْا الْبَرِيخَ الَّذِي صَارَ طَرِيقًا عَالِمِيَّةً بَعْدَ أَنْ  
أَفْلَقَتْ أَسْهُمُ إِسْمَاعِيلَ مِنْهُمْ ، وَالْحَقُّ أَنَّ الدَّوْلَةَ الثَّلَاثَ الَّتِي يَهْمُهَا الْأُمُورُ لَمْ تَكُنْ  
لَتُبَيِّنَ مَقْدَارَ السَّائِلِ الْخَطِيرَةِ الَّتِي فَصَلَتْ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ .

وَكَانَ عَرَابِيٌّ مَقَاتِلًا ، لَا قَائِدًا ، وَيُخَوِّضُ غَارَ أَوَّلِ مَرَكَبَةٍ ، وَيَسِيرُ وَفْقَ طَلِبِ  
فِرْدِينَانْدُ دُولِيَّتْيسَ وَأَنَاسٍ آخَرِينَ لَمْ يَكُونُوا لِيَالُوا بِحَرِيَّةٍ مِصْرَ مَبَالَتَهُمْ بِقَنَاةِ  
السُّوَيْسِ فَلَمْ يَحْصِرْ هَذِهِ الْقَنَاةَ مَعَ أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَسُدَّ الطَّرِيقَ فِي وَجْهِ  
السُّعْنِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَقِفُ جَيْشُهُ الْمُؤَلَّفُ مِنْ فَلَاحِينَ زَحَفَ الْجَيْشِ  
الْإِنْكَلِيزِيُّ الْمِصْرِيَّ مَدَّةَ شَهْرَيْنِ ، وَلَكِنْ مَا حَدَثَ مِنْ خِيَانَةِ ضَبَّاطٍ تَبَرَّلُوا  
أَدَى إِلَى هَزِيمَةِ عَرَابِيٍّ وَرِجَالِهِ وَهَرَوْا بِهِمْ إِلَى الْقَاهِرَةِ ، وَتَقَبَّضَ عَلَيْهِ وَيُحْكَمُ بِإِعْدَامِهِ  
وَيُنْفَى عَنْهُ وَيُنْفَى إِلَى سِيلَانِ .

وَكَانَ عَرَابِيٌّ فِي الثَّانِيَةِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنْ عَمَرِهِ فِي ذَلِكَ الْحِينِ ، وَيَعُودُ إِلَى بِلَادِهِ ابْنًا  
لِلسُّتَيْنِ مِنْ سِيلَانِ ، فَيَمُوتُ فِي الْقَاهِرَةِ سَنَةَ ١٩١١ فَلَاحًا مَنَسِيًّا مُهْمَلًا ، قَلِيلًا كَمَا  
كَانَ دَوْمًا ، وَيَرَى الْإِنْكَلِيزِيُّ الدِّينَ قَاوِمَ نَزْلِهِمْ إِلَى مِصْرَ يَسْطَرُونَ عَلَيْهَا بِأَشْرَافِهَا ،  
وَيُمَارِسُونَ فِيهَا مِنَ السُّلْطَةِ مَا لَمْ يَتَّفِقْ مِثْلُهُ لِلْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ قَطُّ ، وَمَا أَسْوَأُ  
مَا بَدَأَ بِهِ الْإِنْكَلِيزِيُّ ، وَيَقُولُ ضَابِطُ إِنْكَلِيزِيَّةٍ بَعْدَ حِينٍ : « إِنْ بَدَأَتْ سَيْئَةٌ عَلَى  
أَرْضٍ صَالِحَةٍ خَيْرٌ مِنْ بُدْءِ حَسَنَةٍ عَلَى أَرْضٍ سَيْئَةٍ » ، وَمَا كَانَ لِلْإِنْكَلِيزِيِّ أَنْ  
يَعْمَلُوا عَرَابِيًّا كَمَا يَعْمَلُونَ الْمُصَابَةَ ، فَهُوَ لَمْ يَكُنْ عَاصِيًا مَا كَانَ الْخُلْدِيُّ قَدْ سَلَّمَ إِلَيْهِ جَيْشَهُ ،  
أَوْ كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُعْلِنُوا حَايَتَهُمْ مِنْ قُوَرِهِمْ كَمَا صَنَعُوا ذَلِكَ فِي بِلَادٍ أُخْرَى ،  
وَمَا اتَّخَذَهُ غُلَامِيَّتَيْنِ ، هَذَا الْقَاتِلُ بِعَدَمِ التَّوَسُّعِ الْاِسْتِمَارِيِّ ، جَمَلَ الْمِصْرِيِّينَ

قول غوردون عن عرابي

يَروُن ، بِحُكْمِ الضرورة ، أن كلَّ ما تَكَثَّرَتْ لَهُ إنْكَلترة هو قنائة السويس  
ورقابة ما تحتاج إليه مصانع لَنَكْشِير من القطن .

وفيمَ كان عرابي الثائبُ يُفَكِّر وحيداً بفرقه الحقيرة بمصرَ القديمة حينما  
يَسْمَعُ صوتَ عَرْضِ الكُتَّابِ الإنكليزية في شوارع القاهرة وَيُنْصِر ما تَمَّ على  
يد الإنكليز من تقدم بعد عشرين سنةً من توطيدهم السُّلْم والنظامَ الذين صَرَّحُوا  
بأنهم أَتَوْا من أجلهما ؟ وهل كان في سبيل سعادة مصر أو شقاها ما أعطاه « عرابي  
المصري » من ذَرِيقَةٍ للإنكليز حتى يُسَوِّغُوا نزولهم إلى وطنه ذلك ؟ أفلم يكن  
وَجَدِيداً أَكْثَر من أن يكون جندياً ؟ أو لم يكن عليه أن يُخاطَبَ الإسْكَندرية سيداً  
لمصرَ ما أصبحت مصرُ قبضته ؟ أو لم يكن عليه أن يُفَلِّقَ قنائة السويس منعاً  
لوصول نَجْدَاتِ بريطانيا ؟ وما صَرَّحَ به لموظفٍ إنكليزي ذاتَ يومٍ فن قوة  
الإخلاص كدفاعه بعد القبض عليه ، غير أنه كان من شِدَّةِ الشرف وكثرة الجمل  
بالعالم ما لم يَسْطِيع معه أن يَحْوَلَ دون أَشْرَاكِ البَنوكِ الأوربية ، وإذا كان عرابي  
أولَ فلاحٍ قام بشؤون الحُكْمِ بمصرَ فإنه لم يكن فلاحاً بدرجة الكفاية ،  
وكانت الساعَةُ الطويلة التي يَقْضِيها في أثناء حربه أليقَ بالطالب الأزهرى  
مما بالجندي .

ولم يتكلم عنه أحدٌ بأحسنَ مما تَكَلَّمَ عنه الاسْكَتِلَنْدِيُّ التزِيهُ الجنرال  
غُورْدُون في أثناء تلك المعارك وقبل استيلاء كُتَّابِ الإنكليز على القاهرة ، قال  
غوردون : « ومهما يُصَبِّب به عرابي فإنه سيعيشُ قروناً في ذاكرة الشعب الذي لن  
يقول ثانية : خادمكم الخاضع » .

إِذَنْ ، استقرَّ الإنكليز بوادي النيل ، واستلموها الرومان أكثر من استلمهاهم اليونان ؛ وذلك مع كونهم أحسنَ تسلُّحاً من أسلافهم الذين كانوا قد استولوا على الدلتا خطوة خطوة بالحديد والنار ، أَجَلْ ، إنهم بدؤوا أَقْلَ أَطْلَالاً ، فلا يَزْعُمُونَ أنهم سادة وادي النيل ولا يَزْعُمُونَ التَّمَّ البريطاني ، ولكنهم يُوَكِّدُونَ ، ولا يزالون يُوَكِّدُونَ ، أنهم لم يأتوا إلى مصرَ إلا لِيُعِيدُوا النِظَامَ إلى نِصَابِهِ ، ثم ينصرفون ، وهم قد أقرضوا الخديو المُبْدَرَّ ، لا الشعبَ المصري ، ملاينهم بِمُخَضِّ إِرَادَتِهِمْ ، وهم قد صَنَعُوا ذَلِكَ طَمَعًا في رَبَا فاحشٍ لا ينالونه في الغرب ، وهم إذا ما جاءوا الآن فلنرى ينفذوا نفوذهم ما دام المصريون الصُّحَاةُ غيرَ مستعدين لأن يُوَدِّدُوا مِقَابِلَ ما بَدَّدَهُ مَسِيطِرُ أَجْنَبِيٍّ عَنْ سَفَهٍ ، ولنا يتعذر عليهم أن يَزْعُمُوا رَايَاتِهِمْ بِاسْمِ يَسُوعَ أَوْ بِاسْمِ الْحَرِيَةِ .

وكان الإمبراطورُ وقِيسَرُ قد بلغنا تلك الشواطئُ بِبَلَا عُدْرِ مُمْلِنَيْنِ عَزَمَتَا عَلَى حَسَنِ مَعَامِلَةِ الشَّعْبِ المصريِّ إِذَا مَا صَحَّحَ سَلَامَةُ طُرُقِ الْإِتِّصَالِ بِأَسِيَةِ ، وَيَمْنَحِي أَلْفَا عَامٍ فَلَا يَرِيدُ غِلَادِيَتُنَ ، الْمُطْلِعُ عَلَى تَارِيخِ الرُّومَانِ وَالْمُتَرْجِمُ لِكُتُبِهِمْ مِنْ لُفَةِ الْيُونَانِ ، غَيْرِ الْقَطَنِ . وَغَيْرِ طُرُقِ الْإِتِّصَالِ بِأَسِيَةِ ، وَلَكِنَّهُ ظَهَرَ قَبْلَ الْأَوَانِ وَبَعْدَهُ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَضَعَ مَطَالِبَتَهُ فِي قَالِبِ دُعَايِ الْبَسِيطِ قَبْلَ زَمَانِهِ وَبِالذَّمِّ <sup>(١)</sup> بَعْدَ إِبْطَانِهِ .

« كبار السك تأكل منلرما »

وكان محمد على قد أحس ذلك فقال : « كبارُ السك تأكل صغارها ، فإذا ما  
أفلست الدولة العثمانية استولت إنكلترة على مصر » ، وكان سياسيو الإنكليز  
يعرفون الحقيقة ، ولكن من دون أن يعترفوا بها لغير أنفسهم ، ويبلغ اللورد  
پلرستن في سنة ١٨٥٩ من القصة ما يكتب معه إلى سفيره بباريس قوله :  
« لا حاجة لنا بمصر ، ونحن إذا رغبنا في امتلاكها فلأتنا كذلك الرجل السليم  
الدوق الذي له عقار في شمال إنكلترة ومنزل في جنوبها فلا يريد أن يملك  
الفنادق القائمة على طرفي الطريق بينهما ، وإنما يطلب أن تكون هذه الفنادق  
دوماً ، مفتحة الأبواب حسنة التنظيم مشتملة على أضلاع غنم وعلى خيول » .  
ويمر زمن ، فيألم أذكى الإنكليز الذين يعملون في مصر ، أو الذين يديرونها  
من لندن ، من ذلك السلوك ذى الوجهين ، ومن ذلك أن توجب مالت ، سنة  
١٨٨٣ ، من تصريح وزير الحرية بدوام الاحتلال ستة أشهر ، فقال : « لا ريب  
في بقاءنا هنا زمناً طويلاً إذا لم نرُد أن نصيغ جميع منافع النصر » ، ومن ذلك  
قول المستشرق ومشارير وزير الدولة في المسئلة الشرقية ، رولينسن : « لا يمكننا  
الجللاء عن مصر مادام الفرنسيون في تونس » ، ومن ذلك قول سيدني لو .  
« نحن لا نحكم في مصر ، وإنما ندير حكّام مصر » ، ومن ذلك قول ميلنر  
« كان علينا أن نثقل في الحال نوع السلطة التي يريد أن نمارسها هنا ، بدلاً  
من أن نكون في وضع شاذ » ، ومن ذلك قول مترجم غلادستون ، زتلند :  
« كانت وزارة غلادستون ، في سنة ١٨٨٢ ، تحقّب كل شيء خلا الطريق التي  
تتقدم فيها ، وتباعت بالبدّ وتقاد إلى احتلال عسكري ، وتقوم باحتلال مصر  
عابسة ، فلما تمّ لما ذلك دهِست وأظهرت أنه كان على غير إرادتها » ، ومن ذلك

قولُ اللورد-لويْد : « وَتُنَزَّعُ صَوَارِي الْحُكُومَةِ فَتَقُولُ إِنَّهَا لَا تَقُومُ بِأَعْمَالٍ كَبِيرَةٍ وَلَا تَبْقَى فِي مِصْرَ زَمَنًا طَوِيلًا . . . وقد أَرَدْنَا فِي أَيَّامِ اللورد كَرُومِر أَنْ نَمْدِلَ عَنْ الْإِحْتِلَالِ ، وَقَدْ وَكَّدَ أَمْرُ الْبِرْنَامِجِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَجَزَ ، وَقَدْ كُنَّا مُسْتَعْرِينَ بِمِصْرَ ، فِي سَنَةِ ١٩٠٠ ، طَوْعًا أَوْ كَرْهًا »

وَإِذَا مَا وَجَّهَ سِتَّةُ رِجَالٍ مِنْ ذَوِي الْبَصَائِرِ كَأُولَئِكَ اسْتِقَادًا مِمَّا تَلَّأَ كَذَلِكَ إِلَى بِلَدِهِمْ فِي خَمْسِينَ سَنَةً وَجَبَّ أَنْ يُعْتَرَفَ بِأَنَّ الشُّعُورَ الْوِطْنِيَّ ، لَا الْأَحْوَالَ ، هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ اتِّخَاذَ قَرَارٍ عَظِيمٍ الشَّانَ بِمِصْرَ الَّذِي حَوَّلَ مِصْرَ ، وَمِمَّا نَرَاهُ أَنَّ مَا عَلَيْهِ الْحُكُومَةُ الْإِنْكِلِيزِيَّةُ مِنْ فِطْنَةٍ أَشْهَبَ فِي امْتِدَاحِهَا كَمَا أَشْهَبَ فِي امْتِدَاحِ فِطْنَةِ الْفَاتِيكَانِ ( لِمَا يُقَالُ مِنْ تَفْكِيرِهَا فِي أُمُورٍ خَاصَةٍ بِقَادِمِ الْقُرُونِ ) يَقُومُ عَلَى غَرِيزَةٍ صَادِقَةٍ تُمَثِّلُ عَلَيْهَا صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُتَفَكَّرَ فِي تَنَاضُجِ أَعْمَالِهَا ، وَبُذِّنَ كَرُّنَا هَذَا بِجَوَابِ غُوْتِهِ ، وَكَذَا أَنَّ غُوْتَهُ ، فِي أَوَّلِ حَدِيثِهِ لَهُ مَعَ شِيلِرْ كَانَ حَاسِمًا فِي تَقْرِيرِ صَدَاقَتِهِمَا ، عَرَّضَ رَأْيَهُ فِي الْبَنَاتِ الْإِبْتِدَائِيَّ عَلَى أَنَّهُ نَتِيجَةُ تَجْرِبَةٍ فَقَالَ شِيلِرْ مُغْتَرِضًا بِشِدَّةٍ : لَيْسَ ذَلِكَ نَتِيجَةُ تَجْرِبَةٍ وَلَا يَمْدُ ذَلِكَ حَدَّ التَّيَكُّرِ ، فَأَجَابَهُ غُوْتُهُ بِقَوْلِهِ : « لَا ضَيْرَ ، فَلَدِي مِنْ الْأَفْكَارِ مَا لَمْ أَعْرِفْهُ أَوْ أَرِدْهُ » .

وَإِذَا كَانَ الْإِنْكِلِيزِ ، مَعَ كُلِّ ذَلِكَ ، لَمْ يَكْمُلُوا عَنِ التَّصْرِيحِ بِأَنَّهُمْ لَا يَنْتَقُونَ فِي مِصْرَ مَا لَمْ يَكُنْ وَجُودُهُمْ فِيهَا نَافِعًا لِهَذَا الْبِلَدِ ( وَقَدْ مُجِّعَ ٤٩ تَصْرِيحًا مِنْ هَذَا النَّوعِ بَيْنَ سَنَةِ ١٨٨٢ وَسَنَةِ ١٩٠٢ ) فَالْتَّهَمُوا كَانُوا مُخْلِصِينَ فِي ذَلِكَ إِخْلَاصَ الزَّوْجِ الَّذِي لَا يَفَارِقُ زَوْجَتَهُ الْحَسَنَاءَ خُطُوَةً وَاحِدَةً مُدَّعِيًا أَنَّهَا تَسْلُكُ سَبِيلَ السُّوءِ إِذَا تَرَكَهَا وَحْدَهَا ثَانِيَةً ، وَالْحَقُّ أَنَّ ذَلِكَ الْبِلَدَ الْعَجِيبَ ، الَّذِي ظَلَّ نِظَامُهُ مُتَقَلِّبًا فِي الْمَهْدِ الْتُرْكِيِّ قُرُونًا ، قَدْ اجْتَذَبَ إِلَيْهِ الدَّوْلَةَ الْقَوِيَّةَ فِي الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ عَلَى الدَّوَامِ ،



وقد زادت قيمته بقاء السويس ففدًا جهاده في سبيل الحرية امرًا صعبًا ، وذلك إلى أن بريطانية المظلي قَبِضَتْ على ناصية مصرَ بغيرِتها عاملةً بنظرية نابليون الأول القائل إنه لا يُمكنُ أمةً أن تملكَ المندَ باستمرارٍ من غير أن تملكَ مصرَ ، وذلك إلى أنه ليس لها أن تأسفَ عليها مع ما تلاقيه من المصاعب التي لا حدَّ لها ، وماذا يحدثُ للإمبراطورية البريطانية إذا ما اضطرَّت إنكسرت إلى الجلاء عن مصر ، ولم تستغد من الحرب المظلي فتقطعَ لُبضة أيام تلك الرابطة التي تربط ذلك البلدَ بتركية ، أي أن تأتي عملاً خافه محمد علي ولم يُقدِّم عليه إسماعيل ولم تجزؤ عليه دولة عظيمة لمقاومته من قبل الدول المظلي الأخرى على الدوام ؟

وما بين الغالب والمغلوب من وضعٍ قد يكون فاجئاً ، ولكنه مسرحيٌّ محزنٌ على كلِّ حال ، ومن يُوقِفُ جُحماً ناعساً من مختلفي الألوان فإنه يُطرُدُ من قِبَلِ مَنْ أُمِنَ في إيقاظهم ، شأنُ غَلَاتِهِ <sup>(١)</sup> التي دَبَّت الحياةُ فيها فقرت من مولاها . ويبدو في ذلك الوادي الذي لم يكن عامراً بزواج جاهلين . بل بحفدة أقدم شعوب العالم حضارة ، ذلك الصراعُ طريقاً نظراً إلى وَضْعِ كُلِّ من الفريقين ، ويظلُّ قائماً أديباً كما في كلِّ مشهدٍ جيد ، ويعرف أذكى ممثلي تلك الرواية ما تستحقه إنكسرت من شكران وما يجب أن تُراعى به مصرَ ما زادت نَزْوَة <sup>(٢)</sup> فريق السكان المتعلم يوماً بعد يوم .

وكان ذلك الزواجُ خصباً ، ولم يكن سعيداً تماماً ، وذلك لأن الإنكليز لا يُحبُّون المصريين ، والقيادةُ من دأب الإنكليز ، ومن عادة الإنكليز أن يكونوا متساهلين تجاه الهنج تساعدهم تجاه الحيوانات الأهلية ، ويُدرِكُ الهمجيُّ ذلك ،

(١) غلاته : من إلهات الماء كما جاء في الأساطير — (٢) Nervosité

وَيُثِدِّي شُكْرَهُ لَنَلِكْ ، وَكَأَنَّ بَعْضَ مَبْغُضِي الْبَشَرِ يُجِئُونَ كَلَابَهُمْ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ .  
يَكُونُ الْمُسْتَبَدُّونَ عَلَى وَثَائِمٍ مَعَ خَدَمِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَكُونُوا عَلَى اتِّفَاقٍ مَعَ مُسَاعِدِيهِمْ  
مَا لَمْ يُنْزِلُوا هَؤُلَاءِ السَّاعِدِينَ إِلَى مَرْتَبَةِ الْخَدَمِ ، غَيْرَ أَنَّ الْإِنْكِلِيزَ فِي الْقَاهِرَةِ يَاجِبُونَ  
أَنَاسًا عَلَى جَانِبٍ عَظِيمٍ مِنَ الثَّقَافَةِ فِي الْغَالِبِ فَلَا يَسْتَطِيعُ أُولَئِكَ السَّادَةُ اللَّابِسُونَ  
بِذَلَالَةٍ بَيِضًا وَأَرْصُوصَاتٍ<sup>(١)</sup> أَنْ يُكَوِّهُوا عَلَيْهِمْ ، وَلَا يَزِيدُونَهُمْ إِلَّا اغْتِرَابًا  
بِفُضُولِهِمْ الْفَنَى عَلَيْهِمْ .

وَالْمَصْرِيُّ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ مَعَ قُرْبَانِهِ أَشَدَّ تَمَسُّكًا بِالْإِسْلَامِ مِنْ تَمَسُّكِ  
أَكْثَرِ الْإِنْكِلِيزِ تَمَسُّبًا بِالنَّصْرَانِيَّةِ ، وَيَتَحَوَّلُ مَا لَا أَمِيَّةَ كَبِيرَةً لَهُ فِي السُّودَانِ مِنْ  
تَنَاقُضِ الْأَدْيَانِ إِلَى تَنَافُسٍ رُوحِيٍّ فِي مَدِينَةِ الْأَزْهَرِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ هُوَ مِنَ الْقَدِيمِ هُنَا ،  
وَالْحَضَارَةُ هِيَ مِنَ الْجَلَالِ هُنَا ، وَالْحَوَالِيَّاتُ هِيَ مِنَ الطُّولِ هُنَا ، مَا يَنْظُرُ بِهِ وَرَثَةُ  
جَمِيعِ ذَلِكَ إِلَى هَذَا الشَّعْبِ الْفَازِي الْآكِنِ مِنْ جَزِيرَةٍ فِي الشَّهْلِ مَعَ عَادَاتِهِ وَعَقَائِدِهِ  
الْغَرِيبَةِ بَيْنَ فِلَسْفِيَّةِ قَادَةِ يَرْصُدُ بِهَا آخِرُ نَجْمٍ مَأْلُوفٍ مِنْ قَبْلِ حَكِيمٍ مُحْتَرَمٍ .

وَيَتَطَلَّبُ التَّطَوُّرُ بَيْنَ أُولَئِكَ الشَّيْبِ وَأَبْنَائِهِمُ الرَّاغِبِينَ فِي الْاِسْتِقْلَالِ كَثِيرًا مِنْ  
الْبَلَاةِ ، أَيْ وَجُودَ شَخْصٍ قَادِرٍ عَلَى حِفْظِ التَّوَازُنِ فِي وَضْعٍ لَا تَرَى لَهُ أَسَاسًا شَرْعِيًّا  
وَلَا اسْمًا صَحِيحًا ، فَيَتَمَتَّرُ فِيهِ كُلُّ احْتِكَامٍ ، وَمِنْ حُسْنِ حَظِّ الْإِنْكِلِيزَةِ أَنْ وَجَدَتْ  
ذَلِكَ الرَّجُلَ .

(١) الْأَرْصُوصَةُ : الْفُلْسُوفَةُ كَالْبَلِيخَةِ .

إذا ما خاطر البطل القومي اللّغىُّ الفقيرُ، عرابي، بنفسه فذهبَ إلى شوارع الأحياء الجديدة الأنيقة بالقاهرة ليقىَ عربةَ فِخْمةٍ يجرُّها حصانان مُطَهَّمان راشحان عرقاً ومزخرفان بالذهب ويَرْكَبُها رجلٌ من لِدَانِه<sup>(١)</sup> يترَفُّه الجميع ويَحْشَوْنَه ، وكان هذا الرجلُ الذي لم يُكَلِّمَه في سنواتِ حياته السَّ الأُخيرة بالقاهرة عدوًّا خَفَلًا له ، وكان هذا الرجلُ يَجْنَع منذ عشرين عاماً، منذ جُوط عمل الثورة المصرية ، كلَّ سلطةٍ قَبَضَ عليها عرابي في بضعة أشهر ، وكان هذا الرجلُ ممثلاً الدولة الأجنبية التي جاهد عرابي في سبيل إقصائها عن وطنه مجازفةً بحياته ، وكان هذا الرجلُ المسيطرُ على مصرَ يُسمَّى اللورد كرومر .

وما أكثرَ ما بين الرجلين من تباين ! فالرجلُ الثَّابِتُ المتمردُ الحادُّ الخياليُّ المضطربُ الثَّزَنارُ يَقِفُ على الرصيف فيُنْبَصِرُ مُنْتَمِئاً مروراً رجلُ جالس في عربته الجليَّة وضاحٍ الجليبين أزرق العينين أشقرَ أَشْمَطَ ، وكان هذا الرجلُ ابناً لأناسٍ من أغنياء التجار ، هو فريزي<sup>(٢)</sup> الأصل ، هو إنكليزيٌّ منذ قرنين ، هو سَبْطُ الجسم<sup>(٣)</sup> عريضُ الكتِفَيْنِ ، هو ثِقَّةٌ فطينٌ رصينٌ في أقواله وأفعاله ، وينالُ اللورد كرومر بالتدريج ما يَمِثُّ عليه وَضْعُهُ الواسع وبَصَرُهُ الثاقبُ من قوة وسلطان ، ولا تَرَى غيرَ أمرٍ واحدٍ يشابه الرجلان به ، وهو أنهما بدءاً عملهما في الجيش فصارا ملازمين في سِنٍّ واحدة ، وذلك مع بقائه ضابطاً في حامية كورفو زمناً

(١) اللدنة : التوب ، وهو من ولد معك — (٢) نسبة إلى فريز ، وهي ولاية واقعة على البحر العُمَلِيّ مقسومة بين مولدنة وألمانية — (٣) سبط الجسم : معتدل القوام حسن القد .

## الورد كرومر

طويلاً فلم تَدُلْ حاله على مستقبل زاهر ينتظره كما كان ينتظر نحى الخديو  
ومما يمكن من أمرٍ قد كانت الإمبراطورية البريطانية وتقاليدُها وزاء اللورد  
كرومر، ويمتاز اللورد كرومر في البرلمان وفي الإدارة الاستعمارية، ويُفدو سكرتيراً  
خاصاً لنائب الملك في الهند عن قرابة، قدُل مواهبه عليه في أثناء الثورة المصرية،  
ويُوظَّفُ في لجنة الذين المصريين لوقتٍ قصيرٍ ويُعين في وزارة الحرية وينقل  
صاحبَ منصبٍ من البرلمان إلى جُمَايكا فإلى الولايات المتحدة، ويقضى حياةً  
موغلفٍ في الإمبراطورية البريطانية، ويدعى إلى مصرَ بعيدَ احتلال القاهرة  
ويُعهد إليه في القيام بعملٍ صعبٍ، يُعهد إليه في تمدين بلدٍ أجنبيٍّ من غير أن  
يسيطر عليه، وذلك بما فيه نفعُ وطنه ونفعُ ذلك البلد معاً، ويقوم بشؤون هذا  
المنصب في أربع وعشرين سنةً ممارساً سلطةً كانت تزداد يوماً بعد يوم، فلما  
انقضت بضعة أعوام أصبح فرعون مصر السرى فِعلاً.

وإذا نظرت إلى معاصريه لم ترَ غير كُرْزُن وسيبيل رُوْدُس من نال مثلَ ذلك  
النجاح الذي تجده مدينتا به ثلاث صفات صار بها فوق أمر رجال الأعمال، وهي:  
الروح العملية والتزاهة والقطل من الزهو، ومن ذلك أنه لما بلغ الثالثة والخمسين  
من سنه رَفَضَ أعظمَ مقامٍ كريمٍ في الإمبراطورية البريطانية، رَفَضَ منصب  
نائب الملك في الهند، مُقدِّراً أن عمله في وادى النيل أهمُّ نفعاً وأن مسائل الرى  
« أمتع من رواية ».

وما ينطوى عليه عمله من شُور رمزيٍّ، لا يكون الرجل بشيره عظيماً، وَجَدَ  
فيه سنداً يحمي جميع المخاطر، فبعد أن أجاب بالأرقام عن مئات الأسئلة وَصَفَ  
ما أوجبه عمله الإبداعيُّ فيه من مسارٍ في قصيدة طويلة جاء فيها:

« أنيس من الفوز أن تُردَّ كرامة الإنسان إلى العبد الذى يَبْنِي مُحْطَمًا تحت  
 نِيرِ الطُّغْثَةِ من المهد إلى اللحد؟ أليس من الفوز ، أليس من العمل الصالح ، أن  
 يُوضَعَ حَدٌّ لظلم الباشا وأن يُتْرَكَ ما هو قبضته لامرأة الفلاح وابنها المكلَّوع ؟ » .  
 ويتجلى إخلاصُ اللورد كرومر ، وعنادُه ورشدُه وثباتُ فؤادِه وعزمُه على  
 تحقيق ما يُقرَّرُه ، فى زواجه بامرأة كان عاشقًا لها فى الحادية والعشرين من عمره  
 فناها فى الخامسة والثلاثين من سِنِّه ، وتمضى عشرون سنةً قَبِيزَها القَدَرُ منه ،  
 ويفادِ سِرَّ موتها إلى مكتبه ويُدَبِّجُ يرَاعُه بريقةً مظلولةً إلى لندن حَوْلَ مناوِرِ  
 البحرِ الأَمرِ .

وما صنَّعه وأداره ، وينطوى على أعظم تحوُّلٍ عاتيةٍ مصرُ فى ألف سنة ، تَمَّ على  
 عينِ فرسةٍ التى كانت تأكلُها القَيْرةُ وعلى الرغم من اعتراض الدائنين والصيَّافةِ  
 الأوربيين الدائم ، وذلك لأن فلاح الدلتا ، لا صاحبَ الأسمم الباريسى ، هو  
 الذى كان محلَّ عِنايته ، ومن سياسته وجوبُ تقوية سلطانِ بريطانيا العظمى على  
 أن يلازم ذلك المصريين ، لا أن يكون ضارًّا بهم ، وقد وجب عليه ، مع ذلك ،  
 أن يجادلَ ستَّ ، أو سبعَ ، وزاراتٍ متعاقبةً كانت ترُسُّمُ له خِطَطًا متناقضة .  
 ولم يكن غيرَ قنصلٍ عامٍّ فى سلسلة المراتب البريطانية ، ولكن مع وجوب دعوته  
 بالقنصل الأول ، وكان موظفو القاهرة يُسمُّونه « فرعون » ، وكان الفلاحون يُسمُّونه  
 « اللورد » ، ويُضْطَرُّ كقنصلٍ فى أواخر القرن التاسع عشر ، أى فى وضعه الفامض  
 الذى لم يُعَمِّنْ بغيرِ المبادئِ الأدبية ، إلى احتمالِ مسؤولية جيشٍ مؤلَّفٍ من خمسة  
 وعشرين ألفَ رجلٍ حين حملة السودان ، وإليك أمراً يكنى لإثبات مقدار ما يُلَبِّه  
 من النفوذ ، وذلك أن اللورد سالسبرى كان مُجَاراً فأخذ بريقةً رَقِيَّةً من كرومر

« اصنع ما تريد »

من غير أن يكون مفتاحُ الشُّفرة<sup>(١)</sup> عنده ، فلم يَسْتَطِيعْ أن يَفْكِّهَا ويقرأها فأبرق إلى كرومر يقول له : « اصنع ما تريد » .

ويفوز باحترام خصومه السياسيين من المصريين ، وذلك لأنه لم يطلب لنفسه شيئاً ، ولو من غير مباشرة ، وذلك أيامَ كانت الرشوة شائعةً بين جميع الناس في القاهرة ، وما قَتِنَتْ أسطوره تَعَظُّمُ بين الفلاحين ، فلما انتشرت المِيفَةُ<sup>(٢)</sup> في البلاد حاول ضابطٌ إنكليزى<sup>٣</sup> أن يحْمِلَ فلاحاً على نقل بالوعر منزله ، فصرخت قائلة له : « سأذهب إلى القاهرة عند الراجل ، عند كرومر ، فهو يحسني منك » .

ومع ذلك لم يكن أَرْتِجِياً خالصاً ، فلم يُحَقِّقْ كثيرٌ من مشاريعه ، وقد حُلَّ كثيرٌ من المسائل وَفَّقْ مصالح الأوربيين وخلافاً لمصالح الفلاح الذي كان يرغب أن يرباه ، وسببُ الصعوبة في رسالته هو ما ينطوى عليه الاستثمار من متناقضات ، وذلك أن ما يُتَّخَذُ من أمرٍ فيه صلاح المجتمع لا يُمكن تجريدُه تجريداً تاماً من مصالح مَنْ يُرْسَلُونكم وإن جلتِ محبة الآخرين دليلاً لكم ، وكان كرومر يودُّ تجديدَ الشعب المصري<sup>٤</sup> ، وكان كرومر في سنة ١٨٨٣ من القائلين بِجَلَاءِ الكتائب البريطانية ، ثم أخذ كرومر يمارض ذلك بعد سنة ١٨٨٦ ، والواقع أنه لم يقع حادثٌ ذُو بالٍ في تلك الفترة من الزمن ، والواقع أنه شعر بذلك التناقض مع نزوعه إلى الحرية في جميع حياته ، فكتب في سنة ١٨٨٤ يقول لصديق له :

« حقاً أن القَدَرَ الذي يسوقني جائزٌ ، وإني على ما يساورني من مقتٍ لكلِّ تَوْشِعٍ ولتقبل مسؤولياتٍ جديدة ، وإني على ما ليس عندي من غُلُوٍّ وطنيٍّ ، أراني مضطراً إلى اقتراح تدابير تدلُّ على تطرفٍ قوميٍّ أولٍ وَهَلَاةٍ على الأقل ...

(١) Chiffre — (٢) المِيفَةُ : الكوليرا .

### وجد أجبديات

وأجِدُ في هذه البيئة العاطلة من كل انسجام سياسي ما يملئ دوماً على أن أفعل وأقول خلاف ما أودُّ .

وإذا ما فُكِّرَ في ذلك النضال الباطني وفي كل ما عليه أن يأتيه من كفاح خارجي رُئِيَ أن كرومر رجل يَعْرِفُ أن يَشُقَّ بساعديه القويين طريقاً في الغابة البكر ، وذلك مع حَذَرٍ من أن يلدغه ثعبان في عقبه ، وذلك لأن ما وَجَدَه اللورد كرومر كان في بدء الأمر أقوى من الذي أتى به .

وَوَجَدَ نفسه أمام سلطاتٍ مصرية وتركية وأوربية متطاحنة مع مقاومتها إياه ، وكان من الترك وزوله قَوْمُوا فَكَّرَهم مَذْأَنُزِلُ البريطان جنودهم ، فلما اشتدَّ ساعدهم زاد حقدهم ، وكان من الباشوات مَنْ يُوَدُّونَ ، كأمرأه الروس ، غفقت زينة خيلاتهم بياريس نتيجة لاستغلال قلاعهم ، ومن العلماء مَنْ كان عيشهم يقوم على اختلاس رِنَعِ الأوقاف الخيرية ، وكان الجميع ، ومنه الخديو ، يخاف أن يَسْتَنْزِفَ القادم الجديد مَعِينِ دخلهم ، وما كان أولئك كلهم لِيَشْعُرُوا في بدء الأمر بالواجب الاجتماعي الذي يُسْتَرْمُهم ، وإنما كانوا يُبْصِرُونَ ، فقط ، خروج الذهب من جُيوب المصريين وتَسْرِبُهُ في جيوب الإنكليز ، وإنما بلغوا الغاية من التقيُّظِ حيناً وَجَدَ القلاحون مَنْ يَحْمِيهم من مظلهم .

ولم يكن سكان المدن مثقفين ، ولكن مع عدم الجبل المطبق ، ولم يجد اللورد كرومر تمهجاً في الأرياف ، بل وَجَدَ أجبديات ، وكان عليه أن يدرك أمر ذلك العالم ، من غير أن يُمِرَّ أنه يَعْلَمُ حاله ، وكان الأكثرُ ذكاءً يقولون مرّوا بما يجب أن يُفعل ، ولكن لا تَنْظُرُوا إلى الأسلوب الذي يُفعل به ، وفي الأساس كان المصريون يشابهون أصحاب القنادق الذين لا يريدون سوى اجتناء المراجيح من رُبَّتْهم ،

ثم أخذوا يترَوْنَ بالتدرج أنهم ضيوف في بلادهم الخاص فيجب عليهم أن يدفعوا مقابل ما يأتيهم به الأجنبي من أثنى وراحة .

وكان سلطان كرومر المطلق يظهر في الجزئيات أكثر مما في الكليات ، وما كان يتصرف في غير بضع عشرات من الموظفين ، وما كان أحد في هذه الحكومة العاطلة من التقاليد ليشفل ذهنه في اتخاذ قرار ، لرد كل شيء إلى فروع الجديد هذا ، فإذا ما بُحِث في موكب ككتبي حبشي ، أو في تسريح حُوزي<sup>(١)</sup> إنكليزي لدى الخديو ، أو في نبش قبر ولي مصري ، أو في ارتباك منزلي نشأ عن عدم استطاعة سيدة في البلاط أن تضرب رأس زوجها بحفها ، وجب الرجوع إليه ، كما وجب عليه أن يوضح لعالم أثري إنكليزي كون حيازة فرنسا للدرج<sup>(٢)</sup> ملك لا يعد سببا لشهر الحرب عليها ، وأن يوضح لعالم نباتي كون البحث عن نوع من الذرق<sup>(٣)</sup> على ضفاف بحر النزال لا يستلزم غزو بلاد النوبة ، وهو من ناحية أخرى ، وهو كإنكليزي ، وهو كحبيب للإنسانية ، كان غير قادر على حل مشاكل النيل والتعليم والجيش ، وذلك لما لا يجب من الإسراع في هذه الأمور مع وجود القوضى التي تسوغ الاحتلال الإنكليزي .

وينظر اللورد كرومر في أمر القلاح كثيرا ، ويُفكر الباشا ، الذي يمتصر القلاح منذ زمن طويل ، مظهره ، ويؤود للرابون من السوريين واليونان الذين تواروا بعد ثورة عرابي في سبيل تحرير أخيه القلاح ، وذلك لعدم قدرة الإنكليزي على إلغاء إقراض القلاح قرضا قانونيا ، ويسأل مثيرو القعن عن السبب في دفعهم نفقات

(١) الحوزي : سائق المركبة — (٢) الدرج : ما يكتب فيه — (٣) الذرق : نبات يعرف بالهندقوق ،



تجديد شوارع الإسكندرية التي خربها الإنكليز القادمون لاغتصاب الحرية .  
وُتُسِّرَ بِدَعٍ ثَلَاثَ جَوْهَرِيَّةٍ عَيْشَ الْفَلَّاحِ ، فَيُلْفَى السَّوْطُ ، وَيَزُولُ كُلُّ  
وَجَلٍ يَنْشَأُ عَنْ وَصُولِ الْجَلْبَى بِنْتَهُ ، أَيْ يُعْرَفُ مَقْدَمًا مَتَى يَجِبُ أَنْ تُدْفَعَ الضَّرْبَةُ .  
وَمَاذَا يَجِبُ أَنْ يُدْفَعَ مِنْهَا ، أَيْ يُعْرَفُ مَا كَانَ يُجْهَلُ عَلَى الدَّوَامِ ، وَكَانَ عَلَى الْفَلَّاحِ  
فِي الْمَاضِي أَنْ يُؤَدِيَ ضَرَائِبَ عَنْ حَقْلِ أُلْفَتِهِ الْقِيْضَانِ مِنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ ، فَصَارَ يُعْفَى  
مِنْ ذَلِكَ إِذَا مَا أُثْبِتَ أَنْ قَسَمًا مِنْ حَقْلِهِ أُصِيبَ بِالْقِيْضَانِ ، وَإِذَا مَا حَبَسَ الْمَاءُ  
مَزَارِعَ الْبَاشَا وَوَجَّهَهُ إِلَى أَرْضِيهِ وَحَدَّهَا أَمَكْنَ الْقَرْيَةَ أَنْ تَرْفَعَ شَكَاوَهَا إِلَى  
الْإِنْكِلِيزِيِّ ، لِمَا لَا يَحِقُّ لِلْفَتَى أَنْ يَحْرِمَ الْفَقِيرَ مَاءَهُ ، وَكَانَ الْفَلَّاحُونَ فِي شَبَابِهِمْ  
يُسَخَّرُونَ بِالسَّيَاطِ لِلْعَمَلِ الشَّاقِّ فِي الْقَنَوَاتِ فَيَقْضُونَ نَهَارَهُمْ فِي الْوَحْلِ وَيَقْضُونَ  
لَيَالِيَهُمْ فِي الْكِيسِ ، فَصَارُوا الْيَوْمَ يَأْخُذُونَ أَجُورًا ، وَهُمْ لَا يُحْمَلُونَ عَلَى مَدِّ يَدِ الْعَوْنِ  
إِلَّا عِنْدَ خَرَابِ الْأَسْدَادِ ، وَالْحَقُّ أَنْ الْوَرْدَ كُرومرَ وَفَقَّ لِإِلْفَاءِ جَيْشِ الْعَمِيدِ إِلْفَاءً  
تَامًا تَقْرِيًّا .

وَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنْ كَانَ الْوَرْدَ كُرومرَ يُجْهَلُ عَدَمَ إِطَاعَةِ أَمْرِهِ بِمَصْرَ الْعَمِلَا ، وَإِعَادَةَ  
الْمُدِيرِينَ لِسَابِقِ سُلْطَانِهِمْ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِنِ هُنَا وَهَنَّاكَ ، وَكَانَ الْفَلَّاحُ مِنْ نَاحِيَتِهِ  
يُجْهَلُ جِهَادَ الْوَرْدِ الْقَدِيرِ فِي الْقَاهِرَةِ فِي سَبِيلِ تَنْفُسِ الْفَلَّاحِ فِي الدُّنْيَا ، وَلَمَّا أَرَادَ  
أَنْ يَسْتَبْدِلَ الْمَجَارِفَ بِالشَّخَرَةِ رَفَضَتْ لَجْنَةُ الدِّيُونِ إِجَازَةَ مَبَاغِ الْـ ٥٠٠٠٠٠ جَنِيهِ  
الضَّرُورِيِّ لِلذَّكَاءِ ، وَلَمَّا ظَهَرَ مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ هَذَا الرِّفْضُ مِنْ فَضِيحَةٍ لَمْ تَوَافِقِ  
الدُّوْلُ عَلَى إِلْفَاءِ ذَلِكَ الرِّقِّ إِلَّا إِذَا أُعْغِي الْأَجَانِبَ مُجَدَّدًا مِنَ الضَّرَائِبِ بِمَصْرَ !  
وَلَمْ يَتَلَمَّ الْفَلَّاحُ وَجُودَ سَادَةٍ قَلِيلِينَ مِنَ الْأَجَانِبِ فِي الْقَاهِرَةِ جَالِسِينَ حَوْلَ  
مَائِدَةٍ خَضَرَاءَ كَبِيرَةٍ كَانَ يَحِقُّ لِيَمِّ وَحَدَمِهِمْ أَنْ يَحْكُمُوا دُونَ إِنْشَاءِ أَسْدَادٍ جَدِيدَةٍ وَأَنْ

## الجزية السنوية

يُزَفِّصُوا حَقَرًا قَنَاقَةً واحدةً ، وأن هؤلاء السادة هم يُمَثِّلُونَ قداماء الدائنين ويُدِيرُونَ شؤونَ المالية ، وهؤلاء مع عشرة آخرين في القاهرة هم الذين كانوا يُدِيرُونَ حَقِيقَةَ هذا الأمر كما صَرَّحَ مِلنر ، ولم يَزَلْ طَئِيفُ الخلدِيو المتَلَفِّفِ وخيالُ خِيميته الحُريريةِ أمام الأهرام مائِلِينَ حتى القرنَ العَشرِينَ فَيُمَكِّنُكَنَّ الأَجَنِبِيَّ من ابتزاز أموال البلاد ، وما قَبِيَ السُلطان يأخُذُ نَحْوَ مليونِ جِنِيهِ جَزِيَّةً لِفَتْحِ أَجْدَادِهِ مِصرَ منذ أربعة قرون من دون أن يصنعوا شيئاً في سبيلها ، ولم يَجِدِ الإنكليزُ حَلاً غَيْرَ جِرْمَانِ الفَلاحِ غَلْيُوتَهُ لوجوب فرضِ ضريبةٍ على التَّبَغِ جَمْعاً لِمَالِ تلكِ الجِزْيَةِ ، وَتَحْلِلُ سنةَ ١٩١٠ ، فَتُبَاعُ بِالْمَزَايِدَةِ العَلَنِيَّةِ ، حتى في هذه السنة ، أَطْيَانُ وَيُوتُ لَأَرْبَعِمِئَةِ أَلْفِ فَلَاحٍ دَفْعاً لِدِيُونِ لَا تَزِيدُ قِيَمَةَ الواحدِ مِنْهَا على خمسين جِنِيهاً .

وَيَقَعُ حَادِثٌ عَظِيمٌ في حَيَاةِ الفَلاحِ في سنة ١٩١١ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللوردَ كَنَشَنرَ ، الَّذِي حَلَّ مَحَلَّ اللوردِ كرومر وَفَقَّ رِغْبَةَ اللوردِ كرومر ، نَشَرَ قَانُوناً يُحَرِّمُ حَجَرَ يَتَّيَّعُ الفَلاحُ وَأَلَاتِ عَمَلِهِ وَالثَّغْنَيْنِ مِنْ بَقَرَاتِهِ الْحَلُوبِ وَخَمْسَةِ أَفْذَنَةٍ مِنْ أَرْضِيهِ كما هو الأمر في فرنسا وفي البَنجَابِ ، وَإِذَا أَنَّ الفَلاحِينَ شَاكِرُونَ بِطَبِيعَتِهِمْ فَانْهَمَ لَمْ يَنْسُوا مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ ، فَكَانُوا ، بَعْدَ زَمَنِ ، يَنْهَضُونَ وَيَضَعُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى جِيَابِهِمْ إِذَا مَا ذَكَرَ اسْمُ اللوردِ كَنَشَنرِ .

وَمِنَ الْإِنْصَافِ أَنْ يُعْتَرَفَ بِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْإِصْلَاحَاتِ كَانَ مُتَعَذِّرًا ، وَكَانَ اللوردُ كرومر مُضْطَرًّا إِلَى احْتِرَامِ الثَّقَلِ الْمَوْجُودَةِ ، فَإِذَا وَضِعَ نِظَامٌ جَدِيدٌ لِلرَّيِّ مُرَكَّبُ النِّظَامِ الْقَدِيمِ يَسِيرُ عَلَى مَحْوَرِهِ ، وَإِذَا جُدِّدَ جَدُولٌ مُنِيعٌ ذَلِكَ قَبْلَ سَدِّ الْجَدُولِ الْقَدِيمِ ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْ كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يُعْمَلَ وَفَقَّ الْقَلْبَ الَّذِي لَا يَزَالُ يَدُقُّ .

### خطايا اللورد كرومر

وكانت التقاليدُ تناسبه العداوةَ أيضاً ، ومن ذلك أن كان الفلاحُ يرى استثناء الأغنياء من الخدمة العسكرية في مقابل أر بعين جنياً قبلَ رمي القرعة وفي مقابل مئة جنيه بعد رميها ، مع أنه كان يجب على الفلاح أن يصير أعورَ ينتزاتِ الفضة حتى يُعلنَ عدمُ صلاحه لها .

وكان يُبصر ما عليه ضباط الإنكليز في أثناء الهَيضة من الشجاعة وروح التضحية ، ويمدُّ ما أبداء الأطباء ورجال الصحة البريطانيون بمصرَ في أثناء ذلك الوباء من أعظم الأعمال الإنسانية ، فلولاً هؤلاء الذين خَفَّوْا بذلك وطأة اثنتين من الخطايا لدينتِ إنكلترة أدياً .

وأولى تبنك الخطيئتين هي المحافظة على الامتيازات الأجنبية ، وكانت هذه الامتيازاتُ "تمزج شعورَ مصرَ القوي" أكثر مما يجرِّحه وجود الكتائب الأجنبية ، وبما يزيد الحقد على الأجنبي بحكم الضرورة عدمُ حقِّ الشرطيِّ في القبض على لعصر أجنبيٍّ أو قوادٍ أجنبيٍّ أو تاجر أفيونٍ أجنبيٍّ لأنه ليس مصرياً .

والخطيئةُ الثانية هي التي اقترفها اللورد كرومر في أمر المدارس ، فما يُسأل : لماذا لم يُهدِّد هذا الرجلُ البالغ القوة باعتزال الخدمة عند ما أبت عليه لجنة الديون فتح اعتمادٍ ماليٍّ ضروريٍّ لإنشاء مدارسٍ جديدةٍ ؟ هو ليس من طُفأة هذا الزمن الجهلاء المعاصرين الذين يَرَوْنَ الأسلحةَ أهمَّ من الكتب ، وذلك لمعرفتهم الأولى وجهلهم الثانية ، ومثلةُ المدارس هذه هي أصلُ كلِّ صدام بين الإنكليز والمصريين في الوقت الحاضر ، ويَرَى المصريون أنهم أُصيبوا بضررٍ عظيمٍ من النظام التعليمي الذي طُبِقَ عليهم أر بعين علماً ، ولا يُفسَّر ذلك الخطأ إلا برغبة السياسة الإنكليزية السريّة في العناية بصحة الشعب المصريِّ والسيطرة عليه بالمدل مع إبقائه جاهلاً ،

## وإليك الأرقام

ولا نجدُ معارضة المصريين سبباً آخرَ غيرَ حرصهم على تعليم أولادهم وغيرَ تَعَدُّ ذلك على الألوف منهم قلةً للدارس والمعلمين ، أَجَلْ ، يُزَعَمُ أن اللورد كرومر كان خصماً للثقافة العالية وأنه كان نصيراً للتعليم الابتدائي ، أَجَلْ ، يُزَعَمُ الإنكليزُ أن الأزهر هو مصدرُ المعارضة ، غير أن البحث في الوثائق يُسْهِرُ عن نتيجة أخرى ، ولا يَكْفِي عدمُ المال لإيضاح كلِّ شيء .

وإليك الأرقام : كان محمد علي وإسماعيل يحملان التعليمَ جَنَانًا وَيُطْعِمَانِ الطُّلَّابَ بلا عَوَاضٍ ، فكَانَتِ الْأَجُورُ لَا تُؤْخَذُ فِي سَنَةِ ١٨٧٩ مِنْ غَيْرِ خَمْسَةِ فِي الْمِثَّةِ مِنَ الطُّلَّابِ ، وَتَحْمِلُ سَنَةَ ١٨٩٨ ، وَيَكُونُ الْعَهْدُ إِنكَلِيزِيًّا فَيُظْهَرُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْقِرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ فِي مِصْرَ ٩١ فِي الْمِثَّةِ مِنَ الرِّجَالِ وَ ٩٩ فِي الْمِثَّةِ مِنَ النِّسَاءِ ، وَيَذْهَبُ اثْنَانِ فِي الْمِثَّةِ مِنْ أَبْنَاءِ الْمِصْرِيِّينَ إِلَى الدَّارِسِ فِي عَهْدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَتَنْقُصُ ثَلَاثُونَ سَنَةً فَلَا يَذْهَبُ إِلَى الدَّارِسِ فِي سَنَةِ ١٩٠٨ غَيْرُ ١٥٥ فِي الْمِثَّةِ مِنْ أَبْنَاءِ الْمِصْرِيِّينَ ، وَيَأْتِي زَمَانُنَا ، يَأْتِي دَوْرُ التَّعْلِيمِ فِي الْعَالَمِ بِأَجْمَعِهِ ، فَلَا يَنْقُصُ عَدْدُ الْأُمِّيِّينَ بِمِصْرَ وَلَا يَزِيدُ عَدْدُهُمْ نَسْبِيًّا فِيهَا ، وَلَا يَتَعَلَّمُ الْفَلَّاحُ مَا يَجِبُ أَنْ يَتَعَلَّمَ ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْإِحْصَاءِ الْإِنكَلِيزِيَّ الَّذِي تَمَّ سَنَةَ ١٩٠٦ أَنَّ ٩٠.٠٠٠ طَالِبٍ لَا يَعْرِفُونَ الْكِتَابَةَ وَ ٩٠.٠٠٠ طَالِبٍ لَا يَعْرِفُونَ الْحِسَابَ وَ ٧٠.٠٠٠ طَالِبٍ لَا يَعْرِفُونَ الْقِرَاءَةَ وَذَلِكَ مِنْ ٢٥٠.٠٠٠ طَالِبٍ ، وَهَذَا تَتَجَلَّى مَسْئُولِيَّةُ سُلْطَانِ الْبَيْضِ .

وَيُخَصَّصُ الْإِنكَلِيزِيُّ فِي سِنَوَاتِ الْإِحْتِلَالِ الْعَشْرِينَ الْأُولَى وَاحِدًا فِي الْمِثَّةِ مِنْ نَفَقَاتِهِمْ لِلتَّعْلِيمِ (بَدَلًا مِنْ عَشْرِينَ فِي الْمِثَّةِ) ، وَالْإِنكَلِيزِيُّ هُمُ الَّذِينَ جَعَلُوا لَهُمْ مُسْتَشَارِينَ أَقْوِيَاءَ فِي كُلِّ مَكَانٍ مَعَ تَرْكِ وَزَارَةِ الْمَعَارِفِ لِأَنْاسٍ مِنَ الْأَرْمَنِ وَلِأَنْاسٍ آخَرِينَ مِنَ الْأَجْنَابِ ، وَكَانَتِ السِّيَاسَةُ الْحَزْبِيَّةُ تَزِيدُ هَذِهِ الدَّارَ إِظْلَامًا فَيَتَنَاوَبُهَا تِسْعَةُ

وعشرون وزيراً في تسع وعشرين سنة ، وآخرُ من اختاره اللورد كرومر منهم كان رجلاً ، كان زغولاً .

ويستحقُّ العملُ الذي أتمه اللورد كرومر في مصرَ بلا حربٍ إعجابنا مع ذلك ، ومع وجود ديني عظيم ، ومع معارضة الجمعية الأهلية العليا ، فهذا اللورد هو أول من جعلَ الفلاحَ يشعرُ بأنه مساوٍ للباشا أمام الله والقانون ، ومن الواضح أن يُصوّب هذا الشعور ، بعد أن ينتبه ، إلى السلطة الخامية نفسها ، ويقعُ حادثُ أليمٍ فيفسد آخرَ سنةٍ من إقامة كرومر بمصرَ ، قد أطلق ضُباطٌ من الإنكليز ناراً على حكام فلاح فأدى ذلك إلى قتلِ إنكليزيٍّ وإلى إعدام ستة فلاحين ، فضُيِّمَ بهذا الحكم الاستعماريُّ عملُ صديقِ الشعب الحرِّ ذلك

## ٣٦

يُعَيِّنُ النُضالُ في سبيلِ الذهب وفي سبيلِ الحرية مصرَ منذ صارت قبضةً بريطانية العظمى ، وكلا الأمرين يُرَدُّ إلى مبادئ الإنسان.. وإن لم يكونا قديمين قديم النبل ، ولم يجاهد قدماء المصريين في سبيلِ الحرية قطُّ ، ولم يُعْرِفُوا الثورات ، ولا انقلاباتُ الكبيرة في المراتب الاجتماعية ، لا الطبقاتُ العليا ، هي التي تدفعُ الشعبَ إلى ثبيلِ الحرية ، وبما يزيد المسئلة المصرية تعقيداً هو أن الكفاح في سبيلِ الحرية مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً في الكفاح دفاعاً عن القطن ، فالمصريون من كلِّ طبقة ، وإن كانوا يريدون انخلاصَ من الإنكليز ( لما ليس لثبير الأهلين فائدة من وجودهم ) ترى من يقومون بخدمة القطن منهم يبالغون بالسوق المالية

أكثر من مبالغتهم بمصير القلاح .

ويتوقف أمرُ زارع القطن في الدلتا والتاجر في الإسكندرية والمحامي والمتسول والصنّدير والمستورد ، ويبلغ عددهم مليونين ، على القطن ، فيشغلُ القطن بألم صباح مساء ، ولا تجدُ لشاريع هؤلاء وبصرهم بالأمور أية صلة بصحة القلاح ورفاهيته وإن كان القلاح ضرورياً للقطن كالنيل ، وترى هؤلاء الناس ، حتى في منامهم ، يشغلون أذهانهم ، دوماً ، بالبرصة<sup>(١)</sup> ويتحوّل الأيمان في السوق المالية لعلاقة ذلك بسعادتهم ، وكل ما يرجوه الألف من أهل ضفاف النيل هو أن يُصيب الله ، بفضل من لدنه ، نبات قطن الكافرين في فلوريّدة بالدوّة ، وأن تقضى حرب في آسية الوسطى على منافس ، وأن يُذعن الحاكمة للضربون في لنكشير من غير أن ترتفع أجورهم رخصاً موجياً لتزول الأسعار ، وأن يكون فيضان النيل معتدلاً فلا يمرضُ السدّ القديم للخطر ، ولو فرض أن حياتهم تقوم على السكر أو التبغ أو البسط أو البناء لمعين دخلهم بثمر قطن السكلايدس في البرصة التجارية ، وتعدّ العناصر والأزمات التي من شأنها الخفضُ أشباحاً تُرهب الراصدين في الظلام ، وتستطيع أن تهزّ شعباً كما يؤدي إليه خسران معركة على شاطئٍ بعيد .

تلك هي قوة النيل عند نهايته ، ويتوقف محصول القطن على أهواء المطر في الحبشة وعلى جهود المهندسين من الإنكليز الذين لولاهم لم يمكن الانتفاع بأرماّت المهند الحادّة كثيراً ، بيد أن سكان المدن الكبرى لا يبالون بذلك كما أن الرجال للنهكيين في أعلم لا يعبأون بعلام المرض الكامن لهم والذي قد يقضى عليهم ، والقلاح وحده هو الذي يمش مع النيل ويُقدّس فيه العبود القديم هابي الذي يرفقه

## العلم والحريّة

أَوْ يَهْلِكُهُ ، وَالْفَلَّاحُ مَعَ نِسَائِهِ وَأَوْلَادِهِ هُوَ الَّذِي يَسْقِي الشَّجَرَةَ الثَّمِينَةَ وَيَتَعَمَّقُهَا وَيُسَدِّدُهَا وَيَنْجِي ثَمَرَهَا وَيُسَلِّهُ ، وَلَا يَكَادُ الْفَلَّاحُ يَسْمَعَ حَدِيثًا عَنْ تِلْكَ الْآلَمَةِ الْأُجْنِبِيَّةِ ، عَنْ « السُّوقِ الْعَالِيَةِ » ، غَيْرَ أَنَّ عَلَى الْفَلَّاحِ أَنْ يَخْشَى عُيُوسَهَا لِتَأْثِيرِ انْصِلَاسِهَا فِي أَجْرَتِهِ .

إِذَنْ ، يَتَّبِعُ الْأَغْنِيَاءُ وَالْفُقَرَاءُ غَايَاتٍ مُخْتَلِفَةً فِي النِّضَالِ مِنْ أَجْلِ الْحَرِيَّةِ ، وَبُحْرِيدِ الْفَلَّاحِ ، الَّذِي لَمْ يُغَيِّرِ الْقَطَنُ حَيَاتَهُ وَلَمْ يُحَسِّنْهَا ، حَرِيَّةً بِلَدِهِ فَقَطْ ، وَيَبْدُو الْفَلَّاحُ ، بِذَلِكَ ، مُسْتَقِلًّا فِي أَمَالِهِ مَعَ أَنَّهُ أَمِينٌ فِي اسْتِعْبَادِهِ ، وَيَحُولُ مُهَانَةً وَرُوحَ الْمَصْرَدُونَ سَقُوطَهُ مَرَّةً أُخْرَى تَحْتَ سَوْطِ الْبَاشَا الَّذِي أَلْفَاهُ الْإِنْكِلِيزُ ، وَلَا يَحْرِمُهُ ذَهَابُ الْإِنْكِلِيزِ شَيْئًا مَا صَحَّحَ النَّيْلُ عَيْشَهُ حَتَّى عِنْدَ مَا يُوْدَى ارْتِبَاكُ فِي السُّوقِ الْعَالِيَةِ ، أَوْ تَغْيِيرُ بَيْنِ الدُّوَلِ الْمُطْلَقِ ، إِلَى تَهْدِيدِ ثَمَنِ الْقَطَنِ الَّذِي يَقْتَرِفُ عَلَيْهِ رَخَاءُ الْأَغْنِيَاءِ الظَّاهِرُ ، وَيَبْقَى الْفَلَّاحُ فَقِيرًا مِثْلَ مَا كَانَ عَلَى جِهَادِهِ ، قَبْلَ قَرْنٍ ، فِي تَحْوِيلِ بِلَدِ الْحُبُوبِ هَذَا إِلَى بِلَدٍ قَطَنٍ فَزَادَتْ الثَّرْوَةُ الْعَامَّةُ بِذَلِكَ ، وَمَا جَاءَتْ بِهِ الْمَصَالِحُ الْإِنْكِلِيزِيَّةُ بِمِصْرَ وَمَا أَخَذَتْ مِنْهَا فَلَمْ يُغَيِّرْ شَيْئًا مِنَ الْبَيْتِ لِلْمَصْنُوعِ مِنْ طِينٍ مُجَفَّفٍ وَالْمُطْلَقِ بِمِلَاطِرِ كِلْسُونِ ، وَلَا مِنْ حَسَاءِ الْبَصْلِ وَالْحُلْبَابِ الْأَزْرَقِ ، أَيْ مِنَ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي كَانَتْ تُحَدِّدُ رَغَائِبَ آيَاءِ الْفَلَّاحِ فِي عَهْدِ الْقِرَاعَةِ .

وَالْفَائِدَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي نَالَهَا الْفَلَّاحُ هِيَ الْأَمْجِدِيَّةُ ، وَمَا وَرَّعَهُ مِنْهَا آخِرُ جَدِيدٍ وَأَوَّلُ مُلْكٍ أَكْثَرَ مَا وَرَّعَ الْإِنْكِلِيزُ ، وَهِيَ تُمَدُّ مِفْتَاحًا خَطِرًا لِفَتْحِ أَبْوَابِ الْمَعْرِفَةِ ، وَهِيَ تُمَدُّ رَمْزًا حَقِيقِيًّا كَرَعِيَّيَ الْاسْتِقْلَالَ الْأَوَّلِينَ عِرَابِيَّ وَزَعْلُولَ الَّذِينَ وَدَّاهَا فَلَاحِينَ فِي قَرَجِينَ مِنَ الدَّلَاتِ وَرُبِّيًّا فِي مَدَارِسَ جَدِيدَةٍ تَمَلَّأَتْ فِيهَا حَلَّ الْخَطِّ الْأُجْنَبِيِّ وَسَبَبَ اسْتِعْبَادِهَا .

ولما كانت دعوة الجمعية التشريعية الأولى في سنة ١٩١٣ أول نتيجة لتعليم الشعب المصري ساد الارتباك هذه الجمعية لنقص الحرية ، وكان يُمكن قسُ هذه الجمعية بصَقَط من الأجنبي وعدم دعوتها في سنوات أو حَمَلها على أعمال خارجة عن دائرة اختصاصها ، وما تمَّ من انتخابات قد أسفر عن أكثريات قومية ساحقة مطالبة بجلاء الإنكليز ، ويَبْلُغ المحدد على الأجنبي منذ خمسين عاماً ، ومنذ عشرين سنة على الخصوص ، درجة من القوة لا يَجْرؤ أحدٌ على مقاومته معها ، وتقرح الحكومة تمديد إجارة قناة السويس إلى سنة ٢٠٠٨ فيرفض مشروعها بالإجماع خلاصت واحد ، فيهِز ذلك التصويت مصر بأشرها ، ويُثير كُنشُرُ ، الذي دارى القلاح بقوانينه ، استياء فريق الشعب المنور بما اتخذ من وضع مقهم إنكليزي لدى بلاط أمير هندوسى تابع ، ولا يُطبق هذا الفريق المصري حِلّه الأبوى لذكيره بحلم أبناء جنسه تجاه القبائل الوحشية .

ويزيد ذلك النفور ، الذي يحدث مثله في كل نظام للحياة ، بسوء ما بدأ به الإنكليز في مصر وبما يتصف به الإنكليز من طَبع ، فأيجدد دوماً من وعدٍ بالجلء عن وادى النيل يوجب مع الزمن ضرباً من سرعة الغضب مشابهاً لما يشعُر به رجلُ العمل من انزعاج بنظر سيدة زائرة لابسَة مِطَفَها وقُبَعها إلى سوارٍ ساعبتها بلا انقطاع قائلة إنها مستعجلة وإنها لن تمكث أكثر من دقيقة واحدة فتبقى عِدَّة ساعاتٍ من غير أن يستطيع مخاطبها أن يَحْمِلها على الذهاب ، ولا يَجِد مصرياً في الوقت الحاضر يمتد رحيل الإنكليز طَوْعاً .

ولا تَقاسُ روح التنافى لدى الإنكليز في القاهرة بروح التآلف لدى الفرنسيين الذين يدْعون إلى مائنتهم رفيقاً من لونٍ آخر ، أى من أبناء للمستعمرات ، أو يَجْعَلون



منه وزيراً بباريس ، وماذا تكون مشاعر موظفٍ أهليٍّ إذا ما انقطع الأجنبيُّ عنه نهائياً بعد مغادرة المكتب الذى يَمُتَلَن فيه معاً كلَّ يوم ؟ ويُعْنَى الشابُّ الإنكليزى من كلِّ ضريبة فى القاهرة ، ولا يُمكن أن يُعزَل ، ولا يستطيع الشرطى المصرى أن يَتَبَضَّ عليه ، وَيَقَعُ هذا على مَنْسَعٍ ومرأى من المصريين الذين هم أكثر منه تجرِبَةً ومعرفةً بأمور البلد ، ويلقَّب الإنكليزى كُتْبَةَ التَّنِيسِ وكُتْبَةَ السَّكْرَةِ والصَّوْلَجَانِ مع أبناء جِلْدَتِهِ وحَدَمِهِ تربيَةً ، فيُحْظَرُ على السيد الوارث لحضارة العرب العظيمة دخول نادى الجزيرة كما لو كان سائساً عند الإنكليزى . ولا يجوز عدُّ نظام الحريم مسؤولاً عن ذلك الوَضْعِ لخصرِ النادى الإنكليزى فى الرجال فقط ، وتُسْتَقْبَلُ ، مع ذلك ، فتياتٌ من الطبقة الراقية المصرية فى بِلَاطَاتِ أوربة ، لافى دار المندوب السامى البريطانى بالقاهرة ، ويُمكن أباهن أن يشتركوا فى سِبَاقِ خَيْلٍ من أصابهم ، فإذا ما خَرَجَ حصانهم فائزاً فى السَّبَاقِ تَمَدَّرَ إعطاؤه قطعة سكرٍ لمدم دخولهم فِطَاقِ المَوَازِينِ ، وهكذا تُفْسَدُ النتائِجُ الطيبة التى قَصِيلَ إليها الإدارة البريطانية بذلك الوَضْعِ الذى ينطوى على ازدراء المصريين ، وذلك إلى أنه يَسْهَلُ على المجتمع الراقى أن يَلْأَمُ العكس .

ويظلُّ النيل أعظمَ عاملٍ لسوء الظنِّ مع ذلك ، وإذا ما حُسِبَ النيلُ نهراً مصرياً يقع منبعُهُ فى أسوان رُجِعتِ المَشارِيعُ الخاصة به إلى إسماعيل ، غير أن هذه المَشارِيعُ حَقِقتْ على أوسع مقياس فى العهد الإنكليزى ، وقد طَبِقتْ ستُهُ أَسْدَادُ طابعِ الجِدِّ البريطانى على أكبر أنهار العالم وأكثرها غرابَةً ، وَبَيْنَ بَضْعِ مِثَالِ من الكَوَواتِ تَفْتَحُ بُعْداً للفصول على نشاط البريطان وعنادهم ، وإذا كانت هذه الكَوَواتُ مَدِينَةً بوجودها للفكر الذى يسيطر على الأنهار الأخرى فى الوقت الحاضر

### تصرّح اللورد ملتر

فإن نتائج عملها لا تَبْدُو عظيمةٌ مُؤثِّرةٌ في غير النيل وواديهِ .

وإذا كان العَلَمُ البريطانيُّ والعَلَمُ المصريُّ يَتَفَقَّانِ معاً في البِقَاعِ البعيدة التي يَأْتِي النيلُ منها فإن العَلَمَ الإنكليزيَّ حاضِرٌ غائبٌ في النيلِ الأدنى على الدوام ، ويُستَغِيرُ الحُكْمُ الثَّانِي ، يُسْفِرُ طِرَازُ الحُكُومَةِ القَرِيبُ هذا ، عن سيادة كلتا الدولتين الشرعية على السودان فيشعرُ المصريون ، وهم الفريقُ الأضعفُ ، بإضرار الفريق الأقوى ، بريطانيا العظمى ، إِيَّامَ في كلِّا البلدين ، ويُشْكِنُهُمُ القَدَرُ مجرى النيلِ الأدنى ، وتتوقف حياةُ أربعة عشرَ مليوناً من السكان على فيضانه وإفٍ فيَحْذَرُ المصريون ، بحكم الضرورة ، ذلك الحامِي المُرْهَقَ المهيمن على النيلِ الأعلى والتصرف فيه كما يشاء ، فالأجنبيُّ ، وإن لم يُبَلِّغْ سُمّاً في ذلك الماء ، يمكنه أن يَحْبِسَهُ بأسدَادٍ جديدة .

وقد بَيَّنَّا استحالةَ هذا الافتراضِ فَنَبِّأُ في جزءٍ آخرَ من هذا الكتاب ، ولكن خَطَرَ الإضرار لم يُبْعَدْ ، فهناك أَلْفُ وجهٍ لمنع جريانِ المياهِ طليقةً من غير أن تُحْبَسَ بِسَدٍّ حَبَسًا تاماً ، فيمكن إنكثارةُ ، والحالةُ هذه ، أن تُلَاعِبَ مِصرَ كامراًةً تَتَمَنَّعُ وتوافقُ قاصدةً أن تَرُوقَ وتسيطرَ معاً ، وإليك ما قاله اللورد ملتر قبل سنة ١٩٠٠ :

« من المؤلم أن تكون كلُّ مصلحةٍ للمياه منتظمةٍ ضروريةً لحياة مصرٍ مُعْرِضةً دَوْماً لبعض الأخطار مادام مجرى النهر الأعلى غيرَ تابعٍ لذلك البلد ، غيرَ خاضعٍ لِرِقابته . ومن يَدْرِي أن إحدى الدول العظيمة ، أو إحدى الحكومات التي تساعدُ أمةً متقدمة ، لا تقوم ذاتَ يومٍ بأعمالٍ كبيرة على النيل فتَحْوِلُ ، لِسَقَى أراضيها ، هذا الماءَ الضروريَّ لمصرَ عن مصرَ ، أَجَلْ ، إن هذا أمرٌ بعيدٌ جداً أو أمرٌ غيرُ

## زغول

محتمل، ولكننا، قبل أن نهزأ به، يجب علينا أن نتأمل مشاعر بلدي آخر، كبلدنا مثلاً، فنُقيِّم وجود احتيالي بعيد حَوْلَ قدرة دولة أخرى على حبس المطر السنوي عنا . ويدلُّ هذا التصريح الرسمي ، الذي صدر كثير من البيانات مثله في إنكثارة ، على اتزان كبير ، ويكشف هذا التصريح عن حال المصريين النفسية وعن مخاوفهم ويُضَيِّفُ الإنكليزُ إلى احتجاجهم باسم الأخلاق كونهم محتاجين إلى قطن الدلتا الممتاز الذي تتقدم مصانع الغزل في لكششير إذا ما أوجبت أسداؤهم في مجرى النهر الفوقاني قبل الخربوط نقص الفيضان أو تأخره في الدلتا ، ومع ذلك يُمكن العمل الذي عزاه اللورد ميلنر إلى دولة أخرى أن يُصبح أداة تهديد نافذة في يد الإنكليز عند الاختلاف ، ومن ذلك ما وقع بُعيدَ قتل السُّردار بالقاهرة في سنة ١٩٢٤ حين طالب الإنكليز كغرامة عدم تخديد مساحة الأرض التي تُستقى في الجزيرة الواقعة بين النيل الأزرق والنيل الأبيض بدلاً من الأرض المُحدَّدة في معاهدة سابقة ، وتمضى أيام قليلة فُقِّلِعُ الإنكليز عن هذا الطلب المُضاد للأخلاق ، بيَّد أن هذا يكفي لإثبات نوع الوسائل التي يُمكنُ العدوُّ الساخت أن يتمسك بها. وزعيمُ المصريين المعاصر الذي فتح باب مكافحة الخلع على مصرعيه ، كمرابي ، هو أصغرُ سنًا من عرابي بشر سنين فقط ، والفرق بينهما هو كونُ عرابي بدأ كفاحه في الأربعين من عمره وكونُ زغول بدأ كفاحه في السبعين من سنيه (١) ، ومن هنا كان نصف القرن الذي يفصل بين نفي بطلي الحرية المنتسبين إلى جيل واحدٍ من الآدميين

وزغول من فلاحِي الدلتا كمرابي ، وهو يُرى بجانب هذا كما يُرى التفقاسي بجانب العربي ، ويتصف زغول بطول قامته وبنحوله وبرؤوس وجنتيه كالغولِيَّ

ووجهه الطليق وعينه الزرقاوين واستقامة بصره وبأنسه ، فتكفى هذه الأوصاف  
لهدم نظرية العروق التي تكاد تصبح العوبة المحتمة في قسم من أوربة ، وعلى  
ما بين الرجلين من اختلاف بين في المثال كانا مصريين حقيقين مؤلدين من  
امتزاجات يجهلها ذلك البلد الذي هو ملتقى كثير من الأمم ، وإن شئت فقل إنهما  
كانا وليدى الأرض لا الدم ، أى كانا ابنين للنيل ، لهذا النهر الذى أوحى إلى  
زغلول بأكثر خطبه تأثيراً .

ويُشأ زغلول في الأزهر ، ويوفق لزوج ذى غنى ، ويتعلم من أصله يؤس  
الفلاحين ، ويطلع بمهنة الحمامة التى مارسها طويلاً على حُبث الباشوات وخداعهم ،  
ولم يكن فى بدء أمره مع ذلك ، ولم يكن حتى بلوغه المحسن من سنيه مع ذلك ، غير  
مصري معتدل عاطل من النفوذ ، ويعينه اللورد كرومر وزيراً للمعارف العامة فى  
سنة ١٩٠٥ حتى يُجرب فى شخصه وطنياً رصيناً ، ويقول اللورد كرومر : « يتصف  
زغلول بجميع الصفات اللازمة لخدمة بلاده ، فهو صادق مستقيم كفى مقتدر  
شجاع ، وهذه صفات يجب أن يتقدم صاحبها كثيراً » .

ولو بقي كرومر حياً فى القاهرة لراه قد تقدم أكثر مما كان يريد .  
وتنحاز تركية إلى ألمانيا والنسة منذ أوائل الحرب العظمى ، ويظهر الخديو عطفه  
لهذه الدول ، وتبدو درجة احتياج مصر الشديد إلى اللال الأجنبية ، ويمكن  
وصف هذا الوضع بالقابع نتيجة للطمع فى الذهب وما أوجبه هذا من استبدال  
القطن بالحب .

ويحقيق خطر الجامعة عند الحصار بفريق السكان الذى يمتكز أكثر  
من مقتته الترك ما دام النصارى يقيضون على زمام الحكم أكثر من المسلمين

### جمع القلاجن

السيطرين نظرياً ، ولا يُعلم ماذا تصنع إنكلترة بِخَرَان أُسوان ، وكانت بريطانية العظمى منذ سبعين سنة مَضَتْ قد مَنَعَتْ مصرَ محمدٍ عليٍّ من الانفصال عن تركية ، والآن تتخذ هذا الماهل شاهداً للوصول إلى هذا الانفصال ، والآن تدفع للمصريين إلى محاربة أبناء دينهم مع أن السلطان أعلن الجهاد المقدس .

ولم تجِدْ إنكلترة وسيلةً صالحة لإظهار قوتها بعد ، وفي سنة ١٩١٤ كان يمكنها أن تَضُمَّ مصرَ إليها أو أن تجعلها من الممتلكات أو أن تُعلن استقلالها مطالبةً إياها بأن تكون حليفةً لها ، غير أن إنكلترة لم تتحل سيادة تركية لنفسها ، ولم تمنح الاستقلال التي وعدت به منذ زمن طويل ، غير أن إنكلترة صنعت العكس فخلعت الخديو ونصبت في مكانه رجلاً آخر مع لقب سلطان ، وأجلت الجمعية التشريعية إلى وقت غير مسمى ، وأنابت الشعب بأنها لا تحمله على الحرب .

وما قام به الترك من هجوم على قناة السويس قد حمل الإنكليز ، مع ذلك ، على جمع القلاجن باسم « العمال المتطوعين » متخذين أساليب المالبك في القهر آخذين آخرَ جَمَلٍ ليهيم بشئ تاركين إياهم بلا حيوان حُلُوب سائقين إياهم من خلال الصحراء لإنشاء خطوط حديدية ، وكان ذلك آخرَ سُخْرٍ في تاريخ مصر ، وأشدُّ من ذلك ما كان بعد ذلك من سَوَقِ مئة ألف حرٍّ مصريٍّ إلى سورية وثمانية آلاف حرٍّ مصريٍّ إلى العراق وعشرة آلاف حرٍّ مصريٍّ إلى فرنسا ومن جمع إعاناتٍ من المسلمين للصليب الأحمر .

ولاشيء بعد النصر أشدَّ إيذاءً لِسُمتة بريطانية العظمى من إنكار أية مساعدة قامت بها مصرُ ، ويطالب زغلول في شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ باستقلال بلاده مكافأةً على ذلك ، فيمنع من السفر إلى لندن ، ويكون ذلك نذيرَ الفتنة ، ويصرخ مديرو

الفتنة قاتلين : ألا تدركون الآن أن إنكلترة خدعتكم ؟ أذلك ما تكافأون به على إنشائكم خمسة كيلو مقرات من الخطوط الحديدية يومياً من خلال الصحراء المشتعلة مقاتلين إخوانكم في سبيل كلاب النصارى ؟ ولم تَنَزُّ ولم تَنَفِّمْ إلى الترك الآتين من سورية لطرد الإنكليز ؟ نحن ساعدنا على نيل النصر ! لقد أقام كل من جارينا الحسين وفيصل دولة جديدة وفق برنامج الرئيس الأمريكي ! وأما نحن فقد بقينا عبيداً وحدنا ، هم لا يلبثون أن يحرمونا الماء بأسدادهم الجديدة في الخرطوم فيميتونا جوعاً .

ويتميز زغلول من التقيظ أيضاً ، ويُظهر ما هو خلاف العادة فيتحول هذا السياسي المعتدل في شبابه إلى متطرف في مشيبه ويُلقِي خطباً نارية ، ويقبض الإنكليز عليه ويُمدونه إلى الماطة ثم إلى سيشل كما صنعوا بمرابي منذ خمسين سنة ، وتستد الفتنة ويُقتل ضباط من الإنكليز ويُحَرَّب أسداده وتشمل نيران ، ويُؤلف حزب قومي عظيم ، يُؤلف الوفد ، ويتحد المسلمون والأقباط لمكافحة إنكلترة معاً ، ويُبدؤ انكسار ضباط الإنكليز مرة على وزارة الخارجية بلندن عند ما يحزسون البريدة على ظهور البغال من خلال الصحراء حيث حُرَّب الخط الحديدى .

ورئى من الوجع أن يوافق على استقلال مصر بعد ثلاثة أعوام طيش وقيل ثم عقوبة ، وبعد جيل شهيد من زعيم الحزب القومى ، غير أن الدولة الحامية احتفظت بكثير من الامتيازات مؤخرة بذلك زمن الضام .

ويعود زغلول إلى بلده ، ويصبح بطلاً قومياً ، ويزيد مع العمر تشدداً ، فلما سأله مكدونلد عن المكان الذى يود أن تُرَدَّ إليه كتائب الإنكليز أجابه عن ذلك قائلاً : « إلى إنكلترة ، يا سيدى الوزير » ، ويُخَيَّب مكدونلد أمه ، ويُنصر

### وفاة زغول

زغول أن إنكثارة لن تتأخر خطوةً ، ويُقتل سرّداً السودان في القاهرة ،  
ويأتى اللورد ألنبي مع حرسٍ عسكريٍّ مهيبٍ ويسلمُ إنذاراً إلى رئيس الوزراء  
زغول ، وينظر زغول من النافذة ويسألُ قائد الحرس الإنكليزيّ بقوله :  
« ما الأمر ؟ أتريد إنكثارة شهرَ الحرب على مصر ؟ » ، وما هذا الكلامُ الذى  
وجّهَ فى تلك الدقيقة إلى ذلك الشخص إلا دليلٌ على اعتدالِ دَمٍ وإياه نادريّن  
فى التاريخ الحديث .

ويُتوقّى زغول بعد زمن قليل ( ١٩٢٧ ) ولم يتحدث أن شيعَ مصرىً إلى مقرّه  
الأخير يمثّل ما شيعَ به زغول ، فكانت جنازته جنازةً فرعونٍ وصديقٍ للشعب  
معاً ، وتسيرُ أمةٌ بأسيدها مع تابوته المشتمل على فلاحٍ مولودٍ فى كوخٍ مُظلمٍ  
مَصنوعٍ من طينٍ مُجفّفٍ بين الدجاج والحمام والحمار والجلل ومُجهّزٍ بطلسّمٍ ساحرةٍ  
يَعْدِلُ مالاً ، وما أكثر ما تَقْلُو أراجُ صاحب حياةٍ كذلك كيوبسَ ( خوفو )  
وهرّمته العظيم !

وكذلك الملكُ ، الذى عاد إلى القاهرة من رحلة رسميةٍ يُعيّد موتَ زغول ، ينال  
حُظوةً لدى الشعب ، وتزيد هذه الحظوة فى عشر سنين نتيجةً لما بدا له من آراءٍ  
جيدةٍ كتقسيمِ أراضى الدولة بين الفلاحين على أن يُدفعَ الثمنُ بأقساطٍ سنويةٍ ،  
وكإنشاء مدارسٍ ومشافٍ ، وكتوجيهِ نظر أوروبا إلى ما أقامه من مشاريعٍ علميةٍ .  
ولكنه لم يَسْطِعْ أن يُنزلَ العلمَ البريطانيّ من فوق القلعة ، وإذا مرَّ مصرىٌّ  
أمامَ الشكّة الإنكليزية الكبرى بالقرب من جسر الجزيرة الكبير وقَفَتْ وشاهدَتْ  
بمرارةٍ المظلومِ تدريبَ الجنود ، ويُتفقُ فى شهر يولييه سنة ١٩٣٦ على نقل الجنود  
إلى القناة ، والقناة أرضٌ مصرية .

### فوق جسر الجزيرة

ويُوصَلُ الآن ، في صيف ١٩٣٦ ، إلى اتفاقٍ لا يُحَقَّقُ به جميعُ آمالِ المصريين ، وذلك لأن الإنكليز سيَقْصُونَ منينَ طَوِيلَةً لِإِثْشاءِ بضعِ نُكُتٍ ، ولأنَّ الجَلَاءَ عن القاهرة لا يُوْدَى إلى الجَلَاءِ عن قناة السويس ، ومع ذلك تسير مصرُ لتستقلَّ هي والسودان ، ويتوقف كلُّ شيءٍ في السنوات الآتية القليلة على أحد البلدين الذي يَظْهَرُ فيه القُطبُ السياسيُّ الأعظمُ اقتداراً ، فسيُعرَفُ هذا السياسيُّ كيف ينتفع بالحرب القادمة لحلِّ تلك المسئلة .

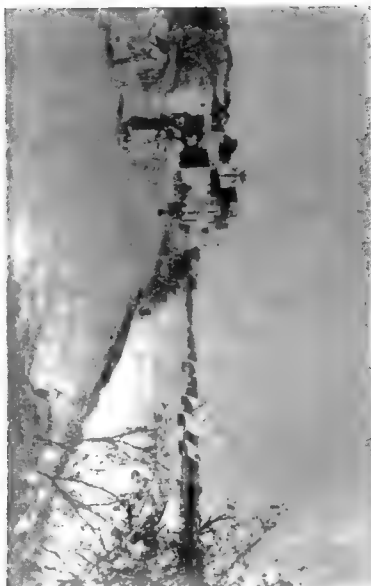
### ٢٧

لا يكاد النيلُ في شهر يونيه يُسَمِّعُ من فوق جسر الجزيرة الذي هو جِسْرُ القاهرة الضخم والذي لا يَعدِلُ غيرَ ثَلثِ جسر الخراطوم طولاً ، ويُبَيِّنُ النيلُ في العاصمة آخرَ جَوَلاَنٍ له فيَظْهَرُ جليلاً وقوراً ويُقَطِّعُه جزيرتان ، ولا يُنِيعُ على عاصمته الأَلَمِيَّةِ ، القاهرة ، بظهور قدرته ، وتَبْدُو الجُسُورُ الثمانية التي تَربِطُ ضِفافَه بالجزيرتين قصيرةً ، وما تَقْضِي به الضرورةُ من رَفْعِها مناوَبَةً لتتمكن السفن من المرور وما يصير عبورُ النيلِ به متعذراً يَدُكِّرُنَا بعظمتِهِ .

وفي شهر أغسطس ، وعلى العكس ، يُسَمِّعُ هديرٌ هائلٌ من الجسر ، لبوَحِ قَيْضِ الماءِ غايته ، وفي شهر مايو يستطيع سائحٌ ماهرٌ أن يمارِضَ الجريانَ ، وفي شهر يونيه يَصْنُبُ عليه ذلك ، ثم لا يَجْرُؤُ أَحَدٌ على ذلك ، وَيَنْبَغُ أَهْلُ القاهرة زيادةَ النهر مع هيلج قومٍ محصورين ، وما هي قوة المدو ؟ وما هو الحصنُ الذي يهاجه غداً ؟ ومتى يُفَكُّ الحِصارُ عنا ؟ وينظر كلُّ عابِرٍ من فوق الجسر ،



٤٤ - سفين دريافيه على النيل





### بدت في الليل قطارب لامة

في شهر أغسطس ، لتفلم هل هذه هي الزيادة أو أن ذلك ليس غير مظير ، وإذا ما اقتضت بضعة أيام فأبدى النصرُ جميع قُوَّته تسأل أولئك الناس عن غمهم : هل يزيد الفيضان على الغاية ؟ وهم لا يَهْدَأُ لهم رَوْع نهائيًا إلا في أوائل أكتوبر وبعد عدة أيام نقص منتظم في الفيضان ، ويجاهد الناس حَوْلَ النيل جهادهم حول امرأة مُشْتَهَاقَة ، ولن يطمئن قاهره إلى أنه قد يُصْبِحُ نحيبته في نهاية الأمر ، ويتحرك كلُّ شيء في أثناء الفيضان ، ويقوم حارس في كلِّ خمسين مترًا من القناة ، ويُمَشِّدُ مئة رجل في الأماكِن الخطيرة ، أحيانًا ، لحاية الأسداد ولعرض بيان عن الوضع ، وإذا ما طاف هؤلاء في السهل الواسع حاملين مصابيحهم بدت قطارب<sup>(١)</sup> لامة في الليلة المرقعة ، وترى في كلِّ مكان انتظار الزوارق الآلية والسيارات رؤساء المفتشين الذين يكون لهم في شهر سبتمبر من الأحوال النسبية ما يكون القائد في أثناء المعركة ، والذين يأتون أو يزيمون قوارب مشحونة بمجارية وأكياس رمل. والذين يكدسون مَوْص<sup>(٢)</sup> الذرة وسوق القطن لسدَّ أقل ثغرة ، ويتوقف كلُّ شيء على ذكاه نحو عشرة رجال لا ينبغي لهم أن يناموا ويجب عليهم أن يكونوا مستعدين للتدخل في أيِّ مكان كان ، ولا يزال الناس في النيل الأوسط ، في مديرية جرجا التي يُثير رِيها العجب ، يزؤون أن مفتشًا إنكليزيًا وَقَفَ الفيضان الحُرْبَ ذات يوم من سنة ١٨٨٦ بأن أنشأ سدًّا مستعينًا بجميع القرية ، ويُمَعِّدُ الخطر ، ويدعى هذا النصراني إلى المسجد لحضور دعاة شكر يقام فيه ، ولنا في هذا الأمر الذي لم تَسْمَعْ بمثله أذن ما نُبَصِّرُ المشاعر الدينية به لدى شعب سَلَمَ أمره إلى أحد العناصر .

(١) الطوارب : جم الطارب ، وهو دويبة لا تستريح من الحركة أو هي التي تفتى في الليل

كأنها شعله — (٢) اللوس : اللبن .

## إنتاج الدلتا

ويُنِلمُ القيصان في سنة ١٨٨٧ سَدًّا حافظًا لقرية واقعة في شمال المنصورة ، وفيها كان الرجال والنساء والأولاد يأتون بأبوابهم ونوافذهم وأثاثهم لَسَدِّ الثَّغرة إِذْ يُبْصِرُ الإنكليزيُّ الذي يدير الأشغالَ يياضَ شعر الرجل الأكثر نشاطًا فيناقض مشيبه بهيمته العظيمة ، ويسأل فيعلم أن هذا الرجل ، الذي كان رقيقًا في الدلتا سنة ١٨٧٨ ، لم يَسْطِيعْ أن يحول دون وقوع تصدُّعٍ في السدِّ فأثار هذا الأمرُ غيظَ الخديو إسماعيلَ فأمر إسماعيلُ بإلقائه في النيل فابيضَّ شعر هذا التمس في ليلة انتظاره الموت ، ثم عُرِفَتْ براءته فُبَيِّنَ عنه ، ويكافح تصدعًا جديدًا في السدِّ ، ويُشْرِفُ رأسه الأبيض على الآخرين .

ويَتَوَقَّفُ جميع إنتاج الدلتا ، أى معظم القطن المصريَّ على السدِّ الواقع في الكيلومتر الخامس والعشرين من مجرى النهر التحتاني من القاهرة ، أى في المكان الذي يُقسَمُ فيه النهر إلى شمتين ، وهذا هو آخر برج قاهرٍ للمنصر ، وهو يَبْلُغُ من التأثير ما يُحوِّله معه نائبُ السلطان ، سعيدٌ ، إلى قلعةٍ صالحةٍ لإغراق جميع الدلتا إذا ما غزا العدوُّ البلاد ، وما كان من أمر هذا التذكُّار ، ومن معرفة ما في أحد الأسداد من إمكاناتٍ تخريبٍ ، قد حَفَزَ المصريين إلى التحذَر من مشاريع الإنكليز المائية الكبرى ، والقلعة مع أبراجها وأروقتها وجسورها المتنقلة وملاجئها أُمِرَتْ في النفس كما في النقوش القديمة .

وترانا في المكان الذي ينقسم النيل فيه ، وكان أفلاطونُ أولَ من رأى تشييده بشجرة ذات فروع ، وتَبْلُغُ الدلتا من الطول ٢٥٠ كيلومتر ومن العرض ٢٢٠ كيلومتر ، وهي ليست متساوية الأضلاع ، كدلالة اسمها عليها ، وقد كانت ، إلى ما قبل قرنٍ ، تُسَمَّى وَفوقَ نظام الأحواض كجميع مصرَ في ذلك الزمن ، وقد أراد

محمد على أن يبنى فيها أول سدٍ ليضمن سقيها في جميع السنة ، أجل ، إن هذا عمل صعب ، ولكنه مُجدٍ ، وذلك لأن الأراضي الصالحة للزراعة في وادي النيل ممتدةٌ كامتداد المارشن في هولندا .

وإذا ما حُبط المشروع لم يكن ذلك من خطايا الفرنسيين ، وإذا كانت الجدران القائمة على أرضٍ مُتَنَفِّلَةٍ لا تَمْسِكُ سوى نصفِ مترٍ من الماء بدلاً من أربعة أمتار ونصف متر كما يُنتظر فإن ذلك يُعدُّ دليلاً على عجز الأوربي الذي لا يُصدِرُ في الشرق غير النصائح ، ولا يُخسِنُ المهندسون المصريون تنفيذَ تصاميم المهندسين الفرنسيين عند إنشاء السد ، ويمضى أر بون عاماً فينفذُ المهندسون البريطانيون مشاريعهم في بناء السدِّ كما يودُّون ، واليوم ، فيما يَرُدُّ الإنكليزُ بالسدِّ خمسةَ عشرَ متراً و ٥٠ سنتيمتراً إلى الوراء ، يُصرِّحُ خبراؤهم بأنهم إذا ما غادروا مصرَ عَجَزَ المصريون عن الارتفاع بذلك . ويختلف كلٌّ من السدين الحاضرين طولاً ، ولكلٍّ من السدين إحدى وستون قنطرةً وكوَّتان ، ويُرَيَّنُهُما نقشٌ بارزٌ وجِدٌ في طيبة وصورَ به رمسيس الثاني جامعاً لسمي مصرَ في الماضي ومثلاً لشعبي النيل في الوقت الحاضر تمثيلاً مجيئاً . ويُعدُّ لسان الأرض الواقعُ بين السدين أخصبَ جَنَّةٍ بمصرَ لسقيهِ أحسنَ من سواء لا ريب ، وُعدُّ الدلتا أرضَ مصرَ المُفضَّلةَ ، شأنُ أولاد الخبير الصحيِّ الذين يُعطونُ أكثرَ الأغذية ملائمةً للصحة .

ويوجد سدٌّ آخرٌ دائمٌ واقعٌ على المجرى التحتاني من زِفَتَى وعلى شعبة النيل الشرقية ، ويُنشَأُ في كلِّ سنةٍ جاجزٌ من ترابٍ على كلِّ شعبةٍ من النيل قبل مَصَبِّها ، وذلك لوقفِ الماء الراشح من السدِّ ، ويُصَنِّعُ ذلك ، عادةً ، في اليوم التاسعَ عشرَ من مارس ، وذلك أن الموج الوارد على الخرطوم في اليوم العاشر من فبراير وعلى

أسوانَ في اليوم الأول من مارس يتطلب ثلاثة أسابيع حتى يصلَ إلى زِفَتَى، فما كان لطاغيةٍ أو لصاحبِ ملياراتٍ أن يَتَفَقَّ له من العناية الطيبة ما يتفق للليل من تمهيدِ شؤونه والانتباه لأُمُوره .

ويعتقد ذلك النظام ، كجسم الإنسان ، بالمَصَخَّاتِ والدواليبِ والمَصَّاتِ ورافعاتِ الماء إلى أعلى الأطنان ، إلى ما يَبْلُغُ ارتفاعه متراً واحداً ، وبما أن القطن يتطلب عنايةً فائقة فقد أُنشِئتْ شبكةُ قنواتٍ لتصرفِ المياه وحُسِبَ توزيعُ المياه حساباً دقيقاً ، فيُعْطَى الماء في خمسة أيام من الصيف ، ثم يُعْطَى أَقْلٌ من ذلك أولاً يُعْطَى في الأيام العشرة التالية ، وإذا كان مقدار الماء كافياً كان دَوْرُ القطن من الماء خمسة عشر يوماً ودَوْرُ الأُرْزُ منه ثمانية أيام أو عشرة أيام .

ويُظهِرُ النهر المفقور قُوَّتَه حتى قُبَيْلَ نهايته فيَذْكُرُ الإنسان بقوة العنصر ، ويُعَدُّ الفَرَيْنَ ، الذي لا حياة لمصرَ بغيره ، خطراً في الدلتا ، فيُقَصِّى أربعون يوماً من كلِّ سنة في نَزْعِه من جميع القنوات ، ويكون ذلك في شهر يناير على الخصوص ، وذلك حين تُنْفَقُ وتُنْظَفُ وتُعْصَّح ، ويتطلَّبُ الرِّىُّ الدائمَ غَرِيْنًا أَقْلًا مما في الماضي ، فيكفي مصرَ ثمانية وعشرون مليونَ طُنٍّ منه في الوقت الحاضر ، وأما ما يزيد على ذلك ، وهو ما بين الـ ٤٠ مليوناً والـ ١٢٠ مليون وفق هَوَى أمطار الحبسة ، فقد تَرَكَ للفلاح على الصوم ، ما لم يكن هنالك احتياجٌ إلى تَلْمِيَةِ الأسداد ، وإذا كان الفلاح راغباً عن ذلك وجب على الإدارة أن تَدْفَع نفقاتِ رَقْع ذلك ، وبوضع السؤال الآتي في بعض الأحيان وهو : هل يَنْتَفِعُ الفلاحُ بِهَيْبَةِ النيل تلك في إخصاب حَقْلِهِ أو يَكْئِبُ أكثرَ من ذلك بِنَزْعِهَا ؟ هذه هي مسئلة عويصة تَشْغُلُ بال الألوف من الناس فيَقَرُّرُ حلُّها وَفَقَّ هذا المعنى أو ذاك مصيرَ ثورةٍ بعينها .

والمِلْحُ هو النَصْرُ الثَّانِي الَّذِي تَجِبُ مَكَافَتُهُ هُنَا ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَاءَ الْبَحْرِ يَتَسَرَّبُ فِي النَّهْرِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَاءَ الْبَحْرِ مُمَلَّحٌ بِمَشْرَةِ أَمْثَالِ مَا تَأْبَاهُ الزَّرَاعَةُ وَأَمْثَالِ عَشْرِينَ مَا تَأْبَاهُ شَفَةُ الشَّارِبِ ، وَيُنْتَفَعُ بِالسَّيِّدِينَ التَّرَائِينَ الَّذِينَ يُجَدِّدَانِ كُلَّ عَامٍ فِي دَفْعِ الْمِلْحِ أَيْضًا ، وَيُوصَلُ إِلَى ذَلِكَ بِمَرَّاقٍ خَشِيَّةٍ مُوصُولَةٍ بِقَوَارِبَ وَأَكْيَاسٍ يَتَأَلَّفُ مِنْهَا إِطَارٌ دَائِمٌ ، فَإِذَا مَا تَقَدَّمَ الْعَمَلُ تَقَدَّمَ كَافِيًا وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ ثُفْرَةٍ عَشْرِينَ مَرَّةً دُحِرَ الْمَاءُ الْمَلَّحُ بِمَاءِ النَّيْلِ الْقَادِمِ بَقْتَةً ، وَيَكُونُ عَلَى الضَّفَّةِ كَيَاوَى فَيُحَقِّقُ نِسْبَةَ الْمِلْحِ وَيَطْلُبُ هَاتِفًا مِنَ الْغَرَازِ مَا هُوَ ضَرُورِيٌّ مِنَ الْمَاءِ الْفَرَاتِ لِنَظَرِ الْفَرَضِ ، وَهَذِهِ هِيَ آخِرُ مَرَّةٍ يَسِطِرُ الْإِنْسَانُ فِيهَا عَلَى النَّيْلِ .

وَلَا يَدْفَعُ هُنَا ، وَلَا فِي أَيِّ قِسْمٍ آخَرَ مِنْ وَادِي النَّيْلِ ، ثَمَنٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ الْمَاءِ الَّذِي تُسَكِّفُ مَصَالِحُهُ الْإِدَارِيَّةُ وَحَدَّهَا نِصْفَ مِلْيُونٍ جَنِيهِ سَنَوِيًّا ، وَالْأَرْضُ الَّتِي تُسْتَقَى هِيَ الَّتِي تُوَدَّى الضَّرَائِبُ ، وَلَكِنْ مَا أَتَقَهُ تِلْكَ الْمَالِغُ عِنْدَ قِيَاسِهَا بِمَا تُسَكِّفُهُ أَعْمَالُ الْإِنْسَانِ الْمُخَرَّبَةِ ! فَقَدْ بَلَّغَتْ نَفَقَاتُ الْأَسْدَادِ السِّتَةِ الَّتِي أُنْشِئَتْ بِمَصْرَ فِي غُضُونِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ اثْنَيْ عَشَرَ مِلْيُونًا جَنِيهِ ، أَيْ أَقَلُّ مِنْ نَفَقَاتِ أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ فِي أَثْنَاءِ الْحَرْبِ الْعَظِيمِ ، وَلَا تَنْفَعُ تِلْكَ الْأَسْدَادُ لِإِنتَاجِ الْقُوَّةِ وَالتَّوَرُّكِ فِي الْبُلْدَانِ الْأُخْرَى ، وَمَا عَلَيْهِ النَّهْرُ مِنْ تَغْلِبٍ فَلَمْ يَصْلُحْ لِفَرْقِائِهِ قَلِيلٍ مِنَ الْمَصَانِعِ الْكَهْرَبِيَّةِ فِي جِهَاتٍ قَلِيلَةٍ ، وَيَظَلُّ النَّيْلُ ، مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ ، سَجُوحًا قَرِيبًا ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى لَا يَكُونُ النَّيْلُ صَالِحًا لِلْمِلَاحَةِ فِي الدَّلْتَا إِلَّا فِي أَشْهُرِ الْفَيْضَانِ الثَّلَاثَةِ ، وَالْأَقْسَامُ الْمُنْخَفِضَةُ مِنْ شَعْبَةِ رَشِيدٍ وَحَدَّهَا هِيَ الَّتِي تَبْقَى صَالِحَةً لِسِيرِ السَّفَنِ فِي جَمِيعِ الْقُصُولِ .

وَلَمْ يُسَنَّ لِنَظَرِ الْقَانُونِ قَبْلَ وَصُولِ الْإِنْكِلِيزِ ، وَكَانَ النَّاسُ يَنْضَمُونَ بِالنَّيْلِ مِنْذُ

أنوف السنين عند ما وُضِعَت موادُّ مرسومِ النيل الثلاثِ والأربعون ، ويَقِلُّ سوء استعمال قوى السلطان بما يُثِيرُ المَـعْـجَبَ بعد أن وُضِعَت للماء سلسلةُ المراتبِ تلك ، وفي أهواءِ النيل ما يساعد على اعتنائهم ، وذلك لأن النيلَ يَبْلُغُ من تحويلِ أرضِ مصرَ في الغالب ما يقابلُ بالنزى يطرأ على الأراضي الواقعة على سفح بُرْكان ، واليوم يَـلَمُّ الفلاحُ أن النهر إذا ما ابتعد عن ساقبته وأحدث جزيرةً جديدةً حَقَّ له أن يَحْفَرُ قناةً فَيَجْلِبُ الماءَ إلى دولا به بلا بدَل ، واليوم يَـلَمُّ الفلاحُ أن الباشا يُمَاقِبُ إذا ما حَبَسَ الماءَ عن جاره الفقير بوضعِ حجارةٍ ، أو إذا سَدَّ كَوَّةً من فواره ، أو إذا حَفَرَ حَرَقًا في الضَّفَّة ، أو إذا أزال حاجزاً ، واليوم يَـلَمُّ الفلاح ، أيضاً ، أن المفتش في شهر أبريل يَمُنَحُه ماءً إضافياً إذا كان أَرُورُ الصيفِ يَـتَطَلَّبُ ماءً أَكْثَرَ من الذي قُدِّرَ له .

وما ألقاه النيل على الإنسان من أقدم الدروس ، أى الصلِّ المشترك ، أى هذه التجربة البالغة من القِدَمِ ستة آلاف سنة ، قد تَحَوَّلَ إلى عِلْمٍ مُصْلِحٍ لكلِّ ما عَـلِمَهُ الإنسان من التقاليد ، إلى عِلْمٍ أَكْثَرَ اقْتِصَاداً في مجموعِه وأَعْظَمَ إِنْصَافاً في جزئياته ، وذلك لأن فرعونَ أو نائبَ الملك عاد لا يكون صاحبَ الأرض كما في زمن يوسفَ ومحمد عليّ ، وما تراه من دَقِّ توزيـمٍ في الأَسْدادِ ومن تحويلِ أرضِ حبوبٍ إلى أرضِ قطنٍ ومن إلْقاءِ سُخْرَةٍ بلا أُجرٍ ومن تَقصُّصٍ في عددِ التجارِ من الأُجانبِ ومن إنْشاءِ مدارسَ ومن تحريمِ الحِجْزِ على قطعة الأرضِ الضرورية للعيش ، وما تراه من هذه الاشتراكية الحكومية ، أمورٌ عُدَّتْ عاملَ التحلُّجِ جديدٍ ، وعلى ما تبصره من حملِ الفلاح على ما يجب أن يَبْذُرَ وعلى الزمانِ والمكانِ اللذين يجب أن يَبْذُرَ فيها تَجِدَ انْتِباهاً في شعوره بالكراية بعد أن ظَلَّ حتى الآنَ عبداً للماء والإنسانِ معاً .



الدلتا خضراء كوادى النيل ، ولكن بما أنها ليست أرضاً خضيفةً ، ولا واحةً ، .  
ولكن بما أنها سهلٌ يمتد على مَدَى البصر ، فإن لَوْنَ الصحراء الأصفر لا يَبْدُو  
فى غير أطرافها البعيدة ، وإذا كانت مصرُ العليا تَنِمُّ على انسجامٍ بين الأخضر  
والأصفر والأزرق فإن الدلتا الواقعة تحت سماء شاحبة تَنِمُّ بما فيها من منازلٍ وأشروعاتٍ  
سفنٍ وثيابٍ نساء على انسجامٍ بين الأخضر والأبيض والأسود ، ولورُيَّتِ هنالك  
أشجارٌ بقاها بدلاً من النخل لظهور لنا منظرٌ هولندىٌ ، فالله موجودٌ فى كلِّ مكانٍ  
وصِغارُ الجدول تقطعُ كِبَارَها .

يبد أن المظهر العامُّ يَدْكُرُ ببلد الكُشْبَان ، وكلُّ شئٍ هنالك مصرىٌ ، وكلُّ  
متحركٍ هنالك مصرىٌ ، بلينِ النظر وكثافته ، وكتب أحدم يقول فى زمنِ لويس  
الرابع عشر ، حين كان القناصلُ شراءاً أيضاً : « تكون مصرُ فضيةً فى سبتمبر ،  
وزُمُرُديَّةً فى نوفمبر ، وذَهَبِيَّةً فى أبريل » ، ونحن الآن فى شهر أكتوبر .

ويسيرُ بعيرٌ سيراً وبيداً ، ويُبَايِنُ السماء ، ويَحْمِلُ جَبَلًا مُهْتَزًّا من عِيدانِ القطن  
الجافة لإحراقها ، ويمرُّ رجلٌ راكبٌ حماراً على طول السَّدِّ ، ويَقْطُرُ وراءه دولاَّبُ  
ناعورةٍ جديدٌ اتباعه من المدينة ، وتُسْرِعُ سيارةٌ يجلسُ فيها ، وَيَنْشَبُ فى أطرافها ،  
أربعة عشرَ مسافراً ، فيُسْمَعُ صوتُ لحديدها وتطاليرِ فى الهواء ثيابُ راكبيها ،  
وتُحْمَى سفينتان ذواتا شراعين مضاعفتين متفتحين بريح الشمال الغربى فنجوان  
السهلَ رُوَيْدًا رُوَيْدًا وتَجَلِيان ما هو أبيضٌ مثلهما ، تَجَلِيان جبالاً زُغْبًا من

القطن ، وترعى امرأتين سوداوين وخمسة أولاد يفررون مؤمن النرة الأصفر في الأرض على فواصل متساوية استمداداً لزراع فول في القد ، وترى رجلين عارين واقفين في القناة فيخرجان كتل غريزي ويصفحنها ويأخذونها على عجلة إلى منازلهم البيض ، وترعى في وسط الغرين التامع مها<sup>(١)</sup> حبشية كأنها تذكر لماضي بعيد ملىة تقريباً ، ويحاول تل أن يتكون ، ويتلغ من الارتفاع متراً ونصف متر ، وترسم الريح على ذروته دوائر غريبة مدام أرفع ما في الجوار ، وتتصب على مثل ذلك الارتفاع رحي هواء تدور بريح الشمال فتبدو وحيدة كجال<sup>(٢)</sup> ، وتبدو أجنحتها مرخاة ، فيلوح أنها تدير مضخة .

وتبصر على ما هو أبعد من ذلك ثلاث جرافات سود صديئة تقذف الغرين في الحقول ، وتبصر على الضفة ألوف القلل الصفراء الالامعة مكدسة كالقنايل القديمة ، وتجر ثلاثة جمال ذات أذنان طويلة متموجة كالطوايس خوص مخلي مربوط بعضه ببعض أكواما ، وتجر البلاشين وتطير طيراناً قريباً عارفة أنها في مأمن لما ينبا وبين البقر من صداقة ، وتطير حمار فوق القناة بجراًة ، ولا ريب في أن راكبه خفيراً لعله بندقية ، وتطير نحو مئة طير من كدس حبة موضوع أمام البيت الصغير الأبيض العاري ، ويؤدي طريق سنط إلى بيت غني وتلفح خلقه فجة مسجد صفراء زرقاء ، ويترجن<sup>(٣)</sup> رجل حصاناً زائفاً يكيف<sup>(٤)</sup> أمام أربعة أبنية من أجبر بارزة بين الخضرة ، أمام أربعة أصابل معدة لخيل السباق ، ويسكن الفلاحون أكواخاً يضاً مصنوعة من طين مجفف وقائمة بجانب تلك ،

(١) لها : جمع الهامة ، وهي البلوقة الصغيرة — (٢) الجال : القريب الذي هجر وطنه .

(٣) فرحن الدابة : حسنها بالفرجون أي بالهضة ، والهضة هي آلة تحس التراب عن الدابة .

(٤) أكلف القرس : سمع لحوائره صوته .



٤٥ - أطفال القرية



وَيَمُرُّ خَسُونٌ رَجُلًا لَابِسًا جِلْبَابًا أَيْضًا وَحَامِلًا قُبَّةً مُشْتَمِلَةً عَلَى حَجَرَيْنِ مُعَدَّيْنِ  
لِتَجْدِيدِ مَدْخُلِ الْقَنَاةِ ، وَتَجَلُّبُ قَوَارِبُ طَوِيلَةٌ تِلْكَ الْحِجَارَةُ إِلَى الْقَاهِرَةِ لِمَا  
لَا يَجِدُ مِنْهَا فِي الدَّلْتَا ، وَيَرَى حَارَانَ مِنْ وَطَانِ يُونُدٍ وَاحِدٍ ذَلِكَ الْمَنْظَرُ بِأَطْرَافِ  
عَيْنَيْهِمَا وَيَذُكُّ كُلُّ مَنِهَا رَأْسَهُ بِرَأْسِ الْآخَرِ ، وَتَتَوَجَّهُ نَهْوُ الْقَنَاةِ ، مِنْ خِلَالِ  
حَقْلٍ نَقْلٍ<sup>(١)</sup> امْرَأَةٌ لَابِسَةٌ ثَوْبًا أَسْوَدَ وَحَامِلَةٌ جَرَّةً فَارِغَةً مُصَبَّحَةً عَلَى رَأْسِهَا ،  
فَإِذَا مَلَأَتْهَا بِتَوَدُّقٍ رَجَعَتْ مِنْ طَرَفِهَا بَعْدَ أَنْ تَنْصِبَهَا مُوزُونَةً عَلَى رَأْسِهَا مَعَ  
الْإِنْجَامِ ، وَتَمُرُّ سَفْنٌ شِرَاعِيَّةٌ أُخْرَى ، وَتَنْقُلُ زَوَارِقُ سُودٌ سَلَمَةً خَفِيفَةً ، تَنْقُلُ  
الْقَطْنَ الْأَيْضَ الْكَثِيرَ الَّذِي يُعَدُّ بِضَاعَةً ثَمِينَةً مَلَكَيَّةً فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ ، وَتَجِدُ عَلَى  
طَرَفِ الْقَنَاةِ صِبْيًا يُدِيرُ لَوْلَبًا خَشِيبًا فَيُوصِلُ السَّاقِيَةَ بِهِ إِلَى النَاحِيَةِ الْأُخْرَى ،  
وَيَصِرُ كُلُّ مَنْ اللَّوَلَبِ وَالسَّاقِيَةَ ، وَيَدَاوِمُ عَلَى تِلْكَ الْحَرَكَةِ عَشَرَ سَاعَاتٍ مُتَابَعَاتٍ  
فَيُضْمِدُ اللَّاءَ ، بِلا انْقِطَاعٍ .

## ٢٩

هَذِهِ هِيَ الْمَدِينُ ، وَهَذِهِ هِيَ حَرَكَتُهَا ، وَهُنَاكَ مَعَامِلُ ، وَلَكِنْ مَعَ قَلِيلٍ مَنَازِلَ  
فِي بِلَادِ الْقَطَنِ ذَلِكَ ، وَلَا تَصْنَعُ تِلْكَ الْمَعَامِلُ غَيْرَ وَاحِدٍ فِي الْمُدَّةِ مِنَ الْإِتْبَاعِ ، وَفِي  
الْبِلَادِ قَلِيلٌ مِنَ مَصَانِعِ التَّنْبَغِ مَعَ أَنَّهُ يُنْتَجَجُ أَحْسَنَ تَنْبَغٍ فِي الْعَالَمِ ، وَفِي بِلَادِ السَّكْرِ  
ذَلِكَ قَلِيلٌ مِنَ مَعَامِلِ السَّكْرِ ، فَلَا يَقُومُ مَا يُنْتَجِجُهُ مِنْهُ بِاحْتِيَاجَاتِ الْأَهَالِي ، وَتَرَى  
بِجَانِبِ تِلْكَ الْمَصَانِعِ جَامُوسَ الْفَلَّاحِ يُدِيرُ دُولَابًا مُحَرَّكَ رَهَاصًا لِقَصَبِ السَّكْرِ

(١) القفل : نبت من أحرار البقول زهره أسفر طيب الرائحة تسمن عليه الخيل .

فيؤدى ذلك إلى مَنَحِ الفلاح ضرباً من القند<sup>(١)</sup> يُفَضِّلُهُ على السكر الخالص .  
ويَبْدَأُ العملُ الفاوستى<sup>(٢)</sup> مرةً أخرى فى أقصى الدلتا من جَنُوب الإسكندرية  
الغربي فتُكْتَسَبُ من الشَّهْبِ رياضٌ وأَرْضُونَ صالحةٌ لِلْفَلاحةِ ، وتَترى بالقرب  
من البحر عند حدود ليلية أعراباً يَزْرَعُونَ أنعامهم فى شُهْبِ يَرْوِيهِ المطرُ فى الشتاء  
أحياناً ، ويَزْرَعُونَ حبوباً قليلةً قيل أن يُحْرِقَ الصيفُ كلَّ شىءٍ ، وذلك كما فى  
نوبية الوسطى على بُعْدِ ثلاثة آلاف كيلومتر من مجرى النهر الفوقانى<sup>(٣)</sup> ، غير أن  
ما هناك من الخرائب الرومانية والأطلال المصرية يُنْبِتُ كَوْنِ ذلك البلدِ خصيباً  
فيما مضى ، ويَظْهَرُ من بقايا إحدى المناور أنها تَزْجَعُ إلى زمن كليونباترة ،  
وتدلُّ بعضُ النصوص على أنها أرضٌ غِلاَلٍ ، وليست كَـتَرُ بعضِ الفَخَّارِ من غير  
أصلٍ نصرانىٍّ لِمَا تَرى بينها ما يشتمل على صورةٍ قَدِيسٍ بين جلين .  
وأخيراً يونانيٌّ سابقٌ عهدٍ تلك البُقعة التى كان البطالمة يَفْرِسُونَ فيها الكَرَمَةَ ،  
فقد أنشأ فيها مدينةً صغيرةً وطريقاً فسمَّيَتَا باسمه : جناكليس ، وهكذا يَخْلُفُ  
زارعُ التَّنْبَغِ مِلْكَاً كما يَخْلُفُ تاجرُ القهوةِ المقدونى<sup>(٤)</sup> فيوقِظُ ذلك البلدَ الناعسَ ،  
ويَصْمُرُ كفرعونَ ، وقد أنبت تحت ذلك الجوُّ البَهِيتَ ، أنبتَ بفعل نسيمة ومطره  
وقناةٍ مجاورةٍ له ، أشجارَ برتقالٍ وزيتونٍ على كُشْبَانٍ مُرَكَّبَةٍ من رملٍ وغُرَبٍ ،  
ويُخْرِجُ ماله من كرومٍ خراً مصريةً جديدةً ، وهكذا يُمكنُ توسيعُ الدلتا بتخاديرِ  
الْخَمْسِ ، وإدخالِ زراعةِ التَّنْبَغِ لمكافحة أزمةِ القطن المتزايدة ، فَيُعَادُ إلى الفلاح  
ما تَزْعَمُ من سروره بما يُنجِبِي من السُّكُوسِ عن التَّنْبَغِ الواردِ ، ويُرى أن مُعَدِّلَ  
التدخين فى مصر أربعَ سفايرَ فى كلِّ يومٍ لكلِّ ساكنٍ من رجالٍ ونساءٍ وولَدانِ ،

(١) القند : عمل قصب السكر إذا جُد — (٢) نسبة إلى جلال إحدى روايات غوته .

## التبغ والقطن

وتستورد مصر في كل عام من التبغ ما قيمته عشرون مليون جنيه، أى ما يزيد على مُعدّل ما يستورده أى بلد آخر مع أن زراعته هناك يُنتج من التبغ ما هو أنفُسُ مما في جميع بلاد العالم بفضل ماء النيل وبفضل هوائه على ما يحتمل . ويَطْرُدُ القطنُ ، وإن شئت قَطْلُ مَلِكِ مِصْرَ هذا ، كلَّ شيء ، ويجلبُ الدقيقُ من أستراليا في الوقت الحاضر هذا البلدُ الذى كان يَمِيرُ<sup>(١)</sup> نصفَ الإمبراطورية الرومانية بالحبوب ، وإذا كانت الأسداذُ تُمدُّ هذا البلدُ بأراضٍ جديدةٍ صالحةٍ للفلاحة فإنه لا يُبَدَّرُ في هذه الأراضى حَبٌّ ، وكان ١٢٠٠ ٠٠٠ فدان يُزْرَعُ حبوباً و ٨٠٠ ٠٠٠ فدان يزرع قطناً في سنة ١٩٠٠ ، فلما حَلَّت سنة ١٩٢٦ لم يَزِدْ ما يُزْرَعُ من أَفْدَنَةِ الحبوب مع أنه خُصَّصَ مليوناً فداناً لزراعة القطن ، وقد تضاعف عددُ سكان مصر تقريباً ، وذلك من غير أن يَتَحَوَّلَ مقدارُ الخَبْزِ الذى تُنتِجه ، وذلك لأن تَرَاءَ البلدُ يَزَادُ على حساب استقلاله ، وذلك لأن القطن ، لا الحريرة ، هو الذى يسيطر ، ويُصَدَّرُ في سنة ١٩٢٥ من القطن وبذرة القطن ما قيمته ٦٢ مليون جنيه ، ولكن مع إدخال ما قيمته اثنا عشر مليون جنيه من الحبِّ والدقيق ، وكان ما يُصَدَّرُ من القطن المصرى ، حتى في سنة ١٩٣٠ ، حتى بعد تدهور القطن ، يَمْدُلُ ٨٧ في المئة من مجموع ما تُصَدِّرُهُ مصرُ ، ويُمَوِّدُ العقل في ذلك الحين إلى الرؤوس فيزْرَع ١٨٠٠ ٠٠٠ فدان من القطن ويزْرَع ١٤٠٠ ٠٠٠ فدان من القمح .

ومع ذلك لا تكون تلك المضارباتُ مُجْدِيَّةً في غير سِنِي الخير ، ويُعطى فدانُ القطن في الدلتا في كلِّ سنة ثلاثين جنيهاً ، ويُعطى فدانُ البَرسيم في الدلتا في كلِّ

(١) ملره : أعاه بالطعام واللوة .

سنة عشرة جنيهاً فقط ، ولكنه يُقَصُّ من البرسيم خمس مرات في السنة الواحدة ، وذلك إلى أن الأرض تُنْهَكُ بالإكثار من زراعتها ، ومن ذلك أن القطن كان يُزْرَع ، قبل الحرب ، مرة في كل عامين بدلاً من أربعة أعوام ، فنَقَصَ إنتاجه وزالت خواصه ، فالأرض تَصْنَى كالمرأة التي تَضَعُ ولداً في كل سنة .

وهكذا يدور كل شيء حول الملك الأبيض ، حول القطن ، ويُرسَل هذا الملك إلى الخارج ، لأن الأجنبي يُخْزِلُ الثمن بأحسن مما في الداخل ، ولا يُفْزَلُ القطنُ ويُحَاكُ حيث يَنْبُت ، بل يُصَدَّرُ على سفن كبيرة إلى جُزُرٍ بعيدة حتى لا تَجْلِبَه لَنَكْشِيرٍ من الولايات المتحدة، حتى تبيعه لَنَكْشِيرٍ من المصريين منسوجاً، وبهذا تُدْفَعُ الملايين أجرة قُلٍ على غير جدوى ، ويُفْرَضُ على الطبيعة المعادية نبات يحتاج إلى ماء السماء في بلدٍ عاطلٍ من المطر ، ثم تُجْتَنَى ثمرات هذا النبات ليُوَقَّى بها إلى جزيرة ذات ضباب فتُعِيدُها إلى العالم على شكل جديد ، مع أن زوس<sup>(١)</sup> كان يقوم بتقصّصاته في مكانه بما هو أسرع وأروع .

ويقال مع التوكيد إن القطن الذي يُنتَجُ هنا كثير النومة على الأهالي ، ولكن من الممكن أن تُقَدَّ معاهدات تجارية لمبادئته ، ولكن ألا يوجد مكان للصانع في الدنيا؟ إذا ما أنشئ مصنع في قرية انتفع بألوف الأفدنة فكان كالكتاب الصغير الموضوع على منضدتنا المشتعل على عالم من الأفكار والأحلام ، وإذا لم يَرَدْ صنع شيء ، أو كان هنالك من الوسائل ما يُحَال به دون فعله ، وجِد من الأسباب الفنية ما يُفَسِّر به الامتناع عنه .

وهل أدى القطن إلى جمل الفلاح أكثر سعادة على الأقل؟

(١) هو الاسم الإغريقي لبيد الآلهة جوبيتر كما جاء في الأساطير .



### أغنياء من الفلاحين

لقد أُنْزِي الباشوات في أثناء حرب الانفصال حينما افتقد قطن بُكَّاس ، غير أن وطأة ذلك أُلْغِيَتْ على عاتق الفلاح فنشأ عن تحرير السيد في الولايات المتحدة ظهورُ صيدٍ جُدِّدٍ في مصرَ ، ولما وَضَعَت الحربُ العظمى أوزارها وتَمَدَّلَ كَيْفَكانُ مصرَ الاجتماعيُّ اغتنى بعضُ الفلاحين بلوغُ ثمن قطار القطن أربعين جنيهًا وبلغ ثمن الأرض الجيدة ألفَ جنيه ، ويظهرُ أنه يوجد بين فلاحِي الدلتا مَنْ يستطيع أن يتاع ألفَ نخلةٍ فيزيدُ دخله السنويُّ على ألفَ جنيه ، وليس بمجهول اسمُ أغنام الذي اشترى أرضَ شِرْكَةٍ مُفْلِسَةٍ بأربعين ألفَ جنيه فوصلَ يوم إضفاء عقد البيع مع جماعة من الحبر حاملةً أكياسًا من الذهب ، ويَسخرُ مِمَّا سَرَّه الإنكليز من غباوة هذا الفلاح الذي تَرَكَ ذهبه ينامُ في بيته المصنوع من الطين من غير أن « يُوَعِّظَهُ » ، وذلك من غير أن يَعْلَمَ هؤلاء الإنكليزُ أنهم كانوا يَحْسِرُونَ هذا الذهب ، لا رَبِّبَ ، بعد بضع سنين في شِرْكَةٍ فَخْصَةٍ ذاتِ مكاتبٍ فاخرة وأوراقٍ مالية باهرة.

والفلاحُ زاهدٌ مقتصد ، والفلاحُ يتاع بيتًا أكثرَ جلالًا ، وحرارًا أعظمَ عَصَلًا ، كما يتاع لأمراته قِلَادَةً ذهبية ، ولكنَّ الفلاح يؤمن بالأرض التي يروِّيها النيل فيشربها لنفسه ولأولاده ، ولا يَذْهَبُ الفلاح المُنْتَفِي لِيُبَدِّرَ مَالَهُ في القاهرة أو باريس حيث يَقْضِي المضاربون حياةَ الترفاة بضعة أشهر ، ومن النادر أن يُمَثِّلَ الفلاح المُنْتَفِي دَوْرَ السيد الإقطاعي أمام أمثاله الذين ظَلَمُوا فقراء ، ولا أحدٌ من الفلاحين يَجْهَلُ القصةَ العربية القائلة إن فلاحًا غنيًّا أتى بفلاح فقير أمام قَبْر أبيه الرائع فقال للفلاحُ الفقير صائحًا : « سيكون أبي في الجنة قبل أن يقدر أبوك ، بزمنٍ طويلٍ ، على رفعِ هذا الحجرِ الرُّخامي الثقيل » .

## المخدرات

وباقى للفلاحون ، وفلاحو الدلتا على الخصوص ، مُنكراً مناقضاً لمزاجهم المريح لأسباب خفية لا يمكن تفسيرها ، وذلك أن المخدرات غير منتشرة في مكانه على شواطئ البحر المتوسط انتشارها بين الفقراء من أهل مصر ، والمخدرات مما يستعمله الأغنياء في العالم بأجمعه ، فترى معامل في أوروپة الشرقية ، وفي بلدان تدعو إلى مكارم الأخلاق فتضرب نقوداً عن حبٍ للإنسانية وعن ديموقراطية ، تسم أولئك الأهلين سمّاً منتظماً ، وترى الألوف من التجار والمهريين والوكلاء يعيشون من هذه التجارة الحُرمة ، ومع ذلك يسأل : هل صنع الهروين ، الذي يمنّ على الإنسان بأحلام مُسكرة وبحسّ سفادٍ ، أنقى للأخلاق من الفازات السامة التي تقتله؟ ألا إن بعض الحكومات تصنع هذه الفازات لتحقيق معاملها ومُحرّم الهروين خشيّة قصص حرارة القتال لدى أبنائها .

وإذا ما اجتاع فلاح الدلتا أفراساً ممنوعة أو أعشاباً محظورة مخفية في التبغ والشكلاتة والفلفل راجياً أن يقوى بها باهه وجِد ما يُحِبُّ به . ظنّه على الدوام ، وإذا ما اغتمّ فلاح وأبلّس<sup>(١)</sup> وضع قليلاً من الحشيش في ترجيلته ودخن حتى بسقط الأبواب من يده ويسبح في الرؤى ، ويؤدى تتبع المخدرات في السنوات الأخيرة إلى تصديق نطاق استعمالها ، وتنفقت مقادير كبيرة من كل بحث عنها مع ذلك ، ويتعدّد التجار ما هو عجيب طريف من أنواع التهريب بعد أن اكتشف إدخالها إلى البلاد داخل خفافٍ ، فأنتهوا إلى دسّها تحت ما يُبضع ويُحاط من جلود الجمال حتى تُخرّج في مكان أمين ، وتظهر الدالة عرجاء مرة أخرى ، فينبا يُحكّم على متاعى المخدرات بالسجن سنوات لا يُفقى بحبس تاجر

(١) أبلّس : انكسر وحزن وبس .

### أهمية البرسيم

لِلخُدَّراتِ التركيَّةِ غيرَ بضعة أشهر ، وذلك إلى أنه لا ينبغي للولةِ تَدَعُ أُلوفَ  
الأمميين يَفُوصُونَ في بحرٍ من الفقر والجمل أن تجازيَ أولئك إذا ما اشتَرَوْا ببضعة  
قروشٍ نَصَبًا لَدِينًا ، إذا ما شَرَوْا حُطًا وسُلُوانًا .

وَيَحْدُرُ بأمرِاءِ القطنِ المَدِينين للفلاحِ بسلطانهم وِزرائهم أن يَحْمُوه من الأمراضِ  
التي تأتي بها أسداهم إلى البلد ، وذلك لأن الإنسان يؤدي دوماً ما ناله من الطبيعة  
عن براعة ، ومع ذلك ليس المُتَقَمِّع هو الذي يَدْفَعُ على النوم ، وكان المصريون  
يعتقدون أنهم من السُّعَدَاء ، وكانوا سُعَدَاءَ فُصْلاً ، وذلك لأنهم كانوا في مأمن  
من البَرَداءِ <sup>(١)</sup> مع ما في بِلَدِهِم من مَناتِ المستنقعاتِ التَّيْنَةِ ومع ما رَوَى هيرودوتس  
وقصر وجوده عندهم من كَلَلٍ <sup>(٢)</sup> البَموض ، وما يُقَلِّمُ أن الطبيعة استقمت لنفسها  
في بابلٍ عند ما حاول الإسكندر الأكبر أن يُنْجِسَ بالترق <sup>(٣)</sup> أرضَ المناقعِ المحيطةِ  
بهذه المدينة فذهب ضحية البَرَداءِ على ما يَحْتَمَلُ ، والبرسيم هو الذي كان يُعَوِّزُهُ ،  
والبرسيم هو الذي يَحْفَظُ وادى النيل والدلتا من البَرَداءِ على الرغم من البركِ  
ذوات المياه الراكدة ، وأخطَرَ في الماء الطاهر ، والغِرْيَنُ هو الذي يَحْمُسُ مصرَ ،  
فلما عُدِلَ في البنغال عن الرِّمِيِّ بِماءِ الغِرْيَنِ إلى ماءِ المطر ظهرت البَرَداءُ ،  
ولما قَصَدَ مصرَ أُلوفُ المصابين المهاجرين من فلسطين في أثناء الحربِ العظمى  
لم يَحْلُبُوا ذلك المرضَ إليها .

والواقعُ أن مرضاً أُدخل إلى مصرَ منذ إقامة الأسدا ، ولم يَصدُرْ هذا المرضُ  
عن النيل ، بل عن الإنسان الذي قَهَرَ النيل ، وما حَدَثَ أن صَمِنَ المستشارون

(١) Malaria — (٢) الكَلَلُ : جمع الكَلَّةِ ، وهي غشاء رقيق يَغطِّي كَالَيْتِ يتوق  
به من البَموض ويصرف به « التاموسية » — (٣) عزق الأرض : شقها وأخرج منها الماء .

## البهارزيا

الكثيرون الذين بحث الورد كرومر معهم علم وجود خطرٍ من إنشاء الأسداد ،  
وما حَدَثَ أن حَصَصَ أحدُ المهندسين الكبارين ، وَلِكُوكُسُ وَمُرْدُخُ  
مَكْدَنَدُ الذين أفاها الأسدادَ وَحَقَّقَا حُلْمَ قَاوَسْتِ ، دُورَشِيئَتِه لَتَلَفِ الصَّرَرِ  
الذي نَجِمَ عن عمله ، وَلِكُوكُسُ هذا كان مُحِبًّا لِلْإِنْسَانِيَةِ فَأَزْعَجَ بِإِنذاراته مَلُوكَ  
القطن والوزراء من الإنكليز والمصريين الذين كانوا يُفَضِّلُونَ كَمِ الخطر على إبعاده ،  
وَيَبَيِّنُ وَلِكُوكُسُ أن قداماء المصريين جَلَبُوا الرِّسْمَ من النيل الأوسط فكانوا  
يَجْزُّونه في الغالب لِزَهْرٍ ثَانِيَةٍ وَلِيُطْرَدَ الدِّبَابُ وَالتَّبَعُوسُ يَلْزَاهُ ، وذلك مع العلم  
بأن الفراغة كانوا يَمْتَنِعُونَ الفلاحَ الموظفَ في المصالح العامة وفي السجون من أكل  
الْخَضَرِ بلا طَبِخٍ .

يَبْدُو أن الأسداد ونظامَ المياه الجديدَ رَفَعَا مَسْتَوَى سِمَاطِرِ الماء في كلِّ مكان ،  
وتَصَبَّحَ البُلَالِيْعُ مَقْرَأًا لِلذِّيدَانِ المَرْوُوقَةِ بِمَقْسُومَةِ الْبَطْنِ<sup>(١)</sup> والتي لا تَقْتُلُ الْإِنْسَانَ ،  
بل تَصِيْبُهُ بِالْحُمَّى وَيَبْثُورُ ، وَثَوْرَتُهُ مِنَ الْآلَامِ مَا لَا يَحْتَمِلُ أَحْيَانًا ، وَتُضْعِفُ قُوَّتَهُ  
وَتُعِذُّهُ لَأَمْرَاضٍ أُخْرَى ، وَتَظْهَرُ مَقْسُومَةُ الْبَطْنِ ، فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، فِي كُلِّ مَكَانٍ  
يَسُودُهُ نِظَامُ الرِّئِيِّ الدَّائِمِ ، تَظْهَرُ فِي مِصْرَ الْعِلْيَا حَيْثُ لَا يُجْتَفَى الْقَنَوَاتُ لِاسْتِهَاثِهَا  
عَلَى مَاءِ الشَّرْبِ ، وَتَظْهَرُ فِي شِمَالِ الدَّيْلَمَةِ وَشَرْقِهَا حَيْثُ تَكْثُرُ الْمَنَاقِعُ وَالْقَنَوَاتُ  
ذَوَاتُ الْمِيَاهِ الْوَحِلَةِ التَّذَرَّةِ ، وَمِنَ الْعَبَثِ أَنْ يُحَاوَلَ إِنْكَارُ مَا يَشْهَدُ بِهِ جَمِيعُ الْأَطْبَاءِ  
لِلْمُسْتَقْلُونَ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنْ ٦٥ فِي الْمِئَةِ مِنَ الْفَلَاحِينَ مُصَابُونَ بِذَلِكَ الْمَرَضِ فِي حَقُولِ  
قَصَبِ السَّكَّرِ بِكُومِ أُمْبُو حَيْثُ الرِّئِيُّ دَائِمٌ ، فَإِذَا مَا ابْتَدَتْ عَنْ ذَلِكَ بَعْضَةُ  
كِيْلُو مِثْرَاتٍ وَغَدَوَتْ فِي الْأَرْضِ ذَوَاتِ الْأَحْوَاضِ بِأَدْفُولٍ تَجِدُ غَيْرَ قَلِيلٍ مِنَ

(١) البهارزيا .

للمصابين بذلك المرض ، وإذا ما كنت في مديرية جرجا ، التي انفردت بحسن الرى بأحواضا ، لم تجذ مصابا بذلك ، وترى مَرَضًا آخر من ذلك النوع في الدلتا حيث يصعب تغريغ المياه ، ترى معقوفة القم<sup>(١)</sup> التي تكثر في الأمعاء الرقيقة فيصاب بها ٩٥ في المئة من الفلاحين كما يُصاب ٩٥ في المئة منهم بمقسومة البطن .

وكما زادت الأسداد ارتفع ماتحت الأرض من رِمَاطٍ ، ويكاد هذا السِماط يَفُتّر البيوت في الدلتا ، ومع ذلك ترى هناك ما يُعالج به هذا الذي يُعَدُّ من جوائح مصر ، وذلك بأن تُستعمل هذه الأدوية وبأن يُدَقَّ ثَمَرها ، وذلك بأن تُنشأ مراحيض عامة وأن تُسوَّى التلّاع<sup>(٢)</sup> وأن يُجَمَّ<sup>(٣)</sup> المَياض<sup>(٤)</sup> البلدية بالتراب وأن تُعمّق القنوات ، وأن يُجمل ذلك السِماط نافذاً إلى النيل قعاً للأرض والقنوات وأن تُفلق القنوات في الشتاء بدلاً من استعمالها واسطة اتصال وأن يُخفّض مستوى ذلك السِماط على هذا الوجه ، وأن يَسِيَقُ التَّجفيفُ البَسيقَ دوماً ، يَبْدُ أن هذه وسائل طويلة تقتضى وقتاً كبيراً .

وهناك وسيلة أخرى إذا ما أُخِذَتْ بسرعة ، وعلى مقياسٍ واسع ، أُتُخِذَتْ أولئك الآدميين ، وهى أن الديدان تهاجم هؤلاء الناس عند حملهم واثقين في الماء ، فبأن اثنين من كل ثلاثة يَعْمَلُ في مصرَ واهما في الماء وَجَبَ حَفْظُ سِيَّانِ الجميع كما تُحَفَظُ سِيَّانُ الشُّرطة بِجَرامِيْقٍ من اللَّطَّاطِ دَقِيقَةً عَالِيَةً ، ولا سيما في الأماكن التي يَنْبُتُ فيها البَرْدِيُّ ، وإذا كانت الشُّرطة والمهندسون اللابسون جَرامِيْقَ

(١) أنكلوستوما - (٢) التلّاع : جمع التلعة ، وهى ما علا من الأرض .

(٣) جم المكيال : ملاء لى رأسه - (٤) المياض : جمع للنيل ، وهو مجرى الماء ومدخله في الأرض .

من المطاط لا تَنفُذُها الموائعُ يَسْلَمون من كلِّ عَذْوَى أَمَكْنَ إِحْدَى شِرْكَاتِ  
القطن أن تأخذ من ميزانيتها ما يتباع به ١٧٥٠٠٠٠ جرموق من المطاط بـ ٢٥٠٠٠٠  
جنيه على أن يَسْتَعْمِلَ هذه الجراميقَ إِعادةً نصفُ مليون من الأشخاص ، ولا  
يُكَلِّفُها هذا العملُ الموافق لتعاليم المسيح ثَمناً أَغْلَى مما يَكَلِّفُه مَنْ ترسلهم من مبشرى  
القطن إلى الغابةِ الْبَكْرِ ، وإذا كانت تلك الشَّرْكَة لا تود أن تُقْلَعَ عن ذلك  
الصراع المُشِيبُ ضِدَّ الخَطِيئَةِ فاعليها إِلَّا أن تُضِيفَ ذلك المبلغَ إلى الربح  
والخسارة فيَنقُصَ الكَسْبُ في سَنَةٍ اثْنين في اللثة ، فبذلك يكون مليونُ إنسان في  
مَأْمَنٍ من الأمراضِ الثَقِيلَةِ ، وذلك المبلغُ الذى هو اثنان في المئة من الربح هو ثمن  
جراميقَ من المطاط تُنقِذُ مليونَ فلاحٍ من المرض الذى يَهْكُ قُوَاهم الحَيَوِيَّةَ  
فَيَعِدُّ فِدْيَةَ الْمَلِكِ القطن .

### ٣٠

يجلس القُرُفُصَاءُ على أرض الدلتا نساءً وأولاداً في الخريف ، وعلى مَدَى البصر ،  
فيقتطفون القطن ، وثيابُ هؤلاء اتَّخَذَهم سُودٌ ، وَالْمَلِكُ أَيْضُ ، وَيَعْمُومُ عَلَيْهِ غَمَامٌ  
خفيف ، ويلوح كلُّ شَيْءٍ فيه خفيفاً وَغَيْرَ حَقِيقٍ ، وَيُفَكِّرُ في لَيْبِ طَائِرٍ  
وَحُفْمِ صَبْرٍ .

ولذلك النبات طَبْعُهُ تَائِبٌ لِهَوَاهُ ، ويقاوم ذلك النباتُ في شبابه ، وَيَظْهَرُ أَنَّهُ  
يريد متاعَ الحَيَاةِ ، وَيَظْهَرُ في دورِ خِفَّتِهِ أَنَّهُ مُعَدٌّ لِمَبْشَرِ نَاعِمٍ ، وهو يَجْهَلُ  
ما ينتظره من مِخَنٍ ، وهو ذو مصيرٍ أَقْسَى من مصيرِ النباتاتِ الأُخْرَى ، وليست

### انتفاخ البذور في جورة القطن

عُصَارَتُهُ هِيَ الَّتِي تُحَوَّلُ ، وَإِنَّمَا أَلْبَانُهُ هِيَ أَكْثَرُ مَا فِيهِ إِحْسَاسًا .

وفي شهر مارس يَحْفَظُ النِّسَاءُ هُنَالِكَ أَوَّلَ الْقُرُونِ مِنَ الرِّيحِ وراءَ الْأَحَادِيدِ الصَّغِيرَةِ ، ثُمَّ يُطَهِّرْنَ الْأَرْضَ مِنَ الشَّجَرِ وَيَحْلُلْنَهَا وَيَرْفَعْنَ الشُّوقَ إِلَى طَرَفِ الْأَخْدُودِ حَتَّى تَنْمُو طَلِيقَةً بَعْدَ مَجَاوِزَتِهِ ، وَفِي مِثَالِ السَّاعَاتِ ، وَفِي الصَّيْفِ بِأَسْرِهِ ، تُعْنَى أَيْدِي أَوْلَئِكَ النِّسَاءِ الشُّعْرَ بِتِلْكَ الْأُورَاقِ فَيُزَلْنَ الدِّيدَانُ الصَّغِيرَةَ ، فَكَأَنَّ ذَلِكَ مَدْرَسَةً قَائِمَةً عَلَى الصَّبْرِ وَالْهَجَةِ كَالَّتِي يُرَبِّي فِيهَا الْأَوْلَادَ ، وَيَتَسَاهَلُ الرِّجَالُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ الصَّيْفِ عَنْ سَفْيِ ذَلِكَ النَّبَاتِ الْقَصِيفِ ذِي الْأَزْهَارِ الصَّغِيرِ بِأَحْسَنِ الْوَسَائِلِ .

وأخيراً تَنْفُخُ الْبُذُورُ فِي جَوْرَةِ الْقَطْنِ ، وَلَا تَعْمَلُ الْعِيُونُ عَنْ تِلْكَ الْحَقُولِ الْوَاسِعَةِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ جَبِّي الثَّمَرِ فِي الْوَقْتِ لِلنَّاسِبِ إِذَا مَا أُريدَ بُلُوعُ الْقَطْنِ غَايَةَ النُّعْمَةِ ، وَيَقَعُ ذَلِكَ حِينَ تَشَقُّقِ الْحَقِّ الْأَمْرِ مِنَ النَّبَاتَاتِ ، شَأْنُ الْمَلِئُونِ ، وَلَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ مَكَانٍ مَعًا ، وَبِمَا أَنَّ حَصُولَ الصَّنَاعَةِ الْعَظِيمَةِ هَذَا لِنَافِعِ الْبِلَادِ بِأَجْمَعٍ يَبَّاعُ فِي زَمَنِ وَاحِدٍ فَإِنَّ رُوحَ الْبَيْتِ لَدَى رُؤَسَاءِ الْمَشْرُوعِ تُمَثِّلُ دَوْرًا مَهْمًا لِمَا يَتَطَلَبُ ذَلِكَ مِنْ صَبْرٍ وَتَجَرِبَةٍ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَطَلَبُهُ أَمْرُ الشَّيْءِ وَالْقَهْوَةِ ، وَإِذَا كَانَ لَوْنُ الْقَطْنِ انْخَامَ قَشْدِيًّا سُرَّ الْقَلَاحِ ، لِأَنَّ هَذَا هُوَ أَحْسَنُ الْأَلْوَانِ ، وَلَوْ كَانَ الْقَلَاحُ قَادِرًا عَلَى رُؤْيَةِ ذَلِكَ بِالسُّجُورِ لَأُطْلِعَ عَلَى مَتَانَتِهِ مِنْ بَرَمَتِهِ الدَّقِيقَةِ ، كَمَا يَطْلَعُ ، بَعْدَ الْقَمْصِ الْكِبَاوِيِّ ، عَلَى نَوْعِ السِّلُولُوزِ<sup>(١)</sup> مِنَ الْإِنْتِفَاحَاتِ الْبَرْمِيلِيَّةِ الشَّكْلِ .

وَيُعْرَفُ الْقَلَاحُ أَنَّ اللَّيْفَ الطَّوِيلَ هُوَ الَّذِي يَعِيشُ مِنْهُ ، وَيُنْطَلَقُ الْقَلَاحُ بِكَلِمَةِ

(١) السِّلُولُوزُ : الْمَادَّةُ الَّتِي تَتَكُونُ مِنْهَا الْخَلَايَا النَّبَاتِيَّةُ .

« سكلاريديس » مع الاحترام كما كان أجداده يدعون إيزس ثم ديمتر<sup>(١)</sup> بعد زمن ، ويُجهَل في البرَصَة كونُ أحسن القطن المصريَّ يُحمِلُ اسمَ هذا الزارع اليونانيِّ الذي أنتجَ في سنة ١٩٠٦ ، ولَمَّا لاقاه سَماسرةٌ من الأمريكيين في الإسكندرية ارتحبوا كما لو كان إلهاً مابطلاً إلى الأرض ، وذلك لأنهم وجدوا أنفسهم أمام الإله الذي قَرَنَ باسمه أئمنُ قطنٍ في العالم ، أجل ، إنه لا شيءٌ يُفوقُ اللِّيف الطويلَ غيرُ ما يُنتجُ في جنوبِ فلوريْدَة وفي أريزونا ، بيدَ أن ذلك لا يُنال هنالك إلا قليلاً ، ولا تستطيع مصرُ أن تنافسَ البلدانَ الكبرى التي تُنتجُ القطن إلا بفضل ذلك اللِّيف ما دامت مصرُ لا تُنتجُ سوى سبعةٍ في المئة من المحصول العالميِّ ، وما يبيده القطن المصريُّ من مقاومةٍ بين الهند والولايات المتحدة فلاَن كريكويوس سكلاريديس حَلَمَ بليف الأرمين مليمتراً وبمصان النساء الحريرية قبل أن يكتشفهما .

وإذا عدّدتِ الوافِدات المخرّبة كالتي وقعت سنة ١٩٢٢ وجدتِ المضاربة على القطن ( وهذا هو التصيرُ الذي يجب استعماله من أجل ذلك البلد الصغير الذي يعيش من القطن ) هي التي تُعيّن مصيرَ المصريين ، وتجعلهم يَرْجُونَ بأنفسهم في الأزمان العالمية التي لا تجد لهم أقلَّ تأثيرٍ فيها ما داموا منمرلين في واحتهم الإفريقية عزلاً من السلاح مُهدّدين بمزاحمة النيل الأعلى تابعين للولة كبيرة ، ومن الواضح أن الاستفاد يزداد في العالم ، وأن طَمَعَ صانعي النسيج يوجي إلى الناس باحتياجاتٍ جديدة قَبْلَ ما تستهلكه العالمُ خمسة عشرَ مليونَ رِزْمَة في سنة ١٩٠٤ بعد أن كان سبعة ملايين رِزْمَة سنة ١٨٨٤ ، والآن يأملُ أصحاب الملايين أولئك أن يَقْضُوا

(١) ديمتر : آلهة يونانية تتجسم بها الأرض كما جاء في الأساطير .



### يقرأ ابنه في الصحف

باسم الآداب العامة على عُري الزنوج الصارخ لأنه لا يلبس من القمصان سوى اثنين في المئة منهم .

ويجهل الفلاح الشائب تلك الحوادث ، غير أن ابنه يقرأ في الصحف كون القوم قد طمروا بالحارث البخارية محاصيل القطن في ملايين الأفدنة من تكساس ، وكونه افتتح أكبر سد في العالم على نهر السند ليزيد محصول القطن ٢٣ في المئة على حين يصدر مرسوم في الولايات المتحدة قائل بتقليل محصول القطن ٢٥ في المئة ، وإذا كان الفلاح لا يدرك سبب هذا التناقض فإنه ليس أكثر غباوة من المسؤولين عنه ، ولكن الفلاح يشعر بأنه ضحية ، وإذا ما أدت آلهة بعيدة إلى خفض ثمن القطن في عامين من ثمانية عشر بُنطاً إلى سبعة بنطات في كل رطل منه ، وإذا حدث أن زرعت سلطات آسية الحمر التي حذرت نجرדתها منها أنواعاً جديدة من القطن تُقطى من جوز القطن مثمين بدلاً من ثلاثين فإن الفلاح يدرك أن ذلك يقضي على أمه في أن يموت من جاره ، وفي دفع الأجرة المدرسية عن ابنه ، وفي تأدية ثمن غرامات حشيشه القليلة .

ويقدو الفلاح درباً في فن البيع حفظاً لنفسه ، ويفصل النساء بأصابعهن الدقيقة وبصبرهن الذي لا ينفد القطن الأبيض عن الأجزاء الشمر الرديئة ، ويبيد النساء الأوراق الجافة من القطن الأبيض ويتظفنه قبضةً بعد قبضة ، ويجعلن منه كدساً بعد كدس ، وذلك على حين يجتمع الأولاد نقابته في سلال ، ثم يأتي الرجال بالمحصول على ظهور الحير إلى ساحتهم حيث ينظف مرة أخرى بما هو أتم من ذلك وحيث يكون في مأمن من الريح التي تثير الأوراق الجافة فتعيدُها إلى الخلف ، وتبدو الدلثا معمورة بزُر من النساء اللابسات ثياباً سوداً والمزخيمات

أطفالاً أحياناً والمنحنيات تحت الشمس وبين التلال البيض ، فكانهن إلهات هُيئْنَ لِيَنْفُضْنَ أَغْطِيَةَ سَعْدَاءِ هَذَا الْعَالَمِ ، وَتُبْصِرُ هِيَ كُلَّ غَرِيبَةٍ سَوْدَاً مُنْتَصِبَةٍ بَيْنَ تِلْكَ النِّسْوَةِ ، تُبْصِرُ مَتَاخِلَ يَدُقِّ عَلَيْهَا الْقُطْنُ ثُمَّ تُنْطَلِى لِكَيْلَا تَنْقُطَ الْأَوْرَاقُ الْيَابِسَةُ عَلَيْهَا بِقُوَّةِ الرِّيحِ ، ثُمَّ يَضْدُو كُلُّ شَيْءٍ نَظِيفاً ، وَتَبْدُو الْمَلِكَةُ بِيضَاءَ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ .

وَالْيَوْمَ يَوْمُ الْفَلَاحِ ، قَدْ وَصَلَ تَاجِرُ الْإِسْكَانْدَرِيَةِ بِسَيَارَتِهِ لِيُدَقَّقَ فِي الْبُضَاعَةِ وَيَتَبَاطَحَ ، وَالْفَلَاحُ كَانَ يُفَنِّنُ دَوَّماً ، وَالْآنَ تُنْشَرُ أَسْوَارُ الْقُطْنِ فِي الْقَرْيَةِ يَوْمِيّاً ، وَمَعَ ذَلِكَ يَخْتَلِفُ الْفَنَنُ تَبَعاً لِلنَّوْعِ ، وَإِذَا تَنَاطَلَتِ الْقَطْعَةُ الْأُولَى هِيَ خَيْرُ الْقَطْعَاتِ فَإِنَّهَا تَكُونُ فِي الْكَدْسِ الْأَخِيرِ ، وَيَشُقُّ التَّاجِرُ طَرِيقاً لَهُ بَيْنَ الْأَكْدَاسِ بِصُعُوبَةٍ عَلَى حِينٍ يَفْتَسِحُ الْبَائِعُ يَدَيْهِ السَّرَاوِينَ فِيهَا فَيَرْفَعُ سَبَاطُخَ<sup>(١)</sup> يَبِضّاً نَظِيفاً فِي الْمَوَاقِفِ وَتَهْبِطُ ، وَيَتَمَدَّحُ نَوْعَهَا عَلَى أَنَّهَا أَرْوَعُ مَا فِي الْعَالَمِ ، أَوْ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْأَقْلِ ، وَيُقْبَلُ مِنَ اللَّهِ شَاهِداً وَتُصَبُّ الْقَهْوَةُ غَيْرَ مَرَّةٍ فِي الْفَنَاجِينِ<sup>(٢)</sup> ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كُلُّ صَفْقَةٍ تَنْطَلِقُ عَلَى خَطَرٍ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَتَمَدَّرُ تَحْقِيقُ حَالِ الْمَحْصُولِ بِأَسْرَرِهِ ، وَيَعْرِفُ الْمَشْتَرِي أَنَّ الْبَائِعَ يَمْنَحِي السَّبَاطُخَ الَّتِي هِيَ مِنَ النَّوْعِ الرَّدِيءِ فَلَا يَفْتَأُ يُظْهِرُ احْتِرَازَهُ ، وَيَحِيطُ بِهِمَا نَحْوُ أَرْبَعِينَ مِنَ الْجِيرَانِ ، وَكُلُّ طَالِ الْجِدَالِ طَابَ الْبَيْعِ ، وَيَلْبَسُ جَمِيعُ هَؤُلَاءِ جَلَابِيبَ زُرْقًا وَطَرَايِشَ حُمْرًا ، فَيَبْدُو التَّاجِرُ بِقُبْعَتِهِ الْمَصْنُوعَةِ مِنَ الْمَوْصَرِ وَزِيَةِ الْأُورِيِّ مِثْلَ وَحْشٍ يَحْتَفُ مَمْسُوكِهِ مِنْ حَوْلهِ ، وَيَعْرِضُ ثَلَاثِينَ مَرَّةً أَوْ أَرْبَعِينَ مَرَّةً فَيُضْرَبُ بِذَلِكَ عُرْضُ الْحَاطِطِ مَعَ السُّخْرِيَةِ ، وَيُقْبَلُ

(١) السَّبَاطُخُ : جَمْعُ السَّبِخَةِ ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ مِنَ السِّبْخِ ، وَهُوَ مَا تَأْتَرُ أَوْ تَنْشُرُ مِنَ الْقُطْنِ وَغَيْرِهِ ، يَقُولُ « مَا لَزَتْ سَبَاطُخُ الْقُطْنِ » — (٢) الْفَنَاجِينُ : إِنَاءٌ صَغِيرٌ مِنَ الْحَرَفِ وَغَيْرِهِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ ، وَالْكَلِمَةُ مِنَ السَّخِيلِ .

ذلك بقتة وَيَهَيِّفُ الْحُضُورَ كافي دار الثميل .

وَتَحْمِلُ ساعة الكاتب ، ولا يزال الكاتب يشابه تمثال القاهرة القديم المسمى « شيخ البلد » ، وذلك لأن الفلاحين الذين أخرجوه من الأرض قالوا بصوت عالٍ إنه يشابه عُمَدَتَهُمْ ، وَيَكْتُبُ الْقَدَّ على ورق مُسْتَوٍ فوق يده اليسرى وبقلَمٍ من قَصَبٍ في الغالب ، وَيُبَيِّنُ الثَّمَنَ مَقَابِلًا لمددٍ معين من القناطر فيكون ثُلُثُ المبلغ بدلًا من القطن الخالص وثلاثه بدلًا من زيت القطن وَعَلِيقُ البِذْرِ ، وَيُقَبِّضُ الثَّمَنَ أَوْرَاقًا قَدِيَّةً في الحال ، وعلى المشتري أن يضع توقيمه على الكبير من هذه الأوراق ما دام الفلاح لا يَتَّقُ بِإِمضاءه يحافظ البنك الأهلي\* .

وَمُمْلَأُ الأكياس منذ زمن ، وَيَصِلُ اللَّقَبُ مع مساعديه ، ويأتي هؤلاء الثلاثة رَاكِبِينَ حَيْرًا ، ويحیی رابعٌ حَامِلًا مَنَصَبًا<sup>(١)</sup> ، وَيَرِدُ خَامِسٌ حَامِلًا الْقَبْ<sup>(٢)</sup> ، وَيُقِيلُ سَادِسٌ حَامِلًا التَّوَابِعَ وَالْمِیَارَاتِ ، وَيَطُوفُ الْمَنَصَّبُ فِي الدَّلَّتَا كَالْفَنَكَبُوتِ الكبير بحثًا عن أکیاس لوزنها ، وأخيرًا يكون الوزنُ قد تَمَّ بعد تناول مقدار من السفاير والقهوة ، وَتَحْمَلُ الحَيْرُ وَالْجَالُ أکیاسَ القطن وَتُؤَخَذُ إِلَى حَيْثُ تُخْلَجُ ، وَتَبْتَدُ الحیواناتُ على السَّدِّ ، وَيَنْظُرُ الفلاح وزوجهُ وأولاده صامتين ، عن غَمٍّ على ما يحدث ، إِلَى الْمَلِكِ الْأَبِيضِ الذی يتوارى بعد أن قَضَوْا ساعاتٍ طويلةً عاملين في سبيله تحت الشمس ، وَيَشُدُّ الفلاح بيده السمراء على الأوراق القديمة ، ولكن على أن ينتقل معظمها إلى دانتيه ، ولكن على ألا يبقى له غيرُ أَقْصَى ما يحتاج إليه منها ، ولا يَجِدُ سوى القليل منهم من يَمُدُّ نَفْسَهُ سعيًا .

(١) Trépiéd .

### كبي الزم

وَيَجْلِسُ أَمَامَ آلَاتِ الْحَلِجِ بَنَاتٍ وَصِيَانٍ فِي الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ مِنَ الْعَمْرِ صُفْرُ سَلَّةٍ تَفْشَاهُمْ طَبَقَةٌ مِنَ الزَّعْبِ فَتَقْتُلُهُ أَيْدِيهِمُ الرَّشِيقَةُ تِلْكَ الْآلَاتُ بِالْقَطَنِ مَعَ اجْتِنَابِ الدَّوَالِيبِ وَالْمَنَاخِلِ ، وَلَا تَصْلَحُ إِلَّا بِيْطَهُ مَعَامِلُ الدَّلَّتَا الْقَدِيمَةِ الَّتِي تَقْصَعِلُ فِيهَا الرِّمَاتُ لِمَدَمِ التَّهْوِيَةِ<sup>(١)</sup> وَبِسَبَبِ غُبَارِ الْقَطَنِ ، وَمَعَ ذَلِكَ تَجِدُ مِنْهُنَّ السَّيْدَ هَذِهِ أَقْلٌ قَسْوَةٌ مِنْ مِنْةِ الْكَبْسِ فِي الْإِسْكَندَرِيَّةِ ، وَيَجِبُ ، قَبْلَ أَنْ يُرْسَلَ الْقَطَنِ الْمُنْقَى إِلَى تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الشَّالِيَةِ لِيُتَحَوَّلَ إِلَى نَسَاجٍ فِيهَا ، أَنْ تُنْقَلُ أَجْرَةُ النِّقْلِ بِحَرًّا فَتَقْصِدُ الرِّزْمَ وَيَنْقُصُ وَزْنُ الرِّزْمَةِ مِنْ سَبْعَةِ قَنَاطِيرَ إِلَى خَمْسَةِ قَنَاطِيرَ ، وَلَا تَقُومُ الْآلَةُ الْبَخَارِيَّةُ بِذَلِكَ وَحْدَهَا ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْاسْتِعَانَةِ بِذُرْعَانِ الْإِنْسَانِ وَسَيْقَانِهِ .

وَذَلِكَ مَنظَرٌ بِأَخْوَصٍ<sup>(٢)</sup> ، فَبَيْنَ ضَجِيجِ الْآلَاتِ فِي مَخَازِنَ مَصْنُوعَةٍ مِنْ حَدِيدٍ مُضَلَّعٍ ، وَذَاتِ أَبْوَابٍ رَاقَةٍ وَمَشْتَمِلَةٍ عَلَى أَسْلَافٍ وَمُصَفِّحَاتٍ وَأَلْوَابٍ مَعْدَنِيَّةٍ ، يَصْرُخُ مِائَتٌ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَيُفْنُونَ وَيُحَرِّكُونَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ فِي الْمَوَاقِفِ وَيَتَوَجَّهُونَ وَيَسْتَنْدُونَ وَبَتَحَرِّكُونَ كَمَنْ يَرِيدُ أَنْ يَبْصُرَ الْآلَةَ مَعَ اغْتِطَاءِ شَعْرِهِمْ وَقَصَانِهِمْ وَذُرْعَانِهِمْ وَسَيْقَانِهِمْ بِمَنَامٍ مِنَ زَعْبٍ أَيْضًا ، وَيَطْرَحُ النِّسَاءُ آخَرَ أَثَرٍ لِلْأَوْرَاقِ بِحَرَكَةٍ سَرِيعَةٍ ، وَيَقِفُ رِجَالٌ أَمَامَ الْمُنْخَلِ فَتُجَرُّ السَّبَائِخُ بِسَيْرٍ<sup>(٣)</sup> نَحْوَ فَتْحَةٍ عَظِيمَةٍ مَرَبُوعَةٍ وَتُذْخَرُ فِيهَا قَبْلَ أَنْ تَقْصَطَهَا الْآلَةُ ، وَتَبْدُو عَصَابُ عَلَى جِيَاهِ الرِّجَالِ الْإِبْسِينَ قُمْصًا زُرْقًا ، وَيَحْمِطُونَ نِعَالَهُمْ مُنْشِدِينَ يَتَيْنِ مِنَ الشَّعْرِ دُونَ سَوَاحِمِهِ عَلَى نَفْسٍ عَرِيفَةٍ مَحَافِظِينَ بِذَلِكَ عَلَى انْسِجَامِهِمْ حَتَّى وَقْتُ اسْتِرَاحَتِهِمْ ،

(١) Aération — (٢) نسبة إلى إله البحر باخوس كما جاء في الأساطير — (٣) السير :

قَدَمُهُ مِنَ الْجِلْدِ مُسْتَعِيلَةً .



٤٦ — تنقية الفطن



يُظْهِرُونَ لَابِسِينَ مَعْلَفٍ بَيْضاً

وقد أريد توزيع أَقْنَعَةٍ مَجْمُوزَةٍ بِطَبَقِ رَطِيبٍ فَرَقَصُوا ذَلِكَ مُفَضِّلِينَ عَلَيْهِ الْفَنَاءَ .  
وم إذا ما وَتَبَوَّأُوا الْكُتْلَةَ الرَّغَبِيَّةَ مِنْ ذَلِكَ الْمُنْدُوقِ الْمُسَفَّحِ بِالْحَدِيدِ ، وَإِنْ شَنَّتْ  
قُلُوبُ فِي زَوْجَةٍ مِنْ ثُلُجٍ ، شَعَرُوا بِالسَّبَاخِ تَحْتَ أَخْمَصِ قَدَمِهِمُ الْقَاسِيَةِ ، وَيَدُوسُونَ  
السَّبَاخَ لِاهْتِثِينَ مُنْشِدِينَ ، وَيُفَوِّضُونَ رَاقِصِينَ فِي الرَّغَبِ الْحَوَامِ الدَّوَامِ الَّذِي يَنْفُذُ  
فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَيَسْعَلُونَ وَيَتَجَازَرُونَ <sup>(١)</sup> وَيَمَسُّحُونَ أَعْيُنَهُمْ مُنْشِدِينَ عَلَى السَّوَامِ ،  
وَمُتَبَدِّدِينَ ، بِالْمَصَابِيبِ الْكَهْنُوتِيَّةِ الَّتِي عَلَى جِبَاهِهِمْ ، كَقَرَّائِنَ نَازِلِينَ إِلَى الْقَبْرِ  
ضَمِّي بِهِمْ فِي سَبِيلِ إِلَهٍ خَفِيَ جَبَّارٍ مَجْهُولٍ لَدَى الْقَلَّاحِ مَالِكٍ لِمَا وَرَاءَ الْبَحَارِ ،  
وَالآنَ يَنْتَهَى التَّكْرِيمُ فَيَخْرُجُ الرِّجَالُ الثَّمَانِيَةُ مِنَ الْحَاطِيَةِ الْحَدِيدِيَّةِ وَيَتَبَوَّأُونَ عَلَى أَسْرَافِهَا  
وَيَدَاوِمُونَ عَلَى حَبْطِ نَعْلِهِمْ وَعَلَى الْفَنَاءِ ثُمَّ يَمُودُونَ إِلَى سَابِقِ سِيرَتِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ مِنْ  
أَنْصَافِ الْعَبِيدِ وَأَنْصَافِ الْكُهَّانِ ، وَيَنْزِلُونَ عَشْرَ مَرَّاتٍ فِي السَّاعَةِ وَمِثْلَ مَرَّةٍ فِي  
الْيَوْمِ إِلَى ذَلِكَ الْقَبْرِ الْمَحَاطِ بِرَبْدٍ أَيْضًا .

وَيَنْتَظِرُ لِلشَّارِطِينَ فِي قَاعَةٍ كَبِيرَةٍ مَجَاوِرَةٍ لِحَالِ الْكَبَسِ تِلْكَ لَابِسِينَ مَعْلَفٍ بَيْضاً  
حِفْظاً لِيَذْلَاقَهُمُ الْأَنْفِقَةُ ، وَيُدَقِّقُونَ فِي تَمَازُجِ الْقَطَنِ الْمَضْفُوفَةِ وَيَجْمُسُونَهَا  
وَيَمَطُّونَ خَيْطَانَهَا وَيَطْرَحُونَهَا ، وَمُتَعَفِّفُونَ جَمِيعَ أَنْوَاعِهَا لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرَةٍ ،  
وَلَكِنَّهُمْ يَجْهَلُونَ كَيْفَ بُدِرَ الْقَطَنِ وَغُنِيَ بِهِ وَجِيءَ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ ، أَوْ قَدْ  
نَسُوا ، أَنَّ كُلَّ رِزْمَةٍ تَنْطَوِي عَلَى عَمَلِ أُشْرَةٍ مُشْدُودٍ ، وَالآنَ عَادَ النَّبَاتُ لَا يَكُونُ  
مَوْجُوداً ، وَالآنَ تَبْدُو الْأَنْوَاعُ وَحْدَهَا لِلْأَعْيُنِ .

وَيُلَوِّحُ أَنَّ أَسْمَاءَ آلهَةٍ تَدْوِي مِنْ خِلَالِ الْقَاعَةِ كَأَسْمَاءِ أَبْطَالِ الْأَسَاطِيرِ الَّتِي تَعْمُومُ  
عَلَى مَجْرَى الزَّمَنِ فَتُذَكِّرُنَا بِأَعْمَالِهِمْ ، فَيَقَالُ : « سَاكِل ( سَكَلَارِيدِس ! )

(١) تَخَازَرُ : ضَيْقَ جَفَتِهِ لِيَعْدَدَ النَّظَرَ .

أصولي ! أثنوني ! كازولي ! بليون ! زاجوره ! .  
 ونَسَمِعَ أَحْكَامَ فِي وَسْطِ الضَّوْضَاءِ يُخَيَّلُ إِلَى الْإِنْسَانِ أَنَّهَا صَادِرَةٌ عَنْ قَضَاةِ جَهَنَّمَ  
 أَكْثَرَ مِنْ صُدُورِهَا عَنْ تِجَارٍ ، فَيَقَالُ : « لَوْنٌ جَمِيلٌ ، لَوْنٌ خُصْيَبٌ ، عِرْقٌ  
 حَسَنٌ ، عِرْقٌ قَوِيٌّ ، عِرْقٌ حَرِيرِيٌّ ! » .  
 وَهَذَا يُخْتَمُ الدَّوْرُ الْأَوَّلُ مِنْ تَارِيخِ الْمَلِكِ الْأَبْيَضِ ، وَهَذَا ، فِي الْبُرْصَةِ ، تُمْتَحَنُ  
 حَيَاةُ هَذَا النَّبَاتِ وَأَهْمِيَّةُ أَنْوَاعِهِ مِنْ ذَاكِرَةِ النَّاسِ .

وَيُنْصَرِّحُ تَحْتَ الْقُبَّةِ جَمْعًا مَوْثِقًا مِنْ مِثَّةِ شَخْصٍ أَوْ مِثْقَى شَخْصٍ صَارِيخٍ عَلَى مَكَانٍ  
 مُسْتَدِيرٍ تَحِيطُ بِهِ قِضَابٌ مِنْ حَدِيدٍ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى مِصْطَبَةٍ يَقِفُ عَلَيْهَا رَجُلَانِ صَامَتَانِ  
 يَلَاظَانِ سَيْلَ النَّاسِ مَعَ اعْتِدَالِ دَمِهِمْ وَاسْتَخْفَافِ ، وَالرَّجُلَانِ مِنَ السَّامِرَةِ  
 الْمُخَلَّطَيْنِ ، وَهِيَ إِشَاهِدَانِ هَذَا النَّظَرِ كُلِّ يَوْمٍ ، وَهِيَ يَسْتَمَانِ هَذِهِ الدَّافِصَةَ الْهَامِجَةَ  
 مِنْذُ عَشْرَاتِ السِّنِينَ فَيُلَوِّحُ أَنَّهَا صَارَا أَصْمَيْنِ بِسَبَبِهَا ، وَالْحَقُّ أَنَّهُمَا الْوَحِيدَانِ اللَّذَانِ  
 يُذَكِّرَانِ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهَا ، وَالْحَقُّ أَنَّهُمَا يَكْتُبَانِ بِالطَّبَاشِيرِ ، وَمَعَ اتِّزَانِهِ ، أَرْقَامًا  
 وَكُسُورَ أَرْقَامٍ عَلَى لَوْنٍ أَسْوَدَ كَبِيرٍ ، وَالْحَقُّ أَنَّ سُوقَ الْإِسْكَندَرِيَّةِ الَّتِي يُعْنَى  
 فِيهَا بِإِلْمَاتِ الْقَطْنِ مِنْ دُونَ أَمَانَةِ قَبْدٍ دَحَرَتْ لِصُورِ نَهَارِ اللَّهِ هَذَا .

وَيُمَسِّكُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنْ أَزْوَاجِ الثِّيَابِ وَيُجَادِبُونَ مِنَ الشَّعْرِ فِي بَعْضِ  
 الْأَحْيَانِ ، وَتَتَفَرَّدُ أَسَارِيرُ وَجُوهِهِمْ مِنْ تَصَاعُدِ الْأَرْقَامِ ، وَيَحَاوِلُونَ إِسْمَاكَ ذِرَاعِ  
 أَحَدِ الرَّجُلَيْنِ الْوَاقِفَيْنِ عَلَى الْمِصْطَبَةِ عَلَى حِينِ تَمُدُّرٍ عَنْ هَذَا حَرَكَةٍ يَدٍ نَحْوِ الْخَارِجِ  
 مَعْنَاهَا « لَكُمْ » ، أَوْ « اشْتَرَيْتُمْ » ، أَوْ يُعِيدُ يَدَهُ إِلَيْهِ فَيَعْنِي هَذَا « مِنْكُمْ » أَوْ  
 « بِنِسْمَتِكُمْ » ، وَمِنْ تَمَّ تَرَى فِي مَصْطَبِ النَّيْلِ تَمَثِّلُ مَسْكِينٍ لِدَوْرٍ بِمِيسٍ مِنَ السَّاعَةِ  
 الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ إِلَى السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ .



ولا تَحِدُ من هؤلاء الأشخاص مَنْ أبصر الزهرَ الأصفرَ لنبات القطن ولا المنخلَ  
المغطى بنسيجٍ أسودَ ، ولا الساحةَ المشتتةَ على أكدارِ القطن الأبيض ،  
ولا القَبَانِ على مِنصَبِهِ ، ولا الجِمالَ ذواتِ الأحمالِ الرادِمةَ ، ولا يُبَاكِي هؤلاء  
الأشخاصَ مَنْ يَفَرِّقونَ في كَبْسِ القطنِ ، ولا بالأَنواعِ التي لها من الأسماءِ ما تُدعى  
به الآلهةُ ، فهؤلاء من المقارمين الذين يَرْجُونَ وقتَ الإغلاقِ ارتفاعَ الأسعارِ  
إذا ما أرادوا البيعَ وهبوطها إذا ما أرادوا الشراءَ ، ولَمَّا تَنَبَّطَ البِضَاعَةُ التي يضاربونَ  
عليها ، ولَمَّا يُلقَى في الأرضِ بذُرُّها ، وهذه المصافقُ ، مع ذلك ، هي التي تُؤَكِّدُ  
في حياة طبقاتٍ بأشْرِها وشعوبٍ بأجمعها .

وتتوارى النباتات والقنوتات خَلْفَ مساوِفَ بعيدةٍ ، ولا ترى أسداً ولا كُوَيَّ  
لزراعة القطن ، وتُناكَرُ مصرُ بالكهرباءِ ، والعالمُ شَبَكَةُ أسلاكٍ بين لِيثِرِبُولَ  
وَبِيسِي تَنْقُلُ في كلِّ صباحٍ ، من خِلالِ البحارِ ، سَيَرَ الأسعارِ في البُرْصَةِ ، وعادَ  
النيلُ لا يكونَ غيرَ أسطورةٍ ، فلا عروقَ ، ولا أَمَ ، ولا طبقاتٍ ، ولا طُفُناتٍ ،  
ولا منسوجاتٍ ، ولا لغاتٍ .

### ٣١

تَمُرُّ جماعةٌ من النُحامِ <sup>(١)</sup> فوق قُبَّةِ البُرْصَةِ آتِيَةً من رشيدَ ، وتَنجَحِي طائرةً مع  
ازدِوَارٍ نحوَ الجنوبِ الغربيِّ ، وذلك لأنها تَحِدُ على شواطئِ بحيرة مَربوطَ وفي

(١) النحام : طائر طويل المنق والرجلين ، أعفف المقار أسود الجناحين وسائرهُ أحمَرُ وردى ،  
وهو أنواع كثيرة ، واحده « نَحامة » .

مناقع مصب النيل ألوفاً من إخوانها ، هي وردية كالشقق ، هي تُحْتَمِي عُنُقَهَا الرَّائِعَ تحت أجنحتها ، هي تَقِفُ على أرجلها السود ، هي تنظر من الشاطئ إلى الكراكي التي تعود من الحقول المحصودة إلى الماء وتَذْنُو مع انحناء رائع ، ويُصِر دَجَاجُ الماء الأسود ، عن غير رضا ، إلى القاق<sup>(١)</sup> ، إلى هذا الأفاق ، قِيلُوح أنه يُفَضِّلُ عليه خَطَاف البحر وزَمَار الرمل اللذين يَظْلَآنِ ضَمْنِ نظامهما الوثيق دَوَماً ، وتَقُومُ زَمَامِيحُ<sup>(٢)</sup> الماء البِيضُ فوقه بِطَيْرَانٍ عَجِيبٍ مع تحليق ، وتَجِدُ فوق الجميع عُقَابَ البحر راصداً ساكناً ، ثم يَنْقُصُ بفتة كدُبُوس ويرتفع ثانية إلى ما لا نهاية له مع سَمَكَةٍ مَهْتَزَّةٍ بين برائنه .

وترى تحت شجر الجُمُز بلاشين رمادية كبيرة وحيدة مُفْتَتَمَةً ، وترى على أغصان السُّنْط العارية تقريباً بلاشين بيضاء لطيفة واضعة رؤوسها تحت أجنحتها فتبدو كأنها أزهار كبيرة بيضاء ، وإن الأمر لكذلك إذ تَسْمَعُ أجمل صوتٍ من خلال الصمت وفوق حجارة ثمينة ، إذ تَسْمَعُ نفريد الخُصِيْرِي ، إذ ترى الخُصِيْرِي الجميل الجناح والطويل المنقار يطير فوق الماء رويداً رويداً .

وهناك الخطاطيف ذوات الانعكاس القولاذى ، وهي قد أتت من الشمال بعد أن جاوزت البحر فارة من البرد وبعد أن قَصَّتْ فصل الصيف على شواطئ إنكلترة على ما يحتمل ، وهي تحوم بين مكان ومكان هُلُوعاً ، وهي لن تَبْقَى هنا ، فالجنوب يجتذبها ، واليوم تحاول أن تقوم بالقسم الثاني من رحلتها الكبرى ، وتُفَرِّدُ على مهل ، وتذهب متبعة الطرف الأخضر من الوادي حتى يمود تكوين

(١) القاق : طائر مائي — (٢) زمج الماء : طائر مائي يسمى أيضاً النورس ، وهو أبيض في حجم الحمام ، ولا يأكل غير السمك .

## الخطاطيف

النهر ويَهْدِيهَا إِلَى الطَّرِيقِ بِمَرْصِيهِ الْهَيْبِ .

وتَخَافُ الْخَطَاطِيفُ مَمَرًا<sup>(١)</sup> الْبَادِيَةَ لِأَنَّهَا نَذِيرُ الْجُوعِ ، وَتَسِيرُ نَحْوَ مَجْرَى النِّيلِ  
الْقَوَائِيَّ فِطِيرٍ فَوْقَ الْمَاصِمَةِ وَجُسُورِهَا وَقُصُورِهَا وَقَلْعَتِهَا وَتُبَصِّرُ رُؤُوسَ الشُّكْرِ عَلَى  
حُدُودِ الصَّحْرَاءِ كَمَا تُبَصِّرُ أَبَا الْهَوْلِ رَابِعًا حَارِسًا أَمَامَ أَعْلَاهَا ، وَتَتَنَصَّبُ الْأَعْمَدَةُ  
وَالْتِمَائِيلُ وَالْمِيسَلَاتُ فِي الْوَادِي الْأَخْضَرِ ، وَتَمُرُّ سَفْنٌ مَعَ أَشْرَعَتِهَا الْبَيْضِ حَامِلَةً قُلَلًا  
صَفْرًا مُكَدَّسَةً ، وَتَمْنِي الْجَلَّالُ عَلَى الصَّفَافِ قَطْرًا قَطْرًا ، وَتَسِيرُ خَيْرٌ سُرًّا أَمَامَهَا  
هَذُودًا ، وَيَضْحَكُ الْأَوْلَادُ الْمَرَاةَ قَهْقَهَةً ، وَتَبْكِي السَّوَاقُ فِي جَمِيعِ الْوَادِي ،  
وَتَذِيرُ الدَّوَالِبَ أَلُوفُ الْأَزْوَاجِ مِنَ الثِّيَرَانِ ، وَيَرَاقِبُهَا الرِّجَالُ مُنْشِدِينَ ، وَتَهْتِكُ  
صَرَصَرَةَ الصَّرْصَرَةِ حِجَابَ الْمَاءِ وَتُخْفِيفُ خَطَاطِيفَ الشَّمَالِ .

وَالنِّيلُ يَهْدِرُ تَحْتَ تِلْكَ الْجَمَاعَاتِ الْفَارَّةِ إِلَى الْجَنُوبِ ، وَالشَّلَّالَاتُ الْأُولَى  
تُقَطِّقُ بِالزَّيْدِ ، قَدْ فُتِحَتْ جَمِيعُ الْكُؤَى وَاسْتَرَدَّتْ الطَّيْمَةُ حَقَهَا ، وَتَدَاوِمُ  
الْخَطَاطِيفُ عَلَى اتِّجَاهِهَا نَحْوَ الْجَنُوبِ مِنْ خِلَالِ السَّهْلِ الْخَالِي حَيْثُ تُظْفَرُ نَخْلٌ  
وَقُرْمٌ ، وَتَبْلُغُ الْخَطَاطِيفُ صُخُورًا سَوْدَا رَاشِحَةً كَمَا تَبْلُغُ أَلُوفُ جَزِيرَاتِ  
السَّلَالِ الثَّانِي ، وَهِيَ تَنْبَغُ مَسَاقِطَ الْمَاءِ الْمُتَعَابَةِ فِي التَّعْقَةِ الْكُبْرَى ، ثُمَّ تَنْبَغُ  
التَّعْقَةُ الصَّحْرَاوِيَّةَ الْمَصْرَاءَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي هِيَ عَلَى شَكْلِ S ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا تَجِدُ عَلَى  
طُولِ النِّيلِ قَطْعًا مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي طَيْرَانِهَا إِلَى مَدَى بَيْدٍ مِنَ الْجَنُوبِ ، وَتَجِدُ  
الْخَطَاطِيفُ الْمَهَاجِرَةَ فِي الْخُرْطُومِ ، حَيْثُ يَأْتِي أَكْثَرُ الْأَخْوَيْنِ نَهْرَةً وَرُجُولَةً  
بِأَمْوَاجِهِ الصَّاخَةِ مِنَ الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ ، جَنَّةُ الطُّيُورِ الثَّانِيَّةُ الَّتِي تَعْقُبُ جَنَّةَ الدَّلْنَا .  
وَيُظَلُّ مُعْظَمُ الْخَطَاطِيفِ هُنَا حَيْثُ يَنْبُتُ جَمِيعُ مَا حَلَّ بِهِ فِي الشَّمَالِ ، وَيَسْتَأْنِفُ

(١) الممر: العين الأحمر يصعب به .

### النهر يظهر نفسه بهدير

بعضُ الجِوَارِ منها طريقه يوماً بعد يوم إلى ما وراء الشَّهْبِ الأصفر ، وهناك  
تُبَصِّرُ على الصَّخْرِ الشَّوْخِ سَاكِنَةً تحت شمس الجنوب ، ويُبَصِّرُ خروجُ  
الأسدِ مساءً من الأَجْجَةِ متوجهاً إلى النهر ، وهناك تَبْدَأُ المناقِعُ وَيَنْفِضُ الماءُ  
وَتَكْثُرُ القَنَوَاتُ وَيَبْدُو منظرٌ منقطعُ النظرِ لتلك المهاجرة من الشمال ، يَبْدُو  
الْقَيْلُ مع أَثْناءِ وصْفَارِهِ ذاتِ صبايحٍ ذاهباً بَطَّالاً نحو النيل ، وتُذْعَرُ جماعةُ  
السَّيَّاحِ تلكَ فتطير إلى الجنوب .

وتلوحُ بمحيراتٍ كبيرة في هذه المرة ، وَيَبْرُزُ بلدغى رطيبٌ دائمُ الخضرة ،  
ويتحولُ السهلُ الرريضُ إلى جنة واسعة كما في الدلتا ، وَيُنْبِئُ السماءُ الماطرَ وَيَزْهَرُ  
ما لا حدَّ له من النباتِ فتجِدُ الخطاطيفُ مرغى أميناً دائماً وتَحْمُومُ ذاتِ صبايحٍ  
مُفَرَّدَةٍ فوق مساقطِ ماءٍ كبيرة ، وَيُظْهَرُ فَمٌ وُردى عظيمٌ مفتوحٌ ويَخْرُجُ ماءٌ  
صُعْدَانٌ من مَنَحَرٍ بقرِ ماءٍ مثائبٍ يَكْسَالُ مع رأسٍ مرفوعٍ فوق الماءِ ذى خَوَارِ  
وصَفَارٍ ، وَيَذِبُ القَرْعُ في الخطاطيفِ فتلجأُ إلى قَيْضَةٍ ، وهى تَسْمَعُ وترْقُبُ  
مرجفةً ، فسد أرجلها يولدُ النيل .  
والنهرُ يُظْهِرُ نفسه بهدير .



٤٧ - المؤلف في أبي سنبل



## فهرس الصور

زَوَيْعَةُ رَمْلِ فَوْقِ الْحَرَطُومِ	٣١٩	جَبَّارٌ فِي السُّهْبِ	٣١
سَقَرٌ مِنْ خِلَالِ السَّهْبِ	٣٢٩	مَسَاقِطُ رَيْثُونٍ ، مَنَبْعُ النَّيْلِ	٤٥
الشَّلَالُ الثَّانِي	٣٦٣	تَمْسَاحٌ فِي النَّيْلِ	٥٧
النَّيْلُ بِالْقَرَبِ مِنْ يِلَاقِ	٣٧٣	كَيُوعًا وَالنَّيْلُوفِر	٧٥
أَبُو سَنْبِلِ	٣٩١	جَبَلُ رُونَزُورِي	٨٥
مَجْرَى النَّيْلِ التَّحْتَانِي مِنْ أُسْوَانِ	٤٠١	غَابَةِ اسْتَوَاقِيَّةِ	١٠٣
خَزَانُ أُسْوَانِ	٤٣٥	وَادِي بَحْرِ الْجَبَلِ	١١٣
فَلَاحٌ عَلَى ضِيقَةِ النَّيْلِ	٤٤٥	الْبَرْذَى	١٤٧
خَزَانُ أُسْوَانِ	٤٦٣	ذَهَابٌ إِلَى الصَّيْدِ	١٥٧
كُومِ أَمْبُو	٤٧٣	حَسَنَاءُ	١٧٥
مُورُوسٌ فِي أَدْفُو	٥٠٧	مِنَ الشَّلْكَ	١٨٥
فَلَاحُونَ فِي عَهْدِ الْفَرَاعِنَةِ	٥١٧	بُقْعَةٌ ذَاتُ مَنَاقِعِ	٢١٩
قَرْيَةٌ عَلَى شَاطِئِ النَّيْلِ	٥٣٥	غِرْلَانٌ فِي السُّهْبِ	٢٢٩
صَخُورٌ عَالِيَةٌ عَلَى الصُّفَّةِ الشَّرْقِيَّةِ	٥٤٥	سُبَّاحٌ	٢٤٧
طَبِيبَةٌ وَالْأَقْصَرُ	٥٧٩	جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَنْيَالِ	٢٥٧
نَقُوشٌ بَارِزَةٌ	٥٨٩	التَّقَاءُ النَّيْلِينَ	٢٩١
أَحَدُ الْفَرَاعِنَةِ	٦٠٧	ظَبَاءٌ فِي الصَّحَرَاءِ	٣٠١

٦١٧	حفر قناة	٧٥١	نِسْوَةٌ يَمَلَأُ مَاءً مِنَ النِّيلِ
٦٥١	خَزَّانُ أُسَيُوطَ	٧٦١	بَيْنَ قَنْاتَيْنِ
٦٦١	هَرَمَ	٧٩٥	سُقْنُ شِرَاعِيَةٍ عَلَى النِّيلِ
٣٧٩	لِلنِّسَاءِ عَلَى ضِفَافِ النِّيلِ	٨٠٥	اِقْتِطَافُ الْقَطَنِ
٦٨٩	عَوْدَةُ قَطِيعِ	٨٢٣	تَنْقِيَةُ الْقَطَنِ
٧٢٣	زَوْجَانِ مَلَكِيَّانِ مِنَ الْبَطَالَةِ	٨٣١	الْمَوْلُفُ فِي أَبِي سَنَبِلَ
٧٣٣	بَابُ بَيْتٍ فِي الْقَاهِرَةِ	...	...



## الفهرس

صفحة

١١	مقدمة المترجم
١٣	مقدمة المؤلف
٢١	الجزء الأول : الحرية والمغامرة
١٥٥	الجزء الثاني : أَوْحَسُّ الْأَخْوَيْنِ
٢٣٧	الجزء الثالث : مكافحة الإنسان
٤٣٩	الجزء الرابع : النهر المقهور
٦٠٥	الجزء الخامس : القَمُّ الذهبيُّ
٨٣٣	فهرس الصور

رقم الإيداع : ٥٥٦٥ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولي : 7 - 6653 - 01 - 977

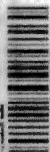




المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف  
ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهي إليه.. هكذا  
تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر في تقديم  
أزهار المعرفة للجميع. للطفل - للشباب - للأسرة كلها. تجربة  
مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا  
ويشهد لها العالم بالخصوصية وما زال الحلم يخطو  
ويكبر ويتعاضد وما زلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة  
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة  
تشهد بأن مصر كانت وما زالت وستظل وطن الفكر المتحرر  
والفن المبدع والحضارة المتجددة.

اسدوان مبلوك

El Hadhra Alexandria



0248813



مركز الوثائق والكتب  
الخطوط - للشباب - للأسرة  
مكتبة الأسرة

٥٠٠ ق. عرض

2004

مكتبة الأسرة

مكتبة الأسرة